مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثالث عشر

سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثالث عشر

سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ الثَّامِنُ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾

[الأعراف: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

المناسبةُ بين هبوطِ إبليسَ، وبين الإمهالِ الَّذي طلبَهُ وأجيبَ إليهِ

لـمَّا عَلِمَ إبليسُ اللَّعينُ أنَّ اللهَ قد غضبَ عليه، وأبعدَه عن ساحةِ الرِّضا، وأنَّه مِنَ الصَّاغرين، سألَ اللّهَ النَّظِرَةَ والإمهالَ إلى يوم البعثِ؛ ليتمكَّنَ من إغواءِ ما يَقدِرُ عليه مِن ذرِّيَّةِ آدمَ، فجاءتْ هذه الآيةُ. وأيضًا: لـمّا كانت حكمةُ اللّهِ في خَلْقِه مقتضيةً ابتلاءَ العبادِ واختبارَهم؛ ليستبينَ المطيعُ ربَّه والمطيعُ عدوَّه، حكمَ اللّهُ له بالإمهالِ والتَّأخيرِ، ليكونَ بتقديرِ اللّه وعلمِه، فجاءت هذهِ الآيةُ بعدَ الأمرِ بالخروجِ مِنَ الجنَّة، وطَرْدِه منها(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾: النَّظَرُ: تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ؛ لإدرَاكِ الشَّيءِ ورؤيَتِه، ويأتي بمعنى النَّظرِ بالعين أو بالقلب، وبمعنى التَّأمُّلِ والفَحْص، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: 101]، أي: تَأَمَّلوا، وبمعنى: الانْتِظار، يقال: نَظَرْتُهُ وانتظرتُهُ وأنظرْتُه، أي: أمهلتُه أو أَخَّرْتُهُ، ويُقَال: بِعْتُ فُلانًا شَيْئًا، فأَنْظَرْتُه، أَي: أَمْهلتُه زمنًا، والاسم منه: النَّظِرةُ، واستنظر فُلانٌ فُلانًا، مِنَ النَّظِرَة، وأنظِرْني في الآية بمعنى: أخِّرني(2).

2) ﴿يُبۡعَثُونَ﴾: أصلُ البعث: إثارةُ الشَّيء وتوجيهُه، بعد بُروكٍ أو قُعودٍ أو رُقود، ومنه: بَعَثْتُ البَعِير، فانبعث، والبَعْثُ في كلام

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/367، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 284.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نظر)، وابن الهائم، التّبيان، ص: 164.

العرب يستعملُ على وجهين؛ أَحدهمَا: الإرسال، كقول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]، مَعْنَاهُ: أرسلنَا، وفيه معنى إثارةِ بارِكٍ أَو قَاعدٍ، والثَّاني: الإحياء مِنَ اللّه للمَوْتى، ومنه قولُه جلَّ وعزَّ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 56]، أَي: أحييناكم، وفيه معنى الإثارة؛ لأنَّهم كانوا راقدين، والتَّوجيه إلى وجهةٍ معيَّنة؛ لأنَّه يخرجُهم ويسيِّرهم إلى القيامة[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال إبليس: أخِّرني، فلا تُمِتني إلى يوم يُبعثُ الخَلْقُ مِن قبورهم، وهو النَّفخَةُ الأخيرةُ عند قيامِ السَّاعةِ، أراد الخبيثُ ألَّا يَذُوقَ الموتَ، فقضى اللّهُ تعالى أن يكونَ مِنَ المؤخَّرين، ممَّن كَتَبَ عليهم تأخيرَ الأجلِ إلى النَّفخةِ الأولى في الصُّورِ، حين يموتُ الخَلْقُ كلُّهُم[2]، وخلاصةُ المعنى: (أخِّرني وأمْهِلني، فلا تمتني إلى يوم يُبعثون مِن قبورهم)، وهي النَّفخَةُ الأخِيرَةُ عند قِيَامِ السَّاعَةِ، فأنظرَهُ اللّهُ إلى الوقتِ المعلومِ في عِلْمِ اللّه تعالى[3].

إنـظـارُ إبـليـسَ إذلالٌ له وهوانٌ، واختبارٌ ممدود لـكـافَّـةِ بـني الإنسانِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في جملة ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

في قوله: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ ممَّا قبلَهُ، كأنَّه قيل: فماذا قالَ اللَّعين بعدما سمع هذا الطَّردَ المؤكَّد؟ فقيل: قال: ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾[4]، ففيه تشويقٌ للسَّامعين إلى معرفةِ قول إبليسَ، وتنبيهٌ لهم إلى أنَّه طلب إنظارَ العقوبةِ وتأخيرِها.

تـشـويـقُ السَّامعين إلى حصولِ إبليسَ على الإنـظـارِ في عقوبتِهِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ (بعث).
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/183.
(3) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 9/36.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

مناسبةُ تحديدِ الإنظارِ في قوله تعالى ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

طَلَبُ إبليسَ إمهالَه إلى يوم يُبعثُ الخَلْقُ؛ كي لا يَذوقَ الموتَ المعتادَ

لـمَّا كان يومُ البعثِ هو يومُ النَّفخةِ الثَّانيةِ الَّتي يقومُ فيها الخلقُ إلى ربِّ العالمين، أرادَ إبليسُ اللَّعينُ ألَّا يذوقَ الموتَ، فطلبَ أن يكونَ إمهالُه إلى يومِ يبعثُ الخَلْقُ، ومِن هنا حدَّدَ الإنظارَ بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ بعد بعثِ الخلائقِ.

مرجع الضَّميرِ المتَّصلِ في الفعل ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

إعلامُ إبليسَ بأنَّ آدمَ سيكونُ له ذريّةٌ سوف يُبعثون

يعودُ الضَّميرُ في: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ عَلَى بني آدم، بمَا دَلَّ عليه المعنى والسِّياق؛ إذ ليس في اللَّفْظِ ما يَعُودُ عليه[1]، وذلك لِلإيجازِ في الكلامِ، وللإشعارِ بأنَّ اللّه أَعْلَمَ إبليسَ بأنَّ آدمَ سيكونُ له ذريَّةٌ.

نكتةُ مجيءِ لفظِ البعثِ على صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

هولُ يومِ البعثِ عظيمٌ، ولا مفرَّ للآثمين مِن العذابِ الأليمِ

كانَ في الظَّاهرِ أن يقولَ إبليسُ: (إلى يومِ تبعثهم)، فهو في مقامِ مخاطبةِ اللّه ربِّ العالمين، فعُدِلَ إلى صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قوله: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾؛ لتوجيهِ النَّظرِ إلى حدث بَعْثِ الخَلْقِ يومَ القيامةِ، وليس إلى إسنادِ البعثِ إلى اللّهِ تعالى؛ للإشعارِ بعظمةِ يوم البعثِ وهولِه، كما أنَّ الفاعلَ معلومٌ، وإبليسُ مُقرٌّ به، فليس في ذِكرِه هنا فائدةٌ، ففيه إيجازٌ كذلك.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

حوارُ اللهِ تعالى مع إبليسَ يستحقّ الادّكارَ والاعتبارَ

جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ على طريق الاستئنافِ، المبنيِّ على سؤالٍ نشأَ ممَّا قبلَه، كأنَّه قيلَ: فبماذا أجابه اللّهُ على سؤالِه بالإنظارِ إلى يومِ البعث؟ فقيلَ: قال اللّه: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾؛ لتشويقِ السَّامعين إلى المقاولةِ بين اللّه تعالى وإبليسَ، وتنبيهِهم إلى الإصغاءِ إليها.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/19، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/36.

مناسبةُ الجوابِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

أنظرَ اللهُ إبليسَ إلى يومِ النَّفخةِ الأولى، لا إلى يـومِ يُبعثُ الخَلْق

جاء الجوابُ من غيرِ غايةٍ زمنيَّةٍ للإنظار؛ للإيذان بأنَّ اللّه لم يُجِبْه إلى ما سأل، وإنَّما كان مجيبًا له إلى ما سأل، لو كان قالَ له: (إنَّك مِنَ المنظرين إلى الوقتِ الَّذي سألتَ، أو إلى يوم البعث، أو إلى يوم يُبعثون)، أو ما أشبهَ ذلك، ممَّا يدلُّ على إجابتِه إلى ما سألَ مِنَ النَّظِرة، فلمَّا قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾؛ دلَّ على أنَّه إذا أنظره يومًا واحدًا، أو أقلَّ منه أو أكثرَ، فقد دخل في عِداد المنظَرين، وتمَّ فيه وَعْدُ اللّهِ الصَّادقُ، وقد بيَّنَ اللّهُ تعالى في آيةٍ أخرى مدَّةَ الإنظار في قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحِجر: 37، 38، ص: 80-81]، أي: إلى يومِ النَّفخة الأولى، فقضى على إبليس أنْ يموتَ، كما يموتُ الخلقُ(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

طلبُ إبليسَ الإنظارَ لتأخيرِ الموتِ، لا لتأخيرِ العقوبة

لمَّا كانت الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على الثُّبوتِ؛ دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ على أنَّه إخبارٌ بالإنظارِ المقدَّر للمُنظَرين أزلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به؛ إجابةً لدعائِه، فلا خُصوصيَّةَ له كما تقدَّم، ودلَّ الكلامُ أيضًا على أنَّ استنظارَه، كان طَلَبًا لتأخيرِ الموتِ؛ إذ به يتحقَّق كونُه مِن جُملتهم، لا لتأخيرِ العُقوبةِ، كما ذهب إليه بعضُ المفسِّرين، والمعنى: إنَّك مِن جُملةِ الَّذينَ أُخِّرتْ آجالُهم أزلًا، حسبما تقتضيهِ الحِكمةُ التكوينيَّةُ إلى يومِ الوقتِ المعلوم(2).

فائدة (إنَّ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

تـأخيرُ مـوتِ إبليسَ مؤكَّدٌ، وهو مِن تصريفِ الله في الآجال

تُفيد (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ وتقريرَها، بمعنى: تأكيدِ كونِ إبليسَ مِنَ الطَّائفةِ التي أخَّرَ اللّهُ تعالى موتَها، "وأنَّ استنظارَه كان طَلَبًا لتأخيرِ الموتِ؛ إذْ به

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/331.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

يتحقَّق كونُه مِن جملتِهم، لا لتأخيرِ العُقوبةِ كما قيل، أي: إنَّك مِن جُملةِ الذينَ أُخِّرتْ آجالُهم أزلًا، حسبما تقتضيه الحِكمةُ التَّكوينيَّةُ، إلى وقت فناءِ غيرِ ما استثناه اللّهُ تعالى مِنَ الخلائق، وهو النَّفخةُ الأولى، إلى وقتِ البعثِ الَّذي هو المسؤولُ"[1].

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

إنظارُ إبليسَ ليسَ خصوصيَّةً لهُ، بل هو مِنَ الَّذينَ تأخَّرت أعمارُهم

عُبِّر بصيغة الإدخالِ في جمعِ المنظَرين؛ ليكون إبليسُ مِن بعضِهم، فيكونَ مشمولًا بما سألهُ الآخَرون؛ لِيُشعرَ بأنَّ السَّائلَ تبَعٌ لهم، ولئلَّا يتوهَّم إبليسُ أنَّ إنظارَه خُصوصيّةٌ له، بل حالُه حالُ الطَّائفةِ الَّتي تأخَّرت أعمارُها كثيرًا، حتَّى جاءتْ آجالُها على اختلافِ أوقاتِها، فقد عمَّ تلكَ الفرقةَ إنظارٌ، وإنْ لم يكونوا أحياءً مدَّةَ الدَّهرِ[2].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي:

لـمَّا زادَ قُربُ الخطابِ مِن ذكرِه؛ حَسُنَ حذفُ حرفِ النِّداء

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ في هَذه السُّورَة، وفي (ص): ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾، وفي الحِجْر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾، بِزِيَادَة ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ في السُّورتين؛ لأنَّ خطابه قَرُبَ مِن ذكرهِ في هذه السُّورة، وهو قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾، فَحَسُنَ حذفُ حرفِ النِّداءِ والمنادَى، ولم يقرُب في (ص) قُرْبَه منه في هذه السُّورة؛ لأنَّ في (ص): ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 74]، بِزِيَادَة: ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾، فزاد حرفُ النِّداء والمنادَى، فقال: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾، وَكَذَلِكَ في (الحِجْر)، فَإِنَّ فيهَا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحِجْر: 31] بِزِيَادَة ﴿أَبَىٰٓ﴾، فزاد حرفَ النِّداء والمنادَى، فَقَالَ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾، وكذلك في سورة (الحِجْر)، فإنَّ فيها قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحِجْر: 31].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/380، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

النِّداءُ بالاسمِ في قوله: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ أَمارةُ الفعلِ الشَّنيع:

لـمَّا قال الله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿أَبَىٰٓ﴾، وفي (ص): ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾، فقدَّمَ استكبارَه في سورتي (الحِجْر) و(ص)، على سؤالهِ عن سبب امتناعِه مِنَ السُّجود؛ ناداه باسمهِ ليَدُلَّ على قُبحِ فِعْلِه الشَّنيع بطريق النِّداء، وليُشْعِر نداؤهُ باسمِه بطردهِ ومغايرتهِ للملائكة(1).

إبليسُ تمرَّدَ على أوامـرِ الخالقِ، فـلُـعِـنَ على رؤوسِ الخلائقِ

مقامُ الاستنظارِ يقتضي إظهارَ الضَّراعة بلفظِ الرّبوبيّة:

قال تعالى في سورة (الأعراف): ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، وقال في سورة الحِجْر: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧﴾ [الحجر: 36 - 37]، وفي سورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩﴾ [ص: 79]، فصَدَّر الكلامَ في سورةِ الحِجْر وسورة ص بقوله: ﴿رَبِّ﴾، واقترنتِ الفاءُ بالفعل في الموضعين، وبيانُه: أنَّه ابتدأ القصَّة في سورة الأعراف بقوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11] من غير أن يَذكرَ وصفَ الرُّبوبيَّة، وفي سورة الحِجْر قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحِجْر: 28]، وفي سورة ص قال: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71]، فجاء كلٌّ بما يناسب الابتداء به، فلم يَذْكُر تضرُّعَ إبليسَ في سورة الأعراف، وذَكَره في سورتي (الحِجْر) و(ص)، كما أنَّه لـمَّا كانَ مقامُ الاستنظار يقتضي إظهارَ الضَّراعة، وترتيبَ الاستنظار على الحِرمان المدلولِ عليه بالطَّرد والرَّجم، وكان مقامُ الإنظارِ يقتضي ترتيبَ الإخبارِ بالإنظار على الاستنظار؛ صُدِّر الكلامُ بالضَّراعة إلى ربِّ العالمين، وجِيءَ بالفاء، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ

تـخـتـلـفُ السِّـيـاقـاتُ في الحذفِ والذِّكر بـاخـتـلافِ مـقـتـضـيـاتِ الدِّلالة

---

(1) تاج القراء الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 116، والغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 178، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 187.

يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾

[الحِجْر: 36 - 38].

يناسبُ مجرَّدُ الإخبارِ الايجازَ، وهو مَلْمَحٌ في البلاغةِ رفيعٌ:

دلالـةُ الإيـجـازِ والإطـنـابِ في تـحديدِ المعنى وبلاغتِه

لـمَّا كان مقامُ الحكايةِ مجرَّدَ إخبارٍ بالاستنظارِ والإنظار في سورة الأعراف، سيقت الحكايةُ على نهج الإيجاز والاختصارِ، مِن غيرِ تعرُّضٍ لبيانِ كيفيَّةِ كلِّ واحدٍ منهما عند المخاطبة والحِوار؛ ليُوفَّى كلٌّ واحد مِن مقامَي الحكايةِ والمحكِيِّ جميعًا حظَّه، فإذا اقتضى مقامُ الحكاية التَّفصيلَ، كما في سورتي (الحِجْر) و(ص)؛ فصَّل الكلام، وإذا اقتضى المقامُ الإيجاز، كما في سورة الأعراف؛ رُوعِي جانبُه. وممَّا يُؤيِّد مقامي الإيجازِ والتَّفصيل في المواضع الثلاثة: أنَّ مجموع الكَلِم الواقعة مِن لَدُن قولهِ في سورةِ الأعراف: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ وهو ابتداءُ القصَّة، إلى قوله: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ بضعٌ وأربعون كلمةً، والواردُ في (الحِجْر) مِن لَدُن قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر: 26 - 36] بضعٌ وسبعون كلمةً، وفي سورة (ص) مِن لَدُنِ قوله: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾ [ص: 71] إلى الآية بضعٌ وستون كلمةً، فقد وضح ما قُصِد في الأعرافِ مِن إيجازِ الأخبار في القصَّة، وما في السُّورتين بَعدُ مِنَ الإطناب[1].

الفاءُ قرينةُ التَّسبيب عمَّا قبلَها في جملة ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

حـذفُ الـحـرفِ وذِكْـرهُ يلائمُ المعنى، ويَخدمُ البيانَ

في بيانِ سببِ مجيءِ الفاءِ في سورتي (الحِجْر) و(ص) دونَ سورة الأعراف يقال: إنَّه لـمَّا كانت آيةُ الأعراف استئنافَ سؤالٍ غيرِ مُسبَّبٍ عمَّا قبلَه؛ لم تقع الفاء في حيِّزه، وناسبه أن يقول في الجواب: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، والَّذي في سورة الحِجْر: لـمَّا كان الكلامُ استئنافًا

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 179، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/218.

مُسبَّبًا عمَّا قبلَه؛ ناسبَ مجيءُ الفاءِ الَّتي تُفيد التَّفريعَ كذلك، والمعنى: ما دُمتَ قد طردتني ولعنتني؛ فأخِّرني إلى يوم الدِّين، ولـمَّا جاء بفاء السَّببية هنا؛ ناسب: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإنظار) و(الإمهال):

لـمَّا كان الإنظارُ مِنَ النَّظَر، كان مقرونًا بمقدارِ ما يقعُ فيه النَّظر، فيكونُ له وقتٌ معلومٌ محدودٌ، والإمهالُ: فيه معنى التَّأجيلِ الـمُبْهَمِ الَّذي لا يُقدَّرُ له وقتٌ معيَّن، مع رفقٍ في التَّأجيل، وتُؤَدَةٍ فيه، فناسبَ ذِكرُ الإنظارِ هنا دونَ الإمهالِ؛ لِمناسبته شِدَّةَ عقوبةِ إبليسَ، وتوقيتَ إنظارِه إلى وقتٍ معيَّنٍ محدودٍ. أو أنَّ الإنظار: تأخيرُ العبد ليُنظَر في أمره، والإمهال: تأخيرهُ ليَسْهُلَ ما يتكلَّفُه مِن عِلْمِه[2].

النَّظرُ محدَّدٌ معلومٌ، والإمهالُ تأجيلٌ مخفيٌّ برفقٍ

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في متشابه المثاني، ص: 175.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مهل).

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف: 16 - 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

المناسبةُ بين إنظارِ إبليسَ، والتزامِهِ بالإغواءِ والإغراءِ للبشرِ

لـمَّا كانَ قد حُكِمَ على إبليسَ بالشَّقاءِ، قابلَ اللَّعينُ نعمةَ الإمهالِ وإطالةَ العُمُرِ بالتَّمادي في الكفرِ، فقال: بما أغويتني لأقْطَعنَّهمْ عنكَ؛ بمنعِهم مِن فعلِ ما أمرتَهم به، وحملِهم على فعلِ ما نهيتَهم عنه، ولـمَّا أرادَ أن يُبيِّنَ أنَّه أقامَ نفسَه في هذا الأمرِ، في غايةِ الجدِّ وتمامِ الاجتهادِ، أشارَ إليه بحرفِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم﴾ الآيةَ[1]. وأيضًا: لـمَّا أنظرَ اللّهُ تعالى إبليسَ، قابلَ هذه النِّعمةَ بما هو من جِبلَّتِه، بالتَّمادي في الكفرِ؛ لإضلالِ البَشَرِ من كلِّ وجهٍ ممكنٍ، فأفادتِ الآيةُ الأولى تَرَصُّدَه للبشرِ بالإغواءِ، وأفادتِ الآيةُ الثَّانيةُ المعطوفةُ بـ﴿ثُمَّ﴾، تَهجُّمَه عليهم بشتَّى الوسائلِ، ومِن جميعِ الجهاتِ الَّتي يأتي منها العدوُّ غالبًا[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: يدور معنى غَوِيَ على خلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ والجهلِ به، والانهماكِ في الباطلِ، وهو مشتقٌّ مِنَ الغيايَةِ، وهي الغَبَرَةُ والظُّلمةُ، تغشيانِ الشَّيءَ، كأنَّ ذا الغَيِّ قد غَشِيَه ما لا يَرى معه سبيلَ حقٍّ، فهو في ظُلمةِ الباطلِ، لا يَرى طريقًا إلى الرُّشدِ، كما يدلُّ على فسادٍ في شيءٍ، يقالُ: غَوِيَ الفصيلُ؛ إذا أكثَرَ من شُربِ اللَّبنِ؛ ففسدَ جوفُه، ولهذا يُطلق على ما يكونُ من اعتقادِ شيءٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/367 - 368.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/49.

فاسدٍ، والغِوايةُ: الانهماكُ في الغَيِّ، و﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ في الآية بمعنى: أضللتني[1]، ومِن معنى أغواه اللّه: عاقبه وأهلكه، ومنه قوله تعالى: "﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ﴾ [هود: 34][2].

2) ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾: القُعُودُ يُقابَلُ به القيامُ، وامرأةٌ قاعدٌ؛ إذا قعدَتْ عنِ المَحيض، فَإذا أردتَ القُعود؛ قلتَ: قَاعِدَة، وَيُقَال: رجلٌ قاعدٌ عنِ الغَزْو؛ إذا لم يَغزُ، وقعيدة الرَّجُل: امْرَأَتُه؛ لملازمة جلوسِها معه، فالقُعُودُ: فيه مُلازمةٌ ومطاولةٌ في الوقتِ، ومنه: قواعدُ البيت أساسُه، ومنه كذلكَ: التَّعبيرُ عنِ التَّرصُّد للشَّيء بالقُعُودِ له، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ٢٢٤﴾ [الشّعراء: 224]، قال الزَّجَّاج: والمعنى: أنَّ الشَّاعر إذا هجا بما لا يجوز؛ هويَ ذلك قومٌ، وأحبُّوه، فهمُ الغاوون[3].

3) ﴿صِرَٰطَكَ﴾: الصِّراطُ: هو الطَّريقُ المستقيمُ الواضح، الَّذي يمرُّ سالكه فيه مرورًا سهلًا سريعًا، بلا عقبات تُرَيِّثه، وهو كالطَّريق والسَّبيل في التَّذكير والتَّأنيث، وَتَذْكِيرُهُ أَكْثَرُ، ومِنَ المجاز: سيفٌ سراط؛ هو السَّيف القاطع الماضي في الضَّريبة، لا يعوقه شيءٌ، وقد رُسِمت كلمةُ صراطٍ في المصحف بالصَّاد؛ لمناسبةِ صوت الطَّاءِ بعدها، وأصلُها اللُّغويُّ بالسِّين (سراط)[4]، وقوله: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، بمعنى: دينِ اللهِ الحقِّ، أي: المِلَّةِ الحنيفيَّةِ السَّمْحة، المتوسِّطةِ بينَ الإفراطِ والتَّفريط[5].

4) ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: هذا التَّركيبُ يأتي بمعنى: الأمام أو القُدَّام، يقالُ: بين يَدَيَّ، لكلِّ شيءٍ أمامَك، وحقيقةُ قولِهم: جلستُ بينَ يَدَي فُلانٍ، أنْ يجلس بينَ الجهتينِ المُسامِتتينِ ليَمينِه وشمالِه قريبًا منه، فسُمِّيتِ الجهتانِ يَدَينِ؛ لكونِهما على سَمتِ اليَدَينِ، معَ القُربِ منهما توسُّعًا، كما يُسَمَّى الشَّيءُ باسم غيرِه، إذا جاورَه ودَاناه في غير موضعٍ، فيُستَعملُ بين يَدَيه على سبيلِ الاستعارةِ، بأن يكونَ أمامَه قريبًا منه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غوي)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 108.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 2/1652.
(3) ابن سيده المرسّي، المحكم والمحيط الأعظم: (غوى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (سرط).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/334.

وقد لا يكونُ للمُتقدَّمِ عليه يَدَانِ، ويقالُ: مَشى بَين يَدَيْهِ، أي: قُدَّامَه[1]..

5) ﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: الأَيمانُ: جمع يمين، واليمينُ هنا: جِهةُ جانبِ جسم الإنسان، وتكون مُقابلَ الشِّمال، وتُطلقُ اليمينُ على الجارحةِ كذلك[2]، "واليمين: لليد والرِّجل مِنَ الإنسان مؤنَّثة، ويقال في جمعها: أيمان، والشِّمال مؤنَّثة، ويقال في جمعها: شمائل، قال اللّه تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 48]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [الأعراف: 17]، ويقال أيضًا في الجمع: أَيْمُن وأَشْمُل"[3].

6) ﴿شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾: جمعُ شِمال، واليَدُ الشِّمَال، والجانبُ الشِّمَال بكسرِ الشِّين، خِلَافُ اليَمِين، وهي الجهةُ الَّتي تكون شِمالًا من جسم الإنسانِ، أي: مُقابِلَ اليَمين، وَالتَفَتَ يمينًا وشِمالًا، أَي: جِهَةَ اليمينِ وجِهَةَ الشِّمال[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إبليسُ يُقسمُ على إضلالِ بني آدمَ، وصدِّهم عن الهُدى

قال إبليسُ اللَّعينُ: فبسببِ إضلالِك لي، أُقسمُ بكَ لألزمنَّ الجلوسَ لذريَّة آدمَ على طريقِ الإسلامِ الحقِّ القويمِ الَّذي فطرتَهم عليه، ثمَّ لآتينَّهم من جميعِ الجهاتِ والجوانبِ، فأصدَّهم عن عبادتِك وطاعتِك، وأزيِّنَ لهمُ الباطلَ؛ لئلَّا يوحِّدوك ويعبدوك، ولا تجدُ أكثرَ بني آدمَ شاكرينَ لك نِعمَك عليهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ على التَّرتيب والتَّسبُّبِ في قوله ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

تُفيدُ الفاءُ التَّرتيبَ، وأن يكونَ ما بعدَها مُسَبَّبًا على ما قبلَها،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/350، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/180، ومجمع اللّغة العربيّة، القاهرة، المعجم الوسيط: (يدي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، الفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شمل).
(3) ابن سيده المرسّي، المخصص: 5/128.
(4) الفيّومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شمل).

والمعنى: كلُّ ما تَقدَّم ممَّا حَكَم اللّهُ تعالى به على إبليسَ اللَّعين، هو سببٌ لِمَا بعدَ الفاء، وما بعدها مُرتَّبٌ على ما قبلَها، أي: لأنَّكَ أهبطتني مِنَ الجنَّة، وأخرجتني منها، وجعلتني مِنَ الصَّاغرين، وأنظرتني إلى يومِ الوقت المعلومِ؛ لأجتهدَنَّ في إغواء النَّاس، وأصدَّهُم عن صراطكَ المستقيم. ويُحتمَلُ أن تكون الفاءُ مُرتِّبةً الإغواءَ على الإنظار، أي: بعدَ أن أمهلتني، لأجتهدَنَّ في إغوائهم. وذهب ابن عاشور - رحمه اللّه - إلى أنَّ الفاء للتَّرتيب والتَّسبُّبِ على أمرين؛ هما: قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ إذْ دلَّ مضمونُ ذَيْنِكَ الكلامين على أنَّ اللّه خلق في نفس إبليسَ مَقْدرةً على إغواءِ النَّاس بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وأنَّه جعله باقيًا متصرِّفًا بِقواهُ الشِّرِّيرةِ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ[1].

إبليسُ يقابلُ إغواءَهُ بالتَّرصُّدِ لإغواءِ البشرِ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ

دلالةُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾:

يُحتمَل أن تكونَ الباء للقَسَم، أي: بقدرتك عليَّ، ونَفاذِ سلطانِكَ فيَّ، لأقعُدَنَّ لهم على الطَّريق المُستَقيم الَّذي يسلكونه إلى الجَنَّةِ؛ بأنْ أزيِّنَ لهم الباطِلَ وما يُكسِبُهُمُ المآثِمَ، ويدلُّ على أنَّها باء القَسَم قولُه تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: 82]، كما تقول: فبِاللّهِ لأفعلنَّ. ويُحتمَل أن تكون سببيَّةً، وهو ظاهر اختيار الزَّمَخْشَرِيِّ وغيرِه، والمعنى: فَبِسبب وُقُوعِي في الغَيِّ، أُقسِم لأجْتَهِدَنَّ في إغوائهم؛ حتَّى يَفْسُدُوا بسببي، كما فَسَدْتُ بسببهم. كما يُحتمَل أن تكون للمُجازاة، وفيها معنى السَّببيَّة، والمعنى: فبإغوائِك لي لأقعدنَّ لهم، كما يقول أحدهم: فبإكرامك يا زيدُ لأكرمنَّك[2].

اجتهادُ إبليسَ في إشاعةِ الإغواءِ مسلكٌ للانتقامِ والإضلالِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، والقونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/46.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/333، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/380، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/91، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/37.

دلالةُ (ما) على المصدريّةِ في جملة ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

اتّصافُ إبليسَ بحقيقةِ الإغواءِ وتمرُّسه فيه

تُفيد (ما) هنا المصدريَّة[1]، بمعنى: حصولِ حقيقةِ الإغواءِ لإبليس، من غيرِ نظرٍ إلى وصفِ هذا الإغواء، بأيِّ وصفٍ كان، ومِن غيرِ تقييدٍ بوقتٍ، والمعنى: أنَّ الإغواء إذا أُطلِق يُوصَف به ما حصلَ لإبليسَ اللَّعين، فيكونُ الوصفُ بمعنى المُطْلَق، أي: اتِّصافُه بكمال الإغواءِ.

دلالةُ صيغةِ ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ في جملة ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾:

نسبةُ إبليسَ إلى الإغواءِ؛ لاعتراضِه على اللهِ؛ وتكبُّرِه على أمرِه وهداهُ

صيغةُ (أفعل) للنِّسبةِ، فمعنى: ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ نَسَبْتَني إلى الإغواء، أي: بسببِ اعتراضِه على الله تعالى وتكبُّرِه؛ ولأنَّه مِنَ الصَّاغرين. أو تكونُ الصِّيغة حملًا على الغيِّ، أي: لـمَّا أمر اللهُ تعالى بالسُّجود لآدمَ، عند ذلك ظهر غَيُّ إبليسَ وكُفْرُه، فجاز أن يُضيفَ ذلك الغيَّ إلى الله تعالى، باعتبارِ أنَّ غيَّه ظهر لـمَّا اعترض على أمرِ الله، وتكبَّر على آدم، فلم يسجد. ويُحتمَل أن تكونَ الصِّيغةُ على أصلِها، والمعنى: أغواه اللهُ تعالى، بما قضى مِن حِكْمتِه وتقديرِه[2].

لفظ القُعُود بينَ الكنايةِ والاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

مواظبةُ إبليسَ على الإفسادِ بالوسوسةِ، لا يَفْتُر عنها ولا يتوانى

عبَّر بلفظ: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾ كنايةً عن مُلازمته للإفسادِ، ومواظبتهِ عليه مواظبةً لا يَفْتُر عنها، ووجه الكنايةِ: هو أنَّ مُلازمةَ المكانِ تستلزمُ الإعياءَ مِنَ الوقوف عنده، فيَقْعُد المُلازِمُ طلبًا للرَّاحةِ، وأيضًا مَن أراد أنْ يبالغَ في تكميلِ أمرٍ مِنَ الأمور؛ قعدَ حتَّى يصير فارغَ البالِ، فيمكنهُ إتمامُ المقصود، أو يكونُ الكلامُ على طريق الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ؛ إذْ عُبِّر بالقعود مجازًا عن ترصُّده لآدمَ وذُرِّيَّته، مع مواظبتِه عليه، إذْ مَثَّل إغواءَهم عن دينِ الحقِّ، بكلِّ ما يمكن مِنَ الحِيَلِ، بمَنْ يريدُ أنْ يقطعَ الطَّريقَ على السَّابلةِ، فيَكْمَنَ لهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/20، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/348.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/348.

مِن حيث لا يَدْرون، ويترصَّدُ بهم من حيثُ لا يشعرون، كما يَقعُد القُطَّاعُ للقَطْعِ على السَّابلةِ في الطَّريق، والمعنى: صَدُّ المؤمنين عنِ الصِّراط المستقيم، وقَطْعُه عليهم، بما يُزيِّنه مِنَ الباطلِ، فيسلكوا سبُلًا أُخرى، حتَّى يَهْلِكوا كما هَلَكَ، أو يَضِلُّوا كما ضَلَّ، أو يَخِيبوا كما خَابَ[1].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ المؤكّدِ في قولِه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾:

استمرارُ قعودِ إبليسَ تجدُّدٌ للإفسادِ للعبادِ دون انقطاعٍ

أفادتْ صيغةُ المضارعِ استمرارَ قعودِ إبليسَ على الصِّراطِ المستقيم لإفسادِ النَّاسِ، وتجدُّدَه حالًا فحالًا، مِن غير انقطاعٍ ولا فُتورٍ، ومعنى ذلك: "لأَلْزَمنَّ الصِّراط، ولأَسعَينَّ غايةَ جَهْدي، على صدِّ النَّاس عنه، وعدمِ سلوكِهم إيَّاه"[2].

دلالةُ تتابعِ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾:

تأكيدُ إبليسَ قُعُودَه على الصِّراط بعقدِ العزمِ على إغواءِ البشرِ باطِّرادٍ

جاء الفعلُ المضارعُ في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾، مُقترنًا بتأكيدين: بلامِ القَسَمِ وبنونِ التَّأكيدِ الثَّقيلة؛ لِتأكيد قعودِه، وتقريرِ استمرارِه مِن غير انقطاعٍ، لقصد تأكيدِ حصول ذلك، وتحقيقِ العزم عليه[3].

علَّةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿لَهُمْ﴾ من قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾:

استغنى السِّياقُ عن ذِكْرِ لفظِ (النَّاس) للعِلْمِ بهم

عاد ضميرُ الجمعِ (هم) إلى غيرِ مذكورٍ؛ لأنَّه معلومٌ عند المخاطَبين مِنَ السِّياق ومَقام المقاولة، والمعنى: لَأَقعُدَنَّ لآدمَ وذرِيَّته صراطَكَ المستقيم[4]، وهو بذلك: "يتحدَّى اللّه، ويثأرُ لنفسه - في شخصِ هذا الإنسان الَّذي أرادهُ اللّهُ ليكون خليفةً في أرضهِ - فيُفسدُ عليه أمرَه، ويُشوِّه وجهَ خلافته"[5].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/212، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/188، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/47.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 284.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/46.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/47.

(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/378.

بيانُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قوله ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾:

قعودُ إبليسَ على الصِّراطِ إغواءٌ للنَّاسِ، وصدٌّ عن نهجِ ربِّ النَّاس

أفادَ تقديمُ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ اهتمامَ إبليسَ بآدمَ وذرِّيَّتِه، وأنَّ قعودَه وترصُّده إنَّما هو لأجل إغوائهم، كما أشعرَ التَّقديمُ بالتَّعليل، أي: إنَّ قعودَه على الصِّراط المستقيم لأجلِ إغوائهم وصدِّهم عنه.

دلالةُ اللَّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾:

غايةُ القُعودِ الإغواءُ بإفسادِ بني آدمَ وحوَّاءَ

اللَّام هنا بمعنى: لأجل، والمعنى: لأجل إغوائهم[1]، فغايةُ القُعودِ ودَاعِيه: الإزاغةُ والإغواء عنِ السَّبيلِ القويم والطَّريق المستقيم، والمعنى: "فبسببِ إغوائِك إيَّايَ مِن أجلِ آدمَ وذُريَّته، أُقْسِم لَأَقعدَنَّ لهم على صراطك المستقيم، أو فيه، أو لَأَلْزَمَنَّه، فأَصُدَّهم عنه، وأَقْطَعَهُ عليهم؛ بأن أُزَيِّنَ لهم سُلوكَ طُرقٍ أُخرى، أُشَرِّعُها لهم، من جميعِ جوانبِهِ لِيَضِلُّوا عنه"[2].

نكتةُ تعدِّي ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾ إلى المفعولِ ﴿صِرَٰطَكَ﴾:

تنوُّعُ التَّوجيهِ وتعدُّدُ المعنى وسعتُهُ مِن بلاغةِ السِّياقِ

يُحتمَلُ أن يكونَ صراطُك منصوبًا بنزع الخافض، بتقدير: (على صراطِكَ)، وحَذْفُ كلمةِ (على) جائزٌ؛ لأنَّ الصِّراط ظرفٌ في المعنى، ويكونُ المعنى على إرادةِ إبليسَ اللَّعينِ استيعابَ قعودِه على صراطِ اللّهِ القويم؛ ليكونَ مُتمكِّنًا مِن الإغواءِ والتَّزيين، والصَّدِّ عنِ الصِّراط، وقَطْعِ الطَّريق على المؤمنين. ويُحتمَل أن يكونَ بتضمين الفعلِ ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾ فعلًا متعدِّيًا بنفسه إلى ﴿صِرَٰطَكَ﴾؛ ليكونَ ﴿صِرَٰطَكَ﴾ مفعولًا به، والتَّقديرُ: (لَأَلْزَمَنَّ بقُعُودِي صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ)؛ لِمَا في القعود مِن معنى الملازمةِ والمطاولةِ في الوقت، ومِن معنى التَّرصُّد، كما يُحتمَل أن يكونَ منصوبًا على الظَّرفيةِ المكانيَّةِ اتِّساعًا، بتشبيهِ الظَّرفِ المُخْتصِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/47.

(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/300.

بالمُبْهَم، بتقدير: (لأقعدنَّ في صراطك)[1]، فتنوَّعَ التَّوجيهُ، وتَكَثَّرتِ المعاني.

دلالةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَكَ﴾ مِنَ الآيةِ الكريمة:

لا طريقَ يُوصلُ إلى الله تعالى ورضوانِه سِوى صراطِهِ المستقيمِ

إضافةُ الصِّراطِ إلى اسمِ الجلالة على تقديرِ اللَّام، بمعنى: الصِّراطِ الَّذي هو لك، أي: الَّذي جعلتُه طريقًا لك، فأفادتِ الإضافةُ مَزيدَ إيضاح بتخصيصِ الصِّراطِ، بإضافته إلى الله تعالى، فلا طريقَ مُوصِلًا إلى الله تعالى ورضوانه، سوى صراطِه المستقيم[2].

نكتةُ مجيءِ الصِّفةِ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾:

الـصِّـراطُ المستقيمُ أقصرُ وأضمَنُ طريقٍ مُوصِلٍ إلى الله تعالى

لـمَّا كان الصِّراطُ هو الطَّريق المستقيمُ، أفادت الصِّفةُ في قولهِ تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ تأكيدَ معنى استقامةِ الصِّراط وتقريره؛ للإشعارِ بأنَّه أقصرُ طريقٍ مُوصِلٍ إلى الله تعالى، "أي: في جميعِ صراطِك، بما دلَّ عليه نزعُ الخافضِ و﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وهو الإسلام بجميعِ شُعَبِهِ"[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾:

صـراطُ الله المستقيمُ طريقٌ لا انحرافَ فيه ولا تَعثُّر

في قوله: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، فقد شَبَّه الدِّينَ الحقَّ الَّذي لا تخالطُه شُبهةُ باطلٍ بالطَّريقِ المستقيم، الَّذي ليسَ بِهِ أدقُّ انحرافٍ قد يخرجُه عن حدودِ الاستقامةِ، فهو كالطَّريق الذي لا تتخلَّلُهُ عَثَراتٌ[4].

دلالةُ حرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم﴾:

إفـادةُ (ثـمَّ) التَّدرُّجَ الرُّتَبيَّ في الأخبارِ، بالانتقالِ إلى الخبرِ الأهمِّ

أفادت ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّرتيبَ الرُّتَبيَّ، بمعنى التَّدرُّج في الأخبارِ إلى خبرٍ أهمَّ وأكثرَ خَطرًا؛ لأنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ أوقعُ في غرضِ

---

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/324، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/212، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/21.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/47.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/368.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/190 - 191.

الكلام، مِن مضمونِ الجملةِ المعطوفِ عليها؛ فإنَّ الجملةَ الأولى: أفادت تَرَصُّدَ إبليسَ للبشرِ بالإغواءِ، وبالقعودِ على صراطِ اللّهِ المستقيم، المعلوم عند المؤمنين، والجملةَ المعطوفة: أفادت تَهَجُّمَهُ عليهم بشتَّى الوسائلِ، ومِن جهاتٍ متنوِّعة.

توجيهُ التَّعبيرِ بالمضارع مع توالي المؤكِّدات في ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم﴾:

إغـواءُ إبليسَ مُتجدِّدٌ، لا تَفتُرُ لهُ فيه عزيمةٌ

في قوله: ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ أفادت صيغةُ المضارع المؤكَّدِ بتأكيدينِ: (اللَّام، والنُّون الثَّقيلة)، استمرارَ إتيانِ إبليسَ للنَّاس مِنَ الجهاتِ الأربعِ لإضلالهم، وتَجَدُّدَ هذا الإتيانِ حالًا فَحَالًا، وقد أفادت لامُ القسم ونونُ التَّوكيد الثَّقيلة في قوله: ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ تأكيدَ الحَدَث والزَّمن، بمعنى: تأكيدِ إتيانِ إبليسَ اللَّعينِ مِنَ الجهات المذكورة، وتأكيدِ استمرارِ إتيانه من غير انقطاع.

مناسبةُ عطفِ ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ على ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾:

تـدرُّجُ إغـواءِ إبـلـيـسَ مِـنَ الـقـعـودِ إلى إتيانِ النَّاسِ في محالِّهم

جَمَعَ في عطف الجملتينِ الواقعتين جوابًا للقسم بينَ القعودِ على الصِّراط، بمعنى الصَّدِّ عنه، والإتيانِ إلى المؤمنين في محالِّهم وطريقِهم، فلم يكتفِ الملعون بالقُعودِ لصَدِّ السَّائرين إلى اللّه تعالى، بل زادَ مِن إغوائه، بأن يأتيَ هو إليهم من جميع الجهاتِ، ولهذا كانت ﴿ثُمَّ﴾ على معنى التَّدرُّج مِنَ القعودِ إلى الإتيانِ، أي: إلى الأكثرِ إغواءً وإضلالًا عن طريقِ الحقِّ، فكأنَّ الإتيانَ أخطرُ مِنَ القعودِ.

نكتةُ المخالفةِ في حروفِ الجرِّ في ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾:

تنويعُ إبليسَ الجهاتِ الَّتي يـأتي منها؛ ليكونَ أشدَّ في تزيينِ الباطلِ

عُبِّرَ بـ ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ مِنَ الأمام ومِنَ الخَلْفِ لا يكون فيه انحرافٌ ولا تَجافٍ، وعُبِّر بـ﴿وَعَنۡ﴾ في قوله: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ لما في (عن) مِن معنى المجاوزةِ، أي: يأتيهم مُتجافيًا عن جهة اليمين وعن جهة الشِّمال، مُنحرفًا عنِ المؤمنِ غيرِ ملاصقٍ له؛ ليكون أشدَّ في تزيين الباطل، كي لا يعلمَ المؤمنُ أنَّ إبليس هو الَّذي يزيِّنُ له الباطلَ ويصدُّهُ

عنِ الصِّراط، فيجتنبَ تزيينَه، وقال أبو السُّعود في نُكتة المخالفة في حَرْفي الجرِّ هنا: "وإنَّما عُدِّيَ الفعلُ إلى الأَوَّلَيْن بحرف الابتداء؛ لأنَّه منهما مُتوجِّهٌ إليهم، وإلى الآخَرَين بحرفِ المجاوزة، فإنَّ الآتيَ منهما كالمُنحَرِفِ المُتجافي عنهم، المارِّ على عَرضِهم"[1].

بلاغةُ التَّركيبِ بينَ المجازِ والكنايةِ:

شِدَّةُ قُربِ إبليسَ مِنَ النَّاس؛ لإغوائهم وصدِّهم عنِ الصِّراط

أفاد التَّعبيرُ بالتَّركيب: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، الإشعارَ بقُرْبِ إبليسَ مِنَ النَّاس، فلم يَقُل: (مِن أمامهم)؛ لأنَّ الأمامَ أوسعُ مِن أنْ يكونَ بينَ يَديه، والمعنى: أنَّه يكونُ أمامَه بقُربٍ منه مسامتًا يديه؛ للإشعارِ بشدَّة قُربِه، ولذلك قُوبِل بالخَلْف، فإمَّا أن يكون مجازًا مِن استعمال التَّركيب في المعنى المجاور له على سبيلِ التَّوسُّع، وإمَّا أن يكون كنايةً عنِ الأمام مع القُرْب منه[2].

مناسبةُ جمعِ اليمينِ والشِّمالِ في ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾:

اعتراضُ إبليسَ عنِ الأَيمانِ والشَّمائل؛ لِمَا يَقعُ فيهما مِن قلَّةِ اليقظة

جُمِعَ اليمينُ والشِّمالُ في قوله: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾؛ لأنَّ الجمعَ هنا في مقابلة كَثْرةِ مَن يريد إغواءَهم، فكأنَّه أقسمَ أن يأتيَ إلى كلِّ واحدٍ مِنَ النَّاسِ من بينِ يديه ومِن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ولا يَحْسُنُ هنا عن يمينِهم وعن شمالِهم، بل الجمعُ هاهنا مِن مقابلةِ الجُملةِ بالجُملة، المُقْتضي توزيعَ الأفراد، ونظيرُه: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6][3]، كما أنَّ الأيمانَ والشَّمائلَ مُتعدِّدةٌ، وأمَّا الأمامَ والخَلْفَ فهو واحدٌ؛ للإشعارِ بأنَّ اعتراضَه المؤمنين عن أيمانهم وشمائلهم أكثرُ من غيرِهما؛ لِمَا يقعُ فيهما مِن قلَّةِ اليقظةِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/350، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/261، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/180.

(3) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/120.

سُبُل إبليسَ كثيرةٌ متنوِّعةٌ، وصراطُ اللهِ مستقيمٌ واحدٌ:

شـتَّـان بـين سُبُلِ الشَّيطانِ وسبيلِ الرَّحمن

وأشعرَ الجمعُ - أيضًا - أنَّ سُبُلَ إبليسَ كثيرةٌ متنوِّعةٌ، وأنَّ صراطَ اللهِ مستقيم واحدٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، فعن عبد الله بنِ مسعُودٍ ﷺ قال: "خطَّ لنا رسولُ اللهِ ﷺ خطًّا، ثُمَّ قال: «هذا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خطَّ خُطُوطًا عن يمينه وعن شِماله، وقال: «هذه سُبُلٌ، على كُلِّ سَبِيلٍ منها شيطانٌ يَدْعُو إليه»، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: 153] الآيةَ"[1]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153]، أي: سُبُلَ الشَّياطينِ المُنْحَرِفةَ الزَّائغة المُتَشَعِّبةَ، مِن طُرُقِ الشِّرْكِ والبِدْعَةِ الَّتي أشارَ إليها ﷺ بقوله: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي على ثَلَاثٍ وسبعينَ فِرْقَةً، كُلُّها في النَّارِ إلَّا الَّتي على ما كُنْتُ عليهِ أنا وأصحابي»، وبهذا الحديث يندفع زَعْمُ كلِّ فريق أنَّه على الصِّراط المستقيم، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ﴾ بحذْفِ إِحدَى التَّاءَيْنِ، ﴿عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153] إشارةٌ إلى أنَّهُ لا يمكن اجتماعُ سَبيلِ الحَقِّ مع السُّبُلِ الباطِلَةِ[2].

بلاغةُ الإطنابِ:

إيضاحُ مسالكِ إتيـانِ إبليسَ للمؤمنينَ

ورد قولُه تعالى: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، على طريقِ الإطنابِ؛ للتَّنبيه إلى عِظَمِ خَطَرِ إبليسَ، فأوضحَ طريقَ إتيانِه تمامَ الإيضاحِ والبيانِ، والمعنى: (ثمَّ لآتينَّهم بالإغواءِ والإضلالِ من جميعِ جهاتِهم)، فجاء الكلامُ على التَّفصيل مُبالغةً في التَّوكيد، أو المعنى: ثمَّ لآتينَّهم مِن جميعِ وجوه الحقِّ والباطل، فأَصدَّهم عنِ الحقِّ، وأُحَسِّنَ لهم الباطلَ[3].

(1) الحديث رواه أحمد والنّسائي والدّارميّ، ينظر: الهرويّ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 1/254.
(2) الهرويّ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 1/254.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/341، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/355.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليّة في هذه الآيةِ الكريمةِ:

ذكرَ الجهاتِ الأربعَ؛ لأنَّها هي الَّتي يُعتاد هجومُ العدوِّ منها

ذَكَر الجهاتِ الأربعَ في قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، على طريقِ الاستعارة التَّمثيليَّة؛ لأنَّ هذهِ الجهاتِ هي الَّتي يُعتاد هجومُ العدوِّ منها، وهذه الجهات معنويَّة، كما أنَّ الصِّراطَ الذي يريد إضلالهم عنه معنويٌّ، ووجهُ الاستعارةِ هنا: أنَّه مثَّلَ قَصْدَه إيَّاهم للتَّسويل والإضلال مِن أيِّ وَجهٍ يتيسَّر، بإتيان العدوِّ مِنَ الجهات الأربع، ولذلك لم يُذكرِ الفَوْقُ والتَّحْتُ؛ لأنَّه غيرُ متعارَف، وهو نادر الوقوع[1]، ولقد حمى اللّهُ ﷻ المؤمنين من هذا الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النّحل: 99 - 100].

بديعُ الطِّباق في الآية الكريمة:

الإحاطةُ بجهاتِ الإغواءِ المُحتَمَلةِ مبالغةٌ في الإغواءِ

ورد الطِّباقُ في قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، وفي ذِكْرِ: ﴿بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿خَلۡفِهِمۡ﴾، وذِكْر: ﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ و﴿شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، استغراقٌ للجهات الَّتي يأتي منها العدوُّ غالبًا، ومزيدُ بيانٍ لإحاطته بسُبُل الإتيانِ المُصَوَّرِ بالجهات، ومبالغةٌ في توكيد الإغواء، وفي هذا الصَّدد ورد عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قولُه: لم يكن رسولُ اللّه ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدَّعوات: «اللَّهُمَّ احفظني مِن بين يَديَّ ومِن خَلْفي، وعن يَميني وعن شِمالي، ومِن فوقي، وأعوذُ بكَ أن أُغتال مِن تحتي»[2].

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾:

لـمَّا كان اتِّباعُ صِراطِ اللّهِ مِنَ الإيمانِ، كان التَّنكُّبُ عنه، واتِّباعُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/350، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219.

(2) الحديث رواه أحمد في المسند: 8/403، وأبو داود في سننه: 4/318، والطبراني في المعجم الكبير: 12/343، وذكره الهيثميُّ في موارد الظّمآن إلى زوائد ابن حِبّان، ص: 585.

الشُّكرُ على نِعَمِ اللهِ مِنَ الإيمانِ، وجَحْدُها كفرٌ

سُبُلِ إبليسَ مِنَ الكُفر، فكُنِّيَ بنفي الشُّكر عنِ الكفر؛ إذ لا واسطة بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة: 152]. ووَجْهُ هذه الكنايةِ، إن كانت محكيَّةً كما صَدرت مِن كلام إبليس: أنَّه أرادَ الأدبَ مع اللّهِ تعالى، فلم يُصَرِّحْ بينَ يديهِ بكُفرِ أتباعِه، المُقتَضِي أنَّه يأمرُهم بالكُفر، وإنْ كانت من كلام اللّهِ تعالى: ففيها تنبيهٌ على أنَّ المشركين باللّه قد أَتَوا أمرًا شنيعًا؛ إذ لم يشكروا نِعمَهُ الجَمَّةَ عليهم[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/464.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ تفاخُرِ إبليسَ بالغواية، ومصيرِهِ مذمومًا مدحورًا في النَّار

لـمَّا قيل: فماذا قال اللّٰهُ لإبليس بعد أن وَعَدَ اللَّعينُ بالإفساد الَّذي ذَكَره؟ قيل: خاطبَه اللّٰهُ تعالى، فـ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ الآيةَ[1]، ومُفَادُ ذلك أن: "زادَه اللّٰهُ نكايةً، وقال له: اخرج مِن دارِ كرامتي، مذمومًا بكِبرك وعصيانك، وهالكًا في نهايتك، وأُقْسِمُ أنَّ مَن اتَّبعك مِن بني آدم؛ لأملأنَّ جهنَّم منك ومنهم أجمعين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَذۡءُومٗا﴾: اسم مفعولٍ مِن ذَأَمَه؛ إذا حقَّره وعابَه وذمَّه، والذَّأمُ: أبلغُ الذَّمِّ، ومعنى ﴿مَذۡءُومٗا﴾: مذمومًا محقَّرًا معيبًا، بأبلغ الذَّمِّ والتَّحقيرِ والعيبِ[3]، "عن ابنِ السِّكِّيت قال: ذَأَمْتُه وذأبتُه؛ إذا طَردْتُه وحَقَرتُه، قال: وسمعتُ أبا العبَّاس يقول: ذَأَمْتُه: عِبْتُه، وهو أكثر مِن (ذَمَمتُه)"[4].

2) ﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾: الدَّحْرُ: هو الدَّفعُ بعنفٍ على سبيل الإهانة والإذلال؛ كراهةً فيه، ونُفورًا منه، و﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾: بمعنى: مَطرودًا مُبعدًا على سبيل الإذلالِ والنُّفورِ منه[5]، وقال الطَّبريُّ: "وأمَّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/216، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/370.
(2) لجنة مِن علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 206.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ (ذأم)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 166، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 164.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذأب).
(5) يحيى بن سلام، تفسير يحيى بن سلام: 1/136.

المَدْحور: فهو المُقْصَى، يقال: "دَحَرهُ، يَدحَره، دَحرًا، ودُحُورًا"؛ إذا أقصاه وأخرجَه، ومنه قولهم: "ادحَرْ عنكَ الشَّيطانَ"[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

الطَّردُ مِنَ الجنَّة منتهى الإذلالِ والهوانِ

قال اللَّهُ تعالى لإبليسَ على سبيلِ الزَّجرِ والإهانةِ: اخرج مِنَ الجنَّة ممقوتًا مَطرودًا، لأملأنَّ جهنَّمَ منكَ وممَّن تبعكَ، مِن بني آدمَ أجمعين[2]؛ وذلك جزاءُ ما أعلنتَه مِن تأَبٍّ مَقيتٍ على أوامري، وتكبُّرٍ مُنكرٍ على آدمَ، حينما أَمَرتُكَ بالسُّجودِ له، فرَفضتَ ذلك، وأصررْتَ عليه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في الآيةِ الكريمة:

الاستئناف جوابٌ للقول قبلَه، وإيضاحٌ للدَّلالة ضِمْنَه

جاء الكلامُ في قوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ على طريقِ الاستئنافِ[3]، كأنَّه قد قيل: فما قال اللَّهُ تعالى لإبليس حين قال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، إلى آخر الآية، فكانَ الجوابُ: قال اللَّه له: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾.

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾:

جُمِعَ لإبليسَ الخروجُ مِنَ الجَنَّة، ودوامُ القضاءِ عليه باللَّعنة

الضَّميرُ في قوله: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ عائدٌ على الجنَّة، ممَّا هو معلومٌ مِنَ السِّياق[4]، ويَحتَمِلُ وجهين: أحدهما: مِن حيثُ كان مِن جنَّةٍ أو سماءٍ. والثَّاني: مِنَ الطَّاعة، على وجه التَّهديد[5]. وقال أبو حيَّان: "الجمهور على أنَّ الضَّمير عائدٌ على الجنَّة، والخِلافُ فيه كالخِلافِ في ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾"[6].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/343، وأبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/212.
(2) نخبة مِنَ الأساتذة، التّفسير الميسّر، ص: 152.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/381.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/208.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/23.

دلالةُ مجيءِ الخروجِ مُقيَّدًا بالحالِ:

ورد الأمرُ بالخروجِ مِنَ الجنَّة في قوله: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾، مؤكِّدًا للأمر السَّابق، وجاءَ مُقيَّدًا بالحالين: ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾، أي: بِالذَّمِّ والطَّرْدِ؛ ليفيدَ أنَّ خروجه مِنَ الجنَّة قد اقترنَ بحالِ كَونِه مذؤومًا مدحورًا[1]؛ ولمناسبته لأن يكونَ تمهيدًا لِمَا بعدَه، والمعنى: لـمَّا كان إبليس مذمومًا أشدَّ الذَّمِّ ومطرودًا، دلَّ على أنَّ اتِّباعَه مذمومٌ كذلك، وأنَّ حالَ مَن يتَّبعُه كَحَالِه في الذَّمِّ والطَّرد.

مَن يتَّبعُ إبليسَ فحالُه في الصَّغارِ والطَّردِ مِنَ الرَّحمةِ كَحَالِه

نكتةُ ورودِ الحالين مِن غير قيدٍ:

وردَ الحالانِ في قوله: ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾، من غير قيدٍ، فلم يقل: (مذؤومًا مِنَ اللّه، أو مِنَ الملائكة) مثلًا، وكذلك لم يقل: (مدحورًا مِنَ الجنَّة، أو مدحورًا مِن رحمتي) مثلًا؛ ليُشعرَ الإطلاقُ بعمومِ المعنى، أي: اخرج منها ممقوتًا معيبًا، ومُبعدًا من كلِّ خيرٍ[2].

إبليسُ ممقوتٌ بإطلاقٍ، مُبْعَدٌ مِن كلِّ خيرٍ

علَّة إيثارِ لفظ ﴿مَذۡءُومٗا﴾ في هذا الموضع:

لم يرد هذا اللَّفظ في القرآن الكريم إلَّا في هذا الموضع، وإنَّما اختُصَّ هذا الموضع بهذا اللَّفظِ؛ لأنَّ اللَّعين لـمَّا بالغ في العزم على الإغواء، فقال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾ إلى آخره، بالغ اللّه ﷻ في ذمِّه؛ إذِ الذَّأمُ أشدُّ الذمِّ[3].

الذَّأمُ أشدُّ الذَّمِّ وأبلغُه، والوصفُ به تشنيعٌ وتبشيعٌ

دلالةُ اللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾:

اللَّامُ هي الموطِّئة للقسم، وتفيدُ المبالغةَ والتَّوكيدَ، لِمَا تدخلُ عليه مِنَ القسَم وجوابِه، ولـمَّا دخلت على الشَّرط في قوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾؛ دلَّ على تأكيد الشَّرطِ وجوابِه كذلك[4].

تأكيدُ القسمِ وجوابِه للمبالغةِ في تقريرِ المعنى

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/23.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/183.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/217.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/325.

نكتةُ الالتفاتِ في لفظ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في قولهِ ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾:

الانتقالُ مِنَ الخطابِ إلى الغيبةِ؛ لدفعِ اللَّبسِ في المعنى، وللتَّنبيهِ لأمرٍ عظيم

يعودُ الضَّميرُ في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على ولدِ آدمَ؛ لأنَّه حين قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: 11]، كان مُخاطِبًا لولدِ آدمَ، فرجعَ إليهم، فقال: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾، فجعلَهم غائبين، على طريقِ الالتفاتِ؛ لأنَّ مخاطبتَهم في هذا الموضعِ تُوقِع لَبْسًا وضعفًا في الكلامِ، كما أنَّ مِن عادةِ العربِ أنْ ترجعَ مِنَ الخطابِ إلى الغيبةِ، ومِنَ الغيبةِ إلى الخطابِ، وأيضًا في الالتفاتِ تطريةٌ للسَّامع، واستدرارٌ لإصغائه، وفيه تنبيهٌ لأمرٍ عظيم[1].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾:

رحمةُ اللهِ بالمؤمنينَ؛ إذ قال: (منكم) ولم يقل: (بكم)

لـمَّا كان الحرف (مِنْ) يدلُّ على التَّبعيض، أفاد أنَّ مَلْءَ جهنَّم يكون من بعضِهم، وإلَّا قيل: لأملأنَّ جهنَّم بكم، ولكان كلُّ مَن اتَّبعَ إبليسَ، ولو قليلًا، يدخل في الحُكم المذكور، وذلك أنَّ بعضَ مَنْ يتَّبِعُه مِنَ المؤمنين الموحِّدين في بعض المعاصي، يَغفرُ اللهُ لهم، ويعفو عنهم[2].

جملة ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ بين جوابِ القسمِ وجوابِ الشَّرطِ:

تأكيدُ وعدِ اللهِ بمَلْءِ جهنَّمَ مِن أتباعِ إبليسَ أجمعين

لـمَّا كان القَسَمُ يقتضي جوابًا، وكان الشَّرطُ يقتضي جوابًا كذلك، كان قولُه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ بمنزلَةِ جواب القسم وجوابِ الشَّرط في الوقت نفسِه؛ تعظيمًا للجوابِ، وتفخيمًا له، وتقريرًا لتحقيقه، ولـمَّا كان القسم متقدِّمًا على الشَّرط في الكلام، وهو أعلى رُتبةً مِنَ الشَّرط؛ لتعظيم الـمُقسَم به، ولتفخيم الـمُقسَم عليه، ولأنَّه أدعى إلى التَّحقُّق مِنَ الشَّرط، وكان قولُه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ جوابًا للقسم، سادًّا مَسَدَّ جوابِ الشَّرط، أو يُقال: اللَّامُ وقعت جوابًا للقَسَم، وسَدَّت مَسدَّ جوابِ الشَّرط، والمعنى: أُقسم مَن تبعكَ منهم؛ لأملأنَّ جهنَّم منهم ومنك أجمعين[3].

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/107.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/301.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/51.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ﴾:

تصويرُ امتلاءِ جهنَّمَ بأتباعِ إبليسَ امتلاءً مستمرًا ومُرهِقًا

أفاد التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ: أنَّ الامتلاءَ يكونُ حالًا فحالًا، للإشعارِ بجمع كلِّ مَن يتَّبع إبليسَ في جهنَّم، كما يُشْعِر اللَّفظُ بضيقِ الفُسْحةِ عليهم في جهنَّمَ؛ ليكونَ العذابُ عليهم أشدَّ وأقسى.

دلالةُ قولِهِ: (من) بين الشَّرطيَّةِ والموصوليَّة:

تحقُّقُ الوعيد باتِّباعِ إبليسَ البئيسِ

في قوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾: يَحتمِل (مَن) أن يكون اسمَ شرطٍ مفيدًا العمومَ، وهو الظَّاهر عند جمهور المفسِّرين؛ لتكونَ جملةُ الشَّرطِ ﴿تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾، بمنزلةِ السَّبب لقوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وليدلَّ الشَّرطُ وجَوابُه على تحقُّق الوعيدِ باتِّباع إبليس؛ لاقترانِ تَحقُّقِ الجزاءِ بتحقُّق الشَّرط. كما يَحْتمِل أنْ يكون اسمًا موصولًا مُفيدًا العمومَ كذلك، وتكون صلةُ الموصول: ﴿تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ لبيان وجهِ بناءِ الخبرِ: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على الاسم الموصول، والمعنى: لَأملأنَّ جهنَّم منكم؛ بسبب اتِّباعهم لكَ، والمعنى على الوجهين متقارب[1].

بلاغةُ التَّغليبِ في قوله: ﴿مِنكُمۡ﴾:

إبليسُ وأتباعُه طائفةٌ واحِدَةٌ، وكلُّهم عصاةٌ بغاةٌ

جاء الخطابُ في قولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾ على تغليبِ ضميرِ المخاطب[2]، فأدخلهُ في الوعيد معهم، بحكم الكاف في ﴿مِنكُمۡ﴾، وغُلِّبَ في الضَّميرِ حال الخطاب، وإن كانَ قليلًا على الغائبين، وإن كان كثيرًا؛ لأنَّ الفردَ الموجودَ من هذا العموم هو المخاطَبُ، وهو إبليسُ، ولأنَّه المقصودُ ابتداءً من هذا الوعيدِ؛ لأنَّه وعيدٌ على فعله، وأمَّا وعيدُ أتباعه فبالتَّبع له، كما أشعرَ الخطابُ أنَّ أتباعَ إبليسَ صاروا معه طائفةً واحدةً، فلم يقع العطفُ، فيقول: (منك ومنهم)؛ لئلَّا تقع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/94، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/8، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/24، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 5/273.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/94.

المغايرة أيضًا، والمعنى: لأملأنَّ جهنمَّ منكَ ومن ذُرِّيَّتك، ومِن كُفَّارِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ أجمعين(1).

دلالةُ قوله تعالى: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

مجيءُ التَّأكيدِ للتَّنصيصِ على العمومِ؛ ولدفعِ إرادةِ المجازِ

﴿أَجۡمَعِينَ﴾ في قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ توكيدٌ للضَّمير في ﴿مِنكُمۡ﴾، والفائدة: التَّنصيصُ على العُموم؛ لئلَّا يُحمَل على المجاز، فيُظَنَّ أنَّ المرادَ: لأملأنَّ جهنَّم مِن أكثرِكم، أو مِن أغلبِكم، وذلك أنَّ الكلامَ جرى على أُمَّةٍ بعنوان كونِهم أتباعًا لواحدٍ، والعربُ قد تُجْري العُمومَ في مثلِ هذا على المجموعِ دون الجمعِ، كما يقولون: قتلتْ تميمٌ فلانًا، وإنَّما قتلَه بعضُهم، كما يُشْعِرُ اللَّفظُ بالتَّنكيلِ بإبليسَ وأتباعِه؛ لحسمِ الأمرِ في كونِهم في جهنَّم(2).

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/184، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/51.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/275، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/52.

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا
وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا فَـرَغَ مِن حديثِ الحاسدِ؛ انـتـقـلَ إلى المحسودِ

لـمَّا أَوجَبَ لإبليسَ ما ذُكِرَ مِنَ الشَّقاوة تَمادِيهِ في الحسد، وكثرةُ كلامِه في محسودِه؛ الْتَفتَ إلى محسودِه (آدمَ)، الَّذي لم يتكلَّم فيه كلمةً واحدةً، فناداه قائلًا له: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، وتوجَّه الخطابُ لهما معًا، فقال لهما: "ويا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ دارَ كرامتي، وهي الجَنَّةُ، وتنعَّما بما فيها، فكُلا مِن أيِّ طعامٍ أردتُما، إلَّا هذه الشَّجرةَ، فلا تقرباها؛ حتَّى لا تكونا مِنَ الظَّالمين لأنفسهم، بالعقاب المترتِّب على المخالفةِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡكُنۡ﴾: يدور معنى السُّكونِ على ثُبوتِ الشَّيء بعدَ تحرُّكٍ، حِسًّا أو معنًى، أو على خِلافِ الحركةِ والاضطراب، ويُستَعمل في الاستيطان، نحو: سَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: استوطنه؛ لأنَّه محلُّ ثُبوتِه بعد حركتِه في المعاشِ وغيرِه، واسم المكان: مَسْكَنٌ، وكلُّ ما يُسكَنُ إليه هو سَكَنٌ، وسُمِّيَ المِسْكينُ مِسْكينًا؛ لِقلَّة تَصرُّفه وحركتِه، وتَمَسْكَنَ واستكان، أي: خَضَعَ وذَلَّ، وسُمِّيت النَّارُ سكنًا؛ لأنَّ النَّاظر إليها يَسْكُنُ حِسًّا، كما أنَّه مِن حيثُ المعنى، يَسْكُنُ إليها وإلى أهلها[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/370 - 371.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 1/206.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكن).

2) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جمع ظالم، والظُّلم: وَضْعُ الشَّيءِ في غير موضعه المختصِّ به، إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه، ومنه ظَلَمْتُ الأرضَ: حَفرْتُها، ولم تكن موضعًا للحَفْر، والظُّلْمُ: مجاوزةُ الحقِّ، ويقالُ فيما يَكْثُر وفيما يقلُّ مِنَ التَّجاوزِ، ولهذا يُسْتَعملُ في الذَّنب الكبيرِ وفي الذَّنب الصَّغيرِ، ولذلك قيل لآدمَ في تَعدِّيه: ظالمٌ، وفي إبليسَ: ظالمٌ، وإن كان بينَ الظُّلْمَين بَوْنٌ بعيدٌ، وأعظمُ الظُّلمِ الشِّركُ باللّه، كما يُطلقُ الظُّلمُ على المَيْلِ عن القَصدِ؛ لمجاوزتِه المطلوب[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمرُ بالاستقرارِ في جنَّةِ الاختبارِ، مع الالتزامِ بالمنعِ والازدجارِ

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، واستَقِرَّا فيها، وكُلا مِن ثمارِها، مِن أيِّ مكانٍ فيها، ولكِن لا تقربَا ثمارَ هذهِ الشَّجرة - وعيَّنها لهم - فتكونَا بذلك مِنَ الظَّالمين لأنفسِهم؛ إذ تجاوزتُما حدودَ اللّه تعالى[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الوصلِ في الآيةِ الكريمةِ:

تنوُّعُ احتمالاتِ العطفِ توسُّعٌ في الدّلالةِ

يَحتمِل الوصلُ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، أن يكونَ مِن عطفِ الآيةِ على قوله: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11][3]، ومناسبةُ الوصلِ: أن يكون الخطابُ على نَسَقِ ما جاء في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: 35]، وليكون معنى الامتنانِ ظاهرًا؛ لمجيءِ الخطابِ بتقدير صيغة التَّعظيمِ ﴿وَقُلْنَا﴾[4]، ولعطفه

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1393.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/94، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/24، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219.
(4) الطّيبّي، فتوح الغيب: 6/348.

على ما امتنَّ اللّهُ به على آدمَ، بأمرِ الملائكةِ بالسُّجودِ له، كما أنَّ كِلْتَا الآيتين - المعطوفَ والمعطوفَ عليها - تضمَّنتا صيغةَ الأمر، ويقوِّي هذا الوجهَ: مجيءُ الخطابِ هنا لآدمَ على الأصالةِ، وعَطْفُ زوجه عليه، كما سيأتي. ويَحتمِل أنْ يكونَ معطوفًا على قوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾؛ ليكونَ من عَطْفِ المَحْكيِّ على المَحْكيِّ، فالنِّداءُ والأمرُ من جُملةِ المَقول المَحْكيِّ، والتَّقدير: قال اللّهُ لإبليسَ: اخرجْ منها، وقال لآدمَ: ويا آدمُ اسكنْ؛ ليكونَ من عطفِ المتكلِّم بعضَ كلامِه على بعضٍ، إذا كانَ لبعض كلامه اتِّصالٌ وتناسبٌ معَ بعضِه الآخَرَ، ولم يكنْ أحدُ الكلامين مُوجَّهًا إلى الَّذي وُجِّهَ إليه الكلامُ الآخرُ، معَ اتِّحادِ مقام الكلام، كما يَفعَلُ المُتكلِّمُ معَ مُتعدِّدين في مجلسٍ واحدٍ، فيُقْبِلُ على كلِّ مخاطَبٍ منهم بكلامٍ يَخُصُّه؛ ليُعلِمَ المُخاطَبين بالقرآنِ الفرقَ بينَ خطابِه لآدمَ وخطابِه لإبليسَ.

بلاغة التعريض بإهانة إبليس في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾:

وفي توجيهِ الخطابِ لآدمَ بهذهِ الفضيلةِ، بحضورِ إبليسَ بعدَ طردِهِ، زيادَةُ إهانةٍ لإبليس؛ لأنَّ إعطاءَ النِّعَمِ لمَرضيٍّ عليه حينَ عقابِ مَنِ استأهلَ العقابَ، زيادةُ حسرةٍ على المعاقَبِ، وإظهارٌ للتَّفاوت بين مُستحِقِّ الإنعامِ ومُستَحِقِّ العقوبة.

قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ إيحاءٌ بقمْعِ إبليسَ:

الأمرُ في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ "بمسمَعٍ من إبليسَ، مَقْمَعَةٌ لإبليسَ؛ لأنَّه إن كانَ إبليسُ مُستقرًّا في الجنَّةِ من قبلُ، فالقَمْعُ ظاهرٌ؛ إذْ طردَه اللّه، وأسكنَ الَّذي تكبَّر هو عنِ السُّجودِ إليه، في المكانِ المُشَرَّفِ الَّذي كانَ له قبلَ تكبُّرِه، وإنْ لم يكن إبليسُ ساكنًا في الجنَّةِ قبلُ؛ فإكرامُ الذي احتقرَه، وترفَّعَ عليه قَمْعٌ له؛ فقد دلَّ موقعُ هذا الكلامِ في هذهِ السُّورةِ، على معنًى عظيمٍ من قَمْعِ إبليسَ، زائدٍ على ما في آيةِ سورةِ البقرةِ، وإن كانتا

العقوبةُ النَّفسيَّةُ أشدُّ وقعًا على المعاقَبِ مِنَ العقوبةِ الحسيَّةِ

ترتفعُ المقاماتُ عند اللهِ بالطَّاعةِ والإيمانِ، وتنحطُّ بالعصيانِ

متماثلَتين في اللَّفظِ، ولكنّ هذا المعنى البديعُ استُفيدَ مِنَ الموقع، وهذا مِن بدائع إعجازِ القرآن"[1].

مناسبةُ النِّداء في قوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾:

تصديرُ الكلامِ بالنِّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، للإقبالِ على آدمَ، ولِتنبيهه على الاهتمام بتلقِّي المأمورِ به، والعملِ به، بالإقبالِ عليه رغبةً فيه، كما أنَّ في النّداء تنويهًا بذكره في ذلك الملأ؛ إظهارًا للتَّكريم[2]، وقد "قال له هذا القولَ، بعد إخراجِ إبليسَ مِنَ الجنَّة أو مِنَ السَّماء، أو مِن بين الملائكةِ، والمعنى: اتَّخِذْها مسكنًا، وتخصيص الخطاب بآدمَ للإيذان بأصالته في تلقِّي الوحي، وتعاطي المأمور به"[3].

نداءُ آدمَ تنويهٌ بـذكـرِه في المـلأِ الأعلى، وإظهارٌ للتَّكريم

نكتةُ تخصيصِ الخطابِ بآدمَ، وعَطْفِ زوجِه عليه:

تخصيصُ الخطابِ بآدمَ عليه السلام في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، إذْ لم يُخاطبْه وزوجَه معًا؛ للإيذانِ بأصالتِه في تلقِّي الوحي، وتعاطِي المأمور به، وللتَّنبيه على أنَّه المقصودُ بالحُكم، والمعطوفُ عليه تَبَعٌ له[4]، "واختلفوا في خَلْق حواء، فقال ابن إسحق: خُلِقَتْ قبلَ دخولِ آدمَ الجنَّة، وهو ظاهرُ هذه الآيةِ، وقيل: بعد دخولِ الجنَّة، وقيل: الخطابُ للمَعْدوم؛ لوجودهِ في عِلْمِ اللّه"[5].

أصالـةُ آدمَ في تـلقِّي الـوحـي، وتعاطي المأمور بِهِ مع تَبَعِ زَوْجِهِ لَهُ

توجيهُ الأمرِ في المَطْلع بقوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾:

في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، يَحتمِل الأمرُ في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ أن يكون بمعنى: الْزَمِ المكانَ الذي دخلتَهُ، ولا تنتقلْ منه، إذا كان آدمُ في الجنَّة أصلًا، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كانَ المَقْصِدُ مِن أمرِ

أمرُ الإنسانِ بما هو مُتلبِّسٌ بهِ، إشارةٌ للاستمرارِ عليه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/52.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/220، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/53.
(3) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 4/317.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/72، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/220.
(5) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 4/317.

الإنسان بشيءٍ في حالِ تلبُّسِه به أنْ يستمرَّ على حالِه، ويتمادَى في هيئتِه، ويَلْبَثَ فيه، كان قولُه تعالى لآدمَ: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ من هذا الباب، بمعنى: لازِم الجنَّة، واتَّخذْها مَسْكَنًا، ويَحتمِل أن يكون بمعنى: ادخلْها ساكنًا لها، فافعلْ فيها كذا وكذا، إذا كان آدمُ لم يدخلْها بَعدُ؛ ليوافقَ دخولُ آدمَ الجنَّةَ خروجَ إبليسَ منها، في قوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾[1].

بديعُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱسۡكُنۡ﴾:

دخـولُ آدمَ وحوّاءَ في الجنَّةِ كـان دخـولَ سُـكـنـى، لا دخولَ إقامةٍ

يُشْعِرُ التَّعبيرُ بلفظِ السَّكنِ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أنَّ الجنَّةَ التي أُمِرَ آدمُ بالسَّكنِ فيها، هي مَحلُّ استقرارٍ، وأنَّ السُّكونَ فيها يكونُ إلى مُدَّةٍ ثمَّ ينقطعُ، فَدُخولُهما في الجنَّة كان دخولَ سُكنى، لا دُخولَ إقامةٍ[2]، ولهذا سمَّى اللّهُ تعالى الجنَّةَ الَّتي يسكنها المؤمنون يومَ القيامة: (دارَ المُقامة)، للإقامةِ فيها، من غير خروج منها، فقال تعالى فيما حكاه عن قول المؤمنين في الجنَّة: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر: 35].

بلاغةُ التَّعريضِ بالضَّميرِ المنفصلِ:

إظهارُ التودُّدِ والمنَّةِ على آدمَ، وترسيخُ هوانِ إبليسَ

جاء الضَّمير المنفصل ﴿أَنتَ﴾ بعدَ فعلِ الأمرِ، مُؤكِّدًا الضَّميرَ المُستتَرَ؛ تقريرًا لِلامتنانِ على آدمَ عليه السلام وإشعارًا بالتَّودُّدِ لمناسبة المقام، وزيادةً في التَّنكيل بإبليسَ؛ لأنَّ ذِكْرَ الضَّمير العائدِ على آدمَ، في مقامِ العطفِ على ما حُكِيَ عن إبليسَ، يُذَكِّرُ إبليسَ بأنَّه ليس مثل آدمَ، فأفادَ الضَّميرُ المنفصِلُ الاحترازَ عن غيرِ صاحبِ الضَّميرِ، بالقرينةِ على طريقةِ التَّعريضِ، فما اختيرَ الفصلُ بالضَّميرِ المنفصلِ إلَّا لِمَا يُفيدُ مِنَ التَّعريضِ بغيرِه[3].

---

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/382، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/289، والإسكافّي، دُرّة التّنزيل: 1/224.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/299.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/53.

مناسبةُ تَعدِّي الفعلِ ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ بغيرِ حرفِ الجرِّ:

مِن تكريمِ آدمَ جَعْلُ جميعِ مواضعِ الجَنَّةِ سكنًا لهُ ولزوجِهِ

لم يَقُل: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ فِي الجَنَّةِ)؛ لِمَا قد يُشْعِرُ به حَرفُ الجرِّ (في) مِن تقييدِ للسَّكنِ في الجنَّة، في موضعٍ معيَّن، فلمَّا تعدَّى الفعلُ بنفسِه إلى ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ أفادَ أنَّ الجَنَّةَ بجميعِ مواضعِها سَكَنٌ له؛ ليَدُلَّ على العُموم، إظهارًا لعظيمِ الامتنانِ، وتشريفًا لآدمَ عليه السلام.

بلاغةُ التَّغليبِ في لفظِ ﴿فَكُلَا﴾:

لا خُصوصيَّةَ لآدمَ على زَوجِهِ في الجنَّةِ

غُلِّبَ المخاطَبُ على الغائبِ في قوله تعالى: ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ على ما هو الأصل في التَّغليبِ، فقال: ﴿فَكُلَا﴾، فمعناه: (كلْ أنت وزوجُك)، ونكتةُ مجيءِ الكلام على التَّغليب، بتوجيهِ الخطابِ إليهما، بضمير التَّثنيةِ، هي الإيجازُ في الكلامِ، ولِتعميم التَّشريفِ، والإيذانُ بأنَّ الحكمَ على آدمَ وزوجِه، بعدَ السَّكنِ في الجنَّة، كالحكم على الواحدِ، أي: بتساويهما في مباشرة المأمورِ به، فإنَّ حواءَ أُسْوةٌ له عليه السلام في حقِّ الأكلِ، بخلافِ السَّكنِ، فإنَّها تابعةٌ له فيه، فلا خصوصيَّةَ لآدم على زوجِه بعد سكنِهما في الجنَّة[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِنۡ﴾:

سعةُ الجنَّةِ وكَثْرةُ مآكلِها، دليلٌ على سعةِ عطاءِ الله

أفادت ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ ابتداءَ حيثيَّةِ مشيئتِهما؛ لإباحةِ الأكلِ في أماكنِها دونَ غايةٍ تنتهي إليها مشيئتُهما؛ للإشعارِ باتِّساعِ مساحةِ الجنَّة، وكَثْرةِ مآكِلها، وفي الحديثِ القُدُسيِّ: «أَعدَدْتُ لعبادي الصَّالِحين، مَا لا عينٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعتْ، وَلَا خطر على قلب بشر»[2]، قال المناويُّ في شرحه: "ولا شكَّ أنَّ نعيم الجنَّة وتُحَفَها، شيءٌ لا يمكن للإنسان أن يصفه؛ لأنَّه باقٍ لا يَلْحَقُه التَّغييرُ والانحلال، ولا العَطَب

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/220، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/354.
(2) رواه أحمد، والشّيخان، والتّرمذيّ، وابن ماجه عن أبي هريرة، والطّبرانيّ في الأوسط عن أنس، وابن جرير عن أبي سعيد، وعن قتادة مرسلًا. ينظر: عبد الرؤوف المناويّ، الإتحافات السّنيّة بالأحاديث القدسيّة، ص: 37.

والاضمحلالُ، بخلافِ مَلذَّات الدُّنيا ونعيمها، فإنَّها سريعةُ الفناء، قليلُ الانتفاعِ بها"[1].

مناسبةُ العمومِ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾:

وسَّعَ في الأكلِ مِن شَجرِ الجنَّة؛ تعويضًا عنِ المنهيِّ عنها

لـمَّا كان ﴿حَيۡثُ﴾ للمكان المُبهم؛ دلَّ على العموم، فبدلًا مِن أن يقول: فَكُلا مِن هذا المكانِ وهذا المكانِ، على سبيل التَّعداد؛ أوجزَ، فعبَّر بالاسم المبهم على معنى العموم، ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾، أي: فَكُلا من أيِّ مكانٍ مِنَ الجنَّةِ شئتُما، فأطلقَ لهما الأكلَ مِنَ الجنَّةِ على وجهِ التَّوسعةِ البالغة، إزاحةً للعلَّةِ ولِلعُذْرِ، في التَّناولِ مِنَ الشَّجرةِ المنهيِّ عنها، مِن بينِ أشجارِها الفائتة[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿شِئۡتُمَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾:

الأكلُ مِن ثمارِ الجنانِ الفِساحِ، مُيسَّرٌ مُتاحٌ لآدمَ وزوجِه

عُبِّرَ بـ﴿شِئۡتُمَا﴾ للإشعارِ بأنَّ الأمرَ بالأكل مِن ثمارِ الجنَّة، مُيسَّرٌ مُتاحٌ لآدم وحوَّاء على وَفق مشيئتِهما، زيادةً في التَّكريم والامتنانِ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

كمالُ العنايةِ بتمييزِ الشَّجرةِ المنهيِّ عن قُربِها إزاحةً للعُذرِ

عُبِّرَ باسم الإشارة لكمالِ العنايةِ، بتمييزِ الشَّجرة المنهيِّ عن قُربِها أكملَ تمييزٍ، فدلَّ اسمُ الإشارة على أنَّ "الظَّاهرَ أنَّه أشار إلى شخصِ شجرةٍ واحدةٍ، مِن نوعٍ مُعيَّنٍ وأرادها، ويَحتمِل أن يشير إلى شجرةٍ معيَّنةٍ وهو يريدُ النَّوع بجملته، وعبَّر باسم الواحدة، كما تقولُ: أصابَ النَّاسُ الدِّينارَ والدِّرهم، وأنت تريد النَّوع"[3].

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على البدلِ في قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

الاعتناءُ بالتَّعريفِ بالشَّجرةِ المنهيِّ عنها إفصاحٌ وإيضاحٌ

لـمَّا كان المقامُ مقامَ اعتناءٍ بالشَّجرةِ للتَّحذيرِ من قُربِها والأكلِ منها؛ استدعى الأمرُ إعادةَ الكلامِ بلفظٍ أوفى مِن اسم الإشارة، وهو: ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾، فصار البدلُ أوفى مِن اسم الإشارة؛ لاقترانه

(1) المناويّ، الإتحافات السّنيّة بالأحاديث القدسيّة، ص: 37.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/127، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/72.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/328.

باسم الإشارةِ؛ ولِيظهرَ القصدُ مِن اسمِ الإشارة مِن جهةٍ أخرى، فيظهرَ بمجموع القصدين إليه؛ في اسم الإشارة: ﴿هَٰذِهِ﴾، والاسم المعرَّف: ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾، أعني: المُبْدَلَ منه والبدلَ، مَزيدُ الاعتناءِ بالتَّعريفِ بالشَّجرة؛ ليتَّضحَ الأمرُ تمامَ الإيضاح(1).

❁ بيانُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

مقامُ تعدادِ النِّعم يناسبه استقلالُ كلٍّ منها بالواوِ:

يـأتي اللَّـفـظُ لـتـعـدادِ النِّعَمِ، أو بيانِ استقلالِها، أو زيادتِها

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: 35] بالواوِ، وقال هاهنا: ﴿فَكُلَا﴾ بالفاءِ، والعلَّة: أنَّ ما جاء في سورةِ البقرة، لمَّا كان في مقام الامتنانِ والتَّذكير بنِعم الله، ويدلُّ عليه قولُه تعالى قبل ذكر قصَّة آدمَ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 28 - 29]، وقال بعد قصَّة آدمَ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: 40]، فلمَّا كان السِّياقُ في مقام تعدادِ النِّعم ناسبَه تعدادُ النِّعم على آدمَ بذكر الواو؛ ليكونَ الإسكانُ نعمةً مستقلَّةً، والأكلُ نعمةً مستقلَّةً أُخرى، وناسبه كذلك ذِكْرُ ﴿رَغَدًا﴾ [البقرة: 35] في آيات البقرة؛ لإشعارِ اللَّفظة بزيادةِ النِّعمة ورخائها، وأمَّا في سورة الأعرافِ؛ فإنَّها مِن تتمَّة السِّياقِ الواردِ في النَّشأةِ الأُولى للبشر وشياطين الجنِّ، أُنزلت تمهيدًا لبيانِ كرامةِ آدمَ عند الله، وما رتَّبهُ له في الجنَّة، ولهداية النَّاسِ بما يتلوها مِن الآيات، في وعظ بني آدمَ، وتحذيرهم مِن اتِّباع إبليس اللَّعين، وإرشادهم إلى ما تكمُلُ به فطرتُهم، فناسب مجيءُ الفاءِ في قوله: ﴿فَكُلَا﴾؛ ليكونَ مُرتَّبًا على الإسكانِ في الجنَّة(2).

---

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 253.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/307.

تنوّعُ التَّعبيرِ بينَ الواوِ والفاء، تناوبٌ في ذكرِ مطلقِ الأكلِ ونوعِهِ:

المفهومُ مِنَ الفاءِ داخلٌ تحت المفهومِ مِنَ الواو؛ وجامعُهما التَّشريكُ

ذكر الفخر الرَّازيُّ في توجيه المتشابه اللَّفظيِّ في السُّورتين سببًا آخرَ، فرأى: أنَّه لـمَّا كانتِ الواو تُفيد الجمعَ المطلق، والفاءُ تُفيد الجمع على سبيل التَّعقيبِ، كانَ المفهومُ مِنَ الفاء نوعًا داخلًا تحت المفهوم مِنَ الواو؛ لاجتماعهما في التَّشريك، ولا مُنافاة بينَ النَّوع والجنس، ففي سورة البقرةِ ذَكَر الجنسَ، وهو مُطلقُ الأكل، وفي سورة الأعراف ذكر النَّوع، وهو الأكلُ المرتَّب على الإسكانِ في الجنَّة[1].

السُّكنى لا تستدعي زمانًا ممتدًّا، يُجمعُ فيه بينَ الاتِّخاذِ والأكل:

زادَ في البقرة (رغدًا)، لـمَّا زاد في الخبر تعظيمًا

قال النِّيسابوريُّ في بيان سرِّ المتشابهِ اللَّفظيِّ هنا: "لأنَّ ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ هاهنا مِنَ السُّكنى الَّتي معناها: اتِّخاذُ الموضع مسكنًا، وهذا لا يستدعي زمانًا ممتدًّا، يمكن الجمع بينَ الاتِّخاذِ والأكل فيه، بل يقع الأكلُ عقيبَه، وفي البقرة: مِنَ السُّكون الَّذي يُراد به الإقامةُ، فلم يَصلُح إلَّا بالواو؛ فإنَّ المعنى: اجمعا بينَ الإقامة فيها والأكلِ مِن ثمارها، ولو كان بالفاء؛ لوجبَ تأخيرُ الأكلِ إلى الفراغ مِنَ الإقامة، وإنَّما زاد في البقرة ﴿رَغَدًا﴾ [البقرة: 35]، لـمَّا زاد في الخبر تعظيمًا بقوله: ﴿وَقُلۡنَا﴾" [البقرة: 35][2]

العطفُ بالواوِ والفاء أوفى بالمعنى في موقعِ استعمالِه المعجز:

التَّمتُّعُ بالرَّغدِ عَقِبَ السُّكنى، مِنَّةٌ مُؤذِنةٌ بتمامِ الإكرام

قال ابن عاشورٍ في الفرق بينهما: "﴿وَكُلَا﴾ في البقرة بالواو، وهنا بالفاء، والعطف بالواو أعمُّ، فالآية هنا أفادت: أنَّ اللّٰه تعالى أذنَ لآدمَ بأنْ يتمتَّع بثمار الجنَّة عَقِبَ أَمْرِه بسُكنى الجنَّة، وتلك مِنَّةٌ عاجلةٌ تُؤْذِنُ بتمام الإكرام، ولـمَّا كان ذلك حاصلًا في تلك الحضرة، وكان فيه زيادةُ تنغيصٍ لإبليسَ، الَّذي تكبَّر، وفضَّل نفسَه عليه، كان الحالُ مقتضيًا إعلامَ السَّامعين به في المقامِ الَّذي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/217.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/217.

حُكِيَ فيه الغضبُ على إبليسَ وطَرْدُه، وأمَّا آيةُ البقرة؛ فإنَّما أفادتِ السَّامعين: أنَّ اللّه امتنَّ على آدمَ بمِنَّةِ سُكنى الجنَّةِ والتَّمتُّعِ بثمارِها؛ لأنَّ المقامَ هنالك لتذكيرِ بني إسرائيل بفضلِ آدمَ وبذنبِه وتوبته، والتَّحذيرِ من كيدِ الشَّيطانِ، ذلك الكيدُ الَّذي هم واقعونَ في شيءٍ منه عظيم، على أنَّ آية البقرة، لم تَخْلُ عن ذِكْرِ ما فيه تَكْرِمَةٌ له، وهو قوله: ﴿رَغَدًا﴾ [البقرة: 35]؛ لأنَّه مَدْحٌ للمُمْتَنِّ به، أو دعاءٌ لآدمَ، فحصل من مجموع الآيتين عِدَّةُ مكارمَ لآدمَ، وقد وُزِّعتْ على عادة القرآنِ في توزيع أغراضِ القَصصِ على مواقعِها؛ ليَحْصُلَ تجديدُ الفائدة، تنشيطًا للسَّامع، وتفنُّنًا في أساليبِ الحكاية؛ لأنَّ الغرضَ الأهمَّ مِنَ القَصَصِ في القرآن، إنَّما هو العبرةُ والموعظة والتَّأسِّي[1]، والمناسباتُ المذكورةُ في توجيه المتشابهِ اللَّفظيِّ يُكَمِّل بعضُها بعضًا، والاكتفاءُ بواحدٍ منها، يكفيكَ مؤونةَ السَّهرِ إلى السَّحرِ، والجمعُ بينها إظهارٌ للدُّرر.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظةِ ﴿تَقْرَبَا﴾ في ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

القُربُ مِنَ الشَّيءِ مِن مُقدِّمات التَّناولِ

إنَّ اللّه تعالى لـمَّا أرادَ النَّهيَ عن أكلِ الشَّجرة؛ نهى عنه بلفظةٍ تقتضي الأكلَ وما يدعو إليه، وهو القُرْبُ؛ لأنَّ القُرْبَ من مقدِّمات التَّناول[2].

بلاغةُ النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

النَّهيُ يقتضي البُعدَ عن موارد الشُّبهات وما يُلهي عن مقتضى المأمورات

في النَّهي مبالغاتٌ متنوِّعة، فتعليقُ النَّهي بالقُرْبِ الذي هو من مُقدِّماتِ التَّناول، مبالغةٌ في تحريمه، ووجوبِ الاجتنابِ عنه، فإنَّه لم يُرِدْ بالنَّهي الدُّنُوَّ مِنَ الشَّجرة، ولكن أراد الذَّوقَ والأكلَ منها؛ لأنَّه قال: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾، كما أنَّ في النَّهي تنبيهًا على أنَّ القُربَ مِنَ الشَّيءِ يُورثُ داعيةً ومَيْلًا، يأخذ بمجامعِ القلب، ويُلْهيه عمَّا هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/54.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/127.

مقتضى العقلِ والشَّرعِ، وفيه: إشعارٌ بأنَّ النَّهيَ يقتضي البُعدَ عن موارد الشُّبهات الَّتي تُغْري بالمَنهيِّ، وتُفضي إليه ورعًا واحتياطًا(1).

دلالةُ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

جعلَ اللهُ القربَ مِنَ الشَّجرةِ سببًا في ظُلمِ الأنفسِ المُؤثِّرة

الأجودُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، في موضع نصبٍ على جواب الأمرِ بالفاء، أي: فإنَّكما إنْ قَرِبْتُماها كنتُما مِنَ الظَّالمين. ويجوز أنْ يكون في موضع جزم، عطفًا على قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، أي: فلا تقربا هذه الشَّجرةَ، فلا تكونا مِنَ الظَّالمين، وسواءٌ جعلتَ الفاء للجواب، أو للطَّلب، أو للعطف على النَّهي، فإنَّها تُفيدُ السَّببيَّة، بمعنى: جعلَ القُربَ مِنَ الشَّجرة سببًا لأن يكونا مِنَ الظَّالمين، الَّذين ظلموا أنفسَهم بارتكاب المعاصي، أو بنقص حظِّهما، بالإتيان بما يُخِلُّ بالكرامة والنَّعيم(2).

علَّةُ إيثارِ لفظةِ: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون سواها مِنَ المترادفات:

العصيانُ ظُلمٌ لحقِّ ربِّ العالمين

لـمَّا كان آدمُ ﵇ قد ظلمَ نفسَهُ بإلقائها في العواقب السَّيِّئة، أو كان قدِ اعتدى على حقِّ غيرِه؛ فإنَّ العصيانَ ظُلْمٌ لحقِّ ربِّ العالمين، الواجبِ طاعتُه؛ استحقَّ أن يكون مِنَ الظَّالمين(3)، والأكلُ مِنَ الشَّجرةِ سببٌ للعصيانِ، حيث أفاض السِّياق "وبيَّن أنَّهما إذا أكلا منها؛ كانا مِنَ الظَّالمين لعصيان أمر ربِّهما، ولضعف إرادتهما، وأوَّل الظُّلم ضعفُ إرادة الظَّالم، وكان نَهْيُ اللّهِ تعالى لهما، ألَّا يقربا هذه الشَّجرة، والنَّهيُ عنِ القُرْبِ نهيٌ عنِ الأكل بالأولى"(4).

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/377، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/72.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/326، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/72.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/56.

(4) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 5/2798.

﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين امتحان الإنسان، ووسوسة الشَّيطان؛ لإخراجه من الجنان

لـمَّا أسكن اللّهُ آدمَ وزوجَه الجنَّة، ونهاهما عنِ الأكلِ مِن تلك الشَّجرةِ، لم يزالا ممتثلَين لأمرِ اللّه حتَّى وَسوسَ لهما الشَّيطانُ؛ لبيانِ حالِ الحاسدِ مع محسودِه، فيما سألَ الإنظارَ بسببِه، فكانت وسوسة الشَّيطان بقُربِ نَهي آدمَ عنِ الأكلِ مِنَ الشَّجرة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَوَسۡوَسَ﴾: مِنَ الوَسوسة الخَطْرةُ الرَّديئةُ، ويُقالُ: لصوت الحَلْي، وللهمْسِ الخفيِّ، أو القولِ الخفيِّ لقصدِ الإضلالِ: وِسْوَاس(2)، وسمِّي إلقاءُ الشَّيطان في نفس ابنِ آدمَ: وَسْوَسة؛ إذ هي أبلغ السِّرار وأخفاه، والوَسْوَاسُ: اسْمُ الشَّيْطَانِ، و﴿فَوَسۡوَسَ﴾ هنا بمعنى: حدَّثهما الشَّيطانُ بالقول الكَذِب، بالهَمْسِ الخفيِّ، أو بما ألقاه في قلبهما لأجلهما(3)، "وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ﴾ [النّاس: 4]، أراد ذي الوِسْواسِ، وفلانٌ المُوَسْوِسُ: الَّذي يعتريه الوَسْواسُ، ووَسْوَسَ الرَّجُلَ: كلَّمَهُ كلامًا خفيًّا"(4).

2) ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: مأخوذٌ من شَطَنَ، أي: تباعَدَ، ومنه: بِئْر شَطُونٌ، وشَطَنَتِ الدَّار، والشَّطَنُ: الحَبْلُ؛ لأنَّه بعيد ما بينَ الطَّرفين، فسُمِّي

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/372، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/56.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وسس) أو (وسوس).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/347، والبغوي، معالم التنزيل: 2/142، وابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/384.

(4) ابن سيده المرسّي، المحكم والمحيط الأعظم: (وسوس).

الشَّيطانُ بذلك لبُعْده عنِ الحقِّ وتمرُّدِه، وذلك أنَّ كلَّ عاتٍ مُتمَرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ شيطانٌ، وذهب بعضُ اللُّغويِّين إلى أنَّ النُّون فيه زائدةٌ، أي: مأخوذٌ مِن شَاطَ يَشِيطُ، أي: احترق غضبًا، فَالشَّيْطَانُ مخلوق مِنَ النَّار، ولكونه مِن ذلك اختصَّ بفَرْط القوَّةِ الغضبيَّةِ، والحَميَّة الذَّميمة، وامتنع مِنَ السُّجود لآدمَ، ويُطْلَقُ الشَّيطانُ ويُراد به إبليسُ نفسُه[1].

3) ﴿لِيُبْدِيَ﴾: بدا الشَّيءُ بمعنى: ظهر ظُهورًا بيِّنًا، بعدَما كانَ خفيًّا، وسُمِّيَّ البَدْوُ بَدْوًا؛ لأنَّهم في بَراز مِنَ الأرض، وليسوا في قُرى تسترهم أبنيتُها، والباديةُ خِلافُ الحاضرة[2]، "(وافعَلْهُ بَدْءًا): ما تريد أوَّل شيء، و(هاتِها مِن ذي تبدَّأت)، أي: أَعِدِ الكلمةَ أو القِصَّةَ مِن أوَّلها، وأَبْدَأَ في الأمر وأعاد، واللهُ المُبدئُ المُعيدُ، وفلانٌ ما يُبْدِئ وما يُعيدُ؛ إذا لم يكن له حِيْلَةٌ. قال عَبيد بن الأبرص:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ *** فَاليَوْمَ لَا يُبدي وَلَا يُعِيدُ[3].

4) ﴿وُۥرِيَ﴾: سُتِرَ أو غُطِّيَ، يُقال: وَارَيْتُ كذا؛ إذا سترتُه، وتوارى؛ إذا استتر، والتَّورية في الكلام؛ إذا سترَ كلامًا، وأظهر غيرَه، ومنه الوراء بمعنى: الخَلْف؛ لاستتاره عنِ الرَّائي[4]، "ووريتُ الشَّيءَ وأوريتُه أخفيتُه، وقيل: وَرَيتُ الخبرَ: جعلتُه ورائي، وسترتُه عن كراع، وليس مِن لفظ وراء؛ لأنَّ لام وراء همزة، وفلانٌ وَرِيُّ فلانٍ، أي: جاره الَّذي تُواريه بيوتُه وتسترُه"[5].

5) ﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾: السُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِنَ الأمور الدُّنيويَّة والأخرويَّة، وعُبِّر عن كلِّ ما يَقْبُح بالسُّوء، ولذلك سُمِّيتِ السَّيِّئة سيِّئةً، فهو مِنَ الأسماء الجامعةِ للآفات، ثمَّ استُعمل في كلِّ ما يُستقبح، وكُنِّي عنِ الْفَرْجِ بالسُّوء؛ لأنَّه يَسوءُ صاحِبَها انكشافُها مِن جَسَدِه، و﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ بمعنى: عَوْراتهما[6]، "والسَّوءة: ما يسوءُ الإنسانَ مِن أمرٍ شائنٍ وعملٍ قبيحٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات (شطن)، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/384.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بدو).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بدأ).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وري).
(5) ابن سيده المرسّي، المحكم والمحيط الأعظم: (وري).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سوء)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 74.

والسَّوءةُ السَّوءَاء: الخَلَّة القبيحةُ، والمرأةُ المخالِفة، قال في حقيقة الأساس: وسوءَةٌ لك، ووقعت في السَّوءةِ السَّوءاء، قال أبو زبيدٍ:

لَمْ يَهَبْ حُرْمَةَ النَّدِيمِ وَحَقَّتْ *** يَا لَقَوْمِي لِلسَّوْءَةِ السَّوْءَاءِ[1]

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لـمَّا أباح اللهُ تعالى لآدمَ عليه السلام ولزوجته حواءَ نِعَمَ الجنَّة، بأن يأكلا منها مِن جميع ثمارِها، إلَّا شجرةً واحدةً، حسدهما الشَّيطانُ، وسعى في المكرِ والخديعةِ والوسوسة، ليُسلبا ما هما فيه مِنَ النِّعمة واللِّباس الحسن، فقال كَذِبًا وافتراء: نهاكما ربُّكما عن أكل الشَّجرةِ لكي لا تكونا مَلَكين، أو خالِدَين هاهنا، ولو أنَّكما أكلتُما منها لحصلَ لكُما ذلكما[2].

بيانُ وسوسةِ إبليسَ لآدمَ وإغرائِه بالملائكيَّةِ والخلودِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

أفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّة، بمعنى: إسكانُ اللهِ آدمَ وزوجَه في الجنَّة أظهرَ حَسَدَ الشَّيطانِ، وكان سببًا لوَسْوَسته، فالوَسْوَسةُ مُسبَّبَةٌ عن تكرمةِ الله إيَّاهما، كما أفادتِ الفاءُ التَّعقيبَ، بمعنى: قُرْبِ الوَسوسة من إسكانِ آدمَ، إشارةً إلى أنَّه قُرب قريب؛ لأنَّ تعقيب كلِّ شيءٍ بحسبه[3].

كلُّ ذي نعمةٍ محسودٌ، والحسودُ لا يسودُ

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

سُمِّيَ إلقاءُ الشَّيطان وَسْوَسةً؛ لأنَّه ألقى إليهما تسويلًا خفيًّا، مِن كلامٍ كلَّمَهُما به، أو انفعالٍ في أنفسِهما، فإنَّ الوَسْوَسةَ تكون بأبلغِ الإسرارِ وأخفاه، كهيئة الغاشِّ الماكر؛ إذ يُخفي كلامًا عنِ الحاضرين، كيلا يُفسِدوا عليه غِشَّهُ بفضح مَضارِّه، فإنَّ الوسوسة

الوسوسةُ تكون بأبلغِ الإسرارِ، ولاتكونُ إلَّا فيما هو ضارٌّ

(1) محمّد رضا، تفسير المنار، ص: 74.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/397.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/56.

لا تكون إلَّا فيما هو ضارٌّ، وليوهمَهُما أنَّه يُخلِصُ لهما النَّصيحةَ، بإلقائهِ الكلامَ لهما في صورة التَّخافت[1].

بلاغةُ تكرارِ الصَّوتِ في الفعل: ﴿فَوَسْوَسَ﴾:

تكرارُ الصَّوتِ، يشعرُ بتكرارِ إلقاءِ الكلامِ الخفيِّ

تُؤْذِنُ صيغةُ: ﴿فَوَسْوَسَ﴾ بتكرُّر تسويلِ الشَّيطان، بأبلغِ الهمسِ الخفيِّ الضَّارِّ، وتكرارُ الصَّوتِ في وسوس كما في (زلزل)، يُشْعِرُ بتكرارِ إلقاء الكلامِ الخفيِّ؛ للإشعارِ أنَّ الشَّيطان لم يكتفِ بالتَّسْويل مرَّةً واحدةً[2]، بل هو يفعلُ ذلك بالعشيِّ والإبكارِ، دون كَللٍ يُذكر، ولا مَللٍ يُؤثر، ويبقى على ذلك، حتَّى يوقعَ الإنسانَ في أباطيلِه، فيَضِلَّ عنِ الصِّراط السَّويِّ القويم.

مناسبةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

الشَّيطانُ ملعونٌ قبيحٌ، والشَّيءُ مِن معدنِه لا يُستغرَبُ

لـمَّا كانتِ الوسوسة تجرُّ إلى الباطلِ والسُّوء، ناسبها ذِكرُ الشَّيطانِ، لِمَا في اللَّفظ مِن معنى التَّمرُّد والعُتوِّ، والبُعْد عنِ الحقِّ. وأيضًا: لـمَّا كان لفظ الشَّيطانِ مُشعرًا بالقُبح، وهو أقبحُ ما يكونُ مِنَ الأشياء، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾ [الصَّافات: 65]؛ دلَّ على أنَّ وَسْوَستَه أقبحُ ما يكون، فالقبيحُ لا يَصدرُ منه إلَّا القبيحُ.

توجيهُ اللَّامِ بينَ العاقبةِ والتَّعليلِ في جملة ﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا﴾:

مُرادُ إبليسَ إشراكُ آدمَ وزوجِهِ فِي المُخَالَفَةِ

تَحتمِلُ اللَّامُ في قوله: ﴿لِيُبۡدِيَ﴾ أنْ تكونَ مستعارةً للعاقبة والصَّيرورة، وذلك لأنَّ الشَّيطان لم يقصد بالوَسْوَسة ظُهورَ عورتِهما، ولم يعلم أنَّهما إنْ أكلا مِنَ الشَّجرة؛ بدت عوراتُهما، ولم يخطر له ببالٍ، وإنَّما كان قصدُه: أنْ يحملَهُما على المعصية فقط، وإنَّما آلَ الأمرُ إلى انكشاف عورتيهما، أي: عاقبةُ الوسوسةِ أدَّت إلى ظهورِ عورتيهما، ولم تكنِ الوسوسةُ لظهورها. كما تَحتمِلُ اللَّامُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/56.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/94، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/355.

أنْ تكونَ للتَّعليل على أصلِها، وذلك أنَّه أراد بوسوسته أن يَسُوءَهما بانكشافِ عورتيهما، ولذلك عبَّر عنهما بالسَّوءةِ، أي: جعل ذلك غرضًا له ليَسُوءَهما، إذا رأيا ما يُؤْثِران سَتْره، وألَّا يُطَّلع عليه مكشوفًا، أو أراد بوسوسته حطَّ مرتبتِهما وإلقاءَهما في العقوبة، بأنْ يَجعَل بُدوَّ العورةِ كنايةً عن سقوط الحُرمَةِ، وزوالِ الجاه، والمعنى: أراد كَشْفَ ما يَنْبَغِي سَتْرُهُ، وَأَلَّا يَجْتَنِبَا نَهْيَ اللهِ، فَيَكُونَ هُوَ وَهُمَا سَوَاءً فِي الْمُخَالَفَةِ، هُوَ أُمِرَ بِالسُّجُودِ فَأَبَى، وهما نُهيَا، فلم يَنْتَهِيَا[1].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في جملة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾:

أُسْنِدَ إبداءُ السَّوءاتِ إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّه المتسبِّبُ فيه

لمّا كانتِ الوسوسةُ من الشَّيطان؛ ناسبَ أن يُجْعَلَ له غرضٌ فيها، ليتمَّ ادِّعاءُ كونهِ فاعلًا الفعلَ القبيحَ، وكونه قاصدًا من وسوستِه أقبحَ ما يظهر من القبيحِ، كشأنِ المخادعين في أن يكونَ لهم أغراضٌ، أو عللٌ في أفعالِهم، إتمامًا للكيدِ، فأسندَ إبداءَ السَّوءات إلى الشَّيطان؛ لأنَّه المتسبِّبُ فيه على طريقة المجاز العقليِّ[2].

دلالةُ صيغةِ: ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾ مِنَ الآيةِ الكريمة:

المبالغةُ في التَّعبيرِ عنِ المواراةِ، حرصٌ على سترِ العوراتِ

لـمَّا كانت صيغةُ: ﴿وُورِيَ﴾ مأخوذةً مِنَ المواراةِ، على معنى المفاعلةِ؛ احتملَ اللَّفظُ أن يكونَ مفاعلةً مِن واحدٍ، لتكون الصِّيغةُ بمعنى: فَعَلَ. ونكتةُ مجيءِ الفعل بصيغة المفاعلة: هي الإشعارُ بالمبالغةِ في سترِ العورةِ، والتَّحرُّز مِن أن يُرى منها شيءٌ. ويمكن أن تُقدَّرَ المفاعلةُ مِن اثنين؛ لأنَّ الشَّيءَ الَّذي يُوارى، هو أيضًا يُوارِي، مِن جهة قبولِه المواراةَ على سبيلِ المجاز[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/95، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/384، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/8، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/25، وروح المعاني، الآلوسيّ: 4/339، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/355.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/57.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/385.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مَا وُۥرِيَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا﴾ لـمَّا كان (عَنْ) للمُجاوزة؛ دلَّ على أنَّ سوءاتِهما كانت مستورةً عن أنفسهما، ولـمَّا كانا لا يريانِها مِن أنفسهما، فعدمُ رؤيةِ أحدهما مِنَ الآخر بطريق الأولى[1]، "وفيه دليلٌ على أنَّ كشف العورةِ في الخَلوة، وعند الزَّوجِ من غير حاجة، قبيحٌ مُستهجَنٌ في الطِّباع"[2].

سوءاتُ آدمَ وحوَّاءَ كانت مستورةً عنهما بسترِ اللهِ

مناسبةُ تقديمِ لفظِ ﴿عَنْهُمَا﴾:

أصلُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا﴾: (ليُبديَ لهما ما وُورِيَ مِن سوءاتِهما عنهما)، فقُدِّمَ ﴿عَنْهُمَا﴾ للعنايةِ والاهتمامِ بستر عورتَيْهما عن أنفسهما، فإنَّ مَن سَترَ عورتَه عن نفسه، فأن لا يراها غيرُه بطريق الأولى.

مَن سترَ عورتَه عن نفسِه، فَسَتْرُها مِن بابٍ أولى عن غيره

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ في قولِه تعالى: ﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾:

لـمَّا كانتِ السَّوءةُ بمعنى: العورة، كان مجيءُ لفظةِ سَوْءَةٍ بصيغة الجمع في قوله: ﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ على خلافِ الأصل، كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التّحريم: 4]، ونكتتُه: أنَّه إمَّا أن يكون من وَضْعِ الجمعِ مَوْضِعَ التَّثنيةِ؛ كَراهَةَ اجتماعِ مِثْلَيْن للتَّخفيفِ في اللَّفظ، ولتعظيم شأنِ إبداء السَّوءَة، فكأنَّ مَن أظهر عورتَه؛ أظهر كلَّ سوءاتِه، وكلَّ ما يَعيبُه، وإمَّا أن يكون على أصل وَضْعِه، باعتبارِ أنَّ كلَّ عورةٍ هي الدُّبُرُ والفَرْجُ، وذلك أربعةٌ: فهي جَمْعٌ[3].

كشفُ العورةِ مِنَ المنكراتِ، وهو مستهجنٌ في كلِّ المجتمعاتِ

دلالةُ العطْفِ في قوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا﴾:

إمَّا أن يكونَ العطفُ على معنى بيان الوَسْوَسةِ، فيكون ما وَسْوَسَ بِهِ الشَّيطانُ هو قولُه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن

مراودةُ إبليسَ وقسَمُه، خدَعا آدمَ وزوجَه، فانساقا لمُراده

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/356.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 3/220.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/25.

﴿تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، ويكون العطف بالواوِ مِن عطف التَّتابع، بمعنى البيانِ، أو أن يكونَ العطفُ على المغايرةِ، أي: إنَّ الشَّيطان قد وسوس لهما بطريق خَفِيٍّ، ثمَّ حاورَهما بعدَ ذلك، فثنَّى وسوسته، بأنْ قالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا﴾، فيكون مِن تكرار الوسوسة، وفي هذا العطف إشعارٌ، بأنَّ آدم وزوجَهُ تردَّدا في الأخذِ بوسوسة الشَّيطان أوَّلًا، فأخذَ الشَّيطانُ يراودُهما، وأقسمَ لهما، حتَّى أكلا مِنَ الشَّجرةِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَبُّكُمَا﴾:

اللهُ تعالى مالكُ الجنَّة، ومُدبِّر أمرِها، وهي مِن فيوضاتِ نعمهِ على عبادهِ

عَبَّر بـ﴿رَبُّكُمَا﴾ من قولِه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ولم يقل: (ما نهاكما اللّه)؛ للإشعار بأنَّه تعالى هو مالك الجنَّة ومُدبِّرها، وليُسَهِّل إبليسُ أمرَ المخالفة؛ لما يُشعِرُ به لفظُ الرُّبوبيَّة من معنى الرِّعاية لمربوبيه والإنعامِ عليهم، وقد أَبْعَد ضميرَ الجمعِ بأن يقول: (ربّكم)، واستعمل ضميرَ المثنَّى: ﴿رَبُّكُمَا﴾؛ ليستثني نفسَه مِنَ الخطابِ، وهذا لونٌ مِنَ التَّأبِّي والكبرياء، وكأنَّه مُستغنٍ عنِ الرُّبوبيَّة المشفقةِ.

مناسبةُ مجيءِ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ في قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

تَنوُّعُ إغراءاتِ الشَّيطان؛ لتزيين الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ

في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، أعادَ الشَّيطانُ الإشارةَ إلى الشَّجرةِ باسم الإشارةِ الَّذي يدلُّ على القريب، بعد أن صارت معروفةً لهما؛ للإشعار بسهولةِ الأكلِ منها، زيادةً في إغرائِهما بالمعصية بالأكلِ مِنَ الشَّجرة[2].

دلالةُ الاستثناءِ المفرَّغ:

تعظيمُ شناعةِ الوسوسةِ، وأثرُها في الضَّلالِ والمَفسدةِ

لـمَّا كان الاستثناءُ المفرَّغُ على معنى نفي أعمِّ الأشياءِ وإثباتِ ما بعد ﴿إِلَّآ﴾؛ ليكونَ الحصرُ على أتمِّهِ وأوعبِه؛ دلَّ في قوله: ﴿مَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/220، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/59.

﴿نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، على عظيم شناعةِ وسوسةِ الشَّيطانِ؛ ليكونَ المعنى نفيَ أيِّ علَّةٍ أو غرض في النَّهي عنِ الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ، قائلًا لهما بأنَّ علَّة ذلك: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾.

في الاستثناءِ المفرَّغ تنوُّعٌ في التَّوجيهِ وتكثيرٌ للمعنى:

شرفُ التَّوقِ للصُّعودِ إلى مرتبةِ الملائكيَّةِ، يُغري بالمجازَفَةِ والغوايةِ

لمَّا كانَ الاستثناءُ مفرَّغًا مِنَ المفعولِ لأجلِه، ويقتضي تقديرًا ليتمَّ المعنى، على ما يدلُّ عليه السِّياق، كان توجيهُ الاستثناءِ على ثلاثةِ أوجهٍ؛ أحدها: أن يكونَ من نفي العلَّة، والمعنى: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشَّجَرَةِ لعلَّةٍ، إلَّا لأن تكونا مَلَكين، والثَّاني: أن يكونَ بتقدير (لا) النَّافيةِ بعد (أنْ)، والمعنى: ما نهاكما ربُّكما عن هذهِ الشَّجرةِ إلَّا ألَّا تكونا مَلَكين، والثَّالثُ: وهو ما ذهب إليه كثيرٌ مِنَ النُّحاة والمفسِّرين، مِن أنَّ الكلامَ بتقدير الاسمِ، والمعنى: كراهةَ أنْ تكونا مَلَكين[1].

مناسبةُ الحصرِ في جملةِ الاستثناءِ في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ﴾:

قاومَ آدمُ وحواءُ إغـواءَ إبليسَ بقوَّةٍ

مجيءُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، بطريقِ الحصرِ بالنَّفي والاستثناء، أفاد أنَّ آدمَ وزوجَه كانا مُصرَّين على ألَّا يأكلا مِنَ الشَّجرة الَّتي نهى اللهُ عن قُربها، فأوهمَهُما الشَّيطانُ بوسوستهِ وكلامِه المعسولِ، أنَّهما مخطئانِ في إصرارِهما على عدمِ الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ[2]، وهذا مظهرٌ مِن مظاهرَ تلبيسِ إبليسَ على المؤمنين الطَّائعين، بحيث يثيرُ فيهم قناعاتٍ غيرِ مؤسَّسةٍ مِنَ النَّاحيةِ الشَّرعيَّة، ولا مقبولةٍ في العقلِ، ولا في المعهودِ مِنَ الدِّين، وقد وقعَ الحضورُ أخيرًا بالأكلِ مِنَ الشَّجرةِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/91، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/385، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/25، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/59.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294.

من مكْرِ إبليسَ، قَصْرُ الوسوسةِ عـلى الملائكيَّةِ والخلودِ

نكتةُ العطفِ بـ ﴿أَوْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، أغرى إبليسُ اللَّعينُ آدمَ وزوجَهُ وخدعَهما بذكرِ هذين الأمرينِ دونَ غيرِهما؛ لِما رآهُ آدمُ مِنَ الملائكةِ حين سجودِهم له، مِن قُربِهم مِنَ اللّهِ تعالى، وما ذاقَهُ والتذَّ بهِ في الجنَّةِ؛ ليكونَ أوثقَ في إقناعِهما بالأكلِ من تلْكُما الشَّجرةِ.

إمعانُ إبليسَ في المراوغةِ لإقناعِ آدمَ أنَّـه مِـنَ النَّاصحين

إفادةُ ﴿أَوْ﴾ التَّخييرَ مع جوازِ الجمعِ بينهما:

تُفيدُ (أو) التَّخييرَ، فذكرَ إبليسُ اللَّعينُ الأمرينِ على طريقةِ التَّخييرِ، مع جوازِ الجمعِ بينهما؛ إمعانًا في الخِداعِ، ليُشْعِرَ آدمَ أنَّه مِنَ النَّاصحينَ[1].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/215.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

ربطُ نصيحةِ إبليسَ المسمومةِ بِقَسَمِهِ بِأنَّهُ ناصحٌ أمينٌ

لـمَّا وَسْوَسَ الشَّيطانُ لآدمَ وزوجِه، وشعرَ أنَّهما في شكٍّ ممَّا قالهُ ونصحَ به، أرادَ تأكيدَ ما ألقاهُ لهما بأقوى المؤكِّدات، فجاء قولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾[1]، أي: إنَّ إبليس لم يكتفِ في خداعِ آدمَ وزوجِه بالوسوسة، ولا بالقولِ المجَرَّد مِنَ القسم، حتَّى أقسمَ على أنَّه ناصحٌ لهما[2]، وجاءتِ الآيةُ تحمل معنى التَّرقِّي في خِداعِ إبليسَ لآدمَ وزوجِه؛ إذ ذُكِر في الآية السَّابقةِ الوسوسةُ أوَّلًا، ثمَّ أعقبَها بالقول الَّذي يكونُ أكثرَ تأثيرًا مِنَ الإلقاء، ثمَّ ترقَّى في هذه الآيةِ إلى القسم باللّه تعالى، لِعِلْمِ اللَّعين بفظاعةِ عمله وشناعةِ قولِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: أصل معنى القَسَم: هو النَّصيبُ مِنَ الخيرِ، والقَسَمُ: الحَلِفُ أو اليمين، وأَقْسَمَ: حَلَفَ، وأصله مِنَ القسامَةِ؛ وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على أولياء المقتول، إذا ادَّعوا دمَ مقتولِهم على ناسٍ اتَّهموهم به، ثمَّ صار اسمًا لكلِّ حَلِفٍ، فمَن حَلَفَ على شيءٍ، كأنَّه أشهدَ غيرَه بأنَّ ما يقوله مِن نصيبِه ومِن قسمه، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ بمعنى: حَلَفَ لهما[3].

2) ﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾: جمعُ ناصحٍ، "وقومٌ نُصحاءُ، ورجل ناصحُ الجيبِ، أي: نقيُّ القَلْبِ، قال الأصمعيُّ: النَّاصحُ الخالصُ مِنَ العسلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/10.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/26.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 375، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قسم).

وغيرِه، مثل النَّاصع، وكلُّ شيءٍ خَلَصَ؛ فقد نَصَحَ، وانتصح فلانٌ، أي: قَبِلَ النَّصيحةِ، يقال: انتصِحْني إنَّني لكَ ناصحٌ، وتنصَّح، أي: تشبَّه بالنُّصحاءِ، واستنصحَهُ: عَدَّه نَصيحًا"[1]، ومن معناها ما قالَهُ النابغة الذُّبيانيُّ:

نَصَحْتُ بَنِي عَوْفٍ فَلَمْ يَتَقَبَّلُوا *** رَسُولِي، وَلَمْ تَنْجَحْ لَدَيْهِمْ وَسَائِلِي[2]

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِن سُبُلِ إغواءِ إبليسَ التَّلويحُ بالنُّصحِ

أقسَمَ إبليسُ لآدمَ وحوَّاءَ باللّهِ، إمعانًا في الإغواءِ، وإصرارًا على الوسوسة، أنَّه إذ قال لهما ما قال؛ فإنَّه لهما مِن جملة النَّاصِحِينَ[3]، وتأكيدُه ذلك بالأَيمانِ المُغلَّظةِ؛ إذ كان عندَهم محلَّ الشَّكِّ والظِّنَّة، لأنَّ اللّه تعالى كان قد أخبرهما أنَّه عدوٌّ لهما[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ صيغةِ المفاعلةِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾:

قد يُخدَعُ المؤمنُ باللّه، ولكنَّه ليس بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يخدعُهُ

جاءت صيغةُ المفاعلةِ في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾، على معنى المبالغةِ في القسم، وفاعَلَ قد يأتي بمعنى: أَفْعَلَ، نَحْوُ: بَاعَدْتُ الشَّيءَ وَأَبْعَدْتُهُ، فإذا صدر الفعل عن واحدٍ وجيء بزنةِ المفاعلة، دلَّ ذلك على المبالغة في الفعل، أي: إنَّ الشَّيطانَ اجتهد في القسمِ لهما اجتهادَ المقاسمِ ليَغْلِبَهُما، بمعنى: أنَّه جدَّ في قَسَمِه؛ لإقناعِهما بما قاله لهما، ويَحتمِل أن تكونَ الصِّيغةُ على أصلها، بمعنى: المشاركة، كأنَّهُ قال لهما: أُقسِمُ لكما إنِّي لمن النَّاصحينَ، وقالا له: أتُقسمُ باللّهِ إنَّك لمن النَّاصحينَ، فجعل ذلك مقاسمةً بينهم، أو أَقْسَمَ لهما بالنَّصيحة، وأَقْسَما له بقبولِها، فالقَسَمُ على هذا الوجهِ وقع مِنَ

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نصح).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (نصح).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 285.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 285.

الجانبين، لكنَّه اختلف مُتَعَلَّقُه، فهوَ أقسمَ لهما على النُّصْحِ، وهما أقسما له على القبولِ، وإنَّما يُعْلَم ما ذُكِر في الوجهِ الثَّاني والثَّالث، بالنَّقلِ عنِ المعصوم وليس ثمة نقل، فالوجهُ الأوَّلُ أولى[1].

مناسبةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾:

تزيينُ الباطلِ وتقريبُهُ مِنَ النَّفسِ، مِن فعلِ الشَّيطانِ ومُراوغاتِهِ

لـمَّا كانت نصيحةُ إبليسَ محلَّ الظِّنَّة والشَّكِّ عند آدمَ وزوجِه؛ لأنَّه تعالى أخبرَهما بأنَّه عدوٌّ لهما، أشعرَ أنَّ آدم كانَ مُنْكِرًا لوسوسةِ إبليسَ وقولِه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾، فأكَّد الشَّيطانُ دعواه بأشدِّ المؤكِّدات وأغلظِها، فقال مُخبرًا عنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾، فقد تتابعتْ خمسةُ مؤكِّداتٍ، وهي القسمُ، و(إنَّ)، ومجيءُ الكلام بطريق الجملةِ الاسميَّة، وتقديم ﴿لَكُمَا﴾، واللَّام، وعليه: فقد أفاد التَّأكيدُ بالقسم، وبـ (إنَّ)، ومجيءِ الكلام بأسلوبِ الجملة الإسميَّة، تأكيدَ مضمونِ الجملة أيَّ تأكيدٍ، لكونه مِنَ النَّاصحين، وأنَّ نُصْحَه ثابتٌ لهما.

دلالةُ التَّقديمِ لشِبهِ الجملةِ ﴿لَكُمَا﴾:

تخصيصُ النُّصحِ لآدمَ وحوّاءَ، يُستفادُ مِنَ السِّياقِ

أصلُ الكلامِ في قولِه: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾: (وقاسمهما إنِّي لمن النَّاصحين لكما)، فقَدَّم الجارَّ والمجرورَ؛ لإفادةِ تأكيدِ نُصْحِه، والاهتمامِ به وتخصيصه، والمعنى: تخصيصُ النُّصح لهما، وأنَّه إنَّما يَنصَحُ لأجلِهما، وقد "أقسمَ لهما قسمًا مُغلَّظًا: إنِّي لكما لمن النَّاصحينَ المخلصينَ، ثمَّ بعد هذا، ما زال يَخدعُهُما بالتَّرغيبِ، وبالوعدِ، وبالقَسَم، حتَّى نسيا موقفَهما مِنَ اللهِ، وأَمْرِه إليهما، وأسقطَهُما عمَّا كانا فيه مِن مكانةٍ ومنزلةٍ وطبيعةٍ"[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/95، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/220، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/26، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/220.

(2) الحجازيّ، محمّد محمود، التّفسير الواضح: 1/702.

ترسيخُ الإغـواءِ يقتضي التَّوكيدَ

دلالةُ التَّأكيدِ باللَّامِ في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾:

لـمَّا شعرَ الشَّيطانُ أنَّ آدمَ وزوجَهُ في شَكٍّ مِن قولِه، جعل قولَهُ نصيحةً لهما؛ ليُشْعِرَهُما بأنَّ الخيرَ فيما أُلْقِي في نفسيهما، وفي قولِه، فكانَ تأكيدُ نُصْحِه مِن مقتضياتِ المقامِ، ومتطلَّباتِ الإغواءِ، ممَّا بَرعَ فيه إبليسُ وجندُه، على مدى الأزمنةِ وفي كلِّ الأحوالِ.

نظمُ القرآنِ أبلغُ في إثباتِ النُّصحِ وتقريرِه

توجيهُ التَّعبيرِ بقوله ﴿لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾، ودلالتُهُ على المراوغَةِ:

قد يقالُ: لمَ لمْ يقُلْ: (إنِّي لكما لناصحٌ)؟ وهو أخصرُ، والمعنى واحدٌ؟ والجوابُ: ليس المعنى بواحد، وبينهما فرقٌ، فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾، أبلغُ في إثباتِ النُّصحِ، مِن نحو: إنِّي ناصحٌ، أو قد نصحْتُك، أو نصحْتُ لك؛ لمَا تدلُّ عليه (أل) الجنسيَّةُ في قوله: ﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ مِن أنَّه واحدٌ مِن فئة النَّاصحين، ومَن كانَ مِن فئةٍ موصوفةٍ بوصفٍ، ثبتَ له الوصفُ بطريقِ اللُّزوم؛ ليكونَ مِنَ الكنايةِ عن طريقِ إثباتِ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهو أبلغُ مِنَ التَّصريحِ، وتقدَّم نظيرُ هذا الأسلوبِ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أخبرَ اللهُ تعالى ببعضِ وسوستِه لهما، سبَّبَ عنها ترجمُتَها، بأنَّها إهباطٌ مِن أوجِ شَرَفٍ إلى حضيضِ أذًى، فجاءتِ الآيةُ تفريعًا على جملة: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا﴾، وما عُطِفَ عليها، لبيانِ ترتُّبِ ما في هذه الآية على ما تقدَّمَها[1].

العــلاقــةُ بـين نـتـيـجـةِ الـوسـوسـةِ، ومـآلِ الإغـواءِ الَّذي حَمَلَ كِبْرَهُ إبليسُ

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: أصلُ (دلى): يدُلُّ على مُقارَبةِ الشَّيءِ، ومُداناته بسُهولَةٍ ورِفقٍ، وأَدْلَى الشَّيءَ: ألقاهُ في مَهْواةٍ، ولا يكونُ التَّدلِّي إلَّا مِن عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، ومنه أَدْلَيْتُ الدَّلْوَ: ألقيتُها في البئرِ، ويُقالُ لكُلِّ مَن ألقى إنسانًا في بليَّةٍ: قد دلَّاه في كذا، مأخوذٌ مِن تَدْلِيةِ الرَّجُلِ العطشانِ في البئرِ؛ لِيَرْوَى مِن مائِها، فلا يجدُ فيها ماءً، فيكونُ مُدَلًّى فيها بغُرورٍ، فوُضِعَتِ التَّدليةُ مَوضِعَ الإطماعِ، فيما لا يُجْدي نفعًا، ويقالُ: ما زال فلانٌ يُدَلِّي فلانًا بغرورٍ"، بمعنى: ما زال يخدعُهُ بغرورٍ، ويُكلِّمُه بزخرفٍ مِنَ القولِ باطلٍ، ومعنى ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: فخَدَعَهما، أو فأَوْقَعَهما في الهلاكِ، أو فَجَرَّأَهما، والدَّالَّةُ الجُرْأَةُ[2].

2) ﴿بِغُرُورٖ﴾: الغُرور: مصدر غَرَّه يغُرُّه غرورًا، أي: خدعه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/374، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/61.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دلي)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 64.

والغِرُّ: هو الَّذي لَا يَفْطُنُ للشَّرِّ، ويَغْفُلُ عَنْهُ، ومنه أصاب غِرَّتَه، أي: غفلتَهُ في اليَقَظةِ، ونال منه ما يُريد، حتَّى يُدخِلَه في معصيةِ اللّهِ، فيما يستوجِبُ به عُقوبتَهُ، فالَّذي يقوم بالغرورِ هو الخِبُّ، أي: الخَدَّاعُ المُفْسِدُ، ويقال: غَرَّ فلانٌ فلانًا، معناهُ: قد عَرَّضَهُ للهَلَكةِ والبَوارِ، والغُرور هو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطان الشَّرِّ[1].

3) ﴿ذَاقَا﴾: الذَّوق: وجودُ الطَّعم باللِّسان، مِن مأكولٍ أو مشروبٍ، وهو يحصُلُ عند ابتداءِ الأكلِ أو الشُّرْب، أو يكون عندَ اختبار الشَّيء مِن جهة التَّطعُّم، ويقالُ: ذاقَ الطَّعام، أي: خَبرَه، وأصله فيما يقلُّ تناولُه، دون ما يكثرُ، فإنَّ ما يكثُرُ منهُ يقالُ لهُ: الأكلُ[2]، وذاقا بمعنى: طعِما ثمرَ الشَّجرةِ[3]، "ثمَّ يُشْتَقُّ منه مجازًا، فيقال: ذُقْتُ ما عند فلانٍ: اختبرتُه، وفي كتابِ الخليلِ: كلُّ ما نزلَ بإنسانٍ مِن مكروهٍ، فقد ذاقَهُ"[4].

4) ﴿وَطَفِقَا﴾: طَفِقَ يفعل كذا، بمعنى: أخذ يفعل كذا، على معنى الملازمة للشَّيءِ والاستمرارِ عليه، ويَجْمَع (طفق) معنى: (ظَلَّ وَبَاتَ)، ﴿وَطَفِقَا﴾ بمعنى: أقبلَا وجعَلَا وأخذا وظلَّا[5]، قال أبو عُبَيدةَ: طَفِقَ يفعلُ، مثل: ما زالَ يفعلُ، وهو مثلُ ظلَّ وبات، يقالُ: طَفِقَ يَطْفَقُ طَفْقًا وطُفوقًا"[6].

5) ﴿يَخْصِفَانِ﴾: الخَصْفُ: يدلُّ على اجتماعِ شيءٍ إلى شيءٍ، يقالُ: خَصَفَ النَّعْلَ يَخصِفُها خَصْفًا: ظاهَر بعضَها على بعض، بأنْ يُلْصِقَ عليها رُقعةً، ويُطَبِّق عليها طاقًا على طاق، وخَصَفَ العُريانُ على نَفسه الشَّيءَ يَخْصِفه: وَصَله وألزَقَه[7]، و﴿يَخْصِفَانِ﴾ في الآية بمعنى: يُلْصِقانِ الورقَ بعضَه على بعض، أو يجعلانِ عليهما خَصَفَةً، أي: ورقةً، أو يَصِلانِ الوَرَقَ بَعضَه ببعضٍ، ويُلصقانِ بعضَه على بعضٍ[8].

6) ﴿عَدُوٌّ﴾: يدورُ معنى العداوةِ على تجاوزِ الحدِّ ومنافاةِ الالتئام، وأصلهُ: من

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غرر)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 64.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/351.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 9/27، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (طفق).
(6) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/352.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والرّاغب، المفردات: (خصف).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 166.

عَدْوَتَي الجبلِ، وهما طرفاه، سُمِّيا بذلك لبُعدِ ما بينَهما، أو مِن عَدَا، أي: ظَلَم، ويقال: عدا فلانٌ طَورَهُ؛ إذا جاوز قَدْرَه، والتَّعَدِّي: مُجاوَزَةُ الشَّيءِ إِلَى غيرِه، ومنه الاعْتِدَاءُ، وهو مجاوزةُ الحقِّ إلى الظُّلم، والعَدُوُّ ضربان: أحدهما: بقصد مِنَ الـمُعَادِي، مثل: عداوةِ الشَّيطان، والثَّاني: لا بقصده، بل تَعْرِض له حالةٌ يتأذَّى بها، كما يتأذَّى ممَّا يكون مِنَ العِدَى، نحو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التّغابن/ 14]، والعدوُّ يكون للواحدِ والاثنين والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لقد خدعَ الشَّيطانُ آدمَ وزوجَه، وحطَّهما في المنزِلَة، أو جَرَّأَهُما على أكل الشَّجرة بما غرَّهما به مِن يمينه، فلمَّا طَعِمَ آدمُ وحوَّاءُ ثَمَرَ الشَّجرة، ظهرت عورةُ كُلٍّ منهما، بعدما كانت مَستورةً، وأقبلا يُلصِقانِ على جَسَدِهما ورقةً فوقَ ورقةٍ، مِن وَرَقِ الجنَّة؛ ليَسْتُرا به عَوْراتِهما، ونادى آدَمَ وحوَّاءَ ربُّهما مُعاتِبًا لهما: أَلَمْ أَنْهَكُما عن أكل ثمرةِ تِلْكُمَا الشَّجرة الَّتي أَكَلْتُما ثمرَها، وأُعْلِمْكُما أنَّ الشَّيطانَ لكما عدوٌّ بيِّنُ العَداوة؟[2].

مَـن لا يمتثلُ لأمرِ اللهِ مولاه؛ يَلْقَ ما لا تُحْمَدُ عُقباهُ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في الفعل: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾:

أفادتِ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ معنى السَّببيَّة، بمعنى: ترتُّب تدليَةِ آدمَ وزوجه بغرورٍ على وسوسةِ الشَّيطان وخِداعِه في قولِه، وإقسامِه لهما أنَّه مِنَ النَّاصحين، وأشعرَ الكلامُ أنَّ الإقسامَ كان أهمَّ سببٍ إلى الإقدامِ على الأكل مِنَ الشَّجرة؛ لمجيءِ التَّدليةِ عَقِبَ الإقسامِ مباشرةً.

قَسَمُ الشَّيطانِ كان تغريرًا بآدمَ وحوَّاءَ، في الأكلِ ممَّا نُهِيَا عنه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (عدا).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/351، والواحديّ، الوجيز، ص: 381.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ في الفعل ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾:

أهمِّيَّةُ تصوير المعقولِ بصورة المحسوسِ في إيضاحِ المعنى وبيانِه

في قوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، وبيانُ وجهِ الاستعارة: أنَّه يقالُ لِمَنْ يطلب شيئًا مِن مظنَّتهِ فلا يجدهُ، فيقعُ في مصيبةٍ دلَّاه؛ إذ وُضِعَتِ التَّدْلِيَةُ مَوْضِعَ الطَّمَعِ، فيما لا فائدةَ فيه، وفيما يكون مآلُ صاحبِها الهلاكَ، فأفادتِ الاستعارةُ تمثيلَ حالِ آدمَ وحوَّاءَ، حينَ صَدَّقا إبليسَ في خِداعِه إيَّاهما، وإظهارِ النُّصْحِ، وإبطانِ الغشِّ، وإطْماعِهِمَا أن يكونا مَلَكَيْنِ أو خالِدَيْنِ، وفي إقْسامه أَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمَا، بحالِ مَن يُدْلِي دَلْوَهُ أو رجليهِ في البئرِ، لِيَسْتقيَ مِن مائِها، فلا يجدُ فيها ماءً، أو بحالِ مَن يُدَلِّي مِن هُوَّةٍ حبلًا ضعيفًا، قد أَرِمَ، يَغترُّ به، فإذا تَدَلَّى بِهِ وتَورَّكَ عليهِ انقطعَ به، فهلَكَ، والغرضُ مِنَ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ: تصويرُ المعقولِ بصُورةِ المحسوسِ؛ لإيضاحِ الصُّورةِ المعنويَّةِ وبيانِها، ولتكون الاستعارةُ في مقامِ الاستدلالِ على عِظَمِ خِداعِ إبليسَ، ولِلتَّحذير مِن غروره[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بصيغةِ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ في الآية الكريمة:

أسلوبُ التَّدريجِ في الخِداعِ والوسوسةِ مسلكُ الشَّيطانِ مع الإنسانِ

عُبِّرَ بصيغة: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ الَّتي فيها معنى التَّدريجِ أو التَّكثيرِ؛ للإشعار بأنَّ إبليسَ أرسلَ آدمَ وحوّاءَ إلى الأسفلِ رويدًا رويدًا، أي: فما زالَ يَخدعُهُما بالتَّرغيب في الأكل مِنَ الشَّجرةِ، والقسَم على أنَّه ناصِحٌ بذلك لهما به، حتَّى أسقطَهما، وحطَّهُما عمَّا كانا عليه[2].

الباء بينَ السَّببيَّة والملابسةِ في لفظ ﴿بِغُرُورٖ﴾:

كانَ آدمُ لا يَظُنُّ أنَّ أحدًا يحلفُ بالله كاذبًا

تفيدُ الباءُ في قوله: ﴿بِغُرُورٖ﴾ السَّببيَّةَ، أي: بما غرَّهما به مِنَ القسمِ، فالغُرُورُ مُسبَّبٌ عن قَسَمِ إبليسَ بالله، أنَّه مِنَ النَّاصحين، أو عنِ القَسَمِ، وتكرُّرِ محاولاتِه في الوسوسةِ والخداعِ، والمعنى: أنَّ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/386، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/61.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/310.

آدمَ وزوجَهُ لم يأكلا مِنَ الشَّجرة حتَّى أقسمَ لهما الشَّيطانُ باللّهِ، فانخدعا له بسببِ غُرُوره لهما؛ لأنَّهما لم يكونا ليتصوَّرا أنْ يُقسِمَ أحدٌ باللّهِ كاذبًا مخادعًا. وذكر الشَّعراويُّ أنَّ لفظ (قَاسَمَ)، بمعنى: أَقْسَمَ، "ولذلكَ حينما عاتبَ ربُّنا سيِّدنا آدمَ، أوضحَ سبحانَه: أنا قلتُ: إنَّه عدوٌّ لكَ ولزوجكَ، ولسوفَ يُخرجَنَّكما مِنَ الجنَّة؛ لتتعبَ وتَشْقَى، فقال آدمُ: يا ربِّ، ما كنتُ أعتقدُ أنَّ خلقًا مِن خَلْقك يُقسمُ بكَ على الباطلِ، ولم يأتِ على البال أنَّ خَلْقًا يُقْسِم باللّهِ على الباطلِ، وكانت هذه أوَّلُ خديعةٍ في الخَلْق، ولذلك نجدُ قتادةَ رضي الله عنه يقول: "المؤمنُ باللّه يُخدَعُ"[1]، وذلك عينُ ما رُويَ عنِ ابن عبَّاس رضي الله عنهما حيثُ قال: "غرَّهما باليمينِ، وكانَ آدمُ لا يظنُّ أنَّ أحدًا يحلفُ باللّهِ كاذبًا"، وتَحتمِل أن تكونَ الباءُ للمُلابسةِ، بمعنى: دلَّاهما حالَ كونِهما مُلْتبسين بغُرورِ الشَّيطانِ وخداعِه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿فَلَمَّا﴾ مِن قوله تعالى ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾:

ظهورُ السَّوءاتِ وحصولُ العقوباتِ بسببِ ارتكابِ المنهيّاتِ

أفادتْ: ﴿فَلَمَّا﴾ وجودَ بُدُوِّ سوءاتِ آدمَ وزوجِه عند وُجودِ ذَوْقِهما الشَّجرةَ، أي: حصل ظهورُ سوءاتِهما عندَ وقت ذوقِهما الشَّجرةَ، مِن غير مُهلةٍ في الوقت بينَ وقوعِ الشَّرط وحصولِ الجواب، والمعنى: لمَّا وَجدَا طعمَها آخِذَين في الأكل منها، أخذَتْهُما العقوبةُ وشُؤْمُ المعصيةِ، فتهافتَ عنهما لباسُهما، وظهرت لهما عوراتُهما؛ ليُفيدَ التَّعبيرُ بـ (لمَّا) مقارنةَ ظهورِ السَّوءاتِ بالذَّوقِ مِنَ الشَّجرة، كما أفاد أنَّ ذوقَهُما الشَّجرةَ سببٌ في حصولِ العقوبةِ، فاجتمعَ في التَّعبيرِ بـ (لمَّا) اقترانُ الجوابِ بالشَّرط في الواقعِ، وكونُ الشَّرط سببًا في حصولِ الجواب في التَّصوُّر والإدراك، فلو لم يذوقا الشَّجرة لما حصلتِ العقوبةُ. وذهب ابن عاشورٍ إلى أنَّ الشَّرط والجوابَ

(1) محمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/4085.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/108، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221.

المقترن بـ(لمّا)، لا يدلُّ على أكثر مِن حصول ظهورِ السَّوءات عند ذَوْقِ الشَّجرةِ، أي: إنَّ اللّٰه جعل الأمرين مُقترنَين في الوقت نفسِه، فليس ذَوقُ الشَّجرة عنده سببًا للعقوبة بظهورِ السَّوءاتِ(1).

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ذَاقَا﴾:

الـحـذرُ مِـن ارتكابِ المنهيّ، وإنْ كان يسيرًا

لـمَّا كان الذَّوقُ هو التَّطَعُّم على وجهِ الاختبار، وكان الأصلُ فيه أن يكونَ يسيرًا لا كثيرًا؛ دلَّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ على أنَّهما طَعِما ثمرَ الشَّجرةِ يسيرًا، حينَ كانا آخِذَين في الأكلِ منها يسيرًا، قصدًا إلى معرفة طعمِه، وهذا يدلُّ على أنَّهما إنَّما ذاقاها، ولم يُبالغا في الأكل، ولولا أنَّه تعالى ذَكرَ في آيةٍ أخرى أنَّهما أكلا منها؛ لكان ما في هذه الآيةِ لا يدلُّ على الأكلِ؛ لأنَّ الذَّائِقَ قد يكون ذائقًا مِن دونِ أكل(2).

بلاغةُ الكنايةِ في مَلْمَحِ الجزاءِ:

تـعـظـيـمُ أمـر انـكـشـافِ العوراتِ ورؤيتِها

ومِن بابِ الكنايةِ: بدتْ سَوءتُه، وقوله تعالى: ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾، يقول صاحبُ المنار: "وإذا أُضيفت السَّوءةُ إلى الإنسانِ، أُريدَ بها عورتُه الفاحشةُ؛ لأنَّه يسوؤه ظهورُها، بمقتضى الحياءِ الفطريِّ، ما لم يُفسِدْه بتَعوُّدِ إظهارِها مع آخرين، فيرتفعُ الحياءُ بينهم"(3)، وجَعلَ عقوبةَ عدمِ الامتثال في قوله: ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾، ظهورَ السَّوءاتِ؛ تعظيمًا لأمرِ انكشافها ورؤيتِها، وعلَّق حكمَ العقوبةِ بالذَّوق؛ إذ هو أوَّلُ الأكلِ، وبهِ يُرتكَبُ النَّهيُ(4).

بلاغةُ المجازِ في ذوقِ الشَّجرةِ:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ يُحتمَل إيقاعُ الذَّوقِ على

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/62.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/328، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/95، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/229.
(3) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/310.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/386.

الشَّجرة لا على الثَّمرةِ، وأنْ يكون من قبيلِ المجاز العقليِّ وعلاقته السببيَّة؛ لأنَّ المذوقَ هو ثمارُها، وليس الشَّجرة، كما يُحتمَل أن يكونَ مجازًا مُرسلًا؛ حيث أطلقَ الكلَّ ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾، وأراد الجزءَ (الثَّمرة)، على سبيل المبالغةِ، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كان عدمُ الامتثال لنَهي اللّهِ تعالى أمرًا عظيمًا؛ جعل اللّهُ الأكلَ مِنَ الشَّجرةِ الَّتي نُهِيَ آدمُ وزوجُه عنها، بمنزلةِ الأكل مِن جميعِها، على سبيلِ المبالغة، مع أنَّ آدمَ وحوَّاءَ إنَّما ذاقا مِن ثمرها، بمعنى: أكلا أكلًا يسيرًا.

استعظامُ عدمِ الامتثالِ لنهي اللهِ تعالى، وعواقبُهُ الوخيمةُ

وجهُ تقديم ﴿لَهُمَا﴾ في قوله تعالى ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾:

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور هنا العنايةَ والاهتمامَ، بظهور السَّوءاتِ لآدمَ وحوّاءَ؛ لِمَا في ظهورِها مِنَ الأذى في أنفسِهما؛ ليُشْعِرَ التّقديمُ بسبب الظُّهور، كما أفاد تقديم الجارِّ والمجرورِ الاختصاصَ، بمعنى: ظهرت سوءاتُهما لهما دون غيرِهما، فلم يرَها أحدٌ سواهما رحمةً بهما.

مِن رحمةِ اللهِ بآدمَ وحوّاءَ سَترُ سوءاتِهما عن أعينِ الآخَرين

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ في ﴿يَخۡصِفَانِ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخۡصِفَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ استحضارَ صورة خَصْفِ ورق الجنَّة عليهما، وتكرارِ الحالةِ منهما، وحاصلُ ما انتهى إليه أمرُ آدمَ وزوجِه، إلى أن بَدَتۡ لَهُمَا سوءاتُهما، أي: تهافت عنهما اللِّباسُ، فظهرت لهما عوراتُهما، فَخَجِلا، وجعلا يجمعان بعضَ أوراق الشَّجرِ مِنَ الجنَّة؛ لِيَسْتُرا بها عوارتِهما، فعاتبَه اللّهُ تعالى على عصيانه أمرَهُ، وإطاعتِه للشَّيطان[1].

في استحضارِ الصُّورةِ عبرةٌ كبيرةٌ وعظةٌ أثيرةٌ

مناسبةُ العطفِ في جوابِ الشَّرطِ في الآيةِ الكريمةِ:

لـمَّا كانت جملةُ: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ﴾، معطوفةً على: ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾، وكان المعطوفُ عليه سببًا في المعطوف، بمعنى: أنَّ ظهورَ

ظهورُ السَّوءاتِ يقتضي المبادرةَ بسترِها مِن ورقِ الجنَّة

(1) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/485، وإبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/36.

سوءاتِهما سببٌ في أنَّهما أخذا يخصفانِ مِن ورق الجنَّة عليهما؛ دلَّ على أنَّ المعطوفَ لا يكون شيئًا، حتَّى يكونَ المعطوفُ عليه، ويكونَ الشَّرطُ الَّذي هو ذَوقُ الشَّجرةِ والأكلُ منها سببًا في خصفِهما ورق الجنَّة عليهما، بوساطةِ كونِ الشَّرط سببًا لظهورِ السَّوءات(1).

إيثارُ التَّعبيرِ بالنّداء:

الغفلةُ عنِ اللهِ تُبعِدُ صاحِبَها عـن منهجِه وهِدايتِه

لـمَّا كان الأصلُ في النِّداءِ أن يكون برفعِ الصَّوتِ، لبُعدِ المنادَى مِنَ المنادي؛ أشعرَ لفظ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾ ببُعد آدمَ وحوّاءَ عنِ اللّه تعالى، حينما أكلا مِنَ الشَّجرةِ؛ بسبب غفلتِهما عن أمرِه، وارتكابِهما ما نهاهُما اللّهُ عنه.

مجازُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا﴾:

اجتماعُ العتابِ والتَّوبيخِ لمخالفةِ النَّهي

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ مجازيٌّ لإفادة التَّقريرِ، بمعنى: قد نهيْتُكُما عن تلك الشَّجرةِ، وفي هذا الاستفهام المجازيِّ عتابٌ مِنَ اللّه تعالى لآدمَ وحوَّاءَ، على مخالفة النَّهي، وتوبيخٌ على ارتكابِ ما نُهيا عنه(2).

دلالةُ الاستفهامِ المجازيِّ في ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ﴾:

الاستفهامُ يُقرِّرُ المعنى، وينبِّهُ على عواقبِ الاغترارِ بالعدوِّ اللَّدودِ

لـمَّا كانت جملةُ: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ معطوفةً على قوله: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ كانت هي كذلك على معنى الاستفهام المجازيِّ، والتَّقديرُ: (وألَمْ أقُلْ لكُمَا إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)؛ ليُفيدَ الاستفهامُ التَّقريرَ كذلك، بمعنى: قد قلتُ لكُما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، وفي هذا الاستفهام المجازيِّ تنبيهٌ على موضع الغفلة والخطأ، حيثُ لم يتحذّرا ما حذّرهما اللّهُ مِن عداوة إبليسَ، مع أنَّه عدوٌّ مبينٌ، وتوبيخٌ على الاغترارِ بالعدوِّ(3).

(1) عبد القاهر الجُرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 233.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/96، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/386، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/9، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/28.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/96، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَطَفِقَا﴾:

لـمَّا كان أصلُ طَفِق مِن: طَفِقَ الموضعَ، أي: لزمَه، وكان الفعلُ يَجمَعُ معنى: ظَلَّ، وبَاتَ؛ دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا﴾ على أنَّ المعنى: بادَرا إلى الاستتار لقُبحِ التَّكشُّفِ، وشَرَعَا في الخصف مِن ورق الجنَّة لِيُواريا سوءاتهما، وأنَّهما لازما الفعل، واستمرَّا عليه(1).

كشفُ العورةِ قبيحٌ مِن لَدُنْ آدمَ إلى أن يقومَ النَّاسُ لربِّ العالمينَ

مجيء الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ في ﴿يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا﴾:

لـمَّا كان عودُ الضَّميرِ على آدمَ وحوَّاءَ في قوله: ﴿عَلَيۡهِمَا﴾، لا يصحُّ من حيث تأليفُ الكلام، فلا يقالُ: (طَفِقَ آدمُ وحواءُ يخصفانِ على آدمَ وحواءَ مِن ورقِ الجنَّة)، ومثلُه: (طَفِقَ زيدٌ يخصفُ عليه مِنَ الثِّياب)، اقتضى أن يكون الكلامُ على خلاف مقتضى الظَّاهر، والأَوْلَى أن يعودَ الضَّميرُ في: ﴿عَلَيۡهِمَا﴾ على عورتَيْهما، كأنَّه قيل: يَخْصِفانِ على سوءاتِهما مِن ورق الجنَّة، أو أن يكون بتقديرِ مضافٍ، وتقديرُه: يَخْصِفَانِ على بدنَيْهما(2)، ووجه التَّعبير بالضَّمير الَّذي يعود في الظَّاهرِ على آدمَ وحوَّاءَ الإشعارُ بمبالغتهما في خَصفِ ورقِ الجنَّةِ ليَسْتُرا سوءاتِهما، فكأنَّهما لم يكتفيا بستر العورةِ، بل غطَّيا جسمَهما كلَّه.

مِن حياءِ آدمَ وحوَّاءَ أنَّهما لم يكتفيا بسترِ العورةِ، بل غطَّيا جسمَهما كلَّه

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ (عَلَى):

في قوله تعالى ﴿يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا﴾، عُدّيَ فعل الخصفِ بحرفِ الجرِّ (على)؛ للإشعارِ باستيعابِ ما خَصفاه مِن ورق الجنّة لسَوءاتِهما كلِّها، مِن ورقِ الجنَّة، قال بعضُ العلماءِ: "ولعلَّ المعنى - واللّه أعلم - أنَّهما لـمَّا ذاقا الشَّجرةَ، وقد نُهيا عنِ الأكلِ منها، ظهر لهما أنَّهما قد زَلَّا، وخَلَعا ثوبَ الطَّاعةِ، وبَدَت منهما سَوءَةُ المعصيةِ،

شَمِلَ الخصفُ كلَّ السَّوءاتِ؛ لوجودِ الخوفِ والخجلِ مِنَ الانكشافِ

---

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/328، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/27.

فاستحوذَ عليهما الخوفُ والحياءُ مِن ربِّهما، فأخذا يفعلانِ ما يفعل الخائفُ الخَجِلُ عادةً، مِنَ الاستتار والاستخفاءِ حتَّى لا يُرَى، وذلك بخصفِ أوراقِ الجنَّة عليهما ليَسْتَترا بها، وما لهما إذْ ذاكَ حيلةٌ سوى ذلك"[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالمضمَر دونَ الظَّاهرِ:

لـمَّـا اختلفَ المقامُ؛ اختلفَ التَّعبيرُ، وجيءَ لذلك بالضَّميرِ

لـمَّا كان وقتُ الهناءِ؛ شُرِّفَ بالتَّصريحِ باسْمِه في النِّداء، فقيل: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وحين كان وَقْتُ العِتابِ؛ أخبر في قوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ أنَّهُ نَاداهُ، ولَمْ يُصرِّحْ باسْمِه؛ لمناسبةِ التَّعبيرِ بالـمَكْنِّي وقتَ ظهورِ السَّوءاتِ، فلمَّا اختلف المقامُ؛ اختلفَ التَّعبيرُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه ﴿رَبُّهُمَآ﴾ دون سواهُ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ:

يـربِّـي الـلـهُ المؤمنَ في حالةِ الـعـصـيـانِ، ويأخذُ بيدِه في حالةِ الإذعانِ

عُبِّر بوصف الرُّبوبيَّة؛ للإشعارِ بأنَّه تعالى مالكُ أمرِهما، ومُدَبِّرُ أحوالِهما، وأنَّه هو الَّذي يُربِّيهما في حالِ المخالفةِ والعصيانِ، كما يُربِّيهما في حال الطَّاعة والإذعانِ[3].

دلالةُ جملةِ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا﴾:

معـصـيـةُ آدمَ وزوجِهِ لم تنحطَّ إلى مستوى ما فـعـلَـهُ اللَّـعـينُ إبليسُ

تَحتمِلُ جملةُ الاستفهامِ: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ أن تكون بيانًا وتفسيرًا للنِّداء لإيضاحه، فتكونَ مِن عطفِ البيان، فجُملةُ الاستفهام هي النِّداءُ الَّذي به ناداهما ربُّهما، وفيه إشعارٌ بإقبالِ المنادي على مَن ناداهما، حالَ غفلتِهما، وبأنَّ ما فعلاه لم يكن بمستوى ما فعله اللَّعينُ إبليسُ. وتَحتمِل جملةُ الاستفهامِ أن تكون معمولًا لقولٍ محذوفٍ، حالٍ مِن ﴿رَبُّهُمَآ﴾، أي: ناداهما ربُّهما قائلًا: ألم أنهَكُما؟ ويجري الكلامُ نفسُه في الجملة المعطوفة: ﴿وَأَقُل لَّكُمَا

---

(1) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/258.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/28.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/311.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، بحُكم التَّشريكِ في العطف، وعلى كلا الاحتمالين جاءت جملةُ: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، بطريقِ الفصلِ؛ لكمالِ الاتِّصال مع جملة: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾.

مناسبةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (تلكما):

مصيرُ المخالِفِ الإبعادُ، وتلكَ سنَّةُ اللهِ في عُصاةِ العبادِ

لـمَّا كان قوله: ﴿تِلۡكُمَا﴾ اسمَ إشارةٍ فيه معنى البُعدِ، كان إشارةً إلى أنَّه أكلَ مِنَ الشَّجرةِ الَّتي نُهِيَ عن قُربانِها، وأنَّ مصيرَ الآكلِ منها هو الإبعاد[1]، ومعنى: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ "أي: أجعلُ لكُمَا نهايةً فيما أُذِنَ لكُمَا فيه، متجاوزةً ﴿عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، أي: الَّتي كان حقُّها البُعدَ منها، الموجبة للقُربة مِن هذا الموضع الشَّريفِ إحسانًا إليكما"[2].

بيانُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

دلَّت الإشارةُ إلى الشَّجرةِ على القُربِ مرَّةً، وعلى البُعدِ أخرى

في قوله هنا: ﴿تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، وفي قوله في الآيةِ السَّابقة: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، إشارةٌ لطيفةٌ، فإنَّه حيثُ كان مُباحًا له الأكلُ، قارًّا ساكنًا، أُشيرَ إلى الشَّجرةِ باللَّفظِ الدَّالِّ على القُرْبِ والتَّمكُّنِ مِنَ الأشجارِ، فقيل: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وحيثُ كان تعاطِي مخالفةِ النَّهي، وقُربُ إخراجِهِ مِنَ الجنَّة، واضطرابُ حالِه فيها، وفرارُه على وجهِه فيها، قيل: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا﴾، فأُشيرَ إلى الشَّجرةِ باللَّفظِ الدَّالِّ على البُعْدِ، والإنذارِ بالخروجِ منها، فناسب كلُّ لفظٍ مقامَه في النَّظم[3].

دلالةُ عَطْف ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾ على جملة الاستفهام:

القرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضًا، ما تقدَّم نزولُه وما تأخَّر

قوله تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: تقديره: (ألَمْ أقُلْ لكما إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ؟) بدخولِ الاستفهامِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/374.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/28.

على المعطوف كما تقدَّم، ولـمَّا لم يُحكَ هذا القولُ ها هنا؛ دلَّ على أنَّ في الكلامِ إيجازًا وكلامًا مطويًّا، بمعنى: قد قال لهُما ربُّهما هذا الكلامَ، فأشار إليه في جملةِ التَّذييلِ هنا؛ تقريرًا له وتأكيدًا، وقد حُكِي في سورة طه تصريحًا، في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]، والقرآنُ يُفسِّرُ بعضُه بعضًا، سواءٌ ما تقدَّمَ نزولُه منه وما تأخَّرَ[1].

بلاغةُ التَّذييلِ بجملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾:

هــذهِ الجملةُ يُتـمـثَّـلُ بها في الكلامِ لعمومِها وكلِّيَّتِها

تقدَّم أنَّ اللّه تعالى قد ذكر لهم هذا الكلامَ مِن قبلُ، كما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾، فتكونُ الجملة في حُكم المكرَّرة؛ لأهمِّيَّتها ولعمومِ معناها وكلِّيَّته، ولأنَّها كالـمَثَل يُتَمثَّلُ بها في الكلام، فناسبَ أن تكون تذييلًا للآية.

دلالةُ ضميرِ الخطابِ ﴿لَّكُمَآ﴾:

عداوةُ الشَّيطانِ الظَّاهرةُ متعدِّيةٌ مِـن آدمَ إلى ذرِّيَّتِهِ قاطبةً

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يَحتمِلُ ضميرُ الخطابِ أن يكونَ على أصلِه، وتكونَ عداوةُ إبليسَ لبني آدمَ، بحكم أنَّ الحُكمَ على الأصلِ يجري في الفرعِ والذُّرِّيَّة على السَّواء، كما يَحتمِلُ أن يكونَ مِن مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فالخطابُ وإن كان لمعَيَّنٍ، لكن قُصِدَ به غيرُ المعيَّن، على معنى العموم، أي: إنَّ عداوةَ إبليسَ الظَّاهرةَ، لا تختصُّ بآدمَ وحواءَ دونَ غيرِهما مِن بني آدم، بل آدمُ وذُرِّيَّتُه لهم مَدْخَلٌ في الخطابِ[2].

توجيه التَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

السِّـيـاقُ تقريرٌ لمعنى حيرةِ آدمَ وحـــوَّاءَ في أمرِ عـــداوةِ إبليسَ القَدَرِيَّة

في قوله تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ؛ لتقريرِ المعنى وتثبيتِه، وللإشعارِ بأنَّ وسوسةَ إبليسَ لآدمَ وحوَّاءَ وتكرُّرَها، جعلتْهُما كالـمُتَحَيِّرينَ في أمر

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/312.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.

عداوتِه لهما، مع أنَّ عدواتَهُ ظاهرةٌ بيِّنة، وأنَّ اللّه تعالى قد نبَّهَهُما على هذا من قبلُ كما تقدَّم.

نكتةُ إيثارِ لفظِ الشَّيطانِ في جملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾:

مناسبةُ لفظِ الشَّيطانِ للفظِ العداوةِ، باعتبارِها عميقةً وخالدةً

لـمَّا كان لفظُ الشَّيطانِ دالًّا على معنى التَّمرُّد والعُتوِّ، وفيه معنى البُعد عنِ الحقِّ، كما أنَّ لفظ الشَّيطانِ مُشْعِرٌ بالقُبح، بل هو أقبحُ ما يكونُ مِنَ الأشياء، كما تقدَّم؛ ناسبَ أن يُخبِر عنه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، بأنَّه عدوٌّ مبينٌ، دونَ أن يقولَ: إنَّ إبليس لكما عدوٌّ مبين.

سرُّ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿لَكُمَا﴾:

اهتمامُ الشَّيطانِ وعنايتُه بعداوتِهِ لآدمَ وحوَّاءَ ولذرِّيَّتِهما

يدلُّ تقديمُ الجارِّ والمجرور: ﴿لَكُمَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ على اهتمام الشَّيطانِ وعنايتِه بعداوته لآدمَ وحوَّاءَ، كما أفاد التَّقديمُ التَّخصيصَ، بمعنى: أنَّ الشَّيطان عدوٌّ لكما ولِمَن يأتي مِن ذرِّيَّتِكما، دون غيرِكما مِنَ الخَلْقِ[1].

بلاغةُ تكرارِ الجارِّ والمجرورِ (لكما):

الاعترافُ بالخطأِ تمهيدٌ للعفوِ، وسبيلٌ للمغفرةِ

ورد الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمَا﴾ مُكرَّرًا في قوله: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، وفائدةُ التَّكرير هنا: هي المبالغةُ في الزَّجر والتَّنديم، وللحثِّ على الاعترافِ بخطئِهما؛ تمهيدًا للعفوِ عليهما[2].

دلالةُ الختامِ بالصِّفة ﴿مُّبِينٞ﴾:

الشَّيطانُ مخادِعٌ، لكنَّ عداوتَه ظاهرةٌ لا تلتبسُ على أحدٍ

وذلك لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ فلمَّا كان العدوُّ قد يُظهِرُ الخِداعَ، فمنهُ ما لا تنكشفُ عداوتُه، وكان مَدارُ وَسْوسةِ الشَّيطانِ وعملِه على الخداع؛ نبَّهَ اللّهُ تعالى المؤمنين على أنَّ الشَّيطانَ، وإنْ كان مخادعًا، لكنَّ عداوتَه واضحةٌ ظاهرةٌ، فجاء بالصِّفة: ﴿مُّبِينٞ﴾، فجعلَ عداوةَ إبليسَ لا تلتبِس على أحدٍ، مِنَّةً منه ﷻ وفضلًا، كما أنَّ الصِّفةَ ناسبت فواصلَ الآياتِ.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/311.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 1/364.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين معصيةِ آدمَ وحوّاءَ وعُقوبتِها، وبينَ الاستجابةِ والتّوبةِ لله الغفّارِ

لَمَّا ذكرَ اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ آدمَ وزوجَه أكلَا مِنَ الشَّجرةِ بعد إغواءِ إبليسَ لهما، وبَدَتْ سوْءاتُهما، وكانَ نداءُ ربِّهما لهمَا بتذكيرِهما بالنَّهْيِ عنِ الأكلِ منَ الشَّجرةِ، وعداوةِ الشَّيطان لهما؛ فكانت هذه الآيةُ لبيانِ معرفةِ جوابِهما بعدَ هذا النّداءِ وتذكيرِ اللّه لهما[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: يدورُ معنى الخُسرانِ على النَّقصِ، ويُستعملُ ذلك في المُقتنياتِ الخارجةِ، كالمالِ، وهو الأصلُ في الاستعمالِ، يُقالُ: خَسِرَ التَّاجرُ في بيعِه بمعنى: نقصَ مالُه، وخسِرَ نقيضُ ربحَ، كما يُستعملُ مجازًا في المقتنياتِ النَّفسيَّةِ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ والعقلِ والإيمانِ والثَّوابِ، ويُستعملُ الخُسرانُ في تعاطي ما يكونُ به الميزانُ في القيامةِ خاسرًا، ولهذا عُبِّرَ بالخُسرانِ عنِ الضَّلَالِ وَالهَلَاكِ، وكلُّ خسرانٍ ذكره اللّهُ تعالى في القرآنِ؛ فهو على هذا المعنى[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنَ الأدبِ في الدّعاءِ، نِسبةُ الذَّنْبِ إلى النَّفْسِ مع الرّجاءِ والخَشْيةِ

بيَّنتِ الآيةُ أنَّ آدمَ وحوَّاءَ اعترفا بذنبِهما قائلَيْن: يا ربَّنا، ظلمْنَا أنفسَنا بالأكلِ منَ الشَّجرةِ الّتي نَهيتَنا عن أكلِها، وإنْ لم تغفرْ لنَا ذنوبَنا، وترحمْنا لَنكونَنَّ منَ الهالكينَ، ممَّن أضاعُوا حظَّهم في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/375.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (خسر).

دُنياهم وأُخراهم. وهذهِ الكلماتُ هي الّتي تلقَّاها آدمُ من ربِّهِ، فدعا بها، فتابَ اللّهُ عليه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾:

اعـــترافُ آدمَ وزوجِـــهِ بعـدَ الأكـــلِ مـنَ الشَّجرة

لم تُعطفْ هذه الجملةُ على ما قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ سائلًا سأل: ما جوابُهما بعد نداءِ ربِّهما لهما في الآيةِ السَّابقةِ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: 22] الآيةَ؟ كان الاعترافُ بالخطأِ من آدمَ وزوجِهِ، وتضرَّعا إلى اللّه تضرُّعَ المُذنبِ المستغيثِ، قائلَيْن: ربَّنا ظلمْنا أنفسَنا.

دلالةُ التَّثنيةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَا﴾:

الـتَّـكـالـيـفُ يـتـساوَى فيها الذَّكرُ والأُنثى

جاء التَّعبيرُ بالمثنَّى في قولِه تعالى: ﴿قَالَا﴾ للدَّلالة على اعترافهِما بوقوعهِما في الأكل منَ الشَّجرة على حدٍّ سواءٍ، دونَ التَّفرقةِ بين آدمَ وزوجِه، وهذا دليلٌ على أنَّ التَّكاليفَ الشّرعيَّةَ، لافرقَ فيها بين الذَّكر والأنثى، وهذا ما ذُكر في هذه الآيةِ، من إقرارهما بتجاوُزِ نهْيِ اللّه لهما عنِ الأكلِ منَ الشّجرة، واعترافِهما بالذَّنب معًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بالقولِ دونَ الدُّعاءِ أوِ النِّداء، في الآيةِ الكريمةِ:

القولُ أعمُّ وأبينُ في التّعبيرِ عنِ الـحـالِ، وفيه اعـترافٌ بظلْمِ النَّفسِ

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾: عبَّر بالقول دون النِّداء أو الدُّعاء؛ لأنَّه أعمُّ من الدّعاء والنّداء، وفيه إشارةٌ إلى الاعترافِ بظلم النَّفس، وأنَّهما أضرَّا بأنفسِهما بارتكابِ المعصية، وجَرَّا على أنفسِهما ما لم يكن موجودًا، وذلك بأن بدَتْ سوءاتُهما.

نُكتةُ حذْفِ حرفِ النِّداءِ، في قولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾:

حُذِفَ حرفُ النِّداء (يَا) للإيجازِ وللإيذانِ بقُربِ اللّهِ تعالى منَ الدَّاعي، وللإشعارِ بطلبِ المبادرةِ إلى التَّضرُّعِ بعد المعصيةِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/356، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/387.

اللهُ تعالى قريبٌ، مِنَ الدَّاعِي والمتَضرِّع

ويُحتملُ أنْ تكونَ الصيغةُ نداءً، وهو ليس بنداءٍ، بل هو بمعنى الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ؛ لِيكونَ على خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ، كما تأتي صيغةُ الأمرِ بمعنى الدُّعاءِ، وهو في القرآنِ كثيرٌ، مثلُ قولِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: 41]، فهذا دعاءٌ بصيغةِ الأمرِ لطلبِ المغفرةِ منَ اللّه له ولوالديه ولجميعِ المؤمنين في يوم القيامة. ونُكتةُ مجيءِ الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ بصيغةِ النِّداءِ الّذي حُذفَتْ منه الأداةُ هي الإشعارُ بقُربِ الدَّاعِي إلى المدعوِّ معَ إقبالِ المدعوِّ إليهِ بالاستجابةِ، ويُحتملُ أنْ يكونَ حذفُ الأداة لنُكتةٍ أخرى، فإنَّه لمّا كانَ النِّداءُ فيه طَرَفٌ من معنى الأمرِ، حُذِفَتْ (يا) من نداءِ الرَّبِّ؛ لينقُصَ معنى الأمرِ أو يزولَ؛ لأنَّ (يا) تُؤكِّدُه، وتُظهرُ معناهُ، فكانَ في حذفِ (يا) النِّداء إجلالٌ وتعظيمٌ وتنزيهٌ لربِّ العالمين(1).

نُكتةُ النِّداءِ بـ ﴿رَبَّنَا﴾:

ربُّ العالمينَ هو الملْجأُ الّذي يَلجأُ إليه الخلْقُ دائمًا

لّما كانَ الربُّ بمعنى المربِّي والمنعِم والمدبِّرِ والمالكِ والمتكفِّلِ بمصلحةِ الخلْقِ؛ ناسبَ نداءَ آدمَ وحوَّاءَ هنا بـ ﴿رَبَّنَا﴾؛ للإشعارِ بحاجتِهما إلى ربِّ العالمينَ، وأنَّه الملجأُ الّذي يَلجأُ إليه الخلقُ دائمًا، ولهذا جاءَ قولُه: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ بعدَ النِّداءِ بـ ﴿رَبَّنَا﴾.

مُناسبةُ الإضافةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾:

تخصيصُ الحاجةِ إلى الله ربِّ العالمينَ، يقينٌ وخَشيةٌ

أفادتِ الإضافةُ التَّعريفَ، بمعنى: ﴿رَبَّنَا﴾ الّذي نعرفُه ونعرفُ صفاتِه، ولمّا كانتِ الإضافةُ هنا على معنَى اللَّام؛ أفادتْ معنى تخصيصِ حاجتِهما إلى ربِّ العالمينَ، وتَحمِلُ طلب التَّلطُّف والتَّحنُّن عليهما؛ لأنَّهما في مقامِ التربيةِ.

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/65، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/159، والقونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/360.

مُناسبةُ تسميةِ الذَّنبِ ظُلمًا للنَّفسِ:

ارتكابُ الذَّنبِ ظُلمٌ للنَّفسِ، وجِنايةٌ عليها

لمّا كانَ مآلُ الذَّنبِ ما يقعُ على النَّفسِ منَ العقوبةِ كان ارتكابُه ظُلمًا للنَّفسِ، وكذلك لمّا أكلا منَ الشَّجرةِ وعصَيا ربَّهما جرَّا على أنفسِهما الدُّخولَ في طورِ ظهورِ السَّوءاتِ، ومشقَّةَ اتِّخاذِ ما يستُرُ عوراتِهما، وجرَّا على أنفسِهما كذلكَ غضبَ اللّهِ تعالى[1]، وفيه إشارةٌ إلى هضْمِ النَّفسِ والحرصِ على الطَّاعةِ على الوجهِ الأكملِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجمْعِ في لفظ ﴿أَنفُسَنَا﴾، مع أنَّهما مُثنَّى:

أثرُ المعصيةِ عامٌّ، يُؤثِّرُ على الظَّاهرِ والباطنِ

عبَّر بالجمعِ دون المُثنَّى (نَفْسَيْنَا)؛ إشعارًا بأنَّ قلبَيهما - أيضًا - قد صُفِّيا، وخُلِّصا من أثرِ تلك المعصية، وأنَّ ذلك مطمورٌ وداخلٌ في نفوسِ ذرِّيَّتِهما.

سببُ إيثارِ لفْظِ ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾، في الآيةِ الكريمةِ:

الاعترافُ بالذَّنبِ يتضمَّنُ طلبَ المغفرةِ، والتَّجاوُزِ عنِ الإثمِ

لمّا قالَ اللّهُ تعالى في الآيةِ الّتي سبقتْ: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 19]، ثمَّ إنَّهما أكلا منها، كانَ في قولِه تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، معنى تلقينِ الاعتذارِ لهما؛ لعلمِه تعالى بأنَّهما يقعانِ في الأكلِ منَ الشَّجرةِ، فمِنْ ثمَّ قالَا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾، فتأيَّدَ أنَّ الظُّلمَ في قولِه: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 19] قُصِدَ به ظُلمُ النَّفسِ[2].

دَلالةُ إسنادِ الظُّلْمِ إليهما:

حُسْنُ الأدَبِ في الدُّعاءِ، مِفتاحٌ للوُلُوجِ إلى الإجابةِ

في قولِه تعالى: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ دلَّ إسنادُ الظُّلمِ إليهما دون أن يقولَا: (ربنا قدَّرت علينا كذا)، أو (قضيتَ علينا كذا)؛ إلى الأدبِ في الدُّعاءِ، حيثُ أسندَا المعصيةَ إليهما، واعترفا بها.

سِرُّ وصْفِهما لذنْبِهما بالظُّلْمِ، في: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾:

وصفَ وقوعَهُما في المعصيةِ - مع أنَّها منَ الصَّغائرِ - بظُلْمِ

---

(1) رضا، تفسير المنار: 8/312، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/67.

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/10.

الأبرارُ يَستعْظِمُون صَغيرَ السَّيئاتِ، تَعظيمًا لِحَقِّ الله عليْهِم

النَّفسِ على عادةِ الأولياءِ والصَّالحين باستعظام الصَّغيرِ من السَّيِّئاتِ، فالعبدُ كمالُه في حاجتِه إلى ربِّه وعبوديتِه وفقرِه وفاقتِه إليه، فكلَّما كانت عبوديتُه أكملَ كان أفضلَ، وصدورُ ما يحُوجُه إلى التّوبة والاستغفارِ ممّا يزيدُه عبودية وفقرًا وتواضعًا. ومنَ المعلوم أنَّ ذنوبَهم ليست كذنوب غيرِهم، بل كما يقال: "حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين"[1].

دَلالةُ تقديمِ الاعْترافِ بظلْمِ النّفْسِ، على طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ:

تعليمُ بنِي آدمَ طريقَ التَّنصُّلِ مِنَ الذُّنوبِ، عنْدَ علّامِ الغيوبِ

قوله تعالى: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا﴾، وفيها قُدِّمَ الاعترافُ بالذَّنب، للإشعارِ بأنَّه سبيلٌ إلى طلبِ المغفرةِ والرَّحمة، وفي هذهِ الآيةِ موعظةٌ لنسلِ آدمَ وحوَّاءَ، وتعريفُهم كيفَ السَّبيلُ إلى التَّنصُّلِ منَ الذُّنوب، وأنَّه لا ينفعُ إلّا الاعترافُ والتَّوبةُ[2].

نُكتةُ مُناسَبةِ طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ في الآيةِ:

مِن أماراتِ غَضبِ اللهِ ظُهورُ السَّوءاتِ والعوْراتِ

لَمَّا توقَّعا استحقاقَ العذابِ ووجوبَه بسببِ ارتكابِ المعصيةِ؛ ناسبَ أنْ يطلبَا المغفرةَ والرَّحمةَ من ربِّ العالمينَ، فإنَّهما رأيَا من العصيانِ بوادرَ الضُّرِّ والشَّرِ ببدُوِّ السَّوْءَات، فعَلِما أنَّه منْ غضبِ اللّهِ ومنْ مخالفةِ وصايتِه[3].

دَلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا﴾:

الاعترافُ بالذَّنبِ

أفادتِ الواوُ عطفَ المسبَّبِ على السَّبب، بمعنى: أَنَّ الاعترافَ بالذَّنبِ سببٌ للتَّوسُّل لِطلبِ المغفرةِ والرَّحمة.

مُناسبةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّةِ، في السِّياقِ الحكيمِ:

مَنْ تابَ مِنْ ذنْبِه؛ أَشْبَهَ آدمَ، ومَنْ أصرَّ أَشْبَهَ إبليسَ

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا﴾، عُبِّرَ بـ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّةِ الّتي تكونُ لما يندرُ وقوعُهُ، أوتأتي في مقامِ الخُلوِّ عنِ الجزم بوقوعِ الشَّرطِ؛

(1) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية: 2/407.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/67.

للإيذانِ بأنَّ آدم وحوَّاءَ، كانَا يشعرانِ بعظَمِ الذَّنبِ الّذي ارتكباه في حقِّ اللّه تعالى، فأفادت ﴿وَإِن﴾ تصويرَ الأمرِ بأنَّه لا يصلحُ إلَّا لمجرَّدِ الفرضِ للارتيابِ في مغفرةِ اللّهِ لهما ورحمتِه بهما؛ تعظيمًا لمعصيةِ اللّهِ تعالى، على عكسِ إبليسَ الّذي تمادَى، وتكبَّرَ، ولمْ يعترفْ بذنبِه.

دَلالةُ الجمْعِ بينَ المغفرةِ والرَّحمةِ في الآيةِ الكريمةِ:

لا قُدرةَ لبني آدمَ على رَدِّ عُدْوانِ الشَّيطانِ بغَيْرِ رحْمةِ اللهِ تعالى

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، أفادتِ الواوُ هنا التَّشريكَ على معنى الجمعِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه في الشَّرط، فطلبَا المغفرةَ لذنبِهما والرَّحمةَ بهما؛ لِما ذكره سبحانه منْ أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ لهما، فلا قُدرةَ لهما على ردِّ عُدوانِ الشَّيطان بغيرِ رحمةِ اللّهِ تعالى.

مُناسَبةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَغْفِرْ﴾:

أفضلُ الدُّعاءِ ما أفادَ عُمومَ المغفرةِ، لِمَحْوِ عُمومِ الخطايَا

حُذِفَ مفعولُ ﴿تَغْفِرْ﴾؛ إذ لم يقولا: (وإنْ لم تغفرْ لنا ذنبَنا هذا أو ظُلْمَنا)، وبيانُ المناسبةِ أنَّه لمّا كانَ حذفُ المفعولِ هنا يفيدُ العمومَ؛ دلَّ على أنَّهما قد علَّقا النَّجاةَ منَ الخُسرانِ على المغفرةِ العامَّةِ المطلقةِ الّتي تشملُ هذا الذَّنْبَ وغيرَه؛ لمناسبةِ مقامِ الرُّجوعِ إلى اللّهِ[1].

مُناسَبةُ التَّرتيبِ بينَ المغفرةِ والرّحمةِ في السِّياقِ:

إنَّما يَغفرُ الله تعالى الذُّنوبَ برحْمتِه وصَفْحِه

لمّا كان ظلمُ أنفسِهما بمعنى اتِّهامِهما إيَّاها بالتَّقصيرِ بمجاوزتِها الحقَّ؛ ناسبَ أنْ يبدأَ بطلبِ المغفرةِ في قوله: ﴿تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، فيكونَ عطفُ الرَّحمةِ على المغفرةِ من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، كما أشعرَ التَّرتيبُ أنَّ اللّه تعالى إنَّما يغفرُ الذُّنوبَ برحمتِه، والتَّخليةُ سابقةٌ على التَّحلية، وذلك لأنَّ مغفرة الذُّنوب تخليةٌ، والرَّحمةَ تحليةٌ - وأيضًا - لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمة، وأيضًا أنَّ المُذنبَ يطلبُ المغفرة أوَّلاً، ثمَّ بعد ذلك تنزلُ الرَّحمةُ ثانيًا.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/312.

سِرُّ العُدولِ عن طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ إلى صِيغةٍ أُخرَى:

تعـددُ صيـغ الســـؤالِ والطَّـلـبِ، من بَليغِ التَّصويرِ

عدلَ القرآنُ الكريمُ عن طلب المغفرةِ والرَّحمةِ مباشرةً بأن يقولا: (فاغفر لنا وارحمنا) إلى هذا الأسلوب ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا﴾؛ للدَّلالةِ على تعدُّد صُور طلبِ المغفرةِ والرَّحمة؛ فإنَّ السّائلَ تارةً يسألُ بصِيغةِ الطَّلب، وتارةً يسألُ بصِيغةِ الخبر، إمَّا بوصْفِ حالهِ، وإمَّا بوصْفِ حال المسؤولِ، وإمَّا بوصف الحالَيْنِ معًا، وتارةً يكون بصيغةِ الشَّرطِ كما هنا.

سِرُّ عدَمِ الإتيانِ بلفْظِ ﴿رَبَّنَا﴾ في هذا المقامِ كسابِقِه:

المتـضـرِّعُ إلى اللهِ قريبٌ منهُ، يُجيبُ دَعْوتَه إذا دَعاه

لم يأتِ التَّعبيرُ بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾؛ بأن يقولا: (وإن لم تغفر لنا ربَّنا وترحمنا)، لسبْقِ ذكرهِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ﴾، وأيضًا لأنَّ المقامَ مقامُ تضرُّعٍ وتذلُّلٍ؛ فحالهم يُنبئُ بنُطقهِم: (ربَّنا ربَّنا) من شدَّة الإلحاحِ عليه سبحانه بمغفرةِ ذنوبهِم.

سِرُّ تَقديمِ ﴿لَنَا﴾ على ﴿وَتَرۡحَمۡنَا﴾:

الاعترافُ بالذَّنبِ سبيلُ التَّوفيقِ إلى التَّوبةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ للتَّخصيص؛ لأنَّهما اعترفا بذنْبِهما، والسِّياقُ في حقِّهما؛ أمَّا أمرُ الرَّحمة في قوله: ﴿وَتَرۡحَمۡنَا﴾ فهو مزيدُ فضلٍ يَعُمُّهم، ويعُمُّ غيرَهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ عن الغفران والرّحمة بالفعل المضارعِ:

مـن صـفـاتِ المـؤمـنـين، الإصـــرارُ على طـلـبِ المغفرةِ والرَّحمةِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا﴾، عبَّرَ بالمضارعِ استدرارًا واستمرارًا لمغفرةِ ذنبهما ونزولِ الرَّحمَةِ عليهما. وفيه إشارةٌ إلى استحضارِ صورةِ آدمَ ﷺ وزوجِه، وهما يرفعان أكُفَّ الضَّراعة مجدِّدين طلبَ المغفرة والرَّحمة، مُلحِّين على اللّه، وفي هذا تعليمٌ لبني آدمَ بالإلحاح على اللّه في طلبِ المغفرة والرَّحمة.

بَراعةُ التَّعبيرِ بجوابِ القَسمِ:

لمّا وقعتِ اللّامُ في قوله تعالى ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ في موضعِ الجواب دلَّ على أنَّ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جوابُ قسَمٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ:

(وَاللّٰهِ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ)، ثمَّ إنَّ الشَّرطَ المذكورَ: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا﴾ حُذِفَ جوابُه؛ لدلالةِ جوابِ القسم المقدَّرِ عليه، فحُذِفَ القسمُ المقدَّرُ من نفسِ لفظِ الشَّرطِ، وذُكِرَ جوابُه، وذُكِرَ الشَّرطُ، وحُذِفَ جوابُه المقدَّرُ من نفس لفظِ جوابِ القسَم، ودلَّ المذكورُ على المحذوفِ في الموضعين، فكأنَّ جملةَ ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا﴾ كُرِّرت مرَّتين: مرَّةً باعتبارِها جملة القسم، وأخرى باعتبارها جملةَ الشَّرطِ، وكذلك الأمرُ في جملةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، فالكلامُ على نيَّةِ التَّكرير، والنُّكتةُ في هذا التَّعبير أنَّه تضمَّنَ أسلوبَيْن: أسلوبَ القسَم المفيدَ تأكيدَ المعنى وتقويتَه وتقريرَه، وأسلوبَ الشَّرطِ الدّالَّ على أنَّ وقوعَ الشَّرطِ سببٌ لوقوعِ الجزاءِ، معَ ما تدلُّ عليه (إنْ) الشَّرطيَّةُ كما تقدَّمَ[1].

من آداب الدُّعاءِ تأكِيدُ طلَبِ المغفرة والرَّحمةِ، بإخباتٍ وخُشوعٍ

سِرُّ تَقديمِ المغفرةِ على الرَّحمة والعكس:

النَّاظرُ في هذهِ الآية الّتي تحدَّثَتْ عن آدمَ وزوجِه، يجدُ تقديمَ المغفرةِ على الرَّحمة، وذلك من باب التَّناسب مع مطلَعِ الآيةِ؛ حيث بُدِئَتْ بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾، والظُّلم ذنبٌ يتطلَّب المغفرةَ، فناسبه تقديمُ المغفرة على الرَّحمة؛ أمَّا الآيةُ الّتي جاءت في قصَّة موسى مع قومه؛ فقد بُدِئَت بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾؛ فلمَّا كان الضَّلالُ لا يزولُ إلَّا برحمةِ اللّٰه؛ وذلك بعد تصميمِهم وتصلُّبِهم في عبادة العِجل وقولِهم: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91]، ناسبه تقديمُ الرَّحمة، قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149].

الظُّلمُ ذنبٌ يَتطلَّبُ المغفرةَ، فناسبَه تَقديمُ المغفرةِ على الرَّحمةِ

دَلالةُ تتابُعِ التَّأكيدِ، في قولِه تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾:

أُكِّدَتْ جملةُ جوابِ القسم الدَّالَّةُ على جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ

تأكيدُ الخُسرانِ بانتفاءِ مَغفرةِ اللهِ ورحْمتِه

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/323، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/29، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/65.

بمؤكِّدين: لامِ القسمِ ونونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ؛ إظهارًا لتحقيقِ الخُسرانِ بانتفاءِ مغفرةِ اللّهِ ورحمتِه، واستغفارًا للّهِ واسترحامًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1].

بَراعةُ التَّعبيرِ بالكِنايةِ، في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

وُرودُ التّكنيّةِ دونَ التّصريحِ، من بَليغِ البيَانِ القُرآنيِّ

قد يقالُ: لو قالَا: (لنكونَنَّ خاسرَين)؛ لكان أخصرَ وَأوفى للمعنى، والجوابُ: أنَّه ليسَ كذلك، وبينهما فرقٌ، فإنَّ ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أشدُّ من (خاسرَين)، وبيانُه أنَّه لمّا كانت (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جنسيَّةً، دلَّت على أنَّ مَن لم يغفرِ اللّهُ له ويرحمْه؛ هو واحدٌ من الفئةِ الموصوفةِ بالخُسرانِ ومعدودٌ منهم، فيكونُ قد أثبتَ خسرانَه بطريقةٍ تشبهُ الاستدلالَ، لثبوتِ الوصْفِ له بطريقِ اللّازمِ؛ ليكونَ من قبيلِ الكنايةِ الّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ منَ التَّصريحِ، فكأنَّه أثبتَ الخُسرانَ له مرَّتين: مرَّةً لأنَّهُ عدَّهُ من زُمرةِ الخاسرين، لدخولِه فيهم بسببِ (أل) الجنسيَّةِ، وأخرى حين أثبتَ له الوصفَ باللُّزوم.

بَلاغةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

يُحذفُ المتعلَّقُ، لإفادةِ عُمومِ الخُسرانِ أو لإثباتِ الوصْفِ

حُذِفَ متعلَّقُ الخاسرين، فلم يقلْ: (لنكونَنّ من الخاسرين أنفسنا، أو آخرتنا) مثلًا، إمَّا لإفادةِ العمومِ بمعنى: إنْ لم تغفرْ لنا، وترحمْنا لنكونَنَّ منَ الخاسرين الّذينَ خسروا أنفسَهم بظلمِهم لها، وخسِرُوا غُفرانَ اللّه تعالى ورحمتَه[2]، وخسروا كلَّ شيءٍ، وإمَّا بمعنى: أنَّ الوصفَ المشتقَّ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ صارَ لازمًا لهما إنْ لم يتحقَّقِ الشَّرطُ.

بَلاغةُ الكِنايةِ في أُسلوبِ الشَّرطِ في السِّياقِ:

من روائعِ بلاغةِ القُرآنِ الكِنايةُ بالشَّرطِ عن الدُّعاءِ

أفادَ الشَّرطُ معنى آخرَ مقصودًا منه هو الدُّعاءُ والسُّؤالُ، بمعنى كُنِّيَ بالشَّرط لسؤالِ التَّوبةِ والسَّترِ والتَّغمُّدِ بالرَّحمةِ، فيكونُ من

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/65.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2800.

مجيء الشَّرط على طريقِ الكناية، ولكن بإرادةِ مجموعِ المصرَّح به والمكنَّى عنه، أو يكونُ بتقديرِ محذوفٍ دلَّ عليه المذكورُ، وتقديرُ الكلام: (ربَّنا اغفرْ لنا، وارحمْنا، وإنْ لم تغفرْ لنا، وترحمْنا؛ لَنكوننَّ من الخاسرين)، ومثلُه قولُ نوحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 47][1].

سِرُّ الوصْفِ بـ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، في الآيةِ الكريمةِ:

المعصيةُ خُسرانٌ واضحٌ، وبلاءٌ فاضِحٌ

اختارَ التَّعبيرَ بوصْفِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دون غيرِه كالظَّالمين؛ لأنَّ الخُسرانَ يدلُّ على انتقاص رأسِ المالِ، والطَّاعةُ هي رأسُ مال المسلمِ، فإذا عصى، وظلم؛ خسر رأسَ ماله؛ تشبيهًا بالظَّالم الّذي ظلم نفسَه، وعرَّضها للعذابِ، وفي ذلك خَسارةٌ للنَّفس أيُّ خَسارةٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

الدَّلالةُ على الثُّبوتِ، وتمكُّنِ الخُسرانِ

عبَّر باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دون الفعلِ (خسروا)؛ للدَّلالةِ على الثُّبوت، وتمكُّنِ الخُسرانِ، إذا لم تُغفرْ ذنوبُهما.

بيانُ الفَرْقِ بينَ مَعصِيةِ إبليسَ ومَعصِيةِ آدمَ:

كلُّ فردٍ مَوكولٌ إلى طلَبِه، فمَن استغفرَ غُفرَ له، ومَنْ تكبَّر؛ لُعِنَ وطُرِدَ

مِن لطائفِ الآيةِ بيانُ الفرقِ بَين معصيةِ إبليسَ ومعصيةِ آدمَ، فإبْليسُ عصَى، وأصرَّ على المعْصِيَة، وآدَمُ عصى، وتَابَ عَنِ المعْصِيَة فقبَل اللهُ توبته، وهداه رُشدَه: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه: 122]، وَإِبْلِيسُ كَانَ مُتَعَمِّدًا، وآدَمُ كَانَ سَاهِيًا، وإبليسُ طلبَ النَّظِرة، ولم يطلبِ التَّوبةَ، وآدمُ طلب التَّوبةَ والرَّحمةَ، فوُكلَ كلُّ واحدٍ إلى ما طلبَه[2].

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/386، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/387، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2800.

(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعاني: 2/172، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/387.

﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين توبة آدمَ وزوْجِه، وبين نُزولِهما إلى دارِ المقارَعةِ والمُناكَدَةِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقةُ أنَّ آدمَ وزوجَهُ طلبا المغفرةَ والرَّحمةَ ضمْنَ اعترافِهما بظُلمِهما لأنفسِهما؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ لبيانِ جوابِ العليِّ الكبيرِ ﷻ، فناسبَ ذكرَ ما بعدَ توبتِه عليهما، وتحذيرَ آدمَ وذرِّيَّتِه من عداوةِ الشَّيطانِ لهم بعدَ وجودِهم في الأرضِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾: بَعْضُ الشيءِ جزءٌ منه، ويقابَلُ به الكلُّ، وبعضُ كلِّ شيءٍ طائفةٌ منه، فقد يكونُ البعضُ أكثرَ من جُزءٍ منَ الشَّيءِ، فيَتَنَاوَلُ مَا فَوْقَ النِّصْفِ كَالثَّمَانِيَةِ، فَإِنَّهُ يَصدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ بعضٌ مِنَ العَشَرَةِ، وقد يطلقُ على ما هو فردٌ منَ الشَّيءِ، كَمَا يُقَالُ: (زيدٌ بعضُ الإنسانِ)، والبعضُ يتَجَزَّأُ، والجزءُ لَا يتَجَزَّأُ، وبعَّضتُ الشَّيءَ تبعيضًا؛ إذا فرَّقْتُهُ أجزاءً.

والمُرادُ بِالبَعْضِ في الآيةِ الكريمةِ: البَعْضُ المُخالِفُ في الجِنْسِ، فَأَحَدُ البَعْضَيْنِ هو آدَمُ وزَوْجُهُ، والبَعْضُ الآخَرُ هو إبْلِيسُ[2].

2) ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾: قَرَّ في مكانِه يَقِرُّ قَرَارًا؛ إذا ثبت ثُبوتًا جامدًا متمكِّنًا فيه، على معنى المُكثِ في المكانِ، وأصلُه منَ القُرِّ، وهو البَرْدُ، وهو يقتضِي السُّكونَ، والحرُّ يقتضِي الحركةَ، واسْتَقَرَّ فلانٌ: إذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والكفويّ، الكليّات: (بعض)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/68.

تحرَّى القَرَارَ، وقد يُستعملُ في معنى قرَّ، كاستجابَ وأجابَ، ومعنى ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾: اللُّبثُ والإقامةُ[1].

3) ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: يُحتمَلُ أن يكونَ المتاعُ بمعنى التَّلذُّذِ، ومنه مَتَعَ النَّهارُ؛ لأنَّه يتمتَّعُ بضيائِه، والمتاعُ الانتفاعُ بما فيه لذَّةٌ عاجلةٌ، كما يُحتمَلُ أنْ يكونَ المتاعُ بمعنى الامتدادِ والارتفاعِ، فالمتاعُ انتفاعٌ ممتدُّ الوقتِ في خَيرٍ، ومنه مَتَعَ النَّهارُ؛ إذا امتدَّ ضياؤه، ومَتَعَ النَّباتُ؛ إذا ارتفعَ، والمتاعُ من أمتعةِ البيتِ: ما يستمتِعُ به الإنسانُ في حوائجِه، والمتاعُ في الآيةِ، بمعنى: كلِّ ما ينتفَعُ به منَ الأشياءِ على وجهٍ ما، من نَيلِ الملذَّاتِ والمرغوباتِ غيرِ الدَّائمةِ، فيشملُ المالَ والطَّعامَ والمركبَ والتَّعميرَ وغيرَها[2].

4) ﴿حِينٖ﴾: الحينُ هو وقتُ بلوغِ الشَّيءِ وحصولِه، وهو ظرف زمانٍ مبهمُ المعنى، فليسَ له حدودٌ، ويتخصَّصُ بالمضافِ إليه، فقد يأتي بمعنى الأجلِ، وبمعنى السَّنةِ، وبمعنى الزَّمانِ المطلَقِ غيرِ المحدَّدِ، وقد يتعيّنُ بالقرائنِ، ويأتي الحينُ في الاستعمالِ الكثيرِ للوقتِ الطَّويلِ، يقالُ: ما رأيتكَ منذُ حينٍ، تريدُ منذُ حينٍ طويلٍ، وقد يأتي للوقتِ القصيرِ، والعبرةُ بالقرينةِ.

ومعنى الحين في الآيةِ الكريمةِ: الزَّمَنُ المُقارِنُ لِحالَةِ الحَياةِ والإدْراكِ، وهو المُسَمّى بِالأجَلِ[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

قالَ اللّهُ تعالى مخاطبًا آدمَ وحوَّاءَ - عليهما السلام - وإبليسَ: اهبطوا منَ

العَداوةُ بين آدمَ وذريَّتِه، وبين إبليسَ وأعوانِه، أمرٌ قَدَريٌّ، لا مَفرَّ منه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرر)، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 68.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي، المصباح المنير: (متع)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 68.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حين)، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/116، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68.

السَّماءِ إلى الأرضِ، بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ، ولكم في الأرضِ مكانٌ تستقرُّونَه، وتمتُّعٌ تستمتعونَه إلى تقضِّي آجالِكم[1].

وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ شُؤمَ الخطيئة كان سببَ طردِ إبليس منَ الرحمة، وإخراجِ آدمَ منَ الجنّة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ﴾:

جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ، كأنَّه قيلَ: ماذا قالَ اللّهُ تعالى بعدَ أنْ تابَ على آدمَ وحوَّاءَ، فأجابَ: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾، لاستدرارِ سمْعِ المخاطَبين وتنبيههم إلى الإصغاءِ للخطابِ، وأفادَ الاستئنافُ كذلكَ إظهارَ العناية بالأمرِ بالهبوطِ وبما بعدَه.

استدرارُ سمْعِ المخاطَبين، وتنبيهُهم إلى الإصْغاءِ للخِطابِ

الفرق بين ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾، و﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ في سورةِ البقرة:

جاءَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿قَالَ﴾ في سورة الأعرافِ في سياقِ إبرازِ المُفارَقة بين سلوكِ إبليسَ وسلوكِ آدمَ بعد المعصيةِ، والمُتَّبَعُ في هذه السُّورة، التَّعبيرُ بـ ﴿قَالَ﴾ المناسبُ للتَّفرُّد والوحدانيَّةِ، وهذا واضحٌ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾، وفي قولِه تعالى ردًّا على إبليسَ: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى غيرِ ذلك منَ المواطنِ الّتي ورد فيها التَّعبيرُ بـ ﴿قَالَ﴾، أمَّا ما ورد في سورة البقرةِ، فجاء مناسبًا للسِّياق هناك بتذكيرِ بني آدمَ بفضلِ اللّه عليهم، وكان المُتَّبعُ في ذلك، التَّعبيرَ بما يدلُّ على العَظَمةِ، وهذا واضحٌ في كثيرٍ من مشاهدِ القصّةِ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة: 34]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾، وقالَ تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

كلُّ تعبيرٍ قرآنيٍّ يُناسبُه ما يَدلُّ عليه السِّياقُ في موضِعِه من سُورتِه

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 153.

معنَى واوِ الجمْعِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾:

جاءَ الضَّميرُ بصِيغةِ الجمعِ؛ ليشملَ آدمَ وحوَّاءَ - عليهما السلام - وإبليسَ اللَّعينَ، فلمَّا اجتمَعُوا في الإنزَالِ؛ جمَعَ بَينهم في الخطابِ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ الخطابَ يشملُ ذرِّيَّةَ آدمَ كذلك، لدلالةِ السِّياقِ على دخولِ بني آدمَ في الخطابِ، ووجهُه أنَّه لمّا كانَ آدمُ وحوَّاءُ أصلَ الإنسِ؛ كانا كأنَّهما جنسُ الإنسِ كلِّه، كما أنَّه لامانعَ من خطابِ الذّرِّيَّةِ، وهي لم توجدْ بعدُ؛ لأَنَّ خطابَ الأبناءِ تابعٌ لخطابِ الآباءِ، ولأنَّ المنتظَرَ هو في حُكمِ الموجودِ، أو يكونُ من قبيلِ المجازِ المرسلِ باعتبارِ ما سيكونُ مع إرادةِ المعنى الأصليِّ كذلك، فيكونُ من قبيلِ الجمعِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ[1].

الأمْــرُ الإلــهــيُّ مُـوجَّـهٌ للبَنين كما وُجِّهَ للآباء، على حدٍّ سَواء

دَلالةُ الأمْرِ بالهبُوطِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾:

لمّا كانَ الأمرُ بالهبوطِ هنا للكلِّ، أي: لآدمَ وحوَّاءَ وإبليسَ؛ أفادَ أنَّ الأمرَ بالهبوطِ هنا غيرُ الأمرِ بالهبوطِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، فلا تكرارَ بالأمرِ؛ لأنَّه علَّق بكلِّ أمرٍ منهما حُكمًا غيرَ حُكمِ الآخرَ، فعلَّقَ بقولِه: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ العقوبةَ لإبليسَ - والأمرُ خاصٌّ به - وعلَّقَ بقولِه: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ معنى إقامةِ الحياةِ في الأرضِ والاستقرارِ والمتاعِ إلى حينٍ، كما أنَّه كرَّرَ الأمرَ لإبليسَ تبعًا لآدمَ وحوَّاءَ؛ إذ جاءَ بصِيغةِ الجمعِ؛ ليُعلمَ أنَّهم قرناءُ أبدًا، أي: باعتبارِ جنسِ النَّاس، وإلَّا فعبادُ اللّهِ المخلصون أمناءُ من مقارنَتِه[2].

لا تَــكــرارَ في القرآنِ الكريمِ، فـلِـكـلِّ لـفـظٍ معناهُ في سِياقِهِ الخاصِّ به

دَلالةُ الخِطابِ بالأمْرِ بينَ الجمْعِ والتَّفريقِ:

يحتملُ الإخبارُ بالأمرِ بالهبوطِ أنْ يكونَ للجميعِ دُفْعةً واحدةً، وأنْ يكونَ أخبرَ عمَّا قال لهم مفرَّقًا بين آدمَ وحوَّاءَ من جهةٍ، وإبليسَ

وُرودُ الخطابِ بـصـيـغـةٍ تـجـمـعُ كـلَّ الشّخصيّاتِ، تُــشــيرُ إلى صَلاحيّتِها لكلِّ المواقفِ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/31، والسّمعاني، تفسير السّمعاني: 2/173، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/387، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/361، ومجموعة من المؤلّفين ولجنة من أساتذة الأزهر، التّفسير الوسيط: 3/1399.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/9، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/361.

اللَّعينِ من جهةٍ أُخرى، ويرِدُ مثلُ هذا الخطابِ في القرآنِ كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: 51]، فهو هنا خطابٌ للأنبياء - عليهم السلام - على التَّفريق، مع كونِهم أُرْسِلُوا في أزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وأنَّ كُلًّا مِنهم خُوطِبَ بهذا الخطابِ كذلك في زَمانِهِ(1).

سِرُّ التَّعبيرِ بالجمْعِ هنا، وبالمُثَنَّى في سورةِ طه:

تَعدُّدُ جِهاتِ الهُبوطِ، لكوْنِ الأمرِ جاء بتعميمِ أمْرٍ، هو بذِمّةِ آدمَ مَنُوطٌ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ في سورة الأعرافِ - وقبل ذلكَ في سورةِ البقرة - بالأمرِ بالهبوطِ بصِيغةِ الجمعِ ﴿ٱهْبِطُواْ﴾، أمَّا في سورة طه؛ فجاءَ بصِيغةِ المثنَّى ﴿ٱهْبِطَا﴾ [طه: 123] وسببُ ذلك أنَّ الأمرَ في موضعِ الجمعِ موجَّهٌ لآدمَ وزوجِهِ والذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منَ البشرِ فيه جزءٌ من آدمَ؛ إذًا أمْرُ الذريَّةِ معتبرٌ في صِيغة الجمعِ؛ أمَّا في سورةِ طهَ؛ فالأمرُ محمولٌ على طرفَي المواجهةِ، فالطَّرفُ الأوَّلُ: آدمُ وذرّيتُهُ، والطَّرفُ الثَّاني: الشَّيطانُ وأعوانُهُ.

تأصُّلُ العَداوةِ بين إبليسَ وآدمَ وذرِّيتِه في السِّياقِ:

إبليسُ يَسعَى في هلاكِ البَشرِ، وهو عدُوٌّ لهم، وهُم أعداءٌ له

لمّا كانَ كلُّ مَنْ يسعى في هلاكِنا هو عدوٌّ لنا، ونحنُ عدوٌّ له، وكانَ إبليسُ قد أقسمَ بأنْ يغويَ بني آدمَ بالقُعودِ لهم على الصِّراطِ المستقيم، وإتيانِهم من جميعِ الجهاتِ، كما يأتي العدوُّ؛ ناسبَ أنْ تكونَ العداوةُ متواردةً بينَ الطَّرفين(2)، فقال تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾:

عَداوةُ إبليسَ للفردِ الواحدِ، كما هي لِطائفةِ المؤمنينَ قاطبةً

لمّا كانَ لفظُ (بعض) يُطلقُ على الفردِ منَ الشَّيءِ، وعلى الطَّائفةِ؛ دلَّ التَّعبيرُ بهذا اللَّفظِ على أنَّ عداوةَ إبليسَ لبني آدمَ قد تكونُ لفردٍ واحدٍ، أي: للأفرادِ على البدلِ، وقد تكونُ لطائفةٍ، كما في عداوتِه لطائفةِ المؤمنينَ؛ إذ أخبرَ عن عُمقِ صَرْفِه النّاسَ عن عبادةِ اللّه بقولِه:

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/9، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/221.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/392.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 17]، زِيادَةً في بَيانِ قُوَّةِ إضْلالِه البشرَ، بِحَيْثُ لا يُفْلِتُ مِنَ الوُقُوعِ في حَبائِلِه إلّا القَلِيلُ مِنَ النّاسِ[1].

مُناسبةُ التَّعبيرِ بالبَعضيَّةِ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾:

البَادِئُ بالعَداوةِ لبني آدمَ هو إبليسُ اللَّعينُ

لمّا كانَ البعضُ الأوَّلُ هو إبليسُ، والبعضُ الثَّاني هو آدمُ وحوَّاءُ، أفادَ أنَّ المرادَ بالبعضِ البعضُ المخالِفُ في الجنسِ، بمعنى عداوةِ إبليسَ لآدمَ وجنسِه، وليس المرادُ عداوةَ بني آدمَ بعضِهم لبعضٍ[2]، كما أفادَ قولُه تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ أنّ البادئَ بالعَداوةِ هو إبليسُ اللَّعينُ.

دَلالةُ آيةِ البعضيّةِ، بين الحالِ والاستِئنافِ:

ثُبوتُ العَداوةِ بينَ إبليسَ وبني آدمَ، واستِمْرارُها على مدَى الدّهرِ

تحتملُ جملةُ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ أنْ تكونَ حالًا، ولمَّا كانت اسميَّةً، وكانَ الحالُ على معنى اقترانه بعامله؛ دلَّ الكلامُ على ثبوتِ اقترانِ العداوةِ بالهبوطِ، أي: إنَّهم نزَلُوا متعادِين؛ لإفادةِ استمرارِ العداوةِ وثبوتِها، فإبليسُ يعادِيهما، وهما يعادِيانه، أي: إنَّ العداوةَ ثابتةٌ بين الجنِّ والإنسِ لا تزولُ البتّةَ[3]، كما تحتملُ أنْ تكونَ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّهم لمَّا أُمروا بالهبوطِ سألوا: كيفَ يكونُ حالُنا؟ فأجيبوا بأنَّ بعضَكم لبعضٍ عدوٌّ، ولايخرجُ التَّركيبُ على هذا الاحتمالِ - أيضًا - عن معنى ثبوتِ العداوةِ واستمرارِها[4].

مُناسَبةُ التَّعبيرِ بالعَداوةِ، في قولِه تعالى: ﴿عَدُوّٞ﴾:

التَّمسُّكُ بالصِّراطِ المستقيمِ يَقِي مِن مَصارعِ الشَّيطانِ الذَّميمِ

أشعرَ التَّعبيرُ بالعداوةِ تحذيرَ بني آدمَ مِنَ الشَّيطانِ، وتذكيرَهم بعداوتِه لهم ولأصلِهم؛ ليتَّهمُوا كلَّ وسوسةٍ تأتِيهم مِنْ قِبَلِه، ولِلإشعارِ بوجوبِ التَّهيُّؤِ له، كما يُتهيَّأُ للعدوِّ وذلك بالتّمسُّك بالصِّراطِ المستقيمِ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/97، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/221.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/342.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68.

بَلاغةُ التَّقديمِ ﴿لِبَعۡضٍ﴾ والتَّأخيرِ للفظِ ﴿عَدُوّٞ﴾ في السِّياقِ:

لايـزالُ إبليسُ يـترصَّـدُ لبني آدمَ، حـتّـى يُـوقـعَـهـم في شِباكِه

هذا من أساليب البيانِ القرآنيِّ الّذي يعبِّرُ عن ترتيب الكلماتِ والجُملِ بحسبِ ما يتناسبُ مع المقصودِ والموقفِ، فقد أفادَ تقديمُ ﴿لِبَعۡضٍ﴾ على ﴿عَدُوّٞ﴾ الاهتمامَ؛ للتَّحذيرِ من عداوةِ إبليسَ والاهتمامِ بها، وللإشعارِ بترصُّده لآدمَ وذرِّيَّته.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمفردِ: ﴿عَدُوّٞ﴾ دونَ (أعداءٌ):

العَـدُوُّ مَصدرٌ يُطلقُ على المفردِ والمثنَّى والجمْعِ

عبَّر بلفظ ﴿عَدُوّٞ﴾ دون أعداءٍ، كأن يقولَ: (بعضُكم أعداءٌ لبعضٍ)؛ لأنَّ ﴿عَدُوّٞ﴾ مصدرٌ، فيُطلق على المفرد والمثنَّى والجمع. وأيضًا لأنَّ لفظَ (بعض) يُخبرُ عنه بالواحدِ لفظًا ومعنًى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العداءَ بين آدمَ وذرّيته من جهةٍ، وبين إبليسَ وأعوانِه من جهةٍ أخرى، عداوةٌ واحدةٌ ناتجةٌ عنِ الطَّاعة والمعصية. وللإشارةِ إلى الفرْقِ بين العداوةِ الإيمانيَّةِ والعداواتِ المجتمعيَّةِ، فأشكالُها متعدِّدةٌ وأسبابُها متنوعّةٌ.

جُملة ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ بين الحاليَّةِ والاستئنافيَّةِ:

تـوسُّـعُ المعنَى بتَنوُّعِ التَّقديرِ، من بديعِ كلامِ العليمِ الخبيرِ

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، لمّا كانتْ هذهِ الجملةُ معطوفةً على قولهِ تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾[1]؛ احتملتْ أنْ تكونَ حالًا، أو استئنافًا بيانيًّا، مثلَ الجملةِ المعطوفِ عليها، فعلى تقديرِ الحالِ، يكونُ المعنى اقترانَ الهبوطِ بحالَين ثابتَين، أي: اهبطوا منها في حالِ تعادِيكم، وفي حالِ أنْ يكونَ لكم في الأرضِ مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ، وتحتملُ أنْ تكونَ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّهم لمَّا أُمروا بالهبوطِ؛ سألوا كيفَ يكون حالُنا في الأرضِ؟ فأجيبوا بما ذُكِرَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69.

دَلالةُ صِيغةِ: ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾:

الأرضُ هي مكانُ استقرارِ بني آدمَ، ومَوضعُ مُكْثِهم

تحتملُ الصِّيغةُ أنْ تكونَ مصدرًا ميميًّا، وأنْ تكونَ اسمَ مكانٍ، فإذا كانتْ مصدرًا ميميًّا، فالمعنى: ولكم في الأرضِ استقرارٌ ومُكثٌ؛ لإفادةِ حقيقةِ الاستقرارِ في الأرضِ، كما تحتملُ الصِّيغةُ أنْ تكونَ اسمَ مكانٍ؛ لإفادةِ موضعِ الاستقرارِ والمُكثِ، وهو رأيُ جمهورِ المفسِّرين، والمعنى: في الأرض مكانُ استقرارِكم في حياتِكم، ومُكثِكُم فيها(1).

دَلالةُ تقديمِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، على قولِهِ تعالى ﴿مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ﴾:

لا يجتمعُ الاستقرارُ والمتاعُ في غيرِ الأرضِ الّتي نحن سَاكِنُوها

لَمّا تقدَّم الجارُّ والمجرورُ أفادَ الحاليَّةَ والعنايةَ والاهتمامَ، بمعنى إظهارِ العنايةِ والاهتمامِ ببيانِ حالِ مكانِ الاستقرارِ والمتاعِ لبني آدم، ويُحتمَلُ أنْ يفيدَ التَّخصيصَ - أيضًا - بمعنى لا يجتمعُ الاستقرارُ والمتاعُ في غيرِ الأرضِ الّتي نحن ساكنُوها، وقد يكونُ فيه إشارةٌ إلى وجهٍ منَ الإعجازِ العِلميِّ لم تتحقَّق معرفتُه لنا.

سببُ إيثارِ العطْفِ، في قولِه تعالى: ﴿مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ﴾:

لا استقرارَ في الأرضِ مِنْ غيرِ تمتُّعٍ فيها، وتلك سُنّةُ الله في العُمْرانِ

عطْفُ المتاعَ على الاستقرارِ في الأرضِ؛ لبيانِ أنَّ الاستقرارَ والمتاعَ في الأرضِ مقترنانِ لا يفترقانِ، والمعنى: ولكم في الأرضِ استقرارٌ أو مكانٌ تستقرُّونَ فيه في حياتِكم، ومتاعٌ تنتفعونَ به في معيشتِكم إلى حينٍ، وهذا المستقرُّ والمتاعُ هنا بمعنى قولِه تعالى في أوَّلِ هذا السِّياقِ: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ [الأعراف: 10]، فهو تعالى يذكِّرُنا فيما خاطبَ به آخرَنا على لسانِ آخرِ رسلِه وخاتمِهم ﷺ بما قاله لأوَّلنا(2).

دَلالةُ التَّنكيرِ، في قولِه: ﴿مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ﴾:

لا بقاءَ في الدّنيا لمتاعٍ، وإن طالَتِ الآجالُ، واتّسعتِ الأعمارُ

أفادَ التَّنكيرُ في لفظَيْ ﴿مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ﴾ التَّقليلَ، بمعنى: أنَّ الاستقرارَ في الدُّنيا، والمتاعَ فيها قليلٌ، وإنْ طالَ بالنِّسبةِ لآجالِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/646، والآلوسّي، روح المعاني: 4/342.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/313.

النَّاس، كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، فالاستقرارُ ومتاعُ الدُّنيا سريعَا التقضِّي، وشيكَا الانصرامِ، وإنْ أُخِّر النَّاسُ إلى حينٍ.

سِرُّ تقديمِ (المُستَقرِّ) على (المتاعِ):

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، قُدِّمَ المُستقرُّ على المتاعِ؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ يشمَلُ زمنَ الحياة وزمنَ الإقامة في القبورِ، كما وصفَ اللهُ الأرضَ الّتي نعيشُ عليها، بأنها تضمُّ على ظهرِها أحياءً لا يُحصَوْن، وفي بطنها أمواتًا لا يُحصَرُون، بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ [المرسَلات: 25 - 26]؛ أمَّا المتاعُ من نَيلِ الملذّات والمرغوباتِ غيرِ الدّائمة، أو ما يتَّمتعُ به وينتفعُ به منَ الأشياء؛ فهو بحسبِ كلِّ إنسانٍ ومدّةِ حياتِه؛ لأنَّ المتاعَ هو التَّمتُّعُ والنَّيلُ منَ الفوائدِ، وعلى ذلك؛ فالمتاعُ أخصُّ منَ المُستقرِّ.

المستقرُّ لفظٌ شامِلٌ، يجمَعُ بين الحياةِ الدُّنيا وحَياةِ القُبورِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ، في: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾:

أي: إنَّ المستقرَّ والمتاعَ بالغانِ ومنتهيانِ إلى حينٍ؛ ليكونَ إعلامًا منَ اللهِ بما قدَّرهُ للإنسِ والجنِّ في هذهِ الأرضِ، وإيذانًا بأنَّ مُكثَهما وانتفاعَهما في الأرضِ لهما غايةٌ زمنيَّةٌ ينتهيان إليها، وليس في ذكرِ انتهاءِ الغايةِ امتنانٌ ولا تنكيلٌ بهم[1].

المُكثُ والانتفاعُ في الدُّنيا، لهما وقتٌ يَنتهيانِ إليه

بَراعةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿حِينٖ﴾:

عُبِّر بالحينِ لفوائدَ هي: لإفادةِ أنَّ المستقرَّ والمتاعَ في الأرضِ يكونُ لزمنٍ كثيرٍ وطويلٍ بالنَّظر إلى أعمارِ النَّاس وآجالِهم، فإنَّه لَمَّا كانت أعمارُ النَّاسِ طويلةً، وآجالُهم عن أوائلِ حدوثِهم متباعدةً؛ جاز أنْ يقولَ: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، كما يكونُ لفظُ ﴿حِينٖ﴾ دالًّا على الزّمنِ، فهو قصيرٌ بالنَّظرِ إلى مدّةِ الدُّنيا إلى الآخرةِ، فمتاعُ الدُّنيا

(الحينُ) مِنَ المشتركِ اللّفظيِّ الحاملِ أكثرَ مِن معنًى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/69.

قليلٌ وقصيرٌ، ولمّا كانَ الحينُ في الآيةِ غيرَ مُعيّنٍ ولا محدَّدٍ بزمنٍ؛ احتُمِل أنْ يكونَ المرادُ به إلى حينِ الموتِ أو إلى حينِ يوم القيامة، فيصحَّ حملُه على المعنيَيْنِ، فإذا كانَ بحسبِ الفردِ الواحدِ منَ النَّاس؛ فالمرادُ به الموتُ، وإذا كانَ بحسبِ عُمومِ النَّاس؛ فالمرادُ به قيامُ السَّاعةِ، وعلى كلا التَّقديرين يشملُ المستقرُّ والمتاعُ زمنَ الحياةِ كلِّها(1).

مُناسبةُ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿حِينٍ﴾:

الاستقرارُ والتَّمتُّعُ في الأرضِ، يختلفُ قِصَرًا وطُولًا باختلافِ الأجناسِ والأفرادِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿حِينٍ﴾ هنا، ولم يحدَّدْ؛ لاختلافِ مقدارِه، فقد يكونُ الاستقرارُ في الأرضِ والتَّمتُّع فيها طويلًا، وقد يكونُ قصيرًا، وذلكَ باختلافِ الأجناسِ والأفرادِ، وباختلافِ النَّظرِ إلى المجموعِ أو إلى الأفرادِ كما تقدَّمَ(2).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(الهبوطُ) و(النّزولُ):

الهُبوطُ نقيضُ الصُّعودِ، وهو نـزولٌ تَعقبُهُ إقامةٌ، والنّزولُ الانحدارُ من عُلوٍّ فقط

عبَّرَ بالهبوطِ دونَ النُّزولِ؛ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالنُّزولُ: هو الحلولُ والانحطاطُ من عُلوٍّ، ويُعَبَّرُ بالنَّازلة عنِ الشِّدَّة في الحربِ، ويُستعملُ الإنزالُ في الدَّلالةِ على نزولِ الأشياءِ من جهة العُلوِّ للدَّلالة على شرفِها وعُلُوِّها؛ كإنزالِ الملائكةِ والقرآنِ والغيثِ ونحوِ ذلكَ.

أمَّا الهبوطُ؛ فيُطلقُ على الانحدارِ على سبيلِ القهرِ، وهو نقيضُ الصُّعود، ويقالُ: رجلٌ مَهْبُوط، أي: نَقُصت حالُه، وعلى ذلك؛ فالتَّعبيرُ بالهبوطِ، هو المناسبُ هنا للنَّقص الّذي طرأَ على آدمَ وزوجِه وعلى إبليسَ، وأيضًا؛ لأنَّ الهبوطَ نزولٌ تعقبُه إقامةٌ، فتقولُ: هبطْنا مكانَ كذا: أي: نزلناه وأقمْنا فيه؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالهبوط

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/116، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/387، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/646.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/69.

دون النُّزول هو المناسبُ لحال آدمَ؛ لأنَّه خليفةُ اللّه في الأرض، والخلافةُ تقتضي الإقامةَ فيها.

(الحينُ) و(الوقتُ) و(الأجلُ):

(الحينُ) يُطلقُ على بلوغِ الشَّيءِ وحُصولِه، والوقتُ على نهايةِ الزَّمانِ المفروضِ للفعلِ والأجلُ المدّةُ المضروبةُ للشّيءِ

آثرَ التَّعبيرَ بـ(الحين) دونَ الوقت؛ لأنَّ الحينَ أعمُّ منَ الوقتِ والأجل، حيث يُطلقُ على بلوغ الشَّيءِ وحُصولِه، وهو مُبهمُ المعنى، ويتخصَّصُ بالمضاف إليه، نحوَ: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ويأتي بمعنى الأجل، نحو: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وبمعنى السَّنَة: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ [إبراهيم: 25]، وبمعنى السَّاعة: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم: 17]، وللزَّمانِ المطلق: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان: 1]، بخلاف الأجلِ؛ فهو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء، ويقالُ للمدَّة المضروبةِ لحياة الإنسان: أجلٌ، قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67].

أمَّا الوقتُ؛ فيُطلقُ على نهاية الزَّمانِ المفروضِ للعمل، ولهذا لا يكادُ يُقالُ إلا مُقيَّدًا، نحوَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء: 103]. وبناءً على كلِّ ذلك: كان التَّعبيرُ بـ ﴿حِينٍ﴾ هو المناسبُ لهذا السِّياقِ؛ لأنَّ استقرارَ البعضِ تتعدَّد أحوالُه وأزمنتُه.

﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٥﴾ [الأعراف: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـهـبـوطُ إلى الأرض المُـهـيّأة لـلـمَـحـيَـا والـرُّفـاتِ، والـبـعْـثِ بعدَ المماتِ

لَمَّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه أهبط آدمَ وزوجَه إلى الأرضِ؛ استأنفَ الكلامَ؛ فأخبرَهما بحالِ إقامتِهما في الأرضِ، وأنَّها ليستْ دارَ خُلودٍ، وأيضًا لمّا أجملَ الكلامَ في قولِه: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ فسَّرَه، وبيَّنَه في هذهِ الآيةِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأرضُ مَحضنُ الحياةِ والموتِ

قال اللّه تعالى لآدمَ وحوَّاءَ وذرّيتِهما: في الأرض تقضون أيّامَ حياتِكم الدُّنيا، وفيها تكونُ وفاتُكم، ومنها يُخرجُكم ربُّكم، ويَحشرُكم أحياءً يومَ البعثِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذهِ الآيةِ عمَّا قبْلَها:

تعدُّدُ المخاطَبين في الآيـةِ، يَـسـتـوعِـبُ المعانيَ العديدةَ ويَختصِرُها

جاءتِ الآيةُ بطريقِ الاستئنافِ الابتدائِيِّ؛ لِلاهتمامِ بالخبرِ، إيذانًا بتغيُّرِ الخطابِ، وإعادةِ القولِ مع جوازِ الاستغناءِ عنه بالواوِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ خطابٌ لآدمَ وزوجِه والشَّيطانِ، والمخاطَبُ في هذه الآية آدمُ وزوجُه وأبناؤُهما، فإنْ كان هذا الخطابُ قبلَ حدوثِ الذُّرِّيَّةِ لهما - كما هو ظاهرُ السِّياقِ - فهو خطابٌ لهما بإشعارِهما أنَّهما أَبَوَا خلْقٍ كثيرٍ، كلُّهم هذا حالُهم، وهو منْ تغليبِ الموجودِ على مَنْ لم يُوجَدْ، باعتبارِ أنَّ الموجودَ أصلٌ لِمَن سيوجدُ، وإنْ كانَ قد وقعَ بعد وجودِ الذُّرِّيَّةِ لهما، فوجهُ الفصْلِ أظهرُ وأجدرُ، بأنْ يكونَ بين الخطابَيْنِ تخالفٌ مّا،

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الميسّر، ص: 153.

فالمخاطَبُ بالأوَّلِ: آدمُ وزوجُه والشَّيطانُ، والمخاطَبُ بالثَّاني: آدمُ وزوجُه وأبناؤُهما(1).

دَلالةُ الآيةِ بينَ كوْنِها تفسيريَّةً أوِ استئنافيَّةً:

تخالُفُ القولَيْنِ بين التَّخاطُبِ والتَّقديرِ والقضاءِ، مُستوعِبٌ للمُرادِ

يحتملُ القولُ مع مقُولِه في الآيةِ أنْ يكونَ كالتَّفسيرِ والبيانِ لِقَوْلِه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وَلِذَلِكَ جَاءَ ﴿قَالَ﴾ بِغَيْرِ وَاوِ العَطْفِ، فقد ذكرَ موضعَ الاستقرارِ والمتاعَ في الأرضِ، ولم يذكرْ مكانَ الموتِ ولا مكانَ الخروجِ إلى يوم البعث، فتُمِّمَ هُنَا المَقْصُودُ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى موضعِ الموتِ، وعلى البَعْثِ وَالنُّشُورِ للإشارة إِلَى المُجَازَاةِ بِالثَّوابِ وَالعِقَابِ، ففيه بيانٌ للمعنى، وتكثيرٌ له، ويكونُ الكلامُ بمجموعِ المفسَّرِ والمفسِّر أكثرَ إيضاحًا وبيانًا(2).

ويحتملُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ لِتنبيهِ السَّامعِ ولِاستدرارِ إصغائِه، فيما هو مهمٌّ، وينبغي العنايةُ به، ولِتكثيرِ المعنى كذلك، فإنَّه لمّا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، كأنَّه قيل: وكيف يكونُ الاستقرارُ والمتاعُ في الأرض، أو وماذا يكونُ حالُنا بعدَ ذلك؟ فالكلامُ على تقديرِ سؤالٍ مَطويٍّ يُعرَفُ منَ السِّياق، ولم يُذكَرْ؛ لئلَّا ينقطعَ الكلامُ، فأجابَ بطريقِ الإخبارِ والإعلامِ، فقال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

وجُعِل تغييرُ الأسلوبِ وسيلةً للتَّخلُّصِ إلى توجيهِ الخطابِ إلى بني آدمَ؛ لأنَّ الأرضَ قرارُهم ومنها مَبْعَثُهُم، وفيه إشارةٌ إلى التَّفريقِ بينَ القولَيْن؛ ففي قولِه: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾ هو قولُ مخاطَبةٍ؛ أمَّا في هذهِ الآيةِ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ الآية؛ فهو قولُ تقديرٍ أي: قَدرُ اللّٰه أنَّكم فيها تحيَون، وفيها تموتون، ومنها تُخرجون.

---

(1) الواحديّ، الوجيز، ص: 390، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/464، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/313، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/464، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/29، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/313.

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في جملة ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾:

الأرضُ موضِعُ حياةِ بني آدمَ واستقرارِهم ومَتاعِهم ومماتِهم وبعْثِهم

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ على الفعلِ ﴿تَحۡيَوۡنَ﴾ الاهتمامَ والعنايةَ بالحياةِ في الأرضِ الّتي جُعِلَ فيها موضعُ استقرارِ بني آدم ومتاعُهم فيها، إذْ كانتْ هي مقرَّ جميعِ أحوالِهم، وقد جُعِلَ هذا التَّقديمُ وسيلةً إلى مراعاةِ النَّظير؛ إذْ جمعتِ الأرضُ حياتَهم ومماتَهم ومكانَ إخراجِهم إلى البعثِ يومَ القيامة، فالأرضُ واحدةٌ، وقد تداولتْ فيها أحوالُ سكَّانِها المتخالفةِ تخالفًا بعيدًا[1]، كما يحتملُ أنْ يفيدَ التقديمُ الحصرَ؛ ليدلَّ على التَّخصيصِ، بمعنى تخصيصِ حياة بني آدم الّتي فيها الاستقرارُ والمتاعُ في الأرضِ لا في غيرِها، فهذا حُكمٌ من اللّه - ﷻ - أمضاه وجعلَه حتمًا في رقابِ العبادِ، يحيَوْن في الأرضِ لا في غيرِها، ويموتونَ فيها، ويُبعثونَ منها إلى الحشرِ أحياءً كما أنشأَ أوَّلَ خلقٍ يُعيدُه[2].

دَلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾ وما بعدَهُ:

حياةُ بني آدمَ في الأرضِ مَشُوبةٌ بالمُنغِّصاتِ

عُبِّر بالضَّمير في الآيةِ في ثلاثةِ مواضعَ، فقال: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾؛ ليعودَ إلى الأرضِ في قولِه: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، إذْ وقعَ الجارُّ والمجرورُ حالًا للمستقرِّ والمتاع؛ لِلإشعارِ بأنَّ الحياةَ الّتي تحيونَها في الأرضِ هي حياةُ المُكثِ والمتاعِ إلى حينٍ، وهي مقترنةٌ بعداوةِ إبليسَ لكم، فلا استقرارَ ولامتاعَ دائمَيْن في الأرض، ولاخلودَ في العيشِ فيها.

والإضمارُ كذلك خلافُ الإظهارِ، في هذا إشارةٌ إلى أنَّ الحياةَ الدّنيا لبني آدمَ على الأرض هي حياةٌ ينبغي ألّا تظهرَ، ولا تُقدَّمَ على حياة الآخرة؛ لأنَّ الحياةَ الدُّنيويةَ موقوتةٌ بدليل الموتِ فيها والإخراجِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/71.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/388، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/646، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/362.

منها، وعلى هذا فالحياةُ الحقيقيَّةُ الظَّاهرةُ هي الدَّارُ الآخرةُ، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 64].

دَلالةُ مَجيءِ الضَّميرِ بصِيغةِ الجمعِ في الآيةِ:

شُمولُ الحُكمِ الموجودينَ والَذينَ سيُوجدُونَ مِنْ بعدُ

دلَّ ضميرُ الجمعِ على كلامٍ مَطويٍّ حُذفَ للإيجازِ: وهو أنَّ آدمَ وزوجَه استقرَّا في الأرضِ، وجُعِلَ لهما ذرِّيَّةٌ، وأنَّ اللّٰه أعلمَهم بطريقٍ من طُرقِ الإعلامِ الإلهيِّ بأنَّ الأرضَ قرارُهم، ومنها مبعثُهم، ليشملَ هذا الحكمُ الموجودينَ منهم يومَ الخطابِ والَذين سيوجدونَ مِنْ بعدُ[1].

هلْ يدخلُ البحرُ في قولِه تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾؟

البحرُ ليسَ موضِعَ حياةٍ بالمعنى المتعارَفِ عليه، ولكنّه يمدُّ اليابسةَ بالحياةِ

إمَّا أنْ يقالَ: البحرُ منَ الأرضِ، فيدخلُ في الكلامِ، أو هو في الأرضِ، فتكونُ الأرضُ ظرفًا له، فيدخلُ فيها تبعًا[2]، وإمَّا أنْ يقالَ: لّما علَّقَ الحياةَ في الأرضِ على كونِها موضعَ إقامةٍ ومتاعٍ طويلٍ بالنَّظرِ إلى أعمارِ النَّاسِ الطَّويلةِ وآجالِهم المتباعدةِ لم يدخلِ البحرُ في قولِه: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾؛ لأنَّه ليس موضعَ حياةٍ بالمعنى المذكورِ؛ لأنَّ اللَّفظَ؛ إذا أُطلقَ انصرف إلى المتعارَفِ عليه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالحياةِ، في قولِه تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾:

الحياةُ أعمُّ منَ المعيشةِ، والمعِيشةُ من خصائِصِ الحيوانِ، عاقلًا كان أو غيرَ عاقلٍ

عبَّر بالحياة دونَ المعيشةِ؛ لأنَّه سبقَ ذكرُها في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾؛ فلمَّا سبق ذكرُ المعايشِ، جاء هنا ليبيِّنَ المكانَ الّذي تكونُ فيه المعيشَةُ.

وأيضًا؛ لأنَّ الحياةَ أعمُّ منَ المعيشةِ، ذلك لأنَّ المعيشة تختصُّ بالحيوانِ، فهي أخصُّ منَ الحياةِ، ولذلك تطلقُ الحياةُ على اللّٰهِ؛ بخلافِ المعيشةِ، فهي من خصائصِ الحيوانِ، عاقلًا كان أو غيرَ عاقلٍ، قال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/71.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/362.

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه تعالى ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَفِيهَا﴾؛ لِلاهتمامِ والعنايةِ بالأرضِ كما تقدَّمَ في الكلامِ على تقديمِ الجارِّ والمجرورِ عندَ قولِه: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾، ولا يبعدُ أنْ يكونَ التَّقديمُ للحصرِ - أيضًا - بتقديرِ المجموعِ بما يدلُّ عليه ضميرُ الجماعةِ (الواو)، أي: في الأرضِ تموتونَ بمجموعِكم، وإنِ احتُمِلَ أنْ يموتَ بعضُ الأفرادِ في غيرِ الأرضِ، والبحرُ هنا داخلٌ باعتبارِ أنَّه منَ الأرضِ أو أنَّ الأرضَ ظرفٌ له.

الاهتمامُ والعنايةُ بالأرضِ، إذْ فيها نِهايةُ المطافِ، بالموتِ الزُّعَافِ

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿تَمُوتُونَ﴾:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بقولِه: ﴿تَمُوتُونَ﴾ الَذي يحملُ معنى إنهاءِ الحياةِ على وجهِ الأرضِ دونَ (تُقبرون)؛ لأنَّ القبرَ هو المَقرُّ الّذي يُقبر فيه الميِّتُ بعد موتِه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ [عبس: 21]، فالقبرُ مرحلةٌ تاليةٌ بعد الموتِ، لذلكَ عبَّر بالموتِ دونَ القبرِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ الأجناسِ على الأرض منَ الدَّوابِّ تموتُ ولا تُقبر، إذًا فالموتُ هو العُنوان الأعمُّ.

الموتُ هو العُنوان الأعمُّ لانْقضاءِ الحياةِ، وانْصِرام العُمُرِ

بديعُ الطِّباقِ، في قولِه: ﴿تَحۡيَوۡنَ﴾، ﴿تَمُوتُونَ﴾:

وردَ الطِّباقُ في الفعلَيْن، وهو من طباقِ الضِّدِّ؛ للإشعارِ بقصَرِ الحياةِ في الأرضِ، فمتاعُ الدُّنيا قليلٌ وقصيرٌ، وللإشعارِ بأنَّ الموتَ حتمٌ على الإنسانِ.

الموتُ حَتْمٌ على الإنسانِ، وكلُّ مَن عليها فانٍ

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه تعالى ﴿وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾:

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ الاهتمامَ والعنايةَ بمكانِ الإخراجِ إلى الحشرِ، وأفادتِ الجملةُ أنَّ الخطابَ في الآيةِ لبني آدم، وإبليسُ غيرُ داخلٍ في الخطابِ؛ لأنَّ الإخراجَ منَ الأرضِ يقتضِي سبقَ الدُّخولِ في باطنِها، وذلك هو الدَّفنُ بعد الموتِ، والشَّياطينُ لا يُدفنون، وقد أمهلَ اللّٰهُ إبليسَ بالحياةِ إلى يومِ البعثِ، فهو يُحشرُ حينئذٍ، أو يموتُ ويُبعثُ، ولا يعلمُ ذلك إلَّا اللّٰه تعالى(1).

مِن خصائصِ بني آدمَ، أنّهم يُقبَرون، والشَّياطينُ لا يُقبَرون

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/71.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإخراجِ في قولِه تعالى ﴿وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾:

الإخراجُ أعمُّ منَ البعثِ، وهو بُروزٌ منَ الأرض بعدَ اللُّبْثِ

آثرَ التَّعبيرَ بالإخراجِ دون البعثِ؛ لأنَّ الإخراجَ منَ الأرض يقتضي سبْقَ الدُّخولِ في باطنها، كما قال تعالى: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه: 55]، والمرادُ بِه الدفنُ بعد الموتِ، ومن المعلوم أنَّ إبليس ومعه ذرِّيَّتُه لا يَجري عليهم ذلك؛ لأنَّه طلبَ من الله أن يُنظرَه إلى يوم البعثِ، وأجابهُ الله إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ فهو باقٍ إلى يومِ البعث؛ فيموتُ عندها، ثم يُبعث. وأيضًا؛ لأنَّ البعثَ ضربان: بشريٌّ، كبعثِ الإنسانِ في حاجةٍ، وإلهيٌّ كإيجاد الأعيان والأجناسِ والأنواعِ عن لَبْسٍ، وذلك يختصُّ به الباري تعالى، ومنه - أيضًا - إحياءُ الموتى.

بَديعُ المقابلةِ بين الأفعال ﴿تَحۡيَوۡنَ﴾ و﴿تَمُوتُونَ﴾، و﴿تُخۡرَجُونَ﴾:

الدّلالةُ على الإدخالِ في الأرض وعكسِه، مَلْمَحٌ كونيٌّ مسنونٌ

لمّا كان الإحياءُ والإماتةُ في الأرض بعد الهبوطِ إليها بمعنى: الإدخالِ فيها، ناسبه أن يقابلَهما بالإخراج، فقال: ﴿وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾، ويؤيِّدُه اقترانُ الفعلَيْن ﴿تَحۡيَوۡنَ﴾ و﴿تَمُوتُونَ﴾ بالجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ ليقابلَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَمِنۡهَا﴾، المقترنَ بقولِه: ﴿تُخۡرَجُونَ﴾.

دَلالة المضارعيّة في ﴿تَحۡيَوۡنَ﴾ و﴿تَمُوتُونَ﴾ و﴿تُخۡرَجُونَ﴾:

من دلائلِ عظَمةِ الله وقُدرته، أنّه يَبعثُ النَّاسَ كلَّهم في آنٍ واحدٍ

أفادتْ صيغةُ المضارعِ استمرارَ تجدُّدِ الحياةِ وتجدُّدِ الموتِ للنَّاس في الأرضِ حالًا فحالًا، وهو ظاهرٌ كما في الواقعِ، ولمّا كان الحشرُ في يوم واحدٍ؛ كان التَّعبيرُ عنِ الإخراجِ منَ الأرضِ إلى الحشرِ بـ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ على معنى إخراجِ كلِّ فردٍ منَ الأمواتِ في ذلكِ الوقتِ، فيكونُ بمجموعِ خروجِ النَّاس تجدُّدٌ في الإخراجِ، وفيه بيانٌ لعظمةِ اللهِ وقُدرتِه المطلقةِ؛ إذ يُخرج النَّاس كلَّهم في يومٍ واحدٍ.

القراءاتُ القرآنيَّةُ وأثرُها في ضبطِ لفْظِ ﴿تُخۡرَجُونَ﴾:

قرأ الجمهورُ: ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ على البناءِ للمفعولِ، منَ الفعلِ

الرُّباعي (أُخرِج يُخرَجُ)، أي: (تَخرُجون أنتم بأمرِ اللّه خُرُوجًا)، ولم يُذكرِ الفاعلُ للعلمِ به، فخروجُ الأمواتِ منَ القبورِ، إنَّما هو بإخراجِ اللّه تعالى إيَّاهم، وفي هذا بيانٌ لحالةِ بني آدمَ في الأرضِ الّتي أُنزِلَ آدمُ إليها، وبيانُ بعثِهم منها، وفي القراءةِ إشعارٌ بهولِ الموقفِ، وتعظيمُ شأنِ البعثِ من القبور. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ العاشرُ وابنُ ذكوان عن ابنِ عامرٍ: (تَخْرُجُونَ) من الفعل الثلاثيِّ: (خرجَ يخرج)، بالبناء للفاعل بنسبة الفعل إلى بني آدم؛ ليكون على نسقِ ﴿تَحۡيَوۡنَ﴾ و﴿تَمُوتُونَ﴾[1].

تعدّد القراءات المتواترة بمنزلة تعدّد الآيات من حيث إثراء المعنى

دَلالةُ حذْفِ مُتَعلَّقِ ﴿تُخۡرَجُونَ﴾:

حُذفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿تُخۡرَجُونَ﴾؛ ليشملَ خروجَ الرُّوحِ والبدنِ بعد الموتِ للجزاءِ والثَّوابِ، ولبيانِ إفادةِ العُمُوم، حيثُ إنّ الإخْراجَ منَ الأجْداثِ، يضُمُّ الشّيوخَ والأحْداثَ.

بَراعةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمةِ:

بلاغةُ الإيجازِ في اختِصارِ مَسيرةِ حياةِ النَّاسِ في ثَلاثِ جُمَلٍ

تضمَّنتِ الآيةُ إيجازًا بليغًا؛ إذِ اختصرت حياةَ النَّاسِ في الأرضِ، وموتَهم وبعثَهم منها في ثلاثِ جملٍ، يلخّصها بعبارات جامعة مانعة، قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾.

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/402، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/267.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ الحياةِ والمصيرِ في الأرضِ، بالتَّذكيرِ بنِعمةِ اللِّباسِ الحِسِّيِّ والمعنويِّ

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ قصَّةَ آدمَ وزوجِه، وفيها سترُ السَّوْءَات بعد انكشافِها بسبب المعصيةِ، قاما بخصفِ الأوراقِ مِنَ الجنَّة للسَّتر بها؛ ذكرَ في هذه الآية ما امتنَّ بهِ على بني آدمَ من إنزالِ اللِّباس الذي يسترُ العوراتِ، ويُتجمَّلُ بهِ للزِّينة.

وأيضًا لمّا بيَّن فيما مضى أنَّ موجبَ الإخراجِ مِنَ الجنَّة هو ما أوجبَ كشفَ السَّوْءَةِ مِنَ المخالفة وبعدَ أنْ حكمَ بإسكاننا في الأرضِ شرعَ يحذِّرُنا مِنْ عدوِّنا كما حذَّرَ أبانا آدمَ، فذكرَ كلَّ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ والدُّنيا مِنَ النَّصائحِ الهاديةِ إلى أقومِ طرقِ تربيَتِهم لأنفسِهم، ومن جُملتِها اللِّباسُ؛ إيذانًا بما في كشفِ العورةِ مِنَ الفضيحةِ والإبعادِ من كلِّ خيرٍ، وإشعارًا بأنَّ التَّستُّرَ بابٌ عظيمٌ من أبوابِ التَّقوى[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَاسٗا﴾: أصلُ اللَّبْسِ: سترُ الشَّيءِ وتغطيتُه، يقال: لَبِسَ الثَّوبَ يَلْبَسُه لُبْسًا، أي: استتر به، وألبستُ الشَّيءَ، إذا غطَّيْتَهُ، واللِّبَاسُ واللَّبُوسُ واللِّبْسُ هو ما يُلْبَسُ ممَّا يغطِّي البدنَ، وجُعل اللِّباسُ لكلِّ ما يغطِّي مِنَ الإنسان عن قبيحٍ، و﴿لِبَاسٗا﴾ في الآية ما يَلْبَسون مِنَ الثِّيابِ[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/378.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لبس)، وابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح، شاكر: 12/361.

2) ﴿وَرِيشٗاۖ﴾: يدلُّ أصلُ مادَّةِ الكلمةِ على حُسنِ الحالِ، وما يكتسبُ الإنسانُ من خيرٍ، فالرِّيش: الخيرُ، والرِّيشُ والرِّياش: الخِصبُ، والمعاشُ، والمالُ، والأثاثُ، ورشتُ فلانًا أريشُه ريشًا؛ إذا قمتَ بمصلحةِ حاله، ورِيشُ الطَّائر: كسوتُه، وهو معروف، وقد يُخَصُّ الجناحُ من بين سائرِه، ولكونِ الرِّيشِ للطَّائر كالثِّيابِ للإنسان؛ استُعير للِّباسِ الحسنِ. و﴿وَرِيشٗاۖ﴾ في الآية: مَا ظهر من الثِّياب ممَّا يُلبس، أو بمعنى الخِصبِ ورفاهةِ العيش[1].

3) ﴿ءَايَٰتِ﴾: جمع آيةٍ، وهي مُشتقَّةٌ من (أيِّ)، فإنَّها هي الّتي تُبيِّن أيًّا من أيٍّ، أو من قولهم: أويَ إليه، والصحيح أنَّها مُشْتَقَّة منَ (التَّأيِّي) الّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء. ويدورُ معناها على العلامة الظَّاهرةِ الجسيمةِ، وقد تكونُ علامةً إعجازيةً، كقولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ [الأعراف: 73]، أو علامةً لأمرٍ من عند اللّه؛ وإن لم يكن من باب المعجزات: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [آل عمران: 41]، أو علامةً دالَّةً على وجود الخالقِ وصُنعِه في هذا الكون من مثلِ قولِه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: 53]، وقد تأتي بمعنى العِبرةِ للاتِّعاظ، كقولِه تعالى: ﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧﴾ [يوسف: 7]، ومنَ الجسامة الآيةُ منَ القرآن الكريم لجماعةٍ من حروف القرآن، أي: كلماته الّتي تبيِّنُ أوَّلَها وآخرَها توقيفًا[2]، و﴿ءَايَٰتِ﴾ في الآية: بمعنى علاماتٍ عظيمةٍ ظاهرةٍ على فضل اللّهِ ورحمتِه[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى: يابني آدمَ قدْ رزقناكم لباسًا يسترُ عوراتِكم عن أعينِكم، ولباسًا للزِّينة والتَّجمُّلِ، ولباسُ التَّقوى بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ هو خيرُ لباسٍ لكم، ذلكَ الّذي مَنَّ اللّهُ به عليكم منَ الدَّلائلِ على ربوبيَّةِ اللّهِ تعالى ووحدانيَّته وفضلِه ورحمتِه بعبادِه؛ لكي تتذكَّروا هذهِ النِّعَمَ، فتحرصُوا على طاعتِه وتشكروهُ على نِعَمِه.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ريش)، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 246.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي).
(3) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/9.

اللِّباسُ استجابةٌ للفِطرةِ، وصِيانةٌ للحياةِ، والتَّقوى أنفعُ في الحياةِ وبعدَ المماتِ

وفي الآيةِ إظهارٌ للمنَّةِ فيما خُلِقَ منَ اللِّباسِ؛ لِمَا في العُري وكشفِ العورةِ منَ المهانَةِ والفضيحةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذهِ الآيةِ عمَّا قبْلَها:

إبطالُ عاداتِ المشركين الجاهليَّةِ، كالطَّوافِ بالبيتِ عُراةً

فُصِلت هذه الآيةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ ابتدائيٌّ، عادَ الخطابُ فيها إلى سائرِ النَّاس الّذينَ خُوطبوا في أوَّل السُّورةِ بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآيات، وهم أمَّةُ الدَّعوة؛ لأنَّ الغرضَ منَ السُّورة، إبطالُ ما كان عليه مشركُو العربِ منَ الشِّرك وتوابعِه من أحوالِ دِينهم الجاهليِّ.

بَلاغةُ النِّداءِ، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾:

تَنوُّعُ المعاني البلاغيَّةِ بأسلوبِ النِّداءِ، من لَطيفِ البيانِ في القرآنِ

في نداءِ النَّاس بنسبتِهم إلى آدمَ عليه السلام فوائدُ لطيفةٌ متنوِّعةٌ، هي[2]:

أولاً: تذكيرٌ بعداوةِ الشَّيطانِ لآدمَ وذرّيَّتِه وبما أصابَه بسببِ طاعةِ الشَّيطانِ من كشفِ السَّوءات؛ لتتَّخذَ ذرّيَّتُه الشيطانَ عدوًّا لها، وتحترسَ منَ الوقوعِ في شَركِه.

ثانيًا: تذكيرُ بني آدمَ بما أنعمَ اللّهُ على آدمَ بالتَّوبةِ، وما أخبرَ به من إسكانِهمُ الأرضَ واستقرارِهم فيها.

ثالثًا: فيه إشارةٌ إلى طبيعة الذُّرّيَّةِ بأنَّ من شأنها أن تثأرَ لأبنائها، وتعاديَ عدوَّهم، وتحترسَ منَ الوقوعِ في شَرَكِ عداوتهم.

رابعًا: فيه إشارةٌ - أيضًا - إلى عالميَّة الدّعوةِ؛ لأنَّه خطابٌ لجميعِ الأممِ في زمن بعثَتِه ﷺ.

خامسًا: وفيه إشارةٌ إلى عادةٍ من عادات العربِ مُفادُها: أنَّها

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/186، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/97، ونخبة من أساتذة التفسير، التّفسير الميسر، ص: 153.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/73.

إذا عظَّمت قبيلةً؛ نَسَبَتْ إلى الجدِّ الأقربِ والأشهرِ، وإذا لم تُعظِّمْ؛ نَسَبَتْ إلى الجدِّ الأبعدِ، وهذا ما ذكره القرآنُ توبيخًا لكفَّارِ مكَّةَ.

سِرُّ عدَمِ تخصيصِ الخطابِ للمؤمنين، وتَوجِيهِه لبنِي آدمَ أجمعينَ:

إفـادةُ الـعُـمومِ لـلـمـخـاطـبـين، من بَرَرَةٍ وكَفرةٍ، يُـوحـي بـعـالَمِيّـةِ الإسلامِ

وُجِّهَ الخطابُ إلى بني آدمَ دون المؤمنين؛ للإيذانِ بأنَّ ما ذُكِرَ منَ النِّعَمِ في هذهِ الآيةِ، وما أشارت إليه يشملُ جميعَ الأممِ إلى يوم القيامةِ، والخطابُ وإنْ كانَ يشملُ المؤمنِينَ والمشركِينَ، لكنَّ الحظَّ الأوفرَ منه للمشركِينَ؛ لأنَّ حظَّ المؤمنِينَ منه هو الشُّكرُ على يقينِهم بأنَّهم موافقونَ في شؤونِهم لمرضاةِ ربِّهم، وأمَّا حظُّ المشركِينَ؛ فهو الإنذارُ بأنَّهم كافرون بنعمةِ ربِّهم، مُعَرَّضونَ لِسُخْطِه وعقابِه، ومن أبرزِ ذلك أنَّهم كانوا يطوفونَ بالبيتِ عُراةً.

مُناسَبةُ مَجيءِ (يا النِّداءِ):

تَـنْـبـيـهُ الـنَّـاسِ بـمـا أنـعـمَ الله على أبيهِم، من نِعمةِ اللِّباسِ

خاطبَ اللّهُ تعالى بني آدمَ في هذه الآيةِ وأمثالِها بالنِّداءِ؛ ليكونَ أدعَى إلى إقبالِ النَّاسِ على ما بعدَه، وامتثالِهم له، وآثرَ الأداةَ (يا) الّتي يخاطَبُ بها البعيدُ؛ لِمَا كان عليه النَّاسُ وقتَ نزولِ هذه السُّورةِ في مكَّةَ منَ البُعدِ عنِ الفطرةِ السَّليمةِ، والشِّرعةِ القويمةِ، تنبيهًا لِلأذهانِ، بما يقرَعُ الآذانَ، فامتنَّ عليهم بعدَ أنْ أنبأهم بما كانَ من عُرْيِ سلفِهم الأوَّلِ بما أنعمَ به عليهم منَ اللِّباسِ على اختلافِ درجاتِه وأنواعِه[1].

دَلالةُ ﴿قَدۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

الـتَّـحـذيـرُ مـنَ الغفلةِ عنْ شُكرِ نِعمةِ اللِّباسِ، لله المتفضّلِ به على النّاسِ

تفيدُ ﴿قَدۡ﴾ في سياقِ النَّظمِ الكريمِ تأكيدَ نعمةِ إنزالِ اللِّباس والرِّيشِ، وأتى بحرف التَّأكيدِ لما يظهرُ منَ النَّاس غالبًا من بوادرِ التَّحيُّرِ في هذهِ النِّعمةِ العظيمةِ بغفلتِهم عنْ شُكرِها، وعنْ كونِها من آياتِ اللّهِ، أو كأنَّهُ أقامَهم مقامَ المنكرِينَ لهذه النِّعمةِ - لتعاقُبِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/319.

التَّأكيد بتقديم ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ كما سيأتي - لِما ظهرَ عليهم من ملابسِ الإنكارِ بالغفلةِ عن شُكرِ هذهِ النِّعمةِ أو بإظهارِ سوءاتِهِم.

مُناسبةُ إيثارِ لفْظِ ﴿أَنزَلۡنَا﴾:

اللِّبـاس أوَّلُ مَظاهِرِ الحضارةِ الإنسَانيَّةِ

ذُكِرَ لفظُ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ لقصدِ تشريفِ نعمةِ اللِّباس على بني آدم، فآذنَ بمكانتِه العاليةِ لما ذكرَه بأنَّه مُنزلٌ على النَّاس من عند اللّٰه، أو لأنَّ الّذي كان منه على آدمَ، نزل به منَ الجنَّة إلى الأرض الّتي هو فيها، فكان له في معنى الإنزال مزيدُ اختصاصٍ، فآثر لفظَ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ ليكونَ أدعَى للشُّكر، وفي التَّعبير بـ﴿أَنزَلۡنَا﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ اللِّباسَ من أصل الفطرةِ الإنسانيَّةِ، والفطرةُ أوَّلُ أصولِ الإسلام، وأنَّه ممَّا كرَّمَ اللّٰهُ به النَّوعَ منذُ ظهورِه في الأرضِ، وهو أوَّلُ مظاهرِ الحضارة[1].

مُناسَبةُ التَّعبيرِ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تمكُّنُ نِعمةِ اللِّباسِ بالنَّاسِ، ووِقايتُهم بها من كلِّ بأسٍ

عُبِّرَ بـ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ دون (إليكم)؛ ليدلَّ الكلامُ على تمكُّن النِّعمة الّتي أنزلها اللّٰهُ تعالى وانتهائِها إلى بني آدمَ ووصولِها إليهم، ولمّا كانَ السِّياقُ في بيانِ نعمةِ اللِّباسِ الّذي يُقصدُ منه السَّترُ أوَّلًا وبالذّاتِ؛ ناسبَه التَّعبيرُ بـ (عَلَى)؛ لِيدلَّ حرفُ الجرِّ على تمكُّنِ هذه النِّعمةِ وإحاطتِها بالمنزَّل عليهم إحاطةً يسترونَ أجسادَهم بها، ولو قال: (أنزلنا إليكم)؛ لأفادَ الانتهاءَ وبلوغَ الغاية من غير تمكُّنٍ ولا إحاطةٍ ولا استيعابٍ؛ لأنَّ (إلى) لا تختصُّ بجهةٍ دونَ جهةٍ، والإحاطةُ بالاستعلاءِ بـ(على) تُحقِّقُ معنى انتهاءِ الغايةِ.

بَلاغةُ التَّعريضِ، في قولِه تعالى: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾:

التَّعَرِّي من أمرِ الشَّيطانِ، والسَّترُ مع الحياءِ مِنَ الإيمانِ

في هذه الجملةِ تعريضٌ بالمشركين الّذينَ جعلوا من قُرُباتِهم نزعَ لباسِهم بأنْ يحجُّوا عُراةً، ويتعرَّوا للطَّوافِ اتِّباعًا منهم أمرَ الشَّيطانِ، وتركًا منهم طاعةَ اللّٰه، حتَّى أبدى سوءاتِهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/73.

وأظهرَها من بعضِهم لبعضٍ، معَ تفضُّلِ اللّهِ عليهم بتمكينِهم مِمَّا يسترونَها بِهِ[1].

التَّعبير عنِ اللِّباس بالإنزالِ، مع أنَّه منَ الأرضِ في الظَّاهرِ لنا:

تنوُّعُ معنَى الإنزال لِسَعةِ معانِي ألفاظِ القرآنِ

عُبِّر بلفظِ الإنزالِ في هذهِ الآيةِ بطريقِ المجازِ؛ لأنَّ المشاهَدَ أنَّ اللِّباسَ حدثَ في الأرضِ، ولم ينزلْ حقيقةً من السَّماءِ، ويحتمل المجازُ هنا توجيهاتٍ عدَّةً، هي:

أولاً: أنْ يكونَ ما قضى به اللّهُ تعالى وكتبَه في عُلوِّه من أنْ يكون لبني آدم لباسًا يسترُ سوءاتِهم وريشًا ينتفعون منه، بمنزلةِ أنْ يكونَ هذا اللِّباسُ والرِّيشُ منزَّلًا منَ السَّماء، فإنَّ الأشياءَ الّتي تحدثُ في الأرضِ لَمَّا كانت معلَّقةً بما كتبَه اللّهُ؛ صار كأنَّه تعالى أنزلَها منَ السَّماءِ لعلمِه وقضائِه بها[2].

ثانيًا: أنْ يكونَ من قبيلِ المجازِ المرسَلِ، بذكرِ السَّببِ وإرادةِ المسبَّبِ، فذكرَ ما أنزلَه منَ السَّماءِ إشارةً إلى المطرِ الّذي يكون منه النَّباتُ، ومنَ النَّباتِ يكونُ جميعُ ما يُلبَسُ، ويُتنعَّمُ به، فصارَ كأنَّه أنزلَ اللِّباسَ والرِّيشَ، فيكونُ الكلامُ على معنى التَّدريجِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى سمَّى الشَّيءَ باسمِ مَا انْدرجَ عَنهُ، أي: من المطرِ الّذي نبتَ به الكَتَّانُ والقطنُ، وَنبتَ بِهِ الكلأُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ نَبَاتِ الصُّوفِ والوبَرِ وَالشَّعرِ على ظُهُور البَهَائِم والانتفاعِ منه بالصِّناعاتِ وغيرِها[3].

ثالثًا: أنْ يكونَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ بِمعنَى: خَلَقنا، كَقَوْلِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: 6]، للإشعارِ بعُلوِّ شأنِ اللِّباسِ والرِّيشِ، وخلقُ اللّهِ ﷻ وأفعالُه إنَّما هي من عُلوٍّ في القدرِ والمنزلةِ[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/361، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/73.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/97.
(3) مكّي القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/286، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/388، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/221، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/30.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/388، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/30.

رابعًا: أنْ يكونَ على الاستعارة، فقد شُبِّه الإلهامُ باستعمالِ اللِّباسِ والرِّيشِ بتسخيرٍ إلهيٍّ؛ بالإنزالِ منَ السَّماء لعمومِ الجدوَى على النَّاسِ، وعظيمِ النَّفعِ في كلِّ ما يَنزلُ منَ السَّماء؛ تشريفًا لشأنِ اللِّباسِ والتَّجمُّلِ، وتفخيمًا لهذه النِّعمةِ الظَّاهرةِ العامَّةِ لجميعِ بني آدم، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وذكرَ المشبَّهَ به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لاستحضارِ الصُّورةِ بالفعلِ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ تذكيرًا بالنِّعمةِ العظيمةِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ الماضِي، في قولِه تعالى ﴿أَنزَلۡنَا﴾:

تَعظيمُ نِعمةِ اللِّباس وتَكثيرُها؛ للحَثِّ على شُكرِها

عُبِّر بصيغة الفعل الماضي مع أنَّ بعضَ الإنزال مترقَّبٌ غيرُ واقعٍ؛ تنزيلًا للمنتَظَرِ منزلةَ المتحقِّقِ الوقوعِ، تتميمًا للنِّعمة وتعظيمًا لها، أو يكونُ من تغليب الموجودِ على ما لم يوجدْ؛ تكثيرًا للنِّعمة ولإظهارِ أنَّ وجودَها هو الأصلُ كما هو حالُ مَجيءِ التَّغليبِ في الكلامِ[2].

مُناسبةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

اللِّباسُ نِعمةٌ خَصَّ اللهُ بها بنِي آدمَ قاطِبةً

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على المفعولِ به ﴿لِبَاسٗا﴾؛ للاهتمام والعنايةِ بنعمةِ اللِّباسِ والرِّيشِ وللتَّخصيصِ، فإنَّ اللِّباسَ نعمةٌ خَصَّ اللّهُ بها بني آدمَ، فيكونُ أدعَى إلى مزيدٍ منَ الشُّكرِ على هذه النِّعمةِ الفضيلةِ، كما أفادَ التَّقديمُ تأكيدَ إنزالِ اللّهِ تعالى اللِّباسَ وتقريرَه، كما تقدَّمَ في بحثِ دلالةِ ﴿قَدۡ﴾.

مُناسبةُ مَجيءِ النَّعْتِ في قولِه تعالى ﴿لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾:

وظيفةُ اللِّباس أوَّلًا سَترُ العَوراتِ، وهي مَطلَبُ كلِّ الأعرافِ والدِّياناتِ

لمّا كان أصلُ وضعِ اللِّباسِ أنْ يكونَ للسَّترِ، وأهمُّ موضعٍ للسَّترِ هو السَّوءاتُ؛ كان مجيءُ جملةِ ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ نعتًا على معنى أنَّه صفةُ مدحٍ للِّباسِ، أي: مِنْ شأنِه أنْ يكونَ كذلك[3]؛ فأفادَ النَّعتُ هنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/74.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/362.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/74.

مدحَ المنعوتِ؛ إشعارًا بأولويَّةِ أنْ يكونَ اللِّباسُ لسَترِ العوراتِ، وأنَّه أهمُّ ما يكونُ له، وللتَّنبيهِ إلى قُبحِ إظهارِ العوراتِ.

مُناسبةُ إيثارِ لفْظِ ﴿يُوَٰرِي﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

ورَدَ النَّعتُ بلفظ ﴿يُوَٰرِي﴾: الّذي استُعملَ في قصَّةِ آدمَ الّتي تقدَّم ذكرُها بجذرِه، إذ ذكرَ ﴿وُۥرِيَ﴾ في قولِه: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ [البقرة: 20]؛ للتَّنبيهِ إلى أنَّ انكشافَ العورةِ أوَّلُ سُوءٍ أو قُبحٍ أصابَ الإنسانَ منَ الشَّيطانِ، وأنَّه أغواهُم في ذلك كما أغوى أبَوَيْهم، وفيهِ تذكيرٌ بأنَّ اللِّباسَ الّذي يواري سوءاتِكم يُغنيكُم عن خَصفِ الوَرَقِ(1).

انْكشافُ العَورةِ أوَّلُ سُوءٍ أصابَ الإنسانَ في الكوْنِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يُوَٰرِي﴾:

للإشعارِ باستمرارِ نعمةِ سَترِ العوراتِ باللِّباسِ وتجدُّدِه حالًا فحالًا لجميعِ بني آدم، ولاستحضارِ صورةِ سَترِ العوراتِ باللِّباسِ المنْزلِ من عندِ اللهِ تذكيرًا بالنِّعمةِ للمبادرةِ إلى شُكرِها بالتَّقوى.

التَّذكيرُ بالنِّعمةِ؛ للمُبادرةِ إلى شُكْرِ اللهِ عليها

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿يُوَٰرِي﴾ دونَ (يستُرُ):

آثرَ التَّعبيرَ بالمواراةِ في قولِه تعالى: ﴿يُوَٰرِي﴾ دون يسترُ؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالسَّترُ معناهُ تغطيةُ الشَّيءِ بحيثُ لا تراهُ العيونُ، ومن ذلك الحجابُ المستورُ الّذي بلغ حدًّا في سترِه عن أعينِ النَّاس؛ أمَّا المواراةُ؛ فتزيدُ عنِ السَّترِ بأنَّها تُستَخدم في سترِ الشَّيءِ الّذي يخجلُ الإنسانُ منه، ويشعرُ بالخزي إذا انكشفَ، كالسَّوءةِ في قوله تعالى: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، وكالمُبشَّرِ بالأنثى في الجاهليَّةِ؛ لأنَّهم كانوا يشعرون بالخزي والعارِ منَ الإناثِ، قال تعالى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾ [النحل: 59]، وكما في قصَّة ابني آدم عندما قَتَلَ أحدُهما الآخرَ، وبالتأكيد أمرٌ مخزٍ قتْلُ الأخ لأخيه، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾

المُواراةُ سَتْرُ الشَّيْءِ الّذِي يَخْجَلُ الإنْسَانُ مِنْهُ

(1) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/9.

[المائدة: 31]، وهذا في الغالب، أمّا ما ورد في قصّةِ سليمانَ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ [ص: 32]، فهو من بابِ المجازِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ (السَّوءةِ) دونَ العَورةِ:

السَّوءةُ كلُّ ما يسُوءُ الإنسانَ حِسّيًّا أو معنويًّا، وهي أعمُّ منَ العَورة

قوله تعالى: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، آثر التَّعبيرَ بالسّوءة دون العورةِ؛ لأنَّها أعمُّ منَ العَورة، فالسَّوءةُ: كلُّ ما يسوءُ الإنسانَ حِسّيًّا كان أو معنويًّا؛ لذلك جعل اللهُ اللِّباسَ الّذي يسترُ السَّوءةَ الحسّيَّة، وكذلك أنزل اللِّباسَ الّذي يواري السَّوءةَ المعنويَّةَ، وهو لباسُ التَّقوى.

أمَّا العورةُ؛ فهي جزءٌ منَ السَّوءة، قال الراغبُ: العورةُ سَوءةُ الإنسان، وتُطلقُ على البيوت الخاليةِ منَ الرِّجالِ، كما في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍ﴾ [الأحزاب: 13]، وتُطلقُ على إطاقةِ الجِماعِ والمعرفةِ به، كما في قولِه تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: 31](1).

دَلالةُ العطْفِ، في قولِه تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾:

أخذُ الزِّينةِ مَطلبٌ شرعيٌّ، يَعكسُ مَدنيّةَ الإسلامِ وحضارَتَه

دلَّ العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ على ﴿لِبَاسٗا﴾ على أنَّ لباسَ الزِّينةِ غرضٌ صحيحٌ شرعيٌّ، وأنَّ أخْذَ الزِّينةِ مأمورٌ به، وبخاصّة في بعضِ المناسباتِ والأوقاتِ، وتظهرُ به أثرُ نعمةِ اللهِ على عبدِه.

بَلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾:

لُبسُ الرَّفيعِ منَ الثِّيابِ، دونَ تَكبُّرٍ ولا خُيلاءَ، مِنَ التَّحدُّثِ بنِعَمِ الله

جاء الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ؛ إذْ شبَّه التنعُّمَ والتجمُّلَ بأحسنِ الثِّياب بلباسِ الزِّينةِ الزَّائدِ على ما يسترُ العورةَ بريشِ الطَّائرِ، وإنَّما اختارَ ريشَ الطَّائرِ؛ لأنَّهُ لا يوجدُ أفضلُ منَ الطِّيور في كثرةِ أنواعِ ريشِها وبهجةِ مناظرِها وتعدُّدِ ألوانِها، فهي جامعةٌ لجميعِ المنافعِ، ثمَّ حُذفَ المشبَّهُ، وذكرَ المشبَّهُ به على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، ومنْ فوائدِ الاستعارةِ هنا أنْ يقال: إنَّه لمّا كانَ الرِّيشُ ممَّا

(1) الرّاغب، المفردات: (عور).

يُتَزَيَّنُ به، ويُتجَمَّلُ بهِ في أحسنِ الثِّيابِ، وكان عبارةً عَنْ سَعَةِ الرِّزْقِ ورَفَاهِيةِ العَيْشِ ووُجُود اللِّبْسِ وَالتَّمَتُّعِ، وكان مجيئُه في سياقِ ذكرِ نِعَمِ اللّهِ على بني آدم؛ دلَّ على أنَّ لُبْسَ الرَّفيعِ منَ الثِّيابِ ورفاهيَّةَ العيشِ من نعم اللّهِ، وأنَّ الزِّينةَ غرضٌ صحيحٌ، وقد كانَ الفُضَلاءُ منَ العلماءِ يَلْبَسونَ الرَّفيعَ منَ الثِّيابِ معَ حُصولِ التَّقوى(1).

مُناسبةُ العطْفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرِيشًاۖ﴾:

تَكثيرُ النِّعمِ يقتضِي المسارعةَ إلى شُكْرِها

عَطْفُ الرِّيشِ عَلَى ﴿لِبَاسًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ يَقتَضِي المُغَايَرَةَ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، وَأَنَّهُ قَسِيمٌ للِّباسِ لَا قِسْمٌ مِنْهُ، فهو من عطف الصِّنف على الصِّنفِ؛ للإشعار بتكثير النِّعم المقتضَى شكرُها، والمعنى: أنزلنا عليكم لباسًا يسترُ عوراتِكم ولباسًا تتزيَّنونَ به(2).

وأيضًا أنَّه لمّا ذكرَ أدنى اللِّباسِ وأقلَّه، وهو اللِّباسُ الّذي يواري سوءاتِكم الّذي يعدُّ فاقدُه ذليلًا مَهينًا، وعطفَ عليه أعلاه وأكملَه، وهو الرِّيشُ الّذي تتزيَّنونَ به في حياتِكم، دلَّ على أنَّ بينهما لباسَ الحاجةِ، وهو ما يقي الحرَّ والبردَ، والامتنانُ به يؤخَذُ منَ الامتنانِ بما فوقَه، أي: لباسَ التزيُّنِ بطريقِ المفهومِ منَ الأسلوبِ، أو هو داخلٌ في الرِّيشِ بطريقِ المنطوقِ، فيكون كلُّ لباسٍ فوقَ لباسِ سَترِ العورةِ منَ الرِّيشِ هو زينةٌ وتجمُّلٌ(3).

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ (اللِّباس)، دونَ(الثّيابِ):

اللِّباسُ يُطلَقُ على كلِّ ما يَلبسُه الإنسانُ لِيَستتِرَ به، فهو أعمُّ مِنَ الثِّيابِ

في قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ عبَّرَ باللِّباس دون الثِّياب؛ لأنَّ اللِّباسَ أعمُّ منَ الثِّيابِ، حيثُ يُطلقُ على كلِّ ما يلبسُه الإنسانُ ليسترَ به جُزءًا من جسَدِه، فالقميصُ والإزارُ لباسٌ، والعِمامةُ لباسٌ، وهكذا

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/97، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ريش)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/30، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/318، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/30، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/319.

إطلاقاتُه متعدِّدةٌ، بخلافِ الثّيابِ؛ فإنَّها تُطلقُ على الرِّداءِ، وهو ما يسترُ أعلى الجسدِ منَ الثياب، كالجُبَّة والعباءة، ويكونُ عادةً ما يُلْبَس فوقَ الإزارِ أو السّراويلِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور: 60]، وتُطلقُ على الثَّوب بعينِه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور: 58]، وعلى هذا؛ فاللِّباسُ أعمُّ.

بَلاغةُ الاستعارةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾:

مَـنْ تـعـرَّى من لِباسِ التَّقوَى؛ لم يسْتَتِرْ بشَيءٍ من لِباسِ الدُّنيَا

شبَّه تمكُّنَ التَّقوى واستقرارَها والتّمسُّكَ بها باللِّباس؛ لِاشتِمَالِه عَلَى اللَّابِسِ مَا غَشِيَ الإِنسَانَ، ويكونُ ملتصقًا به مُلامسًا ومُحيطًا به ومُلازمًا له كملازمة اللِّباسِ لابسَه، فالجامعُ بينهما هو الإحاطةُ واللُّزومُ والغشيانُ، والتّشبيهُ هنا من تشبيه المعقولِ بالمحسوسِ، ثمَّ حذف المشبَّه وذكرَ المشبَّه به ليكونَ استعارةً تحقيقيَّةً مكنيَّةً تخييليةً؛ لأنَّ اللِّباس ليس ثابتًا للتَّقوى، فقُصِدَ تخييلُ التَّقوى بلباسٍ يُلبسُ؛ ليُكنَّى بها عن ملازمتِها والتّحريضِ على تحصيلِها، ولمّا كان التّعبيرُ بـ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على طريقِ المجازِ ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ به الإيمانُ، وقيل: خشيةُ اللّه، وَالأَحْسَنُ أَنْ يكونَ المرادُ من لباس التَّقوى العُمومَ، أي: تقوى اللّه التّي هي قُصارى أمرِ العابد ومُنتهى جُهدِه، فَكُلُّ مَا يَحْصُلُ بِهِ الاتِّقَاءُ المَشْرُوعُ، فَهُوَ مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَى[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ البُعدِ لاسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

لِـبـاسُ التَّـقـوَى خيرٌ منَ اللِّباسِ الحِسِّيِّ المألوفِ

عُبِّرَ بصيغةِ البُعدِ في قولِه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ للإشعارِ بارتفاعِ شأنِ لباسِ التَّقوى وعُلوِّ مكانتِه، ولا تخلُو الإشارةُ مِنْ أَنْ يُرادَ بها تعظيمُ لباسِ التّقوى[2].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/31، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/72، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/97، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

دَلالةُ تركِ مَعمولِ اسْمِ التّفضيلِ ﴿خَيۡرٞۚ﴾:

خيريّةُ لِباسِ التَّقوَى، لاتَبلَى ولا تَبيدُ

تَرْكُ معمولِ اسمِ التّفضيل؛ لأنَّه أبلغُ منَ الذِّكرِ وأزيدُ فائدةً وأتمُّ بيانًا وأعمُّ في المعنى، فأفادَ عمومَ خيريَّة لباسِ التَّقوى، ويدخلُ في العموم أنَّه خيرٌ منَ اللِّباسِ والرِّيشِ الّذي يُتنعَّمُ به دخولًا أوّليًّا لورودِه في سياقِه، ولو ذُكِرَ المعمولُ؛ تقيَّدتْ خيريَّةُ لباسِ التَّقوى مع أنَّ المقصودَ العمومُ، كما هو ظاهرٌ، وذهب بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ المفضَّلَ عليه قد حُذِفَ في الآيةِ، والسِّياق قرينةٌ عليه، والمعنى: ولباسُ التَّقوى خيرٌ لصاحبِه؛ إذا أخذَ به، وأقربُ له إلى اللّهِ تعالى ممّا خلقَ منَ اللِّباسِ والرِّياشِ الّذي يُتجمَّلُ بها، وهو داخلٌ في العمومِ دخولًا أوّليًّا كما تقدَّم(1).

إشعارُ الجُملةِ الخبريّةِ بالطَّلبِ:

الأمــرُ بِلِبْسِ لِباسِ التَّقوَى وتحصِيلِهِ، من مقاصدِ الخطابِ القُرآنيِّ

في الإخبارِ عن لباسِ التَّقوى بأنَّه خيرٌ؛ إشعارٌ بالأمرِ بتحصيلِه، وتحريضٌ على تقوى اللّهِ، فإنَّها خيرٌ للنَّاس من منافعِ الزِّينة، والمعنى: ولباسُ التَّقوى ذلك خيرٌ، فالبَسُوه(2)؛ لأنَّ اللِّباسَ الماديَّ يسترُ العورةَ الماديَّةَ، وغايةُ أمره سترُ ما يفضحُ في الدّنيا ومواراتُه، لكنَّ لباسَ التَّقوى يُؤدِّي إلى مواراةِ ما يفضحُ في الآخرة.

القِراءاتُ القرآنيّةُ، وأثرُها في تجليَةِ المعنَى وإيضاحِه.:

تنوُّعُ المعنَى بتنوُّعِ القراءةِ القُرآنيَّةِ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ قراءتان: الأولى: قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ والكِسائيُّ ﴿وَلِبَاسَ﴾(3) بالنَّصب عطفًا على ما تقدَّمَ، والتَّقديرُ: أنزلنا عليكم لباسًا وريشًا ولباسَ التَّقوى، و﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، على هذه القراءة، تحتملُ أنْ تكونَ مصدرًا بمعنى الوِقايةِ، والمرادُ: لبوسُ الحربِ منَ الدُّروعِ والجَوَاشِنِ - جمع

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/222.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/185، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 280، وابن الجزريّ، النّشر: 2/268.

جَوْشَن، وهو دِرْع حديديٌّ يَلْبَسُه المحاربُ ليسترَ به صدرَه ويتقيَ به ضرباتِ العدوِّ - والمغافِر، وتحتملُ أنْ تكونَ بمعنى تقوى اللّه، والمرادُ إنزالُ أسبابِها منَ الآياتِ المقروءةِ والمنظورة، فيكونُ الإنزالُ إشارةً إلى الحِسِّي: ﴿لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ﴾، والمعنويِّ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، ويكونُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى هذه الثَّلاثةِ، ليُخبرَ عن اسم الإشارةِ بأنَّه خيرٌ.

الثّانية: قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وعاصمٌ وحمزةُ وخلفٌ ﴿وَلِبَاسُ﴾ بالرَّفع[1]، فيكونُ مبتدأً خبرُه جملةُ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾؛ ليكونَ الإخبارُ بالجملةِ الاسميَّةِ على معنى ثبوتِ الخيريَّةِ للباس التَّقوى واستمرارِها، وفيه تأكيدٌ لمضمونِ الجملة بتكرارِ الإسناد، ويُحتمَلُ على قراءة الرَّفعِ أنْ يكون ﴿وَلِبَاسُ﴾ مبتدأً و﴿ذَٰلِكَ﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ أو صفةً، و﴿خَيْرٌۚ﴾ خبرًا.

دَلالةُ الإتيانِ باسْمِ الإشارةِ، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾:

تعظيمُ اللِّباس، وعُـلـوُّ مكانته، ورِفعةُ شأنِه

أتَى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لتوضيحِ اللِّباس وبيانِه أتمَّ بيانٍ اهتمامًا بشأنِه، والغرضُ منه التَّعظيمُ وعُلُوُّ المكانةِ ورِفعةُ الشَّأنِ لِلِّباس[2]؛ لأنَّه لا تخلُو الإشارةُ من أن يُرادَ بها تعظيمُ لباس التّقوى، أو أن تكونَ إشارةً إلى اللِّباس المواري للسَّوءة؛ لأنَّ مواراةَ السَّوءةِ منَ التّقوى، وفي ذلك تفضيلٌ له على لباس الزِّينةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

كلُّ أنواعِ اللِّباسِ مـن آيــاتِ الله الــدَّالَّــةِ على فضْلِهِ ورحْمتِه

يُحتمَلُ أنْ يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى إنزالِ اللِّباس والرِّيش، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ إشارةً إلى جميعِ ما تقدَّم من إِنْزَالِ اللِّبَاسِ وَالرِّيَاشِ وَلِبَاسِ التَّقْوَى، فإنزالُها مِنْ آيَاتِ اللّهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحدانيَّة اللّه تعالى وفَضْلِهِ وَرَحْمَتِه عَلَى عِبَادِهِ[3].

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 280، وابن الجزريّ، النّشر: 2/268.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/403، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/31، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/389، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/31.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ، بصِيغةِ المفرَدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

للإشعارِ بأنَّ اللِّباسَ والرِّيشَ ولباسَ التَّقوى كلَّها شيءٌ واحدٌ بالنَّظرِ إلى إنزالِها، فليست هي بعينِها آيةً، بل إنزالُها - سواءً كان بمعنى إنزال المطرِ وما اندرج عنه، أو بمعنى خلْقِها أو الإلهامِ إلى صُنعِها - هو آيةٌ من آياتِ اللهِ، فالآيةُ في إحداثِها للخَلْقِ.

كلُّ ما ذُكِرَ في الآيةِ مِن أنواعِ اللِّباسِ، هو آيةٌ واحدةٌ من آياتِ اللهِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ البُعدِ، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

آثرَ استعمالَ صِيغةِ البُعدِ؛ للإشعارِ بارتفاعِ شأنِ هذه الآيةِ وعُلوِّ مكانتِها وتعظيمِها، بتنزيلِ البُعدِ الرُّتبيِ منزلةَ البُعدِ الحِسِّي[1]، وقوّى هذا المعنى إشارةُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى إنزالِ اللِّباس والرِّيشِ الدّالِّ على العُلوِّ.

عُلوُّ مَنزلةِ لِباسِ التَّستُّرِ والزِّينةِ والتَّقوَى، وارتفاعُ شأنِه عندَ اللهِ

مُناسبةُ الإخبارِ، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

لمّا كانتِ الآيةُ بمعنى العلامةِ الجسيمةِ الظَّاهرةِ دلَّ إنزالُ اللِّباس، وما يتنعَّمُ به الإنسانُ على أنَّه آيةٌ واحدةٌ من آياتٍ كثيرةٍ دالَّةٍ على وجودِ اللهِ تعالى ووحدانيَّته، بدلالَةِ هذه الآيةِ على علْمِه تعالى بخلقِه ولُطفِه بهم، كما تدلُّ هذهِ الآيةُ بقرينةِ قولِه: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا﴾ على عظيمِ فضلِه ونعمِه، وعميمِ رحمتِه، وفيها آيةٌ أخرى، وهي الدَّلالةُ على علْمِ اللهِ تعالى بأنْ ستكونُ أمَّةٌ يغلبُ عليها الضَّلالُ، فيكونون في حِجِّهم عراةً؛ فلذلك أكَّدَ الوصايةَ به، وفي الكلامِ إشارةٌ لِمَا كان في شرعِ اللِّباس من تمييزِ الإنسانِ عن سائرِ الحيوانِ، فالتذكُّر لِمَن له عقلٌ يتذكَّرُ به[2].

اللِّباسُ الجميلُ، بهِ يتميَّزُ الإنسانُ عن سَائرِ الحيوانِ

نُكتةُ تَكريرِ اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تكرَّرَ اسمُ الإشارةِ في الآيةِ، والمشارُ إليه بالإشارةِ في قولِه:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/344.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/380، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

تَنوُّعُ الإخبارِ، يقتضِي تنوُّعَ المعنَى، والاهتمامَ بكلتا الجُملتَيْن

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾، يحتملُ أن يكونَ عينَ المشارِ إليه بالإشارةِ الّتي في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ولمّا اختلفَ الإخبارُ عنِ اسم الإشارةِ؛ تنوَّع المعنى، فجُعلتِ الجملةُ الثَّانيةُ مستقلَّةً غيرَ معطوفةٍ على الأولى؛ للاهتمام بكلتا الجُملتين؛ للإشعارِبأنَّ كلَّ معنًى من معاني الجُملتين له شأنُه وأهمِّيَّتُه، مع اجتماعِهما في المقصدِ العامِّ، كما يحتملُ أنْ يكونَ اسمُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لِما ذُكِرَ من إنزالِ اللِّباس والرِّيشِ أو يكونَ معهما لباسُ التَّقوى، فيفيدَ الإيجاز، وكأنَّها كلَّها آيةٌ واحدةٌ لتعالقِها في الغرضِ والمقصدِ(1).

دَلالةُ ﴿مِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

كلُّ آيةٍ من آياتِ الرّحمن، هي نِعمةٌ جليلةٌ تستلزمُ الشُّكرَانَ

﴿مِنۡ﴾ هنا تبعيضيَّةٌ؛ للإشعار بأنَّ كلَّ آيةٍ من آياتِ اللّهِ جعلَها للبشرِ هي عظيمةٌ وجليلةٌ؛ لِتعبيره عنِ الآية باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، وفيه إيماءٌ لشُكْرِ ما يحصلُ الانتفاعُ به.

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾:

الرَّجاءُ لا يَجوزُ على عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ

لمّا كان لفظُ (لعلَّ) يُفيدُ رجاءَ حصولِ الأمرِ، ولا يجوزُ أنْ يُحمَلَ هذا على معنى رجاءِ اللّهِ تذكُّرَهُم؛ لأنَّ الرَّجاءَ لا يجوزُ على عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ؛ حُمِلَ اللَّفظُ هنا على المجازِ بمعنى تصويرِهم في صورةِ المرجوِّ منهم أنْ يتذكَّروا بآيةِ إنزالِ اللّباس والرِّيش لظهورِها وعميمِ نفعِها لكلِّ النَّاس(2).

مُناسبةُ مَجيءِ الخبرِ جُملةً فعليةً، في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾:

تقريرُ المعنى وتأكيدُه بتقوِّي حُكْمِ التَّذكُّرِ

جاء الخبرُ فعلًا لتقريرِ المعنى وتأكيدِه بتقوِّي الحُكمِ؛ لأنَّ الإسنادَ على نيَّة التَّكريرِ؛ لعودِ الضَّميرِ في ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ على المسنَدِ

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/372، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/389، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/31.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/92.

إليه (هم)، والمعنى تحقيقُ تصويرِهم في صورةِ المرجوِّ أن يتذَكَّروا بهذه الآية العظيمةِ الظَّاهرة.

دَلالةُ إدغامِ الفعْلِ، في قوله تعالى: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

أدنَى وُجوهِ التَّذكُّرِ، تكفِي للاعتبارِ، بآيةِ إنْزالِ اللِّباسِ

أصلُ اللَّفظ (يتذكَّرون)، فأُدغم صوتُ التَّاء في الذَّال للإشعار بأنَّ لِهذه الآيةِ منَ الظُّهورِ ما يكفِي فيها أدنى وجوهِ التَّذكُّر[1].

وذلك تلازمٌ مع موضوع السُّورة وهو الإنذارُ؛ لأنَّها مكيَّة، والملاحَظُ أنَّ الفعلَ جاء في سياقِ الحديثِ عن قصَّة آدمَ وإغواءِ الشَّيطانِ له، وما نتجَ عن ذلك من كشفِ العورة؛ فامتنَّ اللّه عليه وعلى بَنيه باللِّباس الّذي يُواريها؛ لذلك كان الإدغامُ الّذي يحمل معنى الإخفاءِ هو الملائمُ لهذا المشهدِ الّذي ظهر فيه آدمُ ومن بعْدِه بنُوه بالضَّعفِ، بسببِ مخالفةِ أمرِ اللّه؛ فكان المطلوبُ إليهم التَّذكُّر لنعمِ اللّه، ولو بأدنى وجهٍ منَ الذِّكرِ.

دَلالةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

آيـةٌ واحـدةٌ مِنَ اللهِ تَكْفِي للتَّذكُّرِ

حُذِف المفعولُ إمَّا لتنزيل الفعلِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ منزلةَ الفعلِ اللَّازمِ؛ لتصويرِهم في صورة المرجوّ أن يكونَ تذكُّرهم كالوصفِ الثَّابتِ لهم؛ ليكونوا في حالةِ تذكُّرٍ مُستمرٍّ، وإمَّا لإفادةِ العُمومِ بمعنى يذَّكَّرون عظيمَ قدرةِ اللّه تعالى وانفرادَه بالخلقِ والتَّقدير واللُّطف ممَّا يقرِّبُهم إلى التَّقوى وطاعةِ اللّه؛ للإشعارِ بأنَّ آيةً واحدةً - وهي إنزالُ اللِّباس الّذي يُواري السّوءات وما يتنعَّمُ به في الحياة - تكفِي ليذَّكَّروا.

بَلاغةُ الالتفاتِ، في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾:

يُسْتقبَحُ من كلِّ إنسانٍ ما يُستقبَحُ مِنْ غيرِه

عُدِلَ عن ضميرِ الخطابِ إلى ضميرِ الغيبة بطريقِ الالتفات؛ ليكونَ تعريضًا بمَنْ لم يتذكَّر من بني آدمَ، فكأنَّه غائبٌ عن حضرة الخطابِ، على أنَّ ضمائرَ الغيبةِ، في مثل هذا المقامِ في القرآنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/380.

كثيرًا ما يُقصَدُ بها مشركُو العربِ، ولئلَّا يقولَ المتعنِّتُ: إنَّ الحثَّ على التذكُّر خاصٌّ بالمخاطَب، ويدَّعِي أنَّه لِلمسلمين فقط، أي: أنزلنا ذلك ليكونَ حالُهم حالَ مَن يتذكَّرُ، فيعرفَ أنَّه يُستقبَحُ منه ما يُستقبَحُ من غيره[1].

سِرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالتّذكّر ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾:

التّذكيرُ بالعَداوةِ الأبـديّـةِ بين الإنـســانِ والشّيطانِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ دون غيره كالتفكُّرِ أو التعقُّل؛ لأنَّه هو المناسبُ لسياق القصَّةِ؛ حيث جاء لغرضٍ مهمٍّ، هو تذكيرُ بني آدمَ العداوةَ الكامنةَ بين آدمَ وإبليسَ؛ فعليهم دائمًا ألَّا يأمنُوا له ولا ينخدعوا بإغراءاته؛ بل يتذكَّروا أنَّه هو الّذي أخرجَ آدمَ منَ الجنَّة، وأنَّه عدوٌّ لذُرّيَّتِهِ من بعده؛ لذلك كان التَّعبيرُ بـ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ هو الأوفقُ والأنسبُ للمقام؛ لأنَّ الذِّكرَ استدعاءٌ لأمرٍ سبقَ، والذي سبقَ هو عداوةُ إبليسَ لآدمَ وذُرِّيَّتِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/380، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/76.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَّر اللّه ﷻ بني آدمَ في الآيةِ السَّابقةِ بنعمةِ اللّباس الّذي هو بابُ سَترِ العوراتِ وبابُ التّقوى، وكان ذلك مُستفادًا من قصَّة أَبَوَيهمِ مع الشَّيطان الّذي أغراهما وأوقعهُما في المعصيةِ، ونتجَ عنها بُدُوُّ السّوءاتِ، وهو أمرٌ لا تقبلُه الفِطرةُ السَّليمةُ؛ فطفقَا يخصِفان عليهما من ورقِ الجنَّةِ؛ جاءت هذه الآيةُ بهذا النِّداءِ؛ لتحذِّرَهم منَ الوقوع في شِراك الشَّيطان الّذي بيَّن القرآنُ عداوتَه المُتأصِّلةَ لأَبَويهم بقولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

أعقبَ المنّةَ بنعمةِ اللّباس، بالتَّحذيرِ من فتنةِ الشّيطان، ومُحاولتِه إظهارَ عَوارِ الإنسان

وأيضًا أنَّه أعاد خطابَ بني آدم؛ ليكونَ النِّداءُ تكملةً للآي قبلَه، فجاءَ على التَّحذيرِ منَ الافتتانِ بالشَّيطانِ ومن متابعتِه بإظهارِ كيدِه للنَّاس منِ ابتداءِ خلقِهم؛ إذْ كادَ لأصلِهم(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾: أصلُ معنى الفتنةِ: هو الاختبارُ والابتلاءُ، يقال: فتنتَ الذَّهبَ في النَّار؛ إذا أدخلتَه إليها لتعلمَ جودتَه من رداءتِه، والفِتنَةُ منَ الأفعال الّتي تكونُ منَ اللّه تعالى، ومن غيره، ومتى كانت منسوبةً إلى اللّه تعالى؛ فهي على وجه الحكمةِ، بمعنى إظهارِ الأمر بالاختبار والابتلاء، ومتى كانت من غيره؛ فهي بمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/76.

الصَّدِّ والإضلالِ والخداعِ. ومعنى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾: لَا يُضِلَّنَّكُم، ولا يخدعنَّكم، أو لا يمحننَّكم، ويبتلينَّكم[(1)].

2) ﴿أَبَوَيْكُم﴾: الأَبُ: الوالد، وأصلُه أَبَوٌ، ويُسمَّى كلُّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحِه أو ظهورِه (أبًا) أو إيوائِه أو غيرِ ذلك، ويُسمَّى العَمُّ مع الأب: (أبوين)، وكذلك الأمُّ مع الأبِ. ويقال للأب والأمِّ: أبوان، على التَّغليب. وسُمِّيَ الأَبُ أَبًا لغَذْوه أولادَه ومَنْ يعُولُه، أي: إطعامُهم، والسّعيُ عليهم؛ من أجل ذلك[(2)]. والمرادُ بالأبوين في الآية: آدم وحوَّاء.

3) ﴿يَنزِعُ﴾: يدورُ معنى النَّزعِ على اقتلاع شيءٍ خارجًا عن مقرِّه بجَذْبٍ قويٍّ ممَّا يلتحمُ به أو يكونُ ملتصقًا به، يقالُ: نزعَ الشَّيءَ، أي: قلعَهُ من مقرِّه وجذبَه وسلبَه، كنَزْعِ القوْس عن كبدِه، ونزع الشَّيءَ من فلانٍ: سلبُه بعد أن كان متمسِّكًا فيه، ومنه نزْعُ الملائكةِ الأرواحَ منَ الأَبدان، والتَّنَازُعُ والمُنَازَعَةُ: المُجَاذَبَة، بأن يريد كلٌّ أن يقتلعَ أمرًا من يد صاحبِه[(3)].

4) ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: القَبِيلُ: جمعُ قَبِيلَةٍ، وهي الجماعةُ المجتمعةُ الّتي يُقبِلُ بعضُها على بعض، وقد تكونُ من قبائلَ شتَّى، أو لبني أبٍ واحدٍ، وكلُّ مجموعةٍ منَ الإنس أو منَ الجنِّ: قبيلٌ، والقبيلةُ لا تكونُ إلَّا لأب واحدٍ، وسائرُها منَ النَّاس، فليست القبيلةُ تأنيثَ القَبيلِ لهذه المُغايرَةِ. والمرادُ بـ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ هنا جنودُ إبليسَ منَ الجنِّ[(4)].

5) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: الوَلِيُّ: القَريبُ، يُقال: جلسَ ممَّا يليني، أي: يقاربُني، ويُستعملُ للقُرب من حيث المكانُ، ومن حيثُ النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن حيث الصّداقةُ والنُّصرةُ والاعتقادُ، وكلُّ من ولي أمرَ آخرَ؛ فهو وليُّه، وفلانٌ أولى بكذا، أي: أحرَى به وأجدرُ، لقربه منه، وقولُهم في الشّتمِ: أولى لك، هو تهديدٌ ووعيدٌ بمعنى: قاربَه ما يُهلكه، والوَلِيُّ: التَّابِع

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فتن)، وابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/373، والسّمعاني، تفسير السّمعانيّ: 2/176.

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبو).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قبل)، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/75.

المُحِبُّ لقُربِه ممَّن وليَه[1]، وأولياءُ في الآيةِ بمعنى: قرناءَ، أو أعوانٍ، أي: مُوالِين لهم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الطّاعةُ لأوامرِ الله تعالى، هي الحِصنُ الّذي يَقِي المؤمنَ فِتنةَ الشَّيطانِ وزَيْغَه

يا بني آدمَ، لا يخدعنَّكم الشَّيطانُ، فيُزيِّنَ لكم المعصيةَ، كما زيَّنها لأبويكم آدمَ وحوَّاءَ، فأخرجَهما بسببِها منَ الجنَّة، ينزعُ عنهما لباسَهما الّذي سترَهما اللّهُ به؛ ليريَهما سوءاتِهما بكشفِ عورتِهما، وإظهارِها لأعينِهما بعد أنْ كانت مستترَةً، إنَّ الشَّيطانَ يراكم هو وذريَّتُه وجنسُه، وأنتم لا ترونهم، فاحذرُوهم؛ لأنَّ اللّه جعلَهم أولياءَ للكفَّارِ الّذين لا يوحِّدونَ اللّه، ولا يصدِّقونَ رسُلَه، ولا يعملون بهديه[3]. وتُرشدُ الآيةُ إلى الحذرِ منَ الشّيطان، وعدمِ الغفلةِ عنِ المواضعِ التّي يدخلُ منها على الإنسان.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَكرارِ النِّداءِ في الآيةِ، مع قُربِ العهْدِ به:

تأكيدُ النَّهْيِ عنِ الإصغاءِ إلى الشَّيطانِ واتِّباعِه

كُرِّرَ النِّداءُ بقولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: لِزيادةِ التَّنويهِ بمنَّةِ اللِّباسِ؛ توكيدًا للتَّعريضِ بحماقةِ الّذينَ يحجُّون عُراةً، ولِتأكيدِ التَّحذيرِ لبني آدم؛ فإنَّه لمَّا بلغ تأثيرُ وسوسةِ الشَّيطانِ في حقِّ آدمَ مع جلالةِ قدرِه إلى أنْ أخرجَه منَ الجنَّة، فكيف يكون حالُ آحادِ النَّاس؟

وفيه أيضًا إيذانٌ بكمالِ الاعتناءِ بمضمونِ ما صُدِّرت به الآيةُ، وهو النَّهيُ عنِ الإصغاءِ إلى الشَّيطانِ واتِّباعه، كما أنَّه لمّا كانت الآيةُ تحكي أحوالًا مختلفة، ناسبَ أنْ يُكرَّرَ النّداءُ، وفيه إشارةٌ إلى كمالِ لُطفِه ﷻ، وعنايتِه ببني آدمَ في توجيههم وتحذيرِهم، ممّا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) البغويّ، معالم التنّزيل: 2/186.
(3) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/373، ونخبة من العلماء، التّفسير الميّسر، ص: 153.

يَجبُ الحذرُ منه، وهذا منهجٌ دعويٌّ في سياقِ الوعظِ والتَّذكيرِ؛ لأنَّ التّكريرَ من أقوى أساليبِ التَّنبيهِ والتَّأثيرِ[1].

العُدول عن نهْيِ الشَّيطانِ عنِ الفِتنةِ، إلى نهْيِ المُخاطَبين:

المبالغةُ في النَّهْيِ عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ، تُظهِرُ عظيمَ خطرِه

قوله تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾: ظاهرُ اللَّفظِ نهيُ الشَّيطانِ عن أنْ يفتِنَ بني آدمَ، فذكرَ اللَّازمَ، وأرادَ ملزومَهُ، وهو نهيُ المخاطَبين عنِ الافتتانِ به ومتابعتِه والإصغاءِ إليه، وهذا من أساليبِ العربِ البليغةِ، كقولِهم: لا أرينَّك هنا: أي: لا تحضرنَّ هنا، فأراكَ، وإنَّما عدلَ عنِ الأصلِ للمبالغةِ الحاصلةِ في النَّهيِ عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ بسلوكِ طريقِ الكنايةِ، وللإيذانِ بأنَّ الشَّيطانَ هو مبدأُ الفتنَةِ تنبيهًا إلى عظيمِ خطرِه، وللإشعارِ بأنَّه يسعى دائمًا إلى فتنتِهم، فمَن لم يفتتِن بفتنةِ الشَّيطانِ؛ كأنَّ الشَّيطانَ لم يتعرَّض لفتنتِه أصلًا[2].

نُكتةُ إيثارِ صِيغةِ الفعلِ المضارعِ، في قولِه: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾:

وَساوِسُ الشَّيطانِ تَصِلُ إلى عقلِ الإنسانِ وفِكْرِه وقلْبِه

عبَّر بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على استمرارِ فتنةِ الشَّيطانِ لبني آدمَ، وتجدُّدِها حالًا فحالًا، فهو يَجري مِن ابن آدم مجرَى الدّمِ في الجسدِ؛ إذ إنَّ وساوسَ الشَّيطانِ تصِلُ إلى عقلِه وقلبِه وعُروقِه، كما أنَّ الدَّمَ يَسيرُ في جميعِ البدَنِ.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ، بقولِه تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ دون غيرِه:

الفِتنةُ إمَّا بمعنَى الإضلالِ، وإمَّا بمعنَى المِحنةِ والابتلاءِ

لمّا كان الافتتانُ بمعنى الاختبارِ والامتحانِ، وكان امتحانُ الشَّيطانِ لبني آدم مقترنًا بوسوستِه لكي يضلَّهم، كان المرادُ من لفظِ الفتنة هنا مآلَه وغايتَه، فإمَّا أنْ تكونَ الفتنةُ بمعنى إضلالِ بني آدم لكي يعصُوا اللّٰه تعالى ولا يطيعوه، وإمَّا أنْ تكونَ بمعنى المحنةِ والابتلاءِ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب مفاتيح الغيب: 14/223، والآلوسّي، روح المعاني: 4/344، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/321، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/76.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/390، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/72، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/366، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/366.

دوامُ التّحذيرِ، مـن فِتنـةِ الشّيطانِ الخطيرِ

دَلالة مجيءِ نونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ في: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾:

جاء استعمالُ نونِ التّوكيد الثّقيلةِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾: لتأكيدِ النَّهي عن الافتتانِ بالشَّيطان، والتّحذيرِ من فتنتِه الدّائمةِ.

من بلاغةِ القرآنِ الجمْعُ بين التَّشبيهِ والاحْتباكِ

بَلاغةُ التَّشبيهِ والاحْتباكِ في الآيةِ الكريمةِ:

في قولِه تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، تقديرُ الكلام: لا يَفتننَّكم فتنةً مثلَ فتنةِ إخراجِ أبويكم، وهو من تشبيه المرَكَّب بالمركَّب، ولم يأتِ الكلامُ كما في صورة التَّقدير، كما لم يقلْ: (لا يفتننَّكم الشَّيطانُ كما فتنَ أبوَيكم)؛ من أجلِ تأديةِ المعنى بمنتهى الإيجاز مع براعة التَّعبير[1]، وبيانُهُ أنَّه لمّا كان الكلامُ على معنى تشبيهِ فتنةِ الشَّيطانِ لبني آدمَ بفتنتِهِ لآدَمَ وحوَّاءَ، دلَّ على أنَّ الكلامَ على تقديرِ محذوفٍ من المشبَّهِ بما دلَّ عليه المشبَّهُ بهِ، وتقديرِ محذوفٍ منَ المشبَّهِ به بما دلَّ عليه المشبَّه، اتِّكاءً على قرينة السّياقِ؛ ليكونَ على أسلوبِ الاحتباك، فإذا كان ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ معنى: لا يضلَّنَّكم، أو لا يخدعنَّكم، فيكونُ قد ذكر السَّبب، وحذف المسبَّب في المشبِّه، وذكر المسبَّبَ، وحذف السَّببَ في المشبَّه به، أي: أقيم الإخراجُ، وهو المسبَّبُ مقام المشبَّهِ به، والمعنى: لا يضلَّنَّكم الشَّيطانُ أو لا يخدعنَّكم، فيترتَّب عليه ألَّا تدخلوا الجنَّةَ كما فتنَ أبويكم، فترتَّبَ عليه خروجُهما منَ الجنَّةِ الّتي كانا يتمتَّعانِ بنعيمها[2]، وإذا كانَ قولُه: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ بمعنى: المحنةِ والابتلاءِ، فيكونُ على العكسِ، أي: ذكرَ المسبَّبَ، وحذف السَّببَ في المشبَّهِ، وذكر السَّببَ، وحذف المسبَّبَ في المشبَّهِ به، أي: أقيم السَّببُ: وهو الإخراجُ مقامَ المشبَّه به، والمعنى: لا يمحننَّكم الشَّيطانُ بأنْ يمنعَكم

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/291، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4098.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/373، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/322.

دخولَ الجنَّة بإغوائِكم، كَما أوقعَ أَبَوَيكُمْ في المحنِ والبلاءِ بسببِ الإخراجِ من الجنَّة، ومن مقاصدِ التَّشبيه هنا تذكيرُ البشرِ بأعظم فتنةٍ فَتَنَ الشَّيطانُ بها نوعَهم، وشملت كلَّ واحدٍ منَ النَّوعِ؛ إذ حُرِمَ منَ النَّعيمِ الّذي كان يتحقَّقُ له لو بقيَ أبواه في الجنَّة، وتناسلا فيها، والتَّذكيرُ بأنَّ عداوةَ البشرِ للشَّيطانِ موروثةٌ، فيكونُ أبعثَ لهم على الحذرِ من كيدِه[1].

النُّكتةُ في تشبيهِ فِتنةِ الشَّيطانِ بالإخراجِ منَ الجَنّةِ:

مـآلُ الافْـتـتـانِ بـالـشَّـيـطـانِ، الـحِـرمـانُ مـنَ الجِنانِ

لمّا كانت فتنةُ الشَّيطانِ غيرَ ظاهرةٍ، وهي أمرٌ معنويٌّ جُعلَ المشبَّه به أمرًا حسِّيًا؛ لتقريبِ معنى الفتنةِ للبشرِ وتخويفِهم بها، فشبَّهَ فتنةَ الشَّيطانِ بما آلت إليه فتنةُ آدمَ وحوَّاءَ، إذ كانَ مآلُ فتنةِ الشَّيطانِ لآدمَ وحوَّاءَ الحرمانَ منَ البقاءِ في الجنَّة، ففي التَّشبيهِ تذكيرٌ وتنبيهٌ لبني آدمَ بأنَّ الفتنةَ ستضرُّكم كما سبقَ وألحقتِ الضّررَ بأبويكم آدمَ وحواءَ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ دونَ إبليسَ:

أذَى إبـلـيـسَ مـقـصـورٌ عـلى نـفـسِه، وأذَى الشَّيطانِ مُتعدٍّ إلى غيرِه

في قوله تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ جاء التعبير بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ دون إبليس، والنَّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريم في قصَّة آدمَ عليه السلام وطلبِ السُّجودِ له منَ الملائكة، يجدُ أنَّ التّعبير بلفظ (إبليس) وردَ في سُوَرٍ عديدةٍ منها؛ البقرةُ، والأعرافُ، والحجرُ، وغيرُها منَ السُّور الّتي وردَ فيها لفظُ (إبليس)، وهو مأخوذٌ من الإبلاسِ، والمرادُ به شدَّةُ اليأسِ؛ لأنَّ اللّه آيسَهُ منَ الخيرِ، وقيلَ: مأخوذٌ منَ البَلَس، وهو الحزنُ المُعترضُ من شدَّةِ الإبلاسِ. والمُلاحظ أنَّه في هذا المشهدِ، لم يتعدَّ أذاهُ إلى غيره، بل عادَ عليه هو؛ حيثُ لُعن وطُرد بسبب استكبارِه عنِ السُّجودِ.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/360، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/77.

أمَّا لفظُ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: وأصلُه من شَطَنَ أي: (بَعُد) أو من شَاطَ؛ إذا احترق، وهلك، ولذلك فهو وصفٌ يَقعُ على كلِّ عاتٍ متمرِّدٍ منَ الجنِّ والإنس، وهذا يدلُّ على تعدِّي أذاه إلى الآخرِ؛ يؤكِّدُ ذلك أنَّه لَمَّا أوقع آدمَ وحوَّاءَ في المعصية بأكلِهما منَ الشَّجرة؛ عبَّر القرآن عنه بوصف الشَّيطانِ، فقال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، وهذا واضحٌ في تعدِّي أذاه إلى الآخرِ.

نُكتةُ إيثارِ المصدرِ المؤوَّلِ، في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ﴾:

إخراجُ آدمَ من الجنَّة، أعظمُ فِتنةٍ فعلَها الشَّيطانُ، وتسبَّبَ فيها

عُبِّرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ؛ للدَّلالةِ على تشبيهِ فتنةِ الشَّيطانِ بنفْسِ خروجِ آدمَ وحوَّاءَ منَ الجنَّة من غير نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ لنوعِ الخروجِ؛ للإشعارِ بأنَّ نفسَ الخروجِ منَ الجنَّة أعظمُ فتنةٍ فعلَها الشَّيطانُ وتسبَّبَ بها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضِي، في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ﴾:

شِدّةُ تحذيرِ أبناءِ آدمَ من فِتنةِ الشّيطانِ

عبَّر بالفعلِ الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإخراجِ لآدمَ وزوجِه، وفي هذا إلهابٌ لمشاعرِ الأبناءِ للحذرِ من فتنةِ الشّيطان؛ لأنَّه مُصِرٌّ على إبعاد ذريَّةِ آدمَ عنِ الجنَّة، كما حقَّق ذلك مع أبوَيْهم.

سِرُّ العُدولِ عن نِسبةِ الفِتنةِ إلى آدمَ وحوّاءَ:

تحذيرُ بني آدمَ من فِتنةِ الشَّيطانِ وإغوائِه

في قوله تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، عبَّر مع آدمَ بالإخراجِ، ومع بَنيهِ بالفتنة؛ لأنَّ الغرضَ تحذيرُ بني آدمَ من فتنةِ الشَّيطانِ حتى لا يخرجُوا من جنَّةِ التَّكليفِ والطَّاعة؛ كما خرج أبواهُما منَ الجنّة. وأيضًا لاختلاف الموقفَيْن، فأمْرُ إخراجِ آدمَ أمرٌ قدَّره الله أزلًا؛ لأنَّه سيخرجُ منَ الجنَّة إلى الأرض لأداء مهمَّة الخلافة؛ فاصطفاه الله واجتباهُ، فلم يعُدْ للشَّيطانِ معهُ طريقٌ.أمَّا بالنِّسبةِ لبنيهِ؛ فأمرُ الفتنة معهم أمرٌ ثابتٌ بينَ الشَّيطان وبني آدمَ، والمطلوبُ منَ الإنسانِ أن يُنَقِّيَ نفسَه من شوائب الشِّرك والمعصيةِ؛ لأنَّ ذلك هو دورُ الشَّيطانِ في فتنة بني آدمَ.

إرشادُ بني آدمَ إلى أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ، مُتمكِّنٌ في عَداوتِه لهم

سِرُّ العُدولِ عن لفظَيْ (آدمَ) و(حوّاءَ) إلى لفْظِ ﴿أَبَوَيۡكُم﴾:

عدلَ القرآنُ عنِ التَّصريح باسمِ آدمَ وحواءَ إلى التَّعبير بقولِه: ﴿أَبَوَيۡكُم﴾؛ لإثارة الحَميَّةِ في قلوبِ بني آدمَ ليأخذوا بثأْرِ أبيهم من الشَّيطان، وليعلمُوا أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ متمكِّنٌ في عداوتِه لهم بدليل موقفِهِ مع أبوَيْهم.

الإشعارُ بأنَّ مآلَ اتِّباعِ فِتنةِ الشَّيطانِ، انتفاءُ دُخولِ الجنَّةِ

بَلاغةُ المجازِ العقليِّ في قولِه: ﴿أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾:

نسبَ إخراجَ آدمَ وحوَّاءَ إلى الشَّيطانِ، وإنْ لم يتولَّ ذلك؛ لأنَّ الإخراجَ كانَ بسببٍ منه، فأُسنِدَ إليه على طريقِ المجازِ العقليِّ؛ لتعظيمِ خطرِ الشَّيطانِ وللتَّحذير منِ اتِّباعِ وسوسته.

وللإشعار بأنَّ مآلَ اتِّباعِ فتنةِ الشَّيطانِ انتفاءُ دخولِ الجنَّة، كما أنَّه لمّا فتنَ أبويكم؛ أُخرجا منَ الجنَّة، وللتَّذكيرِ بعظمِ فتنةِ الشَّيطان لتأكيدِ التَّحذيرِ منه.

الإيماءُ بأنَّ مَصيرَ مَن يَقعُ في فِتنةِ الشَّيطانِ، أن يُحرمَ منَ الجنّةِ والرّحمةِ

نُكتةُ ذكرِ قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾:

للإشعار بأنَّ مصيرَ من يقعُ في فتنة الشَّيطان أن يُحرمَ من دخولِ الجنَّة، وفيه حثٌّ لبني آدمَ بالحذرِ من فتنةِ الشَّيطان وعدمِ اتِّباعِ إغوائه، لما يعقُبُ ذلك منَ الخُسرانِ المبينِ.

استحضارُ بشاعة ما قام به الشَّيطانُ

نُكتةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ المضارعِ: ﴿يَنزِعُ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ على أنَّه حكايةُ حالٍ؛ لتصويرِ الحالةِ واستحضارِ الصُّورةِ البَشعةِ الّتي قام بها الشَّيطانُ، فهو الّذي تسبَّبَ في نزعِ لباسِهما[1].

الشّيطانُ أغوَى آدمَ وزوجَهُ، تَرغيبًا لا ترهيبًا

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَنزِعُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، آثرَ فيه التّعبيرَ بالنَّزعِ، في قولِه: ﴿يَنزِعُ﴾ دون (يسلبُ)؛ لوجودِ فرقٍ بينهُما، فالسَّلبُ نزعُ

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 5/291، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/222.

الشَّيءِ منَ الآخرِ على سبيل القهْرِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ [الحج: 73]، أمَّا النَّزْعُ فهو جذْبُ الشَّيءِ من مقرِّه كنزعِ القوسِ عن كَبِدِه، ويُستعملُ في الأعراضِ، ومنه نزْعُ العداوةِ والمحبَّة منَ القلب، قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43].

وبناءً على هذا، نلاحظُ أنَّ التّعبيرَ القرآنيَّ آثرَ النَّزعَ دونَ السَّلبِ؛ لأنَّ إبليسَ أغوى آدمَ وزوجَهُ خِداعًا وغُرورًا؛ فصفةُ القهرِ غيرُ موجودةٍ؛ لذلك عَبَّر بالنَّزع، وهو أخذُ الشَّيءِ من مقرِّه الثَّابت فيه، والمُتمكِّن منه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ اللِّباس بالنِّسبة لهما شيءٌ ثابتٌ مستقرٌّ، وما فعله الشَّيطانُ هو قَلْعُ اللِّباس من مَقرِّه؛ كأنَّهما كانا داخلَيْن فيه، وتسبَّب الشَّيطانُ في إسقاطِه عنهما، يؤكِّدُ ذلك تعدِّي الفعلِ بـ (عن) دون (مِنْ)؛ فلم يقل: (ينزع منهما)؛ لأنّ تعدِّي الفعل بـ(مِنْ) يشيرُ إلى معنى الأخْذِ بقوةٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]

دَلالةُ جُملةِ ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾:

انْكشافُ السَّوءةِ، من أعْظمِ الفظائِعِ في مُتعارَفِ النَّاسِ

وردتْ هذه الجملةُ حالًا، وصاحبُ الحالِ إمَّا ﴿أَبَوَيۡكُم﴾ أو الضَّميرُ في ﴿أَخۡرَجَ﴾، والمعنى: أخرجَ الشَّيطانُ أبوَيْكم نازعًا عنهما لباسَهما، ولمّا كان نَزْعُ اللِّباسِ عَنْهُمَا قَبْلَ الإخْرَاجِ؛ كانت هذه الجملةُ على سبيلِ حكايةِ أَمْرٍ قَدْ وَقَعَ، والمقصودُ من هذه الحال تفظيعُ هيئةِ الإخراجِ بكونها حاصلةً في حال انكشافِ سوءاتِهما؛ لأنَّ انكشافَ السَّوءةِ من أعظمِ الفظائعِ في متعارَفِ النَّاسِ(1).

بَلاغةُ المجازِ العقليّ في قولِه تعالى: ﴿يَنزِعُ﴾:

تَنوُّعُ الأساليبِ البلاغيَّةِ، غايتُه تقريرُ المعنى وتأكيدُه

أضاف نزْعَ اللِّباسِ إلى الشَّيطانِ، وإنْ لم يتولَّ ذلك؛ للمبالغةِ في المعنى؛ لأنَّهُ كان بسببٍ منه لغُرورِ الشَّيطانِ وَوَسْوستِه لهما بالأكلِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/98، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/32، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/78.

منَ الشَّجرةِ، فأسندَ النَّزعَ إليه، كما تقولُ: أنت فعلتَ هذا؟ لمن حصلَ منه ذلك الفعلُ بسببٍ؛ وإن لم يباشرْه[1].

دَلالةُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾:

مآلُ نزعِ اللِّباسِ، انكشافُ العَورةِ، وضَياعُ السَّترِ

تحتملُ اللّامُ أنْ تكونَ لامَ العاقبةِ، والمعنى: مآلُ نزعِ اللِّباسِ رؤيتُهما سوءاتِهما، وتحتملُ أن تكونَ للتَّعليلِ الادِّعائي، تبعًا للمَجازِ العقليِّ؛ لأنَّه لَمَّا أسندَ الإخراجَ والنَّزعَ والإراءةَ إلى الشَّيطانِ على وجهِ المجازِ العقليِّ، فجُعِلَ كأنَّه فاعلُ الإخراجِ ونزعِ لباسِهما وإراءتِهما سوءاتِهما؛ فانتظمَ الإسنادُ الادِّعائيُّ معَ التَّعليلِ الادِّعائيِّ، فكانت لامُ العلَّةِ قرينةً مُقوِّيةً للإسنادِ المجازيِّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ دون (لِيرَيا سوءاتِهما):

الشَّيطانُ يَسرُّه أنْ يرَى ابنَ آدمَ مكشوفَ السَّوْءَةِ، حِسًّا ومعنًى

جاء التَّعبيرُ بهذه الصِّيغةِ؛ لِيدلَّ على أنَّ الشَّيطانَ له غرضٌ واضحٌ، وهو أنْ يُرِيَهما سوءاتِهما ليتمَّ ادِّعاءُ كونِه فاعلَ ذلك الفعلِ المُضِرِّ، وكونِه قاصدًا من ذلك الشَّناعةَ والفظاعةَ، كشأنِ الفاعلين أنْ تكونَ لهم عللٌ غائيَّةٌ من أفعالِهم إتمامًا للكيدِ، وإنَّما الشَّيطانُ في الواقعِ سببٌ لرؤيتِهما سوءاتِهما. وفي العبارةِ إشارةٌ إلى أنَّ الشَّيطانَ يهتمُّ بكشفِ سَوءةِ ابنِ آدمَ؛ لأنَّه يسرُّه أنْ يراه في حالةِ سُوءٍ وفظاعةٍ[2].

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ، في جملة ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾:

اسْتِدرارُ أسماعِ المخاطَبينَ، للتَّحذيرِ من فِتنةِ الشَّياطين

لَمّا نهى اللّه تعالى عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ ومتابعتِه، فكأنَّه قيل: لماذا هذا التَّحذيرُ المؤكَّد منَ الافتتانِ بالشَّيطان، وهل فتنتُه خطيرةٌ وعظيمةٌ؟ فأجابَ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾، لاستدرارِ أسماعِ المخاطَبين والتَّنبيهِ على أهمِّيَّةِ إصغائِهم.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223.

الـجَـمْـعُ بـيـنَ الـتَّـعـلـيـلِ والتَّأكيدِ في لَفْظِ (إنَّ)

دَلالةُ (إنَّ)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾:

تُفيدُ (إنَّ) تعليلَ النَّهي وتأكيدَ التَّحذيرِ من فتنةِ الشَّيطانِ، وبيانُه: أنَّه لمَّا تقدَّمَ أنَّ نهيَ الشَّيطانِ عن فتنتِنا إنَّما هو في الحقيقة نهيٌ لنا عنِ الافتتان به، فهو في قوَّةٍ لِيشتدَّ حذرُكم من فتنتِه فإنَّه دقيقُ الكيدِ بعيدُ الغَورِ بديعُ المخاتلة؛ علَّل ذلك، وأكَّده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾، فإنَّه إذا علَّلَ النَّهيَ بعلَّةٍ؛ كانَ أدعَى إلى الإقرارِ وآكدَ في التَّحذيرِ[1].

مَنْ لا يحذرُ مِنَ الشَّيطانِ بمنزلَةِ المتردِّدِ في فِتنتِه

دَلالةُ تأكيدِ رُؤيةِ الشَّيطانِ وقَبيلِه لبني آدمَ:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾: جاء الأسلوبُ مؤكِّدًا مع أنّ رؤيةَ الشَّيطان وقبيلِه لبني آدمَ أمرٌ واضحٌ مُشاهدٌ لا يحتاجُ إلى تأكيدٍ، لكنه نَزَّلَ المخاطَبين في إعراضِهم عنِ الحذرِ منَ الشَّيطان وفتنتِه منزلةَ من يتردَّدونَ في أنَّ الشَّيطانَ يراهُم، وفي أنَّهم لا يرونَه، فكأنَّهم بينَ بينَ في تحيُّرهم، فاستُحسِنَ تقويةُ الكلامِ بـ(إنَّ).

الـذي يَـراكُم هو وقـبـيـلُـه، هو الّـذي يَفتِنُكم، كما فتَنَ أبوَيْكم

دَلالةُ الضَّميرِ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾:

يحتملُ الضَّميرُ أنْ يكونَ للشَّأنِ، تعظيمًا للمذكورِ بعدَه وتفخيمًا له؛ لاقتضاءِ المقام؛ فإنَّه لمّا أبهمَ الأمرَ بالضَّمير تطلَّعتِ النَّفوسُ إلى معرفةِ الخبرِ، وتشوَّقت إلى فهمِه، فلمَّا فسَّره بجملة ﴿يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾؛ أفادَ المبالغةَ في تعظيمِ أمرِ ما أخبرَ به وتفخيمِه[2]، وبيانُه أنَّ المخاطَبين كأنَّهم استبهمُوا الأمرَ وسألوا عن سببِ التَّحذيرِ من فتنةِ الشَّيطانِ، فقيلَ: إنَّ الشَّأنَ والأمرَ العظيمَ الّذي أُخبرُكم عنه هو أنَّ الشَّيطانَ يراكُم هو وقبيلُه من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/98، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/222، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/366.

(2) الرّضي، شرح الكافية/2/27.

حيث لا ترونَهم؛ تهويلًا للأمرِ وللمبادرةِ إلى الحذَرِ منه، كما يحتملُ أنْ يكونَ عائدًا للشَّيطان، والمعنى: إنَّ الشَّيطانَ يراكُم هو وقبيلُه من حيث لا ترونَهم. والنُّكتةُ في إعادةِ ذكر الشَّيطانِ بالضَّمير تأكيدُ الأمرِ، والإعلامُ بأنَّ الّذي يراكم هو وقبيله هو عينُ الّذي يريدُ أنْ يفتنَكم كما فتنَ أبويكم للحذَرِ والاحتراسِ منه[1].

دَلالةُ ذكْرِ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾:

تأكيدُ تحذيرِ المؤمنين من إبليسَ اللَّعينِ

ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الضَّميرَ المنفصلَ أُعيدَ ذكرُهُ؛ ليصحَّ عطفُ ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ على الضَّمير في ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾، وذهب بعضُهم إلى أنَّ العطفَ صحيحٌ، وإنْ لم يُذكرِ الضَّميرُ لوجودِ الفاصل (كُمْ)، وهو كافٍ في صحَّة العطف[2]، وعلى كلا القولين أفادَ ذكرُ الضَّميرِ تأكيدَ الضَّميرِ المستترِ في قولِه: ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾؛ لِتأكيدِ تحذيرِ المؤمنين من إبليسَ اللَّعينِ، والمعنى: الّذي فتن أبوَيكم هو الّذي يراكم، فاحذرُوا أنْ يفتنَكم.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ وَقَبِيلُهُۥ ﴾، دونَ (جنوده):

الشَّيطانُ وجُنودُهُ كالقبيلةِ الواحدةِ، في تعاوُنِهم على بني آدمَ

لم يقلْ: (إنَّه يراكم هو وجنودُه)؛ لِمَا يشعرُ به قولُه: ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ أنَّ الشَّيطانَ وجنودَه كالقبيلةِ الواحدةِ في تعاونِهم على بني آدمَ، فيكونُ لفظُ ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ مستعارًا لجنودِ الشّيطانِ وقبيلتِه؛ لأنَّهما في التَّعاونِ كالقبيلة.

سِرُّ مَجيءِ الظَّرْفِ، والتَّعبيرِ بعدَمِ الرّؤيةِ في ﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾:

العَدوُّ إذا أتَى من حيثُ لا يُرى، يكونُ أشَدَّ وأخْطَرَ

لمّا كان ﴿حَيۡثُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ من الظُّروفِ المبهمةِ الّتي تتحدَّدُ بما تضافُ إليه، وكانت ﴿مِنۡ﴾ لابتداءِ الغاية المكانيَّةِ هنا، أفادَ التَّركيبُ ابتداءَ غايةِ رؤيةِ الشَّيطانِ وجنودِه

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/98، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/382، والآلوسّي، روح المعاني: 4/344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/79.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/292.

بني آدمَ منَ المكانِ الّذي تنتفي فيه رؤيةُ بني آدمَ للشَّيطانِ وجنودِه، أَي: إنَّ الشَّيطانَ يراكُم هو وجُنُودُه وَنوعُهُ وَذُرِّيَّتُه مِنَ الجِهَةِ الّتي لَا تُبصرُونَهُ مِنهَا، فأفادت ﴿حَيۡثُ﴾ عُمومَ رؤيتِهم لبني آدمَ من كلِّ مكانٍ، وإنْ تحدَّدَت بالمضافِ إليه.

وعَبَّرَ بقولِه: ﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾؛ للدَّلالةِ على بيانِ انتفاءِ رؤيةِ بني آدمَ لهم في عُمومِ الأماكن قريبِين أو بعيدِين، فلا قُدرةَ لبني آدمَ على مجاراتِهم ودفعِهم إلَّا بعدمِ الافتتانِ بالشَّيطانِ وجنودِه، وذلك بالاعتصامِ بالتَّقوى، والغرَضُ منَ الكلامِ التَّحذيرُ من فتنتِه، فهو بمنزلةِ العدوِّ المُداجي المطاوِلِ الّذي يأتي ليلًا لا يُرى، فهو يكيدُ ويَغتالُ من حيثُ لا يشعرُ النَّاسُ، والعدوُّ إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشدَّ وأخوفَ[1].

بَراعةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ في الفعلَيْن ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾ و﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾:

النَّهيُ عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ وجنودِه، تَفاديًا للزَّيغِ والهلاكِ

أفادت صِيغةُ المضارِعِ في الفعلَيْن الاستمرارَ وتجدُّدَ الحدوث بتجدُّدِ الأزمانِ، ففي صِيغةِ الفعلَيْن معنى الدَّوام، ولمَا كانت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ بمنزلة التَّعليلِ للنَّهيِ عنِ الافتتان بالشَّيطانِ وجنودِه، وكانت تدلُّ على الدَّوامِ وعُمومِ المكانِ؛ بدلالةِ ﴿حَيۡثُ﴾، أفادَ الكلامُ دوامَ النَّهيِ عنِ الافتتان بهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

بَديعُ طِباقِ السّلْبِ في قولِه: ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾ و﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾:

كيدُ الشّياطين قَويٌّ عَنيفٌ، وحَذَرُ النَّاسِ منه رَخيٌّ ضَعيفٌ

ورَدَ الكلامُ على طريق طِباقِ السَّلبِ، إظهارًا للتَّفاوتِ بين جانبِ كيدِهم وجانبِ حذَرِ النَّاس منهم، فإنَّ جانبَ كيدِهم قويٌّ متمكِّنٌ، وجانبَ حذَرِ النَّاسِ منهم ضعيفٌ؛ لأنَّهم يأتونَ المكيدَ من حيثُ لا يدرونَ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/32، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/293، والآلوسّي، روح المعاني: 4/344.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/79.

دَلالةُ ﴿لَا﴾ النَّافيةِ في قولِه ﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾:

عُبِّرَ بـ﴿لَا﴾ النَّافيةِ لإفادتِها استمرارَ النَّفْيِ[1].

بَلاغةُ موقعِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾:

مَنْ يُوالِي الكافرينَ الظَّلمةَ، مُوالٍ للشَّياطينِ الفَجرةِ

سُلِكَ في هذه الجملةِ مسلكَ الاستئنافِ، وتحتملُ معانيَ عدَّةً، هي[2]:

أولًا: أنْ تكونَ تعليلًا آخرَ للنَّهْيِ عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ وجنودِه، فتكونَ من قَبيلِ تأكيدِ التَّحذيرِ إثْرَ تأكيدٍ، بل هذا التَّحذيرُ أبلغُ منَ الأوَّلِ، وجاءَ الكلامُ مؤكَّدًا؛ لتنزيلِ المخاطَبينَ منزلةَ المتردِّدينَ المتحيِّرينَ في كَوْنِ الشَّياطينِ أولياءَ للَّذين لا يؤمنون، لَمَا يظهرُ منْ مُوالاةِ بعضِ النَّاسِ للكافرين، فإنَّ مَنْ يُوالي الكافرين مُوالٍ للشَّياطين.

ثانيًا: أنْ تكونَ إجمالًا لَمَا فُصِّلَ في الكلامِ قبلَها، فتكونَ بمنزلةِ جُملةِ التَّذييلِ لتفيدَ عمومَ المعنى وكلِّيَّتَه.

ثالثًا: أنْ تكونَ استئنافًا بيانيًّا، فتكونَ جوابًا لسؤالٍ مطويٍّ، كأنَّه قيل: إذا كان الشَّيطانُ يرى النَّاسَ هو وقبيلُه من حيثُ لا يرونَهم، فأجابَ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أو يقال: لما قال: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ كأنَّ المؤمنين قالوا: لم سُلِّطوا علينا هذا التَّسليطَ العظيمَ الّذي لا يكادُ يسلَمُ معه أحدٌ، فقالَ مخفِّفًا لأمرِهم مُوهيًا في الحقيقةِ لكيدِهم: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فالذين لمْ يوالُوا الّذينَ لا يؤمنون، واتَّخذوا اللّه تعالى وليًّا؛ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

رابعًا: أنْ تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا قُصِدَ منه الانتقالُ إلى أحوالِ الكافرينَ في ائتمارِهم بأمرِ الشَّيطانِ؛ تحذيرًا للمؤمنينَ منَ الانتظامِ في سِلْكِهم، وتنفيرًا من أحوالِهم.

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/206.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/98، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/223، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/382، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/80.

دَلالةُ الضَّميرِ (نا)، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا﴾، و﴿جَعَلْنَا﴾:

عُبِّرَ بضميرِ العظمةِ في الموضعَيْنِ العائدِ إلى اللّهِ تعالى[1]؛ للإشعارِ بأنَّ اللّه تعالى أعظمُ منَ الشَّياطين وجنودِه، وأنَّ الأمرَ كلَّه بإذنِه سبحانه، فمَنْ يتَّخذِ اللّه وليًّا؛ فلا سلطانَ للشَّياطينِ والّذين لا يؤمنون عليه.

مَنْ يتَّخذِ اللهَ وليًّا فلا سُلطانَ للشَّياطينِ والكافِرينَ عليه

مُناسبةُ الجمْعِ في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾:

لم يقلْ: (إنَّا جعلنا الشيطان وليًّا)، بل جعلَ قبيلَه من جُملتِه، فجمعَ[2]، كما أفادَ الجمعُ المطابقةَ بين جمعِ الشَّياطين وجمعِ الّذينَ لا يؤمنون، وممّا يؤكِّدُ المُطابقةَ: التَّعبيرُ بالجمعِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

المطابَقةُ بين جمْعِ الشَّياطين، وجمْعِ الّذينَ لا يُؤمنون

مجازُ التَّعبيرِ، في قولِه تعالى: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

لمّا كانتِ الموالاةُ على حقيقتِها مُنتفيةً بين الشَّياطينِ والّذين لا يؤمنون، دلَّ على أنّه قُصِدَ بالمولاةِ ما يتسبَّب عنها بما أوجدَه اللّهُ تعالى بينَهم منَ التَّناسُبِ، أو بإرسالِ الشَّياطينِ على الّذينَ لا يؤمنون وتمكينِهم من خِذلانِهم وحملِهم على ما سَوَّلوا لهم[3].

بيانُ إرسالِ الشَّياطينِ على الّذينَ لايُؤمنون، وتَمكينِهم من خِذْلانِهم

سَببُ إيثارِ قولِه تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ دون غيرِه:

آثرَ التَّعبيرَ بنفْيِ الإيمانِ دونَ إثباتِ الكُفرِ، فلم يقلْ: (أولياء للذين كفروا)؛ للإشعارِ بأنَّ الإيمانَ قريبٌ منهم حاضرٌ بين أيديهم، ولكنَّهم يصدُّون عنه، فلا يقالُ: فلانٌ لا يؤمنُ إلّا والإيمانُ معروضٌ عليه.

تحذيرُ النَّاسِ منَ الصَّدِّ عنِ الإيمانِ، فذلك أصلُ الخُسران

مُناسبةُ مَجيءِ الاسْمِ الموصولِ وصِلتِهِ:

في قولِه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، سُلِك في الكلامِ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ لما تومئُ إليه صِلتُه إلى الوجهِ الّذي جعلَ اللّهُ الشَّياطينَ أولياءَ لهذهِ الطَّائفةِ وبيانِ السَّببِ، أي: لأنَّهم لا يؤمنون

عدَمُ الإيمانِ باللهِ ورسولِه، هو السَّببُ في تولِّي الشَّياطينِ للّذين لا يُؤمنون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/382.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/223.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/161.

باللّه جعل اللّهُ الشَّياطينَ أولياءَ لهم، والغرَضُ إهانتُهم واستحقاقُهم ما أخبرَ اللّهُ به عنهم[1].

حُسْنُ التَّذييلِ في آخر الآية، وأَثَرُه في المعنَى:

جُملةُ التَّذْييلِ، تَجرِي مجرَى المَثَلِ الأصيلِ

جاءت جملةُ التَّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتُفيدَ عُمومَ المعنى وكلِّيَّتَه، فهي كالمثلِ تجري في الكلام، والمعنى: قد مضت سنَّتُنا في التَّناسُبِ بينَ أنواعِ المخلوقات المتجانسةِ والمتشاكلةِ، أنْ يكونَ الشَّياطينُ الّذينَ هم شِرارُ الجنِّ أولياءَ لشِرارِ الإنسِ، وأشعرتْ جملةُ التَّذييلِ بالمفهومِ، أي: الّذي آمنَ لا يتَّخِذُهُ الشَّيطانُ وليًّا[2].

اختلاف التّعبير بـ(جعْلِ) الشّياطين، و(إرسالِ) الشّياطينِ:

الجَعْلُ حُكمٌ وتَصييرٌ، والإرسالُ تخليةٌ بين الكَفَرة والشّياطين

اختلافُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: 27]، عن قوله: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: 83]، عبَّرَ بالجَعْلِ هنا؛ لأنَّ معناهُ: (حكمنا وصيَّرنا بأنَّ الشَّياطينَ أولياءَ للَّذين لا يؤمنون)؛ أمَّا التَّعبيرُ بلفظِ الإرسال؛ فمعناهُ: (خَلَّينا بين الكَفَرَةِ وبين الشّياطين).

---

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم: ص: 182.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/330، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4103.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾

[الأعراف: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خُتِمتِ الآيةُ السَّابقةُ بجعْلِ الشَّياطينِ أولياءَ للذين لا يؤمنون؛ جاءتْ هذه الآيةُ لتؤكِّدَ هذا الحُكمَ بذكْرِ بعضِ قبائحِهم في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ فهُم يفعلونَ الفواحشَ، ويعتذرونَ عن فعلِها بأنَّهم اتَّبعوا آباءَهم وأنَّ اللّه أمرَهم بذلك، وهذا كذبٌ وافتراءٌ على اللّه تعالى(1).

العَـلاقـةُ بين التّحذيرِ من فِتنةِ الشّيطان، وبين سُوءِ الفواحشِ المُـتـوارَثـةِ عـنِ الأجدادِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٰحِشَةٗ﴾: يدلُّ الفُحشُ على قُبحٍ في شيءٍ وشناعةٍ، ويكونُ مكروهًا، أو هو ما تجاوزَ قدرَهُ بحيثُ بلغَ النِّهايةَ في القُبحِ من الأفعالِ والأقوالِ، وَمِنهُ غبنٌ فَاحِشٌ؛ إِذَا جَاوَزَتِ الزِّيَادَةُ مَا يُعتَادُ مِثلُهُ، وَأَفحَشَ الرَّجُلُ: أَتَى بِالفُحْشِ، وهو القولُ السَّيِّئُ، وأكثرُ ما ترِدُ الفاحشةُ في الاستعمالِ القرآنيِّ بمعنى: الزِّنى. ومعنى الفاحشةِ في الآية: كُلُّ مَا يَشتدُّ قُبحُه مِنَ الذُّنُوبِ وَالمعاصِي ممَّا ينفرُ عنه الطَّبعُ السَّليمُ، ويستنقصُه العقلُ المستقيم(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

وإذا فعلَ الّذينَ لا يؤمنونَ باللّه قبيحًا منَ الفعل؛ كطوافِهم بالبيت عَرايًا، علَّلوا فعْلَهم بأنَّه ممَّا ورثوه عن آبائِهم، وأنَّ اللّه

شَـرْعُ الـلـهِ لا يأمرُ إلَّا بالخيرِ، والـلـه لا يـأمُـرُ بالفحْشاءِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/384، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير: (فحش)، والبغوي، معالم التّنزيل: 2/186.

أمرَهم به، قلْ لهم أيُّها الرَّسولُ: إنَّ اللّهَ لا يأمرُ عبادَه بقبائحِ الأفعالِ ومساوئِها، أتقولونَ على اللّهِ - أيُّها المشركونَ - ما لا تعلمون كذبًا وافتراءً؟[1]

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى قُبحِ الفواحشِ وحُرمتِها، وإلى تنزُّهِ اللّهِ تعالى عنِ الرّضا بالفواحش، فضلاً عنِ الأمر بها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مُناسبةُ الوَصْلِ بالواوِ في الآيةِ الكريمةِ:

التَّشريكُ في الحُكمِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه

تحتملُ الواوُ أنْ تكونَ عاطفةً لجملةِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾، وما بعدَها على جملةِ الصِّلةِ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فتفيدُ التَّشريكَ في الحُكم، فيكونَ الشَّياطينُ أولياءَ للَّذينَ لا يؤمنون، وهذا العطْفُ يُبرزُ قوَّةَ الشَّيطانِ في إغواءِ بني آدمَ وإضلالِهم بما يُزَيِّنُهُ لهم، وفيه إدماجٌ لكشْفِ باطِلِهم في تَعَلُّلاتِهم ومعاذيرِهم الفاسدةِ، ويُحتملُ أنْ تكونَ استئنافيَّةً؛ للإخبارِ عمَّا كانَ يفعلُه المشركونَ العربُ في طوافِهم حولَ البيتِ عُراةً[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ (إذا) بَدلًا مِن (إنْ):

فِعْلُ الفواحِشِ مِنَ المشركين أَمرٌ مُحقَّقٌ

عبَّرَ بـ﴿وَإِذَا﴾ مكانَ (إن)؛ لأنَّها تُفيدُ تَحقُّقَ الوقوع، بخلافِ (إن) الّتي تفيدُ الشَّكَّ في وقوعِ الفعل ونُدرتِه؛ لذلكَ كان التَّعبيرُ بـ﴿وَإِذَا﴾ هو الأوفقُ في هذا السِّياقِ للدَّلالةِ على أنَّ المشركين لا يَنْفَكُّون عن فعْلِ الفواحش، وأنَّ ارتكابَهم لها واقعٌ مُحقَّقٌ ظاهرٌ للعِيَانِ يراهُ كلُّ من زارَ البيتَ الحرامَ للحجِّ قبلَ الإسلام.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي في الشَّرطِ ﴿فَعَلُواْ﴾:

عبَّرَ بالفعلِ الماضي في الشَّرطِ؛ لأنَّهُ أقربُ إلى القَطعِ منَ الفعل

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/397، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 153.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/391، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/78، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/223، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/81.

المضارعِ الدّالِّ على الاستقبالِ غالبًا؛ فأشعرَ التَّعبيرُ بالماضِي على أنَّ فعلَ الفاحشةِ أمرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، وموروثٌ عن آبائِهم.

فِعْلُ الفاحشةِ أمرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، ومَوروثٌ عن آبائِهم

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿فَعَلُواْ﴾ دونَ عَمِلُوا:

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بـ ﴿فَعَلُواْ﴾ دون (عَمِلُوا)؛ لبيانِ اصطفاءِ القرآنِ الكريمِ للألفاظِ؛ فالفعلُ يختلفُ عنِ العملِ؛ ذلك لأنَّ الفعلَ يكونُ بقصْدٍ وبغير قصْدٍ، بخلاف العملِ؛ فإنَّه يكونُ دائمًا بالقصْدِ.

بيانُ فِعْلِ المشركين الفواحشَ من غيرِ إعمالِ فكْرٍ ونظرٍ في عواقبِها

والنَّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريمِ يجدُ أنَّ أمرَ العملِ في مَحلِّ التَّكليفِ والمُساءلةِ؛ فهو مقرونٌ مع الإيمانِ، وذلك لما يحملُه منَ القصدِ، بخلافِ الفعلِ؛ فهو أعمُّ؛ فقد يكونُ بقصدٍ وبغيرِ قصدٍ، وهذا يدلُّ على أنَّهم يفعلون الفواحشَ من غيرِ إعمالِ فكْرٍ، ومن غيرِ النَّظرِ في عواقبِ ما يفعلون.

دَلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿فَٰحِشَةً﴾:

لمّا جاء لفظُ الفاحشةِ نكرةً أفادَ تعظيمَ فعلِ الفاحشةِ ونكرانَها، وذلك لشُؤمِها وخطرِ أثرِها في الفرد والمجتمعِ. ولإفادة الإنْكارِ على فعْلِ الفاحشةِ ولتهويله وتَفظيعِه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَٰحِشَةً﴾ في سِياقِ الشَّرطِ ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾:

الفاحشةُ تشملُ كلَّ كبيرةٍ من كبائرِ الذُّنوبِ

لمّا كان لفظُ الفاحشةِ يُطلقُ على كلِّ ما يقبحُ فعلُه، وكان في سياقِ الشَّرط؛ دلَّ هنا على العموم، فيصدقُ اللَّفظُ على أنواعِ الفواحش، فيشملُ كلَّ كبيرةٍ من كبائرِ الذُّنوب، ويدخلُ في العُمومِ ما كان يفعلُه المشركون بطوافِهم بالبيت عُراةً دخولًا أوّليًّا، ويساعدُ عليه السِّياقُ والسِّباقُ، أمَّا السِّياقُ؛ فإنّ قولَه تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ يدلُّ على وجه التَّشبيهِ في قولِه: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27] أي: لا تتَّصفُوا بصفةٍ يُوقعُكم الشَّيطانُ بسببِها في الفتنةِ، ومنها وأوّلُها دخولًا في الكلامِ العُريُ في

الطَّوافِ، وأمَّا السِّباقُ؛ فقولُه: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31][(1)].

دَلالةُ حذْفِ الموصوفِ وإبقاءِ الصِّفةِ في ﴿فَٰحِشَةٗ﴾:

الفاحِشةُ غَلبتْ على أفعالِ المشركين الّتي لا يَقبلُها عقلٌ، ولا فِطرةٌ

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ بالصِّفةِ دونَ الموصوفِ، فقال: ﴿فَٰحِشَةٗ﴾، أي: فِعلَةً فاحشةً؛ فنُزِّلُ الوصفُ مَنْزلةَ الاسمِ لكثرة دورانِه، فصارتِ الفاحشةُ اسمًا لكلِّ فعلٍ ذميم. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الفاحشة غلبتْ على أفعالِهم الّتي لا يقبلُها العقلُ وتُنكرُها الفِطرةُ.

دَلالةُ إسْنادِ الفعْلِ والقوْلِ إلى الضّمير:

تَصديقُ بعضِهم بعضًا كأنَّهم فعلُوا الفاحِشةَ كلُّهم

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ﴾ أُسنِدَ الفعلُ والقولُ إلى ضميرِ (الّذينَ لا يؤمنون) الواردِ في ذيل الآيةِ السابقةِ، على معنى الإسنادِ إلى ضميرِ المجموعِ؛ لأنَّه قد يكونُ القائلُ غيرَ الفاعلِ، والفاعلُ غيرَ القائلِ؛ لكنَّهم لمَّا صدَّق بعضُهم بعضًا؛ فكأنَّهم فعلُوه كلُّهم، واعتذرُوا عنه كلُّهم.

دَلالةُ جوابِ الشَّرطِ، في ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾:

أشدُّ القُبحِ وأعظَمُه، اقترانُ القَولِ القبيحِ بفعْلِ الفاحِشةِ

لمّا كان جوابُ الشّرطِ على معنى اقترانِه بالشّرط في الوقوعِ والتَّحقُّقِ؛ دلَّ على أنّهم كانوا يقولون القولَ القبيحَ حين يفعلونَ الفاحشةَ؛ للإشعارِ بزيادةِ قُبحِهم في اقترانِ قولِهم القبيحِ بفعلِهم الفاحشِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضِي: ﴿قَالُواْ﴾:

الإشارةُ بأنَّهم جمعُوا إلى قُبحِ الفاحشةِ، قبحَ القولِ

عبَّرَ بالفعلِ الماضِي ﴿قَالُواْ﴾ الّذي يدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الجوابِ منهم عندما يُسألون عن علَّةِ فعْلِ الفاحشةِ، يُجيبون بجُرأةٍ ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ فهم بذلك يُعلِّلونَ ارتكابَ فواحشِهم، وفيه إشارةٌ بأنَّهم جمعُوا مع قُبحِ فعْلِ الفاحشةِ قُبْحَ القولِ.

(1) الطّيّبي، فتوح الغيب: 6/366.

الإيجازُ بالحذْفِ في أسلُوبِ الشَّرطِ:

أهلُ الفواحِشِ يَحتجُّون لأفعَالِهم

أشعرَ جوابُ الشَّرطِ بتقديرِ محذوفٍ يُرشدُ إليه السِّياقُ، ويتطلَّبُه المقامُ، تقديرُهُ: إذا فعلُوا فاحشةً ونهاهم عنها ناهٍ؛ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، واللهُ أمرنا بها؛ لأنَّ قولَهم مشعرٌ بأنَّهم في مقامِ الاحتجاجِ لفعلِهم الفاحشةَ، ففي العبارةِ إيجازٌ في التَّعبيرِ، ودقَّةٌ في الأداءِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿وَجَدۡنَا﴾:

الإشعارُ بأنَّهم قد حَصلُوا على مَغنمٍ عظيمٍ بوُجْدانِهم آباءَهم يَفعلونَ الفاحِشةَ

يحتملُ الفعلُ ﴿وَجَدۡنَا﴾ أنْ يكونَ بمعنى لَقِينا، وأن يكون بمعنى علِمْنا[2]، وبيانُ مناسبةِ التَّعبيرِ به، أنَّه لمّا كان الفعلُ (وجد) يُستعملُ في تحصُّلِ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ أو العثورِ عليه لحصولِ مَغنمٍ؛[3] دلَّ على أنَّهم كانوا راغبين في فعْلِ الفاحشةِ مع وجدانِ آبائِهم على هذه الصِّفةِ، أي: كأنَّ آباءَهم كانوا يُكثرون من فعْلِ الفواحشِ حتَّى اتَّصفوا بهذه الصِّفةِ، فوجدُوا آباءَهم عليها، وكأنَّهم قد حصلُوا على مغنمٍ عظيمٍ تقبيحًا لأمرِهم وتوبيخًا لفعْلِهم، وإنْ كانَ الفعلُ (وجد) بمعنى علِمَ، فيكونُ الكلامُ على معنى اعتقادِهم اليقينيِّ بصحَّةِ فعْلِ آبائِهم.

دَلالةُ جُملةِ ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾:

اتّخاذُ الأبناءِ آباءَهم قُدوةً لهم في هذا المَسْلَكِ المذمُومِ

دلَّت هذه الجملةُ على تقليدِهم الشَّديدِ لآبائِهم ممّا جعلَهم يُلغون عقولَهم، ولا ينظرون نظرةَ تأمُّلٍ في إغواءِ الشَّيطانِ في الاستهزاءِ بهم ودعوتِهم لكلِّ قبيحٍ. إنَّهم نَصَّبوا آباءَهم قُدوةً لهم في هذا المسلكِ المذمومِ، وفيه إشارةٌ - أيضًا - إلى اعتزازِهم بآبائِهم، ولو كانوا على الباطلِ.

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/365.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/295.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجد).

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ (عَلَى)، في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَآ﴾:

توبيخُ آبائِهم من تمكُّنِهم من فعْلِ الفواحِشِ

لَمّا كان الجارُّ والمجرور حالًا من ﴿ءَابَآءَنَا﴾، دلَّ على أنَّهم وجدوا آباءَهم، وهم في حالةِ تمكُّنٍ من فعْلِ الفاحشةِ وإحاطةٍ بها، فيكونُ توبيخًا لهم ولآبائِهم.

وفيه إشارةٌ إلى عُكوفِ الآباء على ارتكابِ تلك الفواحشِ، حتى أصبحتْ منَ العاداتِ المألوفةِ في سلوكيَّاتِهم.

الإيجازُ بالحذْفِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَآ﴾ و﴿بِهَاۗ﴾:

اختِصارُ الكلامِ لظُهورِ معناه، مِن بلاغةِ السِّياقِ

أصلُ نظْمِ الكلامِ: (وجدنا على فعْلِها آباءَنا واللّٰه أمرنا بفعْلِها)، فحذفَ المرادَ بالنَّظم، واكتفَى بالضَّمائرِ؛ للإيجاز بما دلَّ عليه قولُه ﴿فَعَلُواْ﴾، ولو جاءَ على ما هو أصلُ نظمِ الكلامِ؛ لكانَ إكثارًا وتطويلًا[1].

نُكتةُ تقديمِ قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَآ﴾ على ﴿ءَابَآءَنَا﴾:

اهتِمامُهم وعِنايتُهم بفعْلِ الفاحشةِ الّتي كان آباؤُهم يَفعلونها

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعول به اهتمامَهم وعنايتَهم بفعْلِ الفاحشةِ الّتي كان يفعلُها آباؤُهم، وعلى أنَّها في موضعِ المفعول الثّاني للفعل (وجد)؛ إذا كان بمعنى (عَلِمَ)؛ تكونُ تقدّمت على المفعول الأوّلِ للاهتمام والتَّخصيصِ الإضافيِّ، بمعنى: ما علمْنا آباءَنا على فعلٍ منَ الأفعال سوى فعْلِ الفاحشةِ، ليكونَ على سبيل المبالغةِ في الذَّمِّ والتَّوبيخِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ءَابَآءَنَا﴾ دونَ قومِنا:

شِدَّةُ تَمسُّكِهم بنَهْجِهم الرّديء

دلَّ التَّعبيرُ بآبائِنا على قوَّةِ الرَّابطةِ الّتي تجمعُهم مع مُقلِّدِيهم، وأنَّ الصِّلةَ بينهم قويَّةٌ، ممَّا أدَّى إلى شدَّة تمسُّكِهم بنهْجِهم في ارتكابِ الأفعالِ وإن كانت قبيحةً.

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 1/366.

مُناسبةُ العطْفِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾:

جاءَ جوابُ الشَّرط معطوفًا؛ ليدلَّ على التَّشريك بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، بمعنى: قالوا المقُولَتين، في مقام تسويغِ فعْلِهمُ الفاحشةَ والاحتجاجِ لها، فجمعُوا بين تقليدهم لآبائِهم، ولو كان فُحشًا، ولو كان آباؤُهم لا يعقلون شيئًا، ولا يهتدون وبين الافتراءِ على اللّه تعالى.

أَقبحُ القبائحِ، الافْتراءُ على الله

مُناسبةُ مَجيءِ الجُملةِ الاسميَّةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾:

لمّا أرادوا تقريرَ كذبِهم وافترائِهم لتسويغِ فعلِهم الفواحشَ؛ جاء الكلامُ بطريقِ الجملةِ الاسميَّةِ، كما أفادَ الكلامُ تقويةَ الحُكمِ بمجيءِ الخبر جملةً فعليَّةً، وكأنَّهم كانوا مُتيقِّنين بأنَّ اللّه أمرَهم بها كذبًا وافتراءً على اللّه تعالى، فجمعُوا بينَ الفعْلِ القبيحِ وأشدِّ أنواعِ قُبحِ القولِ.

الجمْعُ بينَ قُبحِ الفعْلِ، وأشدِّ أنواعِ قُبحِ القَولِ

الفرقُ بين ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ﴾، و﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾، وهما من مَقُولِ القولِ:

النَّاظرُ في الجُملتين يجدُ أنَّ الجملةَ الأولى جاءت ماضويَّةً؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الوقوعِ المناسبِ لارتكاب آبائِهم للفواحش.

أمَّا الجُملةُ الثَّانيةُ؛ فجاءت اسميَّةً دالَّةً على الثُّبوت والدَّوام من أجل أن يُظهروا أنفسَهم في صورة الصَّادقين الّذينَ لم يكذبُوا، ولم يتأوَّلُوا على اللّه.

رضَا المشركين بفِعْلِ آبائِهم واحتِجاجُهم به وافتِراؤُهم على الله

سِرُّ تقديمِ اعتذارِ المشركين بفعْلِ آبائِهم:

قدَّموا اعتذارَهم بفعْلِ آبائِهم قبل زعمهم الكاذب، ويظهر ذلك في التّعبير القرآني: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾؛ لأنَّ اعتذارَهم بفعْلِ آبائِهم هو المُعَوَّلُ عليه عندهم، وللإشارة في الدَّفاع عن آبائهم بأنَّهم كانوا يفعلون ذلك بأمرِ اللّه، بناءً على أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿أَمَرَنَا﴾ لهم ولآبائهم، وكأنَّهم بذلك يُدخلون آباءَهم في مقام الاعتذارِ عنهم، وأنَّ الأمرَ لهم جميعًا.

إدْخالُ آبائِهم في مقامِ الاعتذارِ عنهم، وأنَّ الأمرَ لهم جميعًا

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ، في جملة ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾:

مُحاولةُ شَرْعَنةِ ارتكابِهم الفواحشَ

عبَّرَ المُشركون بلفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾؛ لمحاولةِ شرعَنةِ ارتكابِهم لتلك الفواحشِ.

دَلالةُ إيثارِ صِيغةِ ﴿أَمَرَنَا﴾ دونَ غيرِها:

الإيماءُ إلى أنَّ ارتكابَهم الفواحشَ نتيجةٌ لأوامرِ الله

عبَّروا عن موقفِهم بصِيغةِ الأمرِ ﴿أَمَرَنَا﴾؛ ليُبيِّنوا أنَّ ارتكابَهم لهذهِ الفواحشِ جاء نتيجةً لالتزامِهم بأوامرِ اللّه، وأنَّهم ينبغِي لهمُ الالتزامُ بهذه الأوامرِ، وهذا مسلكٌ خبيثٌ منَ المشركين للإضلالِ.

نُكتةُ تصْديرِ الكلامِ، بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ﴾:

تنوُّعُ المقاصِدِ البلاغيَّةِ في التَّعبيرِ بلفظِ (قُلْ) في القُرآنِ الكريمِ

تصديرُ الكلامِ بـ﴿قُلۡ﴾ مُشعرٌ بالاهتمامِ بالمقولِ والعنايةِ به، وكونِه رسالةً خاصَّةً تجبُ المواجهةُ بها، وتُؤدَّى فورَ تلقِّيها منَ اللّه ﷺ، كما أنَّه مُشعرٌ بتشوُّفِ المخاطَبين إلى سماعِ المقُولِ، ولا يقعُ الأمرُ بـ(قل) إلَّا فيما كان صريحًا منَ الكلامِ لا يحتملُ التَّأويلَ، كما أنَّه لمّا كان التَّبليغُ بـ﴿قُلۡ﴾ على معنى تبليغِ اللّهِ تعالى لرسولِه بهذا الكلامِ ليقولَه لهم، كانَ بمنزلةِ تكرارِ العبارةِ مرَّتين، ليُشعِرَ بتأكيدِ المقولِ وتقريرِه اهتمامًا به، وأيضًا في الأمرِ بـ﴿قُلۡ﴾ إيذانٌ باستعلاءِ اللّهِ تعالى المناسبِ للمقامِ، وتشريفُ لسيّدِنا رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ وإعلامٌ بأنَّه هو المبلِّغُ عنِ اللّه ربِّ العالمين.

بَلاغةُ حذفِ متعلَّقِ فعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

الأمرُ بالتَّبليغِ ليس مُختصًّا بمَن يكونُ حاضرًا وقتَ التَّنزيلِ

الأصلُ في استعمالِ فعلِ الأمرِ (قُلۡ) أنْ يكونَ موصولًا بمتعلَّقِه، أي: (قُلۡ لَهمۡ)، فحُذِفَ المتعلَّقُ هنا، وفي أغلبِ المواضعِ الّتي ورد فيها في القرآنِ الكريمِ[1]؛ لإفادةِ العُمومِ بمعنى: أنَّ الأمرَ بالتَّبليغِ ليس مختصًّا بمَن سألَ أو بمَن يكونُ حاضرًا وقتَ تنزيلِ الخطابِ.

---

(1) إذ ورد في بعضها بيانُ المتعلّقِ منَ الأمرِ، نحو قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النّساء: 63]، وقولِه: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ [الإسراء: 28].

دَلالةُ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾:

تضمَّنتِ الجملةُ ثلاث تأكيدات، فأفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمُون الجُملة، كما أنَّ مَجيء الجملةِ اسميَّةً تقريرٌ للتَّأكيد، ولمّا جاء الخبرُ فعلًا ﴿يَأۡمُرُ﴾ متحمِّلًا للضَّمير العائدِ إلى الاسم الجليلِ أفاد تقوية الحُكم وتأكيدَه؛ ليكونَ على نيَّة تكريرِ الإسنادِ، والغرضُ من تتابُع التَّأكيد: العنايةُ بمضمونِ الجملةِ لِخُصوصيَّة الأمرِ باللّه تعالى، ولتأكيدِ تنزيهِ اللّهِ - ﷻ - على ما يزعمُه هؤلاء المشركون ويدَّعونه، تعالى اللّه عما يقولون عُلوًّا كبيرًا.

العِنايةُ بمضمُون الجُملةِ لِخُصوصيَّةِ الأمْرِ بالله تعالى

إفادةُ الحصرِ، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾:

لمّا جاء المسندُ إليه المعرفةُ متقدِّمًا على الخبر الفعليِّ المنفيِّ أفادَ الحصرَ، والمعنى: اللّهُ وحدَه الّذي لا يأمرُ بالفحشاءِ، وأمَّا الشَّيطانُ؛ فيأمرُ بها، كما دلَّ عليه السِّياقُ، وقولُه تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: 268]، والقرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضًا[1].

اللهُ وحده الّذي لا يأمرُ بالفحشاءِ، وأمَّا الشَّيطانُ؛ فيأمرُ بها

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ وإظهارِه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ عبَّرَ بالاسم الظَّاهرِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في مقام الإضمارِ، بأن يقولَ: (إنه لا يأمرُ بالفحشاءِ)؛ لزجْرِهم وتوبيخِهم على تقوُّلِهم على اللّه صاحب العظَمةِ والجبروتِ.

وأيضًا فإنَّ التَّعبيرَ بالاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ أفادَ أنَّه سبحانه لكونه إلهًا لا يأمرُ بالفحشاءِ، فليسَ الأمرُ بالفحشاءِ من شأنِه، ولا يليقُ به سبحانه هذا الأمرُ، تعالى اللّه عن ذلكَ علوًّا كبيرًا، فلا يأمرُ سبحانه إلَّا بالمعروف.

ليس الأمرُ بالفحشاءِ من شأنِ الألوهيَّةِ، ولا يليقُ هذا الأمرُ به تعالى

سَببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ المَنْفِيِّ بـ ﴿لَا﴾:

في قوله: ﴿لَا يَأۡمُرُ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿لَا﴾ دون غيرِها من أدوات النّفيِ؛ فلم يقلْ: (ما أمرَ بالفحشاء)، أو: (لم يأمرْ بالفحشاء)،

نفيُ الأمرِ بالفحشاءِ سُنَّةٌ مُطَّرِدةٌ للهِ في جميعِ الأوقاتِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/368، ورشيد رضا، تفسير المنار: 6/333.

بل قال نافيًا الأمرَ بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ بالأداة (لا)؛ ليدلَّ على أنَّ اللّه تعالى لا يمكنُ أنْ يأمرَ بالفحشاء فيما مضى وفي الحالِ والاستقبال، وللإشعارِ بأنَّ نفيَ الأمرِ بالفحشاء سنَّةٌ مطَّردةٌ للّه في جميع الأوقات؛ لأنَّه نفيٌ لشأنٍ من شؤونِ اللّه تعالى[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ، فقال: ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾:

نفيُ الاسْمِ أبلغُ من نفْيِ الوصْفِ في السِّياقِ

لمّا افترَوْا على اللّهِ تعالى بأنَّه سبحانه قد أمرَهم بالفاحشة؛ نفَى اللّهُ تعالى الأمرَ بذكرِ لفظِ ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾، وهو اسمٌ لِلْوصف: (الفاحشة)[2]، حيثُ ذكرَ الفحشاءَ تصريحًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ اللّه لا يأمرُ بها)، ونفيُ الاسم أبلغُ من نفيِ الوصف وأعمُّ وأشْمَلُ؛ ولأنَّ (أل) في ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ لإرادة الجنس، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ اللّه لا يأمرُ بشيءٍ من جنْسِ الفواحشِ كلِّها.

بَلاغةُ الاحتِجاجِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

سُنَّةُ اللهِ الأمرُ بمحاسنِ الأفعالِ، والحثُّ على مكارمِ الخِصالِ

لمّا كانوا قدِ اعتذرُوا واحتجُّوا بأمرين: تقليدِ الآباءِ والافتراءِ على اللّهِ ﷻ، أعرضَ عنِ الأوَّلِ لظهورِ فسَادِه وبُطلانِه، وردَّ الثاني الّذي هو افتراءٌ على الملِكِ الأعلى بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾[3]، ويمكنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ ردًّا على الأمرَيْن معًا، فإنَّه لمّا كان مقتضى ألوهيَّتِه سبحانه أنَّه لا يأمرُ بالفحشاءِ، وكانَ شأنُه كذلك، وكانت سُنَّتُه سبحانه قد جرتْ على الأمرِ بمحاسنِ الأفعال والحثِّ على مكارمِ الخصالِ؛ دلَّ على أنَّ فعلَ آبائِهم لا حجَّةَ فيه؛ لمخالفته ما جرتْ به سنَّةُ اللّه في خلقِه.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2812.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/34، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/384.

دَلالةُ حذفِ المفعولِ، في قولِه تعالى: ﴿لَا يَأۡمُرُ﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿لَا يَأۡمُرُ﴾[1]، فيحتملُ أنْ يكونَ الحذفُ لإفادةِ العُموم، أي: لا يأمرُ أحدًا بالفحشاءِ، ويحتملُ أنْ يكونَ على معنى: أنَّ شأنَه وعادتَه سبحانه أنَّه لا يأمرُ بالفحشاء، فعلى التَّقديرين يكونُ المعنى: إنَّ اللّٰه لا يأمرُكم بالفحشاءِ، لدخولِ المخاطَبينَ وقتَ التَّنزيلِ في الحُكم دخولًا أوَّليًّا لمناسبةِ السِّياق.

إفادةُ العُمومِ، وشأنُ اللهِ تعالى، عَدمُ الأمرِ بالقَبائِحِ

بَلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ، في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أفادَ إنكارَ الواقعِ واستقباحَهُ على وجهِ المبالغةِ، فضلًا عمَّا فيه من تهديدٍ شديدٍ لتعمُّدِهم الكذبَ على اللّٰه، وفيه زَجْرٌ وتوبيخٌ لكلِّ من تُسوِّلُ له نفسُه التَّقوُّلَ على اللّٰه بغير علمٍ[2].

الاستفهامُ الإنكاريُّ يُفيدُ معنَى النَّهْيِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ؛ للإشعار بتجدُّدِ هذا القولِ المُفترَى واستمرارِ صُدورِه منهم؛ فقد وقعَ منهم مرَّاتٍ ومرَّاتٍ.

دَلالةُ التَّضمينِ، في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

ضُمِّنَ ﴿تَقُولُونَ﴾: معنَى (تكذِبون) أو معنى (تتقوَّلونَ)، فلذلك عُدِّيَ بـ ﴿عَلَى﴾، وكان حقُّه أن يعدَّى بـ (عن) لو كان قولًا صحيحَ النِّسبةِ[3]، فأفاد التَّضمينُ تكثيرَ المعنى، أي: أتقولونَ عنِ اللّٰهِ وتتقوّلونَ عليهِ ما لا تعلمونَ، والمعنى: أتقولونَ عنِ اللّٰهِ مُتقوّلين عليه؟

مَجيءُ اللَّفظِ على التَّضمينِ، لتَكْثيرِ المعنَى، وتَجليّةِ المرادِ في السِّياقِ

مُناسبةُ تقديمِ قولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المفعولِ به:

قُدِّمَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المفعولِ به ﴿مَا﴾؛ لِتعظيمِ الكذبِ والافتراءِ على اللّٰه سبحانه.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/295.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/223، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/369.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/85.

مُناسبةُ وضْعِ المُظْهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ:

إحضارُ الاسْمِ الجَليلِ للتَّخويفِ والتَّرْهيبِ

لمّا تقدَّمَ ذكرُ الاسم الجليلِ كان الظَّاهرُ أنْ يأتيَ بصيغةِ المضمَر، كأن يقول: (أَتَقُولُونَ عَلَيه)، ولكنْ جاءَ قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، ونُكتتُه البلاغيَّةُ إحضارُ الاسم الجليلِ في ذهنِ المخاطبين؛ ليتميَّزَ به عمَّن عداه؛ للإيذانِ بتعظيمِ خطرِ الافتراء على اللّه سبحانه، ففيه معنى التَّخويفِ والتَّرهيب.

سرّ مَجيءِ جُملةِ الاستفهام مع سابقتِها مَقُول قوْلٍ واحدٍ:

هذه العِبارةُ من تمامِ الحُجَّةِ، ومن بليغِ الرَّدِّ على مَقُولتِهم القبيحةِ

لم يُعطفْ قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ على سابقتِها، معَ أنَّها من تمامِ القولِ المأمورِ بتبليغِه، وكذلك لم يُعَدْ فعلُ القول تنبيهًا للمخاطَبين على عِظَم الافتراء على اللّه، وإشعارًا بأنَّ هذهِ الجملةَ مع الّتي سبقتها مقولٌ واحدٌ؛ ليكونَ من تمامِ الحُجَّة والردِّ على مقولتِهم القبيحةِ.

بَلاغةُ الالتفاتِ، في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

الزَّجرُ والتّأنيبُ للمُشركين

في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ التفاتٌ منَ الغيبةِ في قولِه تعالى: ﴿فَعَلُواْ﴾ إلى الخطابِ في ﴿أَتَقُولُونَ﴾ زجرًا وتأنيبًا لهم.

دَلالةُ ﴿مَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

عبَّر بـ﴿مَا﴾ للإشعارِ بأنَّ المفردَ في قُوَّة الجملةِ؛ لأنَّ ما لا يعلمون ممَّا يتقوَّلونه على اللّه تعالى كلامٌ كثيرٌ من قولِهم[1].

مُناسبةُ حذْفِ مفعولِ الفعلِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

مَنْ لا يعلمُ ألوهيَّةَ اللهِ تعالى ووَحدانيَّتَهُ لا يَعلمُ شيئًا

إمَّا أنْ يكونَ الحذفُ لإفادة العموم، أي: أتقولونَ على اللّه ما لا تعلمون أيَّ أمرٍ عنِ اللّه، أو يكونَ قد جعلَ وصفَهم اللَّازمَ لهم هو كونُهم لا يعلمون، فإنَّ مَنْ لا يعلمُ ألوهيَّةَ اللّهِ تعالى ووحدانيَّته لايعلمُ شيئًا.

(1) السَّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/295.

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾ [الأعراف: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين تَنْزيهِ الله عن الأمرِ بالفاحشةِ، وبيانِ أمرِه بجماعِ الخيرِ كلِّه

بعد أن أبطلَ اللّهُ زعمَهم في قولِهم السَّابقِ في فعلِ الفواحشِ بأنَّ اللّه أمرَهم بهَا؛ فردَّ عليهم زعمَهم بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾، جاءت هذه الآيةُ؛ لتُبيِّنَ أنَّ اللّه يأمرُهم بجِماعِ الخيرِ كلِّه في الدِّين بقوله: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

وممَّا يُذكرُ في المناسبةِ - أيضًا - بعد أنْ أُنكِرَ عليهم أنْ يكونوا على علم في هذا الطَّريقِ النَّقليِّ، وهو من بابِ السَّلْبِ والنَّفي، توجَّهتِ الأنفسُ إلى معرفةِ ما يأمرُ به تعالى من محاسنِ الأعمالِ ومكارمِ الأخلاقِ والخصالِ، فبيَّنَهُ بطريقِ الاستئنافِ قائلًا لرسولِه: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[1].

وأيضًا لمّا كانَ فعلُهم وقولُهم يخالفُ المعقولَ والمشروعَ في الكُتبِ السَّماويَّةِ كلِّها أعقبَه بالأمرِ بما قامَ في العقولِ أنَّه مستقيمٌ حسنٌ في المعقولِ والمنقولِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: القسطُ هو النَّصيبُ بالعدلِ كالنَّصفِ والنَّصَفَة، والقِسْطُ: هو أن يأخذَ قسطَ غيره، وذلك جورٌ، فهو من الأضداد، والإقْسَاطُ: أن يعطيَ قسطَ غيره، وذلك إنصافٌ، ولذلك قيل: قَسَطَ الرَّجلُ؛ إذا جار، وأَقْسَطَ؛ إذا عدلَ، فالقاسطون هم الجائرون، والمُقْسِطُون: العَادِلُونَ، وذهب بعضُ اللُّغويِّين إلى أنَّ القِسطَ هو

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/333.

العدلُ، والقَسطَ هو الجَور. و﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ في الآية بمعنى: بالعدلِ، وهو الوسطُ من كلِّ أمرٍ، المتجافي عن طرفَي الإفراط والتَّفريطِ[1].

2) ﴿وَأَقِيمُواْ﴾: يدورُ معنى (قَوَمَ) على انتصابِ الشَّيءِ إلى أعلى ثابتًا، كقامةِ الإنسانِ، وقيامِه، وقامَ على الأمر: دامَ وثبتَ، فأداءُ الصَّلاةِ بشروطِها في أوقاتِها مع الجماعةِ والمداومةِ نصبٌ وإقامةٌ لها، وإقامةُ الشَّيءِ: مراعاتُه وحفظُه والمداومةُ عليه وإعطاؤُه حقَّه وتوفيتُه شروطَه على الوجهِ الّذي ينبغي أنْ يكونَ عليه[2]. ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾: توجَّهوا إلى عبادة اللّه مستقيمين ثابتِين غيرَ عادلين إلى غيرِها[3].

3) ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾: أصلُ الوجهِ: العُضوُ المعروفُ منَ الإنسانِ، ولمّا كانَ الوجهُ أوّلَ ما يستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهرِ البدنِ استُعمِلَ في مستقبلِ كلِّ شيءٍ، وفي أشرفِه ومبدئِه، وقد يُطلقُ على توجُّهِ القلبِ وصحَّةِ القصْدِ. والمعنى: أخلصوا للّهِ العبادةَ[4].

4) ﴿مُخۡلِصِينَ﴾: الخُلوصُ: هو تنقيةُ الشَّيءِ وتهذيبُه، وخلاصةُ السَّمن: ما خلَص منْه منَ الزُّبدِ الّذي أُذيبَ، والإخلاصُ تمحيصُ الشَّيءِ من مخالطةِ غيرِه، وحقيقةُ الإخلاص للّه تعالى هو التَّبرّي عن كلِّ ما دون اللّهِ تعالى، والمُخْلَصُ: المختارُ، ليفيدَ معنى انتقائِه واتِّخاذِه من بين مَن حولَهُ، والمخلِصُ للّه: المتبرِّي عن كلِّ ما دونَ اللّهِ تعالى بتنقية قلبِه وتصفيتِه[5].

5) ﴿ٱلدِّينَۚ﴾: الدِّينُ يقالُ للطّاعة والانقيادِ للشَّريعة؛ لما فيها من معنى اللُّزوم بقوَّةٍ، من قولهم: دِنْتُ لفلانٍ، أي: أطعتُه، ويقال للملَّة، بمعنى لزومِها في القلب وتمكُّنِها فيه، ويأتي الدِّينُ بمعنى الحسابِ؛ لتعلُّقِ الأعمالِ بأصحابِها في ذمَّتِهم كالدَّيْن يُسألون عنها، وفيها - أيضًا - قَهْرُ الخضوعِ للمحاسبةِ. ومعنى ﴿ٱلدِّينَ﴾: الطاعةَ والعبادةَ[6].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي، المصباح المنير: (قسط)، وابن جرير، جامع البيان: 12/379، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/10.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وجه)، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/334.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلص).
(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دين).

المَعنى الإِجْماليُّ:

قلْ - أيُّها الرَّسولُ - لهؤلاء المشركينَ: أمرَ ربِّي بالعدْلِ، وأمرَكم بأنْ تتوجَّهوا إلى اللهِ تعالى وحدَه عندَ كلِّ مكانٍ متَّخَذٍ لعبادةِ اللهِ تعبدونَه فيه وتؤدُّوا حقَّه ولا تنصرفُوا عنه إلى سواهُ، وأنْ تدْعُوه مخلصينَ له الطَّاعةَ والعبادةَ، وأنْ تؤمنوا بالبعثِ بعدَ الموتِ، وكما أنَّ اللهَ أوجدَكم ابتداءً منَ العدمِ؛ فإنَّه قادرٌ على إعادةِ الحياةِ إليكم مرَّةً أخرى بعدَ الموتِ(1).

أمْرُ اللهِ بالعَدلِ في العِـبـاداتِ وفي المُعاملاتِ، بتَوجُّهٍ وإخلاصٍ

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى العدْلِ في الأقوالِ وفي الأحكامِ، ووجوبِ إخلاصِ العبادةِ للهِ ﷻ صلاةً كانت أو دعاءً.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ مَجيءِ جُملةِ ﴿قُلۡ﴾ بطريقِ الفصْلِ:

فُصِلَتْ هذه الجملةُ عنِ الّتي قبلها، ولم يُعطفِ القولُ على القول، ولا المَقُولُ على المَقُولِ؛ لأنَّ في إعادةِ فعْلِ القول وفي ترك عطفِه على نظيره لفتًا للأذهانِ إليه، ليعلمُوا ما شأنُه أن يأمرَ اللهُ به ممَّا لهُ مزيدُ عنايةٍ واهتمام، ولمضادَّته لمدّعاهُمُ المنفيِّ في جملةِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: 28](2). وفيهِ إشارةٌ إلى توجيههم إلى العقيدةِ السَّليمةِ وتركِ ما كانوا عليه منَ الضَّلالِ.

من براعةِ التَّعبيرِ الـقـرآنيِّ، لفتُ الأذهانِ بطريقِ الفصْلِ

نُكتةُ تَصديرِ الكلامِ بقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ﴾:

تقدَّمَ بيانُ نُكتةِ التَّصدير بلفظِ ﴿قُلۡ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، وفي إعادة اللَّفظِ إشعارٌ ببيانِ معنًى جديدٍ ينبغِي الاهتمامُ به كذلك.

الإشـعـارُ ببيانِ مـعـنًـى جـديـدٍ ينبغِي الاهتمامُ به

وفيه إشارةٌ بأنَّ ما سيقولُه الرّسولُ ﷺ إنَّما هو بطريقِ الوحْيِ، وعليهم أن يتَّبعوه فيما يقولُ، ويتركوا ما زعمُوه من قولِهم: اللهُ أمرنا بارتكابِ الفواحشِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/387، ونخبة من العلماء، التّفسير الميّسر، ص: 153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/86.

نُكتةُ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضِي، في قولِه تعالى: ﴿أَمَرَ﴾:

مَنْ يأمرُ بالقِسطِ لا يأمرُ بالفحشاءِ

في التَّعبيرِ بصيغةِ الفعل الماضي ﴿أَمَرَ﴾ تكذيبٌ لافتراءِ المشركين فيما ادَّعوه، فلمَّا قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾؛ ناسبَه أنْ يأتيَ بصيغةِ الماضي، فإذا كانَ يأمرُ بالقسطِ؛ فكيف يأمرُ بالفحشاء؟ ففي التَّعبيرِ به معنى إثباتِ الأمرِ بالقسطِ وتأكيدِ نفْيِ أمرِه بالفحشاءِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ المجرّدِ، بقولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ المأمورَ به، في طاقةِ المُكلَّفينَ جميعًا من بني آدمَ

جاء التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾ دون تخصيصِه ﷺ كأن يقول: (أمرني ربي)، أو مخاطبتِهم بقولهم: (أمركم ربُّكم)؛ للإشارةِ إلى أنَّ المأمورَ به في طاقة المُكلَّفينَ جميعًا من بني آدمَ، وهذا دليلٌ على أنَّ التشريعاتِ الإلهيَّةَ في قُدرةِ المُكَلّفين.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيّةِ دونَ الألوهيَّةِ، في الآيةِ الكريمةِ:

التَّعبيرُ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ، هو الأنسبُ للرَّدِّ على المُشركين

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي﴾، عبَّرَ بوصْفِ الرّبوبيةِ هنا، ولم يقل: (أمرَ اللّه)؛ إذِ التَّعبيرُ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ هو الأنسبُ للرَّدِّ على المُشركين، لما فيه من تذكيرِهم بربوبيَّته سبحانه الّتي من شأنِها الرَّحمةُ بخلقِه؛ فلا يأمرُهم إلَّا بما فيه صلاحُهم في الدُّنيا والآخرة.

دَلالةُ حذْفِ مفعولِ ﴿أَمَرَ﴾:

العُمومُ والإيجازُ

أفادَ حذفُ مفعولِ ﴿أَمَرَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ العمومَ، والمعنى: أمرَ كلَّ النَّاسِ، فيدخلُ فيه الّذينَ افترَوْا على اللّهِ تعالى دخولًا أوَّليًّا لمناسبةِ السِّياقِ، ونكتةُ حذفِ المفعولِ الإيجازُ.

مُناسبةُ الإضافةِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّي﴾:

القِسْطُ الّذي أمرَ به اللهُ تعالى، هو ما عليه رسولُه الأكرمُ ﷺ

لم يقلْ: (أمرَ اللّهُ بالقسط) ولا (أمر ربُّنا) بصيغةِ الجمعِ، بل جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الإضافةِ الدَّالَّةِ على التَّخصيصِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما عليه رسولُ اللّهِ ﷺ هو القسطُ الّذي أمرَ به اللّهُ تعالى، وللإشعارِ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/330، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2813.

ببُعدِ الّذينَ يفعلون الفاحشةَ عن مُدبِّر أمورِهم ومالكِهم بما فعلوهُ، وافترَوْا به على اللهِ تعالى، وفيه تشريفٌ للنبيِّ ﷺ وتوبيخٌ للمُشركين بسلْبِ وصْفِ الرُّبوبيَّةِ عنهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (القِسْطِ):

الأمرُ بالعَدْلِ والاعتدالِ في الأمورِ كُلِّها، هو مأمورُ الله تعالى

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ القسطِ؛ لأنَّه بمعنى العدْلِ، وهو منَ المعاني الكلِّيَّةِ الّتي تشملُ كلَّ ما هو وسطٌ في الاعتقادِ والأخلاقِ والعملِ[1]، ودلَّ على أنَّ فعلَهم ليس منَ القسطِ، وأنَّهم قد أفرطُوا في المنكرِ في الاعتقادِ والأخلاقِ والعملِ.

وكذلك هذه الكلمةُ تدورُ بِنيتُها اللّغويَّةُ على معنيَيِ العدلِ والجَورِ؛ فإذا قلتَ: أقسطَ الرّجلُ في حُكمه؛ فهو مُقسطٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42] وتقول: قَسطَ الرّجلُ، بمعنى: جارَ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجن: 15]، وعلى ذلك اختيرَ هذا اللّفظُ؛ ليخدمَ قضيَّتين: الأولى: وصف سلوكِ المشركين فيما فعلوا مِن ارتكابِ الفواحشِ وتقوُّلِهم على الله بأنَّه ظُلمٌ وجَور.

والقضيَّةُ الثّانيةُ: أنَّ ما أمرَ اللهُ بهِ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ هو العدلُ الّذي يعملُ على صيانة المُجتمع من غوائلِ الشِّرك وأوهامِ الضَّلال، يؤكِّدُ ذلك أنَّ (أل) في ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ للجنس، أي: العدلُ بمعناه: الأعمِّ؛ أي: الفعلُ الّذي هو وسطٌ بين الإفراط والتَّفريطِ في الأشياءِ، وهو الفضيلةُ من كلِّ فعْلٍ. وأيضًا؛ لأنَّ القسطَ صفةٌ للفعْلِ في ذاته، بأن يكونَ مُلائمًا للصَّلاحِ عاجلًا وآجلًا.

الأمرُ بالتّوجُّهِ لله، والاجتهادِ في تكميلِ العباداتِ

مناسبةُ العطْفِ بفعْلِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ على

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/370.

نيَّةِ تكرير الفعلِ (قُلْ)، والتَّقديرُ: قل أمرَ ربِّي بالقسطِ، وقل: أقيمُوا وجوهَكم عندَ كلِّ مسجدٍ وادْعُوه مخلصينَ له الدِّينَ[1].

سِرُّ عدمِ تَكرارِ لفْظِ (قُلْ)، مع قولِهِ تعالى ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ لمزيد الاهتمام

لم يكرِّرْ لفظَ (قُلْ)؛ للإشعارِ بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ هو منَ القِسطِ، فيكونُ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، لمزيدِ اهتمامٍ بما جاء بصيغة الأمرِ.

جُملة ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ بين الخبرِ والإنشاءِ:

جَوازُ عطْفِ الجُملةِ الخبريَّةِ، على الجملةِ الإنشائيَّةِ

تعددَّت آراءُ العلماءِ في هذه المسألة بين مُجيزٍ ومانعٍ: فالّذين قالوا بالمنعِ بناءً على أنَّ جملةَ ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنًى، وجملةَ ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى؛ لذلك أوَّلُوا بعدَّةِ تأويلاتٍ منها: تقديرُ (قُلْ): أي: (وقل أقيموا وجوهكم).

وذهب عبدُ القاهرِ الجُرجانيُّ وبعضُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ تضمَّن معنى (أقسطوا) بقرينة ﴿أَمَرَ﴾، فعطفَ عليه قولَه: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ حملًا على المعنى، وتقديرُ الكلامِ: (قل يقول ربِّي: أقسطوا وأقيموا)[2]، أو يقال: إنَّ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا يَنحَلُّ إِلَيْه المَصدَرُ الَّذِي هُوَ القِسطُ، أَي: بِأَنْ أَقسِطُوا وَأَقِيمُوا[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ تقديرُ الكلامِ: أمرَ ربِّي بالقسطِ وبإقامةِ وجوهِكم عندَ كلِّ مسجدٍ، فعدلَ عنِ الفعلِ الماضي إلى فعلِ الأمرِ؛ توكيدًا لما أُجريَ عليه فعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾؛ لمكانِ العنايةِ بإقامةِ الوجوهِ عندَ كلِّ مسجدٍ والإخلاصِ في العملِ[4].

وذهبَ البعضُ إلى جوازِ عطْفِ الخبرِ على الإنشاءِ، وهذا واضحٌ عند ابنِ عاشورٍ في تفسيرِه، لمن أرادَ التفصيلَ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/226.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/37.

(4) ابن الأثير، المثل السائر: 2/12، والعلويّ، الطّراز: 2/73.

العُدول عنِ الأسلوبِ الخبريِّ إلى أسلوبِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

جذْبُ الانتباهِ، وإثـارةٌ لكوامنِ نـفـوسِ المـشـركـين، للالتفاتِ للنّافعِ

النَّاظرُ في أسلوب الآيةِ يجدُ أنَّه جاء مُغايرًا لما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وهو أسلوبٌ خبريٌّ، وكان مُقتضَى الكلامِ في غير القرآن، أن يأتيَ على نمطٍ واحدٍ، بأن يُقالَ: (أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كلِّ مسجدٍ)؛ لكنَّه جاء بأسلوبِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ جذْبًا للانتباه، وإثارةً لكوامن نفوس هؤلاء المشركين وخفاياها لما هو أنفعُ لهم، وفيه إشارةٌ - أيضًا - إلى التَّأهُّبِ والاستعداد لتلقِّي ما يُلقَى عليهم.

بَلاغةُ الاستعارةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

الإقامةُ أنْ تَضعَ الشَّيءَ فيما هُيِّئَ له، وطُلبَ إليه

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، لمّا كانَ أصلُ القيامِ في اللُّغة هوالانتصابُ المضادُّ للجلوسِ والاضطجاعِ، وإنَّما يقومُ القائمُ لقصْدِ عملٍ صعْبٍ لا يتأتَّى من قعودٍ؛ كان قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ استعارةً تبعيَّةً، فقدْ شبَّهَ توجُّهَ ذواتِ النَّاس لعبادة ربِّ العالمين، وتشمُّرَهم في الأمرِ، وجَلَدَهم فيه مع المحافظةِ والمداومةِ عليه مع الإشعارِ بِثِقَلِ الأمرِ، بجعلِ الشَّيءِ قائمًا، كما أنَّه عُبِّرَ بـ﴿وَأَقِيمُواْ﴾؛ لأنَّ الإقامة أنْ تضعَ الشَّيءَ فيما هُيِّئَ له، وطُلبَ إليه، وإنْ وجَّهته لناحيةٍ ثانيةٍ تكونُ قد ثنيتَه، وأملْتَه، وحَنَيتَه، وعَوَجتَه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

يُحملُ الضّميرُ عـلى عُـمـومِ المـشـركـين والمؤمنين

عُبِّر بالضَّمير في قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾، وإن كان المرادُ به (المشركين)؛ لأنَّهم المُتَّصفون بعدم إقامةِ وجوهِهم لله في العبادة، ومع ذلك؛ فلا مانعَ أن يكونَ المرادُ بالأمرِ المؤمنين؛ لأنَّ لهم حظَّ الدَّوامِ على إقامةِ وجوهِهم عند كلِّ مسجدٍ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/231، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 7/4107.

لفظ ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ بين المجازِ المرسلِ والاستعارةِ:

توقيرُ المساجدِ، بإعطائِها حقَّها في الاحترامِ والإجلالِ

إمَّا أنْ يكونَ المرادُ منَ الوجوه الذّوات؛ ليكونَ مجازًا مرسلًا بذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ؛ لأنَّ الوجهَ يُستعملُ في مستقبلِ كلِّ شيءٍ، وفي أشرفِه ومبدئِه، والمعنى توجَّهوا، أي: بذواتِكم إلى عبادتِه عندَ كلِّ مسجدٍ، وإمَّا أنْ يكونَ استعارةً تصريحيَّةً للمقصدِ والمنزعِ، أي: أقيموا قصدَكم وتوجُّهَكم إلى عبادتِه عند كلِّ مسجد[1]، وعلى التَّوجُّهَين، يكونُ للتَّعبير بالوجهِ دونَ غيرِه من الأعضاءِ إشعارٌ بأهمِّيَّته؛ لأنَّه يكون مَوْضِعًا للسُّجود بوضْعِ الجبهةِ على الأرض، وفي هذا إقرارٌ وخضوعٌ للّه ربِّ العالمين، وفيه توقيرُ المساجدِ وإعطاؤها حقَّها في الاحترامِ والإجلالِ، فلا يصحُّ أن يكون فيها عُرْيٌ: أو ما يكون رذيلةً في ذاته، أو ما يبعثُ على الرَّذيلة، وأن يكونَ الاحتشامُ هو الزيُّ الأكملُ[2].

وممّا يُذكرُ في سرِّ التَّجَوُّز بالاستعارة ما لهُ مِن دورٍ مهمٍّ في تأكيدِ إخلاصِ العبادةِ للّه وحده بأن تكونَ مبنيَّةً على التَّوحيدِ، وعلى عدمِ الانشغالِ بالإغراءاتِ الدُّنيويَّةِ الّتي تُخرجُ العبدَ عن توجُّهِهِ للّهِ.

دَلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾:

مِن براعةِ أُسلوبِ القرآنِ، تعدُّدُ المعنى بإيجازِ اللّفظِ

لمّا كانت صِيغةُ ﴿مَسۡجِدٖ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ اسمَ زمانٍ أو مكانٍ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ أقيمُوا وجوهكم عند وقتِ كلِّ صلاةٍ، والمعنى: أقيموا وجوهَكم في أيِّ مسجدٍ حضرتْكم الصّلاةُ عنده ولا تؤخِّروها، أو عندَ مكانِ كلِّ سجودٍ، أي: الصلاةُ كذلك؛ للإشعارِ بأنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ، وحينئذٍ تكونُ ﴿كُلِّ﴾ تفيدُ العمومَ على سبيل البدلِ، أي: الكلُّ الإفراديُّ[3]، ويحتملُ أنْ تكونَ الصّيغةُ مصدرًا مِيميًّا فيقدَّرَ الوقتُ والمكانُ بإرادة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/391، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10، والقونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/370.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2813.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/227، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10.

المعنيَيْن من صِيغةٍ واحدةٍ، وهذا من براعةِ أسلوبِ القرآن، فيكونَ من تكثيرِ المعنى بإيجازِ اللَّفظ، والمعنى: أقيمُوا وجوهَكم عِنْدَ وَقْتِ كُلِّ سُجُودٍ، فلا تؤخِّروا الصَّلاة، وَفي مَكَانِ كل سُجُودٍ، فالأرضُ كلُّها مسجدٌ؛ للإشعارِ بأنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ، وفي كلِّ الأوقات[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ هو المسجدُ الّذي تقامُ فيه الصَّلاةُ، فالمقصودُ إقامةُ الصَّلاة في المكانِ المخصوص، وله متَّجهٌ، وهو الكعبةُ، أي: أقيموا وجوهَكم عند كلِّ مكانٍ تصلُّون فيه إلى الكعبة[2]، وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ سياقَ الآية لمّا كان في مقامِ الرَّدِّ على المشركين الّذينَ ادَّعوا أنَّ ما يقومون به من فعْلِ الفاحشة وطوافِهم بالبيتِ وقتَ الحجِّ عُراةً هو بأمرِ اللّه لهم، ولمّا كان اسمُ المسجدِ منقولًا في الإسلام للمكان المعيَّن المحدودِ المتَّخَذِ للصَّلاةِ، ولم يكنْ لهم مساجدُ غيرَ شعائرِ الحجِّ، كانَ ذكرُ المساجدِ في الآية يُعيّنُ أنَّ المرادَ إقامةُ الوجوه عند التّوجُّهِ إلى اللّهِ في الحج بأنْ لا يُشركوا مع اللّهِ في ذلك غيرَه من أصنامِهم بالنِّيَّةِ، أفادَ أنَّ الأمرَ بإقامةِ الوجوه عند المساجدِ كلِّها أمرٌ بالتزامِ التَّوحيد وكمالِ الحالِ في شعائرِ الحجِّ كلِّها، فهذهِ مناسبةُ عطْفِ قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ عقبَ إنكارِ أنْ يأمرَ اللّهُ بالفحشاءِ من أحوالِهم، وإثباتِ أنَّه أمرَ بالقسطِ مما يضادُّها، وهذا الأمرُ، وإنْ كانَ المقصودُ به المشركين؛ لأنَّهم المتَّصفونَ بضدِّه، فكانَ للأمرِ بإقامة الوجوهِ عندَ كلِّ مسجدٍ حظُّ الدَّوام عليه للمؤمنين، كما كان حظُّ الإعراضِ عنه والتَّفريطِ فيه للمشركين[3].

دَلالةُ الواوِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ﴾:

الإرشـــادُ إلى المنهجِ القويم، في عبـادةِ اللّه سُبحانه

دلالةُ الواو: العطفُ؛ لأنَّها عطفتْ هذه الجملةَ على ما قبلَها ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾؛ لاتِّفاقِهما في الإنشائيةِ لفظًا ومعنًى، ولما

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/38، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.
(2) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/380.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/88.

بينَهما مِن اشتراكٍ في الهدف؛ فهما يُرشدانِ إلى المنهجِ القويمِ في عبادةِ الله سبحانه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالدُّعاءِ دونَ العبادةِ، في ﴿وَٱدۡعُوهُ﴾:

الدُّعاءُ أساسُ التّقرّبِ إلى الله، ومُخُّ العبادةِ

عبَّرَ بالدُّعاءِ عنِ العبادةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يأتي بمعنى العبادةِ، ويأتي بمعنى الدُّعاءِ الحقيقيِّ، وهو التَّضرُّعُ، والعبادة تشملُ الدّعاءَ، وعلى هذا يكونُ التّعبيرُ بالدُّعاء عنِ العبادة من بابِ المجاز المُرسَلِ من باب إطلاقِ الخاصِّ على العامّ، والغرضُ منه بيانُ أثرِ الدُّعاء في قُربِ العبدِ من ربِّه، وإظهارِ الخضوع والتّذلّل له سبحانه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:

الدّعوةُ خالصةٌ لله وحدَه

جاء التَّعبيرُ بقولِه: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ للدّعوةِ إلى العبادةِ الحَقَّةِ الّتي لا تشوبُها شوائبُ الشِّرك، وذلك لوجودِ من يعبدُ اللّه، ويشركُ معه غيرَه، كما فعلَ مُشركُو العربِ.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ دونَ الفعْلِ (وأخلصوا):

عبَّرَ باسمِ الفاعل لدلالتهِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، وهذا هو نهجُ المُسلم الحقيقيِّ في عبادتِه، وهو مَجْلوٌّ في اللّفظِ والعبارةِ.

دَلالةُ تقديمِ: ﴿لَهُ﴾ في السِّياقِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُ﴾ على المفعول ﴿ٱلدِّينَۚ﴾؛ لإفادةِ تخصيصِ الإخلاصِ للّهِ تعالى وقصرِه عليه.

دَلالةُ (أل) في لفظِ: ﴿ٱلدِّينَۚ﴾:

الإيمـاءُ إلى الإخلاصِ، في كلِّ أركانِ الدِّين

أفادت (أل) هنا العهدَ الذهنيَّ، والتَّعبيرُ بها في هذا المقام؛ لتنْبيهِهم إلى الدِّين الحقِّ الّذي جاء على لسان رسولهِ ﷺ والمرادُ الإخلاصُ في كلِّ أركانِ الدِّين.

مُناسبةُ التَّعبير بـ﴿ٱلدِّينَۚ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

عُبِّرَ بـ﴿ٱلدِّينَۚ﴾: دونَ الطَّاعةِ أوِ العبادةِ؛ لما يُشعرُ به لفظُ ﴿ٱلدِّينَۚ﴾ منَ الانقيادِ في الظَّاهرِ؛ ليكونَ مطابقًا للإخلاصِ الّذي يكونُ في الباطنِ.

دَلالةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ عمَّا قبلَها:

التَّحذيرُ من مَغَبَّةِ المخالَفةِ لأوامرِ الله

فُصلتْ هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها تعليليَّةٌ، وغرضُها التَّحذيرُ من مَغَبَّة المخالفة لأوامرِ اللّٰه الّتي سبقَ ذكرُها في الآية من إقامة الوجوهِ عند كلِّ مسجدٍ والإخلاصِ في العبادةِ.

بَلاغةُ التَّشبيهِ في﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ﴾:

إعادةُ إحياءِ الخلْقِ عندَ الله كَبَدْئِهِم

شبَّه الإعادةَ بالإبداءِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾، والمعنى: عودُكم بعدَ الموتِ مثلُ بدئِكم؛ تقريرًا لإمكانِ عَوْدِكم والقُدرةِ عليه، ولمّا كان التَّقديرُ: تعُودُون عَوْدًا مثلَ ما بدأكم، كان تقديمُ المتعلَّق الدّالِّ على التَّشبيهِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ﴾ على فعلهِ ﴿تَعُودُونَ﴾؛ للاهتمامِ به ولِلتَّذكيرِ بخَلْقِهم الأوَّلِ، ولينبِّهَ العاقلَ على أنَّ قضاءَ اللّٰه تعالى للشُّؤونِ لا يخالفُ قدَرَهُ وعِلمَه الأزليَّ البتَّةَ. ولمّا كان الأصلُ في المشبَّه به أنْ يكون أقوى منَ المشبَّه؛ دلَّ على أنَّ الإعادةَ أسهلُ من بدءِ الخلقِ، ولهذا قال اللّٰه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27]، وليس المعنى تشبيهَهم بالبَدَاء، إنَّما المعنى على إعادةِ الخَلْقِ، كما ابتُدِئ[(1)].

مُناسبةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

تَصويرُهم في حالةِ العَوْدِ؛ لبيانِ قُدرةِ الله تعالى

لمّا كانَ المعنى: (كما بدأ خَلْقَكم يعودُ خلقُكم)، فليس المَعنَى تشبيهَهم بالبَدءِ، إنَّمَا المعنى على إعادة الخلقِ كما ابتُدِئَ، أفادَ حذفُ (خلق) في الموضعين، تصويرَ حالةِ كمالِ خلقِهم،

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/10، والطِّيبي، فتوح الغيب: 6/370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/89.

وتصويرَهم في حالةِ العَوْدِ؛ ليكونَ الكلامُ أكثرَ ظهورًا في بيانِ قُدرةِ اللّه سبحانه[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ التَّشبيهِ بالمصدرِ، إلى التَّشبيهِ بالفعْلِ:

التّنبيهُ على ترتُّبِ سُرعةِ عَوْدِهم على إعادتِه سُبحانه لهم

لمّا كان الظّاهرُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ من تشبيهِ الحدَثِ بالحدَثِ، أي: تشبيهُ إعادةِ اللّهِ الخلقَ بالبدْءِ في خلْقِهم؛ كانَ مجيءُ تشبيهِ الفعلِ بالفعلِ مُنبِّهًا على ترتُّبِ سرعةِ عَوْدِهم على إعادتِه سبحانه لهم، كما أنَّ الغرَضَ منَ التَّشبيهِ هو التَّشبيهُ في نفسِ الإحياءِ والخلْقِ لا في نوعِ الحدثِ وكيفيَّتِه، فطُويَتِ الإعادةُ، وذُكِرَ الفعلُ ﴿تَعُودُونَ﴾[2].

دَلالةُ إسْنادِ أمرِ الإعادةِ إليهم، في قولِه تعالى: ﴿تَعُودُونَ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ الإعادةَ أهونُ عليه منَ البدْءِ

أسندَ الإعادةَ إليهم، ولم يُسندْها إليه سبحانه؛ كما في قولِه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ﴾، وكان مقتضَى السِّياقِ في غيرِ القرآنِ أن يُقالَ: (كما بدأكم يعيدُكم)، بإسنادِ الأمرين إليه؛ وذلك للإشارةِ إلى أنَّ الإعادةَ أهونُ عليه منَ البدءِ، فلاتحتاجُ إلى مَزيد عناءٍ، كأنَّه عادَ بنفسِه، بحيثُ لو تُصُوِّرَ الاستغناءُ عنِ الفاعلِ؛ لكان في الإعادةِ دون البدءِ، سواءٌ كانت الإعادةُ الإيجادَ بعد الإعدامِ بالكُليَّةِ، أو بجمْعِ مُتفرِّقِ الأجزاءِ.

سَببُ إيثارِ مَجيءِ الكلامِ بأسلوبِ التَّشبيهِ:

الاحتِجاجُ على المشركين في إنكارِهم البعثَ

أفادَ التَّشبيهُ الاحتجاجَ على المشركين في إنكارِهم البعثَ وإعادةَ الخلْقِ عَودًا جديدًا، كما أفادَ الحثَّ على امتثالِ الأوامرِ الّتي ذكرتْ في الآيةِ، كما أشعرَ بمجازاةِ المُحسِنِ على إحسانِه والمُسيءِ على إساءتِه، والمعنى: أنّه تعالى يُعيدُكم، فيُجازيكم على أعمالكم، فأخلصُوا له العبادةَ[3].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/331، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/371، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/329.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/329.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالماضِي ﴿بَدَأَكُمْ﴾، والمضارعِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالماضِي الّذي يدلُّ على تحقُّقِ الوقوع مُتناسِبًا مع تحقُّقِ البدْءِ، والتَّعبيرُ بالمضارع في ﴿تَعُودُونَ﴾، الّذي يدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ مُناسبًا لما سيكونُ في المُستقبلِ.

بيانُ تحقُّقِ وقوعِ البدْءِ، وتجدُّدِ حدوثِ العَوْدِ

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

حُذفَ مُتعلَّقُ ﴿تَعُودُونَ﴾ لدلالةِ السِّياق عليه؛ لأنَّه لا عودةَ هناك إلَّا للّهِ ﷻ؛ فلا مُنازعَ ولا شريكَ تعودون إليه؛ لأنَّه مالكُ يومِ الدِّينِ.

وضوحُه ودَلالةُ السِّياقِ عليه، مِنَ البيانِ الفصيحِ

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾

[الأعراف: 30]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

الـرَّبْـطُ بين الأوامرِ بالعبادةِ والإخلاصِ، وبين موقفِ النّاسِ منها بينَ مُهْتدٍ وضَالٍّ

لمَّا ذكرَ اللَّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ الخلقَ يعودونَ إليه يومَ القيامةِ؛ ناسبَ أنْ يَذكرَ في هذه الآيةِ أنَّهم يَرجعون إليه فريقَيْن: فريقًا هداهُم في الدُّنيا ببعثِه الرُّسُلَ، فاهتدَوا بإيمانِهم به وإقامةِ وجوهِهم له وحدَه في العبادةِ، ودعائِه مُخلصينَ له الدِّينَ، لا يُشركونَ بهِ أحدًا ولا شيئًا، وفريقًا حقَّ عليهمُ الضَّلالةُ لاتِّباعِهم إغواءَ الشَّيطانِ، وإعراضِهم عن طاعةِ الرَّحمنِ، وكلُّ فريقٍ يموتُ على ما عاشَ عليه، ويُبعَثُ على ما ماتَ عليه.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَدَىٰ﴾: والهُدى ضِدُّ الضَّلالِ، وجمهورُ اللّغويِّين على أنَّ الهُدى هو التَّوجيهُ إلى سبيل الرَّشادِ، لا مجرَّدَ التَّوجيه، كما يُستعمل الهُدى بمعنى الرَّشاد نفسِه. وفي الهُدى معنى الدَّلالة بلُطفٍ، وخصَّ ما كان دلالةً بـ(هديتُ)، وما كان إعطاءً بـ(أهديتُ). وقولُه ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بمعنى: أرشدَهُ إلى الحقِّ والقسطِ[1].

2) ﴿ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: ضلَّ الشَّيءُ خَفِي وغَاب، يقال: ضلَّ الماءُ في اللَّبنِ؛ إذا غاب، وغُلب عليه؛ فلم يُتبيَّن، ومنه أَضْلَلْتَ الشّيءَ؛ إذا غَيَّبْتَه، وأَضْلَلْتَ المَيِّتَ دَفنْتَه، وضَلَلْتَ المَسْجدَ؛ إذا لَمْ تَعْرِفْ مَوْضِعَهُ، ويُستعملُ الضَّلالُ في كلِّ شَيْءٍ مُقيمٍ ثَابتٍ لا تتبيَّنُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هدى).

وجهتُه، والضَّلالَةُ هنا بمعنى: الضَّلال، وهو العُدولُ عنِ الطَّريقِ المُستقيمِ[1].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانُ حالِ النَّاسِ في يومِ القيامةِ، بينَ الضَّلالةِ والهِدايةِ

ذكرَ اللّهُ تعالى أنَّ عبادَه الّذينَ يرجعونَ إليه يومَ القيامةِ، فريقان: فريقٌ وفَّقهم للهدايةِ إلى الصِّراطِ المستقيم، وفريقٌ وجبتْ عليهم الضَّلالةُ، فخُذِلوا؛ بسبب أنَّهم اتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياءَ من دونِ اللّهِ، فأطاعوهم جهلًا منهم، وهم يظنُّونَ أنَّهم مُوَفَّقون؛ لاغترارِهم بخداعِ الشَّياطينِ[2].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الهدايةَ بفضل اللّه ومَنِّه، وأنَّ الضلالةَ بخِذْلانه للعبدِ إذا تولّى - بجهله وظلمه - الشّيطانَ، وتسبَّب لنفسِه الضَّلالَ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الوقْفُ القرآنيُّ وتعدُّدُ المعنى:

التَّحريضُ على توخِّي الاهتداءِ، والإنذارِ مِنَ الوقوعِ في الضَّلالةِ

يحتمل أنْ يكونَ ﴿فَرِيقًا﴾ مفعولَ ﴿هَدَىٰ﴾، وقُدِّم للدَّلالة على اختصاصِ فريقِ المؤمنين بهدايةِ اللّه لهم، وأشعرَ الاختصاصُ بأنَّ فريقًا آخرَ ما أراد هدايتَهم، وقرَّر هذا المعنى، وأكَّده بأنْ عطفَ عليه ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، وفي الاختصاصِ تأكيدُ هدايةِ اللّه للمؤمنين، للُزوم التَّأكيدِ للاختصاصِ، وعلى المعنَى الأَوَّلِ يَحسُنُ الوَقفُ عَلَى تَعُودُونَ، ويحتملُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَفَرِيقًا﴾ في الموضعين حالًا من ضمير ﴿تَعُودُونَ﴾، ويَكُونُ الوَصلُ حينئذٍ أولى منَ الوقفِ على ﴿تَعُودُونَ﴾؛ لأنَّ الحالَ على معنى اقترانِه بصاحبه مقيِّدًا لعاملِه، فيكونُ متمِّمًا لمعنى سبقَه،

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والكفويّ، الكليّات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضلل).

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل، ونخبة من أساتذة التفسير، التّفسير الميّسر، ص: 153.

والمعنى: تعودون كما ابتدأ خَلقَكم مختلفِين، بعضُكم مهتدون سعداءُ، وبعضُكم ضالُّون أشقياءُ[1].

نُكتة إسنادِ (الهُدى) إلى الله دونَ (الضَّلالةِ):

جَاءَ إِسنادُ الهُدَى إِلَى اللّه، وَلَمْ يجِئْ مُقَابِلُهُ، فلم يقل: (وَفَرِيقًا أَضَلَّ)؛ للإشعار بأنَّ الّذي ضلَّ إنّما ضلَّ بفتنة الشّيطانِ، فإنَّ المساقَ مَسَاقُ مَنْ نُهِيَ عَنْ أَنْ يَفتِنَهُ الشَّيْطَانُ، وَإِخبَارٌ أَنَّ الشَّيَاطِينَ أَولِيَاءُ لِلَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ، كما أنَّ فيه تحسينًا للَّفظِ وتعليمًا لعبادِه الأدبَ[2].

مَن هُدِيَ؛ فبِهدايةِ الله، ومَنْ ضلَّ؛ فبِفتْنةِ الشَّيطانِ

براعةُ الاحْتباكِ في الآية:

في الآية احتباكان، فإنَّهُ لمّا أثبتَ للفريقِ الأوَّل ﴿هَدَىٰ﴾؛ دلَّ على أنَّ في المقابل حذفًا، والتَّقدير: وفريقًا أضلَّ، ثمَّ إنَّه لمّا أثبت للفريق الثاني حقوقَ الضَّلالةِ؛ دلَّ على حذف حقوقِ الهدى، والتَّقدير: (فريقًا حقَّ عليهم الهدى، فهدى، وفريقًا حقَّ عليهم الضَّلالةُ، فأضلَّ)[3]، كما أنَّه لمّا أثبت تعليلَ ضلالة الفريقِ الثاني بأنَّهم اتَّخذُوا الشَّياطين أولياءَ من دون اللّه - كما سيأتي بيانُه في دلالةِ (إنَّ) - أفاد أنَّ الفريقَ الّذي هدى إنَّما هداهم؛ لأنَّهم اتَّخذُوا اللّهِ وليًّا من دونِ الشَّياطين، ويعلمون أنَّهم مهتدون.

الذين هداهُمُ الله؛ همُ الّذينَ لم يتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياءَ

دَلالةُ تقديمِ فريقِ المهتدينَ، على الضَّالِّين في الآيةِ:

قدَّم فريقَ المُهتدين في قولِه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ على فريق الضَّالّينَ؛ للدَّلالة على مزيد العنايةِ والاهتمام والاختصاصِ؛ كأنَّ الهدايةَ خُصَّت بهم، وفيه إشارةٌ إلى ذمِّ أهلِ الضَّلالِ.

أهلُ الهدايةِ هم أهلُ الشَّرفِ والسَّبْقِ

سِرُّ اختلافِ التعبير بين: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ مَقابلَ الهدايةِ:

لمّا كان لفظُ ﴿حَقَّ﴾ في الآية، بمعنى: ثبتَ لهم الضَّلالةُ ولزِمُوها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/39، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/300، والآلوسّي، روح المعاني: 4/348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/90.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/39، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/301.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/386.

ولم يُقلعُوا عنها، دلَّ على أنَّ لزومَ الضَّلالة لهم مكتوبٌ عليهم ومقدَّرٌ؛ وذلك أنَّ المخاطَبين كانوا مشركين كلَّهم، فلمَّا أُمرُوا بأنْ يعبدُوا اللّه مخلصين افترقوا فريقين: فريقًا هداه اللّه إلى التَّوحيد، وفريقًا لازمَ الشِّرك والضَّلالة، فلم يطرأ عليهم حالٌ جديدٌ، وبذلك يظهرُ حسنُ موقعِ لفظ: ﴿حَقَّ﴾ هنا، دون أنْ يُقال: (أضلَّهُ اللّه)؛ لأنَّ ضلالَهم قديمٌ مستمرٌّ اكتسبوه لأنفسِهم، كما قال تعالى في نظيره: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: 36]، فليس تغييرُ الأسلوب بينَ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وبينَ ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ تحاشيًا عن إسنادِ الإضلالِ إلى اللّهِ، بل اختلافُ الأسلوبِ لاختلافِ الأحوالِ ومقاماتِ الكلام[1].

اخـتـلافُ الأسـلـوبِ في الـقـرآنِ، لاخـتـلافِ الأحـوالِ ومقاماتِ الكلامِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ(على)، في قوله تعالى ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

عُبِّرَ بحرف الجرِّ (على)؛ لإفادة تمكُّن الضَّلالة منهم وإحاطتِها بهم.

سِرُّ حذْفِ المُسْنَدِ:

بيانُ الإيجازِ، وكونه مفهومًا من ذِكْرِ مُقابِلِه في السِّياقِ

حُذف المُسندُ في قولِه تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، وتقديرُه: (وأضَلَّ فريقًا حَقَّ عليهم الضّلالة)، والغرضُ من ذلك الإيجازُ؛ لأنَّه يُفهمُ من ذكرِ مُقابلِه في أوَّل الجملةِ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، ومن ذكْرِ الضَّلالة بعد ذلك في قولِه: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾.

بَلاغةُ الطِّباقِ في الآيَة:

بيانُ مآلِ الخلْقِ بعدَ بعْثِهم

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، فيه طِباقٌ بين قولِه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، وبين قولِه: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، وتظهرُ بلاغةُ الطِّباق فيما سيؤولُ إليه الخلقُ بعد بعثِهم منِ انقسامهم إلى فريقين: فريقٍ هداه اللّه، فربح، وفازَ بالجنة، وفريقٍ أضلَّه اللّه بسبب اتِّباعه الشَّيطانَ، فخاب، وخسرَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/90.

لـلحروف أثـرٌ في زيـادةِ المبنَى واختلافِ المعنَى

المتشابهُ اللَّفظِيُّ بين آيتي الآعراف (29)، والنّحلِ (36):

النَّاظرُ في هذه الآيةِ في سورة الأعرافِ في قولِه تعالى مع ما جاء في سورة النّحل: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: 36]، يجدُ أنَّ موضعَ الأعراف ﴿حَقَّ﴾، وفي النَّحل ﴿حَقَّتْ﴾ [النّحل: 36]، فلحقتْ تاءُ التَّأنيثِ مَوضِع النَّحل، ولم تلحقْ موضعَ الأعراف، وعلى هذا يوجد فرقٌ بينهما في التعبيرِ.

والفرقُ بينهما من وجهين لفظيٍّ ومعنويٍّ: أمَّا اللَّفظيُّ؛ فهو أنَّ الحروفَ الحواجزَ بين الفعل والفاعل في قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أكثرُ منها في قوله: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾ [النحل: 36]، وقد تقدَّم أنَّ الحذف مع كثرة الحواجزِ أحسنُ، وأمَّا المعنويُّ؛ فإنَّ (مَن) في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: 36] واقعةٌ على الأمَّة والجماعة، وهي مؤنَّثة لفظًا، ألا تراه يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: 36] أي: من تلك الأمم أممٌ حقَّت عليهمُ الضَّلالةُ، ولو قال بدل ذلك: ضلَّت؛ لتعيَّنتِ التاء، ومعنى الكلامين واحدٌ، وإذا كان معنى الكلامين واحدًا؛ كان إثبات التاء أحسنَ من تركها؛ لأنَّها ثابتة فيما هو في معنى الكلام الآخر، وأما: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، فالفريقُ مذكَّرٌ، ولو قال: فريقًا ضلوا؛ لكان بغير تاء، وقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ في معناه، فجاء بغير تاء، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ من أساليبِ العربيَّةِ(1).

ومما يُذكر في الفرق - أيضًا - أنَّه في سورة الأعراف ذكرَ قولَه: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ وفي سورة النَّحل ﴿عَلَيْهِ﴾؛ فعبَّر في الأعراف بالجمع مراعاةً للَّفظ ﴿فَرِيقًا﴾، وفي سورة النَّحلِ بالمُفرد، مراعاةً للَّفظ ﴿مَّنْ﴾.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/126.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ(إنَّ)، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

سَببُ ضَلالِ المشركين، اتِّخاذُهم الشَّياطينَ أولياءَ من دونِ الله

يحتمل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ﴾، أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا، وبيانُه أنَّه لمّا ذكر الله تعالى أنَّ الفريقَ الثَّاني ثبتتْ عليه الضَّلالَةُ، كأنَّ سائلًا سأل: لماذا حقَّت عليهم الضَّلالةُ، ولم يهتدُوا؟ فجاء قولُه: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ﴾ ليكونَ جاريًا مَجْرى التّعليلِ، وهذا شأنُ (إنَّ)؛ إذا وقعتْ في صدر جملة عقِبَ جملةٍ أخرى أن تكون للرَّبط والتّعليل، والمعنى: حَقَّ عليهم الضَّلالةُ لاتِّخاذهم الشياطينَ أولياءَ، ويُحتمَلُ أن تكونَ (إنَّ) لتحقيقِ ضلالِهم وتأكيدِه باتِّخاذِهم الشَّياطينَ أولياءَ من دون اللّه[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، دونَ غيرِه:

حِرْصُ المشركين على اتِّخاذِ الشَّياطين أولياءَ من دونِ الله

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ دون غيرِه؛ كالاتِّباع مثلاً؛ لأنَّ الاتِّخاذَ - بمعنى: اتِّخاذِ الشَّيءِ لنفسه بقوَّةٍ حرصًا على تحصيلِه والتَّمكُّن منه - أفاد أنَّ الّذينَ حقَّ عليهم الضَّلالةُ اتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياءَ لأنفسِهم محبَّةً ورغبةً وحرصًا على أنْ يكونَ الشَّياطينُ أولياءَهم من دونِ اللّه[2]، وهذا المعنى لا يتأتَّى إلا من لفظِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ويُشيرُ - أيضًا - إلى كمالِ انقيادِهم لهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجمْعِ دونَ الإفرادِ، في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

تأكيدُ استِحقاقِهم للضَّلالِ، يُبرِّرُ عقوبَتهم

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾، عبَّر بالجمع في ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، و﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لم يَتْركوا سبيلًا يؤدِّي بهم إلى الضَّلال إلا سلَكُوه واتَّبعوه، وهذا ممَّا يؤكِّدُ استحقاقَهم للضَّلال.

دَلالةُ الصِّفةِ في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

مَن ضلَّ عن اتِّخاذِ اللهِ وليًّا؛ استحقَّ العذابَ المهينَ

لمّا كان الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في محلِّ نصبٍ نعتًا لـ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؛ أفاد النَّعتُ التّخصيصَ بمعنى: اتَّخذوا

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/40، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/301، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/372.

(2) ابن مالك، شرح التّسهيل: 3/455، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخذ).

الشَّياطين أولياءَ من غيرِ اللّه؛ ليكونَ النَّعتُ على معنى الذّمِّ والتّوبيخ، كما أنَّ في النّعتِ إشعارًا بالتَّعجيبِ من حالِهم، إذْ ضلُّوا عنِ اتِّخاذِ اللّهِ وليًّا، فاستحقُّوا الضَّلالةَ والعذابَ.

الواو في الفعل ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾ بين الحاليَّةِ والعطْفِ:

المخطئُ والمعانِدُ سواءٌ، فلا عذرَ للضَّالِّ في ضَلالِه ولو بالخطأِ

تحتمل الواوُ أنْ تكون حاليَّةً، ولمّا كان الحالُ على معنى اقترانِه بصاحبِه؛ أفاد المعنى: أَنَّهم اتَّخذوا الشَّياطين أنصارًا يُطيعونَهم في حالِ أنَّهم يظنُّون أنَّهم مهتدون بفعْلِهم، فظنُّهم مُقترنٌ باتِّخاذِهمُ الشَّياطينَ أولياءَ، والحالُ في حيِّزِ التَّعليلِ، فأشعرَ الحالُ أنَّهم مع قُبحِ فعلِهم في اتِّخاذِهمُ الشَّياطينَ أولياءَ يطيعونَهم، لم يعترفوا على أنفسِهم بالضَّلالة، وهذا أشدُّ في تمرُّدِهم وعِنادِهم[1].

كما تحتملُ أنْ تكونَ عاطفةً، أي: عَطْفَ جُملةِ: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ على جملةِ ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾، ولمّا كان العطفُ على معنى التَّشريكِ في الحكمِ للمعطوف والمعطوفِ عليه؛ دلَّ على اعتبارهما سواءً في الإخبارِ عنِ الفريقِ الّذينَ حقَّت عليهمُ الضَّلالةُ، لقصدِ الدَّلالةِ على أنَّ ضلالَهم حاصلٌ في كلِّ واحدٍ منَ الخبرين، فولايةُ الشَّياطينِ ضلالةٌ، وحسبانُهم ضلالَهم هدًى ضلالةٌ أيضًا، سواءٌ كانَ ذلك كلُّه عن خطأٍ أو عن عنادٍ، فيدلُّ على أنَّ الكافرَ المخطئَ والمعاندَ سواءٌ في استحقاق الذَّمِّ، إذْ لا عذرَ للضَّالِّ في ضلالِه بالخطأِ؛ لأنَّ اللّه نصبَ الأدلَّةَ على الحقِّ وعلى التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، كما دلَّ العطفُ على اعتبارِ الجملتَين تعليلًا لضلالِهم أو تحقيقًا وتأكيدًا له[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/386، والآلوسي، روح المعاني: 4/384، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/331، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/336.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/92.

دَلالةُ لفْظِ ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾، في سياقِ الآيةِ:

لمّا كان ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾ هنا بمعنى الظَّنِّ أفاد التَّعبيرُ أنَّ مجرَّدَ الظَّنِّ لا يكفِي في صحَّةِ الدِّينِ، بل لا بدَّ فيه منَ الجزمِ والقطعِ واليقينِ؛ لأنَّه تعالى عابَ الكفَّارَ بأنَّهم يحسَبونَ كونَهم مُهتدين، ولولا أنَّ هذا الحسبانَ مذمومٌ؛ لَمَا ذمَّهم بذلك، كما أفادَ الفعلُ جهلَهم المركَّبَ، الدَّالَّ على ما يظهرُ بأنّهم عالمون بهدايتِهم، وهم في الحقيقة جاهلون بها؛ إذ همْ على الضَّلالِ، ويظنُّون أنَّهم على الهدايةِ[1].

لابدَّ في الاعتقادِ منَ اليقينِ، فلا يكفِي مُجرَّدُ الظَّنِّ فيهِ

مُناسبةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ، ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾:

أفاد مجيءُ الفعلِ بصِيغةِ المضارعِ استمرارَ حُسبانِهم أنَّهم مهتدون، فإذا كانتِ الجملةُ حالًا؛ دلَّت على تجدُّدِه حالًا فحالًا، وإذا كانتِ الجملةُ على معنى تحقيقِ ضلالِهم؛ دلَّت على استمرارِه وتجدُّدِه كذلك.

تجدُّدُ ضلالِهم واستمرارُه، دليلٌ على رُسوخِهم في الضّلالِ

دَلالةُ المصدرِ المؤوَّلِ: ﴿أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾:

عُبِّر بالمصدرِ المؤوَّلِ من (أنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ظنَّهم ثابتٌ في أنفسهم لا يشكُّون فيه، وأفادت (أنَّ) تأكيدَ هذا الظَّنِّ وتقريرَه.

الدَّلالةُ على أنَّ ظنَّهم ثابتٌ في أنفُسِهم

سِرُّ خِتامِ الآيةِ بقولِه تعالى: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾:

خُتِمَت الآيةُ بحسبانِ أنَّهم مهتدون دون غيرِه منَ الأوصافِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أصحابُ ظنٍّ وخاطرٍ وتوقُّعٍ لشيءٍ ما، وهم في الحقيقة منَ الّذينَ ضلَّ سعيُهم، ويَحسبون أنَّهم يُحسنون صنعًا فيما ارتكبوا منَ الفواحش كطوافِهم بالبيت الحرام عرايًا، بزعم كاذبٍ أنَّهم لا يطوفون في ثيابٍ عَصَوُا اللّه فيها، وممّا يؤكِّدُ هذا الزَّعمَ الكاذبَ، التَّعبيرُ بالاسميَّةِ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ دونَ الفعليَّةِ (اهتدَوْا).

الدَّلالةُ على أنَّهم أصحابُ ظنٍّ وتوقُّعٍ، وهُم في ضلالٍ بيِّنٍ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/228، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/39، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/224.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظَّنُّ والحُسبانُ:

الظَّنُّ لـونٌ مِنَ الاعتقادِ، ليس مـقـطـوعًـا بـه، والـحُـسـبـانُ ما ليسَ باعتقادٍ

الظَّنّ ضربٌ منَ الاِعْتِقَاد، وَقد يكونُ حسبانًا لَيْسَ باعتقاد، وأصلُ الحُسبان منَ الحساب تَقول أَحْسبهُ بِالظَّنِّ قد مَاتَ، كَمَا تَقول أعدّه قد مَاتَ، ثمَّ كثر حَتَّى سمّيَ الظَّنُّ حُسبانا على جِهَة التَّوَسُّع وَصَارَ كالحقيقة بعد كَثْرَة الاِسْتِعْمَال[1]، وإذا جمعا معا دلّا على المبالغة وغلبة الظّنّ[2]. وفُرّق بين الفعل منهما، فيُقالُ في الظّنّ: حَسِبَ، وفي الحساب: حَسَبَ؛ ولذلك فرّق بين المصدرين، فقِيل: حِسْبانٌ وحُسْبانٌ[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.
(2) الكورانّي، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري: 6/450.
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 99.

﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: 31]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نَزعُ ثيابِ الطُّهرِ مَبدأُ الفِتنةِ، وتَخليصُ القلْبِ مِنَ الإخلاصِ رأسُها

تظهرُ المُناسبةُ بينَ هذه الآيةِ وما قبلَها في مجموعةٍ منَ الرَّوابطِ الوثيقَةِ العَريقةِ:

أوَّلُها: ناسَبَ النّداءُ في قولِه تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ النِّداءَ السابقَ في قولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 27]؛ فأخذُ الزِّينةِ دِرعٌ صادٌّ عن فتنةِ الشَّيطانِ وأوليائِه.

ثانيها: لَمَّا نبَّه سبحانَه على فتنةِ الشَّيطَانِ في نَزعِ الثِّيابِ في قولِه: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: 27]، حسُنَ الأمرُ باتِّخاذِ الزِّينةِ؛ لِتكونَ على التَّضادِّ من نزعِها، وتعريضًا بما يصنعُه المشرِكون في نَزعِ الزِّينةِ اتِّباعًا لأوليائِهم من شياطينِ الإنسِ.

ثالثُها: لَمَّا أمَرَ بالقسطِ فيما سبق، وكانَ مِن جُملَةِ القسطِ أمرُ اللِّبَاسِ وأَمرُ المَأكولِ والمَشرُوبِ، لا جَرَمَ أَتبعَهُ بِذِكرِهما[1]، فنبَّه في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: 29] على أنَّ أوامرَه كلَّها قسطٌ وعدلٌ، فناسَبَ أن يأمرَ بشَيءٍ من هذا القسطِ، فقالَ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾.

رابعُها: لَمَّا أَمَرَ تعالى بإقامَةِ الصَّلاةِ في قَولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 29] - وكانَ سَترُ العَورَةِ شَرطًا لِصحَّةِ الصَّلاةِ - لا جَرَمَ أَتبعَهُ بِذِكرِ اللِّبَاسِ[2]، فقالَ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

خامسُها: لَمَّا ذكرَ في قولِه تعالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/228.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/228.

﴿مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ تمامَ الإقامةِ الباطنةِ للصّلاةِ وهو الإخلاصُ، ناسبَ أن يذكرَ في قولِه: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ تمامَ الإقامةِ الظّاهرةِ لها وهو اللّباس.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿زِينَتَكُمۡ﴾: جذرُ المفردةِ (زين) يدلُّ في أصلِه على مقابلةِ الشَّين في الحِسِّيّاتِ والمعنويّاتِ، والزِّينةُ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُتزيَّنُ به. وزَينُ الدِّيكِ: عُرفُه. فالزِّينةُ هي ما يظهرُ للعيانِ من حُسْنٍ وجَمالٍ، فاجتَمَعَ فيها أمرانِ؛ الظُّهورُ والجمالُ، ممَّا يُورِّثُ راحةً في النَّفسِ. والمقصودُ في الآيةِ اللِّباسُ الظَّاهرُ الّذي يستُرُ العَورةَ؛ تحسينًا للابسِه[1].

2) ﴿مَسۡجِدٖ﴾: جَذرُ المفرَدةِ (سجد) يدُلُّ في أصلِه على التَّطَامُنِ والتَّذلُّلِ، فيُقالُ: نِساءٌ سُجَّد: فاتِراتُ الأعيُنِ. وَأسجَدَ الرّجلُ إذا طَأطَأ رأسَهُ وانحَنى، وسَجَدَ إذا وضعَ جَبهتَهُ على الأرضِ، والإسجادُ: إدامةُ النَّظرِ مع سكونٍ، واستُعمِلَ الإسجادُ في الجزيةِ؛ لأنَّها تدلُّ على تطامُنٍ وتذلُّلٍ، فالسُّجودُ في اللُّغةِ يدلُّ على تطامنٍ مع سكينةٍ دالَّةٍ على خضوعٍ داخليٍّ، والمَسجدُ منَ الأرضِ: موضعُ الصّلاةِ اعتبارًا بالسّجود. والمقصودُ في الآيةِ هو كلُّ مكانٍ يُصلَّى فيه أو يُطافُ منَ المسجدِ الحرامِ، فعلى الإنسانِ أن يتزيَّنَ فيه باللِّباسِ؛ لتُقبلَ عبادتُه[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

سَتْرُ الأبدانِ، والاعْتِدالُ في طَعامِها وشَرابِها، عُنوانُ الوَسَطِيَّةِ

خاطَبتِ الآيةُ بني آدَمَ بالنِّداءِ المُمهِّدِ للأمرِ باتِّخاذِ اللِّباسِ الّذي يُزيِّنُ بدَنَ مَن يُصلِّي، أو يطوفُ، وأُخِذَ من ذلك أنَّ سترَ البَدَنِ واجبٌ عندَ الصَّلاةِ، وتفصيلُه في كُتُبِ الفقهِ، وعطَفَت على ذلك الأمرِ الأمرَ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سجد).

بالأكلِ والشّربِ مع الاعتدالِ فيهما، فنَهَتْ عنِ الإسرافِ فيهما، وتعليلُ ذلك بنفي حبِّ اللّهِ عمَّن يُسرِفُ؛ ترغيبًا بالاعتدالِ وتركِ المغالاةِ في الأمورِ كلِّها، فالآيةُ ضبطَت ما يتعلَّقُ بالبدنِ ظَاهرًا وبَاطِنًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ إعادةِ النِّداءِ:

تَكرارُ نِداءِ الخامِلِ مِن شأنِه تحريكُ قلبِه وتثويرُ عَقْلِه

أُعيدَ النِّداءُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للمرَّةِ الثَّالثةِ في هذه السُّورةِ، فقد ورَدَ في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: 25]، وفي قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: 26]، وسيأتي مرَّةً رابعةً في قولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأعراف: 35]، ولم يأتِ نداءُ النَّاسِ بهذا التَّعبيرِ في ابتداءِ آيةٍ إلَّا في هذه المَواضعِ الأربعةِ، وقد وردَ في قولِه تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس: 60].

ونُكتةُ ذلك تثويرُ عقولِ المُخاطَبينَ وتحريكُ نفوسِهم، صوبَ أبيهم آدَمَ عليه السلام؛ لردِّهم إلى أصلِ فطرتِهم، ولاسيَّمَا ورودُه في مَطلَعِ السُّورَةِ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعراف: 11]، وذلك يحسُنُ بتَكرارِ النِّداءِ الدَّالِّ على أنَّهم أبناءُ آدَمَ، وإيقاظًا لمشاعرِهم الخامدةِ، فإنَّ تَكرارَ النِّداءِ يُوقظُ النَّائمَ، واكتفى ابنُ عاشور بالإشارةِ إلى عنصرِ الاهتمامِ بالمُنادَى، فقال: "إعادَةُ النِّداءِ في صَدرِ هَذِهِ الجُملَةِ للاهتِمامِ"(1).

نُكتةُ نداءِ النَّاسِ ببَنِي آدمَ:

شأنُ العَرَبِ الاعتزَازُ بآبائِهم، والانقيادُ لأصُولِهم

نُودِيَ النَّاسُ بإضافتِهم إلى أبيهم في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ دونَ أن يُنادَوا بلفظِ النَّاسِ، أو بغيرِه منَ الألفاظِ؛ لأمرينِ اثنينِ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/92.

الأوّل: تعريفُ النَّاسِ بكونِهم أبناءَ آدمَ يُعيدُهم إلى أصلِهم، وشأنُ العَرَبِ الاعتزازُ بآبائِهم، والانقيادُ لأُصولِهم، ولمَّا كانَ السِّياقُ سياقَ أمرٍ بالعبادةِ والتَّخلُّصِ من مظاهرِ الشِّرك، نَاسَبَ أنْ يُناديهم بهذا التَّعريفِ الإضافيِّ، "وفي تَعريفِ المُنادى بِطَريقِ الإضافَةِ بِوَصفِ كَونِهم بَنِي آدَمَ مُتابَعَةٌ لِلخِطابِ المُتَقَدِّمِ في قَولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ [الأعراف: 26]"[1]، ولو قال: (يا أيُّها النَّاسُ) لفاتَ هذا المقصودُ.

الأمرُ الآخر: السِّمةُ التَّعبيريَّةُ الخاصَّةُ بهذِه السُّورة، فقد تكرَّر ذكرُ التَّركيبِ الإضافيِّ (بَني آدَمَ) فيها خمسَ مرَّاتٍ، إحداها بدونِ نداءٍ.

دَلالةُ تَرَتُّبِ الأَمْرِ على النِّداءِ:

لُطفُ النِّداءِ يُليِّنُ قلوبَ المُكلَّفين، ويُغْرِي بالقَبول

رُتِّبَ الأمرُ باتِّخاذِ الزِّينة: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ على النِّداءِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ ليكونَ النِّداءُ توطِئةً وتمهيدًا للأمرِ، وهي توطئةٌ نفسيَّةٌ، فإنَّ الأوامرَ تستثقِلُها النُّفوسُ، فحسُنَ التَّمهيدُ بالنِّداءِ؛ ليكونَ أدعى في الاستِجابةِ، فأمرُ المُخاطَبِ دونَ تمهيدٍ فيه جفوةٌ وقَسوةٌ، والّذي يدفعُ ذلك بلاغةُ اللُّطفِ في النِّداءِ حتَّى يَجِدَ الأمرُ وقعَه المناسبَ في نَفسِ المُتلِّقي.

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالأَخْذِ دُونَ فعْلِ اللّبْسِ:

مَن ألقَى ثيابَ السَّترِ لَقيَ خطابَ الزَّجْرِ

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ مُفردةَ الأخذِ في قولِه: ﴿خُذُواْ﴾ دونَ غيرِها منَ الألفاظِ النَّاصَّةِ على ارتداءِ الملابس، وذلك بلاغةٌ في التَّعبيرِ تُنبئُ عن تصويرِ المَشهدِ الّذي عاشَه الجاهليُّونَ في إلقاءِ الملابسِ عندَ الطَّوافِ بالبيتِ الحرام، فقد وردَتِ الرِّواياتُ في أنَّ المُشركينَ "كانوا يطُوفونَ بالبيتِ عُراةً، فأمرَهم اللهُ أن يَلبسُوا ثِيابَهم ولا يَتعرَّوا"[2]، ولا يُؤدِّي هذا المعنى إلَّا لفظُ الأخذِ، فالآيةُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/92.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/150.

تأمرُ المُخاطَبينَ أن يأخُذوا تلك الملابسَ الّتي أَلقَوها جانِبًا وتعرَّوا، ففي التَّعبير أمرٌ زاجرٌ عمَّا اقترفوه.

وفي التَّعبير استعارةٌ، إذ شبَّهَ الارتداءَ بالأخذِ، ثمَّ اشتقَّ منه فعلَ الأمرِ ﴿خُذُوا۟﴾ على سبيلِ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ في بيانِ الموقف، لَما فيها من تصويرِ حالِ المشركينَ في التَّعرِّي؛ فإنَّ العربَ - ما عدا قُرَيشًا - كانوا لا يَطُوفون بالبيتِ في ثِيابِهم الَّتي لَبِسوها، ويَتأوَّلون في ذلك أنَّهم لا يَطُوفون في ثيابٍ عَصَوُا اللّه فيها، وكانت قُرَيشٌ - وهم الحُمْس - يَطُوفونَ في ثيابِهم، ومَن أعارَه أَحْمَسيٌّ ثوبًا طَاف فيه، ومَن معه ثوبٌ جَديدٌ طافَ فيه، ثُمَّ يُلقيه فلا يتملَّكه أحدٌ[1]، فزجرَهم اللّهُ عن هذا الصَّنيعِ الجاهليِّ في المُسارَعة بأخذِ اللِّباسِ، ودفعِ التَّذرُّعِ بتأويلِهم الباطلِ حولَهُ، فكأنَّ اللِّباسَ المُتخلَّى عنه موجودٌ مُلقًى على قارعةِ الطَّريقِ، لكلِّ راغبٍ في تناولِه.

غَرَضُ الأَمرِ بأخْذِ الزِّينةِ:

أخــذُ الـزِّيـنـةِ في الـصَّـلاةِ هو تـمامُ المَقصودِ الـتَّـكـلـيـفـيِّ، وكمالُ المَطلوبِ الشَّرعيِّ

الأَمرُ في قولِه تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ للوجوب، حيثُ كان المشركونَ في جاهليَّتِهم يَطُوفونَ بالبيتِ عَرَايا؛ فأمرَهم اللّه تعالى باتِّخاذِ الزِّينةِ المقصودِ بها اللِّباسُ، وأمرَ المؤمنينَ بأخذِ أحسنِ اللِّباسِ، فإنَّ الأمرَ موجَّهٌ للمُشركينَ والمؤمنينَ، فعلى المُشركِ أن يُؤمنَ، ثمَّ يقوم بأدنى دَرَجاتِ الأمرِ، وعلى المؤمنِ أن يقومَ بأحبِّه وأكملِه؛ ولهذا استحبَّ السَّلفُ أن يَتَجَمَّلَ الرَّجُلُ في صلاتِه، وقد "أَمَرَ اللّهُ بِقدرٍ زائِدٍ على سَترِ العَورَةِ في الصَّلاةِ، وهو أَخذُ الزِّينَةِ؛ فَقالَ تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، فَعلَّقَ الأَمرَ بِأَخذِ الزِّينَةِ، لا بِسَترِ العَورَةِ، إيذانًا بأنَّ العَبدَ يَنبَغِي لَهُ: أَن يَلبَسَ أَزيَنَ ثِيابِهِ، وأَجمَلَها في الصَّلاةِ"[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/402.

(2) ابن قَيِّم الجوزيَّة، مدارج السّالكين: 2/363.

من تدثّرَ بالسَّترِ تَزيّنَ بأبهَى الحُلَلِ

سِرُّ التَّعْبير بلفْظِ الزِّينةِ دونَ اللِّباسِ:

عُبِّرَ بلفظِ الزِّينةِ في قولِه: ﴿زِينَتَكُمْ﴾ دونَ أن يُقالَ: (لباسَكم) أو (ثيابَكم)، وهو أشهرُ دلالةً، وأصرحُ تعبيرًا عنِ المقصودِ، بل هو المذكورُ في سِياقِ السِّياقِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الأعراف: 26]، وذلك أنَّ لفظَ الزِّينةِ دالٌّ على معنًى محبَّبٍ للنَّفسِ، لِمَا فيه منَ الحُسنِ والجمالِ، فاختارَ النَّظمُ اللَّفظَ الأليقَ بمقامِ المُخاطَبين، وهو الزِّينةُ، للإسراعِ في الاستجابَةِ، فإنَّ الأوامرَ القرآنيَّةَ صِيغت بما يُحقِّقُ المطلوبَ، كما أُوثِر التَّعبيرُ بالزِّينةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ كلَّ ما يستُرُ عورةَ الإنسانِ فهو زينةٌ، وإنْ لم يكن أحسنَ الثِّيابِ؛ "لأنَّه هو المرادُ من لباسِ التَّقوى"[1]؛ فلباسُ تقوى اللّهِ تعالى بفعلِ الأوامرِ واجتنابِ النّواهي هو خيرُ لباسٍ للمؤمنِ.

بلاغةُ الاسْتِعارةِ والكنايةِ تظْهرُ في اشْتِمالِها على الضَّروريّاتِ والتَّحْسينيَّاتِ

وفي اختيارِ لفظِ الزِّينةِ استعارةٌ بديعةٌ، حيثُ شبَّهَ اللِّباسَ بالزِّينةِ، وصرَّح بالزِّينةِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليّةِ، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ؛ لِمَا فيها منَ الحثِّ النَّفسيِّ على الامتثالِ، وتحسينِ اللّابسِ وتجميلِه، وتبشيعِ تاركِه وتقبيحِه، فهذه معانٍ زائدةٌ على أصلِ معنى اللِّباسِ.

أو أن يُحملَ لفظُ الزِّينةِ على الكنايةِ، فتكون من قبيلِ الكنايةِ عنِ الصِّفةِ، وهي السّترُ والحشمةُ، حيثُ أطلقَ الزِّينةَ وأرادَ السِّترَ، فكأنَّه قالَ: (استَتِروا) مع إرادةِ المعنى الحقيقيِّ، وهو التَّزيُّنُ، وبلاغةُ الكنايةِ تظهرُ في جمعِها للضَّرورةِ وهي السِّترُ، والمعنى التّحسينيِّ وهو التَّزيُّنُ.

دلالةُ إضافةِ لفْظِ الزِّينةِ لكافِ الخِطابِ:

في إضافةِ لفظِ الزِّينةِ لكافِ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿خُذُوٓاْ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/373.

التَّمليكُ بغرَضِ التَّرغيبِ في طَلَبِ السَّترِ والتَّجمُّلِ

﴿زِينَتَكُمۡ﴾ تحفيزٌ للمُخاطَبين، وترغيبٌ في التَّجمُّلِ عندَ الصَّلاةِ؛ فالزِّينةُ مِلْكٌ لَهم، وتختصُّ بِهم، مطروحة أمامَهم، فهم لا يجدون عناءً في تحصيلِها وأَخْذِها، فالإضافةُ هي إضافةُ تمليكٍ بغرضِ طلبِ التَّجميلِ والتَّحفيزِ على اللِّبس؛ لغايةِ السَّترِ وتحصيلِ الكمالِ الإنسانيِّ في المظهرِ الخارجيِّ.

دلالةُ التَّعْبيرِ بالعِنْديَّةِ دونَ الظَّرفيَّةِ:

وجوبُ التَّجَمُّلِ عندَ بيوتِ اللهِ احترامًا وتوقيرًا

عُبِّر بالعِنديَّةِ دونَ الظَّرفيّةِ في قولِه: ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، إذ لم يقُل: (في كُلِّ مسجدٍ)؛ لدفعِ توهُّمٍ قد يطرأُ على ذهنِ المُخاطَبِ، وهو أنَّ السِّترَ مطلوبٌ داخلَ المسجدِ، فجيءَ بلفظِ ﴿عِندَ﴾ لبيانِ المقصودِ، ولدفعِ أوهامِ الأفهامِ، والعنديَّةُ تبدأُ من لحظةِ التَّوجُّهِ إلى المسجدِ لأداءِ العبادةِ، فيُؤْخَذُ اللِّباسُ استعدادًا لذلك، فعلى العبدِ ألَّا يدْلِفَ إلى المسجدِ إلَّا في أكمل هيئةٍ مِن ستر العورةِ، والتَّجمُّلِ احترامًا لبيوت اللّه، وتوقيرًا لَها.

سِرُّ إيثارِ العُمومِ على الخُصوصِ:

الإيماءُ إلى الإعجازِ الغَيْبيِّ في انْتشارِ المساجِدِ في أصْقاعِ الدُّنيا

أُوثِر العمومُ على الخصوصِ في قولِه تعالى: ﴿كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، حيث إنَّ المقصودَ في السِّياق المسجدُ الحرامُ، فهي حكايةُ حالِ المُشرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنَ الطَّوَافِ بِالبَيْتِ عُراةً، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ؛ فالرِّجَالُ بِالنَّهارِ، والنِّسَاءُ بِاللَّيلِ[1]، فلم يقُل: (عند المسجد الحرام)؛ لأنَّ المرادَ أَخْذُ الزِّينةِ وسَترُ العورةِ عندَ كُلِّ مكانٍ مُتَّخَذ لعبادةِ اللّهِ تعالى، وليس المسجدَ الحرامَ فحسب؛ أي: أنَّه عَامٌّ في كُلِّ مَسجِدٍ لِلصَّلَاةِ؛ لأنَّ العِبرةَ بعمومِ اللَّفظِ لا بخصوص السَّببِ، كما هو الرَّاجحُ في أقوالِ جماهيرِ أهلِ العلمِ.

ولأمرٍ آخر، ألَا وهو أنَّ الآيةَ تُشيرُ إلى ما سيكونُ في المستقبلِ

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (3028)، والنّسائيّ، السّنن: 5/233، وابن جرير، جامع البيان: 12/390.

مِن انتشارِ المساجدِ في أصقاعِ الدُّنيا، فأمرَتْ بأخذِ الزِّينةِ عندَ كلِّ مسجدٍ قبلَ تحقُّقِ ذلك إيماءً إلى تحقُّقِه.

غَرَضُ إضافَةِ أداةِ العُمومِ ﴿كُلِّ﴾ إلى النَّكرةِ:

اشْتِمالُ الإضافةِ لكلِّ ما يصدُقُ عليه اسْمُ مسجدٍ

أُضيفت أداةُ العمومِ ﴿كُلِّ﴾ إلى النّكرة ﴿مَسۡجِدٖ﴾؛ لبيانِ غرضِ الشُّمولِ؛ فلا يُستثنَى من ذلك أيُّ مسجدٍ، وفي هذه الإضافة فائدةٌ؛ وهي أنَّ هذا العمومَ هو إحدى صور العامِّ الّذي لم يُخصّ، فيصدُقُ على كلِّ ما يصدُقُ عليه اسمُ مسجدٍ، فإنَّ من مقتضيات التَّوجُّهِ إليه أخذَ الزِّينةِ.

بديعُ فنِّ الاحْتباكِ:

المسلمُ مأمورٌ بأخذِ الزِّينةِ والأكلِ والشُّربِ بشرطِ عدَمِ الإسرافِ

غرضُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ للإباحةِ، وجاءَ معطوفًا على سابقِه: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ الّذي هو للوجوب؛ تمهيدًا لِمَا سيُبنَى على هذا الأمرِ مِنَ النَّهي في تحريمِ الإسرافِ ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾، فيكونُ التَّناسُبُ بين المُتعاطفين هو الإلزامُ بالفعلِ في أخذِ الزِّينةِ، والإلزامُ بالتَّركِ في كيفيّةِ الأكلِ والشُّربِ، فهو تناسبٌ بين جملتين إنشائيّتين إلزاميَّتَيْن، ولمَّا كان أخذُ الزِّينةِ فيه تكميلًا للظَّاهرِ دُفِعَ الإسرافُ في التَّكميل فيما يتعلَّقُ بالطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّه الأغلبُ في سلوكِ النَّاسِ، ففي الآيةِ احتباكٌ بديعٌ، تقديره: خذوا زينتَكم عندَ كلِّ مسجدٍ ولا تسرفوا، وكلُوا واشربُوا في كلِّ مكانٍ ولا تسرفُوا.

الآيةُ تُعالجُ التَّطرّفَ السُّلوكيَّ في العباداتِ والمأكولاتِ والمَشروباتِ

وللإشارةِ إلى أنَّ الأكلَ والشُّربَ قَد يَكونانِ واجِبَينِ أيضًا في الحُكمِ، فلا زُهدَ في تَركِ مَطعَمٍ ولا مَشرَبٍ، وتارِكُه بِالمَرَّةِ قاتِلٌ لِنَفسِهِ وهو مِن أهلِ النّارِ، كما صَحَّ في الأحاديثِ الصَّحيحَةِ، والمُقَلِّلُ مِنه على وجهٍ يَضعُفُ بِهِ بَدَنُه، ويَعجِزُ عَنِ القِيامِ بما يَجبُ عليه القِيامُ به مِن طاعَةٍ أو سَعيٍ على نَفسِهِ وعلى مَن يَعُولُ، مُخالِفٌ لِما أمَرَ اللَّهُ بِهِ وأرشَدَ إلَيهِ[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/66، والقَنّوجيّ، فَتح البيان: 4/332.

فالآيةُ تُعالجُ التَّطرفَ السُّلوكيَّ في تركِ الزِّينةِ جملةً، وفي تركِ الطَّعامِ والشَّرابِ جملةً، أو الإسرافِ فيهما، فهي دعوةٌ إلى الاعتدالِ والتَّوسُّطِ في السُّلوكِ التَّعبديِّ في العلاقةِ مع اللهِ تعالى ومع النَّفسِ.

بَلاغةُ التَّرتيبِ في الآيةِ:

الغاياتُ مُقدَّمةٌ على وسائِلِها

جاء تَرتيبُ المأموراتِ بذكْرِ الأمْرِ بأخْذِ الزِّينةِ ثم الأمْرِ بالأكلِ والشُّربِ وهو من بابِ تقديمِ الغاياتِ على الوسائلِ، فأخذُ الزِّينةِ إيماءٌ إلى كمالِ عبادةِ اللهِ تعالى كما يحبُّ ويرضى، والأكلُ والشُّربُ هو طريقُ التَّقوِّي على ذلك، فقُدِّمتِ الغايةُ على الوسيلةِ، فهي نظيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: 77]، وهو من بابِ التَّرتيبِ على سَبيلِ التَّرقِّي، وذلك أن تكونَ البَداءةُ بأخْذِ الزِّينةِ، فالأكلِ، فالشُّربِ، فإنَّ الإنسانَ يحتاجُ اللِّباسَ، واحتياجُه للطَّعامِ أشدُّ، ثمّ احتياجُه للماءِ أشدُّ الأمْرَين.

وجهُ تقديمِ الأمْرِ بالأكلِ على الشُّربِ:

التَّرتيبُ على سبيلِ التَّرقي أو التَّدلِّي بحسبِ الاعتبارِ

جاء تقديمُ الأمرِ بالأكلِ على الأمرِ بالشُّرب في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ على سبيلِ الامتنان؛ فالامتنان بالطَّعام أوضح من الماءِ، مع أنَّ الماءَ هو أصلُ الحياة، وذلك لسهولة العثور عليه في الجملة، وصعوبة الحصولِ على الطعام في الجملة، فإنَّ الإنسان لا يقلق بسبب التَّفكير في شربِ الماءِ إلَّا في حالاتٍ طارئة، بخلافِ الطَّعام فإنَّه هو الذي يُقلِق غالبَ الفقراء، فقدَّمت الآيةُ ذكرَ الأمرِ بالأكلِ على الأمرِ بالشُّربِ للتَّنبيهِ على أنَّ الآمرَ ﷻ بما فيه قوام حياتِهم، هو الآمرُ بما فيه كمالُ عبادتِهم.

دلالةُ عطْفِ النَّهْيِ على الأمرِ:

تَقييدُ المُطلَقِ احتراسٌ عنِ الوُقوعِ في التَّعدِّي

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ احتراسًا عنِ الوقوعِ في الإسرافِ في الطَّعامِ والشَّرابِ، فإنَّ المقصودَ منَ الأمرِ بالطَّعامِ والشَّرابِ هو الاستعانةُ بهما على الطَّاعةِ، لا أن يصبحَا غايةً مقصودةً لذاتِهما،

بحيثُ يُسرفُ طالبُهما، فكان عطفُ النَّهي على الأمر لدفعِ أوهامِ الأفهامِ، في مظنَّةِ أنَّ الأمرَ مُطلَقٌ غيرُ مقيَّد، فجاءَ العطفُ للتَّقييدِ وضبطِ المُكلَّفِ، فالإسرافُ هو تَجاوُزُ الحَدِّ المُتعارَفِ في الشَّيءِ، فلا يجوزُ التَّعَدِّي في الطَّعامِ والشَّرابِ فيدخُلا في وصفِ الحَرامِ، فإنَّ ذلك يتصادمُ مع مقصودِ الشَّرعِ.

غَرَضُ النَّهْيِ عنِ الإسرافِ:

إرشادُ العبادِ إلى تعيينِ مفهومِ الإسرافِ ليَجتنِبوه

النَّهيُ عنِ الإسرافِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ نَهيُ إرشادٍ لا نَهيُ تَحريمٍ؛ وذلك "بِقَرينَةِ الإباحَةِ اللّاحِقَةِ في قَولِه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 32] إلى قَولِه: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: 32]، ولأنَّ مقدارَ الإسرافِ لا يَنضَبِطُ؛ فلا يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكليفُ، ولَكِنْ يُوكَلُ إلى تَدبيرِ النّاسِ لَمصالحِهم، وهذا راجِعٌ إلى مَعنى القِسطِ الواقِعِ في قَولِهِ سابِقًا: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: 29] فَإنَّ تَركَ السَّرَفِ مِن مَعنى العَدلِ"[1]؛ فالإسرافُ يتعيَّنُ بحسبِ الحالةِ والبيئةِ والعرفِ، فإذا انضبطَ بمجموعةٍ منَ المعاييرِ المتوائمةِ ومقاصدِ الشّريعةِ، وحُكِمَ عليه بأنَّه إسرافٌ، فهو محظورٌ لا يُقرَبُ.

فائدةُ جُملةِ التَّذْييلِ:

تعليلُ النَّهْيِ عنِ الإسرافِ بمَقْتِ اللهِ هذا السُّلوكَ

وقعَت جملةُ التَّذييلِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ تعليلًا للنَّهي السّابقِ، فَقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يَحتمِلُ وجهَين: أحَدُهُما: لا يُحِبُّ أفعالَهم في السَّرَفِ، والآخر: لا يُحِبُّهم في أنفُسِهم لأجلِ السَّرَفِ[2]، فالإسرافُ لا يحبُّه اللّهُ تعالى ابتداءً، وكلُّ مَن يقترفُ هذا السُّلوكَ، فيصبح صفةً لازمةً له، فهو من غيرِ المحبوبين للّه تعالى؛ بكونه لم يتحدَّث بنعمةِ اللّهِ عليه بحفظِ النِّعمةِ، ولم يقم بشُكْرِها في وضعِها في محلِّها. وفي التّذييلِ تنبيهٌ على الابتعادِ عن

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.

(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/218.

مساخطِ اللّهِ وأسبابِ غضبِهِ ومَقتِهِ، والبعدِ عن كلِّ ما يدعو إلى الزَّهْوِ والتَّكبُّرِ والإعجابِ بالفِعلِ أو النَّفسِ.

نُكتةُ إيثارِ نَفْيِ الحُبِّ على إثباتِ الكراهيةِ:

إطماعُ المُخاطَبين وإرشادُهم إلى تركِ الإسرافِ

لم يَرِدْ في القرآن الكريم لفظُ الكراهةِ مُسندًا إلى اللّه تعالى في سياقِ النّفي كأن يُقال: (إنه يكره المسرفين)؛ لأنَّ نفيَ المحبَّةِ أبلغُ تأثيرًا، وأشَدُّ أثرًا، وقال في هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ذلك أنَّ نفيَ الحبِّ يُرادُ به أمران: إطماعُ المُخاطَبين بحبِّ اللّه تعالى، وإرشادُهم إلى ذلك بترك الإسرافِ، كما أنَّ الإخبارَ بالكُره إبعادٌ لِمَن كُرِهَ بالكُلّيّةِ، وهو داعٍ إلى اليأسِ والقنوطِ من رحمةِ اللّه ومغفرتِه، وصارفٌ لِلّهمم عنِ التّنافس وعملِ الصّالحات، كما أنَّ نفيَ المحبَّةِ يتضمَّنُ إثباتَها لِمَن لم يكن كذلك، وهو غيرُ لازمٍ في الكُره؛ لأنَّ مَن كَرِهَ شيئًا لا يلزمُ أن يُحِبَّ ضدَّه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإسرافُ والتَّبذيرُ:

الإسْـرافُ صَـرْفُ الـشَّيءِ فيما ينبغِي زائـدًا، والتّبذيرُ صَرفُ الـشّيءِ فيما لا يَنبغِي

التَّبذير: يدلُّ أصلُ المادَّةِ على معنى واحدٍ، وهو نَثرُ الشَّيءِ وَتفريقُه، وأَصلُه: إلقاءُ البَذْرِ وطرحُه، فاستُعير لكلِّ مُضيِّعٍ لِماله[1].

بينما يَدُلُّ أصلُ مادَّة الإسرافِ على معنى واحدٍ، وهو تَعَدِّي الحَدِّ، والإسراف: تجاوزُ الحَدِّ في سائرِ الأفعال، إلّا أنّه غلبَ في الإنفاق، ويُقال باعتبارين: باعتبار القدرِ، وباعتبار الكيفيّةِ[2].

والفرقُ بينهما هو أنَّ الإسرافَ صَرفُ الشَّيءِ فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي بخلاف التّبذيرِ؛ فإنّه صرفُ الشّيءِ فيما لا ينبغي أصلًا، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ؛ إذ قد يجتمعان فيكون لهما المعنى نفسه أحيانًا، وقد ينفردُ الأعمُّ وهو الإسرافُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (بذر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (سرف).
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 24.

ولذلك آثرَ النّظمُ النّهيَ عنِ الإسرافِ؛ الّذي هو - هنا - الإفراطُ ومُجاوَزةُ الحَدِّ في اللّباسِ والأكلِ والشّربِ، فالواقعُ فيه فاقدٌ لفضائلِ تَدبيرِ الإنسانِ لنَفسِه، والسَّرَفُ في كلِّ شيءٍ يُضِرُّ بالجسَدِ، ويُضِرُّ بالمعيشةِ؛ فيُؤَدِّي إلى الإتلافِ، ويُضِرُّ بالنَّفسِ إذ كانَت تابِعةً للجسَدِ في أكثَرِ الأحوالِ، بخلافِ التّبذيرِ الّذي هو إتلافُ المالِ وإضاعتُه؛ إذ المبذِّرون أشباهُ الشّياطين في الشّرِّ والفسادِ والمعصيةِ، كما قالَ اللّهُ عنهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الإسراء: 26].

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنكارُ دينِ الفِطْرةِ الجامِعِ بينَ مَصالِحِ البَشَرِ ظلمٌ للنَّفسِ

لَمَّا أمرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ باتِّخاذِ الزِّينة عند كلِّ مسجدٍ، وأكلِ الطِّيِّباتِ دونَ إسرافٍ، أردفَ ذلك باستنكار تحريمِ الزِّينةِ الّتي أخرجَها اللّهُ لعباده، وتحريم الطّيّباتِ منَ الرِّزقِ؛ حيث إنَّه مِنَ المُستنكرِ أن يُحرِّمَ أَحَدٌ بِهَواه ورأيه ما أحلَّه اللّهُ تعالى، وما أخرجَه للنَّاس مِنَ الزِّينة أو مِنَ الطَّيِّبات، فالتَّحريمُ والتَّحليلُ لا يكون إلّا بِشَرعٍ منَ الله تعالى وَحدَه، فالمناسبةُ بين الآيتين تأكيدُ حلِّ الطَّيِّباتِ، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يجني على نفسِه وعلى غيره، "وأيضًا لَمَّا حَرَّمَتِ العَرَبُ في جاهِلِيَّتِها زينةَ اللِّباسِ في الطَّوافِ تعبُّدًا وقُربةً، وحَرَّمَ بعضُهم أكلَ بعضِ الطَّيِّباتِ مِنَ الأدهانِ وغيرِها في حال الإحرامِ بالحَجِّ كذلك، وحَرَّموا مِنَ الحَرثِ والأنعام ما بيَّنه تعالى في سورة الأنعام، وحَرَّمَ غيرُهم مِنَ الوَثنيِّينَ وأهلِ الكِتابِ كثيرًا مِنَ الطَّيِّباتِ والزِّينةِ، كذلك جاءَ دينُ الفطرةِ الجامِعُ بين مصالِحِ البَشَرِ في معاشِهم ومَعادِهم، المُطَهِّرُ المُربِّي لأرواحِهم وأجسادِهم، يُنكِرُ هذا التحَكُّمَ والظُّلمَ للنَّفسِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡرَجَ﴾: من خَرَجَ يَخرُجُ خُرُوجًا ومَخْرَجًا: بَرَزَ من مقرِّه أو حالِه، سواء كان مقرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حالُه

(1) رضا، تفسير المنار: 8/345.

حالةً في نفسِه، أو في أسبابِه الخارجةِ. والخُروج: نَقِيضُ الدُّخُولِ[1]. وأَخرجَ الشَّيءَ: أَبرزَه وجعلَهُ خرجًا فهو مُخرَجٌ. ومعنى الإخراج في الآيةِ: إتاحةُ رزقِ اللهِ منَ المأكولاتِ والمشروباتِ والملبوساتِ.

2) ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: جذر الكلمة (طيب)، وأَصلُ الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحَواسُّ. والطَّيِّبُ نَقيضُ الخَبيث. "والطّعامُ الطَّيِّبُ شرعًا ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومنَ المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّبًا عاجلًا، وهذا هو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ"[2]. والطَّيِّباتُ: المُستَلَذّاتُ مِنَ الطَّعامِ، وقِيلَ: هو اسمٌ عامٌّ لما طابَ كَسبًا ومَطعَمًا[3].

3) ﴿خَالِصَةً﴾: من (خلص)، وأَصلُ الخلوص: تَنقِيَةُ الشَّيءِ وتهذِيبُه[4]. والخالِصَةُ: السّائِغَةُ؛ أي: المُباحَةُ؛ أي: لا شائِبَةَ حَرَجٍ فِيها؛ أي: في أكلِها، وَفي قَولِه: ﴿خَالِصَةً﴾ وجهانِ: أَحَدُهُما: خالِصَةٌ للمؤمنين مِن دُونِ الكُفّارِ، والثّاني: خالِصَةٌ مِن مَضَرَّةٍ أو مَأثَمٍ[5].

4) ﴿نُفَصِّلُ﴾: من (فَصَل)، أصلٌ يدلُّ على إبانةِ أحدِ الشّيئين منَ الآخر: حتّى يكونَ بينهما فُرجَةٌ، ومنه قيل: المَفَاصِلُ، الواحدُ مَفصِلٌ، وفَصَلْتُ الشّاةَ: قطعتُ مفاصلَها، وفَصَلَ القوم عن مكانِ كذا، وانفَصَلُوا: فارقوه[6]، فالمعنى المحوريّ للمادَّة هو تميّزُ الشّيءِ عن غيرِه مع تمام[7]. والمرادُ هنا: التّبيينُ والتّوضيحُ والتّفسيرُ.

5) ﴿ٱلْأٓيَٰتِ﴾: من (أيي)، يدلُّ أَصلُ الكلمةِ على بقاءِ الشَّيء في مكانه شَاخِصًا، عَلَامَةً لِشَيءٍ وأمارَةً عليه. ومِنهُ قولهُم: خرجَ القومُ بآياتهم؛ أي: جماعتِهم، فَلَم يَدَعُوا شيئًا مِمَّا من شأنِه أن يكُونَ شاخصًا إلّا حَملُوه، وفيه معنَى الكَثرَةِ والجسَامَةِ أيضًا[8]، والآيَةُ: كُلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ بِهِ، حسِّيًّا كان أو عقليًّا[9]، والمرادُ منَ الآيات هنا الأحكامُ، وتعاليمُ الإسلامِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (طاب).
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/282.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلص).
(5) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 2/219.
(6) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فصل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيي).
(9) الرّاغب، المفردات: (أيّ).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إبطالُ مزاعمِ أهلِ الجاهليّةِ فيما حرّموه منَ اللِّباسِ والطَّعامِ

أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ بأن يقولَ لأولئك الّذين يطوفون بالبيت عَرايا، ويمتنعون عن أكلِ الطّيّباتِ: مَنِ الّذي حَرَّم الزِّينةَ الّتي أحلّها اللّهُ مِنَ اللّباسِ والجواهرِ؟ وَمنِ الّذي حرَّمَ الطَّيِّباتِ منَ المأكولاتِ والمشروباتِ؟ ومَنِ الّذي يتجرَّأُ على اللّه تعالى فيحرِّمَ ما أحلَّه سبحانه؟ أو يُحَلِّلَ ما حرَّم؟!

إنَّ هذه النِّعم أحقُّ النّاس بِها المؤمنون، وإن شاركهم فيها الكفّارُ في الدّنيا، فهي في الآخرة خالصةٌ للمؤمنين فحسب، وبمثل هذا البيانِ في مسائل الزِّينةِ والأكلِ والشّربِ يبيِّنُ اللّهُ تعالى الأحكامَ؛ ليكونَ المؤمنُ على هُدًى وبصيرةٍ في كُلِّ شؤونِه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أغراضُ الاسْتِئنافِ:

تفنيدُ ادِّعاءاتِ أهلِ الجاهليّةِ فِيما حَرَّمُوه على أنفُسِهم مِنَ اللِّباسِ والطَّعامِ

افتُتِحتِ الآيةُ الكريمةُ باستِئنافٍ جاء مُعترِضًا بَينَ الخِطاباتِ المَحكِيَّةِ والمُوَجَّهَةِ، فقال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾، ولهذا الاسْتِئْنافِ أغراضٌ:

الأوّل: إبطالُ ادِّعاءات أهلِ الجاهليَّةِ فيما حَرَّمُوه على أنفسِهم مِنَ اللِّباسِ والطَّعام[1].

الثَّاني: تأكيدُ الإباحةِ والاستمتاعِ بالزّينةِ، والأكلِ، والشّربِ، مع عدمِ الإسرافِ[2].

الثَّالث: الرّدُّ على المُتَنَطِّعِينَ الّذين يُضَيِّقونَ على أنفسِهم ما وسَّعَه اللّهُ عليهم[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/95.
(2) درويش، إعراب القرآن: 3/344.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/265.

الرابع: مزيدُ تأكيدِ وجوبِ التَّستُّرِ عامَّةً، وفي المَساجِدِ خاصّةً؛ احترامًا لقدسيّتِها ومكانتِها.

فائدةُ البَدْءِ بفعْلِ الأمْرِ:

فائدةُ الافتِتاح بفعل الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ تظهرُ في الآتي:

تَوجيهُ العِنايةِ بالرَّدِّ على المُجادِلين المُنكِرين

الأوّل: الإشارةُ إلى أنَّ الكلامَ الآتي بعد فعلِ ﴿قُلۡ﴾ مَسُوقٌ لِلرَّدِّ والإنكارِ والمُحاوَرَةِ والمجادلةِ على زَعمٍ باطلٍ.

الثّاني: الاهتمامُ بالقول، وأنَّه رسالةٌ خاصَّةٌ تَجِبُ المواجهةُ بِها، وتُؤَدَّى فورَ تلقِّيها.

الثَّالث: توجيهُ العنايةِ بالرَّدِّ على المُنكِرين بالتزامِ منهجِ الوحيِ وقِيَمِه.

غَرَضُ الاسْتِفهامِ:

الإنكارُ على الزَّاعِمين وتَوبيخُهم بخُروجِ الاستِفهامِ مَخرجَ التَّهكُّمِ

الاستفهامُ في قولِه: ﴿مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ إنكاريٌّ توبيخيٌّ، ومعناه: إنكارُ تحريم تلك الأشياءِ مِنَ الثِّيابِ وسائِرِ ما يُتَجَمَّلُ بِهِ ويُتَزَيَّنُ، وتوبيخُ مُحَرِّميها وتسفيههم؛ حيث تجاسروا وحَرَّموا مِن تلقاءِ أنفسِهم ما أَحَلَّه اللّهُ تعالى لَهُم، وما لم يُحرِّمه عليهم، ولا جَوابَ للاستِفهامِ؛ لتضمُّنه معنى الإنكار؛ إذ لا يُرادُ به الاستعلامُ. وقُصِدَ بالاستفهامِ التَّهكُّمُ؛ إذ جَعَلَهم بِمَنزِلَةِ أهلِ عِلمٍ يُطلَبُ مِنهُمُ البَيانُ والإفادَةُ نَظيرَ قَولِهِ: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ [الأنعام: 148] وقَوْلِه: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾ [الأنعام: 143]، وقَرينَةُ التَّهكُّم: إضافَةُ الزِّينَةِ إلى اسم اللّهِ، وتَعريفُها بأنَّها أخرَجَها اللّهُ لِعِبادِهِ، ووَصفُ الرِّزقِ بالطَّيِّباتِ، وذَلِكَ يَقتَضِي عَدَمَ التَّحريمِ، فالاستِفهامُ يَؤُولُ أيضًا إلى إنكارِ تَحريمِها[1].

دَلالةُ الاسْتِفهامِ:

دَلَّ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.

الأصلَ في الملبوساتِ والمطعوماتِ وأنواعِ التَّجَمُّلاتِ الإباحةُ، ويدخُلُ تحتَ الزِّينة "جميعُ أنواعِ التَّزيين، ويدخُلُ تحتَ الطَّيّباتِ مِنَ الرِّزق كلُّ ما يُستلَذُّ ويُشتَهى من أنواعِ المأكولاتِ والمَشروبات، ويدخلُ أيضًا تحتَه التّمتُّعُ بالنِّساءِ وبالطّيب"[1].

الإباحـةُ هي الأصْـلُ في المَلبـوساتِ والمَطعـوماتِ وأنـواعِ التَّجَمُّلاتِ

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ في تقريرِ المَعاني:

الإنكارُ في قولِه تعالى: ﴿مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ مُوجَّهٌ للفاعلِ لا للفعْلِ بدليلِ السُّؤالِ بـ﴿مَنۡ﴾، وهذا هو الوجهُ الأبلغُ في الإنكارِ؛ "فإنكارُ الفاعلِ يُوجِبُ إنكارَ الفعلِ؛ لِعَدمِه بدونِه"[2]، ووجهُ الأبلغيَّة أنَّ الاستفهامَ جاءَ بطريقِ الكنايةِ؛ حيث لم يُسَلَّط على الفعلِ مباشرةً، بل أُخرِجَ مَخرجَ الثَّابتِ غيرَ المنفيِّ، ثُمَّ وُجِّه الاستفهامُ إلى ما هو فاعلٌ له في المعنى بأداة الاستفهام (مَن)، بمعنى: أنَّ هذا الاستفهامَ ليس له فاعلٌ، ويترتَّبُ على ذلك نفيُ التّحريم بطريق الكنايةِ الّتي تأتي فيها الدَّعوى مصحوبةً بالدَّليل، ومِمَّا هو بَيِّنٌ أنَّ الكنايةَ أبلغُ في مَوضِعِها مِنَ التَّصريح[3]، فما جاء عليه النَّظمُ أبلغ من صريحِ التَّحريمِ.

نفيُ التَّحْريمِ بطريقِ الكنايةِ أبـلـغُ مـنَ التَّصريحِ

دَلالاتُ إضافةِ ﴿زِينَةَ﴾ إلى لفْظِ الجلالةِ:

دلَّت إضافةُ الزِّينةِ إلى اللهِ تعالى على الآتي:

الأوّل: التَّشريفُ؛ فإنَّ إضافةَ الشَّيءِ إلى اللهِ تعالى إضافةُ تشريفٍ.

الثَّاني: زيادةُ الإنكارِ على الّذين حرَّموا الزِّينةَ وتوبيخهم؛ لأنَّهم جعلوا أنفسَهم مُشَرِّعينَ في دينِ اللّهِ.

الثَّالث: التّجرُّؤُ على تحريم زينةِ اللّهِ، فهم لم يُحرِّموا الزِّينةَ فحسب، بل حرَّموا الزّينةَ الّتي أخرجَها اللّهُ للنَّاس.

الاجـتـراءُ على تحريمِ زينةِ اللهِ هو اجْتراءٌ على اللهِ تعالى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/67.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/164.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/368.

الرَّابع: الإيذانُ باستحسان الزِّينةِ والامتنانِ على العبادِ بإخراجِها لهم.

الخامس: "الزِّينةُ غيرُ المُحرَّمةِ هي الزِّينةُ الّتي شرعَها اللّهُ منَ التَّجمّلِ باللّباسِ، وحُسنِ السَّمتِ، وليسَت زينةَ الشّيطانِ كارتداءِ اللّباسِ اختيالًا وتكبُّرًا، وما دَأبَت عليه النِّساءُ المُتبرِّجاتُ، فهذه كلُّها زيناتٌ مُحَرَّمةٌ، وكذلك الإسرافُ في التّزَيُّنِ، وإن كان أصلُه الإباحةَ"[1].

نُكتةُ وَصْفِ الزِّينةِ بالاسْمِ الموصولِ:

الزِّينةُ المعهودةُ مِنَّةٌ منَ اللهِ تعالى

وُصِفتِ الزِّينةُ بالاسمِ الموصولِ؛ لمعرفتِها لدى المُخاطَبين، ولمعرفتِهم بأنَّها منَّةٌ منَ اللّه تعالى، فهي زينةٌ معهودةٌ، وفي ذلك إقامةٌ للحجَّةِ عليهم، وذمُّهم في تركِها وعدمِ أخذِها.

فائِدةُ اسْتِعمالِ الفعْلِ ﴿أَخۡرَجَ﴾:

تفصيلُ الزِّينةِ ببيانِ أنَّها مُخرَجةٌ بفضلِ اللهِ

أفادَ استعمالُ الفعلِ ﴿أَخۡرَجَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾: تفصيلَ الزِّينةِ، ومزيدَ إيضاحٍ لها، فإخراجُها "للنَّاسِ عبارةٌ عن خَلْقِ موادِّها لَهُم وتعليمِهم طرائقَ صُنعِها، بما أودعَ في فِطَرِهم من حُبِّها، وفي عقولِهم منَ الاستعدادِ للإبداعِ فيها لِيَبلُوَهُم أيُّهم أحسنُ عملًا، وأكثرُ للمُنعِمِ شُكرًا، وأوسعُهم بِسُنَنِه وآياتِه عِلمًا"[2].

نُكتةُ الإيجازِ في الإسْنادِ:

إخراجُ الزِّينةِ قائمٌ على إخْراجِ أصُولِها

في استعمالِ الفعلِ ﴿أَخۡرَجَ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ معنى إخراجِ الزِّينةِ إخراجُ موادِّها؛ كإخراجِ القُطنِ والكتَّانِ منَ النَّباتِ، والصُّوفِ والحريرِ منَ الحيوانِ، والدُّروعِ منَ المَعادنِ[3]، ووَجهُ بلاغتِه: الإيجازُ في تأديةِ المعنى، وتصويرُه في صورةٍ محسوسةٍ مشاهَدَةٍ؛ فالإخراجُ يكونُ من خَبِيءٍ أو باطنٍ.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/368.

(2) رضا، تفسير المنار: 8/388.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/384.

معنى اللّامِ ودَلالتُها:

أفادتِ اللَّامُ في قوله: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ الاختصاصَ الدَّالَّ على الامتنان؛ فإنَّ الإخراجَ ارتبطَ بغايةٍ، وهي أن تكونَ الزِّينةُ للعبادِ، فلم يُخرجْها سبحانَه إخراجًا مُطلَقًا من غيرِ غايةٍ، بل لغاية أن ينتفعَ العبادُ بها سترًا وتجمُّلًا، وكانت غايةُ السَّترِ في الصَّلاةِ والعباداتِ، فتركوا هذه الغايةَ، ووقعوا في مقاصدِهم الخبيثةِ، وكلُّ كشفٍ للعورةِ مذمومٌ في أصلِه ومآلِه، وفي انبعاثِه وغايتِه، وطريقةُ الجاهليِّين مرهونٌ وجودُها بوجودِ عقائدِهم، وما يُشابِهُها من أفكارٍ.

غـايـةُ إخــراجِ الزِّيـنـةِ الـسَّـتْرُ والتَّجمّلُ، فتركُ أشرفِهما دليلُ خِسّةِ التَّارك

دَلالةُ الاختِيارِ اللَّفظيِّ:

آثرَ النَّظمُ استعمالَ لَفظِ (عِباد) دونَ مرادفاتِها في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾؛ لإغراءِ المُخاطَبين بأن يكونوا عبادًا للّٰه تعالى، فإنَّ مَنِ التزمَ منهجَ اللّٰهِ تعالى استحقَّ تلك الصِّفةَ، ولبيانِ أنَّ مقتضى العبوديَّةِ التزامُ الجادَّةِ وفقَ المطلوبِ، وللتَّنبيه على أنَّ غايةَ خلقِ النَّاسِ هي عبادةُ خالقِهم.

إغـراءُ الـعِـبـادِ بالدُّخولِ تحتَ لِــــواءِ صِـفـةِ الـعُـبـوديَّـةِ لله تعالى

فائِدةُ إضافةِ اللّفْظِ إلى الضّميرِ:

أفادَت إضافةُ لفظِ (عباد) إلى الضَّميرِ العائدِ على لفظِ الجلالةِ في قولِه: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ التَّشريفَ، تشريفَ العبادِ لعبوديّتِهم للّٰه تعالى، فتلك العبوديَّةُ للخالقِ سبحانه شَرَفٌ ما بعدَه شَرَفٌ، بخلافِ العبوديّةِ للمخلوقِ، ففيها ذُلٌّ ما بعده ذُلٌّ، وفيها إيماءٌ للعبادِ بأن يكونوا مُخلصِينَ على منهجِ اللّٰهِ وشرعتِهِ.

تَشريفُ العِبادِ وتكريمُ البلادِ بأن يكونُوا على مَنهجِ اللهِ

نُكتةُ عَطْفِ الطَّيِّباتِ على الزِّينَة:

يُلاحظُ أنّه في الآيةِ السَّابقةِ قد عُطِفَ الأمرُ بالأكلِ والشُّربِ على أخذِ الزّينةِ، وهنا عُطِفتِ الطّيّباتُ على الزّينةِ، ففيه إشرابُ الزِّينةِ المباحةِ معنى الطَّيِّبات، وإكسابُ الطَّيِّباتِ معنى الزِّينةِ، وهذا في غايةِ ما يكون عليه لُطفُ الامتنانِ على العبادِ، وفيه توسيعٌ لدائرة

مناسبةُ العَطْفِ لِمَقامِ الامْتنانِ

الحِلِّ للعِباد، فَهَذِهِ الآيَةُ تَقتَضِي حِلَّ كُلِّ المَنافِعِ، وما يَرْتفِقُون به من أمورِ معاشِهم.

معنَى التَّعريفِ في لفْظِ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

جنسُ الطَّيِّباتِ مَفهومٌ عامٌّ لا يُستثْنَى منه إلَّا بدَليلٍ

التَّعريفُ في قولِه: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للجِنس؛ أي: أحَلَّ اللّهُ لعباده جِنسَ الطَّيِّباتِ، فاللّفظُ على العموم، ويدخلُ تحتَ الطّيِّباتِ منَ الرِّزقِ كلُّ ما يُستَلَذُّ ويُشتَهى من أنواعِ المأكولاتِ والمشروباتِ، ويدخلُ تحتَه التَّمتعُ بالنِّسَاءِ والطّيبِ إلّا ما نُهِي عنه، ووَرَدَ النَّصُّ بتَحريمِه[1]، ففي الجملة إيجازُ قَصرٍ؛ حيث عُبِّر عن صنوفِ الطَّيِّباتِ على كثرتها بجملةٍ مُوجزةٍ.

نَوعُ ﴿مِنَ﴾ وأثرُه في المعنَى:

بيانُ الجنْسِ أوِ التَّبعيضِ

إذا حملنا ﴿مِنَ﴾ على بيانِ الجنس فيكون معنى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ بيانَ جنسِ الطَّيِّباتِ، وأنَّها الرّزقُ، وإذا حملناها على معنى التَّبعيضِ فيكون المعنى أنَّ الطَّيِّباتِ هي بعضُ الرِّزقِ، وأنَّ اللّه رزقَ العبادَ الطَّيّباتِ لينتفعوا بها، ورزقَهم الخبائثَ لِيَبتليَهم بها؛ فالرّزقُ نوعان: طيّبٌ وخبيثٌ، ولكلٍّ حكمُه الخاصُّ به.

نُكتةُ تَكرارِ فعْلِ الأمْرِ ﴿قُلۡ﴾:

إبرازُ بلاغةِ التَّقابُلِ بين المعانِي المُختلِفةِ

أُعيدَ فعلُ ﴿قُلۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يقُل: (هي للّذين آمنوا) بإسقاطِ فعلِ الأمرِ، ونُكتةُ ذلك: بيانُ أنَّ السُّؤالَ سُؤالُ عالِمٍ لا سُؤالُ طالِبِ علم، أُمِرَ السّائلُ بأن يُجيبَ بِنَفسِه سُؤالَ نَفسِه، فَعُقِّبَ ما هو في صُورَةِ السُّؤالِ بقَولِه: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ على طَرِيقَةِ قَولِه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12][2].

وأمرٌ آخر وهو: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُمِرَ أن يسألَهم عنِ المحرَّمِ، وأن

(1) ابن عادل، اللّباب: 9/90.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.

يُخبرَهم لَمِنِ الطَّيِّبات، فاجتمع أمران: إنكارُ التَّحريم، وتوبيخُ المحرِّم، والإخبارُ بالتَّحليل، وتشريفُ المحلَّلِ له، وهذا آكدُ وأوضحُ مع ذكرِ فعل الأمرِ ﴿قُلۡ﴾.

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ البيانيّ:

إظهارُ ما يَجولُ في أذهانِ المُخاطَبين في البحثِ عنِ المقصودِ بالإكرامِ

جاء قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ تقديرُه: لِمَنِ الطَّيِّبات؟ فقال: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتظهرُ بلاغةُ الاستئنافِ في إبرازِ ما يجولُ في أذهانِ المُخاطَبين منَ السُّؤالِ عنِ المقصودِ بالإكرام، وليست جوابًا لقولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ﴾ كما توهَّمه بعضُ المُفسِّرين(1).

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ:

حِلُّ الزّينةِ والطّيّباتِ للمؤمنين، فالّذين حَرَّموها عَلى أنفُسِهم حَرَمُوا أنفُسَهم

يعودُ الضَّميرُ المنفصلُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الزِّينةِ مِنَ الثِّيابِ والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ، "بِقَطعِ النَّظَرِ عَن وصفِ تَحريمِ مَن حَرَّمَها، أي: الزِّينَةُ والطَّيِّباتُ مِن حَيثُ هي، هي حَلالٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا، فَمَن حَرَّمَها عَلى أنفُسِهم فقَد حَرَمُوا أنفُسَهم"(2).

نُكتَةُ حذْفِ المُسندِ:

مفاهيمُ القرآنِ مُسلَّماتٌ لدى المُخاطَبين تُدرَكُ بأدْنَى إشارةٍ

حُذِف المسندُ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على جعلِ الضَّميرِ مبتدأً، وتقديرُ الخبرِ المحذوفِ: حلالٌ؛ أي: الزِّينةُ والطَّيِّباتُ حلالٌ للّذين آمنوا في الحياةِ الدُّنيا، وهذا الحذفُ ظاهرٌ على قراءةِ نافعٍ بالرّفع كما سيأتي لاحقًا، ويُؤيِّده معنى الاختصاص في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتظهرُ بلاغةُ الحذفِ في جعل المحذوفِ مِنَ المسلَّماتِ البدهيَّةِ لدى المُخاطَبين، فالزِّينةُ والطَّيِّباتُ حلالٌ ليست بحرام، وبه يكون الّذين آمنوا هُمُ العبادُ الّذين أخرجَ اللهُ لهم الزّينةَ والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/301.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.

معنَى اللّامِ ودَلالتُها:

المسلمُ فائزٌ بالدَّارَيْنِ وحائزٌ على الكرامتَيْن

اللَّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لامُ الاختصاص، وهو يدُلُّ على الإباحَةِ، فالمَعنَى: ما هِيَ بِحَرام، ولكنَّها مُباحَةٌ للَّذِين آمَنُوا، وإنَّما حَرَمَ المُشرِكُونَ أَنفُسَهُم من أَصنافٍ مِنَ المباحاتِ في الحَياةِ الدُّنيَا كُلِّها، مِثلَ ما ابتدعوه في بهيمة الأنعامِ من تَرْكِ الانتفاعِ بها وجعلِها للأصنام: كالبحِيرَةِ - الّتي تُقطعُ أذنُها إذا ولدَت عددًا من البطون - والسَّائِبَةِ - الّتي تُتركُ للأصنام - والوَصِيلَةِ - الّتي تتّصلُ ولادتُها بأنثى بعدَ أنثى - والحَامِي - هو الذّكرُ منَ الإبل إذا وُلِدَ من صُلْبِهِ عددٌ منَ الإبل - وما في بُطونِهَا، وَحَرَمَ بَعضُ المُشرِكِينَ أَنفُسَهُم مِن أَشيَاءَ في أَوقَاتٍ مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا مِمَّا حَرَّمُوهُ على أَنفُسِهم مِنَ اللِّبَاسِ في الطَّوَافِ وفي مِنًى، ومِن أَكلِ اللُّحُومِ والوَدَك والسَّمنِ واللَّبَن، فَكانَ الفوزُ لِلمُؤمِنِينَ إذِ اتَّبَعُوا أَمرَ اللهِ بِتَحلِيلِ ذَلك كُلِّهِ في جَميعِ أَوقَاتِ الحَيَاةِ الدُّنيا[1].

سِرُّ إيثارِ الاسْمِ الموصولِ على الاسْمِ الظّاهِرِ:

التّعريضُ بالمُشركِين الّذين حرّموا الزِّينةَ والطَّيِّباتِ

آثَرَ النَّظمُ استعمالَ الاسمِ الموصولِ على الاسمِ الظّاهرِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فلم يقُل: (للمؤمنين)؛ وذلك للإشارة إلى عِلَّة بِناءِ الحُكم في الجملة؛ أي: تلك الزّينة، والطَّيّبات مِنَ الرِّزق إنَّما هي لَهُم بسبب إيمانِهم، ففيه تعريضٌ بالمشركين الّذين لم يُؤمنوا.

سِرُّ ذِكْرِ الموصوفِ وعَدَمِ الاكْتِفاءِ بالصِّفةِ:

الزِّينةُ والطَّيِّباتُ تُدْخِلانِ الحياةَ الكريمةَ على المؤمنِ

آثَرَ النَّظمُ ذكرَ الموصوفِ وهو ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، فلَم يُكتَفَ بالصّفة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ وذلك أنَّ الغايةَ الّتي لأجلِها أحلَّ اللهُ الزِّينةَ والطَّيِّباتِ هي الحياةُ الكريمةُ، فأشارَ بذكرِ الموصوفِ وهو ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أنَّ على المؤمن أن يحيا حياةً طيِّبةً مُزيَّنةً

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.

بالمباحاتِ، وفي ذلك ردٌّ على اتجاه الزُّهدِ المُطلَق؛ فإنَّه يُخالفُ مقاصدَ القرآنِ في الإنكارِ على تحريمِ المباحاتِ الّتي من شأنِها إدخالُ السُّرورِ على النَّفسِ المؤمنةِ.

سِرُّ حذْفِ المعطوفِ:

الكفّارُ تابِعُون للمُؤمنين في التَّمتُّع بالزِّينةِ والطَّيِّباتِ

في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ اكتفى بإيراد (الّذين آمنوا) دونَ عطفِ غيرِهم عليهم، وإن شاركَهم غيرُهم في الزِّينةِ والطَّيِّباتِ في الدّنيا؛ تَنبيهًا على أنَّ هذه الزِّينةَ والطَّيِّباتِ خُلِقَتْ للعبادِ أصالةً ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وغيرُهم لهم مقامُ التَّبعِ، فقد شملَتْهم الرَّحمةُ الإلهيَّةُ(1).

نُكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

المسارعةُ بالبُشرَى مُقدَّمٌ على التَّشويقِ

قُدِّمَ قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على قولِه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فلم يقُل: (هي في الحياةِ الدُّنيا للّذين آمنوا)؛ فترَكَ التّشويقَ لِلمُسارعةِ إلى تبشيرِهم، وإدخالِ السُّرورِ عليهم؛ لإيمانِهم بالمُنعِم عليهم سبحانَه، وإقرارِهم بِنِعمِه عليهم؛ فقُدِّموا لَفظًا، كما قُدِّمُوا مكانةً وقربًا.

تَوجِيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

الطَّيِّباتُ خالصةٌ للمُؤمنينَ يومَ القيامةِ مِن دُونِ الكُفّارِ

وردَت قراءتان في قولِه: ﴿خَالِصَةٗ﴾؛ الأولى: بالرَّفع، وهي قراءةُ نافع، على أنَّها خبرٌ بعدَ خبرٍ، ﴿هِيَ لِلَّذِينَ﴾؛ والمعنى: قُل هي حلالٌ أو ثابتةٌ للمؤمنين في الحياة الدُّنيا، خالصةٌ لهم يومَ القيامة. والثّانية: بالفَتحِ على الحاليَّة، وهي قراءةُ الجمهور؛ والمعنى: ثابِتَةً لِلمُؤمِنينَ، مُستَقِرَّةً في الحَياةِ الدُّنْيا، خالِصَةً لهم يَومَ القِيامَةِ(2).

بَراعةُ تقديرِ المحذوفِ:

المحذوفُ المقدَّرُ لا يأخذُ جميعَ معانِي المذكورِ

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ﴾ محذوفٌ يُقدَّرُ بالمقابلِ اللَّفظيِّ ﴿خَالِصَةٗ﴾، والمعنى: قل هي للّذين

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/439، والبِقاعيّ، نَظم الدُّرر: 6/388.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/321، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/269.

آمنوا في الحياة الدّنيا مُشْتَرَكَةً مع غيرِهم، وهي لهم في الآخرة خالِصَةً[1]، لا يشْركهم غيرُهم، ومعنى الاشتراك يظهرُ إيماءً وإشارةً؛ لأنَّ الاشتراكَ ليس على جميع معانيه، وإنّما على معنًى واحدٍ وهو الانتفاعُ والتَّمتّعُ، أمَّا الحِلُّ والطِّيّبُ فهذا للمؤمنين فحسب، وهو ما يُؤكِّدُه معنى الاختصاصِ في حرفِ اللّامِ.

بَلاغةُ التّشْبيهِ المُرْسَلِ المُجمَلِ:

في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ، ومعناه: مِثلُ هَذا التَّفصيلِ نُفَصِّلُ الآياتِ المُشتَمِلةَ على التَّحليلِ والتَّحريم[2]، وغرضُ التّشبيه بيانُ حالِ المشبَّه، والمُرادُ بالآياتِ الدَّلائلُ الدّالَّةُ على الألوهيَّة، وعلى عظيمِ قدرةِ اللّه تعالى، والدّالَّةُ على نُبُوّةِ محمَّدٍ ﷺ، وتظهرُ بلاغةُ التَّشبيهِ في بيانِ استمرارِ التَّفصيلِ في جميعِ الأحكامِ المُستجدَّةِ، ففيه إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ؛ وهو إحاطةُ القرآنِ وشمولُ أحكامِهِ في بيانِ التَّفصيلِ المُستجدِّ في كلِّ عصرٍ.

الإيماءُ إلى الإعجازِ الغَيبيِّ في مُعالجةِ المُستجدّاتِ الفقهيَّةِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارِعِ:

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ في قولِه: ﴿نُفَصِّلُ﴾ دون التَّعبير بالماضي (فَصَّلنا)؛ لترشيحِ معنى الاستمرارِ الّذي أشارَ إليه التَّشبيه، فكلّما استجدَّ أمرٌ كان له تفصيلٌ واضحٌ في الكتابِ العزيزِ؛ لأَنَّ اللّه تعالى نزَّلَ القرآنَ توضيحًا لكلّ أمرٍ يَحتاج إلى بيانٍ، كأحكامِ الحلالِ والحرام، والثّوابِ والعقابِ، وغير ذلك.

كلّما استجدَّ أمرٌ جاءَ تفصيلُه من صاحبِ الأمرِ

فائِدةُ اللّامِ ودلالتُها:

اللّامُ في قَولِه تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ لامُ العِلَّة؛ أي: لأجلِ قوم يعلمون، وهي مُتَعَلِّقةٌ بِفعلِ ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ أي: تَفصِيلُ الآياتِ لا يَفهَمُهُ إلّا قَومٌ يَعلَمُونَ، ففيه تعريضٌ بمَن لا يكترثُ بتفصيلِ اللّهِ لآياتِه.

التّعريضُ بمَن لا يطلُبُ بيانَ آياتِ الله تعالى

(1) الفَرّاء، معاني القرآن: 2/156.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224.

إيثارُ التَّعبيرِ بلَفْظِ (قَوْمٍ):

أَهلُ العِلمِ هُم القائمون بآياتِ اللهِ

أُوثرَ التَّعبيرُ بلَفظِ (قَوْم)؛ للإشارة إلى أنَّ هذهِ الآياتِ الإلهيَّةَ لا يَنتَفِعُ بها إلّا مَن كانَ العِلمُ من مُقَوِّماتِ قوميَّتِه، فإنَّ تفصيلَ الآياتِ لِيَقومَ بها المؤمنون والعلماءُ في حياتِهم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ العلماءَ قائمونَ بآياتِ اللّهِ تعالى، وهي تصرِّحُ بأنَّ مَن يعلمُ آياتِ اللّهِ هو منَ القومِ الّذين يعلمون، فدلَّ اجتماعُ العلماءِ وقيامُهم بالآياتِ على أنَّهم وحدةٌ واحدةٌ.

غَرَضُ تنكيرِ (قَوْم):

تعظيمُ المُؤمنين والثَّناءُ عليهم

تنكيرُ (قَوْم) في قَولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّعظيم والثَّناءِ على المؤمنين؛ لاتِّصافهم بالعلمِ النَّافعِ الهادي إلى الصِّراطِ المستقيم، والمُستَمَدِّ مِن آياتِ اللّهِ، وهَدي رسولِه ﷺ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعِلْمِ دونَ الفَهْمِ:

العِلمُ ركيزةُ بِناءِ الأُمَمِ والحضاراتِ، والجَهلُ داؤُها

في التَّعبيرِ بالِعلمِ تعريضٌ بانحطاطِ الجهلِ وأَهلِه، وفيه أيضًا تحريكٌ لمشاعرهم وتهييجٌ وإلهابٌ لعقولِهم وضمائرِهم؛ لِيُفيقوا مِن غفلتِهم، ويستيقظوا مِن سُباتِهم، ويُصحِّحوا ما هُم فيه مِن أخطاءٍ؛ عَلَّهم يثوبون إلى رُشدِهم[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارعِ:

دعوةُ المُؤمنين للاسْتِمرارِ في طَلَبِ العِلمِ

التَّعبيرُ بالمضارع: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ تَنويهٌ بِفَضلِ استمرارِ طَلبِ العِلم، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى شِدَّةِ حِرصِ هؤلاءِ المؤمنين الموصوفين بالعِلم على تَجَدُّدِ معرفتِهم بِربِّهم، وتجَدُّدِ عِلمِهم بوحدانيَّةِ اللّهِ تعالى، وما شرعَهُ لهم من أحكامٍ، والعمل بمقتضى ذلك.

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللّفظيِّ:

قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ

(1) المَطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/369.

مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرُّوم: 28].

فهذه ثلاثُ آياتٍ كريمةٍ يُسأَلُ فيها عن سِرِّ خِتام الأولى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: 32]، والثَّانية بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس: 24]، والثّالثة بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ [الرّوم: 28].

الخَتْمُ بالعلْمِ يُناسِبُ ذكرَ المُحرَّماتِ والمُباحاتِ

ويُجاب عن هذا بأنَّ تخصيصَ تَفصيلِ الآياتِ بأنّها ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ في سورة الأعراف جاء مناسبًا لسياقِها؛ لأنّها وردَت في سياقِ الرَّدِّ على مزاعمِ الكُفَّار وجهالاتِهم في تحريمِ زينةِ اللّهِ تعالى، والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ؛ حيث كانوا يطوفون بالبيتِ الحرام عَرايا، ويُحرِّمون أكلَ الدَّسَمِ وغيره في أثناء حجِّهم، فجاءَتِ الآيةُ الكريمةُ للإنكارِ عليهم وتوبيخِهم، وبيانِ أنَّ اللّه سبحانَه هو الّذي أَحَلَّ لعبادِه الطَّيِّباتِ، وهذا الحُكمُ الّذي لا ينتفعُ به إلَّا مَن أُوتي عِلمًا؛ أي: مَن كانت لَهُم مَلَكَةٌ وقابِلِيَّةٌ لِلعِلم؛ لِيَتَوَصَّلُوا به إلى الاعتِقادِ الحَقِّ الصَّوابِ، والعَمَلِ الصّالِحِ؛ لذا كان منَ الملائمِ ختامُ الآيةِ بقولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

أمَّا آيةُ يونسَ فوردَت في مقام الحديثِ عن زوالِ التَّمتّعِ بالدّنيا

الخَتْمُ بالتَّفكُّرِ يُناسبُ تدبُّرَ مَثلِ الدُّنيا وما تؤُولُ إليه

من خلال صورةٍ تشبيهيّةٍ مُركَّبةٍ؛ حيث شُبِّهَت هَيئَةُ التَّمَتُّعِ بالدُّنيا لأصحابِها بِهَيئَةِ الزَّرعِ في نَضارَتِه، ثُمَّ في مَصيرِهِ إلى الحَصد، وتَخصِيصُ تَفصيلِها بـ(قوم يتفكّرون)؛ لأَنَّهُمُ المُنتَفِعُونَ به؛ ولأَنَّ ما ذُكِر في هذا المَثَل يحتاجُ إلى رَوِيَّةٍ وتَدَبُّرٍ وتَفَكُّرٍ؛ لذا كان الملائمُ ختامَ الآيةِ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: 24]، "فَإِنَّها آياتٌ وعَلاماتٌ يَستَدِلُّ بِها مَن يَتَفَكَّرُ فِيها على أحوالِ الحَياةِ الدُّنيا حالًا ومآلًا"(1).

"وفيه تَعريضٌ بأنَّ الَّذينَ لَم يَنتَفِعُوا بالآياتِ لَيسُوا مِن أهلِ التَّفكُّرِ، ولا كانَ تَفصِيلُ الآياتِ لأجلِهم"(2).

الخَتْمُ بالعقلِ يُـنـاسـبُ غَـرَضَ المَـثَـلِ في إقـرارِ التَّوحيدِ

وأمَّا آيةُ الرّومِ فقد اشتملَت على مَثَلٍ ضَرَبَه اللّهُ ﷻ لِمَن جَعَلَ لَهُ شَرِيكًا مِن خَلقِه، مَثَلًا مُنتَزَعًا مِن أَنفُسِ المُخاطَبين الَّتي هي أقرَبُ الأُمُورِ إليهم، إذ ضربَ اللّهُ للمشركين مثلًا من عبيدِهم وإمائِهم ممَّن يشارِكُهم في رزقِهم، ويرون أنّهم وإيَّاهم متساوون فيه، فأنتم تخافونَهم كما تخافونَ الأحرارَ الشّركاءَ في مقاسمةِ أموالِكم؟ إنّكم لن ترضَوا بذلك، فكيف ترضَون بذلك في جنبِ اللّهِ بأن تجعلوا له شريكًا مِن خَلْقِه؟؛ لِذلك عَقَّبَ بِجُملَةِ ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّوم: 28]؛ لأنّهم هُمُ الّذين يَستَعمِلُون عُقُولَهم في تَدَبُّرِ الأمثالِ، وهم أصحابُ العقولِ السّليمةِ الّذين ينتفعونَ بها، والقَومُ الَّذِينَ يَعقِلُونَ هُمُ المُطيعونَ، الّذين يَنأَون بأنفسِهم عنِ اللَّجاجِ والعنادِ والمكابرةِ، الباحثونَ عنِ الحقِّ، تقودُهم عقولُهم.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

العِلْمُ والفِقْهُ:

العِلمُ: يَدُلُّ أصلُ مادَّةِ العلمِ على أَثَرٍ بالشَّيءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَن

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/325.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/178.

العِلْمُ هو تحصيلُ المعلومِ جُملةً، والفقهُ نظرٌ زائدٌ عليه بفِطنةٍ وحُسْنِ فهمٍ

غَيرِهِ[1]، والعِلمُ نقيضُ الجَهلِ، وهو إدراكُ الشّيءِ بحقيقته، سواءٌ كان ذلك الشّيءُ خفيًّا، أو جليًّا، والحُكْمُ عَليَه[2]، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [مُحَمَّد: 19]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ [الممتحنة: 10].

أَمّا الفِقهُ فالمعنى المِحوريُّ للمادَّة هو وُصولٌ إلى حقيقة باطنِ الشّيءِ[3]، والفِقهُ هو العِلمُ بالشَّيءِ والفهمُ لَهُ، وغلبَ على علم الشَّريعةِ؛ لِسيادَتِه وشَرَفِهِ وفَضلِه على سائِرِ أنواعِ العِلمِ[4]، فالفقه: فِطنةٌ وتدقيقُ نَظَرٍ، ومن شواهدِه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65]، وقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65].

فالعلمُ هو تحصيلُ المعلوم، والفقهُ نظرٌ زائدٌ عليه، وسياقُ الآيةِ يناسبُه خَتْمُها بالعلم؛ لكون التّحريمِ والتّحليل يحتاجان إلى علم في فهم معاني القرآنِ الكريم وأحكامِه، وأنّ هذا التّفسيرَ والتّبيانَ لا يصلُ إليه أحدٌ إلّا مَن تحلّى بالإخلاصِ والفطنةِ والبصيرةِ.

التَّفكُّرُ تَصرُّفُ القَلبِ بالنَّظَرِ، أمّا التَّدبُّرُ فهو النَّظَرُ العَقليُّ إلى عواقِبِ الأمورِ مع إدامةِ النَّظَرِ

التّفكّرُ والتّدبُّرُ:

التَّفكُّرُ: يدلُّ أصلُ مادّةِ التَّفكُّرِ على تَرَدُّدِ القَلبِ في الشَّيءِ[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فقه).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فكر).

أمّا التَّدَبُّرُ فيدلُّ المعنى المِحوريُّ للمادَّة على امتدادٍ غائرٍ إلى آخرِ الشّيءِ أو خَلفِه[1].

والتَّفَكُّرُ هو: تَصَرُّفُ القَلبِ بالنَّظَر في الدّليل، أمَّا التَّدبُّرُ فإنّه يعني النَّظَرَ العَقليَّ إلى عواقبِ الأمور[2]، أو أن ينظرَ الإنسانُ في الشّيء على وجه العِبرةِ والعِظَة؛ لتقويةِ جوانبِ الخيرِ والصَّلاحِ، ومقاومةِ دواعي الشَّرِّ والفسادِ[3].

ولا يشترطُ في التَّفَكُّرِ إدامةُ النّظرِ، أمَّا التَّأمُّلُ فقد رُوعِي فيه إدامةُ النّظرِ والتّثبّتُ، وكُلٌّ مِنَ التَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ مِن عَمَل القلبِ وَحدَه.

التَّفصيلُ والتَّبْيينُ:

التّفصيلُ فيه زيادةُ تفريقٍ وتجزيءٍ، أمَّا التَّبيينُ ففيه زيادةُ بيانٍ وإيضاحٍ

الفَصلُ: إبانةُ أحدِ الشّيئين مِنَ الآخر حتَّى يكون بينهما فُرْجَةٌ، وفي الفَصل قَطعٌ وتمييزٌ. والتّفصيلُ: التَّبيينُ والتّوضيحُ بصورةٍ واسعةٍ لأُمورٍ متعدّدةٍ مختلفة، نحو قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ [الأنعام: 95 - 97].

التّبيين: يَدُلُّ أَصلُ المادَّةِ على بُعدِ الشَّيءِ وانكِشافِه، ومن شواهدِه قولُه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: 187].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دبر).

(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 249.

(3) الشَّرباصّي، موسوعة أخلاق القرآن: 2/226.

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَفصيلُ المَفاسدِ بالتّدرُّجِ مِنَ الأخفِّ إلى أخطرِها ضَررًا

لَمّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيَةِ السّابقةِ، أنَّ الَّذي حَرَّمه المشركون لَيسَ بِحَرام، بَيَّنَ في هذِهِ الآيَةِ أنواعَ المُحرَّماتِ[1]، كما أنَّه سبحانَه بَعد أن أَنكَرَ في الآيةِ السَّابقةِ على المشركين تحريمَ زينةِ اللهِ الّتي أخرَجَ لعبادِه والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ، أَردَفَ بِبَيانِ أصولِ المُحرَّماتِ العامَّةِ الّتي حرَّمها لضررٍ ثابتٍ لازمٍ لها لا لِعَلَّةٍ عارضةٍ؛ لِيَعلمَ النَّاسُ أنَّ خالقَهم سبحانَه لم يُحَرِّم عليهم إلَّا ما هو ضارٌّ بهم دون ما هو نافعٌ لهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جذرها (فحش)، وهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى قُبْحٍ في شَيءٍ وَشَنَاعَةٍ، والفَاحِشَةُ هي: كُلُّ شَيءٍ جاوَزَ قَدرَهُ، ولا يَكونُ ذَلك إلَّا فِيما تُنكِره الفِطرَةُ، والطِّباعُ السَّوِيَّةُ، والدِّينُ. والفُحشُ والفَحشَاءُ والفَاحِشَةُ: ما عَظُمَ قُبحُهُ مِنَ الأفعالِ والأقوالِ. وهو المعنى المرادُ في الآيةِ[3].

2) ﴿ظَهَرَ﴾: يُقال: ظَهَرَ الأمرُ ظُهورًا بمعنى: تَبَيَّن، وبدا بعدَ الخَفاءِ. وَالأَصلُ فيه كُلِّه ظَهرُ الإنسَانِ، وهو خِلافُ بَطنِه، وهُوَ يَجمَعُ البُرُوزَ والقُوَّةَ. والظُّهور: البُروز، والانكشاف، وضِدُّ الظّهور الاستتارُ؛

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 7/389.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/397.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فحش).

وَلِذَلِكَ سُمِّيَ وَقتُ الظُّهرِ والظَّهيرَةِ، وهُوَ أَظهَرُ أَوقَاتِ النَّهَارِ وأَضوَؤُهَا ومعنى: ﴿مَا ظَهَرَ﴾: ما كان علانيةً أو من أفعال الجَوارِحِ[1].

3) ﴿بَطَنَ﴾: بَطَن الشَّيء بُطونًا: خَفِيَ. ويُقال لكلِّ غامض بَطْنٌ، ولكلِّ ظاهرٍ ظَهْرٌ، ومنه: بُطنَانُ القِدرِ وظهرَانُها، ويُقال لِمَا تدركُهُ الحاسّةُ ظاهرٌ، ولِمَا يَخفَى عنها باطنٌ[2]. والمرادُ من قوله: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: ما كان خفيًّا في السِّرِّ، أو اعتِقادُ القُلُوبِ وأعمالُها[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ أصولِ المُحرَّماتِ العامَّةِ في الشّرائعِ كلِّها

أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يُبَلِّغَ النَّاسَ، بأنَّه تعالى لَم يُحَرِّمْ عليهم الطَّيِّباتِ، وإنَّما حَرَّم عليهم القبائحَ منَ الأعمالِ ممَّا أَسرُّوا وأعلنوا، وسائرَ الإثم كبيره وصغيره، ومجاوزةَ الحَدِّ في كُلِّ الأمور، كما حَرَّمَ عليهم الشِّركَ باللّه وهو أكبرُ الكبائرِ، وأن يختلقوا على اللّه كَذِبًا وزورًا، وينسبوا إليه ما لم يَأذَنْ به، كالكَذِبِ في التَّحليلِ والتَّحريم.

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ اللّه تعالى حرَّم الفواحشَ سِرَّها وعَلانيَتَها؛ غَيْرَةً على عِبادِه، وحِفظًا لِمَصالِحِهم، ومِن ثَمَّ: فظُهورُ الفواحشِ مُؤذِنٌ بخَطَرٍ عَظيمٍ، ومُؤذِنٌ بتَعجيلِ العُقوبةِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ ذِكْرِ لفْظِ (قلْ):

تعليمُ النّاسِ ما هو حَلالٌ وحَرامٌ من عندِ اللهِ هو من أعظمِ مَهامِّ الرّسالةِ النّبويّةِ

آثَرَ النّظمُ البداءةَ بفعلِ الأمرِ خطابًا للرّسولِ ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، بغَرَض تبليغِ المُشركين، دونَ الإخبارِ بسَرْدِ أصولِ هذه المُحرَّماتِ منَ اللّه تعالى مباشرةً؛ لأنَّ الآيةَ تأتي في سياقِ تحريرِ العقولِ والضّمائرِ من

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر)، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/115.

(2) الرّاغب، المفردات: (بطن).

(3) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 2/131، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/115.

الأوهامِ والخرافاتِ، الّتي أشاعَها أهلُ الجاهليّةِ ممَّا اشتهَوْا حلَّه أو حُرمتَه، وأنَّ تعليمَ النّاسِ ما هو حلالٌ وحرامٌ من عند اللّهِ هو من أعظم مهامِّ الرّسالةِ النّبويّةِ، فأمرَ اللّهُ تعالى رسولَه الكريمَ ﷺ أنْ يقولَ للنّاس بأنَّ التشريعَ مِن علم اللّهِ وحِكمتِه، وأنّهم لا يجوزُ لهم أن يحرِّموا على أنفسِهم ما أحلَّه اللّهُ لهم، أو أن يُحلُّوا لأنفسِهم ما حرَّمَهُ اللّهُ عليهم، ولذا نعى ربُّنا الحكيمُ على المشركين ما تقوَّلوه على اللّه منَ الكذبِ الّذي تصفُه ألسنتُهم: هذا حلالٌ لِما حَرَّمه اللّه، وهذا حرامٌ لِما أحَلّه اللّهُ؛ ليختلقوا على اللّه الكذبَ بنسبة التّحليلِ والتّحريم إليه، فالّذين يختلقون على اللّه الكذبَ لا يفوزون بخيرٍ لا في الدّنيا ولا في الآخرة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النّحل: 116].

غَرَضُ القَصْرِ في سِياقِ الرَّدِّ على المُشْركين:

تفنيدُ اعْـتِـقـادِ المُشـركين فيما حَـلَّـلوه، وفيما حرَّموه

في الآية الكريمة إثباتٌ لِبعض ما حَرَّمَه اللّهُ تعالى على خَلقِه وتعديدٌ له، وقد استُخدمَ أسلوبُ القصرِ بطريق ﴿إِنَّمَا﴾؛ لِبيان هذا الخبر في قولِه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾، والقصرُ إضافيٌّ؛ لأنَّ المُحَرَّماتِ المذكورةَ في الآية غيرُ محصورةٍ في هذه الأشياءِ.

وغرضُ القَصر بيانُ أنَّ اللّه حَرَّمَ الفَواحِشَ وما ذُكِرَ معها، لا ما حَرَّمه المشركون مِنَ الزِّينة والطَّيِّباتِ؛ أي: تفنيدُ اعتقادِ المشركين وإبطالُه، وذلك بتَحليل ما زَعَمُوه حَرامًا، وتَحريمِ ما استَباحوه مِنَ الفَواحِشِ وما مَعَها[1].

سِرُّ القَصْرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ النَّفْيِ والاسْتِثْناءِ:

أُوثِرَ استعمالُ أسلوبِ القَصرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾ في هذا السِّياقِ، دونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.

أساليبِ القصرِ الأخرى؛ لأنَّ (إنّما) تُستخدَمُ في الخبرِ الّذي يعلمُه المخاطَبُ، ولا ينكرُه، ولا يدفعُ صِحَّتَه كما قرَّره الجرجانيُّ[1]؛ فيكون القَصرُ بـ﴿إِنَّمَا﴾ هنا تقريرًا لِما يَعرفُه المخاطَبون من تحريم اللّهِ للفواحشِ، ومقصُودُه دفعُ ادِّعائِهم الباطل بما يعلمونه، وتوبيخُهم تعريضًا بكونهم عالِمينَ بالفواحش مع مخالفتِهم لذلك.

توبيخُ المُشْركين بمخالفةِ ما يعلَمُونَه

بَراعةُ استِعمالِ ﴿حَرَّمَ﴾ في الآيتين:

ممَّا يُلحظُ استعمالُ الفعل ﴿حَرَّمَ﴾ في صَدرِ هذه الآيةِ، وفي الآيةِ قبلَها في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ وذلك لبيان الفرقِ بين تحريمِ المشركينَ وتحريمِ اللّهِ من خلالِ أسلوبِ المقابلةِ بالألفاظِ، فَهُم ما حَرَّموا إلَّا الطَّيِّبَ، واللّهُ تعالى ما حَرَّمَ إلَّا كُلَّ خبيثٍ، وفي هذا إظهارٌ لجهلِهم، وغبائِهم، وسفاهةِ عقولِهم، وإظهارُ رحمةِ اللّهِ بعبادِهِ حفظًا لمصالحِهم العاجلةِ والآجلةِ.

بيانُ الفرْقِ بين تحريمِ المُشْرِكين وتحريمِ الله تعالى

نُكتةُ الإتْيانِ بعُنوانِ الرُّبوبيّةِ دونَ الأُلوهيّةِ:

أُوثِرَ التَّعبيرُ بعنوانِ الرّبوبيّةِ دون الألوهيّةِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ مع أنَّ التَّحريمَ والتَّحليلَ من مقتضيات الألوهيَّة؛ وذلك للإشارة إلى إحسانِ اللّهِ تعالى إلى رسولِه ﷺ بجَعلِ دِينِه أحسَنَ الأديانِ وأجمعَها وخاتمَها[2]، وأنّه هو الرّسولُ المبلِّغُ عن ربِّهِ ما يحلُّ وما يحرِّمُ، ولبيانِ أنَّ من مقتضياتِ الرُّبوبيّةِ تحريمَ الفواحشِ؛ رعايةً للخلق، فإنَّ مفاسدَ الفواحشِ على البشرِ عظيمةٌ، ومن مقتضياتِ الرُّبوبيّةِ دفعُها بتربيتِهم على النَّافعِ دونَ الضَّارِّ، وهذا يدخلُ في الحفاظِ على النَّسيجِ الاجتماعيِّ.

المحافظةُ على النَّسيجِ الاجْتِماعيِّ من مُقتضيات التَّربيَةِ والرِّعايةِ

(1) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 330.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/390.

دَلالةُ إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المتُكلِّم:

في إيثارِ التَّعبيرِ بـ(ربّ)، وإضافته إلى ضميرِ المُتكلِّم ﴿رَبِّيَ﴾ إشارةٌ إلى مكانةِ الرَّسولِ ﷺ عند ربِّه، وقُرْبِهِ منه؛ فهو المُتفضِّلُ عليه باصطفائِهِ للرِّسالةِ، المُنعمُ عليه، المُتولِّي أمرَه، "وللإشارة إلى أنَّ المُحَرِّمَ هو رَبُّ الوجودِ، وربُّ الإنسانِ الّذي يَعلَمُ الفِطرةَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ الّذي حَرَّمَ هذا إنَّما حَرَّمَهُ مُتَّسِقًا مع الفِطرةِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عليها، وهو ربُّ كُلِّ شَيء"[1].

تشريفُ الرَّسولِ ﷺ عند ربِّه، وتشريفُ متَّبِعيه

دَلالةُ جمْعِ الفاحشةِ دونَ إفرادِها كالإثمِ والبَغْي:

إن كان المرادُ بالفاحشةِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ الزِّنى أو ما يَتَعَلَّقُ بالفُرُوجِ، فالعدولُ عنِ الإفرادِ إلى الجمعِ قُصِدَ به المبالغةُ في تصويرِ شناعةِ تلك الفاحشةِ، وعظيمِ خَطَرِها، بجَعلِ الفواحش كلّها مجتمعةً فيها، أو جعلِها وحدَها الفواحشَ كلَّها؛ لِمَا ينتجُ عنها من آثارٍ، ويترتَّبُ عليها مِن دمارٍ يُحَطِّمُ أركانَ الأُمَّةِ، ويزلزلُ كيانَها، ويُقَوِّضُ بُنيانَها[2].

الزِّنى أُمُّ الفواحشِ لِمَا ينتجُ عنه من آثارٍ، ويترتَّبُ عليه مِن دَمارٍ

وقد ذَكَرَ الآلوسيُّ نُكتةً أخرى لدلالة جَمعِ الفاحشة، وهي إمَّا للمُبالَغَةِ، أو باعتِبارِ تَعَدُّدِ مَن تَصدُرُ عَنه، أو لِلقَصدِ إلى النَّهيِ عَنِ الأنواعِ؛ إذِ الفواحِشُ هي ما تَزايَدَ قُبحُهُ مِنَ المَعاصِي[3].

بَديعُ فنِّ الاكْتفاءِ:

المرادُ بقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾: جَهرُها وسِرُّها، وفي حَذفِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، فلم يقُل: (وما بطن منها)، كما قال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾، اكتفاءٌ بالمذكورِ على المحذوفِ، وفي هذا الحذفِ محافظةٌ على رشاقةِ العبارةِ وعذوبتِها، وخِفَّتها على اللِّسانِ في النُّطقِ.

المناسبةُ بين إبهامِ الإطْلاقِ وخفاءِ الفواحِشِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2822.
(2) الخضريّ، الإعجاز البيانّي في صِيَغ الألفاظ، ص: 112.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/112.

وسرُّ الاكتفاءِ المناسبةُ بينَ الخفيِّ منَ الفواحشِ وحذفِ الجارِّ والمجرور، فإنَّ إطلاقَ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ دون تقييدٍ يجعلُها مبهمةً، والإبهامُ مناسبٌ للخفيِّ.

بَلاغَةُ الطِّباقِ وفائِدتُه:

تحريمُ عُمومِ صُوَرِ الفاحشةِ مُطلَقًا

أبرزَ الطِّباقُ في قوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ التَّحريمَ القاطعَ لفاحشة الزِّنى سِرًّا وجَهرًا في صورةٍ جَلِيَّةٍ مُؤَكَّدةٍ، فتلك الفاحشةُ مُحَرَّمةٌ في كُلِّ حالٍ، وفي أيِّ زمانٍ ومكانٍ، وقد أتى الطِّباقُ على عموم صوَرِ الفاحشةِ، وهذا دليلٌ على عظيمِ أثرِها، وأنَّها تنخرُ المجتمعاتِ من باطنِها وظاهرِها.

نُكتةُ تَرتيبِ المُحَرَّماتِ في الآيةِ:

ترتيبُ المذكوراتِ باعتبارِ شِدَّةِ خَطرِها على المُجتمعِ أخلاقيًّا

المُتأمِّلُ في ترتيبِ المُحَرَّماتِ في الآية الكريمة يَلحَظُ أنَّها بدأَت بما يتعلّقُ بالعباد، ثمّ بما يتعلّقُ بالله تعالى، فقد بُدِئَ بالفواحش؛ لعظيم خطرِها على الفردِ والمجتمعِ، ثُمَّ بالإثم، والإثمُ أَعَمُّ مِنَ الفواحشِ، فهو مِن باب ذِكر العامِّ بعدَ الخاصِّ؛ وذلك للاهتمامِ بالتَّحذيرِ منها قبلَ التَّحذيرِ مِن عُمومِ الذُّنوب[1].

وقُدِّمَ الإثمُ على البغي؛ لأنّه أعمُّ منَ البَغي الّذي يشملُ كُلَّ ذنبٍ سواء كان ظلمًا للنَّفس أو للغير، كما أُخِّرَ البَغيُ؛ ليناسبَ القَيدَ بَعدَه ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾ هو الظُّلمُ والعُدوانُ، والاستِطالَةُ على النّاسِ، وأُفرِدَ بالذِّكر بِناءً على التَّعمِيمِ فِيما قَبلَه، أو لدُخُولِه في الفَواحِشِ لِلمُبالَغَة في الزَّجرِ عَنه.

وقُدِّمَ تحريمُ الشِّركِ بالله تعالى على تحريم التَّقوُّلِ عليه سبحانَه؛ أي: الإلحادُ في صفاتِه، والافتراءُ عليه تعالى زورًا وكذبًا؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/100.

لأنَّ الشِّركَ به سبحانَه لا يُدانيه ذَنبٌ؛ فقُدِّمَ على ما بَعده؛ لشدَّةِ خطورتِه؛ وللمبالغةِ في الزَّجرِ عنه؛ فهو أَبطلُ الباطلِ.

فالتَّرتيبُ قائمٌ على بيانِ شدَّةِ خطورةِ المُحرَّماتِ على المجتمعِ كلِّه، ابتداءً منَ الفواحشِ، وانتهاءً بالشِّركِ، وإن كان الشِّركُ أعظمَها، إلَّا أنَّ خطورتَه أوضحُ في المُعتقَدِ، وليس كلُّ مُعتقَدٍ باطلٍ مؤثِّرًا في دمار المجتمعِ أخلاقيًّا، بينما الفواحشُ هي المُدمِّرةُ للمجتمعات، وإن كان أصحابُها يدَّعون سلامةَ اعتقادِهم.

التَّرتيبُ باعْتِبارِ ذكْرِ الخطيرِ فالأخْطرِ تَرتيبًا تَصاعُديًّا

أو أن نحملَها على توجيهٍ آخرَ، وهو ترتيبُ المُحرَّماتِ باعتبار الخطيرِ فالأخطر، ترتيبًا تصاعديًّا، وهو رأي ابن القيّم رحمه اللّه تعالى حيث يقول: "وأمّا القولُ على اللّه بلا علمٍ فهو أشدُّ هذه المُحرَّمات تحريمًا، وأعظمُها إثمًا، ولهذا ذُكِرَ في المرتبةِ الرّابعةِ منَ المُحرَّماتِ الّتي عليها الشّرائعُ والأديانُ، ولا تباحُ بحالٍ، بل لا تكون إلّا مُحرَّمةً، وليست كالميتةِ والدّمِ ولحم الخنزير الّذي يُباح في حالٍ دونَ حالٍ، فإنّ المُحرَّماتِ نوعان: مُحرَّمٌ لذاته لا يباحُ بحالٍ، ومحرَّمٌ تحريمُه عارضٌ في وقتٍ دونَ وقتٍ، قال اللّهُ تعالى في المُحرَّم لذاتِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ثمّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظمُ منه فقالَ: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، ثمّ انتقل منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ثمّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهذا أعظمُ المُحرَّمات عندَ اللّهِ وأشدُّها إثمًا، فإنّه يتضمّنُ الكذبَ على اللّه، ونسبتَهُ إلى ما لا يليقُ به، وتغييرَ دينِه وتبديلَهُ، ونفيَ ما أثبتَهُ، وإثباتَ ما نفاهُ، وتحقيقَ ما أبطلَهُ، وإبطالَ ما أحقَّهُ، وعداوةَ مَن والاه، وموالاةَ مَن عاداه، وحُبَّ ما أبغضَهُ، وبغضَ ما أحبَّهُ، ووصفَهُ بما لا يليقُ بهِ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأقوالِهِ وأفعالِهِ. فليسَ في أجناسِ المُحرَّماتِ أعظمُ عندَ اللّه منهُ ولا أشدُّ إثمًا، وهو

أصلُ الشّركِ والكفرِ، وعليه أُسِّسَتِ البِدَعُ والضّلالاتُ. فكلُّ بدعةٍ مُضلَّةٍ في الدّين أساسُها القولُ على الله بلا عِلمٍ"[1].

نوعُ عَطْفِ البَغْيِ على الإثم:

البَغيُ كان دَأبَ أهلِ الجاهليَّةِ، وأُفرِدَ بالذِّكرِ؛ للمُبالغةِ في النَّهْيِ عنه

عَطفُ البَغيِ؛ أي: الظُّلم أو الكِبر على الإثم في قولِه: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مِن باب عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمام به؛ لأنَّ البغيَ كان دأبهم في الجاهليَّةِ، وأُفرِدَ بالذِّكر؛ للمُبالغةِ في الزَّجرِ عنه[2].

فائِدةُ ذِكْرِ قَيدِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

مِعيارُ أخْذِ حقوقِ النَّاسِ يجبُ أن يقومَ على الحقِّ

البَغْي: هو الظُّلْمُ، والاعتداءُ على ما يَخُصُّ الغَيرَ، والبَغيُ لا يكون إلّا بغيرِ الحقِّ، وفائدةُ ذِكرِ القَيدِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ يظهرُ في الأمرين الآتيين:

الأوَّل: دفعُ ما يعتقدُه النَّاسُ بأنَّه ليس بغيًا، فإنَّهم يأكلُ بعضُهم حقَّ بعضٍ بحججٍ واهيةٍ، فكان ذكرُ هذا القيد لبيانِ أنَّ أكلَ حقوقِ الآخرينَ يجبُ أن يكونَ بالحقِّ، وما سواه فليس بحقٍّ، فهي دعوةٌ لإنباتِ النَّاسِ على الحقِّ، والنَّظرِ في معاملاتِهم على ضوءِ الحقِّ.

الآخر: الاحتراسُ بإخراجِ ما كان فيه حقٌّ كالقِصاص، واستردادِ الحقوقِ، وصَدِّ العُدوانِ، وغيرها من صورِ الدِّفاعِ عنِ النَّفسِ، والجهادِ دونَ النَّفسِ والعِرضِ والمالِ، والأرضِ..إلخ، وهذا لا يُسَمَّى بَغيًا حقيقة بل مشاكلة، وذلك على غرارِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 151]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النَّحل: 126]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

(1) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين، ص: 177.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/225.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [الشّورى: 39 - 40]، فإطلاقُ العِقابِ والبَغي على القِصاصِ إنّما هو من بابِ المشاكلةِ.

فائدةُ إيثارِ ذِكْرِ الشِّركِ على الكُفرِ بالله:

خطورةُ الشِّركِ في تشريعِه الباطلِ ونسبتِه للحقِّ

أُوثِرَ ذِكرُ الشِّركِ على الكفرِ باللّه في قولِه تعالى: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ لمناسبته لسياقِ الآيةِ الكريمةِ، وما فيه من تعديدٍ لِصُور الشِّرك، ومظاهره؛ فإنَّ الشِّركَ باللّه تعالى - كأن يُعبدُ المخلوقُ كما يُعبدُ اللّه، أو يُعظَّمُ كما يعظَّمُ اللّه، أو يُصرفُ له نوعٌ من خصائصِ الرّبوبيّةِ، أو الألوهيّةِ، مثل عبادةِ الأصنام، واعتقادِ شريكٍ للّه في تصريفِ الكونِ، وجعلِ شريكٍ للّه في أسمائِه، وصفاتِه - هو أسوأُ صورِ الكفرِ، وهو جذرُ كلِّ رذيلةٍ، لِمَا فيه منَ التّشريعِ الباطلِ، وادِّعاء أنَّه حقٌّ، فالمشركُ يأتي بالباطلِ وينسبُه للحقِّ، وهو ما يقعُ فيه الجاهليّون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

بَلاغةُ ذِكْرِ الأُلوهيَّةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

تعظيمُ خطَرِ الشِّركِ باللّه تعالى

عُدِلَ عن ذِكرِ الرُّبوبيَّةِ إلى الألوهيّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾ مع أنّ المُتقدِّمَ ذكرُه في صدر الآيةِ الكريمةِ هو الرُّبوبيّة: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾؛ تجاوبًا مع الارتقاءِ في التَّحريمِ؛ وذلك بِذِكرِ الاسمِ الأعظمِ الَّذي اختَصَّ بِصِفاتِ الكَمالِ والجلالِ، ولتعظيمِ خطرِ الشِّركِ به سبحانَه، والتَّشنيعِ على مرتكبِه.

بَلاغةُ ذِكْرِ القَيدِ:

التَّهكُّمُ بعُقولِ المُشركين والاسْتِخفافُ باعْتِقادِهم

في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ كنايةٌ، وهي نَفْيُ لازِمِ الشَّريكِ، وهو السُّلطانُ، الّذي يقتضي نَفْيَ مَلْزومِه، وهو الشِّركُ، والمعنى: حرَّم رَبِّي أن تشركوا به شركاءَ لا ثبوتَ لَها، ولا أنزلَ سبحانَه بإشراكِها سلطانًا[1].

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/377.

وفي هذه الصِّلةِ تَهَكُّمٌ بالمشركين، واستخفافٌ بعقولهم؛ لأنَّه يستحيلُ عَقلًا أن يُنَزِّلَ اللّهُ تعالى بُرهانًا؛ لِيُشرَك به، وإذا لم يَجُز إنزالُ البُرهانِ بالإشراكِ كان ذِكرُ ذلك سُخريةً منهم، وتَهَكُّمًا بِهِم، واستهزاءً، ومنَ المعلوم أنَّه لا بُرهانَ عليه حتَّى ينزل[1]، وهذا من قبيل قول ابن أحمر:

لَا تُفزِعُ الأَرنَبَ أَهوالُهَا *** ولَا تَرَى الضَّبَّ بِها يَنجَحِرُ[2]

مَعاني الباءِ ودَلالاتُها:

إمَّا المُصاحبةُ المَجازيَّةُ أوِ الاسْتِعلاءُ المَجازيُّ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾، إمَّا أن تكونَ لِلمُصاحَبَة المجازيَّة بمعنى (مَعَ)، والتَّقدير: لَم يُنَزِّلْ حُجَّةً مُصاحِبَةً له، وهي مُصاحَبَةُ الحُجَّةِ والدّليلِ والبُرهانِ لِلمُدَّعِي، وإمَّا أن تَكونَ الباءُ بمعنى (على)، والاستِعلاءُ مَجازِيٌّ على غرار قَولِه تَعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: 75]؛ أي: سُلطانًا عليه؛ أي: دَليلًا[3].

نُكتةُ العُدُولِ عنِ لفْظِ الافْتِراءِ إلى ذِكْرِ لفْظِ القَولِ:

التَّلطُّفُ بالمُخاطَبين مع إشْعارِهم بجَهْلِهم وباطِلِهم

عُدِلَ عن لفْظِ الافْتراءِ إلى ذِكْرِ لفْظِ القولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إذ كان مُقتضَى الظّاهرِ أن يقولَ: وأن تفتروا على اللّه؛ لأنَّ التَّقوّلَ على اللّه جهلًا افتراءٌ، ونكتةُ ذلك المبالغةُ في استقباحِ هذا القَولِ وتحريمِه، وأنَّ هذا التّقوّلَ في دِينِ اللّه تعالى إنَّما هو مُجرَّدُ تَوَهُّمٍ لا سَنَدَ له.

وذهبَ ابنُ عاشور إلى تضمُّن (تَقُولُونَ) مَعنى تُكَذِّبُونَ أو مَعنى تَتَقَوَّلُونَ، ولِذَلِكَ عُدِّيَ بِـ(عَلى)، وكانَ حَقُّهُ أن يُعَدّى بِـ(عَنَ) لَو كانَ قَولًا صَحِيحَ النِّسبَةِ[4].

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/213.
(2) البغدادي، خزانة الأدب: 4/273.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/101.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/101.

والأَولى من ذلك كلِّه: أن يكونَ ذكرُ القولِ باعتبارِ جهلِهم بمآلِه الباطلِ، وذكرُ حرفِ الاستعلاءِ باعتبارِ الإشارةِ إلى ذلك، فتكون الآيةُ قد تلطَّفَت بالمُخاطَبين، مع إشعارِهم بجهلِهم وعدمِ تحرِّيهم الحقَّ.

والتَّقوُّل على اللَّه من أعظم أصولِ المُحَرَّماتِ الذَّاتيةِ الّتي حَرَّمَها اللّهُ تعالى في دِينِه على ألسنةِ جميعِ رُسلِه؛ لأنَّه أصلُ التَّحريفِ، وشُبْهةُ الابتداعِ في الدِّين الحقِّ، والمقصودُ في الآية تَحرِيمُ القَولِ في الدِّينِ مِن غيرِ يَقِينٍ، بالإلحادِ في صِفاتِه سبحانَه والافتراءِ عليه[1].

فائِدةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

إدخالُ المهابةِ على الخبرِ وبيانُ شَناعةِ التَّقوُّلِ على الله تعالى

عُدِل عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إذ لم يقُل: وأن تقولوا عليه؛ وذلك لإدخالِ المَهابةِ على الخبر، وللتّذكيرِ بشناعةِ التَّقوُّلِ، وشِدَّةِ تحريمِه؛ لأنَّه تَقَوُّلٌ على اللّه تعالى ملكِ الملوكِ ﷻ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ظَهَرَ وبَدا:

الظُّهورُ أقوَى انْكشافًا وبُروزًا، أمّا البُدوُّ فهو مُطلقُ الظُّهورِ

الظُّهورُ يدلُّ على قوّةٍ وبُروزٍ، من ذلك: ظهرَ الشّيءُ يَظهرُ ظُهورًا فهو ظاهرٌ، إذا انْكشفَ وبَرَزَ، ولذلك سُمِّي وقتُ الظُّهرِ والظَّهيرةِ، وهو أظهرُ أوقاتِ النّهارِ وأضْوَؤُها، والأصلُ فيه كلِّه ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خِلافُ بطْنِه، وهو يجمعُ البُروزَ والقُوّةَ[2].

أما البُدوُّ فهو مُطلقُ الظُّهورِ، يُقال: بدَا الشيءُ يبدُو: إذا ظهرَ، فهو بادٍ، وسُمِّي خلافُ الحَضَرِ بَدْوًا من هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ منَ الأرضِ، وليسُوا في قُرى تَسترُهم أبنيتُها[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).

وأمَّا ما قيلَ من أنَّ الظّهورَ يكون بِقَصْدٍ وبغيرِ قَصْدٍ، يُقال: استَتَر فلانٌ ثُمَّ ظَهَرَ، ويدلُّ هذا على قصْدٍ للظّهور، أمَّا البُدُوُّ فيَكونُ بغيرِ قصْدٍ، يُقال: بَدا البَرقُ، وبَدا الصّبحُ، وبدَتِ الشَّمسُ[1]؛ فليس دقيقًا لورودِ الاسْتِعمال بخلافِه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِمَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف: 35].

فالظُّهورُ والبُدوُّ يَلتقيان في معنى الانْكشافِ، ويختصُّ الظُّهورُ في قوّةِ الإبرازِ، أما البُدوُّ ففي مُطلَقِ الظُّهورِ، وحَسُنَ التَّقابلُ في الآية لبيانِ مُقابَلةِ الظّهرِ للبطْنِ.

بَطَنَ وخَفِيَ:

لفظُ (بَطَنَ) أوغلُ في التَّستّرِ والإخفاءِ من (خفي)؛ و(خَفِيَ) مُطلقُ السّتْرِ

خَفِيَ الشَّيءُ: استَتَرَ، وتَوارى، ولم يَظهر. والإخفاءُ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ. يُقال: خفي الشّيءُ، وأخفيتُه: استترَ وسترتُه. والخَفاء: ما يُستَرُ به كالغطاء[2].

بَطَنَ الشَّيءُ: خَفِيَ. ويُقال لكلّ غامضٍ بَطْنٌ، ولكلّ ظاهرٍ ظَهْرٌ، ومنه: بُطْنَانُ القِدرِ وظُهرَانُها، ويُقال لما تدركه الحاسَّةُ ظاهرٌ، ولِمَا يَخفَى عنها باطنٌ[3]. واستُعير في الأمور المعنويّةِ نحو: هذا بَطْنُ الأمر، وبَطْنُ الوادي أيضًا، تشبيهًا بِبَطنِ الإنسانِ[4].

الإثمُ والعُدوان والبَغيُ:

الإثمُ هو المُحرَّمُ، والعُدوانُ اعْتِداءٌ على الآخرين، والبَغيُ اعتداءٌ مُبالَغٌ فيه

قال ابنُ القيّم: إنّ الإثمَ ما كان مُحَرَّمَ الجِنسِ، والعُدوانَ ما كان مُحَرَّمَ القَدرِ والزّيادةِ، فهو تعدّي ما أُبيحَ إلى القَدرِ المُحَرَّم، كالاعتداء في أخذِ الحقِّ ممّن هو عليه بأخذِ زيادةٍ عمّا له، وبإتلافِ أضعافِ ما أُتلِفَ عليه، أو قول أضعافِ ما قيل فيه. فهذا كلُّه تَعَدٍّ للعدل.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 227.
(2) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (خفي).
(3) الرّاغب، المفردات: (بطن).
(4) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (بطن).

إنّ الغالبَ في استعمالِ البغي أن يكونَ في حقوقِ العبادِ والاستطالةِ عليهم، وأنّه إذا قُرِنَ بالعدوان كان البغيُ ظلمَهُم بمحرَّم الجنسِ كالسّرقةِ والكذبِ والبهتِ والابتداءِ بالأذى، والعدوانُ تعدّي الحقّ في استيفائِهِ إلى أكبر منه، فيكون البغيُ والعدوانُ في حقِّهم كالإثم والعدوان في حدودِ اللّهِ، فههنا أربعةُ أمور: حقٌّ للّه وله حدٌّ، وحقٌّ لعباده وله حدٌّ، فالبغيُ والعدوانُ والظّلمُ تجاوزُ الحدّين إلى ما وراءهما، أو التّقصيرُ عنهما فلا يصلُ إليهما[1].

السُّلطانُ والحُجَّةُ:

السُّلطانُ الحُجَّةُ القـــويّـــةُ في البَيّنةِ، والحُجَّة المُجادَلُ بها

السُّلطانُ: الحُجَّةُ البَيِّنَةُ؛ لأنَّ لها سُلطَة على العقلِ والقلبِ. والسُّلطانُ عندَ العربِ الحُجَّةُ، ولا يُجمَعُ لأنّ مَجراهُ مَجرَى المصدرِ. واللّفظُ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، فَمَن ذَكَّرَ السُّلطانَ ذَهبَ بِهِ إلى معنى الرَّجل، ومَن أَنَّثَه ذَهبَ به إلى معنى الحُجَّة. والسُّلطان: الحاكم، وإنَّما سُمِّيَ سُلطانًا؛ لأَنّه حُجَّةُ اللّهِ في أرضِهِ، أو هكذا ينبغي أن يكون[2]، وقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقّة: 29]؛ معناه: ذهبَت عني حجّتي.

الحُجَّة: الدّليلُ والبرهانُ. يُقال: حاجَجتُه فأَنا مُحاجٌ وحَجيجٌ، فَعِيل بمعنى فاعل. ومن أمثالِ العربِ: لَجَّ فَحَجّ؛ معناه لَجَّ فَغلَبَ مَن لاجَّه بِحُجَجِه، يُقال: حاجَجتُه أُحاجُّه حِجاجًا ومُحاجَّةً حتَّى حَجَجتُه؛ أَي: غَلَبتُه بالحُجَجِ الّتي أَدلَيتُ بها. والمَحَجَّةُ: الطَّريق[3].

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع التّفسير: 2/210.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حجج).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

آجالُ الأُمَمِ مَرهونةٌ بظُهورِ الفواحشِ فيهم

لَمَّا بيَّن اللّهُ تعالى في الآية السَّابقةِ الحَلاَلَ والحَرامَ وأحوالَ التَّكاليفِ، بَيَّن في هذه الآية أنَّ لِكُلِّ أمَّةٍ مُدَّةً وأجلًا[1]؛ للتَّحذير من هلاك المجتمعِ ممَّا يُصيبُه من داءِ الفواحشِ والشِّركِ باللّه تعالى، وفي السِّياقِ السَّابقِ نَعى اللّهُ عَلى المُشرِكينَ إعراضَهم عنِ الحقِّ، وانغماسَهم في الباطل، وعُتُوَّهم في الكفر بَعدَ أن دُعوا إلى الإيمانِ، فكانَ حالُهم حالَ مَن لا يُقلِعُ عَمّا هو فيهِ؛ لذا أعقبَ ذَلك بإنذارِهم ووَعيدِهم إقامَةً لِلحُجَّةِ عليهم وإعذارًا لَهم قَبلَ حُلولِ العَذابِ بِهِم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٍ﴾: من أَمَّ المكان: قَصده. وأُمُّ الشَّيء: أَصلُه. والأُمُّ: الوالدة. وأُمُّ الكِتاب: اللَّوح المحفوظ، ويُطلَق أيضًا على سورة الفاتحة. والأُمَّة: الجماعة، أو القَرْن، والجِيل، وكلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمَّا دينٌ واحدٌ، وإمَّا زمانٌ واحدٌ، وإمَّا مكانٌ واحدٌ، سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وجَمْعُها: أمم. وقد وردَت كلمةُ (الأُمَّة) في البيانِ القرآنيِّ على خمسَةِ معانٍ؛ هي: الجماعة منَ النّاسِ، والمِلَّةُ والسُّنَّةُ والدِّينُ، والرَّجُلُ الصّالحُ الّذي يؤتَمُّ به، والزَّمانُ، والصِّنفُ[3].

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/99.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/102.
(3) ابن الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 2/255، والرّاغب، المفردات، والفَيُّوميّ، المصباح المُنِير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمّ)، ويُنظر: ابن الجوزيّ، وهو الّذي عدّها خمسةً فزاد: (الصنف)، في نزهة الأعين النّواظر، ص: 143 - 144.

ومعنى ﴿أُمَّةٍ﴾ في الآية: الجماعة منَ النّاسِ اجتمعوا على الكفرِ.

2) ﴿أَجَلُۖ﴾: من أَجَلَ، وهو غَايَةُ الوَقتِ في مَحَلِّ الدَّينِ وَغيرِه، والأَجَل: المدَّةُ المضروبةُ، ويُقال للمُدَّة المُحَدَّدة لِعُمرِ الإنسانِ، وهو الوَقتُ المُوَقَّتُ المَضرُوبُ لانقضاءِ المُهلَةِ، وأجَلُ الشّيءِ: مُدَّتُه ووقتُه الّذي يَحلُّ فيه. وَقولُهُمْ " أَجَلْ " في الجَوَابِ، هُوَ مِن هَذَا البَابِ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ انتَهَى وبَلَغ الغَايَةَ[1]. والمرادُ هنا: وَقتُ حلولِ الهلاكِ ونزولِ المَثُلاتِ على المشركين.

3) ﴿يَسۡتَأۡخِرُونَ﴾: من أخَرَ، ويدلُّ أصلُ الكلمةِ على نقيضِ التَّقدُّم. والمعنى المحوريّ تَخَلُّفُ الشَّيءِ (في المكان أو الزّمان) عن مُقارنه: كخَشَبَةِ الرَّحلِ النّاتئةِ في مُؤَخَّرَتِه، وكَخِلْفَي النّاقة ومُؤْخِرِ العين ومُؤَخَّرِ الرّأس[2]. والأُخُرُ ضِدُّ القُدُم[3]. والمرادُ هنا: لا يُترَكُون بَعدَ الأجَلِ شَيئًا قليلًا منَ الزَّمانِ.

4) ﴿يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾: من قَدَمَ، أَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى سَبقٍ وَرَعفٍ، ثُمَّ يُفَرَّعُ منهُ ما يُقارِبُهُ: يَقُولُونَ: القِدَمُ: خِلَافُ الحُدُوث، وَأَصلُهُ قَولُهُمْ: مَضَى فُلَانٌ قُدُمًا: لَمْ يُعَرِّجْ وَلَمْ يَنْثَنِ. والمعنى المحوريّ للمادَّة: سَبقُ الشَّيءِ نافذًا إلى الأمامِ بِقُوَّةٍ أو حِدَّةٍ[4]. والمعنى المرادُ نَفيُ إهلاكِ الأُمَمِ قَبلَ مَوعدِ أَجَلِها المضروب.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نِهايةُ أعْمارِ الأُمَمِ نِهايةٌ حَتميَّةٌ وزوالٌ أكيدٌ

أخبَرَ تعالى أنَّ لكلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ، مُصِرَّةٍ على الكُفرِ، وقتًا مُحَدَّدًا لحُلولِ العُقوبةِ عليهم، ونزولِ المَثُلات بهم على شِركِهم، فإذا جاءَ الوقتُ المُعَيَّنُ لإهلاكِهم هَلَكوا، لا يتأخَّرونَ عنه أَقَلَّ وقتٍ، ولا يتقدَّمون، وفي هذا تهديدٌ لِمشركي مَكَّةَ ووعيدٌ لَهُم[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المُنير، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (أجل).
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدم).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/391.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ هذه الآيةِ منَ السّابقِ واللّاحقِ:

الآجالُ مكتوبةٌ والنِّهاياتُ قريبةٌ

موقعُ هذه الآيةِ يحتملُ وجهين: فإمَّا أن تكونَ استئنافيّةً؛ للدّلالة على أنّ الآجالَ مكتوبةٌ، والأعمارَ محسوبةٌ؛ لئلّا يغترَّ الإنسانُ بحياته الدُّنيا الفانية(1).

وإمَّا أن تكونَ اعتراضيّةً بَينَ جُملَة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ [الأعراف: 31] وبَينَ جُملَة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأعراف: 35]؛ للتَّنبيه على أنَّ المخاطَبين لهم آجالٌ محتومةٌ، فعليهم أن يَعمَلُوا بأخْذِ الزِّينةِ واتِّباعِ الرُّسُلِ.

دَلالةُ العُمومِ الصّريحِ:

تَـرسـيـخُ مَفهومِ السُّنَّةِ الاجتماعيَّةِ في اجْتِماعِ الأُمَمِ وانْدثارِها

يتضمّنُ قولُه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ وعيدًا وتهديدًا للمشركين من أهلِ مكّةَ بإخبارِهم أنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ كافرةٍ مُعاندةٍ لرسولها، ومخالفةٍ لأمرِ رَبِّها، أجَلًا مُؤَقَّتًا لِمَجيءِ العَذابِ، وهذا ما أشارَ إليه التّنكيرُ بدلالته على العمومِ الصَّريحِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾.

وفي الجملة إشارةٌ إلى الخصوصِ الضِّمنيِّ، بيان ذلك أنَّ في العموم بشارةً بانتهاء صَولَةِ المشركين، وانكسارِ شوكتِهم، وبأفولِ زمانِهم، وشروقِ شمسِ الإسلامِ، وارتفاعِ رايةِ التّوحيدِ، فما وقعَ للأمم السَّابقةِ سيكون لهم.

نُكتةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ على عامِلِه:

سُنَّةُ اللهِ تعالى في إهلاكِ الأُممِ المُكَذِّبةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ تَقَدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَلِكُلِّ﴾ على المبتدأ ﴿أَجَلٞۖ﴾؛ لتأكيد العمومِ المستفادِ من لفظ (كُلّ)، ومن تنكيرِ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٞۖ﴾؛ أي: تأكيد أنَّ لكلِّ أُمَّةٍ منَ الأممِ المُكَذِّبة في أيِّ زمانٍ منَ الأزمانِ وقتًا مُعَيَّنًا مَحدُودًا يَنزِلُ فيه عَذابُهم منَ اللهِ، أو يُميتُهم فيه.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/344.

سِرُّ التَّعبيرِ بِأُمَّةٍ:

كلُّ مَن رضيَ بإمامةِ الكُفرِ فهو داخلٌ في التَّهديدِ

هناك مترادفاتٌ كثيرةٌ تدلُّ على الفِرقةِ أو الجماعةِ منها: قَرْن، وقرية، لكن أُوثِرَ التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ بلفظِ ﴿أُمَّةٍ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالأُمَّةِ الجَماعَةُ الَّتي اشتَرَكَت في عَقيدَةِ الإشراكِ أو في تَكذِيبِ الرُّسُلِ[1]، فهم جماعةٌ يجمعُهم الكفرُ باللّه تعالى، وبرزَت فيه عواملُ الاجتماعِ، من دينٍ واحدٍ، وزمانٍ واحدٍ، ومكانٍ واحدٍ، ففي هذه الجماعةِ معنى الاجتماعِ على قيادةٍ واحدةٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ الأصلِ اللُّغويِّ، إذِ الإمامُ هو القائدُ لَمن تَبِعَه، ففي لفظ الأمّةِ معنى اجتماعِ النَّاسِ على قيادةٍ واحدةٍ والرّضا بها، ففي الآية إيماءٌ في تهديد كلِّ مَن رضي بإمامة الكفرِ وتابع على ذلك.

وأيضًا لم يَقُل: (ولكلِّ إنسان أجلٌ)، مع أنّه لكلِّ إنسانٍ أجلٌ فعلًا، فلماذا اختارَ ﷻ ذكرَ أجلِ الأمَّةِ، تلك حكمةُ اللّهِ تعالى فيما يختارُ من بيانٍ في الذِّكرِ الحكيمِ، ونتلمَّسُ الحكمةَ في ذلك، فنقول: إنّه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكرَ الأمَّةَ، دون آحادها، أوّلًا: لأنّه إذا كان للأمَّة بآحادها وجماعاتها أجلٌ، فأولى أن يكون للآحاد آجالُها، ثانيًا: لأنّ الأمّةَ هي الجماعةُ الّتي يجمعُها عصرٌ وعاداتٌ وتقاليدُ، ويكون فيها توجيهٌ إلى الخير أو إلى الشّرّ، فهي جيلٌ له أحوالُه، وعليه تَبِعاتُه، فاللّه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرَنا أنَّ لكلِّ جيلٍ مِنَ الأجيال أَجَلَهُ الّذي ينتهي عندَه، ويذهبُ بأثقالِه، ويجيءُ من بعده جيلٌ آخرُ له شأنُه[2].

نُكتةُ الإيجازِ بِحَذْفِ الصِّفَةِ:

تفخيمُ النّكرة وتعظيمُ شأْنِها

قولُه تعالى: ﴿أُمَّةٍ﴾ موصوفٌ حُذِفَت صفتُه، والتّقدير: (أمَّةٍ مُعانِدَةٍ مُكَذِّبَةٍ). وهذا إيجازٌ بالحذف، والمعنى: لِكُلِّ أُمَّةٍ مُكَذِّبَةٍ إمهالٌ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/104.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2825.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/103.

وبَيَّنَ ابنُ جِنّي عِلَّةَ حَذفِ الموصوفِ أكثرَ مِنَ الصِّفةِ بقوله: "يقعُ حذفُ الموصوفِ أكثرَ مِن صفتِهِ؛ لأنَّ الصِّفةَ تأتي لإيضاحِ الموصوفِ وبيانِهِ، ولَمَّا كانتِ الصّفةُ مُختصّةً بالإيضاحِ والبيانِ كَثُرَ قيامُها مقامَ الموصوفِ، بخلافِ الموصوفِ، فإنّه يكثرُ إبهامُه من غيرِ ذكرِ الصِّفَةِ؛ لذا كان قيامُه مقامَ الصّفةِ قليلًا، ويشترطُ لحذفِ الصّفةِ أن تدلَّ الحالُ عليها"(1).

وفي حذفِ الصّفةِ إشارةٌ إلى تهويلِها وتفخيمِها، وأكثرُ ما يردُ الحذفُ للتّفخيمِ والتّعظيمِ في النَّكِراتِ، وكأنّ التّنكيرَ حينئذٍ عَلَمٌ عليه، ويستشهدُ بآياتٍ كثيرةٍ منها قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: 105]؛ أي: وزنًا نافعًا، وقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ﴾ [قريش: 4]؛ أي: من جوعٍ شديدٍ وخوفٍ عظيمٍ(2).

بَراعةُ الاسْتِعارةِ المَكنيَّةِ:

تَصويرُ المَعنويِّ في صُورةٍ مَحسوسةٍ مُشاهَدةٍ

في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيث شُبِّهتِ الأُمَمُ بِبَشَرٍ لَهُم حياةٌ وأَجَلٌ ينتهي، وحذَفَ المُشبَّهَ به وذكرَ لازِمًا من لوازِمِه وهو الأجلُ، وفيها تصويرٌ للمعنى المعنويّ في صورةٍ محسوسةٍ مُشاهَدةٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (الأجل):

سنَّةُ اللهِ لا تتخلَّفُ وعذابُه لا يَتخفَّفُ

لم يُعبِّرِ النَّظمُ القرآنيُّ بلفظ (عذاب) أو (إهلاك) أو (كتاب)؛ لتثبيتِ الرّسولِ ﷺ وطمأنتِهِ بأنَّ تأخيرَ العَذابِ عَن مُكذِّبيه، إنَّما هو جَريٌ على سُنَّةِ اللّهِ تعالى في إمهالِ الظّالِمِينَ(3)، ولإعلامِ الخلقِ أنَّ نزولَ العذابِ عامٌّ في الجميعِ إن جَرَوا على ما جرى عليه المُتقدِّمون.

(1) ابن جنّي، الخصائص: 1/82.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 3/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/103.

مناسبةُ ما أُسنِدَ إلى المجيءِ مِن عذابٍ وهلاكٍ

سِرُّ إيثارِ التَّعْبيرِ بالمجِيءِ:

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿جَآءَ﴾ على (أتى) في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ إذِ المجيءُ أعمُّ، لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، والمجيءُ صَعبٌ، فهو مجيءُ عذابٍ، وبَأسٍ، وشِدَّةٍ، ومَوتٍ، والأَجَل مِن ذلك[1].

معنَى الفاءِ:

للفاءِ معانٍ كثيرةٌ، منها: الفاءُ الاستئنافيّةُ، كما وقعَت هنا في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ وذلك للدّلالة على نهوضِ تلك الجملةِ بمعناها.

سِرُّ إيثارِ (إذا):

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ (إذا) دون (إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على تحقّقِ انقضاءِ أجلِهم؛ لأنَّ (إذا) تدلُّ على تحقّقِ وقوعِ الشّرطِ بخلاف (إنْ).

تصويرُ المعاني بصُورةٍ حِسّيَّةٍ

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في إسْنادِ المجيءِ إلى الأَجَل:

في إسنادِ المجيءِ إلى الأجلِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيث شُبِّه الأجلُ بشخصٍ غائبٍ يُتَرَقَّب وصولُه، وقد حَضَر، وبلاغةُ هذه الاستعارة أنّها صَوَّرتِ المعنى المعنويَّ في صورةٍ حَرَكِيَّةٍ حِسِّيَّةٍ مُشاهَدةٍ ماثلةٍ أمامَ الأعين.

التَّنبيهُ على اختلافِ معنَى الأجلِ في الموضِعَين

عِلَّةُ إظْهارِ الأجلِ دونَ إضمارِه:

عُدِل عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾، حيث كان مقتضى الظّاهرِ أن يُقال: ولكُلِّ أُمَّة أَجَلٌ فإذا جاءَ لا يستأخرون؛ وذلك لاختلافِ الأجلِ في الموضِعين، فالمقصودُ منَ الأجَلِ الأَوّلِ مُدَّةُ العُمر كاملةً بتمامها مِن أوَّلها إلى

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء)، ومحمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فِقْه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 66.

آخرها، والمقصودُ منَ الأجلِ الثّاني الجزءُ الأخيرُ مِن مُدَّةِ الأجل[1]، ولزيادةِ تقريرِ الحُكم، ولتكونَ هذه الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها، غيرَ مُتوقِّفةٍ عَلى سماعِ غيرِها؛ لأنَّها بحيثُ تَجري مَجرَى المَثَل[2].

غَرَضُ إضافةِ الأجلِ إلى ضَميرِ الأُمَّةِ:

شُمولُ جميعِ الأُمَمِ بدون استِثناءٍ، ومجيءُ الأجلِ كِنايةٌ عن تمامِه

إنْ جُعِلَ المرادُ بالضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ جميعَ الأُمَمِ المُشارِ إليها، فالغرضُ هو إفادةُ المعنى المَقصُودِ الَّذي هو بُلُوغُ كُلِّ أُمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها ومَجيئُه إيّاها، بواسِطَةِ اكتِسابِ الأجَلِ، وقد دَلَّتِ الإضافَةُ على الشّمولِ والجمعِ، وكأنَّه قيل: إذا جاءَتهم آجالُهم بِأن يَجيءَ كلَّ واحِدَةٍ مِن تلكَ الأُمَمِ أجلُها الخاصُّ بها.

وإنْ جُعِلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ خاصَّةً كما هو الظّاهِرُ، فالإظهارُ في مَوقِعِ الإضمارِ؛ لِزيادَةِ التَّقريرِ، والإضافَةُ إلى الضَّميرِ لإفادَةِ أكمَلِ التَّمييزِ؛ أي: إذا جاءَها أجلُها الخاصُّ بها[3].

وليس المرادُ بالأجل هنا العُمرَ؛ وإلَّا لقالَ: (لكلِّ واحدٍ)، بل المقصودُ هنا أجَلُ العذابِ والهلاكِ أو الاستئصالِ؛ إذ أمهلَ اللّهُ تعالى كُلَّ أُمَّةٍ كَذَّبت رسولَها إلى وقتٍ مُعَيَّنٍ، حتَّى إذا جاءَ ذلك الوقتُ حاقَ بهم العذابُ؛ لذا كانتِ الآيةُ الكريمةُ وعيدًا لأهلِ مَكَّةَ، وإنذارًا، وتهديدًا، ومجيءُ الأجلِ هنا كِنايةٌ عن تمامِه.

تَوجيهُ قراءةِ الحسَنِ بالجمْعِ:

قراءةُ الجمْعِ باعْتِبارِ أعمارِ أفرادِ جميعِ الأُمَمِ

قَرَأ الحَسَنُ: (فَإذا جاءَ آجالُهُمْ) بالجَمعِ، وتوجيهها: أنَّ لِكُلِّ إنسانٍ أجَلًا، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ [الأنعام: 2]، إذ كتَبَ اللّهُ مدّةَ بقاءِ عمومِ البشرِ في هذه الحياةِ الدّنيا، وأمَّا الإفرادُ فلأنَّه اسمُ جِنسٍ، والجِنسيّةُ مِن قبيل

---

(1) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/136.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/225.

المصدرِ، أو لِتَقارُبِ أعمارِ أهلِ كُلِّ قَرنٍ[1]، وحَسَّنَ تلك القراءة إضافَتُه إلى الجَماعَة[2].

دَلالةُ صِيغةِ الاسْتِفعالِ:

السِّين والتَّاء إمّا للطَّلَب، وإمّا للتَّأكيدِ بحسب المعنَى

أشعرَ التَّعبيرُ بصيغة الاستِفعالِ في الألفاظِ: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بِعَجزِ الأمَّةِ الّتي حانَ موعدُ عذابِها، واستئصالِها عن تأخيرِ مُدَّتِها، أو تقديمِها، وحِرْمانِهِم عَن ذلك على الرَّغم مِن طَلَبِهِم لَه، وسعيهم إليه، وبذلِهم أقصى الطَّاقةِ في تحقيقِه[3]، وهذا المعنى على اعتبار السِّينِ والتَّاءِ للطَّلب.

أو المعنى على النَّفْي؛ أي: كِناية عن عدم طَلبِ التّأخُّرِ ولا استطاعة تغييرِه[4]، وتكون السّينُ والتّاءُ للتّأكيد.

بَديعُ فنِّ الطِّباقِ:

تأكيدُ معنَى وقتِ حُلولِ العُقوبةِ بالأُممِ المُكذِّبةِ

بين الفعلين: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ طباقُ سلبٍ، إذ جمعَ السّياقُ بين فعلين مُتضادَّين في المعنى، وهما استئخارُ الأجلِ واستقدامُه، وهو وصفٌ لحالِ المشركين وقتَ حلولِ العقوبةِ بهم، فإذا جاءَ الوقتُ الّذي وقَّته اللّهُ لإهلاكِهم، لا يتأخَّرون عنه لحظةً، ولا يتقدَّمون عليه، فأكَّدَ هذا الأسلوبُ البلاغيُّ المعنى.

سِرُّ التَّعبيرِ بساعةٍ عن أقلِّ الوقتِ:

تُطلَقُ السَّاعةُ في عُرْفِ العربِ على أقَلِّ وَقتٍ

خُصَّتِ السَّاعةُ بالذِّكرِ في قولِهِ: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لأنَّها أقَلُّ أسماءِ الأوقاتِ في استعمالِ العربِ، يعني لا اسم في عُرْفِهم لأقلِّ وقتٍ إلَّا السَّاعة؛ لذا ذَكرها وخَصَّها؛ والمعنى: لا يَتَقَدَّمون ولا يتأخّرون أقصرَ وقتٍ[5].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/45.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/166.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/225.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 3/376.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 3/376.

ولسببٍ إشاريٍّ وهو أنَّ ذكرَ السَّاعةِ فيه تذكيرٌ بعذابِ السَّاعةِ، فكما أنَّ عذابَ الدُّنيا لا يتأخَّر، فكذلك إذا جاءَتِ السَّاعةُ لا يتأخَّرُ عذابُها.

فائِدةُ عَطْفِ الجُمَلِ:

تـأخُّـرُ الأَجَـلِ مُسَاوٍ لِتَقَدُّمِهِ في الاسْتِحالَةِ

عُطِفَ الاستقدامُ المنفيُّ على طلب التَّأَخُّرِ المنّفي في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾؛ "لِلمُبالَغةِ في انتِفاءِ التَّأخُّرِ، يَعنِي أنَّ التَّأخُّرَ مُساوٍ لِلتَّقدُّمِ في الاستِحالَةِ؛ ولذا نَظَمَهُ مَعَهُ في سِلكٍ، كما في قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ [النّساء: 18]، فَإنَّ مَن ماتَ كافِرًا مَعَ ظُهُورِ أن لا تَوبَةَ لَه رَأسًا، قد نُظِمَ في عَدَمِ القَبُولِ في سِلكِ مَن سَوَّفَها إلى حُضورِ المَوتِ؛ إيذانًا بِتَساوِي وُجُودِ التَّوبَةِ حِينَئِذٍ وعَدَمِها بِالمَرَّةِ"[1].

وقُدِّمَ في هذا الموضع انتِفاءُ الاستِئخارِ؛ لأنَّ الغرضَ بَيانُ عَدمِ خَلاصِ الأمَّةِ المُكَذِّبةِ رسولَها ونجاتِها مِنَ العَذابِ، وجاء عكسُ ذلك في قَولِه تَعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ [الحِجر: 5]؛ لأنَّ المقصودَ هناك بَيانُ سِرِّ تأخيرِ إهلاكِهِم مَعَ استِحقاقِهِم لَهُ، حَسبَما يُنبِئُ عَنه قَولُه تَعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [الحِجر: 3] فالأهَمُّ بَيانُ انتِفاءِ السَّبقِ[2].

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، وقال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النّحل: 61]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/2676.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/2676.

لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: 49].

اتَّفقتِ الآياتُ في إخبارِها عن موضوعٍ واحدٍ، وهو عدمُ الإمهالِ أو الاستعجالِ عند حلولِ الأَجَلِ، ومِمَّا يُلحَظُ فيها اقترانُ (إذا) بالفاء في آيتي الأعراف والنَّحل، وعدمُ اقترانِها في آية يونس؛ وذلك لأنَّ ما في سورةِ الأعرافِ، وكذلك ما في سُورةِ النَّحلِ مِن باب عَطفِ جُملةٍ على جملةٍ أُخرى مُصدَّرةٍ بالواوِ بينهما اتِّصالٌ وتَعقيبٌ، فبدأَت آيةُ الأعرافِ بالواو في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾، واستهلَّت آيةُ النّحلِ بالواو في قولِه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النَّحل: 61]، فكان الموضعُ - في الآيَتَيْن - موضِعَ الفاء، فحسُنَ الإتيانُ بالفاءِ الدَّالّةِ على التّعقيبِ، كما أنّه استُغنِيَ بفاءِ تَفريعِ عامِلِ الظَّرفِ هُنا عَنِ الإتيانِ بالفاءِ في جَوابِ (إذا)؛ لِظُهُورِ مَعنى الرَّبطِ والتَّعليقِ بمَجموعِ الظَّرفِيَّةِ والتَّفريعِ، بخلافِ ما في جاءَ سورة يُونُسَ الّتي أمرَ اللّهُ تعالى الرّسولَ أن يقولَ للمشركين فيها: لا أستطيعُ أن أدفعَ عن نفسي ضرًّا، ولا أجلبَ لها نفعًا، إلّا ما شاءَ اللّهُ أن يدفعَ عنّي مِن ضرٍّ أو يجلبَ لي من نفعٍ. لكلِّ قوم وقتٌ لانقضاء مدّتِهم في هذه الحياة، ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: 49]؛ فإنَّ (إذا) في هَذِهِ الآيَةِ مُشْرَبَةٌ مَعنى الشَّرطِ، فَلِذَلِكَ اقتَرَنَتْ جُملَةُ عامِلِها بالفاءِ الرّابِطَةِ لِلجَوابِ مُعامَلَةً لِلفعلِ العامِلِ في (إذا) مُعامَلَةَ جَوابِ الشَّرطِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيءُ والإتْيانُ:

الإتيان: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسّيلِ المارِّ على وجهِه: أَتِيّ وأَتَاوِيّ[2]، وبه شبّهَ الغريبُ فقيل: أتاويٌّ، ويُقال الإتيان للمجيء بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتّدبيرِ، ويُقال في الخيرِ والشّرِّ، وفي الأعيانِ والأعراضِ، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 119، والأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/191 - 192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105، 11/191.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أتى).

الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، بخلاف المجيءِ فيُلحظُ فيه الصُّعوبة

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26]، أي: بالأمر والتّدبير[1].

المجيء: تَدُلُّ المادَّةُ على معاني الصُّعوبةِ والغلبةِ والإلجاءِ، والحَبسِ، وعَدَمِ إدراكِ الغايةِ[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23].

والفرقُ بينهما أنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، بخلاف المجيءِ فإنَّه مجيءٌ بِصُعوبةٍ، وبينهما عمومٌ مِن حيث دلالتُهما على مُطلَقِ الحركةِ، والانتقالِ دون التَّقيُّدِ بسهولةٍ أو غيرها[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).

(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جاء).

(3) محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 14.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: 35 - 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

مَـنْ عُـذِّبَ فِي الـدُّنـيا ديـانـةً لَـحِـقَـه عـذابُ الآخرةِ جزاءً

لَمَّا بَيَّنَ اللّٰهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أجلًا مُعَيَّنًا لا تَتَقدَّمُ عليه ولا تَتأخَّرُ، بيَّن في هاتين الآيتين أحوالَهم بَعدَ المَوتِ، فإن كانُوا مُطيعِينَ فَلا خَوفٌ عَلَيهم ولا حُزنٌ، وإن كانُوا مُتَمَرِّدِينَ وقَعُوا في أشَدِّ العَذابِ[1]، فالمناسبةُ بينَ الآياتِ هي إتباعُ بيانِ عذابِ اللّٰهِ في الدُّنيا عذابَ اللّٰه في الآخرةِ، وحسُنَ البَدءُ بعذاب الدّنيا إذ هي السَّابقةُ لعذاب الآخرةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقُصُّونَ﴾: من (قَصَص)، ويدلُّ أصلُ المادَّة على تَتَبُّعِ الشَّيءِ، من ذَلك قَولُهم: اقتَصَصتُ الأَثَرَ، إذا تَتَبَّعتَه. ومن ذَلكَ اشتِقاقُ القِصاص في الجِراح، وَذَلكَ أنَّهُ يُفعَلُ بِهِ مِثلُ فِعلِهِ بالأَوَّلِ، فكأنَّهُ اقتَصَّ أَثَرَهُ[2]. ويُقال: قَصَّ أثرَ الشّيءِ؛ أي: تتبَّعَه. وكذلك اقتَصَّ أثرَه، وتَقَصَّصَ أثرَه. والقِصَّةُ: الأمرُ والحديث[3]. والاستقصاءُ: تَتَبُّعُ كُلِّ شيءٍ. والقَصَص: الأخبارُ المُتَتَبَّعةُ. ومعنى الآية: يَتلُونَها ويَحكُونَها.

2) ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: اشتقاقُ الآية إمَّا من (أيّ)، فإنّها هيَ الّتي تبيّن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/73.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (قصّ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قصّ).

أيًّا من أيّ، وإمّا من قولِهم: أوى إليه. والصّحيحُ أنّها مُشتقَّةٌ مِنَ التّأيي الّذي هو التّثبُّتُ، والإقامةُ على الشّيءِ، والآياتُ جمعُ آيةٍ، وهي العلامةُ الظّاهرةُ، وأُطلِقَ عليها هذا الاسم؛ لَمَا فيها مِنَ الدّلالةِ الباهرةِ والبراهينِ الظّاهرةِ، وسُمِّيتِ الآيةُ مِنَ القرآن آيةً؛ لأنَّها علامةٌ يُقطَعُ بها كلامٌ من كلامٍ[1]. ومعنى الآيات: الدّلائلُ على توحيدِ اللّهِ.

3) ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: من (كبر)، بمعنى: عَظُمَ، والكِبرُ: العَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، والإثمُ العظيمُ. والكِبرياء: العَظَمةُ، والتَّجَبُّرُ والتَّرفُّعُ عنِ الانقياد، ويُقال: تَكابَرَ فُلان: أَرى مِن نَفسه أنَّه كبيرُ القَدرِ أو السِّنِّ. واستَكبَرَ فلانٌ: امتَنَعَ عن قَبولِ الحَقِّ مُعانَدةً وتَكبُّرًا، والاستِكبارُ: المُبالَغَةُ في التَّكَبُّرِ، وأن يتشبَّعَ الإنسانُ فيظهرَ من نفسِه ما ليس له، وهذا هو المَذمومُ، وعلى هذا ما ورَدَ في القرآن[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وظيفةُ الرُّسلِ البيانُ، ووظِيفةُ النَّاسِ الإيمانُ

يُخاطِبُ اللّهُ بني آدَمَ أنَّه إن جاءَهم رُسُلٌ مِن جِنسِهم البَشَرِيِّ، يتلونَ عليهم آياتِ كِتابه، ويُبَيِّنون لَهُم الدِّينَ، فمَنِ اتَّقى فتَرَكَ المُحَرَّماتِ، وتَرَكَ المَنهياتِ، وعَمِلَ الطّاعاتِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونَ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، ولا هم يحزَنونَ على ما فاتَهم من حُظوظِ الدُّنيا، وعلى ما يَتركون مِن مالٍ وذُرّيَّةٍ، ومَن كَذَّبَ بالدّلائلِ على توحيدِ اللّهِ، فلم يُؤمِنْ بها، واستكبرَ عنها فلم يَنْقَدْ لأحكامِها، بل كَذَّبَ وتَوَلَّى عُتُوًّا وكِبرًا، فأولئك هم أصحابُ النَّار، ماكِثون فيها، لا يخرجونَ منها أبدًا.

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (آي).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ تَكرارِ النّداءِ:

النِّداءُ إيقاظٌ للغافلِ، وتنبيهٌ للعاقلِ

تَكرَّر النِّداءُ بقولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قَبلَ هذه الآيةِ ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ وذلك للاهتمام بِشَأنِ ما في حَيِّزِه[1]، وقد سبقتِ الإشارةُ إلى هذه النّكتة.

بَلاغةُ تأكيدِ الشّرطِ:

يُؤَكَّدُ فِعلُ (إمَّا) بنونِ التّوكيدِ؛ لِئَلَّا تنحطَّ دَرجةُ فعْلِ الشَّرطِ عن حَرفِهِ

أُوثِرَ الشَّرطُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ في الحَضِّ على الاسْتِجابةِ؛ لتأكيدِ المعنَى المُرادِ هنا، وهو إرسالُ رُسُلٍ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ؛ لذا أُكِّد هذا الشّرطُ بالنَّون.

فقد ضُمَّت (إنْ) إلى (ما) في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ﴾؛ لِتَأكيدِ مَعنى الشَّرطِ؛ "لِما فيها مِنَ الدَّلالةِ على شَرطِ التَّعليقِ، والدَّلالةِ على زيادةِ العِلْمِ في المُعَلَّقِ عليه، والتُزِم أن يُؤَكَّدَ فعلُها بنونِ التّوكيدِ الثّقيلةِ أوِ الخفيفةِ؛ لئلّا تنحطَّ درجةُ فِعْلِ الشَّرطِ عن حَرفِه، وتعاضُدًا في الدَّلالةِ على إرادةِ التّوكيدِ"[2]، وجوابُ هذا الشَّرطِ قولُه تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ والمَعنى: إنْ أتاكم رُسُلٌ كائِنُونَ مِنكم، يُخبِرُونَكم بأحكامي، ويُبَيِّنُونها لكم، فَمَنِ اتَّقى مَعاصِيَ اللّه، وأصلَحَ حالَ نَفسِهِ، باتِّباعِ الرُّسُلِ وإجابَتِهم ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[3].

دَلالةُ العُدولِ عنِ الماضِي إلى المضارِعِ:

أَثَرُ رُسُلِ اللهِ باقٍ في الدُّعاةِ إلى قِيامِ السَّاعةِ

عُدِلَ عنِ الماضي إلى المضارعِ في قولِه: ﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ الإتيانَ باقٍ وقتَ الخِطابِ؛ لِتَقوى الإشارةُ بِصِحَّةِ النُّبُوَّةِ إلى مُحمَّدٍ ﷺ؛ وهذا على مُراعاةِ وقتِ نُزولِ الآيةِ[4]، ولإفادةِ أنَّ الدُّعاة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/169.
(2) شيخ زاده، حاشية على البيضاويّ: 4/215.
(3) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/286.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز، ص: 700.

ورثةُ الأنبياءِ، وأنَّ على النَّاس الاستماعَ إلى دعوتِهم، والاستجابةَ إلى كلمتِهم؛ كاستماعِهم إلى الرُّسلِ والنَّبيِّين.

غَرَضُ تنكيرِ ﴿رُسُلٞ﴾:

نُكِّرَت كلمةُ ﴿رُسُلٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّكريمِ؛ لِعَظمةِ مَن أرسلَهم سبحانَه؛ ولعظمةِ رسالةِ هؤلاء الرُّسلِ عليهم السلام، ولاصطفاءِ اللّهِ لهم مِن بين سائرِ خَلقِه.

مَنِ اتَّبعَ رسولًا واحدًا فقدِ اتَّبعَ سائرَ الأنبياءِ والمُرسَلين

والمرادُ بالرُّسُلِ هنا جميعُ الرُّسُلِ عليهم السلام، وعليه فالجمعُ على حقيقتِه، وليس كما قيلَ: إنَّ المرادَ به رسولُنا محمّدٌ ﷺ، وأنَّ الجمعَ للتّعظيم[1]؛ لمنافاته للسِّياقِ؛ فالآيةُ ليسَت محمولةً على إطلاقِ الكلِّ وإرادةِ الجزءِ بالاعتبارِ المجازيِّ، بل هي على الحقيقةِ؛ لأنَّ مَنِ اتَّبعَ رسولًا واحدًا فقدِ اتَّبعَ جميعَ المرسلينَ، وهذا هو مُقتضَى الإيمانِ بهم، كما قال ربُّنا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285].

دَلالةُ الجارِّ والمجرورِ في الامْتِنانِ:

إرسالُ الرُّسُلِ للنَّاسِ رحمةٌ مِنَ اللهِ وتَفضُّلٌ عليهم، وتَعريضٌ بالجَهَلَةِ الَّذِينَ أنكَرُوا بعثَتَهم

للجارِّ والمجرور ﴿مِّنكُمۡ﴾ المُتعلِّق بمحذوفٍ والواقعِ صِفَةً لِرُسُلٍ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾، أثرٌ بالغٌ في الامتنان بإرسالِ الرُّسُلِ إلى بني آدمَ، والمقصودُ أنَّ الرُّسلَ من عموم بني آدمَ، وكذلك من خصوص قبيلةِ كُلِّ نَبيٍّ، وهذا أقطعُ لِعُذرِ المُرسَلِ إليهم، وأثبتُ للحُجَّةِ عليهم؛ لأنَّهم به ألْصَقُ، وبأحوالِه أخبَرُ، وبِشأنه أعلَمُ.

كما أنَّ الأُلفَةَ، وسُكُونَ القلبِ، واطمئنانَ النَّفسِ تتحقَّقُ عند إرسالِ الرُّسُلِ إلى بني جنسِهم بِخلافِ ما لا يَكونُ مِنَ الجنسِ، فإنَّه لا يَحصُلُ مَعَهُ شيءٌ مِن ذلك، وهذا من بابِ الامتنانِ مِنَ اللّهِ على عبادِه.

(1) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/137.

وفي التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنكُمۡ﴾ قَطعٌ لِطَمَعِ المُكذِّبين في أن يُرسِلَ اللّهُ تعالى لَهُم رُسُلًا مِنَ المَلائكة؛ لأنَّ المُرسَلَ يَكُون من جِنسِ مَن أُرسِلَ إليهم، وفي هذا تَعريضٌ بالجَهَلَة مِنَ الأُمَمِ الَّذينَ أنكَرُوا رِسالَةَ الرُّسُلِ؛ لأنَّهم من جِنسِهم، مِثلُ قوم نُوحٍ إذ قالُوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: 27]، وكمشركي مكَّة إذ كَذَّبُوا رِسالَةَ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنّه بَشَرٌ كما حكى القرآنُ عنهم: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94][1].

نُكتَةُ التَّعبيرِ عنِ الصِّفَةِ بالفعلِ المُضارِع:

مَدحُ الرُّسُلِ وأتباعِهم بتلاوةِ آياتِ اللهِ للنَّاسِ أجمعين

عُبِّرَ عنِ الصِّفةِ ﴿يَقُصُّونَ﴾ بصيغةِ الفعلِ المضارِعِ في قولِهِ تعالى: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ للإشارةِ إلى إتمام رُسُلِ اللّهِ رسالتَهم إلى النَّاس، وكمالِ إبلاغِهم مُرادَ اللّهِ إلى خَلقه، وبَذلِهم أقصى طاقاتِهم في تلاوة منهجِ اللّهِ إلى البَشَرِ، فالآيةُ أفادَت تصويرَ تلاوةِ الرُّسلِ آياتِ اللّهِ، وحكايتَها للنّاس، أو أنّهم مواظبون على تبليغِ رسالاتِ اللّهِ إلى أممهم، فهم يُتبِعُونَ الآيَةَ بأُخرى، أو أنّهم يُظهِرُونَ ما جاءَهم مِنَ الآياتِ عنِ اللّه دون كتمانٍ أو إخفاءٍ، وكُلُّها مَعانٍ مَجازِيَّةٌ لِلقَصِّ؛ لأنَّ حَقيقَةَ القَصِّ هي أنَّ أصلَ القَصَصِ إتباعُ الحَديثِ مِنَ اقتِصاصِ أثَرِ الأرجُلِ واتِّباعِهِ؛ لِتُعرَفَ جِهَةُ الماشي، فَعَلى المَعنى الأوَّلِ فهو كَقَولِهِ في الآيَةِ الأُخرى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ [الزّمر: 71]، وأيًّا ما كانَ فَهو مُحتَمَلٌ لِلحَملِ عَلى جَميعِها مِنَ استِعمالِ اللَّفظِ في مَجازَيه[2]، أو أنَّ الرّسلَ عليهم السلام مُستمرُّون في تلاوةِ آياتِ اللّهِ تعالى من خلال أتباعِهم، وفي ذلك مدحٌ عظيمٌ وثناءٌ بالغٌ على المُبلِّغينَ رسالةَ الرُّسلِ للنَّاس دونَ تحريفٍ أو تبديلٍ أو تغييرٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/108.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/108.

سِرُّ اخْتِيارِ مُفردةِ ﴿يَقُصُّونَ﴾ دونَ مُرادفاتِها:

تَناسُبُ التَّعْبيرِ بالقَصِّ مَع المَقصودِ الأعلَى للسُّورةِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿يَقُصُّونَ﴾ دون (يَتْلون) مع أنَّها الأظهرُ في مقام ذكرِ الآياتِ؛ لأنَّ القصَّ أعَمُّ؛ حيث يَشملُ كُلَّ ما يُخبَرُ به، سواء كان من صُحُفٍ أم مِن دون صُحُفٍ، وسواء كان بتلاوةٍ مباشرةٍ بالتزام حروفِها أم بغيرِها، فالتَّعبيرُ بـ﴿يَقُصُّونَ﴾ يشملُ جميعَ الرُّسُلِ ممَّنْ أُنْزِلَت عليهم الكُتُبُ، ومَن لم تُنَزَّلْ عليهم، كما حكى اللّهُ مثلَ ذلك في السّورةِ السّابقة: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: 130](1).

وقد رَبَطَ البِقاعيُّ بَين مقصودِ السُّورةِ، وإيثارِ التَّعبيرِ بالقَصِّ دون التِّلاوةِ ومرادفاتِها فقال: "ولَمّا كانَ الأغلَبُ على مَقصدِ هَذِهِ السُّورَةِ العِلْمَ كما تَقَدَّمَ في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧﴾ [الأعراف: 7]، ويأتي في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الأعراف: 52] وغيرِها، كانَ التَّعبيرُ بالقَصِّ الَّذي هو تَتَبُّعُ الأثَرِ كما تَقَدَّمَ في الأنعامِ أليَقَ، فقالَ: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾؛ أي: يُتابِعُونَ ذِكرَها لَكم على وجهٍ مَقطوعٍ بِهِ، ويَتَّبِعُ بَعضُهم بِها أثَرَ بَعضٍ لا يَتَخالَفُونَ في أصلٍ واحِدٍ مِنَ الأُصُولِ"(2).

نُكتةُ تَعْدِيةِ الفعْلِ بحرف الاسْتِعلاءِ:

قَصُّ الرّسُلِ آياتِ اللهِ لإقامةِ الحُجَّةِ على المَدْعُوِّين، وقطْعِ معاذيرِهم

عُدِّيَ الفِعلُ ﴿يَقُصُّونَ﴾ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، ولم يُتَعَدَّ بحرفِ الاختصاصِ (اللّام) فلم يُقَل: (يَقُصُّون لَكُم)، ولم يَرِد كذلك الفعلُ غيرَ مُتعدٍ بحرفٍ كقولِه تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾ [الأنعام: 57]؛ لأنَّ (على) تُشعِرُ بالثِّقَلِ والتَّحَمُّلِ والتَّبِعة، وهذا يناسبُ المقامَ هنا؛ حيث لم يكن قَصُّ الرُّسُلِ آياتِ اللّهِ على المبعوثِينَ إليهم بغرضِ تزجيةِ الوقتِ والتَّسليةِ، وإنَّما لإقامةِ الحُجَّةِ

---

(1) السّامرائي، أسئلة بيانيّة: 2/50.

(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/394.

عليهم، وقطعِ معاذيرِهم، وتلك مسؤوليّةٌ عليهم وتَبِعةٌ إن أعرضوا عن آياتِ اللّهِ، ومنهجِ رَبِّهم، والتّصديقِ بآياتِه؛ لذا كان الملائمُ هنا تعديةَ الفعلِ بحرفِ الاستعلاءِ لا بحرفِ الاختصاصِ.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

المُخاطَبونَ هم المُستهدفونَ مِن تلاوة آياتِ اللهِ عليهم، وتبليغِها إليهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾؛ للاهتمام بالمُقدَّم؛ حيث إنَّ المُخاطَبينَ هم المُستهدفونَ من تلاوةِ آياتِ اللّهِ عليهم، وتبليغِها إليهم؛ لذا قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ؛ ففيه معنى الرِّعايةِ بالمُخاطَبين وبيانِ رحمةِ اللّهِ بهم، فهو أرسلَ الرُّسلَ ليقُصُّوا عليهم الآياتِ، ولو عكسَ لكان الاهتمامُ بالآياتِ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ دعوتَهم هي غايةُ الإرسالِ، وهذا من حكمةِ اللّهِ تعالى الّذي يضعُ الأمورَ في نصابِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 4]؛ إذ مهمّةُ كلِّ رسولٍ هي البلاغُ بلُغةِ قومِه ليوضِّحَ لهم شريعةَ اللّهِ.

دَلالةُ إضافةِ (آيات) لضميرِ المتُكلِّمِ المُفرَدِ:

تشريفُ الآياتِ وتعظيمُ الدّاعينَ لها

المرادُ بآياتِ اللّهِ تعالى في قولِه: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ آياتُ كُتُبِه سبحانَه، والدَّلائلُ، والأحكامُ، والشَّرائعُ؛ لأنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الأشياءِ آياتُ اللّهِ تعالى؛ كما أنَّ الرُّسُلَ إذا جاءُوا فلا بُدَّ وأن يَذكُرُوا جَمِيعَ هذه الأقسامِ(1).

وإضافةُ (آيات) لضميرِ المتكلِّمِ المفردِ ﴿ءَايَٰتِي﴾؛ لتشريفِ الآياتِ، ولتعظيمِ الدَّاعينَ إليها، فالآياتُ آياتُ اللّهِ تعالى مَلِكِ الملوكِ، بارئِ الكونِ، ربِّ العالمينَ.

تقديرُ المحذوفِ بين جُملةِ الشّرطِ وجوابِها:

وَقَعَت جُملَةُ ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ جوابًا للشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وبَينَ جُملَةِ الشَّرطِ وجوابِها محذوفٌ تقديرُهُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/73.

(فاتَّقى مِنكم فَريقٌ، وكَذَّبَ فَريقٌ؛ فَمَنِ اتَّقى)...، وهَذه الجُملَةُ شَرطِيَّةٌ أيضًا، وجَوابُها: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: فَمَنِ اتَّبَعَ رُسُلي فاتَّقاني، وأصلَحَ نَفسَهُ وعَمَلَهُ، فَلا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحزنونَ[1]. وهذا مِنَ الإيجاز بالحذف، دَلَّت عليه الفاءُ الفصيحةُ، وقد جَنَّبَ هذا الأسلوبُ الرشيقُ طُولَ العبارة وتَرَهُّلَها، وحافظَ على رشاقةِ الجُملةِ وخِفَّتِها، وتلك مِن سمات التَّعبيرِ القرآنيِّ المُعجِزِ.

الإيجازُ بالحذْفِ دَلَّت عليه الفاءُ الـفـصـيـحـةُ، وهو مِن سِماتِ البيانِ القرآنيِّ

نُكتةُ اقْترانِ جوابِ الشَّرطِ بالفاء:

اقتُرِنَ جوابُ الشَّرطِ الأوَّلُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، دونَ الجزاءِ الثّاني في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ للمبالغة في الوعدِ؛ لِعَدمِ تَخَلُّفِه، إذ حرفُ الفاءِ يُشعِرُ بأنَّ الاتِّقاءَ سَبَبٌ للفَلاحِ، وهو لا يتخَلَّفُ عنِ الاتِّقاء[2]، واقترنَ بالفاءِ أيضًا؛ للمبالغة بِعَدمِ تَخَلُّفِه، وللمُسامحةِ في الوعيد، فإنَّه يجوزُ تَخَلُّفُه رحمةً مِنَ اللّه تعالى بِبَعضِ العُصاةِ، ومغفرةً منه سبحانَه، وتَفَضُّلًا، وعفوًا، والمعنى: لا خوفَ عليه مِنَ العقاب، ولاهُم يحزنون لفواتِ الثَّواب[3].

وُجـوبُ تَـحَـقُّـقِ الـوعْـدِ، وجـوازُ تَخلُّفِ الوعيدِ

سِرُّ العُدولِ عمَّا يقتضِيه الظَّاهرُ في جوابِ الشَّرطِ:

جاءَ جوابُ الشَّرطِ خلافَ ما يُتوقَّعُ، وهو: (فَمَنِ اتَّبَعَ الرُّسُل)، فآثَرَ النَّظمُ قولَه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾؛ لأنَّ غايةَ إرسالِ الرُّسُلِ هي توريثُ التَّقوى، وإصلاحُ النّاسِ، لا نَفعُ الرُّسُلِ عليهم السلام، إذ هو لسانُ حالِ ومقالِ موكبِ الأنبياءِ الكريمِ، حينما قالُوا لأقوامِهم: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ [الشّعراء: 109]؛ فأرادَ النَّظمُ إبرازَ هذا المطلوبِ، فغرضُ النَّظم تجليةُ المقصودِ، وتبيينُ المرادِ.

غـايـةُ إرسـالِ الـرُّسُـلِ تـوريـثُ التَّقوَى وإصلاحُ النَّاسِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/109.

(2) القونويّ، حاشيته تفسير على البيضاويّ: 8/378.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/166.

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي:

الإغراءُ بسُرعةِ الاسْتجابةِ، ووجوبِ المُبادرةِ إلى الطاعةِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل الماضي في قولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ على المضارع: (يَتَّقي ويُصْلِح)؛ إغراءً بسرعة الاستجابة، وحَثًّا عليها، وإظهارًا لِلعبد المُستجيبِ الطَّائعِ الّذي اتّقى التَّكذيبَ بآياتِ اللّهِ، وأصلحَ عملَه في صورةِ مَن بادرَ إلى العملِ فورَ تلقِّيه آياتِ رَبِّه.

وفي هذا أيضًا إشارةٌ إلى وجوب المُبادرةِ إلى طاعةِ اللّهِ تعالى دونَ تباطؤٍ أو تَلَكُّؤٍ، وإلى تطبيقِ شَرعِ اللّهِ في أرضِه، واتِّخاذِه مَنهَجَ حياةٍ دون سَخَطٍ أو إجبارٍ، بل طَواعِيَةً، وبِصَدرٍ مُنشَرِحٍ، ونَفسٍ راضيةٍ.

غَرَضُ التَّنكير:

نفيُ أدنى خوفٍ أو حُزنٍ مِن جميع مَكارهِ النَّفسِ ينالُ الأتقياءَ الأنقياءَ

غرضُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿خَوۡفٌ﴾ التَّقليلُ، والمُرادُ نَفيُ أن يَمَسَّ المُتَّقينَ الطَّائعينَ المُصلِحينَ أدنى خَوفٍ مِن جميع مَكارهِ النَّفسِ وأنكادِها في مُستقبَلِهم وماضيهم، فهنا نَفيٌ لِجنسِ الخَوفِ بدلالة (لا) النّافية للجنس ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ والمعنى: فَلا خَوفٌ عليهم في الدّارَين مِن لُحُوقِ مَكرُوهٍ، ولاهُم يَحزَنُونَ مِن فَواتِ مَطلُوبٍ.

تَوجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

قـراءةُ الفتحِ تَنفِي جميعَ أنواعِ الخَوْفِ

قرأ يَعقُوبُ (فَلا خَوْفَ عَلَيْهُم) بِفَتحِ الفَاءِ من غيرِ تَنوِينٍ، وَقرأَ البَاقُونَ بِالرَّفعِ والتّنوين؛ وذلك أنَّ (لا) إذا بُنِيَت مع النَّكرةِ على الفتحِ كانَ النّفيُ بها عامًّا، نحو: لا رجلَ في الدَّار، فهو نفيٌ لجميع أجناسِ الرِّجالِ في الدَّار، كأنَّه جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ: هَل من رجلٍ في الدّارِ؟

فتكون قراءةُ الفتح: (فَلا خَوْفَ) آكدَ في نفي الخوفِ؛ لِمَا فيها من عموم نفي جنسِ الخوفِ، فأفادَت نفيَ جميع أنواعِ الخوفِ عن متَّبعي هدى الرّحمنِ[1]، وأنَّ المكلَّفَ الّذي أطاعَ اللّهَ تعالى لا يلحقُه

(1) الشّيرازيّ، الموضَح: 1/269 - 270.

خوفٌ في القبرِ، وعندَ البعثِ، وعندَ حضورِ الموقفِ، وعندَ تطايرِ الكتبِ، وعندَ نصبِ الميزانِ، وعندَ الصّراطِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاسْتِعلاءِ:

نفيُ اسْتِعلاءِ الخَوفِ عليهم وتمكُّنِه منهم، وإحاطَتِه بِهِم، لا مُطلَقِ الخوفِ

الاستعلاءُ في قولِهِ: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ استعلاءٌ مجازيٌّ، وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ(على)؛ لما في (على) مِنَ الدِّلالة على الاستِعلاءِ والإحاطَةِ، ولأنَّ الخوفَ مَضَرَّةٌ وأَلَمٌ نفسيٌّ وثِقَلٌ يَعتَري صاحبَه، ويستولي عليه، وهذا يناسبُه حرفُ الاستعلاءِ، كما أنَّ في التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ تصويرُ الخوفِ بجاثمٍ على الصّدرِ، مُتمكِّنٍ من صاحبِه، وهذا حالُ الخائفِ، فالآيةُ نفَت ذلك الخوفَ، وأثبتتِ الأمانَ والطَّمأنينةَ لصاحبِها، فيكُونُ المَنفِيُّ استعلاءَ الخَوفِ عَلَيهِم وتمكُّنَه منهم، وإحاطتَه بِهِم، لا مطلق الخوفِ، فلا يكون فيه نفيُ خوفِ المُتّقينَ مِن أهوَالِ القِيَامَةِ، لكنَّها تكُونُ مُخَفَّفَةً عَنهُم، ثُمَّ إذا صارُوا إلى رحمةِ اللهِ سبحانَهُ؛ كانَ حَالُهم كَحَالِ مَنۡ لَم يخَفۡ[2].

سِرُّ تَقديمِ نَفْيِ الخَوفِ على نَفْيِ الحُزنِ:

الخوفُ يَقوَى مع اقترابِ المَخوفِ منه بخلافِ الحُزنِ فيضعَفُ بالابتعادِ عن زمانِهِ

قُدِّم نَفيُ الخَوفِ على نَفيِ الحُزنِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لأنَّ الخوفَ يكونُ لمَا سيأتي، بينما الحزنُ فلمَا مضى، وما مضى يضعفُ مع الأيّامِ، بخلافِ الخَوفِ فإنَّه يَشتَدُّ بمرِّ الزَّمانِ ويَقوى، والحُزنُ يَخِفُّ ويَضعفُ؛ لذا قُدِّمَ الأقوى في النَّفسِ، والأشدُّ أثَرًا فقالَ: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: مِن شَيءٍ آتٍ، فإنَّ الخَوفَ اضطِرابُ النَّفسِ من تَوَقُّعِ فِعلٍ ضارٍّ[3].

وأيضًا، لأنَّ الحُزنَ يحصلُ نتيجةَ الخوفِ، فالحزنُ مرحلةٌ تاليةٌ للخوفِ، فإذا نُفِي ما يُستَجَدُّ مِنَ الحزنِ يُنفى ما يُستَجَدُّ مِنَ الخوفِ.

---

(1) الجاويّ، مَراح لبيد: 1/17.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/274.

(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 1/65.

نُكتةُ اختلافِ المتقابلات:

خوفُ المؤمنين مِن أهوالِ يوم القيامةِ واقعٌ، وإثباتُه مدحٌ لَهُم

المُتأمِّلُ في صياغةِ جُملتي الجزاء: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، وجملة: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ يلحظُ اختلافَ الصّياغةِ بينَ الجملتين؛ حيث جاءَت الأُولى بالاسم ﴿خَوۡفٌ﴾، والثّانية بالفعل ﴿يَحۡزَنُونَ﴾، حيث لم يقُل سبحانَه: (لا يخافون)، كما قال: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الخوفَ يقوى ويثبتُ مع تقادم الأيَّام، والّذي يناسبُ ذلك التَّعبير بالاسم، بينما الحزنُ فإنَّه يضعفُ مع تباعدِ الأيَّام، فناسبَ ذلك الفعلَ.

فائدةُ مجيءِ المُسندِ إليه مَنفيًّا، والمُسنَدِ فعلًا:

التّعريضُ بالجديرين بالحُزنِ منَ الكفرةِ

أفادَ النَّظمُ الاختصاصَ، فأتى بالمسندِ إليه المسبوقِ بأداةِ النَّفي، والمسندِ الفعليِّ؛ فأفادَ نَفيَ الحُزنِ عنهم، وإثباتَه لغيرِهم؛ والمعنى: أنَّ الحزنَ سيقعُ لكن على غيرِهم لا عليهم، فهو تعريضٌ بمَن آثرَ الكفرَ على الإيمانِ في الدُّنيا.

وعَدَلَ عَنِ المُفرَدِ، بأنْ يُقالَ: ولا حُزنٌ عليهم، إلى ما عليه النَّظمُ القرآنيُّ؛ لِيَتَأتّى بِذَلِكَ بِناءُ المُسنَدِ الفِعلِيِّ على ضميرِهم؛ فيفيد القَصرَ؛ أي: تخصيصُ المُسنَدِ إلَيهِ المُتَقَدِّمِ ﴿هُمۡ﴾ بالخَبَرِ؛ فَيَدُلُّ على أنَّ الحُزنَ واقِعٌ بِغيرِهم، وهم الَّذينَ كَفَرُوا[1].

سِرُّ الاختِلافِ في التَّعبيرِ بينَ المُتقابلاتِ:

التّكذيبُ كالاستكبارِ، كلاهما مانعٌ منَ التّقوَى والعمَلِ الصّالحِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ معطوفًا على ما قَبلَه، ولم يقُل: (ومَن كفرَ وأفسدَ) موافقًا للمعطوفِ عليه في اللّفظ؛ لِلإيذانِ بأنَّ مَدارَ الفَلاحِ لَيسَ مُجَرَّدَ عَدَمَ التَّكذِيبِ، بل هو الاتّقاءُ والاجتِنابُ عنه[2]، والمرادُ هنا: بيانُ عاقبةِ الّذين أعرضوا عنِ التَّصديقِ بآياتِ اللهِ الدَّالّةِ على وحدانيَّتِهِ سبحانَه، وأنِفُوا من قَبُولِها وتَمَرَّدُوا عَنِ الإذعانِ لها، والعملِ بمقتضاها.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/109.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 6/170.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ:

كُفرُ المُخبَرِ عنهم بجميعِ آياتِ اللهِ تعالى

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول دون الاسمِ الظّاهرِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، حيث لم يقُل: (والمُكَذِّبون بآياتنا)؛ لبناءِ الخبرِ على صلةِ الموصولِ؛ أي: إنَّ ذَلِكَ العقابَ لِأجل تَكذيبِهِم بآياتِ اللّهِ واستِكبارِهِم عنها.

غَرَضُ إضافةِ الآياتِ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ:

تفخيمُ الآياتِ وتعظيمُها وبيانُ فظاعةِ جُرْمِ المُكذِّبينَ

أُضيفتِ الآياتُ إلى ضميرِ الجَمعِ لتفخيمِها وتعظيمِها، كما لا تَخفى دلالةُ الإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ (نا) على فظاعةِ جُرمِ هؤلاءِ المَخلوقينَ الضُّعفاءِ الّذين يتجاسرون على محاربةِ رُسُلِ اللّهِ تعالى، والتّكذيبِ بآياتِ اللّهِ خالقِهم ورازقِهم.

نُكتةُ جمْعِ الآياتِ:

الإشارةُ إلى المُبالغةِ في مقابَلةِ حُججِ الحقِّ بأكاذيبِ الباطلِ

التَّعبيرُ بصيغةِ الجَمعِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في المَوضِعين، حيث قالَ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ مبالغةً في الإخبارِ عن جحودِهم، وإعراضِهم عن آياتِ اللّهِ تعالى، وتكذيبِها، وكأنَّهم ما تركوا آيةً من آيات دلائلِ وحدانيّةِ اللّهِ تعالى جاءَتهم بها رُسُلُهم عليهم السلام إلّا وكذّبوها، وأعرضوا عنِ الإيمانِ بها.

فائِدةُ عطْفِ الاسْتِكبارِ على التَّكذيبِ:

بيانُ عِلّةِ التَّكذيبِ وهي الاسْتِكبارُ

ذُكِرَ الاستكبارُ عن آياتِ اللّهِ تعالى بعدَ ذِكرِ التَّكذيبِ بها في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾؛ لبيانِ عتوِّ المُكذِّبينَ، وأنَّهم كُذِّبُوا بسببِ استكبارِهم عن آياتِ اللّهِ وقَبولِها، ففائدةُ العطفِ تظهرُ في أمرين:

الأوَّل: بيانُ شدَّةِ تكذيبِ المُكذِّبين، وطغيانِهم.

الآخر: بيانُ علَّةِ التَّكذيبِ وهي الاستكبار، فهو من عطفِ العلَّةِ على النَّتيجةِ؛ كأنَّه قال: كذَّبوا؛ لأنَّهم مُستكبرونَ عن آياتِ اللّهِ.

دَلالةُ عدَمِ إشرابِ الاسْمِ الموصولِ معنَى الشَّرطِ:

العبارةُ فيها تهديدٌ ضِمْنيٌّ مناسِبٌ لشناعةِ جُرْمِ المُكذِّبين

مِنَ الملحوظِ في هذه الآيةِ الكريمةِ عدمُ إشرابِ الاسم الموصولِ معنى الشَّرط بإثباتِ الفاءِ في جملةِ خبرِهِ، حيث خلا قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ مِنَ الفاءِ، فلم يقُل: (فأولئك أصحاب النّار)؛ وذلك "لِلتَّرهيبِ مِن شَكاسَةِ الطِّباعِ"(1)، فأُخرِجَتِ العبارةُ في صورةِ خَبَرٍ مشحونٍ بالوعيدِ والتّهديدِ؛ ليتناسبَ مع شناعةِ جُرمِ المُكذِّبينَ المُعاندينَ للّه تعالى، ورُسُلِه الكرامِ عليهم السلام.

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ في الإنباءِ عن مَصيرِ المُكذِّبينَ:

الإيماءُ بأنَّ المُشَارَ إليهم غارقونَ في الضَّلالِ، وشِدَّةِ العَذابِ

عُبِّرَ باسم الإشارةِ للبعيد؛ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، فلم يأتِ بضمير الفصلِ (هم أصحاب النَّار)؛ وذلك للدّلالةِ على بُعدِ منزلتِهم في البُغضِ والضَّلالِ والهلاكِ، فتضمَّنَ اسمُ الإشارةِ ما يُفيدُه ضميرُ الفصلِ من بيانِ مآلِهم، وفي الإشارةِ إلى الموصوفين بصفاتِ التَّكذيبِ والاستكبارِ إيماءٌ إلى أنَّ هذه الصّفاتِ هي السّببُ في الجزاء.

دَلالةُ اختيارِ لفْظِ الصُّحبةِ:

التَّركيبُ يُشيرُ إلى المُلازمةِ الدَّائمةِ للنَّار

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الصُّحبةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ وتعني الصُّحبةُ "الاقترانَ بالشَّيء في حالٍ ما، وفي زمانٍ ما، فإن كانتِ المُلازمةُ والخُلْطةُ، فهي كمالُ الصُّحبةِ، وهكذا هي صُحبةُ أهلِ النَّارِ"(2)، صُحبةٌ دائمةٌ ملاصقةٌ مُستمِرَّةٌ، صحبةٌ لا انفكاكَ منها. وفي التَّعبير بهذا التّركيب إشارةٌ إلى أنَّ هؤلاء الكُفَّار هُم أَحَقُّ بهذه النَّار؛ لأنَّهم أهلُها، وقد قَدَّموا ما يستأهلونَ به صُحبةَ النَّارِ، وجدارةَ ملازمتِها، والخلودَ فيها، "وأفادَ تَحْقيقَ أنَّهم صائِرُونَ إلى النّارِ بِطَريقِ قَصرِ مُلازَمَةِ النّارِ

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/395.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/219.

عليهم في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّ لَفظَ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مُؤذِنٌ بالمُلازَمَةِ"[1].

كما أنَّ هذا التَّركيبَ يُشيرُ إلى قصرِ ملازمةِ النَّارِ لهم، فهم مُلازِمون لها على الدَّوامِ دونَ غيرِهم، ممَّن سيدخلُها من فَسَقَةِ المؤمنين، وهذا دليلٌ على الخلودِ.

نُكتةُ الفصْلِ:

توكيدُ الخُلودِ لمعنَى الصُّحبةِ

جاء قولُه تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مفصولًا غير موصول؛ لإفادتِه توكيدَ الجملةِ السَّابقةِ، فقد أفادَت الجملةُ السَّابقةُ أنَّ أصحابَ النَّارِ مُلازمونَ لها على الدَّوام، فكان ذكرُ الخلودِ توكيدًا لمعنى الجملةِ السَّابقةِ، ولذلك فُصِلَت، وهي من بابِ كمالِ الاتِّصالِ.

دَلالةُ التَّوكيدِ بضميرِ الجمْعِ ﴿هُمۡ﴾:

مـزيـدُ تـرويـعٍ لـلـمُـكـذِّبـين وتـهـديـدٍ لَـهُـم، وعَـدمُ خُـلـودِ مُرتكِبِ الكبيرةِ مِنَ المسلمينَ في النَّارِ

دلَّ التَّوكيدُ بضميرِ الجمعِ ﴿هُمۡ﴾ على عَدمِ خلودِ العاصِي مِن غَيرِ تَكذِيبٍ ولا استِكبارٍ في النَّارِ، وبدليل تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الخبرِ في قولِه: ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ودلالتِه على القَصرِ؛ أي: هؤلاء البُعداء المُكَذِّبون المُستكبِرون هم خالدون فيها دونَ غيرِهم، فالخلودُ فيها خاصٌّ بِهم لا بغيرِهم، وكأنَّ النَّارَ خُلِقَت لهم خاصّةً، وفي هذا مزيدُ ترويعٍ لَهُم وتهديدٍ.

دَلالةُ التَّوكيدِ بالجُملةِ الاسْميَّةِ:

كـثرةُ المُـؤكِّـدات دلـيـلُ إرادةِ تثبيتِ الحقائقِ لإقامةِ الحُجَّةِ على المُنكِرين

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على طول ملازمةِ الكفرةِ وبقائِهم في النّارِ، وعلى الدَّوامِ والثَّباتِ، وأكَّد هذا البقاءُ الأبديُّ للكفّارِ في النَّارِ بمؤكِّدٍ ثالثٍ، هو قولُه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾.

فقد أَكَّد النَّظمُ خُلودَ هؤلاءِ الموصوفين في النَّارِ بمؤكِّدات أربعة:

أوّلها: القَصرُ، فقد قَصرَ الخلودَ في النَّارِ عليهم بتعريفِ الطَّرَفين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/111.

ثانيها: أنّهم أصحابُ النّار؛ أي: الملازمون لها ملازمةَ الصّاحبِ لصاحبِهِ.

ثالثها: التّأكيدُ بضمير الفصلِ، إذ يقول: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

رابعها: تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ في معنى قصرِهم على النّار؛ أي: أنّهم فيها لا في غيرِها خالدون.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

القَصُّ والتِّلاوةُ:

القَصُّ أعمُّ من التِّلاوةِ في الفعلِ والأثَرِ

يَدُلُّ جِذْرُ كلمةِ (قَصَّ) على تَتَبُّعِ الأثرِ، أمَّا كلمة (تَلا) فيدلُّ أصلُ معناها على الاتِّبَاع. يُقَالُ: تَلَوتُه إِذا تبِعته. ومِنهُ تِلاوَةُ القُرآنِ؛ لأَنَّه يُتبِعُ آيَةً بَعدَ آيَةٍ.

والقَصُّ أعمُّ منَ التِّلاوةِ؛ لأنَّه يشملُ كُلَّ ما يُخبَرُ به، سواء كان من صُحُفٍ أَم مِن دون صُحُفٍ، وسواء كان تلاوةً أم لا.

الخوفُ والحُزنُ:

الـخـوفُ هَـمٌّ لمتوقَّعٍ لم يأتِ، والـحُـزنُ غـمٌّ لما وقعَ

الخوفُ يكون منَ المستقبل، والحُزنُ يكون على الماضي، وكلاهما من أوصافِ هذه الحياةِ، وممّا يوجدُ في هذه الحياة، يقولُ اللّهُ تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وهذا في الآخرة إذ لا يخافونَ منَ المستقبل، ولا يحزنونَ على ما فاتَ وما مضى.

والخوفُ هَمٌّ يلحقُ الإنسانَ لشيءٍ مُتوقَّعٍ، والحُزنُ غَمٌّ يلحقُه لشيءٍ وقع[1].

الكذبُ والافْتِراءُ:

الافـتـراءُ أخـصُّ مِـنَ الـكـذِبِ وأشَدُّ ذَمًّا

الكَذِب: هو عدمُ مطابقةِ الخبرِ للواقع، أو لاعتقاد المُخبرِ لهما على خلافٍ في ذلك.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/231.

والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذبِ، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسِه، ولذا يُقال لِمَن قال: فعلتُ كذا، ولم أفعلْ كذا مع عدمِ صدقِه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقال: هو مُفترٍ، وكذا مَن مدحَ أحدًا بما ليس فيه، يُقال: إنَّه كاذبٌ في وصفِهِ، ولا يُقال: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممّا يرتضيه المقولُ فيه غالبًا[1]، وقد يحسنُ الكذبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ، وعلى الزّوجةِ، كما وردَت به الرّواية[2]؛ لأنَّ المُؤمِنَ لا يكونُ كَذّابًا، ولكنَّ بَعضَ الأحوالِ يُطلَبُ فيها التَّورِيَةُ أو المُداراةُ، وتَصريحُ الشَّخصِ بما يُرضي الطَّرَفَ الآخَرَ؛ لِرعايَةِ مَصلَحَةٍ، أو دَرءِ مَفسَدَةٍ، أو التَّخلُّصِ من عَدوٍّ، والتَّحايُلِ عليه، بخلافِ الافتراءِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 145.

(2) عن أمِّ كلثوم بنت عقبة ﵂، قالت: ما سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ رخَّصَ في شيءٍ منَ الكذبِ إلاّ في ثلاثٍ: «الرَّجلُ يقولُ القولَ يريدُ به الإصلاحَ، والرّجلُ يقولُ القولَ في الحربِ، والرّجلُ يُحدّثُ امرأتَه، والمرأةُ تحدّثُ زوجَها». أخرجه أبو داود في سننه، الحديث رقم: (4921)، والنّسائيّ في السّنن الكُبرى، الحديث رقم: (9134)، وأحمد في مسنده، الحديث رقم: (27275).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [الأعراف: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جزاءُ اللهِ تعالى قائمٌ على عدْلِه ورحْمتِه بذكْرِ الأدلّةِ وتوضيحِ البيِّناتِ

لَمَّا ذَكَر اللّهُ تعالى في الآيتين السَّابقتين كُلًّا مِنَ الّذين اتّبعوا هُداه، وما منحَهُم مِن فَضلِهِ، وكريمِ عطاياه مِنِ اطمئنانٍ وأَمنٍ ورحمةٍ، والّذين شقُوا، فكذّبوا بآياتِهِ تعالى، واستكبروا، حسُنَ أن يذكرَ وَصفَ بعضِ أفعالِ المُكذِّبين الكافرين ومآلِهم، فذكرَ افتراءَهم على اللّه الكذبَ، وهم بذلك ظالمون، وكَذَّبُوا بآياتِه، وذلك ظلمٌ ثانٍ عظيمٌ، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾[1]، ثمَّ ذكرَ نهايةَ أمرِهم في الدُّنيا عندَ الموتِ، وأنَّ اللّه لا يُعاقبُهم إلّا بأقوالِهم وشهادتِهم على أنفسِهم بالكفرِ، وهذا تذكيرٌ دائمٌ بعدلِ اللّهِ تعالى، وأنّه لا يظلمُ النَّاسَ شيئًا، وفيه عظيمُ رحمةِ اللّه بعبادِه المؤمنينَ.

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَنَالُهُمْ﴾: مِنَ الجذر (نَيَلَ)، ويدلُّ أَصلُ المادَّةِ على العطاءِ[2]. والنَّيلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيده، يُقال: نِلتُهُ أَنالُه نَيلًا. والنَّولُ: التّناول[3]. والنَّوالُ والنَّالُ والنَّائلُ: العَطاءُ[4]. والمعنى هنا: يَصِلُ إليهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2829.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نيل).
(3) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(4) الفيروزابادي، بَصائر ذوي التَّمييز: (نيل).

2) ﴿نَصِيبُهُم﴾: أَصل (نَصبَ): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواءٍ، والنّصيبُ: الحظُّ من كلِّ شيءٍ؛ إذ يُعزَلُ ويُقامُ لصاحبِه. وكلُّ لفظ (نصيب) في القرآنِ معناه الحظُّ منَ الشّيءِ. والمقصودُ في الآيةِ حظُّهم المُعَيَّن؛ أي: ما أخبرَ اللّهُ ﷻ من جزائِهم[1].

3) ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: جَمعُ كُتُبٍ وكُتْبٍ. وكَتَبَ الشّيءَ: خَطَّه. وسُمِّيَ القرآنُ الكريمُ كتابًا؛ لِمَا جُمِعَ فيه منَ القصصِ والأَمرِ والنَّهي والأمثالِ والشّرائعِ والمواعظِ، أو لأنَّه جُمِعَ فيه مقاصدُ الكتبِ المنزلةِ على سائر الأنبياءِ، وكلُّ شيءٍ جمعتَ بعضَه إلى بعضٍ فقد كتبتَه[2]. والمرادُ به هنا اللَّوحُ المحفوظُ؛ أي: ممَّا كُتِبَ لهم فيه.

4) ﴿رُسُلُنَا﴾: من (رسل)، والرَّسلُ: الانبعاثُ على تؤدةٍ. ومنه: ناقة رَسْلَة؛ أي: سهلةُ الانقياد، وإبلٌ مَراسيلُ، والرّسولُ: المنبعثُ، وأُخِذَ منه تارةً الرِّفقُ والمَهَلُ، فقيل: على رِسلِك، وتارةً الانبعاث، فاشتُقَّ منه الرّسول[3]. ورُسُلُ اللّهِ تارةً يُرادُ بها الملائكةُ، وتارةً يُرادُ بها الأنبياءُ[4]. والمقصودُ بالرُّسلِ هنا: مَلَكُ الموتِ وأعوانُه.

5) ﴿تَدْعُونَ﴾: من (دعو)، والدُّعاء: النِّداء، والمعنى المحوريُّ للكلمةِ: جَذبُ الشّيءِ أو محاولةُ ضمِّه إلى حيّزٍ أو أمرٍ: كجَذب اللّبَنِ إلى حَيّزِهِ أو حيّزِ الحالبِ، وجَذبِ النَّاسِ إلى الوليمةِ والاجتماعِ، والسَّوقِ إلى الأمير. والدّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تَقَرُّبٌ إلى المعبودِ، واعتزاءٌ إليه، واستكفاءٌ به، فهي منَ الجذبِ والانجذابِ، وسياقاتُ هذا المعنى واضحةٌ في القرآن الكريم، وكثيرٌ منها تصحبه عبارةُ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أو نحوها[5]. والمعنى في الآية: تعبدون.

6) ﴿ضَلُّواْ﴾: ضَلَّ يَضِلُّ ضلالًا وضلالةً: حادَ عن جادَّةِ الصَّوابِ، فهو ضالٌّ. وضَلَّ عنِ الطَّريق، وضَلَّ الطّريقَ لم يهتدِ إليه. وضَلَّ البعيرُ: ضاع. الضَّلال: مضادُّ الهدايةِ والرَّشادِ، وهو العدولُ عنِ الطَّريقِ المستقيم، ومنَ الضَّلالِ: غيابُ الفقدِ، وضابطُه كلُّ ما جاءَ بعدَه في القرآنِ (ضلّ عن)، ونحوها[6]. والمعنى هنا: ذهبوا عنا.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 128، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصب).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: (كتب).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (رسل).
(4) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضل).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أظلمُ النّاسِ مَن بـدَّلَ مـرادَ اللهِ تـعـالى وكـذَّبَ بشرائعِه

أخبَرَ الحقُّ ﷻ أنَّه لا أحَدَ أشنَعُ ظُلمًا، ولا أبشعُ جُرمًا، ولا أقبحُ ذَنبًا مِمَّن اختلَقَ على اللهِ الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه الّتي أنزَلَها على رُسلِهِ الكِرامِ عليهم السلام، أولئك الموصوفون يَصِلُهم نصيبُهُمُ المكتوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخيرِ والشَّرِّ عَدلًا منه سبحانَه إلى أن تحضرَهم الملائكةُ؛ لتقبِضَ أرواحَهم، فتسألهم مُوَبِّخين مُستنكرين: أين ما كنتم تَعبدونَ مِن دونِ اللّهِ؟ فيجيبون: غابُوا عَنَّا فلم نَرَهم، ويُقِرُّون على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ، وإقرارُهم في ذلك الوقتِ حجَّةٌ عليهم، ولن ينفعَهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الفاءِ وأثرُها في الرَّبْطِ:

الـفـاءُ لِـربْـطٍ أو ترتيبِ ما بَعدها عَلى ما سَبَقَها

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ رابطةٌ معنويَّةٌ، فهي إمَّا أن تكونَ تفريعيَّةً على ما سَبَقها، "وهذه كالفَذلَكَةِ لما تَقَدَّمَ لِتُبَيِّنَ أنَّ صِفاتِ الضَّلالِ، الَّتي أُبهِمَ أصحابُها، هي حافَّةٌ بالمُشرِكِينَ المُكَذِّبِينَ برِسالةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فإنَّ اللّه ذَكَرَ أولياءَ الشَّياطِينِ وبَعضَ صِفاتِهم"(1)، وإمَّا أن تكونَ لِتَرتيبِ ما بَعدَها على ما سَبَقَ مِن تَبكِيتِهم وإظهارِ كَذِبِهم وافترائِهم(2).

غَرَضُ الاستفهامِ وفائِدتُه:

الإنكارُ والتَّعجُّبُ والتّوبيخُ ممَّا وقعَ مِنَ الكفّارِ، ونـفـيُـه نـفـيًـا قاطعًا لِشَناعةِ ما فيه

غرضُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الإنكارُ؛ أي: إنكارُ الواقِعِ، ويتولَّدُ منه معاني التَّعجّبِ والتّوبيخِ على ما وقعَ مِن هؤلاءِ الكفّارِ. وفائدتُه: النَّفيُ؛ أي: لا أحَدَ أبشَعُ ظُلمًا، وأخطأُ فِعلًا، وأجهلُ قولًا، وأبعدُ ذَهابًا عنِ الحَقِّ والصَّوابِ مِمَّن اختلقَ على اللّه زُورًا مِنَ القولِ، فَنَسَبَ إليه الوَلَدَ والصّاحبةَ، وحرَّمَ ما لَم يُحَرِّمْه اللّهُ تعالى،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/111.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/63.

فلم يَقتَصِرْ على افتراءِ الكَذِبِ في حَقِّ نَفسِهِ وضَلالِها، حتّى قَصَدَ بذلِكَ ضَلالَ غَيرِهِ؟! أو كَذَّبَ بأدِلَّةِ اللّهِ وآياتِه الدَّالّةِ على وحدانيّتِه سبحانَه، ونبوّةِ أنبيائِه، فجحدَ حقيقتَها ودافع صحَّتَها؟![1].

وَجهُ التَّعبيرِ بصِيغةِ (أفعل):

الاعتداءُ على حقِّ اللهِ هو أظلمُ اعتداءٍ مارسَتْه البشريَّةُ في تاريخِها

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المفاضَلةِ في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾؛ لأنَّهم "كانُوا أظلَمَ النّاسِ ولَم يَكُن أظلَم منهم؛ لأنَّ الظُّلمَ اعتداءٌ على حَقٍّ، وأعظَمُ الحُقُوقِ هي حُقُوقُ اللّهِ تعالى، وأعظَمُ الاعتداءِ على حقِّ اللّهِ الاعتداءُ عليه بالاستِخفافِ بصاحِبِه العَظيمِ، وذَلِكَ بأن يُكَذِّبَ بما جاءَهُ مِن قِبَلِه، أو بأن يَكذِبَ عليه فيُبَلِّغَ عنه ما لَم يَأمُرْ بِه، فَإنْ جَمَعَ بَينَ الأمرَينِ فَقَد عَطَّلَ مُرادَ اللّهِ تعالى مِن جِهَتَينِ: جِهَةِ إبطالِ ما يَدُلُّ على مُرادِه، وجِهَةِ إيهامِ النّاسِ بأنَّ اللّه أرادَ منهم ما لا يُرِيدُهُ اللّه"[2].

بَلاغةُ الاحْتِراسِ:

إرادةُ عُمومِ الحُكْمِ لا شَخْصٍ مَخصوصٍ

في العدولِ عنِ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ إلى (مَن) احتراسٌ دقيقٌ؛ لأنَّه لو قالَ: (مِنَ الّذي افترى)؛ لفُهِمَ أنَّ المرادَ به معيَّنٌ مخصوصٌ، وهذا غيرُ مرادٍ؛ لأنَّ المقصودَ التّعميمُ؛ ليشملَ كُلَّ مَن صَدَرَ عنه هذا الفعلُ الشّنيعُ، أو اتَّصفَ بهذا الوصفِ الوضيعِ، أو قالَ هذا القولَ البغيضَ، وليس المقصودُ التّخصيصَ بمُعَيَّنٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِمُفردةِ الافْتراءِ دونَ الكَذِبِ:

الافتراءُ أخَصُّ مِنَ الكَذِبِ

عُبِّرَ بالافتراءِ مع الكَذِبِ في قولِه: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾؛ حيث لم يقُل: "مِمَّن كَذَبَ على اللّه أو كذَّب" فحسب؛ تَجَنُّبًا لتكرارِ الكلمةِ؛ وللجمع بين وصفين شنيعين لهؤلاء الكفرة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/408.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/111.

هُما: الافتراء والكَذِب، فإنَّ افتراءَ الكذبِ لعنةٌ قائمةٌ بذاتِها، فكيف إذا اجتمعَت معها لعنةٌ أخرى، والافتراءُ: هو القولُ المُختَرَعُ الّذي لا أصلَ له[1]، وهو كَذِبٌ في ذاتِه، فهؤلاء جمعوا بين الكذبِ على اللّه بما لا يرتضيه، والكذبِ على النَّاس، والكذبِ على أنفسِهم.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

تهويلُ جُرْمِهم وعظيمُ شأْنِ الافْتراءِ على الله تعالى فهو لا يُوازيه افتراءٌ آخرُ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فلم يقُل: (ممن افترى كذبًا على اللّه)؛ لتهويلِ جُرمِهم بافترائِهم على مَلِك الملوكِ؛ لذا أُوثِرَ التَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ؛ لزيادةِ تقبيحِ أفعالِهم وأقوالِهم، فتقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للاهتمام بالمُقَدَّم، فهو ليس افتراءً معهودًا، بل هو افتراءٌ عظيمٌ في ذاتِه ومآلِه وآثارِه.

بَراعةُ التَّعْبيرِ في الجمْعِ بين لفْظِ الافْتراءِ والتّكذيبِ:

كُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَريقَينِ لا أظلَمَ مِنهُ؛ لأنَّ الفَريقَ الآخَرَ مُساوٍ لَهُ في الظُّلمِ، ولَيسَ أظلَمَ منه

في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: نُظِمَ الافتراءُ على اللّه تعالى، والتّكذيبُ بآياتِه في سِلكٍ واحدٍ؛ للإشارة إلى المساواةِ بالأظلميَّةِ بينهما، وفائدةُ ذلك: التَّحذيرُ الشَّديدُ، والوعيدُ المزلزلُ لِكُلِّ مَن تُوسوِسُ له نَفسُه التَّقوُّلَ على اللّه تعالى، والتّشريعَ للنّاسِ في الدِّين ما لَم يَأذَنْ بِهِ اللّه، ونسبتَهُ إلى اللّهِ، أو التّكذيبَ بآياته، وفائدته أيضًا عَدَمُ التَّهاونِ في أحدهما، فالاتّصافُ بأحدهما كفيلٌ بالهلاكِ والعقابِ، فمَن تقوَّلَ على اللّه تعالى ما لم يَقُلْه، أو جَحَدَ ما قالَه وكَذَّبَه، فَكِلا الأمرين مُساوٍ للآخر في الجُرم والظُّلم، "وعلى هذا فكُلُّ واحدٍ منَ الفَريقَينِ لا أظلَمَ مِنهُ، لأنَّ الفَريقَ الآخَرَ مُساوٍ له في الظُّلمِ وليسَ أظلَمَ منهُ، فأمّا مَن جَمَعَ بَينَ الأمرَينِ مِمَّن لَعَلَّهم أن يَكُونُوا قد شَرَعُوا لِلمُشرِكِينَ أُمُورًا مِنَ الضَّلالاتِ، وكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَهم أشَدُّ ظُلمًا، ولكِنَّهم لمّا كانُوا لا يَخلُونَ عَنِ الانتِسابِ إلى كلا الفَرِيقَينِ،

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فري).

وجامِعِينَ لِلخَصلتَينِ لَم يَخرُجُوا مِن كَونِهِم مِنَ الفَرِيقِ الَّذِينَ هم أظلَمُ النّاسِ"[1].

معنَى حرفِ ﴿أَوۡ﴾:

نتيجةُ اجتماعِ الافتراءِ والتَّكذيبِ أوِ افتراقِهما واحدةٌ

أفادَ التَّعبيرُ بحرف ﴿أَوۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بدلَ الواو التّرديدَ، وهي تشيرُ إلى أنَّ الافتراءَ على اللّه بمثل تحليلِ ما حَرَّمَ، وتحريم ما حَلَّلَ، ونسبةِ ذلك إليه سبحانَه، واتّخاذِ الولد، وغيرِ ذلك منَ المفترياتِ ظُلمٌ فاحشٌ يُستَنكَرُ ويُتَعَجَّبُ منه، فليس الاستنكارُ منهما مجتمعَين، بل من كلِّ واحدٍ منهما مُنفرِدًا، ومُجتمِعًا[2].

فالمُفتري وهو الّذي أنشأَ الباطِلَ والفِريَةَ، ووضعَها، ودعا النَّاسَ إليها، كُفرُه بالافتراءِ، وإنشاءِ الباطِلِ، والمُكَذِّبُ بالحَقِّ، كُفرُه بجُحودِ الحَقِّ، وهذان النَّوعانِ يَعرِضانِ لكُلِّ مَن يأتي بالباطل[3].

بَلاغةُ فصلِ الجُمَلِ:

تحفيزُ السُّؤالِ عن مصيرِ المُفتَرِين لاجْتِنابِ خَطواتِهم

فُصِلَت جملةُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ عَمَّا قَبلَها لِشبهِ كمالِ الاتّصالِ (الاستئنافِ البيانيّ)، حيث وقعَت جوابًا عن سؤالٍ أثارَهُ الاستفهامُ بما فيه من إنكارٍ مفاده: ما جزاءُ أولئك الّذين افتروا على اللّه، وكَذَّبُوا بآياتِهِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ (أولئك):

الإشارةُ إلى تمادِي المُفتَرِينَ في الغَيِّ والضَّلالِ

جِيءَ باسمِ الإشارَةِ في قَولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ دون (هؤلاء)؛ لتمييزِ المشارِ إليهم، وللإشارة إلى بُعدِهم في الضَّلال، وبُعدِهم عن رحمةِ اللّهِ ورضوانِه، وللدّلالةِ إلى أنَّ ما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/113.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2830.
(3) ابن القَيِّم، الرِّسالة التبوكيّة، ص: 47.

اتَّصفوا به مِنَ الافتراءِ والكذبِ هو سببُ ذلك الحُكمِ عليهم، وإلى استحقاقِهم العذابَ الشّديدَ المُعَدَّ لَهم.

تصويرُ المَعنويِّ في صُورةٍ محسُوسةٍ تَتَراءَى أمامَ الأعيُنِ

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ المَكنيَّةِ:

النَّيلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيدِه، ويدلُّ أَصلُ المادَّةِ على الإعطَاءِ[1]، وأضفى الاستعمالُ القرآنيُّ للكلمةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَـٰبِۖ﴾ ظِلالًا تُناسبُ المقامَ مِن معنى الإصابةِ والإساءةِ والضَّررِ، وأكَّد هذا إسْنادُ فِعْلِ ﴿يَنَالُهُمۡ﴾ إلى ﴿نَصِيبُهُم﴾؛ للدّلالة على مُطلَقِ الإصابَةِ. وقد صُوِّر المعنويُّ وهو النَّصِيبُ مِنَ الكِتابِ في صورةٍ محسوسةٍ مُشاهَدةٍ على طريقِ الاستعارةِ المكنيّةِ، حيث شُبِّهَ النَّصِيبُ بِشَخصِ طالِبِ ثأرًا فَنالَه. "وإنَّما يُصارُ إلى هذا لِلتَّنبيهِ على أنَّ الَّذي يَنالُهم شَيءٌ يَكرَهُونَه، وهو يَطلُبُهم، وهم يَفِرُّونَ منهُ، كما يَطلُبُ العَدُوُّ عَدُوَّه، فَقَد صارَ النَّصِيبُ مِنَ الكِتابِ كأنَّهُ يَطلُبُ أن يُحَصِّلَ الفَرِيقَ الَّذِينَ حَقَّ عليهم ويُصادِفَهم"[2].

أحكامُ اللهِ تَجرِي على الجميعِ دونَ تأخِيرٍ أو تأجيلٍ

نُكتةُ خُلوِّ الفِعْلِ من حرفِ التَّنفيسِ:

جاءَ الفعلُ ﴿يَنَالُهُمۡ﴾ مُجَرَّدًا من حرف التَّنفيسِ (السّين، سوف)؛ "للإيذان بأنَّ نصيبَهم الّذي ينالُهم هو جريانُ أحكامِ اللّهِ تعالى عليهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، وخضوعُهم لإرادتِهِ وقُدرتِهِ من غنًى وفقرٍ، وصحّةٍ ومرضٍ، وحياةٍ وموتٍ، وأنَّ معنى الكِتابِ على هذا هو كتابُ القضاءِ والقَدَرِ النَّافذِ في جميعِ المخلوقاتِ"[3].

لَفظُ (النَّصِيبِ) مُجمَلٌ عامٌّ مُحتَمِلٌ لِكُلِّ الوُجُوهِ المَذكُورةِ

سِرُّ اسْتِعمالِ مُفردةِ (النَّصيب):

المراد بـ ﴿نَصِيبُهُم﴾؛ أَي: ما كُتِبَ لَهُم مِن رزقٍ وعُمُرٍ وعَمَلٍ، أو ما كُتِبَ لَهُم مِن شَقاءٍ وسَعادةٍ[4]. وكلُّ لفظ (نصيب) في القرآنِ معناه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نيل).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/114.

(3) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/214.

الحظُّ منَ الشّيءِ، وأُوثِرَ استعمالُ مفردةِ ﴿نَصِيبُهُم﴾ دونَ مرادفاتِها؛ لأنَّ لَفظَ (النَّصِيب) مُجمَلٌ عامٌّ مُحتَمِلٌ لِكُلِّ الوُجُوهِ المَذكُورة، وأيضًا لبيان أنّ الأمرَ قِسمةٌ، فَلَهُم قِسمةٌ ولغيرهم قِسمةٌ، ففيه إشارةٌ إلى غيرِهِم، كما أنَّ التَّعبيرَ بـ﴿نَصِيبُهُم﴾ يُصوِّرُ عدلَ اللّهِ تعالى؛ فنصيبُ هؤلاء منَ العذابِ هو نصيبُهم في أعمالِهم، فجزاؤُهم مُشتقٌّ من أعمالِهم، فَكُلُّ نَفسٍ تُجزَى ما كسبَت؛ أي: جزاؤها مِن كسبِها، فلولا ما كسبَت ما عُذِّبَت، فعقابُهم جزاءً وفاقًا لِعَمَلهم[1].

دَلالةُ اسْتِعمالِ مُفرَدةِ الكِتَابِ ومعنَى التَّعريفِ:

عَدْلُ اللهِ تعالى يُصيبُ أعتَى عِبادِه كُفرًا

الكِتابُ هنا بِمَعنى المَكتُوب، ويدُلُّ استعمالُ مفردةِ الكِتَاب في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ على أنَّ المرادَ به اللَّوحُ المحفوظُ، و(أل) للعهد، والمرادُ: ما كَتَبَ اللّهُ لهم من خيرٍ وشرٍّ، ورزقٍ وَعُمُرٍ، وَعَمَلٍ، فَهُم مَعَ ظُلمِهم وافترائِهم لا يُحرَمُونَ ما قُدِّرَ لَهم مِن ذلِك إلى انقِضاءِ أجَلِهِم[2].

والكتابُ الإلهيُّ "هو الّذي يتضمَّنُ الوعدَ على الأعمالِ؛ أي: والوعيد بدليل بيانِه بالخيرِ والشّرِّ. وهو عامٌّ يشملُ جزاءَ الدّنيا والآخرة"[3]، كما قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59]، فكلُّ ذلك مُثبَتٌ في كتابٍ واضحٍ لا لَبْسَ فيه، وهو اللَّوحُ المَحفوظُ.

دَلالةُ اسْتِعمالِ أداةِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

لا يمنعُ كَونُ (حتَّى) ابتدائيّةً أن تكون غايةً لِمَا قَبلَها

أداةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ حَرفُ ابتِداءٍ، وهي غايَةُ نَيلِهِم؛ أي: استيفاءُ المذكورين نصيبَهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2831.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/171.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/412.

ممَّا كُتِبَ لهم في اللَّوحِ المَحفوظِ، ولا يمنع كَونُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيّةً أن تكونَ غايةً لما قبلَها، فَلا بُدَّ أن يَنالَ المُفترون على الله تعالى، والمُكَذِّبون بآياتِهِ نَصيبَهم مِنَ الكِتاب كاملًا تامًّا إلى أن تتوفّاهم مَلائِكَةُ المَوتِ[1].

والكلامُ الواقعُ هنا بعدَ حتَّى فيه ترويعٌ لَهُم، وتهويلٌ لِما يُعاينوه عندَ قَبضِ أرواحِهم، وهو أدخلُ في تهديدِهم وتخويفِهم وموعظتِهم مِنَ الوعيدِ المُتعارَفِ[2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بلفْظِ المجيءِ:

المقصودُ تصويرُ صُعوبةِ مجيءِ ملائكةِ الموتِ لا الإخبارُ عن مَجيئِهم

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمجيءِ على الإتيان في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾، حيث لم يقُل: (حتَّى إذا أتتهم رُسُلنا)، كما لم يقُل: (حتّى إذا تَوَفَّتْهم رُسُلنا)، وهو أوجزُ لفظًا؛ لأنَّ مجيءَ الملائكةِ صَعبٌ شديدٌ على مَن تحضرُه الوفاةُ، مجيءٌ خَطِرٌ، وذو شأنٍ؛ لذا كان المقامُ للمادَّة الّتي تدلُّ على الصّعوبة، وهي مادَّةُ (جاء)، بخلاف الإتيان الّذي يدلُّ على مجيءٍ فيه سهولةٌ ولِينٌ، كَما سَبَقَ بيانُه مرارًا.

ولتصويرِ مجيءِ ملائكةِ الموت، فهو مجيءٌ حتميٌّ له بدايةٌ ونهايةٌ وحدثٌ، ومضمونُه فظيعٌ، ولاسيَّما إذا ارتبطَ بالمُكذِّبينَ، فكان المقصودُ تصويرَ مشهدِ المجيءِ لغايةِ التَّوفّي، لا الإخبارَ عنِ التَّوفِّي فحسب.

نُكتةُ التَّعبيرِ بأداة (إذا) دونَ (إن):

مجيءُ ملائكةِ الموتِ حتميٌّ لا شكَّ فيه ولا جدالَ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ عُبِّرَ بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ)؛ لأنَّ أداةَ الشّرطِ (إنْ) تفيدُ التَّشكيكَ في حصولِ الفعلِ، إذ قد يحصلُ أو لا يحصلُ، بخلاف (إذا) الّتي تفيدُ القَطْعَ بحصولِه، وللدّلالة على حَتميَّةِ هذا المجيء، وتَحَقُّقِه، وعَدَمِ تَخَلُّفِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/226، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/379.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/116.

عن أَحَدٍ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185].

نُكتة التَّعْبيرِ بالرُّسُلِ دونَ الملائكةِ:

التَّـنْـبـيـهُ على الـفَـرْقِ بين الرُّسُلِ المُبلِّغين والرُّسلِ المُوكَّلين بقَبْضِ الأرواحِ

المقصودُ منَ الرُّسُلِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ مَلَكُ الموتِ وأعوانُه(1)، بدليل قولِه تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]، وأُوثِرَ التَّعبيرُ بالرُّسل دون الملائكةِ أو ملكِ الموتِ، كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السّجدة: 11]؛ للإشارةِ إلى أنَّ الرُّسُلَ المذكورين في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ - فيما سبق - هم أداةُ النَّجاةِ منَ الرُّسُلِ المذكورين في هذه الآية، فهو بمنزلةِ التَّنبيهِ على الفَرقِ بين الرُّسُلِ في التَّبليغِ والتَّوفِّي، فمَن استجابَ للرُّسلِ المبلِّغينَ عنِ اللهِ في دعوتِهم نجا من عذابِ الرُّسلِ المُوكَّلين بقبض الأرواحِ عند توفِّيهم.

غَرَضُ الإضافةِ:

التّـشـريـفُ والـتّـكـريـمُ للملائكةِ، وبيانُ أنّهم رُسلٌ أمناءُ مُطيعون

غرضُ الإضافةِ في قولِه: ﴿رُسُلُنَا﴾ تعظيمُ مكانةِ تلك الرُّسُلِ عندَ اللّهِ تعالى، والتّشريفُ والتّكريمُ للملائكة، وبيانُ أنّهم مبعوثون منَ اللّهِ تعالى، وأنّهم لا يخطِئون في قبضِ الأرواحِ، ولا يزيدونَ أو يَنقُصونَ من أجل الميِّت، ولا يخالفونَ أمرَ اللّهِ في شيءٍ، فهم مُطيعونَ ولا يستقلُّونَ عن أمرِ اللّهِ في ذلك، بل يقبضونَ بإذنِه ومشيئتِه، كما قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61].

بَلاغةُ إسنادِ التَّوفيةِ إلى الرُّسُلِ:

إسنادُ التَّوفيةِ (الموت) إلى الرُّسُلِ (الملائكة) في قولِه تعالى:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/76.

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقته السّببيَّة؛ لأنَّ المُتوفِّيَ الحقَّ هو اللّهُ تعالى، كما قال سبحانَه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزّمر: 42]، ونكتةُ ذلك بيانُ أنَّ اللّه تعالى وكَّل ملائكةً مَخصوصين لهذا الأمر، كما أنَّه وكَّل آخرينَ منهم لوظائفَ أخرى، وأنَّ تنظيمَ شؤونِ الكونِ كلِّه قائمٌ بأمره.

لكلٍّ وظيفةٌ كونيَّةٌ ملائكةٌ يتوَلَّونَها

نُكتةُ التَّعْبيرِ بِصيغةِ المضارِعِ:

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمضارعِ ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾؛ للدِّلالة على تَجدُّدِ التّوفية، وتكرارِها مع كلِّ حيٍّ نَفْسًا نَفْسًا[1]، وأنَّ هذه التَّوفيةَ ستصلُ لكلِّ حيٍّ ما دامَت أنفاسُ العبادِ قائمةً في الحياة، كما حكى ﷻ عن وظيفةِ ملكِ الموتِ وأعوانِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61]، وجملة ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحال.

الوفاةُ حقٌّ واصلٌ لكلِّ حيٍّ ما دامَت أنفاسُ الحياةِ فيه

غَرَضُ الاسْتِفهامِ التَّهكُّمي:

تسألُ ملائكةُ الموتِ هؤلاءِ الموصوفين بما ذُكِر عند قَبضِ أرواحِهم مُوَبِّخين لَهُم، ومُبَكِّتين ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: أين الشّركاءُ الّذين كنتُم تعبدُونَهُم من دون اللّهِ؟! تهكُّمًا بهم، فلا يوجدُ مَن يدفعُ عنهم ما هُم مُقبِلون عليه من عذابٍ شديدٍ، والتَّحسيرِ لفواتِ الفرصةِ لرجوعِهِم إلى الحَقِّ بالإيمانِ باللّهِ ورسلِه، وبما جاؤوا به من عندِ اللّهِ، والتَّيئيسِ الحاصلِ من فَقدِهم شُركاءَهم، أو يُحمَلُ الاستفهامُ على التَّوبيخِ والتّقرير[2]، أو يُحمَلُ على الإنكارِ بطريقِ الكنايةِ؛ حيث تُوصِّلَ إلى إنكارِ الحالِّ في المكان بإنكارِ المكانِ

توبيخُ المُكذِّبين وتقريرُهم عند قَبضِ أرواحِهم تحذيرٌ لغيرِهم في حياتِهم

(1) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/48.

المَحلولِ فيه، وهو إنكارُ الآلهةِ المُدَّعاةِ على أبلغ وجهٍ؛ أي: إنكارُ وقوعِ أن تكونَ لهم آلهةٌ أخرى شركاء لله ينفعونَهم أو يضرّونَهم[1].

فللاستفهام غرضان:

الأوَّل: تَوبيخُ وتقريعُ وتَبكِيتُ المُكذِّبين ليَزيدهم غمًّا إلى غمٍّ.

الآخر: لُطفٌ بالمُكَلَّف؛ لأنَّه إذا تَصوَّرَ ذَلك صَرَفَه عَنِ التَّكذِيبِ[2].

بَلاغةُ استِعمالِ ﴿مَا﴾ بعدَ أداةِ الاسْتِفهامِ ﴿أَيۡنَ﴾:

توريثُ المُخاطَبين النَّدمَ والحسرةَ في وقتِ الانْقطاعِ الكلّيِّ عن الأملِ

﴿مَا﴾ اسمٌ موصولٌ جاءَ بعدَ أداةِ الاستفهام عنِ المكان في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، فالسُّؤالُ عن الآلهةِ الّتي كان يعبدُها أولئك في حياتِهم، فهو سؤالٌ يقتضي استحضارَ مكانِ العبادةِ الّتي كانوا يرجون فيه النَّجاة، ويفيدُ الاسمُ الموصولُ استحضارَ عمومِ الآلهةِ الّتي كانوا يعرفونها حقَّ المعرفة، وينتظرون إعانتَها؛ فقد جمعَ الاستفهامُ بـ﴿أَيۡنَ﴾ واستعمالُ ﴿مَا﴾ بعدَه استحضارَ العبادةِ والمعبودين ومكانَها، وما يقتضيه ذلك من عموم الأوقات، وهذا التّركيبُ اللّغويُّ يُورِثُ المُخاطَبين شديدَ النَّدمِ في تلك اللّحظةِ الحَرِجة، فكأنَّ المعنى: "أين الآلِهَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا لِيَكُونُوا لَكم شُفَعاءَ؟ فَلا نَراهم يُخَلِّصُونَكم مِمّا تَحَقَّقَ عَلَيكم مِن هَذِهِ الشَّدائِد"[3].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالدّعاءِ دونَ العِبادةِ:

التَّعْبيرُ بالدُّعاءِ لِمُناسبتِه لِمقامِ الاسْتِغاثةِ والنَّجاةِ

عُبِّرَ بالدّعاءِ دونَ العبادةِ في قولِه تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنَّ الموطنَ موطنُ طلبِ نجاةٍ واستغاثةٍ والتجاء، فيحسنُ فيه الدّعاءُ، وهذا في غاية التّيئيسِ لَهُم والتَّبكيتِ؛ لانصراف شركائِهم عنهم، ومَن كانوا يظنّون نُصرَتهم، وهم في أحوجِ ساعاتِ الإجابةِ لمطالبِهم.

---

(1) المَطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/2679.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/440، والطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 6/379.

أمَّا دلالةُ استعمالِ ﴿تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، حيث لم يقُل: تشركونَ باللّه؛ فلأنّ المرادَ بالدُّعاءِ دُعاءُ العِبادَة[1]، وهذا هو المناسبُ للمقام كما تَمَّ بيانه.

دَلالةُ اسْتِعمالِ لَفْظِ ﴿دُونِ﴾:

زيــادةُ تبكيتٍ للـعابدِين من دونِ اللهِ تعالى

في التَّعبيرِ بِلَفظِ ﴿دُونِ﴾ وإضافتِه إلى لفظ الجلالة الاسم الأعظم في قولِه تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ زيادةُ تبكيتٍ لهم، وتعنيفٍ، وتقريعٍ؛ حيث انصرفوا عن عبادة خالقِهم ورازقِهم والمُنعِم عليهم، ومالكِ أمورِهم إلى عبادة المخلوقِ الأدنى خِسَّةً ورُتبةً سواء أكان بَشَرًا، أو جِنًّا، أو ملائكةً، أو حجارةً، أو أوثانًا.

سِرُّ اسْتِعمالِ لَفْظِ الضَّلالِ:

الاعترافُ بضَلالِ المـعـبـودِ دلـيـلٌ عــلـى ضـــلالِ العابدِ

في استعمال ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ هنا إشارةٌ إلى الاعتراف بضلالِهم بالتّصريح بضلالِ معبوداتِهم، حيث قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛ أي: غابوا غيبةَ مَن لَا يستطيعُ أن يعود منها، وبذلك ثبَتَ عجزُهم، وثَبَتَ لهم بهذا الإقرارِ أنّهم لا يستطيعونَ أن ينفعوهم أو يضرُّوهم في هذا اليومِ العصيبِ الّذي يستقبلُهم.

وفي قوله: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ كنايةٌ عنِ العدم، فالآلهةُ المزعومةُ لم يكن لها وجودٌ بهذا المعنى حتَّى تَضِلَّ طريقَها إلى عابديها، فقد أَقرُّوا أنَّهم كانوا يدعون العَدمَ والوهمَ؛ لعجزِهم عن فعلِهم وقتَ الحاجةِ إليهم[2].

والمُتأمِّلُ في جوابهم ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ يَجِدُ أنَّه جوابٌ من حيث المعنى لا من حيث اللَّفظ؛ وذلك لأنَّ السُّؤالَ إنَّما وقعَ عن مكانِ الّذين كانوا يدعونهم من دونِ اللّهِ، فلو جاءَ الجوابُ على نَسَقِ السُّؤالِ لقيل:

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 7/396.

(2) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.

هم في المكانِ الفلانيِّ، وإنَّما المعنى: ما فعلَ معبودكم ومن كنتُم تدعونهم، فأجابُوا بأنَّهُم ذهبوا عنهم، وغابُوا فلم يرَوْهم[1].

فائِدةُ العطْفِ ودلالتُه:

عَطفُ الدَّليلِ على الدَّعوَى يَستوجِبُ اسْتِحْقاقَهم كُلَّ عِقابٍ إلهيٍّ

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بالواو على ما قَبلها: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ لِلتَّوَسُّطِ بين الكمالين، وهذا التّذييلُ مُؤكِّدٌ لمضمونِ ما قبلَه، ودَلَّ عَطفُ قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ على قوله تعالى: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ على أنَّ الشّهادةَ هنا إقرارٌ وحُكمٌ على أنفسِهم أنَّهم كانوا في حياتهم الدّنيا كافرين بالحقِّ، جاحدين به، وباللّه تعالى، وحسبُ ذلك دليلًا دامغًا عليهم، وعلى استحقاقِهم كُلَّ عقابٍ إلهِيٍّ ينتظرُهم[2]، ففيه عَطفُ الدَّليلِ على الدَّعوى، فَهُم قالوا، ثُمَّ شهدوا على أنفسِهم.

غَرَضُ ذِكْرِ القَيْدِ:

الشَّهادةُ على النَّفسِ أقوَى أدلَّةِ الإثباتِ

لم يقُل: (وشهدوا أنّهم كانوا كافرين) مع وجازته، بل أتى بقيدِ: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ وذلك لتكونَ نَصًّا على أنَّ الشّهادةَ صَدَرَت عنِ المُكَذِّبين، ولتكونَ حسرةً عليهم أن يشهدوا على أنفسِهم لا لَها.

سِرُّ العُدولِ عنِ الكذبِ إلى الكُفرِ:

إظهارُ عَراقَتِهم في الكُفرِ، واسْتِحقاقِهم العذابَ

في صدرِ الآيةِ جاء الحديثُ عنِ المُكَذِّبين، وفي آخرها جاءَ قولُه: ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ فوصفهم بأنّهم كانوا كافرين، فلم يقُل: (أَنَّهم كانوا مُكذِّبين)، وضَمَّ الكَذِب إلى الكُفر؛ ليجمعَ لهم بين وصفين شنيعين يستحقّون بالاتّصافِ بهما أشدَّ العذابِ، وهُمَا: الكُفر والكَذِب.

فائدَةُ التّوكيدِ:

أُكِّدَ الخبرُ ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بأنَّ واسميّة الجملةِ وبالكون

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/105.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2832.

الماضي؛ للدِّلالة على اعترافِهم بعراقتِهم في الكُفر، ولبيانِ مدى تناقضِ المشركين وجهلِهم وضلالِهم في حالتي عبادتِهم الآلهة المزعومةَ وإقرارِهم بكفرِهم، ولإظهارِ حُجّةِ اللّهِ عليهم، وتقريرِ عَدْلِه في عقوبتِهم، وللتّنبيهِ على أنّهم لم يكونوا جاهلينَ بحالِهم، بل كانوا يعلمونَ أنَّهم كافرونَ، ولكنّهم أصرُّوا على الكفرِ والشِّركِ، ففي هذا التّأكيدِ تحذيرٌ شديدٌ لِمَن اتّخذَ من دون اللّهِ أولياءَ وأندادًا.

بيانُ تناقُضِ المُشركين، وإظهارُ حُجَّةِ اللهِ عليهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصيبُ والحَظُّ:

النَّصيبُ يكونُ في المحبوبِ والمكروهِ، والحَظُّ النَّصيبُ المُقَدَّرُ منَ الخيرِ والفضْلِ

النَّصيب: الحَظُّ المُعَيَّن[1]. ويدُلُّ الأصلُ على إقامَةِ شَيءٍ وإهدَافٍ في استِواءٍ. والنَّصِيبُ: الحَظُّ مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: هذا نَصِيبِي؛ أَي: حَظِّي، وهو من هَذا، كأَنَّهُ الشَّيءُ الَّذي رُفِعَ لَكَ وأُهْدِفَ[2]. والنَّصيبُ يكونُ في المحبوبِ والمكروهِ، يُقال: أَخَذَ نصيبَه منَ الدُّنيا؛ أي: المقسوم له، خيرًا كان أو شرًّا، سعادةً أو شَقاءً. والنَّصيبُ ما يُصيبُ الإنسانَ من قِسمَةٍ سواء ارتفع بها شأنُه أم لا[3].

أمَّا أصلُ الحظِّ فهو النَّصيبُ والجَدُّ[4]. والحَظُّ: النَّصيبُ المُقَدَّرُ مِنَ الخير، وهو ما يَحظُّه اللّهُ تعالى للعبد مِنَ الخيرِ والفضلِ، وهو يرتفعُ به المحظوظُ؛ ولهذا يُذكَرُ على جهةِ المدح؛ فيُقال: لفلان حَظٌّ، وهو محظوظٌ[5]، ولذا عبَّر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فُصّلت: 35]؛ أي: منَ الخيرِ والفضلِ والكرامةِ عند اللّهِ، وكلُّ (حظٍّ) في القرآن فهو بهذا المعنى.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نصب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصب).

(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 135.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حظّ).

(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 135، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حظّ).

الكِتابُ والقرآنُ:

المعنى المحوريّ لأصلِ مادّة (كَتَبَ) إلصاقٌ بدقّةٍ وقُوّةٍ، ومن ذلك الكتابةُ المعروفةُ فهي إلصاقُ الكلام بتثبيت رموزِه[1]. وقد يُقال ذلك للمضموم بعضه إلى بعض؛ لذا سُمّي كلامُ اللّه - وإن لم يُكتَبْ - كِتَابًا وإن أُنزل مقروءًا، ولكنّه كان مكتوبًا في اللّوحِ المحفوظِ قبلَ أن ينزّلَ على رسولِ اللّه ﷺ[2].

ومعنى القُرآن الجَمعُ، وَسُمِّيَ قُرآنًا؛ لأَنَّه يَجمَعُ السُّوَر، فيَضُمُّها[3].

أمَّا من ناحية الاستعمالِ القرآنيِّ فَيُلحظُ أنَّه إذا كَثُر ورودُ (الكِتاب) في السّورة أكثرَ منَ القرآن أو لم يُذكرْ فيها، فإنّه يُعَبَّرُ عنِ القرآن بالكتاب، والعكس أيضًا إذا كان ذِكرُ كلمةِ القرآنِ في السّورة أكثرَ ورودًا من كلمة الكتابِ، فإنَّه يُعَبَّرُ عنِ الكِتاب بالقرآن، وإذا اجتمعَ القرآنُ والكتابُ فيتردّدان في السّورة بشكلٍ متساوٍ تقريبًا، ومن شواهد ذلك، أنّه في سورة البقرةِ بدأَ بالكتاب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وذكرَ (الكتاب) في السّورة 47 مرّةً، و(القرآن) مرّةً واحدةً في آية الصّيام: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾[4].

لُوحِظَ في الاسْتِعمالِ القرآنيِّ الطَّردُ والعَكسُ بين الكِتابِ والقرآنِ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قرأ).
(4) السّامرائيّ، لَمَسات بيانيّة، ص: 254.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاعْتِرافُ بالكُفرِ الموجِبِ للنَّارِ هو مبدأُ دُخولِ النَّارِ لا النَّجاةُ منها

لَمَّا ذكَرَ اللَّهُ تعالى المُفتَرِينَ عليه الكَذِبَ أو المُكذِّبينَ بآياتِه، ثمَّ ذكَرَ ما سيكُون من سُؤالِ الملائكةِ لهم عندما يَتوفونَهُم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾؟[الأعراف: 37] ذكَرَ على لسَانِهم أنَّهم قالُوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [الأعراف: 37]، فكأنَّه قِيلَ: لقدِ اعترَفُوا، والاعترَافُ إنصَافٌ، فهل ذَلِكَ نافِعُهُم؟ فبيَّنَ سُبحانَهُ أنَّ ذلك غيرُ نافعٍ لهُم، لفواتِ محلِّه بفواتِ دَارِ العَمَلِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآيتينِ قائمةٌ على بيانِ حالِ أهلِ النَّارِ عند الإقرارِ بأفعالِهم التي يَستحقُّون بها دخولَ النَّارِ قبل دُخولِها، وعندَ الأمرِ بدخولِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَمٖ﴾: جمعُ أُمَّةٍ، ومادَّتُهَا الهمزةُ والميمُ، وهي دالَّةٌ على تَضامِّ شيءٍ أو أشياءَ مُتَجانِسَةٍ، بمعنَى: لَحَاقِ بعضِها ببَعضٍ في حيِّزٍ يُحيطُ بظاهِرِهَا بلُطفٍ[2]، ومنه الأُمُّ؛ فإنَّ العرَبَ تُسمِّي كلَّ شيءٍ يُضَمُّ إليه سائرُ ما يليهِ أُمًّا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/379.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (أم).

وذكر ابنُ قُتيبة أنَّ الأصلَ في الأُمَّةِ: الجماعَةُ والصِّنفُ مِنَ النَّاس[1]، وتَرِدُ الأمَّةُ في القرآنِ الكريمِ على خمسَةِ معانٍ؛ هي: الجماعة، والملَّة، والزَّمن، والإمامُ، والصِّنفُ[2].

والأُمَمُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ يُرادُ بِهَا: الجماعاتُ والأحزابُ وأهلُ المللِ الكَافِرَة[3].

2) ﴿خَلَتْ﴾: الخاءُ واللَّامُ والحرف المعتلّ تدورُ تصريفَاتُهَا حَوْلَ مَعنَى تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[4]، والخَلاءُ مِنَ الأرضِ: قَرَارٌ لا شَيءَ فيه[5]. وخَلا لَكَ الشَّيءُ، بِمَعنَى: فَرَغَ[6]. والخُلُوُّ مُستعمَلٌ في الزَّمانِ والمَكَانِ، إلَّا أنَّهُ لَمَّا تُصُوِّر في الزَّمَانِ المُضِيُّ؛ فُسِّرَ الخُلُوُّ بالمُضِيِّ، فيُقَالُ: خلَا الزَّمانُ؛ أي: مَضَى وذهبَ[7]، ومنهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾، فإنَّ معناهُ: قد مضَتْ[8].

3) ﴿ٱلْجِنِّ﴾: الجيمُ والنُّون أصلٌ يدُلُّ على السَّترِ، ومنهُ: الجنَّةُ في الدُّنيا وهي البُستَان؛ لأنَّ الشَّجرَ بِوَرَقِهِ يستُرُ، والجَنَّةُ في الآخرة: ثَوَابٌ مَستُورٌ عَنَّا اليومَ[9]. والجِنُّ: خلقٌ مِن خَلقِ اللّهِ تعالى مُكَلَّفُونَ، خلقَهُمُ اللّهُ تعالى مِن نارٍ، وسُمُّوا بذلك لاستتَارِهم عنِ الأعيُنِ[10]، وهو المرادُ في قَولِهِ تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

4) ﴿وَٱلْإِنسِ﴾: الهمزةُ والنّون والسِّين تدور تصاريفُهَا على معنَى ظهورِ الشَّيءِ، ومِنه قولُهم: آنسَ الشَّيءَ؛ أي: رآهُ، ومِنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [النّمل: 7]، وسُمِّيَ الإنسُ إنسًا لظهورِهم[11]، والإنسُ: بنُو آدَمَ[12]، وهو المَعنَى المرادُ في قَولِهِ تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 248.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 143 - 144.
(3) الخازن، لباب التَّأويل: 2/198.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (خلو).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(7) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (خلا).
(8) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 5/1475.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(10) ابن الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 2/322.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنس).
(12) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (أنس).

5) ﴿لَّعَنَتۡ﴾: اللَّام والعَين والنّونُ تدور اشتقاقَاتُهَا على الإبعادِ والطَّرد، ومنه: لعنَ اللّهُ تعالى الشَّيطانَ؛ بمعنَى: أبعَدَهُ عنِ الخَيرِ والجنَّةِ[1]. واللَّعنُ في الشَّرع: الطَّرد والإبعَادُ عَن رَحمَةِ اللّه تعالى[2].

واللَّعنُ في قولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ بمعنى الشَّتمِ؛ أي: شتمَتِ الجماعةَ الأخرى مِن أهلِ مِلَّتها، تَبَرِّيًا منهَا[3].

6) ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: الدَّالُ والرَّاءُ والكافُ تدورُ تصريفَاتُها على معنَى لُحُوقِ شيءٍ بشيءٍ ووصولِه إليه، ومنه قولُهم: أدركتُ الشَّيءَ؛ أي: لحقتُهُ[4]. والإدراك والدَّرَكُ: لحَاقُ المُطارِد بالمُطارَد، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [النّساء: 78][5].

وأصلُ ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: تَدَارَكُوا؛ أُدغِمَتِ التَّاء في الدَّال، وجيءَ بهمزة الوصلِ لئلَّا يُبتدأ بالسَّاكنِ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾: تلاحَقُوا وأدرَكَ آخرُهم أولَّهم، واجتَمَعُوا في النَّار جميعًا[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اجتِماعُ الكافرين مُتخاصِمين ومُتلاعِنين في النَّارِ عذابٌ فوقَ العذابِ

قالَ اللّهُ تعالى لهؤلاءِ المُشرِكين المُفتَرِين حِينَ ورَدُوا عليهِ يومَ القيامَة: ادخُلُوا النَّارَ في جماعاتٍ مِن ضُرَبائكُم في الكفرِ، قد سَلَفَتْ مِن قَبلِكُم مِنَ الجنِّ والإنسِ في النَّار، كُلَّما دخلتِ النَّارَ جماعةٌ من أهلِ مِلَّةٍ لعَنَتْ نظيرتَهَا الّتي ضلَّت بالاقتِدَاء بهَا، حتَّى إذا تلاحَقَ في النَّارِ الأوَّلون من أهلِ المِلَلِ الكافرَةِ والآخِرون منهُم؛ قال الآخِرُون المتَّبعون في الدّنيا لقَادَتِهم: ربَّنا هؤلاء أضلُّونا عَن سَبيلِك، ودَعَونَا إلى عبادة غَيرِك، وزيَّنوا لنَا طاعةَ الشَّيطان، فآتِهم اليومَ من عذابك الضِّعفَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).
(2) بكر أبو زيد، معجم المناهي اللّفظيَّة، ص: 456.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/416.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درك).
(6) محمّد الأمين الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 3/225.

على عذابِنَا، قال اللّه تعالى: لكلٍّ مِنكُم ومِنهُم عذابٌ مُضاعفٌ مِنَ النَّار، ولَكِن لا تُدرِكُون قدْرَ ما أعدّ اللّهُ لَكُم مِنَ العذَابِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ عَمَّا قبلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا، فبَيْنَ هذهِ الجملةِ وما قبلَهَا شبهُ كمال الاتِّصال، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [الأعراف: 37] دالٌّ على اعترافِهم، والاعترافُ إنصافٌ، فرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ اعترافَهُم نافعٌ لهم ومُخرِجُهم مِن تَبِعَةِ العقابِ، فأثار ذَلِك سُؤَالًا: هَلِ اعترَافُهُم نافعُهم؟ فجاءَ الجوابُ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ بيانًا لعدَمِ انتفاعِهم باعترافِهم ذلكَ[2].

الاعتِرَافُ بالحقِّ بَعدَ فواتِ الأَوانِ حَسرَةٌ وخُسرانٌ

بَلاغةُ الاسْتعارَةِ التَّصريحيَّةِ:

وردَ فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ ماضيًا، والفعلُ الماضي دالٌّ على حدَثٍ مَضَى زمانُهُ، وسياقُ الآيةِ حديثٌ عمَّا يكُون يومَ القيامَةِ، وهو أمرٌ مُستقبَلٌ لم يقَعْ بعدُ، فكان مُقتضَى الظَّاهرِ التَّعبيرَ بفعلٍ يدلُّ على المستقبلِ، ونُكتَةُ العدُولِ عَنِ التَّعبيرِ بفعلٍ يدلُّ على مستقبلٍ إلى المَاضي: الإيماءُ إلى تَحَقُّقِ وقوعِ هذا الخطابِ، وصِدقِ القِصَّةِ، حتَّى كأنَّها أمرٌ قد وقعَ وفُرِغَ منه[3].

إثـباتُ البَـعثِ واقـعًـا أوقـعُ في التَّحقُّقِ وأثبتُ في البُرهانِ

ففِي الآيةِ استعارَةٌ بليغَةٌ، حيثُ شبَّه القَولَ في المُستقبلِ بالقَولِ في الماضي، في تحقُّقِ وقوعِ القَولِ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، ونُكتةُ الاستعارَةِ: إثباتُ البعثِ؛ بما سيكونُ فيه من وعيدٍ للمُفترين، فلمَّا أنكرُوه افتراءً، أثبَتَه اللّه بما سيقعُ فيه حقًّا وصِدقًا.

(1) ابن جرير، جامع البيان، 12/415 - 419، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/398.

لَا يُكَلِّمُ اللهُ تَعالى الكُفَّارَ كَلامَ تَكرِيمٍ

نُكتةُ حذْفِ المُسنَدِ إليه لِلفِعل ﴿قَالَ﴾:

لَم يُنَصَّ النَّظمُ على تعيينِ القائلِ (المسنَدِ إليه) لِلفعلِ ﴿قَالَ﴾ بالِاسمِ المُظهَرِ، والقائلُ هو اللّهُ تعالى، وفي توجيهِ ذلك من حيثُ الحقيقةُ والمجازُ مسلكَانِ:

أَحَدُهُما: أنَّ الكلامَ موجَّهٌ إلى الكُفَّار مباشرةً.

والآخَرُ: أنَّ اللّه تعالَى يقُولُ لَهُم ذَلِكَ بواسطةِ الملائكةِ؛ وذلك لورُود ما يدلُّ على عدمِ تكليمِ اللّه تعالى لِلكُفَّار يومَ القِيامَةِ[1]، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: 77]، ويُجابُ عن هذا بأنَّ المرادَ بتكليمِهم المَنفيِّ هو تكليمُ التَّكريم؛ لأنَّ اللّه تعالى أخبر في آيةٍ أخرَى أنَّه يقولُ لَهُم في النَّار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108][2].

والأظهَرُ الأوَّلُ؛ لأنَّه جارٍ على الأصلِ في حملِ الكلام على الحقيقةِ، بخلافِ القولِ الآخَرِ؛ فإنَّه مجازٌ عقليٌّ بعلاقةِ السَّببيَّة، وإنَّما لم يُصرَّح بالفاعِلِ لِنُكتَتَينِ:

إحداهما: أنَّ اللّه سُبحانَهُ مذكورٌ دائمًا في الأفهامِ وفي القلوبِ، فلَم يُفتقَر إلى ذِكرِه ههنا[3].

والأخرى: أنَّ المقامَ معيِّنٌ لَهُ؛ إذْ إنَّ مثلَ هذا القولِ لا يَصدُرُ من أحدٍ غيرِ اللّه سُبحانَه[4].

غَرَضُ الأَمرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾:

الأمرُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/36، والواحديّ، التّفسير البسيط: 9/119، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 117 - 2/118، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 288.

(2) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 131.

(3) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2833.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/118.

مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ﴾ فوقَ أنَّه جارٍ على حقيقتِهِ في الدِّلالةِ على الإيجابِ والإلزامِ الجبريِّ؛ فهُم غيرُ مخيَّرينَ في ذلك اليوم؛ فدُخولُهم النَّارَ أمرٌ حتميٌّ، فيُراد من هذا الإلزامِ الإهانَةُ والتَّحقيرُ، ذلك أنَّ أمرَ هؤلاءِ بالدُّخولِ إلى النَّارِ بأنفسِهم عذابٌ فوقَ العذابِ، بقرينَةِ قولِهِ بعدُ: ﴿فِى ٱلنَّارِۖ﴾؛ فإنَّ الكفَّار حالَ خِطابِهم بالأمرِ في حالٍ مَهينَةٍ، وقد طُلِبَ مِنهُم دخولُ النَّارِ مع الدَّاخِلينَ، وهذا قاطِعٌ بأنَّ أمرَهُم واقِعٌ على وجهِ الإهانَةِ لَهُم، زيادةً على ما هُم عليهِ مِنها.

مِــن أعـظَـمِ الـعَـذَابِ أنْ يُؤمرَ أهلُ النَّارِ بدُخولِها

براعةُ استعمالِ حَرفِ الجَرِّ ﴿فِى﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِى﴾ من قولِ اللهِ سُبحانه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ يَحتَمِلُ وَجهَين[1]:

الــدُّخــولُ في الأمــمِ الـتـي في الـنَّـارِ دخـولٌ في النَّارِ

أحدهمَا: أن تكونَ ﴿فِى﴾ بمعنَى (مَعَ)، والتَّقدير: ادخُلوا النَّارَ مَعَ أُمَمٍ.

والآخَرُ: أن تكونَ ﴿فِى﴾ على بابِها في الدّلالَةِ على الظَّرفيَّة، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ؛ إذِ المَعنَى: كونُهم في حالٍ واحدةٍ وحُكمٍ وَاحِدٍ، سواءٌ أكان دخولُهم النَّارَ في وسطِهم أم كان قبلَهُم أو بعدَهم.

والأوفقُ بالبلاغةِ أن يكونَ معنى الظَّرفيَّة على بابِه، بمعنى: أنَّ الدُّخولَ في تلك الأممِ هو في الحقيقةِ دُخولٌ في النَّارِ، ذلك أنَّ تلكَ الأُمم ماكثةٌ في النَّارِ، والمُخاطَبون مأمورونَ أن يدخُلوا في تلك الأممِ الّتي هي في النَّارِ، فدُخولُهم في الأممِ دخولٌ في النَّارِ.

نُكتَةُ تنكِيرِ ﴿أُمَمٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿أُمَمٍ﴾ من قولِ اللهِ سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ للدِّلالَةِ على التَّكثيرِ، فالأُمَمُ الدَّاخلَةُ النَّارَ كثيرٌ عَدَدُهَا، وفي هذا مِنَ الوَعيدِ والتَّهديدِ ما يقرَعُ سَمعَ كُلِّ مُتَلَقٍّ لهذا الخِطَابِ.

كَـثرَةُ الدَّاخِلِينَ النَّارَ مِنَ الأُمَمِ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/398، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/237، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/119.

كُلُّ مُخالِفٍ لِدِينِ الإسلامِ مآلُهُ النَّارُ

سِرُّ جَمْعِ ﴿أُمَمٍ﴾:

جُمِعَ لفظُ ﴿أُمَمٍ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾؛ لإفادة التَّكثيرِ والتَّنويعِ، فأمَّا دِلالَتُهَا على التَّكثيرِ فظاهِرٌ، وهي دِلالَةٌ تُضافُ إلى دلالَةِ تنكيرِ الكلِمَةِ أيضًا، وأمَّا التَّنويعُ فإنَّ الأُمَمَ الدَّاخِلَةَ النَّارَ مُتَعَدِّدَةٌ أنوَاعُهَا؛ إذْ فيهم جِنٌّ وإنسٌ، وفِيهِم يَهُودٌ ونصَارَى ومُشرِكُونَ ومنافِقُونَ.

تَعجيزُ الدَّاخلينَ في النَّارِ منَ النَّجاةِ

نُكتةُ التَّعريضِ في الآيةِ:

في قولِه تعَالَى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ تعريضٌ بالوعيدِ؛ بأَنْ يَحِلَّ بِهِم مثلُ ما حلَّ بِمَن قبلَهُم، وبيانٌ بأنَّهم سواءٌ في عذابِ النَّارِ[1]، ونُكتُته التَّعجيزُ مِنَ الخروجِ، إذ عِلمُهم بحالِ تلك الأممِ الّتي لم تخرُجْ مِنَ النَّارِ، يقودُهم إلى اليأسِ مِنَ الخُروجِ، فلن يكونوا خيرًا من غيرِهم.

مَعرفةُ العذابِ الحِسّيِّ بعد إبهامِه عذابٌ نفسِيٌّ

بَرَاعَةُ تأخيرِ قَولِه تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾:

في قولِه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ فيما يقتضيه الظَّاهر، والتَّقدير: ادخُلُوا في النَّارِ مع أممٍ[2]، لكنَّ القرآنَ جاءَ على ما يقتضيه المقامُ، وما يُحتِّمه علمُ اللهِ تعالى، ففي تأخيرِ محلِّ الجزاءِ ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ زيادَةٌ في إدخالِ الرَّهبَةِ والفَزَعِ في قُلُوبِ المخاطَبِينَ؛ إذ كان أوَّلُ الكلامِ غيرَ دالٍّ على تَعيينِ الجزاءِ، فتقَعُ النُّفوسُ في حيرةٍ ودهشةٍ وترقُّبٍ، فيجيءُ البيانُ قاطعًا لمصيرِهم، مُزيلًا كلَّ أَمَلٍ للنَّجاةِ ربَّما خطرَ بأوهامِهم، وهو ما يتَّفقُ مع نُكتةِ حملِ حرفِ الظَّرفيَّةِ على بابِه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/119.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 9/120.

دَلَالَةُ استِعمالِ أداةِ ﴿قَدۡ﴾ في الآيةِ:

ٱلتَّحذِيرُ مِنَ الضَّلَالِ المُوجِبِ لِلهَلَاكِ الدُّنيَوِيِّ وَالأُخرَوِيِّ

﴿قَدۡ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ مؤكِّدَةٌ لِلجُملةِ الفعليَّةِ ومقوِّيَةٌ لَهَا، ففيهِ تحقيقُ دُخولِ جماعَاتٍ مِنَ الجِنِّ والإنسِ النَّارَ، ودخولُهُم إيَّاها بِسَبَبِ الضَّلالِ يُوجِبُ الحَذَرَ مِن سُلُوكِ سَبيلِهِم في الدُّنيا، فيَكُون مُصاحِبًا لَهُم في الآخِرَة.

نُكتَةُ تأنيثِ فعْلِ: ﴿خَلَتۡ﴾:

اقتِحَامُ ما فيهِ الخَسارَةُ دَليلُ رِقَّةِ العَقلِ وَضَعفِهِ

لَحِقَتِ المسنَدَ ﴿خَلَتۡ﴾ تاءُ التَّأنيثِ إعلامًا بضَعفِ عقولِهِم وسَفَهِ أحلامِهم[1]؛ حيثُ اقتحَموا ما كان فيه خَسارَتُهُم الأبديَّةُ.

دَلَالَةُ حرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكُم﴾:

دِقَّةُ البَيَانِ القُرآنِيِّ فِي انتِقاءِ حُرُوفِ المَعَانِي

دخُولُ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ على ﴿قَبۡلِكُم﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ أفادَ نُكتَتَين:

إحداهُمَا: توكيدُ المَعنَى وتَقوِيَتُه؛ وهو الدّلالَةُ الغالبَةُ على (مِنْ) المُقتَرِنَةِ بـ (قَبْلُ) و(بَعْدُ).

والأُخرَى: أنَّه لمَّا وُجِدَ مَن آمَنَ في الزَّمَنِ الماضِي، أدخلَ (مِنْ)؛ احتراسًا مِن دخولِ هؤلاءِ في نظمِ الآيةِ[2].

دَلَالَةُ ﴿مِّنَ﴾ فِي قَولِهِ تَعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾:

شُمُولُ العَذَابِ الضَّالِّينَ كُلَّهُم؛ إنسَهُم وَجِنَّهُم

﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ بيانيَّةٌ، وذلك لبيانِ شمولِ العذابِ الضَّالِّينَ كُلَّهم، سواءٌ أكانُوا جِنًّا أم إنسًا[3]؛ إذ علَّةُ العذابِ هُوَ الضَّلالُ، وهذه العلَّةُ كائنَةٌ في الجنِّ كما هِيَ في الإنسِ، كما قالَ اللّهُ تعالى عَنِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾ [الجنّ: 14].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2834.

دَلَالَةُ اللّامِ في ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ وَ﴿وَٱلۡإِنسِ﴾:

بَيانُ جِنسِ الأُمَمِ الدّاخِلَةِ في النّارِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ وَ﴿وَٱلۡإِنسِ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ لِبيَانِ الحقيقَةِ، وهي المسمَّاةُ: لامُ الجنسِ؛ إذِ المُشَارُ إليهِ هُنا هُو الحقيقَةُ بِقطعِ النَّظرِ عَن عُمومِهَا أو خُصُوصِها، والمَعنَى: أنَّ هذهِ الأُمَمَ الدَّاخِلَةَ النَّارَ قد تكُونُ مِن جنسِ الجنِّ، وقد تكونُ مِن جنسِ الإنسِ.

سِرُّ تَقدِيمِ الجِنِّ عَلى الإِنسِ:

الجِنُّ أصلٌ في الإغواءِ والإِضلَالِ

قُدِّمَ الجِنُّ على الإنسِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾؛ لكونِهم أعرَقَ في الكفرِ؛ فَالجنُّ الأصلُ في الإغواءِ والإِضلَالِ[1]، وهم السَّابقون في التَّكليفِ والخلقِ.

دَلَالَةُ ﴿فِي﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾:

تَصويرُ اجتِماعِ الكَفَرَةِ جِنًّا وإنسًا في قَعرِ جَهَنَّمَ

﴿فِي﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ للظَّرفيَّةِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ اجتماعَ أهلِ النَّارِ حاصِلٌ في قَعرِ جَهَنَّمَ، وأنَّ بعضَهم يركَبُ بعضًا، كما أومأَ إلى ذلكَ الإدغامُ في فعلِ ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾، وهذا الاجتِمَاعُ واقِعٌ لجميعِهِم، دونَ أن يتخلَّفَ أحدٌ، كما دلَّ على ذلك قولُ اللّهِ تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾.

فأفَادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ تصويرَ اجتماعِ الكَفَرةِ جنًّا وإنسًا في قَعرِ جَهَنَّمَ.

عِلَّةُ حَذفِ مَعمُولِ ﴿دَخَلَتۡ﴾:

الاقتِصَادُ اللَّفظِيُّ عِندَ الدَّليلِ مِن مَحاسِنِ البيانِ

حُذِفَ معمولُ الفعلِ ﴿دَخَلَتۡ﴾ مِن قَولِهِ تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾، والتَّقدير: كلَّما دَخلَتْ أمَّةٌ النَّارَ؛ لعنَتْ أُختَها، وحُذِفَ المعمولُ اكتفاءً بدلالَةِ تقدُّمِ ذكرِ النَّارِ مع فِعلِ الدُّخولِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/398، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/48، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

فائِدةُ تَنكِيرِ ﴿أُمَّةٌ﴾:

النَّكِرَةُ الوَاقِعَةُ في حَيِّزِ عُمومِ الأَزمانِ تَعُمُّ

نُكِّرت ﴿أُمَّةٌ﴾ من قولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٌ﴾ لإفادَةِ العُمومِ، وذلك لأنَّها نكرةٌ وقعَتْ في حيِّزِ عُمومِ الزَّمانِ ﴿كُلَّمَا﴾، فأفادَتِ العُمومَ، وهو عمومُ الدَّاخِلينَ النَّارَ، والمعنَى: كُلُّ أمَّةٍ دخلَتْ.

وقولُه بعدُ: ﴿أُخۡتَهَاۖ﴾ نَكِرَةٌ أضيفَ إلى ضميرٍ راجعٍ إلى نكِرَةٍ، فلا يُفيدُهُ ذلك تعريفًا، فتكون ﴿أُخۡتَهَاۖ﴾ نكرةً واقعةً في حيِّزِ عمومِ الأزمِنَةِ أيضًا؛ فتُفيدَ العُمُومَ كذلكَ[1].

نُكتةُ الاستِعَارَةِ التَّصريحيَّة في قَولِهِ تَعالى: ﴿أُخۡتَهَاۖ﴾:

قـوّةُ علاقةِ أهلِ الـضَّـلالـةِ في الـدُّنـيـا ينقلبُ لعنةً في الآخرةِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ استعارةٌ؛ حيثُ شُبِّهَت الأُمَّةُ الموافقَةُ لغيرِهَا في الضَّلالِ بالأختِ، بجامعِ مُطلَقِ الاشتراكِ، وحُذفَ المشبَّه وصُرِّح بالمشبّه به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّة، ونكتةُ الاستعارَةِ بيانُ شدَّةِ حسرةِ الأُمَمِ الضَّالَّةِ وعظيمِ العداوَةِ الحاصِلَةِ بينَهُم يومَ القيامَةِ؛ حيث إنَّ كلَّ أهلِ دينٍ وملَّةٍ يلعَنُ نظيرَهُ ممَّن اتَّبعَ آثارَه وماثلَهُ في دينِهِ؛ فاليهودُ تلعنُ اليهودَ، والنَّصارَى تلعنُ النَّصارى، والمجوسُ المجوسَ، وهكذا[2].

دَلَالَةُ السَّابقِ واللَّاحقِ لأداةِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

دلَّـــتْ (حـتـى) على أنَّ ما قبلَها سَـبـبٌ فـيـمَـا بعدَها

الجُملةُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ مُستَأنَفَةٌ، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّة، وهي مُفيدَةٌ معنَى التَّسبُّبِ؛ أي: تسبُّبِ مضمونِ ما قبلَهَا في مَضمونِ ما بعدَهَا، والغايَةُ الّتي تدلُّ عليها هي غايةُ ما يُخبِرُ به المُخبِرُ.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ الابتدائيَّةُ تدلُّ على أنَّ مضمونَ ما بعدَهَا أجدرُ بعنايةِ المتلقِّي في الفهمِ والتَّدبُّرِ؛ لأنّه نتيجةُ ما قبلَها، ولأنَّه أجدَى في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/120.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

الغرضِ الّذي سِيقَ الكلامُ لأجلِه، والواقعُ بعدَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذه الآيةِ فيه مِنَ التَّهويلِ شيءٌ عظيمٌ؛ إذ نُصَّ على مآلِهم الأبديِّ وهو النَّارُ، وذلك أدخلُ في ترويعِهم وَتَهديدِهم[1].

لِطيفةٌ في توجيهِ الإدغَامِ في قولِه: ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾:

من قَبيحِ أَحوَالِ الكُفَّارِ رُكوبُ بَعضِهم بَعضًا في نَارِ جَهَنَّمَ

أصلُ ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: تَدارَكُوا؛ أُدغِمَتِ التَّاءُ في الدَّالِ، ثُمَّ جيءَ بهمزةِ الوصلِ ليُتوصَّلَ بها إلى النُّطقِ بالسَّاكنِ، ومَعنَى ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: تدَارَكُوا وتلاحَقُوا، ومن لطيفِ ما يُشعرُ به الإدغامُ في لَفظِ: ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ أنَّهم حالَ إدراكِ بَعضِهم بعضًا في النَّارِ: يركَبُ بعضُهم بعضًا[2].

معنَى اللَّامِ في قَولِه تعالى: ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾:

صَداقةُ الكُفرِ تَنقلِبُ عَداوةً يومَ القيامةِ

اللَّامُ في قولِ اللّهِ سُبحانه: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ لامُ أجْلٍ وسَبَبٍ؛ إذِ القولُ ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ خبرُ اللّهِ عنهم، فالمعَنى: أنَّ القائلين ﴿رَبَّنَا﴾ قالُوا ما قالُوا بسببِ إضلالِ المُشارِ إليهم بقولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إيَّاهُم، وليسَ المعنَى أنَّهم ذكَرُوا هذه المقالَةَ لأُولَاهُم؛ لأنَّهم لم يُخاطِبُوهم، وإنَّما خاطَبُوا اللّهَ سُبحانَهُ بهذا[3]، وهذا يدلُّ على أنَّ صداقةَ الكافرين في الدُّنيا، ستكونُ عاقبتُها وخيمةً في الآخرةِ.

نُكتةُ النِّدَاءِ بلفظِ الرُّبُوبيَّةِ ﴿رَبَّنَا﴾:

اعتقادُ العَبْدِ يُصَاحِبُه في الآخرةِ، وهو في قَعْرِ جهنَّم

وقعَ النِّداءُ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ باسمِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ المُتكلِّمينَ (نَا)؛ ونكتَةُ ذلك الإشْعارُ بأنَّ اللّهَ تعالى الّذي لم يَقطَعْ إحسانَهُ عنهم في الدُّنيا على ما كان منهُم من مقابلَةِ إحسانِهِ إليهم بالإساءَة في العمَلِ[4]؛ يجوزُ أن يُجيبَ دعاءَهُم على المُضلِّينَ - فيما يظنُّون - فإنَّ في ذلك إحسانًا إلى الدَّاعينَ بتشفِّيهم مِمَّن أضلَّهُم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/166 - 121.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/399، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/238.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/398.

وأمرٌ آخر وهو أنَّ الدَّاعينَ قد أقرُّوا في الدُّنيا بالرُّبوبيّة، وعاندُوا في الألوهيّة، فناسَبَ ذلك أن يكونَ دُعاؤُهم مُتَّسقًا مع أعمالِهم.

نُكتَةُ الإشارَةِ بِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

الإشعارُ بِحُضورِ الطَّائِفَةِ المُشارِ إلَيها في ذِهْنِ السَّامِعِ

التَّعبيرُ بِاسمِ الإشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قَولِ اللّٰهِ تَعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ فيه إشعارٌ بِحُضورِ هذهِ الطَّائِفَةِ، المُضِلِّ أصحابُهَا، المُشَارِ إلَيهِم؛ وذلك أنَّ الأَصلَ في اسمِ الإشارَةِ أن يَكونَ لِحاضِرٍ.

ونُكتَةُ الإتيانِ باسمِ الإشارَةِ هَهُنا: تمييزُ المشارِ إلَيهِ أكملَ تَمييزٍ؛ لِيُرتِّبُوا عليهِ قولَهُم بعدُ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾.

نُكتَةُ المَجَازِ المُرسَلِ في: ﴿أَضَلُّونَا﴾:

الإضلالُ مِن أعظَمِ الأشياءِ المُوجِبَةِ مُضاعَفَةَ العَذَابِ

﴿أَضَلُّونَا﴾ مِن قولِهِ تَعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ بمعنَى: سَنُّوا لنا الضَّلالَ فاقتدينَا بِهِم، أو دَعَوْنا إلَيهِ وأمرونَا بِه، فأطَعنَاهُم[1]، فالإضلَالُ مرادٌ به التَّسبُّبُ بِه، فهو مجازٌ مرسَلٌ، علاقَتُهُ المسبَّبيَّةُ؛ حيثُ أُطلِقَ المُسَبَّبُ والمرادُ السَّبَبُ، وإنَّما عبَّرُوا بالمسبَّبِ مبالَغَةً؛ لذِكرِ أعظَمِ الأشياءِ الموجبَةِ مُضَاعفةَ العذابِ عليهِم.

دَلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿أَضَلُّونَا﴾:

مَن خَسِرَ آخِرَتَهُ؛ خَسِرَ خيرَ دُنيَاهُ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿أَضَلُّونَا﴾ من قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾، والتَّقدير: أضلُّونا عَنِ الهُدَى[2]، فحُذِفَ المُتعلَّق لِلعِلمِ به، أو لإرادَةِ العُمومِ، وأنَّهم أضلُّوهم عن كُلِّ خَيرٍ دنيويٍّ وأخرَوِيٍّ، فإنَّ مَن خسِرَ آخِرَتَهُ لا يُعتَدُّ بأيِّ خيرٍ كانَ قَد حصَّلَهُ في دُنياهُ.

معنى الفاءِ ودَلَالَةُ الفعلِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ﴾:

إضلالُ رؤوسِ الكُفرِ لأتباعِهِم مَظِنَّةُ مُضاعَفَةِ العَذابِ

قولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: بِسَبَبِ إضلالِهِم[3]، فالفاءُ سببيَّةٌ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/227، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/356.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/232.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/398.

والفعلُ (آتِهم) مِن قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ خرَجَ عَن حقيقتِهِ في إرادَةِ الإلزَام بالفعلِ إلى معنَى الدُّعاء؛ إذِ الطَّلَبُ صادِرٌ مِنَ العبادِ إلى ربِّهم ﷻ، فانتفَى مِنه الإلزامُ قطعًا، فهو مَجازٌ مُرسَلٌ مركَّبٌ، بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييد؛ إذِ اشترَكَ الأمرُ في حَقيقَتِهِ مع الدُّعاءِ في مُطلَقِ الطَّلَبِ، واختلفا في القَيدِ المُميِّزِ لكلِّ واحدٍ مِنهما عَنِ الآخَرِ.

غَظَمَةُ عَذَابِ النَّارِ وَشِدَّتُهُ نوعٌ غيرُ مَعهودٍ

نُكتَةُ تَنكِيرِ ﴿عَذَابٗا﴾:

نُكِّرَ العذابُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ تعظيمًا له وتفخيمًا لقَدرِهِ، ويجوزُ أن يكونَ التَّنكِيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ؛ أي: آتِهم نوعًا مِنَ العذابِ مغايِرًا لِلمَعهُودِ منه.

والوجهانِ متآيِلانِ؛ لأنَّ نوعَ العذابِ غيرَ المعهودِ مِن شأنِهِ أن يَكونَ عظيمًا.

الكافرُ ذليلُ النَّفسِ، هيِّنٌ على اللهِ تَعالى

بَراعَةُ الكِنايَةِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾:

قَولُ اللّهِ تعالى حكايَةً عنِ الأتباعِ مِنَ الكُفَّارِ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ يحتَمِلُ وجهينِ[1]:

أحدهما: أن يكُونَ المرادُ طلبَ تخفيفِ العذابِ عَنهُم، ولكِن أَخرَجوهُ في صورة طَلَبِ تَضعيفِ العذابِ على القادَةِ، فيكُون قَولُه: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ كِنايةً عَن طلَبِ تخفيفِ العذَابِ، وإنَّما عدلُوا عنِ التَّصريح - على هذا الوجهِ - إلى الكِنايَةِ لِرُؤيتِهِم هوانَهُم على اللّهِ تعالى وسُفُولَ قدرِهِم عنِ التَّصريحِ بطلَبِ تَخفيفِ العذابِ.

والآخَرُ: أن يكونَ على الظَّاهِرِ؛ وهو طلبُ الانتقامِ مِنَ القادَةِ بطلبِ مضاعفةِ العذابِ عليهِم.

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/222.

عِلَّةُ فَصْلِ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعۡفٞ﴾ عمَّا قبلَهُ:

أَثَرُ الاستِئنافِ البَيانِيِّ في إبرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقِّي وشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعۡفٞ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِه استئنَافًا بيانيًّا، فقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعۡفٞ﴾ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ ممَّا قبلُ، وذلك أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ يبعَثُ في نفسِ السَّامعِ سؤالًا، وهو: لقد قالُوا مَا لَهُ وَجهٌ، فبِمَ أُجيبُوا؟ فجاء الجوابُ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعۡفٞ﴾[1].

وما ذكَرَهُ بعضُ أهلِ العِلمِ من أنَّ الفصلَ جارٍ على طريقةِ حكايَةِ الأقوَالِ في المحاوراتِ[2]؛ يَؤولُ إلى ما سبَقَ، وذلك أنَّ حكايةَ القولِ في المحاورَةِ باعثَةٌ في نفس السَّامِعِ الاستعلَامَ عن جوابِ القولِ المحكِيِّ، فرجَعَ الأمرُ في الفَصلِ إلى شبهِ كمالِ الاتِّصالِ المُسمَّى: الاستئنَافَ البيانيَّ.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ:

يُغني عَنِ التَّصريحِ باللَّفظِ دَلالَةُ السِّياقِ على المَحذوفِ

التَّنوينُ في ﴿لِكُلِّ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعۡفٞ﴾ عِوَضٌ عن مُضَافٍ إليه مَحذُوفٍ، والمعنَى: لِكُلِّ أُمَّةٍ أو لكلِّ طائفَةٍ ضِعفٌ[3]، ولَم يُذكَرْ مُتعلَّقُ التَّضعيفِ؛ لتقدُّم ذِكرِهِ قريبًا في: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾، فأغنَى ذلك عَنِ التَّصريحِ به ثانيًا، فكانَ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعۡفٞ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ لوجودِ الحذفِ مِن جهَتَينِ، والتَّقديرُ على الحذفَينِ: (لكلِّ أمةٍ ضعفٌ منَ النَّارِ).

دَلالَةُ استعْمالِ: ﴿وَلَٰكِن﴾:

الأتْبَاعُ والمَتبوعُونَ مُتَسَاوُونَ في مُضاعَفَةِ العَذَابِ

(لَكِنْ): حرفُ استدراكٍ، ومعناهُ: تعقيبُ الكلامِ برَفعِ ما يُتَوَهَّم ثبوتُه أو نفيُه مِنَ الكلَامِ السَّابقِ[4]، والاستدراكُ في قولِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/398.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/123.
(4) خالد الأزهريّ، التّصريح بمضمون التّوضيح: 1/294.

تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ جيءَ به لرفعِ ما تُوهِمُهُ التَّسويَةُ بينَ المَتبُوعِينَ والأتباعِ في مضاعفةِ العذاب: أنَّ مضاعفتَهُ على الأتباعِ لا مُوجِبَ لهَا[1].

تَوجيهُ القِرَاءَاتِ في قَولِهِ تعالى: ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

أهلُ الدُّنيا لا تَرتقِي عُقولُهم لمعرفةِ ما سيكونُ لأهلِ النَّارِ على الحقيقةِ

قرأ شعبَةُ عن عاصم بالياءِ على الغَيبَةِ ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وقرأ الباقُونَ بالخطابِ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾، فعلى قراءة شُعبة رُوعِيَ لفظُ (كلّ)؛ فإنَّ الاسمَ الظَّاهِرَ بمنزلَةِ الغائبِ، ويكون المعنَى: ولَكِنْ لا يَعلَمُ كلُّ واحدٍ مِنهُم مقدارَ عذابِ الآخَرِ.

وعلى قراءةِ الباقِين جَرى الكلامُ على ما قبلَهُ مِنَ الخِطابِ، ويكون المعنَى: لكلٍّ مِنكُم ضعفٌ، ولَكِنْ لا تَعلَمُونَ أيُّها المُخاطَبُونَ ما لِكُلِّ واحدٍ مِنكُم مِنَ العذَابِ، أو: ولَكِنْ لا تعلمونَ يا أهلَ الدُّنيا مقدارَ ذلكَ[2].

نُكتَةُ حَذْفِ مَعمُولِ: ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

شأنُ الجاهلِ أنْ يُوقِعَ نفسَهُ في المَصَائِبِ

حُذِفَ معمول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾، وفي تخريجِهِ مسلَكانِ:

أحدُهمَا: أَن يُقدَّر بحسَبِ المَقَامِ، والمَعنَى: ولَكِنْ لا تَعلَمونَ مقدارَ ما لِكُلِّ فريقٍ مِنَ العذَابِ.

والآخَرُ: أن يُنزَّل الفعلُ المُتَعَدِّي منزلَةَ الفعلِ اللَّازمِ، والتَّقدير: ولكن لَستُم مِن أهلِ العِلمِ والمعرِفَةِ.

ونكتةُ ذلك: وصفُ أولئكَ والمُخاطَبِين - على القراءتين - على حدٍّ سواءٍ بالجَهلِ اللَّاصقِ بهم، وفيه مزيدُ تَرهِيبٍ، فإنَّ شأنَ الجاهلِ أن يقعَ في المصائِبِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/123.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/239، ومحمّد سالم محيسِن، المغنيّ في توجيه القراءات العشر المتواترة: 2/126.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنسُ والنَّاسُ:

النّاسُ أعـمُّ مِنَ الإنسِ

بينَ الإنسِ والنَّاس عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ في أصحِّ قولَي أهلِ العِلمِ؛ وذلك أنَّ التَّحقيقَ في معنى النَّاسِ شمولُها الجنَّ والإنسَ، فقد صحَّ عَن عَبدِ اللّه بنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّه قال في تَفسيرِ قولِ اللّه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57]، «كانَ ناسٌ مِنَ الإنسِ يَعبُدُونَ ناسًا مِنَ الجِنِّ، فَأَسلَمَ الجِنُّ، وتَمَسَّكَ هَؤُلاءِ بدينِهِم»[1]، فسمَّى الجنَّ ناسًا.

أمَّا الإنسُ فهُم خُصوصُ بَنِي آدمَ؛ وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يُؤنَسُون؛ أي: يُبصَرونَ، مِنْ (آنسَ الشَّيءَ)؛ إذا أَبصرَه، ويُقابِلُهم الجنُّ، فقد سُمُّوا جنًّا لاجتِنَانِهم؛ أي: استِتَارِهم عَنِ الأعيُنِ[2].

وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ بينَ الإنسِ والنَّاسِ عُمومًا وخُصوصًا مُطلَقًا؛ إذِ النَّاسُ أعمُّ مِنَ الإنسِ بهذا الاعتبارِ التَّقابليِّ، ومن حيثُ غلَبَةُ الاستِعمالِ فإنَّ النَّاسَ والإنسَ يُستعملانِ في بني آدم، فإذا أُطلِقَ النَّاسُ أُريدَ بِهم الإنسُ لا الجنُّ، ولا يُستعملُ النَّاسُ مع الجنِّ إلَّا بالتَّقييدِ السِّياقيِّ، كما هو في حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، وعلى القولِ الآخر، أنَّ استعمالَ النَّاسِ من بابِ المُشاكلَةِ، والمُراد به الفريقُ مِنَ الإنسِ والجنِّ.

---

(1) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (4714).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جن).

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ [الأعراف: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جوابُ الخصوم وتبرّؤُ الضّالّين ممّن أضلّهم

لَمَّا ذكر اللّه تعالى دعاءَ الآخِرين على الأَوَّلينَ في قولِه سُبحانه: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أعقبَهُ ببيانِ جوابِ الأوَّلينَ لَهُم، فقال ﷻ: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾[1]؛ فالمناسبةُ بين الآيتين ذكرُ جوابِ الخصْمِ على خصمِه، وردُّ المتَّهَمِ على من اتَّهمَه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضۡلٖ﴾: الفاءُ والضَّادُ واللَّامُ تدور تصاريفُهَا على زيادَةٍ في شيءٍ، ومِنهُ: الفَضلُ وهو الزِّيادَةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإحسانُ[2]. والفَضلُ نوعانِ: محمودٌ؛ كفضلِ العِلمِ والجُودِ، ومذمومٌ؛ كفضلِ الغضَبِ على ما ينبغِي أن يَكونَ عليهِ، إلَّا أنَّ استعمالَ الفَضلِ في المحمودِ أكثَرُ[3].

والفَضلُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ بمعنى: المزيَّةِ، والمعنى: لا مزيَّةَ لأُخرَاهُم على أُولَاهُم في تَعذِيبِهم عذابًا أقلَّ مِن عذابِهم[4].

2) ﴿فَذُوقُواْ﴾: الذَّال والواو والقافُ تدورُ اشتقاقاتُهَا على معرفةِ طَعم الشَّيءِ، بمعنَى: إيقَاعِه على الحِسِّ بالتَّناوُلِ منه، ويلزَمُ منه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/398.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (فضل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

اختبَارُهُ[1]، وهذا مرادُ مَن جَعَلَ مَعنَى أصلِ المادَّةِ اخْتِبارَ الشَّيءِ من جهةِ الطَّعم[2].

ويُستعمَلُ الذَّوقُ مجازًا في مُطلَقِ الإحساسِ[3]، ومعنَى قَولِ اللّه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾: تَلَقَّوُا العذابَ وأحسُّوا به[4].

3) ﴿تَكۡسِبُونَ﴾: الكافُ والسِّينُ والباءُ تدلُّ تصريفَاتُهَا على جَمعِ الشَّيءِ وتحصيلِهِ شيئًا بعدَ شيءٍ بِضربٍ مِنَ الجُهدِ[5]، ومِنه: الكَسبُ؛ وهو الابتغاءُ والطَّلَبُ والإصابةُ[6].

والكَسبُ في قولِه تَعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ بمعنى العَمَلِ؛ أي: فَذُوقوا العذابَ بِسَبَبِ أَعمَالِكُم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المـتـبـوعـون يتنصّلون ممّن اتّبَعوهم

تُبيِّنُ الآيةُ ما سَيقُولُه المَتبُوعُونَ مِنَ قادَةِ الفِكرِ والضَّلالةِ لأتباعِهِم: نحنُ وأَنتُم مُتَساوُونَ في الضَّلالِ والانحرافِ، وفي ارتكابِ أسبابِ العذَابِ؛ فلا مزيَّةَ لأُخرَاهُم على أُولاهُم في تعذيبِهم عذابًا أقلَّ مِن عذابِهِم، قال اللّهُ تعالى لهُم جَميعِهم: ذوقُوا عذابَ النَّارِ بِسَبَبِ مَا كَسَبتُم مِنَ الذُّنوبِ والمعاصِي[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ عَطْفِ جُملةِ ﴿وَقَالَتۡ﴾ عَلَى مَا قبلَهَا:

فَـصْـلُ الـجُـمَـلِ وَوَصلُهَا يَحكُمُهُ السّياقُ

عُطِفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ على قَولِهِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ذوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/46.
(4) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/658.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (كسب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 415 - 12/419، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124، ونخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.

سُبحانَهُ: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾؛ لكونِهم لم يدخُلوا في المحاورَةِ ابتداءً، ولذا لم تُفصَل الجملةُ[1].

سِياقُ الكَلامِ مُوَجَّهٌ لِحُروفِ المَعاني

معنَى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾:

اللَّامُ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ لَامُ التَّبليغِ، نحو قولِكَ: قُلْتُ لَكَ افعَلْ كذا، وإنَّما كانتِ اللَّامُ للتَّبليغِ؛ لأنَّ الخطابَ هنا مَعَ أُخرَاهُم، بخلاف اللَّامِ في قوله سُبحانَهُ: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ فإنَّها لامُ أجَلٍ وسَبَبٍ؛ لأنَّ الكلامَ إخبارٌ منَ اللّه تعالى لا كلامٌ صادِرٌ عنِ الطَّائفةِ الأُولَى[2].

تَبرُّؤُ المَتبوعينَ مِنْ أتباعِهم إيحاءٌ استباقيٌّ لإنقاذِ الأتباعِ

بَلاغةُ الفَاءِ الفصيحةِ:

الفاءُ في قولِ اللّه تعَالَى حِكايةً عَن مقَالَةِ الأَوَّلِينَ: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ هي الفصِيحةُ، فهي واقعةٌ في جوابِ شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كانَ الأمرُ كَذلِكَ؛ فَقَد ثَبَتَ أنْ لا فَضلَ لَكُم علينا، وهي مُفيدَةٌ تَرَتُّبَ الجملةِ على قَولِهِ تعالى قَبلُ: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ حَيثُ سُوِّيَ بين الطَّائفَتَينِ في مضاعفَةِ العذابِ[3]، وهذا يدلُّ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ سَمِعَتْه الطَّائفتانِ، فكانَ قولُه: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ مُترتِّبًا عليه.

ويَجوز أن تَكُونَ الفاءُ عاطفةً، والمعطوفُ جملةٌ محذوفَةٌ بعدَ القَولِ، دلَّ عليها مَا تقدَّم مِنَ الكلامِ، والتَّقدير: دَعوتُمُ اللّه تعالى، فسوَّى بينَنَا وبينَكُم في مُضاعفة العذابِ، فمَا كانَ لَكُم علينا مِن فَضلٍ بِضَلالِكُم[4].

وعلى كِلا الوَجهَينِ في معنَى الفاءِ إيجازٌ بالحَذفِ؛ دلَّ المقامُ على تَعيينِ المَحذُوفِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/50.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/50.

فائِدَةُ ﴿مِن﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿مِن فَضۡلٖ﴾:

لَا مُوجِبَ لِتَخفِيفِ العَذَابِ على الأَتباعِ ولا على المَتبُوعِينَ

أفادَتْ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ فائِدَتَين:

الأولى: تَوكِيدُ النَّفي، وذلكَ لأنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ سبَبٌ لِلعِلم بِأَنْ لا مزيَّةَ لأُخرَاهُم على أولاهُم في تَعذِيبِهم عذابًا أقلَّ، فكانَ التَّقديرُ: فإذا كانَ لِكُلٍّ مِنكُم ضِعفٌ؛ فَما كانَ لَكُم مِن زيادَةٍ في العذابِ[1].

الأُخرى: التَّنصيصُ على العُمومِ؛ وذلك لأنَّ ﴿فَضۡلٖ﴾ نَكِرَةٌ في سِيَاقِ النَّفي، فأفادتِ العُمومَ ظاهرًا، فلمَّا اقترنَتْ بها ﴿مِن﴾ نَقَلَتِ العُمومَ مِن كَونِه ظاهرًا إلى كَونِه نَصًّا.

غرَضُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

لمَّا كانَ ذَوقُ المُكذِّبِينَ في الدُّنيا كرامةً كان لهم في الآخرةِ إهانةً

الأمرُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ خارِجٌ عن أصلِ دِلالَتِه من إرادَةِ الإلزام بالفعلِ، والمرادُ به: الإهانَةُ والتَّشفِّي[2]، إذا كانتِ الجملةُ مِن تمام حكايةِ أُخرَى الطَّائفتَينِ.

ويُرادُ بالأمرِ الإهانَةُ والتَّكوينُ إذا كان ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ كلامًا مُستَأنفًا مِن كلامِ اللّه تعالى.

والقَرِينَةُ في صَرفِ الأمرِ من دِلالتِهِ الأصليَّةِ إلى معنَى الإهانَةِ: كونُ الكفَّارِ حالَ خطابِهم بالصِّيغةِ في غُصَصِ المذوقِ ومِحَنِه؛ إذْ هذا القولُ واقعٌ، وهُم في النَّار، كما يدلُّ عليه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾، فليسَ المُرَادُ أمرَهُم بذَوقِ العذابِ حقيقةً، وإلَّا كان تحصيلَ حاصلٍ، وهو مُحَالٌ.

والعلاَقةُ بينَ المَعنَى الأصليِّ والإهانَةِ: التَّضادُّ؛ لأنَّ الإيجابَ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

العبادِ مِن بابِ التَّشريفِ لهم؛ لِما فيه من تأهُّلِهم لخدمة اللّه تعالى، فهو ضدُّ الإهانَةِ[1].

بَراعَةُ المَجازِ في مُفردةِ (الذَّوقِ):

عَذابُ الكُفَّارِ في الآخِرَةِ عَذابٌ مُتَزايِدٌ غيرُ مُتَنَاهٍ

الذَّوقُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ مُستَعمَلٌ مجازًا في معنَى الإحساسِ بحاسَّةِ اللَّمسِ[2]، وهو مجازٌ مُرسَلٌ، بعلاقَةِ المَلْزُومِيَّةِ؛ إذِ الإحسَاسُ لازِمٌ للذَّوقِ.

ويجوزُ أن يَكونَ ذَوقُ العذابِ استِعَارَةً لإحساسِهِ؛ وذلك لأنَّ الذَّوقَ أَقوَى الحواسِّ المُبَاشِرَةِ لِلجِسم، فشُبِّهَ بِهِ إحساسُ الجِلدِ[3]؛ ففي قَولِه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ.

وفي التَّعبير بالذَّوقِ وعيدٌ عظيمٌ؛ حيث جُعِلَ ما هُم فيه مِنَ العَذَابِ الأليم الشَّديد بمنزِلَةِ الذَّوقِ الّذي هُوَ مقدِّمَةٌ للطَّعام، فكذلك عذابُهُم الّذي يُقاسُونَهُ يَعقُبُهُ ألوَانٌ مِنَ العذابِ أشدُّ مِمَّا هُم فيه، كما يُشير إلى ذَلِكَ قولُ اللّهِ سُبحَانَهُ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النّبأ: 30].

أثرُ تَعيينُ قائِلِ: ﴿فَذُوقُواْ﴾ في رَبْطِ المعطوفاتِ:

تَزدادُ كلامِ الحقِّ في النَّارِ لا يُنقِذُ مِن لهيبِها، ولا يُخرِجُ من حميمِها

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ يَجُوزُ أن يكونَ مِن كَلامِ أُولاهُم، فيَكونوا قد عطفُوا قولَهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ على قولِهم قبلُ: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ بفاءِ العطفِ المُفيدَةِ التَّرتُّبَ؛ إذِ التَّشفِّي مِنهم فيما ينالُهم مِن مُضَاعَفَةِ العذابِ تَرَتَّبَ على تحقُّقِ انتفاءِ الفَضلِ بينَهُم في مضاعفةِ العذابِ الّذي دلَّ عليه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾[4].

(1) عبد الله الْمَغْزِيّ الزَّبيديّ، تشحيذ الأفهام في إطلاقات الأمر والنّهي والاستفهام، ص: 55 - 56.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

ويجوزُ أن يكُونَ قولُه سُبحانَهُ: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ من كلامِ اللهِ تعالى، خطابًا للفريقَين معًا، فيكون مَعطُوفًا على قولِه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾، ويكون قولُه: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ اعتراضًا بَينَ الجُملتَين المُتَعاطِفتَين[1].

ويصحُّ الجمعُ بينَ الاحتِمالَين، ذلك أن يكونَ قد قالَ اللهُ تعالى تلكَ القَولَةَ، ثمَّ قالها أولئكَ بعضُهم لبعضٍ تَردادًا لما سَمِعُوه، وتنفيسًا عمَّا عانُوه.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في الآيةِ:

تصريحُ النَّصِّ بما سيكُونُ، تخويفٌ رادعٌ وترهيبٌ لاذعٌ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ يُرادُ به الإهانَةُ - على ما تقدَّم -، والمقصودُ مِن عمُومِ الكلامِ لازِمُهُ؛ وهُو ما يترتَّبُ عليهِ مِنَ التَّخويفِ والزَّجرِ، فكان هذا مِنَ الكِنايَةِ عنِ الصِّفَةِ، ووجهُ إرادَةِ اللَّازمِ ههنا: أنَّ اللهَ سُبحانَهُ لَمَّا أخبرَ عن تبرُّؤِ القادةِ والأتباعِ بعضِهم مِن بعضٍ، ولَعْنِ بعضِهم بعضًا؛ كان ذلك موجبًا لوقوعِ الخَوفِ العَظيم في القُلوبِ[2].

معنَى اللَّامِ في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

تعدُّدُ التَّفسيرِ لمعنَى الـلَّامِ لا يُلغِي التَّكامُلَ في المعنَيَيْنِ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ مِن قَولِ اللهِ سُبحانه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ للعَهدِ، وهذا العهدُ يحتَمِلُ وجهَين:

أحدهُمَا: أن يكون العهدُ ذكريًّا صَريحيًّا، والمرادُ: العذابُ المُضاعَفُ المذكُور في قولِه سُبحانَهُ قبلُ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾، فالمعنَى: ذُوقُوا العذابَ المُضاعفَ بِسَبَبِ ما كسبْتُم مِنَ الآثام.

والآخَرُ: أن يكون العَهدُ حضوريًّا، والمَعنَى: ذوقُوا العذابَ الحاضِرَ الّذي أنتُم فيهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/125.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/239.

ولا تعارُضَ بين المعنَيين؛ لأنَّ العذابَ الحاضرَ الّذي هُم فِيهِ هو العذابُ المضاعَفُ المذكُورُ في الآيةِ المُتقدِّمَةِ.

مُجازَاةُ اللهِ تعالى لجميع ما اقترَفَهُ الكافرون، وَهُم يَعلَمُونَه

معنى (مَا) ودلالتُها:

(مَا) في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ تَحتَمِلُ وَجهَين:

أَحَدُهُما: أن تَكُونَ مصدريَّةً، فتُسبَكُ مَعَ ما بعدهَا بِمَصدَرٍ، والتَّقدير: فَذُوقُوا العَذَابَ بِسَبَبِ كَسبِكُم.

والآخَرُ: أن تَكُونَ مَوصُولًا اسميًا، والتَّقديرُ: فذُوقُوا العذابَ بِسَبَبِ الّذي كُنتُم تكسِبُونَهُ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ اللّه ﷻ يُجازِيهِم على جَميعِ ما اقتَرَفُوهُ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ مِنَ الألفاظِ الدَّالَّةِ على العُمُوم، وكذلكَ يُوحي بمعرفتِهم بما اكتَسبُوه في الدُّنيا، وهذا من عظيمِ عدلِه، وواسِعِ فضلِه، في إنذارِهم، وتحذيرِهم.

ويكونُ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ - على هذا الوجهِ - إيجازٌ بحذفِ العائِدِ، مراعاةً للتَّناسُبِ الصَّوتيِّ لِفواصِلِ الآي.

دَلَالَةُ اجتِماعِ فِعلِ الكَونِ والمضارِعِ: ﴿كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾:

زيادةُ الحسرَةِ في استحضارِ مشاهِدِ الحَرامِ وارتكابِ الآثامِ

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الكونِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ دون (بِمَا تَكسِبُون)؛ للإعلامِ بأنَّ اللّه سُبحانَهُ عالمٌ بِما استمرُّوا عليه مِنَ الكَسبِ في المَاضِي.

وفي اختيارِ الفعلِ المضارعِ ﴿تَكۡسِبُونَ﴾ دونَ الماضي: (بِمَا كَسَبْتُمْ) إبرازٌ لأعمالِهم القبيحَةِ الّتي عملُوهَا في صورَةِ ما يُعمَلُ في الحَالِ؛ لِيَستَحضِرُوا مُوجِبَ مُضاعَفَةِ العذابِ عليهم وقتَ تعذِيبِهم.

وفيهِ من زيادةِ العذابِ النَّفسيِّ، ومضاعَفَةِ الحَسرَةِ ما لا تُحيطُ به الأفئدةُ، فهو جمعَ بين الفعلِ ﴿كُنتُمۡ﴾ الّذي أفادَ تصويرًا شموليًّا لجميعِ ما كانوا عليه، والمضارِعِ ﴿تَكۡسِبُونَ﴾ الّذي أفادَ استمرارَهم

فيما هُم فيه منَ الآثامِ، فكأنَّ حالَهم في الدُّنيا قد حضرَت، وهُم يَرَونَها بأمِّ أعيُنِهم.

نُكتَةُ التَّعبِيرِ بِالكَسْبِ دُونَ الكُفرِ:

كلُّ كَسْبٍ قامَ على كُفْرٍ مُؤدٍّ إلى نَارٍ

عُبِّر بالكَسبِ دُون الكُفرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ لكونِ الكَسبِ يعُمُّ جميعَ أحوالِهم؛ وذلك لأنَّ إضلالَهم حاصِلٌ بالكُفرِ وبِحُبِّ الفخرِ والإغرَاب بما علَّموهُم وما سنُّوا لَهُم، فكان لفظُ الكَسبِ أنسَبَ لكونِهِ أَعَمَّ وأشمَلَ[1]، فيدخلُ فيه الكفرُ وغيرُه، ولو قالَ: (بما كُنتُم تكفُرُون)؛ لكانَ نصًّا في الكُفرِ، فيُظَنُّ أنَّه المقصودُ فحسب، والمُرادُ جميعُ أنواعِ الكَسب، من مثلِ: القَتلِ، والإضلالِ، والإفسادِ، ممَّا يغفُلُ عنها النَّاس فيتهاوَنون فيها.

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

دِقَّــةُ اخـتـيَـارِ الألفَاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِهَا

قال اللّهُ سُبحانه في آية الأعراف: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، وقال في سورة الأَنفالِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: 35]، ووجهُ التَّغايُرِ بينهما أنَّ آيةَ الأنفال جاءَت في ذكر كُفَّار قُرَيشٍ، وما كانوا يفعلونَهُ عندَ البيتِ الحرامِ منَ المُكاءِ والتَّصديةِ، فناسب ذلك أن تُختَمَ الآيةُ بوصف الكُفرِ.

بخلاف آية الأعراف فإنَّها في قومٍ ضلُّوا في أنفسهم، وأضلُّوا غيرَهُم، فقيل لهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ أي: بما كسبتُم من إضلالِكُم غيرَكم مع كُفرِكُم في أنفسِكُم، فناسب أن يُزادَ في العذابِ وتضعيفِه؛ لزيادةِ الكَسبِ في الضَّلالةِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

(2) محمّد مُحمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 513.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ [الأعراف: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عاقِبةُ المكذِّبين والمستكبِرين لا تَحتمِلُ النَّجاةَ

لَمَّا ذكرَ اللهُ سُبحانَهُ جزاءَ الكفَرَةِ المُكذِّبينَ بآياتِه في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾، وبيَّن سُبحانَهُ أنَّ لهم ضِعفًا منَ العذابِ، وكانتِ العادَةُ جاريَةً بأنَّ مَن وقعَ في شدَّة؛ توقَّعَ الخَلاصَ منها؛ أخبَرَ سُبحانَهُ في هذه الآيةِ أنَّ هؤلاءِ الكفرةَ المُكذِّبينَ ليسُوا كذلكَ؛ لكونِهم أنجاسًا، فليسُوا أهلًا للنَّجاةِ والخلاصِ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَذَّبُواْ﴾: الكافُ والذَّالُ والباءُ تدورُ اشتقاقاتُهَا على خلافِ الصِّدقِ، ومنه الكذِبُ؛ وهو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عليه مُطلَقًا، سواءٌ أوقَعَ ذلك الإخبارُ عن عَمدٍ أم خطَأٍ، إلَّا أنَّ الإثمَ في الشَّرعِ مُعَلَّقٌ على ما وقعَ منه عَمدًا[2].

ويُطلَقُ الكَذِبُ على مَعَارِيضِ الكلَامِ؛ وهو الكَلامُ الّذي هو كَذِبٌ من حَيثُ ظَنُّ السَّامعِ، وصِدقٌ من حَيث قالَه القائلُ[3].

وأمَّا التَّكذيبُ فهو بزنةِ التَّفعيلِ، وهذا الوزنُ (التَّفعيلُ) يَرِدُ لإرادةِ النِّسبةِ، كما في التَّكذيبِ؛ فإنَّه هُنا النِّسبةُ إلى الكَذِبِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كذب)، والفيوميّ، المصباح المنير: (كذب).
(3) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: (كذب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).

2) ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: الهمزَةُ والياء والحرفُ المعتَلُّ[1] تدلُّ علَى بقاءِ الشَّيء في مكانه شَاخِصًا، عَلامةً لِشَيءٍ وأمارَةً عليه[2]، ومنه قولُهم: خرجَ القومُ بآياتِهم؛ أي: جماعتِهم؛ فَلَم يَدَعُوا شيئًا مِمَّا مِن شأنِهِ أَن يكُونَ شاخصًا إلَّا حَمَلُوهُ، وفيهِ معنَى الكَثْرَةِ والجسَامَةِ أيضًا.

والآيَةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازِمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ بِهِ، حسّيًّا كان أو عقليًّا[3].

وآياتُ اللّهِ تعالى المذكورةُ في قوله سُبحَانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ هي الحججُ والأدلَّةُ[4]؛ وهِيَ شامِلَةٌ لجميعِهَا، فتَدخل فيهَا الآياتُ الشَّرعيَّةُ والكونيَّةُ.

3) ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾: الكَافُ والبَاءُ والرَّاء تدلُّ تصاريفُها على ضدِّ الصِّغَرِ، ومِنه: الكِبَرُ؛ وهو الهرَمُ، والكِبرياء؛ وهي: العظَمَةُ[5].

وَالكِبرُ: هو التَّرفُّعُ عنِ الإقرار بالحقِّ والطُّغيانُ في دفعه، واحتقارُ النَّاسِ والإزراءُ بِهم[6]، وهذا المفهومُ عبَّر عَنه رسولُ اللّه ﷺ بأَوجَزِ عبارةٍ وأبلغِها؛ فقالَ: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[7].

والسِّينُ والتَّاء فِي ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ تدلُّ على القوَّةِ لا الطَّلبِ، فمعنى ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾: قَوِيَ كِبرُهُم[8].

4) ﴿يَلِجَ﴾: الواوُ واللَّامُ والجيمُ تدلُّ اشْتِقاقَاتُهَا على دخولِ شيءٍ[9]، والولوجُ: الدُّخول[10]، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 2] أَي: يَدخُلُها مِن مطَرٍ وغَيرِهِ[11]، وهو المعنَى المرادُ مِن قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾؛ أي: يدخُلَ.

5) ﴿ٱلْجَمَلُ﴾: الجيمُ والميمُ واللَّامُ تدلُّ تصريفَاتُهُ على معنَيَينِ كُلِّيَّيْنِ؛ أَحَدُهُما: تجمُّعٌ

(1) في اشتقاق لفظ (الآية) خلافٌ. يُنظر: الآلوسّي، روح المعاني: 1/242.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيي).
(3) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 101.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/421.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(6) ابن الجوزيّ، كشف المُشكل من حديث الصَّحيحين: 3/323.
(7) رواه مُسلم في صحيحه، الحديث رقم: (91).
(8) أحمد الحمَلاَويّ، شذا العَرْف في فنِّ الصَّرف، ص: 35.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولج).
(10) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولج).
(11) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبَيْن في القرآن والحديث: (ولج).

وعِظَمُ خَلْقٍ، والآخرُ: حُسْنٌ. ومِنَ الأوَّلِ قولُكَ: أجْمَلتُ الشَّيءَ؛ أي: جمعتُهُ وحصَّلتُهُ، ومنه قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، ومِن هذا المعنَى: الجُمَّلُ؛ وهو الحبلُ الغَليظُ، وَالجَمَلُ: الحيوَانُ المعروفُ، وجائزٌ أن يكون سُمِّيَ بذلك لِعظَمِ خَلْقِهِ[1].

وما ذكره بعضُ المُحدَثِينَ من أنَّ ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، هو الحَبلُ الغَليظُ خطَأٌ[2]، وهو تفسيرٌ حادِثٌ لا شاهِدَ له من كلامِ العربِ، ولا قائلَ بهِ من فحولِ أئمَّةِ التَّفسيرِ، وإنَّما الحَبلُ الغَليظُ يُقال له: الجُمَّلُ أو الجُمَلُ - بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ - [3] لا الجَمَلُ، ولذا قال ابنُ مسعودٍ ﵁ لمَّا سُئِلَ عنِ الجَمَلِ: (هو زَوجُ النَّاقَةِ)، قال القرطبيُّ مُعلِّقًا: "كأنَّه استجهَلَ مَن سألَهُ عمَّا يَعرِفُه النَّاسُ جَميعًا"[4].

6) ﴿سَمِّ﴾: السِّينُ والميمُ تَدورُ اشتقَاقَاتُهَا على مدخَلٍ في شيءٍ، ومِنه: السَّمُّ؛ وهو الثُّقبُ فِي الشَّيءِ، والسُّمُّ القاتِلُ؛ سُمِّيَ بذلكَ لأَنَّهُ يرسُبُ في الجِسمِ ويُداخِلُهُ[5].

ومنه سَمُّ الخياطِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، وهو ثقبُ الإبرةِ[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

استحالةُ نَجاةِ المكذِّبين المستَكبِرين منَ النَّارِ

إنَّ الّذينَ كذَّبُوا بِحُجَجِنَا وأدِلَّتِنا فلَم يُصَدِّقُوا بها، ولَم يَتَّبِعُوا رُسُلَنا، وتَكبَّروا عنِ التَّصدِيقِ بِهَا، وأَنِفُوا مِنِ اتِّباعها والانقِيَادِ لَهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ولج).
(3) بيانُ الحقّ النّيسابوريّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 1/518.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/206، والشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 245 - 3/247.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سم).
(6) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 4/358.

تكبُّرًا؛ لا تُفتَّحُ لأَروَاحِهِم إذَا خَرجَت مِن أَجسَادِهِم أبوابُ السَّماء، ولا يَصعدُ لَهُم في حياتِهِم إلى اللّهِ تعالى قولٌ ولا عمَلٌ؛ لأنَّ أعمالَهُم خَبيثَةٌ، ولا يَدخُلُ هؤلاءِ الجنَّةَ الّتي أعدّها اللّهُ لأوليَائِهِ المُؤمِنِين أبدًا، كما لا يَلِجُ الجمَلُ في ثُقبِ الإبرَةِ أبدًا، ومثلُ ذلكَ الجزَاءِ نَجزِي الّذين كَثُرَ إجرَامُهُم، واشتدَّ طُغيَانُهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ عمَّا قَبلُ:

المُـكَـذِّبُـونَ لِـلآيَـاتِ لَيسُوا أَهـلًا لِـلخَـلاصِ والـنَّـجـاةِ يَـومَ القِيامَةِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فَبينَ الجملتَين شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ يَبعَثُ في نَفسِ المتلقِّي سُؤالًا وهو: هَل لِهَؤُلاءِ خَلاصٌ ونجاةٌ ممَّا وقعُوا فيه مِنَ النَّارِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ فبيَّنَ اللّهُ ﷻ أنَّهُم ليسُوا أهلًا لِلخَلاصِ ممَّا وقعُوا فيه مِنَ المَهالِكِ[2].

ويجوزُ أن تَكُونَ علَّةُ الفصلِ كونَ الآيةِ استئنافًا ابتدائيًّا مسوقًا لتحقيقِ خلُودِ الفَرِيقَينِ المذكورَينِ قَبلُ في النَّارِ[3].

سِرُّ التّأكيدِ بأداةِ ﴿إِنَّ﴾:

دَفـعُ أوهـامِ المُـكَـذِّبِـينَ في النَّجاةِ من تمامِ العَدْلِ وكَمالِ الفضْلِ

أُكِّدَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ - وهو جملةٌ خبريَّةٌ - بـ﴿إِنَّ﴾؛ لإرادَةِ تَيئِيسِهِم مِنَ النَّجاةِ ودخولِ الجنَّةِ، وذلك لدفعِ توهُّمِ أن يكُونَ المرادُ بالخلُودِ المُتقدِّمِ ذِكرُهُ - في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: 36] - كنايةً عن طولِ البقاءِ في النَّارِ؛ إذِ الخلودُ يَردُ لهذا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 421 - 427/12، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/125.

المعنَى، فبيَّن في قولِه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أنَّ المرادَ بالخلودِ خلودٌ أبَديٌّ دائمٌ[1].

نُكتةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

الجَزاءُ بالخُلودِ في النَّارِ عامٌّ لِكُلِّ مُكَذِّبٍ بآياتِ اللهِ تعالى

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمار؛ إذ مُقتضَى الظَّاهِرِ أَن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنَّهم لا تُفتَّحُ لَهُم أبوابُ السَّماءِ)، فأُظهِرَ في مقامِ الإضمَار، وفي ذلك ثلاثُ نِكَاتٍ[2]:

أُولاها: إرادةُ تعميم الحُكم لكلِّ مُكذِّبٍ بالآياتِ مُستكبِرٍ عنها، بخلافِ الإضمارِ؛ فإنَّه يُوهِمُ اختصاصَه بالطَّائِفتَينِ المُتحدَّثِ عنهما دون مَن يُماثِلُهُمَا.

ثَانيهَا: تعليقُ الحُكمِ بالوَصفِ؛ لبيانِ أنَّ سببَ خلودِهم في النَّارِ هو تكذيبُهُم بالآياتِ واستكبارُهم عنها.

ثَالثُهَا: دَفعُ احتمالِ أن يكُونَ الضَّميرُ - في حالِ جَريانِ الكلامِ على مُقتَضَى الظَّاهِرِ - راجِعًا إلى إحدَى الطَّائفتينِ المُتحاوِرَتَينِ في النَّار.

وَجْهُ تَعرِيفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالمَوصوليَّةِ:

اسْتِحقاقُ دخولِ النَّارِ بسَبَبِ التَّكذيبِ والاستِكبَارِ

عُرِّفَ المسندُ إليه بالموصوليَّةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ لِلإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبَرِ؛ أي: أنَّهم استحقُّوا الجزاءَ المذكورَ في الخبَرِ مِن عدمِ تفتيحِ أبوابِ السَّماءِ لهم، وعدمِ دخولِهم الجنَّةَ بسبَبِ تكذيبِهم بآياتِ اللّهِ تعالى واستكبارِهم عنها[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/125.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.

المُكذِّبون مِلّةٌ واحدةٌ حالًا ومآلًا

عِلَّةُ إيرادِ الاسْمِ المَوصولِ جَمْعًا:

إيرادُ الاسمِ الموصول جمعًا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾؛ فيه إيماءٌ إلى كثرةِ المُكذِّبين بآياتِ اللّه سُبحانَهُ المُستَكبِرينَ عنها، وأنَّهم كالفريقِ الواحدِ في العلَّةِ والمآلِ.

تَحقُّقُ وَصْفِ التَّكذِيبِ والاسْتِكبارِ

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضِيًا:

جيءَ بصلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿كَذَّبُواْ﴾ و﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ من قولِه سُبحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ للدّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ التَّكذيبِ والاستِكبارِ فيهم.

إظهارُ كَمالِ قُبْحِ التَّكذِيبِ بآياتِ اللهِ تعالى

نُكتَةُ إضافَةِ (الآيَاتِ) إلى ضَميرِ العَظَمَةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

إضافةُ الآياتِ إلى الضَّميرِ الرَّاجعِ إلى اللّه ﷻ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يُراد به تعظيمُ المضافِ وهو الآياتُ[1]، لا سيَّما وأنَّ الضَّميرَ جاءَ بأسلوبِ العظَمَةِ؛ لزيادةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوسِ المُتَلَقِّينَ.

وفي تعظيمِ الآياتِ على النَّحوِ المُتقدِّمِ إظهارٌ لكمالِ قبحِ التَّكذيبِ بها والاستكبارِ عنها.

بَيانُ إيغالِ الكُفَّارِ في الضَّلالِ؛ بذِكْرِ صُوَرِ الضَّلالِ وأنواعِهِ

سِرُّ عَطْفِ الاسْتِكبارِ على التَّكذِيبِ:

عُطِفَ الاستكبَارُ على التَّكذِيبِ في قَولِ اللّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾؛ للإيماءِ إلى توغُّلِهم في الضَّلالِ؛ إذ لَم يكتَفُوا بالتَّكذِيب، فيتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنَّ لَهُم بيِّنَةً على تكذِيبِهم هذا، أو أنَّهم مُتأوِّلُونَ فيه، بل إنَّ الّذِي حملَهُم على التَّكذِيبِ هو استكبَارُهُم عَن قبولِ الحقِّ.

وهَذا العَطفُ يجُوزُ أن يكُونَ من عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، ومن عطفِ العامِّ على الخاصِّ، فأمَّا كونُهُ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.

فإنَّ المُكذِّبَ قد يكُونُ مُستكبِرًا، وقد لا يكُونُ، فالتَّكذِيبُ بهذا أعمُّ مِنَ الاستكبَارِ، وأمَّا كونُهُ مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ فذلكَ أنَّ المُستكبِرَ قد يصدُرُ منه تكذِيبٌ، وقد لا يبدُرُ منه ذَلِكَ.

فبينَ الاستكبَارِ والتَّكذِيب عمومٌ وخصوصٌ وَجهيٌّ، يجتَمِعانِ في صورةِ المُكذِّب المُستكبِرِ، ويفترِقُ كلٌّ مِنهُما عنِ الآخَرِ على الوَجهِ المُتقدِّمِ آنِفًا، فباعتبَارِ الفَرقِ بينَهُما يصحُّ حَملُهُ على العَطفَينِ، فتكونُ الجملةُ مِن قَبيلِ الإطنَابِ، ونُكتتُهُ: بيانُ إيغالِهِم في الضَّلالِ والانحرَافِ، بجمعِهِم بينَ صُوَرِهِ وأنواعِهِ.

سِرُّ بناءِ الفِعْلِ ﴿تُفَتَّحُ﴾ لِلمَفعولِ:

تَعظِيمُ قَدْرِ المَلَائِكَةِ وتَحقِيرُ شَأْنِ المُكَذِّبِينَ

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُفَتَّحُ﴾ للمَفعُولِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ صِيانَةً لِمَلائكَةِ السَّماءِ عَن أن تُذْكَرَ مع أهلِ التَّكذيبِ والاستكبَارِ؛ تعظيمًا لَهُم، وتحقيرًا لِلمُكذِّبينَ، والدَّالُّ على أنَّ الّذي يصدُرُ منه التَّفتيحُ هُم الملائكَةُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «وإنَّ العَبدَ الكَافِرَ إذا كَانَ في انقطاعٍ مِنَ الدُّنيَا وإقبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجلِسُونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتَّى يَجلِسَ عِندَ رَأسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفسُ الخَبيثَةُ، اخرُجِي إلى سَخَطٍ مِنَ اللّهِ وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتُفَرَّقُ في جَسَدِهِ، فَيَنتَزِعُهَا كَمَا يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبلُولِ، فَيَأخُذُهَا، فَإذَا أَخَذَهَا لَم يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرفَةَ عَينٍ حَتَّى يَجعَلُوهَا في تِلكَ المُسُوحِ، وَيَخرُجُ مِنهَا كأَنتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ على وَجهِ الأَرضِ، فَيَصعَدُونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، إلَّا قالُوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فيَقُولُونَ: فُلَانُ بنُ فُلَانٍ بأَقبَحِ أَسمَائِهِ الَّتي كانَ يُسَمَّى بهَا في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّمَاءِ الدُّنيَا، فَيُستَفتَحُ لَهُ، فَلَا يُفتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرأَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[1].

---

(1) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (18534)، وصحّحه الألبانّي في صحيح الجامع الصّغير: (برقم: 1676).

نُكتَةُ تَضْعِيفِ الفِعْلِ ﴿تُفَتَّحُ﴾:

شِــدَّةُ تعـذِيـبِ أهـلِ الـكُـفـرانِ دليلٌ على عِظَمِ كـرَامــةِ أهــلِ الإيمانِ

وردَ الفعلُ ﴿تُفَتَّحُ﴾ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ بصيغةِ التَّضعيفِ لنِكَاتٍ[1]:

أُولاها: الدّلَالَةُ على كثرةِ الأبوَابِ لا كَثرةِ الفِعلِ؛ لأنَّ ذلك لا يُناسِبُ المقامَ.

ثانيهَا: إفادَةُ تحقيقِ نَفيِ الفتحِ لهُم.

ثالثُهَا: الإيماءُ إلى أنَّ المبالغَةَ بتضعيفِ الفِعلِ دالَّةٌ على أنَّ المنفيَّ هو فَتحٌ مَخصُوصٌ؛ وهو الفتحُ الّذي يُفتَحُ لأهلِ الإيمانِ، وهو فَتحٌ قَويٌّ، فيكون في تلكَ الإشارَةِ زيادَةٌ في نِكايَتِهم.

دَلَالَةُ اللّامِ في: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

انْغلاقُ السَّماءِ الأُولى دليلٌ على أنَّ مـا بـعـدَهـا أَولَى

اللّامُ في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لِلعَهدِ العِلميِّ، والمرادُ السَّماءُ الأُولَى وهِيَ سَمَاءُ الدُّنيَا، وذلك أَبلَغُ في بيانِ عدمِ تفتِيحِ أَبوَابِ السَّمَاءِ لهُم؛ لأنَّ أرواحَ هَؤُلاءِ المُكَذِّبين إذا لَم تَتَجاوَزِ السَّماءَ الدُّنيا؛ فهِيَ لَم تتجاوَزْ ما فوقَها مِنَ السَّماواتِ مِن بابٍ أَولَى وأحرَى.

بَرَاعَةُ النَّظْمِ في الجمْعِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

تَنزيلُ المُكَذِّبينَ بِـالآيَـاتِ مَنزلَةَ الشُّفعاءِ الّذين يُهانُونَ بالرَّدِّ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ ظاهِرُه أنَّه حقيقَةٌ لا مجَازٌ، كما يدلُّ على ذلك الحديثُ الآنِفُ الذِّكر، ويجوزُ أن يُرَادَ منه معنًى مجازيٌّ؛ لأنَّ اللَّفظَ يحتمِلُه، والتَّحقيقُ أنَّ هذا يندَرِجُ تحتَ حَملِ اللَّفظِ المُشترَكِ على معنَيَيه، فالمعنَى المجازِيُّ الّذي تُرشِدُ إليه الآيةُ الكريمَةُ قد سِيقَ مساقَ التَّمثيلِ؛ وهو تمثيلٌ لأسبابِ التَّزكيَةِ، فكمَا أنَّ الشُّفعاءَ إذا أَتَوا مكانًا قد يُقبَلُون ويُرضَى عَنهُم، فتُفَتَّحُ لهم أبوابُ القصورِ ويدخلُوْنَ على وجه التَّكريم، وقد يُردُّون وتوصَدُ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/358، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/127.

الأبوابُ في وجوهِهم على وجهِ الإهانَةِ والسُّخطِ؛ فكذلك مُثِّلَ إقصاءُ المُكذِّبين بآياتِ اللّهِ تعالى المُستَكبِرين عنها وعدَمُ الرِّضا عنهم بِحالِ مَن لا تُفتَّحُ له أبوابُ المنازِلِ والقصور، وأُضِيفَتِ الأبوابُ إلى السَّماءِ لِلإيماءِ إلى أنَّ هذا التَّمثِيلَ واردٌ لِبيانِ حِرمَانِهم مِن وَسائِلِ الخَيرَاتِ الإلهيَّة[1].

معنَى اللَّامِ في: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾:

الجَـنَّـةُ أَطـهَـرُ المَنَازِلِ وأشرَفُها

اللَّامُ في: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ لامُ العهدِ العِلميِّ، والمرادُ: جنَّةُ الخُلدِ التي هِيَ أطهَرُ المنازلِ وأشرَفُهَا[2].

بَلاغةُ تَعْليقِ النَّجاةِ بالمستحِيلِ:

تَـأكِـيـدُ تـيـئِـيـسِ المُـكَـذِّبِـيـنَ مِـن دُخولِ الجَنَّةِ

في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ تمثيلٌ بليغٌ لبيانِ تَيئِيسِهم مِن دخولِ الجنَّةِ؛ فقد عُلِّقَ دُخُولُهم إيَّاهَا على محالٍ؛ إذِ الجمَلُ يستحِيلُ دخولُهُ في مَسلَكٍ ضيِّقٍ كثُقبِ الإبرةِ، وهذه الجملةُ - ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ - تأكِيدٌ بطريقِ تأكِيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضدَّه، إذ جُعِلَ انتفاءُ دخولِهم الجنَّةَ مُستمِرًّا على وجهِ الدَّوامِ؛ لجعلِهِ المُستَحِيلَ غايةً له[3].

بَراعةُ الاِحْتِبَاكِ في الآيَةِ:

حَـذْفُ المُقَـابِـلِ لِـدِلالَـةِ المَذكُـورِ عليه

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ حذفٌ على طريقةِ الاحتباكِ، وهُوَ المُسمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أوِ الحذفَ المُقَابَلِيَّ؛ إذ حُذِفَ مِن كُلِّ جملةٍ ما دلَّ عليه مقابِلُهَا مِنَ الجملةِ الأُخرى، وتقدِيرُ الجملَةِ: لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ فيدخُلوهَا، ولا تُفتَّحُ لهُم أبوابُ الجنَّةِ فيدخُلوها، فحُذِفَ الدُّخولُ مِنَ الجملةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/223، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/127.

الأُولَى؛ لدلالة: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ عليه مِنَ الجملَةِ الثَّانيةِ، وحُذِفَ تَفتيحُ الأبوابِ منَ الثَّانيةِ لدلالةِ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ عليهِ منَ الجملةِ الأُولَى.

مُعايَشَةُ الجَمَلِ للعربِ في حياتِهم دعوةٌ للتَّأمُّلِ الدَّائمِ في مَصيرِ المُكذِّبين

نُكتَةُ تَخصِيصِ الجَمَلِ دُونَ غَيرِه:

خُصَّ الجَمَلُ بالذِّكرِ دونَ سائرِ الدَّوابِّ، مع أنَّ فيهَا ما هو أعظَمُ منه؛ لنِكاتٍ[1]:

الأُولى: أنَّ المرادَ ضربُ المَثَلِ، وهذا المرادُ يحصُلُ بالجَمَلِ؛ إذِ المعنَى: نَفيُ دُخولِهم الجنَّةَ كما لا يَدخُلُ الجملُ في ثُقبِ الإبرة.

الثَّانيةُ: أنَّ الجَمَلَ أكبرُ شأنًا عند العربِ من سائر الدَّوابِّ؛ فإنَّهم يُقدِّمونَهُ في القُوَّة على غيرِه، ولذا عجَّبهم اللّٰهُ سُبحانه من خَلقِ الإبلِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: 17]، فآثرَ اللّٰه ﷻ ذكرَ الإبلِ على غيرِهَا لهذا المعنى.

ولم يُذكَرِ الفيلُ مع أنَّه أكبَرُ منَ الجَمَلِ؛ لأنَّ القرآنَ الكريم واردٌ على ما تعرفُهُ العربُ؛ إذْ هو جارٍ على لغتِهم، والعرَبُ إنَّما يعرفُونَ الجَمَلَ، ولم يكُنْ في بلادِهم الفيَلَةُ[2].

الثَّالثة: أنَّ الجملَ شاخصٌ أمامَ أعيُنِ العربِ؛ فهم يَرَونَه صباحَ مساءَ، وربطُ الآيةِ بما هو حاضرٌ في الحياةِ اليوميَّةِ، أدعى للتَّفكُّرِ، وأحرى بالتَّأمّلِ.

استِحضارُ المُكذِّبِ لجملٍ بعينِه أوقعُ في مَعرفةِ الاستحالةِ ذِهْنيًّا

نُكتَةُ تعريفِ ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾:

اللَّامُ في: ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ من قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ هي لامُ العَهدِ الذِّهنيِّ عند البلاغيِّينَ لا النَّحويِّينَ، وهي الدَّالَّةُ على الحَقيقةِ في ضِمنِ فَردٍ مُبهَمٍ، فهيَ في المَعنَى بمنزلَةِ النَّكرةِ، والتَّقدير:

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/119.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/225.

حتَّى يَلِجَ جَمَلٌ مِنَ الجمَالِ في سَمِّ الخياطِ، والقَرينَةُ هو الفعلُ ﴿يَلِجَ﴾؛ فلا يُرادُ بِهِ استِغرَاقُ الأَفرَادِ قطعًا، ولا الحقيقةُ من حيثُ هِيَ؛ لأنَّ الحقيقةَ معنًى في الذِّهنِ، وهي لا تُوصَفُ بالوُلُوجِ أو عَدَمِه.

ونكتةُ هذا التَّعريف اللَّفظيِّ الّذي هو في حقيقتِه نكرةٌ، هو أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين سيستحضِرُونَ جَملًا بعينِه يَعْرِفونَهُ، فيتمثَّلُون به الآيةَ، فيقعُ منهم مَوقِعَ المعرِفة، فهو تجسيدٌ للصُّورةِ في الأذهانِ، واستحضَارٌ للاستحالةِ في الأفئدةِ.

دَلَالَةُ التَّشبِيهِ فِي الآيَةِ:

استِحالَةُ دُخولِ الجَنَّةِ تَنالُ كُلَّ مُجرِمٍ

التَّشبِيهُ في قولِ اللّه سُبحَانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، الّتِي تدلُّ عليه كافُ التَّشبِيه، مَعقُودٌ ما بينَ عذابِهم واستحالَةِ الرَّحمةِ بِهِم ودُخُولِهم الجنَّةَ، وبينَ ما أعدَّهُ اللّهُ ﷻ بالنِّسبةِ لكلِّ مَن يُجرِمُ ويأثَمُ في حقِّ اللّهِ سُبحانَهُ[1].

دَلَالَةُ اسْمِ الإِشَارَةِ فِي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

فَظاعَةُ عَذابِ المُجرِمِينَ قَادَةً كانُوا أَو أَتبَاعًا

وَرَدَ اسمُ الإشارَةِ (ذلِكَ) مِن قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دالًّا على البُعدِ؛ لِلإيماءِ إلى عظَمَةِ ذلك الجَزاءِ وفظاعَتِه[2]، والإشارةُ راجعةٌ إلى أنَّ القَاطِعِين لِمَا أمرَ اللّهُ تعالى به أن يُوصَلَ، ولو كانوا أتباعًا مُقلِّدِين لِلمُكَذِّبِينَ والمُستكبِرِينَ؛ فإنَّ دخولَهُم الجنَّةَ محالٌ عادةً[3].

دَلَالَةُ اللَّامِ فِي: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

يَعظُمُ العَذَابُ الأُخرَوِيُّ بِعِظَمِ الإِجرَامِ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الكَمَالِ، والمعنَى: وكذلكَ نَجزِي أهلَ الإِجرَامِ الكَامِلِينَ فِيه.

---

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2838.

(2) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/58.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.

بَلاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي الآيةِ:

الإِجْرَامُ سَبَبٌ لإِيقاعِ أَهلِهِ فِي شَدِيدِ العَذابِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تمثيلٌ غيرُ جارٍ مَجرَى المثلِ؛ لِعدَمِ استقلالِه، ولافتِقارِه إلى ما قبلَهُ في الكَشفِ عَن تمامِ المرادِ منه؛ لِرُجوعِ اسمِ الإشارَةِ (ذَلِكَ) إلى مُتقدِّمٍ.

وهذا التَّذييلُ مُشعِرٌ بأَنَّ الإجرَامَ هو السَّبَبُ الّذِي أوقعَهُم في ذلك الجَزاءِ، "فَهُم قَد دَخلُوا في عمُومِ المُجرِمينَ الّذين يُجزَون بمِثلِ ذلكَ الجزَاءِ، وهمُ المَقصُودُ الأَوّلُ منهم؛ لأَنَّ عِقَابَ المُجرمينَ قد شُبِّه بعِقَابِ هَؤلاءِ، فَعُلِمَ أَنَّهُم مُجرِمُون، وأنّهم في الرَّعِيلِ الأَوَّلِ مِنَ المُجرِمين، حتَّى شُبِّه عقَابُ عُمومِ المُجرِمينَ بِعقابِ هَؤلاءِ، وكانُوا مَثَلًا لِذَلِكَ العُمومِ"[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّكذِيبُ والِاستِكبارُ:

التَّكذِيبُ يَغلِبُ فِي العَقلِيَّاتِ والاسْتِكبارُ فِي النَّفسِيَّاتِ

ذَهَبَ ابنُ عرفَةَ إلى أنَّ التَّكذيبَ أعمُّ مِنَ الاستِكبَارِ؛ لأنَّ المُكذِّبَ قَد يَكونُ مُستكبِرًا، وقد لَا يكونُ[2].

والظَّاهِرُ أنَّ بينَ التَّكذِيبِ والاستِكبَارِ عُمومًا وخصوصًا مِن وجهٍ؛ فالتَّكذِيبُ أعمُّ مِنَ الاستِكبَار بالاعتِبَارِ المُتَقدِّمِ ذِكرُهُ، والاستِكبَارُ أعَمُّ مِنَ التَّكذِيبِ؛ باعتِبارِ أنْ ليسَ كلُّ مُستكبِرٍ يَقعُ منه تكذِيبٌ، فتحصَّلَ أنَّ بَينَهُما عُمومًا وخصوصًا وَجهِيًّا، فقد يَجتَمِعانِ، وقَد يفترِقُ كلٌّ مِنهمَا عنِ الآخَرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/128.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/225.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [الأعراف: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَفْصِيلُ عَذابِ المكذِّبين

بَعدَ أن ذَكرَ اللّهُ تعالى تعذيبَ المُجرمينَ، وأنَّ لَهُم عذابًا كَعَذابِ المُكذِّبينَ المُستَكبِرين؛ فَسَّر في هذه الآيَةِ جَزَاءَ الجَميعِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِهَادٌ﴾: الميمُ والهاءُ والدَّالُ تدُلُّ اشتِقاقاتُها على تَوطِئَةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ، ومنه: المَهدُ[2]؛ وهو ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ مِنَ الفِرَاشِ[3]. ويُقال: مَهَّدتُ لنَفسِي؛ أي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سَهلًا[4]، والمِهَادُ: الفِرَاشُ[5].

والمِهَادُ في قولِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾، الفراشُ، والمعنَى: لَهُم فِرَاشٌ من تَحتِهِم من نَارٍ[6].

2) ﴿غَوَاشٍۚ﴾: الغَينُ والشِّينُ والحرفُ المعتلُّ تدلُّ تصريفَاتُهَا على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ، ومنه: الغِشاءُ وهو الغِطَاءُ، وسُمِّي يومُ القيامَةِ غاشيةً؛ لأنَّها تغشَى الخلقَ بإفزَاعِها[7].

وغواشٍ في قولِهِ تعَالَى: ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ﴾ جمعُ غَاشِيَةٍ، والمرادُ: أنَّ لَهُم أَغطِيَةً من نارٍ مُوقَدَةٍ[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مهد).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (مهد).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 80، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (مهد).
(5) ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم: (مهد).
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 288.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غشي).
(8) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2839.

المَعنى الإِجْماليُّ:

النّـارُ تُحيطُ بالمكذِّبين والمسْتَكْبِرين

لِهَؤُلاءِ المُكذِّبينَ بِآياتِ اللّه تعالى المُستكبِرينَ عنها فراشٌ مِن نارٍ يفتَرشُونَهُ، ومِن فوقِهم غطاءٌ مِن نارٍ يَلتَحِفُونَهُ، وكذَلِكَ نُجازِي مَن ظلَمَ نفسَهُ وجاوزَ حُدودَهُ، فأكسَبَها مِن غضَبِ اللّهِ تعالَى ما لا قِبَلَ لهَا بِهِ؛ بِكُفرِهِ بِرَبِّهِ، وتكذيبِهِ أَنبِيَاءَهُ(1).

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾:

بَيانُ حَقيقةِ العَذابِ الّذي يَنالُ المُكذِّبين

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ عمَّا قبلَهُ لوقوعِهِ استئنافًا؛ فكأنَّ سائلًا قد سأَلَ: فماذا لهُم منَ العذابِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ تَفسيرًا لِلعَذابِ الّذِي تَوَعَّدَ اللّهُ تعالى بِهِ المُكذِّبينَ بآياتِهِ المُستكبِرينَ عَنها.

بَراعَةُ الاستِعارَةِ التَّبعيَّةِ:

التَّهَكُّمُ بِالمُكذِّبينَ عَذابٌ مَعْنويٌّ

في قَولِ اللّه سُبحَانَه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ استِعارَةٌ تبعيَّةٌ في حَرفِ الجَرِّ اللَّام؛ وذلك لأَنَّ اللَّامَ تكونُ لِلمَنفَعَةِ، وهِيَ مُستعمَلَةٌ هنا لِلمَضرَّةِ، فكانت هذهِ استِعَارَةً تهكُّميَّةً لاستعمالِ الحَرفِ في ضِدِّ معناهُ، فالمِهَادُ مِنَ النَّارِ عليهم لا لَهُم(2).

وحسَّنَ هذِهِ الاستِعارَةَ التَّعبيرُ عمَّا يكونُ تَحتَهُم مِنَ النَّارِ بالمِهادِ.

بَلاغةُ التَّجْريدِ في الآيةِ:

عِظَمُ النَّارِ الّتي يَصْلاها المُكذِّبُون

في قَولِهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ تجريدٌ بـ﴿مِّن﴾ التَّجريديَّةِ، حيثُ دلَّت على عِظَمِ النَّارِ الّتي يَصلَونَهَا حتَّى إنَّها أَفاضَتْ على غيرِهَا منها، وفي ذلكَ أيضًا: إثارةٌ لِلخيالِ، وتَنشيطٌ لِلأَذهانِ، وتنبيهٌ للعقولِ، بِما فيه مِن تَنويعٍ في الصِّياغَةِ وتَلوينٍ فيها(3).

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 435 - 436/12، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/226.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228.

دَلالةُ تَنْكِيرِ ﴿مِهَادٌ﴾:

جراءةُ الذّنب يُقابِلُهُ عِظَمُ العِقابِ

نُكِّر ﴿مِهَادٌ﴾ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ لإرادَةِ التَّعظيم والتَّفخيم[1]؛ مجازَاةً على عِظَم ما ارتَكَبوهُ مِن تَكذِيبِهم آياتِ اللّه تعالى واستِكبارِهم عنها، وتحذيرًا لسامِعِ هذا الخطابِ مِن سُلوكِ مَسلَكِ هؤلاءِ المُكذِّبين؛ لئلّا يَنالَهُ ما نالَهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مِهَادٌ﴾ دونَ (عذابٌ):

الـجَـزاءُ مِـن جِنْسِ العَمَلِ

في التَّعبيرِ عَن جهَنَّمَ بأنَّ لهم منها مِهَادًا فيه ضَربٌ مِن ضروبِ التَّهكُّم بهم[2]، والمعنَى: أنَّ اللّه سُبحانَهُ مَهَّدَ لَهُم جهنَّم بدلًا مِنَ الرَّاحة الّتي كانَت لَهُم في الدُّنيا بِتَمهيدِ الأرضِ لَهُم يتمتَّعونَ مِن خيراتِها.

فأصلُ المِهَاد دالٌّ على التَّوطئةِ والتَّسهيل، ومنه المَهدُ؛ وهو ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ مِنَ الفِرَاشِ[3]، واستُعمِلَ المِهَاد في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ لمعنَى العذابِ، وهو ضدُّ السّهولةِ، فكان في ذلك استعارَةٌ تهكُّميَّةٌ بهم؛ جزاءً وفاقًا لتكذيبِهم بآياتِ اللّه تعالى واستكبارِهم عنها؛ فإنَّ صنيعَهُم هذا ضربٌ مِنَ التَّهكُّم بالآياتِ.

فالمِهَادُ في الآيَةِ الكريمَةِ وارِدٌ بمعنى العذَابِ، ولو جاءَ النَّظمُ القُرآنيُّ: (لَهُم مِن جهنَّمَ عذابٌ) صحَّ المعنى، ولكنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ آثرَ لفظَ (المِهادِ) دُونَ (العذَابِ)؛ لِمَا في لَفظِ المِهَادِ مِنَ السُّخْرِيَةِ بالقومِ والاستهزاءِ بهم ما لا يكونُ ذلك في لَفظِ (العذابِ)[4].

بَراعةُ المقابلةِ بينَ ﴿مِهَادٌ﴾ و﴿فَوْقِهِمْ﴾:

اللَّفظُ إذا كانَ صَريحًا في دَلالَتِهِ؛ يُستَغنَى عَن تَقييدِهِ

تُركَ التَّصريحُ بِتَحتيَّةِ المهادِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ لأنَّ ذِكرَ المِهَادِ أغْنَى عنه، وذلك أنَّ المِهادَ بمعنى الفِرَاشِ، ولا يكُونُ ذلكَ إلَّا مِن تَحتُ، بخلافِ الغَواشي؛ فقد صُرِّحَ بفوقيَّتِها؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2839.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد)، والرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (مهد).
(4) عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 116 - 117.

لأنَّ الغاشيةَ تكونُ مِن فوقُ، ورُبَّما كانَتْ عَن يمينٍ أو شِمَالٍ، وتَرِدُ مرادًا بها مُطلَقُ الوصولِ والإدراكِ، فاحتيجَ إلى بيانِ محلِّهَا، فَنُصَّ على الفَوقيَّةِ[1].

فنُّ الاحْتِباكِ في الآيةِ:

الاقتِصادُ في اللَّفظِ اكتِفاءً بالقَرينَةِ

في قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ احتباكٌ وهو المُسَمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أو الحذفَ المقابِلِيَّ؛ ووجهُ ذلك أنَّه حُذِفَ مِن: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ ذِكرُ جَهَنَّمَ، استغناءً بذِكرِهَا قبلُ، وحُذِفَ مِن: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ ذِكرُ التَّحتيَّةِ استغناءً بذِكرِ مقابِلِهَا، وهو الفَوقيَّةُ في الجُملَةِ بعدَهَا[2]، والتَّقديرُ: لهُم من جهنَّمَ من تحتِهم مهادٌ، ولَهُم من جَهنَّمَ مِن فوقِهم غواشٍ.

بَلاغةُ الاستِعارَةِ التَّمثيليَّة:

ذِكرُ التَّحتيَّةِ والفَوقيَّةِ تَمثيلٌ لإحاطَةِ العَذابِ مِن جَميعِ الجِهاتِ

في التَّصريحِ بالمِهادِ والغَواشي في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ استعارَةٌ تمثيليَّةٌ لما يُحيطُ بهِم مِنَ النَّارِ من كُلِّ جانِبٍ[3]، فذِكرُ ما يدلُّ على التَّحتيَّةِ والفوقيَّةِ تمثيلٌ للإحاطَةِ من جميعِ الجهاتِ، كما جاءَ مُصرَّحًا به في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: 55]، فصرَّحَ بإحاطةِ النَّارِ بهِم، ثُمَّ بيَّنَهُ بالفوقيَّةِ والتّحتيّةِ، فأفادَ أنَّ هذه طريقَةُ القرآنِ الكريمِ في التَّعبيرِ عَن إحَاطَةِ النَّارِ بالمعذَّبينَ، كما هو الواردُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزّمر: 16].

بَلاغةُ التَّشبيهِ بالكافِ الدَّاخلةِ على اسْمِ الإشارة:

عَذابُ المُكَذِّبينَ بالآياتِ أعظَمُ مِن عَذابِ الظَّالِمينَ

الكافُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مِن قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كافُ التَّشبيهِ، فقد شُبِّهَ جزاءُ الظَّالمين بجَزاءِ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/52.

تعالى والمُستَكبِرينَ عنها، وأفادَ هذا أنَّ هَؤلاءِ المُكَذِّبينَ داخِلُونَ في جملةِ الظَّالمينَ، وأنَّهم المَقصودُ الأوَّلُ من هذا التَّشبيهِ، بحيثُ صارُوا مثلًا لعُمومِ الظَّالمينَ(1).

ولمَّا كانَ المُشَبَّهُ بشَيءٍ لا يَقوى قُوَّتَهُ؛ دلَّ على أنَّ عذابَ المُكذِّبين بالآياتِ أعظَمُ وأشدُّ من عذابِ الظَّالمينَ(2).

ووَرَدَ اسمُ الإشارَةِ (ذَلِكَ) مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالًّا على البُعدِ؛ للإشارةِ إلى شدَّةِ ذلك الجزاءِ وعِظَمِهِ(3).

التَّـكـذِيـبُ والاسْتِكبَارُ من أعـظَـمِ الظُّـلْـمِ وأَقْبَحِهِ

دَلالةُ التَّذْييلِ في الآيةِ:

قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تمثيلٌ غيرُ جارٍ مَجرَى المثلِ؛ لعدمِ استِقلالِه، ولافتِقارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عَن تمامِ المرادِ منه؛ لِرُجوعِ اسمِ الإشارَةِ (ذلك) إلى مُتقدِّمٍ.

وهذا التَّذييلُ دالٌّ على أنَّ ما اقتحَمُوه مِنَ التَّكذيبِ بآياتِ اللّه تعالى واستكبارِهم عنها ظُلْمٌ عظيمٌ، وأنَّ ظُلمَهُم هذا سببٌ في استِحقاقِهم ذَلكَ العذابَ.

عِظَمُ العُقوبَةِ في الآخِرَةِ على قَدْرِ عِظَمِ الظُّلْمِ

معنَى اللَّامِ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الكَمالِ وشمولِ جميعِ أنواعِ الظلمِ الذي يقع منهم، والمعنَى: وكذلك نَجزِي الظَّالمينَ مَهْما تنوّعَ الظّلمُ الواقعِ منهم ومَهْما كان الظّالم قد اقْترف من ظلْم، لا فرق بين ظالم وآخر.

الإجرامُ بريدُ الظُّلْمِ، والظُّلمُ أثرٌ خبيثٌ من آثارِ الإجرامِ

تَوجِيهُ تَشابُهِ الفاصِلةِ بالّتي قبْلَها:

خُتِمَت هذه الآيةُ بذِكرِ الظَّالمِينَ، وفي الآيَةِ المُتَقدِّمَةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ذُكِرَ المُجرِمونَ؛ وذلكَ لأنَّ الوصفَينِ يتحقَّقانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/129.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/226.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228.

فيهما، فَهُم قَد أجرَمُوا بالإفسادِ، وظلَمُوا أنفسَهُم، وظلَمُوا الحقائقَ بما ارتكبُوهُ مِن معاصٍ، وتعدَّوهُ مِنَ الحدودِ[1].

ونُبِّهَ بتغايُرِ الأوصافِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، على تَلازُمِها، فمَنْ كانَ ظالمًا؛ لَزِمَهُ الإجرَامُ والتَّكذيبُ والاستكبَارُ، وبالعكسِ[2].

وفي تَنويعِ وَصفِهِم، تارةً بالمُجرِمينَ وأُخرَى بالظَّالمين إشعارٌ بأنَّهم بِتَكذِيبِهم الآياتِ قَدِ اتَّصفوا بكلِّ واحدٍ مِن هَذَينِ الوَصفَينِ القَبيحَينِ، وفي ذِكرِ الجُرمِ معَ الحِرمَانِ مِن دُخُولِ الجنَّةِ، والظُّلمِ مع التَّعذيب بالنَّارِ: تَنبيهٌ على أنَّه أعظمُ الجرائمِ[3].

دِقَّــةُ الـبَـيـانِ القُرآنِيِّ في انتِقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

تَوجِيهُ المتُشابِهِ اللَّفظِيِّ:

قال اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف: 152]، فاختلفَت خَواتِيمُ هذهِ الآيِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الآيةَ الأولَى صُدِّرت بقَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، ولَمَّا كان التَّكذيبُ بآياتِ اللهِ تعالى والاستكبَارُ عنها قاطعًا الصِّلَةَ بينَهُم وبَينَ اللهِ تعالى، ناسبَهُ ذِكرُ الإجرام، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وأصلُ الإِجرَام: القطعُ[4].

وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فقد صُدِّرت بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2839.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/401.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ قد أورَدُوا أنفسَهُم مَورِدَ الهلاكِ بسببِ ظُلمِهم؛ ناسبَهُ خَتمُ الآيةِ بالظُّلمِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأمَّا الآيَةُ الثَّالثَةُ فقَد بُدِئَت بِقَولِهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، فلمَّا كان سببُ اتِّخاذِهم العجلَ زعمَهُم استحقاقَهُ العبادَةَ، وكان كذلكَ محضَ افتراءٍ؛ ناسبَهُ خَتمُ الآية بِهِ، فقال سُبحَانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: 152].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢﴾ [الأعراف: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إتْباعُ عاقِبَةِ المؤمنين بعاقبةِ المُكذِّبين

لَمَّا أخبرَ اللّهُ تعالى عَن أحوَالِ المُكذِّبينَ بآياتِهِ المُستكبِرينَ عنها ترهيبًا مِن سُلوكِ مَسلكِهم؛ أتبعَهُ في هذه الآيةِ بالإخبارِ عَن أحوالِ المُؤمِنينَ ترغيبًا في اقتفاءِ آثارِهم، فقالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُكَلِّفُ﴾: تَكَلَّفَ الشَّيءَ: تجشَّمَهُ على مشقّة وعُسرٍ، وكلَّفهُ بمعنَى: أَمَرَه بما يشُقّ عليه[2]، والتَّكلِيفُ: الأمرُ بما يَشُقُّ عليكَ[3].

والتَّكليفُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ بمعنَى مُطلَقِ الطَّلَبِ والأمرِ؛ أي: لا نَأمُرُهَا إلَّا بما في وُسعِهَا وطاقتِهَا.

2) ﴿وُسۡعَهَآ﴾: الواوُ والسِّينُ والعينُ تدورُ اشتقاقَاتُهَا على ضدِّ الضّيقِ والعُسرِ. يُقال: وَسُعَ الشَّيءُ واتَّسعَ؛ خلافُ ضاقَ[4]. والوُسْعُ: الطَّاقةُ، ومنه قَولُ اللّه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾؛ أي: لَا نُكَلِّفُ نفسًا مِنَ الأعمالِ إلَّا ما تطيقُهُ[5].

3) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخاءُ واللَّامُ والدَّالُ تدلُّ تَصريفاتُها على الثَّبات

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/401.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كلف).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (كلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/437.

والمُلازَمَة[1]، ومنه الخُلْدُ والخلودُ: البَقاء والدَّوام، وهو في الأَصلِ: المُكثُ الطَّويلُ، ولا يلزَمُ منه الدَّوامُ، ولذا يُقيَّدُ في مواضِعَ بِـ(أبدًا) مِن باب التَّمييز لا التَّأكيد[2].

وخُلُودُ أهلِ الإيمانِ في الجنَّةِ مقطوعٌ به، وذلك مُستَفادٌ مِن أدلَّةٍ أُخرَى كثيرةٍ، منها ما وَرَدَ في القُرآن الكَريم مقيَّدًا خُلودُهم في الجنَّة بالتَّأبيد، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النّساء: 57].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

جَـزاءُ المؤمنين جَنَّةُ رَبِّ العالَمين

وَالّذِينَ صَدّقُوا اللّه ورسولَه، وأقرُّوا بِمَا جاءَهُم بِهِ مِن وَحيِ اللّهِ سُبحَانَهُ وتنزِيلِه وشرَائِعِ دِينِه، وانقادُوا لذلِكَ، وعَمَلوُا ما أمَرَهُمُ اللّهُ تعالى به فأطَاعُوهُ، وتَجَنَّبُوا ما نَهَاهُم عنه، لا نُكَلِّفُ نفسًا مِنَ الأعمَالِ إلَّا ما تُطيقُه، هَؤُلَاءِ الّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ هُم أهلُ الجنَّةِ الّذين هُم أهلُهَا، دُونَ غَيرِهِم مِمَّن كفَرَ باللّه، مَاكِثُونَ في الجَنَّةِ، دائمٌ فيها مُكثُهُم، لا يَخرُجُونَ منها، ولا يُسلَبُونَ نَعِيمَهَا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصلِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما قَبْلَهُ:

استيعابُ أقسامِ النَّاسِ يَومَ القِيَامَةِ مُؤمنِهم وكافِرِهم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عاطِفةٌ، وَوُصِلَت هذه الجُملَةُ بما قبلَهَا؛ لِمَا بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَين، وذلك أنَّ الجُملتَين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خبريَّتَان، وبينَهُما تناسُبٌ من وَجهَين[4]:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).

(2) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيَّات، ص: 434، وابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 257، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/265.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/437، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/129 - 130.

أحدهما: لفظيٌّ، وهو اتِّفاقُهما في الاسميَّةِ، وكونُ المسنَدِ إليه في كُلٍّ مِنها الاسمَ الموصول (الّذينَ) مع تبايُنٍ في الصِّلَةِ.

والآخَرُ: معنويٌّ، وهو الجامعُ بين الجملَتين؛ إذ بينَهُما تضادٌّ، وهو جامعٌ وهميٌّ عندَ البلاغيِّين.

فعُطِفَ جزاءُ أَهلِ الإيمانِ على جَزاءِ أَهلِ الكُفرِ؛ لاستيعابِ أقسامِ النَّاسِ يومَ القيامَةِ.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليه بالمَوصُوليَّةِ:

الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبانِ لِدُخولِ الجَنَّةِ

عُرِّفَ المُسنَدُ إليه بالمَوصُوليَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِبَيَانِ العِلِّيَّةِ والسَّببيَّةِ، والإيماءِ إلى وَجهِ بناءِ الخبَرِ؛ وهو أنَّ استحقاقَهُم الجزاءَ بالجنَّةِ حاصلٌ بسببِ إيمانِهِم وعملِهِمُ الصَّالحات[1].

سَبَبُ إيرادِ الاسْمِ المَوصولِ جَمْعًا:

أَهلُ الإيمانِ أُمَّةٌ قائِمةٌ على الحقِّ، مُؤْتَلِفونَ عليه

في إيرادِ الاسمِ الموصولِ (الّذينَ) جَمعًا في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشعارٌ بأنَّهم أُمَّةٌ مُجتَمِعةٌ على الحقِّ والإيمانِ، لا سيَّما أنَّ ذِكرَهم جاءَ في مقابلِ ذكرِ أهلِ النَّارِ، فكانَ التَّقابلُ بين الجَمعينِ مُشعِرًا بذلكَ الاجتِماعِ.

نُكتَةُ الإتيانِ بالصِّلَةِ فِعلًا ماضِيًا:

الحَثُّ على تحقيقِ الإيمانِ ومُواصَلَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ

جيءَ بالصِّلَةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَعَمِلُواْ﴾ فِعلًا ماضيًا؛ دُونَ إيرادِه فعلًا مُضَارِعًا إشعارًا بأنَّهم مُتحقِّقونَ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، ولإفادةِ ثُبوتِ ذلك ورُسوخِه فيهم، ولبيانِ أنَّ إيمانَهم وأعمالَهم الصَّالحةَ كانتْ سُلوكًا مُتجدِّدًا في الدُّنيا؛ حثًّا لِلمُخَاطَبِين على تَجديدِ إيمانِهم والاستمرَارِ عليه، وعلى العملِ الصَّالحِ.

---

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2841.

نُكتةُ حَذْفِ مُتعَلَّقِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ الّذي يَتبادَرُ إلى الأذهانِ هو الإيمَانُ بجميعِ أركانِ الإيمانِ

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الإيمانِ في قَولِهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يُذكَر بماذا آمنوا؛ وذلك لنُكتَتَين:

الأولى: لِلعلمِ بِهِ؛ فإنَّ مُتعلَّقَ الإيمانِ كان مَعرُوفًا عندَ المُخَاطَبِين.

الأُخرى: لقصدِ إفادَةِ العُمومِ، وعدمِ التَّنصيصِ على أحدِ أركانِ الإيمانِ؛ أي: آمَنُوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ؛ لأنَّ حذفَ المُتعلَّق مُؤذِنٌ بالعمُومِ[1].

ولا تعارُضَ بَينَ المَعنَيَين؛ لأنَّ الإيمانَ المعهودَ عندَ أَهلِ الإيمانِ هو الإيمانُ بجميعِ ما أَوجَبَ اللّٰه تعالى عليهم الإيمانَ بهِ.

سِرُّ الإطنابِ بِعَطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

شَرَفُ العَمَلِ الصَّالِحِ وعَظِيمُ مَنزِلَتِهِ

عطفُ العملِ الصَّالحِ على الإيمانِ في قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هو من بابِ الإطنابِ بعَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ إنَّ حقيقةَ الإيمانِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فالعمَلُ داخِلٌ في مُسمَّى الإيمانِ وحقيقتِهِ الشَّرعيَّة، والنُّكتَةُ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ التَّنبيهُ على شرفِ العملِ الصَّالِحِ بذِكرِهِ مرَّتينِ؛ إحدَاهُمَا: مُندَرِجًا تحتَ لَفظِ الإيمانِ، والأُخرَى: مُنفَرِدًا، والتَّحذيرُ منَ الظَّنِّ بأنَّ الإيمانَ كافٍ دونَ عملِ الصَّالحاتِ.

نُكتةُ الإيجازِ بحذْفِ مَوصُوفِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الاقتِصادُ في اللَّفظِ اكتِفاءً بالقَرِينَةِ

في قَولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بالحَذفِ؛ إذ إنَّ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: وعَمِلُوا الأعمالَ الصَّالحاتِ[2]، والقَرِينَةُ على تَعيينِ المَحذوفِ هو الفِعلُ ﴿وَعَمِلُواْ﴾، فاكتُفِيَ بالقَرِينَةِ عنِ التَّصريحِ بالمَوصوفِ؛ اقتِصَادًا في اللَّفظِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/130.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/359.

وإيجازًا في التَّركيب، ونُكتةُ ذلكَ تنزيلُ الصِّفةِ منزلَةَ المَوصوفِ؛ لتتَّجِه الأذهانُ صَوبَ الصَّالحاتِ، باعتبارِها صالحاتٍ، وهذا أشدُّ أثرًا وأرسخُ في الإقبالِ.

معنَى اللَّامِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

العَمَلُ الصَّالِحُ هـو الـجـامِـعُ لِـلإخـلاصِ والمتابَعَةِ

اللَّامُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُرَادُ بها العَهدُ العلميُّ؛ وذلك أنَّ العملَ الصَّالحَ معروفةٌ حقيقَتُه في الشَّرعِ، وأنَّه الجامعُ لأمرَين:

أحدهما: الإخلاصُ للّه تعالى.

والآخر: المتابعَةُ لرَسول اللّه ﷺ.

أو أن تَكونَ اللَّامُ للاستِغرَاقِ العُرفي، وفي هذا ضَربٌ مِنَ المبالغَةِ في وصفِ أهلِ الإيمانِ، حتَّى كأنَّهم ما تركُوا عملًا صالحًا إلَّا ولهم فيه نصيبٌ بالفعلِ، أو بالنِّيَّةِ، كما جاءَ من حديثِ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه، قالَ: قَالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: «مَن ماتَ ولَم يَغزُ، ولَم يُحَدِّث بِهِ نَفسَهُ، ماتَ على شُعبَةٍ مِن نِفاقٍ»(1).

والمعنيانِ صحيحانِ، وحملُها على الاستغراقِ أعظمُ أثرًا، إذ فيها إشعارٌ بضرورةِ أنْ يُحدِّثَ المُؤمنُ نفسَه بالأعمالِ الصَّالحاتِ، مُستغرِقًا لجميعِ أنواعِها، سواءُ أقامَ بها أم لا، كما جاء من حديثِ أنَسٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان في غزاةٍ، فقال: «إنَّ أقوَامًا بالمَدِينَةِ خَلْفَنَا، ما سَلَكْنَا شِعبًا ولا واديًا إلَّا وهُم مَعَنا فيه، حَبَسَهُمُ العُذرُ»(2).

دَلَالَةُ جَمْعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

أعـمـالُ الـخَـيرِ في الإسـلامِ كَثِيرَةٌ أفرادُها، ومُـتَـنَـوِّعَـةٌ مَجالاتُها

جُمِعَتْ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للإيماءِ إلى الإتيانِ بها بأنواعِها دُون الاكتفاء ببعضِها؛ إذْ إنَّ أركانَ

(1) صحيح مسلم: كتاب: الإمارة، الحديث رقم: (1910): 3/1517.

(2) البخاري، الجامع الصحيح: كتاب: الجهاد والسِّير، الحديث رقم: (2839): 4/26.

الإسلام وأعمالَ الخيرِ مترابطةٌ، آخذٌ بعضُها بِحُجَزِ بعضٍ، كما قال اللّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: 208].

بَراعةُ الإطنابِ بالاعتِراضِ:

الجَنَّةُ مَعَ عَظيمِ مَنزِلَتِهَا يُوصَلُ إلَيهَا باليَسِيرِ غيرِ العَسيرِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ بينَ قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، ووجهُ الاعتراضِ: أنَّ ذِكرَ الأَعمالِ الصَّالحات لَمَّا كان مظنَّةً لتوهُّم أنَّ عملَ جميعِ الصَّالحاتِ - لكونِه جمعًا محلًّى باللَّام - شرطٌ في دخول الجنَّةِ؛ اعترُضَ بقَولِه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ لِثَلَاثِ نِكاتٍ:

الأُولى: التَّخفيفُ على العبَادِ، وأنَّ اللّهَ تعالى لَم يَأمُرْهُم باستيعابِ الأعمالِ الصَّالحاتِ فِعلًا لها.

وثانيها: التَّرغيبُ في تحصيلِ ما لا يُوصَفُ مِنَ النَّعيمِ العظيمِ الدَّائم بما هو في الوُسعِ والطَّاقةِ مِنَ العملِ[1].

وثالثها: التَّنبيهُ على أنَّ الجنَّةَ - مع عِظَمِ محلِّها - يُوصَلُ إليها بالعمَلِ اليسيرِ المُستطاعِ مِن غيرِ تَحَمُّلِ المَشاقِّ[2].

تَعريفُ المُسنَدِ إليه بالإشارَةِ:

الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبانِ لِبُلوغِ المَرَاتِبِ العَاليةِ

الإشارَةُ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ إلى المَذكورينَ قَبلُ باعتِبارِ أوصافِهم؛ مِنَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ للإشعارِ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هي سببُ بُلوغِهم هذه المراتبَ العاليَةَ والجزاءَ الجليلَ.

وفي التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ إيماءٌ إلى أنَّهم متميِّزُونَ بصُحبَةِ الجنَّةِ أكملَ تمييزٍ وأَبيَنَه، وهذا أبلغُ في مدحِهم والثَّناءِ عليهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/401.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/242.

وزادَ دِلالةَ المَدحِ والثَّناءِ ما في اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من مَعنَى البُعدِ المفيدِ بُعدَ منزلتِهم في الخَيرِ، وعلُوَّ رُتبتِهم في الصَّلاحِ[1].

غَرَضُ القَصْرِ في الآيةِ:

التَّعريضُ بالمُشركين وتَيئيسُهم من دُخولِ الجنَّةِ

في قولِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو من قَصرِ الصِّفَةِ على المَوصوفِ، وطَريقُهُ: تعريفُ جُزأَي الإسنادِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، ففيهِ قصرُ صُحبَةِ الجنَّةِ على أولئك المَذكورِينَ؛ لأنَّ المقصورَ بتعريفِ طَرَفَي الإسنادِ هو المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مُقدَّمًا أم مُؤخَّرًا، و﴿أَصۡحَٰبُ﴾ هَهُنا مُضافٌ لِمَا فيه اللَّامُ فهو بمنزلتِه.

وهذا القصرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ؛ وذلك أنَّ دخولَ الجنَّةِ مقصورٌ حقيقةً على مَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا، لا يَشرَكُهُم فِيها غيرُهُم، فإنَّ اللّهَ تعالى حرَّم الجنَّةَ على الكافِرينَ، ففي جُملَةِ القصرِ تعريضٌ بالمشركين؛ أي: أولئكَ المُؤمنون هم أصحابُ الجنَّةِ، لا غيرُهم، وَتَيئِيسٌ آخَرُ لِلمُشركِينَ من دخولِ الجنَّةِ بعد تَيئِيسِهم في قَولِه قَبلُ: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[2].

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

العلاقةُ بينَ الخُلودِ في الجنَّةِ وصُحبتِها ما بينَ البيانِ والتَّوكيدِ بحسَبِ التَّقديرِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عَن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾؛ لأنَّ بينَهما كمالَ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الجُملَةَ الثَّانيةَ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ نُزِّلت مَنزِلَةَ البَيانِ مِنَ الأُولَى؛ وذَلِكَ لأنَّ وصفَهُم بالصُّحبَةِ للجنَّةِ لا يقتضِي بحسبِ الوَضعِ اللُّغَويِّ الخلودَ والدَّوامَ، وإنْ كانَ العُرفُ الشَّرعيُّ يَقتَضِيه، فَصُرِّحَ في الجُملَةِ بعدَهُ بأنَّ هذِهِ الصُّحبَةَ تقتضِي الخُلودَ والدَّوامَ.

أو أن تكونَ الثَّانيةُ تأكيدٌ للأُولى، بحملِ الصُّحبةِ على الدَّوام

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/401.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/130.

الأبديِّ المأخوذِ من عموم النُّصوصِ الشَّرعيَّة، ومنَ السِّياقِ نفسِه، وهي كذلك من صورِ كمال الاتِّصالِ.

بَراعةُ الاحتِراسِ في الآيةِ:

ترقُّبُ انقطاعِ اللَّذَّةِ عِندَ المُنعَمِ عليه يُنَغِّصُ عليه تلك اللَّذَّةَ

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ واردٌ على جِهَةِ الاحتِراسِ؛ وذلكَ لِدَفعِ تَوهُّمِ انقطاعِ النَّعيمِ المذكورِ قبلُ؛ وسبَبُ هذا التَّوهُّم: ما جَرَتْ به العادَةُ مِن انقطاعِ اللَّذَّاتِ في الدُّنيا، وذلك يُنغِّصُ اللَّذَّةَ عِندَ المُنعَمِ عليه، فبيَّن سُبحانَهُ أنَّ نعيمَ الجنَّة لا يَزُول، وأنَّه مُباينٌ لنعيم الدُّنيا، وهذا هو تمامُ السَّعادة، فإنَّهُم مَعَ هذا النَّعيم في مَقامٍ أمينٍ منَ الموتِ والانقطاعِ، فلا آخِرَ لهُ ولا انقضاءَ، بل في نَعيمٍ سَرمَديٍّ أبَديٍّ على الدّوام، واللهُ المسؤولُ أن يَحشُرَنَا في زُمرَتِهم، إنَّه جَوادٌ كَريمٌ، بَرٌّ رحيمٌ[1].

نُكتَةُ تَقديمِ الجَارِّ والمَجرورِ:

مَدحُ أهلِ الجَنَّةِ والثَّناءُ عليهم بِبَيانِ خُلودِهِم فيها

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿فِيهَا﴾، فلم يَرِد النَّظمُ القُرآنيُّ: (هُم خالِدُونَ فِيهَا)؛ وذلك لِنُكتَتَينِ:

إحداهُمَا: إفادَةُ التَّخصيصِ؛ فخلُودُهم في الجنَّةِ لا غيرَ، وذلك أَدخَلُ في مَدحِهم والثَّناءِ عليهم.

وليس مَعنَى التَّخصيصِ هَهُنَا أَنْ لا خُلودَ إلَّا في الجنَّةِ؛ فإنَّ هذا مع كَونِه مُخالِفًا للشَّرعِ - إذْ ثبَتَ الخُلودُ لِلكَفَرةِ في النَّارِ - لا يُسعِفُهُ نظمُ الآيةِ الكريمة.

والأخرى: مراعاةُ توافقِ الفواصلِ[2]؛ فإنَّ الآيةَ قَبلَها خُتِمت بقولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والآيةَ بعدَها خُتِمت بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا التَّوافقُ تابعٌ للمعنى، وما أعظمَ هذا النَّظمَ الَّذي لَقَحتْ معانيه ألفاظَه! فجاءَ على أبدعِ مثالٍ سَمِعَته أُذنٌ بشريٌّ.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/206.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/359.

دِقّةُ البَيانِ القُرآنيّ في اختيارِ الأَلفاظِ المُناسِبَةِ لِسياقاتِها

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

قال اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾، وقال في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الأحقاف: 14]، ووجهُ التَّغايُرِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأعرافِ سُبِقَت بقوله ﷻ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فلمَّا خصَّ هؤلاءِ بما هم فيه منَ العذاب؛ ناسبَهُ تخصيصُ المؤمنينَ العاملينَ الصَّالحاتِ بما هم فيه مِنَ النَّعيم، فقال سُبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

بخلافِ آيةِ الأَحْقافِ؛ فإنَّه تقدَّمها قولُه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف: 13]، فلمَّا تقدَّم تخصيصُهم بالبُشرَى، وهي ملازِمَةٌ للجنَّة بقوله: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]؛ ناسبَهُ بيانُ حالهم فيهَا بقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قلوبُ المُكذِّبين مملوءةٌ بالبُغضِ، وقلوبُ أهلِ الجنَّةِ مَنْزوعَةُ الغِلِّ

لَمَّا ذَكَرَ اللّٰهُ ﷻ جزاءَ أهلِ الإيمانِ في قَولِهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وكانَتِ الدَّارُ لا يَطيبُ المَقامُ فيها إلَّا بحُسنِ الجوارِ؛ قال بَعدَهَا: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾[1]؛ لبيانِ أنَّ الجنَّةَ دارٌ للمتّقِين السَّالمين من أيِّ حِقْدٍ، والمنزوعين من كلِّ غلٍّ، ليهْنأَ أهلُ الجنَّةِ برؤيةِ بعضِهم بعضًا، وقد حسُن ذكرُ نزعِ الغلِّ؛ لمناسبتِه لذكرِ تلاعُنِ أهلِ النَّارِ بعضِهم بعضًا؛ فإذا كان أهلُ النَّارِ يَتلاعَنُون، فأهلُ الجنّةِ يَتحابُّون برِضوان اللّٰه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَزَعۡنَا﴾: النُّونُ والزَّايُ والعَينُ تدورُ اشتقَاقاتُها على مَعنَى قَلْعِ الشَّيءِ[2]. ومنه: نَزْعُ الشَّيءِ: وهو جذبُهُ من مقرِّه، ويكُونُ في الحسِّيَّاتِ، كنَزعِ القوسِ عَن كَبِدِه، ويُحمَلُ على هذا، فيُستعمَلُ في المعنويَّاتِ، ومنه: نَزْعُ العدَاوَةِ أو المحبَّةِ منَ القَلبِ[3]، ومن هذا قولُ اللّٰه ﷻ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾، فإنَّ معناهُ: أذهبنا الغلَّ وأبطَلْنَاهُ بإعدامِه مِنَ الصَّدرِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/402.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نزع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 9/139.

2) ﴿غِلّٖ﴾: الغَينُ واللَّامُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على تخلُّلِ شيءٍ وثباتِ شيءٍ، ومنه الغُلُول؛ وهو الأخذُ مِنَ الغَنيمَةِ قبلَ قِسمَتِهَا، كأنَّ الغالَّ قد أَخفَاهُ بين ثِيابِهِ[1].

والغِلُّ: الحقدُ، ويَرِدِ بمعنَى الشَّحناءِ والحسَدِ[2]، كأنَّه يتخلَّلُ القَلبَ فيَعُمُّهُ، والمعنَى المقصودُ لِلغِلِّ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾، هو: الحِقدُ الكامِنُ في الصَّدرِ[3]، لا مُطلَقُ الحقدِ.

3) ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾: الواوُ والرَّاءُ والثَّاءُ تدلُّ تصريفَاتُها على معنَى كون الشَّيءِ لقوم، ثُمَّ يصيرُ إلى آخرينَ[4]، ومنه الميرَاثُ وهو المالُ الّذي يُخلِّفُهُ الميِّتُ؛ فإنَّه كانَ له، فانتقلَ إلى ورثتِهِ من بَعدِهِ.

وكلُّ مَن حصَلَ له شيءٌ من غير تعَبٍ، يُقال فيه: قد ورِثَ كذا، ويُقال لِمَن خُوِّلَ شيئًا مهنِّئًا: أُورِثَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

استِحضارُ أسبابِ النَّعيمِ مِنَ النَّعيمِ المقيمِ

بيَّنتِ الآيةُ إِذهابَ اللهِ ما في صُدورِ أَهلِ الإيمانِ مِن حِقدٍ وعَداوةٍ كَانَت مِن بَعضِهِم في الدُّنيَا على بَعضٍ، تَجري مِن تَحتِهِم أنهَارُ الجنَّةِ، وقالَ هَؤُلاءِ لمَّا رَأَوا ما أَكرَمَهُمُ اللهُ بِهِ مِن كرَامَتِه، وما صَرَفَ عَنهُم مِنَ العذابِ المُهينِ الّذي ابتُلِيَ به أَهلُ النَّارِ بكُفرِهِم بِرَبِّهِم وتَكذِيبِهِم رُسُلَهُ: الحَمدُ لله الّذي وفَّقَنَا لِلعَمَلِ الّذي أَكسَبَنَا هذا الّذي نَحنُ فيه من كَرامَةِ اللهِ وفَضلِهِ، وصَرفِ عذابِهِ عنَّا، وما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غلّ).
(2) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/364، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: (غلّ).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/208.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(5) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (ورث).

كُنَّا لِنَرشُدَ لِذلِكَ لولا أن أَرشَدَنا اللّهُ لَهُ ووَفَّقَنا بمنِّهِ، وقالُوا: واللّهِ لَقَد جاءَتنَا في الدُّنيا رُسُلُ ربِّنا بالحَقِّ مِنَ الأخبارِ عَن وَعدِ اللّهِ أهلَ طاعَتِهِ والإيمَانِ بِهِ وبِرُسُلِهِ، ووَعِيدِهِ أهلَ مُعَاصِيهِ والكُفرِ بِهِ، ونادَى منادٍ: أنْ يا هَؤُلاءِ! تِلكُم الجَنَّةُ الّتي كانَت رُسُلِي في الدُّنيا تُخبِرُكُم عنها، أَورَثَكُموها اللّه عَنِ الّذِين كذَّبُوا رُسُلَهُ؛ لِتَصدِيقِكُم إيَّاهم وطَاعَتِكُم ربَّكُم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ بِما قَبلَهُ:

تقديرُ المحذوفِ لبيانِ أنَّ دُخولَ الجنَّةِ ممَّا يُعلمُ لأهلِها

عُطِفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ على قولِهِ قبلُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لِمَا بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَينِ، وذلكَ لاشتِراكِهِما في الخَبَرِيَّةِ، ووجودِ الجامِعِ بينَهُما؛ إذ كلٌّ مِنهُما حديثٌ عَن جَزَاءِ أَهلِ الإيمانِ في الآخِرَةِ، أو أنْ تُحمَلَ على أنَّها معطوفةٌ على مُقدَّرٍ محذوفٍ، تقديرُه: (أدخلناهُم الجَنَّةَ)؛ لأَنَّ نزعَ الغِلِّ لا يكونُ إلَّا بعدَ إدخالِ الجنَّةِ، والجملةُ المُقدَّرةُ تكونُ خبرًا ثالثًا لاسم الإشارةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ وجملة: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هي الخبرُ الثَّاني، فمعنى الكلامِ حينئذٍ: (أولئكَ أصحابُ الجنَّةِ الخالدونَ فيها أدخلناهم الجنَّةَ، ونزعنَا في صُدُورِهم من غلٍّ)، ولم يُنصَّ على دخولِ الجنَّةِ لبيانِ أنَّ هذا ممَّا يُعلمُ لأهلِها، بخلافِ أهلِ النَّارِ فقد نصَّ على دخولِهم النَّارَ؛ لدفعِ توهّماتِهم النَّاشئةِ عن غباوَةٍ وحماقة.

نُكتةُ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّة:

جاءَ التَّعبيرُ بالنَّزعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾؛ للإيماءِ إلى شدَّة التَّطهيرِ الحاصِلِ لهُم مِن أدرَانِ الغِلِّ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 437 - 442/12.

وذلك أنَّ أصلَ النَّزعِ قَلْعُ الشَّيءِ مِن موضِعِه، واستُعِيرَ هَهُنا لإزالةِ الصِّفاتِ والمعاني، فشُبِّهَ المعنَى الكامنِ في الصَّدرِ بالذَّاتِ المتَّصلة بالمكانِ، وشُبِّهَتْ إزالتُهُ بالنَّزعِ[1]، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ونكتةُ الاستعارةِ بيانُ الاستئصالِ التَّامِّ لما بقيَ من آثارِ الدُّنيا المُنغِّصةِ على أهلِ الجنَّةِ، وهذا من تمامِ الإنعامِ.

الاستِئْصالُ التَّامُّ لأدرانِ الغِلِّ المُنغِّصةِ على أهلِ الجنَّةِ

دَلَالَةُ تَعرِيفِ المُسنَدِ إليهِ بِضَميرِ العَظَمَةِ ﴿وَنَزَعۡنَا﴾:

أُسنِدَ فعلُ النَّزعِ إلى ضَميرِ العظمَةِ الرَّاجعِ إلى اللهِ سُبحانَهُ؛ لأنَّه مقامُ تشريفٍ لأهلِ الإيمانِ، وما يَصدُرُ مِنَ العَظِيمِ عظيمٌ، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ نَزْعَ الغِلِّ مِنَ الصُّدورِ أمرٌ جليلٌ لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ تعالى[2].

تَشريفُ أَهلِ الإيمانِ وتَعظِيمُ قَدْرِهِمْ

نُكتَةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ الماضي ﴿وَنَزَعۡنَا﴾:

نَزعُ الغِلِّ الَّذي في الصُّدورِ الوارِدُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ يكُونُ في الآخرَةِ، فكان مُقتضَى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وننزِعُ ما في صدورِهِمْ مِنْ غلٍّ)، إلَّا أنَّه أُوثِرَ الفعلُ الماضي لِلإيذانِ بتحقُّقِ وقوعِه، فهو نَظيرُ قولِه سُبحَانَهُ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1][3]، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ بتشبيه ما سيكونُ بما كانَ، وذلك لتأكيدِ تحقُّقِ النَّزعِ، وأنَّه عِدةٌ كريمةٌ مُتحقِّقةٌ من كريمٍ.

تَحقُّقُ مَوعُودِ اللهِ سُبحَانَهُ لأَهلِ طاعَتِهِ

بَلاغةُ الكِنايَةِ في الآيةِ:

قولُ اللهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ وارِدٌ على جِهَةِ الكِنايةِ عَن خُلُقِ أَهلِ الإيمانِ في الآخرةِ، وأنَّهم يَدخُلونَ الجنَّةَ سالمةً صُدورُهُم، طاهِرَةً قلوبُهم، مُتَوادِّين مُتَعاطِفينَ[4].

سَلامَةُ صُدورِ أَهلِ الجَنَّةِ وطَهارَةُ قُلوبِهم

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/242، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213، 8ب/131.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/402.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/131.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/53.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالصُّدُورِ بَدَلَ القُلوبِ:

الغِلُّ سببُ انقباضِ الصَّدرِ، ونَزْعُه سببُ الانشراحِ

إذا أُريدَ بالصُّدور في قولِ اللّٰه سُبحانَهُ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ القلُوبُ؛ لأنَّها محلُّ هذه الآفاتِ، ففي الآيَةِ مَجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُهُ المحلِّيَّة؛ إذ أُطلِقَ المحلُّ وهو الصَّدرُ، وأُريدَ الحالُّ فيه وهو القلبُ، ويجوزُ أن يَكونَ مَجازًا مُرسَلًا بعلاقةِ المجاورَة.

والنُّكتَةُ في المَجازِ هَهُنا: بَيانُ المبالغَةِ في تطهيرِ دواخِلِهِم، حتَّى إنَّ التَّطهيرَ تجاوزَ محلَّهُ إلى ما جاورَهُ.

وأمَّا إذا أُريدَ بالصُّدُورِ ما يعتريها منَ الانشراحِ والانقِباضِ، فإنَّها تكونُ قد أتَتْ على بابِها، واستُعمِلَت في حقيقةِ معناها؛ فإنَّ وجودَ الغِلِّ سببُ الانقباضِ، ونزعَه سببُ الانشراحِ، وهذا هو الأوفقُ بعمودِ البلاغةِ، وهو ما يقتضيه السِّياقُ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بوصْفِ الأنهارِ بالجَرَيانِ:

تصويرُ جمالِ الجَنَّةِ بجمالِ أنهارِها بالمجازِ

وَصفُ الأَنهارِ بِجَري مِياهِها يُراد به المدحُ؛ وذلك لأنَّ أَحسَنَ المياهِ ما كانَ جارِيًا؛ لأنَّ ذلك يَقتَضِي كونَه جَدِيدًا كلَّما اغتُرِفَ أوِ اغتُسِلَ منه.

وَأصلُ الجَري: شِدَّةُ سُرعةِ المَشيِ، وإطلاقُهُ على سَيلان الماء سَيلًا مُتكرِّرًا مُتَعَاقِبًا: مَجازٌ[1]، وفيه مَسلَكانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بالاستِعارَةِ؛ ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلان الماءِ سَيلًا مُتَكرِّرًا مُتعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشيِ؛ لجامِعِ سُرعة الانتقال والحركةِ في كلٍّ منهُما، فيكونُ منَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييدِ، فأصلُ الجري: شدَّةُ سُرعة المشيِ، ثُمَّ أُطلِقَ عَن قَيْدِ المشي، واستُعمِلَ في شِدَّةِ السُّرعةِ مُطلَقًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.

وهو على كلا الوَجهَين أدخَلُ في مَدحِ الماءِ الجاري؛ لاقتِضائهِ المُبَالغةَ في جِدَّتِه بشدَّةِ جَريِه.

بَلاغةُ المَجازِ العَقليِّ في الآيةِ:

وَفرَةُ مِياهِ أنهارِ الجنَّةِ وكَثرَتُها وقُوَّةُ جَرَيانِها

إسنادُ الجري للأنهارِ في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذِ النَّهرُ في الأصلِ هو الشَّقُّ في الأرضِ، وهو لا يَجري، وإنَّما يجري الماءُ الّذي فيه[1]، فعلاقَةُ المجازِ مكانيَّةٌ، وفائدةُ المجازِ هَهنا: التَّنبيهُ على وَفرَةِ المِياهِ الجاريةِ وكَثرَتِها، حتَّى كأنَّ نفسَ المكانِ يَجري.

معنَى اللَّامِ في كلِمةِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾:

الأنهارُ في الجنَّةِ لا تُحيطُ بها الأوهامُ، ولا تبلُغها الأفهامُ

اللَّامُ في الأنهَارِ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ لِتَعريفِ الجنسِ، فيكون في قوَّةِ النَّكرةِ.

ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ للعَهدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمَّا ذُكرتِ الجنَّةُ في الآيَةِ قبلُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ استَحضَرَ السَّامعُ لَوازِمَها ومقارناتِها؛ فساغَ لِلمُتَكلِّم أن يُشيرَ إلى ذلك المعهودِ، فَجيء باللَّام.

ويجوزُ أن تكون لِلعَهدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيه إلى قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمّد: 15].

وجميعُ ما يَرِدُ من معانٍ في تعريفِ الأنهارِ يبقى محمولًا على التَّقريبِ الذِّهنيِّ، فإنَّ الجنَّةَ غَيبٌ، بقصدِ التَّرغيبِ وتحريكِ الهِمَمِ؛ لنيلِ رضوانِ اللهِ والفوز بجنَّته.

بَراعَةُ الكِنايَةِ في الآيةِ:

رِفعَةُ أهلِ الجنَّةِ مَكانَةً ومَكانًا

في ذِكرِ جَريِ الأنهَار من تحتِ أهلِ الجنَّةِ في قَولِه تعالى:

---

(1) الجرجانّي، درج الدّرر في تفسير الآي والسّور: 1/124، والهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرَّيْحان: 18/290.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ كنايَةٌ إلى عُلُوِّهِم[1]، وعُلُوُّهم مكانًا مُشعِرٌ بعلُوِّهم قَدْرًا.

معنَى اللّامِ في كلِمةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

ما مِنْ خيرٍ ونِعمَةٍ إلَّا كانَ اللهُ ﷻ مُولِيَها

اللّامُ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاستِغراقِ؛ أي: أنَّ جميعَ المحامِدِ للّه تعالى، وهو القولُ الصَّحيحُ، وذلك أنَّ الحمدَ حقيقةً للّهِ وحدَهُ؛ إذ ما من خيرٍ ونعمةٍ إلّا كان اللّهُ سُبحانَهُ مُولِيَها مباشرةً أو بواسطةٍ، وفي هذا اليوم يستحضِرُ أهلُ الجنَّةِ الحمدَ بجميعِ أفرادِه تَكرارًا وتذكارًا.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالحَمْدِ دُونَ الشُّكْرِ والمَدحِ:

الحَمدُ مُتَضَمِّنٌ الحُبَّ والتَّعظِيمَ

اختيرَ لفظُ الحَمد دونَ الشُّكرِ؛ لكون الحَمدِ يعُمَّ الفضائلَ والفواصِلَ، بخلاف الشُّكرِ؛ فإنَّه خاصٌّ بالفواصل، فأُوثِرَ اللَّفظُ الأَعَمُّ.

وجاءَ التَّعبيرُ بالحَمدِ دون المَدحِ، مع أنَّ المدحَ أَعَمُّ؛ لكونِه قَد يَعرَى عَنِ المحبَّة والتَّعظيم، والأبلَغُ في الثَّناءِ اختيارُ اللَّفظِ الّذي يكون نصًّا في الحبِّ والتَّعظيم؛ وذلك هو لفظُ الحَمدِ.

نِكاتُ إيثارِ الجُملَةِ الاسمِيَّةِ على الفعلِيَّةِ:

استِحقاقُ اللهِ تعالى الحَمدَ قَبلَ أن يَحمدَهُ الخَلْقُ

جملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جُملةٌ اسميةٌ، وأُوثِرَت على الجُملة الفِعليَّة (نَحمَدُ اللّه)؛ لنِكَاتٍ:

أوَّلُها: أنَّ جملةَ (نَحمَدُ اللّهَ) يُوهِمُ أنَّ قائلِيهَا قادرُونَ على تَوفِيَةِ الحَمدِ حقَّهُ، بخلافِ (الحَمدُ للّه)؛ فإنّه يُفيدُ استحقاقَ اللّهِ تعالى الحَمدَ قَبلَ أن يحَمدَهُ الخَلقُ.

ثانيها: أنَّ جملةَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ دالَّةٌ على استِحقاقِ اللّهِ سُبحانَهُ الحَمدَ، بخلاف جملةِ (نَحمَدُ اللّه)؛ فلا يدُلُّ على ذلك، واللَّفظُ الدَّالُّ على استحقاق اللّه تعالى الحَمدَ أَولَى مِنَ اللَّفظِ الدّالِّ على حَمدِ الأفرادِ لَهُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/402.

ثالثُها: أنَّ جملةَ (نَحمَدُ اللّه) إخبارٌ مِنَ العبادِ بأنّهم حامِدُونَ، وحقيقةُ الحمد ملازِمٌ لِلتَّعظيم، فالمُتَلفِّظ بـ(نَحمد اللّه) مُدَّعٍ أنَّ قلبَهُ مُعَظِّمٌ للّه تعالى، فإنْ كان غافلًا عِندَ التَّلفُّظِ؛ كان في كلامِه نَوعُ كَذِبٍ، بخلاف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهو صِدقٌ بكُلِّ حالٍ.

رابُعَها: أنَّ في جملةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مِنَ الاستِغراق لأنواع المَحامِدِ ما لَيسَ في (نَحمد اللّه).

خامسُها: أنَّ جملةَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، وهي دالَّةٌ على الثُّبوت والاستمرار بالقرائن، بخلاف جملة (نَحمد اللّه)؛ فإنَّها جملةٌ فعليَّةٌ تَدُلُّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ، والثُّبوتُ والاستمرارُ أنسَبُ في مقام الثَّناءِ.

معنَى اللّامِ في ﴿لِلَّهِ﴾:

استِحقاقُ الحمدِ لله وحدَه

اللّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ مِنَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للاستِحقاق؛ وذلك لوقوعِهَا بينَ مَعنًى - وهو الحَمدُ - وذاتٍ - وهو اللّهُ سُبحانه -، وذلك يقتضِي كونَهَا للاستِحقاقِ[1].

نُكتَةُ اختِيارِ الاسْمِ الأَحسَنِ:

استِحقاقُ اللهِ تعالى الحَمدَ استِحقاقٌ ذاتِيٌّ

اختِير الاسمُ الأَحسَنُ (اللّه) مع الحَمدِ دون غيره مِنَ الأسماء؛ لكونِهِ بمفردِهِ دَالًّا على صِفاتِ الجَلالِ والجمالِ، ولِدلالة ذلك على استِحقاقِه الحمدَ لذاتِه؛ بخلاف ما لَو عُلِّقَ الحَمدُ على غَيرِهِ مِنَ الأسماء؛ فإنَّهُ قد يُتوهَّم اختِصاصُ الحَمدِ بِصفةٍ دُونَ أُخرَى؛ إذ إنَّ تَعليقَ حُكمٍ بلفظٍ مُشتَقٍّ مُشعِرٌ بِعلِّيَّةِ ما منه الاشتقاقُ[2].

سِرُّ الوَصْفِ بالاسْمِ المَوصول:

الهِدايَةُ سَبَبُ دُخولِ الجَنَّةِ

وُصِفَ الاسمُ الأحسَنُ (اللّه) بالاسم الموصولِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، لإرادةِ المَدحِ بما تضمَّنَتْهُ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.

(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/226.

الصِّلَةُ، وهو هدايةُ اللّهِ سُبحانَهُ؛ لِكَونِهَا سببًا لِما وصلَ إليهِ أهلُ الإيمانِ من نعيمِ الجنَّةِ.

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ:

هِدايَةُ اللهِ تعالى شامِلَةٌ للتَّوفيقِ والإرشادِ

الهِدايَةُ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ شاملةٌ لهدايةِ الدّلالةِ والإرشادِ، وهدايةِ التَّوفيقِ والإلهامِ، وإطلاقُ الهدايَةِ على ما وصلُوا إليهِ مِنَ النَّعيمِ الأُخرَوِيِّ مجازٌ مُرسَلٌ[1]، علاقَتُهُ السَّببيَّةِ؛ فإنَّ هدايةَ اللّهِ تعالى لَهُم سببٌ فِيما وَصَلوا إليهِ مِن هذا النَّعيمِ، استحضارًا لِفضلِ اللّهِ تعالى عليهم في الماضِي والحاضِرِ.

تَوجِيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ:

إثباتُ الواوِ بمعنى الحالِ، وحذفُها لِكمالِ الاتِّصالِ

قرأَ جمهورُ القرَّاءِ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ بالواوِ، وقَرَأَ ابنُ عامرٍ بِحَذفِها، وهو كذلك في مُصحَفِ أهلِ الشَّامِ[2]، فإثباتُ الواوِ على أنَّها واوُ الحالِ، وأمَّا حذفُهَا فعلَى أنَّ عِلَّةَ الفصلِ وقوعُ الجملةِ بيانًا لما قبلَها[3]، فبينَ الجُملَتَينِ كَمالُ الاتِّصالِ.

نُكتَةُ إيجازِ الحَذْفِ:

ظُهورُ الحقائقِ دَليلٌ على ظُهورِ الرَّقائقِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الهدايةِ في ﴿لِنَهۡتَدِيَ﴾ و﴿هَدَىٰنَا﴾، فلم يُذكَرْ أيُّ شيءٍ هُدُوا إليه؛ لظهُورِ المَعنَى من قَولِه تعالى عَنهُم: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، فالمعنَى: وما كنَّا لنهتدِيَ لهذا الجزاءِ في دُخولِ الجنَّةِ لَولا أن هَدانا اللّهُ لَهُ.

ويجوزُ أن يَكُونَ حذفُهُ إشعارًا بالعمومِ؛ لأنَّ حَذفَ المُتعلَّقِ مُؤذِنٌ بذَلِكَ، والمَعنَى: وما كنَّا لنهتدِيَ لأيِّ خيرٍ حصَّلناهُ في الدُّنيا أو خيرٍ وجدنَاهُ في الآخرةِ لَولا أن هَدانَا اللّهُ تعالى له[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403.

(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/269.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/229.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/229.

تعليقُ الهدايةِ بالله لأنَّه الموفِّقُ وحدَه

دَلالَةُ حَذْفِ الجوابِ:

﴿لَوۡلَآ﴾ من قَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّعليقِ، فهو في التَّعليق كأدواتِ الشَّرطِ، وجوابُهَا محذوفٌ، دلَّ عليه قولُه قَبلُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ﴾، والتَّقدير: لولا أن هَدانَا اللهُ ما كُنَّا لِنَهتَدِيَ، أو: لَولا أَن هَداناَ اللهُ لَضَلَلۡنَا(1).

إظهارُ أَهلِ الجَنَّةِ سُرُورَهُم بِما نَالُوهُ مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ

بَلاغَةُ المَجازِ المُرَكَّبِ:

مَقالَةُ أَهلِ الجنَّة التي ذَكَرَها اللهُ سُبحانَهُ عَنهُم بِقَولِه ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ لا يُرادُ بها فائدَةُ الخَبَرِ ولا لازِمُها، وإنَّما الخبرُ هَهُنا جارٍ على طَريقَةِ المجازِ المُرسَلِ المُرَكَّب، فهو دالٌّ على إظهارِ السُّرورِ بما نالُوه مِنَ النَّعيم، والتَّلذُّذِ بالتَّحدُّث به، ولا يُقصَدُ به التَّقرُّب والتّعبُّد؛ لكونِ الآخرةِ لَيسَت مَحَلًّا لذلك، ونظيرُ هذا مِنَ الأَحوالِ: مَن يُرزَقُ خيرًا في الدُّنيا؛ فإنَّه يتكلَّمُ بنحوِ هذا الكَلامِ، ولا يتمالَكُ أن لا يقولَهُ، بقصدِ إظهارِ الفرحِ لا لإرادَةِ القُربَةِ(2).

أهلُ الجنَّة يُثنون على الرُّسُلِ لِصِدقِ ما جاؤوا به

نُكتَةُ التَّأكِيدِ بلامِ القسَمِ و(قد):

أكِّدَت الجملَةُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ بلامِ القسَمِ وقَد، معَ أنَّهم ليسُوا مُنكِرينَ لمجيءِ الرُّسُلِ؛ لأحد وَجهَين(3):

أحدُهَما: أن يكُونَ ذلك كنايةً عن إعجابِهم بمطابقَةِ ما وعَدَتهُم به رسُلُ اللهِ تعالَى مِنَ النَّعيم.

والآخَرُ: أنَّ مرادَهُم الثَّناءُ على الرُّسُلِ وصِدقِهم؛ ليكُونَ ذلك مقرونًا بحَمدِ اللهِ سُبحانَهُ والثَّناءِ عليه، فجاؤُوا بالخَبَرِ في صورة الشَّهادَةِ المؤكَّدَةِ الخاليَةِ مِنَ التَّردُّدِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/54.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/360.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/133.

دَلالَةُ الإضافَةِ في ﴿رَبِّنَا﴾:

إرسالُ الرُّسُلِ مِن مُقتَضَياتِ الرُّبُوبِيَّة

أُضيفَتِ الرُّسلُ إلى الاسمِ الأحسَنِ (الرَّبِّ) في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ تعظيمًا للمُضافِ، وهُمُ الرُّسُلُ، وإشعارًا بأنَّ إرسالَهُم إلى الخَلقِ هو مِن مُقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ الدَّالَّةِ على الإحسانِ والإنعامِ إلى الخَلقِ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالرُّبُوبِيَّةِ:

الإشعارُ بإحسانِ الرَّبِّ إلى خَلْقِهِ

في التَّعبيرِ باسمِ اللّٰهِ تعالى (الرَّبِّ) في قَولِهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ إشعارٌ بإحسانِه تعالى إليهِم بإرسالِ الرُّسُلِ إلَيهِم؛ لأنَّ اسمَ الرَّبِّ دالٌّ على تربيَتِهِ خلقَهُ بالنِّعَمِ وإحسانِهِ إليهِم[1].

دَلالَةُ الباءِ في ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

الباءُ بين التَّعدِيَةِ والمُلابَسةِ

البَاءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ مِن قولِ اللّٰه تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ للتَّعدية، وتكُون مُتعلِّقةً بالفِعلِ ﴿جَآءَتۡ﴾، ويجُوزُ أن تَكُونَ للمُلابَسَةِ، وبِناءً عليه فهيَ مُتعلِّقةٌ بمقدَّرٍ هو حالٌ من ﴿رُسُلُ﴾، والمعنى: واللّٰهِ لَقَد جاءَت رُسُلُ ربِّنا، وهُم حالَ مَجيئِهم قَد جَاؤُوا بالحقِّ[2].

سِرُّ بِنَاءِ الفِعْلِ ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ للمَفعولِ:

إدخالُ الفَرَحِ والسُّرُورِ على أَهلِ الجَنَّةِ

لَمَّا كان المقصودُ إدخالَ الفرَحِ والسُّرورِ على أَهلِ الجنَّةِ، وكان هذا مُتحقِّقًا بِمُطلَقِ الإخبارِ عَنِ الإيراثِ لا كَونه صادرًا من معيَّنٍ؛ بُنِيَ الفعل ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ للمفعولِ[3]، ولبيانِ أنَّ الالتفاتَ كانَ للنِّداءِ، وما في مضمونه من معنًى.

والنِّداءُ في قَولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، يحتَمِلُ وَجهَين[4]:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/229.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/244، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/54، والآلوسّي، روح المعاني: 4/361.

أَحَدُهُما: أن يَكونَ صادِرًا مِنَ اللهِ ﷻ، وهو أدخلُ في سُرورِ قلوبِهِم، وأبيَنُ في رِفعَةِ قَدرِهم.

والآخرُ: أن يَكُونَ النِّداءُ صادرًا مِنَ الملائكَةِ.

واختارَ الأَوَّلَ الرَّازيُّ وأبو حيَّان، بالنَّظر إلى المعنَى، واختارَ الثَّاني الآلوسيُّ بالنَّظَرِ إلى الآثَارِ.

ولا مانِعَ مِنَ الجمعِ بَينَ القولَينِ، بأَن يَكونَ نداؤُهم مُتكرِّرًا؛ مبالغةً في إظهارِ شرفِهِم، وزيادةً في تَذكِيرِهِم بِعَظيمِ فَضلِ اللّٰهِ تعالى عليهم.

معنَى ﴿أَن﴾:

تَفسِيرُ النِّداءِ وبَيانُ شَأنِهِ

﴿أَن﴾ مِن قَولِ اللهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ يَجوزُ أن تَكونَ تَفسيريَّةً؛ وذلِكَ لِوُرُودِها بعدَ فِعلٍ اشتمَلَ على مَعنَى القَولِ دُون حروفِهِ وهو ﴿وَنُودُوٓاْ﴾، ويَجوز أن تَكونَ ﴿أَن﴾ مُخفَّفةً مِنَ الثَّقيلَةِ، ويكُونَ اسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفًا، والتَّقديرُ: أنَّه - أي: الشَّأنُ والحالُ - تِلكُمُ الجنَّةُ أُورِثتُموها.

دَلالَةُ اسْمِ الإشارَةِ ﴿تِلۡكُمُ﴾:

تَعظِيمُ المِنَّةِ بالجَنَّةِ، وتَعجِيلُ البِشارَةِ لأَهلِ الإيمانِ بها

اسمُ الإشارةِ ﴿تِلۡكُمُ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ دالٌّ على البُعدِ، وفي ذلك ثلاثةُ مسالِكَ[1]:

أَحَدُها: أن يكونَ ذلك إشعارًا بِرِفعَةِ مَنزِلَتِهَا وبُعدِ مَرتَبتِها، وتَعظِيم المنَّة بها.

ثانيها: أنَّ ذلكَ لِكَونِهم قد نُودُوا عِندَ رُؤيَتِهِم إيَّاها مِن مَكانٍ بعيدٍ؛ تَعجِيلًا لِلبِشارَةِ لَهُم.

ثالثُها: أنَّ في ذلِك إيماءً إلى أنَّها تِلكَ الجنَّةُ الّتي قَد وُعِدُوها في الدُّنيا.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/244، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/121، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/361، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/134.

معنَى اللَّامِ في لَفْظِ ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ مِن قَولِهِ تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ يجوزُ أن تكون للعَهدِ العِلميِّ، إذا كان قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ إشعارًا بأنَّها الجنَّةُ الّتي قَد وُعِدُوها في الدُّنيا، والمعنَى: الجنَّةُ الّتي وُعِدتُم بها هذه هيَ أمامَكُم؛ قد صدَقَكم اللّهُ وعدَهُ بها.

ويَجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ للعَهدِ الحضُوريِّ؛ أي: هذه الجنَّةُ الحاضرَةُ أمامَكُم تعايِنُونَها.

صِدْقُ اللهِ تعالى وَعدَهُ لِعِبادِهِ، وَمَنْ أَصدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا

بَلاغةُ القَصرِ في الآيةِ:

قولُ اللّه تعالى: ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ يجُوزُ أن يكونَ مبتدأً وخبرًا، ويحتَمِلُ أن يَكُونَ ﴿تِلۡكُمُ﴾ مبتدَأً و﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ بدلًا، والخَبَرُ هو قولُه بعدُ: ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾[1].

جَلالُ أَوْصافِ الجَنَّةِ وكَمالُ نَعِيمِها

وعلى الوَجهِ الأوَّلِ يَكونُ في قَولِه: ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ أُسلوبُ قَصرٍ بتَعرِيفِ جُزأَيِ الجُملَةِ، فَقُصِرَتِ الجنَّةُ على المُشارِ إليه؛ لأنَّ المَقصورَ بتَعريفِ طرفَيِ الإسنادِ هو المُعرَّفُ باللّامِ، سواءٌ تقدَّمَ أو تأخَّرَ، وهذا القصرُ حقيقِيٌّ ادِّعائيٌّ، والقصدُ منه المُبالَغَةُ في استِحقاقِ المُشارِ إليهِ اسمَ الجنَّةِ، حتَّى كأنَّ ما عداهَا مِمَّا يُطلَقُ عليه اسمُ الجنَّةِ ليسَ جنَّةً على جهةِ الحقيقَةِ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالإرْثِ:

أَصلُ الإِرثِ: مَصِيرُ مالِ الميِّتِ إلى أقربِ النَّاسِ إليهِ بسَبَبٍ أو نسَبٍ، ويُطلَقُ مجازًا على مصيرِ شيءٍ إلى أَحَدٍ من غيرِ عِوَضٍ ولا غصْبٍ؛ تشبيهًا له بإرثِ الميِّتِ، وهو المعنى المرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾، ففي الآيةِ مَجازٌ بالاستِعارةِ،

العَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبٌ لِنَعيمِ الجَنَّةِ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ تعالى ومَنِّهِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/229.

والنُّكتةُ فيها: الإيماءُ إلى أنَّهم أُعطُوا الجنَّةَ عطيَّةً هنِيَّةً لا تعبَ فِيها ولا مُنازَعةَ[1]، وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ هو الّذي جَعَلَ ذلِكَ النَّعيمَ عطاءً لِلعَمَلِ، فليسَ العمَلُ وحدَهُ مُنتِجًا العطَاءَ، وإنَّما العمَلُ سَبَبٌ لجعلِ النَّعيمِ مِيرَاثًا لهُ، والفضلُ في جميعِ الأحوالِ للّه سُبحانَهُ[2].

معنَى الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

الباءُ للسَّببيَّةِ لا للعِوَضِ

الباءُ في قَولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ سببيَّةٌ[3]؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ جعلَ العمَلَ سببًا لِدُخولِ الجنَّةِ، ولَيسَتِ الباءُ لِلعِوَضِ؛ لأنَّ ثوابَ اللّهِ تعالى أعظَمُ مِن أن يَكونَ شيءٌ مِن أعمالِ العِبادِ عِوَضًا عنه، ويدلُّ لذلك صَراحةً قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لا يَدخُلُ أَحَدٌ منكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِه»، قالوا: ولا أَنتَ يا رَسولَ اللّهِ؟ قالَ: «ولا أَنَا، إلَّا أَن يَتَغَمَّدَنيَ اللّهُ منه بِرَحمَةٍ وفَضلٍ»[4].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ مَعَ المُضارِعِ ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

دَوامُ أَهلِ الإيمانِ على العَمَلِ الصَّالِحِ حتَّى صارَ طَبْعًا لَهُم

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مقرونًا بفعلِ الكَونِ في قَولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للإيماءِ إلى دَوامِ عَمَلِهِم الصَّالِحِ واستمرَارِهِم عليه.

وانضَمَّ إلى دِلالَةِ ﴿كُنتُمۡ﴾ على الدَّوامِ والاستمرارِ: الإتيانُ بالفِعلِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بِصيغَةِ المُضارِعِ؛ فأفادَ مَجموعُ ذلك: أنَّهم مُداوِمونَ على العمَلِ الصَّالحِ، مُستَمِرُّونَ فيه، وأنَّ ذلكَ أمرٌ مُتجَدِّدٌ فِيهِم، حتَّى صارَ طَبعًا وجِبِلَّةً لَهُم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403، والآلوسّي، روح المعاني: 4/361، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/134.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2844.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403.

(4) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (7479)، والبخاريّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (6463)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2816)، واللَّفظُ لأحمدَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفُؤَادُ والصَّدرُ:

الفؤادُ للمعاني اللّطيفةِ، والقلبُ للنّعوتِ الحصيفةِ، والصّدرُ للأفعالِ المُنيفةِ

تَرِدُ هذهِ الألفاظُ في القرآنِ الكَريمِ لِلدّلالَةِ على مَعانٍ، مِنها: الدّلالةُ على مَواطنِ كَسبِ الخَيرِ والشَّرِّ، والشّعور والتّعقّل، والتّأثُّرِ بالعقائدِ والأفكار.

فالفُؤادُ: ألطفُ ما في الجسَدِ على الإطلاقِ، ولذا يُعبَّرُ بهِ عَن جميعِ البدَنِ؛ لكونِه أشرفَ ما فيهِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: 37]، وهو أشدُّ تألُّمًا بأدنى أذًى يلحقُهُ.

أمَّا القلبُ فليسَ مَدارُ الحدِيثِ عنه في القُرآنِ الكَريمِ مِن حيثُ رِقّتُهُ وسُرعةُ تأثُّرِهِ بما يطرَأُ عليه، بل يَرِدُ وصفُهُ بالقسَاوةِ وضدِّهَا، كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 22]، وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 23].

فالقلْبُ مَوطنُ القُوَّةِ والجلَدِ، ولذا يُعَبَّرُ به في المواطِنِ الدّالَّةِ على القوَّةِ والتَّعقُّلِ.

أمَّا الصَّدرُ فيُستعمَلُ في مَواطِنِ الانقباضِ والانبساطِ، فالصَّدرُ قد يتأثَّر، فينشرِحُ للمُؤثِّر أو يضيقُ، ولكنَّه لا يصلُ إلى فَرطِ تأثُّرِ الفؤادِ من حيثُ فراغُهُ وخلاؤُهُ، وضيقُ الصَّدرِ حاصِلٌ من حيثُ كونُهُ مَكمَنَ القُوَى النَّفسيَّةِ، مِنَ الشَّهوَةِ والهَوى والغضبِ، فيضيقُ الصَّدرُ باتِّباعِهَا على وَجهِ الاسترسالِ، وينشَرِحُ بِمُخالفتِها إيثارًا لِلحَقِّ[1].

(1) محمّد ياس خضر الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنّي، ص: 106 - 112.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اعـتراف أهـلِ الجنّةِ بالنّعيم المُستحَقّ، وإقرارهم مع أهلِ النّارِ بأنّ وعْدَ الله حقٌّ

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآياتِ السّابقة الجزاءَ المُعدَّ للكافرين والثَّوابَ المُعدَّ للمؤمنين؛ جاءت هذه الآيةُ لتذكرَ طرفًا ممّا يكونُ بينهم من حواراتٍ ومناظراتٍ بعد استقرار كلِّ فريقٍ منهم في داره.

وممّا يُذكر في المناسبة ما ذكرَ اللّهُ تعالى عن استقرارِ أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وما حصَّلوه فيها مِنَ النَّعيمِ الدّائم في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الأعراف: 42 - 43]؛ أخبرَ ﷻ في هذه الآية أنَّهم أقبَلوا على أهلِ النّارِ موبِّخينَ لَهُم، شامِتين بهم في إحلالِهم دارَ الهلاكِ؛ زيادةً في التّلذُّذِ بما هم فيهِ مِنَ النَّعيمِ، وزيادَةً في التَّكديرِ على الأشقياءِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَادَىٰٓ﴾: النّونُ والدّالُ والحرف المعتَلّ تدورُ تصريفاتُهُ على بُعْدِ مَدَى ما يَبْلُغه الشَّيْءُ ارْتِفاعًا أو انْفِصالًا، ومنه امْتِدادُ النَّباتِ والدُّعاءِ[2]، ومِنْ هذا قولُهم: فلانٌ أندَى صوتًا مِنْ فلان، أيْ: أبْعَدُ مَذْهبًا، وأرْفَعُ صَوْتًا[3]، والنِّداءُ: بُعْدُ مَدَى الصَّوْتِ[4]، ويُرادُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/404.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ندو، ندي).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (ندا).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (دنو، ندو).

به الخِطابُ المقرونُ برفْعِ الصَّوْتِ به[1]، وهو المرادُ في قَولِهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾.

2) ﴿فَأَذَّنَ﴾: الهمزةُ والذّالُ والنّونُ تدلُّ كثيرٌ مِن اشتقاقاتِهِ على معنى العِلْمِ[2]، والتَّأْذينُ: الإِعْلامُ[3]، ومنه الأذانُ الشَّرْعيُّ؛ إذْ هو الإعْلامُ بِدُخولِ وقتِ الصَّلاةِ بألفاظٍ مخصوصَةٍ[4]، يُقال: أُذِّنَ بالصَّلاةِ، أي: أُعْلِمَ بها[5]. والمعنى المُرادُ في الآيةِ: فنادى مُنادٍ.

3) ﴿لَّعۡنَةُ﴾: اللّامُ والعينُ والنّونُ تدلُّ على نَفْيٍ أو طَردٍ وإبعادٍ مِنَ الحيِّزِ بتَخْويفٍ وذعْرٍ؛ لعدم قَبولِ القُربِ[6]. وقولُ القائلِ: لَعَنَهُ اللّهُ، يُريدُ: طَردَه اللّهُ عنه، وباعَدَهُ منه، ونحوَ ذلك[7]، واللَّعْنَةُ في العُرْفِ الشَّرعيِّ: الطَّردُ والإبعادُ عَن رحمةِ اللّهِ تعالى[8]، وهو المعنى المُرادُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

4) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الظّاء واللّامُ والميمُ تدورُ تصريفاتُها على حَجْبِ ما يَنْبَغي أو ما يَسْتَحِقُّ، أي: مَنْعُه أو انْتِقاصُه[9]. ومنه الظَّلامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَةَ، والأرضُ المَظْلومةُ: التي لَم يَنَلْها المطرُ[10]، والظُّلم: وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمّا بنُقْصانٍ أو بِزِيادَةٍ، وإمّا بِعُدولٍ عَنْ وقْتِه أو مكانِه[11].

والظّالِمونَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هُمُ المشركونَ الكافرونَ الصّادّون عن سبيلِ اللّهِ تعالى، وإنَّما سُمّيَ المُشْرِكُ ظالمًا؛ لأنَّهُ وضَعَ العبادَةَ في غيرِ مَنْ خلَقَ[12]، وسُمّيَ الكافِرُ ظالمًا؛ لأنَّهُ وضَعَ الكُفْرَ مَوْضِعَ الإيمانِ[13].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (أذن).
(4) النّفراوي، الفواكه الدّواني: 1/171.
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (أذن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (لعن).
(7) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 27.
(8) الشّنقيطي، العذب النّمير: 5/626.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ظلم).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ظلم)، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(12) الشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/82.
(13) العُلَيميُّ، فتح الرَّحمن: 1/478.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

ونادَى أهلُ الجنَّة أهلَ النّار بَعْدَ دخولِ كلٍّ في محلِّه: يا أهلَ النّارِ؟ قد وجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا حقًّا في الدُّنيا على ألْسُنِ رُسُلِه مِنَ الثَّواب على الإيمانِ به وبِهِمْ، وعلَى طاعَتِه، فهَلْ وجَدْتم ما وعَدَنا رَبُّكُم على ألْسِنَتِهم على الكُفْرِ به وعلَى معاصيه مِنَ العِقابِ؟ فأجابَهُم أهْلُ النّارِ بأنْ نَعَمْ، قد وجَدْنا ما وعَدَ رَبُّنا حَقًّا، فنادَى مُنادٍ بصوتٍ عالٍ بين أصحاب الجنة وأصحاب النّار، بأنَّ لعنةَ اللّه وسَخَطَهُ وعُقوبَتَهُ على الظّالِمينَ الذينَ تَجاوَزوا حُدودَهُ، وكَفَروا بِهِ وبِرُسُلِه[1].

الحِوار بين أهلِ الجنّةِ وأهلِ النّارِ، وإقْرار كلِّ طَرَفٍ بحالِه مِنَ النّعيمِ أوِ العَذابِ

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ هذا النداءَ من أهل الجنةِ لأهلِ النار تقريعٌ، وتوبيخٌ، وزيادةٌ في الكرب.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ بِما قَبْلَهُ:

قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، مَعْطوفٌ على قولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43] من بابِ عطْفِ القولِ على القَوْلِ؛ إذْ قَدْ حُكِيَ قولُهُم الدّالُّ على بَهْجَتِهِم بما هُم فيه مِنَ النَّعيم، ثُمَّ حُكِيَ قَوْلُهم لأهل النّارِ حينَما يَرَوْنَهم، وبهذا التَّقرير يَكونُ بين الجُمْلَتَيْنِ توسُّطٌ بين الكَمالَيْنِ؛ لاشتراكِهما في الخَبَرِيَّة، وبينَهُما تناسُبٌ مِنْ وجْهَيْنِ: **أحَدُهُما:** لَفْظِيٌّ، وهو اشْتِراكُ الجُمْلَتَيْنِ في الفِعْلِيَّةِ والماضويَّةِ؛ فكلٌّ منهما جملةٌ فعليَّةٌ، صُدِّرت بفِعْلٍ ماضٍ.

اسْتِبْشارُ أَهْلِ الجَنَّةِ بِما هُمْ فِيهِ، وَشَماتَتُهُمْ بِما عَلَيْهِ أَعْداؤُهُمْ

والآخَرُ: مَعْنَوِيٌّ، وهو اشتراكُهُما في الحديثِ عن مقالَةِ أهْلِ الجنَّةِ؛ استبشارًا بما هُم فيه، وشماتَةً بما عليهِ أعداؤُهم مِنَ الكَفَرَةِ.

ويَجوزُ أن يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/445 - 447، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

﴿ٱلنَّارِ﴾، معطوفًا على قولِه: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ [الأعراف: 43] من عَطْفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ، وذلك بمناسبَةِ الانتقالِ مِنْ ذكْرِ نداءِ اللّهِ تعالى إلى ذِكْرِ مناداةِ أهلِ الآخرَةِ بعضِهم بعضًا[1].

سِرُّ التّعبير عنِ الخِطابِ بالنِّداءِ في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

شِـدَّةُ التَّبايُنِ بَـيْنَ مَـنـازِلِ أَهْـلِ الإيمـانِ، وَدَرَكـاتِ أَهْـلِ الكُفْرانِ

النِّداءُ الوارِدُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، خطابٌ من أصحابِ الجنَّةِ، وقد جاءَ التَّعبيرُ عنْ هذا الخِطابِ بالنِّداءِ كنايةً عن بلوغِه إلى أسماعِ أصحابِ النّارِ مِن مسافةٍ شديدَةِ البُعْدِ، وذلكَ أنَّ سعةَ الجنَّةِ وسعةَ النّار تقتَضيانِ ذلك، ووسيلَةُ بلوغِ هذا الخِطابِ من الجنَّةِ إلى أسماعِ أصحابِ النّارِ وسيلَةٌ عجيبَةٌ غيرُ متعارَفَةٍ، وهي مِن أحوالِ الغَيْبِ الواجِبِ الإيمانُ بها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُناداةِ ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ دونَ القولِ (وقال):

مَـعْـرِفَـةُ أهـلِ الـجـنَّـةِ بقيمةِ نَـعـيـمِـهـا، ومَـنـاظِـرِهـا الآسِرة، سَعادةٌ غامرةٌ

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، عبَّر فيه بالمناداةِ دون القول؛ لأنَّ النِّداءَ أعمُّ، فيشملُ القولَ وغيرَه، ولأنَّ النِّداءَ يحملُ معنى المخاطبةِ بين الفريقين؛ بخلافِ القول، فقد يكونُ خطابًا وغيبةً، وقد يكونُ كلامًا نفسيًّا، كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: 8]، وهذا غيرُ مناسبٍ في هذا المشهَدِ؛ لبُعدِ المسافة بين الفريقين.

وفيه إشارةٌ علميَّة إلى إمكانيَّة التَّحدُّث والتَّخاطب عن بُعدٍ؛ لأنَّ المسافةَ بين الجنَّة والنّار بعيدةٌ.

وفيه إشارةٌ إلى فضحِ الكافرين على رُؤوسِ الأشهاد بأسلوبِ المُناداة، ولا يتأتَّى ذلك مِنَ القولِ، وفيه دلالةٌ على بُلُوغ النِّداء إلى أسماعِ أصحابِ النّار من مسافةٍ بعيدةٍ؛ لأنَّ قَعْرَ جهنَّم بعيدٌ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/135.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.

وفيه إشارةٌ إلى بُعد المسافةِ بين الجنَّة والنّار، وذلك لأنّ سَعَةِ الجنَّةِ من جهةٍ، والنّارِ من جهةٍ أخرى يقتَضي بُعْدَ المسافة.

دلالة التَّعْبِيرِ بِالماضِي في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

المُناداةُ المَذْكورَةُ في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ مستقبَلَةٌ؛ لكونِها من أحْوال الآخرَةِ، إلّا أنَّه جاءَ التَّعبير عَنْها بالفعلِ الماضي، دون التَّعبيرِ بالمُضارع - على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ - للدَّلالَةِ على تَحَقُّقِ وقوعِه، وأنَّ هذا النِّداءَ ممّا لا بُدَّ أن يكونَ[1].

أَحْـوالُ الآخِـرَةِ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ الواجِبِ الإيمانُ بِـهـا، والـيـقـينُ بِصِدْقِها

سِرُّ التَّعبير بلفْظِ ﴿أَصْحَٰبُ﴾، دونَ (الأهل) مع الجنَّةِ والنّارِ:

في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بلفظِ (الأصحاب) مع الفريقينَ دون غيرِه؛ لأنَّه مأخوذٌ من مادَّة (صَحِبَ) الَّتي تدلُّ على المُقارنةِ والملازمة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ فريقٍ تحقَّق فيه ذلك؛ فأصحابُ الجنَّة لازمتهم الجنَّة وصحبتَهُم، وكذلك مع أصحابِ النّار، ولكنَّ هذه الصُّحبةَ قد لا تكونُ دائمة؛ لأنَّ الدَّوامَ يَعني عدمَ الانقطاعِ، وعلى ذلك فالصُّحبَةُ تقتضي نوعًا منَ الملازمةِ بين الطَّرفين؛ فكلُّ طرفٍ يتجاذبُ مع مَسْكَنِه.

الـصُّـحـبـةُ أعـمُّ مِنَ الأهلِ، ورُبّ أخٍ لك لم تَلِدْهُ أمُّكَ

وممّا يؤكِّد أنَّ الصُّحبةَ لا تقتَضي الدَّوام وحدَها، استعمالُ القرآنِ الكريم للفظِ الخُلود مع أصحاب الجنَّة وأصحاب النّار؛ بخلافِ لفظ (الأهل) فهو أخصُّ منَ الصَّحْب، ولذلك يُعَبَّرُ بأهل الجنَّة لَمِن اختُصّوا بها، يؤكِّد ذلك الحديث الَّذي يقول: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ، نادى مُنادٍ يا أهلَ الجنَّة خلودٌ بلا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/402 - 403، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/55، والآلوسي، روح المعاني: 4/362.

موتٍ، ويا أهلَ النّار خُلودٌ بلا موتٍ»[1]، فالمُلاحظُ أنَّ لفظ (الأهل) يأتي بعد الصُّحبَة؛ لأنَّهُ أخصُّ منها.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ، في مُناداةِ أهلِ الجنّةِ وأهلِ النّارِ:

مِنْ بَراعَةِ البَيانِ القُرْآنِيِّ التَّعْبيرُ عَنْ كُلِّ فَريقٍ بِوَصْفِهِ المُخْتَصِّ بِهِ

قولُه ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، فيه إظهارٌ في موضِعِ الإضْمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ونادَوْا أصحابَ النّارِ)؛ لأنَّ أهلَ الجَنَّةِ ذُكروا في الآيةِ قبلُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وعُدِلَ عنِ الإضْمارِ إلى التَّصريحِ بالاسْمِ الظّاهرِ؛ لنُكْتَتَيْنِ:

إحداهُما: أن يكونَ ذلكَ توطئَةً لذِكْرِ نداءِ أصحابِ الأعرافِ، ونداءِ أصحابِ النّارِ؛ ليُعبِّرَ عَنْ كلِّ فريقٍ بوَصْفِهِ المختصِّ به.

والأُخْرَى: أن يكونَ في ذَلِكَ تحسينٌ بالطِّباقِ؛ لمقابلَةِ أصحابِ الجنَّةِ بأصحابِ النّارِ[2].

بَلاغَةُ الطِّباقِ، بين لفْظَي: ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، و﴿ٱلنَّارِ﴾:

بَيانُ شَرَفِ الجَنَّةِ، وَشَرَفِ أَهْلِها، وَحَقارَةِ أَصْحابِ النّارِ

قول اللّه ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، فيه طباقٌ بينَ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، و﴿ٱلنَّارِ﴾، وفي ذلك إظهارٌ لشَرَفِ الجنَّةِ وشرفِ أهلِها، وعظيم منزلَتِها ومنزلةِ أهلِها، وبيانٌ لحقارَةِ أهلِ النّارِ؛ وذلك أنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ أو قُبْحَهُ ضِدُّهُ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ دونَ بعضِ أوصَافِها:

وصْفُ الجنَّةِ عَلَمٌ على درجاتِها، وإبانَةٌ عن رَونَقِها وبهائِها

في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ دونَ بعضِ أوصافِها؛ كأصحابِ النَّعيمِ ونحو ذلك؛ لأنَّ الجنَّة عَلَمٌ يندرجُ تحته كلُّ الأوصافِ والدَّرجات،

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6545)، مختصرًا، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (8911)، واللفظ له، وابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (187)، والنسائي، السنن الكبرى، الحديث رقم: (11234).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.

ولأنَّ المَقامَ هنا في انقسامِ النّاس إلى فريقين؛ أمّا الحديثُ عن الأوصافِ، فيأتي بعد دخولِ أهلِ الجنَّةِ الجنَّةَ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمُفردِ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾، دون الجمعِ أو المُثَنَّى:

المفردُ من صِيغِ العُمومِ، والمعنى مُرتبطٌ بالصِّيغةِ المتاحةِ في السِّياقِ

النّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريم يجدُ أنَّ لفظ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ جاءَ مفردًا ومُثنًّى وجمعًا، فإذا عُبِّرَ بالمُفرد كما هنا فالمرادُ بِهِ عَلَمٌ على دارِ الثَّواب كلِّها، وإذا جاء مُثنًّى كما في سورةِ الرَّحمنِ في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾؛ فالخطابُ - في سورة الرَّحمنِ - موجَّهٌ للإنس والجنِّ معًا، فكلٌّ منهما له جَنَّةٌ، وهناك أقوالٌ أخرى ذكرها الزَّمخشريُّ في الكشّافِ لمن أرادَ المزيد.

ولا يرِدُ على ذلك موضعُ سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: 32]، وما كان في بابها كما في قصَّة سبأ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ﴾ [سبأ: 15]؛ فالمرادُ بهما ما كانَ من بساتينِ الدنيا.

وأمّا التَّعبيرُ بالجمع في نحوِ قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [البقرة: 25]، وعبَّر بالجمعِ؛ لأنَّها مُشتملةٌ على جِنانٍ كثيرةٍ مُرتَّبةٍ على حسب استحقاقاتِ العاملين؛ لكلِّ طبقةٍ منهم جنَّةٌ من تلك الجنان.

ومما يلزم التَّنبيهُ عليه أنَّ ذلك مقصودٌ به ما كان في الآخرة؛ لأنَّه قد تردُ بعضُ الآياتِ بلفظ الجمع كما في قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ [الرَّعد: 4] الآية، فهذه في الدُّنيا.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإفرادِ في لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

النّارُ عَلَمٌ على نارِ العذابِ في الآخرةِ، لا نارِ الانتفاعِ في الدُّنيا

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، عبَّر فيه بالنّارِ بالإفراد دون الجمع، إمّا من باب الجنسِ على اعتبار أنَّ (أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾

للجنس، وعلى ذلك يندرج تحتها كلُّ دركاتها. ويجوز أن تكونَ للعهدِ، وينصرفُ الكلامُ إلى النّار المعهودةِ، والمعروفةِ بنار الآخرة، لا إلى نار الدُّنيا، كما في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: 71 - 72].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾:

على قدْرِ الجُرمِ يـأتي الـعَـذابُ، وبحجْمِ الذّنْبِ يُزْجَى العَذابُ

عبَّر القرآنُ الكريم بـ ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ دون (أصحابِ الجحيم) و(أصحاب السَّعيرِ) كما ورد في بعض الآياتِ؛ لأنَّ الموقفَ هنا يدورُ على انقسام النّاس أوَّلًا إلى أصحابِ جنَّةٍ وإلى أصحاب نار؛ أمّا دركاتُها؛ فتأتي وفقَ طبيعةِ المُعذَّبين، كلٌّ على قدرِ جُرمهِ، فمثلًا في قوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: 119] اختارَ لهم هذا الوصفَ؛ لأنَّهم لا يُرجى منهم خيرٌ، بأن يخرجوا من كفرِهم وضلالهم إلى الإيمانِ والانقياد؛ فهذا الصِّنفُ يناسبُه وصفُ الجحيم، الَّذي هو نارٌ على نارٍ، وجمرٌ على جمرٍ؛ جزاءً وفاقًا على كُفرِهم وعِنادِهم.

وأمّا لفظ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ كما في قوله: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 11]؛ فهو المناسبُ لهؤلاء الَّذين كفروا، وعاندوا بعد أن جاءهم النَّذيرُ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: 8 - 9] الآيات، فالملاحظُ أنَّهم كذَّبوا بالآيات الَّتي جاء بها الرَّسولُ، فناسبَ ذلك أن تُسَعَّر لهم النّارُ كما سَعَّروا وجوهَهم في وجه الرَّسول ﷺ.

دَلالةُ (أَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾:

جَمالُ العَطاءِ، يُؤدِّي إلى سُرعةِ الإعلانِ به

﴿أَن﴾ يُحتمل أن تكون تفسيريَّة للنِّداء، ويُحتمل أن تكونَ مخفَّفة منَ الثَّقيلة، واسمها ضميرُ الأمر والشَّأن، والجملةُ بعدَها خبرها(1).

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/325.

ومع تعدُّد أوجهِ الإعراب فيها إلّا أنَّها تشير إلى معنًى يُفهم من سياق الآية أنَّ الوجدان الَّذي نادى به أصحابُ الجنَّة قالوه حين رَأوه؛ فكأنَّ (أنْ) أشارت إلى الآنيَّةِ الَّتي قيل فيها: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾، ولو خَلَت الجُملةُ منها ما وُجدت إشارةٌ إلى الآنيَّةِ الزَّمنيَّة، وكان المعنى ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ يمكن أن يكون النِّداء بعد زمنٍ قصيرٍ من دخول الجنة أو زمنٍ طويل، لكنَّ بهجة النَّفس يُناسبها الإسراعُ بإعلانِ النعيم، فكانت ﴿أَن﴾ هيَ المُرشِّحة لهذا المعنى.

دَلالَةُ (قَدْ) فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا﴾:

مَـوْعُـودُ اللـهِ تَـعـالَى عِـبـادَهُ مُحقَّقُ الوُجُودِ، في كلّ العهودِ

﴿قَدۡ﴾ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّحقيق، وهو مؤكِّدٌ لِلْجُمْلَةِ الدّاخلِ عَلَيْها، وقد أفادَ دخولُهُ على الجُمْلَةِ المتقدِّمَةِ أنَّ موعودَ اللّهِ تعالى عبادَهُ محقَّقٌ وجودُهُ لا محالَةَ[1].

بَلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ المركّبِ:

المُـبْـتـلَى تَـزْدادُ حَـسَـرَاتُـهُ، وتَـتَـلاحَـقُ زفَراتُه، إذا رَأَى أَهْـلَ الـتَّـنَـعُّـمِ والرَّفاهِيةِ

قولُ اللّه ﷻ حكايةً عن أهلِ الجنَّةِ قولَهم: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، لا يُرادُ بها فائدَةُ الخبَرِ ولا لازمُها، بل خَرَجَت عَن أصلِ دلالَةِ الخبَرِ إلى معانٍ أُخْرَى، هي معانٍ أُخْرَى[2]: **أوَّلُها:** زيادَةُ التَّلذُّذِ بما هم فيهِ مِنَ النَّعيم، **ثانيها:** زيادَةُ التَّنغيص والتَّكدير على أهل النّارِ، فإنَّ الكائنَ في مَهْلَكَةٍ تزدادُ حسرَتُهُ، ويَعْظُمُ أَلَمُهُ؛ إذا رأى أهلَ التَّنعُّمِ والرَّفاهيَةِ، **ثالثُها:** إظهارُ الاغتباطِ بحالِهِم والتَّبجُّح بها، تحدُّثٌ بنِعْمَةِ اللّهِ سُبحانَهُ عَلَيْهِم.

فالآيةُ وارِدَةٌ على سَبيلِ المجازِ المرسَلِ المُرَكَّبِ، حيثُ استُعْمِلَ الخبَرُ في هذه المعاني التي خرجَ بها عَن أصلِ دِلالتِهِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2845.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/404، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/403، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.

سِرُّ التَّعبيرِ بالوِجْدانِ ﴿وَجَدۡنَا﴾، دونَ الرُّؤيةِ:

وسائلُ إدراكِ نَعيمِ الجنَّةِ؛ أَعمُّ من وسائلِ إدراكِ نَعيمِ الدُّنيا

قوله: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾، عَبَّر فيه بالوجدانِ؛ لأنَّه أعمُّ منَ الرُّؤية؛ لأنَّ الوجدان يأتي بمعنى إلفاءِ الشَّيءِ ولُقياه؛ كما في قوله: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾ [القصص: 15]، وفِعلُه يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النّور: 39]، ويغْلِبُ أن يُذْكر مع المفعولِ حالُهُ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ معناه: ألفيناهُ حالَ كونِه حقًّا؛ لا تخَلُّفَ في شيءٍ منه، وقد يُستَعمَلُ الوجدانُ في الإدراك والظَّنِّ مجازًا؛ بخلاف الرُّؤية فلا تنصرفُ في مثل هذا إلّا إلى الرُّؤية البصريَّة.

وفيه إشارةٌ إلى وجود الشَّيء من غير طلبٍ أو بحثٍ عنه، كما في قوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ [القصص: 23].

وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ وسائلَ الوجدانِ أعمُّ من وسائلِ الرُّؤية، فأصحابُ الجنَّةِ وجدوا نعيمَها بكلِّ وسائلِ الإدراكِ الظّاهرةِ والباطنةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي ﴿وَجَدۡنَا﴾، في السِّياقِ:

نَعيمُ أهْلِ الجنَّةِ مُعَدٌّ للمتّقين، قبلَ أن يَدخلوها بسَلامٍ آمنينَ

قوله: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾، عبَّر فيه بالفعل الماضي ﴿وَجَدۡنَا﴾ للدَّلالةِ على تحقُّق الموعودِ به وتمكُّنهم من التنعُّم به؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ هذا النعيمَ قد أُعِدَّ لأهلِ الجنَّة قبلَ أن يدخلوها.

دَلالةُ ذكْرِ المفعولِ الأوَّلِ ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

مَقامُ التَّكريمِ يختلفُ عن مَقامِ التَّبْكيتِ، وكلٌّ بعملِه يُجازَى

ذُكرَ المفعولُ الأوَّلُ في قوله: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾، ولم يُحذَف كما حُذفَ، في قوله: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾؛ من باب المباهاةِ بما أعطاهم اللّهُ، والتَّلذُّذِ بالنَّعيم، وفيه إشارةٌ إلى إعلان حضورِهم في سياق التَّكريم؛ بخلافِ الموضع الثّاني، فقد

حُذف المفعولُ احتقارًا للمخاطَبين، وسيأتي مزيدُ تفصيلٍ عند قولِه: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾.

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بِالرُّبوبِيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ:

الرُّبوبيَّةُ مَقامُ إنعامٍ وإمْهالٍ، والألوهيَّةُ مَقامُ قهْرٍ وجَلالٍ

في قَوْلِه تعالى: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾ جاءَ المسنَدُ إليه معبَّرًا عنه باسْمِ (الرَّبِّ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ الذي أحسنَ إلى أهْلِ الإيمانِ في الدُّنيا بنِعَمِه وهدايتِهِ إيّاهم؛ لَم يقْطَعْ عنْهُم هذا الإحْسانَ، بَلْ آتاهم ما وعَدَهُموهُ في الآخرَةِ، وأنَّه ﷻ الذي أحسَنَ إلى أهْلِ الكُفْرِ في الدُّنيا، فأغْدَقَ عليهِمُ النِّعَمَ، وهداهم هدايةَ الإرشادِ، إلّا أنَّهم قابَلوا إحْسانَهُ إليهم بالكُفْرانِ والجُحودِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿حَقّٗا﴾ دونَ غيرِه منَ الألفاظِ:

حـقُّ اليـقينِ في دارِ المـتـقـينَ، يَـحـظَـى بـها صَفْوةُ عِبادِ الله المُخلَصِين

قوله تعالى: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾، عبَّر بالحقِّ دون غيرِه؛ لأنَّ أصلَ معناه المُطابقةُ والموافقة؛ وهذا مناسبٌ لما وجدوهُ من نعيم الجنَّة الَّذي وُعدوا به في الدُّنيا، فكلُّ ما وُعدوا به من جزاءٍ على العملِ الصّالح وجدوهُ في الآخرة مُطابقًا وموافقًا لما سمعوه مِنَ الرُّسل، وقرَؤوهُ في الكتبِ السَّماويَّة، أي: وجدناه حَقًّا من اللّه، وصَدَقنا وعدَه، إذ يقولون ذلك يومَ القيامة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر: 74] فوجَدْنا وعدَ اللّهِ بالنَّعيمِ المقيمِ، والخلودِ الأبديِّ في الجنةِ على ألسنةِ الرُّسُل، وأورثَنا أرضَ الجنة نَنْزِل منها في أيِّ مكانٍ شئنا؛ فنِعمَ ثوابُ المحسنينَ الذين اجتهَدوا في طاعةِ ربِّهم.

دَلالةُ الاسْتِفْهامِ فِي قَوْلِه: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم﴾:

الـشَّـمـاتَـةُ فِي عُـقـبَـى أَهْـلِ الـكُـفْـرِ، يَـزِيـدُ فِيما يُعانون من حَسْرَةٍ وقَهْرٍ

الاِسْتِفْهامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾، ليس جاريًا على حقيقتِهِ من إرادةِ طلبِ العِلْمِ بِشَيْءٍ لَمْ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/404.

يكُنْ معلومًا مِنْ قَبْلُ، وإنَّما خرَجَ إلى معانٍ مجازيَّةٍ، وهي التَّقريعُ، والتَّعْيير، وإدخالُ الحُزْنِ في قُلوبِ أعداءِ اللّهِ تعالى، وتَوْقيفُهم على غَلَطِهِمْ، وباطِلِ حالِهِمْ، وإثارَةُ نَدامَتِهِم وغَمِّهِم على ما بَدَرَ منهمْ، والشَّماتَةُ بهم في عَواقِبِ عِنادِهِمْ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بقوله: ﴿مَّا وَعَدَ﴾ دُونَ (الوَعِيدِ):

التَّهكُّمُ والسُّخريةُ بأصحابِ النّارِ، يدعُو إليه حالُهمُ المخْزي

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، جرى عُرفُ العرب في استعمال الوعد في الخير، وفيه إشارةٌ إلى ما وُعِدوا به على ألسنةِ الرُّسُل عليهم السلام، من ترتيب العطاء على العمل؛ فكان الوعدُ مناسبًا لهذا السّياق. والوعدُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، يتضمّن معنى الوعيد، لكنّه جاء بالوعد من قبيل التّهكُّم بهم، فالكلامُ جارٍ على الاستعارَةِ التَّهكُّميَّة؛ وأفاد هذا الاستعمال معنًى إضافيًّا آخر أقوَى في إدْخالِ الحَسْرَةِ عَلَيْهِم. ويجوز أن يكونَ ذَلِكَ من قبيلِ المشاكَلَة لقولِه قبلُ: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، فيكون من قَبيلِ المجازِ المُرسَلِ بعلاقَةِ المجاوَرَةِ اللَّفْظيَّة[2].

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ الأَوَّلِ، في قوله: ﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾:

جَمِيعُ وَعْدِ اللهِ تَعالَى للعِبادِ فِي الدّارِ الآخِرَةِ، واقِعٌ بالحقِّ واليقين

حُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ للفِعْلِ (وَعَدَ) في الموضِعِ الثّاني في قوله سُبحانَهُ: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؛ إذْ لَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فهل وجدتم ما وعدَكُم ربُّكم حقًّا)، وصُرِّحَ به في الموضعِ الأوَّلِ في قولِه تعالى قبلُ: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، وفي ذلِكَ نِكاتٌ:

إحْداها: أنَّ إثباتَ المفعولِ أوَّلًا يُرادُ به التَّلذُّذُ؛ لوُرودِه في سياقِ الكرامَةِ، بخلافِ الموضِعِ الثّاني، فقد حُذِفَ المفعولُ احتقارًا للمخاطَبين.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/245، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/404، والآلوسي، روح المعاني: 4/362.

ثانيها: يدلُّ على أنَّ أصحاب الجنة كانوا يؤمنون بوعدِ اللّه تعالى بالجزاءِ الحسنِ لمن أطاعَهُ واتَّبعَ رسولَه، وكانوا يوقنون بهذا الوعدِ بيقينٍ وثقةٍ، فلمّا دخلوا الجنةَ شهدوا بأنَّ وعدَهُ تعالى حقٌّ، وأخبروا أصحابَ النارِ بذلك تعييرًا وتوبيخًا لهم.

ثالثها: أنَّ في حذْفِ المفعولِ إيماءً إلى العُموم؛ فيكونُ شاملًا لكلِّ موعودٍ مِن عذابِ أهلِ النّارِ ونعيم أهل الجنَّةِ، وتكونُ إجابتُهُم بـ ﴿نَعَمۡۚ﴾ تصديقًا لجميع ما وعدَ اللّهُ سُبحانَهُ بوقوعِه في الدّار الآخرةِ للفريقَيْن، وذلك أنَّ ما ساءَهُم مِنَ الوُعودِ لَمْ يَكُنْ بِأسْرِه خاصًّا بهمْ، فهم قَد وجَدوا جَميعَ ذَلِك حَقًّا، ويكونُ ذلك اعترافًا منهم بحصولِ موعودِ أهلِ الإيمان، وذلك أدْخَلُ في تحسُّرهم على ما فاتَهم مِن هَذا النَّعيم، ويكون قَوْلُهُم: ﴿وَجَدۡنَا﴾ على هذا الوَجْهِ بمعنَى: العِلْمِ لا بمعنَى حُصولِهِ لهم؛ لأنَّ نعيمَ الجنَّةِ لا يَحْصُلُ شَيْءٌ منه لِأهْلِ النَّار كما لا يَخْفَى(1).

ويجوزُ أن يكونَ حذْفُهُ من بابِ التَّخفيفِ والإيجازِ، والِاسْتِغْناءِ بالأوَّلِ.

وخرَّجَ هذا الحَذْفَ البقاعيُّ علَى أنَّهُ مِنْ باب الاحتباك؛ حيث أُثْبِتَ المَفْعُولُ الثّاني أوَّلًا دَليلًا على حَذْفِ نظيرِهِ ثانيًا، وحُذِفَ ثانيًا دَليلًا علَى إثْباتِ مِثْلِه أوَّلًا(2).

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ وَصِلَتِهِ:

انْحِرافُ أَصْحابِ النّارِ فِي الدُّنْيا، مَعَ عِلْمِهِمْ بِوَعْدِ الرُّسُلِ وَوَعِيدِهِمْ

في قَوْلِه تعالى: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾جاءت (ما) في الموضعينِ اسمًا موصولًا، وذلك دالٌّ على أنَّ الصِّلَةَ معلومَةٌ لدَى المُخاطَبينَ على تفاوُتٍ بينَهم في العِلْمِ بها إجمالًا وتفصيلًا، فقد كانوا يعلمونَ أنَّ رُسُلَ اللّهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وعَدوا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/55، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/404، والآلوسي، روح المعاني: 4/362.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/405.

أهلَ الإيمانِ بالنَّعيم العظيم، وتوعَّدوا أهلَ الكفرانِ بالعذاب الأليم؛ سمِعَ بعضُهم تفاصيلَ ذلك كُلًّا أو بعضًا، وسمِعَ آخرون بعضَها إجمالًا، إمّا مباشرَةً أو بالتَّناقُلِ عَنْ غيرِهم، فكانَ للموصوليَّةِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إيجازٌ بديعٌ[1].

دَلالَةُ الجَوابِ بِـ ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾ في سِياقِ الآيةِ:

اعْتِرافُ أصْحابِ النّارِ، بعْدَ فَواتِ الأوانِ، حَسْرةٌ وهَوانٌ

﴿نَعَمْ﴾ حرفٌ يُجابُ به عنِ الاستفهامِ في إثباتِ المُستَفهَمِ عنه، وهي هنا تشيرُ إلى وصفِ حالِ أصحابِ النّارِ بأنَّهم في خزيٍ وهَوانٍ؛ صوتُهم بنُطقِ ﴿نَعَمْ﴾ خافتٌ، يشبهُ صوتَ المريضِ المُسَجَّى على فراشِ الموتِ بما فيه من الحشرجةِ الَّتي تدلُّ على أنَّه ليس له منَ الأمرِ شيءٌ.

وممّا يؤكِّد ذلك: التَّعبيرُ بالقول دون النِّداء ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾، فالقولُ لا يحمل هنا معنى علوِّ الصَّوت.

دَلالةُ تعقيبِ جوابِهِم بهذه الجملةِ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾:

فَضْحُ الظّالمين على رُؤوسِ الأشهادِ، مَشْهدٌ مُرعِبٌ في المَعادِ

عَقَّبَ جوابَهم الَّذي اعترفوا فيه بخزيِهم وعذابِهم ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾، بهذهِ الجملةِ الَّتي تدلُّ على زيادةِ الحسرةِ والألمِ من خلالِ صوتٍ يخرجُ مناديًا عليهم باللَّعنةِ والطَّردِ من رحمةِ اللّه؛ ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فكأنَّ الوجودَ كلّه يلعنُهم على ظُلمِهم.

دَلالَةُ الفاءِ، في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَذَّنَ﴾:

بَيانُ ضَلالِ أهْلِ النّارِ، وتَداعِياتِ ظُلْمِهم، المُفْضي إلى سُوءِ القَرارِ

الفاءُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على أنَّ التَّأذينَ مُسبَّبٌ على المحاوَرَةِ المذكورَةِ قَبلُ، وذلك تحقيقٌ لِمَقصد أهلِ الجنَّةِ مِن سُؤالِ أهلِ النّارِ؛ وهو إظهارُ ضلالِهم وفسادِ اعتقادِهِمْ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/137.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/137.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿مُؤَذِّنٌۢ﴾:

نُكِّرَ ﴿مُؤَذِّنٌۢ﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لأنَّ مَعْرِفَتَهُ غيرُ مقصودَةٍ؛ إذِ المَقْصودُ هو الإعلامُ بما يكونُ هُناكَ مِنَ الأحكامِ(1).

لا يُحْتاجُ إلَى تَعْيِينِ الفاعِلِ، إذا كانَ القَصْدُ الأعْظَمُ تَبْيِينَ الحُكْمِ

سِرُّ العُدولِ عنِ النِّداءِ إلى الأذانِ:

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، عدلَ القرآنُ الكريم عن استعمال النِّداء كما سبقَ في مطلع الآية: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ إلى التَّعبيرِ بالتَّأذين، في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّ التَّأذينَ فيهِ إعلانٌ مع النِّداء؛ فالأذانُ في اللُّغة معناهُ الإعلامُ(2)، وأذَّنَ: أكثرَ الإعلامَ بالشَّيء، ومنه المؤذِّنُ لكثرة الإعلام منه، وفيه إشارةٌ إلى رفعِ الصَّوت مراتٍ متعدِّدة، وهذه المعاني لا تؤخَذُ من النِّداء وحده؛ لذلك كان الأنسبُ في مثل هذا المشهدِ، هو التَّعبيرَ بالفعل (أذَّن)، وهو على وزن فعَّل الّذي يدلُّ على التَّكلُّف وبذلِ الجهد. ولذلك استعملَهُ القرآنُ الكريم هنا مناسبًا لمشهد الحوارِ، بين أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النّار.

الأذانُ شِعارُ حَقٍّ، وإيذانٌ بصِدْقٍ، وهو من خُصوصِيّات أمّةِ الإسلامِ

سِرُّ جمْعِ الفعْلِ ﴿فَأَذَّنَ﴾، مع اسْمِ الفاعلِ ﴿مُؤَذِّنٌۢ﴾:

ذكر القرآن الكريم فاعل التأذين ﴿مُؤَذِّنٌۢ﴾ مع أنَّ الفعل (أذَّن) يلزمُ منه ذلك، وإمكانُ الاكتفاء بالفعل ﴿فَأَذَّنَ﴾ دلالةً عليه، لكن لمّا كان المؤذِّن ليس من أصحاب الجنَّة، بل هو من الملائكةِ، فكانَ ذِكرهُ لإزالةِ اللَّبسِ، وإشارةً إلى جنس المؤذِّن، وهم الملائكة.

نداءُ المؤذّنِ بين أهل النّار، له صَوْلَةٌ تُنذِرُ بالبَوارِ

بَلاغةُ جِناسِ الاشتقاقِ، في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ﴾:

تظهرُ بلاغةُ هذا الجناسِ في إفادةِ التَّهويلِ والتَّعظيمِ في هذا

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/276.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).

الأذانُ في الآخرة إعلامٌ وبَلاغٌ، بما يُسفرُ عنه مَشهدُ القيامةِ

المشهدِ الرَّهيب، حيث "أعلم مُعْلِمٌ من الملائكة بينهم، أي بين الفريقين اللّذين يتبادلان ذلك الحديث، ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾"(1).

دَلالَةُ البَيْنِيَّةِ بلفْظِ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾:

بَيانُ إيقاعِ الأَذانِ في ذلك اليوم العَسير، حيثُ الفصْلُ بتقرير المصير

دلَّ التعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنَّ المعنى المراد: أنَّ مُؤذِّنًا أوقعَ ذلك الأذانَ بينَهم وفي وسَطِهِمْ.(2).

سِرُّ التَّعبيرِ بالجَمْعِ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ دون المُثنَّى (بينهما):

المُنادِي مِنَ الملائكة، وهو يُسْمِعُ أهلَ الجنَّةِ وأهلَ النّارِ

قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾، عبَّر بالجمع دون المُثنَّى؛ لأنَّ المرادَ التَّأذين بين الفريقينِ لا بين القائلين ومجموع الفريقَين يمثّل جمعًا، "فينادي منادٍ من الملائكة يُسمع أهلَ الجنَّة وأهل النّار، بأنّ الطّرد من رحمة اللّه على الظّالمين الّذين ظلموا أنفسهم؛ بعدم الإيمان، وبالتّكذيب باليوم الآخر"(3).

دَلالَةُ (أنْ) في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

أَثَرُ دَلالاتِ الحُرُوفِ في تَوْجِيهِ المَعاني القُرآنيَّةِ

(أنْ) إذا صَحِبت مِنَ الكَلام ما ضارَعَ الحِكايَةَ، وليس بصريح الحكاية، العربُ تُشدِّدها أحيانًا، وتوقع الفعلَ عليها، فتفتحُها، وتخفِّفُها أحيانًا، وتُعمِلُ الفعلَ فيها فتنصبُها به، وتُبطلُ عملَها عن الاسم الَّذي يَليها(4).

وقد وردَ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ﴾ قراءتان، **الأولى:** قراءة جمهور القراء بِفَتحِ الهَمزَةِ وتشديدِ النّونِ في (أنَّ)، ونصب اللَّعنة على أنّها اسمها، و﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبرها، **والثانية:** قراءة نافع، والبصريين، وعاصم بتخفيف ﴿أَن﴾ ورفع ﴿لَّعۡنَةُ﴾، واسمها ضميرُ الشَّأن محذوفٌ، والجملةُ الاسميَّة بعدها خبرٌ(5).

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2845.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/247، والآلوسي، روح المعاني: 8/123.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4148.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 8/187.
(5) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/327، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/269.

دَلالةُ التَّعبيرِ باللَّعْنِ دونَ الطَّردِ:

في قوله تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ آثر التَّعبيرَ باللَّعنِ دون الطَّرد؛ لوجودِ فرقٍ بينَه وبين الطَّرد؛ فاللَّعن: هو الطَّردُ والإبعادُ على سبيل السُّخط، وذلك من اللهِ تعالى في الآخرةِ عقوبةٌ، وفي الدُّنيا انقطاعٌ من قبولِ رحمته وتوفيقه؛ واللَّعنُ من الإنسان: دعاءٌ على غيره.

إذًا فاللَّعنُ يدورُ حولَ الطَّرد والإبعاد على سبيل السُّخطِ والبُعدِ، أمّا الطَّرد؛ فهو الإزعاجُ والإبعادُ على سبيل الاستخفافِ[1].

وممّا يؤكِّد ذلك أنَّ لفظَ الطَّرد جاء في حديث القرآن ناهيًا الرَّسولَ ﷺ عن طرد ضعفاءِ المسلمينَ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: 42]؛ لأنَّ كفّار مكَّةَ كانوا يريدون من الرَّسول ﷺ طردَ هؤلاءِ الضُّعفاءِ مِن مجلسِهم استخفافًا واستضعافًا لهم، فجاء القرآن ونهى رسولَ اللّه ﷺ عن ذلك.

الظَّالمُ في الدّنيا، لا أملَ له في نَعيمِ الأُخرَى

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الجلالة (اللهِ):

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، إضافَةُ اللَّعْنَةِ إلى اسم الجلالة (اللّه) في الآية الكريمة، تعظيمًا للَّعْنَةِ التِّي تَلْحَقُ أهلَ الظُّلْم؛ إذْ كانَ هذا الطَّرْدُ والإبعادُ مِنَ المَلِكِ الأعظَمِ الجامعِ لصفاتِ الجلال والكمالِ، وكان إبعادُهُ أهلَ الظُّلْمِ إبعادًا على وجهِ الغَضَبِ[2].

إبْعادُ اللهِ تَعالَى أَهْلَ الظُّلْمِ، مَشوبٌ بالسُّخطِ عليهم، والغضبِ منهم

دَلالَةُ (ال) في لفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، دالَّةٌ على استغراقهم لكلِّ أفراد الظُّلم، والمعنى: أنَّ لعنةَ اللّهِ على أهلِ الظُّلْم الذين استشرى الظُّلْمُ فيهم وتمكَّن منهم، فلم يدَعوا بابًا من أبوابِ الظُّلم إلّا وارتكبوهُ، وعلى رأس ذلك كلِّه الإشراكُ باللّه، قالَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13].

عِظَمُ اللَّعْنَةِ مَنوطٌ بعِظَمِ الظُّلْمِ المُوجِبِ لَها

---

(1) الراغب، المفردات: (طرد، لعن).
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/405.

دَلالَةُ الإِخْبارِ بِعبارةِ ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾:

تَحقيقُ طَرْدِ الظّالِمينَ وإبْعادِهم عن رحمةِ اللهِ، عقابٌ هُم به جَديرون

التَّأذينُ الوارِدُ بالإخبارِ عن الظَّلَمَةِ باللَّعْنِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هو إعلامٌ بأنَّ أهلَ النّار مُبْعَدونَ عن رحمةِ الله تعالى، والغرضُ مِنَ الإخبار: زيادَةُ التَّيئيسِ لهم، وهو دعاءٌ عليهم بزيادَةِ البُعْدِ عن الرَّحمَةِ، إمّا بمضاعفَةِ العذابِ عليهم، أو تحقيقِ خلودِهم في نارِ جهنَّمَ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلْمُ مُوجِبٌ مِنْ مُوجِباتِ اللَّعْنِ للمُستحِقِّ له بتصرُّفاتِه

جاءَ اسمُ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاصِلَةً لِلآيةِ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دونَ (أن لعنةُ اللّهِ على أصحابِ النّارِ)، وذلك لنِكاتٍ: **إحداها:** تعليلُ استحقاقِهمُ اللَّعْنَ، وأنَّ ظُلْمَهُم هو الذي أورَدَهم مواردَ الهلاكِ، **وثانيها:** النِّداءُ على خُبْثِ نفوسِهم، وفسادِ اعتقادِهم، **وثالثها:** زيادَةُ تفظيعِ حالِهم[2]، **ورابعها:** أن يُعْلَمَ أنَّ المُرادَ بالظّالِمينَ وما لَحِقَهُ مِنَ الأَوْصافِ في الآيةِ بَعْدُ - ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ - يُرادُ به: أصحابُ النّارِ، **وخامسها:** تتمَّةٌ لمسرَّةِ أهلِ الجنة، وزيادةً في حسرةِ أهلِ النّار.

دَلالَةُ الوَصْفِ بِصِيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

اعتبارُ الظُّلْمِ لَقَبًا لِأَصْحابِ النّارِ لِشِدَّةِ مُلازَمَتِهِم لَهُ

وردَ وصفُهم بالظُّلْمِ بصيغَةِ اسمِ الفاعلِ ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وشأنُ اسمِ الفاعِلِ أن يكونَ حقيقةً في الحالِ مجازًا في الاستقبالِ، ولا يكونُ للماضي، والظُّلْمُ قد صدَرَ منهم قَبْلَ ورودِهم الآخِرَةَ، وذلك لأنَّ وصفَ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعريفٌ لهم بوصفٍ جرَى مَجْرَى الألقابِ، به تُعْرَفُ جماعَتُهُم، كما يُقال لأهلِ الإِسْلام:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

المؤمنونَ، فلا يُنافي أنَّهم حين وُصِفوا به لَم يَكونوا ظالِمين؛ لأنَّهم قَد عَلِموا بُطْلانَ الشِّرْكِ حقَّ العِلْم(1).

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

دوامُ الظّالمِ على ظُلمِه، جعلَه عُرْضَةً لِلَعْنَةِ الله تعالى

في قوله: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عبَّر بالاسميَّة الَّتي تفيد الثُّبوت والاستمرارَ؛ بخلاف الفعليَّة الَّتي تدلُّ على التَّجدُّد والحدوث كأن يقولَ: (أن لعنةُ الله على الذين ظلموا)،؛ لأنَّ المناسبَ لحال هؤلاء الذين لعنَتهُم الملائكةُ والنّاس جميعًا، أنَّ الظُّلمَ فيهم ثابتٌ ومستقرٌّ؛ لأنَّهم ظلّوا طَوالَ حياتِهم على ارتكابِ الظُّلم؛ فما جاء هذا الوصفُ إلّا بعدَ وقوعِه منهم واستمرارهم عليه؛ فما انفكّوا عن الظُّلم، ولا انفكَّ الظُّلم عنهم، فصاروا عنوانًا لكلِّ ظلمٍ في المجتمع.

بَلاغَةُ التَّصْويرِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

بَيانُ فَرَحِ المؤمنين، وخِزْيِ المُكَذِّبِين؛ وحِرْمانِهم من رَحْمَةِ اللهِ

في هذه الآيةِ تصويرٌ لمشهدٍ من مشاهدِ اليوم الآخر، وهو نداءُ أصحابِ الجنَّةِ أصحابَ النّارِ نداءً يُسجِّلُ عليهِم الخِزْيَ والعارَ والنَّكالَ، ويُدْخِلُ على نفوسِهِم النَّدامَة والحَسْرَة؛ لكونِهم كذَّبوا بما يَرَوْنَ حقيقَتَهُ ماثلَةً أمامَهم، في مقابِلِ النَّعيمِ الذي آلَ إليه أهلُ الإيمانِ، ورأوْهُ أيْضًا واقعًا ماثلًا، وفي هذا صورةٌ مِنَ الكَلامِ الدّالِّ على الرِّضا والطُّمأنينَةِ واللَّذَّةِ من جانِبٍ، والحسرةِ والقَلَقِ والذِّلَّةِ من جانِبٍ آخَرَ، ويُصَوِّرُ الحُكْمَ النّافذَ الَّذي لا يُرَدُّ؛ حيث يُعْلِمُ بِهِ مُؤَذِّنٌ، لا تُدْرَكُ حقيقَتُهُ ولا مَن هو، ولا ما هو أثرُه في نفوسِ سامِعيه؛ فهو تصويرٌ بديعٌ قويٌّ يُحرِّكُ النُّفوسَ، ويهُزُّ المشاعِرَ، ويُظْهِرُ العاقِبَةَ الأليمَةَ لِلْمُكَذِّبينَ؛ وهي طردُهم وحرمانُهمْ من رحمَةِ اللّهِ تعالى مُشيرًا إلى أسبابِ هذا الحِرْمانِ، وهو ظُلْمُهم(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 5/276.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النّداءُ) و(الدُّعاءُ):

بَعْدَ أهلُ النّارِ، فناسَبَهم النِّداءُ للبعيدِ

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، جاء بالنداء، وليس بالدّعاء، ويرى بَعضُهم أنَّ الدُّعاءَ والنداءَ، بمعنًى واحدٍ، في حين أنَّ القرآن الكريم فرَّقَ بينهما في الاستعمال في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾ [البقرة: 171]، وهذا يدلُّ على أنَّ النِّداء له معنًى يختلف عن الدُّعاء يؤكِّد وجودَ فرقٍ بينهما؛ فالنِّداءُ رفعُ الصَّوت، والدُّعاءُ يكون برفعِ الصَّوتِ وخفضِهِ، فتقولُ: دَعَوتُ فلانًا مِنْ بعيدٍ، وتَقولُ: دعوتُ اللّٰه تعالى في نَفْسي، ولا يَصِحُّ أن تقولَ: نادَيْتُ اللّٰه في نَفْسي، والدُّعاءُ قد يكونُ بعلامةٍ من غير صوتٍ ولا كلام، ولكن يكونُ بإشارةٍ تنبئُ عن معنًى؛ بخلاف النِّداء، فلا يكونُ إلّا برفع الصَّوت وامتدادهِ(1).

(1) العسكريُّ، الفروق اللغوية، ص: 38.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾ [الأعراف: 45]

العلاقة بين أوصافِ المستحِقّين للنّارِ واللّعنةِ، وبين الكفرةِ الصّادِّين عن سَبيلِ الله المستقيم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى في الآية السابقة إعلامَ المؤذِّنِ باستحقاقِ أصحابِ النّارِ الطَّرْدَ والإبعادَ مِن رحمَةِ اللّهِ تعالى، وذكَرَ الوصفَ الَّذي بِهِ استحقّوا ذلك وهو الظُّلْمُ؛ ذكرَ في هذه الآيَةِ بقيَّة هذه الأوصاف الَّتي صدرت منهم، واستحقّوا بها اللَّعنَ؛ فقالَ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصُدُّونَ﴾: الصّادُ والدّالُ تدورُ أكْثَرُ تصاريفِها علَى معنَى الإعراضِ والعُدُولِ، وَمِنْهُ: الصَّدُّ؛ وهو الإعراضُ، والمَيْلُ إلى أحدِ الجانِبَيْنِ[1]، وَصَدَّ عَنِ الشَّيءِ: صَرفَ غيرَهُ عَنْهُ[2].

والصَّدُّ يَرِدُ على ضَرْبَيْنِ[3]: **أحدُهما**: أن يكونَ بمعنَى الانصرافِ عن الشَّيءِ والامتناعِ عنه، ومنه قَوْلُ اللّهِ تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: 61]. **والآخَرُ**: أن يكونَ بِمعنى الصَّرْفِ والمَنْعِ، ومنه قَوْلُه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

2) ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾: الباءُ والغَيْنُ والياءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على معْنَيينِ، أحدُهما: طلبُ الشَّيءِ، والآخَرُ: ضَرْبٌ مِنَ الفسادِ، ومِنَ الأوَّلِ قولُهُم: بَغَيْتُ الشَّيءَ أبْغيهِ، بمعنَى: طلَبْتُه[4]، ومن الثاني: معنَى قولِ اللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صد).
(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: (صد).
(3) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).

تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾: أنَّهُم طلبوا سَبيلَ اللّهِ بالصَّلاةِ لِغَيْرِه، وتَعْظيمِ ما لَم يُعَظِّمْهُ اللّهُ، فأَخْطَؤوا الطَّريقَ وطلَبوهُ ضالّينَ عنه[1].

3) ﴿عِوَجٗا﴾: العَيْنُ والواوُ والجيمُ ترجِعُ تصاريفُها إلى معنى المَيْلِ في الشَّيءِ[2]، أو العَطْفِ عَن حالِ الانْتِصابِ[3]، ومنه العَوَجُ؛ وهو: الانْعِطافُ فيما كانَ قائِمًا، فمالَ[4].

ومعنَى قولِه ﷻ: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يَلْتَمِسونَ المَيْلَ والانْحِرافَ لدينِ اللّه تعالى[5].

المعنى الإجماليُّ:

أوصافُ الظّلَمةِ الّذين استحقُّوا اللّعنةَ، باعْوجاجِ سبيلِهم، وصدِّهم عن الحقِّ

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ الظّالمين الّذين حقَّت عليهم لعنَةُ اللّهِ تعالى، هُمُ الّذين كفروا باللّهِ سُبحانَهُ، ومنعوا النّاسَ بغيًا وعدوانًا مِن سلوكِ طريقِ الحقِّ، وحاوَلوا أن يُغيِّروا دينَ اللّهِ، ويُبدِّلوهُ عمّا جعلَهُ لَهُ مِنَ الاسْتِقامَةِ حتَّى ينفرَ النّاس منهُ، ويبتعدوا عنهُ، وهم بالآخرةِ وما فيها من البعْثِ والثَّواب والعقابِ جاحِدونَ[6].

وترشدُ الآيةُ إلى التّنديدِ بالصدِّ عن سبيل اللّه، والظّلمِ والكفرِ بالآخرة، وهي الأسبابُ الجامعة للشّقاء في الدّار الآخرة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصلِ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

بَيانُ حَقيقَةِ الظُّلْمِ الَّذي يَسْتَحِقُّ أَهْلُهُ عَظيمَ اللَّعْنِ، وشَديدَ العَذابِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِ الاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وقعَ صِفَةً لـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من قولِه سُبحانَهُ: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وشأنُ الصِّفَةِ ألّا تُعْطَفَ على الموصوفِ.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 9/149.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عوج).
(3) الرّاغب، المفردات: (عوج).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عوج).
(5) مكّيّ القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النهاية: 5/3770.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/448، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، وفُصِلَتِ الجُمْلَةُ عَمّا قبلَها - على هذا الوَجْهِ - لوقوعها بيانًا وتفسيرًا لِما قبلَها[1]، فبينَ الجُمْلَتَينِ كمالُ الاتِّصالِ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الجملَةُ استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجُملَتَيْنِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّه لمّا قيل: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكان ذلكَ يورِثُ سُؤالًا في نفسِ المُتَلَقّي؛ وهو: هل المرادُ كلُّ مَنْ وقعَ منه ظُلْمٌ ولو كان ذلك يسيرًا؟ فجاء الجوابُ ببيانِ حقيقةِ هؤلاءِ الظّالمين، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

دَلالَةُ الوَصْفِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حِكايَةً عَن قَوْلِهِمُ السّابِقِ:

الإعْراضُ عَنْ سَبِيلِ اللهِ تَعالَى وهَدْيِه، طبيعةُ كُلِّ ظالِمٍ غَشومٍ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يَجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصفًا لـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ونُكْتَةُ الوصْفِ تقريرُ معنى الظُّلْمِ؛ لكَوْنِ الإعراضِ لازمًا لكلِّ ظالمٍ[2]، وهذا الوصْفُ بالاسْمِ المَوْصولِ حِكايَةٌ عَن قَوْلِهِمُ السّابِقِ، والمعنى: الذينَ كانوا يَصُدّون عن سبيلِ اللّهِ؛ وذلك لأنَّهم حالَ تأذينَ المؤذِّنِ لَمْ يَكونوا مُتَّصِفينَ بِهَذا الوَصْفِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالصَّدِّ ﴿يَصُدُّونَ﴾ دونَ المَنْعِ:

شِدَّةُ الظُّلْمِ مَدْعاةٌ إلَى مَنْعِ وُصولِ الخَيْرِ إلَى الخَلْقِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالصَّدِّ دون المنع؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالصَّدُّ كما يقول الرّاغبُ: قد يكون انصرافًا عن الشَّيءِ وامتناعًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنعًا كما في هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والصَّدُّ: ما يحول من الجبل، والصَّديد: ما يحول بين اللَّحم والجلد من القَيح.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2845.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/229، والآلوسي، روح المعاني: 4/362.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/56.

أمّا المنع: أن تحولَ بينَ الرَّجلِ وبين الشَّيءِ الَّذي يريده، قاله ابن منظور، ولذلك أُطلقَ المنعُ على ما لأجلِه يتعذَّر الفعلُ على القادر[1].

وممّا سبقَ يتبيَّن لنا أنَّ الصَّدَّ: هو المنعُ عن قصد الشَّيء خاصةً، والمنعُ يكون في ذلك وفي غيره، فهو أعمُّ، فتقول: منعَ الحائطَ عن الميل، ولا تقول: صدَّ الحائطَ عن الميل؛ لأنَّ الحائطَ لا قصدَ له.

وعلى هذا فاختيارُ لفظ (الصَّدِّ) هنا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ لما يحمله من دلالةٍ في موجبِ لعنةِ الظالمين؛ لأنَّهم لم يقِفوا عند ظُلم أنفسِهم بكُفرهم فقط، بل تعدَّى دورهم إلى صرفِ النّاس ومنعهم عن الإيمانِ باللّه وبرسوله، وذلك بتنفيرِ النّاس عن هذا الدّين ومحاولةِ إظهارِ أنَّهُ غيرُ صالحٍ لحياة النّاس.

والصَّدُّ عَمّا هذا وصفُهُ يَفْتَقِرُ إلى قوَّةٍ في هذا المَنْعِ واجتهادٍ فيه، ففي هذا إيماءٌ إلى اجْتهادِهِم في باطِلِهِمْ، لذلك عبَّرَ بالصَّدِّ.

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ للفعْلِ ﴿يَصُدُّونَ﴾:

حِـرْصُ الظّالمينَ عَلى مَنْعِ وُصولِ الـخَـيْرِ إلى المحتاجين مِنَ العِبادِ

حُذفَ مفعولُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ من باب الإيجازِ، ونُكْتَتُه: إرادَةُ العُموم، أي: يصدّونَ كُلَّ أحدٍ عن سبيلِ اللّهِ، فقد بلَغَ بهم الظُّلْمُ والانحرافُ أنَّهم لا يُريدونَ أن يَصِلَ الخَيْرُ إلى أحدٍ مِنَ الخَلْقِ.

دَلالَةُ إجْراءِ الصِّلَةِ بِصيغَةِ المُضارِعِ:

تَقْريعُ أَصْحابِ النّارِ بِاسْتِحْضارِ الأَحْوالِ القَبيحَةِ

جاءَ الفِعْلانِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ و﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ في جملة الصِّلَةِ من قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مُضارِعَيْنِ؛ مَعَ أنَّ شأنَ الفِعْلِ المُضارِعِ أن يَدُلَّ على حدثٍ حاصِلٍ في زَمَنِ الحالِ، وهم زَمَنَ تأذينَ المؤذِّنِ لم يكونوا متَّصفين بالصَّدِّ عن سبيلِ اللّه ولا بِبَغْيِ عِوَجِ السَّبيلِ، وذلك لإرادَةِ ما يُفيدُهُ الفِعْلُ المضارِعُ من تَكرارِ حصولِ الحَدَثِ تبعًا لمعنى التَّجدُّدِ، والمُراد:

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).

وصفُهم بتكرُّرِ ذلك منهم في الزَّمَنِ الماضي؛ استحضارًا لحالِهِمُ القَبيحَةِ[1].

بَراعَةُ التَّصْوِيرِ، فِي الصّدِّ عن سَبيلِ الصّانعِ القديرِ:

الصّدُّ مَنْعُ أَهْلِ الباطِلِ أَهْلَ الحَقِّ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الهُدَى

في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، تظهرُ براعةُ هذا التَّصويرِ في جعلِ الَّذين يصُدُّون النّاس عن سبيلِ اللّه تعالى بأنَّهم قُطّاع طريق، فكأنَّهُمْ يقفُونَ على رأسِ طريقِ الحقِّ يَمْنَعُونَ مَن يُريدُ سُلوكَهُ؛ فهم يترصَّدُونَ أهلَ الهُدَى، ويَرُدُّونَهُمْ[2] عن الصِّراطِ المستقيمِ الموصلِ إلى الحقِّ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالسَّبِيلِ، دون غيرِه منَ الألفاظِ:

دِيـنُ اللـهِ تَـعالَى وَشَرْعُهُ سَهْلٌ سُلُوكُهُ؛ لِمُوافَقَتِهِ الفِطْرَةَ الإِنْسانِيَّةَ

جاءَ التَّعبيرُ عَن دين اللّهِ تعالى وشَرْعِه بالسَّبيلِ في قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما يدلُّ عَلَيْهِ مِنَ الامْتِدادِ والسُّهولةِ والسَّعَةِ[3].

ولذلك فإنَّ النّاظرَ في آياتِ القرآن الكريمِ يجدُ لفظَ السَّبيل في الغالب مضافًا إلى لفظ الجلالة؛ ليؤكِّدَ ملمحَ السُّهولةِ في شرعِ اللّه ووضوحهِ للسّالكين.

بخلاف الطَّريق؛ فهوَ مستعملٌ في القرآنِ الكريم في الدَّلالة على المسلكِ الَّذي يسلكه الإنسانُ؛ محمودًا كان أو مذمومًا.

سِرُّ إِضافَةِ السَّبِيلِ إِلَى اسْمِ الجلالة (اللّه):

تَـفْـظِـيـعُ شَـأْنِ الـصّـادِّيـنَ عَـنْ سَـبِـيـلِ الـلـهِ تَـعـالَى، كُفْرانًا وَظُلْمًا

أُضيفَ السَّبيلُ إلى اسْمِ الجلالة (اللّه) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه هو الَّذي شرعَها، وبيَّن معالمها، وأمرَ بسلوكها، ووعدَ بالثَّواب مَن سلكَها، وحذَّر بالعقاب مَن لم يسلُكْها[4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2845.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/405، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 281 - 284.

(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 3/277.

وفي ذلك تفظيعُ شأنِ الصّادّينَ عن هذا الأمْرِ الجليلِ، والنِّداءُ عليهم بالانحرافِ والضَّلالِ؛ لأنَّ الأحرى بهم بدلًا منَ الصَّدِّ عن سبيل اللّه أن يتَّبعوه، ويرغِّبوا النّاسَ فيه.

بَلاغة المَجازِ، فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقَةِ اللّزوميَّة، فأُطْلِقَ الملزومُ وأُريدَ لازِمُه؛ لأنَّ دينَ اللّهِ تعالى وشرعَهُ غيرُ قابِلٍ للاعْوِجاجِ، ولا يستَطيعونَ ذلك، وإنَّما المرادُ أنَّهم يُريدونَ إظهارَ هذه السَّبيلِ عَوْجاءَ، بما يَخْتَلِقونَ لها من نقائِصَ يُموِّهونَها على النّاس؛ تنفيرًا لهُم عَنِ الإسلام[1].

شِدَّةُ حَنَقِ أَهْلِ الباطِلِ عَلَى دِينِ اللهِ تَعالَى، تَتَكرّرُ دائمًا وتَتوالَى

وفي التَّعبير بالمجازِ: إشارةٌ إلى شدَّةِ حَنقِهم على هذا الدّين، بحيثُ إنَّه لو أمكنَهم إدخالُ العِوَجِ على الدّينِ ذاتِهِ؛ لما تَرَدَّدوا في ذَلِكَ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿عِوَجًا﴾:

﴿عِوَجًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مصدَرٌ، وإنَّما وقعَ التَّعبيرُ بالمصدَرِ على سبيلِ المبالَغَةِ[2]، والتقدير: (ويبغونها بَغيًا متّصفًا بشدّة العِوَجِ) أي: إنَّهم يرغبون رَغْبَةً عوجاء في إظهارِ دين اللّهِ تعالى وشرعِهِ، حتّى انْسَلَخَ مُتَطلِّبُهم هذا من ثوب الاستقامة، وأصبحَ في ثَوْبِ الاعْوِجاجِ والضّلال.

مهْمَا اعوَجَّ أهْلُ الكُفْرِ، فدِينُ اللهِ تَعالَى وَشَرْعُهُ مُستقيمٌ

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه ﴿عِوَجًا﴾ على صيغة التنكير:

عبَّر بالنَّكرة ﴿عِوَجًا﴾ الّتي تدلُّ على الشّيوع، دون المعرفةِ (العِوج) الّتي تفيدُ التَّعيين أو التّخصيص؛ لأنَّهم يريدون مطلقَ العِوَجِ، وهذا يدلُّ على شدَّة بغضهم لدين اللّه وعداوتهم له، ولا ينحصرون بعِوَجٍ بعينه، بل يريدون أن يقع العِوجُ في شريعة اللّه على أيِّ شكلٍ من الأشكال صغيرًا أو ضئيلًا.

الظّالمُ مُتطبِّعٌ بإرادةِ مُطلَقِ العِوَجِ، وذلك إلْفٌ له وعادةٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/139.

سِرُّ التَّعبيرِ بالعِوَجِ دونَ الميلِ:

الظّالم يَميلُ مَعَ الفِتَنِ، لِيُشْبِعَ رغْبتَه في إشْقاءِ الآخَرينَ

في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ عبَّر بالعِوَج دون الميل؛ لوجود فرقٍ بينهما في الاستعمال، فالعَوجُ معناهُ في اللغة: العطف عن حال الانتصابِ، يقال: فلانٌ ما يعوُجُ عن شيءٍ يهمُّ به -أي ما يرجع-، والعَوَجُ يقال فيما يُدرك بالبصر سهلًا؛ كالخشب المنتصبِ ونحوه، والعِوَجُ يقالُ في ما يُدرك بالفكر والبصيرة، ويستعمل ذلك في الدّين والمعاش، قال تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾. والعِوَجُ: ضِدُّ الِاسْتِقامَةِ، وهو بِفَتْحِ العَيْنِ في الأجْسامِ، وبِكَسْرِ العَيْنِ في المَعاني، وأصْلُهُ أنْ يَجُوزَ فِيهِ الفَتْحُ والكَسْرُ، ولَكِنَّ الِاسْتِعْمالَ خَصَّصَ الحَقِيقَةَ بِأحَدِ الوَجْهَيْنِ والمَجازَ بِالوَجْهِ الآخَرِ، وذَلِكَ مِن مَحاسِنِ الِاسْتِعْمالِ، فالإخْبارُ عَنِ السَّبِيلِ بِعِوَجٍ إخْبارٌ بِالمَصْدَرِ لِلْمُبالَغَةِ، أيْ ويَرُومُونَ ويُحاوِلُونَ إظْهارَ هَذِهِ السَّبِيلِ عَوْجاءَ، أيْ يَخْتَلِقُونَ لَها نَقائِصَ يُمَوِّهُونَها عَلى النّاسِ تَنْفِيرًا عَنِ الإسْلامِ كَقَوْلِهِمْ ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧﴾ [سبأ: 7]، ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: 8][1] أمّا الميلُ؛ فهو: العدولُ عن الوسط إلى أحد الجانبين، ويُستَعمل في الجور[2]. ومن خلالِ النَّظر في المعنى اللُّغوي لكلٍّ منهما: نجد أنَّ (عوج) يختلف عن الميلِ؛ لأنَّه يخرج عن حال الانتصابِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الدّين قائمٌ ومنتصبٌ في فطرة الإنسان، وما يفعله الظالمون هو ثنيُ هذا الانتصابِ الفطري في نفس المؤمن.

أمّا الميلُ؛ فهو في الغالب متعلِّقٌ بالأمور المعنويَّة؛ كميل القلب نحو شيءٍ ما، قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾، وبذلك يتبيَّن أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/139.
(2) الراغب، المفردات: (عوج - ميل).

اختيار لفظ العِوَج هو المناسبُ لهذا السّياق في بيان فعل الصّادين في تغيير اتجاه الفطرة من الاستقامة إلى العِوَج، ويطلبون لسبيل الله اعوجاجًا بإيهام الناس ذلك.

بَلاغةُ الاستِخدامِ في الآية الكريمة:

سَبيلُ اللهِ مُستقيمٌ، والصّادّون يَتّخِذون طُرُقًا عَوجَاءَ

في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ محسّنٌ بديعيٌّ وهو مُحسِّنُ الاستخدام؛ حيثُ إنّ عَوْدَ الضّمير على ما يدلّ عليه جميع معنى ذكر السَّبيل، في قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لكلّ أجزائه، توسيعًا للمعنى، واستغراقًا في وصف طريقة الصّادّين من أهل الكفر والشّرك من اتّخاذ الطريق الأعوج، لِما هم عليه من الظُّلم والكفر[1]. وجاءَ التَّعبيرُ بالتَّأنيث في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ لأنَّه عائدٌ إلى السَّبيل، وهو يُذكَّر ويؤنَّث[2]، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ دونَ يطلُبُونَها:

حَنَقُ الظّالمين، أورَثَهم ضَنَكَ الاعْوِجاجِ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ دون يطلبونها؛ لأنَّ البغيَ طلبٌ بشدَّةٍ، فكأنَّهم في طلب العِوَج يعتبرون ذلك هو بُغيَتُهم الّتي يبتغونها، ويتركون كلَّ مستقيم، ويريدون كلَّ مُعوجٍّ، وذلك لسيطرة الأوهامِ عليهم، وتسلُّط الأهواءِ والشَّهوات.

سِرُّ ذِكرِ الضّميرِ المُنفصلِ ﴿وَهُم﴾ مرّةً لا مرّتين:

لم يحتَجْ مَوضعُ سُورةِ الأعراف إلى مزيدِ تَعيينٍ؛ فمَبْناها على الإيجازِ

ورد قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، محتويا على الضّمير المنفصل مرّة واحدة، بينما ورد الضمير في سورة هود، في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مرّتين. والنّاظرُ في هاتين الآيتين من السّورتَين يجد تشابهًا لفظيًّا واضحًا مع اختلافٍ يسيرٍ بينهما؛ وقد أجاب العلماءُ عن ذلك، فقال ابن الزُّبير الغَرْناطي: "إنَّ ابتداءَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/139.

(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 12/93.

الإخبار في الأعراف بحالِ هؤلاءِ الملعونين في الآيتين هو قوله في موضعِ الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي موضع هودٍ ابتدأ الإخبارُ عنهم بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 18].

فالملاحظُ أنَّ موضعَ سورةِ هود جاء على الإطناب؛ وممّا يؤكِّد ذلك ورودُ الظّاهر في موضع المضمَر من قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقُل: (عليهم)، فناسبَ الإطنابُ زيادةَ ضمير الفصل ﴿وَهُم﴾.

أمّا آيةُ الأعرافِ؛ فمبناها على الإيجاز، والَّذي ناسبه سقوطُ ضمير الفصل"[1].

وممّا يُذكَر في سرِّ عدم ذِكرِ ضمير الفصل في الأعراف، وذِكرِه في سورة هود: أنَّ ما في الأعراف جاء على أصلِه غيرَ مزيدٍ فيه ما يجري مجرى التَّوكيد؛ أمّا الَّذي في سورة هودٍ فجاءَ بعد قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [هود: 18] فأُشير إليهم، ثم قال: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلمّا صرَّح بوصف الظّالمين؛ التبسَ الأمرُ على السّامع: أهُمُ الذين كذَبوا على ربّهم أم غيرُهم ؟ فقال: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ ليُعلَم أنَّهم هم المذكورون لا غيرهم؛ بخلافِ موضع سورة الأعرافِ، فلا يرِدُ فيه هذا الاحتمالُ؛ لذلك لم يُحتَجْ إلى توكيده.

دَلالَةُ تقْدِيم الجارِّ والمَجْرُورِ:

بيانُ تَعظيمِ الكُفرِ بالآخِرَة، والمُبالَغةِ في تَقْبيحِه

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ اهتمامًا بشأنِ الآخِرةِ، وذلك يَقْتَضي تَعْظيمَ الكُفرِ بها

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/181.

والمبالغةَ في تَقْبيحِه، ولا يُرادُ بالتَّقديم القَصْرُ؛ لأنَّ الكافِرَ بالقيامَةِ كافِرٌ بأشياءَ متعدِّدَةٍ ممّا يجبُ الإيمانُ به شَرْعًا. ولتَقْديمِ الجارِّ والمجرورِ فائدَةٌ أُخْرَى؛ وهي مراعاةُ التَّناسُبِ الصَّوْتيِّ لفواصِلِ الآيِ[1]، وذلك لأنَّ الآيةَ قبلَها اخْتُتِمَت بقولِه تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والآيةَ بعدها خُتِمَت بقوله سُبحانَهُ: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾، فلو جرَى الكلامُ في هذه الآيَةِ على مقتضَى الظّاهِرِ من تأخيرِ الجارِّ والمجْرورِ بِأَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وهم كافِرون بالآخِرَةِ)؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ الصَّوْتيُّ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ، فِي هذه الآيَةِ:

بَيانُ شِدَّةِ رُسُوخِهِمْ فِي الكُفْرِ، وَقُوَّةِ تمكُّنِ الكُفْرِ منهُمْ

الجُمْلَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ جملَةٌ اسميَّةٌ، وعُدِلَ إليها لِلدَّلالة على الدَّوام والثَّبات، وفي ذلكَ إشارَةٌ إلى رُسوخِ الكُفْرِ فيهم ورُسوخِهم فيه[2]، وأنَّهم كانوا جاحِدينَ جَحْدًا لا تحلُّلَ منه[3]، وذلك لأنَّ أكثرَ الكُفْرِ حاصِلٌ بالاعْتِقاداتِ العقليَّةِ الَّتي لا يُناسِبها التَّكرُّرُ، ولِذا غويرَ بينَهُ وبَيْنَ وصفِهِمْ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللّهِ تعالى وإرادَةِ إظْهارِ العِوَجِ فيها؛ لأنَّهُما مِنَ الأفْعالِ القابلَةِ للتَّكَرُّرِ، بِخِلافِ الكُفْرِ، فإِنَّ أكثَرَهُ لَيسَ مِنَ الأفْعالِ، ولَكِنَّهُ مِنَ الانْفِعالاتِ القلبيَّةِ[4].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ عَنْ كُفْرِهِمْ بِاسْمِ الفاعِلِ (كافِرُونَ):

اسْتِحْضارُ فَظائِعِ أَصْحابِ النّارِ، وَتَذْكِيرُهُمْ بِمُوجِبِ العَذابِ المُضارّ

وُصِفَ كُفْرُهم بِاسْمِ الفاعِلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، وإِنْ كانَ اسمُ الفاعِلِ دالًّا في الأَصْلِ على الحالِ، وهو مستعمَلٌ هُنا في الماضي؛ إذْ إِنَّ كُفْرَهُم بالآخرَةِ كانَ فيما مضَى مِنْ حياتِهم الدُّنيا[5]، وذلكَ لِقَصْدِ وصفِهم بتكرُّرِهِ منهم في الزَّمنِ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/363.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/363.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2846.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

الماضي؛ اسْتِحْضارًا لحالِهِمُ الشَّنيعَةِ، ولتذكيرِهِمْ بِموجِبِ العَذابِ الذي هم فيهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالآخرةِ في الآيةِ الكريمة:

كُفرُهم بالآخرةِ كُفرٌ بكلِّ ما فيها من مشاهدَ وغَيْبِيّاتٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ آثر القرآنُ الكريم ذِكرَ كُفرِهِم بالآخرةِ دون غيرِها من أوصافِ القيامة؛ لأنَّ لفظَ الآخرةِ هو الأعمُّ، وتندرج تحته كلُّ المشاهد بعد ذلك؛ فهم كفروا بالبعث والنُّشور والحساب والجزاء؛ من العقاب والثواب إلى غير ذلك ممّا يكون في الآخرة.

دَلالةُ التَّأكيدِ بعدّةِ مُؤكّداتٍ في ختامِ هذه الآيةِ:

التَّأكيدُ أُسلوبٌ من أساليبِ إقامَةِ الحُجَّةِ على الظّالمين الكَفرة

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، النّاظرُ في ختام هذه الآية يجد أنَّ اللّه أكَّد كُفرَهم بالآخرة بعدة مؤكِّدات: **أوَّلُها:** ضمير الفصل (هم)، والغرضُ منه تأكيدُ الحكم بكفرِهم. **ثانيها:** تقديمُ الجار والمجرور ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على ﴿كَٰفِرُونَ﴾، والغرضُ منه مزيدُ تأكيد كفرهم بالآخرة. **ثالثها:** التَّعبير بالجملةِ الاسميَّة، فإنَّها تدلُّ على استمرارهم على هذا الكفرِ، وأنَّهم جاحدون بالآخرة جحدًا مطلقًا(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(العِوَجُ) و(العَوَجُ):

العِوَجُ في القِيَمِ، والعَوَجُ في المحسوسات، وكِلاهما من اللّفظِ المستعمَلِ الفَصيح

فرَّق كثيرٌ مِنْ أهلِ العِلْمِ بين العِوَجِ والعَوَجِ؛ بأنَّ العِوجَ يكونُ في المَعاني، والعَوَجَ في المحسوساتِ(2)، ويُشْكِلُ عليه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 105 - 107]، وأجاب عنه الزَّمخشريُّ بقولِهِ: "فإنْ قُلْتَ: قد فرَّقوا بينَ العِوَجِ والعَوَجِ، فقالوا:

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2846.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 5/457، والماورديّ، النّكت والعيون: 3/284، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/310.

العِوَجُ - بالكَسْرِ - في المعاني، والعَوَجُ - بالفَتْحِ - في الأعيانِ، والأرْضُ عَيْنٌ، فكَيْفَ صَحَّ فيها المَكْسورُ العَيْنِ؟ قلتُ: اخْتيارُ هذا اللَّفْظِ له مَوْقِعٌ حَسَنٌ بديعٌ في وصف الأرْضِ بِالاسْتِواءِ والمَلاسَةِ، ونَفْيِ الاِعْوجاجَ عَنْها على أبْلَغِ ما يكونُ، وذلك أنَّكَ لو عَمَدْتَ إلى قِطْعَةِ أرضٍ، فسَوَّيْتَها، وبالَغْتَ في التَّسوية على عَيْنِكَ وعيونِ البُصَراءِ مِنَ الفلّاحة، واتَّفقتُم على أنَّه لم يَبْقَ فيها اعوجاجٌ قطُّ، ثُمَّ اسْتَطْلَعْتَ رأْيَ المُهَنْدِس فيها وأمَرْتَهُ أن يَعْرِضَ اسْتِواءَها على المقاييس الهَنْدَسيَّة؛ لَعَثَرَ فيها على عَوَجٍ في غَيْرِ مَوْضِعٍ، لا يُدْرَكُ ذلك بحاسَّةِ البَصَرِ، ولكنْ بالقياس الهندسيِّ، فنفَى اللّهُ عزَّ وعلا ذلك العَوَجَ الذي دقَّ، ولَطُفَ عَنِ الإدراك، اللَّهُمَّ إلّا بالقياس الذي يَعْرِفُه صاحِبُ التَّقدير والهندَسَة، وذلكَ الاِعْوِجاجُ لَمّا لَم يُدْرَك إلّا بالقياس دون الإحْساسِ؛ لَحِقَ بالمعاني، فقيلَ فيه: عِوَجٌ بِالكَسْرِ"[1].

وقيَّدَ البيضاويُّ الفرقَ بينَهُما بأنَّ العِوَجَ - بالكَسْرِ - في المعاني والأعيانِ ما لَم تَكُنْ مُنْتَصِبَةً، وبالفتْح: ما كانَ في المُنْتَصِبِ مِنْها، كالحائط والرُّمْحِ[2]، والأرْضُ المستويَةُ مِنَ الأوَّلِ؛ فتكونُ آيةُ سورةِ طَهَ جاريةً على الأصْلِ، إلّا أنَّ الأكثرينَ على التَّفريقِ الأوَّلِ.

---

(1) الزمخشري، الكشّاف: 3/88.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/14.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين حالِ أهـلِ الـجـنّـةِ والـنّـارِ، وحالِ أصْحابِ الأعرافِ فيما بينَهُما

لَمّا ذكرَ أهلَ الجنَّةِ وأهلَ النّارِ وجَزاءَ كُلٍّ منهما، ثُمَّ مُناداةَ أصحابِ الجنَّةِ لأصحابِ النّارِ؛ ذكَرَ الحِجابَ المضروبَ بينَهُما، وأصحابَهُ الذينَ هم عَلَيه، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجَابٌۚ﴾: الحاءُ والجيمُ والباءُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنَى المَنْعِ والسَّتْرِ، تقولُ: حَجَبْتُه، أي: مَنَعْتُه[1]، وكُلُّ شيءٍ مَنَعَ شَيئًا مِن شيءٍ؛ فقَدْ حَجَبَه[2]، ومنه: احْتَجَبَتِ الشَّمْسُ في السَّحابِ؛ إذا اسْتَتَرَتْ فيهِ[3].

والحِجابُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ﴾، السّاتِرُ الحاجِزُ بين أهلِ الجنةِ وأهلِ النارِ، والمرادُ بِه السّورُ المذكورُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[4] [الحديد: 13].

2) ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾: العَيْنُ والرّاءُ والفاءُ تدورُ تصريفاتُها على تَمْييزِ أعلَى الشَّيءِ أو ظاهِرِه بِمَلْمَحٍ يدلُّ عَلَيه، ومنه: عُرْفُ الجَبَلِ؛ وهو أعاليه، وكلُّ مُرْتَفِعٍ عِنْدَ العرَبِ: أعْرافٌ، ومنه قولُ الشّاعرِ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجب).
(2) الخليل بن أحمد، العين: (حجب).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حجب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/449.

كُلُّ كِنازٍ لَحْمُهُ نِيافِ *** كالعَلَمِ المُوفي عَلَى الأَعْرافِ[1]

والأعرافُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ سورٌ بينَ الجنَّةِ والنّارِ، سُمّيَ بذَلِكَ لارْتِفاعِهِ[2].

3) ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾: الواوُ والسّين والميمُ تدلُّ اشتِقاقاتُهُ على معنَى التَّأثير في ظاهِرِ الشَّيْءِ بأثَرٍ لازِمٍ يدُلُّ عليْهِ[3]، والوَسْمُ: التَّأثير، والسِّمة: الأثرُ، تقولُ: وسَمْتُ الشَّيْءَ وسْمًا؛ إذا أثَّرتَ فيهِ بِسِمَةٍ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[4] [الفتح: 29].

والسّيما: العلامَةُ، و﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتِهِم، وسيما أَهْلِ الجنَّةِ: بياضُ وجوهِهِم، وسيما أهلِ النّار: سَوادُ وجوهِهِمْ وزُرقةُ أعيُنِهِم[5].

4) ﴿يَطْمَعُونَ﴾: الطّاءُ والميمُ والعَيْنُ تدور تصاريفُها على رجاءٍ قويٍّ في القلبِ للشَّيْءِ[6]، والطَّمَعُ: نُزوعُ النَّفْسِ إلى الشَّيْءِ شَهْوَةً لَهُ[7]، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، وهو طمَعٌ مسْتَنِدٌ إلى أماراتِ وقوعِ المطموعِ به، فهو مِنْ جنسِ الرَّجاءِ[8].

المعنى الإجْماليُّ:

قِصّةُ الأعرافِ بينَ الجنّةِ والنّارِ، وبيانُ حالِ أهلِها بين الخوفِ والشّوقِ والجوارِ

بيَّنَ اللّه تعالى في هذه الآية، أنَّه يوجد بَيْنَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النّارِ حاجِزٌ عظيمٌ يُقالُ لَهُ: الأعرافُ، وعلَى هذا الحاجِزِ رِجالٌ يعرفونَ كُلًّا مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ وأهلِ النّار بعَلاماتِهِم؛ كابْيِضاضِ وُجوهِ أهلِ الجَنَّة، واسْوِدادِ وجوهِ أَهْلِ النّارِ؛ وهؤلاءِ الرِّجالُ قومٌ قَدِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نوف).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 168.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وسم).
(4) الرّاغب، المفردات: (وسم).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 9/153.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمع).
(7) الراغب، المفردات: (طمع).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.

اسْتَوَتْ حسَناتُهُم وسَيِّئَاتهم، وهم يَرْجون رَحْمَةَ اللّهِ تعالى بهِمْ، نادوا أهلَ الجَنَّةِ بالتَّحيَّةِ تكريمًا لهم قائِلين: سَلامٌ عَلَيْكم، وأَهْلُ الأَعْرافِ لَمْ يَدْخُلوا الجنَّةَ بَعْدُ، وهم يَرْجون دُخولَها(1).

وتُرشدُ الآيَة الكريمةُ إلى تقرير مبدأ أنَّ ثِقَلَ الحسناتِ ينجّي يوم القيامة، وأنَّ خِفَّتها تُرْدي، وأنَّ مَن استوَت حسناتُه وسيِّئاتُه ينجو آخِرَ مَن ينجو من دخولِ النار، وإلى مشروعيةِ الطَّمعِ إذا كان مُقتضاهُ موجودًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ بما قَبْلَهُ:

اسْتِيعابُ ذِكْرِ أَقْسامِ النّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ

وُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ بما قَبْلَهُ؛ لِاشْتِراكِهما في الخبريَّةِ، ووجودِ المناسبَةِ بينَهُما وهو الحديثُ عَنْ أحوالِ النّاسِ في الآخرَةِ، فبَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ: توسُّطٌ بَيْنَ الكَمالَيْنِ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى لمّا ذكرَ أهلَ الجنَّةِ وأهلَ النّارِ وجزاءَ كُلٍّ، ذكَرَ الحِجابَ المضروبَ بينَهُما وأهلَهُ الذينَ هم عَلَيْه.

تَقْدِيمُ مُتَعَلِّقِ الخَبَرِ ﴿وَبَيۡنَهُمَا﴾، على المسنَدِ إليه ﴿حِجَابٞۚ﴾:

بَيانُ أَهَمِّيَّةِ (الأَعْرافِ)

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾، قُدِّمَ مُتَعَلَّقُ الخبرِ (بَيْنَهُما) على المبتدأ ﴿حِجَابٞۚ﴾؛ لِإرادَةِ الاهْتِمامِ بِهَذا المَكانِ المتوسِّطِ بينَ الجنَّةِ والنّار، وما ذُكِرَ مِنْ شَأنِهِ وحالِهِ(2).

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَبَيۡنَهُمَا﴾:

الحِجابُ المَضْروبُ وَسَطٌ بين الجَنَّةِ والنّارِ

آثَرَ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَبَيۡنَهُمَا﴾ - دون أن يقال: (بينهم) - لأنَّهُ يعود إلى الجنَّة والنّار، وهما اسما مكانٍ، فتصلحُ الإشارة بتوسُّط الحجاب بينهما، وليس بين المؤمنين والكافرين، وإنْ أجازَ بعضُهم ذلك، ورجَّحه ابنُ جُزيٍّ، حيث قال: "أو بَيْنَ أصحابِهما وهو أرجحُ لقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ [الحديد: 13]"(3).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/449، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.

(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/289.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿حِجَابٌ﴾ دونَ (الحاجزِ) أوِ (السّاترِ):

الحِجابُ أَعمُّ مِنَ الحاجزِ والسّاترِ، لأنّه يَحجُبُ ما خلْفَه

عبَّر بالحجابِ دونَ الحاجزِ أو السّاترِ لوجودِ فرقٍ بينهم؛ فالحجابُ هو المانعُ والممنوعُ به، والسّاترُ هو المستورُ به، وفرَّق أبو هلالٍ العسكريُّ بينهما بأنَّ السِّتر لا يمنعُ من الدُّخول؛ والحجابُ يمنع من الدُّخول؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالحجاب هنا هو المناسبَ؛ لأنَّ المقصودَ ليس ما يحجبُ البصرَ، وإنَّما يعني به: ما يمنعُ من وصولِ لذَّةِ أهلِ الجنَّة إلى أهلِ النّار، وأذيَّةِ أهلِ النّارِ إلى أهلِ الجنَّة[1].

يؤكِّد هذا قوله ﷻ: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ أمّا الحجزُ؛ فهو المنعُ بين الشَّيئين بفاصلٍ بينهما يمنعُ من كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾، وهذا غيرُ مرادٍ هنا في هذا المشهد؛ لأنَّهم يرون بعضَهم بعضًا، وعلى هذا فالحجابُ أعمُّ؛ لأنَّه يكون حسّيًّا ومعنويًّا؛ فالحسّيُّ منه ما يمنع الاستطراق دون الرّؤية، كالزُّجاج، وما يمنع الرّؤية وحدَها، كالسُّتور، وما يمنعهُما جميعًا؛ كالأسوار والحيطان، وهذا الحجابُ بين الجنَّة والنار هو السّورُ المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ الآية، ومن الحجْب المعنويِّ: منعُ الإرث حرمانًا أو نقصانًا[2].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿حِجَابٌ﴾:

عَظَمَةُ أَحْوالِ الآخِرَةِ، وَمُبايَنَتُها لمعْهودِ النّاسِ فِي الدُّنْيا

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌ﴾، نُكِّر ﴿حِجَابٌ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌ﴾ لإرادَةِ التَّعظيم[3]، ويجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ، أي: بينَ الجنَّةِ والنّارِ نوعٌ من الحُجُبِ غَيْرِ المعهودَةِ عِنْدَ النّاسِ.

ولا تنافيَ بينَ الدَّلالَتَيْنِ، بَل إنَّ إِحْداهُما تؤيِّدُ الأخرَى وتقوّيها،

(1) الراغب، المفردات: (حجب).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/380.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.

وذلك أنَّ كونَ التَّنكير لبيانِ النَّوعيَّةِ يقْتَضي تعظيمَهُ وتفخيمَهُ؛ فالحجابُ المضروبُ بينَ الجنَّةِ والنّارِ حجابٌ عظيمٌ، وهو غيرُ المعهودِ عِنْدَ النّاسِ.

دَلالَةُ (ال) في لفْظِ ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾:

أَصْلُ الْأَعْـرافِ: ما يُوجَدُ بارِزًا فِي أَعـالِي السُّورِ؛ لِـرَقـابـةِ حَـرَكَـةِ الْأَعْداءِ

اللّامُ في ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ لِلْعَهْدِ، وهي الأعرافُ المعهودَةُ التي توْجَدُ بارِزَةً في أعالي الأسوارِ؛ ليَرْقُبَ مِنْها النَّظّارَةُ حركَةَ الأعداءِ، وليشْعُروا بهِمْ؛ إذا داهَموهم، وهذا العَهْدُ عهدٌ عِلْميٌّ لا ذِكْريٌّ؛ إذْ لم يتقدَّمْ في سورَةِ الأعرافِ ذِكْرٌ للأعرافِ حتَّى يُقالَ: إنَّ العَهْدَ ذِكْريٌّ، فدلَّ هذا على أنَّ العَهْدَ ههنا علْميٌّ، وهو ما يعْهَدُهُ النّاسُ في الأسْوارِ، إلّا أنَّ حقيقتَهُ في الآخِرَةِ غيرُ معروفَةِ الكَيْفيَّةِ؛ لكوْنِها مِنْ أمورِ الغيْبِ.

ويجوزُ أن تكونَ اللّامُ عِوضًا عنِ المُضافِ إليه، كالواردِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 41] أي: مأواهُ، وكذلك في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي: وعَلَى أعْرافِ السّورِ[1].

دَلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَلَى﴾ الدّاخلةِ على لفْظِ ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾:

عُلُوُّ مكانٍ لا عُلُوُّ مَكانَةٍ؛ لأنَّهمُ الّذين اسْتَوتْ حَسَناتُهم وسَيِّئاتُهم

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، عبَّر بالحرف ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، مع أنَّ (على) تفيد الاستعلاءَ في اللُّغة، إلّا أنَّها جاءت هنا بدفعِ توهُّمِ أنَّهم فوق الفريقَين منزلةً، بل المراد من (على) هو العلوُّ الحسّيُّ؛ والمقصودُ أنَّ عُلوَّهم في المكان والموقعِ ليرَوا الفريقَين، لا لعلوِّ المكانة.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأعراف دونَ السُّورِ:

عبَّر بالأعراف دون السّور؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بها الأماكنُ البارزة في أعلى السّور للمراقبة، وهو فيما يسمَّى عادةً (ببرج

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/141.

المراقبة). وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرّجال الّذين على الأعراف يتطلّعون إلى الأعلى في المنزلة، والمراد هنا الجنَّة، وساعدَ على ذلك أنَّ لفظَ الأعرافِ يُطلق على المكان المرتفعِ، ومنه عُرْف الدّيك الَّذي هو أعلى شيءٍ فيه، وأيضًا وصفُ اللّهِ حالَهم في قوله: ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾؛ بأنَّ طمَعَهُم مستَنَدٌ إلى أماراتِ وقوعِ المطموعِ به، فهو مِنْ جنسِ رجاءِ ما عندَ اللّهِ الكريم.

أبراجُ الحِراسةِ الأمنيَّةِ سَبْقٌ قُرآنيٌّ، مَوجودٌ منذُ آمادٍ بعيدةٍ

دَلالَةُ تَأْخِيرِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿رِجَالٌ﴾ فِي السِّيَاقِ:

أُخِّرَ المسنَدُ إليه ﴿رِجَالٌ﴾ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ لتصحيحِ إيقاعِهِ مبتدأً؛ إِذْ هو نكرَةٌ لا مُسوِّغَ لها إلّا تأخيرُها، وإنَّما جيءَ بالمسنَدِ إِلَيْهِ نكرةً؛ لأنَّ المقامَ يقْتَضي الحديثَ عن رجالٍ غيرِ معروفينَ، يَكونونَ على أعرافِ هذا السّورِ، فالتَّنكيرُ لإرادةِ عَدَمِ التَّعيينِ[1].

القَصْدُ تَبْيِينُ الحُكْمِ؛ فَلا يُفْتَقَرُ إِلَى تَعْيِينِ الأَفْرادِ

دَلالَةُ المَجازِ المُرْسَلِ:

الرِّجالُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ يُرادُ بهم طائفَةٌ مِنَ الموحِّدينَ قصَّروا في العَمَلِ، فلم يبلغوا درجةَ استحقاقِ دخول الجنة، فيُحْبَسون بينَ الجنَّةِ والنّار، حتى يحكمَ اللّه فيهم[2].

قُصُورُ أَصْحابِ الأَعْرافِ عَنْ بُلُوغِهِمْ دَرَجاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ

سِرُّ تخصيصِ المجازِ المُرْسَلِ ﴿رِجَالٌ﴾ بالذِّكرِ:

خَصَّ القرآنُ الكريم لفظَ الرِّجال بالذِّكر في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ لما يحملُه هذا اللَّفظ من العموم في شموله للرَّجل والمرأة، وليس من باب التّقسيم، كما يظنُّ بعضُهم في تخصيصِ الرِّجالِ بالذِّكْرِ دلالةً على عَدَمِ وجودِ نساءٍ بين أهلِ الأعرافِ[3]، ولكِنَّ لفظَ الرِّجالِ مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقَةِ التَّقييد

إرادةُ العُمومِ في لفظِ (رجال) لشُمولِه الرَّجلَ والمرأةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/141.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/141 - 142.

والإطلاقِ، وذلك أنَّ الرَّجُلَ لفظٌ خاصٌّ في الأصلِ بالإنسانِ بِقَيْدِ الذُّكوريَّةِ، فأُطْلِقَ عن هذا القَيْدِ، واستُعمِلَ في مُطلَقِ الإنسانِ الشّامِلِ للرَّجُلِ والمرأةِ.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المقصود بالرِّجال هنا (الذُّكور)، وذلك بعمَلِهم لعملٍ يختصُّ بالرِّجال دون النِّساء، كالجهادِ؛ وهذا رأيٌ غيرُ دقيق، بل المرادُ الجميعُ، وإنَّما ذكرَ الرِّجالَ؛ لأنَّهم هم الذين يخاطبون أهلَ الجنَّة وأهلَ النّار دون مَن معهم من النِّساء، وهذا من باب التَّكريمِ والتَّصوُّنِ والإجلالِ لهنَّ، والحرصِ على مصلحتهنَّ؛ وفْقَ مقتضى قِوامةِ الرِّجال على النِّساء.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمعرفةِ دونَ العلْمِ:

المـعـرفـةُ إنَّـمـا تكونُ بالظَّاهرِ، والـلـه يَـتـولَّى السَّرائرَ

في قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالمعرفة؛ لأنَّها أخصُّ من العِلم؛ وضدُّها الإنكار، ولأنَّ المعرفةَ تتعلَّق بإدراكِ الشَّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِه دون إدراكٍ لذاتِ الشَّيء، ولهذا يُقال: فلانٌ يعرفُ اللهَ، ولا يقال: فلانٌ يعلَمُ اللهَ، وأيضًا لأنَّ المعرفة تتعلَّق بالظّاهر، ولذلك تجد استعمالَ القرآن يؤكِّدُ ذلك، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: 24]، وقال تعالى: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 273] ونحو ذلك من الآياتِ الَّتي تؤكِّد الفرقَ بين العِلم والمعرفة، لذلك ناسبَ هنا التعبيرُ بالمعرفة؛ لأنَّها مُتعلِّقةٌ بالمحسوسِ الظّاهرِ المكشوف، وهذا واضحٌ في وجوه أهلِ الجنَّة من بياضِ وجوهِهم، ومن سوادِ أهلِ النّار في وجوههم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارع ﴿يَعۡرِفُونَ﴾:

تجدُّدُ مَعرفتِهم لِسِيمَا الفريقَيْنِ عـنـدَ رُؤيـتِـهـم، مُفيدٌ في الوصْفِ

قوله: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾، عبَّر بالفعل المضارع ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ الَّذي يدلُّ على التجدُّد والحدوثِ في موقف أصحاب الأعراف عندما ينادون أصحابَ الجنَّة، وعندما تُصرف وجوهُهم تلقاءَ أصحابِ النّار؛ ففي كلِّ مرةٍ يتَّجهون فيها إلى الفريقَين تتجدَّد معرفتُهم

بسيماهم؛ وفي هذا إشارةٌ إلى ثبوت بياضٍ ونضرة وجوه أهل الجنَّة، وعُبوسٍ وسواد وجوه أهل النّار؛ فالتجدُّد في الرّائي وليس في المرئي.

دَلالَةُ التَّنْوينِ فِي لفْظِ ﴿كُلَّا﴾:

مَعْرِفَةُ أَصْحابِ الأَعْرافِ بِكُلِّ فَرِيقٍ مِن فَرِيقَيِ الجَنَّةِ والنّارِ

التَّنوين في ﴿كُلَّا﴾ من قَوْلِه تَعالَى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلَّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾، عِوضٌ عَنِ المضافِ إليه، وسِباقُ الكلامِ يُعَيِّنُه، وهو قولُه تعالى قَبْلُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، وتقديرُ قولِه: ﴿يَعْرِفُونَ كُلَّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾: يعرفونَ كُلَّ فريقٍ من أصحاب الجنَّة وأصحابِ النّارِ بعلاماتِهِمْ، أو: يعرفونَ كُلَّ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النّار[1].

دَلالَةُ حَرْفِ الباءِ فِي قولِه تعالى: ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾:

سِيمَا أَهْلِ الجَنَّةِ إِكْرامٌ وَتَشْرِيفٌ، وَسِيمَا أَهْلِ النّارِ إِذْلالٌ وَتَحْقِيرٌ

حَرْفُ الجرِّ (الباءُ) في ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلَّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾، يُرادُ بِهِ المُلابسَةُ[2]، فعلاماتُ كُلٍّ مِن أهلِ الجنَّةِ وأهْلِ النّارِ مُلابِسَةٌ لَهُم ملازِمَةٌ، فسيما أهلِ الجنَّة ملازِمَةٌ لَهم إكرامًا لهم وتشريفًا لشأنِهم، وسيما أهلِ النّارِ ملازِمَةٌ لهم إذلالًا لهم وتحقيرًا لشأنِهِمْ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ دونَ لفْظِ (علاماتِهم):

السِّماتُ أَخَصُّ مِنَ العَلاماتِ، فِي البيانِ القُرآنِيِّ

آثر التَّعبير بـ(سيماهم) في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلَّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾، دون أن يقال: (علاماتهم)؛ لأنَّ السِّمة أخصُّ من العلامة؛ لأنَّها تُطلق على العلامة الخفيَّة الَّتي تتراءى للمستبصر؛ فهي جزءٌ من العلامة، وهذا هو المناسب لسياق الآية في وسم أصحابِ الجنَّة وأصحاب النّار، وذلك من خلال الأثرِ النّاتج عن ذلك في الوجه؛ بخلاف العلامة فهي ما يُعرف به المَعْلَم من إشارةٍ وغيرها؛ كالحجر تجعلهُ علامةً لدفينٍ تدفنه[3]، أو ما يكون في الأرض من معالمَ يُستدَلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/364.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية: (سيما).

بها على الطُّرق نهارًا، كما أنَّ النّجوم جعلها علاماتٍ للاهتداء بها ليلًا: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النّحل: 16].

سِرُّ التَّعبيرِ بالنِّداءِ:

نِداءُ أصْحابِ الأعرافِ، للاسْتِرحامِ والاسْتِعطافِ

عبَّر بالنِّداء في قوله: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ دون الأذان؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تلطُّفٍ واستعطاف، وتضرُّعٍ ورجاء؛ بخلاف الأذان فهو إعلامٌ يحملُ معه الشِّدَّة والتوبيخ، كما سبق في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: 70].

معنى (أَنْ) في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾:

تَفْسِيرُ النِّداءِ وَبَيانُ شَأْنِهِ، مُسْعِفٌ في الإبانةِ والبلاغِ

﴿أَن﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ يَحْتَمِلُ أن تكونَ تَفْسيريَّةً، وذلك لِوُرودِها بعدَ فِعْلٍ اشتمَلَ على معنى القَوْلِ دون حروفِه، وهو (نادَوْا)، ويَجوز أن تَكونَ (أَنْ) مُخفَّفةً مِنَ الثَّقيلَة، ويكونَ اسمُها (ضميرُ الشَّأْنِ) محذوفًا، والتَّقديرُ: أنَّه - أي: الشَّأْنُ والحالُ - سلامٌ عَلَيْكُم(1).

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿سَلَٰمٌ﴾ دونَ غيرِها في سِياقِ الآيَةِ:

السَّلامُ فيه كلُّ معاني الأمانِ، وسَوانحِ الاطْمئنانِ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالسَّلام دون غيرِهِ من عبارات التّحية؛ لأنَّه يحملُ أكثرَ من معنًى؛ فإنْ كانتِ المناداةُ بقولهم: سلامٌ عليكم قبل دخول الجنَّة، كان المرادُ الإخبارَ بالسَّلامة من العذابِ، والبشارةِ بالنَّجاة. وإنْ كان بعد دخول الجنَّة؛ فهي تحيةٌ محضة داخلةٌ في عموم قولِه تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة: 25 - 26](2).

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿سَلَٰمٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/58، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2848.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/383.

أَهلُ الجنَّةِ في أمنٍ وسلامٍ، لا يَعرِضُ لهم ضَررٌ ولا تنغيصٌ

﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾ لإرادَةِ التَّفخيمِ والتَّعظيم، فهو سَلامٌ وأَمْنٌ عَظيمانِ يَمْنعانِ وُصولَ أيِّ ضارٍّ ومُنَغِّصٍ إلى أَهْلِ الجنَّةِ(1).

بَلاغةُ المَجازِ المُرَكَّبِ في: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾:

لُزومُ السَّلامَةِ والأَمْنِ لأَهْلِ الجَنَّةِ، في الحالِ والاستقبالِ

قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، يجوزُ أن تكونَ باقيةً على دلالَتِها من إرادَةِ الإخبارِ بنجاتِهِمْ مِنَ المَكارِهِ على وجهِ التَّهنِئَةِ لأهلِ الجنَّةِ، أو المشارَكَةِ لهم في سُرورِهِمْ بالقَوْلِ، وليسَتْ وارِدَةً على سَبيلِ البِشارَةِ؛ لأنَّ البِشارَةَ تَرِدُ فيما لا يَعْلَمُه المُبشَّرُ، فيُعْلَمُ به.

ويَجوزُ أن تكونَ الجملةُ خبريَّةً يُرادُ بها الإنشاءُ؛ وهو الدُّعاءُ والتَّحيَّةُ(2)، وإخْراجُ الدُّعاءِ بصيغَةِ الخَبَرِ، تحقيقٌ لثُبوتِه، وأنَّه ممّا يَنْبَغي أن يكونَ واقِعًا ولا بُدَّ؛ ففيه إيماءٌ إلى لُزومِ السَّلامَةِ والأَمْنِ أهلَ الجنَّةِ في جميعِ أحوالِهِمْ ومُسْتَقْبَلِ أوقاتِهِمْ.

ولا تَنافيَ بينَ الدَّلالَتَيْنِ، فيجوزُ أن يُحْمَلَ اللَّفْظُ عليهما معًا؛ إِذِ اللَّفْظُ يجوزُ حَمْلُهُ على حقيقتِهِ ومجازِه؛ لكونِ هذا الحَمْلِ ضَرْبًا من ضُروبِ حَمْلِ المُشْتَرَك على مَعْنَيَيْهِ أو مَعانيه.

سِرُّ تَعديةِ ﴿سَلَٰمٌ﴾ بـ ﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾ دونَ اللّامِ:

(السَّلامُ عليكَ)، فيه إلقاءُ التَّحيَّةِ، و(السَّلامُ لكَ) فيه الأمانُ الّذي يَكْتَنِفُكَ

عُدّيَ سلامٌ بـ (على) دون اللّامِ لوجود فرقٍ بينهما؛ فإذا قلتَ: سلامٌ عليكم؛ فمعناهُ التَّحيَّةُ؛ فقولك: سلَّمتُ عليه، أي: ألْقيتُ عليه هذا اللَّفظ تحيَّةً، وأوضَعتُهُ عليه إيذانًا باشتمال معناهُ كاشتمال اللِّباس به؛ بخلاف سلامٌ لك، فهو من السَّلامةِ من المكروه، وهي مقصودُ العبدِ من الحياة، ولا يتأتّى ذلكَ إلّا بسَلامته من الشَّرِّ، وهو بدورِهِ يؤدّي إلى حصولِ الخير، والمعنى: ثبتَ لك السَّلامُ وحصل(3).

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/406.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.

(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 2/168.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِه استِئْنافًا بيانيًّا، فيكونَ بينهُ وبينَ ما قَبْلَهُ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّه لَمّا قالَ سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، وكانَ هذا السَّلامُ رُبما أشْعَرَ أنَّه بعدَ دخولِ أصحابِ الأعرافِ الجنَّةَ، فأورثَ ذلكَ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا؛ وهو: أكانَ نداؤُهُم هذا بَعْدَ مفارَقَتِهِمُ الأعرافَ ودخولِهم الجنَّةَ؟ فكان الجَواب: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ أيْ: لم يدخلوا الجنَّةَ بَعْدُ[1]، ويَجوزُ أن تكونَ الجملةُ السّابقَةُ مثيرَةً لسؤالٍ آخرَ، وهو: ما مصيرُ أصحابِ الأعرافِ؟ أإلَى الجنَّةِ صائرونَ أَمْ إلى غيرِها؟ الجوابُ: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾[2] أي: لَم يدخلوها بعدُ، والحالُ أنَّهم يطمَعونَ في دُخولِها.

> الجَنَّةُ مآلُ أَصْحابِ الأَعْرافِ، حينَ يلقُّهم الله بعد حينٍ بالألطافِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَطۡمَعُونَ﴾:

في التَّعْبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَطۡمَعُونَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ إشعارٌ بتجدُّدِ طَمَعِهِم في دُخولِ الجَنَّةِ لِشِدَّةِ رجائِهِم في اللّهِ تعالى ورَحْمَتِهِ، ولم يجعلِ اللّه الطمعَ في قلوبِهم إلّا لما يريدُ بهم من كرامتِه[3].

> شِدَّةُ رَجاءِ أَصْحابِ الأَعْرافِ فِي اللهِ تَعالَى وَرَحْمَتِهِ، تُفْضِي بِهِم إلى الجنّةِ

دَلالَةُ الِاعْتِراضِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾:

جملَةُ ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ جملَةٌ حاليَّةٌ مِن ضميرِ الفاعِلِ في ﴿يَدۡخُلُوهَا﴾، وهذه الجملةُ مع جملَةِ ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ معترِضَتانِ بَيْنَ قولِه تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ وقَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[4] [الأعراف: 47]،

> رجاءُ أَصْحابِ الأَعْرافِ فِي المولَى، يَجعلُهم بِجنّتِه ورحمتِه أولَى

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 290.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.

والغَرضُ مِنَ الاعْتراضِ بيانُ قوَّةِ رَغْبَتِهم وطمَعِهم فيما عِنْدَ اللّه تعالى مِنَ الجزاءِ الحسَنِ والعَفْوِ الجَميلِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الطَّمَعُ) و(الرَّجاءُ) و(الأَمَلُ):

الأمـلُ انـتـظـارٌ، والرَّجاءُ ترقُّبٌ، والطَّمَعُ حِرْصٌ

مادَّةُ الأمَلِ تدورُ حولَ معنَى التَّثَبُّتِ والانتظارِ(1)، ولفظُ الرَّجاءِ قَدْ يَرِدُ مرادًا به الخَوْفُ، كما في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نُوح: 13] أي: لا تخافون للّهِ تعالى عَظَمَةً(2).

وأمّا الطَّمَعُ؛ فخصَّهُ ابنُ فارسٍ بالرَّجاءِ القَويِّ(3)، وزاد ابنُ سيدَه في الطَّمَعِ معنى الحِرْصِ(4).

وحاصِلُ كلامِ اللُّغويّين أنَّ بينَ الألفاظِ الثَّلاثَةِ - الأمَلِ والرَّجاءِ الطَّمعِ - تقارُبًا دلاليًّا؛ إذْ جميعُها دالٌّ على توقُّعِ الخبَرِ، إلّا أنَّ الأمَلَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ طولِ الزَّمَنِ وبُعْدِ المَطْلوبِ؛ لأنَّ أصلَ مادَّتِه دالَّةٌ على التَّثَبُّتِ والانتظارِ، ويَرِدُ الرَّجاءُ في معانٍ قَدْ تُبْعِدُهُ عن نَظيرَيْه - الطَّمعِ والأمَلِ - كمجيئِهِ في معنَى الخَوْفِ والمبالاةِ، وأمّا الطَّمَعُ؛ فيتَمَيَّزُ بقوَّةِ الرَّغبَةِ وقُرْبِ المطلوبِ والحِرْصِ عَلَيْه(5).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمع).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (طمع).
(5) مُحمَّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 71 - 74.

﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ [الأعراف: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَكْمِلةُ مَشاهِدِ أَصْحابِ الأعْرافِ، المستَعِيذِين مِنَ النّارِ، والخائفين مِنَ سخَطِ الجبّارِ

لمّا ذَكَرت الآيةُ السّابقة ما يدلُّ على أنَّهم مُقْبِلونَ على الجنَّةِ وأصحابِها؛ جاءت هذه الآيةُ لتؤكِّد هذا المعنى بطلَبِهم وتضرُّعِهم إلى الله تعالى بألّا يجعلَهُم في القوم الظّالمين، قال تعالى: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صُرِفَتۡ﴾: الصّادُ والرّاءُ والفاءُ تدورُ تصاريفُها على معنى الرُّجوعِ، أو هُوَ ردُّ الشَّيءِ من حالٍ إلى حالٍ أو إبدالُهُ بغيرِه، وَمِنْهُ: انْصَرَفَ القومُ، أي: رجعُوا، ويَرِدُ الصَّرْفُ بمعنَى التَّوبَةِ؛ لأنَّه يُرْجَعُ بِهِ عنْ رُتبةِ المُذْنبينَ إلى حالِ الطّائعينَ[2]، ومِنْ هذا البابِ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: 164]، أي: تَحْويلُها من وَجْهٍ إِلَى وَجْهٍ وَمن حالٍ إِلى حالٍ[3].

ومعْنَى قولِ اللّه تعالى: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: حوِّلَتْ جِهَةَ أصحابِ النّارِ.

2) ﴿تِلۡقَآءَ﴾: أصلُهُ من لَقيَ، واللِّقاء: مقابلةُ الشَّيء ومصادفتهُ معًا، وقد يُعَبَّر به عن كلِّ واحدٍ منهما، يقال: لَقِيَهُ، يَلقاه، لقاءً ولُقْيا، ولُقْيَة، ويقال ذلك في الإدراك بالحسِّ وبالبصر وبالبصيرة، ويقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/406.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة:، والرّاغب، المفردات: (صرف).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (صرف).

لَقيتُه بكذا؛ إذا استقبلته به، قال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾، وتَلَقّاه كذا: أي: (لَقِيَهُ)[1].

ومعنى قوله: ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ جهةَ أهلِ النار.

استعظامُ أصْحابِ الأَعْرافِ العَذابَ المهينَ، والتماسُ أن لا يُحشَرُوا مع الظّالمين

المعنى الإجْماليُّ:

وَإذا صُرِفَتْ أبصارُ أصحابِ الأعْرافِ حيالَ أصْحابِ النّارِ وجِهَتَهم، فنَظَروا إلى سواد وجوههم؛ فقالوا: ربَّنا لا تُصَيِّرْنا مع القَوْمِ الذينَ ظَلَموا أنْفُسَهُم، فاكْسَبوها مِنْ سَخَطِكَ ما أوْرَثَهم مِن عذابِكَ ما هم فيه[2].

وترشد الآية الكريمةُ إلى أنَّ أصحابَ الأعرافِ لشدَّةِ طَمعهم في دخول الجنةِ يوجِّهون أبصارَهم إلى أصحابِ الجنَّة؛ بالقصد والرغبةِ ويُلْقون إليهم السَّلام، ويكرهون رؤيةَ أهلِ النّار.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

استكمالُ الحديثِ عَنْ أَصْحابِ الأَعْرافِ

عِلَّةُ وَصلِ قَوْله تَعالَى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ بِما قَبْلَهُ:

وُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ بالجملةِ قَبْلَهُ؛ لِما بينَهُما مِن التَّوسُّطِ بين الكَمالَيْنِ؛ وذلك أنَّ الجملتَيْنِ خبريَّتانِ، وبينَهُما تناسُبٌ؛ إذِ هذه الآيَةُ واردَةٌ لِاسْتِكْمالِ حديثِ أصحابِ الأعْرافِ[3].

أخبارُ اللهِ تعالَى مُحقَّقَةُ الوُقُوعِ، فالإيمانُ بها واجِبٌ

نُكْتَةُ التَّعْلِيقِ بِأَداةِ الشَّرْطِ (إذا):

جاءَ التَّعبيرُ في قولِ اللّه سُبحانهُ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ معلَّقًا بأداةِ الشَّرْطِ (إذا) دونَ (إنْ)؛ لِما في (إذا) مِنَ الدَّلالَةِ على الجَزْمِ بوقوعِ مَدْخولِها، بخلافِ (إنْ) فإنَّها تدلُّ - في الأَصْلِ - على عدَمِ

---

(1) الراغب، المفردات: (لقي).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/466، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

(3) درويش، إعرابُ القرآنِ وبيانُه: 3/359.

الجَزْمِ بوقوعِه، فالتَّعليقُ بـ (إذا) يُفيدُ تحقُّقَ وقوعِ هذا الصَّرْفِ والقولِ المَذْكورِ بَعْدَهُ.

سِرُّ بِناءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ في: ﴿صُرِفَتْ﴾:

انْصِرافُ نَظَرِ أَصْحابِ الأَعْرافِ إلى أَصْحابِ النّارِ، قَهْرِيٌّ ولكنّه فظيعٌ

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿صُرِفَتْ﴾ لِلْمَفْعولِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾؛ لعدَمِ الحاجةِ إلى ذِكْرِ مَنْ صرفَهم؛ لأنَّ المقصودَ التَّخويفُ، والمُخيفُ لَهُمْ هو نفسُ الصَّرْفِ، لا كَوْنُهُ مِنْ مُعَيَّنٍ، والمعنى: صَرَفَ أبصارَهُم صارِفٌ مِنْ قِبَلِ اللّهِ تعالى بِغَيْرِ اخْتيارٍ منهمْ(1)، فهم لَم يَصْرِفوا أَبْصارَهم؛ لِأَنَّهم يَكْرَهون أن يَنْظُروا إِلَيْهم؛ لِكَونِهم مَلْعونينَ(2).

ويَجوزُ أن يكونَ إسنادُ الفعلِ إلى غيرِ معلومٍ جاريًا على المُتعارفِ في نظائرِهِ مِنَ الأَفْعالِ التي لا يُتطلَّبُ لَها فاعِلٌ مُعَيَّنٌ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالصَّرفِ دونَ التَّحْويلِ:

الصَّرْفُ تَغيُّرٌ مِن حالٍ إلى حالٍ، والتَّحويلُ انفِصالٌ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ عَبَّر بالصَّرف دون التَّحويل لوجود فرقٍ بينهما، فالصَّرْف: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ أو إبدالُهُ بغيره، يقالُ: صرفتهُ، فانصرف، قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 152]، والتَّصريفُ يقالُ في صرفِ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، ومن أمرٍ إلى أمرٍ، ومنه تصريفُ الرياح(3).

أمّا التَّحويل؛ فأصلهُ من حَوَلَ، ويُطلق على تغيُّر الشَّيء وانفصالهِ عن غيره، وباعتبار التغيُّر قيلَ: حالَ الشَّيءُ، يحول، حُؤولًا، واستحالَ: تهيَّأ لأن يُحَوَّل، وباعتبار الانفصالِ قيل: حالَ بيني وبينك كذا، وحوَّلت الشيءَ، فتحوَّل: غيَّرته إمّا بالذّات، وإمّا بالحُكْمِ والقول(4).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/406، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2850.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4151.

(3) الرّاغب، المفردات: (صرف).

(4) الراغب، المفردات: (حول).

وبناءً على ما سبقَ في بيان المعنى اللُّغوي لكلٍّ منهما، يتبيَّن أن التَّعبيرَ بالصَّرْف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ هو المناسبُ لهذا المشهدِ؛ لأنَّها حوَّلت من النَّظر إلى أهل الجنَّة إلى النَّظر إلى أهل النّار؛ فالملاحَظ أنَّهم تحوَّلوا من حالةٍ إلى حالةٍ، ومن أمرٍ إلى أمرٍ، وهذا لا يتأتّى من مادة التَّحويل الَّتي يدور معناها حول تغيُّرِ الشيء وانفصاله.

دَلالةُ اختلافِ التَّعْبيرِ مرّةً بالنّداءِ، ومرّةً بالصَّرفِ:

رَغْبَةُ أَصْحابِ الأَعْرافِ فِي الجَنَّةِ، ناتِجةٌ عن شِدَّةِ تَطَلُّعِهِمْ إِلَى دُخُولِها

في التَّعبيرِ عَنْ حالِ أصحابِ الأعْرافِ مَعَ أهل الجنَّةِ بالنِّداءِ مبنيًّا لِلْفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، والتَّعبيرِ عَن حالِهم معَ أهْلِ النّارِ بالصَّرفِ مبنيًّا لِلْمَفْعولِ في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ دليلٌ على أنَّ أكْثَر أحوالِ أصحابِ الأعرافِ النَّظَرُ تلقاءَ أصحابِ الجنَّة، وأنَّ نَظَرَهُم إلى أصحابِ النّارِ عارِضٌ، وليس واقعًا باختيارٍ منهمْ، وإنَّما هو بكونِهم قد صُرِفت أبصارُهم تِلْقاءَهم، فليس هذا الصَّرْفُ مِنْ قِبَلِهم بل هُم محمولونَ عَلَيْه، مفعولٌ بِهِمْ ذلك؛ وذلك أنَّ المَطْلَعَ مخوفٌ مِنْ سماعِه، فضلًا عن النَّظرِ إليه، بَلْهَ التَّلبُّسَ به ومُعاناة ذلك العذابِ[1].

وفي هذا التَّغايُرِ إشعارٌ بقوَّةِ رغبتِهم في الجنَّة وشدَّة تطلُّعِهم إلى دخولِها، وعَدَمِ إرادَتِهم النَّظَرَ إلى أصحابِ النّار باختيارِهم فضلًا عمّا هو فوقَ ذلكَ مِن ضُروبِ المخالَطَة.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضِي ﴿صُرِفَتْ﴾:

ما أَخْبَرَ اللهُ تَعالَى بِهِ، كائِنٌ مُستقبَلًا، وكأنّه حَدَثَ في الماضِي

الصَّرْفُ المَذْكورُ في قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ مُسْتَقْبَلٌ؛ لكونِهِ مِن أحوالِ الآخرَة، إلّا أنَّ التَّعبيرَ عنه جاءَ بِالفِعْلِ الماضي - على خلافِ مقتضَى الظّاهِرِ -

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/59.

للدَّلالَةِ على تحقُّقِ وقوعِه، وأنَّ هذا الصَّرْفَ والقَوْلَ المُرتَّبَ عليه ممّا لا بُدَّ أن يكونَ في ذلك الموقف.

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ فِي صَرْفِ الأبصارِ إلى النّارِ:

صَرْفُ أبصارِ أصحابِ الأعرافِ، غايتُه الاعتبارُ بحالِ أهْلِ النَّارِ

الصَّرْفُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ استِعارَةٌ في لَفتِ النَّظَرِ[1]؛ إذِ الأصلُ في الصَّرفِ أن يَرِدَ بمعنَى أَمْرِ الحالِّ بمكانٍ ما بِمُغادَرَتِه، واستُعْمِلَ ها هُنا في لَفْتِ النَّظرِ على سبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، فشُبِّهَ لَفْتُ النَّظر بالصَّرْفِ بجامِعِ مُطْلَقِ التَّغْييرِ، والنُّكْتَةُ في الاسْتِعارَةِ: الإيماءُ إلى أنَّهُم لا يَنْظُرونَ إلى أصْحابِ النّارِ "إلّا نَظَرًا شَبِيهًا بِفِعْلِ مَن يَحْمِلُهُ على الفِعْلِ حامِلٌ، وذلك أنَّ النَّفْسَ، وإن كانَتْ تَكْرَهُ المَناظِرَ السَّيِّئَةَ؛ إلّا أنَّها حُملت على أن توجِّهَ النَّظر إلَيْها آونَةً لِتَحْصيلِ ما هو مَجْهولٌ لَدَيْها"[2].

بَراعَةُ المَجازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ، في صَرْفِ الأبصَارِ:

كَراهَةُ أَصْحابِ الأَعْرافِ النَّظَرَ إِلَى أَهْلِ النّارِ، دليلُ فزَعِهم من حالِهم

في التَّعبيرِ بصَرْفِ النَّظرِ مبنيًّا لِلْمَفعولِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ مِنَ الدِّلالَةِ على كراهَةِ أصحابِ الأعرافِ النَّظَرَ إلى أهلِ النّارِ، وهذا لونٌ مِنْ ألوانِ التَّوبيخِ لهم[3]؛ حَيْثُ ارتكبوا مِنَ الجرائمِ والقَبائحِ ما كَرِهَهُمُ الخَلْقُ مِنْ أجلِها، فلَمْ يُطيقوا أدْنَى اتِّصالٍ بهِمْ وهو النَّظَرُ، فضلًا عمّا هو فوقَ ذلِكَ، فالجملَةُ خبريَّةٌ دلَّتْ - معَ إفادَتِها مَضْمونَ الخَبَرِ - على معنَى التَّوبيخِ، فكان ذلكَ مَجازًا مُرْسَلًا مركَّبًا.

دَلالةُ التّعبير بلفْظِ (الأبصَارِ) دونَ (الأعيُنِ):

الأبصَارُ فيها معنَى التَّأمُّلِ والتَّدْقيقِ، للنَّظرِ الثّاقِبِ الدّقيقِ

في قولِه: ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، عبَّر بالأبصارِ دون الأعيُنِ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/144.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/4151.

لأنَّه أراد الأثرَ الناتج من الأعيُن، وهو الإبصارُ، ولم يُعَبِّر بالأعيُن؛ لأنَّه قد توجد الأعيُن ولا تُبصِر؛ وهذا غيرُ مرادٍ هنا.

وَجْهُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في: ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾:

الأبصارُ ليست مجرَّدَ حاسَّةٍ بصَريَّةٍ، بل هي مُرتبطةٌ بالقُلوبِ والعُقولِ

الضَّمير في ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ يرجعُ إلى أصحابِ الأعراف؛ فهم المقصودونَ في هذه الآية، وعَدلَ النَّظمُ الكريمُ إلى الإضمار ولم يُظهِر نائبَ الفاعلِ في الجملة، كأنْ يقال: (وإذا صُرِفت أبصارُ أصحابِ الأعراف)؛ قصدًا للإيجاز لذِكرهم في السِّياق قريبًا، والضَّميرُ المتصلُ يشيرُ إلى أنَّ هذه الأبصارَ متصلةٌ بأجسادهم، وليست مستقلَّةً عنها، فهم يرون بأمِّ أعيُنهم ما يحدثُ بين أصحاب الجنَّة، وأصحابِ النّار، ويشعرون بالخوف والطَّمع والرجاء، وأنَّ هذه الأبصارَ ليست مجرَّد حاسَّةٍ بصريَّة، بل هي مرتبطةٌ بالقلوب والعقول، فهُم يتدبَّرون ما يَرَون من المشاهدِ المختلفة عند الفريقين، ويستفيدون منها دروسًا وعبرًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿تِلۡقَآءَ﴾ دونَ (جهة):

التِّلقاءُ فيه معنَى المصادَفةِ، والجِهةُ فيها التَّعيينُ

قوله تعالى: ﴿تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، آثرَ فيه التَّعبيرَ بقوله: ﴿تِلۡقَآءَ﴾ دون (جهة)؛ لأنَّ اللِّقاء يُطلق على مقابلةِ الشَّيءِ ومصادفته من غير قصدٍ منهم، وما وقع هو بإرادة مَن صرَفَهُم.

بخلاف (الجهة) ففيها معنى القصدِ والشَّرف؛ لأنَّها مأخوذةٌ من مادة (وجه)، وتدور بنيةُ هذه المادة على هذا المعنى؛ فيقالُ: واجهتُ فلانًا: جعلت وجهي تلقاءَ وجهه، ويقال للقصد: وجهٌ، وللمقصد: جهةٌ[1]؛ ولذلك كان اختيارُ لفظ ﴿تِلۡقَآءَ﴾ هو المناسبَ هنا؛ لأنَّ المراد أنَّهم صُرفت أبصارُهم تلقاءَ أصحاب النّار غيرَ عامدين ولا قاصدين ولا متَّجهين.

(1) الراغب، المفردات: (وجه).

نُكْتَةُ الإضافَةِ فِي ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾:

حَقارَةُ أَصْحابِ النَّارِ المُعَذَّبِينَ فِيها

الإضافَةُ في ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، يُرادُ بها تحقيرُ المضافِ، وهُمُ الأصْحابُ؛ الدّاخلون النّارَ، الملازِمونَ لَها، المعذَّبون فيها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالقَولِ دونَ النِّداءِ:

النِّـداء فيه إعلانٌ، والقَولُ أعمُّ منه

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالقول دون النِّداء؛ لأنَّه أعمُّ حيثُ يشملُ النِّداء وغيره، وأيضًا لأنَّ القول يُطلق على الكلام النَّفسيِّ واللَّفظيِّ، فكأنَّ اللَّفظ يصوِّر ما في نفوسِهم من هذا الطَّلب بألّا يكونوا مع الظّالمين، وأظهروا ذلك بنُطقهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

دَلالَةُ النِّداءِ باسْمِ الرُّبُوبِيَّةِ ﴿رَبَّنَا﴾، فِي سِياقِ الآيَةِ:

المُحْسِنُ فِيما مَضَى، جَدِيرٌ بِالإِحْسانِ فِيما بَقِيَ

في النِّداءِ باسمِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ طلبُ رحمَتِهِ سُبحانَهُ واستِعْطافُ كَرَمِه؛ إذْ هو المحسِنُ إليهم في الدُّنيا بكلِّ إحسانٍ، وفي الآخِرَةِ بكونِهِ لَمْ يُدْخِلْهُمُ النّارَ إلى وقتِ هذا النِّداءِ؛ والمُحْسِنُ إِلَيْهِم فيما مَضَى جَديرٌ بالإِحْسانِ إِلَيْهِم فيما بَقِيَ[1].

دَلالَةُ النَّهْيِ فِي الآيَةِ الكريمة:

مِنْ أَسْبابِ النَّجاةِ التَّذَلُّلُ إِلَى اللهِ، وَسُؤالُهُ عَدَمَ الحَشْرِ مَعَ الظّالمين

النَّهْيُ في ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ مِنْ قولِه سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خرَجَ عَنْ دلالَتِهِ الأصليَّةِ مِنْ إرادَةِ الإلزامِ بالتَّرْكِ إلى معنى الدُّعاءِ؛ لكَوْنِ الخطابِ متوجِّهًا مِنَ العبادِ إلى ربِّهِم تعالى. ويَجوزُ أن يكونوا قَدْ سألوا اللّهَ ﷻ ألّا يجعلَهم مع الظّالمين، وهم عالِمونَ أنَّه سُبحانَهُ لا يجعَلُهُم معهم؛ فيكونُ أسلوبُ النَّهْيِ دالًّا مع الدُّعاءِ على معنى التَّذلُّلِ وطَلَبِ الدَّوامِ على هذِهِ الحالِ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/59، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/407.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/214.

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ دونَ (لا تُدخلْنا):

الجَعْلُ فيه معنَى الانْتِساب، وهو أبلَغُ في البُعدِ والوِقايةِ

آثرَ التعبيرَ بقوله: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ دون (لا تُدخلنا)؛ لأنَّه أبلغُ في البُعد عن أصحاب النّار؛ لأنَّ (لا تُدخلنا) قد يُفهم منها أنَّهم من أصحاب النّار، ويطلبون عدم الدُّخول؛ أمّا ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾؛ فهم لا يريدونَ أن يكونوا من أهلِ النّار أصلًا فضلًا عن دخولها.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالمَعِيَّةِ، فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

النّأْيُ عن كَوْنِه مَعَ الظّالِمِينَ، نَفْيٌ للظُّلْمِ من بابِ أَوْلَى

عُبِّر بالمعيَّة في قوله ﷻ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لا تجعلْنا مِنَ القومِ الظّالمِينَ)؛ لأنَّ كونَهم مَعَهم أعمُّ من كونِهِمْ منهمْ، فنَفْيُهم الأعمَّ عن أنفُسِهِمْ يسْتَلْزِمُ نفيَ الظُّلْمِ عنهمْ بطريقِ الأَوْلَى[1].

سِرُّ ذِكْرِ لفْظِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ في سِياقِ الآيةِ:

لفْظُ القومِ فيه معنَى القِيادةِ والرِّيادةِ والتّميُّزِ

قوله تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ذكرَ القرآنُ الكريم لفظَ (قوم) مع أنَّ المعنى ظاهرٌ من غيره، لكنَّه يشيرُ إلى نوعيَّة هؤلاءِ الظّالمين؛ فهم من قيادات الكفر؛ لأنَّ لفظَ القوم، مأخوذٌ من مادة (قوم)، والقيام يعني: الانتصابَ والوقوف في وجه الأنبياءِ، فقادةُ الكفرِ كذَّبوا طاعنين في الآيات، مستكبرين عن اتِّباع الأنبياء.

نُكْتَةُ الوَصْفِ بِلفْظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، في السِّياقِ:

وُجُوبُ الحَذَرِ مِنْ أَسْبابِ العَذابِ الهُونِ

في وصفِ أصحابِ النّارِ بالظُّلْمِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دونَ ما هم عليهِ حينئذٍ مِنْ ألْوانِ العذابِ وسوءِ الحالِ الذي اقتضَى هذا الدُّعاءَ: إيماءٌ إلى أنَّ المحذورَ عَنْدَهم ليسَ ذاتَ العذابِ، فحسبُ، وإنَّما هو العذابُ معَ ما يُؤَدّي إليهِ مِنَ الظُّلْمِ[2].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/227.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 3/230، والآلوسي، روح المعاني: 4/364.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الظُّلْمِ:

حُذِفَ متعلَّقُ الظُّلْم في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والتَّقديرُ: الظّالمينَ أنفسَهم بالشِّرْكِ[1]، وحُذِفَ لِدلالَةِ اللّامِ في (الظّالمِينَ) عَلَيْهِ؛ إذْ هي دالَّةٌ على الكَمالِ، والمعنى: لا تَجْعَلْنا مع القَوْمِ الكامِلينَ في الظُّلْم، وأعْظَمُ الظُّلْم: الشِّرْكُ باللّه تعالى، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

ويجوزُ أن يكونَ المُتعلَّقُ محذوفًا؛ للدَّلالَةِ على العُموم، وذلك أنَّ حَذْفَ المتعلَّق يُؤْذِنُ بذلِكَ، أي: الذين ظلَموا أنفسَهم بالشِّرْكِ والمَعاصي، وظلَموا غَيْرَهم بضُروبٍ مِن هضْمِ الحُقوقِ.

أَعْظَمُ الظُّلْمِ: الشِّرْكُ باللهِ تعالَى، وهو أُسُّ الآثامِ

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/204.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَوْبيخُ أهلِ الأعْرَافِ لأهْلِ النَّارِ، وما جناهُ عليهم الكُفرُ والحشْدُ والاسْتِكبارُ

لَمّا ذكر اللهُ سُبحانَهُ كلامَ أصحابِ الأعرافِ لأهل الجنَّة بالسَّلام في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾؛ أخبرَ أنَّهم يُكلِّمونَ أهْلَ النّارِ بالتَّوْبيخِ واللَّوْم، فقالَ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡنَىٰ﴾: الغينُ والنُّون والحَرْفُ المعتلُّ تدُور كثيرٌ من اشتقاقاتِها على معنى الكِفايَةِ، ومِنْهُ قولُهم: فلانٌ لا يُغْنِي غناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفِي كفايَتَهُ[2]، والغَناءُ: الكفايَةُ والإجْزاءُ[3]، ومعنى قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ﴾: ما أجْزَأ عنكُمْ، وما نَفَعكُمْ.

2) ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: الكافُ والباءُ والرّاء تدلُّ تصاريفُها على ضدِّ الصِّغَرِ، ومنه: الكِبَرُ؛ وهو الهرَمُ، والكِبْرياءُ؛ وهي: العظمة[4]، والكِبْرُ: هو التَّرفُّعُ عن الإقرارِ بالحقِّ، والطُّغيانُ في دَفْعِه، واحتقارُ النّاسِ والإزراءُ بهمْ[5]، وهذا المفهومُ عبَّر عنه رسولُ اللهِ ﷺ بأوْجَزِ عبارةٍ وأبلغِها؛ فقالَ: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النّاسِ»[6].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/406.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).
(5) ابن الجوزيّ، كشف المشكل من حديث الصَّحيحين: 3/323.
(6) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (91).

والسّينُ والتّاء في ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دالَّةٌ على القوَّةِ لا الطَّلبِ، فمعنى ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: قويَ كِبْرُكُمْ[1].

المعنى الإجماليّ:

أهْـلُ الأعْـرافِ يُبَكِّتون رُؤوسَ الـكُـفْـرِ في هذا الموقِفِ العَسِرِ، وَسَـطَ اللّهيبِ المُستَعِرِ

في هذه الآية نادَى أَهْلُ الأعْرافِ رجالًا مِن قادَةِ الكُفّار الذين في النّار يَعْرِفونَهُم بِعَلاماتِ أهلِ النّارِ، قالوا لَهُم: ما نَفَعَكُم ما كُنْتُم تَجْمَعونَهُ مِنَ الأموالِ والرِّجال في الدُّنْيا، وما نَفَعَكُم اسْتِعْلاؤُكُم عَنِ الإيمانِ باللّه تعالى وقَبولِ الحَقِّ[2]. وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ جمعَ المالِ والرِّجالِ في الدُّنيا لا ينفعُ لمن مات كافرًا مشركًا من أهلِ الظُّلم والفسادِ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ نداءِ أصحابِ الأعْرافِ بما قبْلَه:

شَماتَةُ أصْحابِ الأعْرافِ في أهلِ النّارِ وقادتِهم، جُزءٌ مِنَ الحِوارِ

وُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ بالجُملَةِ قَبْلَهُ؛ لِما بيْنَهُما مِن التَّوسُّطِ بين الكَمالَيْن، وذلك أنَّ الجملتَيْنِ خبريَّتانِ، وبينَهُما تناسُبٌ؛ إذِ هذه الآيَةُ واردَةٌ لِاسْتِكْمالِ حديثِ أصحابِ الأعْرافِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ الماضِي، في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

أخْبارُ اللهِ تَعالَى ليسَ فيها زُورٌ، وقد أثبتَ الزّمانُ صِحّتَها في كلِّ العُصورِ

النِّداءُ الوارِدُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ مستقْبَلٌ، فهو مِنْ أحوالِ الآخِرَةِ، لكنَّه وردَ ههنا - على خلافِ مُقْتَضَى الظّاهِرِ - بصيغَةِ الفعل الماضي (**نادَى**) مع أنَّه في المستقبلِ من أحوالِ الآخرة؛ للإشعارِ بتحقُّقِ وقوعِ هذا النِّداءِ، وأنَّه ممّا لا بُدَّ أن يقَعَ على الوَجْهِ المُخْبَرِ بهِ في الآيَةِ.

---

(1) الحمَلاويّ، شذا العَرْف في فنِّ الصَّرف، ص: 35.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/467، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُنَاداةِ ﴿وَنَادَىٰٓ﴾، وأَثَرُه فِي المعنى:

انْحِطاطُ أَقْدارِ أَصْحابِ النَّارِ، بسببِ الهلاكِ والضَّلالِ والعارِ

النِّداءُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ خطابٌ مِنْ أصحابِ الأعرافِ لأَهْلِ النَّارِ، وعُبِّر عَن هذا الخِطاب بالنِّداءِ كِنايةً عن بلوغِهِ إلى أسماعِ أهل النّار مِنْ مسافةٍ سَحيقةِ البُعْدِ، وفيهِ إيماءٌ إلى بُعْدِ أصْحابِ النّار وانحطاطِ أقدارِهِمْ؛ حيثُ بَعُدوا عَن أصْحابِ الأعرافِ بحيثُ صارَ الخِطابُ بينهم مِنْ بابِ المُناداةِ، فكيفَ ببُعْدِهم عن أصحابِ الجنَّةِ؟

دَلالَةُ (ال) فِي لفْظِ ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾:

النِّـداءُ صادِرٌ مِنْ طائِفَةٍ مِنْ أَصْحابِ الأَعْرافِ لا مِنْ جَميعِهِمْ

اللّامُ في (الأعْرافِ) مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ للعَهْدِ الذِّكْريِّ الصَّريحيِّ؛ لتقدُّم ذِكْره صريحًا في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾، فلا يُرادُ كلُّ أصحاب الأعرافِ، وإنَّما طائفَةٌ منهمْ، ويقَوّي ذلكَ قولُهُ هُنا: ﴿رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم﴾؛ إذْ لا يستقيمُ أن يُناديَ أولئكَ الرِّجالَ كلُّ مَنْ كانَ على الأعرافِ، ولا أنْ يَعْرِفَهم بسيماهم جميعُ مَن كانَ على الأعرافِ، مَعَ تبايُنِ العصور، واختلافِ الأُمَمِ، فأفادَ هذا كُلُّه أنَّ المرادَ بأصحابِ الأعرافِ: الرِّجالُ المذكورون قبلُ في قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾، والمعنى: ونادى أولئكَ الرِّجالُ الذينَ على الأعرافِ رجالًا يعرفونَهم بسيماهم[1].

نُكْتَةُ الإظْهارِ فِي مَوْضِعِ الإضْمارِ:

زِيادةُ التَّقريرِ ومَزيدُ التَّخصيصِ، في عَنْوَنَةِ القصّةِ، بمَنْ مارَسَ أَحْداثَها

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾، أُظْهِرَ المسنَدُ إليه - ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ - ولَمْ يُضمَرْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾؛ إذْ لَمْ يرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ونادَوْا رجالًا)، وذلك لأربعِ نِكاتٍ: **إحداها:** زيادةُ التَّقريرِ[2]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/144.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.

ثانيها: لئلّا يلْتَبِسَ المسنَدُ إليه حالَ إضْمارِهِ بأصحابِ الجنَّةِ، وذلك لأنَّهُ لّما تعدَّدَ في الآيةِ المتقدِّمَةِ ما يَصْلُحُ لِعَوْدِ الضَّمائِرِ إِلَيْهِ؛ دُفِعَ اللَّبْسُ بالتَّصريح بالمسنَدِ إليهِ مُظْهَرًا، ولم يُضْمَرْ[1]، **ثالثُها:** التَّفريقُ بَيْنَ المرادِ بأصحابِ الأعرافِ في هذهِ الآيةِ، والمرادِ بهمْ فيما تقدَّمَ؛ وذلك أنَّ النِّداءَ فيما تقدَّم صادرٌ مِنَ الجميعِ، وفي هذهِ الآيةِ مِنْ بعضِهِمْ[2].

رابعُها: أنَّ هذا النِّداء خاصٌّ في موضوعٍ خاصٍّ؛ فكان مستقلًّا دون ما قبلَه الموجَّه إلى أهل الجنَّة في جملتهم[3].

سِرُّ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿رِجَالٗا﴾ في أثناء السِّياقِ:

إبْطالُ الوَهْمِ الّذي عاشَهُ قادَةُ الكُفْرِ في الدّنيَا

ذكرَ القرآنُ الكريم لفظَ ﴿رِجَالٗا﴾ للإشارة إلى أنَّ أصحاب الأعراف يخاطبونهم فُرادى تقريعًا وتذكيرًا بسيِّئاتهم منفردين عن غيرهم[4].

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿رِجَالٗا﴾:

حَقارَةُ أَصْحابِ النّارِ جَمِيعًا، واخْتِصاصُ رُؤَساءِ أَهْلِ الشِّرْكِ بِمَزِيدٍ مِنْها

نُكِّرَت ﴿رِجَالٗا﴾ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾؛ للدَّلالَةِ على إرادَةِ عدَمِ التَّعيين، فهم رجالٌ غيرُ مُعَيَّنِينَ.

ويَجوزُ أن يكونَ المخاطَبونَ مُعيَّنين، وهم رُؤساءُ المشرِكينَ، كأبي جَهْلٍ وعُتبَةَ بن أبي مُعيطٍ ونحوِهما[5]، ونُكِّرَ لفظُ الرِّجالِ في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ تحقيرًا لَهم وحطًّا لشأنِهِمْ، ودَفْعًا لتوهُّم إرادَةِ الكَمالِ بتعريفِ لفظِ ﴿رِجَالٗا﴾ باللّام، ولا سيَّما أنَّهم كانوا في الدُّنيا في واجهة القوم، وأعطَوْا لأنفسهم مكانةً بأنَّهم هم الرِّجال دون غيرهم؛ فجاء هذا المشهدُ ليسلبَهُم كلَّ ذلك.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/144.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/364.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/385.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2851.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 5/59.

سِرُّ تَرْكِ ذِكْرِ المركّبِ الإضافيِّ مع ﴿رِجَالٗا﴾:

تُـرك التَّصريح لدلالةِ السِّياقِ عليه

استغنى القرآنُ الكريمُ عن ذكرِ أصحابِ النّار، فلم يقُل: (رجالًا من أصحابِ النّار)؛ لأنَّ الكلام المذكورَ في الآية ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾لا يليقُ إلّا بهم، فهو عنوانٌ عليهم، ووصفٌ لأكابرهم، ودليلٌ على حذف (أصحاب النار).

سِرُّ تكرار التَّعبيرِ بقوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُم﴾:

فـرقٌ بَـيْن المعرفةِ العامّة، والمعرفةِ الخاصّةِ

أعادَ ذِكرَ الفعلِ ﴿يَعۡرِفُونَهُم﴾، مع سبقِ هذا الفعلِ: قبلَ ذلك في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾؛ لاختلافِ المعرفتين، فالسّابقة معرفةٌ عامَّة، فمعَ أهل النّار يعرفونهم بسَوادِ الوجوهِ وزُرقةِ العيونِ، أمّا هنا؛ فيعرفونهم بسيماهم الخاصَّة الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا أو بسيما المستكبرين؛ لأنَّها تغلب عليهم، وتكون علامةً تدلُّ عليهم[1].

دَلالَةُ (الباءِ) فِي قَوْلِه: ﴿بِسِيمَىٰهُمۡ﴾:

اسْـودادُ وُجُـوهِ أَصْحابِ النّارِ، عَلامَةٌ مُلازِمَةٌ لَهُمْ، لِسوادِ قُلوبِهِم

(الباءُ) في ﴿بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ لِلْمُلابسَةِ، وذلكَ أنَّ علاماتِ أصحابِ النّارِ - مِن اسودادِ الوَجْهِ ونحوِ ذلكَ - ملابِسَةٌ لَهم وملازِمَةٌ.

ويجوزُ أن تكونَ الباءُ سَبَبِيَّةً، أيْ: إنَّهم عَرَفوهم بسَبَبِ عَلاماتٍ فيهِمْ دلَّتْ عَلَيْهِم؛ لأنَّ النّار قد أكلَتهُم، وغيَّرت معالمَهم مع تغيُّرهم بالسِّمَن وسَواد الوجوه، وعِظَم الجُثث[2].

عِلَّةُ الفَصْلِ في: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

تَفْسِيرُ نِداءِ أَصْحابِ الأَعْرافِ لِأَصْحابِ النّارِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِ هذهِ الجملَةِ بيانًا لِلْجُملَةِ قبلَها أو بدلًا مِنْها[3]،

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 8/385.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 1/37.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/364.

وعلَى كِلا الوجْهَينِ يكونُ بينَ الجملَتَيْنِ كمالُ الاتِّصالِ؛ فالوَصْلُ مُتعَيِّنٌ.

وكَوْنُها بيانًا: أوْلَى، وذلكَ لِما في إطلاقِ النِّداءِ مِنَ الإبهامِ الذي تتطَلَّعُ مَعَهُ النَّفْسُ إلى معرِفَةِ مضمونِه.

ويجوزُ أن يكونَ الفصلُ من بابِ الاستِئنافِ البيانيِّ، فيكونُ بين الجُملَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾، يبعَثُ في النَّفْسِ سُؤالًا: ما مضمونُ هذا النِّداءِ وما حقيقَتُهُ؟ فجاءَ الجَوابُ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالقولِ دونَ النِّداء:

التّوبيخُ مُستحَقٌّ لأصحابِ الوَجاهةِ الّذين جمعُوا الأموالَ، واسْتكبرُوا عنِ الحقِّ

في قوله: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾، عَبَّر بالقول دون النِّداء؛ لأنَّ القولَ أعمُّ من النِّداء، ولأنَّ الغرضَ من القول التَّبكيتُ والتوبيخ؛ لأنَّهم في الدُّنيا ما كانوا يسمحون للضُّعفاء والفقراء من أهل الإيمان بالقول، فأراد اللّهُ أن يُسمعَهم قولهم.

بَراعَةُ المجَازِ المُرَكَّبِ:

تَبْكِيتُ أَصْحابِ النّارِ والشّماتَةُ بِهِمْ، بما قدّمتْ أيدِيهم من فَسَادٍ

قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ خبرًا أو استفهامًا.

فعلى الخبر يُحمل معنى الآية على الخبَريَّةِ، ويكونُ الخبَرُ خارجًا عن أصلِ دلالَتِهِ مِنْ فائدةِ الخبَرِ أو لازِمِها إلى مَعْنًى مجازيٍّ؛ وهو شَماتَةُ أَصْحابِ الأعرافِ بِوُقوعِ المُخاطَبينَ من أهلِ النّارِ في العُقوبَةِ، وفي ذلكَ تَبْكيتٌ عَظيمٌ يَحْصُلُ لأصحابِ النّارِ بِسَبَبِ هذا الكَلامِ[1].

وعلى دلالةِ الاستفهامِ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾يكون من باب توبيخِ أَهْلِ النّارِ وتقريعِهِم، وهذا عَذابٌ يُزادُ فوْقَ عَذابِهِمُ الذي هم فيه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/146.

وهذا المعنى صوَّبَهُ ابن عطيَّةَ[1]، ويكون الاسْتِفْهامُ خارجًا عن دلالَتِهِ الحقيقيَّةِ مِنْ إرادَةِ طلبِ العِلْمِ بشيءٍ لَم يكُنْ معلومًا مِنْ قَبْلُ، والمُرادُ به التَّوبيخُ والتَّقريعُ[2]، وذلك متضمِّنٌ معنى النَّفْيِ أيضًا، ولا إشكالَ في ذلك، حيث آلَ معْنَى الجملَةِ حالَ حملِها على الخبريَّةِ إلى مَعْناها حالَ حملِها على الإنشائيَّةِ، وذلك أنَّ الخبرَ المَنْفيَّ يُرادُ به الشَّماتةُ والتَّبكيتُ، والاستفهامُ يُرادُ به النَّفيُ والتَّوبيخُ، وهي معانٍ مُتآيِلَةٌ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ دونَ غيرِها في الآيَةِ:

تَطاوُلُ الكفّارِ على شرعِ اللهِ، بما أعطاهُم سبحانه من غِنًى

آثرَ التَّعبيرَ بمادة الغِنَى في قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على عدَّةِ معانٍ، منها: عدمُ الاحتياج، وكثرةُ المقتنيات، وهذا ما كان يدَّعيه قادةُ الكفر في مكّة، وذلك بما أعطاهم اللّهُ من المال والولد؛ كما ذكر القرآنُ ذلك عنهم بقوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣﴾ [المدثر: 11 - 13]، فكانوا يستغنون بذلك عن نعيم الجنَّة، ويقولون: لا حاجة لنا بنعيمِ الجنَّة، فجاء هذا القولُ من باب التَّبكيت.

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَنكُمۡ﴾ في السِّياق:

إذا كان الوَصْلُ باللهِ مَقطوعًا، فلا يُغنِي مالٌ ولا جاهٌ

قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾، قُدِّمَ الجارُ والمجرور ﴿عَنكُمۡ﴾ لإفادة تخصيصِ هذه الفئة وتعيينِها، الَّتي استغنت بمالها وولدها، ولِتَميُّزِها عن غيرها من بقيَّة الكفّار.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ في أثناء السِّياق:

لا يُغنِي عَن أَصْحابِ النّارِ شَيْءٌ، مَهْما تَنوَّعَ وتَعدَّدَ وكَثُرَ

(الجَمْعُ) في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ يحْتَمِلُ أن يُرادَ بِه: جَمْعُ النّاس، والمعنى: ما أَغْنَتْ عنكم كَثْرَتُكم التي تَعْتزّونَ بها، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ (الجَمْعُ) مصدَرًا، يُرادُ به:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/405.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407.

اسمُ المَفْعولِ، والمعنى: ما أغنَى عنْكُم الذي جَمَعْتُموهُ مِنَ المالِ[1]، فهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ [الحاقة: 28]، فيكونُ مجازًا مرسلًا، بعلاقَةِ التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ.

ويضافُ إلى ذلك أنَّ التَّعبيرَ بلفظ الجمع يشير إلى العصبيَّة الجاهليَّة الَّتي كانت تجمعَهم على العناد والغطرسةِ، فكأنَّ كلمة الجمع لا تنفكُّ وصفًا عن ذواتهم الَّتي استكبرت عن الإيمانِ بالآيات الَّتي أنزلها اللّهُ على رسوله.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمصْدرِ ﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ دونَ غيرِه:

الجُموعُ لا تنفعُ ما لم تكُنْ في طاعةِ اللهِ، مُؤدّيةً لشَرْعِه وهُداه

والتَّعبيرُ بلفْظِ المَصدَرِ ﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ أبلَغُ؛ مِنْ جِهَةِ أنَّ نفسَ الجَمْعِ لَمْ يُغْنِ عنهمْ شيئًا، بقَطْعِ النَّظَرِ عن المَجْموعِ؛ فإنَّه مَهْما اختلفَتْ أنواعُهُ، وتعدَّدت أفرادُهُ؛ فإنَّها لن تُغنيَ عنهم.

سِرُّ زِيادَةِ فِعْلِ الكَوْنِ ﴿كُنتُمۡ﴾:

تَخلُّقُ أَصْحابِ النّارِ فِي الدُّنيا بِالِاسْتِكْبارِ، واسْتِمْرارُهُمْ عَلَيْهِ

جاءَ التَّعبيرُ بِفِعْلِ الكونِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دون أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما تستكبِرون)؛ للإشْعارِ بأنَّ استكبارَهم لَمْ يكُنْ أمرًا عارِضًا، وإنَّما كان خُلُقًا تكوَّنوا عليه وتخلَّقوا بهِ واستمرّوا عليهِ[2].

نُكْتَةُ التَّعبِيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

اسْتِحْضارُ مُوجِبِ العَذابِ، أَشَدُّ فِي حَسْرَةِ المُعَذَّبِينَ

يُلاحظ في اختيارِ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، دونَ الماضي: (اسْتَكْبَرْتُم) إظهار قبيح أعمالِهم الَّتي عملوها في صورَةِ ما يُعْمَلُ في الحالِ؛ لِيَسْتَحْضِروا موجِبَ عذابِهِمْ وقْتَ تعذيبِهِمْ، فيَكونَ ذلكَ أشدَّ في حسرَتِهِمْ وأبلَغَ في تبكيتِهِمْ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/145.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.

التَّكَبُّرُ ضَرْبانِ: تَكَبُّرٌ عَلَى الخَلْقِ، وَتَكَبُّرٌ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ

دَلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ فِعْلِ ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، فِي السِّياقِ:

حُذِفَ متعلَّقُ فِعْلِ الِاسْتِكْبارِ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، إيماءً إلى تخلُّقهم بعُموم أفرادِ هذا الخُلُقِ الذَّميم، فهم قَدْ تكبَّروا عَنْ قبولِ الحقِّ، وتكبَّروا على الخَلْقِ[1]، فحَذْفُ المتعلَّقِ كان مؤذِنًا بالعُموم مُشْعِرًا به.

ويَجوزُ أن يكونَ حَذْفُ المُتَعَلَّقِ لدلالَةِ القرينَةِ عليه، وأنَّ المرادَ به: التَّكبُّرُ على الخَلْقِ، بدليلِ قولِ اللّه ﷻ بعدُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾.

ويَنْضَمُّ إلى ذلكَ أنَّ الحذْفَ أليَقُ بالتَّناسُبِ الصَّوْتيِّ لأواخِرِ الآيِ؛ إذْ لَوْ نُصَّ عَلَيْهِ؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ.

اسْتِكْبارُ أَصْحابِ النّارِ كانَ عادَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيا، وَطَبْعًا مُتأَصِّلًا

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنِ المَصْدَرِ إلَى الفِعْلِ المُضارِعِ:

(ما) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ مصدريَّةٌ، والمعنى: ما أغنَى عَنْكُمْ جمعُكُم واسْتِكبارُكم؛ وصيغَ الاستكبارُ مِنَ الفِعْلِ دونَ المصْدَرِ، فلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما أغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ واسْتِكْبارُكُمْ)؛ لِيُتَوسَّلَ بالفِعْلِ إلى إيرادِهِ مُضارعًا، فيُفيدَ أنَّ استكبارَهم كان عادةً لهم وطبعًا، لا ينقطِعونَ عنه، ولا يفتُرونَ[2].

الاسْتِكْبارُ مانِعٌ من قَبولِ الحَقِّ

سِرُّ اخْتِيارِ الاسْتِكْبارِ فِي قولِه: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالاستكبار؛ لأنَّه يشير إلى نظرةِ قادة الكفر إلى أتباعِ الأنبياء، فيرونهم ضعفاءَ فقراءَ عبيدًا؛ لذلك كانوا يستكبرون، ويستعلون عليهم، ويصفونهم بأنَّهم أراذلُ الخلق، وهذا ما ذكره القرآن الكريم عن قوم نوح في استكبارهم على أتباع نوح، قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾؛ لذلك كان التَّبكيتُ لهم من جنس ما فعلوا.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/146.

سِرُّ الجمْعِ بين تَجميعِ الأموالِ والرِّجالِ، والاسْتِكبارِ، في سِياقٍ واحدٍ:

في قولِه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، جمعَ القرآن الكريم بين جَمْعهم واستكبارِهم ولم يكتَفِ بواحدةٍ منهما؛ لشدَّة التَّلازم بينهما، فالجَمْعُ يكون للأتباع والأشياع، ويُطلق على جمع المال أيضًا، والاستكبارُ ناتجٌ عن هذا الجَمْع الَّذي أدَّى إلى الاستكبار، ولذلك يكون المعنى: ما أغنى عنكم أتباعُكم، والَّذي كنتم تستكثرونه من الأموال[1].

جُـمـوعُ الـكُـفْـرِ تُـــؤَدِّي إلى الاسْـتِـكـبـارِ، والعُتوِّ في الأرضِ

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الاسْتِنْكافُ) و(الاسْتِكْبارُ):

الاسْتِنكافُ والِاسْتِكْبارُ متغايرانِ، بدليلِ ورودِهما متعاطِفَيْنِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾ [النساء: 172]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: 173].

الاسْـتِـنـكـافُ مَرحلةٌ أعلى من الاسْتِكبارِ

فالِاسْتِنْكافُ: الأنَفَةُ والتَّرفُّع، ومعناهُ: الانقباضُ والامتناعُ عَنِ الشَّيءِ مِن بابِ الحميَّةِ والعِزَّة، فهو أشدُّ من الاستكبار، وأمّا الاستكبارُ؛ فهو دونَ الِاسْتِنْكافِ؛ ولذا عُطِفَ عَلَيْهِ في الآيَتَيْنِ المُتَقدِّمتَيْنِ، مِنْ بابِ التَّدلّي، فالِاسْتِكْبارُ: طَلَبُ الكِبْرِ بِغَيْرِ اسْتِحْقاقٍ لَهُ؛ لأنَّ صاحبَهُ يُظْهِرُ مِنْ نَفْسِه ما ليسَ لَهُ.

والسّينُ والتّاءُ في الِاسْتِكْبار تدلُّ على القوَّةِ والشدَّةِ، فاسْتَكْبَرَ، أيْ: قويَ كِبْرُهُ وعَظُمَ، وأمّا السّينُ والتّاءُ في الاسْتِنْكافِ فهي دالَّة على الطَّلبِ والتَّحوُّلِ في التَّركِ مع أنَفَةٍ وتكبُّرٍ وامتناعٍ، ولَيْسَ هذا المعنى في الِاسْتِكْبارِ.

أما القول المنسوب إلى المبرّد رحمه الله من كون السينِ والتاء في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/125.

الاستنكاف للسَّلْب، فهو مبنيٌّ على أنَّ أصلَ الكلمة مشتقٌّ من النَّكْفِ، وهو قَوْلُ السّوءِ أو العَيْب، كما تقول العرب: "ما عَلَيْهِ في هَذا الأَمْرِ نَكْفٌ ووَكْفٌ"، أي: عَيبٌ، فعلى هذا القولِ تكونُ السينُ والتاء في "اسْتَفْعَلَ" لسلْبِ المعنى من العَيب إلى ما يضادُّه، وهو فعلُ العَيبِ وارتكابُ المعيبِ مع علوٍّ وارتفاعٍ وأنفَةٍ.[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نكف)، والشوكاني: فتح القدير: 1/625، والآلوسي، روح المعاني: 3/211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/59، والدّوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 194 - 195.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَـفْـتُ نَـظَـرِ أَصْـحـابِ الأعـرافِ، إلى المُستضعَفين المحتَقَرين من أهـلِ الـجَـنّـةِ، وحُـسْـنِ مَصيرِهم

لمّا أخبرَ اللّهُ ﷻ عَن أَصْحابِ الأعْراف في الآية السّابقة أنَّهم كلَّموا أصحابَ النّارِ بِكلامٍ متضمِّنٍ التَّوْبِيخَ واللَّوْمَ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ أخبرَ ﷻ في هذه الآية عن تتمَّةِ تَوْبيخِ هؤلاءِ وتَقْريعِهِم وتَحْزينِهِم والإنْكارِ عَلَيْهِمْ.[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾: القافُ والسِّينُ والميمُ تدلُّ كثيرٌ مِنْ تصاريفِها على معنى تجزئةِ الشَّيءِ[2]، وَمِنْهُ: القَسَمُ بِاللّهِ، وهوَ الحَلِفُ بِهِ، كأنَّ الحالِفَ جَعَلَهُ مِن نَصيبِهِ، أيْ: معَهُ، بمعنَى: أشْهَدُهُ عَلَى ما يَقُولُ[3]، أو أنَّ أصلَ القَسَمِ الذي بمعنَى الحَلِفِ: أنَّهُ مِنَ القَسامَةِ، وَهِيَ أيمانٌ تُقْسَمُ عَلَى أوْلياءِ المَقْتُولِ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى كُلِّ حَلِفٍ[4]، وهو المرادُ بقولِ اللّهِ تعالَى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي: حَلَفْتُمْ.

2) ﴿خَوۡفٌ﴾: الخاءُ والواو والفاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى الذُّعْرِ والفَزَعِ[5]، ومِنْهُ الخَوْفُ، وهُوَ ضدُّ الأَمْنِ[6]، وحقيقتُهُ: أنَّهُ غَمٌّ يَلْحَقُ العبدَ مِنْ توقُّعِهِ المكروهَ[7]، فهو خاصٌّ بالزَّمنِ المُسْتَقْبَلِ[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قسم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسم).
(4) الرّاغب، المفردات الكريم: (قسم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خوف).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خوف).
(7) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(8) الشّنقيطي، العذبُ النَّمير: 1/284.

3) ﴿تَحۡزَنُونَ﴾: الحاءُ والزّاي والنُّون تَدُور تصريفاتُها على معنى خُشُونةِ الشَّيءِ والشِّدَّةِ فِيهِ[1]، وَمِنْهُ: الحَزَنُ: وهو الغِلَظُ مِنَ الأرضِ[2]، والحُزْنُ: وهو ضدُّ الفَرحِ والسُّرور؛ لأنَّه شِدَّةٌ تَعْتَرِي قلبَ الإِنْسانِ[3]، وحقيقةُ الحُزْنِ: غَمٌّ مِن أمرٍ فائتٍ[4].

المعنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّه في هذه الآية أنَّ أهل الأعراف يقولون لأولئك الكفّار الذين في النّار: أهَؤُلاءِ الضُّعفاءُ والفُقَراءُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ الذينَ أقْسَمْتُمْ في الدُّنْيا: إنَّ اللّه سُبحانَهُ لا يَشْمَلُهم يَوْمَ القيامَةِ بِرَحْمَةٍ، ولَن يُدْخِلَهُمُ الجَنَّة؟ فقَدْ غَفَرَ اللّه لَهم، ورَحِمَهم بواسعِ فضْله ورَحْمَته. ويقال لأصحاب الأعراف: ادخُلوا يا أَصْحابَ الأَعْرافِ الجَنَّةَ، لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ بعدَها من عُقوبَةٍ تُعاقَبونَ بها على ما سلَفَ مِنْكُمْ في الدُّنيا مِنَ الآثامِ والإِجْرامِ، ولا أَنْتُمْ تَحْزَنونَ على شَيْءٍ فاتَكُمْ مِنْ حظوظِ الدُّنيا[5].

تـنـبـيـهُ أهْـلِ الأعْـــرافِ إلى الـضُّـعـفـاءِ والـفُـقـراءِ المؤمنين، كيفَ صـارُوا لا خوفٌ عـلـيـهـم ولا تَحزينٌ

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تحقُّقِ ما رجاهُ القومُ الذين استوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم - وكانوا على الحاجز العظيم بين الجنَّة والنارِ، الذي يُقال له الأعرافُ - من نَيْل رحمةِ اللّه تعالى لهم والإنعام عليهم بدخولِ الجنة؛ فإنَّ اللّه الكريمَ المنّانَ لم يجعلِ الطَّمعَ في قلوبهم إلّا لما يريدُ بهم من كَرامتِه سبحانه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِه تَعالَى: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

الـدِّفـاعُ عَـنْ أَصْحابِ الجَنَّةِ، بَـعْـدَ تَـبْـكِـيـتِ أَصْحابِ النّارِ

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حزن).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (حزن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(4) الشّنقيطي، العذبُ النَّمير: 4/462.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/472، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

﴿بِرَحۡمَةٍۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهُما من كمالِ الانقطاعِ، وذلك لِاخْتِلافِ الجملَتَيْنِ خبرًا وإنشاءً، فقولُ اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ جملةٌ خَبَرِيَّةٌ، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ جملةٌ إنشائيَّةٌ؛ إذْ هي استفهامٌ، وليسَ هذا الفصلُ مِمّا يوهِمُ خلافَ المقصودِ.

سِرُّ التَّعْريفِ بِاسْمِ الإشارَةِ (هَؤُلاءِ):

تَمْييزُ أَصْحابِ الجَنَّةِ أَكْمَلَ تَمْييزٍ؛ تَسْجِيلًا عَلَى أَصْحابِ النّارِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بِالإشارَةِ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ للتَّسجيلِ على أصحابِ النّارِ بتقريرِ المسنَدِ إليه وإيضاحِهِ وتمييزِهِ أكملَ تَمْييزٍ؛ لِيَرِدَ قولُه تعالى بَعْدُ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ نقضًا لذاتِ دَعْواهُمُ الباطِلَةِ بقسَمِهم بأنَّ هؤلاء الفقراء أتباعَ النبيّين لن ينالهم اللّه برحمةٍ من عنده؛ بناءً على ازدرائهم لهم في الدُّنيا.

دَلالَةُ الِاسْتِفْهامِ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾:

قَسَمُ الكَفَرَةِ عَلَى مَنْعِ اللهِ تَعالَى رَحْمَتَهُ عَنْ عِبادِهِ: جَراءَةٌ مِنْهُمْ عَلَى مَقامِ الرُّبُوبِيَّةِ

الاسْتِفْهامُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ ليسَ على حَقيقتِهِ مِن إرادَةِ طلب العِلْم بشيءٍ لَمْ يكُنْ معلومًا مِنْ قبلُ، وإنَّما المرادُ به التَّوبيخُ والتَّقريعُ والتَّحزينُ[1]، وذلك كلُّه متضمِّنٌ الإنكارَ عليهِمْ؛ إذْ كيفَ تَجَرَّؤوا على مَقامِ الرُّبوبيَّة بالإِقْسامِ على مَنْعِ اللّهِ تعالى رَحْمَتَهُ عَنْ عِبادِهِ!! وهذا مزيدُ تقريعٍ وتوبيخٍ لهم بأن يقال لهم: أهُمُ الذين ترونهم رأيَ العين في رحمة اللّه تعالى في جنَّة الخُلد، فكأنَّ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ وظيفتُها الإشارةُ إلى هؤلاء الضعفاء في زعمهم، فهُم اليوم في جنَّة الخُلد.

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ الفُقراءِ والضُّعفاءِ من أهْلِ الإيمانِ بالقَسَمِ:

مَقامُ الإيمانِ مآلُهُ، إعْلاءُ صاحبِه وإكرامُه في الدّارَيْنِ

قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾، عبَّر فيه القرآنُ الكريمُ عن هؤلاء الفقراء والضُّعفاء من أهلِ الإيمان بهذا التَّعبيرِ الموصوفِ؛ ليُعليَ من

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407.

قدرهم، ولينفيَ عنهم ما زعمه الكفّارُ في الدُّنيا من ضَعفهم وعدم الاكتراثِ بهم؛ فلم يُرِد أن يلحقَ بهم هذا الوصفُ المزعوم الذي أطلقَهُ مرَدةُ الكفّار؛ جَبرًا لخواطرهم، وتبكيتًا لقادة الكفرِ الذين افترَوْه عليهم؛ لذلك جاء التَّعبيرُ باسمِ الإشارة وجملةِ الصِّلة؛ ليبيِّن علوَّ منزلتهم في الآخرة، وردًّا على الذين كانوا يُقسِمون بأنَّ هؤلاءِ الفقراءَ لن ينالهم اللّه برحمةٍ من عنده.

سِرُّ التَّعبيرِ بالقسَمِ في قوله: ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾:

بذلُ الكفّارِ أقصَى المحاولاتِ في إضْعافِ رُوحِ الإيمانِ عندَ المؤمنين

عبَّر القرآنُ الكريم بالقَسَم في قوله: ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾؛ لبيان موقف المشركينَ من أتباع الرَّسول ﷺ الَّذين وعدَهُم بالثَّواب من عند اللّهِ تكريمًا لهم؛ فأراد الكفّار أن يُكذِّبوا الأنبياء في وعدِهم لهم بالجنَّة في الآخرة بهذا القسَم الَّذي يظنّون أنَّهم به صادقون.

ولإظهار تصلُّبِهم واعتقادِهم أنَّهم لا يُخامرهم شكٌّ في أنَّ هؤلاءِ الضُّعفاءَ لا ينالهم اللّه برحمةٍ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ الجمْعِ في القسَمِ ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾:

رِضا أهْلِ الكُفرِ عمومًا بإهانةِ المؤمنين

عبَّر القرآنُ الكريم بصيغة الجمع في القسَمِ الصادر عن الكفارِ في ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾، وإن كان هذا القسَمُ قد وقع من بعضِهم، وهم أئمّةُ الكفر وقادتُه؛ لأنَّ أهلَ ملّةِ الكفر على وجهِ العموم رضوا بذلك، وأقرّوا كُبراءَهم على هذا الادّعاء الكاذب؛ فاعتبرَ القرآنُ رضا الجميعِ وعدمَ إنكارِهم على عتاتهم، من باب موافقتهم فيما يقولون.

دَلَالَةُ النَّفْيِ فِي قَوْلِه: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾:

إبطالُ زَعْمِ الكفَّارِ في نفْيِ الرَّحمةِ عنِ المؤمنين

النَّفيُ بـ (لا) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ مُسلَّطٌ في كلامِهمْ على مُراعاةِ نَفْيِ كلامٍ يقولُهُ الرَّسولُ ﷺ أو المؤمنونَ، ووجهُ ذلك: أنَّ بِشاراتِ القرآنِ الكَريمِ لِأولَئِكَ الضُّعفاءِ، ووَعْدَهُ إيّاهُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/146.

بالجَنَّةِ، مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ كلامٍ مُفادُهُ: أنَّ اللّه تعالى أصابهم بِرَحْمَةٍ منه، فكانَ في نفيهم نيلَ اللّهِ تعالى هَؤُلاءِ برحمةٍ: ضَرْبٌ مِنْ ضُروبِ المشاكلَةِ لِلَفْظٍ مُقدَّرٍ، كما هو أحدُ صورَتَي المُشاكَلَة؛ فإنَّها: ذِكْرُ الشَّيْءِ بِلَفْظِ غَيْرِه؛ لِوُقوعِهِ في صُحْبَتِهِ تَحْقيقًا أو تَقْديرًا(1).

بَلاغَةُ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

بيانُ مُبالَغةِ أَصْحابِ النّارِ فِي الدُّنْيا، فِي نَفْيِ رَحْمَةِ اللهِ تَعالَى بِالضُّعَفاءِ مِنَ المُؤْمِنِينَ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ اسْتِعارَةٌ؛ إذ شُبِّهَ إيواءُ اللّهِ تعالى إيّاهم في الجنَّةِ بالنَّيْلِ؛ وهو حُصولُ الأمرِ المَحْبوبِ المَبْحوثِ عنه، فأُطْلِقَ على ذَلِكَ الإيواءِ فِعْلُ النَّيْلِ، على سَبيلِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وجُعِلَتِ الرَّحْمَةُ بمنزِلَةِ الآلَةِ لهذا النَّيْلِ(2)، ونُكْتَةُ الاستعارَةِ المبالَغَةُ في نفي رحمَةِ اللّه تعالى لِهَؤُلاءِ؛ بحيثُ إنَّ هذه الرَّحْمَةَ المُسداةَ لهم من ربِّهم الرحمنِ تطلبُهم، وهم كالفارّينَ مِنْها.

دَلالَةُ الباءِ ﴿بِرَحۡمَةٍۚ﴾:

بَيانُ كَوْنِ الرَّحْمَةِ مُلابِسَةً لِلنَّيْلِ المَذْكُورِ وَآلَةً لَهُ

الباءُ في ﴿بِرَحۡمَةٍۚ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ للآلَةِ، فتَكونُ الرَّحمَةُ بمنزلةِ الآلَةِ والوسيلةِ لهذا النَّيلِ، ويجوزُ أن تكونَ الباءُ لِلْمُلابسَةِ، فتكون الرَّحْمَةُ مُلابِسَةً للنَّيْلِ، شاملةً لإكرامِ اللّه لهم بدخولِ الجنَّةِ ومنازلِها(3).

دَلالَةُ المَجازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ:

مَقاييسُ أَهْلِ الكُفْرِ فِي مَعْرِفَةِ أَقْدارِ النّاسِ، تَتَعَلَّقُ بِمَظاهِرَ دُنْيَوِيَّةٍ

جملةُ ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، المحكيَّةُ عَنْ أصحابِ النّارِ إقسامُهم عليْها جملةٌ خبريَّةٌ، لا يُرادُ بها مُطلَقُ الإخبار، وإنَّما المرادُ لازِمُ ذلك: وهو التَّهكُّمُ بضعفاءِ المؤمنينَ في الدُّنيا(4)؛ حيثُ لم يَرَوْهم أهلًا لنَيْلِ رَحْمةِ اللّه تعالى، فكانَتِ الجُمْلَةُ مَجازًا مُرْسَلًا مُرَكَّبًا.

(1) الصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/588.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/146.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/147.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/147.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَحَلِّ الإضْمارِ:

جُرأةُ الكفّارِ في التَّضييقِ على أهلِ الإيمانِ بمُجرَّدِ هوَى النُّفوسِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضمار، وذلِك أنَّ جملة ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى لأصحابِ النّارِ تبكيتًا لَهم وتقريعًا، فكان مقتضى الظّاهرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أهؤلاء الذين أقسمْتُم لا أنالُهم برحمةٍ)، فأُظْهِرَ المسنَدُ إليه، وجيءَ بِه معرَّفًا بالعلَميَّة - بالاسْمِ الأحسنِ (اللّه) - مبالغةً في تقريعِهِمْ وتَبْكيتهم؛ إذْ إنَّ اسمَ (اللّه) دالٌّ على مَنْ لَهُ صفاتُ الكَمالِ والجمالِ والجَلالِ، ومِنْ جملةِ تلكَ الصِّفاتِ الكاملَةِ: رَحْمَتُهُ سُبحانَهُ[1]، فقَبيحٌ بأحدٍ مِنَ الخَلْقِ أن يتجرَّأَ على هذه الصِّفةِ وغيرِها من الصِّفاتِ الإلهيَّة بالحَجْرِ والتَّضْييق، بمجرَّدِ مشْتهَياتِ النُّفوسِ وأهوائها.

سِرُّ إيثارِ التَّعْبيرِ بالرَّحمةِ دونَ غيرِها:

الرَّحمةُ بابٌ واسِعٌ يَعمُّ الجميعَ، ويَنتفعُ به كلُّ مَن رَحِمَه الله

قوله: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالرَّحمة؛ لأنَّها تُطلق على أبوابٍ من الخير كثيرةٍ؛ فهي في الدُّنيا تأتي بمعنى (الرِّزق، النَّصر، العافية، التَّوفيق، غيثِ المطر) إلى غير ذلك من المعاني الَّتي تحملُ بشاراتٍ وافرةً من الخير، وفي الآخرة تأتي بمعنى الجنَّة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 107] يعني في الجنَّة؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ جبابرةَ الكفارِ لا يريدون لضَعَفةِ المؤمنين خيرًا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

سِرُّ تَنْكِيرِ لفْظِ (رَحْمَةٍ):

ضَلالُ أفْهامِ الكُفّارِ، وأَفَنُ عُقُولِهِمْ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، نُكِّرت كَلِمَةُ (رَحْمَةٍ) مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ حكايةً لمقالَةِ أصحابِ النّارِ التي قالوها في الدُّنيا: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾؛ لإرادةِ التَّصغير، أي: إنَّهم أقسَموا أنَّ اللّه ﷻ لا ينالُهم بأيِّ رحمةٍ مَهما صَغُرَتْ. ويَجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407.

لإفادَةِ العُمومِ؛ لوُرودِها في سياقِ النَّفْي، فيكونَ نفيُهُم واقعًا على كلِّ رحمةٍ صغيرةً كانت أو عظيمَةً، وعلى الوَجْهِ المتقدِّم يكونُ النَّفْيُ لِصَغيرِ الرَّحْمَةِ، ويُستفادُ نفيُ عَظيمِها بطريقِ الأولَوِيَّةِ والأحْرَوِيَّة.

وهذا مِن عَظيمِ جراءَتِهِم على مقامِ الرُّبوبيَّةِ، وهو من أَفَنِ عقولِهِم، وضلالِ أفهامِهِم؛ إذْ ظنّوا أنَّ مَن ينالونَ قوَّةً وثراءً في الدُّنيا؛ ينالونَها في الآخرةِ إن وُجِدَتْ[1].

دَلالةُ عَدَمِ ذِكْرِ القَولِ قبلَ قولِه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

حَـذْفُ الـقَـوْلِ لِتعجيلِ البِشارةِ لهم، فلا حائلَ بينهم وبين الدُّخولِ

جاء التعبيرُ القرآنيُّ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ من غير ذِكرِ القولِ أو النِّداء بأن يُقال لهم: ادخلوا الجنَّة مع أنَّ السّياق في هذا المشهد مبنيٌّ على الحوار والمناداة، فلم يَرِدِ القولُ - سواءً كانَ خِطابًا مِنَ اللهِ لِأهْلِ الأعْرافِ، أو كانَ خِطابًا مِنَ اللهِ لِأهْلِ الجَنَّةِ[2] - ليعجلَ بالبِشارةِ لأهلِ الإيمانِ المعنيّين في الخطابِ بدخولِ الجنة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، فأراد تقصيرَ الزَّمنِ بحذفِ فعلِ القولِ استعجالًا للبشارة.

ويحتمل أنْ يَكونَ الخطابُ المطويُّ نسبتُهُ حاصلًا مِن أَهْلِ الأعْرافِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ؛ فعَلى هَذا الوَجْهِ يَكونُ مَعْنى قَوْلِ أَهْلِ الأعْرافِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: اعْلوا إلى القُصورِ المُشْرِفَةِ، وارْتَفِعوا إلى المَنازِلِ المَنيفَةِ؛ لِأنَّهم قَدْ رَأَوْهم في الجَنَّةِ[3]. وفيه إشارةٌ إلى توجيهِ الخطاب - إلى هؤلاءِ الذين أقسَمَ الكفّار عليهم - من التَّحدُّث عنهم إلى الخطاب معهم.

بَراعَةُ التَّعْبيرِ بِدُخُولِ الجَنَّةِ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، في أثناء الآيةِ الكريمةِ:

نَـقْـضُ مَـقـالَـةِ أَصْـحـابِ الـنّـارِ، بِالدَّليلِ والبُرْهانِ

أقْسَمَ أصحابُ النّارِ في دُنياهم ألّا ينالَ اللّهُ تعالى ضُعَفاءَ أهلِ الإيمانِ برحمةٍ، كما قالَ اللهُ سُبحانَهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2852.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/125.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/343، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/125.

﴿يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾، فرَدَّ اللّهُ ﷻ عَلَيهِمْ بإبطالِ مَقالَتِهم، فقال: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾، وأمَرَهُم بدخولِ الجنَّةِ نكايَةً في أهلِ النّارِ؛ لأنَّ ذلك أنْفَى لِما أقسَموا عَلَيْه(1)، لاشتمالِهِ على نقيضِ قولِهِم مقرونًا بالدَّليلِ، فكأنَّ المعنى: بل أنالُهم برحمةٍ مِنّي، والدَّليلُ على ذلك إدخالي إيّاهُمُ الجنَّةَ.

دَلالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾:

الأمْرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ خَرَجَ عَن أصْلِهِ في الدَّلالَةِ على الإلْزامِ بالفِعْلِ؛ لِعَدمِ قُدرَةِ العبادِ على دُخولِ الجنَّةِ باخْتيارِهِم، ولانقِطاعِ التَّكليفِ في الآخِرَةِ، وإنَّما الأمْرُ في ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ يُرادُ به الإكرامُ، ولازِمُ ذلك إدخالُ الغَمِّ والحسْرَةِ(2) على أصحابِ النّارِ الذين احْتَقَروا هؤلاءِ الضُّعفاءَ مِنَ المؤمنينَ.

إكْرامُ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإدْخالُ الغَمِّ والحَسْرَةِ عَلَى أَصْحابِ النّارِ

ويجوز أن يكونَ الأمرُ مُرادًا به الدُّعاءُ؛ وذلك لأنَّ المشارَ إلَيْهِمْ بِـ (هَؤُلاءِ) هم ناسٌ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ؛ إذْ ذَلك الوَقْتُ قَدِ اسْتَقَرَّ فيه أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأهلُ النّارِ في النّارِ، فلمّا كان دخولُ كُلٍّ حاصِلًا، فكانَ الدُّعاءُ مرادًا به الدَّوامُ(3).

ويؤكِّد ذلك ما ذكره أبو زهرةَ بقوله: "وطلبُ الدُّخولِ هنا تقريرٌ للدُّخول؛ لأنَّهم دخلوا فعلًا، وما كان دخولهم بعد الطَّلب، إنَّما كان قبلَه، كما ترى إنسانًا في أرضٍ طيِّبةٍ، فينتفعُ وهو فيها، ويستحقُّها، تقول له: ادخُلْها وابقَ فيها"(4).

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ، في قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾:

عبَّر بالضَّمير لتعدُّد المراد فيه، فقيل: هم أصحابُ الأعراف،

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407 - 408.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/147.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2853.

والله تعالى يقول لهم ذلك أو بعضُ الملائكة الَّذين يأمرُهم اللّهُ تعالى بهذا القول، وقيل: المرادُ أهلُ الجنَّة الذين وردَ ذِكرُهم في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، ويكون القائلُ ذلك لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أصحابَ الأعراف[1].

الإضمارُ ناسَبَ تعدُّدَ مَرجِعِ الضَّميرِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالجنَّةِ فقط، دونَ ذِكْرِ أوصَافِها:

الجَنَّةُ دارُ الثَّوابِ والنَّعيمِ لِأَهْلِ الإيمانِ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ الجنَّة من غير وصفٍ من باب استغراقِ أفرادِ الجنسِ، فيشملُ كلَّ أوصافِ الجنّات؛ لذلك ذهبَ العلماءُ في المرادِ باللّام في ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أنَّها لِلعَهْدِ العِلْميِّ، وهيَ جنَّةُ الخُلْدِ التي أعدَّها اللّهُ سُبحانَهُ نعيمًا لأهلِ الإيمانِ، ويَجوزُ أن تكونَ اللّامُ للعَهْدِ الحُضوريِّ، أي: ادخلوا الجنَّةَ الَّتي هي حاضِرَةٌ أمامَكُمْ، أو اسْتَمِرّوا على دخولِكُمُ الجنَّةَ التي أنتُمْ مستقرّونَ فيها وقتَ الخِطاب.

نُكْتَةُ نَفْيِ الخَوْفِ والحُزْنِ على عبادِه المستضعَفين فِي الجنّةِ:

مُتَعَلَّقُ الخَوْفِ أَمْرٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ، وَمُتَعَلَّقُ الحُزْنِ أَمْرٌ ماضٍ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، نُفيَ الخوفُ عن المُكَرَّمين بدخول الجنة بِصيغةِ الاسْمِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، ونُفيَ الحُزْنُ عنهم بصيغَةِ الفِعْلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾؛ لأنَّ متعلَّقَ الخَوْفِ أَمْرٌ مستقْبَليٌّ، بِخِلافِ مُتعلَّقِ الحُزْنِ فهو ماضٍ، والأُمورُ المستقبَلَةُ غيرُ مُتَناهيَةٍ، بخلافِ الأمورِ الماضيَةِ؛ فهيَ مُتَناهيَةٌ لانقطاعِها[2]، فكان الأوفقُ أن يُقال: (فلا حُزنٌ عليهم ولا يخافون)؛ فهو أرتَبُ ليعبِّر عن المستقبلِ بصيغة المستقبل، إلّا أنَّ النَّظمَ الكريمَ آثرَ الإشارةَ إلى تكرُّرِ الحزنِ منهم المرّةَ بعد المرّة؛ وتذكُّرُ الإنسانِ أمرًا مضى، أقربُ من تذكُّرِه أمرًا مستقبلًا، وتأسُّفُه على الماضي المحَّقِ الوقوعِ أشدُّ من حُزنِه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/295.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/227.

على المستقبل؛ لأنّه يتكرَّرُ تذكُّرُه الماضيَ شيئًا بعدَ شيء، بل فمهما تذكَّره يحزن عليه، فعبَّر عنه بالفعل المقتضي للتجدُّد، وليس كذلك المستقبل بوجه(1).

دَلالَةُ التَّعبِيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَحْزَنُونَ﴾:

عَظَمَةُ ما عِنْدَ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الخَيْراتِ

عُبِّر بِالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ لِنَفْيِ تُجدُّدِ الحُزْنِ عَلَيْهِمْ في وقتٍ مِن الأَوْقاتِ على أيِّ شَيْءٍ فاتَ؛ وذَلِكَ لما عِنْدَهم مِنَ الخَيْراتِ التي لا تَدْخُلُ تَحْتَ الوَصْفِ لعظَمَتِها(2).

نُكْتَةُ تَعدِيَةِ الخَوْفِ بِـ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾:

نَفْيُ اسْتِعْلاءِ الخَوْفِ عَلَى أَصْحابِ الجَنَّةِ أَوْ إِحاطَتِهِ بِهِمْ

عُدّيَ الخَوْفُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ دون أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لا خَوْف لَهُم) أو (لا خَوف عِنْدَهُم)؛ وذلك لِما في حَرْفِ الجرِّ (عَلَى) مِنَ الدَّلالة على الاسْتِعْلاءِ والإحاطَةِ، فيكونُ المَنْفيُّ: اسْتِعْلاءَ الخَوْفِ عَلَيْهِمْ وإحاطتَهُ بهِمْ.

سِرُّ اختِصاصِ نفْيِ الخوفِ والحُزنِ دونَ سِواهما:

الخوفُ والحُزْنُ أكثرُ ما يُنَغِّصُ بهجَةَ العَيْشِ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بنفيِ الخوفِ والحزنِ دون سِواهما؛ لأنَّ الإنسانَ يعيش بين حالتين: بين خوفٍ بما يتعلَّق بمستقبلِه من أمور الآخرة، وحزنٍ على ما فاتَ من أمورِ الدُّنيا، وهذا يؤدّي إلى عدم استقرار النَّفس؛ لذلك كانت منَّة الله على عبادِه المؤمنين بأنْ أراحَ نفوسَهُم من الحزنِ على الماضي، ومن الخوف على المستقبل.

دَلالةُ تَقديمِ الخوفِ على الحُزنِ في الآيةِ الكريمةِ:

الخوفُ أشدُّ من الحُزْنِ، وأعتَى منه أثَرًا

قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، قدَّم نفيَ الخوفِ على نفي الحزنِ؛ لعِلْمِ اللهِ ﷻ بطبيعةِ النَّفس الإنسانيَّة في حرصها على المصالح الدُّنيويَّة في قابل أيّامها، فهو شُغلها الشّاغلُ، أمّا ما

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/266.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.

كان في الماضي؛ فطبيعة النَّفس النِّسيان له، فسَرْعان ما تنسَى ما أصابها من حوادثَ فيما مضى.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الخَوْفُ) و(الحُزْنُ):

الخَــوْفُ من مُـسـتـقـبَـلٍ، والـحُـزنُ على ماضٍ

الفَرقُ بينَ الخَوْفِ والحُزْنِ في متعلَّقَيْهما؛ فمُتعلَّقُ الخَوْفِ مستقبَلٌ، ومُتعلَّقُ الحُزنِ ماضٍ؛ وذلكَ أنَّ الخَوْفَ غَمٌّ مِن أمرٍ مستقبَلٍ، والحُزْنَ: غَمٌّ مِنْ أمرٍ قد مَضَى[1].

وذكَر الشِّهابُ الخَفاجيُّ أنَّ الخوفَ أشدُّ مِنَ الحُزْنِ[2]، ووجهُهُ: أنَّ سببَ الحُزْنِ وقَعَ وانقَضَى، وإنَّما يتجَدَّدُ الغَمُّ به عِنْدَ تذكُّرِه، بخلافِ الخَوْفِ؛ فإنَّ سببَهُ مُستقبَلٌ، وقد تكونُ فيهِ نَوْعُ جَهالةٍ، وربما كان ذَلِكَ شَديدًا عَظيمًا.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/378، والشّنقيطي، العذب النَّمير: 1/284.
(2) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 2/172.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العَلاقةُ بين حالِ أهْلِ الجنّةِ، واستغاثةِ أهْلِ النّارِ بهم، وقد حُرّمَ نعيمُها على أهْلِ النّارِ

لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى نداءَ أصحابِ الجنَّةِ - وقد حصلَ لهُمُ السُّرورُ بدُخولِها - لأصحابِ النّارِ بما يُؤلِمُ ويُنْكي، وخَتَمَ ذلك بنَفْيِ الخَوْفِ والحُزْنِ عَنْ أصحابِ الجنَّةِ؛ أخبرَ هنا أنَّ أصحابَ النّارِ يُنادون أصحابَ الجنَّةِ - وقد حصلَ لَهُمُ الغَمُّ بدخولِها - لكِنْ بما يُرقِّقُ ويُبْكي، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، فثَبَتَ لأصحابِ النّارِ مِنَ الخوفِ والحُزْنِ ما نُفيَ عَنْ أهْلِ الجنَّةِ في الآيَةِ المتقدِّمَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفِيضُواْ﴾: الفاءُ والياءُ والضّادُ تدلُّ اشتقاقاتُها على جَرَيانِ الشَّيءِ بسهولَةٍ[2]، ومِنْهُ: أفاضَ إناءَهُ؛ إذا ملأهُ حتَّى أسالَهُ، ويُقالُ للرَّجُلِ السَّخِيِّ: فيّاضٌ[3]؛ كأنَّ العَطاءَ يجري مِنْهُ جَرْيًا سَهْلًا، وإفاضَةُ الماءِ في قولِهِ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ هيَ التَّوْسِعَةُ في إِعْطائِهِ[4].

2) ﴿حَرَّمَهُمَا﴾: الحاءُ والرّاءُ والميمُ تدورُ تصريفاتُها على المَنْعِ والتَّشديد، ومنه الحَرامُ، وهوَ ضِدُّ الحَلالِ[5]، وذلك أنَّ الحلالَ مأذونٌ فيه إتيانُهُ، بخلافِ الحرامِ فيُمْنَعُ منه.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فيض).
(3) الرّاغب، المفردات الكريم: (فيض).
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2854.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).

والتَّحريمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يُرادُ به المَنْعُ، أي: إنَّ اللّه تعالى مَنَع الكافرينَ منهما، ولَيْسَ المُرادُ التَّحْريمَ الشَّرْعيَّ؛ إذِ الدّارُ الآخِرةُ لَيْسَتْ دارَ تَكْليفٍ[1].

❁ المعنى الإِجْماليُّ:

استِجداءُ أهْلِ النَّارِ أهلَ الجنَّة، فاعتذروا لهم، بأنّ الله حرّم ما في الجنّة عليهم

في هذه الآية نادَى أصحابُ النّارِ بَعْدَ ما دَخَلوها أَصْحابَ الجَنَّةِ بَعْدَ ما سَكَنوها: يا أَهْلَ الجَنَّة صُبّوا علينا الماءَ بكثرةٍ وسَعة، أو أَطْعِموا ممّا رزَقَكُمُ اللّهُ تعالى مِنَ الطَّعام، فأجابَهم أَهْلُ الجَنَّةِ بأنَّ اللّه سُبحانَهُ حَرَّمَ الماءَ والطَّعامَ على الذينَ جَحَدوا تَوْحيدَهُ، وكَذَّبوا في الدُّنيا رُسُلَهُ[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ سقيَ الماءِ من أفضل الأعمال، وقد سُئِل ابن عباس ﵄: أيُّ الصدقةِ أفضل؟ فقال: الماءُ؛ ألم تروا إلى أهلِ النّار حين استغاثوا بأهل الجنَّة: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾. وقد قال بعضُ التابعين: مَن كثُرتْ ذنوبُه؛ فعليه بسقْيِ الماء، وقد غفرَ اللّهُ ذنوبَ الذي سقى الكَلْب، فكيفَ بمَن سقى رجلًا مؤمنًا موحِّدًا، وأحياه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ بما قَبْلَهُ:

استِكْمالُ المُحاوَراتِ الجارِيَةِ فِي عَرَصاتِ القيامةِ بين المؤمنين وغيرِهم

وُصِلَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بما قَبْلَهُ؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بَيْنَ الكمالَيْنِ، وذلك لِوُرودِ هَذِهِ الآيَةِ في جُملةِ الآياتِ التي صُدِّرت بالنِّداءِ، فاشْتَرَكَتْ مَعَ ما قبلَها - ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ - في الخبريَّةِ، والفِعْليَّة، والماضَويَّة، وبينَهُما مناسبةٌ؛ وهو اشتراكُهُما في المُسْنَدِ - وَهو الفعلُ (نادَى) - ووُقوعِ هذا النِّداءِ في الآخرة.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/227.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/473، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/233.

عُلُوُّ أَهْلِ الجَنَّةِ مَكانًا ومَكانَةً، وما أُوتُوا من فضلٍ وكَرامةٍ

بَلاغَةُ الكِنايَةِ فِي التَّعْبِيرِ بِالنِّداءِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

النِّداءُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ خطابٌ مِنْ أصحابِ النّارِ، وقَدْ وردَ التَّعبيرُ عنْ هَذا الخِطابِ بالنِّداءِ كِنايةً عَن بُلوغِهِ إلى أَسْماعِ أَصْحابِ الجنَّةِ مِن مسافةٍ سَحيقةِ البُعْدِ، وذلكَ أنَّ سَعةَ النّار وسَعةَ الجنَّةِ مقتَضيَتانِ ذَلِكَ، وطَريقُ بلوغِ هذا الخِطابِ من النّارِ إلى أسماعِ أصحابِ الجنَّةِ عجيبٌ غيرُ معهودٍ، وهو من أحوالِ الآخرَةِ الغَيْبِيَّةِ عَنْ مداركِ العبادِ في الدُّنيا؛ والواجبُ الإيمانُ بها.

والتَّعبيرُ بالنِّداء يقتضي سماعَ كلٍّ من الفريقين للآخر، وهذا السَّماعُ يجوزُ أن يكون مع رؤيةٍ واطِّلاع؛ لأنَّه أخزَى وأنكَى للكافرين، ويجوز أن يكون مع السَّدِّ المضروب أيضًا[1].

تَحَقُّقُ وُقُوعِ جَميعِ ما أَخْبَرَ اللهُ ﷻ بِهِ، يَقِينٌ لا رَيْبَ فيه

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ الماضِي ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

النِّداءُ الوارِدُ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ مُسْتَقْبَلٌ؛ لكونِهِ من أَحْوالِ الآخرَةِ، إلّا أنَّه عُبِّرَ عنه بِصيغَةِ الفِعْلِ الماضي (نادَى) - على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ - لِلْإيماءِ إلى تحقُّقِ وقوعِه، وأنَّ هذا النِّداءَ بينَ أصحابِ النّارِ وأصحابِ الجَنَّةِ ممّا يُقْطَعُ بِوُقوعِهِ على النَّحْوِ الذي أَخْبَرَ اللّهُ تعالى بهِ.

تَحْقِيرُ شَأْنِ أَصْحابِ النّارِ، وَتَعْظِيمُ أَصْحابِ الجَنَّةِ وَتَكْرِيمُهُمْ

سِرُّ الإِضافَةِ فِي الفَرِيقَيْنِ مِنْ (أصحابِ النّارِ) و(أصحابِ الجنّةِ):

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، أُضيفَ الأصحابُ إلى النّارِ في مَوْضِعِ الفاعليَّةِ، وإلى الجنَّة في مَوْضِعِ المفعوليَّةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ تحقيرًا لِلْمُضافِ - وَهو ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ - في المَوْضِعِ الأَوَّلِ، وتعظيمًا وتفخيمًا وتكريمًا للمُضافِ أيضًا - وَهو ﴿أَصۡحَٰبَ﴾ - في الموضع الثّاني.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/304.

بَراعَةُ الطِّباقِ بَيْنَ ﴿ٱلنَّارِ﴾ و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

عَظِيمُ التَّبايُنِ بَيْنَ فَرِيقِ النّارِ وَفَرِيقِ الجَنَّةِ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ نلاحظ أنّ ما بَيْنَ لفظي ﴿ٱلنَّارِ﴾ و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ مِن الآية الكريمة، طباقُ إيجابٍ، وهو يُظْهِرُ التَّبايُنَ العَظيمَ بَيْنَ فريقَي المحَلَّيْن: فريقِ النّارِ وفريقِ الجنَّةِ، وأنَّهُما مُتَبايِنانِ لَفْظًا ومكانًا ومَكانَةً.

دَلالَةُ (أَنْ) التّفسيريّةِ في أثناء الآيةِ القرآنيّةِ:

تَفْسِيرُ النِّداءِ وَبَيانُ شَأْنِهِ

﴿أَنۡ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ تَفْسيريَّةٌ، وذَلِكَ لِوُرودِها بَعْدَ فِعْلٍ مُشْتَمِلٍ على معنى القَوْلِ دونَ حُروفِه، وهو (نادَى)، فأفادَ أنَّ مضمونَ النِّداءِ كانَ قَوْلَهم: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾.

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ بِالفعْلِ ﴿أَفِيضُواْ﴾:

عُلُوُّ مَكانِ أَهْلِ الجَنَّةِ مُشْعِرٌ بِعُلُوِّ مَكانَتِهِمْ، عِنْدَ مَنْ إليه المرجِعُ والمآبُ

في التَّعبيرِ بالإفاضَةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ دلالَةٌ على عُلوِّ أهلِ الجنَّةِ مكانًا، وذلك أنَّ أصلَ الإفاضةِ دالٌّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسهولَةٍ[1]، فإفاضَةُ الماءِ: جريانُه بسهولَةٍ، وذلك مُقْتَضٍ انحدارَهُ مِنْ مكانٍ عالٍ إلى ما دونَهُ، فأفادَ هذا أنَّ أهلَ الجنَّةِ أعلَى مكانًا؛ بحيث لو أفاضوا الماءَ وصَلَ إلى أهل النّارِ[2]؛ وعلوُّ مكانِهِمْ مُشْعِرٌ بعُلوِّ مكانتِهِمْ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بلفْظِ (الإفاضَة) دُونَ (السُّقْيا):

الإفاضَةُ مُقْتَضِيَةٌ التَّوْسِعَةَ في العَطاءِ، والإغداقَ بالماءِ

عُبِّرَ بالإفاضَةِ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ دونَ السُّقيا، فلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أنِ اسْقونا)؛ وذلك لأنَّ الإفاضةَ أمْكَنُ؛ لكونِها تقتضي التَّوسِعَةَ، كما يُقال: أفاضَ اللهُ سُبحانَهُ على عَبْدِهِ نِعَمَهُ، أي: وسَّعَها عليه[3].

وللإشارةِ إلى أنَّهم يطلبون أن يشربوا من الماء الزّائد عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فيض).

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/252، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/61.

حاجتهم، والَّذي يجري من أعلى إلى أسفلَ بخلاف السُّقيا؛ فيلزمُ منها اقترابُ السّاقي ممَّن يُسقَى من أهل النّار، وهذا يُنافي كمالَ التَّنعُم.

بَلاغَةُ المَجازِ على سَعَةِ العَطاءِ والسَّخاءِ:

عَظِيمُ النِّعَمِ الّتِي يَتَقَلَّبُ أَهْلُ الجَنَّةِ فِيها، لا تُعدُّ ولا تُحصَى

يَجوزُ أن تُحمَلَ الإفاضَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ على مَعْناهُ المجازيِّ، وهو سعَةُ العطاءِ والسَّخاءِ مِنَ الماءِ والرِّزْقِ، والمقصودُ: الإرسالُ والتَّفضُّلُ[1]، والمعنى: ألّا يَمْنَعوهُ بِسُدودٍ، حتَّى يَنْهمِرَ أنهارًا، ويَفيضَ عَلَيْهِمْ مِدْرارًا[2]، وهَذا مُشْعِرٌ بِعَظيمِ نِعْمَةِ أهْلِ الجَنَّةِ؛ حَيْثُ إِنَّهم لَو أرْسَلوا ما زادَ عَن حاجَتِهِم؛ لَكانَ الزّائِدُ مُنْهَمِرًا أنْهارًا.

الدَّلالَةُ المَجازِيَّةُ لِلْأَمْرِ ﴿أَفِيضُواْ﴾:

الآيِسُ مِنَ الشَّيْءِ، قَدْ يَطْلُبُهُ عَلَى وَجْهِ التَّمَنِّي، وقد لا ينالُه رُغْمَ طُولِ الأماني

الأمرُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ لا يُرادُ به حقيقتُهُ مِنْ إرادَةِ طلَبِ الفِعْلِ على وجهِ الإلْزامِ، فإنَّ أصحابَ النّار أحْقَرُ مِنْ أن يَصْدُرَ منهمْ هذا على وجْهِ الإلْزامِ، بل خرَجَ الأمرُ إلى دلالَةٍ مجازيَّةٍ، وهيَ الاستجداءُ والسُّؤالُ؛ لِكونِ الطَّلَبِ صادرًا مِمَّنْ هو مُنْحَطُّ المنزلَةِ قليلُ القَدْرِ، وهذه الدَّلالَةُ لفعلِ الأمْرِ بناءً على أنَّ أصحابَ النّارِ سألوا مَعَ رَجائِهِم حُصولَ ما سألوهُ وتجْويزِهم وقوعَهُ.

وأمّا إذا كانَ طَلَبُهُم هذا مَعَ اليَأْسِ مِنَ الحُصولِ؛ لِعِلْمِهم بدَوامِ عِقابِهِم، وأنَّه لا ينقطِعُ عنهمْ، فيكونُ ذلكَ على وجْهِ التَّمَنّي، وذلك لأنَّ الآيِسَ مِنَ الشَّيءِ قَدْ يَطْلُبُه، كما ورَدَ في المَثَلِ: الغَريقُ يتعلَّقُ بالزَّبَدِ، وإن كان قد عَلِمَ عَدَمَ إغاثَتِه لَهُ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/148.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2854.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/252.

دَلالَةُ اللُّزُومِ فِي ﴿أَفِيضُواْ﴾:

بيانُ عَظيمِ البَلاءِ الَّذي يُقاسيهِ أَصْحابُ النّارِ، وَشِدَّةِ العَذابِ الَّذي يُعَذَّبُونَهُ

الأمْرُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ سواءٌ حُمِلَ على معنى الدُّعاءِ أو التَّمنّي؛ فإنَّ لازِمَهُ دالٌّ على حصولِ العَطَشِ الشَّديدِ، والجوعِ العظيمِ لَهم[1]، فهذا الأمْرُ مُفيدٌ عظيمَ البَلاءِ الذي يُقاسونَه، وشدَّةَ العذابِ الّذي يُعذَّبونَهُ، فالذين كفروا يحيطُ بهم العذابُ في هيئَةِ ثيابٍ جُعِلَت لهم من نارٍ يَلْبَسونها، فتشوي أجسادَهم، ويُصَبُّ على رؤوسهم الماءُ المتناهي في حَرِّه، ويَنزِلُ إلى أجوافهم فيُذيبُ ما فيها، حتى ينفُذَ إلى جلودِهم فيشويَها فتسقطَ، وتضربُهم الملائكةُ على رؤوسهم بمطارقَ من حديدٍ، كلَّما حاولوا الخروجَ من النّار - لشدَّة غمِّهم وكَرْبهم - أُعيدوا للعذابِ فيها، وقيل لهم: ذوقُوا عذابَ النّارِ المحرقِ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج: 19 - 22].

دَلالةُ التّخصِيص في تَقديمِ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾:

طَلَبُ أَهْلِ النّارِ من أهْلِ الجنّةِ إفاضةَ الماءِ عليهم، وهو أَوْلَى ما يَحتاجُونَه هناك

قوله: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾، قدَّم الجار والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾ ولم يقُل: (أفيضوا من الماء علينا)؛ لأنَّهم يطلبون مزيدَ اختصاصهم بإفاضة الماء، فكأنَّهم استشعروا ما كان بينهم من قرابةٍ في الدُّنيا، فأرادوا أن يُخَصّوا بها دون غيرهم.

سِرُّ التَّعْبير بـ ﴿مِنَ﴾:

طلبُوا الماءَ ولو قطرةً منه

في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾: عبَّر بـ ﴿مِنَ﴾ ولم يقُل: (أفيضوا علينا الماءَ)؛ للإشارة إلى أنهم يطلبون بَعضًا من الماء، وليس كلَّ الماء، وفي هذا إشارةٌ إلى تذلُّلهم ومحاولتهم استعطافَ أهل الجنَّة، في أعزِّ مفقودٍ، وأهونِ موجودٍ.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/252.

دَلالةُ طلَبِ الماءِ دونَ غيرِه:

قوله: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، طلبوا الماءَ من أهل الجنَّةِ لشدَّة ما في بَواطِنهم من الاحتراقِ واللَّهب؛ لأنَّهم في سَموم وحميم، ومَن كان كذلك، فطلبُه للماء البارد أشدُّ حاجةً من شعورِهِ بالحاجة إلى الطَّعام ونحوِه.

الماءُ سِرُّ الحياةِ؛ ولذا طلبَهُ أهلُ النَّارِ باسْتِجداءٍ

دَلالَةُ ﴿أَوْ﴾ بين التّخْيير والتّشْريك، في سِياقِ الآيةِ:

﴿أَوْ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ يَجوزُ أن تُكونَ على بابِها من التّخيير، فيكونوا قَد طَلَبوا أحدَ شيئَيْن، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ ﴿أَوْ﴾ مرادًا بها الواوُ الدّالَّةُ على التَّشريك، فيكونوا قد طَلَبوا الأمْرَيْن معًا[1]، والأَوَّلُ أنْسَبُ لِحالِهِمْ؛ إذْ مَن كان في شدَّةٍ يُريدُ تخفيفَها لا يَطْلُبُ إلّا مقدارَ ما تُدْفَعُ به الشِّدَّةُ العُظْمَى، ولو بَقيَ أصلُها، واستمرَّ.

لا يَطْلُبُ صاحبُ الشّدةِ إلّا بمِقْدارِ ما تُدْفَعُ بِهِ، ولَوْ بَقِيَ أَصْلُها وَدامَ

بَراعَةُ إِيجازِ الحَذْفِ في ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا﴾:

فِعْلُ الإفاضَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مضمَّنٌ معنى الإِنْزالِ **والإِلقاءِ**، والمعنى: أَنْزِلوا عَلَيْنا مِنَ الماء، أو أنزِلوا علينا ممّا رزقَكُم اللّهُ تعالى[2]، ويجوزُ أن يكونَ فِعْلُ الإفاضةِ مضمَّنًا معنى الإلقاءِ، وعلى الوجهَيْنِ يصحُّ العطفُ في قوله: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دونَ تقديرِ فعلٍ خاصٍّ.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ ثَمَّ فِعْلٌ مُضمَرٌ بعدَ ﴿أَوْ﴾، وهو الإلقاءُ، ويبقَى فعلُ الإفاضةِ على دلالَتِهِ الأصليَّةِ مِنْ غير تضمينٍ، والمعنى: أفيضوا عَلَيْنا مِنَ الماء، أو ألقوا عَلَيْنا ممّا رزقكم اللّه سُبحانَهُ[3].

التَّضمينُ اقْتِصادٌ في اللَّفْظِ، وإيصالٌ لِلْمعنى بِأَقْرَبِ طَريقٍ

والتَّضمينُ أو تقديرُ فِعْلٍ خاصٍّ كلاهُما من إيجازِ الحذفِ، فقَدْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/61.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/61.

طويَ مِنَ الكلام ما دلَّ السّياقُ عَلَيْهِ؛ اقْتِصادًا في اللَّفْظِ وإيصالًا لِلْمعنى بِأقْرَبِ طَريقٍ.

دَلالةُ الجمْعِ بين الماءِ والطَّعامِ:

> الشَّرابُ والطَّعامُ هَمُّ الكافرين، في الدّنيا وفي الآخِرة

قوله: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، جمعَ القرآنُ الكريمُ في طلبهِم بين الماءِ والطَّعام؛ ليُبيِّنَ أنَّ هؤلاءِ الكفّارَ كان همُّهم في الدُّنيا الأكلَ والشُّربَ والتَّمتُّع بالملذّات والشَّهوات، وعلى رأسِها الماءُ والطَّعام؛ والمرءُ يُبعث على ما مات عليه.

سِرُّ اخْتِيارِ مادَّةِ الرِّزقِ دون غيرها:

> لفظُ الرِّزق عامٌّ، يُطلقُ على كلِّ ما يُنتفَعُ به، ورزقُ الجنّةِ أوفى وأرقى وأبقى

في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ اختارَ مادَّة الرِّزق لأنَّها لفظٌ عامٌّ يُطلقُ على كلِّ ما يُنتفَع به، وهم يَعلمون أنَّ الجنَّة فيها أنهارٌ من الماء والعسل واللَّبن والخمر، فيريدون الانتفاعَ بأيِّ شيءٍ من هذهِ العطايا الَّتي منحَها اللّهُ لأهل الجنَّة، ولأنَّ البنية البشريَّة لا تستغني عن مُقوِّتها، وهم يبحثون عن ذلك من أيِّ ناحيةٍ من باب الطَّعام أو الفاكهة أو الشراب.

دَلالةُ حَرْفِ الجرِّ (مِنْ)، في قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾:

> اسْتِعْطافُ أَصْحابِ النّارِ أَصْحابَ الجَنَّةِ، وَتَذَلُّلُهُمْ لَهُمْ، دليلُ حالتِهِم المُزْرِيَةِ

﴿مِمَّا﴾ في قَوْلِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مركَّبةٌ مِنْ (مِنْ) الجارَّةِ و(ما) الموصولَةِ[1]، و(مِنْ) دالَّةٌ على التَّبعيضِ، والمعنى: أَطْعِمونا بعضَ ما رزقَكمُ اللّه تعالى؛ وطلبُهم بعضًا مِنْ ذلك استعطافٌ منهمْ أهلَ الجنَّةِ، حيثُ لَمْ يَطْلُبوا إلّا النَّزْرَ اليسيرَ، وهو نافعٌ لهم في حالِ حصولِهِم، وليس بضارٍّ أهلَ الجنَّةِ.

دَلالةُ الاِسْمِ المَوْصُولِ (ما):

﴿مِمَّا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مُكَوَّنَةٌ مِنْ حرف الجرِّ (مِنْ)، ومِنَ الاِسْمِ المَوْصولِ (ما) - كما تقدَّمَ - وفي التَّعبير

(1) أحمد الدّعّاس وجماعةٌ، إعراب القرآن: 1/365.

الإيماءُ إلَى طَلَبِهِمُ اليَسيرَ مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعالَى؛ لِثِقَتِهِمْ بِنَفْعِهِ فِي تَخْفِيفِ كُرْبَتِهِمْ

بالِاسْمِ المَوْصولِ الَّذي يفيد العموم إيماءً إلى طلبِهِمْ بعضًا مِنْ عُموم ما رزقَ اللّهُ تعالى أهلَ الجنَّةِ، مِن غيرِ تَعْيينِ شيءٍ، ثِقَةً بأنَّ وُصول أيِّ شيءٍ إلَيْهِم ممّا يَتَنعَّمُ بِهِ أهلُ الجنَّةِ سيُزيلُ شدَّتَهم، ويُخفِّفُ كُرْبَتَهم.

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّق ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾:

مُتعلَّقُ الفِعْلِ حُذِفَ لإفادةِ العُمومِ

حُذف متعلَّقُ قولِه: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾؛ لإفادة العموم، فهم يبحثون عن أيِّ شيءٍ دون تحديدِ مطلوب، وفي هذا إشارةٌ إلى تذلُّلهم وخِزيهم أمام مَن كانوا يستكبرون عليهم في الدُّنيا.

نُكْتَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ، فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾:

عَظَمَةُ المُعْطِي تَسْتَلْزِمُ عَظَمَةَ عَطائِهِ، والمولَى لا نِهايَةَ لعطائِهِ

في تَعْريفِ المسنَدِ إلَيْهِ بالعلميَّةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مبالغَةٌ في التَّوَدُّدِ إلى أصحابِ الجنَّةِ في سُؤالِهِم، حَيْثُ إنَّ ما هم فيهِ مِنَ النَّعيم يأتيهم مِن الذي لَه الغِنَى المطلقُ[1]، فهو نعيمٌ عظيمٌ؛ إذْ إنَّ عَظَمَةَ المُعْطي تستلزِمُ عظَمَةَ عطائِهِ، وإذا كان الشَّأْنُ كَذَلِكَ؛ فإنَّ أصحابَ الجنَّةِ لو أوصلوا لِأهلِ النّارِ شيئًا ممّا رزقَهُمُ اللّهُ سُبحانَهُ، فلَنْ يضُرَّهم ذلِكَ في نقصِ ما عِنْدَهم.

عِلَّةُ الفَصلِ فِي قَوْلِه تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

أَثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانِيِّ فِي إبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لِما بينَهُما من شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، فقولُه ﷻ حكايةً عن أصحابِ النّار قولَهم: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ يَبْعَثُ في نفسِ المتلقّي سؤالًا، وهو: ما كانَ جَوابُ أصحابِ الجنَّةِ على مقالةِ أصحاب النّار؟ فجاء الجوابُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/231.

نُكْتَةُ التَّأْكِيدِ بجُملةِ مُؤكِّداتٍ في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

أُكِّدَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بإيرادِ الجملَةِ اسميَّةً، وهي دالَّةٌ على الثُّبوتِ والدَّوام بمعونَةِ القرائنِ، وبتصديرِ الجُمْلَةِ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ وذلك لِلْمُبالغَةِ في قطْعِ أطْماعِ أصحابِ النّارِ في أنْ ينالَهم شيءٌ مِنَ النَّعيم الذي اختصَّ اللّهُ تعالى به أهلَ الجنَّةَ ورزقَهم إيّاهُ.

الـكُـفْـرُ أَعْـظَـمُ مـانِـعٍ لِـنَـعِـيـمِ الآخِرَةِ، فالكافرُ لا طَـمَـعَ لـه في إنْعامِ الله عليه

وحرفُ التَّأكيدِ (إنَّ) دالٌّ أيضًا على التَّعليلِ، فكأنَّ المعنى: لن نُفيضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الماءِ، ولا شيئًا ممّا رزَقَنا اللّهُ تعالى؛ لأنَّ اللّه تعالى حرَّمهما على الكافرينَ.

سِرُّ التَّعبيرِ بمَنْعِ النَّعيم على الكافرينَ دونَ أصحابِ النّارِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمارِ، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهرِ حالَ المخاطَبَةِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (قالوا: إنَّ الله حرَّمهما عليكُمْ)، ولكِنْ أُظْهِرَ للإشارَةِ إلى أنَّ سببَ الحِرْمانِ هو الكُفْرُ، وأنَّه لا خلاصَ لكُمْ ممّا كُتِبَ عليكُمْ بأعمالِكُمْ[1].

بـيـانُ أنَّ سَـبَـبَ حِـرْمـانِ أَهْـلِ الـنّـارِ، من رِزْقِ الـجَـنَّـةِ، هُـوَ كُـفْـرُهُـمْ بـاللـهِ سُبْحانَهُ

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعْلِ (حرَّمَ)، دونَ (المنعِ) في السِّياقِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالتَّحريم دون المنعِ لوجودِ فرقٍ بينهما: فالمنعُ قد يكون ذاتيًّا أو بفعل الآخر؛ بخلاف التَّحريم فلا يتأتَّى إلّا من جهة التَّكليف، ولذلك قالوا: إنَّ التَّحريم قسمان: تحريمٌ بالحكم والتكليف، كتحريم اللّه للفواحشِ والمنكرات، وتحريمٌ بالفعل أو القهر، كتحريم الجنَّة وما فيها على الكافرين في هذه الآية، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72][2].

الـتَّـحـريـمُ في الآخـرةِ تحـريـمُ قهْرٍ وعِقابٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2855.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/388.

اسْتِشعارُ أنّ التّحريمَ مِنَ اللهِ لا مِنَ البَشرِ، توبيخًا وتبكيتًا لهم

دَلالةُ تَعدِّي الفِعْلِ ﴿حَرَّمَهُمَا﴾، في سِياقِ الآيةِ:

عُدّيَ الفعل ﴿حَرَّمَهُمَا﴾ بحرف الجر ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ مصدر التّحريم من جهة العلوّ؛ فليس من قِبَل أصحاب الأعراف حتَّى يطمعَ أهلُ النّار في إعطاء ما حرَّمه اللّه؛ بل التَّحريمُ صادرٌ من اللّه ﷻ؛ توبيخًا وتبكيتًا لهم بسبب إعراضِهم عنِ اللّه ورسوله.

جَرَيانُ الكُفْرِ لَقبًا لِأَصْحابِ النّارِ لِشدَّةِ مُلازَمَتِهِم لَهُ

دَلالَةُ الوَصْفِ بِاسْمِ الفاعِلِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وردَ وصفُ أهلِ النّارِ بالكُفْرِ بصيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ والأصلُ في اسْمِ الفاعِلِ أن يردَ لِلْحالِ، ودِلالَتُهُ على الاستقبالِ مِنْ بابِ المجازِ، ولا يَرِدُ مُرادًا به الماضي؛ وكُفْرُ أصحابِ النّارِ قد صدَرَ منهم في الدُّنيا قَبْلَ ورودِهم الآخرَةَ؛ وذلك لأنَّ وصْفَ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تعريفٌ لهم بِوَصْفٍ جرَى مَجْرَى الألقابِ، به تُعْرَفُ جماعَتُهُم، كَما يُقالُ لِأهلِ الإسْلامِ: المؤمنونَ، فلا يُنافي أنّهم وقْتَ وصفِهِمْ به لَم يَكونوا كافرينَ.

كَمالُ الكُفْرِ سَبَبٌ فِي كَمالِ حِرْمانِ النَّعِيمِ

دَلالَةُ (ال) فِي لفْظِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، دالَّةٌ على استغراق أفراد الكفرِ الَّذين تمكّن الكفرُ منهم، والمعنى: إنَّ اللّه تعالى حرمَّهما على أهْلِ الكُفْرِ الكامِلينَ فيهِ، وهُمُ الواقعونَ في الكُفْرِ الأكْبَرِ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾

[الأعراف: 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بين بيانِ حِرمانِ أهلِ الكُفرِ منَ الجنّةِ، ودُخولِهم النَّارَ باللّهوِ والاغْتِرارِ

لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى تحريمَ ما رَزَقَ به أهلَ الجَنَّةِ مِن النَّعيمِ على أصحابِ النّارِ، مَعَ بيانِ علَّةِ ذلكَ: وهو الكُفْرُ؛ ذكرَ أوصافَ الكافرينَ بأنَّهم كانوا السَّبَبَ في هذا الحِرْمانِ والمَنْعِ؛ إذِ اتخذوا دينَهُم لهوًا ولعبًا إرضاءً لشهواتهم وملذّاتهم، وما فعلوه في الدّين من أعمال لا تُزكّي النَّفْسَ، ولا تجعلُها أهلًا لِلكَرامَةِ والتَّشريفِ، بَل هيَ: إمّا لهوٌ يشغَلُ الإنْسانَ عمّا يُفيدُ مِنَ الأعْمالِ، وإمّا لَعِبٌ لَيْسَ وراءَهُ فائدَةٌ صَحيحةٌ، فقال سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَهۡوٗا﴾: اللّامُ والهاءُ والحرفُ المعتلُّ تدلُّ كثيرٌ مِن تصاريفِها على شُغْلٍ عن شيءٍ بشيءٍ آخرَ، ومِنْهُ اللَّهْوُ، وهو: كلُّ شيءٍ شغَلَ عَن شيءٍ[2]، ويُطْلَقُ علَى ما يَشْغَلُ الإنْسانَ عمّا يَعْنيهِ، ويَهُمُّهُ[3]، لا على مُطْلَقِ الشّاغِلِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: 3] أي: مُتشاغلةً عمّا يُدْعَوْنَ إليْهِ[4].ومعنى قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا﴾، أي: اشْتِغالًا بما مِنْ شَأْنِهِ أنْ يُنْسِيَ كُلَّ نافعٍ[5].

2) ﴿وَلَعِبٗا﴾: لَعِبَ، يلعَب، لَعِبًا، ولَعِب فلانٌ؛ إذا كان فعله غيرَ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 8/164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(3) الرّاغب، المفردات: (لهى).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (لهى).
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/409.

قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا، ومادة: اللّام والعَيْنُ والباءُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى اضْطِرابٍ وتَسَيُّبٍ فِيما يَصْدُرُ عَنِ الشَّيْءِ، بِسَبَبِ تَجَمُّعِ حَيَوِيَّته أو نشاطِه، ومِنْهُ: اللَّعِبُ - وهو ضدُّ الجِدِّ - وهُوَ تَسَيُّبٌ فِي الحَرَكَةِ واضْطِرابٌ، أيْ: عدمُ اسْتِقامَةٍ أو عدمُ قَصْدٍ في الاتِّجاه والتَّصَرُّف[1]. ومعنى قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أيْ: إقْبالًا علَى ما يَجْلِبُ السُّرورَ، ويَقْطَعُ الوَقْتَ الحاضِرَ بالغُرُورِ[2].

3) ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: غرَّه يغُرُّه، بمعنَى: خدَعَه، والغُرُورُ: الخديعَةُ[3]، والغُرور: كلُّ ما يغرُّ الإنسان من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطان، وقد فُسِّر بالشيطان؛ إذ هو أخبثُ الغارِّين، والدُّنيا كما قيل: الدُّنيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ[4]. والغِرَّةُ: الغفلَةُ[5]، وفرَّقَ الرّاغبُ بَيْنَ الغِرَّة والغِرارِ؛ بأنَّ الغِرَّةَ: غَفْلَةٌ فِي اليَقْظَةِ، والغِرارَ: غَفْلَةٌ مَعَ غَفْوَةٍ[6]. ومعنى قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خَدَعَهُم عاجِلُ ما هُمْ فِيهِ مِنَ العَيْشِ والدَّعةِ[7].

4) ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾: النُّون والسِّينُ والياءُ تدلُّ تصريفاتُهُ على مَعْنَيين: أحدهما: إغفالُ الشَّيءِ، والآخَرُ: تَرْكُهُ[8]، فَمِنَ الأوَّلِ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]، وحقيقةُ النِّسيانِ: ذُهولُ القَلْبِ عَنْ مَعْلُومٍ[9]، ومِنَ الآخَرِ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾؛ فإنَّ معناه: نتركُهم في العَذابِ، كما تَرَكُوا العَمَلَ فِي الدُّنْيا لِلِقاءِ اللّهِ تعالَى يَوْمَ القِيامَةِ[10].

وقد عبَّر الرّاغبُ عن النِّسيانِ الجامعِ لقِسْمَيْهِ بقولِه: (تَرْكُ الإِنْسانِ ضَبْطَ ما اسْتودِعَ، إمّا لضَعْفِ قَلْبِه، وإمّا عَن غَفْلَةٍ، وإمّا عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَذِفَ عَنِ القَلْبِ ذِكْرُهُ)[11].

5) ﴿يَجْحَدُونَ﴾: الجيمُ والحاءُ والدّالُ تدور اشتقاقاتُها على قِلَّةِ الخيْرِ، ومنه قولُهم:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لعب).
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/409.
(3) الجوهري، الصّحاح: (غرر).
(4) الراغب، المفردات: (غرَّ).
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (غرر).
(6) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/475.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(9) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/346.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 12/476.
(11) الرّاغب، المفردات: (نسي).

عامٌ جَحِدٌ، أي: قليلُ المطَرِ[1]، ورجُلٌ جَحِدٌ: شحيحٌ قليلُ الخيرِ يُظْهِرُ الفقْرَ، وحقيقةُ الجحودِ: نَفْيُ ما في القلْبِ إثْباتُه، وإثباتُ ما في القَلْبِ نَفيُهُ[2]، ومنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: 14]. والجَحْدُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ هو إنكارُ الأمْرِ المَعْروفِ، أي: الإنكارُ مَعَ العِلْمِ بوقوعِ ما يُنْكَرُ؛ فهو نفيُ ما يَعْلَمُ النّافي ثُبوتَهُ، فيكون ذَلِكَ إنكارَ مكابَرةٍ[3].

۞ المعنى الإجْماليُّ:

من أسبابِ سُوءِ المصيرِ، اللّهوُ في الدّنيا، واللّعبُ بالدِّينِ، ومن نَسِيَ يُنْسَى

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ الذين حَرَمهم اللّهُ سُبحانَهُ من نَعيمِ الآخِرَةِ هُمُ الذين جَعَلوا الدّينَ - الذي شرَعَهُ اللّهُ ﷻ وأمَرَهُم باتِّباعِهِ - سُخْرِيَّةً ولَعِبًا، وخَدَعهم عاجِلُ ما هم فيه مِنَ العَيْشِ والدَّعَةِ عَنِ العمَلِ لِلْآخِرَةِ، حَتَّى أَتَتْهُمُ المَنِيَّةُ، ففي يوم القيامَةِ يَتْرُكُهُم اللّهُ تعالى في العَذابِ المُبينِ جياعًا عِطاشًا كما تَرَكوا العَمَلَ لِلِقاءِ يَوْمِهِم هذا، ورَفَضوا الاسْتِعْدادَ لَهُ بإتْعابِ أبْدانِهِم في طاعَةِ اللّهِ سُبحانَهُ، ولإنكارِهِم أدلَّةَ اللّهِ ﷻ وبراهينَهُ مَعَ علْمِهِم بأنَّها حقٌّ[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تحريمِ اتِّخاذِ شيءٍ من الدِّينِ - صغيرًا أو كبيرًا - سُخريَّةً وعبثًا، والتَّحذيرِ من الاغترارِ بالدُّنيا حتى لا ينسى العبدُ آخرتَه وما يُعِدُّ لها ممّا ينفعه فيها من الإيمان وصالحِ الأعمال؛ فالجزاءُ يومَ القيامة يكونُ بحسَبِ أعمالِ الناس.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾، عمّا قَبْلَهُ:

بيانُ حَقيقةِ الكُفْرِ المانِعَةِ أصْحابَها مِنَ النَّعيمِ في الآخِرَةِ

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ عمّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحد).
(2) الرّاغب، المفردات: (جحد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/199.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/474 - 475، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

قَبْلَهُ؛ لوقوعِ صدْرِ الجملةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صِفَةً لـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مِنَ الآيَةِ قبلها، وشَأْنُ الصِّفَةِ ألّا تُعْطَفَ على المَوْصوفِ.

ويَجوزُ أن يَكونَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ بالابتداءِ، ويكونُ فصلُ الجملةِ عمّا قبلَها لما بينَهُما من كمالِ الاتِّصالِ؛ لوقوعِ جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ بيانًا لما قَبْلَها.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الفصْلُ لما بَيْنَ الجُملَتَيْنِ من شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، وهو المَعْروف بالاِسْتِئْنافِ البيانيِّ، وذلك أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يُثيرُ في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا: ما حقيقةُ هؤلاءِ الكافِرينَ؟ أهُمُ المتلبِّسونَ بكُفْرِ النِّعْمَةِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾؛ لبيانِ أنَّ المرادَ بالكُفرِ الكُفرُ الأكْبَرُ الذي لا يجتَمِعُ معَ أصلِ التَّوحيدِ.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

ابْتِداعُ أَشْياءَ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ، وَجَعْلُها دِينًا: طَرِيقَةُ الكَفَرَةِ

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، ولَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (الّذين اتَّخذوا اللَّهْوَ واللَّعبَ دينًا)، وذلك لِتَصْديرِ جُملةِ الصِّلَةِ بالفعلِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، وهم لم يَجْعَلوا كلَّ ما هو لَهْوٌ ولعبٌ دينًا يتَدَيَّنونَ به، بَل عمَدوا إلى أن يبْتَدِعوا دينًا، فجمعوا لهُ أشياءَ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعب، وسمَّوها: دينًا، فكان قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أدلَّ على هذا المُرادِ[1].

دَلالَةُ عودِ الضّميرِ في ﴿دِينَهُمْ﴾ على الكافرِين:

يُضافُ الدِّينُ إِلَى المولَى بِاعْتِبارِهِ شَرَعَهُ، وإِلَى البَشرِ بِاعْتِبارِهِمْ أُمِرُوا بِالتِزامِهِ

إضافَةُ الدّينِ إلى الكافرينَ في ﴿دِينَهُمْ﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾؛ تَحْقيرٌ لَهُ وإظهارٌ لِبُطلانِه، فهو لَيْسَ دينًا للهِ تعالى الذي شرعَهُ وأمَرَهم بالتِزامِه، وإنَّما هو دينُهُمُ الذي ابتدَعوهُ، ولفَّقوهُ مِنْ أشْياءَ هيَ مِنْ جِنْسِ اللَّهْوِ واللّعِبِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/295.

ويَجوز أن تكون الإضافةُ إليهِمْ باعتبارِهِمْ قد أُمِروا بالتِزامِهِ[1]؛ فإنَّ الدّين يُضافُ إلى اللّهِ تعالى باعتبارِ أنَّه سُبحانَهُ الذي شرَعَهُ، وأمرَ به، ويُضافُ إلى الخَلْقِ باعتبارِهم أُمِروا بالتِزامِهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿دِينَهُمْ﴾ دونَ (مِلّتَهُمْ):

لفظةُ الدِّين فيها معنَى العادةِ والمجازاةِ، وهو مُصطلحٌ عندَ كلِّ الأُممِ

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، آثرَ فيه التَّعبيرَ بالدّين دون الملّة لوجودِ فرقٍ بينهما؛ فالملَّة تُطلقُ على السُّنَّة والطَّريقة، واستُعيرت لإطلاقها على عقائدِ الشَّريعة، وصارت اسمًا لما شرعَهُ اللّه تعالى لعبادِهِ على لسانِ أنبيائه؛ لذلك تضاف إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾، ولا تكاد تضافُ الملَّةُ إلّا إلى نبيٍّ؛ لأنَّها تقال اعتبارًا لمن يؤدّي الشَّرعِ عنِ اللّهِ؛ بخلافِ الدّين، فيُطلق على الجزاء، فيقالُ: كما تَدين تُدانُ.

وممّا يُفرِّقُ به بين الدّين والملَّة: أنَّ الدّينَ اسْمٌ لما عليه كلُّ واحدٍ؛ فيَصْدُقُ على ما يذهبُ إليه الإنسانُ، ويعتقدُ أنَّه يقرِّبُه إلى اللّه، وإن لم يكن فيه شرعٌ؛ بخلاف الملَّة فهي أخصُّ منَ الدّين؛ لذلك آثَرَ التّعبيرَ بكلمة ﴿دِينَهُمْ﴾؛ لأنَّ ما عليه أهلُ الكُفرِ والشِّرك لا شرعَ فيه، إنَّما هو لهوٌ ولعبٌ[2].

بَراعَةُ التّعْبيرِ بالفعْلِ ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْألْفاظِ القُرْآنيَّةِ ذاتِ المَعاني المُتَعَدِّدَةِ، مُفيدٌ وسَديدٌ

الفِعْلُ ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ﴾، هو مِنَ الغُرورِ؛ وهو الخداعُ، والمعنى: خدَعَتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا بزخارِفِها، واعتِقادِهِم أنَّها الغايةُ القُصْوَى. ويَجوزُ أن يَكونَ الفعلُ (غَرَّتْهُمُ) مِن الغَرِّ: وهو مِلْءُ الفَمِ، والمعنى: أشبعَتْهم الدُّنيا، وأبْطَرَتْهم[3]. والمعنيان متكامِلانِ: فالدُّنيا خدعَتْهم حتَّى ظنّوا أنَّها المُنْتَهَى، فانغمَسوا فيها وفي شهَواتِها، حتَّى بَطِروا، وأُتْخِموا بها.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/407.

(2) الفراء، معاني القرآن وإعرابه: 1/202.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/407، والشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/79.

بَلاغةُ المَجازِ العَقْلِيِّ في ﴿وَغَرَّتۡهُمُ﴾:

قُوَّةُ الطَّمَعِ فِي مُتَعَلَّقاتِ الدُّنْيا حاجِبَةٌ عَنْ طَلَبِ الدِّينِ الحَقِّ

في إِسْنادِ الفعلِ ﴿وَغَرَّتۡهُمُ﴾ في قَوْلِ اللّهِ: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، إلى الحياة الدُّنيا مجازٌ عقليٌّ؛ وذلكَ لأنَّ الحياةَ الدُّنيا لا تَغُرُّ، وإنَّما يحصُلُ الغرورُ فيها، مِنْ جهَةِ أنَّ الإِنْسانَ يَطْمَعُ في طولِ العُمُرِ وسعَةِ العيشِ ووفرةِ المالِ، ونحوِ ذَلِكَ، فلِقوَّةِ رغبتِهِ في هذِهِ الأَشْياءِ يَصيرُ مَحْجوبًا عَن طلَبِ الدّينِ الحقِّ[1].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ الماضِي ﴿وَغَرَّتۡهُمُ﴾:

الاغـتِرارُ بالدُّنيا مُتأصِّلٌ في طِباعِ الكافرين

قوله: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾: جاء التَّعبيرُ فيه بالفعل الماضي دون المضارعِ، كأن يُقال: (ويغترّون بالحياة)؛ للدَّلالة على أنَّ اغترار الكافرين بالحياة الدُّنيا أمرٌ مركوزٌ في فِطَرهم وراسخٌ في قلوبهم؛ فكأنَّ غرور الحياة الدُّنيا مرتبطٌ بهم، وهم مرتبطون به، ومراعاةً لسياقِ الآية بالتَّعبير بفعل الاتِّخاذ بالفعل الماضي؛ حتى ينتظمَ الأفعالَ المذكورةَ وِزانٌ نَسَقيٌّ واحد.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾:

هَمُّ الكَفَرَةِ مِنَ الدُّنْيا هُوَ الحَياةُ، لا ما يُحَصَّلُ فِيها مِنَ المَكارِمِ والخَيْراتِ

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ فجاءَ التَّعبير بالحَياةِ، ولَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وغرَّتْهُم الدُّنيا)، وذلِكَ لِلإيماءِ إلى أنَّ همَّهُم مِنْ هذهِ الدُّنيا هو الحياةُ فيها، لا ما يُحَصَّلُ فيها مِنَ الخَيْراتِ والمكارِمِ التي هيَ سببٌ لِسَعادَةِ الحياةِ في الأولَى والآخِرَةِ، فأفادَ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ أنَّ الحياةَ الدُّنيا غرَّتْهم، فأوْهَمَتْهم أنْ لا حَياةَ بَعْدَها[2].

بَلاغةُ الاعْتِراضِ فِي: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ اعتراضٌ مِنْ كلامِ اللّهِ تعالى يُعْلَنُ به، ويَسْمَعُهُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/253.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/296.

ما لا تصحُّ نسبتُهُ إلَى غيْرِ اللهِ ﷻ، مَمْقوتٌ عندَ الله

الفَريقانِ، وذَلِكَ أنَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾من كَلامِ أهلِ الجنَّة، كما يدلُّ عليهِ تَصديرُ هذه المَقالَةِ بـ ﴿قَالُوٓاْ﴾، ولمّا اختَلَفَ الأُسْلوبُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾؛ عُلِمَ أنَّ المتكلِّمَ اختلف، فالكلامُ المتقدِّمُ حكايةٌ لِكَلامِ أهلِ الجنَّةِ، وقولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ من كلامِ اللّه تعالى، وذَلِكَ لِلتَّصريحِ بِنِسْبَةِ ما لا تَصِحُّ نِسْبَتُهُ إلى غيرِهِ سُبحانَهُ[1].

دَلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾، وبراعَةُ الإيجازِ:

الِانْخِداعُ بِالدُّنْيا سَبَبٌ لِتَرْكِ الِانْقِيادِ لِشَرْعِ اللهِ تَعالَى

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ للتَّفريعِ على قولِ أصحابِ الجنَّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، وهذا العَطْفُ بالفاءِ هو من قَبيلِ ما يُعرفُ بعَطْفِ التَّلْقينِ، وهو هُنا عَطفُ كلامِ متكلِّمٍ على كلامِ متكلِّمٍ آخرَ، وفي نَظْمِ الكلامِ حذفٌ لِفعْلِ القولِ مع فاعلِه، وفيه براعَةٌ في الإيجازِ؛ إذِ التَّقديرُ: (قال اللّهُ: فاليَوْمَ نَنْساهم)، ويكونُ الغرضُ مِنْ جُمْلَةِ التَّفريعِ تَصديقَ كلامِ أصحابِ الجنَّةِ.

وجائزٌ أنْ يَكونَ التَّفريعُ في كَلامٍ واحدٍ، عِنْدَ مَنْ يرَى أنَّ قولَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مِنْ كلامِ اللّهِ تعالى لا محكيٌّ عَنْ أصحابِ الجنَّةِ[2].

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الفاءُ فصيحَةً[3]، ويكونَ قولُهُ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ جوابَ شَرْطٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: إذا كانوا قد اتَّخذوا دينَهم لهوًا ولعبًا، وخدَعَتْهُم الدُّنيا، فألْهَتْهم عَنِ الانْقيادِ لِشَرْعِ اللّهِ تعالى ودينِه، حتَّى ترَكوهُ بالكُلِّيَّةِ، فجزاؤُهم: أنَّنا نَنْساهم كما نَسوا لِقاءَ يَوْمِهم هذا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/150.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/231، والآلوسي، روح المعاني: 4/366.

دَلالةُ التّعبيرِ باليومِ، في: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ دونَ غيرِه:

يومُ القيامةِ عَسيرٌ، وهو على الكافرِ أشدُّ عُسْرًا

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ دونَ (الآن) مثلًا؛ لأنَّها تُستَعمل للزمن الحاضر، كما قال الله لفرعون: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾، أمّا لفظ اليوم؛ فله أكثرُ من إطلاقٍ في اللُّغة؛ لذلك ليس المقصود به يومًا بعينه إنَّما يُرادُ به الزَّمنُ الحاضرُ الذي يحصل فيه الحسابُ والجزاءُ؛ لإظهار أنَّ حرمانَهم من الرَّحمة في هذا المشهدِ كان في أشدِّ أوقات احتياجهم إليها، فكان ذِكرُ اليوم له أثرٌ في تحسُّرهم وندمهِم وتوبيخهِم على الأيّام الَّتي ضيَّعوها في الدُّنيا من غير إيمانٍ ولا طاعة.

دَلالَةُ النِّسْيانِ بَيْنَ الحَقِيقَةِ والمَجازِ:

النِّسيانُ الواردُ في الآيةِ معناه التَّركُ لا الذُّهولُ أوِ الغَفْلةُ عِياذًا بالله

النِّسْيانُ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ يَحْتَمِلُ أن يَكونَ تَمْثيلًا؛ بأنْ يكونَ اللهُ سُبحانَهُ قَد شبَّهَ مُعامَلَتَه مع هَؤُلاءِ بالمعامَلَةِ مع مَن لا يُعْتَدُّ به، ولا يُلْتَفتُ إلَيْه، فيُنْسَى، والقَرينَةُ على إرادَةِ التَّمثيلِ لا الحقيقَةِ أنَّ اللهَ تعالى قد نفَى النِّسيانَ عَن نفسِه في نحوِ قولِه ﷻ: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾ [طه: 52]، فلا يصحُّ حَمْلُ النِّسيانِ في آيةِ الأعراف على هذا المعنى المنفيِّ[1]، والمختارُ أنَّ النِّسْيانَ المُسنَدَ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى اللهِ سُبحانَهُ نسيانٌ حقيقيٌّ، ولَكنْ لا يُرادُ به الذُّهولُ عنْ معلوم؛ فإنَّ هذا منفيٌّ عنِ اللهِ تعالى، كَما في آيَةِ سورَةِ طَهَ المذكورَةِ آنفًا، وإنَّما يُرادُ به مُطْلَقُ التَّرْكِ، وهو إطلاقٌ لغويٌّ معروفٌ، ولا يَفتقِرُ النَّظْمُ القرآنيُّ إلى حَمْلِ النِّسيانِ على المَجازِ في الإهْمالِ والتَّرك، باعْتِبارِهما من لوازمِ النِّسيانِ[2].

(1) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/150.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾:

إنَّما العِقابُ من جِنْسِ الذَّنْبِ

النِّسْيانُ لا يقعُ في حقّ اللّه تعالى مطلقًا، قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52]، وجاء التّعبير بالنّسيان في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ مشبِّهًا معاملتَه تعالى مع الكفّارِ، بمعاملةِ من نَسيَ عَبده من الخير، ولم يلتفت إليه[1]، بجامع الترْكِ وعدم النّظر إليهم، فحَذَف المُشبَّهَ وهو حرمانُهم من نظرِهم إليه، وأَبقَى المشبَّه به، وهو نسيانُ السَّيِّد لعبدِه عديمِ الفائدة، على سبيل الاستعارة التصريحيّة التّبعية.

دَلالَةُ الكافِ في قَوْلِ اللهِ: ﴿كَمَا نَسُواْ﴾:

الجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وكما يَدينُ الفتَى يُدانُ

اختارَ التعبيرَ بالكاف دون غيرها نحو: (مثل)؛ لأَنَّ الكافَ تتعدَّدُ معانيها، فمنها: التَّشبيهُ والتَّعليلُ بخلاف (مِثل)، فهي للتَّشبيه فقط؛ لذلك فالكافُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ للتَّعليلِ[2]، فهي كالوارِدَةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 198]، والمعنى: فاليومَ نَنْساهم؛ لأنَّهم نَسوا لقاءَ يَوْمِهم هَذا.

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ حرمانَهم من رحمةِ اللّه تعالى كان مقابلًا لإهمالهم التَّصديقَ باللِّقاء، وبذلك يكون الجزاءُ من جنسِ العمل.

سِرُّ التعليق بِنسيانِهِمُ اللّقاءَ:

لا يقوَى قلْبُ العبدِ على نِسيانِ خالقِهِ، إلّا إذا قسَا وجَمَدَ إحساسُه

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بقوله: ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ دون أن يقولَ: (كما نَسُوني)؛ لتنزيههِ ﷻ عن هذا النِّسيان؛ لأنَّه الفعّال لما يريد، وهو الحيُّ القيُّوم، فعطاؤه متجدِّد ونِعَمَهُ متواصلةٌ، فلا ينبغي لإنسانٍ عاقلٍ أن ينسى المنعِمَ عليه؛ وما وقعَ من الكفّار هو خروجٌ عن منطقِ العقلِ والفطرة.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/377.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/62.

بَلاغَةُ الإضافَةِ فِي المركّبِ الإضافيِّ ﴿يَوْمِهِمْ﴾:

شَناعَةُ تَرْكِ المَرْءِ أَمْرًا مِنْ مُهِمَّاتِ مُتَعَلَّقاتِهِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾، أُضيفَ اليَوْمُ إلى الضَّميرِ العائِدِ إلى الكافِرينَ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾؛ لزيادَةِ التَّشنيعِ عليهِمْ، وأنَّهم نسوا ما لا يَنْبَغي لَهم أن ينسَوْهُ؛ إذِ اليومُ يومُهم، وكيفَ ينسَى المَرءُ أمرًا من متعلَّقاتِهِ؟

دَلالَةُ الإشارَةِ فِي لفْظِ ﴿هَٰذَا﴾:

المُبالَغَةُ فِي تقْرِيعِ الكافِرِينَ؛ لِغَفْلَتِهِمْ عَمَّا كانَ مُحَقَّقَ الوُقُوعِ

دلَّ اسمُ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ على المبالغَةِ في تَقْريعِهِمْ؛ حيثُ أُشيرَ إلى اليَوْمِ تَحْقيقًا لَهُ، وأنَّه اليومُ نَفْسُهُ الذي غفَلَ عنه هَؤُلاءِ الكفرَةُ وجحَدوهُ، فهو نَظيرُ قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103].

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

إِصْرارُ الكُفَّارِ عَلَى جَحْدِ الآياتِ الإِلَهِيَّةِ، واسْتِمْرارُهُمْ عَلَيْهِ

عُبِّرَ بِفِعْلِ الكَوْنِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ولم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَما بآياتنا يَجْحَدونَ)؛ للإشْعارِ بأنَّ جَحْدَهم لَمْ يكُنْ عارِضًا، وإنَّما كانوا مُنْكِرينَ بأنَّها مِنْ عِنْدِ اللّه ﷻ إنكارًا مستمِرًّا[1]، متأصِّلًا في نفوسهم.

نُكْتَةُ إضافَةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فِي السِّياقِ:

إِظْهارُ عَظِيمِ قُبْحِ جَحْدِ آياتِ اللهِ تَعالَى

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّميرِ العائِدِ إلى اللّهِ تعالى في قَوْلِه: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ تعظيمًا للمُضافِ وهو الآياتُ، ويُقَوّيه مَجيءُ الضَّميرِ بِأُسْلوبِ العظَمَةِ؛ زيادةً في المَهابَةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوسِ المُتَلَقّينَ.

وفي تَعْظيمِ الآياتِ على النَّحوِ المتقدِّمِ إظهارٌ لبلوغِ قُبْحِ جَحْدِها درجةً عاليةً.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/231.

سِرُّ جَمْعِ الآياتِ بقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

كَثْرَةُ الآياتِ الإلَهِيَّةِ أبْلَغُ فِي إقامَةِ الحُجَّةِ عَلَى مُنْكِرِيها

وذلك في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، ففي جَمْعِ الآياتِ، زيادةٌ في تقبيحِ جَحْدِهِم لَها، فإنَّهم لَوْ جَحَدوا آيةً واحدةً مِن آيات اللّه سُبحانَهُ؛ كان ذلك قبيحًا شَنيعًا، فكيف وقَدْ جحدوا آياتٍ من أدلةِ اللّه وبراهينهِ مع عِلْمِهم بأنَّها حقٌّ؟

دَلالةُ تَقدِيم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على قولِه: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾:

تَقديمُ شِبْهِ الجُملةِ لأهميَّة ما تمَّ تَقديمُه

قدَّم القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الآيات لمزيد العنايةِ والاختصاصِ بهذه الآياتِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّة، التي كان عليهم أن يتوصَّلوا بها إلى الإيمانِ بدلًا من الجحود والنُّكران.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾:

إحْضارُ مُوجِبِ العَذابِ فِي أَذْهانِ الكافِرِينَ، أَشَدُّ فِي حَسْرَتِهِمْ وَأَبْلَغُ فِي تَبْكِيتِهِمْ

في التَّعبيرِ بِالفعلِ المُضارعِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ في قَوْلِ اللّه: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، دونَ الماضي: (**جَحَدوا**) إظهارٌ لِشَنيعِ أعمالِهِمُ التي عملوها في صورَةِ ما يُعْمَلُ في الحالِ؛ ليكونَ موجبُ العذابِ أحضَرَ في أذْهانِهم وقْتَ تعذيبِهِمْ، فيَكونَ ذلكَ أشدَّ في حسرَتِهِمْ وأبلغَ في تبكيتِهِمْ.

دَلالةُ تَرتِيبِ أوصافِ الكافرين، في هذه الآيةِ وما قبلَها:

للكافرين مَسْلكٌ وطريقةٌ، زاغوا بها عن صِراط الله المستقيم

جاءت هذه الأوصاف المتعدِّدة للكافرين لتجيبَ عن سؤالٍ: ما سببُ هذه التَّشديدات والعقوبات لهم؟ فكان الجواب: لأنَّهم كانوا كافرين، ثمَّ بعد ذلك بيَّن من حالِ كفرِهم أنَّهم اتَّخذوا دينَهم لهوًا ثمَّ لعبًا، ثمَّ غرَّتهم الحياة الدُّنيا، فكان عاقبة هذه الأحوالِ أنَّهم جحدوا بآياتِ اللّه، وذلك يدلُّ على حبِّهم الشَّديد للدُّنيا الَّذي هو رأسُ كلِّ خطيئة[1].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/297.

توجيه تقديم اللَّهو على اللَّعب، والانتباه إلى غُرورِ الدّنيا، والحَذرُ من نِسيانِ الآخرة

المتُشابِهُ اللَّفظِيُّ بين آيةِ الأعراف (51)، وآيةِ العنكبوت (64):

قدَّم النَّظمُ القرآنيُّ اللَّهوَ على اللَّعب في موضِعَين، هما: هنا في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، وفي سورة العنكبوت في قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]. وعِلَّةُ تقديم اللَّهو في سورة الأعراف؛ لأنَّ ذلك يكون يومَ القيامة، فذُكِرَ على ترتيب ما انقضَى، وبدأ بما به الإنسانُ انتهى من الحالين. وأمّا في سورة العنكبوت؛ فلأنَّ زمانَ الشَّباب الذي يكون فيه اللَّهو أكثرُ من زمانِ الصِّبا الذي يكون فيه اللَّعب. وإنَّما ذكر ذلك هنا لأنَّ المرادَ زمانُ الدُّنيا، وأنه سريعُ الانقضاء قليلُ البقاء.

وقدَّم اللَّعبَ على اللَّهو في مواضعَ أربعة، هي: الأنعام في الآيتين: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأنعام: 70]، وفي سورة محمد ﷺ في آيةٍ واحدة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦﴾ [محمد: 36]، وفي سورة الحديد في آيةٍ واحدة كذلك، وهي قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20].

وعِلَّةُ تقديم اللَّعب على اللَّهو بأنَّ اللَّعب يكون زمنَ الصِّبا، واللَّهوَ يكون زمنَ الشَّباب؛ وزمانُ الصِّبا متقدِّمٌ على زمانِ اللَّهو[1].

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 1/121.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

قالَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [غافر: 63]، ووجهُ المغايَرةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأعرافِ ورَدَ فيها قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾، فلمّا كان التَّعبيرُ بنون العظمَةِ؛ ناسبَهُ إضافَةُ الآياتِ إلى ضمير (نا) الدّالَّةِ على العظَمَةِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، بخلاف آيةِ غافرٍ فقد صُدِّرت بقولِه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوٓاْ﴾، فلمّا كان مِن إفْكِ هؤلاءِ إشْراكُهُم باللّه تعالى وعدَمُ توحيدِهِم لَهُ؛ ناسبَهُ إضافةُ الآياتِ إلى الاسم الأحسَن (اللّه) بقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

دِقَّـةُ الـنَّـظْـمِ القُرْآنِيِّ فِي اختِيارِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّهْوُ واللَّعِبُ:

اللَّهْوُ واللَّعِبُ متقاربانِ، حتَّى فسَّر بعضُ أهلِ العربِيَّةِ أحدَ اللَّفظَينِ بالآخَرِ، كما فعلَ ابنُ الأثيرِ؛ إذ قالَ: "اللَّهْوُ: اللَّعِبُ، يُقالُ: لَهَوْتُ بالشَّيْءِ ألْهو لَهْوًا، وتَلَهَّيْتُ به؛ إذا لعبتُ به، وتشاغلتُ، وغفلتُ به عَنْ غَيْرِه"(1)، وقد يَكونُ قصدُهُ التَّقريبَ، كما هو طريقةُ كثيرٍ من أصْحابِ المُعْجَماتِ في جُملةٍ مِنَ الألفاظِ الّتي يُريدونَ بيانَ حقيقَتِها.

للَّعِبِ واللَّهوِ دَلالاتٌ واسِعةٌ، يَتَّصِفُ بها الظّالِمون، ولها عمومٌ وخُصوصٌ

والتَّحقيقُ أنَّ بينَهُما فرْقًا، وقدِ اختلَفَ أهلُ العِلْمِ في محلِّ الفَرْقِ بينَهما: فاختار أبو السُّعود أنَّ اللَّهْوَ صرفُ الهمِّ إلى ما لا يَحْسُن أن يُصرفَ إلَيْه، بخلاف اللَّعِبِ؛ فإنَّه طلبُ الفرحِ بما لا يَحْسُنُ أن يُطْلَبَ(2).

والأصَحُّ أنَّ بينَهُما عمومًا وخصوصًا وجهيًّا؛ وذلك أنَّ حقيقةَ اللَّعِبِ: عملٌ أو قولٌ ليسَتْ لَهُ غايةٌ مفيدَةٌ، وإنَّما غايتُهُ إراحَةُ البالِ،

---

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (لها).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/231.

وتقصيرُ الوقتِ، واستجلابُ العقولِ في حالِ ضَعفِها، كَما هو أكثَرُ عملِ الصِّبيانِ، بخلاف اللَّهوِ؛ فإنَّه ما يشْتَغِلُ به الإنسانُ ممّا تميلُ إليه النَّفسُ وترتاحُ، ولا يتعَبُ عَقلُهُ في الاشتغالِ به، فلا يُطْلَقُ اللَّهْوُ إلّا على ما فيه لذَّةٌ واسْتِمْتاعٌ وملاءَمَةٌ للشَّهْوَة.

فيجتَمِعُ اللَّهْوُ واللَّعِبُ في العمَلِ الذي فيه مُلاءَمةٌ، وينفَرِدُ اللَّعِبُ في نحوِ لعبِ الصِّبيانِ، وينفردُ اللَّهْوُ في نَحوِ الميسِرِ والصَّيْدِ[1].

الغُرُورُ والخِداع:

غـرّتِ الظّالمَ شَهواتُه، فصار لـهـا عـبـدًا، وخَدعتْهُ الدّنيا، فضَيّعَ بها قصْدًا

الغُرورُ: فعلٌ تظهَرُ فيهِ غَفْلَةُ المغرورِ وقِلَّةُ فِطْنَتِهِ؛ لأنَّه سكونُ النَّفس إلى ما يوافق الهَوَى ويميلُ إِلَيْهِ الطَّبْعُ، بخلافِ الخِداعِ: فإنَّه يعْتَمِدُ على براعَةِ الخادعِ.

فبينَ الغُرورِ والخداعِ تقارُبٌ دلاليٌّ؛ فهُما يَشْتَرِكانِ في معنًى عامٍّ؛ وهو الإيقاعُ في الشَّرِّ، ويختصُّ كلٌّ منهما بمَعْنًى: فالخداعُ: يعْتَمِدُ على براعَةِ الخادِعِ، والغرورُ: يعتَمِدُ على غفلةِ المغرورِ وقلَّةِ فِطْنَتِهِ[2].

الجُحُودُ والإِنْكارُ:

الظّالمُ تخطّى إنكارَ آياتِ الله إلى الـجُـحـودِ بـهـا، مـع أنّـه مدرِكٌ صِدْقَها

الجُحودُ والإِنْكارُ يَرِدانِ مُصاحِبَيْنِ للكُفْرِ، ويفْتَرِقانِ مِنْ ثلاثَةِ أوجُهٍ[3]:

أحدها: أنَّ ضدَّ الجحودِ: الاعترافُ، وضدَّ الإنكارِ: الإقرارُ.

ثانيها: أنَّ الجحودَ يكون معَ معرفةِ القلْبِ بصحَّةِ ما يجْحَدُهُ، لكنَّ الجاحِدَ لا يقرُّهُ بلسانِه، وممّا يدلُّ على أنَّ الجحودَ إنكارٌ معَ عِلْمٍ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النّمل: 14]، وأمّا الإنكارُ: فأعَمُّ مِنَ الجحودِ، والغالبُ أن يكونَ بسبَبِ جَهْلِ صاحِبِه بما أنْكَرَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/193.
(2) محمّد محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 235 - 236.
(3) محمد الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 219 - 220.

ثالثُها: أنَّ الجحودَ يكونُ في إنكارِ الأمرِ الظّاهرِ؛ لسَبْقِ المعرفَةِ بهِ، ولذا يُستعمَلُ في القرآنِ الكريمِ لتكذيبِ آياتِ اللهِ سُبحانَهُ؛ إشعارًا بأنَّ آياتِهِ ﷻ مِنَ الوُضوحِ والظُّهورِ بحيث يُدْرِكُ كُلُّ أحدٍ صِدْقَها، كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، وأمّا الإنكارُ؛ فيكون لِما خَفِيَتْ حِكْمَتُهُ على المَرْءِ، ولذا لَمْ يُستعمَلِ الإنكارُ مع الآياتِ في القُرْآنِ الكَريمِ إلّا مَعَ ضَرْبٍ مِنْ ضُروبِ التَّخصيصِ، كما في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: 81].

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كتابُ الله هدايةٌ لمن رام النَّجاة، ورحمةٌ لمن حرص على الفوز

في الآيةِ مُناسبتان؛ الأولى: عامَّة مع السّياقِ السّابقِ، والأُخرى: خاصّة مع الآيةِ السّابقةِ وحدَها. أمّا المناسبةُ العامَّة: فلَمّا بيَّنت الآياتُ السّابقةُ أحوالَ أهلِ الجَنَّةِ وأهلِ النّارِ وأهلِ الأعرافِ، وبيَّنت ما كان بينهم من محاوراتٍ وشَرَحِ الكَلِمات الدّائرَة بَينَهم على وجهٍ يَصيرُ سَماعُ تِلكَ المناظَراتِ حامِلًا لِلمُكَلَّفِ على الحَذَرِ والاحترازِ، وداعيًا له إلى النَّظَرِ والاستدلالِ، جاءت هذه الآيةُ آخذةً مَوقعًا في الإبانةِ عن واقعِ القرآنِ، وأنَّه كتابٌ مُفصَّلٌ على علم اللّهِ، هدايةٌ لمَن رامَ النَّجاةَ، ورحمةٌ لمَن حَرِصَ على الفوزِ، وهو في المقابلِ عذابٌ أليمٌ لمَن تركَهُ خلفَ ظهرِه مهجورًا. وأمّا المناسبةُ الخاصَّةُ: فلمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ جحودَهم بآياتِ اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: 51] ذكرَ في هذه الآيةِ وصفَ الآياتِ الّتي جحدَها أولئك، زيادةً في التَّرهيبِ والوعيدِ.

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِكِتَٰبٖ﴾: مِنَ الجذر (كتب)، وهو أصل صحيح واحد يدلُّ على جمع شيء إلى شيء، ومن ذلك الكتاب والكتابة، والكتابُ: مصدرٌ كالكَتْبِ، وأصلُه: جمعُ شيءٍ إلى شيءٍ، وتُعورِفَ في ضَمّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخطّ، وقد يُقال ذلك للمَضموم بعضِها إلى بعضٍ باللّفظ، فالأصلُ في الكِتابَةِ النّظمُ بالخطّ، لكنْ يُستعارُ كلُّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ اللّه كِتابًا، وإنْ لم يُكتَب[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).

2) ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾: مِنَ الجذر (فصل)، وهو أصل صحيح يدلُّ على تمييز الشَّيء مِنَ الشَّيء وإبانته عنه، وأصلُ التّفصيل: مِنَ الفصْل، وهو: قطعُ الشَّيء وإبانَتُه، وتفريقُهُ عمّا سواه؛ ليتميّزَ ويستقلَّ ويَبِينَ مِن غيرِه[1]. وتفصيلُ الكتابِ: جَعلُ حقائقِه ومسائلِه المرادِ بيانُها مفصولًا بعضُها مِن بعضٍ بحيثُ لا تَشتَبِه[2].

المعنى الإجْماليّ:

أقام الله الحُجّة على خَلْقه بإنزال الكتاب مفصَّلًا، وهاديًا لأهل الإيمان ورحمة لهم

بيَّنتِ الآيةُ العدلَ الإلهيَّ والرَّحمة الرَّبّانيَّة، بإقامة الحُجَّةِ على الخَلْقِ، بأنْ جاءَهم بكتابٍ مُفصَّلٍ على عَلْمٍ مِن لدنّا بما بيَّناه، وعِلْمٍ عظيمٍ كائنٍ فيه، ومُشتمِلٍ عليه؛ لأجلِ أن يكونَ هاديًا لهم ومُرشدًا ودليلًا للحقّ، وسببًا في رحمتِهم إنْ هم صدّقوه، وعمِلوا بما فيه، وكانوا قومًا مؤمنين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

الاسـتـئـنـافُ النَّحويُّ وعطفُ الـقـصَّـةِ على القصَّة متقارِبان في الدّلالةِ

تَحتمِل الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ أن تكون استئنافًا نحويًّا، أو عطفًا، أمّا الاستئناف النَّحويّ: فباعتبارِ أنَّ الكلامَ قد تمَّ عند: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ في قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: 51]، وأمّا العطفُ: فهو من بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فالجملةُ معطوفةٌ على جُملَةِ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 50]، فهو كَلامٌ أنِفٌ انتُقِل به مِن غَرَضِ الخبَرِ عَن حالِ المُشرِكينَ في الآخِرَةِ، إلى غَرَضِ وصفِ أحوالِهم في الدُّنيا، المُستَوجِبينَ بها لِما سَيُلاقونَهُ في الآخِرَة، وليس هو مِنَ الكَلامِ الَّذي عَقَّبَ اللّٰه به

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فصل).
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/393.

كَلامَ أصحابِ الجَنَّةِ في قَولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: 51][1].

ومعنى الاستئنافِ والعطفِ متقاربٌ، حيث إنَّ عطفَ القصَّةِ على القصَّةِ فيه معنى الاستئنافِ؛ لأنَّه يَشْرَعُ في معنًى جديدٍ كُلّيٍّ، على معنًى كلّيٍّ سابق.

تأكيدُ البلاغِ المبينِ دافعٌ لشُبهةِ تقصيرِ سيِّدِ المُرسلين

بلاغةُ القَسَمِ في إقامةِ الحُجَجِ:

جاءَ التّعبير بجملةِ القَسَم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم﴾؛ لتأكيدِ استحقاقِ المشركين ما حصل لهم مِن سوءِ العاقبة، ودَفْعِ توهُّمِ التّقصيرِ في بلاغِهم وحِجاجِهم؛ ففيه دَفعُ شُبهةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قصَّر في التَّبليغ، وإيصالِ الرِّسالةِ على وجهها للعالَمين، وفي القَسَم: تأكيدٌ بأنَّ التّعذيبَ ليس مُرادًا ابتداءً مِنَ اللّه بخَلْقه، بل ما كان للّه أن يُبادِئَ أحدًا بالعقوبة، إلّا إذا استوفى مِن نفسه خُسرانَها، فسَوقُ الكلام بأسلوبِ القَسَم دليلٌ على أنّ الرَّحمةَ أصلٌ سابقٌ على الغضبِ.

يُحتمَلُ عَوْدُ الضّميرِ على الأُممِ السَّابقةِ عامّةً، أو على المعاصرين خاصَّةً

تعيينُ مَرجِعِ الضّميرِ في قوله تعالى: ﴿جِئۡنَٰهُم﴾:

يرجع الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم﴾ على الكفرةِ عامَّةً، والمرادُ بالكتابِ الجنسُ، أو على المشركين المُعاصرين للرَّسولِ ﷺ، والمرادُ بالكتابِ القرآنُ[2].

والمعنيان مُعتبران، إلّا أنَّ اطِّرادَ الكلام على صيغة الغيبة، فلم يقُل: (ولقد جئناكُم)، وتأكيده بالقَسَم يُرشِّح أن يكونَ الكلامُ عن الأممِ الفائتةِ الغائبة، لا عن أُمَّةٍ حاضرةٍ، يَغلبُ أن يكونَ الكلامُ عنها بالخطاب دونَ الغَيْبة، فضلًا على أنّ المذكورَ القريبَ هم كافرو الأممِ الماضيةِ مِنَ الأوّلِينَ والآخِرينَ، وعَودُ الضَّمير على مذكورٍ صريحٍ أولى مِن عَوْدِه على معهودٍ مُقدَّرٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/151.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/231.

معنى الباء في قولِه: ﴿بِكِتَٰبٖ﴾:

البَاءُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ للتَّعدية، كأنّه قيل: (ولقد أَجَأْناهم كتابًا)، فالكتابُ الّذي دخلَت عليه الباءُ هو مفعولٌ به في المعنى، والنُّحاةُ يُعبِّرون عن ذلك بأنّ الباءَ للتَّعدية، بمعنى: أنّنا لو أزلناها لَتعدَّى الفعلُ بالهمزة، وصار المجرورُ منصوبًا، فلمّا دخلتِ الباءُ تعدَّى الفعلُ بها، كقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]، وأفادَ دخولُ الباءِ بيانَ تمكُّنِ المجيءِ، في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، بأداةٍ لا تقبل الشَّكَّ، وهي الكِتاب.

الباءُ للتَّعدية، ونكتتُها: بيانُ تمكُّنِ المجيءِ في إقامةِ الحُجَّةِ

دلالةُ لفظِ (كِتاب) بينَ العُمومِ والخصوص:

يَحمِل المفسِّرون معنى الكتابِ في قوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٖ﴾، إمّا على جنسِ الكُتبِ الّتي جاءت بها الرُّسُلُ أقوامَهم، وإمّا على القرآنِ خاصَّةً، وكلا المعنيين صحيحٌ، فحَمْلُه على الجنس شاملٌ لجميع الكُتبِ، ومنها: القرآنُ الكريمُ، لكنَّ القرآنَ يدخلُ في الآيةِ دخولًا أوّليًّا، فهو المقصودُ فيما يتعلّق بالمُخاطَبين، إذ إقامةُ الحجَّة تتَّجهُ إلى المعاصِرين بصورةٍ مباشرةٍ، وحَمْلُه على الجنسِ لبيانِ عدالةِ اللّه تعالى في إرسالِ الرُّسلِ إلى جميعِ الخَلْقِ، وإقامةِ الحجَّةِ عليهم.

لفظُ الكِتاب يُرادُ به جنسُ الكُتُبِ، ويدخل القرآنُ دخولًا أوّليًّا

سرُّ التَّعبيرِ بمفردة: (كتاب):

عَبَّرَ بالكتابِ ليَشملَ جميعَ الكُتبِ، فلو قال: (بقرآنٍ) لاقتصرَ على القرآنِ، ولبيانِ توثيق ما جاءَ في جميعِ الكُتبِ، فهي مكتوبةٌ مُدَوَّنةٌ محفوظةٌ، انتهى حفظُها إلى القرآنِ الكريم، فهو الكِتابُ النّاسخُ المهيمنُ على بقيَّة الكُتب، ولا كتابَ يقبلُه اللّهُ بعدَ نزولِه سواه.

القرآنُ الكريم كتابٌ ناسِخٌ، مُهيمنٌ على بقيّة الكتبِ

غَرَضُ تنكيرِ لفظِ (كتاب) في قوله: ﴿بِكِتَٰبٖ﴾:

نُكِّرَ لفظُ (كِتابٍ) لقصدِ الإجلالِ والتّعظيم، وإشارةً إلى فخامته، وإلى أنّه كتابٌ لا يتسامى إلى مثله كتابٌ[1]، ولإرادةِ كمالِ

تعظيمُ الكتابِ وإجلالُه، فهو ليسَ كبقيَّةِ الكُتبِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2857.

النَّوعِ؛ على القولِ بأنَّه القرآنُ خاصَّةً؛ أي: هو نوعٌ ضمنَ الكُتبِ الّتي أُنزِلَت مِن قبلُ، وفَرْدٌ مِن أفرادها[1]، ولإفادة الشّمول في أصله؛ باعتبار إرادةِ الجنسِ في معنى الكِتابِ، أو باعتبار شُيوعه في الأمم؛ أي: كتابٌ حاصلٌ في كلّ أُمَّة، بشيوع الوحي فيها جميعًا، وعدم اقتصاره على طَرَف منها.

فوائدُ نعتِ لفظِ ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ بالجملة الفعليّة: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾:

جاءَ الكتابُ في قوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منعوتًا بالفعل دونَ الاسم والمصدر، فلم يقُل: (جئناهم بكتاب مُفصَّلٍ، أو فصْلٍ)؛ لفوائد:

تـفـصـيـلُ الـكـتـابِ جـاء ليشملَ الواقعَ والمستقبلَ

الأولى: دَفْعُ توهُّم أنَّ التَّفصيلَ مقصورٌ على الكِتابِ، دون ملاحظة لِمَنْ فُصِّل لأجله الكِتابُ، فجاء التّعبيرُ بالفعل؛ لإفادة أنَّ الكِتابَ مُفصَّلٌ في ذاته، ومُفصَّلٌ لأجل مَن نزل فيهم، وأنَّهم كانوا همُ المقصودينَ مِن تفصيل الكِتاب خطابًا، وتكليفًا، وهِدايةً.

الثّانية: الإشارةُ إلى حركة تبليغِ الرُّسلِ، وأنَّه كلَّما تجدَّد للأقوام مِنَ الرّسل البلاغُ، اتَّسعَ لهم في تفصيل الكتابِ جديدٌ لم يكن معهودًا لهم مِن قبل، فكلَّما أحدث الرَّسولُ بلاغًا كان هذا بمثابة تجدُّدِ التَّفصيل واستزادةٍ فيه.

الثّالثة: الإشارةُ إلى أمرٍ غيبيٍّ، وهو أنَّ الكتابَ فيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ إلى قيام السّاعة، فكلُّ مستجدّات الحياةِ تفصيلُها في القرآن الكريمِ.

فائدةُ تقييدِ جملةِ: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بالجارِّ والمجرور: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾:

الـكـتـابُ أصلُه الـعِـلْـم، وهـو قائمٌ على الحقِّ، لا يـتـطـرّقُ إليه الشَّكُّ

قُيِّدَت جملةُ: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بالجارّ والمجرور: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ لبيانِ موقعِ الكِتابِ مِنَ اليقين والحقِّ، فهو قائمٌ بالحقِّ، مُرتكزٌ على العِلْم، فالعِلْمُ هو قاعدةُ الكِتابِ الّتي يرتكزُ عليها، وينطلقُ منها؛ فكأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/152.

الكِتابَ مُسْتعلٍ عليه استعلاءَ البُنيانِ على قواعده، فلا انفكاكَ لأحدهما عنِ الآخَر، ويُرشِّحه حَملُ حرفِ (على) على الاستعلاء المجازيِّ. وفيه تعريضٌ بالكافرين وتشنيعٌ عليهم، بأنَّ كُفرَهم لم يَصدر عن عِلْمٍ، ولا عن حقٍّ ويقينٍ، بل كانوا ما بين اتِّباعِ الظَّنِّ والهوى، والافتراءِ على اللّه الكذبَ، وتحريفِ الكَلِم عن مَواضِعه في كُتبهم، وأنَّ كلَّ كتابٍ لم يَقُمْ على حقيقةِ العِلْم فهو أجدرُ أن يُطرَحَ، ولا يُكْترَث له، ولا سيَّما ما لَحِقَه التَّحريفُ. وفيه حضٌّ للمؤمنين أن يستمسكوا بمسلكِ العِلْم واليقين، وألّا يتَّبعوا مَسالكَ الظُّنونِ والتَّقليدِ أيًّا كان أهلُها ورُعاتُها.

سرُّ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ في قوله: ﴿فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾:

الكِتابُ قائمٌ على العِلْم أصالةً، مشتملٌ عليه تبعًا

حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾: إمّا أن يُحمَلَ على الاستعلاءِ المجازيِّ، فهو يدلُّ على التَّمكُّن مِن مجروره، ومعنى هذا التَّمكُّن: أنَّ عِلْمَ اللّهِ تعالى ذاتيٌّ لا يَعْزُب عنه شيءٌ مِنَ المعلومات[1]، فهو العِلْمُ الإلهيُّ الثّابتُ الكاملُ، المُنزَّهُ عنِ الخطأ والنَّقص، ويكون ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ حالًا مِنَ الفاعل؛ أي: فصَّلْناه عالِمين بتفصيله[2].

وإمّا أن يُحمَلَ حرفُ الاستعلاءِ على التّعليل؛ أي: لأجل العِلْم، ويُفيدُ قصدَ تعليمِهم وإعلامِهم، فالعِلْمُ مُتعلِّقٌ بالمُخاطَبين؛ أي: العِلْم الّذي يهديهم به اللّهُ ويرحمُهم، وهو عِلْمُ اليقينِ والحقِّ، ويكون: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ حالًا مِنَ المفعول؛ أي: فصَّلْناه مُشتمِلًا على عِلْمٍ[3].

وحَمْلُ حرفِ الاستعلاء على أصلِه في الاستعلاءِ هو الأَوْلى بالمقام، ومعنى التَّعليل يدخل تَبَعًا، فإنَّ الكتابَ الّذي قام على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/152.

(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/336.

(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/336.

علمِ اللّهِ تعالى، قد اشتملَ يقينًا على العِلْمِ الّذي يُفيدُ الخَلْقَ، فالمعنيان مُتعانقان.

دلالةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿عِلۡمٍ﴾:

تعظيمُ العِلْمِ، يُفيدُ التَّحضيضَ عليه، والاستنهاضَ إليه

أفادَ تنكيرُ لفظِ ﴿عِلۡمٍ﴾ التَّعظيمَ، وكمالَ الجنسِ، وتمامَ الإتقانِ واليقينِ؛ أي: عالِمين أعظمَ العِلْم، على أكمل وجهٍ بذلك، حتّى جاء حكيمًا مُتْقَنًا، والعَظَمةُ هنا راجعةٌ إلى كمالِ الجنسِ في حقيقته، وأعظمُ العِلْمِ وأكملُه: هو العِلْم الّذي لا يَحتمِلُ الخطأ ولا الخفاءَ، وهو العِلْم الذّاتيُّ الإلهيُّ، الّذي لا يتخلَّفُ ولا يَخْتلفُ في ذاته، فلا يَحتمِلُ الخطأ ولا التَّردُّدَ[1].

نكتةُ تقييدِ الكتابِ بالحالِ بصيغةِ المصدرِ: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾:

التَّعبيرُ بالمصدرِ؛ للمبالغةِ في بيانِ ثباتِ هدايةِ الكتابِ ورحمتِه بالعباد

جاء تقييدُ الكتابِ بقوله: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ حالًا بصيغة المصدر؛ مبالغةً في تثبيتِ عاقبةِ اتّباعِ الكِتابِ، وتنبيهًا على "قوّةِ هَدْيهِ للنّاسِ، وجَلْبِ الرَّحْمةِ لهم"[2]، ويُؤوَّل بالوصف، أو التّقدير بالإضافة؛ "أي: جعلنا الكِتابَ هاديًا وذا رحمة"[3].

دلالةُ عطفِ الرَّحمةِ على الهُدى:

تلازمُ الهدى والرَّحمةِ، فيه اختزالُ معاني البلاغِ والاستجابةِ والعاقبةِ

اطِّرادُ مجيءِ الرَّحمةِ بعدَ الهُدى، كاطِّرادِ ترتيبِ النَّتيجةِ على المُقدِّمَة، وحدوثِ العاقبةِ بعد العملِ، فالهُدى: أصلُ الرَّحمة، وهي ثمرتُه، وفيه مراعاةٌ لرُتَبِ المقاماتِ، والتماسِ العواقبِ بعد تحقيقِ أسبابِها؛ أي: تحقَّقوا بالهُدى تجدوا الرَّحمةَ تاليةً له، حاضرةً بعدَه، وفيه مِنَ البُشْرى والاستنهاض ما فيه؛ لأنَّ اقترانَ المكافأةِ بالتَّكليف حافزٌ على القيامِ به، والنَّشاطِ له، والقيدُ بالحال هدًى ورحمةٌ معًا؛ لاشتمالهما على معاني البلاغِ والاستجابةِ والعاقبةِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/153.
(3) البغويّ، معالم التَّنزيل: 3/235.

أغراضُ توجيهِ المخصوصِ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

التَّخصيصُ بالذِّكر اجتمع فيه: المناسبةُ، والمقابلةُ، والاختصاصُ، ودَفْعُ الإيهام

خصَّصتِ الآيةُ صِفةَ الإيمان في وصْفِ القومِ، وذلك لمجموعةٍ مِنَ الفوائد:

الأولى: غرضُ المناسبة، والرَّبطُ بأوَّلِ السّورةِ، فالآيةُ "مردودةٌ على قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [الأعراف: 2]"(1).

الثّانية: غرضُ المقابلة؛ لأنَّ السياقَ موصولٌ بذِكْرِ الكافرين قبلَه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف: 50]، فالكافرون اتَّخذوا دينَهم لهوًا ولَعِبًا، والمؤمنون اتّخذوه هدايةً ورحمةً.

الثّالثة: غرضُ الاختصاص؛ فإنَّ الرَّحمةَ المذكورةَ في قوله: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ لا تقعُ إلّا لمَن تلقَّى الكِتابَ والوحيَ بإيمانٍ وإذعانٍ.

الرّابعة: غرضُ التّفريقِ بينَ هدايةِ التّوفيقِ، وهدايةِ الإرشادِ، ودَفْعِ الإيهام؛ ولذلك لم يوصفِ الكِتابُ بأنّه هُدًى للكفّار؛ لئلّا يُتَوهَّمَ أنَّهمْ اهتَدَوا بالفعل، وإن كان هو هدًى لهم بقوَّة الدَّليلِ والبيانِ فقط، فكذلكَ هاهنا اختُّص المؤمنون بالذِّكر؛ ليَدُلَّ على هدايتهم بالفعلِ والقوَّةِ معًا، بالدَّليلِ، والتَّحقيقِ، والبيانِ، والتَّصديقِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإيمانُ المبنيُّ على عِلْمٍ مُتَجدِّدٌ في القلوب، مُتَّقِدٌ في الأفئدة

عبَّرتِ الآيةُ بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ للدَّلالة على أنَّ الإيمانَ يتجدَّدُ بتجدُّدِ تَعَلُّمِ الكِتابِ، وطَلَبِ المزيدِ منه، وأنَّ هناك علاقةً قائمةً بينَ الإيمان والعِلْم، فالعِلْمُ هو وقودُ الإيمان، وهو مَنبَعُ اتِّقادِه، فالإيمانُ مُتجدِّدٌ في القلوب، يزيدُ بعدَ نقصٍ، ويقوَى بعدَ ضَعْفٍ، فالتَّعبير بالفعليَّة بصيغة المضارع معناه: أنّه يَحْدُثُ مَرَّةً بعد مَرَّة.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/240.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(التَّفصيل) و(التَّبيينُ):

التَّفْصِيلُ هو غايةُ التَّبيين، فلا يمكن التَّفصيل مِن غيرِ بيان، ولكن يمكنُ العكسُ

التَّفصيلُ: هو التَّمييزُ بين شيئَين، بحيث تُقيم فاصلًا بينهما، فلا يتداخلان أو يتمازجان. والبيانُ: هو كَشْفُ الشَّيء، وتجليَتُه، وإيضاحُه باستقلالٍ، مِن غير اشتراطِ وقوعِه مُقارَنًا بغيره، أو استصحابِ غيرِه معَه، ولذلك؛ فالتَّفصيلُ: بيانٌ زوجيٌّ أو جَمعيٌّ لمُتَعَدِّدٍ، والتَّبيينُ: بيانٌ فرديٌّ لا يَلْزم فيه استحضارُ معنى الثُّنائيَّة أو التَّعدُّديَّة. والتَّفصيلُ: هو الانتقالُ بينَ الفصولِ والمُقابَلاتِ، ولذلك عُبِّرَ بالتَّفصيل في الآية بعدَ أن ذَكَرَ الفصولَ المتقابلة بينَ أصحابِ الجَنَّةِ وأصحابِ النَّارِ، ومصيرَ كُلٍّ، والتَّبيينُ: هو مُطلَقُ الإيضاحِ.

وعليه: فالتَّفصيلُ أعمُّ مِنَ البيان، فهو بيانٌ مَزيدٌ؛ بتحريرِ وإقالةِ المُبَيَّنات بعضِها عن بعض، بحيث لا يُحتَمَل معها تداخُلٌ أو التباسٌ، ولا يَقَعُ عليها إيرادٌ أو إشكالٌ، ولا تفتقرُ لاستيفاءٍ واستتمامٍ، والتَّفصيلُ: هو غايةُ التَّبيين، فلا يمكنُ التَّفصيل مِن غير بيان، ولكن يمكنُ التَّبيين مِن غير تفصيل(1).

(جاء) و(أتى):

الفرقُ بين هذين اللَّفظين مِن جهتين:

الفرق بينَ المجيءِ والإتيانِ مِن جِهَتَين: اعتبارُ السُّهولة وضِدِّها، واعتبارُ التَّحقُّقِ وخلافِه

الأولى: باعتبار السُّهولةِ والشِّدَّة: فالإتيانُ: مجيءٌ بسُهولةٍ ويُسرٍ(2)، والمجيءُ: إتيانٌ فيه شِدَّةٌ وعِظَمٌ، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ٢٧﴾ [مريم: 27]، ذلك أنَّ الإتيانَ به وحَمْلَه أمرٌ يسيرٌ لا كُلفَةَ فيه حِسًّا ومعنًى، ولكنَّ الإتيانَ بالفاحشة أمرٌ عسيرٌ مُستَبْشَعٌ، فاقترنَ بالمجيء؛ ولذلك جاء قولُه

(1) العسكريُّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 59، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين)، والزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: 2/25، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 212، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 230.

(2) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: 1/20.

تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: 24]، جاءَ بالإتيان، ولم يأتِ بالمجيءِ، مع أنَّه واردٌ في شِدَّةٍ وإهلاكٍ؛ للإخبارِ بأنّه في قدرة اللّه أمرٌ يسيرٌ لا عناءَ فيه، ليتقابلَ مع قوله: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ [يونس: 24]، فإذا كانوا قادرين عليها بالظَّنِّ، فقُدْرة اللّهِ عليها بالإذهاب والفناء يسيرةٌ بيقينٍ كلَمْحِ البَصرِ، وبقول: ﴿كُن﴾ [البقرة: 117].

الثّانية: باعتبار التَّحقُّقِ وقُرْب التَّحقُّقِ: فالمجيءُ: هو الإتيانُ الـمُتحقِّقُ التّامُّ، والإتيانُ مجيءٌ قريبٌ مُتَوقَّعٍ، أو حصل لكنَّه لم يَتمَّ بعدُ، ولذلك لم يجىءِ المجيءُ في القرآن إلّا بصيغة الماضي، بخلافِ الإتيانِ الّذي توفَّرت عليه الصّيَغُ؛ ﴿تَأۡتِينَآ﴾ [البقرة: 118]، ﴿ٱئۡتُونِي﴾ [يونس: 79]، ﴿فَأۡتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿أَتَىٰٓ﴾ [النحل: 1]، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ [النّصر: 1]؛ فهو مُتحقِّقٌ حاصِلٌ، وقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، فهو وعدٌ مُستقبليٌّ قريبٌ، جرى مَجرَى الـمُتحقِّق(1).

(1) الهرويّ، الغريبين: 1/41، والرّاغب، المفردات، ص: 60، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 166، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/361، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو، أتى، جيأ).

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾ [الأعراف: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكِتاب هدًى ورحمةٌ لمن أقبلَ عليه وآمن به، وحرمانٌ وندامةٌ لمن أعرض عنه وكفر به

لـمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ أحوالَ الكتابِ، وحالَ مَن يَنتَفِعُ به، أعقبَ ذلك بتعريضٍ ووعيدٍ لأولئك الّذين لا ينتفعون ولا يؤمنون؛ لِتكونَ الآياتُ جامعةً لوصفِ الكتابِ، ووصفِ مَنْ يتفاعلون معه بالإيمانِ أو بالنِّسيان، ووصفِ مصيرِ كلٍّ، فهو هدى ورحمةٌ لِمَنْ آمَنَ، وحرمانٌ وندامةٌ - بعد فواتِ الأوانِ - على مَن أعرضَ وكَفَر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡوِيلَهُۥ﴾: مِنَ الجذر (أول)، وهو أصلان: ابتداءُ الأمرِ وانتهاؤه، وكلمة "أَوَل" في اللُّغة تدور على معنى الرَّجوع، وآلَ يؤول، أي: رجع، وأوَّل الشَّيءَ إلى أهله، أي: أرْجَعه وردَّه إليهم، أو هو رَدُّ الشَّيء إلى الغاية المُرادة منه، عِلْمًا كان أو فِعلًا، وأوَّلَ الكلامَ وتَأوَّله: دَبَّره وقدَّره وفَسَّره، فالتَّأويل: تفعيل مِن أوَّل يُؤَوِّل تأويلًا، أي: تفسير ما يَؤولُ إليه الشَّيء، أو هو تحقُّقُ المآلِ، ووقوعُ العاقبةِ والمصير، والمرادُ هاهنا: حصولُ الوعيدِ الّذي أخبرَ به الكتابُ في المآلِ والعاقبةِ، فيَرونه رأيَ العينِ[1].

2) ﴿نَسُوهُ﴾: مِنَ الجذر (نسي)، وهو أصلان صحيحان: يدلُّ

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أول)، والهرويّ، الغريبين: 1/121.

أحدهما: على إغفال الشَّيء، والثّاني: على ترك الشَّيء، والنِّسيان: ضِدُّ الذِّكر والحِفظ، وأصلُه: زوالُ صورةِ الشَّيءِ مِنَ الذّهنِ، زوالًا يَمنع مِن تذكُّرها، فهو يدلُّ على إغفالِ الشَّيءِ وتَركِه، والنِّسيانُ: التَّركُ، وهو إمّا تركُ الشَّيء على ذُهول وغَفْلة، وذلك خِلاف الذِّكر له، وإمّا أن يكون التَّرك على تعمُّد، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 237]، وقولُه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 67]، قال ثعلبُ: "لا يَنْسى اللّهُ ﷻ، إنَّما معناه: تركوا اللّهَ فتركَهُم، فلمّا كان النِّسيان ضربًا مِنَ التَّرك وضَعَه موضِعَه، والمرادُ هنا: تركوه إعراضًا وجُحودًا، واستعمالُه هاهنا في التّركِ والإعراضِ مَجازٌ"[1].

3) ﴿شُفَعَآءَ﴾: مِنَ الجذر (شفع)، وهو أصل صحيح يدلّ على المقارنة بين شيئين، أو هو ازدواجٌ بِرقّة؛ إذ إنَّ الشّافِع ينضمُّ إلى المستَشْفِع طالبًا له أو معه، فارتبط به، كأنَّه أزْوَجه، وشفعاء: جمعُ شفيع، وهو الشّافع، وصاحب الشُّفْعَة والشَّفاعة، وأصلُه: "مِنَ الشَّفْع: وهو ضَمُّ شيءٍ إلى مِثلِه، ومنه الشّفاعةُ؛ لأنّ فيها انضمامَ واحدٍ إلى آخر ناصرًا له، وأكثر ما يُستعمَل في انضمامِ مَن هو أعلى رتبةً إلى مَن هو أدنى"، "والشّفيع: الوسيطُ بين طرفين، أحدهما أملَكُ للآخَر؛ بغرض استخلاصِ المنفعةِ منه، وإيصالِها للطَّرف الآخَر، وشرطُ الشَّفيعِ أن يكونَ وجيهًا"[2].

4) ﴿وَضَلَّ﴾: مِنَ الجذر (ضلل)، وهو يدلُّ على ضياع الشَّيء وذهابه في غير حَقِّه، أو غيابُ شيء في أثناء شيء؛ حتَّى لا تُميِّز هذا مِن ذاك، وضَلَّ الشَّيءُ: خَفي وغابَ، أو ضاع وهلك، وضَلِلتَ الشَّيءَ: إذا أخطأتَه في مكانه فلم تهتدِ إليه، وأضللتَه: غيَّبتَه، والضَّلال والضَّلالة ضِدُّ الهدى والرَّشاد، وكلُّ جائرٍ عنِ القَصْد ضالٌّ، وأصلُه: الغيابُ والعُدولُ، "ويُقال الضَّلال لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا"[3]، والمرادُ هاهنا: غابَ وعَدَلَ عن نُصرَتِهم شُركاؤهُمُ الّذين افتَرَوهُم مِن دون اللّه.

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نسا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).

(2) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شفع)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/278.

(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضل، ضلل)، والفيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/382.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

الحقيقة تهدّم كلَّ ما أثاره الكافرون مِن أوهام

ابتدأتِ الآيةُ ببيانِ حالِ الكافرين الذين يَنتَظِرون تحقُّقَ عواقبِ ما كفروا به مِنَ القرآنِ ووعيدِه، وحينَئِذٍ سيتحسَّرون ويتذلَّلون مُضطرين في استجداءِ الشَّفاعةِ لهم، وحين يُدركون يأسَهم وبؤسَهم سيَلهَجون - قانطينَ - بأنْ يُرَدّوا إلى الدُّنيا؛ طمعًا منهم في تبديلِ أعمالِهم بأعمالٍ أحسنَ منها، وهنالك في هذا الموقفِ، لا مُجيبَ لهم ولا جوابَ يصلُحُ لأمانيِّهم، إلّا تأكيد مصيرِهم بخسرانِ أنفسِهم، فمَنْ يشفع - إذن - لأنفُسٍ خاسرةٍ كاسدةٍ؟! وكيف يُردُّ إلى العمل مَن خَسِر نفسَه وأفناها بموبقاتِ الشِّرك والكفر؟! كيف يَعملُ ونفسُه في حُكم العَدَمِ؟! وليسَتْ أنفسُهم هي الّتي خذلتهم فحَسْب، بل غابَ عن إغاثتهم مَن كانوا يُشْرِكونهم مع اللّه، ويكفرون به لأجلِهم؛ افتراءً منهم وضلالًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ التَّعبير بالاستفهام الدَّالِّ على معنى النّفي:

الاستفهامُ على إرادةِ النَّفي أبلغُ مِن صريحِ النَّفي؛ لأنَّه يجمع معنَيَيْن

معنى الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ النَّفيُ، وعَبَّر به دون النَّفي؛ لأنَّ الاستفهامَ فيه زيادةٌ على معنى الخبرِ الحاصلِ بالنَّفي، إذ يتضمَّنُ الاستفهامُ معنى الوعيدِ بما أفاده مِنَ التَّعجيبِ والاستِهْجانِ مِن حالهم، وفي إتيان النَّفي على صورةِ الاستفهام، استنطاقٌ لهم إنْ كانوا ينطقون، ولم يجئْ هذا الاستنطاقُ بصيغةِ الخطاب: (هل تنظرون)؛ إعراضًا عنهم كأنّهم ليسوا أهلًا للخطاب، وجريًا كذلك على أسلوبِ الغيبةِ في: ﴿جِئۡنَٰهُم﴾ قبله.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ في التَّعبيرِ بالنَّظرِ في قولِه: ﴿يَنظُرُونَ﴾:

معنى النَّظر في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ الانتظارُ، وآثَره على الانتظار، فلم يقُل: (ينتظرون تأويلَه) وهو المقصود؛ للدِّلالة على

انتفاءِ قَصْدِهم[1]، فليس غرضَهم الانتظارُ، فهم في حُكْم الانتظارِ لا في حقيقته، فإطلاقُ الانتظار هنا استعارةٌ تهكُّميَّةٌ؛ شَبَّه حال تمَهُّلِهم إلى الوقت الذي سيَحِلُّ عليهم فيه ما أوعدَهم به القرآنُ بحال المنتظرين، وهم ليسوا بمنتظرين ذلك، إذ هم جاحدون وقوعَه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ [محمد: 18][2]، والتّعبير بـ (نظر) مُشْعِرٌ بأنّ الوعيدَ سيباغِتُ أنظارَهم على حين غفلةٍ منهم، فلو انتظروه حقيقةً لَعَمِلوا له.

الإخــبــارُ عن منتظرِ الوعيدِ، وهو لا يقصدُه، إخبارٌ عن حُمْقِه وغفلتِه

فوائدُ حذفِ المضافِ في قولِه: ﴿تَأۡوِيلَهُۥ﴾:

حُذف المضافِ من قوله: ﴿تَأۡوِيلَهُۥ﴾، الواردِ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾، والتَّقدير: إتيانُ تأويله، أو عاقبةُ تأويله، أو ظهورُ تأويلِه؛ لفوائد عديدة: الأولى: الإيجازُ، فأهمل في الذِّكر ما هو معلومٌ في الفِكر، والثّانية: تسريعُ إسماعِ الوعيدِ لهم، فالتفتَ عنِ الحدث؛ وهو الظُّهورُ والانكشاف، انشغالًا بالحادث؛ وهو التَّأويلُ ذاتُه، إسراعًا بهم لـمُلابستِه والدُّخولِ في طَيِّه، وإقصارًا للمسافة بينهم، وبينَ ما ينتظرُهم مِن سوءِ العاقبةِ، والثّالثة: إفادةُ عموم المُتوقَّع؛ فلو ذُكِرَ المضافُ لاختصَّ به، لكن لـمّا حُذِف ذهب الفكرُ في ميادين التَّوقُّع.

الإيجازُ اللَّفظيُّ، وتعميمُ التَّوقُّعِ، وتسريعُ إسماعِ الوعيدِ

عِلَّةُ إضمارِ المُضَافِ إليه في قولِه: ﴿تَأۡوِيلَهُۥ﴾:

آثر النَّظمُ إضمارَ ذِكْرِ الكتابِ في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾، فلم يقُل: (هل ينظرون إلّا تأويلَ الكتاب)؛ استغناءً بالظّاهر السّابق في قوله: ﴿بِكِتَٰبٖ﴾، واكتفاءً بدلالة المضاف على ما يُغني عنِ الذِّكر، فإنَّ لفظَ (تأويل) لا يلتبس معه إرادةُ غيرِ الكتاب، وإيجازًا لمقامِ الوعيدِ الكائنِ في جملة الاستفهامِ

مَـن لـم يـؤمنْ بتأويلِ الكتابِ المسطورِ؛ سيُعذَّبُ بعد أخذِ الكتابِ المنشورِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.

الإنكاريِّ النّافية، وغَرضُ الإيجازِ الدِّلالةُ على خُلوص الوعيدِ لهم، وقَصْرُه عليهم.

القَصْرُ الإضافيُّ في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾:

نوعُ القصرِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ المفهوم مِن ﴿هَلۡ﴾ مع الاستثناء إضافيٌّ؛ أي: بالنِّسبَة إلى غيرِ ذلك مِن أغراضِ نِسيانِهم وجُحودِهم بالآياتِ[1].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾، بيانٌ لقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾؛ أي: ذلك التّأويل "الّذي سيظهر يوم القيامة، فالمرادُ باليوم يوم القيامة، بدليل تعلُّقه بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾، فإنَّهم لا يعلمون ذلك، ولا يقولونه إلّا يوم القيامة"[2]، وجملةُ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ممّا قبله، واقعٌ جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ عنه، كأنّه قيل: "فهل إذا جاءَ هذا اليوم، ووقعَ بهم الوعيدُ الّذي أوعدهمُ اللّهُ به، أينفعُهم إيمانٌ أو يُقبلُ منهم عملٌ؟"[3]؛ فأُجيبَ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ "التَّحسُّرُ والإذعانُ حيثُ لا ينفع، والتَّصديقُ والإيمانُ حين لا يُقبَل"[4].

عنصرُ الحوارِ الضِّمنيِّ مُؤثِّرٌ في المُخاطَب بما يُورِّث الاستجابة

سرُّ تقديم ﴿يَوۡمَ﴾ على عامله:

قَدَّم اليومَ في قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾، ثمَّ أتبعَه بالعامل فيه وهو: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾؛ اهتمامًا به[5]، وترهيبًا منه، وهو قولُه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾؛ لأنَّ السّياقَ وعيدٌ، وتمكينًا لاستحضاره وذِكره في النُّفوس، وتخصيصًا له؛ لأنَّ تأويل الكتابِ لن

الأزمنةُ ظروفٌ للحوادث، ووعاءُ الشَّيءِ له حقُّ التَّقديم عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/410.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.

يكونَ إلّا فيه، وهذا غرضٌ معنويٌّ، ولغرضٍ لفظيٍّ أيضًا؛ وهو انتظامُ التَّوازنِ الصَّوتيِّ، وتحقُّق خِفَّةِ النُّطقِ والأداءِ في التَّركيب، بعكس ما لو أخَّره؛ فقال: (يقول الّذين نسوه من قبل يوم يأتي تأويله)؛ لكان ثِقَلٌ وعدمُ أريحيَّةٍ في النُّطق.

بلاغةُ المجازِ العقليّ في إسنادِ الإتيانِ إلى التَّأويل في قوله: ﴿يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾:

تصويرُ الوعيدِ بزائرِ الشُّؤمِ الذي يأتي الجاحدين بما يسوؤهم

إسنادُ الإتيانِ إلى التَّأويل، إسنادٌ مجازيٌّ، علاقتُه اللُّزوم، فإنَّ المرادَ بإتيانه: انكشافُه وظهورُه ظهورًا دالًّا "على صدقِ القرآنِ، فيما أخبرهم وما توعَّدهم"[1]، وظهورُه المراد لازمٌ عن إتيانه، وفي التَّعبيرِ بالإتيان تصويرٌ للجانب الحسّيِّ المنظورِ مِنَ الوعيد، وأنَّه يَحْضُرهم حضورَ الزّائرِ الآتي، القادم بما يَسوء.

بلاغةُ الإظهارِ بالموصولِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾:

عنوانُ المشركين يومَ القيامةِ نسيانُ الكتاب

يرجعُ ضميرُ ﴿نَسُوهُ﴾ إلى المقصود بقوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ في ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾؛ وهم المشركون، وبناءً على ذلك، كان مُقتَضى الظّاهر أن يُقال: (يوم يأتي تأويله يقولون) أي: (الّذين ينظرون)؛ بدلاً من ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ فعُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، والتَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾؛ تسجيلًا ونعيًا عليهم بنسيان ما لا يَحْسُنُ نسيانُه، وبإهمالِ العملِ به، ولِلْإلْفات إلى أنَّ النّاسين همُ المُتكلِّمون بالأعذار والأماني في هذا اليوم لا غيرُهم[2]، وردًّا على قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّسيانِ عنِ التَّرك:

توريثُ الحسرةِ للجاحدين، مِن أساليبِ القرآنِ في وعيدِ الغافلين

عبَّرتِ الآيةُ بمفردةِ النِّسيان في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾، وسرُّ التَّعبيرِ بالنِّسيان: لتشبيه تَرْكِهم الكُلّيِّ عن قَصْدٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.

بمَن نَسيَ أمرًا مُهمًّا، فهو استعارةٌ في التَّرك، والاستعارةُ أبلغُ لما فيها مِنَ الحَسْرة والنَّدامة والتَّقريع على النِّسيان، أو أن يكونَ النِّسيانُ كنايةً عنِ التَّركِ؛ لأنَّ التَّركَ لازمٌ مِن لوازم النِّسيان.

سرُّ استعمالِ حرفِ ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ﴾:

اعترافُ الجاحدِ بعدَ فواتِ الأوان؛ ذلٌّ نفسيٌّ، وإيمانٌ غير مقبول

صدَّر النّاسون كلامَهم بأداة ﴿قَدۡ﴾ التَّحقيقيَّةِ؛ إغراءً على تحقيق مُناهم في شفاعةِ الشَّفيعِ؛ لأنَّ عادةَ الجاني أن يستعطفَ القاضي، باعترافٍ مُؤكَّدٍ بعدَ يأسِه مِن جدوى إنكاره، فلهذا الحرفِ رسالةٌ بلاغيّةٌ؛ وهي تصويرُ الذُّلِّ النَّفسيِّ في الاعترافِ المؤكَّد.

توجيهُ تخصيصِ قولِ النَّاسين دون غيرِه مِن أقوالِهم بالذِّكر:

مُلابسةُ الواقعِ بعدَ إنكارِه، مُؤذنة بالاعترافِ الصَّريح

ذكرتِ الآيةُ الكريمةُ مَقولَ قولِ الّذين نَسوا الكتابَ يومَ القيامة: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، ولهؤلاء أقوالٌ كثيرةٌ سوى المذكور، سواءٌ أذُكِرت في القرآنِ أم لم تُذْكر، فلماذا آثرَ القرآنُ ذِكْرَ قيلِهم هذا دون سواه؟ والجواب: أنَّه توطئةٌ لما بعدَه مِن كلامهم في طلبِ الشَّفاعة: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾[1]، وفيه: أنَّ ملابسةَ الواقعِ بعدَ إنكارِه، مُؤذنَة باعترافٍ مِن جنسِه، فيَستحيلُ الإنكارُ تصديقًا، وهو تأييدٌ للواقع الحاصل، فإنَّ الحقَّ الّذي جاءَت به الرُّسلُ هو تحقُّقُ تأويلِ الكتابِ الذي حَقَّ عليهم، فهم ناطقون بما هم مُتلَبِّسون به.

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الحسرةِ والنَّدمِ:

الإخبارُ عنِ الحسرةِ قبلَ وقوعِها مِن كمالِ عنايةِ الله بعبادِه

قولُه تعالى على لسانِ الجاحدين: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ كنايةٌ عن حسرتِهم، واستحواذِ الأسى عليهم، وجاءَ تحسُّرهم بصيغةِ الخبرِ دونَ الإنشاءِ، من مثل: (يا حسْرتنا)، و(يا ويْلنا)؛ للجمع بين "الإقرارِ بخطئهم في تكذيبِ الرُّسل، وإنشاءِ الحسرة

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/367.

على ذلك، وإبداءِ الحيرة في ماذا يصنعون؟"[1]؛ ففيه إخبارٌ بحسرتِهم قبلَ الحسرة، وبيانٌ كاشفٌ عن ندمهم قبل النَّدامة؛ ليتداركوا ما هم فيه مِنَ الهلاكِ المُحقَّقِ في الدُّنيا، وهذا في غايةِ الرِّعايةِ وجليلِ العنايةِ.

بلاغةُ إضافةِ ﴿رُسُلُ﴾ إلى: ﴿رَبِّنَا﴾:

لا ينفعُ الاعترافُ بعد صدورِ الأمرِ ووقوعِ الحتمِ

آثَرَ القائلون ذِكْرَ: ﴿رُسُلُ رَبِّنَا﴾، دون الاقتصارِ على ذِكْر مجيءِ الحقِّ؛ فلم يقولوا: (قد جاءَنا الحقُّ) ونحوه؛ لغرضِ الاستعطافِ، وطلبِ الإحسانِ، فإنَّهم في مقامِ الطَّمعِ في الشَّفاعة، وفي مقامِ الاعتذارِ والاعترافِ.

والتَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة، وإضافتها إلى ضمير المُتكلِّم الجمعيِّ، اعترافٌ بالعناية الرَّبّانيَّة، والتَّربيةِ الحَكيمةِ، والرِّعايةِ الإلهيَّة، وإيرادُ قيلهم - الذي هو مستقبلٌ غيبيٌّ - تعريضٌ بهم بقيلهم، ونَعْيٌ عليهم بتفضُّل الله عليهم، بمُقتضَى ربوبيَّته، بإرسالِ رسلِه إليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في ﴿فَهَل﴾:

مَن ساءَ عملُه في الدُّنيا، ساءَ ظنُّه بنفسِه في الآخِرة

في إردافِ استعطافِ الجاحدين، وتحسُّرِ المُكَذِّبين، طَلَبَ الشَّفاعةِ والرَّدَّ إلى الدُّنيا؛ لتدارُكِ أعمالِهم، وتفريعِ ذلك بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾، دليلٌ على تعجّلهم المدفوعِ بفَزَعٍ وخَوْفٍ مِنَ القادِمِ؛ لمعرفتهم بسوءِ حالهم، فمَن ساءَ فِعْلُه ساءَ ظنُّه بنفسه، ولذا؛ طفقوا في إنشاءِ الاستِشْفاعِ فورَ التَّمهيد له، بالاعتراف بمجيءِ الرُّسل بالحقِّ إليهم.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿فَهَل لَّنَا﴾:

التَّمنِّي بطريق الاستفهام دليلٌ على تمكُّن الاعترافِ بعظيم الجُرم

دلَّ استعمالُ حرفِ (هل) في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ على التَّمنّي، وأوثِر استعمالُه بدلًا مِن استعمالِ أداةِ التَّمنّي الصَّريحةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.

(ليتَ) ونحوها؛ استتمامًا لأُسلوب التَّعطُّفِ والتَّذلُّل، وتوريةً منهم، وتخشُّعًا، واستخفاءً في الطَّلب، كَمَن يَطلُب وهو خَجِلٌ أن يطلبَ، فلا يَقْدِر على التَّصريح، فيقع طلبُه مِن طَرْفٍ خفيٍّ، ويُعَزِّز ذلك قولُه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ﴾ [القلم: 43]، وقولُه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ [الشّورى: 45]، وقولُه: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ [غافر: 18].

يُحتمَلُ الاستفهامُ على حقيقتِه عند ابتداءِ تيقُّنِ العذابِ

ويُحتمَلُ حَمْلُ الاستفهامِ على الحقيقةِ، على أن يكونَ قالَهُ بعضُهم لبعض؛ طلبًا للخلاصِ مِن ذلك المأزِق، وتلك الفاجعةِ، على أن يكونَ هذا القولُ صادرًا عنهم في ابتداءِ رؤيةِ ما يُهدِّدُهم، قبلَ أن يوقنوا بانتفاءِ الشُّفعاءِ المَحْكيِّ عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشّعراء: 100 - 101].

يُحتمَلُ الاستفهامُ على النَّفي؛ لبيانِ شدَّة يأسهم مِنَ النَّجاة

ويُحتملُ أن يكونَ الاستفهامُ مُستعمَلًا في النَّفي؛ أي: (فما لنا مِن شُفعاء)، على معنى التَّحسُّرِ والتَّندُّم[1]، وإظهارِ اليأسِ الشَّديدِ. وبلاغةُ استعمالِ (هل) في معنى النَّفي؛ لبيانِ ما يَجول في نفوسهم مِنَ الاضطرابِ والحَيْرةِ.

سرُّ دخولِ (هل) على الجملة الاسميَّة، وتقديمُها على الفعليَّة، والتَّغايرُ بينهما:

الشَّفاعةُ أصلٌ لبُعدِها عنِ الاستحالة، والرَّدُّ فَرْعٌ لقُربه مِنَ الاستحالة

حرف (هل) مِنَ الحروفِ المُشْتَركَةِ الّتي تدخلُ على الأفعال والأسماء، لكنَّ غالبَ دخولِها على الأفعال، وإنْ دخلت على الاسم فلِنُكْتةٍ بيانيَّةٍ، كما في قولِه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾، ونكتةُ ذلك: أنَّ دخولَها على الاسميَّة يُشعِر بأنَّ طلبَ الشُّفعاءِ هو الأصلُ في تَمنّيهم؛ لأنَّه أمرٌ مُستقبليٌّ، وأمّا طَلَبُ الرَّدِّ إلى الدُّنيا فهو مُتفرِّعٌ عليه؛ لأنَّه مُستحيلٌ وقوعُه، بخلافِ طلبِ الشُّفعاءِ، فإنَّ إمكانيَّةَ وجودِهم أقربُ إلى الحُكْمِ العقليِّ، فقُدِّم الأصلُ الأبعدُ عنِ الاستحالةِ، على الفَرْعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/156.

الأقربِ للاستحالةِ، ودخلَت (هل) على الاسميّة لبيانِ هذه النُّكتَةِ، وهذا يدلُّ على استحضارِهم أساليبَ النَّجاةِ في ذلك اليوم، ممّا يورِثُ مزيدَ خوفٍ ورهبةٍ؛ لأنَّه كاشفٌ عن طبائع القوم في طلبِ الحيلةِ للنَّجاة، ولا يكون ذلك إلّا مِن علّام الغيوبِ سبحانه[1]. والتَّغايُر بينَ اسميَّةِ الأولى وفعليَّةِ الثّانية؛ لتصويرِ التَّغايرِ في عنديّات بواطِنِهم، مِنَ الأمانيّ والأطماع، وفيه إشارةٌ إلى ضَعَةِ نفوسِهم في إيثار عملِ غيرِهم لأجلِهم على عملهم لأنفسهم؛ إيثارًا لوازعِ الاعتماديَّةِ على وازعِ الكسبِ الذّاتيِّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّنَا﴾ وتَكرارِه:

تصويرُ حالِ المُكذِّبين في الآخِرة، كافٍ في الاتِّعاظِ والاعتبار

وقعَ تَكرارُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّنَا﴾ وتقديمُه، في قولِه تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾، ونُكتةُ ذلك: بيانُ العنايةِ، ومزيدُ التَّخصيصِ بمتعلَّقِ الشَّفاعة، وهي الأنفسُ، فالمكذِّبون في الدُّنيا، المُصدِّقون في الآخرةِ، قدَّموا ما يحرصون على نجاتِه في الآخرةِ، فهُم لا يفكِّرون إلّا في نجاةِ أنفسِهم، فالتَّقديمُ لبيانِ حالِهم المزرية، الّتي تطلُبُ النَّجاةَ مِنَ الذِّلَّة والمهانة، وكُرِّرَ ذِكْرُ ذلك مع الاستغناء عنه؛ لبيانِ حالِهم المضطربةِ، وواقعِهم المرذولِ.

نُكاتُ إيثارِ الجمعِ في قولِه: ﴿شُفَعَآءَ﴾ على المفردِ:

إمَّا لغرضِ التَّوزيعِ، أو عدمِ كفايةِ الواحدِ، أو الطَّلبِ في الزِّحامِ

جاء لفظُ الشُّفعاءِ بصيغة الجمعِ في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ لمجموعةٍ مِنَ النِّكاتِ المحتمَلة:

إمّا للتَّوزيع؛ أي: باعتبار توزيع الشُّفعاء على جماعة المُستشفِعين، وإمّا لأنَّ المقامَ "مقامٌ لا يشفع فيه إلّا الشُّفعاء، لا الشَّفيع الواحد"[2]؛ فكأنَّ الكافرَ يعلمُ أنَّ جريرةَ الكُفرِ لا تكفيها شفاعةُ واحدٍ، بل يحتاج إلى جماعةٍ متزاحمةٍ مِنَ الشُّفعاء، وإمّا "لدخولهم في جملةِ النّاسِ في

(1) أشار إلى هذه النُّكتة الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/367.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/228.

الشَّفاعة العظمى لفَصْل القضاءِ؛ ثمَّ سبَّبوا عن ذلكَ تحقيقَ كونِهم لهم؛ أي: بالخصوص؛ فقالوا: ﴿فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾؛ أي: سواء كانوا مِن شركائنا الّذين كنّا نتوهَّمُ فيهم النَّفعَ، أو مِن غيرهم؛ ليُغْفَر لنا ما قَدَّمنا مِنَ الجرائم"[1]، ففي الجمع دليلٌ على وجود شُفعاء يشفعون للنّاس، وهم يرغبون أن ينضموا لتلك الأفواجِ المَشْفوعِ لهم.

دلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿أَوۡ﴾، ونكتتُه في هذا السِّياق:

فقدان حيلة أهل الكفر يوم القيامة، وبقاؤهم في الحسرةِ والبؤسِ

عطفَت ﴿أَوۡ﴾ الجملةَ الفعليَّةَ: ﴿نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ على الجملة الاسميَّة: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾[2]، وأفادَتْ ﴿أَوۡ﴾ معنى التّخيير؛ أي: لا طريقَ لنا إلى الخَلاص ممّا نحن فيه إلّا أحَدُ هذَين الأمرين، ونكتةُ استعمال ﴿أَوۡ﴾ على معنى التَّخيير؛ لتقرير استمرارِ حسرتهم وبؤسِهم، وأنَّهم صاروا بمحلٍّ لا حيلةَ لهم فيه إلّا التَّوسُّلُ بالأماني، وعطفُ البدائلِ الأكثرِ استحالةً عليها، وهي حيلةُ مَن لا حيلةَ لهُ، والعياذ باللّه.

نكاتُ تقديم طلبِ الشَّفاعةِ على الرَّدِّ إلى الدُّنيا:

فَقْدُ الأملِ، وثباتُ اليأسِ، عنوانُ المُكذِّبين في القيامةِ

قُدِّم في الآية طلبُ الشَّفاعةِ على الرَّدِّ إلى الدُّنيا، مِن باب تقديم المِنحةِ على العَكَلِ[3] المبذولِ، فالشَّفاعةُ بلا مقابلٍ، والرَّدُّ فيه عناءٌ وبذلٌ، وفي تقديم الشَّفاعة نكاتٌ عدَّةٌ:

الأولى: بيانُ فقدِ الأملِ، فقُدِّمَ الأقربُ منالًا على الأبعدِ منالًا؛ إذِ الشَّفاعةُ ممكنةٌ فيما يتصوَّرُه العقلُ، بخلاف الرَّدِّ فإنَّه أبعدُ، فهم طلبوا الأقربَ قبلَ الأبعد، ولا شيءَ على اللّه مستحيلٌ.

الثّانية: إلْفاتٌ إلى خِسَّة نفوسِهم، وقلَّة حيائِهم في إيثارِهم النَّجاة من غير عمل، وطمعِهم في الشَّفاعةِ من غيرِ سابقِ إحسانٍ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/412.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/337.

(3) تقول: عكلتُ المتاع أعكُلُه، بالضمّ، إذا نَضّدتَّ بَعْضَه على بعض، يُنظر: الأزهري، الصحاح: (عكل).

الثّالثة: ذِكرُ البديلِ الأكثر استحالةً يُنبئ بوقوعِهم في اليأس، فالجملة الثّانية وهي طلبُ الرَّدِّ إلى الدُّنيا، بمثابة تعلُّقِ الغريقِ بقشَّةِ سرابٍ.

الرّابعة: تعريضٌ بمسلكهم في الشِّرك الّذي اعتادوه واعتقدوه في الدُّنيا، مِن "أنَّ النَّجاةَ عند اللّه، وكلَّ ما يُطلَب منه إنَّما يكون بواسطة الشُّفعاء عندَه، وعندما يتبيَّن لهم الحقُّ الّذي جاءَت به الرُّسلُ، وهو أنَّ النَّجاةَ والسَّعادةَ إنَّما تكون بالإيمانِ الصَّحيح والعملِ الصّالحِ، ويعلمون هنالك أنَّ الشَّفاعةَ للّه وحدَه، فلا يشفعُ أحدٌ عنده إلّا بإذنه: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾، يتمنَّون لو يُرَدّون إلى الدُّنيا فيعملوا فيها غيرَ ما كانوا يعملون في حياتهم الأولى"[1].

دلالةُ تتابعِ الفاءاتِ في: ﴿فَهَل﴾، و﴿فَيَشۡفَعُواْ﴾، و﴿فَنَعۡمَلَ﴾:

نُطْقُ الألسنِ في الظّاهر، ترجمةٌ لمعاني الأنفسِ في الباطنِ

تتابعتِ الفاءاتُ في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾؛ لتصويرِ اللَّهفةِ والفَزَعةِ في نفوسِ المُكذِّبين، وللدّلالة على ضيقِ الوقتِ، بل ذهابِه، واستحضارِ فواتِ فرصةِ النَّجاةِ، وضياعِ الأملِ، فهو عبارةٌ عن وصْفِ شعورِهم بالغَرقِ في بحرِ اليأسِ، وتحقُّقِ الهلاكِ.

بلاغةُ الإيجازِ في حذف بعضِ المُتعلّقاتِ:

الفَزَعُ واليأسُ يُولِّدانِ عُسْرَ النُّطقِ، فلا يُنطَقُ إلّا بالضَّروراتِ المُنجيات

آثرتِ الآيةُ الإيجازَ في عدمِ ذِكرِ بعضِ المُتعلّقات، إذ تقدير الآية: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ في إزالةِ العذابِ، أو نُرَدّ إلى مكان العمل فنعملَ صالحًا غير الذي كنّا نعمله؛ مِنَ الجُحود واللَّهو واللَّعِب وأعمال الدُّنيا[2]؛ فحَذفَ مُتعلّقاتِ الطَّلبِ مراعاةً للمَقام، وتنبيهًا على مُقتضَى الحال، فإنَّ المقامَ بين يَدَي مَن عَنَتْ له الوجوه،

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/394.

(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/67.

وحالُ الطّالبِ أنَّه فزِعٌ يائسٌ، قلَّما يستجمع فيه المتكلِّم مَنطِقَه، فالكلماتُ على قدرِ الحاجاتِ، والإيجازُ أجمعُ للصَّواب، وأوثقُ له، وحسراتُهم قيَّدَتْ ألسنتَهم، فلا ينطقون إلّا بقَهْرِ المَذَلَّةِ والضّيق، ولولا إرادةُ الخلاصِ ما قَدَروا على النُّطق طَرْفةَ عينٍ؛ مِن هولِ ما يلابِسونه ويغشاهم، فحصلَ الاكتفاءُ بالقَدْر الضَّروريِّ مِنَ الكلامِ، والاقتصارِ على ما يَصْلحُ الإخبارُ به، ولكَ أن تنظرَ في الإطنابِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18] جوابًا لقولِه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]؛ لتدركَ الفرقَ بينَ المقامين.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وإيثاره على (ما):

أمور الدِّين مقصودة في التّعيين، لبيانِ ندم المُفرِّطينَ عليها

عُبِّر بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ للتَّعيين، والنَّصُّ على المراد بالصِّلة في قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، وهو ما كانوا يعملونه مِن أُمور الدّين، بدليلِ قرينةِ السّياق في قولهم: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]؛ أي: "حتَّى نعملَ غيرَ ما كنّا نعملُه؛ حتَّى نوحِّدَ اللهَ بدلًا عنِ الكفر"[2].

بلاغةُ حذفِ أوصافِ العملِ في قوله: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾:

خلُوُّ أعمالِ المشركين مِنَ الصَّلاحِ، وامتلاؤها بالسُّوءِ، علَّةُ الفرارِ عن وصفِها

حُذِفَ مُتعلَّقُ العملِ في قوله: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فلم يقُل: (فنعمل صالحًا غيرَ العملِ السَّيءِ الَّذي كنّا نعمل)؛ مراعاةً لقرينةِ سؤالهم الرَّدَّ إلى الدُّنيا، فإنَّ الرَّدَّ إلى دار التَّكليف هو لأجلِ استبدالِ عملٍ بعملٍ، ولا يكون البَدلُ إلّا لغرضِ إزاحةِ عملِ السُّوءِ بعملِ الصّالحات، فلمّا كان هذا جليًّا في مفهوم الرَّدِّ، استَغنى عن ذِكْره. فإن قيل: سؤالُ الرَّدِّ لا يَلْزم عنه استبدالُ سَيِّءٍ بصالح، بل ربَّما كان سؤالُهم الرَّدَّ لأجلِ الاستزادةِ من عملٍ صالحٍ؟ قلتُ: لو كان لهم عملٌ صالحٌ لاستشفعوا به واحتجّوا، فهم أحوجُ إلى ذكر ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/139.

لو كان لهم، فضْلًا عن أنَّ السّياقَ يَنفيهِ، ويُثبِتُ تكذيبَهم وجُحودَهم بالكليَّةِ، فأنَّى يَسلَمُ هذا الاحتمالُ، وأيضًا: لغَرَضِ الإعراضِ عن ذِكْرِ ما يُستحيا مِن ذِكْرِه، فإنَّهم لو صرَّحوا بالـمُتعلَّق، فقد أشهدوا على أنفسهم أنَّهم لم يعملوا صالحًا، فيكونُ حينَئذٍ تسجيلًا منهم على أنفسهم بعدم أهليَّتهم واستحقاقِهم لجوابِ سؤالِهم، وهو ما يخالف مقصودَ مَن يسأل حاجةً لنفْسِه.

إيثارُ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿فَنَعۡمَلَ﴾ على الماضي:

إتـقـانُ صَـوْغِ الـحِـيـلـةِ عند سؤالها

عَبَّر بالفعل المضارِعِ في قولِه: ﴿فَنَعۡمَلَ﴾؛ لبيانِ إتقانِ المشركين صوغَ حيلتهم عند سؤالها، وهو إشعارُ السّامعِ أنَّ للسّائل حُجَّةً في سؤاله، وأنَّه ما مِن مانعٍ لابتغائها، ولذا عَبَّر عنِ الماضي بالمضارع في حقِّ الفائتِ القديمِ مِنَ الأعمالِ؛ إيهامًا بالقرب وعدم البُعد، فأوانُها قريبٌ، وما قَرُبَ أوانُه صحَّ تداركُه. ويجوز أن يكونَ إقرارًا منهم على أنفسهم بالاعتراف والاعتذار، في أنَّ ما عملوه كان عادةً لهم متجدِّدةً، مرَّة بعد مرَّة، ومستمرَّةً آثارُها لم تنقطعْ، فعبَّروا بالمضارع إغراءً على تحقيق مبتغاهم، في أن يُصلحوا ما كان منهم؛ ليقطعوا عنه صِفةَ بقائِه في الأثر والعاقبة.

موقعُ قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ ممّا قبله:

خُـسـرانُ الـكـافـريـن هو الـمُـتـحـقِّـقُ، ولـو أفـرطـوا في التَّوسّلِ

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ مسوقٌ لتقريرِ الإجابةِ عنِ الاستفهامَين السّابقين[1]، وهو استئنافٌ في معنى التَّعليل لما قبله، فسيق مساقَ الاعتراضِ عليهم في سؤالهم أحدَ الأمرين: الشَّفاعة أو الرَّدَّ إلى الدُّنيا، كأنَّه قيل: (كيف يسألون هذا السُّؤال؟)، ثمَّ ابتدأ فأجاب: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، أو أن يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا تذييليًّا[2].

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 3/365.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.

بلاغةُ التَّعبيرِ في قوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

التَّعبيرُ بخسارةِ الأنفسِ في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يُحمَلُ على ثلاثةِ توجيهاتٍ بيانيَّةٍ، وهي:

الاستعارةُ تُصَوِّرُ حالةَ الضَّياع بعد الفوات

الأوَّل: الاستعارة، فاستُعيرت خسارةُ الأنفسِ في إضاعةِ أسبابِ النَّفعِ وفقدانها[1]، وغلبَ إطلاقُ الخسارةِ على مَن فقدَ رأسَ مالِه، أو عَجَزَ عن استعادةِ كَسْبِه؛ لفقدانِه القدرةَ أيضًا، فالاستعارةُ في التَّعبير بالخُسران تُصوِّرُ حالةَ العَدَمِ والضَّياعِ الَّتي صاروا إليها مِن جميعِ الوجوه، معَ استنفادِهم وسائلَ الاستدراكِ والاستصلاحِ.

النَّفْسُ هي سببُ الأعمالِ ووعاؤه، فإنْ فُقِدَت خسِر صاحبُها

الثَّاني: المجازُ المُرسَل، فالنَّفْسُ هي وعاءُ الأعمال، ومحلُّ عائدها مِنَ الثَّواب والعقاب، وهي آلةُ اكتسابِ الخير والشَّرِّ، ففي التَّعبير بخُسرانها تصويرٌ لانقطاعهم التّامِّ عن عوائدِ الخيرِ؛ لفقدانِهم سببها وآلتها، وإذا بطلَ السَّببُ انعدمَ المُسَبَّب، وخَرابُ المَحلِّ مُؤذِنٌ بفسادِ الحالِ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُه السَّببيَّةُ، أطلقَ السَّببَ، وهي النَّفْس، وأرادَ المُسَبَّبَ، وهو ما ينتج عنها.

زوالُ القُدرةِ لازمٌ عن خُسرانِ الأنفس

الثَّالث: الكناية، فهو كنايةٌ عن زوالِ القُدرةِ في تحصيلِ ثوابِ العملِ؛ لأنَّ زوالَ قُدْرتِهم لازمٌ عن خُسرانِ أنفسِهم، وهو عبارةٌ عنِ الفَوْتِ والانفضاضِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ:

التَّهكُّمُ بما يَصدُرُ عنِ المُتهكَّمِ به أبلغُ مِن إنشائه ابتداءً

استُعيرَ الضَّلالُ في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ للعَدَمِ، على طريقةِ التَّهكُّمِ، فقد شَبَّه عَدَمَ شفعائِهم المزعومين بضَلالِ الإبلِ عن أربابها؛ تَهكُّمًا بهم، وهذا التَّهكُّمُ قد روعيَ فيه محاكاةُ ظنِّهم يومَ القيامة، الصّادر عنهم في قوله تعالى قبلَه: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الأعراف: 37][2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/158.

تردُّد ﴿مَا﴾ بين المصدريَّة والموصوليَّة:

إسنادُ فِعْلِ الضَّلالِ للشُّفعاءِ على الموصوليَّة، وللافتراء على المصدريَّة

إن كانت ﴿مَا﴾ بمعنى اسم الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ فإسنادُ الضَّلالِ إلى ذواتِ شُفعاء المشركين ومعبوداتهم الباطلة، فالفاعلُ الشُّفعاءُ، والمعنى: ضلَّ الشُّفعاءُ المُفتَرَون. وإن كانت ﴿مَا﴾ مصدريَّةً؛ أي: ضلَّ افتراؤهم[1]، فالفاعلُ الافتراءُ نفسُه، والمعنيانِ صحيحان، إلّا أنَّ الظّاهر في الاستعمال أن تكون موصوليَّةً، والمعنى على المصدريَّة أقوى في المجازِ، إذ هي تُشخِّصُ الافتراء.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

الافتراءُ وصفٌ مصاحِبٌ للمُشركين لا ينفكُّون عنه

استُعمِلَ الفعلُ المضارعُ في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ لبيانِ استمرارِهم على مُلابسةِ الافتراءِ بقولِهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فإنَّهم لو رُدّوا لَعادوا لما نُهوا عنه، وإنَّهم لكاذبون؛ ولتصويرِ أنَّ الافتراءَ كان وصفًا مُعتادًا لهم، يُلابسونَه ولا ينفكّون عنه.

علَّة حَذْفِ مفعول: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

الافتراء والبهتان عادة أهل الكفر، ولا تنفَكّ أفعالهم عنه في كل حال

حُذِفَ مفعولُ: ﴿يَفْتَرُونَ﴾، فلم يقُل: (يفترونه)؛ للعموم؛ ولتعدُّدِ ما افتَرَوه وكَثْرته، فلا ينحصر الأمرُ بتعيينِ مفعولٍ واحدٍ، فمُقتضَى العموم حَذْفُ المفعولِ؛ ولاعتيادهمُ الافتراءَ والبُهتانَ، فالغرضُ: إثباتُ معنى الافتراءِ للفاعل، فالافتراءُ وصْفٌ ثابتٌ لهم، وهذا مِن بابِ تنزيل الفعلِ اللّازم منزلةَ المُتعدّي، وهو الأنسبُ بالفاصلةِ، وهو أمرٌ لفظيٌّ تابعٌ للمعنى الدَّلاليِّ.

۞ الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

(يَنظُرون)، (يَنتَظِرون):

(يَنظُرون): مِن نظرَ الشَّيءَ، إذا صوَّب نظرَه ناحيةَ مجيئِه؛

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/118.

دلالةُ بناءِ (نَظَرَ) أسرعُ في الزَّمنيَّةِ مِن (انْتَظَرَ)

ترقُّبًا له، وتشوُّقًا لحضوره، سواءٌ حصل في ذلك مُهلةٌ وتراخٍ، أم كان فورًا وعاجلًا.

(يَنتَظِرون): مِن انتظر الشَّيءَ، إذا جعله محلَّ تَفقُّدِ نظرِه مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، وتارةً بعدَ تارةٍ؛ توقُّعًا لحضوره، فالانتظار: نظَرٌ مُقدَّرٌ بالقوَّة لما هو مُتوقَّعٌ أن يَحصُلَ، فيَحتمِلُ الشَّكَّ واليقينَ تجاهَ مُتعلَّقِه، ولذا روعيَ فيه التَّكرارُ والإبطاءُ والإمهال، فهو ترقُّبٌ ونظرٌ خاصٌّ، مقترنٌ بما يُطلَب مجيئُه، فالانتظارُ أخصُّ مِنَ النَّظر، والنَّظرُ أعمُّ.

والخلاصة: أنَّ النَّظرَ يُرادُ منه: النَّظر فقط مِن غيرِ انتظارٍ، ويَرِدُ كذلك بمعنى الانتظار؛ لأنَّ المُنتَظِرَ يَستقبِلُ بنظرِه ما يرتقِبُ حضورَه، والانتظارُ لا يُستعمَلُ بمعنى النَّظر؛ لأنَّك قد تنتظر الشَّيءَ ولا تُدرِكُه، فلا يُدرِكُه نظرُك حينَئذٍ، ولذا عبَّر هاهنا بـ (ينظرون) دونَ (ينتظرون)؛ لأنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ: إدراكُهم للوعيدِ المذكورِ الَّذي ستُحَدِّق فيه أنظارُهم، فنفى بهذا التَّعبير احتمالَ عدمِ إدراكِهم للمُنتَظَر.

ودلالةُ بناءِ (نظر) أسرعُ في الزَّمنيَّةِ مِن (انتظر)، فبِناءُ (انتظر): (افتعل)، خاصٌّ في الدّلالة على الإبطاءِ وعدمِ السُّرعةِ، كـ (كَسَبَ) و(اكْتَسَبَ)، ولذا كان الانتظارُ مُشتملًا على معنى التَّكلُّف وقلَّة الأريحيَّة، فهذا من حيث الاستعمالُ، ومن حيث الآلةُ: فالنَّظرُ أعمُّ في مُتعلَّقاته، فأصلُ النَّظر: المقابلة، وذلك قد يحصُل بالعين إقبالًا بها نحو المنظور، وبالقلب إقبالًا بالفِكر نحو المُفَكَّر فيه، ويكون باللَّمس ليدريَ اللّينَ مِنَ الخُشونة، ويكونَ نحو ما يتوقَّع، بمعنى الانتظار، "وأمّا الانتظارُ: فحصولُ المقابلةِ فيه بالمُثول والحضورِ والملابَسةِ مع المُنتَظَرِ"[1].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 75، وعلي التُّزهيُّ، الفروق اللّغويّة في تفسير الكلمات القرآنيّة، ص: 133.

(نَسُوه)، (تَركُوه):

النِّسيانُ: زوالُ ذِكرِ الشَّيءِ في النَّفْس، ولازمُ النِّسيان التَّركُ والإهمالُ؛ لأنَّ تلاشيَ التَّذكُّر مُؤذِنٌ بعدم استحضارِ المذكورِ أصلًا، فتغيبُ صورتُه مِنَ الذِّهن، فيقعُ الإعراضُ لا عنه؛ لأنَّه في حكمِ غيرِ الموجودِ، بل يقع الإعراضُ عن كونه موجودًا أصلًا.

وأمّا التَّرك: فهو مغادرةُ ما هو مذكورٌ في النَّفس، وحاضرٌ في الإدراك؛ لأنَّ صورتَه الحاصلةَ في الواقعِ لم تتلاشَ أو تغِبْ عنِ العقل، ولكنَّه تُرِكَ عمدًا رَغمَ استحضاره، فالإعراضُ عنه إعراضٌ عن ذاتِ الشَّيء، لا عن كونِ وجودِه.

فالتَّرك يكون لموجودٍ قائمٍ في ذهنِ التّارِك، والنِّسيانُ يكون تركًا بسببِ عدمِ وجودِ الشَّيءِ، وغيابِه في ذهن النّاسي، فاستعمالُ النِّسيان هاهنا في معنى التَّرك مجازٌ، علاقتُه الملزوميَّةُ؛ لأنَّه متى وُجِدَ النِّسيان لَزِمَ عنه التَّرك، وعُبِّر بالنِّسيان في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾؛ ليَدلَّ على تمكُّنهم وعَراقتهم في الكُفرِ والإعراضِ، بحيث إنَّهم لم يتركوا الكتابَ وراءَ ظهورِهم فحسبُ، بل نَسوه ومَحَوا صورتَه ووجودَه مِن أنفسهم، فهو غيرُ موجودٍ بالنِّسبة لهم، كأنَّه لم يَبلُغْهم[1].

(نُرَدُّ)، (نَرْجِع):

الرَّدُّ: صَرفُ الشَّيء عن وجهه[2]، ونقلُه مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، ومنه: رَدَّ عليه الشَّيءَ: إذا لم يقبلْهُ أو خَطَّأَه[3]، فهو تحوُّلٌ مع حِدَّةٍ[4]، والرَّدُّ حاصلٌ في الذّات أو في الحال[5]، فمِنَ الرَّدِّ

التَّركُ: لموجودٍ قائمٍ في الذِّهن، والنِّسيان: تَركًا لـعدمِ وجودِ الشَّيء، وغيابِه عنِ الذِّهن

الرُّجوعُ: يجري على جهةِ اليُسرِ وانتفاءِ الكُلْفَةِ، والرَّدُّ: عَودٌ يُلاحَظ فيه القَسْرُ وصعوبةُ الإمكان

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 579، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 476.
(3) الجوهريُّ، الصّحاح: (ردد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ردد).
(5) الرّاغب، المفردات: (رد).

بالذّات قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومِنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كانَ عليها قولُه: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]؛ أي: لا دافعَ ولا مانعَ له، وعلى ذلك: ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود: 76]، وقد يشتملُ على معنى الجفاءِ والغِلْظةِ، كقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [إبراهيم: 9]، وإنَّما جاء التَّعبير هاهنا: ﴿أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾؛ لأنَّهم عَلِموا أنَّه عَوْدٌ على غيرِ القانونِ والعادةِ، فيَحتاجُ لِخَرْقٍ مُغالِبٍ، أو قَهْرٍ مُعْجِزٍ، بدليل قولهم: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، فهو رجوعٌ خاصٌّ على خلاف السُّنَنِ الَّتي عَلِموها مِنَ الرُّسل، وفي التَّعبير بالرَّدِّ دون الرَّجوع إلماحٌ إلى يأسهم مِن تحَقُّقِ ذلك، ولا سيَّما مع اقترانه بما يقتضي عِلْمَهم بصعوبةِ إمكانِه أو استحالتِه، وهو اعترافُهم بمجيءِ الرُّسل.

وعليه: فالرَّدُّ: عَوْدٌ يُلاحَظُ فيه الغَلَبَةُ والقَسْرُ، وعدمُ الخِطَّةِ، وصعوبةُ الإمكانِ، ويشتمل على معاني الجفاءِ والقَسْوةِ، وفيه معنى الفواتِ والتَّبديل.

والرُّجوعُ: العودُ إلى ما كان عليه؛ مكانًا أو صفةً أو حالًا، وسواءٌ كان رجوعُه بذاته، أو بجُزءٍ مِن أجزائِه، أو بفعلٍ مِن أفعالِه، يُقال: رجع إلى مكانه، وإلى حالةِ الفقرِ أو الغنى، ورجع إلى الصِّحَّة أو المرضِ، أو غيرِه مِنَ الصِّفات[1]، فهو عَوْدٌ إلى ما كان منه البَدْءُ[2]، ويُلحَظُ فيه معنى اليُسْرِ، والسَّلاسَةِ، والموافقةِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 230]، ومعنى التَّحَوُّلِ إلى الأصلِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾ [الأنبياء: 64]؛ أي: إلى عقولهم وفِطَرتهم بأصلها الأوَّلِ المستقيم، ومعنى القبولِ وعدم التَّذمُّر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصّلت: 50]، فقدِ استَعملَ الرُّجوعَ مع كونه كافرًا للدَّلالة على قبولِه وعدم تذمُّره إن حصلَ ذلك، وإن جرى عنده مَجرَى الفَرَضِ لا الحقيقة، فهو قابلٌ للفَرَضيَّةِ، غيرُ مُتَحَرِّجٍ منها، ولذا قَرَنَه بأعلى الثَّواب، وهي الحُسْنى، بخلاف صاحب الجنَّتين، في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: 36]، فهو وإن كان كافرًا كسابقه، إلَّا أنَّه جاء التَّعبيرُ في حقِّه بالرَّدِّ للدَّلالة على أنَّه يَفْتَرِضُ، وهو

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 478.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).

مُتَذَمِّرٌ غيرُ قابلٍ حتَّى لمجردِ الفرَضِ، وغيرُ مُستحسنٍ له؛ ولذا قَرَنه بثوابٍ أدنى مِنَ الآخر، ولم يَرْبطه بالثَّواب الأحسنِ المُطلَق مثله، فقال: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾. وعليه: فالرُّجوعُ عَودٌ يُلاحَظُ فيه موافقةُ الخِطَّةِ، والقانون، والسُّنن المُستَقرَّة، ويجري على جِهَةِ اليُسْرِ، والطَّواعيَة، وانتفاءِ الكُلْفَةِ والعَناء.

(نَعْمَل)، (نَفْعَل):

العملُ: كلُّ فعلٍ يكون مِن حيٍّ بقَصْد، فهو أخصُّ مِنَ الفعل؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيوانات الَّتي يقع منها الفعلُ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك، ولم يُستَعملِ العَمَلُ في الحيواناتِ إلّا في قولهم: البقر العَوامِلُ[1]. ولارتباطِ العمل بالقَصْد اقترنَ بإيجاد الأثرِ في الشَّيء، فيُقال: فلانٌ يعمل الطِّينَ خَزَفًا، والأديمَ سِقاءً[2]، ولا يُقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ الفعلَ يُعبَّر به عن القُدْرةِ على الشَّيء، مِن غيرِ نظرٍ للأثرِ والقَصْدِ، وهو عامٌّ لما كانَ بإجادةٍ وغيرِ إجادةٍ، ولما كان بعِلْمٍ أو بغير عِلْمٍ[3]، ولذا قال هاهنا: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ استحضارًا لاختيارِهم وتأثيرهم في أعمالهم السّابقة، ولقصْدِهم في أعمالِهم بعد الرَّدِّ؛ أي: نعملُ بقَصْدِ الجزاءِ، وطَلَبِ العَفْوِ غيرَ الَّذي عملناهُ باختيارنا وعَمْدِنا، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصّافات: 96]؛ أي: خَلقكُم وخلقَ ما تُؤثِّرون فيه، بنَحْتِكُم إيّاه أو صَوغِكم له[4].

العملُ أخصُّ مِنَ الفِعلِ، فالفِعلُ عامٌّ في الأحداثِ بقصدٍ أو من غير قَصدٍ، والعمَلُ فِعلٌ مقصودٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/241.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَن نسيَ الكتابَ المسطورَ، عليه أن لا ينسى الكتاب المنشور، وبينَ البَدْءِ والمَعادِ يكون عملُ العِباد

لمّا بيَّن ﷻ في الآيةِ السّابقة خسارةَ النّاسين كتابَ اللّه يومَ القيامةِ، ناسَبَ ذِكرُ بَدْءِ الخَلْقِ بعد ذِكْرِ المَعادِ؛ تذكيرًا للعبادِ، فمَن نَسيَ الكتابَ المسطورَ، عليه أن لا ينسى الكتابَ المنشورَ، فهو انتقالٌ مِنَ الحديثِ عنِ المعادِ إلى التَّذكيرِ بأصلِ الخَلْقِ؛ لبيانِ العلاقةِ بينَ البداية والنِّهاية؛ فمَنِ اعترفَ بالبدايةِ للخالقِ سبحانه، عليه أن يُؤمِنَ بالنِّهاية للّه وحدَه، فللّه الخَلْقُ والأمرُ أوّلًا وآخِرًا، وما بينَ البَدْءِ والمَعادِ يكونُ عملُ العبادِ، فهو استشهادٌ بالحقيقةِ الملموسةِ المتَّفقِ عليها؛ للوصولِ إلى الهدايةِ في العقيدةِ والتَّشريعِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: مِنَ الجذرِ اللُّغويِّ (سوي)؛ وهو "أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئين"[1]، سواء كان ذلك باعتبارِ إسنادِه إلى شيئين فأكثر، أو باعتبارِ اعتدالِ الشَّيءِ في ذاته[2]، واستوى الشَّيء: اعتدل، والاسم السَّواء، والاستواء في كلام العرب يُطلَق على معانٍ؛ أحدها: أن يستويَ الرَّجل فيبلغَ أَشُدَّه، وينتهي شبابُه وقوَّته، والثّاني: أن يستويَ الأمر عنِ اعوجاج، والثّالث: أن يُقْبِل على أمر ما، واستوى إليَّ: أقبل إليَّ، وقد فسَّر ثعلبُ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/241.

[البقرة: 29] فقال: أقبل إليها، وقال أحمد بن يحيى: الاستواء: الإقبال على الشَّيء، ولمّا سُئِل الإمام مالك بن أنس: كيف استوى؟ فقال: الكيف غيرُ معقول، والاستواء غيرُ مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة[1]. فالاستواءُ على العرشِ: صفةٌ للّه تعالى بلا كيفٍ، على الوجهِ الَّذي عناه، مُنزَّهًا عنِ الاستقرارِ، والتَّمكُّنِ، ومشابهةِ الحوادثِ[2].

2) ﴿ٱلۡعَرۡشِۖ﴾: مِنَ الجذر اللُّغويِّ (عرش)، وهو أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبنيٍّ، ثمَّ يُستَعار في غير ذلك[3]، ويُجمَع على عُروش، والعَرْش في كلام العرب: سرير المَلِك؛ لأنَّه يُصنَع مُنبسطًا مُرتفعًا عنِ الأرض[4]، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: 100]، وهو الشَّيءُ المسقَّفُ[5]، وكل بناء يُستَظلُّ به فهو عرش، وقد كُنّيَ به عنِ العِزِّ والسُّلطان والمملكة، يقال: ثُلَّ عَرْشُه، أي: زال مُلكه وعِزُّه، وعَرْشُ الرَّجلِ: قِوام أمرِه[6]، وعَرْشُ اللّهِ: ما لا يعلمُه البَشر على الحقيقة إلّا بالاسم، وليس كما تذهبُ إليه أوهامُ العامَّة[7]، وقيل: بأنَّه الجسمُ المحيطُ بسائرِ الأجسامِ، سُمّي به لارتفاعه، أو للتَّشبيه بسريرِ المَلِكِ، فإنَّ الأمورَ والتَّدابيرَ تَنزِلُ منه[8].

3) ﴿يُغۡشِي﴾: مِنَ الجذر اللُّغويِّ (غشى)، وهو أصل صحيح يدلُّ على تغطية شَيء بشيء، يقال: غَشَّيتُ الشَّيءَ أُغَشّيه، والغِشاء والغَشاوَة: الغِطاء، وغَشيَ الشَّيءُ الشَّيءَ: إذا كان أحدُهما غطاءً للآخر، وغشاء كلِّ شيء: ما تغشّاه؛ كغشاء القَلْبِ والرَّحْل والسَّرْج والسَّيف ونحوها، والمعنى المحوري: تغطيةُ الشَّيء بكثيف يُعَمِّهُ. والمرادُ هنا: أنَّ اللّه تعالى يمحو ضياءَ النَّهارِ بظُلمةِ اللّيلِ، ويمحو ظُلمةَ اللَّيلِ بضوءِ النَّهارِ، فكُلٌّ منهما غِطاءٌ للآخَر[9].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/232.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرش).
(5) الرّاغب، المفردات: (عرش).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (عرش).
(7) الرّاغب، مفردات القرآن: (عرش).
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/232.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (غشي)، وابن منظور، لسان العرب: (غشا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غشو - غشى).

4) ﴿حَثِيثًا﴾: مِنَ الجذر اللُّغويِّ (حثث)، ويَدلُّ في أحد أصليه على الحَضِّ على الشَّيء، ومنه: حَثَثْتُه على الشَّيء أَحُثُّه، ومنه: الحثيث؛ يقال: ولَّى حثيثًا، أي: مسرعًا حريصًا، ورجلٌ حثيثٌ ومحثوثٌ: جادٌّ سريع، والحَثُّ: السُّرعة، والإعجالُ في اتِّصال، وقيل: هو الاستعجالُ ما كان. والمرادُ بـ ﴿حَثِيثًا﴾ في الآية: سريعًا، إسراعَ مَن يَدفعُه غيرُه، ويَحثُّه على الموالاة في الحركة[1].

5) ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: مِنَ الجذر (سخر)، وهو أصل مُطَّرِد مستقيم يَدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، والمعنى المحوري: انقيادٌ بيُسر مع عدم مقاومة، ويَلزَم ذلك الخِفَّة، كما تجري السَّفينةُ وتتحرَّكُ بيُسر، لقوَّتها وضَعْف مقاومةِ الماء في الظَّرف الموصوف، وسَخَّر اللَّهُ ﷻ الشَّيءَ؛ وذلك إذا ذَلَّلَهُ لأمره وإرادته، وأصلُ "التَّسخير: سياقةٌ إلى الغرض المُختصِّ قَهْرًا"[2]، وهو التَّذليل، وسُفُنٌ سَواخِرُ مَواخِر، فالسَّواخِرُ: المُطيعة الطَّيبة الرِّيح، والمواخِر: التي تَمخُر الماءَ وتَشُقُّه[3]. والمرادُ بـ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ في الآية: مذلَّلات في مَداراتها، لا تخرج عنِ النِّظام، ولا تَتَمرَّد.

6) ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾: مِنَ الجذر (أمر)، وهو خمسة أصول: الأمْرُ مِنَ الأُمور، وضِدُّ النَّهي، والنَّماء والبَرَكة بفتح الميم، والمَعْلَم، والعَجَبُ، والمعنى المِحْوريُّ: نفاذٌ مع عُلوٍّ، وراءَه جمعٌ بشدَّة. وأصل الأمر: الشَّأن، وجمعه أُمور، ومصدر أمَرْتُه: إذا كلَّفْتُه أن يفعل شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[4]، والمرادُ به هنا: التَّدبير، والتَّصرّف في مخلوقاته كما يشاء[5].

7) ﴿تَبَارَكَ﴾: مِنَ الجذر (برك)، وهو أصل واحد، يدلُّ على ثبات الشَّيء، ثمَّ يتفرَّع فروعًا يقارب بعضُها بعضًا، والمعنى المحوري هو: ثباتٌ واستمرارٌ مع لطفٍ، و(تبارك): فِعلٌ ماضٍ لا يتصرَّف، أصله: مِنَ البَرْك؛ وهو صَدْر البعير إذا أناخَ في مَوضِعٍ فلَزِمَهُ وثَبَتَ فيه، واعتُبِر

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (حث، حثث)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/373.

(2) الرّاغب، المفردات: (سخر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سخر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (أمر).

(5) الميسّر في الغريب، مركز الدّراسات القرآنيّة بمجمع الملك فهد: 157.

منه معنى اللُّزوم، فاشتُقَّ منه: البرَكَة، وهي بمعنى: الثُّبوت والكَثْرة، أو النَّماء والزِّيادة، في الشَّيء والحال، بحيث يبقى وتَدوم منفعتُه أطولَ مُدَّة، فلا ينفَدُ سريعًا، وغلَب إطلاقُها على ثُبوتِ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيء، وقيل: لكلِّ ما يُشاهَد منه زيادَةٌ غيرُ محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بركة، والمرادُ بـ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: ثَبَتَ وكثُرَ خيرُه على خَلْقِه[1].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

آيـات الكـون العِظام محكومةٌ ومقهورةٌ بأمر الله وتقديره، فلَهُ الخَلْقُ مُلكًا وتدبيرًا، وله الأمر تكليفًا وتيسيرًا

إنَّ اللّه ﷻ هو ربُّ العالمين، الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّة أيّام، ثمَّ استوى على عَرْشه استواءً يليق به سبحانه، فتمَّ بذلك حُكمُهُ وتدبيرُه، وقَهْرُه للمخلوقات جميعًا، ففي العالَم العلويِّ اللَّيلُ يسترُ النَّهارَ بظُلْمته، والنَّهارُ يمحو الظُّلمةَ بضيائه، وكلٌّ منهما في طَلبٍ مُتوالٍ ومتواترٍ للآخر، والشَّمسُ والقمرُ كذلك، والنُّجومُ مُذلَّلاتٌ ومُسَخَّراتٌ في أفلاكها، سابحةٌ في مداراتها، لا تخرجُ عن نظامها طرفةَ عينٍ؛ لأنَّها محكومةٌ، ومقهورةٌ بأمر اللّه، وقانونِه، وإرادتِه، وفي العالَم الأدنى له الخَلْقُ مُلْكًا وتدبيرًا، وله الأمْرُ تكليفًا وتيسيرًا، مع ما له تعالى مِن واسعِ الخيرِ، ووافرِ الإنعامِ على خَلْقه كافَّةً، فتباركَ اللّهُ ربُّ العالَمين.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ التَّأكيدِ بالحرف ﴿إِنَّ﴾:

تأكيدُ انفرادِ الله بالألوهيَّة، والاهتمام بالخبر؛ لزيادةِ إيمان المؤمنين

ابتُدِئَ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لتأكيدِ مضمونِ الكلام، وللاهتمام بالخبر، أمّا التأكيدُ - وإن كان المشركون يثبتون الرُّبوبيَّة للّه، والمسلمون لا يَمْتَرون في ذلك - فهو لِتَنْزيل المشركين مِنَ المُخاطَبين منزلةَ مَن يتردَّد في كونِ اللّه ربًّا لهم؛ لكثْرةِ إعراضِهم عنه في عباداتهم وتوجُّهاتهم[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (برك)، طنطاويٌّ، الوسيط: 5/286.

(2) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/161.

فهو جارٍ في تقرير ما نفاه المشركون مِنِ انفرادِ اللهِ بالرُّبوبيَّة والأُلوهيَّة، وأمّا الاهتمامُ بمضمونِ الخبرِ: فهو يزيدُ المسلمين بصيرةً بعِظَم مَجدِ اللهِ وسَعةِ ملكه، ويزيدُهم ذِكْرى بدلائلِ قدرتِه(1).

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ المُخاطَبين:

الخطابُ يشملُ جميعَ النَّاسِ؛ المؤمنينَ والمشركينَ

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ الخطابِ في قوله: ﴿رَبَّكُمُ﴾ للشُّمولِ، فهو يصلحُ في إرادة الفريقين معًا، فهو خطابٌ للمشركين ابتداءً، وللمؤمنين؛ لعموم مُتعلِّق الضَّمير، وبدليل اللِّحاق، فقد أُريد المؤمنون أصالةً بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الأعراف: 55]، وقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56]، فهو بهم أليقُ، وأُريد المنكرون أصالةً في المثالِ المختوم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف: 57]، وهم داخلون كذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، فهذا بهم أليق(2).

سرُّ تقديمِ المسنَدِ إليه ﴿رَبَّكُمُ﴾، على المسنَدِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إذا اجتمعَتْ معرفتان قُدِّم في الذِّكر الأعرفُ لدى المُخاطَب

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ تقديم ﴿رَبَّكُمُ﴾ على لفظ الجلالةِ، فلم يقُل: (إنَّ اللهَ ربَّكُم)؟ والجوابُ: إنَّ الرَّبَّ المعلومَ للمُخاطَبين، هو ما دلَّ اسمُه على ذاته: اللهُ، لا غيرُه ممَّن ليس له هذا الاسمُ، على ما هو الشَّأن، فهو تعريفُ المسنَدِ، في نحو: أنا أخوكَ، يقُال لـمَن يعرف المتكلِّمَ، ويَعرفُ أنَّ له أخًا، ولا يعرفُ أنَّ المتكلِّم هو أخوه. فالمقصودُ من تعريفِ المسنَدِ: إفادةُ ما يُسمَّى في المنطق بحَمْلِ المواطأةِ، وهو حملُ (هو هو)، ولذلك يُخيَّر المتكلِّم في جَعْلِ أحد الجزأين مُسنَدًا إليه، وجعلِ الآخَر مُسنَدًا؛ لأنَّ كليهما معروفٌ عند الـمُخاطَب، وإنَّما الشَّأنُ أن يجعلَ أقواهما معرفةً عند الـمُخاطَب هو الـمُسنَدَ إليه؛ ليكونَ الحَمْلُ أجدى إفادةً(3).

---

(1) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/159.
(2) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/159.
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/160.

مناسبةُ ذكرِ الخَلْقِ للرُّبوبيَّة، والأمر للألوهيَّة:

اعتبارُ المناسبة في الخَلْقِ والأمرِ

الآية اشتملَتْ على ذِكْرِ الخلقِ الَّذي ناسب ذِكْر الرُّبوبيَّة، وهم به مُعْترفون، واشتملَت على ذِكْر الأمر والتَّسخير، الَّذي هو استعارةٌ في التَّكليفِ والتَّشريعِ، فناسبَ ذِكْرَ الألوهيَّة.

ومن فوائد الإخبارِ عنِ الرُّبوبيَّة بلفظ الجلالةِ: قطعُ الشِّرك، ودَحْضُ ادِّعاء مَن يُفرِّق بينهما، فينسب لغير اللّه منهما شيئًا، ويُخلّي عنِ اللّه ما هو مُنفردٌ به، وخالصٌ له.

غرضُ وصفِ المسنَدِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

الوصفُ بالمخصوصِ المتَّفقِ عليه أقوى في إقامةِ الحُجَّة

وُصِفَ لفظُ الجلالةِ: ﴿ٱللَّهُ﴾ بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ للتَّخصيص، والنَّصِّ، والتَّعيين؛ إكبارًا للشَّأن، وإلفاتًا للمقام، وتنبيهًا على الوصف الَّذي لا يلتبس، وهو أنَّ الرَّبَّ المعبودَ هو الَّذي خلق السَّماواتِ والأرضَ، "والصِّلةُ مُؤذِنةٌ بالإيماء إلى وجهِ بناءِ الخبرِ المُتقدِّم، وهو: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ يكفيهم دليلًا على انفراده بالإلهيَّة"[(1)]، فالوصفُ بما هو متَّفقٌ عليه عقلًا، أقوى بُرهانًا، وأهدى سبيلًا في الإلزامِ والمُحاجَّة.

دلالة حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾:

الاستواءُ على العرش بعدَ الخَلْقِ، يتناسبُ مع ترتُّبِ الأمرِ على الخَلْقِ

التَّرتيبُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على ظاهره، قال ابن عاشور: "فدلَّت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على التَّراخي الرُّتَبيِّ؛ تنبيهًا على أنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ لم يُحدِثْ تغييرًا في تصرفاتِ اللّهِ، بزيادةٍ ولا نقصانٍ، ولذلك ذكرَ الاستواءَ على العرشِ عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ في آياتٍ كثيرةٍ، ولعلَّ المَقصِدَ مِن ذلك إبطالُ ما يقولُه اليهودُ: (إنَّ اللّهَ استراحَ في اليوم السّابع)، فهو كالمَقصِد مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(1) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/161.

﴿خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾ [ق: 38]"(1).

الـرَّدُّ عـلى مَن يعتقدُ أنَّ فِعلَ الله في الخَلْقِ والإيـجـادِ دونَ البقاءِ والتَّدبيرِ

جاء قولُه تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ كنايةً عنِ الإحاطةِ الكاملة لله تعالى، وهيمنتِه على تدبيرِ أُمورِ الكونِ، سماءً وأرضًا بعد خَلْقِها، فالفائدةُ مِن ذِكْرِ ﴿ثُمَّ﴾ ومدخولها: الإشارةُ إلى أنَّ الله تعالى بعد أنْ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، دبَّرَ شؤونَ الخَلْقِ ورعاها، فهو الخالقُ ابتداءً، وهو المدبِّرُ امتدادًا، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾، وهذا ردٌّ على مَن يعتقد أنَّ الكونَ محتاجٌ إلى الله تعالى في الخلقِ والإيجادِ دونَ البقاءِ والتَّدبير.

بلاغةُ جملةِ الحالِ: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾:

بيانٌ مستأنفٌ لـلـتَّـدبـيـرِ المُضَمَّنِ معناه في الاستواءِ

جملة: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن اسم الجلالة، جاءَ به في صورة الحالِ، لا في صورة الخبرِ؛ ليكون بيانًا مُستأنَفًا للتَّدبير(2) المُضَمَّن معناه في الاستواء على العرش، تنبيهًا على المقصود مِنَ الاستواء(3).

جزالةُ التَّعبيرِ البلاغيِّ في قولِه: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾:

اجتماعُ الإيجازِ والـمَـجـازِ والاستـعـارةِ في تـعـبيرٍ واحـدٍ، تـصـويـرٌ فـنـيٌّ بديعٌ

في قوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ مجموعةٌ مِنَ الفوائدِ البلاغيَّة:

أوَّلًا: الإيجازُ: "فمِن بديعِ الإيجازِ ورشاقةِ التَّركيبِ: جَعْلُ اللَّيلِ والنَّهارِ مفعولين لفعلِ فاعلِ الإغشاء، فهُما مفعولان، كلاهما صالحٌ لأن يكونَ فاعلَ الغَشْي، ولهذا استغنى بقوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ عن ذِكْرِ عكسه"(4)، وهذا الإيجازُ مبنيٌّ على أنَّ الغِطاءَ والغِشاءَ أنسبُ للظُّلْمة منه إلى ضوءِ النَّهار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/403.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/167.

ثانيًا: المجازُ الإسناديُّ: فقد حصلَ هذا التَّجوُّز بإسناد ما هو خاصٌّ بمكان الشَّيء، إلى الشَّيء نفسِه، ومكانُ الغَشَيان: هو الجوُّ، على معنى: أنَّه مكانٌ للضَّوء الَّذي هو لازمه، لا أنَّه مكانٌ للنَّهار نفسِه؛ لأنَّ الزَّمان لا مكانَ له(1).

ثالثًا: الاستعارةُ: وهي جارية بجَعْله غشيان مكانِ النَّهارِ وإظلامِه، بمنزلةِ غشيانِه للنَّهار نفسه، فكأنَّه لَفَّ عليه لَفَّ الغِشاء، أو شَبَّه تغييبَ كلٍّ منهما للآخر بطَرَيانِه عليه، بسترِ اللِّباسِ لِلابسِه(2)، فالغَشْيُ للمكان، ونِسبَتُه للزَّمان مجازٌ للمُلابسَة.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿يُغۡشِي﴾:

قرأ نافعٌ، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وابنُ عامر، وعاصمٌ في رواية حفص: ﴿يُغۡشِي﴾، بضمِّ الياء وسكونِ الغين وتخفيف الشّين، وقرأ حمزةُ، والكِسائيُّ، وعاصمٌ في رواية أبي بكر، ويعقوبُ، وخَلَفٌ: ﴿يُغَشِّي﴾ بضمِّ الياء وفتح الغين وتشديد الشّين، وهما بمعنًى واحدٍ في التَّعدية، إلَّا أنَّ قراءة التَّشديد تدلُّ على التَّكرارِ، وقوَّةِ التَّمكُّنِ، والاستِحواذِ مبالغةً في الغَشَيان الحاصلِ بينهما(3).

التَّضعيفُ يفيدُ التَّمكُّنَ، والتَّكرارَ، والإمعانَ في حدوث الفعل

أثرُ الاستعارةِ التَّمثيليّةِ في تصويرِ المعنى:

في قوله تعالى: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، حيث صوَّرتِ الآيةُ اللَّيلَ يُلاحِقُ النَّهارَ بظَلامه فيستره، ويطلبُه طلبًا سريعًا فيدركُه؛ كمَن يُلاحِق شخصًا آخر في عمليَّة ملاحقةٍ سريعةٍ، فإسنادُ فعلِ الطَّلب إلى اللَّيل مجازيٌّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللَّيلَ هو الأصلُ، والنَّهارَ طارئٌ؛ لأنَّه المقصودُ أصالةً مِنَ الإسناد، فكأنَّ النَّهارَ في مجيئه وإشراقه قد أخذ مِنَ اللَّيلِ سلطانَه، فبدأ اللَّيلُ في محاولةٍ دائمةٍ، وطلبٍ حثيثٍ لاسترجاعِ بعضِ ما فقدَه مِن ذلك.

تشبيهُ طلبِ اللَّيلِ النَّهارَ برجلٍ يُلاحِقُ آخرَ ليُدركَه

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/375.
(2) الشِّهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب: 4/173، والآلوسي، روح المعاني: 4/375.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/202، والآلوسي، روح المعاني: 4/376.

المعنى الكنائيُّ في التَّعاقُبِ الزَّمانيِّ:

متابعةُ اللَّيلِ للنَّهارِ أو العكس، دائمةٌ متَّصلةٌ غيرُ منقطعة

معنى قوله: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾؛ أي: يطلبُ اللَّيلُ النَّهارَ، أو كلاهما يطلبُ الآخر طلبًا سريعًا حتَّى يلحقَه ويُدركَه، وهو كنايةٌ عن أنَّ أحدَهما يأتي عَقِبَ الآخَر، ويَخلُفُه بلا فاصل، فكأنَّه يطلبُه طلبًا سريعًا لا يَفْتُر عنه حتَّى يلحقَه[1]، فهي كنايةٌ عن سرعةِ الملاحقةِ واتِّصالِها ودوامِها دونَ انقطاع.

موقع جملة: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ ممَّا قبلها:

الجملة تتعاورُها الحاليَّةُ، أو البَدليَّةُ، أو الاستئناف

جملة: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ واقعةٌ استئنافًا، أو بدلَ اشتمالٍ، مِن جملة: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ﴾، والضَّميرُ المنصوبُ في ﴿يَطۡلُبُهُۥ﴾ يعودُ على اللَّيل وعلى النَّهار، ويمكن أن تكونَ حالًا من أحدِ المفعولَين: ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ على السَّواء؛ فإنَّ كلًّا مِنَ اللَّيل والنَّهار يُعتبَرُ طالبًا ومطلوبًا، تَبَعًا لاعتبار أحدِهما مفعولًا أوَّلَ أو ثانيًا[2].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ﴾:

الشَّمس يَصحُّ عطفُها على: ﴿خَلَقَ﴾ أو ﴿يُغۡشِي﴾

الواو في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ﴾ معطوفةٌ على السَّماوات في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: (وخلقَ الشَّمسَ)، أو أن تكونَ معطوفةً على: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: (ويُغْشي الشَّمسَ)؛ أي: يَغْشَى كُلَّ قَبيلٍ منهُما ما الآخَرُ آيَتُه، حالَ كَوْنِ الكُلِّ ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾[3].

توجيهُ المخصوص بالذِّكْر: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾:

تكوينُ الشَّمس والقمرِ أَصيلٌ ضروريٌّ، لا تابعٌ جماليٌّ

خُصَّتِ الشَّمسُ والقمرُ بالذِّكرِ مع دُخولِهما في النُّجوم؛ لإظهارِ شرفِهما مِن حيثُ التَّكوينُ والرُّتبةُ والأثرُ؛ لما فيهما مِن مزيدِ الإشراقِ والنّورِ، وتوقُّفِ معرفةِ الأوقاتِ على حركَتِهما في الآفاقِ، ولأنَّه قد لا يُفهَم دخولُهما في النُّجوم.

---

(1) سيِّد طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/285.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/167.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/417.

نُكْتةُ تقديمِ الشَّمسِ على القَمَرِ والنُّجوم:

قُدِّم ذِكْرُ الشَّمس على القمر والنُّجوم؛ لأنَّها أشدُّ ضوءًا مِنَ القمر، بل نور القمرِ هي أصله، فهي أسنى وأسمى.

الأصلُ تقديمُ الأصلِ على فرعِه، ومراعاةُ المطابقةِ في التَّرتيبِ

ورعايةً لبديعِ المُطابقةِ، مع ما تقدَّم، فاللَّيلُ يُطابقُ الشَّمسَ، والنَّهارُ يُطابقُ القمرَ، فروعيتِ المُطابقةُ في التَّرتيب(1)، وثُلِّثَ بسائرِ النُّجوم؛ لأنَّها كالخَدَم منهما(2).

نُكْتةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾:

الامتنانُ على النَّاسِ بما أخضعَه لهم من عظيمِ خَلْقِه وبديعِ صُنْعِه

التَّسخيرُ في حقيقته: تذليلٌ بقَهْرٍ وتخويفٍ، أو بتعليمٍ وسياسةٍ بدون عِوَض، ومنه: تسخيرُ العَبيد والأسرى، ويُستعمل مجازًا في تصريفِ الشَّيء غيرِ ذي الإرادة، في عملٍ عظيمٍ مِن شأنه أن يَصْعُبَ استعمالُه فيه، تصريفًا يُصيِّرُه من خصائصه وشُؤونه، فقولُه: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ أطلَقَ التَّسخيرَ فيه مجازًا على جَعْلِها خاضعةً للنِّظام، خُضوعًا مُطَّرِدًا لا يتخلَّف، مع أنَّ شأنَها العظيم يمتنعُ معه أن يَضعَها غيرُ اللّٰه على نظامٍ مُحدَّدٍ منضبطٍ(3)، فشُبِّهَتِ الشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ بحيوانٍ سُخِّر ليُقادَ لإفادةِ غيرِه، فهي استعارةٌ مَكنيَّةٌ تخييليَّة، نُكْتَتُها: الامتنانُ على النّاسِ بما سخَّره اللّٰهُ لهم مِن بديعِ خَلْقه، وعظيمِ صُنْعِه.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾:

كلُّ مُسخَّرٍ في الوجودِ فَسَببُه مُوجِدُ الوجودِ

الباء في قولِه تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ للسَّببيَّة، وفيه اِلْفاتٌ إلى أنَّ كلَّ تسخيرٍ وطواعيَةٍ تجود بها الأشياءُ، إنَّما هو بسببِ أمرِ اللّٰه، وهو دَفْعٌ لاعتقادِ مَن يزعم أنَّ الكونَ يسير صُدْفةً من غير مُؤثِّر فيه بالفعل

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/377.
(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 3/253.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/67، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/169.

والتّحريك، "ويَجوزُ أن تكونَ الباءُ للحال؛ أي: مصاحبةً لأمره، غيرَ خارجةٍ عنه في تسخيرها"[1].

بلاغةُ النَّظم في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾:

بلاغةُ التَّعبيرِ في تنوُّعِ مُرادِ الخبيرِ، دليلٌ على مُكْنَةِ النَّظْم في دَفْعِ الوَهْمِ

لفظُ الأمر في قوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ مُستعمَلٌ مجازًا في التَّصريفِ، بحسب القُدرةِ الجاريةِ على وفقِ الإرادةِ[2]، "فتسميَةُ ذلك أمرًا على سبيل التَّشبيه والاستعارة"[3]، "إذ جَعَلَ هذه الأشياءَ لكونها تابعةً لتدبيره وتصريفه كما يشاء، كأنَّهُنَّ مأموراتٌ مُنقادَةٌ لأمره"[4]، تنبيهًا على أنَّها في امتثالها وعدم عصيانها كالـمُكلَّفينَ العُقلاء، وحقيقةُ الأمرِ في الطَّلبِ الجازم. ويَصحُّ حَمْلُ الأمرِ على تلك الحقيقةِ، ولا مجازَ بِحَمْله على الأمر الكَلاميِّ؛ بمعنى: أنَّه سبحانه أمرَ هذه الأجرامَ بالسَّيرِ الدّائم، والحركةِ الـمُستَمرَّة على الوجه المخصوص إلى حيث شاءَ، ولا مانعَ مِن أن يُعطيَها اللّهُ تعالى إدراكًا وفهمًا"[5]، ويَصِحُّ أن يكون ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾كنايةً عن إرادته وقضائه، فلازمُ الأمرِ أنَّه قاضٍ مُريد.

فائدةُ التَّعبيرِ بأداة الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ في هذا السِّياق:

تنبيهُ النَّاس وتهيئةُ نفوسِهم للشُّؤون العظيمة الَّتي تُقرَّر

﴿أَلَا﴾ حرفُ تنبيه، وجاء في قولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ للجَهْرِ في أسماع النّاس بالإيقاظ والتَّنبيه لما سيُلْقَى عليهم مِنَ الأمرِ العظيم الثّابتِ، ففائدةُ تلك الأداة: تهيئةُ النُّفوس للشُّؤونِ العظيمةِ التي تُقَرَّر، إذ إنَّ هذه الآية بهذا التَّركيب الَّتي صيغ نظمُها عليه، تُعَرِّضُ بالنُّفوس البشريَّة الَّتي تعتقد إمكانَ أن يكونَ لغير اللّه - في مُلكه - تأثيرٌ في شَيء مِنَ المقاديرِ والحوادثِ والتَّصاريفِ، فنفَى

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/169.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/378.
(4) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/173.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/377.

اللهُ بتلك الآية كلَّ ظَنٍّ قد يعتري النُّفوسَ، بأنْ سيْقَ تركيبُها غايةً في الوَجازَة، وكمالًا في الإثباتِ والتَّأكيدِ والحَصْرِ، فوَقعَت جامعةً مانعةً مُحكَمةً، يَنْقشِعُ بها كلُّ ظَنٍّ واحتمال.

نُكتةُ تقديمِ المُسنَد على المُسنَد إليه في: ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ﴾:

اختصاصُ الله تعالى بمُلكِ الخَلْقِ، وتدبيرِه

اللّامُ الجارَّةُ لضمير الجلالة في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ﴾ لامُ المُلك، وتقديمُ المسنَد هنا؛ لتخصيصه بالمسنَد إليه[1]؛ أي: له وحدَه لا لغيره، الخَلْق والأمر.

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ على ﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾:

قَدَّم المُسَبَّب وهو: ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾، على السّبب وهو: ﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾؛ ترقيةً مِنَ المحسوس إلى المعقول[2].

مَوقِعُ قولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ مِنَ الكلامِ السَّابق:

وقعتِ الجملةُ استئنافًا تذييليًّا لما سبق

المرادُ بالخلق في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ ما يتعلَّق بإيجادِ ذواتِ الأشياءِ، وبالأمر: ما يتعلَّقُ بتحديد أوضاعِها، وتكييفِ النِّظام الجاري عليها، وقد بايَنَ بينهما في صدرِ الآيةِ، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾، وهذا هو إيجادُ الذَّواتِ، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾، وهذا هو إيجادُ نظامِها الأمثل، وتدبيرها الأحكم، وجملة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للتَّذييل على الكلام السّابق في قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، وقولِه: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، ومردودٌ إليه[3].

نوعُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾:

أفادَت (ال) استغراقَ الجنسِ كلِّه في عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ

(ال) في لفظي: ﴿ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ لاستغراقِ الجنسِ، وهو يفيدُ العمومَ؛ أي: كلُّ الخَلْق، وكلُّ الأمر له، ليس لغيره، وهو يفيدُ القصرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/169.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/417.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/169.

الحقيقيَّ في كليهما، بقرينةِ تقديمِ الجارِّ والمجرور، وبمعونةِ الاستهلال بـ ﴿أَلَا﴾ الافتتاحيَّة، وهو ما يُشاهده الخلقُ، ويحكمُ به الحقُّ.

وأفادَت استغراقَ الخَلْقِ والأمرِ للعالَمِين: عالَم الغيبِ والشَّهادة، فالمادَّةُ المشهودةُ: اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، والغيبُ: هو الاستواءُ على العَرْشِ، وإنشاءُ خَلْقِ السَّماواتِ والأرض، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51].

ربطُ جملةِ التَّذييل: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

تذييلُ الكلامِ بالثَّناءِ على الله، هو مُقتضَى التَّعليم والتَّربية الحقَّة

جملة: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، اعتراضٌ بينَ جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، وجملة: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، في موقع التَّذييل لآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾، وفي موقعِ التَّمهيدِ والتَّهيئةِ للأمر بعدَه، في قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾[1]، وهي تطمينٌ وبُشْرى بعد تقريرِ إفرادِ اللّهِ بالخَلْقِ والأمر، المُشْعِر بالتَّرهيبِ منه؛ لكمالِ سُلطانِه وهيمنتِه بهما، فأتبَعَهُ بما يُفيدُ التَّرغيبَ في خيره المتواتر، وخزائنِه ذاتِ البركةِ الدّائمة، وإذا كان ذلك كذلك، فتَهَيَّؤوا لقوله بعدَه: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، فكان هذا التَّذييل على هذا التَّركيب كاللُّحْمَةِ الآخِذةِ بزمامِ ما قبلَها وما بعدَها؛ لِتُسْلِمَ السّامع من ترهيبٍ لترغيبٍ، ومِن عبوديَّة الخالقِ بالمعرفةِ والاعتقادِ، إلى عبوديَّته بالعمل وحُسْنِ الوسيلة إليه.

خصوصيَّة لفظ: ﴿تَبَارَكَ﴾ في الاستعمال:

(تَبَارَكَ) خاصَّةٌ بالله تعالى؛ لما لها من معانٍ لا تليقُ إلَّا به

صيغة: ﴿تَبَارَكَ﴾ لم يجِئْ منها مضارعٌ ولا أمرٌ ولا اسمُ فاعل، فلا يُقال: مُبارَكٌ ولا مُتَبارِكٌ، وهي لازمةٌ للماضي، والنُّكتةُ في ذلك: أنَّه لم يوصَفْ به غيرُ اللّه، واللّهُ تعالى تباركَ في الأزل، وهو تعليلٌ يناسبُ مَعنَيَيْها، فـ ﴿تَبَارَكَ﴾[2] من مادَّة البركة، وأصلها: (بَرَك)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/170.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (برك).

البعير؛ أي: صدُره؛ لأنَّ الإبل إذا ثبتَت واستقرَّت في مكان، ألصقَت صدرَها بالأرض، ثمَّ استُعيرَت هذه الكلمة، فاستُعمِلَت في كلِّ ثبوتٍ واستقرارٍ محمودٍ، حتَّى غلبَت على النِّعم الثّابتةِ الدّائمة، والأعمارِ الطَّويلةِ، فوُصفَت بها، فالشَّيءُ المُبارَكُ: هو الموصوفُ بالدَّوام والثُّبوت، وأليق وأحقُّ وجودٍ لهذه الصِّفة هو وجودُ اللّه تعالى، فهو وجودٌ مُبارَكٌ، أزليٌّ أبديٌّ في ذاته وأفعالِه، وهو مَنشأُ ومصدرُ جميع البركات والخيرات، والمعنى الثّاني: مِنَ البَرَكَة، بمعنى: الكَثْرة من كلِّ خيرٍ، وكِلا المعنيين ثابتٌ للّه تعالى، فتبارَكَ اللّهُ في ذاته ثُبوتًا وأزلًا، وفي عطاءاته كثرةً ووفْرةً[1]، فلا جَرَمَ حينَئذٍ أن كانت تلك الصّيغة: ﴿تَبَارَكَ﴾ مشتملةً على اللُّزوم والثُّبوت، مَبنًى ومعنًى. وفي إيراد هذا الختْم بتلك الصّيغةِ بعد ذِكْرِ الخَلْقِ والتَّدبيرِ والأمرِ، نوعٌ مِن أنواعِ الثَّناءِ على اللّه، فكأنَّ تلك المذكورات سببٌ يستلزمُ الثَّناءَ على اللّه، فسيقَت هذه الجملة مساقَ الثَّناء عليه؛ تعليمًا للخَلْق، وتحريضًا لهم على ترديدها، وذِكْرِ اللّهِ بها: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

بلاغةُ التَّصديرِ في الآية الكريمة:

البَدْءُ بالرُّبوبيَّةِ والختمُ بها دليلٌ على أنَّ الخيرَ بيدِه ابتداءً وانتهاءً

في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تفريعٌ وبيانٌ جرى مَجرَى التَّعليل لما قبلَه؛ أي: تباركَ اللّهُ، وكَثُر فيضُه، ودامَت وعمَّت بَركَتُه؛ لأنَّه اللّهُ ربُّ كلِّ المخلوقات والكائنات، "فهو ختامٌ لوحِظَ فيه مَطلَعُه"[2]، فهو تصديرٌ بديعٌ، وردٌّ أخّاذ.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(سريعًا) أعمُّ مِن (حثيثًا)؛ لأنَّ الحثيثَ سرعةٌ مطلوبةٌ مِن مُعاقِب

(حثيثًا)، (سريعًا):

السُّرعة: مُطلَقُ الاندفاعِ في المَسار، وهي ضِدُّ البُطْءِ، والحثيث: هو السَّريعُ بفِعل الحَثِّ والحَضِّ؛ ولذا فسُرعتُهُ تكون متواليةً بِفعلِ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/378.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/378.

تحريكٍ آخَرَ يَدفعُها ويُديمها، فسريعٌ أعمٌّ مِن حثيث؛ لأنَّ الحثيثَ سُرعةٌ مطلوبةٌ مِن مُعاقِب، فهي سُرعةٌ مُطاوِعةٌ لِمُسْرِعٍ وراءَها، ولذا قال: ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾؛ أي: يَعقُبُه، فلَزِم أن يُقالَ: ﴿حَثِيثًا﴾ لا سريعًا؛ لإرادةِ التَّنبيه على أنَّها سرعةٌ مِن طرفين، أو جهتين، كلٌّ منهما يُحرِّك الآخَر[1].

(سَخَّر)، (ذَلَّل):

التَّذليلُ: أعمُّ مِنَ التَّسخير، والتَّسخيرُ نوعٌ خاصٌّ منه، والفرق بينهما: أنَّ التَّسخير تذليلُ الشَّيء بقوَّةِ القابليةِ والاستعدادِ، وفِطرةِ التَّكوينِ؛ كَتَسخير الشَّمس والقمر، فهما لا يخرجان عنِ النِّظام بفعل قوَّةِ الطَّواعيَةِ والقابليَّةِ الكائنةِ فيهما، وأمّا التَّذليل فقد يقع بقوَّة الخارج والسُّلطة، من غير استعدادٍ أو قابليَّة أو طواعيَةٍ ذاتيَّة، فيكون عن قَهْر، كقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: 112]، ويكون معناه الإيقاع في الذُّل، وقد يكون ذاتيًّا ناشئًا باختيار الفاعل، من غير قَهْر، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: 24]، وقولِه تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، وقد يكون في التَّكوين كالتَّسخير، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [تبارك: 15]، ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النّحل: 69]، ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ [يس: 72]، فالتَّذليلُ مَوارِدُه كثيرةٌ، وتتعلَّقُ به معانٍ تخرجُ به عنِ الانقياد التَّكوينيِّ الثّابت من غير مُقاومةٍ، بيُسرٍ وسلاسةٍ، ولذلك عَبَّر هاهنا بقوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ تذليلَ الشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ والأفلاكِ العُلويَّة، هو تذليلٌ مُتفرِّدٌ لا نظيرَ له.

والضّابطُ الحاصلُ في الفرق بينَ التَّذليل والتَّسخير:

أنَّ التَّذليلَ يُستعمل فيما يمكن أن يكونَ له نظيرٌ غيرُ مُسخَّر؛

التَّذليل: فيما له نظيرٌ غيرُ مُذَلَّلٍ مِنْ جنسه، وفيما يَتعدَّى فِعلُ المخلوق إليه بالمُكْنَةِ والغَلَبَةِ، وأمَّا التَّسخيرُ: فليس مُستعمَلًا في هَذَيْن

---

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حثَّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حثث - حثحث).

كتذليل الأنعام في قوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ [يس: 72]، فهذه الأنعامُ لها نظائرُ مِن جنسها غيرُ مُذلّلةٍ، فلا تُؤكَل ولا تُركَب.

والتَّذليلُ يُستعمَل فيما يتعدَّى فِعلُ المخلوقِ إليه، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النّحل: 69]، ففِعلُ المخلوق في هاتين مُتعدٍّ إليهما بالتَّأثير والتَّغيير.

وأمّا التَّسخير فليس مُستعملًا في هَذَين، فالأفلاكُ المُسخَّرةُ ليس لها نظيرٌ مِن جنسها غيرُ مُسخَّر، وليس للمخلوق مُكْنَةٌ عليها بتأثيرٍ أو تغييرٍ لإرادتها المطبوعة فيها، بل يكون التَّسخيرُ في الذَّوات المُحترمَة ذاتِ الرُّتْبَةِ في العلوِّ والاعتبار، حِسًّا أو معنًى؛ كالأفلاك والفُلْك والبحار واللَّيل والنَّهار، ولهذا المعنى استُعمِل (التَّسخير) في بني آدم في قوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزّخرف: 32]، فاستُعمل التّسخير؛ لأنَّها أنفُسٌ محترَمةٌ، ولأنَّها نفوسٌ تعلَّقَ بها إكرامُ اللهِ لها: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، فلِعُلوِّ رتبتِهم لم يَستعمِل معهم صيغةَ: (التَّذليل)[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 10/158، والرّاغب، المفردات: (ذلل - سخر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذلل - ذلذل - سخر).

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾

[الأعراف: 55]

الدُّعاء أعظم مظاهر العبوديَّة لله تعالى، وأقرب للإجابة إنِ اقترن بالإخفاء والتَّذلُّل والافتقار إلى الله

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد تقريرِ أنَّ الخَلْقَ والأمرَ لا يكون إلّا للّهِ، ناسَبَ أن يَذكُرَ بعد ذلك إلزامَ الخَلْقِ بتكليفٍ وأمْرٍ، هو أصلُ معنى العبوديَّة، وهو الدُّعاءُ على جهة التَّذَلُّلِ، والاستخفاءِ، والنَّهي عنِ الاعتداءِ بتَركِ الدُّعاءِ، أو الإتيانِ به بما يُخالفُ شرطَهُ، أو الإعراضِ عنه بالإعراضِ عنِ العُبوديَّةِ والإقرارِ بها للّهِ العظيمِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَضَرُّعٗا﴾: مِنَ الجذر (ضرع)، وهو أصل يدلُّ على لين في الشَّيء، والمعنى المحوري هو: رخاوةٌ أو رِقَّةٌ معنويَّةٌ بالغةٌ، عُبِّر بها عنِ التَذلُّل، وضَرَعَ الرَّجلُ يَضْرَع ضَرْعًا وضَراعَة؛ إذا استكان وخَضَعَ وذَلَّ، فهو ضارِع بيِّنُ الضَّراعَة، والتَّضرُّع: إظهارُ الضَّراعَة، وهي التَّذلُّلُ، والخُضوعُ، والاستِكانةُ، وتَضَرّعَ إلى اللهِ: ابتهل[1]، والمراد: تدعون مُظهرينَ الضَّراعَة، وهي شِدَّة الفقر إلى الشَّيء، والحاجة إليه[2].

2) ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾: مِنَ الجذر (خفي)، وهو أصلان متباينان مُتضادّان، فالأوَّل: السَّتْر، والثّاني: الإظهار، وخَفيَ الشَّيء: يخفى، وأخفيتُه وخَفَيتُه، وهو في خُفيَة وخَفاء؛ إذا سترتُه وكَتَمتُه، والخفاء، والخافي، والخافية: الشَّيءُ الخَفيُّ، وهو نقيض العلانيَّةِ، وفعل

(1) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ضرع)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/376.

(2) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/259.

الشَّيءَ خَفيًّا، وخِفْيَة، وخِفْوَة، وخُفْيَة، مصادر، وفِعلُها اللّازم: اختَفَى، بمعنى: استَتَرَ وتَوارى، والمرادُ: ادْعوُه سِرًّا أو في الخَفاء[1]، أي: اعتَقِدوا عبادتَه في أنفسكم؛ لأنَّ الدُّعاء معناه العبادة[2].

المعنى الإجْماليّ:

التَّـذلُّـل لله والاستكانة إليه في السِّرّ مفتاحُ إجابةِ الدُّعاء، مع وجوب عدم الاعتداء به

توَجِّهُ الآيةُ النّاسَ إلى دعاءِ اللّه تعالى دون غيره، في تلبيةِ حوائجِهم بتَذلُّلٍ، واستكانةٍ، وإسرارٍ، واستِتارٍ، فإنَّه سبحانه يسمعُ الدُّعاءَ، ويجيبُ المضطرَّ، ويكشفُ السّوءَ، وهو القادرُ على إجابةِ دعائكم، وغيرُه عن ذلك عاجزٌ[3]، وفي الآيةِ: نهيٌ عنِ الاعتداء في الدُّعاء، فهو لا يحبُّ المتجاوزين حدودَ شرعِه[4]، وأعظمُ التّجاوزِ دعاءُ غيرِ اللّهِ أو تركُ دعاءِ اللّهِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبَةُ الابتداءِ بالأمرِ بالدُّعاءِ لِما قَبلَه:

ابتُدِئت الآيةُ بالأمر: ﴿ٱدۡعُواْ﴾، وهو تفريعٌ معنويٌّ عن قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾، فالَّذي له الخَلْقُ والأمر؛ هو الَّذي خلقَكم، وأمرَكم بدعائه، كما يُحبُّ مِنَ الضَّراعةِ في الخفاءِ.

مَوقِعُ جملةِ الأمرِ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾:

الـدُّعـاءُ مِـن أعظم العباداتِ الَّـتـي يـقـوم عليها المُعتَقَدُ والسُّلوك

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ جملةٌ استئنافيّةٌ سيقَت تفريعًا على الآية قبلَها، ولم تُعطَفْ على ما قبلها في اللَّفظ؛ إيقاعًا لها مَوقِعَ الاستقلال، وإيذانًا بأنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ تنفردُ رأسًا بالإنشاءِ والابتداءِ والتَّكليفِ، ولتجريَ تلك الآيةُ مَجرَى القانونِ المُصاغِ، والتَّشريعِ المَسْنونِ.

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خفي)، والقاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/102.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خفي).
(3) طنطاويّ، الوسيط: 5/287.
(4) التَّفسير الميسَّر: 157.

تكليف المخاطَبين بالدُّعاءِ تعليلٌ عقليٌّ، وإرشادٌ نفسيٌّ، وتعليمٌ سلوكيٌّ

توجيهُ تخصيصِ الدُّعاءِ بالذِّكر:

جاءَ الأمرُ للمَخلوقين بالتَّكليفِ بالدُّعاءِ دونَ غيره مِنَ الأوامرِ والتَّكليفاتِ؛ ليكونَ كالتَّعليل النّاشِئ عن ختام الآيةِ قبلَه، فقولُه: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تحضيضٌ وإغراءٌ بما جاء بعدَه مِنَ الأمر بالدُّعاء؛ يعني: إذا كان اللهُ قد تبارك وكَثُرَ خيرُه ودامَ؛ لأنَّه ربُّ العالَمين؛ فجَديرٌ بكم سؤالُ خيرِه، ورجاءُ بركتِه، بدعائِكم له، وتَضَرُّعِكُم إليه.

جمعُ أنواع المكلَّفين، والمقابلةُ بين العالَم العُلْويِّ والعالَم الأرضيِّ

بلاغةُ الاستئنافِ في تقريرِ المقابلةِ، واستتمامِ التَّقاسيم:

لـمّا كان قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مستأنفًا عمّا قبلَه؛ لتقريرِ سلطانِ اللهِ بالخَلْق والأمرِ على العالَم العُلْويّ، المُكلَّفِ تسخيرًا وكَرْهًا بأمر الله، فوافقَ أن يُتبِعَ ذلك باستئنافٍ مُقابِلٍ بتكليفِ الإنسانِ وأمره في العالم الأرضيِّ تكليفَ تخييرٍ وطواعيَةٍ، فقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، فلِغَرضِ استيفاءِ الأنواع والأجناس والأقسام أردفَ ذِكْرَ تسخيرِ الشَّمسِ والقمرِ والنُّجوم، وأنَّه ربُّ كلِّ العالَمين، بذِكْر التَّكليف بالدُّعاء للعُقَلاء مِنَ العالَمين، فهذا مُنعقِدٌ مع ما قبلَه في استتمام التَّقسيم بينَ أنواعِ المخلوقاتِ وأجناسِهم.

الدُّعاءُ جُزءٌ مِنَ العبادة، أو كنايةٌ عنها؛ لأنَّ العبادةَ لا تخلو مِنَ الدّعاء

فِعلُ الأمر: ﴿ٱدۡعُواْ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

حقيقةُ الدُّعاء: النِّداءُ بالطَّلب المُهمِّ[1]، "واستُعمل مَجازًا في العبادة؛ لاشتمالها على الدُّعاء والطَّلب بالقولِ أو بلسانِ الحالِ، كما في الرُّكوع والسُّجود، مع مقارنتهما للأقوال"[2]، فإنْ أُريدَ به العبادةُ هاهنا فهو مجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُه الجزئيَّةُ؛ لأنَّ الدُّعاءَ جُزءٌ

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (دعو).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/171.

مِنَ العبادةِ، أو كنايةٌ؛ لأنَّ العبادةَ لا تخلو مِنَ الدُّعاء، والظّاهر أنَّ الدّعاءَ على حقيقته، بقرينة القيد المذكور: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[1]، وإن كان الدُّعاءُ في حقيقته الشَّرعيَّةِ يتضمَّنُ مجموعَ الأمرين: المسألةَ والعبادةَ، وهو حقيقةٌ في كليهما، "وليس هذا مِنِ استعمالِ اللَّفظِ المُشْتَرِكِ في معنييهِ كليهما، أو استعمالِ اللَّفظِ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمالٌ له في حقيقته الواحدة المُتضمِّنة للأمرين جميعًا"[2]، والأصلُ: حملُ الألفاظِ على حقائقها، ما لم يمنعْ مِن ذلك مانعٌ، وما دامَ الاستعمالُ الحقيقيُّ مُتضمِّنًا لمجموعِ الأمرين، فهو الأولى بالقَبول.

سرُّ التَّعبير بلفظِ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾:

اقترانُ الرُّبوبيَّة بخِطاب التَّكليف بالدُّعاء، مُؤذِنٌ بالاستجابة بعد الدُّعاء

جاءَ التَّعبيرُ عنِ المفعولِ بلفظ الرُّبوبيَّة، المُضاف لخطاب الجمع ﴿رَبَّكُمۡ﴾، ولم يَقُل: (ادْعوا اللّه)؛ ليتناسبَ مع خِطاب الرُّبوبيَّة قبلَه في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، ومع قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولِلَفْتِ الأنظار إلى أنَّ المدعوَّ سبحانه هو الخالقُ المربّي الرّازقُ، فهو المُستحِقُّ للدُّعاءِ أصالةً وامتدادًا، وهو مُؤذِنٌ بالاستجابة بعدَ الدُّعاء؛ لما فيه مِنَ الاستجابةِ والامتثالِ؛ ولأنَّ الرُّبوبيَّة تتعلَّقُ بها أعيانُ الحاجات مِنَ الأرزاقِ والألطافِ والمنافعِ، وعمومِ العطايا والمسائلِ.

نُكْتةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ المُخاطَبين:

ترغيبُ المؤمنِ بالقَبولِ عند التَّكليفِ مِن دواعي التَّشريفِ

تشريفُ المؤمنين عند تكليفهم بإضافتهم لربِّهم؛ شهادةٌ لهم بمكانتهم مِنَ اللّه، كأنَّهم لولا تلك المكانة لما استحقّوا خِطابَه لهم وإضافتَهم له؛ وتبشيرًا لهم بالقَبول إنْ هم قَبِلوا تكليفَه إيمانًا

(1) قيل: المراد منه هنا العبادةُ، لأنَّه عطف عليه: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، والمعطوف يجب أن يكون مُغايرًا للمعطوف عليه، وفيه نظر، أمّا أوَّلًا: فلأنَّ المُغايرةَ تكفي باعتبار المتعلَّقات، كما تقول: ضربتُ زيدًا وضربتُ عَمْرًا. وأمّا ثانيًا: فلأنَّها لا تستدعي حَملَ الدُّعاء هنا على العبادةِ، بل حَمْلَه على ذلك إمّا هنا وإمّا هنا. وأمّا ثالثًا: فلأنَّه خِلافُ التَّفسيرِ المأثورِ. يُنظر: الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/378.

(2) ابن القيِّم، التَّفسير القيِّم، ص: 249.

واحتسابًا، ولذلك قال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ولم يقُل: (ادعوه)؛ اعتمادًا على الظّاهر في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقُل: (ادعوني)؛ لِوَصْلِ المؤمنين بصِفة الرُّبوبيَّة، وللدَّلالة على اهتمامِه، وعنايتِه بهم، وتشريفِه لهم[1]، وهو لونٌ مِن ألوانِ هَمْزِ أفئدةِ المؤمنين بمِهْمازِ الشَّرف، وتحريكِهم بعصا التَّرغيب؛ ليَرتَعوا في رياضِ القَبولِ.

نُكْتةُ الكناية في قوله تعالى: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾:

الخُفيَةُ تأكيدٌ للتَّضرُّع، لما يعتري المُتذلِّلَ مِنَ الإشفاقِ عندَ السُّؤال

التَّضرُّعُ: هو التَّذلُّلُ، مِنَ الضَّراعَةِ، وهي الضَّعفُ والذِّلَّة، والخُفيَةُ: هي الاستتارُ، وليس مانعًا أن يكون كنايةً عنِ التَّذلُّل، جيءَ به لتأكيد التَّضرُّعِ، فإنَّ المُتذلِّل يكاد يختفي مِن حال الإملاق والإشفاق الَّتي تعتريه عند سُؤال حاجته، وهذا لا يكون إلّا للمؤمنين الكُمَّل، ففي الآيةِ دعوةٌ للعبادِ أن يتَّصفوا بهذه العبادةِ على أكمل وجهٍ، وأرحبِ حالٍ.

فائدةُ وَضْعِ التَّضرُّع مَوضِعَ الجهر:

الأدبُ في الدُّعاءِ خَصْلةٌ حميدةٌ، وإيمانٌ راسِخٌ

ويُسَوِّغُ أن يكونَ المرادُ مِنَ التَّضرُّعِ والخُفيَةِ الجهرَ والسِّرَّ، وإنَّما وُضِعَ التَّضرُّع مَوضِعَ الجَهْر؛ لكونِ الجَهرِ في الدُّعاء مُنافيًا لأدبِ العبوديَّة، إلّا أن يُصاحِبَ التَّضرُّعَ، "وإنَّما طُلِبَ الدُّعاءُ مع تَيْنِكَ الحالتين؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ الدُّعاء أن يُشاهِدَ العبدُ حاجتَه وعَجْزَه وفقْرَه لربِّه، ذي القُدْرة الباهرة، والرَّحمة الواسعة، وإذا حصل له ذلك، فلا بدَّ من صَونه عنِ الرّياء، وذلك بالاختفاء، وتوصُّلًا للإخلاص[2].

دلالة الجمع بينَ التَّضرُّع والخُفْيَة:

الذِّلَّةُ مع الخفاءِ في الدُّعاءِ، مِن أكْمَلِ أشكالِ الدُّعاء

الواو للجَمْع بينَ التَّضرُّع والخُفية في الدُّعاء؛ لكونهما غيرَ مُتقابلَين، فيتعَذَّرُ الجمعُ بينَهما، بل هما مُنفكّان، فلا يتعارضان؛ لأنَّ التَّضرُّعَ: هيئةُ النَّفس، والخُفيَة: هيئةُ الظّاهرِ. والتَّضرُّعُ وإن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/171.

(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/102.

كان يَظْهَرُ أثرُه في الصَّوتِ والبَدَنِ، إلّا أنَّه أثرٌ تبايُنيٌّ في تغيُّر كيفيَّةِ الصَّوتِ عن عادته الغالبة، وليس أثرًا في مُستوى الصَّوتِ جَهرًا وصياحًا، فلا يكون مُقابلًا لخُفيَة، وعليه: فالتَّقسيمُ في معنى الواو بعيدٌ، والجمعُ أولى وأظهرُ، فمعنى الجَمْعِ في خطابِ المؤمنين: كونوا "جامعينَ في نفوسكم بينَ التَّضرُّع والخُفيَة في دَعَواتكم، ولا تقطعوا أنَّكم - وإنِ اجتهدتُّم - قد أدَّيتُم حَقَّ ربِّكم، ويتأكَّدُ هذا بقوله: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60]"[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

التَّنبيه على إرادةِ اتِّصاف الدُّعاء والدَّاعي بالتَّضرُّع والخُفْيَة

جاءَ التَّعبيرُ بالمصدر: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، دون اسم الفاعل، فلم يقُل: (مُتضرِّعين ومُخفين)؛ كأنَّه أراد منهم لا إيقاعَ عبوديَّة التَّكليفِ على جهةِ فِعْلِها وحدوثِها منهم فحسبُ، بل أرادَها معنًى مُنطبِعًا في ذواتهم، ومُمتزِجًا بها، فنَفْسُ المعنى مُلتبِسًا بهم، لا ينفكُّ عنهم انفكاكَ الزَّمنِ الَّذي اشتمل عليه اسم الفاعل: (مُتضرِّعين)، ولا يتغيَّر عليهم بزيادةٍ أو نقصانٍ أو زوالٍ، بل هو ثابتٌ فيهم.

فالغَرَضُ: التَّنبيهُ على إرادةِ الهيئةِ المطلوبة حالةً لازمةً، وعادةً قائمةً، وأن يكونَ الوصفُ المذكورُ دائرًا على الدُّعاء والدّاعي معًا؛ لأنَّ "المأمورَ به هنا شيئان: الدُّعاءُ الموصوفُ المقيَّدُ بصفةٍ معيَّنةٍ، وهي صِفةُ التَّضرُّع والخَوف والطَّمع، فالمقصودُ تقييدُ المأمور به بتلك الصِّفة، وتقييدُ الموصوفِ الَّذي هو صاحبها بها. فأتى بالحال على لفظ المصدر؛ لصلاحيته لأن يكون صفةً للفاعل، وصفةً للفعل المأمور به. والنُّكتةُ في ذلك: أنَّك إذا قلتَ: (اذْكُر ربَّكَ تضرُّعًا)، فإنَّك تُريد: (اذْكُره مُتضرِّعًا إليه، واذْكُرْهُ ذِكرَ تضرُّعٍ)، فأنتَ مُريدٌ للأمرين معًا، ولذلك إذا قلتَ: (ادْعُه طمعًا)؛ أي: ادْعُهُ دعاءَ طَمَعٍ، وادْعُه طامعًا في فضله، فأتى فيه المصدرُ الدّالُّ على وصْفِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/285.

المأمورِ به بتلك الصِّفة، وعلى تقييد الفاعل بها، تقييدَ صاحبِ الحالِ بالحال"[1].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

بلاغةُ كمالِ الانقطاعِ

خبريَّةُ جملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بعدَ الإنشاء قبلَها، وتضمُّنُها معنى الإنشاء، وإنْ وقعَت بلفظ الخبر، وتأكيدُها بالاستئناف عمّا قبلَها، وبافتتاحها بـ ﴿إِنَّ﴾، وبِسَوقها بالنَّفي لا بالإثبات، وتضمُّنُها معنى التَّرهيب بلفظها، ومعنى التَّرغيب بمفهومها، "وإفادةُ ﴿إِنَّ﴾ في افتتاحها التَّعليلَ والرَّبطَ لما قبلَها، كأنَّها تقومُ مقامَ الفاء"[2]، فذلك مِن وجوه بلاغة الفَصل في هذا الـموضِع.

جريانُ الفاصلةِ بما يُوافِقُ صَدارةَ السِّياق

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ ليَلْفِتَ أنَّ التَّكليفَ على جهة التَّخيير، وتفضيلَ الإنسانِ به على الـمُسخَّراتِ بأمره قَهْرًا وتسييرًا، يقتضي مُراعاةَ هذا التَّخصيصِ بعدمِ الاعتداءِ وتجاوزِ ما لم تجرِ سُنَّتُه بإعطائه أو إيجاده أو تغييره، وهو خبرٌ في معنى الإنشاء؛ أي: التَزِموا بسُنَنِ اللّهِ الثّابتة، ولا تعتدوها، ولا يَحمِلَنَّكُم وازعُ الإرادةِ والاختيارِ فيكم، أن يَحمِلَكُم على مُخالفةِ سُنَنِ اللّهِ الـمُسَخَّرةِ، فلا يقع منكم إخلالٌ لها بإهدار سُنَنه في تَشْريعه وتكاليفه.

الافتتاحُ المؤكَّدُ أجرى التَّركيبَ مَجرَى المثلِ السَّائر

الافتتاح بـ ﴿إِنَّ﴾ لمحضِ الاهتمام والعنايةِ بتقرير الجُملة، وكأنَّ الغَرضَ بالافتتاح المؤكَّد إجراءُ التَّركيب مَجرَى القانونِ الـمُحَدَّدِ، والمثلِ السّائرِ الـمُحكَم، وقرينةُ خُلوِّ الـمُخاطَبين عنِ التَّردُّد في هذا الخبر، تجعلُه مَسوقًا لأجل تأكيد انتفاعِهم به، لا لإثباتِ أصلِه، فيكونُ خبرًا بمعنى الإنشاء؛ أي: أكِّدوا انتفاعَكُم بمقتضى ذلك، بدوامكم على الاستقامة، وعدمِ التَّجاوز، أو لأجل أن يَسوقوه إلى غيرهم بهذا الـمَساقِ الـمُؤكَّد؛ للتَّرهيب والتَّرغيب، فإنَّ المؤمنَ مُبَلِّغٌ عن ربِّه.

(1) ابن القيِّم، التَّفسير القيِّم، ص: 265.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.

النَّفيُ محمولٌ على النَّهي، فهو خبرٌ بمعنى الإنشاء

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ خبرٌ له معنى الإنشاء؛ أي: لا تعتدوا، فالنَّفيُ فيه محمولٌ على النَّهي، ويَكأنَّ هذا النَّهيَ المفهومَ تفريعٌ عن ذِكْر المُسخَّرات بأمره، فكَما أنَّها تتحرَّك في مَداراتها مُستجيبةً طائعةً، مِن غير إخلال ولا نُشوز طَرفةَ عينٍ، في سَكينة ونِظام لا يَشُذُّ ولا يَتمَرَّدُ، فكذلك أنتُم، لا يكنْ منكم إخلالٌ أو عُدوانٌ أو تمرُّدٌ على طاعةِ اللهِ والخُضوعِ له.

تعليلُ التَّكاليف مِن تمام المِنَّة على العقول

كما أنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ تعليلٌ للأمر الواردِ قبلَه؛ أي: ادْعوه لأجل أنَّه لا يُحبُّ مَن يَعتَدي بتَرْك ذلك، فلا يُثيبُه ولا يستجيبُ له.

إيثارُ التَّعبيرِ بنفي الحُبِّ، أبلغُ مِن إثباتِ الكُرهِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بنفي الحُبِّ لا بإثباتِ الكراهيَةِ للمُعْتدين؛ لِثُبوتِ مَدخولِ حَرْفِ النَّفي، مع ثبوتِ لازمِه، وهو الكُرهُ، ولو أثبتَ الضِّدَّ فقال: (إنَّه يكره المُعتدين)، لما لَزِمَ عنه ثبوتُ الضِّدِّ الموجِبِ، وهو الحُبُّ، فالنَّفي يُثبتُ موجَبَ الفعل ويُثبتُ ضِدَّه؛ فالتَّعبيرُ بعدم مَحبَّته للمُعتدين جَرى على طريقةِ إثباتِ الشَّيءِ بإبطال ضِدِّه؛ قَصْدًا للتَّنبيه على الأمرين معًا، وإيجازًا في الكلام(1)؛ أي: إذا كان لا يحبُّ المُعتدين، فهو يُحبُّ أضدادَهم مِنَ المستقيمين المُتَعبِّدين، ونَفْيُ الشَّيءِ إثباتٌ لضِدِّه.

إضمارُ الاسمِ الجليلِ في الختم، نوعُ مقابلةٍ، ودلالةُ ترهيبٍ

مِن وجوه بلاغةِ الفاصلةِ: إضمارُ اسم ﴿إِنَّ﴾ العائدِ على الذّات العَليَّة؛ لِفصْل المُعتدين عنِ الدّاعين تَضَرُّعًا وخُفْيَة، في إظهار اسمه بالرُّبوبيَّة لهم، وإضافتهم إليه: ﴿رَبَّكُمْ﴾، وأمّا المُعتدون بتَرْك ما في حَيِّز خطاب الرُّبوبيَّة السّابق مِنَ التَّكليف، فمَنزوعٌ منهم هذا التَّشريفُ معنًى بعدم المحبّةِ، ولفظًا بعدم إظهارِ الاسم الجليلِ معهم، كما أظهره في المَطلَع، ففي إضمارِ الاسمِ الجليلِ في الخَتْم نوعُ مقابلةٍ، ودلالةُ ترهيبٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.

فائدةُ حَذْفِ مُتعلِّق اسمِ الفاعل: ﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾:

تعميمُ الاعتداءِ في الدُّعاءِ على جميع وَحداتِ التَّركيبِ

لم يُذكرْ مُتَعلِّقُ الاعتداءِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ ليشملَ كلَّ فردٍ مِن أفراده، وإيقاعُه على جهة العموم أبلغُ مِن تخصيصه على الاعتداء في الدُّعاء فقط؛ ليكون أبلغَ في الدَّلالة على غايةِ الأمرِ، وهو تحقيقُ العبوديَّة، وليس مُنحصرًا في ظاهرِ الأمرِ فقط، وهو ممارسةُ الدُّعاء، فيدخلُ فيه دخولًا أوَّليًّا الاعتداءُ بتَرْك الدُّعاء أصلًا، أو دعاءِ غيرِه، وهو موضوعُ التَّكليفِ في الآية، أو إيقاعِه لمفعولٍ مُغايرٍ. ففائدةُ عدمِ ذكرِ مُتعلِّق الاعتداءِ: تسليطُه على جميع وحَدات التَّركيب؛ ليشملَ الاعتداءَ بتَركِ الأصلِ (الدُّعاء)، والإخلالَ بالأصل وتَركِ التَّوجُّهِ به لغايته المذكورة: ﴿رَبَّكُمْ﴾، والإخلالَ بالقصد وتركِ قَيدِه المَنوطِ به: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، والإخلالَ بالشَّرط.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(تضرَّع)، (خضَع):

التَّضرُّعُ: أوَّلُه مِنَ القلب، وآخِرُه إلى البدن، والخُضوعُ: أوَّلُه مِنَ البدن، وآخرُه إلى القلب

أصلُ مادَّةِ الخُضوعِ: "التَّطامُن والتَّواضُع"[1]، ويَختصُّ بالبدن؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشّعراء: 4]، وقد يكون عن تكلُّفٍ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأحزاب: 32].

وأصلُ مادَّةِ التَّضرُّع: اللّينُ والضَّعفُ[2]، ويُستعمَل في التَّذلُّلِ والانقيادِ والاستكانة، "والسّياقاتُ القرآنيَّة للتَّضرُّع رَبطَت بينَه وبينَ مَواطنِ الخَوفِ واليأسِ والعذاب؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: 42]. وقولِه: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: 43]، وربطَت بينَه وبين الخفاء؛ كقوله: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: 63]، وقولِه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، وهذا يعني: أنَّ التَّضرُّعَ يكون في الأمرِ الشَّديدِ الَّذي يقتضي

(1) الجوهريُّ، الصّحاح: (خضع).
(2) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضرع).

المبالغةَ في التَّذلُّل، وهو التَّضرُّع، ويكون مصاحبًا للصَّوتِ المُرتجفِ المُستغيثِ، الخافضِ مِن شِدَّةِ الهولِ والشُّعور بالمَسْكَنةِ والاضطرارِ لله، وعلى هذا: فالتَّضرُّعُ يتضمَّنُ: التَّذلُّلَ (يقترنُ غالبًا بالشِّدَّةِ والهَولِ)، الخوفَ، ظهورَ أثرِ ذلك في الصَّوت"[1].

(المُعْتَدين)، (الظَّالِمين):

يُفَرَّقُ بينَ الظُّلم والعُدوان؛ بأنَّ الظُّلمَ: ما كان بغير حَقٍّ بالكُلّيَّة، كأخْذِ مالٍ بغيرِ استحقاقٍ لشيءٍ منه، وقتلِ نفسٍ لا يَحلُّ قتلُها، وأمّا العُدوانُ: فهو مُجاوزةُ الحدودِ وتَعَدّيها فيما أَصْلُه مباحٌ، مثل: أن يكونَ له على أحدٍ حَقٌّ، مِن مالٍ أو دَمٍ أو عِرْضٍ، فيستوفي أكثرَ ممّا له، فهذا هو العُدوانُ، وهو تجاوزُ ما يجوزُ أَخْذُه[2]، والقرآنُ صريحٌ في أنَّ الاعتداءَ: هو تجاوزُ الحدِّ فيما له أصلٌ صحيحٌ، ولذلك قال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ لأنَّه واردٌ بعدَ قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، والدُّعاءُ: أصلٌ صحيحٌ، والمرادُ: عدمُ تجاوزه أو تجاوزِ شَرْطِه الموصوف، بالتَّضرُّعِ والخُفْيَة، ونظائرُ هذا كثير.

الظُّلمُ أعمُّ، والاعتداءُ أَخصُّ، والأوَّلُ: محظورٌ ليس فيه حَقٌّ، والثَّاني يعني: تخطِّي الحَقَّ إلى ما ليس حقًّا

وأصلُ الظُّلم "عند أهلِ اللُّغة وكثيرٍ مِنَ العلماء: وضْعُ الشَّيء في غير مَوضِعه المُختصِّ به، إمّا بنقصانٍ، أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقته، أو مكانه"[3].

وأصلُ الاعتِداء: "يدلُّ على تجاوزٍ في الشَّيءِ، وتَقَدُّمٍ لما ينبغي أن يُقتَصَر عليه"[4].

والخلاصة: أنَّ الظُّلْمَ أعمُّ، والاعتداءَ أخصُّ، والأوَّلَ: محظورٌ ليس فيه حَقٌّ، والثّاني: يعني تخطّيَ الحقِّ إلى ما ليس حقًّا[5].

---

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 292.

(2) ابن رجب، تفسير ابن رجب: 1/323.

(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/9.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (عدو).

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كمال العبوديَّة لله: القيام بحقِّ الخالق وبحقِّ الخَلْق، مع الخوف مِنَ الله ورجاء رحمته

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ واجِبَ العبوديَّةِ في حقِّ الخالقِ بتكليفِ الأمرِ بالدُّعاء، أعقبه بتكليفِ نهيٍ في حقِّ الخَلْق؛ وهو عدمُ الإفسادِ في الأرض، فالأرضُ مِنَ الخَلْقِ، وإفسادُها يُضِرُّ بهم، وختمَ ذلك بتكرير الأمر بالدُّعاء، ليكونَ مبدأُ التَّكليف في التَّوجُّه إليه، ومنتهاه في التَّوجُّه إليه، فمنه وإليه المبدأُ والمنتهى، في كلِّ قَصْدٍ وإرادة.

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تُفۡسِدُواْ﴾: مِنَ الجذر (فسد)، وفَسَدَ الشَّيءُ يفسُد فسادًا وفُسودًا، فهو فاسد وفسيد، والمفسدة: خلاف المصلحة، والاستفساد: خلاف الاستصلاح، وفسد الشَّيءُ: بَطَل واضمَحَلَّ، والفساد: الخروجُ عن حَدِّ الاعتدالِ والاستقامة، وكونُ الشَّيءِ منتفعًا به، قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُضادُّه: الصَّلاح، ويُستعمل في النَّفس، والبَدَنِ، والأشياءِ الخارجة عنِ الاستقامة، والمعنى المحوريّ: ذهابُ نفعِ الشَّيءِ المقصود منه[1]، والمرادُ: النَّهيُ عن إيقاع الفساد[2].

2) ﴿وَطَمَعًاۚ﴾: مِنَ الجذر (طمع)، ويدلُّ على رجاءٍ في القلب قويٍّ للشَّيء، وهو ضِدُّ اليأس، وطمع في الشَّيء طمعًا وطماعَة وطماعيَّة: حَرِصَ عليه ورجاه، والمطمَع: ما طَمِعْتَ فيه[3]، وهو "نُزوعُ

(1) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فسد).
(2) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (طمع).

النَّفسِ إلى الشَّيءِ شهوةً له"[1]، فهو عبارةٌ عن شِدَّةِ التَّعلُّق بالشَّيءِ باطنًا، والإلحاحِ في ابتغائِه ظاهرًا، والمرادُ: قوَّةُ الرَّجاءِ، والتَّعلُّقِ بثوابِ اللّهِ ورحمتِه.

المعنى الإجماليُّ:

تنهى الآيةُ عمومَ النّاسِ عنِ الإفسادِ في الأرض، بأيِّ نوعٍ مِنَ الفساد كان، فإنَّ الأرضَ كانت صالحةً بإرسالِ الرُّسلِ عليهم السلام، وإعمارِها بطاعة اللّه وحْدَه، وادْعوهُ سبحانه خائفينَ مِن عقابه، طامعينَ في ثوابه[2]، إنَّ رحمةَ اللّه قريبٌ مِنَ المُحسنين، فكونوا منهم.

النَّهي عن الفساد والإفساد، مع الأمر بصدق التّوجه إلى الله

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ إيقاعِ النَّهي بعد جُملةِ التَّعليل في الآيةِ السَّابقة:

"في إيقاع هذا النّهي عقب قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ تعريضٌ بأنَّ المعتدينَ - وهم المشركون - مُفسدونَ في الأرض، وإرباءٌ للمسلمين عن مشابهتهم؛ أي: لا يليق بكم، وأنتمُ المقرَّبون مِن ربِّكم، المأذونُ لكم بدعائه، أن تكونوا مثلَ المُبْعَدينَ منه المُبْغَضينَ"[3].

التَّعريضُ بالمشركين بأنَّهم مفسدون في الأرض

معنى العطفِ في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾ عطفتِ النَّهيَ على الأمر، وهو قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ لِنسَقِه معه، لغرضِ استيفاءِ التَّكليفِ بالأمرِ والنَّهي معًا، بعطفِ المسائلِ الجامعةِ في المأموراتِ والمحظوراتِ بعضِها على بعض، وهي قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ في الأوامر، وقوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾ في المناهي.

استيفاءُ التَّكليفِ بالأمر والنَّهي معًا

علَّةُ إيثارِ النَّهي عنِ الإفسادِ دونَ الأمرِ بالإصلاح:

جاء النَّهيُ عنِ الفساد، ولم يجئِ الأمرُ بالإصلاحِ في قوله: ﴿وَلَا

دَرءُ المفاسدِ أولى مِن جَلْبِ المصالحِ

(1) الرّاغب، المفردات: (طمع).
(2) المجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة، المختصر في التّفسير: 214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/174.

﴿تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؛ تقديمًا لدَرءِ المفاسدِ على جَلْبِ المصالحِ، وإلْفاتًا لكثرةِ وقوعِ الإفسادِ في بني آدمَ، فنهى عنِ الأكثر، وتنبيهًا على أنَّ إصلاحَ الأرضِ لا يتأتَّى من غير دَحْضِ الفسادِ وتنحيتِه، وتأكيدًا على أنَّ النَّفعَ لازمٌ عن إزالة الضَّرر، فإزالةُ الضَّررِ بريدُ النَّفعِ وتحقيقُه، وليس العكس. وفيه: أنَّ التَّخلية قبلَ التَّحلية، وأنَّ تركَ المناهي أبلغُ مِن فعلِ المأمورات، فهو كالأصل له.

غرضُ التَّعبيرِ بالظَّرف في قوله: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾:

الحـــضُّ على استبقـاء الإصــلاح؛ للاحتراز به عن فسادِ المفسِدين

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرف: ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾: "تقريرٌ لواقع الأمور؛ لأنَّ الفسادَ لا يكونُ إلّا تقويضًا لصالح"[1]، وللتَّنبيه على بشاعةِ تقويضِ أعمالِ المُصلِحين؛ فإنَّ "الإفسادَ بعدَ الإصلاحِ أظهرُ قبحًا مِنَ الإفساد على الإفساد، فإنَّ وجودَ الإصلاحِ أكبرُ حُجَّةً على المُفسِد، إذا هو لم يحفظه ويجري على سُنَنه، فكيف إذا هو أفسدَهُ وأخرجَهُ عن وضعه؟ ولذلك خصَّهُ بالذِّكر"[2]، وفيه: تحضيضٌ على استبقاءِ هيئةِ الإصلاحِ الحاصلةِ، والتَّنميةِ عليها؛ للاحتراز بها مِن فساد المُفسدين.

نُكتةُ تعقيبِ الأمرِ بالدُّعاءِ النَّهيُ عنِ الإفسادِ:

مَن لم يَعرِفْ ربَّه في الدُّعاءِ، كان أقربَ إلى دائرةِ الإفسادِ

في الأمر بالدُّعاء بعدَ النَّهي عنِ الفساد إيذانٌ "بأنَّ مَن لا يُعرِّفُ نفسَه بالحاجة والافتقار إلى رحمةِ ربِّه الغنيِّ القدير، وفضلِه، وإحسانِه، ولا يدعوه تضرُّعًا وخُفْيَةً، ولا خوفًا من عقابه، وطمعًا في غُفْرانه، فإنَّه يكون أقربَ إلى الإفساد منه إلى الإصلاح"[3].

تَكرارُ الأمرِ بالدُّعاء بينَ الإثباتِ والنَّفي:

تكرار الأمرِ بالدُّعاءِ في قوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾؛ إمّا أن

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2869.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/410.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/410.

الـدّلالـةُ على امتزاجِ الغرضِ التّعميريِّ الإصلاحيِّ بغاية العبوديَّة

نحملَه على التَّكرارِ الحقيقيِّ، فيكونَ غَرَضُه التَّنبيهَ على أصلِ الغايةِ مِنَ العبادة، واقترانِها بمبدأ التَّكليف ومُنتهاه، فالأمرُ بالدُّعاء أوَّلًا: تأسيسٌ لحقِّ العبوديَّة الواجبِ على العبد، وإنباءٌ بكيفيَّته المصروفةِ للّه في القَصْد والتَّعلُّق، والأمرُ بالدُّعاء. ثانيًا: مشفوعٌ بحالة الإنسان الوجوديَّة وحركته في الأرض: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؛ لتقرير امتزاجِ هذا الغرضِ التَّعميريِّ الإصلاحيِّ، بغاية العبوديّة كذلك، معَ الإنباء بكيفيَّته الجزائيَّة العائدةِ على العبد، فقولُه: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ كيفيَّةٌ تصفُ القصدَ والتَّوجُّهَ، وقولُه: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ كيفيَّةٌ تُشعِرُ بالعائد الذي تتشوَّفُ له النَّفسُ، وتراقبُ جزاءَه.

اخـتـلافُ المُتعلِّق يقضي باختلافِ مفهوم وجوه الألفاظِ

وإمّا أن نحملَه على التَّكرارِ اللَّفظيِّ لكلمة الدُّعاء دون المُتعلِّق، وحينَئذٍ فلا تكرار؛ لأنَّ مُتعلّقاتِ الجُمَل مُتباينةٌ، واختلافُ المُتعلِّق يعني اختلافَ المعنى وعدمَ التَّكرار، وبيان ذلك: أنَّه "أمَرَ أوَّلًا بدعائه تضرُّعًا وخُفْيَةً، ثمَّ أمَرَ بأن يكون الدُّعاء - أيضًا - خوفًا وطمعًا، وفصلَ بينَ الجُملتين بجُملتين؛ إحداهما: خبريَّة مُتضمِّنةٌ للنَّهي، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، والثّانية: طلبيَّةٌ، وهي قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾، والجملتان مُقرِّرتانِ مُقوّيتانِ للجُملة الأولى، مؤكِّدتان لمضمونها، ثمَّ لمّا تمَّ تقريرُها وبيانُ ما يُضادُّها ويناقضُها، أمرَ بدعائه خوفًا وطمعًا، ثمَّ قرَّرَ ذلك، وأكَّدَ مضمونَه بجملة خبريَّة، وهي قوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فتعلُّقُ هذه الجملة بقوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، كتعلُّق قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾"[1].

بلاغةُ الرَّبطِ بينَ مُتعلّقاتِ الدُّعاء في الآيتين:

شـرطُ الـدُّعـاءِ مَـقـدَّمٌ على الباعثِ عليه

قولُه تعالى: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ هو استتمامٌ لشرط حصولِ أثرِ الدُّعاءِ وضمانِ منفعتِه، بعدَ تقرير شَرْطِ صِحَّتِه وإقامته في قوله:

(1) ابن القيّم، التَّفسير القيّم، ص: 264.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، وتثنيةً ببيانِ الباعث على الدُّعاء: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، بعد تعليمهم كيفيَّتَه: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾[1].

معنى الواوِ في قوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾:

اجتماعُ الضِّدَّين الباعثَين على الدُّعاء، لا يعني اجتماعَهما في كلِّ دعاء

الواو للتَّقسيم النَّوعيِّ؛ بمعنى: أنَّ الدُّعاءَ على نوعين: "الدُّعاء لأجلِ الخَوفِ؛ نحو: الدُّعاء بالمغفرة، والدُّعاء لأجلِ الطَّمعِ نحو: الدُّعاء بالتَّوفيق وبالرَّحمة"[2]، ويَصِحُّ أن تكونَ للجَمْع، بالنَّظر إلى صِحَّة اجتماعهما في قَلْب الدّاعي، لا بمعنى: أنَّ مَقولَ الدُّعاء لا بدَّ أن يشتملَ على كليهما في آنٍ.

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ﴾:

رحمةُ اللهِ وعدٌ ومكافأةٌ لمَن امتثلَ الأمرَ بالدُّعاء

أفادَت جُملةُ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ التّفريعَ والتَّعليلَ لما قبلَها: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، فجاءَت كالوعدِ والمكافأةِ بعدَها، وانفصلَت عنها بالتَّجرُّد مِنَ العاطِف، واستهلَّتْ بـ ﴿إِنَّ﴾ الدّالَّة على التَّوكيد؛ اهتمامًا بالخَبَر، "ومن شأن (إنَّ) إذا جاءَت على هذا الوجه، أن تُفيدَ التَّعليلَ، وربطَ مَضمونِ جُملتِها بمضمونِ الجملةِ التي قبلَها، فتُغْني عنِ فاء التَّفريع، ولذلك فُصِلَتِ الجملةُ عنِ التي قبلَها، فلم تُعطَفْ لإغناء (إنَّ) عنِ العاطف"[3].

نُكْتةُ تذكيرِ لفظِ: ﴿قَرِيبٞ﴾:

إكسابُ الرَّحمةِ قوَّةً تقتربُ بها مِنَ المحسنين

جاءَ لفظُ ﴿قَرِيبٞ﴾ مذكَّرًا مع أنَّه خبرٌ لمؤنَّثٍ، وهو ﴿رَحۡمَتَ﴾؛ وذلك لاستحضار معنى العزيمةِ والقوَّةِ الكائنةِ في معنى التَّذكير، تناسبًا مع ما في صفة الإحسان مِنَ العَزْم والقوَّة والبِدار والبَذْل والإيثار، ومِن حيثُ المبحثُ اللَّفظيُّ، فقد يُقال: "إنَّ المرادَ أنّه تعالى قريبٌ برحمته مِنَ المحسنين، كما أنَّه قريبٌ بعِلْمِه وإجابته مِنَ

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/160، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/410.

الدّاعين، وكثيرًا ما يُعطَى المضافُ صفةَ المضافِ إليه وضميرَه"[1]، وعند العرب ألفاظٌ يستوي فيها التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، كصَبور ومِعْطار وقتيل، فيُقال: (رجلٌ صَبورٌ)، و(امرأةٌ صبورٌ)، و(رجلٌ مِعْطارٌ)؛ أي: يُكْثِرُ استخدامَ العطرِ، و(امرأةٌ مِعْطارٌ)، و(رجلٌ قتيلٌ)، و(امرأةٌ قتيلٌ)، ولا يُقال: (قتيلة) إلّا إذا لم يُذكَر معها كلمةُ امرأةٍ أو يدلَّ على التَّأنيث؛ لأنَّ القتيلَ للذَّكر وللأُنثى.

وسِرُّ التَّذكير: استحضارُ معاني الشِّدَّة والقوَّة التي تضمَّنَتها هذه الأبنيَةُ، فالصَّبر يقتضي الجَلَدَ والعَزْمَ والشِّدَّةَ؛ لذلك لا نقول: (امرأةٌ صبورةٌ)، بل نأتي بالوصفِ المناسبِ للجَلَدِ والشِّدَّة، ولذلك لا نُضْعِفُها بحكايةِ التَّأنيثِ، وكذلك الرَّجلُ المِعطارُ؛ وهو مَن تعرفُه النّاسُ مِن نفاذِ رائحةِ عِطْرِه، والمرأةُ مبنيَّةٌ على السِّترِ، فإن تَعَطَّرت فهي تَشَبَّهتْ بالرَّجل، فيُقال لها: امرأةٌ مِعْطارٌ.

وعليه: فكلمةُ ﴿قَرِيبٌ﴾ يستوي فيها المُذَكَّر والمؤَنَّث؛ بدليل أنَّ اللّه قال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التّحريم: 4]، والملائكةُ لفظُها لفظُ مؤنَّثٍ، ولم يقُل الحقُّ: (ظهيرة)؛ لأنَّ ﴿ظَهِيرٌ﴾ يعني: مُعين، والمعونة تتطلَّب القوَّةَ والعَزْمَ والمَدَدَ؛ لذلك جاء لها باللّفظ المناسب الّذي يدلّ على القوّة وهو ﴿ظَهِيرٌ﴾. وكذلك قولُه: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فـ (قريب) بوزن: (فعيل)، بمعنى: مفعول؛ أي: الرَّحمة هي المقروبَةُ، والإحسانُ هو الذي يقَرِّب إليها، فيكون (فعيل) هنا بمعنى مفعول، الذي يستوي فيه المُذَكَّرُ والمؤَنَّث[2].

تشبيهُ الرَّحمةِ برجلٍ مِعطاءٍ في محلٍّ قريبٍ، لا يَقْرَبُه إلَّا أهلُ الإحسان

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

في قوله: ﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وصفَ الرَّحمةَ بالقُرب

(1) رضا، تفسير المنار: 8/413.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4182.

مجازًا؛ لأنَّ الشُّروعَ في الاقتراب مِن صفات العُقلاء، حيث شَبَّه الرَّحمةَ برجلٍ معطاءٍ مرغوبٍ، في محلٍّ قريبٍ منظورٍ، لا يَسْمَحُ لأحدٍ بمجاوَرتِه والقُرْبِ منه، إلّا أهلَ الإحسان فقط، ولا يُجالِس أو يُقارِبُ إلّا هُم، فهذه استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ لقَصْدِ تنزيلِ المعقولِ منزلةَ المحسوسِ؛ استدامةً لاستحضاره في النُّفوس، وتنشيطًا لها على إدراكه. "والقُرْبُ حقيقتُه: دُنوُّ المكانِ وتجاوُرُه، ويُطلَقُ على الرَّجاءِ مَجازًا، يُقالُ: هذا قريبٌ؛ أي: مُمْكِنٌ مَرجوُّ الحصولِ، وليس بقُرْبِ مكانٍ"[1].

إقامة الظَّاهر مقام المُضمَر في: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

عند تحقُّقِ الإحسانِ تَتنزَّلُ الرَّحمةُ

أتى النَّظْمُ بوصف ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فلم يَقُل: (إنَّ رحمتَ اللهِ قريبٌ منكم)، بعدَ قولِه: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾؛ للنَّصِّ على مادَّة الإحسانِ والتَّصريح بها؛ تأسيسًا لاطِّراد الإحسان مع رحمة الله، فمتى أحسنَ أحدٌ رُحِم؛ وتقريرًا لكونِ الجزاءِ مِن جنسِ العملِ، فكَما أنَّ الرَّحمةَ إحسانٌ مِنَ اللهِ، فكذلك لا ينالُها إلّا المحسنون، فاحتجَّ للتَّنصيص والتَّصريح.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في لفظِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

غايةُ الإحسان أن يجمعَ العبدُ بين مقامي الخوفِ والطَّمع

في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ذكرتِ الآية الطَّمعَ وهو رغبةٌ قويّةٌ لدى المخلوق في تحصيل الإحسان، كما أنّ الإصلاح المذكور في الآية إحسانٌ للموجودات، فلمّا اشتملتِ الآيةُ على الإحسانِ مِنَ الخالقِ بذِكْرِ الطَّمعِ، وعلى الإحسانِ مِنَ الخَلْقِ بعدمِ الإفسادِ والحِفاظ على صلاح الأرض، روعيَ في فاصلةِ الختم ملاحظةُ المَطلَع وهو الإحسان.

وأمرٌ آخَرُ دلاليٌّ: وهو أنَّ الجمعَ بين باعثِ الخوفِ والطَّمعِ بما عند اللهِ تعالى؛ هو غايةُ ما يَصِلُه العبدُ العابدُ للهِ تعالى مِنَ الإحسانِ في عبادتِه، فلا طَمَعُ التُّجارِ وحدَه، ولا خَوفُ العبيدِ وحدَه، بل بكليهما يجتمعُ في قلبِ العبدِ الإحسانُ، وعالي درجةِ الإيمانِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(الخَوْف)، (الخَشْيَة):

مُتعلَّقُ الخوفِ استقباليٌّ، ومُتعلَّقُ الخشيةِ حاليٌّ، وكلاهما يظهر أثرُه على الجوارح

الخوفُ: توقُّعُ المكروهِ بسببِ أمارةٍ معلومةٍ أو مظنونةٍ[1]، وغالبًا يكون مِن ضَعْفِ الخائفِ، وإن كان المَخوفُ أمرًا يسيرًا[2]، وهو قلبيٌّ نفسانيٌّ يَحمِلُ على حركةِ البَدنِ بالفِرارِ والانتشارِ، أو الكَفِّ والاحترازِ.

الخشيةُ: خوفٌ مَشوبٌ بتعظيمٍ[3]، يمنعُ مِن ارتكابِ ما يُسبِّبُ المكروهَ، ويبعثُ على الامتثالِ والانقياد، حتَّى وإن كانَ الخاشي قويًّا[4]، فهو سكونٌ وانقباضٌ عن التَّوجُّه إلى الإبايَة أو العِصيان[5]، وأكثرُ ما يكون ذلك عن عِلْمٍ بما يُخشَى منه، ولذلك خَصَّ العلماءَ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28][6].

والفرقُ بينهما: أنَّ مُتعلَّقَ الخوفِ استقباليٌّ، ومُتعلَّقَ الخشيةِ حاليٌّ، وكلاهما يظهر أثرُه على الجوارحِ، وأثرُ الخوفِ: قَلْقَلَةٌ وعدمُ قرارٍ، وأثرُ الخشيةِ: سكينةٌ، وكلاهما مانعٌ عن ملابسةِ سببِ المكروه، والعِلْمُ في الخشية أحضرُ منه في الخَوْف، والتَّعظيمُ في الخشية ألصَقُ منه في الخوف، وقد قُرِنَ الخوفُ هاهنا بالطَّمعِ دون الخشية؛ لأنَّ كلًّا مِنَ الخَوفِ والطَّمَعِ مُتَعلِّقُهُما في المستقبل؛ ولأنَّ اقترانَ الخوفِ مع الطَّمعِ مُؤذِنٌ بتوليد الخشية؛ ولأنَّ الأمرَ بإظهارِ الضَّراعةِ سابقٌ عليه، والتَّضَرُّعُ مَلْزومُه الخشيةُ.

(الطَّمَعُ)، (الرَّجاءُ):

الـرَّجـاءُ بدايةُ الطَّمَعِ، والطَّمَعُ غايتُه

الطَّمعُ: تطلُّعُ القلبِ الشَّديدِ لنيلِ المرغوبِ القريبِ، ويكون بسببٍ وعن غيرِ سببٍ، وعَبَّر عن وقوعِه بغير سببٍ الرّاغبُ الأصفهانيُّ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خوف).

(2) النّزهيُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 22.

(3) الرّاغب، المفردات: (خشي).

(4) النّزهيُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 22.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/480.

(6) الرّاغب، المفردات: (خشي).

بقوله: "نزوعُ النَّفس إلى الشَّيء شهوةً له"؛ أي: بحسب الهوى، لا بسببٍ مُعتَبَرٍ، ولذا قد يأتي مذمومًا؛ كقوله تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [المعارج: 38]، كما يأتي في سياقِ المدح، ويُلْمَحُ فيه معنى هوى النَّفْسِ، كشاهدِ الآيةِ هاهنا: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، فعبَّر بالطَّمع دونَ الرَّجاء؛ لتذهبَ النَّفْسُ مذاهبَها في كلِّ ما تهواه مِن ربِّها، ولاقترانه بالدُّعاء؛ ليَدلَّ على أنَّ الدُّعاءَ بابُه بابُ طمعٍ لا رجاءٍ، والطَّمعُ أوسعُ مِنَ الرَّجاء، كذلك الدُّعاءُ أوسعُ أبوابِ العبوديَّةِ، وليَدلَّ على أنَّ الدُّعاءَ لا يُعْتَمَدُ فيه على الأسبابِ، ولا يُعلَّقُ عليها، ولذا اقترنَ بالطَّمع الذي يكونُ مِن غير سببٍ ومِن غير استحقاقٍ، وليَدلَّ على أنَّ الطَّمعَ في الدُّعاءِ هو السَّببُ الذي يحبُّه اللّهُ، لأجلِ تحصيلِ ما ليس للعبد فيه استحقاقٌ ولا سببٌ.

والرَّجاءُ: إرادةُ المرغوبِ مُقتَرنًا بخوفِ فواته، ولذا كان الخوفُ والرَّجاءُ متلازمَين، وأُطلِق الرَّجاءُ على الخوفِ، قال الفرّاءُ: "إنَّما يوضَع الرَّجاءُ مَوضِعَ الخوفِ؛ لأنَّ مع الرَّجاء طَرَفًا مِنَ الخوف"[1]، ويكونُ الرَّجاءُ عن سببٍ يدعو إليه[2]، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، فذكر السَّببَ، وهو قولُه بعدَه: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح: 14]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 218]، فذكَرَ السَّببَ في صَدْرِ الآية، والرَّجاءُ وإنِ اقترنَ بخوفِ فواتِ المطلوبِ، فهو مُقْتَرِنٌ بغَلَبةِ ظَنٍّ في حُصوله[3]؛ لأنَّ معنى الأملِ والخَوفِ يتواردان عليه في آنٍ، كأنَّما يُغذّيانِ مادَّته[4].

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/286.
(2) التُّرهيُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 174.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/561.
(4) الخليل، العين: 6/176، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: 11/125، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 244، وابن الجوزيِّ، نزهة الأعين، ص: 308.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرِّياح والأمطار مِن مظاهر رحمة الله وإحسانه، ودليـلٌ على قُدرته على الإحياء بعد الإماتة

لمّا ذكرَ اللهُ ﷻ مبدأ الخَلْقِ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وأعْقبَه بتكليفِ الخَلْقِ بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾، ناسبَ أن يَذكرَ هاهنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ﴾ مِثالًا على مُنتهَى الخَلْقِ، وقُدْرَته على بَعْثِهم وإعادتِهم. وكذلك لمّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ رحمتَه العامَّةَ قريبٌ مِنَ المُحسنين في عبادتهم وفي سائر أعمالِهم، ذكَّرنا بما نغفلُ عنه كثيرًا مِنَ التَّفكُّرِ والتَّأمُّلِ في أظهر أنواع هذه الرَّحمة، وهو إرسالُ الرِّياح وما فيها مِن منافع الخَلْقِ، وإنزالِ المطرِ الذي هو مصدرُ الرِّزقِ، وسببُ حياةِ كلِّ حيٍّ في هذه الأرضِ، وما فيه مِنَ الدَّلالة على قُدرته تعالى على البعث، وما يَستَحقُّه عليه مِنَ الحمدِ والشُّكرِ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرۡسِلُ﴾: مِنَ الجذر (رسل)، ويَدلُّ على الانبعاثِ والامتداد، فالرَّسَلُ: السَّيْرُ السَّهلُ السَّريع، وأرْسَلَ الشَّيءَ: أطلقه وأهمَله، والمرسَلات: الرِّياح، والمعنى المحوريّ: تسيُّبٌ مِنَ المَقَرِّ أو الحَيِّز، مع امتدادٍ وتميُّز(2)، والمراد بإرسال الرِّياح: هُبوبُها مِن مَصدَرها وإيصالُها لمكانِها.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/413.
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (رسل).

2) ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: مِنَ الجذر (روح)، ويَدلُّ على سعة وفُسْحة واطِّراد، والمعنى المحوري: هو انبساطٍ أو اتِّساعٍ وانتشار مع شمول ولُطف، والرّيح: نسيمُ الهواء مِن كلِّ شيءٍ، طيِّبًا كان أو غيرَ ذلك، يَنتشِر منه مع لُطفِ جِرمِه، وأصلُ الياء في الرّيح الواو، وإنّما قُلبت ياءً لكسرة ما قبلَها، وجمعُها: رياح وأرواح، وتصغيرها: رُوَيْحَة، وراحَ يومُنا يَراحُ ريحًا: إذا اشتدَّت ريحُه، وهو يومٌ راحٌ، وراحَ يومُنا يَراحُ رَوحًا: إذا طابت ريحُه، وريِّحَ القومُ وأراحوا: دخلوا في الرّيح، وريِّحَ الغديرُ: أصابتْهُ الرّيح، والرِّيحَةُ: طائِفَة مِنَ الرّيح[1].

3) ﴿أَقَلَّتۡ﴾: مِنَ الجذر (قلل)، وقلَّ الشَّيءَ وأقلَّه واستقلَّه: حمَلَهُ ورفعَهُ، وأقلَّتِ الرّياحُ سحابًا: رفعتَها[2]، واشتِقاقُه مِنَ القِلَّة؛ لأنَّ الرّافِعَ المُطيقَ يَرى ما يَرفعُهُ قليلًا، والمرادُ هنا: حمَلَتِ الرّيحُ السَّحابَ، فكان قليلًا باعتبارِ قوَّتها[3].

4) ﴿سَحَابٗا﴾: مِنَ الجذر (سحب)، ويدلُّ على جَرِّ شيءٍ مبسوطٍ ومَدِّه، والمعنى المحوري: جَرٌّ وتحريكٌ لما هو مستقرٌّ أو مماسٌّ لمَقرِّه، وسحبتُ الشَّيءَ أسحبُه سحبًا: إذا جَررتُه، وكلُّ مُنجرٍّ: مُنسَحِبٌ، ومنه اشتقاقُ السَّحابِ؛ لانسحابه في الهواء انسحابًا، والسَّحابَةُ: الغيمُ، سواءٌ كان فيه ماءٌ أو لم يكنْ، والجمْعُ: سحابٌ وسُحُبٌ وسحائبُ[4]، وسُمّي السَّحاب سحابًا؛ إمّا لجرِّه الماءَ، أو لجرِّ الرّياح له، أو لانجراره في مَمَرِّه[5].

5) ﴿ثِقَالٗا﴾: مِنَ الجذر (ثقل)، ويدلُّ على انجذاب الشَّيء المحمول إلى الأرض أو إلى أسفل، وهو نقيض الخِفَّة، والثِّقَلُ مصدر الثَّقيل، وهو رُجحانُ الثَّقيل، تقول: ثَقُل الشَّيءُ ثِقَلًا وثقالَةً، فهو ثَقيل، والجمع ثِقالٌ وأثقال، وأصلُه في الأجسامِ، ثمَّ يُقال في المعاني، والمرادُ: وصْفُ السَّحابِ بالثِّقَل؛ لامتلائِها ماءً[6].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (روح)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (روح - ريح).

(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وأبو عُبيد الهرويّ، الغريبين، وابن منظور، لسان العرب: (قلل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قل، قلقل).

(3) الرّاغب، المفردات: (قل)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/575.

(4) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سحب).

(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/176.

(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثقل).

6) ﴿سُقۡنَٰهُ﴾: مِنَ الجذر (سوق)، ويدلُّ على الدَّفْعِ إلى الأمام أو إلى أعلى بقوَّة، والمرادُ هنا: دفعْناه وحرَّكْناه تحريكَ مَن يَسوقُ الشَّيءَ لِمَحلِّه ووِجْهته(1).

المعنى الإجْماليُّ:

إحياء الموتى من أعظم مظاهر قدرة الله تعالى

تخاطبُ الآيةُ النّاسَ ببيانِ نِعَم الله عليهم، فهو مَن يرسلُ الرّياحَ التي تحملُ السُّحبَ الثِّقالَ؛ ليسقيَ الأرضَ المَيْتةَ، فتحيا بالزُّروعِ والنَّباتات؛ ليأكلوا وترعى أنعامُهم، وبمثلِ هذا التَّدبيرِ في إنزالِ المطرِ وإحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها يُحييكُم بعدَ موتِكم، فيخرجُكم مِن قبورِكم أحياءً؛ ليحاسبَكُم على كَسْبِكم في هذه الدّار، ويجزيَكُم به الخيرَ بالخير، والشَّرَّ بمثله، جزاءً عادلًا لا ظُلْمَ فيه، وهذا الفعلُ الدّالُّ على القُدْرةِ والرَّحمة، ولُطْفِ التَّدبيرِ يُريكُموه، فترونَه بأبصارِكم، لعلَّكم به تذكَّرون، أنَّ القادرَ على إحياءِ مَواتِ الأرضِ قادرٌ على إحياءِ مَواتِ الأجسام، فتؤمنوا بلقاءِ ربِّكم، وتوقنوا به، فتعملوا بمُقتضَى ما يُسْعِدُكم ولا يُشْقيكم فيه(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ وجهِ عطفِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

الانـتـقـالُ مِـن مظهرِ غَشَيانِ اللَّيلِ النَّهارَ، إلى غَشَيانِ الماءِ التُّرابَ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾ معطوفٌ على ما بيَّن به تعالى تدبيرَه لأمرِ العالم، في إثْرِ إثباتِه لخلقِ السَّماواتِ والأرض، واستوائِه على العَرشِ، في قوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ﴾، وما بينهما مِن قبيلِ الاعتراضِ المقصودِ بالذّات، مِنَ التَّذكيرِ بهذه الآيات، وهو إخلاصُ العبادةِ له وحدَه، بالفعلِ والتَّرك، المُعَبَّر عنه بالنَّهي عنِ الإفسادِ في الأرض، وهو شاملٌ لجميعِ ما حرَّمه الإسلام(3).

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سوق).
(2) الجزائريُّ، أيسر التَّفاسير: 2/184.
(3) رضا، تفسير المنار: 413 - 414/8.

الابتداءُ بالضَّمير دون الظَّاهرِ، استغناءٌ بالتَّصريح السَّابق

نُكْتةُ استعمالِ الضَّمير في قوله: ﴿وَهُوَ﴾:

الابتداءُ بالضَّمير في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ دونَ الاسم الظّاهر، استغناءٌ بالتَّصريحِ السّابقِ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، فحَسُنَ استعمالُ الضَّمير ليَخْتَزِلَ فيه هذه العوائدَ بمُتعلَّقاتها جميعًا، وهذا مِنَ التَّعظيم؛ أي: هو اللّه الذي علمتُم صفاته المذكورة سابقًا، وليُعلَمَ أنَّ الفعلَ بعدَ هذا الضَّمير فعلٌ عظيمٌ لا يَقْدِرُ عليه إلّا مَنِ استحقَّ مجموعَ تلك الصِّفات.

إفادةُ الاختصاصِ، والتَّعظيمِ، والرِّعايةِ المُطلقةِ

فائدةُ مجيءِ المُسْنَد اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِى﴾:

جاءَ المُسنَدُ اسمًا موصولًا في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾؛ دلالةً على كون ذلك معهودًا عند السّامع، مفروغًا من تحقُّقِ النِّسبةِ فيه والعِلْم به[1]، فلم يَقُل: (وهو يُرسل الرّياح)؛ إعظامًا للذّاتِ التي تُسَخِّرُ الرِّياحَ وتُرسلُها، فهي ذاتٌ مُتعيِّنةٌ مخصوصَةٌ بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ وطَلاقةِ القُدْرةِ، فأتى بالموصول مبالغةً في إظهار الهيمنةِ والعِزَّةِ الكاملةِ، وأفادَ الإتيانُ بالاسم الموصول الاختصاصَ؛ أي: هو الذي يُرسلُ الرّياحَ بهذه الكيفيَّةِ دونَ سواه.

التَّعبيرُ بالإرسال يُفيدُ انقيادَ الرِّياحِ التَّامِّ، كانقيادِ العاقلِ المُطيعِ

براعةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿يُرْسِلُ﴾:

أطلقَ الإرسالَ على الانتقالِ على وجهِ الاستعارةِ، فإرسالُ الرِّياحِ: هبوبُها مِنَ المكانِ الذي تَهُبُّ فيه إلى مَحلِّ وصولها، فشُبِّهَتْ بالعاقلِ المُرسَلِ إلى جهةٍ ما[2]، ومَفادُ التَّشبيه: أنَّ الرّيحَ مُسَخَّرةٌ في صيرورتها مِن جهةٍ إلى جهةٍ، والتَّعبيرُ بالإرسال يُفيدُ انقيادَها التّامَّ، ومطاوعتَها مُطاوعةَ العبدِ الذي يُرسِلُه سَيِّدُه حيثُ يشاءُ، من غير عَناءٍ لسيِّده، ومِن غير تَردُّدٍ منه أن يُرسَلَ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/76.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/178.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿بُشۡرَۢا﴾:

قرأ عاصم: ﴿بُشۡرَۢا﴾، وقرأ ابن عامر: (نُشْرًا)، وحمزةُ والكسائيُّ وخَلفٌ: (نَشْرًا)، والباقون: (نُشُرًا).

فمَن قرأ: (نُشُرًا)؛ فهي جمع نُشور، ونُشورٌ بمعنى: ناشر، كَطَهور بمعنى طاهِر، ومعناها: أنَّ الرّياحَ ناشِرةٌ للأرض؛ أي: مُحيِيَةٌ لها؛ إذ تأتي بالمطر الذي يكون به الإنباتُ، أو نُشورٌ بمعنى: منشور؛ أي: أرسلَ اللّهُ الرّياحَ لتأتيَ بينَ يدي رحمتِه، فهي ريْحٌ مَنْشورةٌ؛ أي: أنشَرها اللّهُ تعالى، بمعنى: بعثَها وأرسلَها.

ومَن قرأ: (نَشْرًا) فهي خِلافُ الطَّيِّ، كأنَّ الرّيحَ في سُكونها كالمَطْويَّة، فإذا أُرسِلَت تفرَّقَتْ وانتشرَت، وانفتحَت هنا وهناك.

ومَن قرأ: ﴿بُشۡرَۢا﴾ فعلى معنى البِشارةِ، فالرّيحُ تُبشِّرُ بالمطر[1].

اللّهُ أرسلَ الرّياحَ بينَ يدي الغيثِ، مُتفرِّقةً بعدَ طَيٍّ، ومُحيِيَةً للأرضِ، فهي بشارةٌ مِنَ اللّه تعالى

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

قولُه: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾؛ أي: بين يدي المطرِ، وهو مِن أحسن أنواع المَجاز، ذلك أنَّ العربَ تستعملُ اليدين في معنى التَّقدِمَةِ على سبيل المَجاز، فكلُّ ما كان يتقدَّمُ شيئًا أُطلِق عليه لفظُ اليدين، على سبيل المَجاز لأجل هذه المشابهة، فلمّا كانتِ الرّياحُ تتقدَّمُ المطرَ عَبَّر عنه بهذا اللَّفظ[2].

تشبيهُ الغيثِ بالغائب الذي ينتظرُه أهلُه فيقْدُمُ أمامَه بشيرٌ يبشِّر به

والاستعارةُ تخييليَّةٌ: حيث شبَّه المطرَ بالإنسانِ الغائبِ الذي ينتظرُه أهلُه فيقْدُمُ، ومِن أمامِه بشيرٌ يبشِّرُ بقدومه، واستُعيرتِ اليدانِ للرَّحمة تمثيلًا بالإنسان، فإنَّه وإن كان الشَّيءُ أمامَه أو في حِجْره فهو بين يديه؛ لأنَّ يدي الإنسان يتقدَّمانِه عند المناولة، وعند المشي استعانةً.

(1) الدِّمياطيُّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 284، وابن الجزريِّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/202.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/289.

نُكْتَةُ إسنادِ اليدين إلى الرَّحمة:

وفي إسناد اليدين إلى الرَّحمة نُكْتَةٌ لطيفةٌ، حيث عبَّر فيه باليدين، وهما يُطلَقان على اليد اليمنى واليد اليُسرى؛ لدلالته - مع ما فيه مِنَ الفخامة - على أنَّ المطرَ تارةً يكونُ رحمةً، وتارةً يكونُ عذابًا، كما كانَ على قوم نوح عليه السلام: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴾ [القمر: 11]، أو تارةً يكونُ نافعًا، وتارةً يكونُ ضارًّا، وتارةً يكونُ مُقوِّمًا للزُّروع والأشجار، وتارةً يكونُ مُهْلِكًا لها، وإن كانتِ الرَّحمةُ فيه أغلب، وهي ذاتُ اليمين(1).

الماءُ النَّازلُ مِنَ السَّماءِ ليس على طريقةٍ واحدةٍ في الإفادةِ

دلالةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَتِهِۦ﴾:

أفادَ التَّعريفُ بالإضافةِ العهدَ؛ إنْ أُريد بالرَّحمة المطرُ، ويفيدُ الجنسَ إنْ أُريدَ بالرَّحمة العُمومُ، باعتبار أنَّ المطرَ واحدٌ، مِن جُملة منافعَ تأتي بها الرّياحُ.

سرُّ إضافةِ الرَّحمةِ إلى ضمير الذَّات العليَّة:

فقال: ﴿رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ فأُضيفتِ الرَّحمةُ إلى الضَّميرِ العائدِ على اللّه تعالى؛ لإفادةِ اختصاصِ تلك الرَّحمة باللّه وحدَه، وهي في حقِّه تعالى تنفي اشتراكَ غيرِه معَه فيها بالكلّيَّة؛ أي: رحمةً منه، وله وحدَه لا لغيره، وفيه إغراءٌ على الْتِماسِ الرَّحمةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، والتَّوسُّلِ إلى اللّه بها.

الإغراءُ بالْتِماسِ الرَّحمةِ العامَّةِ والخاصَّةِ مِنَ الله وحدَه

سرُّ تسميةِ المطرِ رحمةً:

سُمّيَ المطرُ رحمةً بحسب أثره وما يَؤول إليه؛ أي: هو سببُ الرَّحمة، وسُمّي رحمةً لما يترتَّب عليه - في العادة - مِنَ المنافع، وتسميةُ المطر بالرَّحمة مجازٌ؛ لكونه استعمالَ اللَّفظ في غير ما وُضِعَ له، إذ لفظُ الرَّحمة لم يوضَع للمطر بخصوصه، وإن كان إطلاقُها عليه باعتبارِ عمومِه وكونِه فردًا مِن أفراد ذلك العامِّ، فهو

غلبَ على المطر الرَّحمةُ للعبادِ، فسُمِّيَ باعتبار أثره

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/421.

بذلك حقيقةٌ؛ لأنَّه استعمالُ اللَّفظِ فيما وُضِعَ له، والمقامُ ظاهرٌ في إرادة هذا المعنى(1).

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ﴾:

غايةُ إرسالِ الرِّياحِ إقلالُها للسَّحاب، فَسَوقُها، فإنزالُ الماءِ

نوع ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ ابتدائيَّةٌ، وهي غايةٌ للإرسال، فإنزالُ الماءِ هو غايةُ تقدُّمِ الرّياحِ وسَبْقِها المطرَ، وكانتِ الغايةُ مُجزَّأةً أجزاءً، فأوَّلُها: مضمونُ قولِه: ﴿أَقَلَّتۡ سَحَابٗا﴾؛ أي: حَمْلُ الرِّياحِ للسَّحاب، ثمَّ مضمونُ قولِه: ﴿ثِقَالٗا﴾، ثمَّ مضمونُ: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾؛ أي: إلى البلد الذي أرادَ اللّهُ غيثَه، إلى أن ينزلَ منه الماءُ. وكلُّ ذلك غايةٌ لتقدُّمِ الرّياحِ؛ لأنَّ المُفرَّعَ عنِ الغايةِ هو غايةٌ(2).

بلاغةُ استعمالِ جمعِ التَّكسير في قوله: ﴿ثِقَالٗا﴾:

الثِّقَلُ للسَّحاب وَصْفٌ مـلازمٌ لها، كالسَّجيَّة، فهي صِفةُ مدح

قولُه تعالى: ﴿ثِقَالٗا﴾ على وزن: (فِعال)، وهو صفةٌ للسَّحاب، و(فِعال) وزنٌ يُفيدُ الكثرةَ، وهو من جُموعِ التَّكسيرِ للصِّفات، لا (فِعال) التي هي من أوزانِ المصادر، كنِكاح وقِتال، فهو جمعُ (ثَقيل)، على وزن: (فَعيل) الدّالِّ على الطَّبائع والسَّجايا والغرائز(3)، و﴿ثِقَالٗا﴾ يدلُّ على جانب الثِّقَل المادّيِّ في الشَّيء، ولذا وُصِفَتْ به السَّحاب؛ لأنَّ ثِقلَها بالماءِ حقيقيٌّ، وهو ثِقَلُ الأجرام، فالثِّقَلُ أصيلٌ فيها، ولم توصَفْ بجمعِ: (فُعَلاء)؛ لأنَّه مُستعمَلٌ في جانب الثِّقَل المعنويِّ؛ كثِقَلِ الطِّباع والنُّفوس؛ فما أجْملَ وصفَ الرِّجالِ بقولنا: رِجالٌ ثِقالٌ! وما أقبحَ وصفَهم بقولنا: رجالٌ ثُقلاء!.

براعةُ اختيارِ نوعِ الجمعِ في ﴿ثِقَالٗا﴾:

التَّنبيهُ على الاسميَّةِ والسَّجيَّةِ للسَّحاب، مع المناسبةِ السِّياقيَّةِ والصَّوتيَّة

لم يوصَفِ السَّحابُ بالجَمْعِ السّالم (ثقيلاتٌ)؛ لثلاثةِ أسباب:

الأوَّل: أنَّ الجمعَ السّالمَ يدلُّ على الحَدَث، فهو أقربُ إلى الفعل،

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/384.

(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/385، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.

(3) فاضل السّامرائيُّ، معاني الأبنية العربيَّة، ص: 144.

وأمّا جمعُ التَّكسيرِ في ﴿ثِقَالٗا﴾ فهو إلى الاسميَّة أقربُ، ويدلُّ على استحضار معناها في الوصف، وهنا أُريدَ في الآية بجمعِ التَّكسيرِ التَّنبيهُ على الاسميَّة، لا إرادةِ الحَدَث، ولو قيل: (ثقيلات) لفُهم الحَدَثُ، وإرادةُ الاسميَّة أنسبُ بالسَّحاب؛ لأنَّ السَّحابَ أجسامٌ مائيَّةٌ، مُكوِّنُها الرَّئيسيُّ الماءُ، وهي أيضًا تحملُ الماءَ، فكأنَّه أرادَ بهذا الوصفِ على تلك الصّيغةِ أن يقولَ: إنَّ الثِّقَل للسَّحابِ وصْفٌ مُلازمٌ لها، كالسَّجيَّة والطَّبع، فقولُه: ﴿ثِقَالٗا﴾ جارٍ في السَّحاب مَجرَى الطَّبائع في الأجسام، ولو قال: (ثقيلات) لفُهم أنَّ الوصفَ بالثِّقَل يتواردُ عليها قُبيلَ نزولِ المطرِ فقط، أو في هذا المشهدِ المذكورِ فقط، وقد يزولُ عنها، يَعود إليها أو لا يعود، ولذا قَرَنَ اللهُ ثِقَلَ السَّحابِ بنشأتها وتكوينها، فقال: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ [الرّعد: 12].

السَّببُ الثّاني: لو قال: (سحابًا ثقيلات)؛ لكان ذلك نصًّا على تأنيثِ لفظِ السَّحابِ، فلا يستقيمُ أن يقولَ بعدَها: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾ على التَّذكير، والسَّحابُ مُستعمَلٌ في التَّذكير والتَّأنيث - كما سيأتي - فجاء بوصْفٍ أنسبَ في تلاؤم النَّظم، فإنَّ ﴿ثِقَالٗا﴾ لا يمتنع معه الدَّلالة على التَّذكير، كدلالة: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾ - بعده - عليه؛ لأنَّ ﴿ثِقَالٗا﴾ جمعٌ لِثَقيل؛ كَضِعافًا لِضَعيف، وشِدادًا لِشَديد، ويَصِحُّ كذلك أن يكونَ جمعًا لـ (ثقيلة) المؤنّث، فأتى بجمعٍ يتآلفُ مع ألفاظِ السّياقِ وضمائرِه، فثَبَتَ بذلك أنَّ الألفاظَ في هذا الموضِع مطابقةٌ لمعانيها.

السَّببُ الثّالث: سلاسةُ الإيقاعِ الصَّوتيِّ في التَّركيب مع ﴿ثِقَالٗا﴾، بخلاف ما لو قيل: (أقلَّتْ سحابًا ثقيلاتٍ سُقناه لبلدٍ)، لكان ثمَّةَ نُفْرَةٌ في الإيقاعِ، وتَعثُّرٌ في التَّركيبِ العامِّ.

استحضارُ حالةِ العَزمِ والقُوَّةِ التي تُساق بها السَّحابُ

غرضُ التَّذكيرِ في قوله تعالى: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾:

آثرَ النَّظمُ التَّذكيرَ في قوله: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾، فلم يقُل: (سقناها) بالتَّأنيث؛ لأنَّ "السَّحابَ اسمُ جنسٍ جَمْعيٍّ، يُفرَّقُ بينَه وبينَ واحِدِه

بالتّاء؛ كَتَمْر وتَمْرَة، وهو يُذكّر ويُؤنّث، ويُفْرَدُ وصْفُه ويُجْمَعُ، وأهلُ اللُّغة تُسَمّيه جمعًا؛ فلذا روعيَ فيه الوجهان في وصْفه وضميره"[1]، والعِلّةُ في كَوْن فعلِ السَّوق جاء على صيغة المُذكّر؛ لاستحضار حالة العَزْم والقوَّةِ التي تُساق بها السَّحاب؛ لأنَّها تُساقُ حالَ امتلائها ماءً، ولذا فِعْلُ السَّوقِ جاء بعد وصْفها: ﴿ثِقَالًا﴾، فهيَ ثقيلةٌ تحتاج إلى قوَّةٍ وشِدَّةٍ، فأُضيفَ الفعلُ لضمير المُذكّر؛ ليناسِبَ اللّفظُ المعنى، ويُؤيدُ ذلك إسنادُه لنونِ العَظَمةِ؛ أي: بعظمتنا وقُدرتنا البالغة ﴿سُقْنَٰهُ﴾.

نُكْتَةُ الالتفاتِ في قوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ﴾:

بيانُ الامتنانِ بعظيم المِنَن

جاءَ الكلامُ على الالتفاتِ مِنَ الغَيْبةِ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾، إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ﴾؛ تأكيدًا للامتنان، وإظهارًا له، فإنَّ سَوْقَه للمكان المُقدَّر نِعْمَةٌ عظيمةٌ.

بلاغة الاستعارةِ التَّمثيليّة في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ﴾:

تشبيهُ سَوْقِ الرِّياح بِسَوقِ الأنعامِ

حقيقةُ السَّوْق أنّه تسييرُ ما يمشي، ومُسَيِّرُه وراءَه يُزْجيه ويَحثُّه، وهو هنا مُسْتَعار لتسيير السَّحابِ بأسبابه التي جعلها اللّهُ، وقد يُجعَل تمثيلًا، إذا روعيَ قولُه: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾؛ أي: سُقناهُ بتلك الرّيح إلى بلد، فيكونُ تمثيلًا لحالةِ دَفْعِ الرّيحِ السَّحابَ، بحالةِ سَوْقِ السّائقِ الدّابَّةَ[2].

فائدةُ اللّامِ في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾:

الاحْترازُ أن يكونَ الذي وصَلَ له الماءُ غيرَ الذي عُلِّلَ بِهِ السَّوْقُ

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾ العِلَّة؛ أي: لأجل بَلَد؛ لمنفعتها أو إحيائها أو لِسَقْيها، وتعدّيها باللّام لمعنى الاختصاص بقِسْمَة اللّهِ العادِلَة؛ أي: سُقْناه إلى هذا البلدِ ليكونَ مُختَصًّا بها، حتّى يُحْييَ مَواتَها، فإذا ماتَت أرضٌ أُخْرى اختصصناها بما يُحْييها مِن غير تثريب[3]، فاللّامُ دالَّةٌ على وصولِ العنايةِ الرَّبّانيَّةِ لتلك

(1) الشِّهاب، حاشية الشِّهاب: 4/175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2873.

البلدِ[1]، وتُسَمَّى هذه اللّامُ لامَ التَّبليغ، وهي تُفيدُ أكثرَ مِن مُجَرَّد العِلَّة، وتعني: وصولَ الشَّيءِ وتسليمَهُ حتَّى يبلغَ صاحبَه، كما تقولُ: سُقتُ لكَ مالًا، وسُقتُ لأجلكَ مالًا، فالأوَّل: معناه أوصلتُ لكَ ذلك وأبلغتُكَهُ، والثّاني: لا يَلزَمُ منه وصولُهُ إليه، وفائدةُ تلك اللّام هنا: الاحترازُ مِن أن يكونَ الذي وصلَ له الماءُ غيرَ الذي عُلِّلَ به السَّوْقُ، كما يُقال: لأجْلِ زيدٍ سُقْتُ لك مالَك، فالعِلَّةُ منفكَّةٌ عنِ الغاية، ومعنى اللّام يمنع هذا الانفكاك[2].

بلاغةُ المجازِ في الاستعمالِ، والإسنادُ في وَصْفِ البلدِ بميّت:

تشبيهُ البلد بالـمَـيِّـت استحضارٌ لليأس، توطئةً لذِكرِ الإحياء

وَصَفَ البلدَ بالموت تجوُّزًا في الاستعمالِ على سبيلِ الاستعارةِ؛ لجَدْبه وجُفوفِ نباته وثَمَره، كأنَّما شُبِّه بجسدٍ مَيِّتٍ لا روحَ فيه، بجامع الخُلوِّ وعدم الانتفاع في كُلٍّ[3]، فهي استعارةٌ مَكْنيَّةٌ تخييليَّةٌ، وإسنادُ الموتِ إلى البلد إسنادٌ إلى غيرِ الفاعلِ، فهو مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الـمَيِّتَ هو النَّباتُ والزَّرعُ[4]، والقصدُ مِن ذلك كلِّه، استحضارُ اليأْسِ في لفظِ الموتِ، ثمَّ الإحياءُ بالأسبابِ التي اقتضتْها مَشيئةُ اللّهِ تعالى.

دلالةُ تتابعِ الفاءِ في قولِه: ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾، و﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾:

فوريَّةُ التَّفاعلِ والتَّلاقُحِ والمُطَاوَعةِ في التَّأثُّر بينَ المطر والنَّباتِ

الفاء للتَّعقيب، وهو في كلِّ مَوضعٍ بحسبه في العادة الغالبة له، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، وغَرَضُه: الدَّلالةُ على قوَّةِ استجابةِ المُسَبِّبات لأسبابها؛ أي: ما يَنْتَظرُ خروجَ النَّباتِ إلّا نزولَ المطرِ، والتَّعقيبُ الذي أفادته الفاءُ بينَ النُّزول والإخراج ليس تعقيبَ الفوريَّةِ الزَّمنيَّة، بل التَّعقيبُ في فوريَّة التَّفاعلِ والتَّلاقُحِ والمطاوعَةِ في التَّأثُّر بينَهما.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/78.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/78.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.

تنوُّعُ مَرجعِ الضَّمير في: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ يعود على البَلَد، فالباءُ للظَّرفيَّة تجوُّزًا؛ لأنَّ الإنزالَ ليس في البلد، بلِ المُنَزَّلُ، فيكونُ تخريجُها على الإلصاقِ أولى وأحسنَ[1]، أو على السَّحاب، فتكونُ للسَّببيِّة[2]، أو الباء للآلَة[3]، والضَّمير في ﴿بِهِ﴾ يعود على البلد، أو على الرّياح، أو السَّحاب، أو فِعْلِ السَّوْقِ المفهوم مِن قوله: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا بهذا السَّوْق، وجميعُ المعاني محتمَلَةٌ، وهو دليلُ اتِّساعِ رحمةِ اللهِ بعبادِه.

كَثْرةُ المعاني المُحْتمَلةِ دليلُ اتِّساعِ رحمةِ اللهِ بكثرةِ أسبابِها

تَنوُّعُ مَرجِعِ الضَّميرِ في ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾:

معنى قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بسببه، يعني: ماءَ المطر، فالباء للسَّببيَّة، وهذه هي السَّببيَّةُ القريبة في السّياق، وهو الأحسنُ في عَوْدِ الضَّمير؛ لقُرْبه لفظًا ومعنًى، وأمّا الْتِماسُ السَّببيَّةِ البعيدة في السَّحاب أو الرّياح أو فِعْلِ السَّوْق فبعيدٌ لفظًا ومعنًى؛ إذ آخِرُ ما تراهُ الأعينُ قبلَ خروجِ النَّباتِ مُلابسةُ الماءِ له، والشَّيءُ يُرَدُّ إلى مُلابِسِه، والرّيحُ والسَّحابُ ليسا في محلِّ الملابسةِ بموضِعِ الإنبات، ويُحتمَلُ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بالبلد، باعتبار أنَّه محلُّ إخراجِ النَّباتِ، فالباء للظَّرفيَّة، والضّابطُ في ذلك: "أنَّ مطابقةَ النَّظائرِ، وانفكاكَ الضَّمائرِ، لا بأسَ به، إذا قامَ الدَّليلُ عليه، وحُسْنُ الملاءَمَة"[4].

الأحسنُ في عَوْدِ الضَّميرِ أن يكونَ إلى الأقربِ لفظًا ومعنًى

معنى حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾:

تعدَّدَت أوجهُ معنى حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، فقيل: إنَّها لبيانِ الجنسِ، وتفيدُ الاستغراقَ بالنِّسبة إلى مجموعِ الأرضِ كلِّها، لا باعتبارِ أنَّ قطعةً منها تُخرجُ كلَّ الثَّمرات،

إفادةُ الاستغراق، وهذا دليلُ شمولِ رحمةِ اللهِ بعبادِه

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/385.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/292.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/416.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/385.

وبهذا الاعتبار يكونُ الاستغراقُ حقيقيًّا. وقيل: إنَّها للابتداء، و﴿كُلِّ﴾ لعموم الأفرادِ النَّوعيَّةِ، لا الأفرادِ الشَّخصيَّة؛ أي: مِن كلِّ أنواعها، على أنَّ الاستغراقَ غيرُ مُرادٍ ولا واقعٍ؛ ليكونَ أبلغَ في إظهارِ القُدرةِ، ويُرادُ بها مُطلقُ التَّكثير[1]، ويجوزُ إرادةُ الاستغراقِ العُرفيِّ لا الحقيقيِّ؛ أي: مِن كلِّ الثَّمَرات المعروفة في ذلك البلد[2].

موقِعُ جملةِ الاعتراضِ: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ممَّا قبلَها:

اللهُ يَذْكُرُ لعبادِه عظيمَ رحمتِه عندَ الرَّخاء؛ ليذكروه عند الشَّدائد

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ اعتراضٌ بينَ التَّذكرةِ بإرسال الرِّياحِ، والتَّذييلُ برجاء التَّذكُّر: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، وغَرَضُ جملةِ الاعتراضِ: الاستدلالُ على ثبوت البعث الذي ينفيه المشركون، فأتى بالتَّشبيه والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، مقصودًا بهما "الإخراجُ المُتضمِّنُ له فِعلُ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ باعتبار ما قبلَه، مِن كون البلد ميِّتًا، ثمَّ إحيائِه؛ أي: إحياءِ ما فيه مِن أثر الزَّرعِ والثَّمرِ، فوَجْهُ الشَّبهِ: هو إحياءٌ بعدَ موتٍ"[3].

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

عَقْلُ مَن يُنكِر البعثَ ميِّتٌ، يحتاجُ إلى إنزالِ القرآنِ؛ ليَحْيَا قلبُ صاحبِه

التَّشبيهُ في مُطلَق الإخراج مِنَ العدم[4] بجامعِ اتِّحاد نوعَيْهما، فكلٌّ مِنَ المُشَبَّه والمُشَبَّه به: إخراجُ الموتى وإخراجُ النَّبات، حاصلان مِن عدم، فهذا وجهُ الشَّبَه، أو وجْهُ الشَّبه: إحياءٌ بعد موتٍ، وفي تقرير هذا القياس نَعْيٌ على عقل مَن يُنكِرُ البعثَ؛ لأنَّه إذا كان لا يَتردَّد في أنَّ النَّباتَ قد خَرجَ بالمطر بعدَ جفافِه وجَدْبِه، ويرى ذلك ويُسَلِّم له، فكيف يرتابُ فيما هو على غِراره مِن إخراجِ الموتى، بل أيسرُ منه في القُدْرة؛ إذِ النَّباتُ ليس له وجودٌ قبلَ إخراجه، وإخراجُ الموتى إعادةٌ للوجودِ، وليس إنشاءً له، فأنَّى يُبصِرون، والتَّشبيهُ مُرسَلٌ، ذُكِرَت فيه أداةُ التَّشبيه.

---

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/385.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 5/292.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنية:

غايةُ المشاهدات المحسوسة التَّذَكُّرُ والاعتبارُ

قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ تذييلٌ يُقرِّرُ نعمةَ المطرِ، والحِجاجَ على البَعْثِ، والتَّحضيضَ على التَّذكُّر الجماعيِّ، والتَّنبيهَ على اعتبار العادات والسُّنَن التي أجراها اللهُ في المقدِّمات والنَّتائج، كما رتَّب إخراجَ النَّباتِ على وجود المطر، وخاتمة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ في مَوقِعِ التَّرجيَة بالتَّذكُّر والاعتبار، أو تعليلٌ لمحذوف؛ أي: قلْنا ذلك أو أنزلْنا تلك الآيةَ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، فتؤمنوا بالإحياء، وخروجِ الموتى.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ في (لَعَلّ):

تشبيهُ أمرِه تعالى برجاءِ غيرِه؛ لبيان قُوَّةِ الطَّلبِ معَ عدمِ الإرغام عليه

أداةُ (لعلَّ) في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، واقعةٌ موقعَ المجاز لا الحقيقةِ؛ لأنَّ المعنى الوضعيَّ لكلمة (لعَلَّ) هو إنشاءُ توقُّعِ أمْرٍ مُتَرَدِّدٍ بينَ الوقوع وعدمه، مع رُجحان الأوَّل، إمّا محبوبٌ؛ فيُسَمَّى ترجّيًا، وإمّا مكروه؛ فيُسَمَّى إشفاقًا، ويَمْتَنِعُ إرادةُ هذا المعنى هاهنا؛ لامتناع التَّوقُّعِ واستحالته في حَقِّ اللهِ العليم، فيكونُ المعنى جاريًا على سبيل الاستعارةِ، بتشبيه أمْرِه تعالى لخَلْقه بالتَّذكُّر، برجاء الرّاجي مِنَ المرجوِّ منه أمْرًا؛ في كون مُتعلَّق كلٍّ منهما مُتَرَدِّدًا بينَ الوقوع وعدمِه؛ مع رُجحان الأوَّل؛ فيُستعار له لفظ (لعلَّ) استعارةً تبعيَّةً حرفيَّةً؛ للمبالغة في الدَّلالة على قوَّة الطَّلب؛ وقُرْب المطلوبِ مِنَ الوقوع[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قراءةُ التَّخفيفِ أفادَتِ الذِّكرَ بعدَ نسيانٍ، والتَّشديدِ الذِّكرَ بعدَ الذِّكرِ

قُرِئَ قولُه تعالى: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذّال، وبتشديدها[2]، فمعنى قراءةِ التَّخفيفِ: الذِّكْرُ عن نسيانٍ، ومعنى قراءةِ التَّشديد:

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/92، والآلوسي، روح المعاني: 1/188، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/59.

(2) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/200.

هي ذِكرٌ لا نسيانَ فيه؛ لأنَّ بناءَ (تفَعَّل) فيه تضعيفٌ زائدٌ، يُفيد التَّدرُّجَ؛ أي: حصولَ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ، كأنَّه تَذَكُّرٌ بعدَ تَذَكُّرٍ؛ ليتفهَّمَ مَن خوطِبَ بذلك؛ لأنَّ زيادةَ المبنَى تدلُّ على زيادة المعنى وتُؤكِّدُه، وخلاصةُ القول: إفادةُ التَّدرُّجِ في التَّذكُّر، حتَّى يَحصُلَ الرُّسوخُ؛ لاجتماعِ وتراكمِ التَّذكُّر على التَّذكُّر[1].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

جاءَت ثلاثُ آياتٍ متشابهاتٍ مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان: 48]، وقولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٤٦﴾ [الروم: 46]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [فاطر: 9].

والتَّشابُهُ في الآياتِ في المَواضِعِ الآتية:

المَوضِعِ الأوَّل: ﴿يُرۡسِلُ﴾ و﴿أَرۡسَلَ﴾، ففي (الأعراف) صيغةُ المضارع ﴿يُرۡسِلُ﴾؛ للتَّناسبِ اللَّفظيِّ مع ما تقدَّمها مِن أفعالِ المُضارَعةِ والاستقبالِ في قوله تعالى: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾، ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، والدُّعاءُ مُرادٌ به ما سيأتي، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾، وكذا في آية سورة الرُّوم لمناسبة ما تقدَّم بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ [الروم: 46]، وللمناسبةِ المعنويَّةِ في قوله قبلَه: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56]، "فتعليقُ الخوفِ والطَّمعِ بما يكون منه سبحانه مِنَ الرَّحمة وصنوفِ ما رزقَ اللهُ به الخَلْقَ مِنَ النِّعم، فكان لفظُ المستقبلِ في: ﴿يُرۡسِلُ﴾ أشبهَ بمَوضِعِ الخوفِ والطَّمعِ للدّاعين، وأدْعَى لهم إلى الدُّعاء"[2].

وآيةُ سورة الفرقان جاءَت بصيغة الماضي؛ لتقدُّمِ الأفعالِ الماضية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا

---

(1) فاضل السّامرائيُّ، بلاغة الكلمة، ص: 41.
(2) الإسكافيُّ، درَّة التَّنزيل وغرَّة التَّأويل: 2/590.

﴿قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان: 45 - 48].

وآيةُ سورة فاطر تقدَّم عليها ما يُفيد الماضي، فسيقَت بصيغة الماضي، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: 3]، وهو تذكيرٌ لهم بشُكْرِ النِّعم الماضية، فاستَعْمَل الماضي كذلك بعدَه في تلك النِّعمة، فقال: ﴿أَرۡسَلَ﴾.

الموضِع الثّاني: القيدُ بـ ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾ في سورتي الأعراف والفرقان، دونَ سائرِ المواضِع. جاءَ هذا القيدُ في هاتين السورتين؛ لأنَّه سبقه في كليهما ما يدلُّ على الاسترحام، والاستعطافِ، والتَّرجّي، والامتنانِ، ففي سورة الأعراف ذكرَ الرُّبوبيَّة وما يستلزِمُها مِنَ الآلاء في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وقولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقولِه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ في الموضِعين، وختم بقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فناسبَ أن يُبشِّرَ بالرَّحمة بعدَ ذلك.

وفي سورة الفرقان سُبقَ السّياقُ بالامتنان وتعديدِ النِّعم، المُؤذِن بوصول الرَّحمة، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ٤٥﴾ [الفرقان: 45]، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾ [الفرقان: 47]، ولم يَرِدْ في سورة الرّوم، ولا في سورة فاطر، مثلُ ذلك ولا بعضُه، فلم يُتْبِعْ ذِكرَ إرسالِ الرّياحِ بما أُتْبِعَ في آيتي سورة الأعراف وسورة الفرقان[1].

الموضِعُ الثّالثُ: ذكرَ السَّحاب في سورتي الأعراف وفاطر دون الموضِعين الآخَرَيْن.

لمّا قال في سورة الأعراف: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، و﴿كُلِّ﴾ أفادتِ العمومَ والاستغراقَ؛ ناسبَ أن يَذْكُرَ السَّحابَ الثِّقالَ المليئةَ بالماءِ الكثيرِ؛ لتُلائمَ هذه الكَثْرةُ سَقْيَ كلِّ الثَّمرات.

وفي سورة فاطر ذَكَر على جهة التَّعميم قولَه: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [فاطر: 9]، فناسبَ أن يكتفيَ بذِكْرِ إثارةِ الرّياحِ، مِن غير التَّفصيلِ الواردِ في سورة الأعراف؛ لعدمِ ما يقتضيه.

(1) الغرناطيُّ، مَلاك التَّأويل: 1/185.

وأمّا سورة الرّوم فليس فيها عمومٌ، بل فيها خصوصٌ حاصلٌ مِنَ التَّقييد بقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [الروم: 48]، والاكتفاءُ فيها بذِكرِ إثارةِ الرّياحِ السَّحابَ أبينُ شيءٍ، فجاءَ كلٌّ على ما يناسبه.

ولم يَرِدْ في سورةِ الفرقانِ ذِكْرُ إثارةِ الرّياحِ السَّحابَ اكتفاءً ببشارةِ قوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الفرقان: 48][1]؛ لأنَّه قَصَد هنا ذِكرَ بادئِ الإنعامِ، لا منتهاه، بذِكْرِ غايةِ المطرِ.

الموضِعُ الرّابعُ: ذَكَرَ البلدَ المَيِّتَ في المواضِع عدا آية سورة الرّوم.

لم يَذْكُر في سورة الرّوم سَوقَ الرّياح للبلدِ الميِّتِ؛ لحصول ذلك في قوله بعدَه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الرّوم: 50]، فلو قيل أوَّلًا: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ لكان تكرارًا[2].

الموضِعُ الخامسُ: دخولُ الفاءِ في قوله: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ﴾، وتجريدُها من قوله: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ﴾.

في سورة الأعراف جاءَ الفعلُ مُجرَّدًا مِنَ الفاءِ؛ لأنَّه لا مَدْخَلَ هاهنا للفاء التي تربط الجوابَ بالشَّرط، ولا الفاءِ العاطفة، بل هو على غِرار قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: 89]، وقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: 22]؛ فالجوابُ قولُه: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾.

وأمّا موضِع سورة فاطر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [فاطر: 9]، فكلامٌ معطوفٌ بعضُه على بعض بالفاء المقتضيةِ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ؛ ليُطابِقَ اللَّفظُ ما تحتَه مِنَ المعنى، فلَزِمَتِ الفاءُ هنا؛ لاحتراز معناها.

الموضِعُ السّادسُ: الجرُّ بـ (اللّام) في قوله: ﴿لِبَلَدٖ﴾ وبـ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ﴾.

في سورة الأعراف: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ﴾، وفي سورة فاطر: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ﴾ [فاطر: 9]؛ ليتناسبَ التَّعدّي باللّام فقط معَ وجازة التَّركيبِ بتجريده مِنَ الفاء في سورة الأعراف، ويتناسبَ التَّعدّي بـ ﴿إِلَىٰ﴾ في سورة فاطر مع زيادة الفاء في التَّركيب، فزيادةٌ بزيادة، وإيجازٌ بإيجاز.

---

(1) الغرناطيُّ، مَلاك التَّأويل: 1/186.

(2) الغرناطيّ، مَلاك التَّأويل: 1/187.

الموضِعُ السّابعُ: تخصيص ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ بالأعراف.

التَّخصيصُ مناسبٌ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾؛ فكَثْرةُ الماءِ في السَّحاب ناسبَهُ التَّعريفُ بكَثْرة ما يُخرج سبحانَه به مِن مختلِف الثَّمرات.

الموضِعُ الثّامنُ: تخصيص ﴿مَآءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ [الفرقان: 48]؛ لأنَّه قَصَد في آية سورة الفرقان سَقْيَ الأناسيِّ مِنَ العُقلاء، وسَقيَ الأنعام مِن غير العُقلاء، فناسبَ أن يَنُصَّ على طَهوريَّةِ الماءِ لذِكْرِ الأناسيِّ، وقد حصل إخراجُ الثَّمرات بقوله بعدَه: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

الموضِعُ التّاسعُ: تخصيصُ ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨﴾ [الروم: 48].

قولُه في سورة الرّوم: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ مُتسِقٌ مع قوله قبلَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾، فلمّا ذَكَرَ سبحانَه إرسالَها مُبشِّراتٍ، أَتْبَعَ ذلك ما به تَحْصُلُ البِشارةُ، وهو الوَدْقُ المُرْسَلُ مِنَ السَّحابِ المُشارِ إليه بقوله: ﴿بِهِۦ﴾، معَ الإخبار بالمُبَشَّر بها، وهو مَن يشاءُ تخصيصَه مِن عباده بتلك الرَّحمة، فبيَّن في آخِر هذه الآية ما كان مُجملًا في الآية قبلَها.

الموضِعُ العاشرُ: تخصيصُ ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: 9].

تخصيصُ سورةِ فاطر بقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ [فاطر: 9] مبنيٌّ على قوله قبلَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ [فاطر: 5]، والمرادُ بهذا: العودةُ الأُخْرَويَّةُ، فذكرَ اللّهُ بعدَها مثالًا يوضِّحُها، فقال تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ [فاطر: 9]، ثمَّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: 9]، والمواضِعُ المتشابهة الأُخرى لم يتقدَّمْها مِثلُ ما تقدَّمَ هنا، مِن تحريكِ الخَلْقِ وتخويفِهم بالوَعْدِ الأُخْرَويِّ، فلم تُعَقَّبْ بمثل هذا الموضِعِ، مِن تحريرِ التَّشبيهِ وتجليَته، وإنْ كانَ في أكثرِها التَّشبيهُ على إحياء الموتى، ولكنَّه ليسَ كالواقع هنا.

الموضِعُ الحادي عشَرَ: تخصيصُ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: 9]، لمقابلته مع قوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾، ولو قيل: (كذلك الإحياءُ)، أو: (كذلك إحياء الموتى)، لاجتمعَ فيه الطّوْلُ مع مخالفةِ الفواصلِ فيما قبلَ الآيةِ وما بعدَها، كما في قوله تعالى

قبله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: 5]، وقوله بعدَه: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ [فاطر: 10]، ثمَّ إنَّ النُّشورَ جامعٌ بين إخراج الموتى وإحيائهم، وليس الإحياء فقط، فضلًا عن كَونِ التَّعبيرِ به أوجزَ وأطبقَ للفواصلِ، وأمّا سائرُ المواضعِ فلم تُبنَ على قَصْد التَّشبيه، ولا جَرى فيها ذلك، فوقعَ الاكتفاءُ فيها بمجرَّد الإيماء والإحالة، على غير طريقة التَّشبيه.

الموضِعُ الثّاني عشَرَ: تخصيصُ ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بالأعراف؛ ليكونَ مُقابَلًا بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ولم يَرِدْ في سائر الآيات التَّعبيرُ بلفظِ الإخراجِ لما يُنْبِتُ المطرُ، وما يَخْلقُ سبحانَه في الأرض، فاستدعى كلُّ سياقٍ ما يُناسبه.

الموضِعُ الثّالث عشَرَ: تخصيصُ الختم بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في الأعراف؛ وذلك لكونه ذَكرَ ما يَسْتَلْزِمُ التَّذَكُّرَ وعدمَ الغفلةِ والنِّسيانَ، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، والنّازلُ مِنَ السَّماء ماءٌ واحدٌ، ومع ذلك تخرجُ بسببه أنواعٌ شتَّى مِنَ الثَّمرات، في لونها، وروائحِها، وأصنافِها، فكذلكَ أنفُسُ الموتَى المُتكاثِرَةُ والمُتباينَةُ، تتعلَّقُ بها قُدْرَةٌ واحدةٌ مِنَ الرَّبِّ الواحدِ، فتَعودُ حَيَواتُها إليها على كَثْرتها واختلافها، وهذا موجِبٌ قويٌّ يستَحِثُّ على التَّذَكُّر واليَقظَة.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(الرِّياح)، (الرِّيح):

الرّيح: يدلُّ على الإفراد، وفرديَّة الرِّيح تدلُّ على شراستِها؛ لنُشوئها مِن جهةٍ واحدةٍ، واتِّحادِ نوعِها.

والرِّياحُ: جمعٌ يدلُّ على التَّعدُّد والتَّباين النَّوعيِّ بينَها، فبعضُها يُخفِّفُ بعضًا، ويكون بعضُها لَواقحَ لبعضٍ، فتُثْمِرُ بعوائدِ الخيرِ.

أغلبُ لفظِ (الرِّيح) مُقترنٌ بالعذاب، وقد يَقْتَرِنُ بالرَّحمة، ولفظُ (الرِّياحِ) لا يأتي في العذاب أبدًا

"وعامَّة المواضِعِ التي ذَكَرَ اللهُ تعالى فيها إرسالَ الرّيح بلفظِ الواحد فعبارةٌ عنِ العذاب، وكلُّ موضِعٍ ذُكِرَ فيه بلفظِ الجمعِ فعبارةٌ عنِ الرَّحمة"[1]، وليُنْتَبَه إلى لفظ: "وعامَّة المواضِع" السّابق؛ فإنَّه لا يُفيدُ الحصرَ، بل الأغلبيَّةَ، فأغلبُ لفظِ الرّيحِ استُعملَ في العذاب، معَ مجيئه أحيانًا في الرَّحمة أيضًا، وليُنْتَبَه كذلك إلى لفظ: "وكلُّ موضِع..." السّابق؛ فإنَّه يُفيدُ الحصرَ والاستغراقَ، ولذا لم يأتِ لفظُ الرّياحِ بالجمعِ في العذابِ أبدًا.

فمِن مجيءِ الرّيحِ في العذابِ - وهو الغالبُ - قولُه تعالى: ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: 117]، ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: 18]، ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: 19]، ومِن مجيءِ الرّيحِ في الرَّحمة - وهو قليلٌ - إفرادُ الرّيح هاهنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيحَ﴾ [الأعراف: 57] في قراءة ابنِ كثير وحمزةَ والكسائيِّ وخَلَفٍ، والباقون بالجمع.

(أقَلَّتْ)، (حَمَلَتْ):

أقلَّتْ: دالٌّ على قِلَّةِ المحمول، وحمَلَتْ: عامٌّ في الدَّلالة على رَفْعِ الشَّيءِ بتكلُّفٍ أو إقلال

﴿حَمَلَتْ﴾ أعمُّ مِن ﴿أَقَلَّتْ﴾، و﴿أَقَلَّتْ﴾ أي: حملتْها حِمْلَ القليلِ، وهو دالٌّ على قِلَّةِ المحمول بالنِّسبة لإطاقةِ الحامل، وأمّا الحَمْلُ: فليس فيه معنى أنَّ المحمولَ قليلٌ بالنِّسبة لحامله، بل هو عامٌّ في الدَّلالة على رَفْعِ الشَّيء بتكلُّفٍ أو إقلال، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]، فالحَمْلُ هاهنا فوقَ الإطاقةِ، وبتكلُّفٍ، وعُسْرٍ، وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 189]، فالحَمْلُ هاهنا بإقلالٍ ويُسْرٍ.

وأمّا قولُه تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ فنَصٌّ في أنَّ المحمولَ قليلٌ، من جهتين: من جهةِ الاشتقاق، فبناءُ اللَّفظ مِنَ القِلَّة، ومن جهةِ السّياق، فالسَّحابُ موصوفٌ بالثِّقال؛ ليندفعَ به إيهامُ مَن يَظُنُّ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (روح).

أنَّ القِلَّةَ حاصلةٌ بسبب خِفَّةِ السَّحاب، بل هي حاصلةٌ بسبب قوَّةِ الرِّياحِ، وتمكُّنِها منه تمكُّنَ الأكثرِ مِنَ الأقل[1].

(أخرجنا)، (أنبتنا):

الإنباتُ تكوينٌ وتهيُّؤٌ للخروج، والخُروجُ هو تمامُ الإنباتِ

أصلُ الخروجِ: النَّفاذُ عنِ الشَّيء[2]، وهو البُروزُ مِنَ المَقرِّ، سواءٌ أكانَ دارًا، أم بلدًا، أم ثوبًا، وسواءٌ كان بنفسه، أو بأسبابه الخارجة عنه[3]، وهو خلافُ التَّكوينِ والإنشاءِ، بدليلِ قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النّحل: 78]، فخُروجُه لاحِقٌ لتمام تكوينِه، ولذا عَبَّر هنا بالإخراج دونَ الإنباتِ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾؛ لإرداةِ منتهى التَّكوينِ، وهو خروجُ الثَّمرات وإدراكُها ناضجةً تامَّةً، وليوافقَ قولَه بعدَه: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، فيتطابقَ اللَّفظانِ بينَ المقيس عليه والمقيس في الدَّلالة على الغرض.

وأمّا الإنباتُ: فهو الإنشاءُ والتَّكوينُ قبلَ أن يَخرجَ، وهو أوَّلُ الخُروجِ إلى أن يَتمَّ، واستعمالُ الإنباتِ في الإنشاءِ والتَّكوينِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]؛ "أي: أنشأكم منها، فاستُعير الإنباتُ للإنشاء؛ لكونه أدلَّ على الحدوث والتَّكوُّن"[4]؛ "للمشابهة بينَ إنشاءِ الإنسانِ وإنباتِ النَّباتِ، من حيثُ إنَّ كليهما تكوينٌ"[5]، وعليه: فالإنباتُ: تكوينٌ وتهيُّؤٌ للخروج، والخروجُ: هو تمامُ الإنباتِ.

(نُخرِج)، (نُحيي):

الإخراجُ مُتأخِّرٌ، والإحياءُ مُتقدِّمٌ، والمتأخِّرُ يدلُّ على حصول المتقدِّمِ، وليس العكس

إحياءُ الموتى: إعادةُ الحياةِ إليهم روحًا وجسدًا.

إخراجُ الموتى: إنفاذُ النّاسِ مِن قبورهم، وبُروزُهم عنها.

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 226، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قلل - قلقل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خرج).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/495.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 15/84.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/204.

فالإخراجُ متأخِّرٌ، والإحياءُ مُتقدِّمٌ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢﴾ [ق: 42]؛ "أي: خروجُ النّاسِ مِنَ الأرضِ، فالخروجُ صارَ كالعَلَم بالغَلَبة على البعثِ"[1]؛ أي: نُحْيي النّاس ثمَّ نُخْرجُهم؛ لأنَّ الخروجَ حركةٌ، والحركةُ لا تكونُ مِن غيرِ حياةٍ، فإخراجُهم يقتضي إحياءَهم، لكنَّ الإحياءَ لا يَلْزمُ عنه الإخراجُ. وقال هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ تطابقًا في اللَّفظ والغرضِ مع: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، فقد أراد مُنتهَى التَّكوين؛ وهو خروجُ الثَّمراتِ مِن أكمامها، وأرادَ هنا مُنتهى إعادةِ الموتى؛ وهو خروجُهم مِن قبورهم[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/294.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خرج).

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾ [الأعراف: 58]

العِبرَةُ بِطيبِ المَسْقِيِّ وخُبثِه، لا بِطهارَةِ الماءِ السَّاقِي وريِّه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ من تمام المعنى في الآية قبلَها، تُعرِّف بعادةِ الله تعالى في إنباتِ الأرضين[1]، فبعدَ "أن ضرب اللهُ إحياءَ البلاد بالمطر مثلًا لبعث الموتى؛ ضربَ اختلاف نتاجِ البلاد مثلًا لما في البشرِ من اختلاف الاستعداد لكلٍّ من الهُدى والكفر والرَّشاد والغيِّ، فقال: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾"[2]، فالتَّفاوتُ بين النّاس في تقبُّل الوحي يماثل تفاوتَ الأرضين من حيثُ الإنباتُ، "فكما أنّا فاوتنا بين جواهرِ الأراضي بخلق بعضِها جيِّدًا وبعضِها رديئًا، كذلك فاوتنا بين عناصر الأناسيِّ بجعلِ بعضِها طيِّبًا وبعضِها خبيثًا، فالجيِّدُ العنصرِ يسهلُ إيمانُه، والخبيثُ الأصلِ يعسر إذعانُه، وتبعد استقامتُه وإيقانه"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾: (بلد) أصلٌ يدلُّ على الصَّدْر، يُقالُ: بَلَّدَ الرَّجُلُ بِالْأَرْضِ: لَزِقَ بها، وبَلَدَ بالمكان: أقام به، فهو بالِدٌ، والبلد: المكان المحيط المحدود المتأثِّرُ باجتماع قطّانهِ وإقامتهم فيه، وجمعه: بلادٌ وبلدان، وسمِّيت المفازة: بلدًا؛ لكونها موطنَ الوحشيّات، والمقبرةُ بلدًا لكونها موطنًا للأموات[4].

2) ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الخبيثِ، وأصلُ

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/414.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 8/185.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.
(4) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بلد).

الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النَّفس، يقالُ: أرضٌ طيِّبةٌ للَّتي تصلحُ للنَّبات، وريحٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت ليِّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمَةٌ طَيِّبَةٌ؛ إذا كانت حلالًا، وامرأة طيِّبةٌ؛ إذا كانت حَصانًا عفيفة[1]، وأمّا قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ فإشارةٌ إلى الأرضِ الزَّكيَّة الطَّيِّبة التُّربة[2]، والبلد الطَّيِّب هو "الأرض ذاتُ التُّربةِ الخصبةِ المشتملةِ على كلِّ ما يتكوَّنُ منه النَّبات أو الغراسُ مع الماء والحرارةِ، وما تقتضيه طبيعةُ النَّبات، وما يكون غذاءً لهُ"[3].

3) ﴿يَخْرُجُ﴾: أصلُ الخروجِ: النَّفاذُ عَنِ الشَّيْءِ، خَرَجَ خُرُوجًا: برز من مقرِّهِ أو حاله، سواءٌ كان مقرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسه، أو في أسبابه الخارجة، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، وقالَ تعالى: ﴿يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾[4].

4) ﴿نَبَاتُهُۥ﴾: (نبت) أصلٌ يدلُّ على نماءٍ في مزروع، يقالُ: نَبَت، وأنبتت الأرض، ونبت الشَّجرُ، وكلُّ ما أَنْبَتَ اللهُ في الأرض، فَهُوَ نَبْتٌ، وهو ما يخرجُ من الأرضِ من النّاميات، سواءٌ كان له ساقٌ كالشَّجر، أو لم يكن له ساقٌ كالنَّجْم، ويستعمل في كلِّ نام، نباتًا كان، أو حيوانًا، أو إنسانًا، والإِنْباتُ يُستعملُ في كلِّ ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: 27 - 31][5].

5) ﴿خَبُثَ﴾: (خبث) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خلافِ الطَّيِّبِ مِنَ الرِّزْق والولدِ والنّاسِ، الخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يُكرهُ رداءةً وخساسة، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصله: الرَّديءُ الدُّخلة[6]، الجاري مجرى خَبَثِ الحديد، هو خبيثٌ، أي: رديءٌ[7]، وقولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ هو الأرضُ السَّبِخة[8].

6) ﴿نَكِدًا﴾: (نكد) أصلٌ يدل على خروج الشَّيء إلى طالبِهِ بشدَّةٍ، وتعسُّر، والنَّكد: قلَّة

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (طيب).

(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 112.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2874.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (خرج).

(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (نبت).

(6) تَقولُ: إنَّه لعَفِيف الدُّخْلة، وإِنَّه لخَبيث الدُّخْلة أَي: باطِنُ أَمره، داخِلةُ الرّجلِ: باطنُ أمره. الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (دخل).

(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (خبث).

(8) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 112.

العطاءِ، والمنكودُ: العطاءُ النَّزر القليلُ، نَكِد الرَّجلُ، فهو منكودٌ، إذا كثُرَ سؤالُه وقلَّ خيرُه. وناقةٌ نَكْداءُ: قليلةُ اللَّبن طَفيفَةُ الدَّرِّ صَعْبَةُ الحَلَبِ[1]، وقولهُ تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: إلّا قليلًا عسيرًا في شدَّةٍ ضعيفَ المنفعة[2].

7) ﴿نُصَرِّفُ﴾: (صرف) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، والصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيرِه، وتَصارِيفُ الأُمورِ: تَخاليفُها، وتَصْرِيفُ الرِّياحِ صَرْفُها مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، وجعلُها جَنُوبًا وشَمالًا وصَبًا ودَبُورًا، وَكَذَلِك تَصْرِيفُ السُّيُولِ والخُيولِ والأُمور والآياتِ[3]، ومعنى التَّصريف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: نأتي بها من جهاتٍ لمعانٍ: كالإعذار والإنذار والتَّرغيب والتَّرهيبِ، ونحو ذلك[4].

المعنى الإجْماليِّ:

المـناسـبـةُ بين إحـياءِ الغـيثِ للأرضِ السَّبخةِ والمُنبِتةِ، وفِعْلِ القرآنِ بالقلوبِ الحيّةِ والميّتةِ

يخبر اللّهُ تعالى "أنَّ الأرضَ الكريمة التُّربةِ يخرج نباتُها وافيًا حسنًا غزير النَّفع بمشيئة اللّه وتيسيره، والذي خبثَ من الأرض كالسَّبخة منها لا يخرج نباتهُ إلّا قليلًا عديم الفائدة، فالأوَّل: مثلٌ ضربه اللّه للمؤمن يقول: هو طيِّبٌ وعمله طيِّبٌ. والثّاني: مثلٌ للكافر، يقول: هو خبيثٌ وعمله خبيثٌ، وفيهما بيانٌ أنَّ القرآنَ يثمر في القلوب الَّتي تشبهُ الأرضَ الطَّيِّبةَ التُّربة، ولا يثمرُ في القلوب الَّتي تشبهُ الأرضَ الرَّديئة السَّبخة"[5]، ومثل ذلك التَّنويع والتَّصريف البديع في البيان نُنوِّع ونكرِّر الحججَ والبراهين لتبيينِ الحقِّ لقومٍ يشكرون نِعَمَ اللّه، ويطيعونه[6].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نكد).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 146، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 11، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (صرف).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/428.
(5) طنطاوي، الوسيط: 5/293.
(6) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾:

الواوُ للاسْتئنافِ بغَرَضِ الاسْتِطرادِ، في تفصيلِ أحوالِ البلادِ والعِبادِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ واوُ الاستئنافِ، فالجملةُ مستأنفةٌ[1] للاعتراض والاستطراد، فالجملةُ معترِضةٌ بينَ قولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وقولِه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾؛ وفائدةُ هذه الجملة: أنَّها "تتضمَّن تفصيلًا لمضمون جملةٍ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾؛ إذ قد بيَّن فيها اختلافَ حالِ البلدِ الذي يصيبه ماء السَّحاب"[2]، ودخلت الواوُ على الكلامِ المستطرَدِ للمناسبةِ بين موضوع الآيةِ السّابقةِ وهذه الآية[3].

دلالة التَّعريف في قوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾:

كلُّ بلدٍ طابتْ تربتُهُ؛ فإنَّهُ يأتي نباتُهُ مُثمِرًا بإذنِ ربِّهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ جاء البلدُ معرَّفًا بالألف واللّام الدّالَّة على الجنسِ، فليس المرادُ بلدًا بعينه أنَّه طيِّبٌ، بل جنسُ البلاد الطَّيِّبة تتَّصف بكونِ نباتِها يخرج طيِّبًا وافرًا، فالبلدُ الطَّيِّب: هو "الأَرْضُ المَوْصوفَةُ بالطّيبِ، وطيبُها زَكاءُ تُرْبَتِها ومُلاءَمَتُها لإِخْراجِ النَّباتِ الصّالِحِ وللزَّرع والغَرْس النّافع، وهي الأرْضُ النَّقيةُ"[4]، وهذا لا يختصُّ ببلدٍ بعينِه.

بَلاغةُ التّشْبيهِ التَّمثيلِيِّ:

المُنتفعُ بالقرآنِ كالبلدِ الطَّيِّبِ، والمُعرِضُ عنهُ كالسَّبْخةِ الجَدْبةِ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ إذِ "المقصودُ من هذه الآية التَّمثيل، وليس المقصودُ مجرَّدَ تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر؛ لأنَّ الغرضَ المسوق له الكلام يجمع أمرين: العبرة بصُنع

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/370.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 6/416، والآلوسي، روح المعاني: 4/387.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.

اللّه، والموعظة بما يماثلُ أحواله"[1]، فالآيةُ الكريمة جاءت لتشبيهِ حال المؤمن والكافرِ من نزول القرآنِ، وموقفِ كلٍّ منهما في الإيمانِ والبقاءِ على الكفر[2].

ويُبيِّنُ هذا التَّأويلَ قولُه ﷺ: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللّهُ به مِنَ الهُدى والعِلْم، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ، أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنها نَقيَّةٌ، قَبِلَت الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثيرَ، وكانَتْ مِنها أجادِبُ، أمْسَكَت الماءَ، فنَفَعَ اللّهُ بها النّاسَ، فشَرِبوا، وسَقَوْا، وزَرَعوا، وأصابَتْ مِنها طائِفَةً أُخْرى، إنَّما هي قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلكَ مَثَلُ مَن فقُهَ في دينِ اللّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَني اللّهُ به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدى اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ به»[3].

غَرَضُ التَّمْثيلِ بالبلدِ الطَّيِّبِ والخبيث:

آثر النَّظمُ التَّمثيل بقوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ على التَّصريح بالمؤمنِ والكافر؛ لأنَّه لمّا ذكر الرّياح المبشِّرات والغيث الَّذي ينبتُ كلَّ الثَّمرات كان مناسبًا أن يبني على هذه الآيات والنِّعم موازنة بين النّاسِ في تلقّي ما نزل رحمةً بهم من الوحي، فجاء التَّمثيلُ بالبلد الطَّيِّب والخبيثِ على سبيلِ الاستطرادِ، فإنَّ "إيثارَ خصوص التَّمثيل بالأرضِ الطَّيِّبة والخبيثة استطرادٌ عقيبَ ذكرِ المطرِ وإنزاله بالبلدِ وموازنة بين الرَّحمتين"[4] رحمةِ المطر مع البلد الطَّيِّب والخبيث على حدٍّ سواء، ورحمةِ الوحي مع المؤمنِ والكافر كذلك، فغرضُ التَّمثيل بالبلدِ الطَّيِّب والخبيثِ تجسيدُ المعقولاتِ بأمورٍ حسيَّةٍ؛ لتكونَ ظاهِرةً للعُقولِ.

تَصويرُ المعقولاتِ بالحِسّيّاتِ، أقربُ للفهمِ وأبلَغُ في إقامةِ الحُجَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184 - 185، وينظر: الطيبي، فتوح الغيب: 6/415.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/291، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234.
(3) البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (79).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/387، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112.

عِلَّةُ تَقديمِ البَلدِ (الطَّيِّبِ) على (الخبيثِ):

قُدِّمَ ذِكرُ البلدِ الطَّيِّبِ على الخبيثِ لثلاثِ عِلَلٍ؛ الإيذانُ بأنَّ "أصلَ الأرضِ أن تكونَ طيِّبةً مُنبتةً، وخلافُه طارئٌ عارضٌ"[1]، والإشعارُ بالاهتمام، فالبلد الطَّيِّب الذي جيءَ به لتمثيلِ الإيمانِ، والإيمان هو الأصلُ، فكان لا بدَّ أن يقدِّم الأصلَ، ويؤخِّر الطّارئَ الحادث، والتَّشريفُ للمقدَّمِ ذكرُه، فهذه ثلاثةُ عللٍ لتقديمِ البلد الطَّيِّب على ذكرِ الخبيثِ.

الإشعارُ بالاهتمامِ بالطَّيِّبِ الشَّريفِ، والنَّبْذِ للخَبيثِ النَّبيثِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾ دونَ (القريةِ):

لمّا كانَ ماءُ السَّحاب ينزل على الأرض جميعًا العامرِ منها وغيرِ العامرِ آثر التَّعبيرَ بالبلد؛ لأنَّه أعمُّ من القرية؛ فهو "يُطْلَقُ على كلِّ جزءٍ من الأرض عامرًا كان أو خرابًا"[2]، والقرية تُطلقُ على العامرة بالنّاس مسكونة، أو قد طرأ عليها الخراب، فإيثارُ البلدِ على القريةِ لهذا الملحظِ، وأمرٌ آخر: وهو أنَّ البلد يُطلقُ على العامرِ وغيرِ العامر بالسُّكّانِ، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ القرآنَ نزل لمن كان عامرًا بالإيمانِ، ومن لم يكن عامرًا به، فالآيةُ تُنبِّهُ على أنَّ الإيمانَ ينبُت في قلوبِ العبادِ بقطع النَّظرِ عن ماضيها.

القُرآنُ يَنزلُ في قلوبِ العبادِ، بقطْعِ النَّظرِ عن ماضِيها الإيمانيِّ بربِّ العِباد

غَرَضُ تَذكيرِ لفْظِ ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾:

وجاء بصيغةِ التَّذكير دون التَّأنيث؛ لأنَّ البلدَ أعمُّ من البلدةِ، فهي جزءٌ منه، والطّائفةُ من البلدِ بلدةٌ، والجمعُ: بلاد، وتُطلق البلدةُ على المفازة[3]، والنَّصُّ في العمومِ، فكان التَّعبير باللَّفظ الدّالِّ عليه أنسبَ، ولكي لا يُفهم أنَّ المرادَ به بلدةٌ بعينها، فإنَّ اللَّفظَ العامَّ أبعدُ في دلالتِه عن الخُصوصِ.

عبَّرَ بالبلدِ لا بالبلدةِ للعُمومِ، ولدفْعِ توهُّمِ أنَّ المرادَ بلدٌ بعيْنِه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/386.

(2) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352.

(3) الخليل، العين: (بلد).

غَرَضُ وصفِ ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾ بـ ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾:

الملاءمةُ بين البلدِ الطَّيِّبِ والقلبِ الطَّيِّبِ، المُنتفعِ بنُزولِ القرآنِ

وصف البلدَ بالطَّيِّب في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ للدَّلالةِ على جودة أرضه، وأنَّها كريمةٌ منبتة[1]، "وطيبُها زكاءُ تربتها وملاءمتها لإخراجِ النَّبات الصّالح، وللزَّرع والغرس النّافع، وهي الأرضُ النَّقيَّة"[2]، وغرضُ وصف البلد بكونهِ طيِّبًا، ليقع التَّمثيل على المؤمن الَّذي انتفع بهدي القرآن.

سِرُّ تَقديم المُسنَدِ إليه، على المُسنِدِ الفِعْليِّ:

قُدِّمَ ذِكرُ البلدِ الطَّيِّبِ اهتمامًا بـه، وتـقـويـةً لمضمونِ الخَبرِ

جاءُ تقديمُ المُسندِ إليه في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ على المسندِ الفعليِّ ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ ولم يقل: (يخرج نباتُ البلد الطَّيِّب)؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ به؛ إذ تكرَّر مرَّتين: بالاسم الظّاهر، وبالضَّمير في ﴿نَبَاتُهُۥ﴾، والإخبارُ بالجملةِ الاسميَّة يدلُّ على قوَّة مضمونِها، لما فيها من دلالةٍ على التَّأكيد بثباتِ المعنى ورسوخهِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الإنباتِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخۡرُجُ﴾:

تَصويرُ مُعجزةِ خُـرُوجِ النَّباتِ مِـنَ الأرْضِ، خُرُوجًا مَوزُونًا سَلِسًا

عبَّرتِ الآيةُ عن بروز النَّبات منَ الأرضِ بالخروج ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ دون مرادِفاته؛ كالطُّلوع الَّذي يدلُّ على الظُّهور دون النَّفاذِ، فالطُّلوع: الظُّهور والبروز[3]، كما قال سبحانه: ﴿وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾ [الشّعراء: 148]، ونكتةُ ذلك أنَّ الخروجَ يدلُّ على النَّفاذ، فهو أكثرُ من مجرَّدِ البروز والظُّهور، وقد جاء الخروجُ مع الإنباتِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه: 53] وقال تعالى: ﴿يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: 21]، فالتَّعبيرُ بالخروج يدلُّ على كونه "خروجًا كثيرًا حسنًا سهلًا غزيرًا"[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.

(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان: (طلع).

(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ: ﴿يَخۡرُجُ﴾:

تَصويرُ مَشهدِ خُروجِ النَّباتِ ونُموِّهِ، بوصْفٍ سائغٍ بديعٍ

ونكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ الدِّلالةُ على تجدُّد الخروجِ واستمرارِهِ؛ إذ هو فعلٌ مستمرٌّ غير منقطعٍ، كما أنَّ فيه تصويرًا لمشهدِ خروجِ النَّباتِ منَ الأرض، فيثيرُ مخيِّلة السّامع لاستحضارِ مشهد الإنبات وانبثاقِ النَّبات من الأرض بعد شقِّها وبروزهِ منها.

المجازُ العقليُّ في قولِهِ: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾:

النَّباتُ لا يخرجُ بنفسِهِ، بل يُخرجهُ اللهُ الّذي خلَقَ فسَوّى، وقدّرَ فهدَى

في قولِهِ جلَّ شأنه: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ أسندَ الخروجَ إلى النَّباتِ، والنَّبات لا يخرجُ بنفسِه، بل يخرجهُ اللّٰه تعالى، ويقوّي إرادةَ المجاز التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ فدلَّ على أن لا خروجَ إلّا بإذنِ اللّٰه تعالى، وفي إسنادِ الفعل إلى غيرِ فاعله على وجهِ الحقيقة إيجازٌ في القولِ، واقتصادٌ في التَّعبير، إذ لو جاء الكلامُ على الحقيقةِ؛ لقالَ: (والبلد الطَّيِّب يُخرِجُ اللّٰه نباته بإذنِهِ)، كما أنَّ إظهارَ لفظ الجلالة في هذا السّياق لا يناسبُ لكونِهِ في صفات الرُّبوبيَّة، فجاءت العبارةُ على غاية البلاغةِ والإيجاز، فأسند الخروجَ إلى النَّبات، ولم يذكر لفظَ الجلالةِ، وذكر بدلًا عن ذلك لفظَ الرُّبوبيَّة لكونهِ أنسبَ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾:

تَشبيهُ النَّباتِ بالإنسانِ الّذي يَنتظرُ الإذنَ للخُروجِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيثُ شبَّه النَّبات بالإنسانِ المتأهِّب للخروج، وينتظرُ أن يؤذنَ له بذلكَ، فحذف المشبَّه بهِ وأبقى صفةً من صفاته، وهي الخروجُ، وهذا يُظهر عبوديَّةَ النَّبات للّٰه تعالى، كما أنَّ في هذا التَّعبير من البلاغةِ ما ليس فيهِ لو جاء على وجه الحقيقةِ بأن يقالَ: والبلدُ الطَّيِّبُ يخرج اللّٰهُ نباتَهُ.

دَلالةُ استِعمالِ لفْظِ (النَّباتِ) دونَ (الزَّرعِ):

استُعملَ لفظُ النَّباتِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ

النَّباتُ يَشملُ الزَّرعَ والشَّجرَ وغيرَهُما، ممّا يَنبتُ في الطَّبيعةِ بأمرِ الله

﴿نَبَاتُهُۥ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ، كالزَّرع والشَّجر لدلالةِ النَّبات على كلِّ ما نبتَ من الأرضِ؛ فـ "الزَّرع: ما ينبتُ على غير ساقٍ، والشَّجر ما له ساقٌ وأغصانٌ، يبقى صيفًا وشتاءً، والنَّبات يعمُّ الجميع؛ لأنَّه ما ينبت من الأرضِ، أي: يخرجُ منها"[1]، فالنَّباتُ شاملٌ لكلِّ ذلك.

سِرُّ إضافةِ النَّباتِ إلى ضَميرِ البلدِ، في ﴿نَبَاتُهُۥ﴾:

خَصَّ الله كلَّ بلدٍ بنوعٍ من النَّباتِ يَتميَّز فيه مِن غيرِه، في الطَّعْمِ والجَودةِ

أضاف النَّباتَ إلى الضَّميرِ العائد على البلدِ، في قولِه تعالى: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾؛ لاختصاص غالبِ البلدان بنوعٍ من النَّبات لا ينبتُ في غيرِه، فكأنَّ ما نبت في بلدٍ ما مختصٌّ بالبلد الَّذي نبتَ فيه، ولا ينتسب إلى غيره، أو أنَّ النَّبات الذي يخرُجُ في بلدٍ له خصائصُ لا تكونُ في غيرِه من البلدان، كما هو معلومٌ لدى أهل الاختصاصِ في تميُّزِ بعض البلدان من بعضِها الآخر بمزايا في التُّربة والهواء تجعلُ نباتَها أفضل من النَّوعِ نفسِه في مكانٍ آخر، وذلك هو المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرّعد: 4].

دَلالةُ (الباءِ)، في قوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

خروجُ النَّباتِ مُتوقِّفٌ على مَشيئةِ الله تعالى

عبَّر النَّظم بالباء الدّالَّة على السَّببيَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ للدّلالة على أنَّ النَّبات إنَّما يخرجُ بإذنِ اللّه تعالى وبمشيئته وتيسيره[2].

فائدةُ تعْليقِ خُروجِ النَّباتِ على الإذنِ:

ليس المرادُ بالإذنِ، إذْنَ التّكْوينِ، ولكن إذنَ التّكْريمِ والتّمْكينِ

قال تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ ولم يقُل: (بأمرِ ربِّه) إشعارًا بالعناية به، "ليدلَّ على تشريفِ ذلك النَّبات، فهو في معنى الوصفِ بالزَّكاء، والمعنى: البلدُ الطَّيِّبُ يخرج نباتهُ طيِّبًا زكيًّا مثله، وقد أشارَ إلى

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 266.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/386، وينظر: السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352.

طيب نباته بأنَّ خروجَه بإذن ربِّه، فأريد بهذا الإذنِ إذنٌ خاصٌّ هو إذنُ عنايةٍ وتكريم، وليس المراد إذنَ التَّقدير والتَّكوين؛ فإنَّ ذلك إذنٌ معروف لا يتعلَّق الغرض ببيانهِ في مثل هذا المقام"[1].

بَلاغةُ الكِنَايةِ في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾ "كنايةٌ عن كثرةِ النَّبات وحسنه وغزارةِ نفعه"[2]، ولما فيه من المدحِ والتَّشريف[3]، "ونسبة الإسنادِ الشَّريفة الطَّيِّبة إليه تعالى، وإن كان كلا النَّباتين يخرجُ بإذنه تعالى"[4]، فهو تشريفٌ له بذكرِ ﴿رَبِّهِۦۖ﴾ في التَّعبير؛ لأنَّ ما أذِنَ اللّٰهُ تعالى فيه، فلا بدَّ أن يكون طيِّبًا وفيرًا مباركًا، ولأنَّ هذا النَّبات هو مرعى المخلوقات وغذاءُ النّاس، فهو رزقُ اللّٰه تعالى لخلقهِ، جرتْ به مشيئتُه، فكانَ التَّشريف لهُ تعظيمًا لهذهِ النِّعَم والمِنَن.

> النَّباتُ الّذي يَخْرُجُ بإذنِ اللهِ، غَزيرُ العطاءِ، كثيرُ النّماءِ

بَلاغةُ الإضافة إلى الرُّبوبيّة في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

ذكرُ لفظِ الرُّبوبيَّة أنسبُ في سياق الإنباتِ ونزول المطرِ، فقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦۖ﴾، أي: "المربّي له بما هيَّأه له"[5]، وقد سلف ذكرُ الرّياح وسوقها السَّحابَ ونزول المطر وإخراج النَّباتِ، وكلُّ هذا من صفات الرَّبِّ ﷻ، فكان التَّعبيرُ به أبلغَ في الآية.

> الرُّبوبيَّةُ هي الأنسبُ في سِياقِ إخراجِ النَّبات، لحاجتِه إلى رعايةٍ في كلِّ مراحِلِه

سِرُّ إضافةِ ضَميرِ النَّباتِ، إلى لفْظِ الرُّبوبيّةِ في قولِه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

وفي إضافةِ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦۖ﴾ تكريمٌ لهذا النَّبات، وأنَّه ممّا يجبُ أن يشكرَ العبادُ ربَّهم عليه، وأنَّه مقصودٌ بخصائصِه الغذائيَّة، وصفاتِه الحسيَّة، وأنَّه خرجَ برعايةٍ ربانيَّة، لمقصدٍ عظيمٍ، وغايةٍ مِلؤُها المصلحة والمنفعةُ للعباد.

> النَّباتُ خرجَ برعايةٍ ربانيَّةٍ، لمصلحةِ الكافَّةِ منَ البَشريّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/378، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/17، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/414.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/79 - 80، وينظر: الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/377 - 378.

(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

غَرَضُ عطْفِ: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ على ما قبْلَها:

إجراءُ التَّمثيلِ لاختلافِ حالِ النَّاس، عند تَلقِّي الوحْي، بين مُؤْثِرٍ ومُنْكِرٍ

جملةُ: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ معطوفةٌ على قولهِ تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾[1]، فهو من التَّوسُّطِ بين الكمالين بعطفِ الجملةِ الخبريَّة على مثلِها، فغرضُ عطف البلد الخبيثِ على البلد الطَّيب؛ لإجراء التَّمثيل الَّذي قصدتهُ الآيةُ الكريمة، وإيقاعِ المقارنة؛ إظهارًا للفرق بين هُدى المؤمنين وضلالِ الكافرين.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾:

دَلالــةُ المذكورِ علـى المستـورِ، من بَلاغةِ الآيِ المسْطورِ

حذفَ النَّظمُ الشَّريف لفظةَ (البلد) من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ إيجازًا في التَّعبير، فهي صفة لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: (والبلد الّذي خَبُث)؛ وساغ الحذفُ اكتفاءً بدلالة قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عليه[2].

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسْمِ الصريح والتَّعبِيرِ بالاسْمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِي﴾:

كما أنّ صِفةَ الخَبَثِ حادثةٌ، فالكُفرُ حادِثٌ مُخالفٌ للأصلِ

عدلَ عن التَّعبيرِ بالاسم الصَّريح إلى الاسم الموصولِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾؛ ليعبِّرَ بصلة الموصول المضمِّنة فعلًا ماضيًا إيماءً إلى أنَّ تلك صفة الخبثِ حادثةٌ، وأنَّ الأصلَ في الأرضِ قبولُها المطرَ وإنباتُها الزَّرع، وكذلك ما جرى له التَّمثيل بذلك؛ فأصل فطرة النّاس الإيمانُ، وأمّا الكفر فهو حادث مخالف للأصل، و"إيثارُ ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ وهو صفةٌ مشبَّهة في مقابلِ ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ الدّالِّ على تجدُّد الفعل"[3] يومئ إليه قولُه ﷺ: «وإنّي خلَقْتُ عبادي حُنَفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ، فاجتالَتْهم»[4]، وقولُه ﷺ: «ما من مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطْرَة، فأبواهُ يهوِّدانِه، أوْ

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/370.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/80.

(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/415 - 416، وتمام عبارة الطّيبي: "(الذي خبث) الدّالّ على تجدّد الفعل إيماء إلى معنى ما ورد في صحيح مسلم"، ورأينا تتميم العبارة بما أثبتناه.

(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2865).

يُنَصِّرانِهِ»[1]، إشارةٌ منه ﷺ إلى أنَّ ما سوى الفطرةِ، وهو الإسلام، لا يخرُجُ عن وصفه بالخُبثِ، فلمّا كان تشبيهُ الكافر بالبلد الخبيثِ عبَّر عن صفة الخبث باللَّفظ الدّالّ على الحدوث والتَّجدُّد، وهو الفعل فقال: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾، ولم يقل: والبلدُ الخبيث.

فائِدةُ الطِّباق بين لفظَيْ: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ و﴿خَبُثَ﴾:

بِضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ، والضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ

في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ طباقُ إيجابٍ[2]؛ إذ جمعَ بين لفظين متضادَّينِ مثبتين ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ و﴿خَبُثَ﴾، وفائدةُ هذا الطِّباقِ تنبيهُ السّامع إلى الفرقِ بين طرفي الطِّباق، وفيه زيادةٌ في إيضاحِ المعنى المرادِ، وهو التَّباين بين البلدِ الطَّيب وغير الطَّيِّب؛ إذ بضدِّها تتمايزُ الأشياء، فلو كانت البلادُ كلُّها طيِّبةً لما كان في طيبها ميزةٌ، فلمّا ذكر أنَّ فيها ما هو سبخٌ، زادَ فضلَ الطَّيِّب منها.

غَرضُ الحصْرِ في قوله: ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ﴾:

مَن خَبُثَ طَبعُه؛ نَفرَ منَ الخيرِ، ولم يَستَبِنْ سبيلَ المؤمنين

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ حصرَ النَّبات الَّذي يخرجه البلد الخبيثُ بكونهِ نكدًا، "وكونُ نباتِ الذي خَبُثَ محصورًا خروجُهُ على حالةِ النَّكدِ مبالغةٌ شديدةٌ في كونهِ لا يكون إلّا هكذا، ولا يمكن أن يوجدَ إلّا نكدًا، وهي إشارةٌ إلى من استقرَّ فيه وصفُ الخبيثِ يبعدُ عنه النُّزوع إلى الخيرِ"[3].

بَلاغةُ فنِّ الاحْتباكِ:

براعة الحذْفِ ناشئة عن براعة التَّقدير، وتُبرزُ جمالَ التَّصويرِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ أشارَ البقاعيُّ أنَّ "الآيةَ من الاحتباك"[4]، وقد فصَّل ذلك العلّامةُ ابن عاشورٍ رحمه الله

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4775).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/378.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/80.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/424، وأمّا تعريف الاحتباك فهو "القول المركَّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالث كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أوْ ما كانت النّسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسبين بأحدهما، لقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك". يُنظر: السجلماسي، المنزع البديع، ص: 195.

بقوله: "والذي يظهرُ لي: أن يكون (الذي) صادقًا على نبات الأرضِ، والمعنى: والنَّبات الذي خَبُثَ لا يخرجُ إلّا نكدًا، ويكون في الكلام احتباكٌ؛ إذ لم يذكر وصف الطَّيِّبِ بعد نباتِ البلد الطَّيِّب، ولم تُذكرِ الأرضُ الخبيثة قبل ذكر النَّبات الخبيثِ، لدلالةِ كلا الضِّدَّين على الآخرِ، والتَّقدير: والبلدُ الطَّيِّب يخرجُ نباتُه طيِّبًا بإذنِ ربِّه، والنَّبات الذي خبث يخرج نكدًا من البلدِ الخبيثِ، وهذا صنعٌ دقيقٌ لا يُهمل في الكلامِ البليغِ"[1].

تَوجِيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في: ﴿نَكِدٗاۚ﴾:

النَّعتُ والحالُ مُتقاربان في الدَّلالةِ على ثُبوتِ النَّكدِ وتَجدُّدِه

وردَ في قوله: ﴿نَكِدٗاۚ﴾ قراءتان: قراءةُ الجمهورِ بكسرِ الكافِ، وقراءةُ أبي جعفرٍ بفتحها[2]، فالقراءةُ الأولى جاءت بصيغةِ الصِّفة المُشبَّهة، والقراءةُ الثّانية جاءت بصيغةِ المصدرِ، ففي نصب ﴿نَكِدٗاۚ﴾ على القراءَتينِ وجهان: "أحدُهما: أن ينتصبَ حالًا، أي: عَسِرًا مُبْطئًا. والثّاني: أن ينتصبَ على أنَّه نعتُ مصدرٍ محذوف، أي: إلّا خروجًا نَكدًا، وصَفَ الخروجَ بالنَّكَد كما يوصف به غيرُه، ويؤيِّده قراءةُ أبي جعفر: (إلّا نَكَدًا) بفتح الكاف"[3].

بَلاغةُ التَّشبيهِ في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

المَثلُ إبرازٌ للدّلائلِ العجيبةِ المُساقةِ للدَّلالةِ على الحقِّ المُستبينِ

بعد أن مثَّل النَّظم الكريم للمؤمن والكافرِ بالبلد الطَّيِّب والبلد الخبيث؛ بيَّن في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أنَّنا كما صرَّفنا الآيات فيما تقدَّم ذكرُه، فكذلك نصرِّف الآياتِ في هذا[4]، فالمُشَبَّهُ هو التَّمثيلُ بالبلدِ الطَّيِّب والخبيث، والمشبَّه به هو المشارُ إليه، وهو تصريفُ الآيات؛ لأنَّ "الإشارةَ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/270.
(3) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352، والزمخشري، الكشّاف: 2/112، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.
(4) مكيّ القيسي، الهداية: 4/2404.

﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ إلى تفنُّنِ الاستدلال بالدَّلائلِ الدّالَّة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانيَّة، والدّالَّة - أيضًا- على وقوع البعثِ بعد الموت، والدّالَّة على اختلاف قابليَّة النّاس للهُدى والانتفاع به بالاستدلال الواضح البيِّن المقرَّب في جميع ذلك"[1].

دَلالةُ الإشارةِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ باسم الإشارةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ للإشارةِ إلى "تفنُّنِ الاستدلالِ بالدَّلائل الدّالَّةِ على عظيم القدرة المقتضيةِ الوحدانيَّة، والدّالَّة - أيضًا- على وقوع البعثِ بعد الموت، والدّالَّة على اختلاف قابليَّة النّاس للهُدى والانتفاع به"[2]، فهي إشارةٌ إلى تصريفِ الآياتِ البديع، حيثُ سلف التَّعبيرُ ببيان إنعامِ اللّه تعالى بإيجادهِ السَّمواتِ والأرضَ، والنِّعم في الإنبات والإثمار وإخراجِ ما هو نافعٌ للأحياء، فمثلُ هذا التَّصريفِ الذي رأيتم "نصرِّف الآياتِ، ونبيِّنُها في تصريفٍ محكم مقرّبٍ للنُّفوس"[3].

البلدُ الطَّيِّب والخبيثُ، كِلاهما من آياتِ الله في تَصريفِ الكونِ والوُجودِ

بَلاغةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿نُصَرِّفُ﴾ دون غيره:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالفعل: ﴿نُصَرِّفُ﴾ دونَ (نُفصِّل)؛ للدَّلالة على تَكرار الآياتِ وتنويعها لا تفصيلها، وذلك في بيانِ "الآياتِ الدّالَّة على التَّوحيد والإيمان آيةً بعد آية، وحجَّةً بعد حُجَّة"[4]، فالتَّصريف يدلُّ على التَّرديد والتَّكرار والتَّنوُّع والتَّنويع، فقوله تعالى: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: "نردِّدها ونكرِّرها، يعني: ما ذكرنا من الآياتِ المتعدِّدة المفصَّلة المبيّنة من أوَّل هذه السّورة، نصرِّف، ونكرِّر، ونبيِّن سائرَ الآياتِ الَّتي اشتمل عليها هذا الكتابُ الكريمُ أو غيره، وأمّا التَّفصيل؛ فيدلُّ على الشَّرح

التَّصريفُ يدلُّ على التَّكرارِ والتَّنويعِ، والتَّفصيلُ يُذكرُ بعدَ الإجمالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/214.

والبيان بعد الإجمالِ والإحكام، ولا يدلُّ على التَّكرير والتَّنويع، فالتَّصريف أعمُّ من التَّفصيلِ، فإنَّ إجمالَ القول، ثمَّ تفصيله هو نوعٌ من أنواعِ تصريفِ الكلام والآيات.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُصَرِّفُ﴾:

تَصريفُ الآياتِ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ لا ينقطعُ، رحمةً مِنَ الله تعالى بخَلْقِه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ لمّا كان التَّصريفُ دالًّا على التَّبديل والتَّكرير، وهذا يقتضي أنَّ وقوعَه ليس في زمانٍ واحدٍ، بل في أزمنةٍ متتابعة، فهوَ يقع باستمرارٍ، فكان من مقتضى البلاغة أن يعبِّرَ عن ذلك التَّصريفِ بالفعل المضارعِ للدَّلالة على حدوثِه وتجدُّدِه مع الدَّلالة على الاستمرار، وهذا يشيرُ إلى عظيم نعمةِ اللّه تعالى في هداية خلقهِ؛ إذ لم يرسلْ لهم آيةً واحدة بل آياتٍ كثيرةً على وجه التَّكرار والتَّصريف والدَّوام والاستمرارِ، ويشير ذلك إلى سنَّةٍ عظيمةٍ من سنن اللّه تعالى في خلقهِ، فإنَّ هذا المثلَ الذي سيقَ في هذه الآية إنَّما هو من مقتضى هذه السُّنَّةِ الإلهيَّةِ "يعني: كما ضربنا هذا المثلَ كذلكَ نبيِّنُ الآياتِ الدّالَّةَ على التَّوحيد والإيمان آيةً بعد آيةٍ وحجَّة بعد حجَّة"[1]، فلا انقطاعَ ولا تبديل لسنَّة اللّه ﷻ.

فائدةُ الالتِفاتِ منَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

التَّعظيمُ مُناسِبٌ لبيانِ غايةِ التَّمثيلِ، في تصريفِ الآياتِ الباهرةِ

التفتَ الخطابُ من الغيبة في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ إلى التَّكلُّم في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم المناسبِ لتصريف الآياتِ، أي: نصرِّفها بما لنا من العظمة، ولذا نجد أنَّه قد آثر لفظ الرُّبوبيَّة، وهو اسم ظاهرٌ دالٌّ على الغيبةِ، ولم يُعبَّر بالضَّميرِ الدّالِّ على التَّعظيم، فلم يقل: (بإذننا)؛ لأنَّ الكلامَ ابتداءً قام على وصف حالِ البلدين، فلمّا انتهى من وصفِهما؛ حسُن الالتفاتُ إلى بيان المصرِّف سبحانه بالتَّكلُّم.

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/214.

دَلالةُ الجمْعِ للفْظِ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

اشْتمالُ المعنى هنا، على آياتِ الكَوْنِ المنْشُورِ، وآياتِ الكوْنِ المسْطُورِ

جاءتِ الآياتُ بصيغةِ الجمع في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: كلَّها[1]، فأفاد الجمع الدَّلالةَ على جميع الآيات، وهذه الآياتُ هي الدَّلائلُ الكونيَّة الدّالَّةُ على عظيم قدرتِهِ جلَّ ذكره، الحُجَجُ والبراهين الدّالَّة على وحدانيَّته[2]، فهي تعمُّ ما اشتملَ عليهِ القرآنُ من ملفوظِ الآيات، وما اشتمل عليه الكونُ من مبثوثِ عجائبِ الخلق.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (قَوْمٍ) في الآية:

اجتماعُ القَوْمِ على الشُّكرِ، من أبلَغِ الطَّاعةِ، وأرْوعِ الانقيادِ لله

وصف اللّه القوم بأنهم يشكرون بقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾، أي: يشكرونَ نعمةَ اللّه تعالى، وهم المؤمنون[3]، "تنبيهًا على أنَّهم موردُ التَّمثيل بالبلد الطَّيِّب، وأنَّ غيرَهم موردُ التَّمثيل بالبلد الخبيثِ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43]"[4]، ولم يقل: (كذلك نصرِّف الآياتِ للشّاكرين)؛ لأنَّ التَّعبيرَ بلفظِ (قَوْمٍ) يدلُّ على أنَّ قيامَهم كانَ على الشُّكرِ للّه تعالى.

تَوجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ، في قولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾:

أذِنَ الله للمؤمنِ في الإخْباتِ، كما أذِنَ للبَلدِ الطَّيِّبِ في الإنْباتِ

خصَّتِ الآيةُ في فاصلتِها الشّاكرين بالذِّكرِ في سياق النِّعم الَّتي "موضوعها الاهتداءُ بالعلم والعمل والإرشاد"[5]، والآيات التي صرَّفها ﷻ؛ لأنَّ الشّاكرينَ هم المنتفعون من تلك النِّعم والآيات[6]، وأوضحُ ما يكونُ الانتفاعُ بتلك النِّعمِ إنَّما هو في الشُّكرِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/424.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/416، وطنطاويّ، الوسيط: 5/294.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 8/187، وطنطاويّ، الوسيط: 5/294.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/293، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.

وأُشيرَ بذكر الشُّكرِ في فاصلةِ الآية، إلى "نعمتين مذكورتينِ في الآية للمؤمن، وهو أنَّ اللّه تعالى لم يجعله كالبلدِ الخبيثِ، والثّاني: أنَّه أذنَ لهُ في الإيمانِ والطّاعات، كما أذِنَ للبلد الطَّيِّب في إخراج النَّبات"(1).

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارِع ﴿يَشۡكُرُونَ﴾، في الآية:

وعبَّر عن الشُّكرِ بصيغةِ الفعلِ المضارع ﴿يَشۡكُرُونَ﴾، للدَّلالة على أنَّ شكرهم للنِّعم مستمرٌّ متجدِّدٌ، فهم قومٌ شأنهم الشُّكر، وتقبُّل النِّعمة بالقيام بحقِّها؛ ينبعث الشُّكر من أنفسهم المؤمنة(2).

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

جاء التَّعبيرُ عن الشُّكر في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ مطلقًا عن التَّقييد، فحذف المفعول به ولم يبيِّنْه؛ تعميمًا لمتعلَّقات الشُّكر، فهم يمتازون بالشُّكر عمومًا؛ فحذف المفعولَ؛ لأنَّه أرادَ التَّعميم، وأرادَ الاهتمامَ بمجرَّد الشُّكر لا من حيثُ كونهُ متعلَّقًا بأحد يستحقُّه، بل إنَّ صفة الشُّكر استحقَّت أن ينعمَ اللّه تعالى عليهم بهذا التَّصريفِ والتَّبيين لذاتها، وفي ذلك بيانٌ لمكانة الشُّكر عند اللّه تعالى، وقد يدلُّ على أنَّهم يشكرونَ هذه الآياتِ؛ لأنَّهم هم المنتفعون بها بسببِ صفةِ الشُّكر، وليس لأنَّهم يشكرون معيَّنًا، وفيه أيضًا أنَّ المشكور معلومٌ بالضَّرورةِ، وهو اللّه تعالى، فيكونُ العدول عن الذِّكر للإيجاز.

بَلاغةُ التَّرقِّي بين الفاصلَتَيْن: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، و﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾:

قال تعالى في ختام الآيةِ السّابقة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 57] وقال في ختام هذه الآية: ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ وهو من باب التَّرقّي من الأدنى إلى الأعلى؛ "لأنَّ من تذكَّرَ آلاءَ اللّهِ تعالى؛ عرفَ حقَّ النِّعمة، فشكرَ"(3)، فالتَّذكُّر يسبقُ الشُّكر، وهو أدنى منه.

الشُّكرُ اعترافٌ للمُنْعِمِ بالإغداقِ، وهو ما لا يَستحقُّه إلّا الكريمُ الخلّاقُ

صِفةُ الشُّكرِ تَستحقُّ الإنعامَ بالتَّصريفِ لذاتِها، لا من حيثُ تعلُّقُها بمعيَّنٍ

تذكُّرُ النِّعَمِ مَبعثُ معرفةِ حقِّهِ ﷻ، بالشُّكرِ على تلكِ الآلاءِ

---

(1) الواحدي، البسيط: 9/195.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/386.

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

(البلدُ) و(القريةُ):

البلدُ يُطْلَقُ على كلِّ جزءٍ منَ الأرض، عامرًا كان أو خرابًا، واستعمالُهُ بمعنى القريةِ دلالةٌ عرفيَّةٌ، ومن قبيلِ ذلك إطلاقُهُ على مكَّة المكرَّمة[1]، وأمّا القَرْيَةُ: فهي من (قَرِيَ) وهو أصلٌ يَدُلُّ على جُمَعٍ واجْتِماعٍ، مِنْ ذَلِكَ الْقَرْيَةُ، سُمّيَتْ قَرْيَةً؛ لِاجْتِماعِ النّاسِ فيها، فالقَرْيَة: هي المصرُ الجامع، وكلُّ موضع يجتمع فيه ناسٌ[2]، وفي الآية استعمل البلدَ للدَّلالة على عموم الأرض، ولم يرد مجتمَعَ النّاس.

القـريـةُ هي مَجمعُ النَّاسِ، والبـلدُ يَعمُّها وغيرَها ممَّا لم يُسكنْ

(الإذنُ) و(الأمرُ):

الإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازتهِ والرُّخصة فيه[3]، فهو يدلُّ على إعطاء حرّيَّة الفعل والسَّماح بفعلهِ والقبول بوقوعهِ بعد مَنعٍ، أمّا الأمرُ؛ فيقالُ باعتبار طلب الفعل، وهو نقيضُ النَّهْيِ[4]، فهو طلبُ الفعل على سبيلِ الإباحةِ أو النَّدب أو الوجوب.

الإذنُ: ما يكونُ بـعـدَ مـنـعٍ، والأمـرُ: يـكـونُ قبْلَ الفعْلِ

فالإذنُ ما يجيزُه اللّه لعباده من أفعالٍ أو أقوال، ويمكنُ أن يكونَ محبوبًا أو مكروهًا أو مباحًا، ولا يلزمُ منه التَّكليفُ أو الثَّواب أو العقاب، أمّا الأمرُ؛ فهو ما يطلبهُ اللّه من عبادهِ من فعلٍ أو ترْكٍ، ويكون واجبًا أو مستحبًّا، ويلزمُ منه التَّكليف والثَّواب.

(النّكِدُ) و(السَّيِّئُ):

النَّكدُ: قلَّة العطاءِ، المنكودُ: العطاءُ النَّزر القليلُ[5]، وقولهُ تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ أي: إلّا قليلًا، عسيرًا في شدَّةٍ، ضعيف

الـنَّـكِـدُ قِـلَّـةٌ وتـنـغـيـصٌ، والـسُّـوءُ قُـبحٌ مَعنويٌّ وحِسّيٌّ رَخيصٌ

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفِيروزابادي، البصائر: (قرى/قري).
(3) الراغب، المفردات: (أذن).
(4) ابن منظور، اللّسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (نكد).

المنفعة[1]، أمّا السَّيِّئُ؛ فهو من باب القبح، تقولُ: رجلٌ أسوأُ، أي: قبيحٌ، وامرأةٌ سوءاءُ، أي: قبيحةٌ[2]، وفي الآية الكريمة وصفَ النَّباتَ بكونهِ نَكِدًا؛ لأنَّه أرادَ قلَّته وعسرهُ وانتفاء منفعتهِ، وليس المرادُ أن يوصفَ بالقُبح.

(التَّصريفُ) و(التَّفصيلُ):

التَّصريفُ: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، وإبداله بغيرهِ، وتَصريفُ الرّياح: جعلُها جَنوبًا وشَمالًا وصَبًا ودَبورًا[3]، فالتَّصريفُ: هوَ التَّغييرُ في الشَّكلِ والنَّوعِ والعدد.

التَّـصْـريـفُ تَـغـيـيرٌ يَـطْـرأُ عـلى الـشَّيءِ، والتَّفصيلُ تبيينُ الـشَّيءِ مـنَ الشَّيءِ

أمّا التَّفصيلُ؛ فهوَ من فصل، وهو كلمةٌ تدلُّ على تمييزِ الشَّيء من الشَّيء وإبانتهِ عنه، وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: 133]، أي: مبيَّنات، وقيل: تفصيلُها: فصلُها وتمييزُها بعضُها من بعضٍ[4]، والتَّفصيل عكسُ الإجمال، ويعني: تقسيمَ الشَّيء وتحليله إلى جزئيّاتهِ المختلفة، وتفاصيله الدَّقيقة، والمراد منه توضيحُ المعنى بالتَّفاصيل، والتَّركيز على كلِّ واحدٍ ممّا فُصِّل على حِدة، ويذكر ما له علاقة به بطريقة مفصَّلةٍ، فالتَّفصيلُ يتعلَّق بالتَّحليلِ بعدَ الإجمالِ، فالمرادُ منهُ التَّوضيحُ، والتَّصريف يتعلَّق بالتَّغيير والتَّنويع والمرادُ منه تكثيرُ الآيات.

فمعنى تصريفِ الآياتِ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: نأتي بها من جهاتٍ لمعانٍ كالإعذار والإنذار والتَّرغيب والتَّرهيب[5]، وهذا التَّنويهُ يناسبهُ التَّصريفُ.

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 146، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 11، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (صرف).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فصل).

(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/428.

(الزَّرعُ) و(الشَّجرُ) و(النَّباتُ):

النَّباتُ أعمُّ منَ الشَّجرِ الَّذي له ساقٌ، وخاصِّيّة الـــزَّرعِ أنّـه لا ساقَ له

الزَّرعُ: ما ينبتُ على غير ساقٍ، والشَّجرُ: ما له ساقٌ وأغصان، يبقى صيفًا وشتاءً، والنَّباتُ يعمُّ الجميعَ؛ لأنَّه ما ينبتُ منَ الأرضِ، أي: يخرجُ منها[1].

وفي قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ جاء التَّعبيرُ بالنَّبات؛ لأنَّه يعمُّ جميعَ ما تنبتُ الأرضُ، وهو أبلغُ في السّياقِ.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 266.

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

محاورةُ نُوحٍ وقومِه، تجسيدٌ لما طابَ وما خَبُثَ

لمّا قرَّر ﷻ في سالفِ الآياتِ البراهين والحججَ على بدايةِ الخلقِ ونهايته؛ أتبعَ ذلك بقصصِ الأنبياءِ - عليهم السلام -[1]، وفي ذلك يقولُ أبو حيّان: "لمّا ذكر في هذه السّورة مبدأ الخلقِ الإنسانيِّ وهو آدم عليه السلام وقصَّ من أخبارِه ما قصَّ، واستطردَ من ذلك إلى المعادِ ومصيرِ أهلِ السَّعادةِ إلى الجنَّة، وأهلِ الشَّقاوةِ إلى النّار، وأمره تعالى بتركِ الَّذين اتَّخذوا دينَهم لعبًا ولهوًا، وكان من بعث إليهم رسول اللّه ﷺ، أوّلًا غير مستجيبينَ له ولا مصدِّقين لما جاءَ به عن اللّه قصَّ تعالى عليه أحوال الرُّسلِ - الَّذين كانوا قبله - وأحوالَ من بُعثوا إليه على سبيلِ التَّسليةِ لهُ - ﷺ والتَّأسّي بهم، فبدأ بنوحٍ"[2]، فهذه القصصُ سيقت مساقَ الدَّليل التّاريخي الذي يحقِّق ويقرِّر أنَّ في النّاس الخبيثَ والطَّيِّب[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: (رسل) أصلٌ يَدُلُّ على الانْبِعاثِ والامْتِدادِ، أَرْسَلْتُ الطائرَ من يدي: أطلقتُه، وأَرْسَلْتُ رَسولًا: بعثْتُه برسالة يؤدّيها، والإِرْسالُ يقالُ في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهةِ، وقد يكون ذلك بالتَّسخيرِ، كإرسالِ الرّيح، والمطر، وقد يكونُ ببعث من له اختيارٌ، نحو إرْسالِ الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الانعام: 61][4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/293.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 8/188، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/425، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234، والآلوسي، روح المعاني: 4/387.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح: (رسل).

2) ﴿نُوحًا﴾: نوحٌ: اسمٌ للنَّبيِّ المعروفِ ﷺ ويقال له: آدمُ الثّاني، وهو أبو البشر؛ لأنَّ أهل الأرض غرقوا بالطّوفان، ثمَّ جاء النّاسُ من نسله، فولد ثلاثةَ أولادٍ: سامَ وحامَ ويافثَ، وهو غير مشتقٍّ لعجمته، وإنَّما صُرف لخفَّته[1].

3) ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: (عبد) أصلٌ يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ، والعُبوديَّة: الخضوعُ والذُّلُّ، وهي إظهار التَّذلُّل، والعِبادَةُ أبلَغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو اللّهُ تعالى، والْعَبْدُ: الإنسانُ، حُرًّا كانَ أو رَقيقًا، يُذْهَبُ بِذلِكَ إلى أنّه مَرْبوبٌ لِباريهِ، ولا يُقالُ: عَبَدَ يَعْبُدُ عِبادة إلا لِمَنْ يَعْبُد اللّه[2].

4) ﴿أَخَافُ﴾: (خوف) أصلٌ يَدُلُّ على الذُّعْرِ والْفَزَعِ، الخَوْف: توقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، كما أنَّ الرَّجاء والطَّمع توقُّع محبوبٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، ويضادُّ الخوفُ الأمنَ، ويستعمل ذلك في الأمور الدُّنيوية والأخرويَّة[3]، والخوفُ هو ذعرٌ معقولٌ يبعثُ على التَّبصُّر بعواقب الأمر، والتَّأهُّب لخطرٍ محدق.

5) ﴿عَظِيمٍ﴾: (عظم) أصلٌ يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّة، عظُم الشَّيء عِظمًا: كَبُرَ، فهو عظيمٌ. العِظَم: ضدُّ الصِّغر، وعظَّمه: فخَّمه وكبَّره، واستعير لكلِّ كبيرٍ، فأُجري مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى، قال تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[4].

المعنى الإِجْماليُّ:

دَعــوةُ نُــوحٍ قومَه للتّوحيدِ العتيدِ، والحَذَرِ منَ الخُسرانِ في يومِ الوعيدِ

يخبرُ اللّهُ تعالى أنّه قد بعث نوحًا إلى قومه؛ داعيًا إلى توحيدِ

---

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (نوح).

(2) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عبد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (رسل).

(4) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، البصائر: (عظم).

اللّٰه سبحانه وإخلاصِ العبادة له، فدعاهم مشفقًا عليهم إلى عبادة اللّٰه وحده، مذكِّرًا إيّاهم بأن ليس لكم من إلهٍ يستحقُّ العبادة غيره ﷻ، فأخلصوا له العبادةَ، فإن لم تفعلوا، وبقيتُم على عبادة أوثانِكم، فإنَّني أخاف أن يحلَّ عليكم عذابُ يومٍ يعظمُ فيه بلاؤكم(1).

فوائدُ القَصَصِ القُرآنيِّ وأغراضُهُ:

القَصَصُ القرآنيُّ مَقصدٌ أثيلٌ، ومنهجٌ أصيلٌ، لبيانِ عظَمةِ المتصرِّفِ الجليل

ذكر أئمَّةُ التَّفسير أنَّ للقصصِ القرآنيِّ غاياتٍ وفوائدَ: **أوَّلها:** الاعتبارُ بأحوال السّابقين والوثنيّين الَّذين اعترضوا على الأنبياءِ، **وثانيها:** بيانُ ما نزل بالمشركين - الذين كفروا باللّٰهِ، وكذَّبوا الأنبياءَ، وعاندوهم، وآذوا مَن اتَّبعوهم - من عذابٍ حُتِّم عليهم، ليعلمَ الوثنيّون الذي يخاطبون النَّبيَّ ﷺ أنَّ اللّٰه تعالى يمهلُهم ولا يهملُهم، **وثالثها:** أنَّ الآياتِ مهما تكن شديدةً قارعةً حسيَّةً؛ لا تجعلُ من القلب الجاحدِ مؤمنًا، **ورابعها:** التَّسريَةُ عن النَّبيِّ ﷺ بأنَّه لم يكن أوَّل من كُذِّب، **وخامسها:** أنَّ في نبأ كلِّ نبيٍّ من الأنبياء تساقُ الحججُ على التَّوحيدِ، والتَّنبيهِ إلى آيات اللّٰهِ تعالى في الكون(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصلِ جُملةِ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ عمَّا قبلَها:

التَّنبيهُ بعد ذِكرِ النِّعَمِ على الاعتبارِ، بما حلَّ بالأقوامِ المُكذِّبين الفُجّارِ

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ استئنافٌ انتقلَ بِهِ الغرضُ من إقامةِ الحجَّة والمنَّةِ المبتدئة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 10]، وتنبيهِ أهل الضَّلالة أنَّهم غارقون في كيدِ الشَّيطان الذي هو عدوُّ نوعِهم، من قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: 16 - 33]، ثمَّ بالتَّهديدِ بوصفِ عذابِ الآخرةِ وأحوالِ النّاس فيه، وما تخلَّل ذلك من الأمثالِ والتَّعريضِ إلى غرضِ

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876 - 2877، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 8/188.

الاعتبارِ والموعظةِ بما حلَّ بالأممِ الماضية؛ فهذا الاستئنافُ له مزيد اتِّصالٍ بقولهِ في أوائل السّورة: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، وقد أفيضَ القولُ فيه في معظم السّورة(1).

غَرَضُ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾:

ما تَضمّنَتْه قصَّةُ قـومِ نـوحٍ من أخبارٍ، كالّذي أبْداهُ مُشركو العربِ منَ العُتوِّ والإنكارِ

جاء قوله جلَّ شأنه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ مصدَّرًا باللّام وحرف التَّحقيق (قد) المفيدين للتَّوكيد، والجملةُ "جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لقد أرسلنا، واطِّراد استعمالِ هذه اللّام مع (قد) لكون مدخولِها مَظِنَّةً للتَّوقُّع الذي هو معنى قد، فإنَّ الجملةَ القسَميَّةَ إنَّما تُساق لتأكيدِ الجملةِ المُقسَم عليها"(2)، والغرضُ من ذلك: تأكيدُ الخبر بالقسم(3)؛ لأنَّ المرادَ من هذه الأخبارِ تشبيهُ أحوال الأممِ الَّتي كذَّبت رسلَها بحال مشركي العربِ في تكذيبهم رسالةَ النَّبيِّ ﷺ، وتقترنُ اللّامِ الواقعةُ في جوابِ القسم بـ (قد)؛ لأنَّ القسم يهيِّئُ السّامعَ لتوقُّع خبرٍ مهمٍّ، فيؤتى بـ (قد) الدّالِّ على التَّحقيق لتدلَّ على التَّحقيق؛ لأنَّها تدلُّ على تحقيقِ أمرٍ متوقَّع(4)، وتحقيقها متأتٍّ من اقترانها بالفعلِ الماضي.

سِرُّ اخْتِيارِ لفْظِ الإرسالِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ دون (البعثِ):

نُـوحٌ حُـمِّـلَ رسالَةً للبلاغ، والإرسـالُ تـصـريـحٌ بالرِّسالةِ المنزّلةِ منَ الله

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإرسال دون البعثِ في قوله تعالى ذكره: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾؛ لأنَّ الإرسالَ لا يكون إلّا برسالةٍ وما يجري مجراها"(5)، فلمّا كان نوحٌ مرسلًا برسالةٍ يبلِّغها إلى قومه؛ جاء التَّعبيرُ بالإرسال دلالةً على الرِّسالة، أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، فقد صدَّر بالبعثِ دون الإرسال؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/575.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، وينظر: العليمي، فتح الرحمن: 2/535.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187 - 188.
(5) العسكري، الفروق، ص: 289.

لفظَ الرَّسول في ختامِ الآية يتضمَّن الرِّسالة، فعبَّر في صدر الآية بالبعثِ الدالِّ على الإثارة والتَّوجيه[1]؛ للدَّلالة على توجيهه الرُّسل إلى قومِهم، فدلَّ البعث على التَّوجيه، ودلَّ الرَّسول على تضمُّن الرِّسالة.

دَلالةُ ذِكْرِ قيدِ: ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾:

التَّلطُّفُ بالمرسَلِ إليهم مَسلكُ جميعِ الرِّسالاتِ

ذكرَ قيد ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ تصريحًا بأنَّ المقصودَ من الرِّسالة هم، وفي ذلك تشريفٌ لهم بقصدهم على الخصوصِ بالرِّسالة، كما كان القرآنُ تشريفًا لقوم النَّبيِّ ﷺ؛ إذ قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44] كما أنَّ في ذكر هذا القيد إيماءً إلى لطفِ اللّهِ تعالى بهم؛ إذ أرسل إليهم رسولًا منهم، كما قال: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾، فهم يعرفونه ليقعَ الاستئناسُ بين المرسَل والمرسلِ إليهم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّه تعالى قد يرسل رسولًا إلى قوم، وهو ليس منهم، كما أرسل موسى عليه السلام إلى فرعونَ، بداعي أنَّه ينطقُ بلسانِهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 4].

دَلالةُ العطْفِ بحرف (الفاءِ)، في: ﴿فَقَالَ﴾:

أمرُ الدَّعوةِ مَبنيٌّ على الفَوْرِ والمبادرة، لبلاغِ مَضامِينه النّاهيّة الآمرة

جاءتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوفةً على قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ بالفاء للدَّلالةِ على أنَّ "ذلك القول صدر منه فورَ إرسالِه، فهي مضمونُ ما أرسلَ به"[2]، فهو لم يتأخرْ في تبليغ الرِّسالة.

تَوجِيهُ المتشابهِ اللَّفظِيِّ:

جاء قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مقترنًا بالفاء، وكذلك في قوله: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣﴾ [المؤمنون: 23]، أمّا في قصَّة هودٍ وصالحٍ في سورة الأعرافِ، فجاءت

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بعث).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.

بلا فاءٍ، قال تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 65]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 73]، وفي تعليل ذلك جاء في الدُّرِّ المصون: "وجيء هنا بفاءِ العطفِ حيثُ قيل: ﴿فَقَالَ﴾، وكذا في (المؤمنين)، وفي قصَّة هودٍ وصالح وشعيبٍ هنا بغير فاءٍ، والأصلُ الفاء؛ وإنَّما حُذِفَتْ تخفيفًا وتوسُّعًا واكتفاءً بالرَّبط المعنويِّ، وكانت الثَّواني فما بعدها بالحذف أوْلى"[1].

تماسكُ النَّصِّ وحَبْكتُهُ، تُغْنِي في الرَّبْطِ عنِ الحرفِ المَسوقِ لذلك

فائِدةُ إضافةِ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى ضَميرِ المتكلِّمِ المحذوفِ:

خاطبَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ جميع قومهِ متودِّدًا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فكان الخطابُ لكلِّ قومه؛ "لأنَّ الدَّعوة لا تكون إلّا عامَّة لهم، وعبَّر في ندائهم بوصف القومِ لتذكيرِهم بآصرةِ القرابةِ، ليتحقَّقوا أنَّه ناصحٌ ومريدٌ خيرهم ومشفقٌ عليهم، وأضافَ (القوم) إلى ضميره للتَّحبيب والتَّرقيق لاستجلاب اهتدائهم"[2]، وخاطبهم بالنِّداء تنبيهًا إلى ما سيلقيهِ إليهم، وأنَّه أمرٌ يهمُّ الجميعَ، و"في ندائه قومه تنبيهٌ لهم لما يلقيه إليهم واستعطافٌ وتذكير بأنَّهم قومُه، فالمناسبُ ألّا يخالفوه"[3]. فالتَّعبيرُ بأنَّهم قومُه إشارةٌ إلى حرصِه عليهم حثًّا وحثٌّ لهم على تصديقه. وحُذِفت ياءُ المتكلِّم، فلم يقل: (يا قومي)؛ للتَّخفيف لسكونِها وسكونِ ما بعدها.

بيانُ تودُّدِ نوحٍ إلى قومِه، لِحثِّهم على تصْديقِهِ واتِّباعِ هِدايتِه

عِلَّةُ إطْلاقِ الأمرِ بالعبادةِ دونَ التَّقْييدِ بالتَّوحيدِ:

جاءَ الأمرُ بالعبادةِ مطلقًا عن قيد التَّوحيدِ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فلم يقل: (اعبدوه وحده)، فتركَ تقييدَ العبادةِ بالتَّوحيدِ؛ "للإيذانِ بأنَّها العبادةُ حقيقةً، وأمّا العبادةُ بالإشراكِ

العبادةُ الحقَّةُ، هـي المُتضمِّنةُ معنَى التَّوحيدِ، وتَجلّياتِه في المعاملةِ

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/354 - 355، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/82، والآلوسي، روح المعاني: 4/389.

فليستْ منَ العبادة في شيءٍ"[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ التَّوحيدَ قد ذُكرَ عقبَ الأمر بالعبادة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فاكتفى به عن تعليقِ العبادةِ بهِ وحدَه.

مُوجِبُ فَصْلِ جُملةِ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ عمَّا قبْلَها:

بيانُ عِلَّةِ اخْتِصاصِ الله تعالى بالعبادَةِ

جاء قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مفصولًا بلا عاطف بفاءٍ ولا غيرها؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ مسوقٌ لبيان علَّة اختصاصِه جلَّ شأنه بالعبادة[2]، ورفض ما سواه، فكانت في غايةِ الاتِّصال[3]، وهو المعروفُ بشبهِ كمال الاتِّصال.

مَوقعُ نفْيِ نوحٍ ألوهيّةَ غيرِ الله، في مُراعاةِ مُقتضَى حالِ قومِه:

دعوةُ نوحٍ ما بين الشِّرْكِ والوثنيَّةِ المحْضةِ، وبيانِ الحقِّ على الاحْتِمالَيْنِ

جاءَ قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ محتملًا أنَّه "خُرِّجَ مخرج التَّسليم الجدلي؛ فإن كانوا مشركينَ؛ كان أمره إيّاهم بعبادة اللّه مقيَّدًا بمدلولِ قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، أي: أفرِدوه بالعبادةِ ولا تشركوا معه الأصنامَ، وإن كانوا مقتصرينَ على عبادةِ الأوثان؛ كان قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تعليلًا للإقبال على عبادة اللّه، أي: هو الإلهُ، لا أوثانكم"[4].

فائدةُ دُخولِ ﴿مِّنْ﴾ على النَّكرةِ بعد النَّفْي:

تأكيدُ النَّفْيِ وشُمولُه شُمولًا اسْتغراقيًّا، من فصيحِ البيانِ

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، جاء النَّفي متبوعًا بـ ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ لاستغراق النَّفي[5]، حيثُ دخلت ﴿مِّنْ﴾ على النِّكرة لتأكيد النَّفي، والمعنى: "ما لكم إلهٌ غيرُه"[6]؛ فمجيءُ النَّكرة في سياق النَّفي مجرورةً بـ ﴿مِّنْ﴾ يدلُّ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/82، والزمخشري، الكشّاف: 2/113، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(3) ابن عادل، اللباب: 9/176.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/189.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.
(6) الواحدي، البسيط: 9/196.

شمول النَّفي وعمومِه، فليس ثمَّة إلهٌ على الإطلاق إلّا الإلهُ الذي يستحقُّ العبادة على وجه الحقِّ، وهو الخالقُ العظيم، وبه بطلَت عبادةُ كلِّ إلهٍ حجريٍّ، أو بشريٍّ، أو غيبيٍّ، أو فكريٍّ، ممّا يتصوَّره العقل البشريُّ في الحسِّ أو الوَهم سوى اللّه تعالى.

الفرقُ بين قولِه: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ وقولِه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾:

الاستغراقُ في نفْيِ الألوهيَّةِ وإثباتُها لله وحدَه، دليلٌ على غَطْرسةِ الكُفرِ

استُعمل في القرآنِ الكريم الاستثناءُ بأداة الاستثناءِ ﴿إِلَّا﴾ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢﴾ [آل عمران: 62]، وبأداةِ الاستثناءِ ﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ كما في هذه الآيةِ، وهاتان الأداتان (غير)، و(إلّا) تُستعملان في الاستثناء، وبينهما فرقٌ، حيث يُلاحظ أنَّ كلمة ﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ أشدُّ نفيًا؛ لأنَّها موغلةٌ في الإبهام، فتشمل كلَّ شيءٍ باستثناء ما أُضيفت إليه، فهو المستثنى نفسُهُ مع المضاف إليه، والمستثنى بأداة (إلّا) يأتي بعدَها، فهو مستثنًى بواسطتها، وفي الآيةِ الكريمة سبق الاستثناءَ النَّفيُ، و﴿مِّنۡ﴾، وتنكيرِ ﴿إِلَٰهٍ﴾، وكلُّ ذلك يدلُّ على العموم، ثم ختمَ بالإبهام، فجاءتِ العبارةُ على الغاية في نفي الألوهيَّة عن غير اللّه تعالى.

عِلَّةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ عمّا قبلَها:

تعليلُ الأمْرِ بالعبادةِ والتَّوحيدِ، لخوْفِ نُوحٍ على قوْمِه

جاءتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ بلا عاطفٍ مفصولةً عن قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾؛ لأنَّها جاءت لبيان علَّةِ الأمرِ بالعبادةِ والتَّوحيدِ، فهي مستأنفةٌ بيانيًّا، تبيِّن الدّاعي "إلى عبادته؛ لأنَّه هو المحذورُ عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دونِ اللّهِ"(1).

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/113، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235، والآلوسي، روح المعاني: 4/388.

فائدةُ إضافةِ (إنَّ)، إلى ياء المتكلِّم في قولِه: ﴿إِنِّيٓ﴾:

الدَّعوةُ المحَّضةُ لله، تُحرِّكُ المخاوفَ على المَدْعُوِّ من سُوءِ عُقبَاه

جاءت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ مؤكّدةً بـ (إنَّ) تأكيدًا لمضمون الجملة الاسميَّةِ الَّتي تعبِّر عن خوف نوحٍ ﷺ على قومه، وذلك يدلُّ على أنَّه "كان جازمًا بأنَّ العذابَ ينزل بهم، إمّا في الدُّنيا، وإمّا في الآخرة؛ إن لم يقبلوا ذلك الدّين"[1]؛ فلذا لم يقُل: (أنا أخاف عليكم)؛ لأنَّها خاليةٌ عن ذلك الجزمِ والتَّأكيد، ودخلت (إنَّ) على ضمير المتكلِّم؛ لبيان أنَّ الخوفَ إنَّما هو خوفٌ ذاتيٌّ صادرٌ عن خشيتهِ على قومهِ وحرصه عليهم، وأنَّه ليس مأمورًا به من اللهِ تعالى أمرًا مباشِرًا، وهذا يدلُّ على أنَّ على الدُّعاةِ أن يحرِصوا على المدعوّين حرصًا خاصًّا.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَخَافُ﴾ دونَ: (أحذِّركم):

خوفُ الأنبياءِ خوفُ شفقةٍ وحنانٍ، لا خوفُ تهديدٍ بالشّتيمةِ والهوانِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالخوف في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ دون التَّحذيرِ؛ فلم يقُل: (إنّي أحذِّرُكم)؛ لأنَّه عبَّر عن شفقتهِ عليهم، "ولم يقطع حنوًّا عليهم، واستجلابًا لهم بلطفٍ"[2]؛ وذلك لأنَّ التَّحذيرَ يأتي من رتبةٍ أعلى، والأنبياء دعوتُهم لعامَّةِ النَّاس، يخاطبونهم خطابًا ليِّنًا خاليًا من العلوِّ والكبرياء، صادرًا عن شفقتهم على الخلقِ، وهذا يُناسِبه التَّعبيرُ بالخوف دون التَّحذيرِ، والتَّحذيرُ يليق بالملوكِ والحكّام.

دَلالةُ صِيغةِ المضارعِ، في قولِه: ﴿أَخَافُ﴾:

الأنبياءُ خَوفُهم علَى الخلْقِ، مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ لا يَنفَصمُ

التَّعبيرُ عن خوفهِ عليهم بالفعل المضارعِ يدلُّ على أنَّه كان يخافُ عليهم باستمرارٍ، فهو خوفٌ يتجدَّد ويستمرُّ، وهذا متناسبٌ مع حرصهِ عليهم المعبَّر عنه في الآيةِ، ويدل على إصرارهِ على الدَّعوة وابتغائه الخيرَ لقومه.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/388، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

سِرُّ اسْتِعمالِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّعبيرُ بحرف الجرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاءِ، مع تعلُّقه بالخوفِ يدلُّ على شدَّةِ خوفهِ عليهم، فهو خوفٌ متمكِّنٌ منه عليهم، وفي ذلك إظهارٌ لشدَّة شفقتهِ على النّاس رغمَ شدَّة معارضتهِم له، وهو ليس خوفًا عامًّا، بل خوفٌ متعلِّق بهم.

خوفُ الأنبياءِ كخَوفِ الآباءِ، لا يُثْنيهِ الصِّياحُ، ولا تَدفعُه الرِّياحُ

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، على المفعولِ به ﴿عَذَاب﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ قدَّم فيه الجارَّ والمجرورَ على المفعولِ به اهتمامًا بالمخوفِ عليه دون المخوفِ منه، فهو لم يخشَ العذابَ لذاتهِ، بل لكونهِ متعلِّقًا بقومه، فكونهُم قومَه هو عِلَّةُ خوفِ العذاب.

مِنْ أهمَّهُ أمرُ أحدٍ؛ خافَ عليه مِنَ الأذَى والكَمدِ

دَلالةُ وَصْفِ اليومِ بالعظيمِ:

في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ وصفُ اليومِ بالعظيم، يدلُّ على عظمةِ العذاب، والمرادُ باليوم: إمّا يوم القيامةِ، أو يوم الطُّوفان[1]، وكلاهما متَّصفٌ بالعظمة، فإذا كان الظَّرفُ عظيمًا؛ فإنَّ كلَّ ما يكون في ذلك اليوم سيكون متَّصفًا بالعظمةِ على وجهِ القطعِ والمبالغة؛ فـ "وصفُ اليوم بالعظم لبيان عظمِ ما يقعُ فيه"[2]؛ ولأنَّ الإضافةَ تدلُّ على أنَّه عذابٌ خاصٌّ بذلك اليوم المتَّصف بالعظمةِ.

عَظَمةُ اليومِ راجعةٌ إلى هوْلِ المشاهدِ الّتي سوفَ تقعُ أثناءَه

سِرُّ وصْفِ اليومِ في الأعْرافِ بـ ﴿عَظِيمٖ﴾، وفي هودٍ بـ ﴿أَلِيمٖ﴾:

جاءَ وصفُ العذاب بكونهِ واقعًا في يوم عظيم في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وفي سورة هودٍ وُصِفَ بكونه واقعًا في يومٍ أليم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ [هود: 26]؛ وذلك لأنَّه في سورة هود قد ذكرَ العذابَ فيها بالتَّفصيل،

وُصِفَ اليومُ بالعظيمِ عندَ الإجمالِ، وبالأليمِ عندَ التَّفصيلِ

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.

وذلك يظهرُ عظمته؛ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود: 40 - 42]، فلم يصرِّح بصفةِ العظمةِ لدلالةِ المقامِ عليها، وذكر صفةَ الألم؛ لأنَّ السّياقَ يبيّن ما لاقى نوحٌ عليه السلام من قومه من آلام، فجاءَ الوصفُ بكونهِ أليمًا ليناسبَ تلك الآلامَ الَّتي لاقاها منهم، وفي سورةِ الأعرافِ جاء وصفُ العذابِ بأنَّه عذابُ يومٍ عظيمٍ؛ لأنَّ تفصيلَه لم يُذكر كما ذكرَ في سورةِ هودٍ، فوصفَهُ بالعظيمِ للإخبارِ بتلك الصِّفةِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإرسالُ) و(البعثُ):

كـلُّ إرســالٍ بـعـثٌ، ولـيس كلُّ بعثٍ إرسالًا

البعثُ أعمُّ من الإرسالِ؛ لأنَّه "يجوز أن يبعثَ الرَّجل إلى الآخرِ لحاجةٍ تخصُّه دونك، ودون المبعوثِ إليه، كالصَّبي تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثتُه، ولا تقولُ: أرسلتُه؛ لأنَّ الإرسالَ لا يكون إلّا برسالةٍ وما يجري مجراها"[1]، وفي قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ آثر التَّعبيرَ بالإرسالِ؛ لأنَّه يتضمَّن رسالةً؛ فمعنى "الإرسال: أنَّه تعالى حمَّله رسالةً يؤدّيها، فالرِّسالة على هذا التَّقدير تكون متضمِّنةً للبعث"[2].

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٦٠﴾ [الأعراف: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُواصلةُ عَرْضِ مَشاهدِ قصّةِ نُوحٍ وقومِه، تَكذيبًا للرّسولِ، وإسْفافًا في القَولِ

بعد أن شرعَ ﷻ في ذكر قصَّة نوحٍ عليه السلام وحكايةِ ما قالهُ لقومِهِ؛ أتبعهُ على طريقة الحكاياتِ والمحاوراتِ بما أجابه قومُه، فقال: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: (ملأ) المَلَأُ: جماعةٌ من النّاس يجتمعون ليتشاوروا، ويتحادثوا، والجميعُ: الأَمْلاءُ، ومالَأْتُ فلانًا على الأمر، أي: كنتُ معه في مشورتِه، والممالأة: المعاونة: مالَأتُ على فلانٍ، أي: عاونتُ عليه، وهم أشرافُ القومِ ووجوهُهم ورؤساؤُهم ومقدِّموهم الَّذين يُرجع إلى قولهم؛ يملَؤون العيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا[2]، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾، أي: الكبراءُ الأشرافُ والسّادات الَّذين جعلوا أنفسَهم أضدادَ الأنبياءِ[3].

2) ﴿لَنَرَىٰكَ﴾: (رأى) أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ، والرُّؤية بالعينِ تتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، وبمعنى العلم تتعدَّى إلى مفعولين، يقالُ: رأى عمرُ زيدًا عالِمًا، فالرُّؤيَةُ هي النَّظَرُ بالعَيْن أو القَلْب، والرَّأْيُ: اعتقادُ النَّفس أحدَ النَّقيضين عن غلبةِ الظَّنِّ[4]، والرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ رؤيةُ القلبِ[5].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.

(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ملأ).

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296، والعليمي، فتح الرحمن: 2/536.

(4) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (رأى، رأي).

(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/113.

3) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: (ضلل) أصلٌ يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ، ضلَّ الشَّيء: ضاعَ وهلَك، والضَّلالُ والضَّلالةُ: ضدُّ الهُدَى والرَّشاد، وهو العدولُ عن الطَّريق المستقيم، قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: 15]، ويقالُ: الضَّلالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا[1].

4) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بَيَنَ) أصلٌ يدلُّ على انْكِشافِ الشَّيء، بانَ الشَّيْءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضحَ وانْكَشَفَ، أبان الشَّيء، فهو مُبِينٌ، يقال: بان لك، وأبان، واستبان، وبيَّن وتبيَّن بمعنًى واحدٍ، والبيانُ: ما يتبيَّن به الشَّيء من الدَّلالة وغيرها، وسمّي الكلامُ: بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهارُه[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ المبينُ: اسمُ فاعلٍ من أبان، وذلك هو الضَّلال البالغُ الغاية في البُعدِ عن طريق الحقِّ[3]، يعني: "تدعوننا إلى عبادة إلهٍ واحدٍ، وهو خطأٌ بيِّنٌ؛ لأنّا وجدنا آباءنا يعبدون آلهةً، فقد ضلَلْتَ أنت عن هذا الطريقِ"[4].

المعنى الإجماليُّ:

المَـلأُ هُـمْ رأسُ الحَـربةِ، وسُـمُّ الرَّميةِ

يخبرُ اللّه تعالى أنَّ من تصدَّى للرَّدِّ على دعوةِ نوحٍ ﷺ كبراءُ القوم وأشرافُهم، فقالوا له على وجه اليقين: (إنّا لنعتقدُ - يا نوحُ - أنَّك في ضلالٍ بيِّنٍ عن طريقِ الصَّواب)[5].

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ضلّ، ضلل).
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بين).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.
(4) النّسفي، التيسير في التفسير: 6/379.
(5) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾:

تَشويقُ المخاطَبِ لمعرفةِ ردِّ المُبْطِلين، وصَدِّ المُناوِئين

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عن سابقهِ لكونهِ استئنافًا بيانيًّا، مبنيًّا على "سؤالٍ نشأ من حكايةِ قولِه ﷺ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا له ﷺ في مقابلة نصحِه؟ فقيل: قال الرُّؤساءُ مِن قومه، والأشرافُ الَّذين يمثِّلون صدورَ المحافلِ بإجرامهم، والقلوبَ بجلالهِم وهيبتِهم، والأبصارَ بجمالهِم وأبَّهتهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾"[1].

سِرُّ مجيء ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ بلا فاء، وذكْرِها في سورة (المؤمنون):

آيةُ الأعرافِ بيَّنتِ الجوابَ، وآيةُ (المؤمنون) أبانتْ عن سُرعةِ الجوابِ

قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾، جاءت الجملةُ مفصولةً غير معطوفةٍ بالفاء في هذه الآية، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 24]، وذلك أنَّ السّياقين يتكاملانِ في بيانِ المقصودِ، فآيةُ الأعراف تُجيبُ عن جوابِ الدَّوابِّ من قومِه، بَيْنَما آيةُ (المؤمنون)؛ فتُجيبُ عن سرعةِ جوابِهم، فآيةٌ بيَّنتِ الجوابَ، وأخرى بيَّنتِ السُّرعةَ في الإجابةِ، وهذا من التَّكاملِ بين الآياتِ.

عِلَّةُ إسْنادِ القولِ إلى الملأِ دونَ القومِ:

مَنْ يَتحسَّسِ الخطرَ؛ يُواجِهْهُ بالبَطَرِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾، أسندَ القولُ إلى الملأ دون القومِ؛ إذ "لم يجبهُ من قومِه إلّا أشرافُهم وسادتُهم، وهم الَّذين يتعاصون على الرُّسلِ؛ لانغمارِ عقولهِم بالدُّنيا، وطلبِ الرِّئاسةِ والعلوِّ فيهما"[2]، فهو إسنادٌ على وجهِ الحقيقةِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ دون مُرادِفاتِه:

تَوجيهُ نوحٍ دَعوتَه للملأِ، فكان جوابُهم على المَلَأِ

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بالملأِ دونَ غيرهِ من المُرادفاتِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الملأ هم "أشرافُ القوم

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235، والآلوسي، روح المعاني: 4/388.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

وقادتهم؛ لأنَّ شأنَهم أن يكون رأيُهم واحدًا عن تشاور، وهذا المعنى: هو المناسبُ في هذه الآية، بقرينةِ ﴿مِن﴾ الدّالَّة على التَّبعيض، أي: إنَّ قادةَ القومِ هم الَّذين تصدّوا لمجادلةِ نوحٍ والمناضلةِ عن دينهم بمسمعٍ منَ القومِ الَّذين خاطبَ جميعَهم"[1]، فالتَّعبيرُ عنهم بالملأ يفصح عن صفاتِ الَّذين تصدّوا للرَّدِّ على دعوةِ نوحٍ ﷺ فلم يكونوا من عامَّةِ النّاس، كما يبيِّن أنَّ نوحًا قد وجَّه دعوتَه للقادةِ والحاكمينَ ومَن له الأمرُ.

المَلأُ الّذين تَنقادُ لهمُ العامَّةُ، ويَنطقُونَ باسْمِها في الأمورِ الخاصّةِ والعامّةِ

دَلالةُ حرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾:

معنى حرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ التَّبعيضُ، وهو "يقتضي أنَّ ذلك الملأ بعضُ قومِه، وذلك البعضُ لا بدَّ وأن يكونوا موصوفين بصفةٍ لأجلها استحقّوا هذا الوصفَ، وذلك بأن يكونوا هم الَّذين يملؤون صدورَ المجالس، وتمتلئُ القلوب من هيبتهِم، وتمتلئُ الأبصارُ من رؤيتهم، وتتوجَّه العيونُ في المحافل إليهم، وهذه الصِّفاتُ لا تحصل إلّا في الرُّؤساء، وذلك يدلُّ على أنَّ المراد من الملأِ الرُّؤساء والأكابر"[2] الَّذين ينطقون عن عامَّةِ النّاسِ، وعامَّةُ النّاس يوافقونَهم في العادةِ.

دَلالةُ إضافةِ لفظِ (القوم) إلى الضَّميرِ، في قولِه: ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾:

أُقيمتِ الحُجَّةُ على المَلأِ وقومِهم، على حدٍّ سواء

أُضيف لفظُ (القوم) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ إلى الضَّميرِ العائدِ على نوحٍ ﷺ لبيانِ أنَّهم يعرفونه، ويعرفون صدقَهُ وحسنَ سيرته، فكان حريٌّ بهم تصديقَهُ واتِّباعَهُ، وأنَّهم القوم أنفسهم الذين خاطبهم، فهو لم يخاطبِ الملأ دونَ القوم، بل دعاهم جميعًا، ولو قال: (قال الملأ: إنّا لنراك) بلا قيدٍ، كونُهم من قومه؛ لمَا تحقَّقتِ الإشارةُ إلى أنَّ القومَ قد أُقيمتْ عليهم الحُجَّة، وأنَّهم مُلامون

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190، وينظر: ابن عادل، اللباب: 9/179.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.

ومُحاسبون على ما يقولُه الملأُ، ويُعزِّزُ ذلك قولُه في الآيةِ اللّاحقةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾، فلم يوجِّهه للملأِ فحسب؛ فسكوتُ القومِ وسكونُهم لما يحدثُ، دليلُ الرِّضا الفعليِّ والقوليِّ، وهو المعتبرُ.

سِرُّ المؤكِّداتِ في جُملةِ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

شَراسةُ مُهاجمةِ الحقِّ الصُّراحِ، تَعكسُ شِدَّةَ التَّمسُّكِ بالباطلِ البَواحِ

عبَّر النَّظم في قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عن وصفهِم له بذلك على وجه التَّأكيدِ، فجاءت الجملةُ الاسميَّة مصدَّرةً بحرف التَّأكيد (إنَّ) مع دخول لام التَّأكيدِ في خبرها؛ وإنَّما حكى قولهم المضمَّن التَّأكيدَ "للدَّلالة على أنَّهم حقَّقوا، وأكَّدوا اعتقادهم أنَّ نوحًا منغمسٌ في الضَّلالة"[1]، ويدلُّ ذلك على شدَّة تمسُّكهم باعتقادهم، بحيثُ إنَّهم كذَّبوا من يعرفون صدقَه، فأكَّدوا نسبته إلى الضَّلالِ حفاظًا على زيفِ معتقدِهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ في قوله: ﴿لَنَرَىٰكَ﴾:

تَوهُّمُ أهلِ الباطلِ أنّهم يَعتمدُون الجزمَ اليقينيَّ، لا الظَّنَّ المتُهافِتَ

عبَّر النَّظم الشَّريف في قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عن تأكيدِ الملأِ على ضلالِ نوحٍ بالرُّؤيةِ لا بالظَّنِّ، فلم يقولوا: (إنّا لنظنُّك في ضلالٍ مبينٍ)، فالرُّؤيَةُ "قلبيَّةٌ بمعنى: العلم، أي: إنّا لنوقن أنَّك في ضلالٍ مبينٍ"[2]، ويضافُ إلى ذلك أنَّ قولَهم ذلك جرى في سياق الذَّودِ عن اعتقادِهم والمدافعةِ عن آلهتهم، والحديثُ عن المعتقداتِ يتطلَّب أن يكونَ في غايةِ الحسمِ والتَّأكيد، فعبَّروا عن يقينِهم بأنَّه ضالٌّ؛ لئلّا يظهروا لمن يسمعُهم من عامَّة القومِ أنَّهم في شكٍّ أو تحيُّرٍ.

بَلاغةُ المجازِ المرسلِ، في قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

تَصويرُ إحاطةِ الضَّلالِ بنُوحٍ عليه السلام، مُبالغةٌ وتَشنيعٌ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عبَّروا عن شدَّة ضلالهِ - بزعمهم - فجعلوه مستقرًّا في الضَّلالِ، فلم يقولوا:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190، وينظر: ابن عادل، اللباب: 9/179.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190.

(إنَّك ضالٌّ، أو إنَّك ذو ضلالٍ)، إذ دلَّت (في) هنا على الظَّرفيَّة المجازيَّة "وجعل الضَّلال ظَرْفًا؛ مبالغةً في وصفهم له بذلكَ"[1]. فكون الضَّلال ظرفًا يدلُّ على أنَّه محيطٌ به، قد استحوذ عليه، والضَّلالُ على الحقيقةِ ليس ظرفًا؛ "لأنَّه معنًى من المعاني، وإنما يحلُّ في مكانه، فاستعمالُ الضَّلالِ في مكانهِ مجازٌ مرسلٌ أُطلِقَ فيه الحالُ، وأريدَ المحلُّ، فعلاقتهُ الحاليَّةُ، وفائدتهُ المبالغة في وصفه بالضَّلال وإيغالهِ فيه، حتى كأنَّه مستقرٌّ في ظلماتهِ لا يتزحزحُ عنها، وزادوا في المبالغةِ بأن أكَّدوا ذلك بأن صدَّروا الجملةَ بأن زادوا اللّام في خبرها"[2].

نُكتةُ وصفِ لفْظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾، بأنّه ﴿مُّبِينٍ﴾:

تفاقُمُ الخلافِ بين نوحٍ وقومِه؛ عِلّةٌ لوصْفِهِم الضَّلالَ بالمُبينِ

قوله تعالى: ﴿لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:، ومعنى الضَّلال المبين: البيِّنُ كونُه ضلالًا[3]، ووصفُ الملأِ الضَّلالَ بذلكَ دون (البعيد) أو (القديم) أو (الكبير)؛ لأنَّهُ خالفَ دينَهم من جهاتٍ عديدةٍ؛ "إذ نفى الإلهيَّةَ عن آلهتهم، فهذه مخالفةٌ، وأثبتَها للّهِ وحدَه، فإن كانوا وثنيّين فهذهِ مخالفةٌ أخرى، وتوعَّدهم بعذابٍ على ذلك، وهذه مخالفةٌ أيضًا، وإن كان العذابُ الذي توعَّدهم به عذابَ الآخرةِ؛ فقد أخبرهم بأمرٍ محالٍ عندهم، وهو البعثُ، فهي مخالفةٌ أخرى، فضلالُه عندَهم مبينٌ"[4].

وقد وُصِف الضَّلالُ بالبعدِ في سياقاتِ الكفرِ والضَّلال، كقولهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: 116]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ٦٠﴾ [النساء: 60]، فوصفهُ بالبعيدِ للدَّلالة

(1) ابن عادل، اللباب: 9/179، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/376.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

على شدَّة الضَّلال، فقد "شبَّه الكفرَ بضلالِ السّائرِ في طريقٍ، وهو يكون أشدَّ؛ إذا كان الطَّريق بعيدًا، وذلك كنايةٌ عن عسرِ إرجاعهِ إلى المقصودِ، والمعنى: لفي ضلالٍ شديدٍ"[1].

وأمّا وصفُه بأنَّه كبيرٌ؛ فقد جاءَ في قولِه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ٩﴾ [الملك: 8 - 9]، ومعناهُ: "شديدٌ بالغٌ غايةَ ما يبلغُ إليه جنسه حتى كأنَّه جسمٌ كبيرٌ"[2]، وهذا الوصفُ جاء في سياقِ جوابِ أهلِ النّار، قالوهُ بصيغةِ الجمع الشّامل لكلِّ الأقوامِ الذين كذَّبوا الرُّسل، فهم الآن أمَّةٌ واحدة، اعترفوا بتكذيبهم الأنبياءَ، فوصَفُهم ضلالَ الأنبياء بالكبير للدَّلالة على أنَّ تكذيبهم كان تكذيبًا فاحشًا.

وأمّا وصفُه بالقديم في قصَّة يوسفَ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: 94 - 95]، "والمعنى: أنَّك مستمرٌّ على التَّلبُّس بتطلُّب شيءٍ من غير طريقِه، أرادوا طمعهُ في لقاء يوسفَ عليه السلام ووصفوا ذلك بالقديمِ لطولِ مدَّته، وكانت مدَّةُ غيبةِ يوسفَ عن أبيه - عليهما السلام - اثنتين وعشرين سنة"[3]. فجاء كلُّ وصفٍ في مكانه الأنسبِ.

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرُّؤيةُ) و(العلْمُ) و(الظّنُّ):

الرُّؤيةُ: علمٌ بموجودٍ، والعلْمُ: علْمٌ بموجودٍ ومعدومٍ، والظّنّ: ضَربٌ منَ الاعتقادِ

الرُّؤية بمعنى: العِلم، ولكنَّ "الرُّؤية لا تكون إلّا لموجودٍ، والعلمُ يتناول الموجودَ والمعدوم، وكلُّ رؤيةٍ لم يعرض معها آفةٌ؛ فالمرئيُّ بها معلوم ضرورةً، وكلُّ رؤيةٍ؛ فهي لمحدود، أو قائم في محدود"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/26.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/53.
(4) العسكري، الفروق، ص: 94.

فالرُّؤية هي العلم بموجود، والرَّأْيُ: اعتقاد النَّفس أحد النَّقيضين عن غلبةِ الظَّنِّ[1]، وأمّا الظَّنُّ؛ فإنَّه ضربٌ من الاعتقاد[2]، قد يدلُّ على يقينٍ، إلّا أنه لَيْسَ بيقينِ عيانٍ، إنما هوَ يقينُ تَدَبُّرٍ، فأمّا يَقينُ العيانِ؛ فلا يُقالُ فيهِ إلّا عَلِمَ، وهو اسم لما يحصل عن أمارةٍ، ومتى قويت؛ أدَّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم[3]، وعليه فإنَّ الرُّؤية أدلُّ على العلم من الظَّنِّ، وفي الآية الكريمة عبَّروا عن قوَّة يقينهم بكونهِ ضالًّا، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (رأى، رأي).

(2) العسكري، الفروق، ص: 99.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (ظنّ/ظنن).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾

[الأعراف: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ردُّ أهْلِ الحقِّ أقوَى حُجّةً، وأوضحُ بيانًا من تُهمةِ أهْلِ الباطِلِ

لما كان جوابُ قومه أنَّهم نسبوه إلى الضَّلال البيِّن؛ أتبعَهُ بحكايةِ ردِّ نوحٍ عليه السلام عليهم بنفي ما قذفوه به بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾، فلمَّا "قذفوه بضلالٍ مقيَّدٍ بالوضوح؛ نفى الضَّلال المطلقَ"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَٰلَةٞ﴾: الضَّلالُ والضَّلالة مصدران من قولكَ: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالةً، "ولا يظنُّ أنَّه لمّا كان الضَّلالُ والضَّلالة مصدرين من قولك: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالة؛ كان القولان سواءً؛ لأنَّ الضَّلالة هنا ليست عبارةً عن المصدر، بل عن المرَّة والنَّفي كما علمت، وإنَّما بالغَ عليه السلام في النَّفي لمبالغتِهم في الإثباتِ حيثُ جعلوهُ - وحاشاه - مستقرًّا في الضَّلال الواضحِ كونه ضلالًا"[2].

المعنى الإجْماليُّ:

تَفنيدُ نوحٍ لتُهمةِ قومِه له بالضّلالةِ، والتّأكيدُ بأنّه رسولٌ من ربِّ العالَمين

يخبرُ اللّه تعالى بما ردَّ نوحٌ عليه السلام على قومه، نافيًا عن نفسه ما رموه به، متلطِّفًا في جوابه؛ إذ خاطبهم بصلاتِ القُربى، مبيِّنًا أنَّه مرسلٌ من اللّه ربِّ العالمين الذي يتعهَّد خلقهُ بالخيرِ والنَّفع، وهذا أقصى منازلِ الهداية، فقال نوحٌ: "يا قومُ لست ضالًّا في مسألةٍ من المسائلِ بوجهٍ من الوجوهِ، ولكنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين ربّي وربِّكم وربِّ جميع الخَلق"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/428 - 429.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/389.

(3) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ نِداءِ نوحٍ عليه السلام لقومِه بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

مَنهجُ النّبوّةِ، استمالةُ القلوبِ، بحُسْنِ الأدبِ، وسَعةِ الصَّدْرِ

افتتحَ نوحٌ عليه السلام جوابَه بنداءِ قومِهِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ تنبيهًا لهم على مضمونِ القول، وأضافَهم إليه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ "استمالةً لقلوبهم نحو الحقِّ"(1)، وكان ردُّه هذا بعد وصفهم إيَّاه بالضَّلال "مبالغةً في حسنِ الأدب والإعراض عن الجفاءِ منهم، وتناولٍ رفيقٍ وسعة صدرٍ حسبما يقتضيه خُلقُ النُّبوَّة"(2).

فائدةُ تَكرارِ نداءِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

إخلاصُ النُّصحِ، والإعراضُ عنِ الجَفاءِ، طريقانِ للبقاءِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ كرَّر نداءَ قومه، وإن كان الَّذين أجابوه هم الملأُ من القوم، وليس القومُ كلُّهم؛ تفضُّلًا منه بالإعراض عن جفائهم، واستعطافًا لهم، وهذا يدلُّ على سَعة صدرِهِ معهم(3)، وفي ذلك يقولُ العلّامة ابن عاشورٍ رحمه الله: "ولم يخصَّ خطابه بالَّذين جاوبوهُ، بل أعاد الخطابَ إلى القوم كلِّهم؛ لأنَّ جوابَه مع كونه مجادلةً للملأِ من قومِهِ هو أيضًا يتضمَّن دعوةً عامَّة، كما هو بيِّنٌ، وتقدَّم آنفًا نكتةُ التَّعبيرِ في ندائهم بوصف القوم المضافِ إلى ضميرِهِ، فأعاد ذلك مرَّةً ثانيةً استنزالًا لطائرِ نفوسِهم، ممّا سيعقب النِّداء من الرَّدِّ عليهم وإبطال قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾"(4).

سِرُّ العُدولِ عن نفْيِ (الضَّلالِ المبُينِ)، إلى نفْيِ (الضَّلالةِ):

نفيُ نوحٍ وصفَ (ضَلالةٍ) عن نفسِه، دليلٌ على سُموِّهِ وصَلاحِهِ

لمّا حكَى اللهُ تعالى قولَهم لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فكان ذلك يقتضي أن يكونَ جوابُه: (ليس بي ضلالٌ) ولكنَّه عدلَ إلى قولِه: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾؛ فنفى الضَّلالة دون الضَّلالِ؛ "لأنَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/415.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191 - 192.

قولَه: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ أي: ليس بي نوعٌ من أنواعِ الضَّلالةِ البتَّة، فكان هذا أبلغَ في عمومِ السَّلبِ"[1]. قال الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: لمَ قال: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ ولم يقل: (ضلال) كما قالوا؟ قلتُ: الضَّلالة أخصُّ من الضَّلال، فكانت أبلغَ في نفي الضَّلال عن نفسه، كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ من الضَّلال، كما لو قيل لك: ألك تمرٌ؟ فقلت: ما لي تمرةٌ"[2]، "فالأسماء المفردة الواقعةُ على الجنس التي يكونُ بينها وبين واحدها تاءُ التَّأنيثِ، فإنَّه متى أريد النَّفي؛ كان استعمال واحدِها أبلغَ، ومتى أُريدَ الإثباتُ؛ كان استعمالُها أبلغ"[3]، فقولُنا: الضَّلال والضَّلالة جاءا مصدرين من قولك: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالةً سواءً؛ لأنَّ الضَّلالة هنا ليست عبارةً عن المصدر، بل عن المرَّة، وإنَّما بالغَ عليه السلام في النَّفي لمبالغتِهم في الإثبات[4].

سِرُّ تذْكِيرِ ﴿لَيۡسَ﴾ مع تأنيث ﴿ضَلَٰلَةٞ﴾:

الضَّلالةُ مؤنَّثٌ غيرُ حقيقيٍّ، وهي انحرافٌ في القولِ أوِ الفعلِ أوِ الاعتقادِ

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ جاء ﴿ضَلَٰلَةٞ﴾ مؤنَّثًا، وجرَّد الفعل ﴿لَيۡسَ﴾ من علامة التَّأنيث، حيثُ "جرى على الجوازِ في تجريدِ الفعل من علامة التَّأنيث، إذا كان مرفوعُه غيرَ حقيقيٍّ التَّأنيث، ولمكان الفصل بالمجرور"[5]، وإذا كان التَّذكيرُ والتَّأنيث كلاهما جائزٌ في الفعلِ هنا؛ فإنَّه آثر التَّذكيرَ؛ لأنَّه أخفُّ بتجرُّده عن حرف التَّأنيثِ، فعبَّر به في ردِّ شُبهتهم إيجازًا، واكتفى بعلامة التَّأنيث الظّاهرة في ﴿ضَلَٰلَةٞ﴾ الدّالَّةِ على الوحدة والمرَّة؛ ولئلّا تثقلَ العبارةُ بعلاماتِ التَّأنيث، وفي التَّخفيفِ عنها مندوحةٌ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/113 - 114.
(3) ابن الأثير، المثل السائر: 2/166.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/389.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.

دَلالةُ (الباءِ)، في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾:

بَـلاغـةُ الـرَّدِّ، مُسْتلَّةٌ من فِقْهِ نـوحٍ ﷺ بمُرادِ خُصومِه

لمّا وصفَ قومُ نوحٍ رسولَهم ﷺ بكونه مستقرًّا في الضَّلال بإدخال (في) الظَّرفيَّة على الضَّلال؛ أجابهم بنفي ملابستهِ أيَّ نوعٍ من الضَّلالة بإدخال الباء في قوله: ﴿لَيۡسَ بِي﴾ الدّالَّة على المصاحبة أو الملابسة، ليناقض معنى الظَّرفيَّة المجازيَّة من قولهم: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾، فلمّا جعلوا الضَّلال متمكِّنًا منه محيطًا به؛ نفى هو أن يكونَ الضَّلال متلبِّسًا به[1].

سَببُ تَقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿بِي﴾ على اسم (ليس):

غَـرَضُ التَّقديمِ يَـجـمَـعُ بين الاهـتـمـامِ بالمتكلِّم، ورعايةِ السِّباق

قدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ لأمرين اثنين: الأوَّل: معنويٌّ، وهو الاهتمامُ بالمنفيِّ عنه، وهو المتكلِّم، فقدَّم الجارَّ والمجرور المتضمِّن ضمير المتكلِّم ليتسلَّطَ النَّفي على المتقدِّم، إذ المهمُّ أن يسلب عن نفسهِ ذلك، والآخر لفظيٌّ نسقيٌّ، وهو بالنَّظر إلى تركيب قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حيثُ تقدَّم ضميره في (نراك) على ذكر الضَّلال، وقدَّم ضميرهُ كذلك في ﴿بِي﴾ على الضَّلالة، فيكونا على نسقٍ واحدٍ.

غَرَضُ التَّنْكيرِ في قوله: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾:

المبالغةُ في الرَّدِّ على مُبالغتِهم في الاتِّهامِ، قوَّةٌ مُـسـتـمْـلَـحـةٌ، وحقٌّ صَميمٌ

نُكِّرَ لفظُ الضَّلالةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾؛ للمبالغةِ في نفي الضَّلال عنه، أي: ليس بي أيُّ شيءٍ من الضَّلال، والغرضُ من ذلك الرَّدُّ بالنَّفي البليغ على مبالغتِهم بوصفه بالضَّلالِ؛ إذ جعلوا الضَّلال ظرفًا له[2].

بَلاغةُ وصْلِ جُملةِ: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ﴾ بما قبلَها:

وصلَ قولهُ جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بقولِه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾؛ لكونِهما من مقولهِ ﷺ؛ فبعد أن "نفى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.

التَّخْليةُ مُقدَّمَةٌ على التَّحلية، بنفْي المذمّة، وترسيخ المَحمَدَة

عن نفسِه العيبَ الَّذي وصفوه به؛ وصفَ نفسَه بأشرف الصِّفات وأجلِّها، وهو كونه رسولًا إلى الخَلق من ربِّ العالمين"[1]، فأعقب التَّخليةَ بالتَّحلية، فزكَّى نفسَه عن الضَّلال، وأثبت نقيضَ ذلك بكونه مبلِّغًا عن الله تعالى، فأنَّى يعتريه الضَّلال؟

دَلالةُ حرفِ (لكنَّ) المتّصلِ بياءِ المتكلِّم، في قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي﴾:

إثباتُ الهدايةِ بقصْدِ نفْي نقيضِها، وصُدورُ النَّفْي والاستدراكِ عن قائلٍ واحدٍ

أعقبَ النَّفيَ في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ بالاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ﴾، ولم يقل: (أنا رسول)؛ ليصرِّحَ بالاستدراك، فلمّا نُسِبَ نوحٌ عليه السلام إلى السَّفاهة؛ نفاها عن نفسه في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فكان وصفُه بالسَّفاهة يستلزمُ كونَه كاذبًا ضالًّا، فاستدرك عليه بكونِه رسولًا من ربِّ العالمين، وهذا يقتضي "كونَهُ في الغاية القصوى من الرُّشد والأناةِ والصِّدقِ والأمانة؛ فإنَّ الرِّسالةَ من جهة ربِّ العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا، كأنَّه قيل: ليس بي شيءٌ مما نسبتموني إليه، ولكنّي في غايةِ ما يكونُ من الرُّشد والصِّدق"[2].

وفائدةُ دخول (لكنَّ) على ياء المتكلِّم الدَّلالةُ على أنَّ النَّفيَ والاستدراكَ كليهما من قائلٍ واحد؛ لينقضَ المعنى الأوَّل الَّذي رموه به، ويثبتَ نقيضه، "كما تقول: ما زيدٌ بضالٍّ، ولكنَّه مهتدٍ، فـ (لكن) واقعةٌ بين نقيضين؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخلو من أحد الشَّيئَين: الضَّلال والهدى، ولا تجامع ضلالةُ الرِّسالةَ"[3]، فنفى عن نفسه الضَّلالَ، وأثبتَ نقيضَها، وهو الهدايةُ.

فائِدةُ إيثارِ الوصْفِ لا الإضافةِ، بدُخولِ حرفِ الجرّ ﴿مِّن﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ آثرَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83.

التَّصريحُ بمبدأِ الرِّسالةِ تَشريفٌ لحامِلِها

الوصف على الإضافةِ، لا العكس كما في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦﴾ [الزُّخرُف: 46]؛ فالجارُّ والمجرور ﴿مِّن رَّبِّ﴾ صفة لرسول، و(مِن) لابتداء الغايةِ تصريحًا بمصدر الرِّسالة، وإيثارُ وصفِ ﴿رَسُولٌ﴾ بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالإضافةِ إلى تنكيره تفخيمٌ لهذا الرَّسول، قال في روح المعاني: "و(مِنْ) فيها لابتداء الغاية مجازًا متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لرسولٍ مؤكِّدة ما يفيده التَّنوينُ من الفخامةِ الذَّاتيَّة، كأنَّه قيل: إنِّي رسولٌ، وأيُّ رسول كائنٌ من ربِّ العالمين"[1]. وهذه الصِّفة تفيد المدحَ لإثبات كونه مرسلًا من الله تعالى، وهذا المدحُ يناسب السِّياقَ للرَّدِّ على نسبتهم له إلى الضَّلالِ، فظهر أنَّ الأنسبَ بالسِّياق هو الوصفُ لا الإضافةُ.

نُكتةُ إيثارِ ذِكْرِ ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، بدلًا من اسْمِ الجلالةِ (الله):

إرسالُ الرُّسُلِ لِتحقيقِ المصالحِ والإحسانِ للعِبادِ، هو بالرُّبوبيَّةِ ألْصَقُ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يعبِّر عن مصدرِ الرِّسالة بكونِها من ربِّ العالمين بدلًا عن اسم الجلالةِ (الله)؛ تذكيرًا لهم بإحسانِه إليهم، فمعنى قوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ "المحسنُ إليهم بإرسال الرُّسلِ لهدايتهم بإنقاذهم من الضَّلال، فردَّ الأمرَ عليهم بألطفِ إشارةٍ"[2]، والتَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة يناسبُ السِّياق الذي يذكر فيه مصالحَ العباد، وما يتعلَّق بهم من إقامة حياتهم، وفيه تنبيهٌ لهم "على أنَّه ربُّهم؛ لأنَّهم من جملة العالم، أي: من ربِّكم المالكِ لأموركم النّاظرِ لكم بالمصلحة حيثُ وجَّهَ إليكم رسولًا يدعوكم إلى إفرادِه بالعبادةِ"[3].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/390، وابن عادل، اللباب: 9/180.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والمراغي، تفسير المراغي: 8/189.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الضَّلالُ) و(الضَّلالةُ):

الضَّلالةُ تُوصفُ بـواحـدةٍ، أمَّا الـضَّـلالُ؛ فهو للكثيرِ

الضَّلالة أخصُّ من الضَّلال؛ لأنَّها تطلق على ضلالةٍ واحدةٍ، كالتَّمر والتَّمرة، فكانت أبلغَ في نفي الضَّلال عن نفسهِ في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ من الضَّلال، كما لو قيلَ لك: ألك تمرٌ؟ فقلتَ: ما لي تمرةٌ[1].

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/113 - 114.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾ [الأعراف: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن حكى الله تعالى عن نوحٍ عليه السلام ردَّه على قومه بنفي الضَّلالةِ وإثباتِ الهداية بكونه رسولًا من ربِّ العالمين، استأنفَ بالإخبارِ عن وظيفتِه بيانًا لرسالته[1]، فلمّا "نفى عن نفسه العيبَ الَّذي وصفوه به، ووصف نفسَه بأشرفِ الصِّفات، وأجلِّها، وهو كونُه رسولًا إلى الخلقِ من ربِّ العالمين؛ ذكر ما هو المقصودُ من الرِّسالة، وهو أمران: الأوَّل: تبليغُ الرِّسالة. والثّاني: تقريرُ النَّصيحة، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾"[2].

بعدَ دفعِ المعوِّقاتِ يَحسُنُ بيانُ المقصودِ، بِدَوْرِ الرّسولِ في النُّصحِ وإبلاغِ الرّسالاتِ

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾: (بلغ) أصلٌ يدلُّ على الوصولِ إلى الشَّيء، تقول: بلغتُ المكانَ؛ إذا وصلت إليه، والإبْلاغُ والتَّبليغُ: الإيصالُ، والاسْمُ مِنْهُ البَلاغُ، وأبْلَغْتُه، وبَلَّغْتُه بِمَعْنًى واحِدٍ، يقال: بَلَّغْتُه الخبر، وأبْلَغْتُه، وبلَّغته أكثر[3]، قال ﷻ: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أي: أوصلُ إليكم[4].

2) ﴿أَنصَحُ﴾: (نصح) أصلٌ يدلُّ على مُلاءَمَةٍ بين شَيْئَيْنِ وإِصْلاحٍ لَهُما، أَصْلُ ذلك ناصِحُ العَسَلِ: خالِصُهُ، ونَصَحْتُ الجِلْدَ: خِطْتُه، والنّاصِحُ: الخيّاطُ، وكُلُّ شيءٍ خَلَصَ، فقَدْ نَصَحَ، النُّصْحُ والنَّصيحَةُ: خلافُ الغشِّ، وهو تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.
(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (بلغ).
(4) العليمي، فتح الرحمن: 2/537.

صاحبِهِ، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ، أي: أَخْلَصْتُهُ[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ "أي: أتحرَّى ما فيه صلاحُكم"[2].

المعنى الإجماليُّ:

رسالةُ الله مُناطةٌ بالحقِّ والحكمةِ الأثيرة، والرّسولُ مُبلّغٌ بالعلمِ والبَصيرةِ

يخبر اللهُ تعالى عن نوحٍ عليه السلام أنَّه قال لقومه مبيِّنًا رسالته وغايته: "أبلِّغكم ما أرسلني به ربّي من الدَّعوة إلى التَّوحيد الخالص، والإيمانِ باللّه وملائكته وكتبِهِ ورسله واليوم الآخرِ، وما اشتمل عليه من جنَّةٍ ونارٍ، وثواب وعقابٍ، وأبيِّن لكم أصولَ العباداتِ والمعاملات وأحكامها العامَّة وفضائل الأخلاق والآداب، وفي الجملة: كلُّ الأوامر والنَّواهي والمواعظ والزَّواجر والبشائر والنَّذائر، وأنصحُ لكم نصحًا خالصًا من شوائب المصلحةِ والمكر، بتحذيركم من عقاب اللّه على كفرِكم وتكذيبكم لي، وأنا في هذا التَّبليغِ والنُّصح أعلمُ من اللّه وشؤونهِ ما لا تعلمون من مصيرِ هذا العالم، وإنَّ إنذاري عاقبة الشِّرك بعذاب الدُّنيا، ونصحي لكم ناشئٌ عن علمٍ يقينيٍّ لا تعلمونه"[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ عمّا قبلَها:

تَبليغُ الرِّسالةِ ونُصحُ النّاسِ وإرشادُهم، هو مَقصدُ الرِّسالةِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ استئنافيَّةٌ، سيقت لبيانِ صفاتِ رسالته من ربِّ العالمين[4]، وفي هذا الاستئنافِ تعليلٌ للرِّسالة، فكأنَّ سؤالًا نشأ عن قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقيل: ولماذا أرسلكَ ربُّ العالمين؟ فقال: أرسلني إليكم لأبلِّغَكم وأنصحَكم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾:

اسْتِعارةُ التَّبليغِ للإيصالِ، بقصْدِ تَصويرِ أمانةِ المبَلِّغِ

يدلّ فعلُ التَّبليغِ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (نصح).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(3) الزّحيلّي، المنير: 8/254.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/114، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/266 - 367.

جعلِ الشَّيء بالغًا واصلًا إلى المكان المقصود، فاستعار تبليغَ الشَّيء إلى المكانِ المقصود للإعلام بالأمر المقصودِ، فكأنَّه ينقل الخبر من مكانٍ إلى مكان[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ، في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾:

تَبليغُ نُوحٍ لقومِه مُستمِرٌّ لقرونٍ، إصْرارًا منه على دَعْوتِهم

عبَّر عن التَّبليغِ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ بالفعلِ المضارعِ للدَّلالة على التَّجدُّد، وهذا يدلُّ على أنَّه "غيرُ تاركٍ التَّبليغَ من أجل تكذيبهم تأييسًا لهم من متابعتِه إيّاهم"[2]، وفيه دليلٌ على حرصِه وإصرارِه على دعوتِه وثباته على ذلك.

دَلالةُ تضْعيفِ الفعْلِ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وجمْعِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

امْتِدادُ دَعوةِ نُوحٍ لقومِه، استغرقَ ما يُوازِي عِدّةَ رِسالاتٍ

في قولِه تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ جاء الفعلُ (أبلِّغ) مضعَّفًا لمناسبة الجمعِ في الرِّسالات؛ فلمّا عبَّر بالرِّسالات في صيغة الجمع الدّالَّة على الكثرةِ؛ ناسبه أن يعبِّرَ بالفعل المضعَّف الدّالِّ على التَّكثير؛ ليقعَ التَّناسب بين اللَّفظين.

تَوجِيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾:

إشارةُ قراءةِ التَّخفيفِ إلى بدايةِ الدَّعوةِ، والتَّشديدِ إلى اسْتِمرارِها

في قولِه تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ قرأ الجمهورُ بتشديد اللّام من التَّبليغ، وقرأ أبو عمرو بتخفيف اللّامِ من الإبلاغ[3]، وكلُّ قراءةٍ مثَّلت حقبةً من الزَّمن، فمعلومٌ أنَّ نوحًا عليه السلام قد طال أمدُ دعوتِه لقومه، فناسبَ التَّخفيفُ بدءَ الدَّعوة، ولمّا تكرَّر تبليغُه لهم ودوامه عليه؛ ناسب أن يعبِّر عن ذلك بالتَّثقيل الدّالِّ على التَّكثير، فأشارتْ كلُّ قراءةٍ إلى معنًى وزمانٍ مرادٍ.

فائِدةُ تعْدِيَةِ الفعْلِ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ إلى الضَّميرِ المتَّصل:

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ متعدّيًا إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/270.

الضَّمير المتّصل، ولم يقل: (أبلِّغ رسالات ربّي)؛ لأنَّه أوقعَ فعلَ التَّبليغ عليهم ليصرِّح بأنَّ المقصودَ من التَّبليغ إنَّما هو أنتم لا أحدَ غيركم، وأنَّ قصدَ الرِّسالة أن تبلغَ لكم، وهذا يشعرُ بالاهتمام بهم وتكريمهِم بالخطاب، وإبرازُ المقصودِ له وقعٌ في إقناعِ المخاطَب، وإشباعِ عاطفتهِ.

إبـرازُ المقـصُودِ لـه وَقْـعٌ في إقْناعِ المخاطَبِ، وإشْباعِ عاطِفتِهِ

نُكتةُ الجمْعِ في قولهِ: ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

عبَّر النَّظمُ عن الرِّسالات بالجمعِ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ ولم يعبِّر بالمفردِ، فلم يقل: (رسالة ربّي)؛ لأنَّه لمّا أخبر بالفعلِ المضارع ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾ الدّالِّ على التَّجدُّد المشعرِ بطول الزَّمان؛ ناسبَ التَّعبيرُ بالجمعِ، فالرِّسالات تعبيرٌ عن الوحي في الأوقاتِ المتطاولة، كما أنَّها تدلُّ على المعاني الكثيرةِ المختلفة من الأوامرِ والنَّواهي والمواعظِ والبشائر والأحكام والقصص[1].

طُـولُ الـزَّمـانِ وتجدُّدُ الدَّعوةِ، يُناسبُه الجمْعُ لا الإفرادُ

سِرُّ إضافةِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ إلى الرَّبّ:

في قولهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أضافَ الرِّسالات إلى صفةِ الرُّبوبيَّة، ولم يضفها إلى لفظ الجلالة؛ إشارةً إلى أنَّ من أرسلني هو المحسنُ إليَّ، وأنَّها تتضمَّن الخيرَ للنّاس ومصالح العباد، وأنَّ هذه الرِّسالة من مقتضى رحمته بخلقه ورعايتِهِ لهم، فهي رسائلُ من النّاظر بمصالح الخلقِ.

الـرِّسـالـةُ التي تَـرِدُ مـنَ الـرَّبِّ المُحسنِ لعِبادهِ، تَـكُـونُ خـيرًا محْضًا

فائِدةُ إضافةِ لفْظِ (الرَّبِّ) إلى ضَميرِ المتكلِّم ﴿رَبِّي﴾، والعُدولِ عن (ربِّكم):

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المتكلِّم في قولهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ بعد أن قالَ: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إيذانًا بأنَّ عليه لزومَ طاعته، وأنَّه لا يسعه إلّا تبليغُ ما أمره بتبليغهِ، وإن كرهَ قومه[2]، قال أبو السُّعود: "وتخصيصُ ربوبيَّته تعالى به - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بعد بيانِ عمومِها

واجـبُ التَّبليغِ تَكليفٌ، وبَيانُ المَقصودِ تلْطيفٌ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/576، والزمخشري، الكشّاف: 2/115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/194.

للعالمين؛ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكم الَّذي هو تبليغُ رسالتِه تعالى إليهم؛ فإنَّ ربوبيَّتَه تعالى له - ﷺ - من موجباتِ امتثالِه بأمرِه تعالى بتبليغ رسالتِه تعالى إليهم"[1]، فواجبُ تكليفِه ﷺ، يختلف عن التَّلطُّفِ بقومه.

سِرُّ العُدولِ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، في قولِه: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾:

بيانُ الْتِزامِ المبلِّغ برسالةِ الله، دونَ أدْنَى تَصرُّفٍ فيها

في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ عدلَ عن إضافةِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ إلى الضَّمير الذي يعودُ على ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المذكورِ في قولِه: ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلم يقل: (رسالاته) فوضعَ ﴿رَبِّي﴾ موضعَ الضَّمير، ووجه هذا العدولِ "هو ما تؤذنُ به إضافةُ الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّم من لزوم طاعتِه، وأنَّه لا يسعه إلّا تبليغُ ما أمرهُ بتبليغهِ، وإن كره قومُه"[2]، فإنَّ ربوبيَّته للنَّبيِّ ﷺ تؤذنُ بوجوبِ امتثاله للأمر بالتَّبليغ.

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾:

النُّصحُ دَعامةُ التَّبليغِ وزينتُه، وعليه مُعتمَدُ البلاغِ وحِكمتُه

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ لبيانِ كيفيَّةِ أداء الرِّسالة[3]، فعطف النُّصحَ على التَّبليغ إعلامًا بشدَّة حرصِه عليهم وابتغائه نفعَهم وإرشادَهم.

نُكتةُ إيثارِ التَّعْبير، بفعْلِ ﴿وَأَنصَحُ﴾:

النُّصحُ قائمٌ على إرادةِ النَّفْع للآخِرِ، وخُلُوِّه مِنِ انتفاعِ النَّفْسِ

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بالنُّصح في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ دون غيرِه من الألفاظ، كأن يقول: (أرشدكم)، أو (أهديكم)؛ لأنَّ مقصد النّاصح "إرادةُ الخيرِ لغيرِه كما يريدهُ لنفسِه"[4]، فهو يقصدُ مصلحتَهم مع خلوص نيَّته، وتحرّيه لما فيه خيرُهم وصلاحُهم[5]، وهذا المعنى لا يدلُّ عليه غيرُه من مرادفاته.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/194، والآلوسي، روح المعاني: 4/390 - 391.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(4) العليمي، فتح الرحمن: 2/537.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/297، والآلوسي، روح المعاني: 4/391.

دَلالةُ صِيغةِ المضارعِ في: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾:

الإعلامُ بِتَجدُّدِ النُّصحِ، دليلُ الثَّباتِ والإصْرارِ

في قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ عبَّر عن نصحهِ لهم بالفعل المضارعِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّد نصحهِ عليه السلام لهم[1]، كما دلَّ ذلك على إصرارهِ وثباتهِ في دعوته، ويعربُ عن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥﴾ [نوح: 5].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بقوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ دونَ (وأنصحكم):

تَمحِيضُ النَّصيحةِ للمُخاطَبين، أبينُ في إقامةِ الحُجَّةِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ جيءَ باللّامِ مع أنَّ الفعل (نصح) يتعدَّى إلى المفعولِ بنفسهِ، "للدَّلالة على إمحاضِ النَّصيحةِ لهم وأنَّها لمنفعتِهم ومصلحتِهم خاصَّة"[2]، فالغرضُ من النُّصح إنَّما هو أنتم وليس وراءه منفعةٌ تعودُ عليه عليه السلام، وفي ذلك مبالغةٌ في إخلاص النَّصيحةِ لهم، فهي وقعت خالصةً للمنصوح، وقصدَ بها جانبهُ لا غير[3].

دَلالةُ العطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

الإخْبارُ بعلْمهِ ما لا يعلمونَ، وعيدٌ أُردِفَ بالوعْدِ بالإبلاغِ والنُّصْحِ

قوله تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ معطوفٌ على قوله جلَّ شأنه: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ تقريرًا لرسالته عليه السلام، وما أوعدهم به، والمعنى: أعلمُ من قِبَلِهِ تعالى بالوحي أشياءَ لا علمَ لكم بها كقدرته وشدَّة بطشه[4]، وقد عقَّب بالعلم بعد ذكرِ النُّصح والرِّسالات "جمعًا لمعانٍ كثيرةٍ ممّا تتضمَّنه الرِّسالة، وتأييدًا لثباته على دوامِ التَّبليغ والنُّصح لهم، والاستخفافِ بكراهيَّتهم وأذاهم؛ لأنَّه يعلم ما لا يعلمونه ممّا يحمله على الاسترسالِ في عمله ذلك، فجاء بهذا الكلامِ الجامع، ويتضمَّن هذا الإجمالُ البديعُ تهديدًا لهم بحلول عذابٍ بهم في العاجل والآجلِ، وتنبيهًا للتَّأمُّل فيما أتاهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/194.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/18.

به، وفتحًا لبصائرهم أن تتطلَّبَ العلم بما لم يكونوا يعلمونه، وكلُّ ذلك شأنُه أن يبعثَهم على تصديقه وقبولِ ما جاءهم به"[1].

فائِدةُ التَّعْبِيرِ بالعِلْمِ، في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

التَّزكيةُ بالعِلْمِ بـعْـدَ الـنِّسبـةِ إلى الـجـهْـلِ والـضَّـلالِ، مَسْلكٌ للانْتِصارِ للحَقِّ

آثر أن يعبِّرَ بالعلم في قولِه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ دون مرادفاته؛ لأنَّه أجابهم على شبهتِهم، وردَّ نسبتهم إيّاه إلى الضَّلال، فلمّا "كان الضَّلال من الجهل؛ قالَ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من صفاتِ الَّذي له صفاتُ الكمالِ وسائر شؤونه"[2]، فجاء التَّعبيرُ بالعلم ردًّا على ما نسبوه إليهِ من الضَّلال الذي يقتضي الجهلَ، فإنَّ الضَّالَّ قد ضاعَ، وفَقَدَ معرفةَ الطَّريق، أمّا أنا؛ فعلى علم ودراية، والمعنى: "أنا في هذا التَّبليغ وذلك النُّصح على علم من اللّه أوحاهُ إليَّ لا تعلمون منه شيئًا، كما أنّي أعلم من اللّه وشؤونِه ما لا تعلمونَ في نظامِ هذا العالمِ، وما ينتهي إليهِ، كما أعلم ما بعده من أمرِ الآخرةِ والحساب والجزاء، فإذا نصحتُ لكم، وأنذرتُكم عاقبةَ شِركِكم من إنزالِ العذابِ بكم في الدُّنيا؛ إذا جحدتُم وعاندْتُم، فإنَّما أنصحُ لكم عن علم يقينيٍّ لا تعلمونه"[3].

دَلالةُ صِيغةِ المضارعِ في ﴿وَأَعْلَمُ﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ الوَحْيَ مُتجدِّدٌ لا يَنقطِعُ

قولُه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عبَّر عن علمِه ﷺ بالفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التَّجدُّد؛ للدَّلالة على ثباتِه في الدَّوام على دعوتِه، وأنَّ علمَهُ عن اللّه تعالى متجدِّدٌ مستمرٌّ لا ينقطع، إشعارًا بأنَّ الوحيَ الَّذي يأتيه دائمٌ متجدِّدٌ.

نُكتةُ إسْنادِ العِلْمِ إلى نُوحٍ، ثمَّ بيانِ أنَّه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ قُوَّةِ العِلْمِ، دَلـيـلُ الـعِـزَّةِ والرِّفعةِ، والمددِ الإلهيِّ

أسندَ نوحٌ ﷺ العلمَ إلى نفسِه في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على قوَّة علمِه في هذا الشَّأنِ؛ لأنَّه في سياقِ وعيدٍ، والوعيدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/194 - 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 8/190.

يقتضي القوَّة في التَّعبيرِ، ومعلومٌ أنَّه قد علم ذلك من اللّه تعالى، أي: إنَّ مصدرَ ما له من علم إنَّما هو من جهتهِ تعالى، فالإخبارُ بأنَّه يعلم يُشعر بمكانةِ علمهِ، والإخبارِ عن جهة علمه وكونهِ من اللّه تعالى يغني عن إسنادِ العلمِ إليه ﷻ.

دَلالةُ حرفِ الابتداءِ (من)، في قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ نَوْعِ العِلْمِ وأنَّـه وَحْـيٌ لا اكتِسَابٌ

جاءتْ ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ للدَّلالةِ على الابتداءِ، أي: "صار لي علمٌ واردٌ منَ اللّه تعالى"[1]، وذلك للدَّلالةِ على أنَّ علمَهُ جاء عن طريقِ الوحي، فهو تأكيدٌ وتقريرٌ لعلمه، ولما أوعدهم به، والمعنى: "أعلمُ من قدرتهِ وشدَّة بطشه، أو من جهتهِ بالوحي أشياءَ لا علم لكم بها"[2]، ففي حرفِ (من) دلالةٌ على تزكية علمه، وأنَّه علمٌ فريد؛ لذلك عقَّب عليه بقوله: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وفائدةُ ذلك تنبيهُهم على الاهتمام بما بلَّغهم به من الرِّسالاتِ وبما ينصحهُم به.

دَلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

عِلْمُ نُوحٍ عليه السلام عامٌّ، يَشمَلُ كلَّ ما جَهِلَهُ قومُهُ عنِ اللهِ تعالى

قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ عبَّر بـ (ما) الموصوليَّة الدّالَّة على الإبهام والتَّعميم، ففي التَّعبير بها "إبهامٌ عليهم، وهو عامٌّ، ولكن ساقَ ذلك مساقَ المعلوماتِ الَّتي يخاف عليهم، ولم يسمعوا قطُّ بأمَّة عذِّبت، فتضمَّن التَّهديد والوعيد، فيحتمل أن يريدَ ما لا تعلمون من صفاتِ اللّهِ وقدرته وشدَّةِ بطشهِ على من اتَّخذ إلهًا معهُ، أو يريد ما لا تعلمون ممّا أوحي إليَّ"[3]، فدلالةُ (ما) على التَّعميم لا تصرِّح بما علِم، فيشملُ كلَّ ما يحتملُ أن يعلمه ممّا جهلوهُ عن ربِّه جلَّ ذِكرهُ، وفي ذلك تفخيمٌ لشأنِ المعلوم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/18.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83.

نُكتةُ النَّفْيِ بحرفِ ﴿مَا﴾، في قولِه: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

نَفْيُ المضارعِ بـ (لا)، يدلُّ على استِمرارِ النَّفْي، ونَفْيُهُ بـ (لم) يدلُّ على نَفْيِ الماضِي

آثر في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أن يعبِّرَ عن نفي العلم عن قوم نوحٍ بـ (لا) دون (لم) فلم يقل: (ما لم تعلموا)؛ لأنَّ النَّفي بـ (لم) يدلُّ على نفي العلم في الزَّمن الماضي، فكان إيثار النَّفي بـ (لا) لِما تدلُّ على النَّفي المستمرِّ لاقترانها بالفعل المضارع، فالنَّفي بـ (لم أفعل) يدلُّ على القطع، والنَّفي بـ (لا أفعل) يدلُّ على الاستمرار.

إيثارُ التَّعْبيرِ بلفْظِ العِلْم، وصِيغةِ المضارع:

مُقتضَى الاسْتِمالةِ والتَّلطُّفِ، اسْتِعمالُ نَفْيِ العِلْمِ لا إثباتِ الجَهْلِ

آثر النَّظمُ استعمالَ ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ دون أن يقولَ: (ما تجهلون)، وهي أوجزُ لفظًا؛ لسببين اثنين: الأوَّل: لأنَّه لمّا عبَّرَ في صدرِ الجملةِ بالعلم بقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بنى العبارةَ على التَّناسب، فختمها بنفي العلم عنهم دون إثبات الجهل، فقال: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، ولم يقل: (ما تجهلون)، والآخر: دلاليٌّ، وهو ما يتوافقُ مع استمالةِ القومِ للإيمانِ، فإنَّ إثبات الجهلِ فيه لدغةٌ لا تتناسبُ مع ما وردَ في هذا السّياقِ من الاستمالةِ والتَّلطُّفِ بالقوم.

وآثرَ في نفي العلم عنهم أن يكونَ بالفعل المضارعِ للدَّلالةِ على استمرار النَّفي، فكما أثبتَ العلم له على وجه التَّجدُّد والاستمرار؛ نفاهُ عنهم على التَّجدُّد والدَّوام، وفي ذلك حثٌّ لهم على الاهتمام بما دعاهم له، وتنبيهٌ لهم على الإقبالِ على التَّعلُّم منه.

بَلاغةُ الجِناسِ، في قولِه: ﴿وَأَعۡلَمُ﴾، و﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

تَكرارُ العِلْمِ بِصِيغَتَيْنِ مختلفتَيْنِ، يَدلُّ على مكانتِه

في قولهِ تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، حيث ورد لفظانِ من جذرٍ واحدٍ، فكرَّر لفظَ العلم اهتمامًا به وتأكيدًا على قيمته، مع ما في ذلك من جمالٍ لفظيٍّ بتكرار اللَّفظ المتشابهِ، المفضي إلى الانتباهِ إلى أهمّيَّة المكرَّر.

بَلاغةُ طِباقِ السَّلْبِ في قولِه: ﴿وَأَعۡلَمُ﴾، وقولِه: ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

إثباتُ العِلْمِ ونفيُهُ، يُثيرُ الانتباهَ، ويَحثُّ على الاهتمامِ بفَحْواه

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ طباقُ سلبٍ حيثُ جمعَ في عبارةٍ واحدةٍ بين فعلين من مصدر واحد، وهو (العلم): أحدُهما مثبتٌ ﴿وَأَعۡلَمُ﴾، والآخرُ منفيٌّ ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وفي ذلك إثارةٌ لانتباهِ المخاطبِ بأن يسمعَ المعنى نفسه لكن مرَّة مثبتًا وأخرى منفيًّا، وفي ذلك تنبيهٌ وحثٌّ لقومهِ على مراجعةِ معتقدهم؛ إذ أخبرهم بأنَّه يعلمُ، وهم لا يعلمون.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(التّبليغُ) و(الإنْبَاء):

التَّبليغُ: إيصالٌ مع إفْهَامٍ، والإنْباءُ: هو إخبارٌ بالمجهولِ

الإبلاغ: إيصالُ ما فيه بيانٌ للأفهام، وهو أشدُّ اقتضاء للمنتهي إليهِ؛ لأنَّه يقتضي بلوغَ فهمه وعقله، كالبلاغةِ، وهي: إيصالُ المعنى إلى النَّفسِ في أحسنِ صورةٍ من اللَّفظ[1]، أمّا الإنباءُ؛ فهو الإخبار بما لا يعلمه المخبَرُ[2].

فالتَّبليغُ أبلغُ في الدَّلالة على حرص الأنبياءِ على دعوة الخلق، فقوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ لم يرد أنَّه يخبرُهم بما لا يعلمون إخبارًا مطلقًا، بل أراد أنَّه يبلِّغُهم ذلك مع التَّفهيم والبيان حتَّى يبلغ عقولَهُم وأفهامَهم.

(النُّصْحُ) و(الإرشَادُ):

الإرشادُ هو بيانُ الطَّريقِ، بَينَما النُّصحُ؛ فيه تحرِّي النَّصيحةِ بقصْدِ الإصلاحِ عن عِلْمٍ

"الإرشادُ إلى الشَّيء هو التَّطريق إليه والتَّبيُّن له"[3]، فهو نوعٌ مِنَ الهدايةِ يتعلَّق بالدَّلالة على الطَّريق، أمّا النُّصح؛ فهو إخلاصُ الإصلاحِ، فالنُّصْحُ: خلاف الغشِّ، وهو تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ

(1) الرمّاني، النكت في إعجاز القرآن، ص: 75.
(2) العسكري، الفروق، ص: 41.
(3) العسكري، الفروق، ص: 209.

صاحبِهِ، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ، أي: أَخْلَصْتُهُ[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ "أي: أتحرَّى ما فيه صلاحكم"[2]، فالتَّعبير بالنُّصحِ أبلغُ في بيان كونِهِ حريصًا على هدايةِ قومِهِ من مجَرَّد الإرشادِ؛ لما فيه من دلالةٍ على نفي الغشِّ وإخلاصِ الإصلاحِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (نصح).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٦٣﴾ [الأعراف: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّنبيهُ على سبَبِ الإنكارِ بعْدَ بيانِه، أوقعُ أثرًا وأرسخُ خبرًا

لمّا كان قولُ قومِ نوحٍ عليه السلام في الآيةِ السّابقة: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يتضمَّن استبعادَهم ما أخبرَهم بهِ من خوف العذابِ عليهم، وأنَّه بعثَهُ اللّه إليهم بعبادتهِ وحدَهُ ورفض آلهتهم، فتعجَّبوا من ذلك[1]، وكان "الحاملُ لهم على هذا مجرَّد استبعادِ أن يختصَّ عنهم بفضيلةٍ، وهو منهم كما سيأتي في غير هذه السّورة، أنكرَ ذلك عليهم بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾"[2]، فبعد أن أجابَهم بما نفى عن نفسهِ الضَّلال، وبيَّن الرِّسالة؛ انتقلَ إلى "كشفِ الخطأ في شبهتهم، فعطفَ على كلامه قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾: (عجب) أصلٌ يدلُّ على كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ، وهوَ أنْ يَتَكَبَّرَ الإنْسانُ في نَفْسِهِ، تَقولُ: هوَ مُعْجَبٌ بِنَفْسِهِ، وأمْرٌ عَجيبٌ؛ إذا اسْتُكْبِرَ واسْتُعْظِمَ، والعجيب: الأمرُ يُتَعَجَّبُ منه، والعَجَبُ والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرض للإنسانِ عند الجهلِ بسببِ الشَّيءِ، وهو إنكارُ ما يَرِدُ لِقلَّةِ اعْتيادِه؛ ولهذا قال بعضُ الحكماءِ: العَجَبُ ما لا يُعرَف سببُه، ولهذا قيل: لا يصحُّ على اللّه التَّعَجُّبُ، إذ هو علّامُ الغيوبِ لا تخفى عليه خافيةٌ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/84.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(4) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عجب).

2) ﴿ذِكۡرٞ﴾: (ذكر) أصلُ الذِّكر خلافُ النِّسيان، والذِّكْرُ: الشَّيْءُ يَجْري على اللِّسانِ، الذِّكْرُ: تارةً يقالُ، ويرادُ به هيئةٌ للنَّفس، بها يمكنُ للإنسان أن يحفظَ ما يقتنيه من المعرفة، وتارةً يقالُ لحضور الشَّيء في القلبِ أو القولِ، ولذلك قيل: الذِّكرُ ذكران: ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللِّسان، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان: ذكرٌ عن نسيانٍ، وذكرٌ لا عن نسيانٍ بل عن إدامةِ الحفظِ، وكلُّ قولٍ يقالُ له: ذِكرٌ، فمن الذِّكر باللِّسان، مثل قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾[1]. وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: موعظةٌ من الله، وهو الوحيُ الَّذي جاءهم به، كما قيل للقرآن: ذِكرٌ[2]، وسُمِّي الوحيُ: ذِكرًا؛ لأنَّه يذكِّرُ النّاس بربِّهم وخالقهم.

3) ﴿رَجُلٖ﴾: (رجل) أصلٌ يدلُّ على العُضو الَّذي هو رِجل كلِّ ذي رِجْلٍ، الرَّجُلُ: الذَّكرُ مِنْ نَوْعِ الإنسان خِلافُ المرأة، وإنَّما يَكونُ رَجلًا فوق الغلام، وذلك؛ إذا احْتَلَمَ وشَبَّ[3]، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ "أي: على لسانِ رجلٍ منكم"[4].

4) ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾: (نذر) كلمةٌ تدلُّ على تخويفٍ، ومنه الإنذارُ الذي يعني: الإبلاغ، ولا يكونُ إلّا في التَّخويفِ، فهو: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرورٌ[5].

5) ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾: (وقى) أصلٌ يدلُّ على دفعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره، والوقايةُ: ما يقي الشَّيءَ، واتقِ الله: أي: اجعل بينك وبينهُ كالوقايةِ، واتَّقَيْتُ الشَّيء: حَذِرْتُه، والاسم التَّقْوَى، والتَّقْوَى جعْلُ النَّفسِ في وِقايَةٍ مما يخاف، وفي تعارف الشَّرعِ: حفظُ النَّفس عمّا يُؤثم، وذلك بترك المحظور[6].

المعنى الإجْماليُّ:

يخبر اللهُ تعالى عن نوحٍ أنَّه قال لقومه منكرًا شبهتهم: أكذَّبتم، وعجبتم أن جاءكم ذِكرٌ يذكِّركم، ووعظٌ من ربِّكم، على لسانِ رجلٍ منكم، ليحذِّرنَّكم عاقبةَ الكفرِ والشِّرك،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ذكر).
(2) الواحدي، البسيط: 9/199، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298، والآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (رجل).
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.
(5) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نذر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزابادي، البصائر: (وقى).

تَعجُّبُ النَّاسِ من مُنذِرٍ منهم، يَكـونُ بسببِ باطلٍ مُسْتَحْوِذٍ، أو طُغيانٍ مُطْبِقٍ

ويعدكم بالتَّقوى لرحمته تعالى التي ينزلُها على المؤمنينَ، ويوجدُ فيكم التَّقوى بسبب الإنذارِ، ولتُرحموا بذلكَ، وليس هذا بعجبٍ أن يوحيَ اللّهُ إلى رجلٍ من جنسكم، رحمةً بكم، ولطفًا وإحسانًا إليكم، لينذركم، ولتتَّقوهُ، وليرحمكم بطاعته والإيمان برسلهِ(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ الاسْتِفهامِ، في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

توبيخُ المتعجِّبين منَ الحقِّ، عِزَّةٌ تُصاحبُ أهلَ الحقِّ

ابتدأتِ الآيةُ بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ توبيخًا لتعجُّبهم، فالهمزةُ "للإنكارِ والتَّوبيخ، أي: هذا ممّا لا يعجبُ منه؛ إذ له تعالى التَّصرُّف التّامُّ بإرسال من يشاء لمن يشاء"(2)، فأنكر التَّعجُّب من إرسالِ الرُّسل، وإنَّما عبَّر عن ذلك بالاستفهام الإنكاريِّ دون الإخبارِ، فلم يقل: (لا عجبَ) إشارةً إلى يقينهم بأنَّه ضالٌّ، كما عبَّر عنه قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فهم يرونَ بطلانَ دعوتِه، فأنكرَ ذلك عليهم.

بَلاغةُ حذْفِ المعطوفِ عليهِ، في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

من روعةِ البيانِ في الحذْفِ، تركُ الأمْرِ لِتصَوُّرِ المخاطَبِ

قولهُ تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معطوفٌ على مقدَّرٍ، كأنَّهُ قيل: "أَسْتَبْعَدْتُم، وعَجِبْتُم من أن جاءكم ذِكرٌ، - أي: وحيٌ أو موعظةٌ - من مالك أمورِكم ومربّيكم؟"(3)، أو يقدَّر: أكذَّبتم وعجبتم(4)؟ فيتسلَّط الإنكارُ على التَّكذيب والتَّعجُّب معًا، وتظهرُ بلاغةُ عدم التَّصريح بالمعطوفِ عليه في تركِ الأمر للمخاطَبِ، فأسبابُ العجبِ وإنِ اتَّحدت في الغايةِ، لكنَّ أسبابَها التَّفصيليَّةَ متنوِّعةٌ.

---

(1) الزحيلي، المنير: 8/255.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/84.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.

التَّعجُّبُ لا يُنكَرُ لذاتِه، ولكنْ لصُدورِه عنِ اعْتِقادِهِم بالاسْتِحالةِ

بَلاغةُ الكِنايةِ باسْتِعمالِ الفِعْلِ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

جاءَ التَّعجُّب في قولهِ تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسانِ نوحٍ وهودٍ - عليهما السلام - متسلِّطًا عليه الاستفهامُ؛ لأنَّه "كنايةٌ عن الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: 73]، أنكروا عليها أنَّها عدَّت ولادتها ولدًا - وهي عجوز - محالًا"[1]، وهذا الأسلوبُ يدلُّ على أنَّ العجبَ المذكورَ قد وقعَ على وجه الاستبعاد والاستحالة[2].

لَفْتُ الأنظارِ إلى أنَّ التَّعجُّبَ، وَقعَ على أمْرٍ قد وَقَعَ وتحقَّقَ

سِرُّ اسْتِعمالِ المَصْدَرِ المُؤَوَّلِ، في قوله: ﴿أَن جَآءَكُمْ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ عن المتعجَّب منه بالمصدر المؤَوَّل من الحرفِ والفعلِ دون المصدرِ الصَّريح في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ﴾؛ فلم يَقُل: (أعجبتُم من مجيئكم الذِّكر من ربِّكم؟)؛ للدَّلالة على زمن حدوث المجيء، وهذا يدلُّ على أنَّ المجيءَ قد حدث في الزَّمن الماضي، فهو مجيءٌ مقطوعٌ به، فيكون تعجُّبهم من شيءٍ قد حدثَ ووقع، ولو عبَّر بالمصدرِ الصَّريح لما كان فيه دلالةٌ قاطعةٌ على حدوثه، بالإضافةِ إلى أنَّ التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّل أوجزُ لفظًا من المصدر الصَّريح.

تَصويرُ المعاني أبلغُ في فَهْمِ مَقْصُودِها، وأدلُّ على اسْتِجلاءِ مَكْنونِها

بَلاغةُ المجازِ العَقْليِّ في قولِه: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

أُسنِدَ المجيءُ إلى الذِّكر في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، فلم يقل: (جئتكم بذكرٍ من ربِّكم) تشخيصًا للذِّكر، وفي ذلك مبالغةٌ في الاهتمامِ بِهِ وتفخيمُ شأنِه؛ لأنَّ تجسيدَ المعاني وتصويرَها أقوى أثرًا في الفهمِ والعلمِ.

سِرُّ تَنكيرِ لفْظِ ﴿ذِكْرٌ﴾:

في قولِه تعالى ذكره: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416.

آثَرَ أن يأتي لفظ (الذِّكر) بصيغة التَّنكير؛ إشارةً إلى أصالةِ كفرِهم ورسوخِه؛ إذ هم رفضوا الوحيَ عمومًا، وليس بكونه ذكرًا معيَّنًا، فلو قال: (أوعجبتم أن جاءَكم الذِّكر من ربِّكم على رجلٍ منكم)؛ لدلَّ على أنَّ تعجُّبهم من كون هذا الذِّكر المخصوصِ جاء على رجلٍ منهم، وهذا يدلُّ على أنَّه لو جاء على رجلٍ ليس منهم أو على مَلَكٍ لم يكونوا في تعجُّبٍ، وعندئذٍ لن يكونوا رافضين للوحي عمومًا، بل ما جاءهم بِهِ على الخصوص، فلمّا جاء بصيغة التَّنكير؛ دلَّ على أنَّهم يرفضون الذِّكر أصالةً، إشارةً إلى رسوخِ كفرِهم.

كُفرُهم عريقٌ راسخٌ، مُتَّجِهٌ إلى أصْلِ الوَحْيِ

فائِدةُ تقْييدِ الذِّكرِ بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

قُيِّدَ مجيءُ الذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ﴾ بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وفي ذلك تفخيمٌ لشأنِ الذِّكر، فـ (مِن) لابتداء الغاية متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، وهذا المحذوفُ هو صفةٌ للذِّكر، قدَّره بعضُهم: ذكرٌ كائنٌ من ربِّكم[1]، والأوفقُ أن يكونَ بتقديرٍ سياقيٍّ خاصٍّ، وهو: ذكرٌ نازلٌ من ربِّكم.

الذِّكرُ النَّازلُ من ربِّكم، عظيمُ الشَّأنِ؛ لأنَّه حبلُ الوَصْلِ بالرَّحمن

بَلاغةُ ذِكْرِ الرُّبوبيَّة، في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة إشارةً إلى أنَّ الذِّكر جاء من مالكِ أمورِكم ومربِّيكم[2]، والتَّعبيرُ بلفظِ الرُّبوبيَّة أنسبُ في سياقِ ما فيهِ خيرٌ للعبادِ ورعاية مصالحهم، وما يتعلَّق بحياتهم.

إنـزالُ الـوَحْـيِ لـلـعِبـادِ، من مُـقْـتَـضـيـاتِ الـرُّبـوبـيَّـةِ المـتـفـضّـلـةِ بالإمداد

غَرَضُ إضافةِ لفْظِ (الرَّبِّ) إلى ضَميرِ المخاطَبين، في قولِه: ﴿رَّبِّكُمۡ﴾:

أضاف لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطبين في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهم قومه، "أي: المحسنُ إليكم بالإيجادِ والتَّربية"[3]، وذلك تذكيرًا لهم بأنَّ الرِّسالة جاءتهم من ربِّهم،

الامتنانُ بعنايةِ اللهِ ورعايتِه لأحوالِهم، وعدمِ نَبْذِهم وإهْمَالِهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430.

فهو القائمُ بمصالح عبادِهِ وما فيه خيرٌ لهم، وفيه لطفٌ بخطابهم إيقاظًا لهم، وتنبيهٌ لهم بأنَّ الرَّبَّ الذي يعرفونه هو الَّذي أرسلني إليكم، وامتنانٌ بالرِّعايةِ والعنايةِ أن يُرسلَ إليهم رسولًا يوقظُهم من غفلتِهم.

بَلاغةُ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ:

يُظهِرُ أسلوبُ الالتفاتِ، ما يُريدُ النَّصُّ بيانَه والعِنايةَ به

في الآيةِ السّابقةِ جاءَ الخطابُ على طريقِ التَّكلُّم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، والتفتَ الخطابُ في هذه الآيةِ للخطاب في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ فلم يقل: (عليَّ لأُنذركم)، فالرَّجُل الَّذي منهم هو النَّبيُّ ﷺ، فعدلَ عن إضمارِ ذكرِه إلى التَّصريح بالمذكورِ؛ لأنَّه ضمَّن هذا الظّاهر الصِّفةَ الَّتي أنكروها، وهي كونُه رجلًا منهم.

غَرَضُ استِعمالِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

تَضمينُ فعْلِ (جاءكم) معنَى (نزلَ)

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ عبَّر بحرفِ الاستعلاء بعد الفعلِ (جاء) للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ من المجيءِ النُّزولُ، فـ "معنى (على) من قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ يشعر بأنَّ (جاءكم) ضُمِّن معنى نزل"[1]، أي: إنَّ معنى جاءكم: نزلَ عليكم[2]؛ لأنَّ "كلَّ ما يأتي من اللّه تعالى، فلهُ حكمُ النُّزولِ، فكأنَّ ﴿جَآءَكُمْ﴾ معناهُ: نزلَ، فحسُن معه أن يقالَ: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾"[3].

وذهبَ بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ إلى أنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ معناهُ على لسانِ رجلٍ، فحذفَ المضافَ إليه، وبعضُهم قال: إنَّ ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى: مع، أي: مع رجلٍ، والأرجحُ أنَّه لا حاجةَ إلى تقديرِ محذوف، ولا تضمينِ حرفِ (مع)؛ لأنَّ المعنى: أُنزل إليكم ذِكْرٌ على رجلٍ، وهذا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/84.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/410.

أَوْلَى؛ لأنَّ تضمينَ فعلٍ معنى فعل آخر أحسنُ من جعل الحرفِ يدلُّ على معنى حرفٍ آخرَ[1].

غَرَضُ التَّعْبِيرِ بالرُّجولةِ في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾:

التَّعريضُ بمن لا يَتلقَّى العِلْمَ عـنِ الـرِّجـالِ، بأنَّه ليسَ منهم

آثرَ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أن يعبِّر بصفةِ الرُّجولةِ، "أي: كاملٌ في الرجوليَّة"[2]؛ تزكيةً من كلِّ عيبٍ، إذ إنَّ هذه الصِّفة تدلُّ ضمنًا على مجموعةِ صفاتٍ من النُّبل والشَّرف وعلوِّ المكانة الَّتي تمنعُ صاحبها مِنَ الافتراءِ والكذب، كما تدلُّ على "أنَّ كونَ المذكِّر رجلًا منهم أقربُ إلى التَّعقُّل من كون مذكِّرهم من جنسٍ آخرَ من ملكٍ أو جنّيٍّ"[3]. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الرِّجال يتلقّون عن الرِّجالِ دون غضاضةٍ، فمنِ اتَّصفَ بصفاتِ الرُّجولة؛ تلقَّى الذِّكرَ دونَ حَرَجٍ أو تململٍ، فهو إيماءٌ تعريضيٌّ بهم.

فائِدةُ قَيْدِ الجارِّ والمجرورِ، في قولِه: ﴿مِّنكُمْ﴾:

إقـامـةُ الـحُـجَّـةِ عـلـى مـن عَـلِـمَ الـحالَ، وتعجَّبَ

وصفَ الرَّجلَ المذكورَ لهم بأنَّه منهم في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ إبطالًا لشبهتِهم، فأنتم تعرفونه، و"تعرفون نسبهُ، فهو منكم نسبًا؛ وذلك لأنَّ كونَهُ منهم يزيلُ التَّعجُّبَ؛ لأنَّ المرءَ بمن هو من جنسه أعرفُ، وبطهارةِ أحوالهِ أعلمُ، وبما يقتضي السُّكون إليه أبصرُ"[4].

دَلالةُ اللَّامِ في قولِه: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾:

الإنــذارُ عِـلَّـةٌ لمجـيءِ الـذِّكْـرِ إليهم

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾ عبَّر بلام (كي) للدَّلالة على علَّة المجيء، "أي: ليحذِّركم العذابَ والعقابَ على الكفر والمعاصي"[5]، وذِكرُ علَّة مجيئهِ بعد تزكيتِهِ بكونه رجلًا

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/357.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/391، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.

تأكيدٌ على إبطالِ شبهتهِم؛ فإنَّ غايةَ هذا الرَّجُل إنَّما هي فائدتكم بتحذيرِكم من سوءِ المصيرِ وإرشادِكم لما فيهِ خيرُكم.

نُكتةُ استِعمالِ فعْلِ ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ دونَ مرادِفاتِه:

الإنذارُ دَالٌّ على الشَّفقةِ والحِرصِ والنُّصحِ

استُعملَ الإنذارُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ﴾ دون التَّحذيرِ؛ لأنَّه ألصقُ بشفقةِ الأنبياءِ بقومِهم من التَّحذير؛ لأنَّ التَّحذير يصدُرُ عن علوِّ المحذِّرِ فيكونُ أبعدَ من تقبُّل النّاس له؛ لخلوِّه من الشَّفقة والرِّفق، ولمّا كانت دعوةُ الأنبياءِ لعامَّة النّاس، فإنَّهم يخاطبونهم بلينٍ وشفقةٍ، فكانَ الإنذارُ أصرحَ في إظهارِ الشَّفقةِ من التَّحذير.

بَراعةُ تَرتيبِ أسْبابِ عَجَبِ قَومِ نُوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

الذِّكرُ أصلُ الإنذارِ، والإنذارُ باعثُ التَّقوى، ومَناطُ الرَّحمةِ

في قولِه تعالى: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ عدَّدَ أسبابَ العجب، وأوقعَها كلَّها ضمنَ حيِّز الاستفهام الإنكاريِّ لدحض كلِّ هذه الأسباب؛ إذ إنَّها ليست ممّا يُتعجَّبُ منه، بل إنَّها من النِّعَم والخير الَّذي جاءهم، وفي تعدادِ ذلك مبالغةٌ في إظهار جهلهم وتعنُّتهم، وقد جاءت هذه الأسبابُ مترتِّبةً فـ "المجيءُ وهو الإعلامُ بالمخوف، والتَّحذيرُ من سوء عاقبةِ الكفرِ، ووجودُ التَّقوى منهم، ورجاءُ الرَّحمة، وكأنَّها علَّة مترتِّبةٌ، فجاءكم الذِّكرُ للإنذارِ بالمخوفِ، والإنذارُ بالمخوفِ لأجلِ وجودِ التَّقوى منهم، ووجودُ التَّقوى لرجاءِ الرَّحمة وحصولها، فعلَّل المجيءَ بجميع هذه العلل المترتِّبة؛ لأنَّ المترتِّبَ على السَّببِ سببٌ"(1).

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾:

التَّقوَى عِلَّةٌ مُترتِّبةٌ على الإنذارِ، وهي غايةٌ يَرتبِطُ بها كلُّ عمَلٍ

عطفَ قوله تعالى: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ على قولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ لكونهما علَّتينِ، فعطف العلَّةَ الثّانيةَ، وهي الأمرُ بالتَّقوى على العلَّةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/84.

الأولى؛ لأنَّها مترتِّبة عليها[1]، والمعنى: أنَّه جاء إليكم ليحذِّركم الكفرَ، فيرشدَكم بذلك إلى التَّقوى.

غَرَضُ تَكرارِ اللّامِ، في قولِه: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾:

الإنـذارُ والتَّقوَى نُـزِّلـتـا مَـنـزِلـةَ الـعِـلَّـتَـيْـن المُستقلَّتَيْن

معنى قولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ﴾: "ليحذِّركم عاقبةَ الكفرِ، وليوجدَ منكم التَّقوى، وهي الخشيةُ بسبب الإنذار"[2]، ووقع تَكرارُ للّام؛ للدَّلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ من المذكورَيْنِ منزَّلٌ منزلةَ العلّةِ المستقلَّة بذاتِها لمجيء الذِّكر، وفي ذلك بيانٌ لأهمّيَّتها.

بَلاغةُ ذِكْرِ التَّقوى إثْرَ الإنذارِ، في قولِه: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ﴾:

التَّقوَى المُتأتِّيَةُ عَـنِ الإنـذارِ مَـطـلـوبـةٌ، وقَـدْ أَعْذَرَ مَن أَنْذَرَ

رتَّبَ النَّظمُ علَى مجيءِ الذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ﴾ على وفقِ "حصول مضمونِها في الوجود؛ فإنَّ الإنذارَ مقدَّمٌ؛ لأنَّه حملَ على الإقلاع عمّا هم عليه منَ الشِّركِ أو الوثنيَّة، ثمَّ يحصل بعده العملُ الصّالح"[3]؛ فإنَّ التَّخليةَ سابقةٌ للتَّحليةِ، ولا تكون التَّقوى على حقيقتِها في قلبِ عبدٍ لم يُنذَر.

سِرُّ التَّصريحِ بالإنذارِ، والإشارةِ بالتَّبْشيرِ في الآيةِ:

تَكفِي الإشارةُ في التَّبْشيرِ، ما لا تَفيه في الإنذارِ

في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ﴾ ذكرَ الإنذارَ الدّالَّ على التَّخويف دون التَّبشير؛ وذلك "لأنَّ تأثيرَ الإنذارِ في الفعل والتَّرك أقوى من تأثيرِ البشارةِ، ولأنَّ اشتغالَ الإنسان بدفع الضَّرر أشدُّ من اشتغاله بجلبِ المنفعةِ"[4]، وذلك يناسبُ قصَّة نوحٍ لما لاقى من آلامٍ من قومه، وما لاقى من شدَّةِ تعنُّتهم، فكان الإنذارُ في دعوته أبلغَ، ولوقوعِ الإشارةِ إلى التَّبشيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾؛ فاجتمعَ الرُّكنان الإنذارُ والتَّبشيرُ بما يُحقِّقُ المقصودَ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 2/286.

دَلالةُ ذِكْرِ (الواو)، في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

ذِكْرُ الواوِ في الرَّجاءِ، وحذْفُها حين يكونُ الرَّجاءُ نَتيجةً لعمَلٍ سَابقٍ

عطفَ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ على قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾؛ لأنَّها علَّةٌ ثالثةٌ معطوفةٌ "على العلَّة الثّانية، مترتِّبةٌ عليها، أي: ولتتعلَّق بكم الرَّحمةُ بسبب تقواكم"[1]، فالرَّحمة علَّة مترتِّبةٌ على علَّةٍ قبلَها، وهي التَّقوى، وقد يُذكر رجاءُ التَّقوى بلا عطفٍ حين يكونُ نتيجةً لعملٍ سابقٍ، فتكون حضًّا على العمل، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل: 46]، فإنَّ الرَّحمة هنا مرجوَّةٌ بعد الاستغفار، وليست مسبوقةً بعللٍ تترتَّب عليها.

دَلالةُ اسْتِعمالِ أداةِ الترجِّي (لعلّ) بَدلًا من (عسى):

الرَّجاءُ مُحاطٌ بالخشيةِ، وموصولٌ بالقبولِ والرّحمةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بحرفِ التَّرجّي (لعل)؛ لدلالتهِ على رجاءِ وقوع المرجوِّ لا على سبيلِ الحتم والوجوبِ، فالمعنى: "وليكونَ حالكم - إذا لقيتُم اللهَ - حالَ من تُرجى رحمته"[2]، أمّا (عسى)؛ فهي من اللهِ تعالى متحقِّقَةٌ، "وقول المفسِّرين: عسى من اللهِ واجبةٌ، أي: الكريمُ إذا رُجي؛ حقَّق"[3].

فائدةُ بناءِ الفعْلِ ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ للمفعولِ:

توجيهُ المخاطَبين إلى أنَّ الرَّحمةَ عزيزةُ الجانبِ، والحرصُ عليها عزيزُ الجنابِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ جاء الفعلُ مبنيًّا للمفعولِ، فلم يقُل: (لعلَّ اللهَ يرحمكم)، وذلك له غايتان: الأولى: الإيجازُ في التَّعبير بحذفِ الفاعل اعتمادًا على العلم بهِ. والثّانية: الاهتمامُ بالرَّحمةِ لذاتِها لا بكونِها من معيَّن، فالرَّحمةُ مطلوبةٌ لذاتِها، فإنَّ المخاطَبين هم أحوجُ ما يكونون إليه هو رحمةُ اللهِ بهم، بما اقترفتهُ أيديهم في سالفِ الأيّام.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430 - 431.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1358.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(العجَبُ) و(البَهتُ):

التَّعجُّب: حالةٌ أعمُّ من البُهتِ؛ حيثُ إنَّ البهتَ أصلٌ يدلُّ على الدَّهشِ والحَيرة، البَهْتة: الحَيرة، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: 258]، أي: دُهِشَ، وتحيَّر، وانقطعت حجَّتُه[1]، فهو حالة التَّوقُّف تمنع المرءَ من إبداء الرَّدِّ والجواب، أمّا التَّعجُّب؛ فلا يتعلَّقُ بذلك؛ فالأمرُ العَجيبُ: هو ما يُستَكبَر ويُستَعظَم، والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرضُ للإنسان عند الجهلِ بسبب الشَّيءِ، وهو إنكارُ ما يَرِدُ لقِلَّةِ اعْتيادِه؛ ولهذا قالَ بعضُ الحكماء: العَجَبُ ما لا يُعرفُ سببُهُ[2].

سَببُ العَجبِ جهلٌ شنيعٌ، وسَببُ البَهتِ تحيُّرٌ مُريعٌ

فالبهتةُ تدلُّ على التَّحيُّر وانقطاع الحُجَّة، أمّا التَّعجُّب؛ فهو حالةٌ من الاندهاش تردُ لورود ما لم يعتدْه المتعجِّب، وليست في سياق الاحتجاجِ وانقطاع الحجَّة، وفي الآية الكريمة قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ عبَّر بالعجبِ؛ لأنَّهم لم يكونوا قد اعتادوا شأنَ الرِّسالات، وكانوا جاهلينَ بها، وهذا أنسبُ في التَّعبير عنه بالتَّعجُّب، دون البهتِ الَّذي هو أبلغُ في سياق الاحتجاج.

(الإنذارُ) و(التَّرهيبُ) و(التَّخويفُ):

الإنذارُ: لا يكونُ إلّا في التَّخويفِ، فهو: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرور[3]، فهو "تخويفٌ مع إعلام موضعِ المخافةِ من قولكَ: نذرتُ بالشَّيء؛ إذا علمتَهُ، فاستعددتَ له، فإذا خَوَّفَ الإنسانُ غيرَه، وأعلمهُ حالَ ما يخوّفه بهِ؛ فقد أنذَرَهُ، وإن لم يُعلِمْه ذلك؛ لم يقل: أنذره، والإنذارُ: إحسانٌ من المنذرِ، وكلَّما كانت

الإنذارُ تخويفٌ مع إعلامٍ، بخلافِ التَّرهيبِ والتَّخويفِ فهما غيرُ مُقترنَيْنِ به

---

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بهت).

(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عجب).

(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نذر).

المخافةُ أشدَّ؛ كانتِ النِّعمةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النَّبيُّ أعظمَ النّاس منه بإنذارهِ لهم عقابَ اللّه تعالى"[1].

أمّا التَّرهيبُ والتَّخويف؛ فهو مطلقُ الفعلِ من غير إعلامٍ، كقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 60]، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: 36]، أمّا الإنذارُ: تخويفٌ مع الإعلام بما يخوِّفهم به؛ فهو إنعامٌ وإحسان لمن يُنذَر، فيكونُ قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ بيانًا لغرض الرِّسالة، وهو بيانُ حال ما ينتظرهم إن استمرّوا على كفرهِم إحسانًا لهم وإنعامًا عليهم، والإنعامُ والإحسانُ لا يتوافق مع التَّرهيب والتَّخويف.

---

(1) العسكري، الفروق، ص: 242.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين التّعجُّبِ من إرسالِ الرّسولِ، وبين نجاةِ مَنْ آمنَ، وإهلاكِ من كَفَرَ

لمّا "نسبوه أوّلًا إلى الضَّلال وهو قد يكون خطأً عن ذهولٍ ونحوه، فأقام لهم الدَّليل على أنَّه على الصَّواب، أخبرَ أنَّه لم يتسبَّب عن ذلك إلّا تصريحَهم بما لوَّحوا إليه أوَّلًا بالضَّلال من التَّكذيب، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾"[1]، فناسبَ ذِكرُ عاقبةِ المؤمنين وسوء مآلِ المكذِّبين، بعد بيانِ إقامةِ الحجَّةِ عليهم، لبيانِ عدل اللّه مع عبادِه في عقابِه وإنجائه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: (فلك) أصلٌ يدلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، الفَلَك: مدارُ النُّجوم، والجمعُ أفلاكٌ، وفَلَكُ كلِّ شيءٍ: مستدارُه، وفَلَكُ البحرِ: موجهُ المستديرِ المتردِّد، والفُلك: السَّفينة، تذكَّر وتؤنَّث وتقع على الواحد والاثنين والجمعِ، ولعلَّها تسمَّى: فُلكًا؛ لأنَّها تدارُ في الماء[2].

2) ﴿عَمِينَ﴾: (عمي) أصلٌ يدلُّ على سَتْرٍ وتغطيةٍ، من ذلك العمى: ذهابُ البصرِ من العينين كلتيهما، ورجلٌ عمٍ؛ إذا كان أعمى القلبِ، ورجلٌ عَمِي القلب، أي: جاهلٌ، والعَمَى: ذهابُ نظر القلب، وذُمَّ العَمَى في القرآن نحو قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، وقوله: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة: 71]، بل لم يعدَّ افتقادُ البصر في جنب افتقادِ البصيرة عَمًى، حتَّى قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46][3]، وقوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾ جمع

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431، وينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (فلك).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عمى، عمي).

عمٍ جمع سلامةٍ، وهو صفةٌ على وزنِ فعِل مثلِ: أشرٍ، ويريدُ عمى البصائرِ عَميت قلوبُهم عن معرفةِ اللّه تعالى(1).

المعنى الإجماليِّ:

جَـزاءُ الإيـمـانِ نـجاةٌ وتمكينٌ، وجَـــزاءُ الـكُـفـرِ إغـراقٌ واسْـتِـئـصـالٌ للمُكذِّبين

يخبرُ اللّهُ تعالى عن قومِ نوحٍ أنَّهم لم يصغوا لنداءِ الحقِّ، فكذَّبوا نوحًا عليه السلام، وتمادوا في تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلّا قليلٌ، فكانَ العقابُ إغراقَهم بالطّوفان، بسبب كفرِهم وتماديهم في ضلالهِم وشركهم، فهم كانوا قومًا عُميًا عن الحقِّ، لا يبصرونَهُ، ولا يهتدون له(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الفاءِ) في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

المُـسـارعـةُ إلى التَّكذيبِ بلا تَرَوٍّ دَالٌّ على الغُلُوِّ في الغَطْرسَةِ

افتتحَ قولَه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالفاءِ للدَّلالةِ على أنَّ تكذيبَ قومِه له وقعَ بعد دعوتِه بلا مهلةٍ، فالفاءُ تدلُّ على التَّعقيبِ، فالمعنى: أنَّ التَّكذيبَ وقع "عقب سماعِ قول نوحٍ، فعطف على كلامه بالفاء"(3)، وهذا يدلُّ على أنهم لم يتروَّوا، ويفقهوا ما دعاهم إليه، بل بادروا إلى تكذيبِه ورفض دعوتِه تشبثًا بآلهتِهم الزّائفة.

والفاءُ هي الفصيحةُ؛ لأنَّها وقعت جوابَ شرطٍ محذوفٍ، أي: إذا أردتَ أن تعلمَ مغبَّةَ أمرِهم؛ فقد كذَّبوه(4)، ولا تعارضَ بين أن تكون فصيحةً في تقدير شرطٍ محذوف، وبين إفادتِها التَّعقيب، فهما معنيانِ متآلفانِ، تقديرًا وإفادةً.

بَلاغةُ الإيجازِ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ إيجازٌ بليغٌ، فقد طوى أحداثَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(2) الزحيلي، المنير: 8/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/375.

القصَّة، وانتقلَ بعد ذكرِ التَّكذيبِ إلى ذكر النَّجاةِ، تعجيلًا بذكر مآل التَّكذيب، فإنَّ تكذيبَهم كان سببًا في نزول العذاب وتحقُّق النَّجاة لنوحٍ عليه السلام ومن معه؛ لأنَّ الغرضَ من سَوق القصصِ إنَّما هو الاتِّعاظ بها، فذكرُ ما لاقى القومُ به الدَّعوةَ من التَّكذيب، ثمَّ الانتقالُ إلى المصيرِ؛ فيه من التَّخويفِ لمن يسمعُ القصَّة من المشركينَ، عسى أن يتَّعظوا، ويحدثُ لهم ذكرًا.

تَوجيهُ الأنظارِ إلى مُنتهَى الحدَثِ، إنشاءٌ للعِبَرِ، وتحريكٌ للفِكَرِ

نُكتةُ التَّصريحِ بالتَّكذيب، في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ صرَّحَ بتكذيب قوم نوح عليه السلام له لاستمرارهم بالتَّكذيبِ مع الإصرارِ[1]، فهم قد أطبقوا "على تكذيبهِ في دعوى النُّبوَّة، وما نزل عليه من الوحيِ الذي بلَّغه إليهم، وأنذرهم بما في تضاعيفه، واستمرّوا على ذلك هذه المدَّة المتطاولةَ بعد ما كرَّر - عليه السلام - الدَّعوةَ عليهم مرارًا؛ فلم يزدهم دعاؤه إلّا فرارًا حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾"[2]، فناسبَ ذكرَ التَّكذيب لطول مدَّة دعوتهِ لهم.

طُولُ مُدَّةِ التَّكذيبِ تَستدعي ذِكرَه، وجعْلَه عِلَّةَ الإغراقِ

سِرُّ إيثارِ الإضْمارِ على الإظهارِ، في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

وضع الضَّميرَ موضعَ المظهرِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فلم يقل: (فكذَّبه الملأُ، أو قومه)، وذلك ليدلَّ عليهم جميعًا، فقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: الملأُ والذين تابعوهم من دونهم[3]، فدلَّ الضَّمير على جميعهم، فلو قالَ: (فكذَّبه)؛ لاحتملَ أنَّ المكذِّبين الملأ وحدَهم دون القومِ كلِّهم، ولو صَرَّحَ بالقوم، فقال: (فكذَّبه قومه)؛ لطالت العبارةُ مع إمكانِ الإيجاز، فعدل عن التَّعبير بالظَّاهر ليشملَ الجميعَ مع الإيجازِ.

الإضْمارُ إيجازٌ ظاهرٌ، واختزالٌ باهرٌ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/392.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236 - 237.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

دلالة (الفاءِ) في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾

النَّجاةُ أعْقبَتِ التَّكذِيبَ

قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عطف (أنجيناه) على (كذَّبوهُ) بالفاءِ الدّالَّة على التَّرتيب والتَّعقيب؛ لأنَّ النَّجاة وقعت بعد التَّكذيب، فهي تفيدُ التَّعقيب، «وهو تعقيبٌ عرفيٌّ؛ لأنَّ التَّكذيب حصل بعده الوحيُ إلى نوحٍ بأنَّه لن يؤمنَ من قومِهِ إلّا من قد آمَنَ، ولا يُرجى زيادةُ مؤمن آخر، وأمره بأن يدخلَ الفُلك، ويحملَ معه من آمنَ إلى آخرَ ما قصَّه اللهُ في سورةِ هودٍ»[1].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالإنجاءِ، دون الإنقاذِ، في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

النَّجاةُ تخليصٌ تامٌّ، مع ارتفاعٍ مَعْنويٍّ، يُعْلِي المقَامَ

عبَّر النَّظم عن نجاةِ نوحٍ عليه السلام في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ بالنَّجاة دون الإنقاذِ، لدلالةِ النَّجاة على الخلوصِ والانفصالِ ممّا حوله، والإنقاذُ هو: التَّخْليصُ من ورْطَةٍ، واستخلاصُ الشَّيءِ في قوَّة من بين ما لا يُرضَى حوزهُ إيّاه، وأنقذته منه: خلصتهُ. وفرسٌ نقيذٌ: أُخذ من قوم آخرين[2]، أمّا النَّجاةُ فأصلها: الانفصالُ من الشَّيءِ، وخُلوص الجرمِ، أو نفاذُه مرتفعًا من بين ما يحيطُ به أو يجاوره، والنَّجاةُ مِنَ الأرض هي المكانُ المُرتفِع المنفصلُ بارتفاعهِ عمّا حوله، ولا يَعْلوها سَيْلٌ[3]، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92]، أي: نلقيك على نجوةٍ من الأرضِ، وهي المكانُ المرتفعُ[4].

نُكتةُ إسْنادِ الإنجاءِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

مُناسبةُ عَظَمةِ الإنْـجـاءِ، لعَظَمةِ المُنجِي

أسندَ الإنجاءَ إلى ضميرِ العظَمَةِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، ولم يقل: فأنجاهُ اللّهُ، والمعنى: "﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ بما لنا من العظَمَةِ من أهلِ الأرضِ كلِّهم ومن عذابنا الذي أخذناهم به"[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نقذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نجو).
(4) الواحدي، البسيط: 11/306، والماوردي، النكت والعيون: 2/449.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

والإنجاءُ من العذابِ العظيمِ يقتضي أن يكون إنجاءً عظيمًا؛ فلذا نسبهُ إلى اللهِ تعالى بضمير العظمةِ.

تَوجيهُ المتشابهِ اللَّفْظِيِّ بينَ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ و﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

ناسبَ سِياقَ الإخْبارِ عنِ النَّجاةِ قولُه: (فأنجيناه)، وناسبَ سِياقَ الإنعامِ قولُه: (فنجّيناه)

تناول سياقُ قصَّة نوحٍ ﷺ في سورة يونسَ نوحًا وحسب من غير ذكرِ المجادلةِ مع قومه، فكلُّ ضمائرِ المتكلِّم كانت لنوحٍ، ولم ينقل النَّصُّ ما قاله قومه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾ [يونس: 72 - 73]، فكان السّياق في الإنعامِ على نوحٍ؛ لذا أتبعَ النَّجاةَ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾، وكان من تمامِ الإنعامِ أن يذكرَ النَّجاة على وجه المبالغة، فجاءت بصيغة التَّضعيف، ولم يكن السّياق في سورة الأعراف للإنعامِ، فجاءَ بالإخبار عن النَّجاة بلا مبالغة.

نُكتةُ استِعمالِ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، دونَ (مَنْ):

الـذيـن آمـنُـوا مع نُـوحٍ، قـومٌ مـخـصُـوصُـونَ بـالـكَـرامـةِ والتَّشْرِيفِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ عبَّر عن النّاجينَ معهُ بالاسم الموصول، فلم يقل: (والمؤمنين معه)؛ لأنَّهم قومٌ معروفون معهودون، وهم من اتَّبعهُ، وآمنَ به، وفي ذلك تكريمٌ لهم، ولم يعبِّر بلفظِ (مَن) وهو وإن كان موصولًا إلّا أنَّ دلالتَهُ على العموم أرسخُ، فأتى بالاسم الموصولِ بالَّذين دون غيرِها لبيانِ خصوصيَّتِهم النّاشئة عن قلَّتِهم في وسط المكذِّبين، فخصَّهم بصفةِ المعيَّة والإنجاء لبيانِ فضلهِم.

اخْتِيارُ الاسْمِ الموصولِ (مَن) في سورة الشّعراء:

إنجاءُ الله رحمةٌ وتلطُّفٌ، والله لا يخذلُ مَن التجأَ إليه ودَعاه

وفي سورةِ الشُّعراءِ جاءَ استعمالُ (من)؛ ذلك أنَّ سياقَ سورةِ الشُّعراءِ يناسبه (مَن)، قال تعالى: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١١٩﴾ [الشّعراء: 118 - 119]، فلمّا قالَ في الآية السّابقة: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ﴾، ناسبَ أن يُتبِعه في

اللّاحقة بقوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ ليكونا على نسقٍ واحدٍ، ولكي لا يُفهم - إذا استُعمل (الّذين) دون (مَنْ) - أنَّ الّذين نجّاهم اللّه غيرَ الَّذين طلب تنجيتَهم نوحٌ عليه السلام.

بَلاغةُ الإيجازِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾:

التَّقابُلُ اللَّفظِيُّ في ذِكْرِ إغراقِ المُكذِّبين، دَالٌّ على نجاةِ المؤمنين

جاء قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ خاليًا تقييدهم بالإيمان، كما في سورة الشُّعراءِ ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ يتعلَّق به قوله: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ والتَّقدير: "استقرّوا معه في الفلكِ، وبهذا التَّعليق عُلِم أنَّ اللّه أمرهُ أن يحملَ في الفُلك معشرًا، وأنَّهم كانوا مصدِّقين له، فكان هذا التَّعليقُ إيجازًا بديعًا"[1]، فما ركِب معه غير مَنِ اتَّبعه، ولذلك لم يأتِ هذا التَّقييدُ في الآيةِ الثّانيةِ في سورةِ الشُّعراءِ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ لهذا السَّببِ، واكتفاءً بالآيةِ السّابقة، وبهذا أغنى ذلك عن التَّصريحِ بالإيمان إيجازًا.

وجاءَ ما يدلُّ على صفةِ الإيمانِ في التَّقابلِ اللَّفظيِّ، حيثُ قابلت الآيةُ بينَ الإنجاءِ والإغراقِ، فالإغراقُ كان للمُكذِّبين المذكورين في قولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، فدلَّ هذا التَّقابلُ على أنَّ الذين معهُ هم من المؤمنينَ، وهذا من إيجاز القصرِ.

نُكتةُ تَقديمِ الإنجاءِ على الإغْراقِ:

العِنايةُ بالمؤمنين وتَعجيلُ المَسَرَّة للسَّامعين، تَستدعِي تَقديمَ الإنجاءِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ قدَّمَ ذكرَ الإنجاءِ على الإغراق، وكان المتبادرُ أن يذكرَ العقابَ ليتبيَّنَ من أيِّ شيءٍ أنجاهم؛ لكنَّ النَّظمَ قدَّمَ ذِكْرَ الإنجاءِ للمسارعة بالإخبارِ به والإيذانِ بسبق الرَّحمة[2]، و"للاهتمام بإنجاء المؤمنينَ وتعجيلًا لمسرَّة السّامعين من المؤمنينَ بأنَّ عادةَ اللّه - إذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/19، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/392.

أهلك المشركين - أن ينجيَ الرَّسولَ والمؤمنين؛ فلذلك التَّقديمُ يفيد التَّعريضَ بالنِّذارة، وإلّا فإنَّ الإغراقَ وقع قبل الإنجاء؛ إذ لا يظهر تحقُّقُ إنجاءِ نوحٍ ومن معه إلا بعدَ حصول العذاب"(1).

بَراعةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾، دونَ السَّفينةِ:

استُعمِلَ الفُلكُ باعتبارِ حمْلِ البَشريَّةِ النَّاجيةِ، ودَورانِها بحثًا عنِ الاسْتِقرارِ

قولِه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، الفلك هو السَّفينةُ، وهي في الاستعمالِ القرآني تُطلقُ على ما كان لها مالكٌ وصاحب، أمّا الفُلكُ؛ فهو مُستعملٌ في القرآنِ باعتبارِ الوظيفةِ العامَّة، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دون آخر، وكذلك باعتبارِ البحرِ فُلكًا لها، فهي تدور فيه، فعند إطلاقِ الفُلك في القرآنِ لا يُرادُ بها فُلكًا خاصًّا بل عامًّا، والفُلك الذي صنعه نوحٌ عليه السلام ليس خاصًّا به، بل هو لعمومِ البشريَّة، وسيدورُ في الأرضِ.

وقد يسألُ سائلٌ عن قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15]؟ لماذا سمَّى الفلك هنا بالسَّفينةِ؟ وذلك لتنزيلِ المؤمنين منزلةَ الشَّرفِ والتَّكريم، فهم أصحابُ السَّفينة، فعاملَ الفُلك معاملةَ السَّفينة لتكريم مَنْ رَكِبَها، فأصبحوا أصحابَها بعد النَّجاةِ، أمّا عندما كان يصنعها؛ فوصفها بقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 38].

دَلالةُ عطْفِ: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ على ما قبْلَها:

بيانُ النِّهاياتِ للفِرقِ المتضادَّةِ، مِهْمَازُ اعْتِبارٍ

عطفُ الإغراقِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ على نجاةِ نوحٍ عليه السلام ومن معه في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ لبيان مصير الفئتين، وإظهارًا لنهاية القصَّة بذكر ما حلَّ بكلِّ فريقٍ.

نُكتةُ إيثارِ ذِكْرِ الإغْراقِ على الإهلاكِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ آثرَ ذكرَ الإغراقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197 - 198.

الإهلاكُ عامٌّ، والإغراقُ نوعٌ منه، وذِكرَ للتَّصريحِ بكيفيَّةِ إهلاكِهم

دونَ الإهلاكِ، وذلك للتَّصريح باسم العقابِ الذي نالهم؛ فالإهلاكُ عامٌّ، له أسبابٌ كثيرةٌ، الغرقُ واحدٌ منها، فخصَّ ذكرَ الإغراق للتَّصريحِ بنوعِ العذابِ، وهو عاقبةٌ شديدةٌ بليغةٌ.

بيانُ المعنى بذِكرِ نقيضِهِ، تَنبيهٌ وتَحذيرٌ

بَلاغةُ الطِّباقِ المعنويِّ، بين الإنجاءِ والإغراقِ:

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ طباقُ إيجابٍ، بين الفعلين المتضادَّين ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ و﴿وَأَغۡرَقۡنَا﴾، وفي ذلك جمالٌ معنويٌّ، وتأكيدُ المعنى بذكرِ النَّقيضينِ تنبيهٌ ولفتٌ لانتباه السّامع لاختلاف المآلِ لمن آمنَ، واتَّبع الرُّسل، ومَن أبى، واستكبر.

الإغراقُ مُعجزةٌ كاسِحةٌ، تُقشتُ في ذاكرةِ التّاريخِ البشريِّ

نُكتةُ إسْنادِ الإغراقِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ، في قولِه: ﴿أَغۡرَقۡنَا﴾:

أُسنِدَ الإغراقُ إلى ضميرِ التَّعظيمِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾، ولم يقل: (وأُغْرِقَتُ الذين كذَّبوا)، ولا: (وأُغرِق الذين كفروا)؛ لأنَّه أرادَ تعظيمَ ذلك الجزاءِ، فهو إغراقٌ عظيمٌ حدثَ بما تقتضيه عظمةُ اللّه تعالى اللّائقةُ به، وقد كان كذلك، فما زالَ طوفانُ نوحٍ في ذاكرةِ البشريَّةِ وملْءِ صفحاتِ التّاريخِ.

تَكرارُ إقامةِ الحُجَّةِ تثبيتٌ للعِبرَةِ، وتأييدٌ للاعتبارِ

غَرَضُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، في قولِهِ: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا﴾:

عبَّر عن المُكذِّبين بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ دونَ الضَّميرِ وهو ما يقتضيه الظّاهر، فلم يقل: (وأغرقناهم)، فأظهر الموصولَ للإعلام بعلَّةِ الغرقِ، وهو التَّكذيبُ[1]، فعبَّر بالموصول قصدًا لتضمينِ الصِّلة علَّةَ الإغراقِ، والمعنى: "وأغرقنا من كذَّبَ بآياتنا بالطّوفان بسببِ تكذيبهم"[2]، وهذا تَكرارٌ في بيانِ الحُجَجِ، وذكر سببِ الإغراقِ، وغرضُه أخذُ العبرةِ والاعتبارِ.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 8/191.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، دونَ الصَّريحِ (المكذّبين):

ذَمُّ قومِ نُوحٍ كان لإضْرارِهِم على التّكذيبِ، لا لمجرَّدِ التَّكذيبِ

عبَّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ للدَّلالَةِ على معيَّنٍ مع الدَّلالة على أنَّ تكذيبَهم كان مستمرًّا، والاستمرارُ يشعرُ بالإصرارِ، فمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ "أي: استمرّوا على تكذيبها، وليس المرادُ بهم الملأ المتصدّين للجوابِ فقط، بل كان من أصرَّ على التَّكذيب منهم ومن أعقابهم"[1]، فالمرادُ من الموصولِ وصلتهِ بيانُ أنَّهم اتَّصفوا بالتَّكذيبِ واستمرّوا عليه، وليس المرادُ بيانَ أنَّهم متَّصفون بالتَّكذيب فحسب.

فائدةُ ذِكْرِ التّكذيبِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾، لا التَّكذيبِ بنُوحٍ:

التَّكذيبُ بالآياتِ هو سببُ الإغراقِ، لا تكذيبُ الأشخاصِ

عبَّرَ عن تكذيبِ قومِ نوحٍ بالآيات في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ وهذا "يقتضي أنَّ نوحًا عليه السلام كانت له آياتٌ ومعجزاتٌ"[2]، وإنَّما عبَّر هنا عن تكذيبِهم بالآياتِ، وليس عن تكذيبِهم بنوحٍ عليه السلام لبيانِ شناعةِ تكذيبِهم؛ فهم قد كذَّبوا الآياتِ الَّتي هي مظنَّةُ التَّصديقِ، وهي لغيرهم مناراتُ هدايةٍ وبراهينَ علمٍ؛ فالتَّكذيبُ المقيَّد بالآياتِ هو أشدُّ من التَّكذيبِ المطلق، أو تكذيبِ المرسلِ، فكان تكذيبهم استكبارًا عن أدلَّة العلم، ويُشيرُ إلى أنَّ تكذيبَ الآياتِ كان السَّببَ المُعتبرَ الَّذي آلَ بهِم إلى الإغراقِ دونَ تكذيبهم له؛ لأنَّ تكذيبَ الآياتِ دليلٌ على الاستكبارِ والإصرارِ على الكفرِ.

فائدةُ إضافةِ آياتٍ إلى ضَميرِ العَظَمةِ، في قولِه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾:

آياتُ العظيمِ معلومةُ الوُرودِ، ولا يَكفرُ بها إلَّا جَحُودٌ لَدودٌ

أضافَ الآياتِ إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ إشعارًا بأنَّ هذه الآياتِ "هي من الظُّهورِ في حدٍّ لا خفاء به؛ لما لها من العظمةِ بالنِّسبةِ إلينا"[3]، وتعظيمُ هذه الآياتِ يشير إلى عِظم جرمِهم؛ إذ إنَّها آياتٌ لا ينبغي لها أن تُكذَّبَ؛ لأنَّها واردةٌ من اللهِ جل جلاله.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/392.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

مُوجِبُ فَصْلِ جُملةِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ عمَّا قبلَها:

عَمَى البَصائرِ، عِلَّةُ التَّكذيبِ بالآياتِ

جاءتِ الجملةُ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ مفصولةً عمّا قبلَها؛ لبيان أنَّ تكذيبهم لم يكن إلّا لعمى بصائرهِم[1]؛ إذ هو ما حال دون إيمانِهم واعتبارِهم بالآياتِ، فالجملةُ المفصولة "تتنزَّل منزلةَ العلَّةِ لجملة (أغرقنا) كما دلَّ عليه حرفُ (إنَّ)؛ لأنَّ حرفَ (إنَّ) هنا لا يُقصدُ بهِ ردُّ الشَّكِّ والتَّردُّد؛ إذ لا شكَّ فيه، وإنَّما المقصودُ من الحرفِ الدَّلالة على الاهتمامِ بالخبر، ومن شأنِ (إنَّ) - إذا جاءت للاهتمام - أن تقومَ مقامَ فاءِ التَّفريعِ، وتفيدَ التَّعليلَ وربْطَ الجملة بالَّتي قبلَها"[2].

فائِدةُ ذِكْرِ ﴿كَانُواْ﴾، في اتِّصافِ الكَفرةِ بالعَمَى القَلْبيِّ:

عَمَى البصيرة راسِخٌ، بِسببِ اكتِسابِ الجوارحِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾، قرنَ النَّظمُ الإخبارَ عن اتِّصافِ قومِ نوحٍ بالعمى بالفعل ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾، ولم يقل: (إنَّهم قومٌ عَمون)؛ للدَّلالة على أنَّ العمى تراكمَ عليهم عبرَ القرونِ، حتَّى أصبح جزءًا من سلوكِهم، وفي ذلك إيماءٌ إلى عراقتِهم في الضَّلال، وأنَّهم لم يعموا عن الحقِّ اليوم، بل هم مستمرّون عليه، لا ينفكّون عنهُ مع تطاولِ الأيّام، وتعاقبِ الأزمان، وهذا التَّعبيرُ أبلغُ في كونِ نوحٍ عليه السلام قد استنفدَ طرقَ الهدايةِ معهم، لكنَّهم عاندوا بسببِ ما رانَ على قلوبِهم من الاكتسابِ والاجتراح.

دَلالةُ ذِكْرِ ﴿قَوۡمًا﴾، ووصْفِهم بالعَمَى:

اجْتِماعُ البصائرِ على العَمَى، كتجمّعِ مَن رمَى إذْ رمَى

ذكرَتِ الآيةُ لفظَ (قَوْم) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾، ولم يقل: (إنَّهم كانوا عمين)؛ حيثُ إنَّ وصفَهم بكونِهم قومًا يدلُّ على أنَّهم كانوا في كفرِهم وعنادِهم مجتمعين قائمين، لما في لفظِ القومِ من دلالةٍ على أنَّ جماعةً ما يقومون قومةً واحدةً، إشارةً

(1) المراغي، تفسير المراغي: 8/191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، وينظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.

على صلابتِهم ووحدة كلمتِهم، ووصفَ هؤلاءِ القومَ بعمى البصيرةِ إشارةً إلى أنَّهم في إجماعهم واتِّفاقهم كانوا في ضلالٍ وجهالةٍ، فإنَّ الإجماعَ يدلُّ على قوَّةِ الاتِّفاق، فضلالهُم كان في الغاية القُصوى.

سِرُّ تفرُّدِ هذه الآيةِ بوصْفِ قومِ نُوحٍ، بقولِه: ﴿عَمِينَ﴾:

ناسبَ تفرُّدَ قومِ نُوحٍ بطُولِ الزَّمانِ، تَفرُّدُ هذا اللَّفْظِ في القرآنِ

وصف اللّهُ تعالى قومَ نوح بالعمى بصيغةِ الصِّفةِ المشبَّهةِ (عمٍ) بوزنِ فعٍ مثل أشِرٍ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت هذا الوصفِ فيهم، وجمعَها جمعًا سالمًا؛ لأنَّه أرادَ عمى القلب، وليس عمى العين، فلذا لم يقل: (عُميًا) بجمع التَّكسيرِ، فلمّا أرادَ الصِّفةَ الَّتي تدلُّ على عمى القلبِ والبصيرةِ؛ عدلَ إلى جمع المذكَّر السّالم[1].

وهذا اللَّفظُ من الأفرادِ في القرآنِ الكريم، وإنَّما تفرَّد هذا الموضعُ بهذا الوصفِ؛ لأنَّ قومَ نوحٍ عليه السلام قد لبث فيهم نبيُّهم زمانًا طويلًا، فكان حريًّا بهم أن يؤمنوا ويفقهوا عنه، ولمّا لم يبصروا الآياتِ مع تطاولِ الزَّمانِ؛ دلَّ على أنَّ عمى القلب والبصيرةِ وصفٌ راسخٌ فيهم، فجاء النَّظم القرآنيُّ بالصِّفة المشبَّهة للدَّلالةِ على ذلك. ولمّا كانوا متفرِّدين بهذا الرُّسوخِ في العماوةِ عن الحقِّ، وفي طولِ زمانِ الصُّدودِ والتَّكذيب، ناسبَ أن يوصفوا بلفظٍ متفرِّدٍ ذكرُه في القرآنِ؛ ليُناسبَ التَّفرُّدُ التَّفرُّدَ.

تَوجِيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في قولِه: ﴿عَمِينَ﴾:

تدلُّ قراءةُ (عامِينَ) على ابتداءِ العَمَى، وتدلُّ (عَمين) على رُسوخِ العَمَى

قرِئَ في قوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾: (عامينَ)، وهي قراءة شاذَّةٌ[2]، على صيغة اسمِ الفاعل الدّالَّة على الحدوث، وصيغةُ اسم الفاعلِ لا تدلُّ على رسوخِ هذا الوصفِ فيهم، كما تدلُّ عليه القراءةُ الأخرى الَّتي هي قراءةُ الجماعةِ المتواترة: ﴿عَمِينَ﴾ فهي على صيغة الصِّفة المشبَّهة الدّالَّة على ثبوتِ الوصف فيهم، "والفرقُ بين العَمي والعامي،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.

أنَّ العمي يدلُّ على عمًى ثابتٍ، والعامي على عمًى حادثٍ، ولا شكَّ أنَّ عماهم كان ثابتًا راسخًا"[1]؛ لأنَّ (العمي) لعمى البصيرة، وهو ثابتٌ، و(العامي) لعمى البصرِ، وهو حادثٌ، فإنَّ (فَعِلٌ) تدلُّ على الثُّبوت، لكونِها صفةً مشبَّهة[2].

وهذا الفرقُ بين (العمي) و(العامي) يحتاجُ إلى توجيهٍ على ضوءِ القراءتين، وتوجيهُ ذلك: أنَّ قراءةَ (عامينَ) أشارتْ إلى ابتداءِ الدَّعوةِ من نوحٍ ﷺ فكانوا وقتئذٍ قومًا عامين، ويكون قولُه: ﴿كَانُواْ﴾ محمولًا على ما كان منهم ابتداءً، وقراءةُ الجمهورِ تُشيرُ إلى ما استقرَّ إليه حالُهم بعد ذلك، وهو الذي أوقعَهم في الإغراقِ المبين، ويكون غرضُ القراءتين: التَّنبيهَ والتَّحذيرَ من مشابهتِهم في الاستمرارِ على الطُّغيان والاستكبارِ، فما بدأ فعلًا حادثًا ينتهي وصفًا راسخًا، وهو ما يُؤكِّد أنَّ اللّه لم يخلق أحدًا عميًا جبلَّةً، بل هو سلوكُ الاكتسابِ والاجتراحِ مع تطاولِ الأزمانِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفُلْكُ) و(السَّفينةُ):

السَّفينةُ في القرآنِ ما كان لها رُبّانٌ، والفُلْكُ باعتبارِ الوَظيفةِ والامْتِهانِ

بعد التَّأمُّل في مواضعِ الكلمتين في القرآن الكريم يتبيَّنُ أنَّ استعمالَ السَّفينةِ في التَّعبيرِ القرآنيِّ لمن كان لها مالكٌ وصاحبٌ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، فهي هنا لها أهلٌ، وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: 79] فهي لمساكينَ، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: 15].

أمّا استعمالُ الفُلكِ؛ فهو باعتبارِ الوظيفةِ العامَّة، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دون آخرَ، كقولهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/299، والزمخشري، الكشّاف: 2/115.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/432 - 433.

﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: 65]، وجاء الفُلك في سائر مواضعِ الامتنان على العبادِ بتسخيرِ الفُلك والبحرِ لهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164].

(الأعمَى) و(الأكْمهُ):

الأعمَى: من كان مُبصِرًا قبْلَ العَمَى، أمَّا الأكمهُ؛ فهو المولودُ أعْمَى

العمى: ذهابُ البصرِ من العينين كلتيهِما، ورجلٌ عمٍ إذا كان أعمى القلبِ، ورجلٌ عَمي القلب أي: جاهلٌ، والعَمَى: ذهابُ نظرِ القلبِ[1]. أمّا الأكْمَهُ؛ فهو الَّذي يولَد أعمى، فهو مقيَّدٌ بكونِه يولد مطموسَ العينِ[2]، أمّا الأعمى؛ فهو من ذهبَ بَصَرُهُ كُلُّهُ[3]، فالأعمى أعمُّ من الأكمهِ، وقوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾ جمعُ عمٍ، وهو صفةٌ على وزن فعِل، بمعنى: عمى البصائر، أي: عَميت قلوبُهم عن معرفة اللّه تعالى[4]، فالسّياقُ ليس في حاسَّة النَّظرِ، بل في بصيرةِ القلب، وهذا يُعبَّر عنه بـ (عمٍ) لا بـ (كَمِهٍ).

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عمى، عمي).
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كمه).
(3) الفيروزآبادي، القاموس: (عمي).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.

﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اتِّفاقُ الغاياتِ ومقاصدِ القَصَصِ مع الزَّمان، ملحوظٌ في التَّرتيبِ، بين قصّة نُوحٍ وقصّةِ هودٍ

لمّا تمَّت قصَّةُ قوم نوحٍ عليه السلام حسُنَ ذكرُ قصَّة عادٍ للسّياقِ؛ لأنَّهم كانوا بعدهم في الزَّمان، ولمشابهةٍ بين القصَّتين وقعَ في الغرضِ والغايةِ، فحسُن التَّرتيبُ، فالمناسبةُ بينهما تاريخيَّةٌ زمانيَّةٌ؛ لأنَّ قبيلة عادٍ "من أقدم الأمم وجودًا وآثارًا في الأرض، وهم - على ما يظهر - أقدمُ من إبراهيم، لذا ناسبَ ذكرُها بعد قصَّةِ نوحٍ مع قومِهِ"[(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَادٍ﴾: اسمٌ عربيٌّ؛ لأنَّ العادين كانوا يتكلَّمون بلغةِ العربِ، مشتقٌّ من العُدوان والاعتداءِ، وعادٌ كان أبًا لهؤلاء القوْم، وكان من أحفاد نوحٍ عليه السلام وهو عادُ بن عَوْص بن إِرَم بنِ سام بن نوحٍ، وسَمَّوْه: عاديًا، وقومَه: عادين؛ لزيادة القهرِ والقوَّة والمال والنِّعمة فيهم، أو لزيادَة القَدِّ والقامَة[(2)]، فسمّيت القبيلةُ باسم أبيهم وهو عادُ بن عوص[(3)].

2) ﴿أَخَاهُمْ﴾: (أخو): الأخُ في الأصلِ مَن ولَده أبواكَ أو أحدُهُما، ويطلقُ أيضًا على الأخِ من الرِّضاعِ، ويُستعارُ الأخُ في كلِّ مشاركٍ لغيرهِ في القبيلةِ أو الصَّنعةِ أو الدّين أو المعاملةِ أو المودَّة أو غيرها من المناسبات، سمّي الأخوان لتأخّي كلِّ واحدٍ منهما ما يتأخّاه الآخر، والأخوَّة مشتَقَّةٌ من الأخيَّةِ: وهو حَبْل يُدْفن في الأرض، ويَبْرُزُ طَرَفُ كالعُروة تُشدُّ إليه الدابَّة، فالأخوان مرتبطان بخروج كلٍّ منهما من

(1) الزحيلي، المنير: 8/260.
(2) الفيروزآبادي، البصائر: (عاد).
(3) العليمي، فتح الرحمن: 2/538، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/85.

نفس الصُّلب أو البطنِ الَّتي خرج منها الآخرُ أو منهما معًا[1]، وقوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾، سمّاه أخًا تنبيهًا على إشفاقِه عليهم شفقةَ الأخِ على أخيه، وأخاهم: أي: صاحبَهم ورسولهم[2].

3) ﴿هُودٗاۚ﴾: نبيٌّ كريمٌ ﷺ "هو ابنُ عبدِ اللّهِ بنِ رباحِ بنِ الخلودِ بنِ عادِ بنِ عوصِ بنِ إرَم ابن سامِ بنِ نوحٍ، بعثه اللّهُ إلى عادٍ نبيًّا، وكان من أوسطِهم نسبًا، وأفضلِهم حسبًا، وهودٌ: اسمٌ أعجميٌّ، وانصرَفَ لخفَّتِه؛ لأنَّه على ثلاثةِ أحرفٍ، وبعثه اللّهُ بعدَ نوحٍ وقبلَ إبراهيم"[3].

۞ المعنى الإِجْماليُّ:

إرشـــادُ هـودٍ قومَه، أنّ عبادةَ الله وحدَه أصلُ الدَّعواتِ الإلهيَّةِ

يخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه أرسل إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم هودًا، فهو من جنسِهم ومن نسبِهم؛ ليعرفوه، ويأنسوا به، وليفهَموا كلامه ومنطقه، فيكونوا أقربَ إلى تصديقِه، قال هودٌ: يا قومُ، اعبدوا اللّهَ وحده، ولا تجعلوا معه إلهًا آخر، أفلا تتَّقون ربَّكم، وتبتعدون عمّا أنتم عليه من الشِّركِ والمعاصي[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطْفِ على الحذف:

من بديعِ البيانِ، عطفُ القِصَّةِ على القِصَّةِ، بتَقديرِ محذوفٍ مُنتزَعٍ من القصَّةِ السَّابقةِ

قوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بتقديرِ محذوفٍ، تقديرُهُ: "لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه، وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم هودًا"[5]، فهو من عطْفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فقد عطفتِ الواو قصَّةَ هودٍ على قصَّة نوحٍ[6] عليه السلام.

---

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، وابن منظور، اللّسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أخو).

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/299، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أخو).

(3) العليمي، فتح الرحمن: 2/538.

(4) الزحيلي، المنير: 8/263.

(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/299.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200، والآلوسي، روح المعاني: 4/392.

غَرَضُ تقديمِ المرسَلِ إليهم على المرسَل:

بيانُ الإشعارِ بما سيكونُ لعادٍ منَ الإهلاكِ

قُدِّمَ ذكرُ ﴿عَادٍ﴾ على المفعولِ به الصَّريحِ ﴿أَخَاهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾، ولم يقل: (وأرسلنا أخا عادٍ هودًا إلى عادٍ)؛ لسببينِ اثنينِ: الأوَّل لفظيٌّ: وهو إفادةُ "الإيجازِ بالإضمار؛ حيث أريدَ وصفُ هودٍ بأنَّه من إخوة عادٍ ومن صميمِهم، من غير احتياجٍ إلى إعادة لفظ عاد"[1].

ولسببٍ آخرَ دلاليٍّ، وهو أنَّ في التَّركيبِ إشعارًا بأنَّ المذكورَ اللّاحق يُشابِه المذكورَ السّابق، فقصَّةُ عادٍ تُشابِه قصَّةَ قوم نوحٍ، فإنَّ تقديمَ ﴿عَادٍ﴾ يُشعر بتقديم المقصودِ بالذِّكر بعد الانتهاءِ من تتميم قصَّةِ قوم نوحٍ، وما جرى لهم من الإغراقِ، فكأنَّه قال: ما حصل لقومِ نوحٍ سيحصلُ لعادٍ.

بَلاغةُ فصلِ جُملةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ عمَّا قبلَها:

ربْطُ الجُملِ برابطٍ مَعنويٍّ، يَتجلَّى في الاستئنافِ البيانيِّ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مستأنفةٌ، فُصلت عن سابقِها، ولم تُعطَف؛ لأنَّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ إرسالِه عليه السلام إليهم كأنه قيل: فماذا قال لهم حين أرسل إليهم، ودعاهم؟ فقيل: قال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2]؛ ولم يحتج إلى عطفِها بالفاء؛ لأنَّ "الرَّبط بين الجملِ حاصلٌ في الحالتين؛ لأنَّ فاءَ العطفِ رابطٌ لفظيٌّ للمعطوفِ بالمعطوفِ عليه، وجوابُ السُّؤال رابطُ جملة الجوابِ بجملةِ مثارِ السُّؤال ربطًا معنويًّا"[3].

بَلاغةُ مَقُولِ القَولِ المُستَفتَحِ به الكلامُ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

تَنْبيهُ المخاطَبين بما سَيُلقَى من بَلاغةِ الخِطابِ

افتُتِحت جملةُ مقولِ القولِ بحرف النِّداء في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تنبيهًا لهم، وإثارةً لاهتمامِهم بمضمونِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/116، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/18، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.

قولِه الَّذي سيُلقيه عليهم. وخاطَبهم بكونِهم قومَه تذكيرًا "لهم بأنَّه أحدُهم يهمُّه ما يهمُّهم"[1]، فذكَّرهم بأواصرِ القرابةِ، وأنَّه لم يكن ليغشَّ قومَه، ويكذبَ عليهم، وأضاف (القوم) إلى ضميرِه ترقيقًا لهم وتحبُّبًا في مخاطبتِهم طمعًا في هداهم، وحُذفَتْ ياءُ المتكلِّم تخفيفًا لكونِها ساكنةً وما بعدها ساكنٌ.

سِرُّ تكرارِ جُملةِ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ على ألْسِنةِ الرُّسُلِ:

دَعوةُ الرُّسلِ واحدةٌ، وغايةُ إرْسالِهم مُوحَّدةٌ

تكرَّرَ قولُه جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ في قصصِ الرُّسلِ؛ "لأنَّ الرُّسل مرسلون من الله، والحكمةُ من الإرسالِ واحدةٌ، فلا جرمَ أن تتشابهَ دعواتُهم"[2]، فلمّا كان الموردُ واحدًا؛ فلا غرو أن تأتيَ الرِّسالات متوافقةً؛ ولأنَّ الحقيقة واحدةٌ، وهي أنَّ الله تعالى لا إله غيره، ومعاصي النّاس واحدةٌ، فلا جرم جاءت نصوصُ الرُّسلِ متوافقةً ومتماثلة.

غَرَضُ الاستئنافِ البيانيِّ، في قوله: ﴿مَا لَكُم﴾:

تَعليلُ العِبادةِ بالتَّوحيدِ، بيانٌ لعلَّةِ الإرسالِ

الجملةُ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ، والاستئنافُ هنا "جارٍ مجرى البيانِ للعبادة المأمور بها، والتَّعليلِ لها أو للأمر بها، كأنَّه قيل: خُصّوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئًا؛ إذ ليس لكم إلهٌ سواه"[3]، فالاستئنافُ جاء تعليلًا للأمرِ بالعبادة.

بَلاغةُ الكِنايةِ، باقْترانِ التَّقوَى بالأمْرِ الصَّريحِ بالعِبادةِ:

مَنْ عبَدَ الله واتَّقاه، نالَ الحُظوةَ عندَ خالِقِه ومَوْلاه

جاء الأمرُ صريحًا بالعبادة المقرونةِ بالتَّوحيد في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لكونه تعالى مستحقًّا ذلك لذاتِه، ولتكون العبادةُ له وحده دون ما كانوا يشركون

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201 - 202.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/393.

به[1]، وقرن ذلك بالحضِّ على التَّقوى، والمرادُ التَّحذير "من عقابِ اللّٰه تعالى على إشراكِهم غيره في العبادةِ واعتقاد الإلهيَّة"[2].

غَرَضُ الاسْتِفهامِ، في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

الـذُّهـولُ عن عـذابِ اللـه بـانـعـدامِ الـتَّـقـوَى، دليـلُ الغَفْلَةِ المُسْتحْكِمَةِ

غرضُ الاستفهامِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الإنكارُ، فهو "إنكارٌ واستبعادٌ لعدمِ اتِّقائِهم عذابَ اللّٰه تعالى بعدَ ما علموا ما حلَّ بقوم نوحٍ"[3]، كما أنَّ فيه تحضيضًا لهم وحثًّا على الإيمان وتحصيلِ التَّقوى[4]، فبعد أن ذكرَ التَّوحيد والأمر بالعبادةِ حثَّهم على تحقيق التَّقوى بالعبادةِ واعتقاد التَّوحيد.

دَلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

التَّقوَى نتاجُ العِبادةِ الحقَّةِ، والتَّوحيدِ الخالِصِ

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بالفاءِ الدّالَّة على التَّفريع[5]، وهي الفاءُ التي تدلُّ على أنّ ما بعدها مترتِّبٌ على الكلام الذي قبلَها، متفرِّعٌ عنه، تبيِّن العلَّة والسَّبب، وتفصِّل الأمر، فالتَّقوى متفرِّعةٌ عن الأمرِ بالعبادةِ والتَّوحيد.

مُناسبةُ الفاصلةِ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لسِياقِ الآياتِ:

خِتامُ الفواصلِ، مَـردودٌ على غاياتِ الابْتِداءِ

جاء في ختام الآية قولهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مناسبًا لسياقِ الآيات؛ لأنَّهم كانوا عارفينَ بما أصاب قومَ نوحٍ عليه السلام والمعنى: "أفلا تجعلونَ بينكم وبين عذابِ هذا الواحدِ الجبّارِ وقايةً"[6]، فالحثُّ على التَّقوى في الفاصلةِ مناسبٌ لما مرَّ في سياق الآيات.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434، والمراغي، تفسير المراغي: 8/193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/202.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/417، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/86.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/202، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237.
(6) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ [الأعراف: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين دعوةِ هودٍ قومَه، وجوابِ الملأِ الكافرِ منهم بالرَّفْضِ والصُّدودِ

بعد ذكرِ إعلانِ دعوةِ هودٍ عليه السلام لقومِه، أعقبهُ بذكرِ كيفيَّة تلقّيهم له، فلمّا "تشوَّفَ السّامع إلى جوابهم بعد هذا التَّرغيبِ المزوجِ بالتَّرهيبِ، أجيبَ بقوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾"(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَفَاهَةٖ﴾: (سفه) أصلٌ يدلُّ على خِفَّةٍ وسخافةٍ، السَّفَهُ والسَّفاهة: نَقيضُ الحِلْم، منَ الخفَّةِ والحركةِ، والسَّفيه جاهلٌ، وأصلُه: خفَّة النَّسج في الثَّوب، يقال: ثوبٌ سفيهٌ، أي: خفيف النَّسج: والسَّفه - أيضًا - خفَّةُ البدنِ، وزمامٌ سفيهٌ: كثيرُ الاضطراب، واستعملَ في خفَّة النَّفس كنقصان العقلِ في الأمورِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة(2)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي: في جهل(3).

2) ﴿لَنَظُنُّكَ﴾: الظاء والنّون أصلٌ يدلُّ على معنيَيْنِ مُختلفَين: يَقينٍ وشَكٍّ، الظَّنُّ شَكٌّ ويَقينٌ إلّا أنه لَيْسَ بيقينِ عيانٍ، إنَّما هوَ يقينُ تَدَبُّرٍ، فأمّا يَقينُ العيانِ؛ فلا يُقالُ فيهِ إلّا عَلِمَ، وهو اسمٌ لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت؛ أدَّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم، قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم﴾ [الحشر: 2]، أي: اعتقدوا اعتقادًا كانوا منه في حكمِ المتيقِّنينَ(4).

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سفه).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 146.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (ظنّ، ظنن).

المعنى الإجماليُّ:

كُفرانُ قومِ هودٍ، واتّهامُ رسولِهم بالسَّفاهةِ والكذبِ عَلانيّةً

يخبر اللّهُ تعالى أنَّ الأشرافَ والكبراء من قوم هودٍ ﷺ قالوا له بعد إعلان دعوته لهم: "إنّا لنراكَ في خفَّة حلمٍ، وسخافةِ عقلٍ، حيثُ تهجر دينَ قومك إلى دينٍ آخرَ، وإنّا لنظنُّك - في كلامك وادّعائك أنَّك رسولٌ من ربِّ العالمين - أنَّك أحدُ الكاذبينَ الَّذين يكذبونَ على اللّه في ادّعائهم الرِّسالةَ"(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عمَّا قبْلَها:

المـُحـاوَرَاتُ في القـرآنِ قـائِمةٌ علـى الارْتِبـاطِ المَعْنَوِيِّ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ مستأنفةٌ، فُصلت عن سابقِها ولم تعطف(2)؛ لأنَّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ نشأ بعد دعوةِ هودٍ ﷺ لقومه؛ كأنه قيل: فماذا قالوا حينَ دعاهم؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾، ولم يحتجْ إلى عطفها بالفاءِ؛ لأنَّه لقوَّة الرَّبط بين الجملِ في المحاوراتِ، وبين السُّؤالِ والجوابِ.

فائدةُ ذِكْرِ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

وصْفُ المـلأِ بالكُفر، يُشْعرُ بالتَّخصيصِ، وأنَّ منهم من آمنَ سِرًّا

ذهب بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ إلى أنَّ إضافةَ القيدِ بالوصف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أفادَ التَّخصيصَ مع قومِ هودٍ ﷺ دون قوم نوحٍ ﷺ لأنَّ بعضَ قومِه قد آمنَ بِه، "فتقييدُهم بالوصفِ يدلُّ على أنَّه كان فيهم من اتَّبعه، بل وإن متَّبعه كان من أشرافِهم"(3)، ولم يرتضِ بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ هذا التَّخريجَ لقوله تعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن

(1) الزحيلي، المنير: 8/263.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/435، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/116، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

﴿قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: 36] ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: 40]، فهو وصفٌ جاء للبيانِ والكشف[1]، بقصدِ الذَّمِّ لعتوِّهم في الكُفر، والسّياقُ يُشعرُ بالتَّخصيصِ، وأنَّ بعضَ الملأِ كانوا مؤمنين، يكتمون إيمانَهم، كمؤمنِ آلِ فرعونَ، ففيه دعوةٌ لمشركي مكَّةَ ممَّن يميلُ إلى الإيمانِ مع ضعفٍ في المواجهةِ، أنْ: آمنوا إلى حينٍ.

فائِدةُ المؤكِّداتِ في الآيةِ الكريمة:

تأكيدُ الافْـتِـراءِ على نُـوحٍ، أَمارةُ كَذِبِ الملأِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ حكى عن قوَّةِ تأكيدِهم بوصفِه بالسَّفاهةِ والضَّلال؛ لأنَّ الواقعَ كان خلافَ ذلك، فكان لا بدَّ من تأكيدِ كلامِهم، فـ "أكَّدوا ما واجهوهُ به من الجفاء؛ لأنَّهم عالمون بأنَّ حالَهُ في علمِه وحكمِه يكذِّبُهم"[2].

لَطِيفةٌ في تَوجِيهِ فكِّ وإدغامِ (إنَّ)، بضَميرِ المتكلِّمين:

ثـقـةُ الإنـسـانِ بـمـا يَـجـولُ في خـاطـرِه، أوثـقُ من حُـكْـمِهِ على الآخَرين

افتتحَ قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ بـ (إنَّ) الدّالَّة على التَّأكيد، وجاءت مدغمةً بضمير المتكلِّمين، بَيْنما افتُتح قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٢﴾ [هود: 62]، بها بفكِّ الإدغام، وما كان بفكِّ الإدغامِ؛ فهو أشدُّ تأكيدًا، وإنَّما كان تأكيدُ كونهم يشكّون أشدَّ من تأكيدِ كونهم يرونه في سفاهةٍ؛ لأنَّ السفاهة تتعلَّق به، وأمّا الشَّكُّ؛ فيتعلَّقُ بهِم، والمرءُ بما فيه أوثقُ بما في غيرِه.

سِرُّ إيثارِ التَّعْبِيرِ بالرُّؤيةِ في السَّفاهةِ، والظَّنِّ في الكذِبِ:

ارْتَـبـطَـتِ الـسَّـفـاهـةُ بالرُّؤيةِ لِيَقينهم بقيلِهِم، بينما ارْتَبطَ التَّكذيبُ بالظَّنِّ لِشَكِّهم بقَوْلِهم

عبَّر الملأُ الذين كفروا عن اتِّهام هودٍ عليه السلام بالسَّفاهةِ بفعلِ الرُّؤيةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾، وهي رؤيةٌ قلبيَّةٌ بمعنى: العلمِ، أي: إنّا لنعلمُ أنَّك في سفاهةٍ[3]؛ وذلك لأنَّهم رأوه يخالفُ آلهتهم وعقائدَهم، ويأمرُهم بصلةِ الأرحام، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/202، والسّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/359.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434 - 435.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/202.

في زعمِهم سفاهةٌ، وهم على يقينٍ من ذلك، فجاء التَّعبيرُ بالرُّؤية، أمّا في نسبته إلى الكذب؛ فعبَّروا بالظَّنِّ دون الرُّؤية، فتوقَّفوا "في الجزم بالكذبِ، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، أي: المتعمِّدين للكذبِ؛ وذلك لأنَّه كان عندهم عِلمٌ من الرُّسل، وما يأتي مخالفَهم من العذابِ من قصَّة نوحٍ عليه السلام ولم يكن العهدُ بعيدًا"[1].

غَرَضُ المجازِ المرْسَلِ في: ﴿فِي سَفَاهَةٖ﴾:

المبالغةُ في وصْفِ هُودٍ بالسَّفاهةِ، كأنَّها مُحيطةٌ به مُتمكِّنَةٌ منه

وصفت عادٌ هودًا بكونهِ في سفاهةٍ في: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ ولم يقولوا: (سفيهًا)؛ فجعلوها كالظَّرفِ الَّذي يحتوي الشَّيء، فكأنَّ السَّفاهةَ محيطةٌ من جميعِ الجوانب، لا خلاصَ منها، فلذا أدَّت إلى قولٍ لا حقيقةَ له[2]، وفي ذلك مبالغةٌ في تمكُّن خفَّة العقلِ والرُّسوخ في السَّفاهة، بحيثُ لا ينفكُّ عنها[3]، فكون السَّفاهةِ ظرفًا يدلُّ على أنَّه محيطٌ به، قد استحوذَ عليه، والسَّفاهة على الحقيقةِ ليس ظرفًا؛ لأنَّه معنًى لا مكانَ، وإنَّما يحلُّ في مكانه، فاستعمالُ السَّفاهة مجازٌ مرسلٌ أُطلِقَ فيه الحالُ، وأريد المحلُّ، فعلاقتهُ الحاليَّةُ، وفائدتهُ: المبالغةُ في وصفه بالسَّفاهةِ وإيغالِه فيها، ولو قالوا: (إنا لنراك سفيهًا)؛ لدلَّ على أنَّ السَّفاهة صفةٌ له، ويكون ذلك خاليًا من المبالغةِ الَّتي تدلُّ عليها الظَّرفيَّة.

تَوجِيهُ المتشابِهِ اللّفظي:

كلُّ وصفٍ مُتَّسِقٌ مع سِياقِه، مُؤَدٍّ لدَلالتِه

وذلك بين: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ و﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾، والفرقُ بين العبارتين أنَّ نوحًا عليه السلام "لمّا خوَّفَ قومَه بالطّوفان، وطفقَ في عمل السَّفينةِ قال لهُ قومه عند ذلك: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ حيثُ تتعبُ في إصلاح سفينةٍ في أرضٍ ليس فيها من الماء شيءٌ، وأمّا

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/435، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/86.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/435.

(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/116، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/86، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

هود ﵇؛ فإنَّه لمّا زيَّف عبادةَ الأصنام، ونسبَ من عبدها إلى السّفَه، وهو قلَّةُ العقل؛ قابلوهُ بمثله، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾»[1].

نُكتةُ جعْلِ هُودٍ ﵇: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

مَن كذَّبَ رَسولًا؛ فقد كذَّبَ جميعَهم، وحاربَ الله في إرْسالِ رُسُلِه

وصفت عادٌ هودًا بكونِه واحدًا من الكاذبين؛ إذ قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ولم يقولوا: (كاذبًا)؛ لأنَّهم جعلوهُ واحدًا من فئةٍ مشهورةٍ بالكذب، وهذا أبلغُ من وصفهِ بالكذبِ وحدَه[2]، "وفي قولهم هذا إيماءٌ إلى تكذيبهم كلَّ رسولٍ؛ إذ هم قد عبَّروا عن أصحابِ هذه الدَّعوى بالكاذبين، وجعلوهُ واحدًا منهم"[3]، فتكذيبُهم مستندٌ إلى تكذيبِ كلِّ الرُّسلِ، وهو تكذيبٌ صادرٌ عن إصرارٍ ورسوخٍ في الكفر، حيثُ جعلوا كلَّ من جاء مبلِّغًا عن اللّهِ تعالى كاذبًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّفاهةُ والجهلُ:

السَّفاهةُ: خَللٌ في السُّلوكِ، والجهلُ: نقصٌ في المعْرِفةِ

السَّفَهُ والسَّفاهةُ: نَقيضُ الحِلْم، من الخفَّةِ والحركةِ، والسَّفيهُ جاهلٌ، واستُعمل في خفَّةِ النَّفس كنقصانِ العقلِ في الأمورِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة[4]، أمّا الجهلُ؛ فأصلهُ خلاف العلم والخفَّة. وهو على ثلاثة أضربٍ: الأوَّل: وهو خلوُّ النَّفس من العلم، هذا هو الأصلُ. والثّاني: اعتقادُ الشَّيء بخلافِ ما هو عليه. والثّالث: فعلُ الشَّيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يفعلَ، كمن يتركُ الصَّلاة متعمِّدًا[5].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، نسبوه إلى الاضطرابِ ونقصانِ العقل، ولم يريدوا أن ينسبوهُ للجهلِ؛ لأنَّ الجهلَ يتعلَّق بالمعرفةِ، وهم

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/216، وينظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/300.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/393.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 8/193.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سفه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (جهل).

أرادوا أن يطعنوا في سلوكِه لا في معرفتِه، فما فعلهُ بزعمِهم من الدَّعوة إلى التَّوحيدِ هو نقصانٌ في العقلِ، لا ينمحي بالتَّعليم.

الظَّنُّ: تَرجيحٌ يُشابِهُ اليقينَ، والحُسبانُ: تَرجيحٌ خاوٍ عنِ الدَّليلِ واليقين

الظنُّ والحُسبانُ:

الظَّنُّ أدلُّ على اليقينِ والعلمِ من الحِسبان؛ لأنَّ "الظَّنَّ ضربٌ منَ الاعتقادِ، وقد يكون الحِسبانُ ليس باعتقادٍ؛ ألا ترى أنَّك تقولُ: أحسب أنَّ زيدًا قد مات، ولا يجوز أن تعتقدَ أنَّه مات مع علمك بأنَّه حيٌّ"[1]، والحِسْبان: أن يحكمَ لأحد النَّقيضين من غيرِ أن يخطر الآخر ببالهِ، ويكونُ بعرضِ أن يعتريه فيه شَكٌّ، والظَّنُّ أن يُخطِر النَّقيضين بباله، فيغلِّب أحدَهما على الآخر[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أي: إنَّهم اعتقدوا اعتقادًا كانوا منه في حكم المتيقِّنينَ، فعبَّروا بالظَّنِّ؛ لأنَّه أدلُّ على اليقينِ من الحسبان.

(1) العسكري، الفروق، ص: 99.
(2) الرّاغب، المفردات: (حسب).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾

[الأعراف: 67]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطٌ بين تُهمةِ الملأِ لهودٍ في المواجهةِ، ولُطْفُ الرَّدِّ في مِضمارِ المناصَحة

لمّا نسبوهُ إلى الضَّلالِ، وردّوا على تلطُّفه بجفاءٍ؛ ذكر ردَّه عليهم بنفي السَّفاهةِ بمزيدٍ من التَّلطُّف والحلم، وفي بيان هذه المناسبةِ يقول البقاعيُّ: "ولما قابلوا لينه لهم، وشفقتَه عليهم بهذه الغلظةِ؛ أعرضَ عن ذلك، وعاملهم من الحلم بضدِّ ما سمّوه به بأن ﴿قَالَ﴾ معلمًا الأدبَ في مخاطبة السُّفهاء: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ مذكِّرًا بما بينهم من النَّسبِ الدّاعي إلى الودِّ والمناصحةِ والعطفِ والملاطفةِ"(1).

❁ المعنى الإجماليُّ:

الـواثـقُ في مـواقِـفِـه، لا تُغيِّرُهُ عَواصِفُ الاسْتِفزازِ

يخبر اللهُ تعالى أنَّ هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه في ردِّه عليهم غاضًّا عن اتِّهامِهم بأدبٍ حسن وخلق عظيم: ليسَ بي جهلٌ أو حماقة، ولكنّي بحقٍّ رسولٌ إليكم من ربِّ الخلقِ أجمعين(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

إبْرازُ الـرَّدِّ بعْدَ طُـولِ الـصَّـدِّ، حِكمةٌ أنيقةٌ، وعِبرةٌ رقيقةٌ

الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ مستأنفةٌ، فُصلت عن سابقِها، ولم تعطف؛ لأنَّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ نشأ بعد محاورتهم، وقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، فكأنَّه قيل: فماذا قالَ بعد ذلك؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولم يحتجْ إلى عطفِها بالفاءِ؛ لِقوَّة الرَّبط بين الجملِ في المحاورات، وبين السُّؤال والجوابِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.
(2) الزحيلي، المنير: 8/263، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

بَلاغةُ الرَّدِّ في قولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾:

نفيُ قليلِ السَّفاهةِ نافٍ لِكَثيرِها، بخلافِ العَكْسِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ نفى عن نفسهِ السَّفاهة على وجه المبالغةِ، حيثُ نفى أن يكونَ به "شيءٌ منها ولا شائبةٌ من شوائبِها"[1]، ولو قال: (لست سفيهًا)؛ لدلَّ على نفي ثبوتِ الصِّفة بهِ، ونفي الصِّفة لا يدلُّ على أنَّه لا يفعل شيئًا سفيهًا، بل تنفي ثبوتَ الصِّفة به، ولو قال: (في سفاهة)؛ لدلَّ على أنَّه ينفي عن نفسهِ إحاطة السَّفاهة به، فيكون قد نفى المبالغة، ولم ينفِ السَّفاهة القليلةَ، وعليه فإنَّ قوله: ﴿لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ أبلغُ في نفي السَّفاهة قليلِها وكثيرِها، ثبوتِها وحدوثها مرَّة واحدة، أي: ليس بي شيء ممّا يُقال لهُ: سفاهةٌ.

مَعانٍ ضِمنيَّةٌ، في نفي السّفاهة والكذب:

نَفْيُ السَّفاهةِ دَالٌّ على إثْباتِ الصِّدقِ

اكتفى - هودٌ عليه السلام - في قولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ بالتَّصريح بنفي السِّفاهة، ولم يصرِّحْ بكونه صادقًا؛ لأنَّ نفيَ داعي الكذبِ، وهو السَّفاهة ينفي عنه "أن يكونَ كاذبًا؛ لأنَّ الدّاعي إلى الكذب الخفَّةُ والطَّيشُ"[2]، ولمّا نفى ذلك؛ فقد أثبتَ لنفسه الصِّدق، ومن المعلوم أنَّ إثباتَ الصِّفة بطريق النَّفي أبلغُ من الإثبات؛ لأنَّ النَّفي يزيل كلَّ الاحتمالاتِ الَّتي يمكن أن تنقضَ الإثباتَ، فلمّا نفى عنه كلَّ سفاهةٍ داعية للكذب؛ ظهر صدقُه بلا احتمالٍ وبلا شكٍّ.

فائدةُ عطفِ جُملةِ: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ﴾ على ما قبْلَها:

تأييدُ دَعوَى رجاحةِ العقلِ، بدليلِ الرِّسالةِ

عُطِفَ قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على قولِه: ﴿لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ لكونهما من مقولهِ عليه السلام؛ فلمّا "نفى السَّفاهة؛ أثبت ما يلزم منه ضدَّها"[3]، فبعد نفي العيبِ عن نفسه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/238، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.

أعقبهُ بوصفِ نفسهِ بأشرفِ صفةٍ، وهي أنَّه رسولٌ من ربِّ العالمين، فزكَّى نفسه عن السَّفاهة، وأثبت نقيضَها بإثباتِ كونهِ رسولًا من اللّهِ تعالى ليهدي النّاس، فهو أبعدُ ما يكون عن السَّفاهة.

دَلالةُ حرفِ (لكنَّ)، واتِّصالِه بضَميرِ المتكلِّم:

إثباتُ الصِّدقِ والأمانةِ، بعْدَ الرَّمْيِ بالسَّفاهةِ

لَمّا نسبت عادٌ هودًا إلى السَّفاهة، ونفاها عن نفسهِ، فكان وصفهُ بالسَّفاهة يستلزمُ كونَه كاذبًا ضالًّا، فاستدركَ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ الاتِّصافَ بذلك يقتضي كونَه في غاية الرُّشد والصِّدق[1]؛ "فإنَّ الرِّسالةَ من جهة ربِّ العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا، كأنَّه قيلَ: ليس بي شيءٌ مما نسبتموني إليه، ولكنّي في غايةِ ما يكونُ من الرُّشدِ والصِّدق"[2].

وفائدةُ دخول (لكنَّ) على ياء المتكلِّم الدَّلالةُ على أنَّ النَّفي والاستدراك واقعان منه، لينقض ما رموه بهِ، ويثبتَ نقيضَه، فوقعت (لكنَّ) بين نقيضينِ، فنفى عن نفسه السَّفاهةَ، وأثبتَ نقيضها، وهو الرُّشد والصِّدق والأمانة.

دَلالةُ تَنْكيرِ ﴿رَسُولٌ﴾، وأنَّه ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

اجْتِماعُ فخامةِ الرِّسالةِ، وعِظَمِ مَصدرِها، سَكينةٌ من ورائِها رُسوخٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جاءَ لفظُ (الرَّسول) نكرةً تفخيمًا لكونه متَّصفًا بالرِّسالة، ووصفَ الرَّسول بأنَّه واردٌ من اللّه تعالى تأكيدًا لتفخيم الرَّسولِ، فهو رسولٌ، وأيُّ رسولٍ ذلك الَّذي يردُ من اللّه تعالى، وفي ذلك دلالةٌ على كونهِ في الغايةِ القصوى من الرُّشد والصِّدق[3].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالرُّبوبيّةِ في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عدلَ عن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/393.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/393، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

مَقامُ إرسالِ الرُّسُلِ يأتَلِفُ مع صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ

ذكرِ اسمِ الجلالةِ إلى ذكرِ الرُّبوبيَّة تذكيرًا لهم بالمحسن إليهم، الذي أوجدهم أوَّلًا، وكفل رزقَهم، ثمَّ أتمَّ نعمتَه عليهم بإرسال الرُّسل[1]، فمقامُ ذكرِ الرِّسالة يليقُ به صفةُ الرُّبوبيَّة؛ إذ بها تستقيم مصالحُ الخلقِ.

فائدةُ إضافةِ ﴿رَّبِّ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

إرسالُ الرُّسُلِ سُنَّةٌ رَبانيَّةٌ، مُستمِرَّةٌ إلى يوم الدِّينِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أضافَ لفظ الرَّبِّ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في سياقِ الحديثِ عن مصدرِ رسالتِه؛ تنبيهًا لهم "على أنَّه ربُّهم؛ لأنَّهم من جملة العالم، أي: من ربِّكم المالك لأموركم، النّاظر لكم بالمصلحة، حيث وجَّهَ إليكم رسولًا يدعوكم إلى إفرادِه بالعبادةِ"[2]، وأنَّ ما جرى لكم من إرسالي رسولًا، أدعو إلى عبادتِه وتوحيدِه، كان لمن سبقكم، كما أنَّه سيكونُ لمن سيلحقُ بكم، فكونوا قدوةَ خيرٍ للعالمين، لا عبرةً للمعتبرين.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 8/189.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾ [الأعراف: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

بيانُ وظيفةِ المُرسلِ فيما بلَّغ، ونفيهُ تُهمةَ السَّفاهةِ عن نفسِه

لمّا كان قومُ هودٍ عليه السلام، قد رَمَوْهُ بالسَّفه الَّذي هو ضِدُّ الحلم والرَّزانة[1]، ونفى عن نفسه هذه التُّهمة؛ بيَّن لهم بعد ذلك وظيفتَهُ، وطبيعةَ رسالته، ثُمَّ أخبرهم بمقتضى أُخوَّتِهِ لهم أنَّه ناصحٌ أمين، يهديهم إلى ما يُصلحهم، ويُبعدهم عمّا يَسوؤُهم[2].

ومن لطيف ما قال أبو حيان: "وَهُنا جاءَ ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ لَمّا كانَ آخِرُ جَوابِهِمْ جُمْلَةً اسْميَّةً جاءَ قَوْلُهُ كَذلِكَ، فقالوا هم ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ قالَ هوَ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾"[3].

ويزيد الطاهر ابن عاشور المناسبة بين الآيتين وضوحا فيقول: "وَأُتْبِعَ ﴿نَاصِحٌ﴾ بِـ: ﴿أَمِينٌ﴾ وهوَ المَوْصوفُ بِالْأَمانَةِ؛ لِرَدِّ قولهم لَهُ: ﴿لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ [الأعراف: 66]؛ لِأَنَّ الْأَمينَ هوَ المَوْصوفُ بالأمانة، والأمانة حالَةٌ في الْإِنْسانِ تَبْعَثُهُ على حفظ ما يَجِبُ عليه مِنْ حَقٍّ لِغَيْرِهِ، وتَمْنَعُهُ مِنْ إِضاعَتِهِ، أَوْ جَعْلِهِ لِنَفْعِ نَفْسه، وضِدُّها الخيانة. والْأَمانَةُ مِنْ أَعَزِّ أَوْصافِ البشر، وهيَ مِنْ أخلاق المسلمين"[4].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾: من الجذر اللغوي (بلغ)، والبُلوغ والبَلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدّرة، وربما يعبّر به عن المشارفة عليه وإن لم ينْتهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/436 - 437.
(2) الطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/303.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/87.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203.

إليه[1]، ويُقال: بَلَّغَ الرَّجل الشَّيءَ يبلِّغُه إبلاغًا؛ إذا أوصَلَه[2]، وكذلِكَ التَّبليغُ، والاسمُ منهُ البَلاغُ، وبلَّغتُ الرِّسالة تَبْليغًا أوصلتُها[3]، وأصْلُ (بلغ) يدلُّ على الوصول إلى الشَّيْءِ[4]، يُقال: بَلَغْتَ المكان بُلوغًا: وصلتَ إليه. وقَوْلُه تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52]، أي: هَذا القُرْآنُ ذو بَلاغٍ، أي: بَيانٍ كافٍ، والمعنى هُنا: أؤدّي إليكم أمر ربّي ونهيَه، وأوصِلُه إليكم[5].

2) ﴿نَاصِحٌ﴾: معروفٌ بالنُّصح، يُقال: نَصَحَ لَهُ يَنْصَحُ نُصْحًا، والنُّصح: تحرّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبه، والنُّصحُ: بذلُ المَوَدَّة والاجْتِهاد في المشورة. ونصحتُه ونَصَحْتُ لَهُ بِمَعْنًى واحِد[6]، ومِنْهُ النُّصْحُ والنَّصيحَةُ: خِلافُ الْغِشِّ ... وهوَ ناصِحُ الْجَيْبِ لِمَثَلٍ؛ إذا وُصِفَ بِخُلوصِ الْعَمَلِ، والتَّوْبَةُ النَّصوحُ مِنْهُ[7]. وأصل (نصح): أنَّه يَدُلُّ على مُلاءمةٍ بين شيئَين، وإصلاحٍ لهما، والنّاصِحُ: الخالصُ من كُلِّ شَيءٍ الَّذي لا يتَخَلَّلُه ما يَشوبُهُ، وبمُقتضى هذا الصَّفاء يكون النُّصحُ ببذل الرَّأي والتَّوجيه بِما فيه خيرُ المنصوح[8].

3) ﴿أَمِينٌ﴾: مأمونٌ على الرِّسالة، يقال: أمِنَ يَأْمُن أمانةً[9]، وأصلُ (أمِنَ) من الأمانة الَّتي هي ضِدُّ الخيانة، ومعناها: سكونُ القلب، ورجلٌ مَأْمُونٌ وأمينٌ ومُؤْتَمَنٌ موثوقٌ بِهِ، يأْمَنُه النّاس، ولا يخافون غائلتَهُ[10]. والأمانةُ هي مصدرُ (أمُنَ)[11] الرَّجل أمانةً فهو أمينٌ؛ إذا صار كذلك، هذا أصلُها، ثمَّ سُمّيَ ما تأْتَمِنُ عليهِ صاحبَكَ أمانَةً، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: 27][12].

---

(1) الراغب، المفردات: (بلغ).
(2) الخليل، العين: (غلب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: 8/419، ومرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلغ).
(5) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 4/2420، والعُليمي، فتح الرحمن: 2/537.
(6) ابن دريد الأزدي، جمهرة اللّغة: (نصح).
(7) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (نصح).
(8) ابن سِيدهْ، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصح).
(9) ابن منظور، لسان العرب: 13/22.
(10) الخليل، العين: (باب النّون والميم ووا يء)، وابن سِيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أمن)، والجلالين، تفسير الجلالين، ص: 203.
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أمن): 34/186.
(12) المُطَرِّزي، المعرب في ترتيب المغرب: (أمن).

المعنى الإجْماليُّ:

تبليغُ الرَّسولِ ما أمرهُ بهِ ربُّهُ بِإخلاصٍ وأمانةٍ

أُبَلِّغُكم ما أمرني اللهُ بتبليغِهِ إليكم من توحيدِهِ وشرعِهِ، وإنّي ناصحٌ مُخلصٌ لكم، فيما أُمِرتُ بتبليغِهِ، أمينٌ فيما أُخْبِرُكم به من وحيِ اللهِ جلَّ في علاهُ، لا أزيد فيه، ولا أَنْقُصُ[1]، واستغرابهم من أن يكون منهم رسولٌ متوقَّع مألوفٌ في أمثالهم، وقد ذكروا ذلك كما ذكروهُ من بعد لمحمَّدٍ ﷺ، فالعقليَّة الوثنيَّة الجاحدة واحدة، تختلِفُ الأقوامُ، ولا يختلِفُ المَنْزَعُ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ جملة ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ عن السَّابقةِ:

تقريرُ الرِّسالةِ وتفصيلُ أحكامِها وأحوالِها

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ استئنافٌ، لتقرير رسالته وتفصيل أحكامِها وأحوالِها[3]؛ إذ مِن شأن الرَّسول التَّبليغُ والنُّصح، فيكون جوابًا لما عسى أن يُسْأل، ويُقال: ما شأنك في كونك رسولًا؟ فقال: أبلِّغكم رسالات ربّي وأنصح لكم[4]، وعن هذا اخْتيرَ الفصل على الوصل[5]، وقيلَ: إنَّ الكلام هو صفات أخرى للرَّسول[6]، والمُناسبُ الاكتفاء كونه مستأنفًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾:

بيانُ أنَّ التَّبليغَ يجبُ على الرُّسلِ بحكمِ التَّكليفِ الشَّريف

في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ اصطفى النَّظمُ الكريمُ الفعلَ (أبلِّغُ) مضارعًا، تناسبًا مع ذكر الرِّسالة والرَّسول؛ إذ مهمَّة الرُّسل البلاغ، وبذا جرى النَّظم في القرآن الكريم كلِّه، فالرَّسولُ مُبلِّغ عن

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 215، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 159، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2884.

(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/18، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236.

(4) ابن التَّمجيد الحنفي، حاشيته على البيضاويِّ: 8/413.

(5) القونويّ، حاشيته على البيضاويِّ: 8/413.

(6) وحينَئِذٍ تكون صيغة التَّكلُّم نظرًا إلى المعنى، وإلا فالظّاهر: يبلغكم وينصح لكم، لأن الرَّسول من الغيب. فالصِّفَة موضِّحة ولا بعد في كونها مادحة، نظيره: أنا الذي سمَّتني أمي حيدرة. وليس بمستحسن عند البلغاء. يُنظر: القونويّ، حاشيتِه على البيضاويّ: 8/413.

اللّه ﷻ، فبيَّن وظيفةَ الرَّسول، وحالَه ﷺ فيما بلَّغ[1]، فيجب على الرُّسل التَّبليغ، ويستحيل عليهم ضدُّه، وهو كتمان شيء ممّا أُمِروا بتبليغه[2]، وحيثما قلَّبت النَّظرَ في الذِّكر الحكيم؛ ألفيتَ فعل البلاغ قرينَ الرِّسالةِ والرَّسول، من ذلك: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النَّحل: 35]، ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: 62، 68]، ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [الأعراف: 79]، ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: 93][3].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾ دون لفظ (الإيصال):

إيثارُ اللَّفظِ في السِّياق القرآنيِّ على سواه، يميِّز بلاغتَهُ ومؤدَّاهُ

الملاحظُ أنَّ إيثارَ التَّعبير بالإبلاغ في الآية الكريمةِ دونَ استعمال لفظِ الإيصالِ؛ لأنَّ الإبلاغ أشدُّ اقتضاءً للمنتهي إليه من الإيصالِ؛ لأنَّه يقتضي بلوغَ فهمِه وعقله، كالبلاغةِ الَّتي تصل إلى سويداء القلب، ولذا قيل: إنَّ الإبلاغ اختصارُ الشَّيء على جهة الانتهاء[4]. والتَّعبير بالمضارعِ يُفيد التَّجدُّد والاستمرار، وبيان أنَّه غير تاركٍ التَّبليغَ من أجل تكذيبهم، ولذلك جمع الرِّسالات؛ لأنَّ كلَّ تبليغٍ يتضمَّنُ رسالة بما بلَّغَه[5].

دلالةُ تنوُّعِ القراءات في (أُبۡلِغُكُمۡ) وأثرها في المعنى:

الـجـمـعُ بين التَّعبيرِ عن المرَّة، والـتَّـعـبـيرِ عن المرَّاتِ

في هذا الموضعِ قراءاتان: بتسكينِ الباء، وتخفيف اللّام من أَبۡلَغ[6] من باب أَفۡعَلَ[7]، وقرئ (أبلِّغ)، وفي القراءة الأولى إشارةٌ إلى مرَّة التَّبليغ، وفي قراءةِ التَّشديد إشارةٌ إلى تعدُّدِ المرّات، وهو ما يلائم واقعَ بلاغ الرُّسلِ، كأنَّ المعنى: (أبلِّغكم رسالةَ ربّي مرَّةً ومرّاتٍ، وهذا من بالغ إقامة الحجَّة عليهم[8].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 8/194، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/497.
(2) حسن أيوب، تبسيط العقائد الإسلاميَّة، ص: 141.
(3) عبد السّلام المجيديّ، إذهاب الحزن وشفاء الصّدر السّقيم، ص: 17.
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 65.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(6) ابن الجزري، النَّشر: 2/270.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 4/390، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/385.
(8) الكفويّ، الكليّات: 33، والثَّعلبي، الكشف والبيان: 4/244.

سرُّ جمعِ لفظِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ جُمِعَت ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ باعتبار ما أوحى إليه في الأزمانِ المتطاولة، لاختلاف أوقاتِها؛ لأنَّه كرسول يتلقَّى كلَّ يوم قِسطًا من الرِّسالة، أو بالنَّظر إلى تعدُّدها بحسب تنوُّعِ معانيها كالعقائدِ والمواعظِ والأحكام، أو لأنَّ المُرادَ بها ما أوحيَ إليه، وإلى الأنبياءِ قبلَهُ[1] أو كأنَّ كلَّ موعظةٍ رسالة واحدة، تعظيمًا لهداية الجزءِ، والغايةُ هي هدايةُ الكلِّ بكلِّ رسالاتِ اللّه.

صيغةُ الجمعِ تهدي إلى تعدُّدِ الأوقاتِ والمعاني

سرُّ إضافةِ لفظِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ إلى لفظِ ﴿رَبِّي﴾ في الآيةِ:

إضافةُ الرِّسالات إلى الرُّبوبيَّة تفيدُ عظيم الإنعام بها، وتفيد أيضًا أنَّها من الرَّبِّ الخالق لا من سواه، واستعمال لفظِ الرَّبِّ، يفيد التَّربيةَ والشَّفقة والإنعام، ممّا يقتضيه هذا اللَّفظُ المعبِّر في مبناه عن معناه، كما أنَّ في قول هودٍ نوعًا من التَّلطُّف في خطاب قومه، رغم ما أُثِرَ عنهم من صدودٍ وجحودٍ، ملفتًا نظرَهم إلى ربوبيَّةِ المولى الَّتي سوف تلفُّهم بالرَّحمةِ، إذا عادوا إلى الهدى، وتركوا الضَّلالَ.

رسالةُ الرَّبِّ تعالى مبرزةٌ لِلعبَرِ لِمن اعتبرَ

نُكتةُ العدولِ إلى الجملةِ الاسميَّةِ:

أتى في قصَّةِ هودٍ هاته بالجملة الاسميَّة، فقال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، وهودٌ كان يدعو قومه الفينةَ بعد الفينة، ولم تكن دعوته ليلًا ونهارًا، كما كان نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بل كانت وقتًا بعد وقت، فلهذا عبَّرَ عنه بالاسميَّةِ[2]، وإنَّما جيء بالجملة الاسميَّةِ مؤكِّدًا لها بالضَّمير (أنا) دِلالةً على الثَّبات والاستمرار، وإيذانًا بأنَّ مَنْ هذا حالُه، لا تحوم حولَه شائبةُ السَّفاهةِ، ولا شبهة الكذبِ[3]، وقد جاء

التَّأكيدُ على الثَّباتِ والاستمرارِ في النُّصحِ والأمانةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236، وإسماعيل حقي، وروح البيان: 3/183، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/385.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/381.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/238.

في مقابلةِ قَوْلِهم لَهُ: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٦٦﴾ [الأعراف: 66]، جيءَ هنا بالجملةِ الاسميَّةِ ليقابلَ الِاسْم بِالِاسْمِ[1].

سرُّ العدولِ عن الفعلِ (أنصح) إلى الاسمِ (ناصح):

نُصْحُ الرّسول لأمّتِهِ وَصْفٌ ثابتٌ فيهِ مُتَمَكِّنٌ منهُ

الفرق بين الصّورتين أنَّ صيغةَ الفعل تَدلُّ على التَّجدُّد ساعةً فساعةً، وأمّا صيغةُ اسم الفاعل فإنَّها دالَّةٌ على الثَّبات والاستمرار على ذلك الفعل[2]، وهو مناسبٌ لمواجهة ما رَمَوْه به ﷺ في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٦٦﴾ [الأعراف: 66]، والسَّفَهُ مِن غَرائِزِ النَّفسِ؛ لأنَّه ضِدُّ الحِلمِ والرَّزانة - فعَبَّرَ عن مضمونِ الجُملةِ النّافيةِ له بما يقتضي الثَّباتَ، فقالَ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾، أي: لم يزَلِ النُّصحُ من صفتي، هو ثابتٌ فيَّ، ومتمَكِّنٌ منّي[3]، كما أنَّ (السَّفاهة) صفة لازمةٌ لصاحبها، فقابلَها بصفةٍ في المعنى (ناصح)[4]، كما أنَّ في مجيء اسم الفاعل في قصَّةِ هود مناسبةً لاسم الفاعل قبله في ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ وبعده في قوله: ﴿أَمِينٌ﴾[5].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾ على الخبرِ:

المبالغةُ في إمحاضِ هودٍ النَّصيحةَ لقومِهِ، والاهتمامِ بما ينفعُهم

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمْ﴾ على عاملِه للإيذانِ باهتمامِه بما ينفعُهم[6]، وفيه مبالغةٌ ودلالةٌ على إمحاضِ النَّصيحة، وأنَّها وقعت للمنصوحِ له مقصودًا بِه جانبَهُ لا غير، فربَّ نصيحةٍ ينتفع بها النّاصح بقصدِ النَّفعين جميعًا، ولا نصيحةَ أنفعُ من نصيحةِ اللّه تعالى ورسلهِ[7].

---

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن ص: 122.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 122، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/300.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/436، وابن التَّمجيد الحنفيّ، حاشية ابن التَّمجيد على البيضاويِّ: 8/419، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/300، والخازن، لباب التّأويل: 2/217 وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 179.
(5) زكريا الأنصاريّ، فتح الرَّحمن: 1/197.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.
(7) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/115، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/83، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/18.

مدارُ أمرِ الرِّسالةِ والتَّبليغِ باللهِ عن اللهِ على خصلةِ الأمانةِ

سرُّ وصفِ النَّاصحِ بالأمانةِ في هذا الموضعِ الفريدِ:

الأمينُ هو الثِّقة[1]، ويَحْتَمِلُ أن يريدَ: على الوحي والذِّكر النّازلِ مِن قِبَلِ اللّه ﷻ. ويَحتمِلُ أن يُريد: أنَّه أمينٌ عليهم وعلى غيبِهِم، وعلى إرادةِ الخيرِ بهم، والعربُ تقولُ: (فلانٌ لفلانٍ ناصحُ الجيب، أمينُ الغيب). ويَحتمِلُ أن يُريدَ به (أمين) من الأَمْنِ، أي: جهتي ذات أمنٍ لكم من الكذبِ والغشِّ[2].

و(الأمين) وصفٌ يجمع الصِّفات الَّتي تجعله بمحلِّ الثِّقة من قومه، ومن ذلك إبطالُ كونهِ من الكاذبين[3]، كأنَّه قال لهم: كنتُ قبلَ هذه الدَّعوى أمينًا فيكم، ما وجدتم منّي غدرًا ولا مكرًا ولا كذبًا، واعترفتم لي بكوني أمينًا، فكيف تتَّهموني اليوم، فتنسبوني إلى الكذبِ؟[4]

التَّشابهُ بين قولِ نوحٍ: ﴿أَنصَحَ لَكُمْ﴾، وقول هودٍ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾:

يذكر الشَّعراويُّ: أنَّ قوله: ﴿أَنصَحَ لَكُمْ﴾، واردٌ في سياقِ الكلام في قوم نوحٍ؛ لأنَّ الفعلَ دائمًا يدلُّ على التَّجدُّد، بينما يدلُّ الاسم على الثُّبوت، ونظرًا إلى أنَّ نوحًا عليه السلام، كان يلحُّ على قومه ليلًا ونهارًا، وإعلانًا وسرًّا، لذلك جاء الحقُّ بالفعلِ: ﴿أَنصَحَ لَكُمْ﴾، ليفيدَ التَّجدُّد، ولكن في حالة قوم هودٍ، جاء سبحانه بما يفيدُ الثُّبوت، وهو قوله: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾؛ لأنَّ هودًا عليه السلام، لم يلحَّ ويكرِّرَ على قومهِ في دعوتهِم إلى الإيمانِ، كما كان يفعل نوحٌ عليه السلام، وغيرهُ من أولي العزمِ من الأنبياءِ الكرامِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/300 - 301.
(2) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/417 أبو حيّان، البحر المحيط: 5/87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.
(4) السَّمرقندي، بحر العلوم: 1/526، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/301.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّعَجُّبُ والاستِنْكارُ من كَوْنِ الرسولِ بَشَرًا هو ممّا يَستحِقُّ التَّعَجُّبَ

لمّا كانَ نبيُّ اللّهِ هودٌ ﷺ، يَعْرِفُ ما يعتقدونه من أمانتِهِ وعقله؛ تَوَقَّعَ استغراب قومه من أن يكون منهم رسولٌ، وأنَّ الحامل لهم على هذا هو العَجَبُ من أن يطَّلع على ما لم يطَّلعوا عليه، فأنكرَ عليهم ذلك بقوله: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾[1]، أي: لا تعجبوا؛ فلمّا كان التَّعَجُّب المجرَّدُ لا يَحملُ دليلًا لِرَفْضِ المُتَعَجَّبِ منهُ، جاء الرَّدُّ على تعجّبهم هذا بتعجُّبٍ مِثْلِه، مع اسْتِنْكار تَعَجُّبِهم، فجاءت عبارة الرَّدِّ مُصَدَّرَةً باستفهامٍ تعجُّبيٍّ ممزوجٍ بالاسْتِنْكار.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾: أي: هل أصابكم العَجَبُ؟ والعَجَبَ: تغيُّر النَّفس بما خفي فيه السَّبب، ممّا لم تجرِ به عادةً، يقال: عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَبًا[2]، والعَجَبُ حَيْرة تعرِضُ للإنسانِ عند استعظام، أو انصرافه أو إنكاره ما يَرِدُ عليه ويُشاهده، يُقال: عَجِبَ يَعجب عَجَبًا، وأمرٌ عَجيبٌ وعُجابٌ[3]، وَذَلِكَ إِذا اسْتُكْبِرَ واسْتُعْظِمَ. وأصلُ (عَجِبَ) يَدُلُّ عَلَى اسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ واستعظامِهِ[4] بسببِ الجهلِ به أو لكونهِ غريبًا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2884.
(2) محمّد ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/213.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عجب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجب).
(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (عجب)، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 3/535.

2) ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾: ليُعلمكم ويُبلِّغكم مُحذِّرًا، يقال: أنذرَ إنذارًا مِنَ الإبلاغِ والإعذار[1]، ويُقالُ: أَنْذَرْتُ القومَ مَسِيرَ عدوِّهم إِلَيْهِم، فَنَذِرُوا، أي: أَعْلَمْتُهم ذَلِك، فنَذِروا، أي: عَلِمُوا، فَتَحَرَّزوا[2]. وأصلُ (نذر) يدلُّ عَلَى تَخْوِيفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ، وَلا يَكادُ يَكُونُ إلّا في التَّخْوِيفِ[3]، فأَنْذَره بالأَمْر حَذَّره، وخَوَّفَه في إبلاغه[4]، ومِنْهُ المَثَلُ (أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ). والرَّسولُ في أصل مبعثه إنَّما هو بَشيرٌ لِمَنِ اهْتَدَى والتزم واستقام، ونَذيرٌ لِمَنْ ضَلَّ وغَوَى وانحرف عن الهدى والالتزام.

3) ﴿ٱلۡخَلۡقِ﴾: الخَلْق: مَصْدَرٌ: خلقَ اللّهُ الخلقَ يخلقُهم خلقًا، ثمَّ سمُّوا بِالْمَصْدَرِ[5]، وأصل(خَلَقَ) يدلُّ على تَقْدِيرِ الشَّيْءِ، ويستعمل في إبداع الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاء[6]، والمعنى هنا: وزادكم في الخِلقة،[7]من الإبداع والتَّصوير أو في النّاس[8].

4) ﴿بَصۜۡطَةٗۖ﴾: سَعَةً وفَضيلَةً، والبَسْطةُ في كلِّ شيءٍ: السَّعةُ، يُقال: رجلٌ بَسيطُ الجسم والباع والعِلم. وأصلُ (بسط)، يَدُلُّ على امْتِدادِ الشَّيْءِ وانفراشِهِ أو اتِّساعه[9]. والبساطُ: الأَرض العريضة الواسعة[10]، وبَسْطُ الشَّيءِ: نَشْرُهُ، والبَسْطُ: نَقِيْضُ القَبْضِ[11]. والمعنى هُنا: زاد في أجسامكم طولًا وعِظَمًا على أجسام قوم نوح[12]، ووُصِف طالوت من قبلُ في سورة البقرة بزيادةِ البَسْطة، وهي سَعة في العِلْم والْجِسْمِ، وكان أعلمَ بني إسرائيل يومئذٍ، وأجملَهم وأتمَّهم خَلْقًا[13].

5) ﴿ءَالَآءَ﴾: نِعَمُ اللهِ، وآلاؤه واحِدها: إِلًى، وَأَلًى، وَإِلْيٌ، وَأَلْيٌ[14]، ويقال: أولاني،

---

(1) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (ذرن).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(4) مرتضى الزَّبيديّ، تاج العروس: (نذر).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خقل).
(6) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلق).
(7) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/417.
(8) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بسط).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بسط).
(11) الجوهريّ، الصِّحاح: (بسط).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 12/505.
(13) ابن جرير، جامع البيان: 12/505.
(14) الرّازيّ، مختار الصِّحاح، ص: 21، وأبو حيّان، تحفة الأريب، ص: 57، والهُنائي، المنتخب من كلام العرب ص: 257.

معناه: أنعم عليَّ[1]. وأصل (ألى) يَدُلُّ على تجمُّع غَضٍّ طريٍّ يَعْلَق بالشَّيء، ومنه "الآلاء: فإنَّها طراءةٌ ولينُ حياةٍ، يحوزه مَنْ وَجَدَها[2]، والمقصود بالآلاءِ هنا: النِّعمُ.

المعنى الإجْماليُّ:

تفنيدُ عجبِ قومِ هودٍ من إرسالِهِ لهم، وتذكيرُهم بنعمِ اللهِ الغزيرةِ

وهل أثار عجبَكم واستغرابَكم أن جاءكم تذكيرٌ من ربِّكم على لسان رجلٍ من جنسِكم، فكذَّبتم، وعجبتم أن أنزلَ ربُّكم وحيَهُ بتذكيركُم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضَّلالةِ على لسانِ رجلٍ منكم، لينذركم بأسه، ويخوِّفكم عقابه؟"[3]، واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم؛ إذ جعلكم وارثين للأرضِ من بعد قوم نوحٍ الَّذين أهلكهم اللّه بكفرهِم، وزاد في أجسامِكم قوَّةً وضخامة، فاذكروا نِعمَ اللّه الواسعة عليكم، رجاء أن تفوزوا الفوزَ العظيمَ في الدُّنيا والآخرة[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ من افتتاحِ الجملةِ بالاستفهامِ بالهمزةِ في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

وصْفُهم نبيَّهُم بالسَّفاهةِ من القولِ المستنكرِ المذمومِ

قولهُ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ الهَمزةُ في قولِه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ استفهاميَّة جاءت لإنكارِ الواقع والتَّوبيخ، أي: هذا ممّا لا يُعجَبُ منهُ؛ إذ لَهُ تعالى التَّصَرُّفُ التّامُّ بإرسالِ مَن يشاءُ لِمَن يشاءُ[5]، وقدِ افتتح الجملةَ بالاستفهامِ الإنكاريِّ إشعارًا بأنَّهم أحالوا أن يكونَ رسولًا، مستدلّين بأنَّه بشرٌ مثلهم، كما وقعت حكايتُه في آياتٍ أُخَرَ، واختيرَ الاستفهامُ دونَ أن يقول: لا عَجب؛ إشارةً إلى أنَّ احتمالَ وقوعِ ذلك منهم، ممّا يتردَّد فيه ظنُّ العاقلِ بالعقلاء، فقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾

(1) أبو بكر الأنباري، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/136.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ألى).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/194.
(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 159، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/115، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/18، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/84.

بمنزلة المنعِ لقضيَّة قولِهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]؛ لأنَّ قولهم: ذلك بمنزلة مقدِّمةِ دليلٍ على بطلان ما يدعوهم إليه[1].

دلالةُ العطفِ على محذوفٍ بعد همزةِ الإنكارِ في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

الجمعُ بينَ الجوابِ والرَّدِّ في حالتي الاستبعادِ أو التَّكذيبِ

دخلت همزةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ على الواو العاطفة على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، كأنَّه قيل: (أستبعدْتُم وعجِبتم، من أن جاءكم وحيٌ أو موعظةٌ من مالِكِ أموركم ومربّيكم؟)[2]؟! وعجبهم من وجوهٍ: إمّا لأنَّ التَّكليف عبثٌ؛ لأنَّهتعالى متعالٍ عنِ العبادَة، أو لأنَّ التَّكليف لو وقع؛ لكان بإرسال الملائكَة، وإمّا لأنَّ الرَّسول إذا كان بشرًا، يكون من الأشرافِ الأغنياء وغير ذلك[3]، فأنكرَ عليهم هود عليه السلام ذلك ذاكرًا لما ظنَّه حاملًا لهم، ملوِّحًا بالعطف إلى التَّكذيب[4].

دلالةُ الماضي في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الوقوعِ وتيقُّنِهِ من مقاصدِ التَّركيبِ

إيثارُ صيغةِ الماضي (عجبتم)؛ للدَّلالة على تحقُّق الوقوع لا محالةَ؛ لأنَّ الماضي مُتيقَّنُ الوجود، فعجبهم قد وقع حقًّا، ووقوعُه إنَّما كان على جهة الاستبعادِ، هذا هو الظّاهرُ من قصَّتهم بدليلِ قولهِم السّابق: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66][5].

لطيفةُ التَّعبيرِ عنِ الرِّسالات بالذِّكرِ:

بيانُ شرفِ الرِّسالاتِ وشمولِها لما يحتاجهُ النَّاسُ

فُسِّرَ الذِّكْرُ في قوله: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالموعظة والبيانِ والرِّسالة[6]، فهو تذكيرٌ وزيادة شرف[7]، فهو يدلُّ على شمولِ رسالاتِ المرسلين لكلِّ هذه المعاني العظيمة الدّالَّةِ على شرفِ ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/18.
(3) القونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/415.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/416.
(6) البغويّ، تفسير البغويّ: 3/202، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/133.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437.

جاء بهِ المرسلون من وحي ربِّ العالمين، وقيل المعنى: "يعني: الرِّسالةَ والبيان على رَجُلٍ مِنكُمْ، تعرفون نسبه ليُنذِرَكُمْ بالعذاب"[1].

فائدةُ تعليقِ الذِّكرِ بالجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

بيانُ اختصاصِ التَّشريعِ بالرَّبِّ الخالقِ ﷻ

قولهُ: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وردت للابتداء، والجارُّ والمجرور متعلِّقانِ بجاءَ، أو بمحذوف، وقع صفة لذِكر، أي: ذكر كائنٌ من مالك أموركم ومُربّيكُم[2]، فهو ذكر من عنده لا من عند غيره، فهو خالقُ الخلق، وله بحكم الإلهيَّةِ، أن يأمرَ عبيدَهُ ببعضِ الأشياءِ، وينهاهُم عن بعضِها، ويخاطِبَهم بتلك التَّكاليفِ بواسطةِ رسلِه[3]، ولذلك قال: (فما أنا إلّا مبلِّغٌ لكم رسالة ربّي)، وعليه، فالذّكر أمرٌ عظيمٌ لعظم مَنْ كان منه ابتداء.

نكتةُ كونِ الذِّكر جاءَ مِنَ الرُّبوبيَّة:

الذِّكرُ من الرَّبِّ من أعظمِ النِّعَمِ لانفساحِ القربِ بِهِ

قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: الَّذي لم يقطع إحسانَهُ عنكم قطُّ، فهو مالكُ أمورِكم ومربّيكم[4]، وفي إيثار الرُّبوبيَّة على الألوهيَّة في هذا السّياق امتنانٌ، وكشْفٌ عن الغرضِ من مجيءِ الذّكر، ومعنى: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: رسالة أو موعظة على لسان رجلٍ من جنسِكم، فإنّهم كانوا يتعجَّبون من إرسال البشرِ، ويقولون: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ليُنْذِرَكُمْ عاقبة الكفر والمعاصي[5].

بلاغةُ حذفِ المضافِ:

اللِّسانُ هو الرَّسولُ وهو المبلِّغُ عن الحقِّ مرادَهُ مِنَ الخلقِ

قولُه: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾: أي: على لسان رجلٍ منكم، أو منزل على رجل[6]، كما قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194]،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/526.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/391.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/18.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.

أي: على لسانِ رسلِك، وذلك أنَّهم كانوا يتعجَّبون من نبوَّة هودٍ -عليه السلام-[1] ويقولون: لا مناسبة بينه تعالى وبين البشر، من حيثُ إنَّه تعالى في غاية التَّقدُّس والتَّنزُّه، والبشر في غاية التَّعلُّق والتَّكدُّر[2]، فجاءهم الجوابُ بأنَّ هذا الحدثَ الَّذي عظَّمتموه، وضجِجتم له، ما هو إلّا ذِكْرٌ من ربِّكم على رَجُلٍ منكم[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالرُّجولة في مقام النُّبوَّةِ والتَّبليغ عن الله:

بيـانُ بلـوغِ الأنـبـيـاءِ والمـرسـلـينَ درجاتِ الكمالِ

عبَّر النَّظمُ الكريم في مقام الوحي والتَّنزيل بالرُّجولةِ في قوله: ﴿أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾، لكون الرِّسالةِ والنُّبوَّة مختصَّةً بالرَّجل دونَ المرأة؛ ولما تحملُه هذه الكلمة من الطَّهارةِ بشقَّيها الماديِّ والمعنويِّ قال تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التَّوبة: 108]، ولما تحمله أيضًا من صفة الصِّدق مع الله، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: 32]، ولم يرسل الله عز وجل أنثى قطُّ، مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ [يوسف: 109]، فأثبت الرِّسالة للرِّجال الموحَى إليهم، وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم، فلا تكون أنثى نبيَّةً[4].

دلالةُ (من) بين التَّبعيضِ والبيانِ:

كـون الـرسـول بـشـرًا مثلَـهم أحَقُّ بالتصديق وأدعى للاتباع

قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ أي: تعرفون نسبه، فهو منكم نسبًا، فتعرفون مولده ومنشأه أو من جنسكم، فهي تبعيضيَّة أو بيانيَّة[5]، وفائدتها: أنَّ كونَه منهم يزيلُ التَّعجُّب[6]، فلو كان مَلَكًا فربَّما كان في اختلاف

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/84.
(2) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/416، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 3/183.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(4) السَّفّاريني، لوامع الأنوار البهيّة: 2/265.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(6) الخازن، لباب التأويل: 2/215.

الجنسِ تنافرُ الطَّبع[1]، ولأنَّ المرءَ بمن هو من جنسهِ أعرفُ، وبطهارةِ أحواله أعلمُ، وبما يقتضي السُّكون إليه أبصر[2]، فلا يسرعون إلى تكذيبِ الجائي به، وأن يعلموا أنَّ كونَ المُذَكِّر رجلًا منهم أقربُ إلى التَّعقُّل من كون مُذكِّرِهم من جنس آخر من مَلَك أو جِنّيٍّ، بل هم أحقّاء بأن يكون ما جعلوه موجبَ استِبْعادٍ واستحالة، هو موجبُ القبولِ والإيمان[3]، ففي وصْفهِ بأنَّه منهم فضحٌ لشبهتِهم أيضًا، فكانَ هذا الكلامُ من جوامعِ الكلم في إبطال دعوى الخصمِ، والاستدلالِ لصدق دعوى المجادل[4].

دلالةُ اللّامِ في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ﴾:

غـرضُ زيـادةِ حـرفِ الـلّامِ تبشيعُ خَطَئِهم في ردِّهـم على نبيِّهم

قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ علَّةٌ للمجيءِ، أي: ليحذِّرَكم عاقبةَ الكفرِ والمعاصي[5]، والمجرورُ في قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الحالِ من (رجل)، أي: منذرًا، أو هو ظرفٌ مُتَعَلِّقٌ بقوله: ﴿جَآءَكُمْ﴾ فهو زيادةٌ في تشويهِ خَطَئِهم إذ جعلوا ذلك ضلالًا مبينًا، وإنَّما هو هديٌ واضح لفائدتكم بتحذيركم من العقوبة، وإرشادكم إلى تقوى الله، وتقريبكم من رحمتهِ[6].

فائدةُ تخصيصِ (الإنذار) دونَ التَّبشيرِ:

التَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ في السِّياق

الإنذارُ أحرى بالقصد هنا؛ لأنَّ التَّحذيرَ من الخطر أولى من التَّرغيبِ في الخير، فالحماية مقدَّمةٌ على الرِّعاية، وقد جاء الحقُّ هنا بالذِّكرِ للإنذار، فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ فقط، وليس كما قال في قومِ نوحٍ: ﴿وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّ الإنذارَ لم يأتِ لمجرَّدِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/235.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236، والآلوسي، روح المعاني: 4/391، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/388.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.

الإِنذارِ، بل لنرتدع ونتَّقي، لِكي نُرحم، إذًا فحين يأتي بأوَّل الحلقة، وأوَّل الخيطِ، وهو الإِنذارُ، فنحن نستنتج الباقي، وهو التَّقوى لنصلَ إلى الرَّحمة[1].

تلوينُ الخطابِ بذِكْرِ النِّعم بعد ذِكْرِ النِّذارَة:

الـتَّـعـريـضُ بِالنِّذارَةِ والوعيد في ذكر النِّعمة

قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾، فيه الأمرُ بالتَّذكُّر للنِّعمة، وهو تعريضٌ بالنِّذارَةِ والوعيدِ الَّذي سبق في قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾، فإنَّ قومَ نوحٍ إنَّما استأصلَهم، وأبادَهم عذابٌ مِن اللهِ على شِركِهم، فمَن اتَّبعهم في صُنعِهم، يوشِكُ أنْ يَحُلَّ به عذابٌ أيضًا[2].

ثراءُ المعنى بتنوُّعِ المعطوفِ عليهِ:

الإشـــارةُ إلى تحذيرِهم ممَّا وقعَ لقومِ نوحٍ بسببِ كفرِهم

لمّا كان التَّقديرُ في قولِه: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾، أي: يحذِّركم من وخامةِ العاقبةِ، عطفَ عليهِ تذكيرَهم بالنِّعمةِ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾، مشيرًا به إلى التَّحذيرِ من عظيم النِّقمة في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ﴾، وكأنَّ المعنى: احذروا، واذكروا. أو يكون المحذوف ما اقتضاهُ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ من طلب الجواب، ويكونُ المعنى: أجيبوا واذكروا، أو: ولا تبادروا بالجوابِ حتَّى تذكروا ما أنعمَ به عليكم، وفيه الإشارةُ إلى التَّحذير ممّا وقعَ لقوم نوح.

أو يكون العطفُ على معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾، والمعنى: اتَّقوا، ولا تعجبوا، واذكروا. أو يكون العطف - وهو أحسن - على ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والمعنى: اعبدوا اللهَ، واذكروا[3]، فقد تغازرت المعاني بتغازرِ تقديرِ العطف، والرَّسمُ واحدٌ، وهذا من الإيجازِ والإعجازِ.

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ (الخواطر): 7/4210.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437.

سرُّ التَّرتيبِ في التَّذكيرِ بالنِّعمةِ بعدَ الإنذارِ:

دوامُ تذكُّرِ النِّعَمِ سبيلُ توحيدِ المُنعِمِ

في قولِهِ: ﴿لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ إنَّما أمرهم بالذِّكر بعد الإنذارِ؛ لأنَّ النَّفس تنسى النِّعم، فتَكْفُرُ المُنعِمَ، فإذا تذكَّرت النِّعمة رأتْ حقًّا عليها أن تشكرَ المُنعم، ولذلك كانت مسألةُ شكر المنعم من أهمِّ مسائلِ التَّكليفِ[1]. كما أنَّ تذكُّرَ النِّعم العظيمة، يوجب الرَّغبةَ والمحبَّة، وزوال النُّفرةِ والعداوة، وقد ذكر هود عليه السلام ههنا نوعين من الإنعام: الأوَّل: أنَّه تعالى جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وذلك بأن أورثَهم أرضَهم وديارَهم وأموالهم، وما يتَّصل بها من المنافع والمصالح، والثّاني: قَوْلُهُ: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾[2].

دلالةُ (إذْ) في قولِهِ: ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ﴾، وأثرُها في المعنى:

توجيهُ الأمرِ بالذُّكرِ إلى الوقت، مُبالغةٌ في إيجاب ذكرِ ما وقع فيه

قوله: ﴿إِذۡ﴾، إمّا أن تكون ظرف زمان في محلِّ نصبٍ بالفعل (اذْكُروا)، وإمّا أن يكون مفعول (اذْكُروا) محذوفًا، تقديرُه: (واذكُروا آلاء اللّه إذ جعلكم)، و"توجيهُ الأمر بالذُّكرِ إلى الوقت، دون ما وقع فيه من الحوادثِ، مع أنَّها المقصودةُ بالذّات، للمُبالغة في إيجاب ذكرِها، لما أنَّ إيجابَ ذكرِ الوقت، إيجابٌ لذكر ما فيه بالطَّريق البرهانيِّ، ولأنَّ الوقتَ مشتملٌ عليها، فإذا استُحضِر كانت هي حاضرةً بتفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عيانًا"[3]، فإنَّه الوقت الَّذي ظهرت فيه خلافتكم عن قوم نوحٍ في تعمير الأرضِ، والهيمنةِ على الأمم، فإنَّ عادًا كانوا ذوي قوَّةٍ ونعمة عظيمة، ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصّلت: 15][4]، وفي تذكيرِهم بوقتِ الخلافةِ، عظيم امتنان، وتهديد لهم بإزالتهم عنها، وهو ملائمٌ للإنذار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/301، والقونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/421.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، وإسماعيل حقي، روح البيان: 3/186، والآلوسي، روح المعاني: 4/394.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.

قال صاحب التحرير والتنوير محرِّرًا كعادته: "و(إِذْ) اسْمُ زَمانٍ مَنْصوبٌ على الْمَفْعولِ بِهِ، ولَيْسَ ظَرْفًا لِعَدَمِ اسْتِقامَةِ المعنى على الظَّرْفيَّةِ، والتَّحْقيقُ أنَّ (إِذْ) لا تُلازِمُ الظَّرْفيَّةَ بَلْ هيَ ظَرْفٌ مُتَصَرِّفٌ، وهوَ مُخْتارُ صاحِبِ الْكَشّافِ، والمعنى: اذْكُروا الْوَقْتَ الَّذي ظَهَرَتْ فيهِ خِلافَتُكُمْ عَنْ قَوْمِ نوحٍ في تَعْميرِ الْأَرْضِ والْهَيْمَنَةِ على الْأُمَمِ، فإنَّ عادًا كانوا ذَوي قوَّةٍ ونِعْمَةٍ عَظيمَةٍ ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]"(1).

فائدةُ التَّقييدِ والتَّخصيصِ:

بيانُ قُربِ زمانِهم من زمنِ قومِ نوحٍ عليه السلام

في قوله: ﴿جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ بيانٌ لمجيئهم عقبَ قوم نوحٍ، كما يعلنُ عنه حرفُ (مِن)، وفيه تذكيرٌ لهم وتخويف بالطّوفانِ الَّذي ذهب بمن كفرَ قبلَهم بنوحٍ عليه السلام.

ولّما قالَ: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾: عُلم أنَّ المقصودَ أنَّهم خلفاءُ قومِ نوحٍ، فعادٌ أوَّلُ أمَّةٍ اضطلعت بالحضارة بعد الطّوفانِ، وكان بنو نوحٍ قد تكاثروا، وانتشروا في الأرض، في أرمينيَّة والموصل والعراق وبلادِ العربِ، وكانوا أُممًا كثيرة، أو وكانت عادٌ أعظمَ تلك الأمم، وأصحابَ السّيادة على سائر الأمم. وليس المرادُ أنَّهم خلفوا قوم نوحٍ في ديارهم؛ لأنَّ منازلَ عادٍ غيرُ منازلِ قومِ نوحٍ عند المُؤرِّخين(2).

وتذكير هود بذلك يدلُّ على قرب زمانِهم من زمان نوحٍ(3)، وهذا سرُّ تخصيصِ قومِ نوحٍ بالذِّكرِ، وإلّا فقد كانت الأمم كثيرة العَدِّ، زائدةً على الحَدِّ، عظيمةَ الانتشار في جميعِ الأقطار(4).

دلالةُ لفظ (الخَلْقِ) بين المصدريّة والاسميَّة وأثرُه في المعنى:

إفادةُ معنى القُوى الجِبِلِّيَّة، ومعنى التَّفضيل على غيرهم من النَّاس

لفظ (الخَلْقِ) يمكنُ أنْ يكون بمعنى المصدر، أي: الزّيادةُ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/87.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/438.

القوى الجِبلّيَّة، أي: زادهم قوَّة في عقولهم وأجسامهم، أو: بمعنى النّاس، فالمعنى: وزادكم بصطة في النّاس بأن جعلكم أفضل منهم، فيما تتفاضلُ به الأممُ من الأمور كلِّها، فيشمل رجحانَ العقولِ، وقوَّة الأجسام، وسلامتها من العاهاتِ والآفاتِ، وقوَّة البأس[1]، فكما أوقعَ التَّفاوتَ بين شخصٍ وشخص فيما يعود إلى المباني، أوقع التَّباينَ بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني[2]، والمرادان لا يمتنعان، واللَّفظُ واحدٌ، ففي الكلامِ إيجازٌ.

نكتةُ إمساسِ الألفاظِ أشباهَ المعاني، وتوجيهُ قراءةِ (بصطة) بالصَّاد[3]:

استخدامُ الصَّاد للمعنى الأقوى لقوَّتِها، والسِّين للمعنى الأخفِّ لضعفِها

(البصطةُ) في الحسِّ بطولِ الأبدان، وفي المعنى بقوَّة الأركان[4]، واللَّفظ يقتضي أنَّ الزيادةَ هي على جميع العالم، وهو الَّذي يقتضي ما يُذكرُ عنهم[5]، والصّاد: أقوى من السّين عند علماء اللُّغة، حيث جعلوا الصّاد للمعنى الأقوى، باعتبار قوَّتها، والسّين للمعنى الأضعف[6]، باعتبار ضعفِها، وتعليلُ معنى القوَّةِ والضَّعف: أنَّ آية سورة الأعراف جاءت في سياقِ قوم عادٍ، وآية سورة البقرة جاءتْ في سياقِ طالوتَ وحدَه، والقومُ أقوى من الفردِ الَّذي هو طالوتُ، فاستَخدمَ الصّادَ للقوم، والسّينَ للفرد (طالوتَ) وحده. و(بَصْطَةً): مطلَقة في الغِنى، والسَّعة، والقوَّة، والعلم... وغيرها[7]، فلفظةُ (بَصْطَةً): تشمل كلَّ شيء، بينما في آية سورة البقرة الَّتي تخصُّ طالوتَ قيَّدها، فهي ﴿بَصۡطَةٗ﴾ فقط بالعلم والجسم.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/186.
(3) ابن الجزريّ، النشر: 2/230.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/439، والثَّعلبي، الكشف والبيان: 4/246.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 2/418.
(6) ابن جنّي، الخصائص: 2/162، وفاضل السّامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص: 9.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/88.

دلالةُ الفاءِ الفصيحةِ:

التَّعميمُ والإفصاحُ بذكر النِّعمِ بعد التَّخصيصِ والإيضاحِ لبعضِها

"الفاء في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ فصيحةٌ، أي: إن ذكرتم وقتَ جَعلَكمُ اللّهُ خلفاءَ في الأرض، ووقتَ زادكم بَصْطةً،؛ فاذكروا نعمَهُ الكثيرة تفصيلًا، فالكلام جاء على طريقةِ القياس من الاستدلال بالجزئيِّ على إثبات حكم كلّيٍّ، فإنَّه ذكَّرهم بنعمةٍ واضحةٍ وهي كونُهم خلفاءَ، ونِعَمٍ مُجْمَلَةٍ وهي زيادةُ بَصْطَتِهم، ثمَّ ذكَّرهم بقيَّة النِّعم بلفظ العموم، وهو الجمع المضافُ ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾"[1].

واصطفاءُ الفاء المفصحة عن شرطٍ مقدَّرٍ إيجازٌ بالحذف، وإتاحة الفرصة للعقلِ في التَّدبُّرِ والنَّظر.

فائدةُ إضافةِ (آلاء) إلى اسمِ الجلالةِ (الله) دون الرَّبِّ:

الإشارةُ إلى سياقِ الدَّعوةِ المتضمِّنِ التَّوحيدَ، وهو مقامُ العبوديَّةِ

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: اعملوا بما يليقُ بذلك الإنعام، وهو أن تُؤمنوا به، وتتركوا ما أنتم عليه من عبادةِ الأصنام[2]، واشكروهُ على ذلك بإخلاصِ العبادةِ له، وترك الإشراكِ به[3]، وفي ذلك تناسبٌ واتِّساقٌ مع قولِ هودٍ عليه السلام، في أوَّلِ هذه المحاورة، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: وحِّدوهُ في العبادة، ولا تعبدوا معه آلهةً أخرى[4].

غرضُ تَكرارِ التَّذكيرِ بالنِّعمِ:

زيادةُ التَّقريرِ بالتَّعميمِ إثرَ التَّخصيصِ

قوله: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: الَّتي أنعم بها عَلَيْكُمْ من فنون النَّعماء الَّتي هذهِ من جملتها، وهذا تكريرٌ للتَّذكير لزيادة التَّقريرِ، وتعميمٌ إثرَ تخصيص[5]، لبيان أنَّه لا نعمةَ عندكم لغيرهِ أصلًا، فصارَ مُستحِقًّا؛ لأَنْ تَخُصّوه بالعبادة[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/405.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 1/487.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/448، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/116، والمراغيّ، تفسير المراغي: 8/194.

(4) أبو بكر الجزائري، أيسر التَّفاسير: 2/190.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، وإسماعيل حقي، روح البيان: 3/186.

(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/439، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/88.

بديعُ الجناس الاشتقاقيِّ في الجمع بين الذِّكْر والأمر به:

الذِّكر في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، من معانيه الموعظةُ والرِّسالة، وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾، فيه من التَّعريضِ بالنِّذارَةِ والوعيدِ الَّذي سبق[1]، وفي التَّذكير بآلاء الله ونِعَمِه في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، وأوَّلُ النِّعم أن أرسل إليهم رسولًا يأخذُ بأيديهم إلى مناطقِ الخيرِ[2]، فقد نُسِجت هذه الألفاظُ في نظامٍ بديع، انتقلَ فيه السّياقُ بين اشتقاقاتِ المباني لجمعِ المعاني.

التَّنبيهُ إلى العلاقةِ بين المعاني باختلافِ اشتقاقاتِ مبانيها

وجهُ استخدامِ (لعلَّ) للتَّعليل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾:

المعنى: فاذكروا لكي يفضي بكم ذِكْر النِّعم إلى شكرها، المؤدّي إلى الفلاح، فبهذا الاعتبار حَسُنَ ترتُّبِ الفلاح على الذِّكر[3]، وفي التَّعبير بلفظِ (لعلَّ) إلماحٌ إلى أنَّ التَّذكير سبب، ولا تحقُّق لنتائجهِ إلّا بتعلُّقِ القلب بخالقه.

التَّذكيرُ بالنِّعم علَّةٌ لتحقيق الفلاحِ بعدَ تعلُّقِ القلوبِ بالرَّجاء

دلالةُ صيغةِ المضارِع:

قولُه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، أي: ليكون حالُكم حالَ مَنْ يُرجى فلاحُه، وهو ظَفَرُهُ بجميع مُرادِه، ففازَ بالمطلوبِ الأعْظَم، والمضارع يُفيد التَّجدُّدَ والاستمرارَ. وقد ناسب التَّعبيرُ بالفعلِ المضارِعِ في هذا المقامِ معنى الفلاحِ، وهو البقاءُ الدّائمُ في النَّعيمِ والسُّرورِ[4].

إفادةُ التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الظَّفر بالمراد

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جاءكم) و(أتاكم):

الإتيانُ: مجيءٌ بسُهولَةٍ[5]، والمجيءُ: إتيانٌ محقَّقٌ بعيدٌ عن عوامل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.

(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراويّ: 7/4211.

(3) القونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/421.

(4) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 5/520.

(5) الرّاغِب، المُفردات، ص: 283.

النَّقصِ، والإتيان هو الأعمُّ والأشمل، والإتيانُ بداية المجيء زمانيًّا أو مكانيًّا، وقد لا يتمُّ فلا يكون مجيئًا، أمّا المجيء؛ فهو إتيانٌ محقَّقٌ قريب زمانيًّا ومكانيًّا[1]. كما أنَّ في المجيء معنى المشقَّةِ والصُّعوبة[2]، فكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا.

المجيءُ هو تمامُ الإتيانِ واكتمالُهُ، وهما يتقاربانِ في المعنى

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾ [الفرقان: 4]، ورد "أنَّ العرب تستعمل (جاء) و(أتى)، بمعنى: (فعل)، فقوله: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا﴾، أي: فعلوه، وقيل: بتقدير الباء، أي: جاؤوا بظلم. ومن إتيانِ أتى بمعنى فعل: قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ [آل عمران: 188]، أي: بما فعلوه"[3]، وهما في هذا يشتركان في المعنى، حين تدلّان على المعنى بصيغةِ (فعل).

(الآلاء) و(النِّعَم):

الآلاءُ نِعَمُ اللهِ العظيمةُ العامَّةُ، والنِّعَمُ أخصُّ

الآلاءُ: النِّعمةُ الَّتي تتلو غيرَها، من قولك: وليه يليه؛ إذا قَرُبَ منه[4]، والآلاء: كلُّ ما يعدُّ من مصاديق الإكمالِ في الرَّحمةِ والبلوغِ في العطوفةِ، سواء كان بالأمرِ أو بالتَّقديرِ، أو بالخلق، أو بتهيئةِ الأسباب، أو بالنِّعَم العموميَّة، ظاهرةً أو باطنةً، دنيويَّةً أو أخرويَّةً.

والآلاءُ أيضًا عطايا اللهِ تعالى الكونيَّةُ للنّاس، ومنها خلق السَّموات والأرض، ومن آلاءِ اللهِ ﷻ، كعطاء ربّاني لقوم عاد، أنْ زادهم بسطةً في الخَلقِ بعد أن جعلَهم خلفاءَ من بعدِ قومِ نوحٍ. فالجامعُ بين معاني الآلاء مفهومُ الانتهاءِ في الإحسان، والبلوغ في إظهار الرَّحمة العامَّة، وعدم التَّقصير فيه[5].

أمّا النِّعمة: فهي إِحسانُ اللهِ تعالى إلى الخَلْقِ في حياتهم، مُقابل

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/264.
(2) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 97.
(3) الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 6/14.
(4) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 6.
(5) حسن المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 1/125.

إحسانهم بالطّاعات والشُّكر، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ [الأنفال: 53].

كما أنَّ النِّعمة يمكن أن تكون من الإنسان على إنسانٍ آخر، في حين أنَّ الآلاء تخصُّ الله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: 37]. وقيل: إنَّ النَّعْماءَ هيَ النِّعمُ الباطِنَة، والآلاءُ: هيَ النِّعمُ الظّاهِرَة[1].

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 912.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: 70]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرُ جوابِ قومِ هودٍ بعدَ دعوتِهِ إيَّاهم، وإقامته الحجَّة عليهم

لمّا ردَّ هودٌ عليه السلام على قومه ردًّا مُقنِعًا حكيمًا، كان المُتوقَّع من ورائِهِ أن يستجيبوا له، وأن يُقبلوا على دعوته، فلا بُدَّ لِكُلِّ سامعٍ مُنْصِفٍ من المبادرةِ إلى الإذعانِ لهذه الحُجَّةِ القطعيَّة، وهي استحقاقُهُ سبحانه للإفرادِ بالعبادة، للتَّفرُّد بالإنعام - ازداد تَشَوُّف المخاطب إلى جوابهم[1]. ولكنَّهم لسوءِ تفكيرِهم، وانطماس بصيرتِهم، أخذتْهُمُ العِزَّةُ بالإثم، فقالوا لنبيِّهم ومُرْشدِهم مُجادلين: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾[2]؟ فهي جوابٌ بعد الجوابِ المذكور، حكاية عنهم في قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف: 66].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَذَرَ﴾: نترُك ونَدَع، من وذِرَ يَذَرُ، وقد أماتتِ العَرَبُ ماضيَهُ ومصدرَهُ، فإذا أُريد المَاضي، قيل: تركته، فلا يَقولونَ: وذَرْتُهُ، ولا يسْتَعْمل مِنْهُ اسْم فاعل، ويَذَرُ الرَّجُلُ الشَّيءَ يتخلَّى عنه مع إهماله لعدم الاعتناءِ بشأنه[3]. ومنها في القرآن بصيغةِ المضارع: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦﴾ [طه: 106]، أي: يترك الجبالَ كالمنبسطات المستويَةِ الواسعة، وبصيغة الأمر: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278].

2) ﴿تَعِدُنَآ﴾: تُهدِّدُنا، والوعدُ يكون في الخيرِ والشَّرِّ، يقال:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2885، والطّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/305.
(3) الفراهيديّ، العين: (ذرو، وذر)، وابن عبّادٍ الطّالقانيّ، المحيط في اللُّغة: (ذرو، وذر)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (وذر).

وَعَدْتُه بِنَفعٍ وضُرٍّ أعِدُه وَعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا[1]، وأصلُ (وعد) يدلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ[2]، ومن الوعدِ بالشَّرِّ قولهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحجّ: 47]، وإنَّما كانوا يستعجلونه بالعذابِ، وذلك وعيد[3].

والمعنى هنا: فائْتِ بالَّذي تُهَدِّدُنا به، وَتُخَوِّفُنا به[4]، قال أبو عَمْرِو بنُ العلاء: "إنَّ العربَ لا تَعُدُّ عارًا ولا خُلْفًا أنْ تَعِدَ شرًّا ثمَّ لا تفعلُه، ترى ذلك كَرَمًا وفَضْلًا، وإنَّما الخُلْفُ أن تَعِدَ خيرًا، ثمَّ لا تفعلُه"[5].

المعنى الإجْماليُّ:

ردُّ قومِ عادٍ على نبيِّهم بالاستهزاءِ، وجِدالُهُمْ له بالباطلِ المقيتِ

قال قومُهُ له: أدَعَوْتَنا - يا هودُ - لعبادةِ اللّهِ وحدَهُ وهَجْرِ ما كان يعبدُهُ آباؤنا من الأصنامِ، فائتِنا بالعذابِ الَّذي تخوِّفُنا به، إنْ كنتَ من أهلِ الصِّدقِ فيما تقول[6]! والآيةُ تعبيرٌ عن شدَّةِ عنادِهم وإصرارِهم على الشِّركِ المستَنِدِ على حُجَّةِ التَّقليدِ، والثِّقةِ فيما كان عليهِ الآباءُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ شبهِ كمالِ الاتِّصالِ في قولِه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾:

إسعافُ المتدبِّرِ بالجوابِ عمَّا فعلتْهُ البراهينُ بالكشفِ عن عنادِهِم عاجلًا

الآيةُ السّابِقةُ حجَّةٌ باهرةٌ، وبرهانٌ قاطعٌ على تفرُّدِه (سبحانه) بالألوهيَّة، واستحقاقهِ العبوديَّةَ، وقد " ازداد تشوُّفُ المُخاطبِ إلى جوابِهم، ولمّا لم يكن من القوم جوابٌ عن هذه الحُجَّةِ الَّتي ذكرها إلّا التَّمسُّك بطريقةِ التَّقليد[7]، ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّـهَ وَحۡدَهُۥ﴾، فجيءَ

(1) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح: (وعد).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وعد).
(4) محمّد الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/380، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/393، والشّنقيطي، العذب النّمير: 3/492.
(5) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/492.
(6) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 159، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/302 وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239.

بالفصلِ لشبهِ كمالِ الاتِّصال بَيْنَ الجملتين؛ لكونِ سياقِ الآياتِ جاءَ على طريقةِ المحاورة، فالجملةُ عن سؤالٍ أثارَتْهُ الجملةُ السّابقَةُ تقديرُهُ: (ما كان جوابُ قومِ هودٍ على هذه الحُجَجِ الباهرة، والبراهينِ السّاطعة؟).

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

ضلالُ العقولِ ودوافعُ الكبرِ، لا ينفعُ معها برهانٌ

قولُهم: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ على دَعوته للتَّوحيدِ، واستبعادٌ لمجيئِه عليه السلام - بذلك، ومنشَؤُهُ انهماكُهم في التَّقليد والحبِّ لما ألِفوهُ، وألفَوْا عليه أسلافهم[1]، فجاوبوا هودًا بما أنبأ عن ضياع حجَّتِه في جنبِ ضلالةِ عقولِهم، ومكابرةِ نفوسهم[2].

غرضُ التَّنَزُّلِ في الجوابِ من قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ إلى قولهم: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾:

الظَّنُّ بكذبِهِ في دعوتِهِ جاء على حقيقتِهِ ظنًّا؛ لأنَّـهُ محضُ أباطيلَ

قولُهم: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ هذا الجوابُ أقلُّ جفوةً وغلظةً من جوابهم الأوَّل؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ [الأعراف: 66] كأنَّهم راموا استنزالَ نفسِ هودٍ، ومحاولةِ إرجاعه عمّا دعاهُم إليه، فلذلكَ اقتصروا على الإنكارِ[3]، "والظَّنُّ هُنا على مَعْناهُ، فلَوْ قالوا: إنَّهم يَعْلَمونَ ذَلِكَ؛ لَكانوا كاذِبينَ على أنْفُسِهِمْ فيما يَحْكُمونَ مِنِ اعْتِقادِهِمْ، وأمّا حُكْمُهم عَلَيْهِ بِالسَّفاهَةِ؛ فكانَ على اعْتِقادٍ باطِلٍ مِنهم، ولِذَلِكَ عَبَّروا عَنْهُ بِالرُّؤْيَةِ الَّتي بِمعنى الِاعْتِقادِ"[4].

دلالةُ لفظِ (المَجِيءِ) بين الحقيقةِ والمجازِ في قوله: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾:

الزِّيادةُ في الإنكارِ عليهِ وتسفيهُهُ بسببِ اهتمامِهِ بدعوتِهِم

الأصلُ في لفظِ (المجيء) في قولِهم: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ أن يكون حقيقةً بكونِه متغيِّبًا عن قومِه منفردًا بعبادة ربِّه، ثُمَّ أرسله اللّهُ إليهم، فجاءهم من مكان مُتَغَيَّبِه، والأبرُّ بالسّياق أن يكون قولُهم ذلك على

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/395.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/442.

سبيل الاستهزاءِ والتَّهكُّم؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ اللّه لا يُرسل إلّا الملائكة، فكأنَّهم قالوا: (أجئتنا من السَّماء كما يجيء الملَك)، وذلك لا يرادُ حقيقةُ المجيءِ، ولكنَّ المرادَ التَّعرُّض والقصد[1]، فهو مستعمَلٌ على سبيلِ المجازِ المرسَل، والعلاقةُ السَّببيَّة؛ إذِ القصدُ إلى المجيءِ سببٌ للمجيء[2]، فكأنَّ قومَ هودٍ قالوا: أقَصَدْتَنا لِنَعْبد اللّه وحده، وتعرَّضت لنا بتكاليف ذلك[3]. أو يكون ﴿أَجِئْتَنَا﴾ مستعارًا لـ(قصدتنا)؛ زيادةً في الإنكارِ عليه وتسفيهِهِ على اهتمامهِ بأمرٍ مثلِ ما دعاهُم إليهِ[4].

دلالةُ القيدِ بالحالِ في قولِه: ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾:

تـعـدُّدُ الآلـهـةِ يــغــري غــيرَ العقلاءِ بالتَّقليد

قيَّدوا إنكارَهُم العبادةَ بأن تكونَ للّهِ وحدَهُ، ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾، انهماكًا في التَّقليد، وحبًّا لما ألِفوه، وألِفوا أسلافَهم عليه[5]، كأنَّهم يقولون: أنترك آلهةً كثيرين إلى إلهٍ واحدٍ؟ أو أنترك عبادةَ الجمع إلى الواحدِ، وفي الجمع قوَّةٌ وسَعةٌ؟ لذا جاء القيدُ بالحال، وقد كان المنطقُ أن يعبدوا اللّه وحدَهُ، لا أن يعبدوا الشُّركاءَ الَّذين لا ينفعونهم، ولا يضرّونهم، ولا يسمعونهم[6]، وكلُّه تأكيدُ البقاءِ على التَّقليدِ.

سرُّ العدولِ عن المصدرِ الصَّريحِ (العبادة) إلى المصدرِ المؤوَّل (لنعبد):

إفـــادةُ معنى الاستقبالِ معَ تـجـدُّدِ الفعلِ واستمراره

﴿لِنَعْبُدَ﴾ مضارعٌ منصوبٌ بأن المضمرة[7] بعد لامِ التَّعليل، ومن المتقرِّرِ عند علماء اللُّغة أنَّ دخولَ (أن) المصدريَّةِ على المضارع، يجعلُ الفعلَ المضارعَ يدلُّ على الاستقبال، فتؤثِّر على زمانِ المُضارع؛

(1) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/181.

(2) القونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/422.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/88، وابن التّمجيد الحنفي، حاشية ابن التمجيد على البيضاويّ: 8/422.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.

(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/117، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239.

(6) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراويّ: 7/4211.

(7) وتسمّى أنْ المصدرية، هي الّتي تؤول مع الفعل الّذي بعدها بمصدر يعرب حسب موقعه من الجملة.

لأنَّها تخلِّصُ المضارعَ للزَّمن الاستقبالي، فحالُهم الشِّرك، وهو يدعوهُم أن ينتقلوا من عبادةِ الشِّركِ في الحالِ إلى التَّوحيد في الاستقبالِ، وهو ما يفيدهُ المصدر المؤوَّل، ولايفيده المصدرُ الصَّريح، ثم إنَّ العبادةَ فعلٌ، فعبَّرَ بالفعل.

علَّةُ استنكارِهم عبادةَ (الله وحده) دونَ الرَّبِّ أو صفةٍ أخرى:

بيانُ عدمِ جَحْدِهِم للرُّبوبيَّة، وأنَّ شِركَهم كان في الألوهيَّةِ

ظاهرُ قولِهم: ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ أنَّهم أنكروا أن يتركوا أصنامَهُم، ويُفردوا العبادةَ للّهِ، مع إقرارِهم بالإلهِ الخالقِ المبدع، كما هو شأن عُبّادِ الأوثان كلِّهم، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]، ولا يجحدُ ربوبيَّةَ اللّه - تعالى - من الكفرةِ إلّا مَنْ أُفرطت غباوتُه، أو مَن ادَّعاها لنفسه، كفرعون ونمرود[1]، لذا كان اسمُ الجلالة هو الأدلَّ، وبالسّياق أبرَّ.

دلالةُ العطفِ في قولِهم: ﴿وَنَذَرَ﴾:

تعليلُ إنكارِهم إفرادَ اللهِ بالعبادةِ

قولُهم: ﴿وَنَذَرَ﴾ هذا استبعادٌ منهم لاختصاص اللّه بالعبادةِ، وكيف يتركون ما ألفوا عليه آباءهم مِنَ الشِّرْكِ[2] ؟ فلمّا كان هذا منهم في غايةِ العجبِ المستحقِّ للإنكار، أتبعوه ما هو كالعلةِّ لإنكارهِم عليه ما دعاهُم إليه[3]، ولأجلِ هذا الإنكارِ، استخدموا لفظ (نَذَرَ)؛ إذ الإذراء: أن يتخلَّى عن الشَّيء مع إهمالهِ؛ لعدم الاعتناءِ بشأنه، يقال: فلانٌ يذرُ الشَّيء، أي: يقذفُه لقلَّة اعتدادِه به[4]، فجعلوا تركَهم عبادةَ أصنامِهم بِمَنزلَةِ إهمالها، وعدم الاهتمام بها، وهذا ما تأباهُ نفوسُهم، وتستعظمُه.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/302.
(2) الدرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/542.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤَصَّل: (وذر).

التَّنبيهُ على أنَّ أكثرَ المعبوداتِ من الأوثانِ ممَّا لايَعقلُ

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالموصولِ دونَ الاسمِ الصَّريحِ:

عبَّروا عن معبوداتهم بقولهم: ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ وذلك لأنَّ غالب ما عُبد من دون الله مِنَ الأصنامِ ونحوها ممّا لا يعقلُ مِنَ المعبوداتِ؛ إذ إنَّ (ما) يُراد بها ما لا يعقلُ، وهذا على وجه التَّغليب؛ لأنَّ أكثر ما يُعبد من دونِ اللّه لا يعقل[1]، وهذا هو الَّذي اقتضى التَّعبير عن معبوداتِهم بطريقِ الموصوليَّة[2]، وقد "كان المنطقُ أن يعبدوا اللّه وحدهُ لا أن يعبدوا الشُّركاء الَّذين لا ينفعونَهُم، ولا يضرّونهم، ولا يسمعونهم، بل إنَّ الواحدَ منهم كان يرى الهواء يهبُّ على الصَّنم، فيميل الصَّنمُ، ويقع على الأرض، وتتكسرُ رقبتُهُ، فيذهب إلى الحدّاد، ليعيدَ تركيب رأس جديدٍ للصَّنم، فكيف يُعبدُ مثل هذا الصَّنمِ؟"[3]. وعليه فإن بلاغة استخدام الموصول (ما) هو إقرارهم على أنفسهم دون أن يشعروا أنّهم يعبدون جمادات لا تعقل، ولا تضرّ، ولا تنفع.

تعريضُهم بتسفيهِ النَّبيِّ (هود) لآبائهِ بتسفيهِ آبائِهم

سرُّ الإضافةِ إلى ضميرِ الجمعِ في قولِه: ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾:

ذكَّرَ قومُ هودٍ هودًا بأنَّ الأمرَ الَّذي أنكرهُ هوَ دينُ آباء الجميع، وفي هذا لون بلاغي؛ ألا وهو التعريضُ: فكأنَّهُ سفَّه آباءه؛ إيماءً إلى وجهِ الإنكارِ عليه، وإلى أنَّه حقيقٌ بمتابعةِ دينِ آبائِه، وهذا لونٌ من سفاهةِ دعاويهم، وقلبهم للحقائقِ والمفاهيم، وهم في هذا يصدقُ عليهم قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 103 - 104]. وفيه أيضا اعتزاز أهل الباطل بباطلهم؛ تأمل كيف يفتخرون بأن آباءنا كانوا يعبدون غير اللّه!

---

(1) القنوجي، فتح البيان: 7/93، والعُليمي، فتح الرحمن: 2/540.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي - الخواطر: 7/4211.

فائدةُ ذكرِ (كان) في قولِه: ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾:

بيانُ قِدَمِ عِباداتِهِم للأصنامِ، وتأصُّلهم في هذا الضَّلالِ

اجتلابُ (كان) في قولهم: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ﴾، لتدلَّ على أنَّ عبادَتَهم أمرٌ قديمٌ، مَضَتْ عليه العُصورُ[1]، "وهكذا يذهب بهم الغلوُّ في الكفرِ إلى درجةِ أن يعتبروا أمرًا نُكْرًا يستحقُّ الاستنكارَ، أن يعبدوا اللّه، ويتركوا ما كان عليه آباؤهم"[2]، على اعتبارِ أنَّ قِدَمَ الزَّمنِ مُسَوِّغٌ لهم أن يفعلوا ذلك، وهذا ملمحٌ من الاعتقادِ، لا دخلَ للتَّقادُمِ فيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله: ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾:

استحضارُ حالِ آبائِهِم، في مواظبتِهِم على عبادةِ الأصنامِ

التَّعبيرُ بالفِعل وكونه مُضارِعًا في قوله: ﴿يَعۡبُدُ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ ذلك مُتكرِّرٌ مِن آبائهم ومُتجدِّدٌ، وأنَّهم لا يَفتُرون عنه[3]، ففي هذا إشارةٌ إلى تصوير آبائهم في حالهم ذلك - ليحسنَ في زعمهم إنكارُ مخالفتِه لهم[4]، وكأنَّهم ماثلون أمامهم، وإنكار ما هو حالٌّ وقائم، صعبٌ تقبُّلُه، فكأنَّ في التَّعبيرِ إسنادًا لحجَّتِهم.

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

بيانُ استعجالِ العقوبةِ، واحتقارِهِم أمرَ النُّبوءَةِ

والفاءُ في قولِه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، لتفريعِ طلبِ تحقيقِ ما توعَّدهم به، أي: ﴿فَأۡتِنَا﴾ عاجلًا، وفيه تصميمٌ على التَّكذيب، واحتقارُ أمر النُّبوءة، واستعجال العقوبة[5]، والعبارة تدلُّ على "أنَّهُ كان يعدهم العذابَ إن لم يصدِّقوه فيما يدعوهم إليه، وترك تقليدِهم آباءهم في عبادتهم غيرَ اللّه"[6]. فدلّت الفاء على سرعة طلبهم لوقوع العذاب الذي يُخوِّفهم، وفيه كناية على عدم المبالاة التي يُظهرونها، وعلى استخفافهم بوقوع عذاب اللّه.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2886.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(5) ابن عطيّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/419، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/476.

سرُّ التَّعبيرِ بالأمرِ المجازيِّ في قولِه: ﴿فَأْتِنَا﴾:

الدّلالةُ على تيقُّنهم من عدم صدقِ الوعيدِ الّذي يتوعّدهم به

الإتيانُ بالشَّيء حقيقته أن يجيء مُصاحبًا إيّاه، وهو هنا مستعمل مجازًا في الإحضار والإثبات، واستعمالُ المجاز هنا فيه تعجيلٌ برؤية الوعيد حسًّا، ومرافقته التَّوعُّدَ حقًّا، "فالأمرُ في قولِهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ للتَّعجيز؛ تحدّيًا لهود، وإشعارًا له بأنَّهم موقنون بأنْ لا صِدْقَ للوعيد الَّذي يتوعَّدهم، فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ (ما) في قولِه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

التَّعبيرُ بالعمومِ والإبهامِ إظهارٌ لتيقُّنِهم بكذبِ الوعيدِ، وعدم الخوفِ منه

فائتِنا بما تعدُنا مِنَ العذابِ المُعجَّلِ، و(ما) بمعنى الَّذي، والعائد محذوفٌ، أي: بما تعدناه[2]، أو مصدريَّة، وجيء بالموصول للدَّلالة على أنَّهم لا يخشون شيئًا مِمّا يريده من الوعيد بالعذاب المُجمل، فالمرادُ بما تتوعَّدنا بهِ، وصيغت صلةُ الموصولِ من مادَّة الوعد؛ لأنَّه أخفُّ[3].

فائدةُ استعمالِ الوعدِ في الوعيدِ:

بيانُ استهزاءِ قومِ هودٍ بإنذاره ووعيدِهِ، وأنَّه غير واقعٍ البتَّة

تسميَتُهم للإنذار بالعذاب وعدًا - في قوله: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ - من باب الاستهزاءِ[4]، والوعدُ الَّذي أرادوه وعدٌ بالشَّرِّ، وهو الوعيدُ الَّذي تضمَّنه قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف: 65]، إذ هو مُشعرٌ بالتَّهديد والتَّخويف، ولأجل ذلك لم يعيِّنوا وعيدًا في كلامهم، بل أبهموهُ بقولهم: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾، ويحتمل أن يكون الوعيدُ مفادًا بالتَّعريض في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69]، المؤذن بأنَّ اللّه استأصلَ قومَ نوحٍ، وأخلفهم بعادٍ، فيوشكُ أن يستأصل عادًا، ويخلفهم بغيرِهم[5]، وفي كلِّ هذا دليلٌ على أنَّه كان يَعِدُهم بعذابِ اللّه إن داموا على الكفرِ[6]، والغرضُ أنَّه إذا لم يأتِهم بذلك العذابِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/146.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89.

ظهر للقوم كونَه كاذبًا، وإنَّما قالوا ذلك؛ لأنَّهم ظنّوا أنَّ الوعد لا يجوز أن يتأَخَّرَ، فلا جرمَ استعجلوه على هذا الحدِّ[1].

سرُّ إسنادِ الفعلِ (تعد) إلى الضَّميرِ العائدِ على هودٍ عليه السلام:

التَّعريضُ بتكذيبِهم نبوَّةَ هودٍ عليه السلام

أسندوا الفعلَ إلى ضميرِهِ في قولِهِم: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾، تعريضًا بأنَّ ما توعَّدهم به، هو شيء من مُختَلَقاتِهِ، وليس من قِبَلِ اللّٰهِ تعالى[2]، وهذا نوعٌ من رجمِهِم بالغيبِ، وقولِهم على اللّٰهِ ما لا يعلمون؛ إذ لا دليلَ لهم على ادِّعائهم ذلك، ولا قرينة تؤيِّد قولَهم، وتُبطِل ما جاءَ به وادَّعاه.

نُكتةُ استعمالِ (إنْ) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

الشَّكُّ في صدقِ الأنبياءِ شأنٌ عامٌّ في كلِّ الكافرين

عقَّب قومُ هودٍ كلامَهم بالشَّرطِ، فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ استقصاءً لمقدرَتِه، قصدًا منهم لإظهارِ عَجْزِه عن الإتيانِ بالعذابِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قبلَه، تقديره: أتيتَ به، وإلّا فلَسْتَ بصادقٍ[3]، كما أنَّ فيه إلهابًا وتهييجًا له عليه السلام، للتَّعجيل بمباشرةِ إيقاعِ العذابِ بهم، وفيه أيضًا إظهارٌ لثقتهم بكذبِه، ويقينهم بذلك.

سرُّ العدولِ عن قولِهِ: (إن كنت صادقًا) إلى قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

التَّشكيكُ في صدقِهِ بطريقِ الكنايةِ بإثباتِ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِه

لأجلِ التَّعريضِ السّابقِ في قولهم: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾، لم يقولوا: (إن كنت صادقًا)، وقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ليُشيروا إلى أنَّ في النّاس قومًا صادقين، وآخرين كاذبين، فهو تعريضٌ منهم بتكذيبِهِ من قبيل الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيء بإثباتِ مَلزومِهِ[4]، كأنَّ المعنى: (أنت كذّاب، ولا يمكن بحالٍ أن تُعدَّ من الصّادقين)، وهذا المعنى لايؤدّيه التَّعبير بـ (إنْ كُنْتَ صادِقا).

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/302.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(4) ولهذا التَّعريض نظائر كثيرة في القرآن الكريم. يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/322.

غرضُ حذفِ المعمولِ:

حَذْفُ المعمول بلاغة إيجازٍ وفصاحةُ بيانٍ

قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ يعني في قولك: إنَّك رسولُ اللّه[1]، أو في أنَّ العذابَ نازلٌ بنا[2]، فحذف المعمولَ لدلالة سياقِ الكلام عليه، وهو لونٌ من الإيجازِ الَّذي يُستغنى فيه عن المعلومِ دلالةً، حتَّى لا يكونَ الإطنابُ بذكره عبئًا على السّياق، وتكون بلاغةُ حذفه خادمةً لبلاغةِ المؤدَّى تحقيقًا للإفصاحِ والبيانِ.

بلاغةُ حذفِ الجوابِ، والدَّلالةُ عليه بما قبلَهُ:

تلويحُهم إليه وإيماؤهم إلى التَّكذيبِ بنبوَّتِهِ ووعيده

قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، جوابُ (إِنْ) محذوفٌ لدلالةِ المذكور عليه، أي: فائتِ به[3]، وإلّا فلست بصادقٍ[4]، أو إن كنت من الصّادقين في الوعيد، فإنَّ مناظرتك لا تؤثِّر فينا[5]. وفي هذا الجوابِ تلويحٌ إليه، وإيماءٌ منهم إلى التَّكذيب[6]، وبهذا اتَّضحَ أنَّه لا أمل في اقتناعهِم بالدَّعوة إلى الإيمان[7]. كما أنَّ في الحذف إلماعًا إلى أنَّهم على يقينٍ من كونهِ غيرَ قادرٍ على الإتيانِ، فحذف من القولِ ما لا يمكنُ وقوعُه عقلًا عندهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نَذَرُ) و(نترك):

الإذراءُ: التَّخلِّي عن الشَّيءِ مع إهماله، والتَّركُ مع عدمِ التَّعلُّقِ

الإذراء: أن يتخلَّى عن الشَّيء مع إهماله؛ لعدم الاعتناءِ بشأنه، يقالُ: فلانٌ يذرُ الشَّيءَ، أي: يقذفهُ لقلَّةِ اعتدادهِ به، ومنهُ الوَذْرَةُ، وهي قطعةٌ من اللَّحم، وتَسْميتُها بذلك لِقِلَّةِ الاعتداد بِها[8].

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/217.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(5) القونويّ، حاشيّة القونويّ، على البيضاويّ: 8/422.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4211.
(8) الخليل، العين، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (وذر).

وأمّا التَّرك؛ فهو "مفارقة الشَّيء ما كان يعلقُ بهِ، فيبقى بلا حاجةٍ إليه، فمن المفارقةِ: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]، أي: ممّا خلَّفوه من المالِ، وذهبوا، ثمَّ أُطلق في التَّخلّي عن الشَّيءِ وعدم التَّعلُّق بهِ، وعلى مجرَّدِ إبقائهِ على حاله دون مساسٍ بهِ، كأن لا علاقةَ لهُ بما يملكُ أمْرَهُ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: 36]"[1].

والخلاصةُ: أنَّ الإذراءَ: تركٌ مع إهمالٍ، والتَّركُ: التَّخلّي عن الشَّيءِ، وعدمُ التَّعلُّق به، فاصطفى الإذراء تناسبًا مع سياقِ الاستفهام الإنكاريِّ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 1/153، و152.

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ [الأعراف: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مجابهةُ هودٍ عليه السلام، لِمَا بدرَ من قومِهِ من كُفرٍ وتحدٍّ

لمّا كان قومُ هودٍ قد بالغوا في السَّفَهِ في القولِ، وكان قد عُلِمَ من مُحاورتهِ عليه السلام الحلمُ عنهم، اشتدَّ التَّطلُّع إلى ما يكون من جوابِهِ لهذا، والتَّوقُّع له، وإزاءَ هذا التَّحدّي السّافر من قوم هودٍ له ولدعوته، ولوعيدِ اللّه لهم، ما كانَ من هودٍ عليه السلام، إلّا أن جابَهَهم بالرَّدِّ الحاسم الَّذي تتجلَّى فيه الشَّجاعة التّامَّة، والثِّقة الكاملة بأنَّ اللّهَ سينصرُه عليهم، وينتقمُ له منهم، فشفى غليلَ هذا التَّشوُّف بقوله: ﴿وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَعَ﴾: أصابكم ونزلَ بكم، من الوُقوعِ: وهو ثبوتُ الشَّيءِ وسُقوطُه، يُقال: وقع الطّائرُ وقوعًا. وأكثرُ ما جاءَ في القُرآنِ من لفظِ (وقع)، جاء في العذابِ الشَّديدِ[2]، وأصلُ وقعَ يدلُّ على سقوطِ شيءٍ مع صدمٍ وشِدَّة، ومنه الواقعة: الدّاهية والنّازلةُ من صروفِ الدَّهر"، ومنه حدوثُ الأمرِ العظيم[3]. والمعنى هُنا: قد وَجَبَ عليكم بِمَقالَتِكُمْ هذه من رَبِّكُم رجسٌ[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440، والطّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/306.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقع)، وتذكرة الأريب، وابن الجوزي، ص: 113، والكفويّ، الكليّات، ص: 918.
(3) حسن المصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 13/171، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقع).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/237، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/435، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/249.

2) ﴿رِجۡسٌ﴾: عَذابٌ وسَخَطٌ، ويُطلَقُ الرِّجسُ على كلِّ ما استُقذِرَ مِنَ العمَلِ، وعلى العمَلِ المُؤَدِّي إلى العَذابِ والعِقابِ والغضَبِ. وأصل (رجس): النَّتْنُ، ويَدُلُّ أيضًا على اختلاطٍ، ومنه القَذَرُ؛ لأنَّه لَطْخٌ وخَلْطٌ[1].

3) ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾: تُخاصِمونني، يقالُ: جادلَ يُجادِلُ مُجادَلةً، خاصمَ، ورجلٌ جَدِلٌ مِجدالٌ، أي: خَصِمٌ مِخْصامٌ[2]، وأصلُ (جدل) يدلُّ على امتدادِ الخصومةِ ومراجعةِ الكلامِ[3]. أتخاصمونني وتناظرونني في أسماءٍ سمَّيتُموها أصنامًا لا تضرُّ ولا تنفع[4].

المعنى الإجماليُّ:

ردُّ هودٍ عليه السلام على قومه، وتهديدُهُ لهم بالعقابِ الشَّديدِ

قال هودٌ لقومهِ رادًّا عليهم: قد حلَّ بكم عذابٌ وغضبٌ من ربِّكم عز وجل، أتخاصمونني في أصنامٍ سمَّيتُموها أنتم وآباؤكم آلهةً، ما نزَّل اللّٰه بها من حُجَّةٍ ولابرهان، فانتظروا عقاب اللّٰه، وأنا معكم، ننتظرُ ما ينزلُ بكم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ شبهِ كمالِ الاتِّصالِ لجملةِ: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ ممَّا قبلَها:

جوابُ المعاندين فيه شفاءٌ لصدورِ المؤمنين

لمَّا كانوا قد بالغوا في السَّفهِ في قولهم: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾، وكان قد عُلِمَ من محاورته عليه السلام لهم، الحِلْمُ عنهم؛ اشتدَّ التَّطلُّع إلى ما يكون من جوابه لهذا، والتَّوقُّع له، فشُفي غليلُ هذا التَّشوُّفِ بقوله: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾[6]، فجيءَ بالفصل؛ لأنَّه

(1) الرّاغب، المفردات ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجس)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 465، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 145، وابن جرير، جامع البيان: 10/280.
(2) الفراهيديّ، العين: (جدل)، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: 2/1023.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جدل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/523، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/271.
(5) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 159، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.

كلامٌ مستأنَفٌ، مسوقٌ لبيان جواب هودٍ لقومه[1]، فبينَ الجملتينِ شبهُ كمالِ اتِّصال حيث وقعتِ الثّانيةُ من الأولى موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ أثارتْهُ الجملة السّابقة، تقديرُهُ: فماذا قال؟ والارتباطُ بين السُّؤالِ وجوابه من أعلى وجوهِ الالتئام.

دلالةُ تصديرِ الجوابِ بالحرف (قد):

الإيذانُ بتقريبِ زمنِ الماضي من الحالِ

قوله: ﴿قَدۡ وَقَعَ﴾ اقترنَ الفِعلُ وقَعَ بـ(قَدْ)؛ للدَّلالةِ على تَقريبِ زَمنِ الماضي مِن الحال، مِثلُ: (قد قامَتِ الصَّلاةُ)[2] تحقيقًا للوقوعِ في مواجهة استهزائهم، والظّاهر أنَّ ما فعلوه قبل حين قليلٌ، كانوا يستحقّون به أشدَّ العذابِ، وكان ردُّه حاسمًا حازمًا، بعد أن أدَّى دورهُ في البلاغِ، وردَّ أمرهُ إلى مَنْ يملك النَّواصيَ، ليصبَّ عقابَهُ على أهلِ المعاصي، مِمَّن كفر وأنكر واستكبر.

سرُّ العدولِ بالتَّعبيرِ عن المستقبلِ بالفعلِ الماضي في ﴿قَدۡ وَقَعَ﴾:

الإشعارُ بتحقُّقِ وقوعِ العذابِ بعد استِنفادِ جميعِ الأسبابِ

قوله: ﴿وَقَعَ﴾ فيه استعمالُ صيغةِ المُضيِّ في مَعْنى الاستقبالِ؛ إشعارًا بتَحقيقِ وقوعِه، فالتَّعبيرُ بالماضي لتنزيلِ المتوقَّع منزلةَ الواقعِ، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1][3]، وفي ذلك ما فيه من زيادةِ التَّحذير.

التَّعبيرُ بالمجازِ بالفعلِ (وَقَعَ) في قولِه: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾:

إفادةُ ثبوتِ العذابِ، وتَحقُّقِ نزولِه عليهم، كما أخبر رسولُهُم

﴿وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ أي: وجَب وثَبَت؛ لأنَّهم طلبوا العذابَ الَّذي خوَّفهم بِهِ وحذَّرهم منه، فقال لهم: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾، وأصلُ استعمال الوقوعِ في نزول الأجسام، واستعمالهُ هنا - فيما ذُكر - مجازٌ من إطلاقِ السَّبَبِ على المُسَبَّب. ويجوزُ أن يكونَ في الكلام

(1) الدرة، إعراب القرآن وبيانه: 3/385.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89، والآلوسي، روح المعاني: 4/396.

استعارةٌ تبعيَّة، والمعنى: (قد نَزَلَ عليكم)[1] وفي التَّعبيرِ بالمجازِ تلاؤُمٌ مع التَّحذير؛ إذِ العذاب الآتي من العلوِّ لا مردَّ له.

وقد يُحمل قوله: ﴿وَقَعَ﴾، على معنى وجدَ وحصلَ، والمعنى: إرادةُ إيقاعِ العذابِ عليكم حصلت من الأزلِ إلى الأبدِ؛ لأنَّ قولَنا: حصلَ لا إشعارَ له بالحدوثِ بعد ما لم يكن[2].

والأظهرُ أنَّ: ﴿وَقَعَ﴾، معناه: حَقَّ وثَبَت، من قولهم للأمر المحقَّق: هذا واقعٌ، وقولهم للأمر المكذوب: هذا غير واقع، فالمعنى: حَقَّ وقُدِّر عليكم[3]، فأعلمهم بهذا الفعل أنَّ القضاءَ قد نَفَذَ وحلَّ عليهم الرِّجس، وهو السَّخَطُ والعذاب[4].

دلالةُ حرف الجرِّ (على) الدَّاخل على الضَّمير(كم) في ﴿عَلَيۡكُم﴾:

الدَّلالةُ على الاستعلاءِ والثُّبوتِ القويِّ مفيدةٌ في الإبانة

بالنَّظرِ إلى المعاني السّابقةِ للفعل (وَقَعَ)، والمفيدةِ للنُّزول، والتَّقديرُ: نجد أنَّ المُقدَّرات تُضاف إلى السَّماء، وحرفُ الاستعلاء على ذلك ظاهرٌ. وفي تعريفِ الوقوعِ بمعنى: الثُّبوت أيضًا يكون حرف الاستعلاءِ، إمّا لأنَّه ثبوت قويٌّ آكدُ ما يكون واجبه، أو لأنَّه ثبوتٌ حسيٌّ لأمرٍ نازل من علوٍّ، وعذاب الله تعالى موصوفٌ بالنُّزول من السَّماء[5].

سرُّ تقديمِ شبهِ الجملة الأُولى ﴿عَلَيۡكُم﴾ على شبهِ الجملةِ الثَّانيةِ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

استدعاؤهم وقوع العذاب سبب التعجيل بنزوله

في قوله: ﴿وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تقديمٌ للظَّرفِ[6] الأوَّل ﴿عَلَيۡكُم﴾، على الثّاني (مِنْ رَبِّكُم)، مع أنَّ مَبْدأ الشَّيءِ متقدِّمٌ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/396.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/303.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.

(4) ابن عطيّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/420.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/396.

(6) يطلق النُّحاة، وخاصَّة القدماء منهم على الجارِّ والمجرور لفظ الظَّرف، لأنَّ كلمة الظَّرف عندهم تشمل شبهَ الجملة بنوعيهِ المفعول فيه، والجارّ والمجرور وتطلق على كلّ منهما مجازًا، يُنظر: وابن هشام، مغني اللَّبيب، ص: 272.

على مُنتهاه؛ للمُسارعةِ إلى بيانِ إصابةِ المكروهِ لهم، وقُدِّم المجرورُ الَّذي هو ضميرُهم على الَّذي هو وصْفُ ﴿رَّبِّكُمْ﴾؛ لأنَّهم المقصودُ الأوَّلُ بالفِعلِ[1].

بلاغة تقديم الجارَّيْنِ والمَجْرُورَيْنِ:

لـلاهـتـمـامِ بتَعجيلِ ذِكرِ المغضوبِ والغاضِبِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ

تقديمُ الظَّرفينِ ﴿عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ على الفاعلِ الَّذي هو قوله تعالى: ﴿رِجۡسٞ﴾، للاهتمام بتَعجيلِ ذِكرِ المغضوبِ والغاضِبِ، مع ما فيهِ من التَّشويقِ إلى المؤخَّر، ولأنَّ المَجرورَينِ مُتعلِّقانِ بالفِعلِ، فناسَب إيلاؤُهما إيّاه، ولو ذُكِرا بعدَ الفاعِلِ؛ لتوهِّم أنَّهما صِفتانِ له[2]. ولأنَّ في الفاعِلِ نوعَ طولٍ بما عُطِف عليه، من قوله تعالى: ﴿وَغَضَبٌۚ﴾، فربُّما يُخِلُّ تقديمهما بتجاوبِ النَّظمِ الكريم[3].

سِرُّ انتخابِ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ:

التَّذكيرُ بجزاءِ الكُفرِ بالمُنعمِ المُحْسِنِ

قولُه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: مُربّيكم الَّذي غَرَّكم به تواتُر إحسانِه عليكم، وطول إملائه لكم[4]، واللّه رؤوفٌ بعبادِه وإن عصوه، وهو لا يترك لهم فرصةً لِلرُّجوعِ والتَّجاوز عن فعالهم، إلّا فتح مجال القبولِ فيها، فهو قد عاملَ عادًا قومَ هودٍ بمقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ، لا بمستلزمات الألوهيَّةِ، وهو ذاته ما فعله مع نظرائِهم من ثمودَ حين قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧﴾ [فُصِّلت: 17].

معنى الرِّجسِ وبلاغةُ المجازِ فيه:

بيانُ أنَّ الخُبثَ والاضطرابَ موجبانِ للنِّقمةِ والعذابِ

احتمل لفظُ الرِّجس هنا عدَّة معانٍ منها: العذابُ الشَّديد والاضطراب والرِّجس مجازٌ في خبث الباطن وفساد النَّفس، والرِّجس بمعنى: اللَّعنة، وكلُّها هنا مرادةٌ، فاللَّعن سببٌ في الإصابة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210 - 211.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210 - 211.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، والآلوسي، روح المعاني: 4/396.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/441.

بخبثِ الباطن، وفسادِ النَّفس، وكلاهما سببٌ في العذاب الشَّديد والاضطرابِ، وفي هذا إيجازٌ وإعجازٌ[1].

عَطْفُ الغَضَبِ على الرِّجْسِ، وتأخيرُهُ عليه:

حلولُ غضبِ اللهِ عليهم بسببِ خبثِ نفوسِهم

قوله: ﴿رِجۡسٞ وَغَضَبٌۚ﴾ عطفَ الغضبَ على الرِّجس لبيان أنَّ الرِّجس قد أُريدَ بهِ الانتقامُ الحتمُ، فلا يمكنُ رفعهُ[2]، وتأخيرُ الغضبِ عن الرِّجسِ؛ لأنَّ الرِّجسَ، وهو خبثُ نُفوسهم، قد دَلَّ على أنَّ استمرارهم في الضَّلالِ، أصبحَ أمرًا متأصِّلًا فيهم، فأوردَ غضبَ اللّه عليهم لما وقع منهم من فسقٍ ورجسٍ، فوقوعُ الرِّجسِ والغضبِ عليهم حاصلٌ في الزَّمن الماضي بالنِّسبة لوقت قول هودٍ[3].

نكتةُ تنكيرِ الغضبِ والرِّجسِ:

إفادةُ التَّهويلِ في السِّياقِ لإعطاءِ الحدثِ ما يستحقُّه من اهتمامٍ

التَّنوينُ في: ﴿رِجۡسٞ﴾ و﴿وَغَضَبٌۚ﴾ للتَّفخيمِ والتَّهويل[4]، فهُما رِجْسٌ وغَضَبٌ مخيفان، فلا عذابَ كعذاب اللّه، ولا غَضَبَ كغضبه ﷻ. فدلالة التنكير إنما هي لتعظيم أمر هذا الرجس، وهذا الغضب. ثم إن اللّه جمع عليهم بين العذاب البدني الواقع من الرجس، وبين العذاب النفسي الواقع من الغضب.

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

الإنكارُ عليهم مُخاصمتَهم بالباطل، واستقباحُ وقوعِ ذلك منهم

جاء قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ استئنافًا بعد الإخبارِ بوقوع ما استعجلوه، وفي الاستئنافِ نعيٌ وتعييب عليهم، وتوبيخٌ لهم، وتحقيرٌ لمستندهم الَّذي يأوون، فهي أسماءٌ لا حقائقَ لها، ولا نفع منها، والمعنى: أتخاصمونني في أسماءٍ سمَّيتموها أنتم وآباؤكم، فهذا إنكارٌ منه لمخاصمتِهم له، فيما لا ينبغي فيه الخصامُ، وهو ذكرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/441، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/444.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/396.

ألفاظٍ ليس تحتها مدلولٌ، يستحقُّ العبادة، فصارتِ المنازعةُ باطلةً بذلك[1]، فالهمزةُ فيه للإنكارِ، والتوبيخ، والاستقباح[2].

نكتةُ التَّعبيرِ عن الأصنامِ بالأسماءِ في مقامِ المُجادلةِ:

بيانُ أنَّ آلهتهم لا تَحمِلُ في حقيقتِها إلَّا مُجرَّد الاسم الَّذي لا يدلُّ على معناه

لمّا كانت آلهتهم تلك الَّتي يجادلون فيها، لا تزيد على الأسماء؛ لكونها خاليةً من كلِّ معنى، قال: ﴿فِيٓ أَسۡمَآءٖ﴾، ثمَّ بيَّن أنَّه لم يسمِّها آلهة مَنْ يعبد به، فقال: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾[3]، وذلك لأنَّهم كانوا يسمّون الأصنامَ بالآلهة مع أنَّ معنى الإلهيَّة فيها معدومٌ، كما فعل كفّار قريش حين سمّوا واحدًا منها بالعُزَّى، مشتقًّا من العَزيز، والله ما أعطاه عزًّا أصلًا، وسمّوا آخر منها باللّات، وليس له من الإلهيَّة شيء[4].

وهذا كما يقالُ لما لا يليق، ما هو إلّا مجرَّد اسم، فالمعنى: أتخاصمونَني في مُسمَّياتٍ وضعتم لها أسماء لا تليقُ بها، فسمَّيتموها آلهةً، من غير أن يكون فيها من مِصداق الإلهيَّة شيء ما؛ لأنَّ المستحقَّ للعبوديَّة، ليس إلّا مَنْ أوجدَ الكُلَّ، وهيَ بمعزلٍ عن إيجاد ذَرَّة[5].

بلاغةُ الجناسِ الاشتِقاقيِّ بين لفظي: ﴿أَسۡمَآءٖ﴾ و﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾:

ملاحظةُ اعتبارِ معاني الإلهيَّةِ عند مَنْ وضعَ تلكَ الأسماءَ

الأسماءُ توضعُ للمسمَّيات المقصودةِ من التَّسميةِ، وهم إنَّما وضعوا لها الأسماءَ، واهتمّوا بها، باعتبار كونِ الإلهيَّة جزءًا من المسمَّى الموضوع له الاسم، وهو الدّاعي إلى التَّسميَةِ، فمعاني الإلهيَّة وما يتبعها ملاحظةٌ، لمن وضَع تلك الأسماء[6]، وهذا ما يُشير إليه الجناس الاشتقاقيُّ بين الاسم ﴿أَسۡمَآءٖ﴾ وفعله ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/393.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/441.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/303.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/397.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.

معنى الفعلِ ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، وعلَّةُ تعدِّيهِ إلى مفعولٍ واحدٍ:

معنى ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: أحدثْتُموها قريبًا، أنتم وآباؤكم، وهي (صَمودُ وصُداءُ والْهَباءُ) فالجدالُ إذ ذاك يكونُ في الألفاظ لا مدلولاتِها، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الجِدال وقع في المسمَّيات، وهي الأصنام، فيكون أطلقَ الأسماءَ، وأرادَ بها المسمَّيات، وذلك على حذف مضاف، أي: (أتُجادِلونَني في ذواتِ أسماء) ويكون المعنى: (سَمَّيْتُموها آلهةً) وعبدْتُموها من دون اللّه، و﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: يَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْن، وقَدْ حُذِفَ الثّاني هُنا لدلالة السّياق والحالِ عليه، وقد قيل: إنَّهم سمَّوا كلَّ صنم باسمٍ على ما اشتهوا، وزعموا أنَّ بعضهم يسقيهم المطر، وبعضَهم يشفيهم من المرض، وبعضَهم يصحبُهُم في السَّفرِ، وبعضَهم يأتيهم بالرِّزق[1]، فسمَّوا الأصنامَ آلهةً، وذلك معدومٌ فيها[2].

بيانُ إحداثِهم لتلكَ الأسماءِ ونسبتِها للألوهيَّةِ بحسبِ اعتقادِهم فيها

فائدةُ الإتيانِ بالضَّميرِ المنفصلِ (أنتم)، وسِرُّ عطفِ قولِه: ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾:

﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنكارٌ، واستقباح لإنكارهم مجيئَه عليه السلام داعيًا لهم إلى عبادةِ اللّه - تعالى - وحده، وتركِ ما كانَ يعبدُ آباؤهم من الأصنام[3]، فكان إنكارُه عليهم بحسبِ إنكارِهم وافتخارِهم بتقليدِ آبائِهم من قبلُ، حين قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

التَّأكيدُ على أنَّ هذه التَّسمياتِ، هي بدعٌ أحدثوها هم وآباؤهم

دلالةُ صيغةِ (فعَّل) في قوله: ﴿مَّا نَزَّلَ﴾:

قولُه: ﴿نَزَّلَ﴾، هذا التَّفعيلُ يأتي بمعنى الفِعلِ المُجَدَّدِ، وبمعنى الفعلِ بالتَّدريجِ، فقَصَد النَّفيَ بكلِّ اعتبارٍ: سواءٌ كان تجديدًا أو تدريجًا، وإشارةً إلى أنَّهُ لو نَزَلَ عليهم في الأمرِ بعبادَتِها شيءٌ

إفادةُ نفي التَّجديدِ والتَّدرُّجِ في الإنزالِ مُبالغةٌ في بيانِ ضلالِهم وعماهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/217.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، والآلوسي، روح المعاني: 4/397.

واحِدٌ، لتوقَّفوا فيه؛ لعَدَمِ فهْمِهم لمعناهُ، حتى يُكَرِّرَ عليهم الأمرَ فيه مَرَّةً بعدَ أخرى، فدلَّ ذلك قطعًا على أنَّ الأمرَ لهم بعبادةِ الأصنام، إنَّما هو ظَلامُ الهوى؛ لأنَّه عَمًى محضٌ، مِن شأنِ الإنسانِ رُكوبُه بلا دليلٍ أصلًا[1].

نكتةُ تخصيصِ اسمِ الجلالةِ (الله) بالذِّكرِ في هذا المقامِ:

التَّنبيهُ على استئثارِ اللهِ بعلمِ الغيبِ، وأنَّه مصدرُ كلِّ تنزُّلٍ

ونَفي أن تكون الحجَّةُ منزَّلةً من اللّه؛ لأنَّ شأنَ الحُجَّةِ في مثلِ هذا أن يكونَ مخبَرًا بها من جانبِ اللّهِ - تعالى - لأنَّ أمورَ الغيبِ ممّا استأثرَ اللّهُ بعلمه[2]، والمعنى: أنَّكمْ سمَّيتم بها معبوداتكم، أنتم وآباؤكم، ما نزَّلَ اللّه بها من حجَّة تحتجّون بها، على ما تدعونه لها من الدَّعاوى الباطلة[3].

سِرُّ تخصيصِ التَّنزيلِ بذكرِ الألوهيَّةِ في هذا المقامِ:

الإشـارةُ إلى كـونِ الحِجاجِ والمنـاظـرةِ في الألوهيَّةِ

وخصَّ التنزيلَ بالألوهيَّةِ دون الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ؛ لأنَّه مقامُ حجاجٍ ومناظرة في شأن الألوهيَّة والعبوديَّة، فناسبَ السّياقُ ذكرَ الاسمِ الجليل (اللّه) الدّالِّ على ذلك.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ(سُلطان) دون (حُجَّة):

بـيـانُ قـوَّةِ السُّـلـطـانِ في كـونـهِ يتسلَّطُ عـلـى نـفـسِ المُـعـارض، ويُقنعُهُ

السُّلطانُ: الحجَّةُ الَّتي يصدِّق بها المخالفُ، سمّيت سلطانًا؛ لأنَّها تتسلَّطُ على نفس المعارض، وتقنعه[4]، ففي التَّعبيرِ بلفظ (سلطان)، ما في لفظ الحجَّةِ وزيادة، فالسُّلطان البرهان المحقَّقُ للغلبة، والحجَّة فيها معنى قوَّة الظُّهور.

معنى الفاءِ وبلاغةِ الأمرِ المجازيِّ في قولِه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

إفـادةُ التَّفريعِ بانتظارِ العذابِ عـلى الإنـذارِ والـتَّـهـديـدِ السَّابقِ

والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لتَفريعِ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ السّابق؛ لأنَّ وُقوعَ الغَضبِ والرِّجسِ عليهم، ومُكابرتَهم واحتجاجَهم لِما لا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/441 - 442.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(3) الشّوكانّي، : فتح القدير: 8/213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.

حُجَّةَ له؛ ينشأُ عن ذلك التَّهديدِ بانتظارِ العذابِ[1]، فهي للتَّرتيبِ على ما تَقدَّم[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الأمرِ:

إفـادةُ التَّهديدِ والوعيدِ الجديدِ بـعـد الـوعـيـدِ السَّابقِ

في قولِه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ صيغةُ الأَمْرِ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ للتَّهديدِ والوعيد[3]، مثل قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: 40][4]، فقولُه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، جعلَنا نَفهمُ قولَهُ السّابق: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ﴾، بأنَّ الرِّجسَ والغضبَ قادمانِ لا محالة[5]، فذكرَ لهم عليه السلام وعيدًا مُجَدَّدًا، فقال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، ما يحصلُ لكم بسببِ عبادةِ هذه الأصنام[6].

بلاغةُ حذفِ المعمولِ في قولِه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

دلالـةُ ما سبقَ من الوعيدِ على انتظارِ العذابِ والعقابِ

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ مترتِّبٌ على قولِه تعالى: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾، أي: فانتظروا نزولَ العذاب الَّذي طلبتموه بقولكم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ إلى آخره[7]، فمفعولُ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، محذوفٌ دلَّ عليه قوله: ﴿رِجۡسٞ وَغَضَبٌ﴾[8].

بلاغةُ الفصلِ في قولِه: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾:

جـوابُ الـسُّـؤالِ الـنَّـاشئ عـن التَّهديدِ السَّابقِ

الجملةُ الأولى إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنى، والثّانية خبريَّة لفظًا ومعنى، فقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾، استئنافٌ إخباريٌّ يخبر به هود عليه السلام عن حالِه بما يقطع عليهم أيَّ سؤالٍ أو استفسارٍ؛ إعلانًا عن ثقته في وعيد ربِّه لِمَنْ كفر به؛ لأنَّ تهديده إيّاهم يُثير سُؤالًا في نفوسهم أن يقولوا: إذا كنّا ننتظر العذاب، فماذا يكون حالُكَ؟ فبيَّن أنّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/90، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/397.
(3) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/420، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشَّعراوي: 7/4213.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/304.
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/240 والآلوسي، روح المعاني: 4/397.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.

يَنتظر معهم، وهذا مقام أدَبٍ مع اللّه تعالى، كقوله تعالى تَلْقينًا لرسولِه محمَّد ﷺ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: 09][1].

بديعُ التَّصديرِ في الفاصلةِ والتَّذييل:

في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ خُتِمَت هذهِ الآيةُ الكريمةُ بتذييلٍ بديعٍ، يصوِّرُ الفرقَ بين انتظارِ كُلِّ فريقٍ، ففَرَّقٌ بين الانتظارَين: انتظارِ مَن يخشَى وُقوعَ العِقابِ، ومَن يَرجُو مِنَ اللّهِ النَّصرَ والثَّوابَ، وشتّان بين انتظار العذاب، وانتظار الرَّحمة؛ ولهذا فتَحَ اللّهُ بين الفَريقينِ، فقال: فَأَنْجَيْنَاهُ، أي: هودًا والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بِرَحْمَةٍ مِنّا، فإنَّه الَّذي هداهم للإيمانِ، وجعَلَ إيمانَهم سببًا ينالونَ به رَحمَتَه، فأنجاهم بِرَحمته[2]، فجيء بجناسِ الاشتقاق بين ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ و﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ للتَّفريق بين الانتظارين.

مقارنةٌ بينَ مَنْ يخشَى وُقوعَ العِقابِ، ومَن يَرجُو مِنَ اللهِ النَّصرَ والثَّوابَ

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(الغضب) و(السَّخط):

الغَضَب: هو تغيُّرٌ يحصُل به ثورانُ دمِ القلبِ، لقصدِ الانتقام[3]، ليحصلَ عنهُ التَّشفّي للصَّدر[4]، والغضب ضدُّه الحلم، والغضبُ قد يصحبهُ فعل، وقد لا يصحبهُ.

السَّخطُ: الكُرهُ وعدمُ الرِّضا، فإذا اشتدَّ؛ صار غضبًا

والسَّخَطُ: ضدُّه الرِّضا،[5] والسَّخط إذا تعدَّى بنفسه، فهو خلافُ الرِّضا، يُقالُ: رضيَهُ، وسخطَهُ، وإذا تعدَّى بـ(على)، فهو بمعنى: الغَضَب، يقال: سخط اللّه عليه؛ إذا أراد عقابه[6].

والفرق بينهما: أنَّ في الغضب شِدَّةً وقوَّةً[7]، والغضبُ اشتدادُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(2) السَّعديّ، تفسير السَّعديّ، ص: 294.
(3) الرّاغب، المفردات، ومرتضى الزَّبيديّ، تاج العروس: (غضب).
(4) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 209.
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: 1/597.
(6) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص:386.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 4/428.

السَّخط[1]، فالغضبُ مراتبُ: أوَّلُها السُّخْطُ[2]، واستخدامُ الغضبِ في هذا الموضعِ، هو الأبرُّ بسياقِ الوعيدِ والتَّهديدِ.

(الجدال) و(الخصومة):

جَدِلَ الرَّجلُ جَدَلًا، فهو جَدِلٌ، من باب تَعِبَ؛ إذا اشتدَّت خصومته، وجادلَ مجادلة وجدالًا؛ إذا خاصمَ بما يشغل عن ظهورِ الحقِّ، ووضوحِ الصَّوابِ، هذا أصلهُ. ثمَّ استُعمل على لسان حَمَلَة الشَّرعِ في مقابلةِ الأدلَّةِ لظهورِ أرجحِها، وهو محمودٌ إن كان للوقوف على الحقِّ وإلّا فمذمومٌ[3]. والجدَلُ شدَّةُ الخصومة[4] ولفظُ الجدلِ هو المناسبُ للسّياقِ.

الجدالُ: اشتدادُ الخُصومةِ، ويُمدَحُ في مواضعَ؛ إذا كان بالَّتي هي أحسن

(الانتظار) و(التربُّص):

الانتظارُ: هو التَّرقُّب والثَّبات لتوقُّع ما يكون من الحالِ[5]، والتَّربُّص طولُ الانتظار والتَّمكُّث، وأصلهُ من الرُّبْصَة، وهي التَّلبُّث، يُقال: ما لي على هذا الأمر رُبْصةٌ، أي: تلبُّثٌ في الانتظارِ حتَّى طال[6]. ويُطلَق على العِدَّة الَّتي تمكثُها المرأةُ بعد وفاةِ زوجها أو طلاقها، لأنَّها تُطيل الانتظار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: 228][7] فاصطفى النَّظمُ الكريمُ اللَّفظَ الدّالَّ على قلَّةِ المهلة، تناسبًا مع التَّعبيرِ بما يُعلي تحقُّقَ الوعيد.

التَّربُّص: انتظارٌ بمُكثٍ وطولٍ في المدَّة، والانتظارُ: ترقُّبٌ وتوقُّعٌ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزَّبيديّ، تاج العروس: (سخط).

(2) الثّعالبيّ، فقه اللّغة، ص: 130.

(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/93.

(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (جدل).

(5) المناوي، التَّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 64.

(6) الجوهريّ، الصّحاح: (ربص)، والعسكريُّ، الفروق اللّغويّة، ص: 122، والكفويّ، الكليّات، ص: 320.

(7) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 95.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإخبارُ بسرعةِ نزولِ العذابِ بهم بعد تخويفهم وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم

لمّا خوَّفهم هود عليه السلام بنزولِ العذابِ الَّذي استعجلوا، وطلبوه بقولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، لم يطلْ انتظارُ هود عليه السلام، فقد حلَّ بهم العقابُ الَّذي توعَّدهم به سريعًا، فنزلَ بِهِم عذابٌ ساحِقٌ أهلكَهُم اللّهُ تعالى بهِ، وأنجى اللّهُ تعالى هودًا، ومَنْ معهُ من المؤمنين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾: نَجّاه اللّه تعالى، أي: سلَّمه من الشَّرِّ، قال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ﴾ [الأنعام: 63]، ويقال: نجّاهُ، أي: ألقاهُ على نَجْوةٍ من الأرض، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92]، أي: نُلقيك على نجوةٍ[2]. والنَّجاةُ الخَلاصُ ممّا فيهِ المَخافَةُ ونَظيرُها السَّلامَةُ[3]، يُقال: نَجا الإنسانُ يَنْجُو نَجاةً: سَلِمَ[4]. وأصل النَّجاء الانفصالُ من الشَّيءِ، ومنه نجا فلانٌ من فلانٍ وأنجيتُهُ ونجَّيتُهُ[5]، والمعنى هُنا: فأنقذناهُ، وخَلَّصناهُ.

2) ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ﴾: قطَع اللّهُ دابرَهم وغابرَهم: أفناهُم عن آخرِهم، قطَع دابرَ الشَّرِّ: استأْصَلَهُ، وقوله: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾[6]، أي: أهلَكْناهم، واستأصلناهم عن آخرِهم[7].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2887، والطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/307.
(2) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (التّنجية).
(3) مرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (نجو).
(4) الصاحب ابن عباد، المحيط في اللغة: (نجو).
(5) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (دبر).
(7) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/335.

وقطْعُ دابرِ الإنسانِ: هو إفناءُ نَوعِه، ودابرُ القوم آخرُهم، وأصل (قطع): الفَصلُ، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ، خِلافُ قُبُلِه[1].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

إنجاءُ اللهِ نبيَّهُ الكريمَ هودًا عليه السلام، ومَنْ معهُ من المؤمنينَ

فسلَّمنا هودًا عليه السلام، ومَن كان معه مِن المؤمنينَ، برحمةٍ منّا عظيمةٍ، واستأصلنا بالهلاكِ الَّذين كذَّبوا بآياتنا، فلم يَبْقَ لهم من بقيَّةٍ ولا أثرٍ، وما كانوا داخلينَ في زمرة المؤمنين[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾، وأثرُها في المعنى:

بيانُ تعجيلِ الإنجاءِ والإهلاكِ بعد قيامِ الحُجَّةِ وقطعِ المحجَّةِ

قولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ الفاءُ جاءت للتَّعقيبِ، أي: فوقعَ ما وقعَ؛ فأنجيناه[3]، فعجَّل اللّه استئصال عادٍ، ونجَّى هودًا والَّذين معه، أي: المؤمنين من قومِه، فالمعَقَّبُ بِهِ هو قطعُ دابرِ عادٍ[4]، وفي اصطفائها تحقيقٌ لحصول ما جاءَ من قبلُ، تهديدًا على سبيل التَّحقيقِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾.

سرُّ إيثارِ صيغةِ (أفعل) في قولِه: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾:

الإنجاءُ يدلُّ على سرعةِ التَّخليصِ من الهلاكِ

القرآنُ الكريم كثيرًا ما استعمل (نجَّى)، للتَّلبُّث والتَّمهُّل في التَّنْجية، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، فإنَّ (أنجى) أسرعُ من (نجَّى)[5]، فإنجاءُ هودٍ والَّذين معه، يدلُّ على سرعة التَّخليصِ من الهلاك.

سببُ انتخابِ اسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلًا مِن (مَن):

رعايةُ ترتيبِ ما هو أصلٌ في الموصوليَّةِ

لفظ (الَّذي) وما تصرَّف منه للمثنَّى والمجموع أصلٌ في الموصولاتِ؛ إذ لا يخرجُ لفظُ (الَّذي) عن الموصوليَّة، أمّا (مَنْ)، فإنَّها تخرج إلى

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطع)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 154.
(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميَسَّر، ص: 159، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/240.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(5) السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآنّي، ص: 16.

الاستفهامِ والشَّرط وغيرهما، فهو ثانٍ عن الأصل في الموصوليَّةِ، فروعيَ هنا التَّرتيبُ في الموصوليَّة[1] بخلافِ ما جاءَ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾ [الشّعراء: 119].

بلاغةُ الاكتفاءِ بقولِه: ﴿مَعَهُۥ﴾ عن ذكرِ صفةِ الإيمانِ:

دلالـةُ سياقِ الكلامِ على نجاةِ المؤمنينَ بذكرِ هلاكِ المكذِّبين

قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ يعني: مَنْ آمن معهُ بِرَحمةٍ سابقةٍ لهم من اللّهِ وفَضْلٍ عليهمْ، حيثُ جعلَهم آمنوا، فكان ذلك سببًا لنجاتِهم، ممّا أصابَ قومَهم مِنَ العذابِ[2]. وقد آثرَ التَّعبيرَ بالظَّرفيَّةِ على صفة الإيمانِ، لما في المعيَّةِ من التَّأييدِ وشرف الصُّحبةِ، وهما نتاجُ الإيمان، فالمعيَّةُ هي المصاحبةُ في الدّين، وهي معيَّة مجازيَّة[3]، فلا تَنفَعُ المعيَّةُ في النَّسبِ بلا إيمانٍ[4]، فالمعيَّةُ هنا مجازٌ عن المتابعة[5].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، وموقعُ لفظِ (مِنَّا) من معناها:

الـدَّلالـةُ على أنَّ الـرَّحـمـةَ سببُ النَّجاةِ، وأنَّـها مُـلازِمـةٌ للمؤمنينَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ

قولُه: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ الباءُ فيه للسَّببيَّة، أي: بسببِ رحمةٍ كانوا يستحقّونها[6]، ويجوزُ أن تكون الباءُ للمصاحبة، أي: فأنجيناهُ ورحمناه فكانت الرَّحمةُ مصاحبةً لهم؛ إذ كانوا بمحلِّ اللُّطف والرِّفق، حيثما حَلّوا إلى انقضاءِ آجالهم. وموقع (مِنّا) على هذا الوجهِ موقعٌ رشيقٌ جدًّا، يُؤذِنُ بأنَّ الرَّحمةَ غيرُ منقطعةٍ عنهم، كقولِه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: 48][7].

علَّةُ تنكيرِ (رحمة)، ووصفِها بشبهِ الجملةِ (مِنَّا):

بـيـانُ عِـظَـمِ الـرَّحـمـةِ وكـمـالِـهـا، واختـصاصِـها بأهلِ الإيمانِ

وتنكيرُ ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ للتَّعظيم، أي: بِرَحْمَةٍ عظيمةٍ، لا يُقادَر قَدْرُها[8]،

(1) ابن الزّبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(4) القونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/425.
(5) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 4/394.
(6) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 3/271.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 4/397.

ووَصْفُها بأنَّها من الله للدَّلالة على كمالِها[1]. وفي تنكيرِ الرَّحمةِ نكتةٌ أخرى، وهي الدَّلالةُ على النَّوع، أي: بنوعٍ من الرَّحمةِ، وهي الرَّحمةُ الَّتي تختصُّ بالمؤمنين من النُّصرةِ الموعودةِ لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾: [غافر: 51]، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: [الرّوم: 47].

قوله: ﴿مِّنَّا﴾، أي: من جهتنا، والجارُّ والمجرورُ متعلّقانِ بمحذوفٍ، هو نعتٌ لـ (رَحۡمَةٖ)، مُؤكِّدٌ لفخامتِها الذّاتيَّةِ المنفهمةِ من تنكيرِها بالفَخامةِ الإضافيَّةِ[2].

سِرُّ تقديمِ الإنجاءِ على الإهلاكِ:

الاهتمامُ بإنجاءِ المؤمنين، وسبقُ الرَّحمةِ للغضب تَعجيلٌ لمسرَّة السَّامعين

في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ كانَ مُقتضَى الظّاهِرِ، أنْ يَكونَ النَّظمُ هكذا: (وقَطَعْنا دابرَ الَّذينَ كَذَّبوا، وأنْجَيْنا هودًا)، ولكن جَرَى النَّظمُ على خِلافِ مُقتضَى الظّاهِرِ، فبدأ بالمؤمنين اهتمامًا بشأنِهم[3]، والاهتمام بتَعجيلِ الإخبارِ بنَجاةِ هودٍ ومَن آمَن معه[4]، فتقديمُ ذكرِ الإنجاءِ على الإهلاك، للمسارعةِ إلى الإخبارِ به، والإيذانِ بسبقِ الرَّحمةِ الَّتي هي مقتضى الذّاتِ، وتقدُّمِها على الغضبِ الَّذي يظهر أثرُه بمقتضى جرائمِهم[5]. وفيه تنبيهٌ على أنَّ مناطَ النَّجاةِ هو الإيمانُ باللّه تعالى، وتصديقُ آياتِه، كما أنَّ مدارَ البَوارِ هو الكفرُ والتَّكذيب[6].

بلاغةُ الكنايةِ والعدولِ عن التَّعبيرِ بهلاكِهم إلى قطعِ دابرِهم:

الـدَّلالـةُ على الإفناءِ التَّامِّ، والإهلاكِ الشَّاملِ العامِّ

قوله: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، كنايةٌ عن استئصالِهم بالهلاكِ بالعذابِ[7]، لأنَّ المعتادَ في الآفةِ إذا أصابتِ الآخرَ أن تمرَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/240، والآلوسي، روح المعاني: 4/397.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/442.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/237.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/240.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/90.

على غيرِه، والشَّيءُ إذا امتدَّ أصلُهُ أخذَ برمته[1]؛ لأنَّ قطع الدّابر يستعملُ فيمن يُستأصلُ بالهلاك.

و(الدّابر) الَّذي يَدْبُر القومَ، ويأتي خلفهم: فإذا انتهى القطعُ والاستئصال إلى ذلك، فلم يبقَ أحدٌ[2]، ففي هذا التَّعبيرِ كنايةٌ عن الإفناءِ التّامِّ، والإهلاك الشّامل العامِّ الدّالِّ على استئصالِ القوم، وذهابِهم، ومحوِ آثارِهم، فلم تبقَ لهم باقيةٌ؛ لأنَّ ذهابَ آخرِ الشَّيء مستلزمٌ لذهاب ما قبلَهُ.

وفيه إعلامٌ منه تعالى أنَّ أخْذَه لهم كان على غيرِ أخْذِ الملُوكِ الَّذينَ يَعجِزونَ عن الاستقصاءِ في الطَّلَبِ، فتَفوتُهم أواخِرُ العَساكرِ والمتفرِّقين مِنَ الجُنودِ والأتباعِ[3]، فدلَّ بهذا اللَّفظِ أنَّه تعالى ما أبقى منهم أحدًا[4].

بديعُ الطِّباقِ المعنويِّ:

تصويرُ المباينةِ والمفارقةِ بين كلِّ فريقٍ

قولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، طباقٌ بديعٌ، يصوِّرُ حالةَ الفريقين، والمباينةَ العجيبة بين مآلِ كلٍّ منهما، حيثُ قابلَ بين نجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين، بما تحمله كلمةُ (الإنجاء)، من التَّخليص السَّريع من الهلاكِ، وما تحمله عبارةُ (قَطْعُ الدّابر) من الإهلاكِ والاستئصالِ.

إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ في قولِهِ: ﴿دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾:

عاقبة تكذيب المرسَلين استئصال الكافرين

إنَّ التَّأمُّلَ في سياق الآيةِ يكشفُ غرضَ إظهارِ الموصولِ وصلته ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ في التَّعبير، مع إمكان الإضمارِ من تأديةِ المعنى، فلم يقلْ: (دابرَهم) على الأصل، ولكنَّه أظهرَ تصريحًا بالمقصودِ،

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 5/119.
(2) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/420.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/304، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/442.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/304.

وبيانًا لعلَّة أخذهم[1]، فالقومُ وضعوا الكفرَ موضعَ الشُّكر، وأقاموا المعاصيَ مقامَ الطّاعات، فكان تكذيبُهم هو السَّببَ في هلاكهم الوخيم، وجرِّ العذابِ الأليم، وكانوا عبرةً للمعتبِرين ممَّن جاء بعدَهُم كالمشركين المكذِّبين[2].

فائدةُ قولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآۖ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

التَّدليلُ على وجودِ مُعجزاتٍ لنبيِّ الله هودٍ عليه السلام

قولُه تعالى: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَاۖ﴾ دليلٌ على أنّه كانت لهود عليه السلام معجزاتٌ، ولكن لم تذكرْ لنا بتعيينها[3]، كما أنَّ في ذكر الآياتِ تأكيدًا لاستفراغ أسباب هدايتهم، واستحقاقِهم الاستئصالَ.

دلالةُ عطفِ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ على ما قبلَها:

بيانُ إصرارِهم على الجمعِ بين الكفرِ والتَّكذيبِ الموجِبَيْنِ لقطعِ دابرهم

قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، عطفٌ على صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهي ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآۖ﴾ وفائدةُ هذا العطف الإشارةُ إلى أنَّ كِلتا الصِّلتين موجبٌ لقَطعِ دابرِهم، وهما: التَّكذيبُ، والإشراك، فهو داخلٌ معه في حكم الصِّلةِ[4]. وفي ذلك تأكيدٌ على كفرِهم، فإنَّ التَّكذيبَ يُفهَمُ منه عدمُ إيمانِهم، فجاءَ التَّصريحُ تأكيدًا وفي ذلك تأكيدٌ لاستحقاقِهم العذابَ، فالمعنى: أنَّهم مكذِّبون، وعَلِمَ اللّه منهم، أنَّهم لو بقوا لم يؤمنوا أيضًا، ولو عَلِم تعالى أنَّهم سيؤمنون؛ لأبقاهم[5]. وفيهِ تَعريضٌ بمُشركي قُرَيشٍ، ولموعظتِهم ذُكرتْ هذه القَصصُ[6].

بلاغةُ النَّفي في قولِه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، والعدولِ عن (وما آمنوا):

بيانُ عدمِ استعدادِهم للإيمانِ خَلْقًا وجِبِلَّةً

قولُه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ﴾، أي: وما كانوا خلقًا وجِبِلَّةً مستعدّين؛ لأن يؤمنوا مُستقبلًا، مهما أمهلهم اللّه، وأطال مدَّة اختبارِهم في ظروفِ الحياة الدُّنيا. ولفظُ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ اسم فاعل بمعنى الفعل

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/442.

(2) أبي السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/90.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/90.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/240.

(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/304.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/215.

المضارع، يدلُّ على الحالِ والاستقبالِ، وهذه العبارةُ جاريةٌ مجرى التَّعليل لأخذهِم، مؤذنةٌ بأنَّه لا يحصل منهم صلاحٌ، كما ختم قصَّةَ نوحٍ بقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: 64]، تعليلًا لإغراقِهم، أي: إنّا قطعنا دابرَهم، وهم مستحقّون لذلك؛ لأنَّهم غيرُ قابلين للإيمان، لما فيهم من شدَّةِ العنادِ، ولزوم الإلحاد، فالمعنى: وما كان الإيمانُ من صفتهم، أي: ما آمنوا في الماضي، ولا يؤمنون في الآتي[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/443.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ قصَّةِ ثمودَ عَقِيبَ ما مضى من قصَّة عادٍ، لمجيئِهم بَعْدَهُمْ

أُتْبِعَتْ قِصَّةُ عادٍ بقِصَّةِ ثمودَ، لتقارنِهما غالبًا في القرآنِ، من أجلِ أنَّ ثمودَ عاصرت عادًا وخَلَفَتْها في عظمة الأمم، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: 74]، وكثيرًا ما يقرنُ اللّهُ في كتابهِ بين ذكرِ عادٍ وثمودَ، لاشتهارهما بين العربِ[1]، وقد جاءَتْهُم حُجَّةٌ على رسالةِ صالحٍ، هي ناقةٌ معجزةٌ، وهي ناقةُ اللّهِ، وأمرهم أن يتركوها تأكلُ في أرضِ اللّهِ، ولا ينالوها بسوءٍ، فينالُهم عذابٌ شديدُ الإيلامِ وخيمُ العاقبة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٞ﴾: بصيرةٌ ويقينٌ ودَلالةٌ واضحَةٌ عَقْلِيَّة كانَتْ أو مَحْسوسَة[3]، وتُطلَق على الحُجَّة والبُرهان، وأصلُ (بين) يدلُّ على الانْكِشافِ، ومنه "البَيِّنَةُ على المُدَّعي"؛ لأنَّ بها ينكشفُ الحقُّ ويتَّضح[4].

2) ﴿ءَايَةٗۖ﴾: علامةٌ، يُقال: آيةُ كذا، أي: علامَتُه، وسُمّيتِ الآيةُ علامةً لأنَّها علامةٌ على صدقِ مَن جاء بها، وأصل (آية) يدلُّ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/315، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/12، وابن كثير، البداية والنّهاية: 1/151.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 1/151.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (بين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بين)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 160، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/438.

النَّظر والتَّثبُّتِ، يُقالُ: تَأيّا يَتأيّا تَأيِّيًا، أيْ: تَمَكَّثَ(1)، والمعنى هنا: علامة على صدق النَّبي صالح ﵇ وأنَّه مرسل من عندِ اللّهِ(2).

3) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾: لا تُصيبوها، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يُصيبُ من أذًى، وأصل (مسس) يدلُّ على جسِّ الشَّيءِ باليَدِ، والمعنى هنا: لا تَقتُلوها، ولا تَنالوها بعَقْرٍ(3).

❁ المعنى الإجْماليُّ:

دعوةُ صالحٍ ﵇ قومَهُ للتَّوحيد مؤيَّدًا بمعجزة النَّاقةِ

ولقد أرسلنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم صالحًا الَّذي يشاركهم في النَّسبِ والوطن، يدعوهم إلى توحيدِ اللّه وعبادتِه، قال لهم: يا قومي، أخلصوا العبادةَ للّه وحده فليس لكم معبودٌ غيرُهُ يستحقُّ العبادةَ، قد جاءتكم علامةٌ واضحةٌ من اللّهِ على صدْقِ ما جئتكم به، تتمثَّلُ في ناقةٍ تخرج من صخرةٍ صمّاءَ، فاتركوها تأكلْ في أرضِ اللّهِ من المراعي، ولا تتعرَّضوا لها بأيِّ أذًى، فينالكم عذابٌ موجعٌ شديدُ الإيلام(4).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ﴾ بما قبلَهُ:

عطفُ القصَّةِ على القصَّةِ منهجٌ قرآنيٌّ في ترسيخ العِظةِ والعبرة

عَطْفُ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ﴾، مِن باب عطف الجُمَلِ، فيُقدَّرُ بعد واوِ العطفِ الفعلُ (أرسلنا)، وقد دلَّ عليه حرفُ الجرِّ (إلَى) مع ضَميمَةِ قولِهِ تعالى في طالعَةِ إيراد قَصص الأنبياءِ من هذه السّورة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59]، وعلى هذا تكونُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أيَّ).

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أيي)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 212، وابن جرير، جامع البيان: 1/104، و592، وابن عزيز السِّجستانيّ، نزهة القلوب: 1/47.

(3) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسّ)، وابن الهائم، البيان، ص: 83، وابن جرير، جامع البيان: 12/456.

(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميَسَّر، ص: 159، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.

الواوُ لِمجرَّدِ الجمعِ اللَّفْظيِّ من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ؛ ترسيخًا للعِظة والعبرة.

ويَجوزُ أن تكونَ الواوُ من عطفِ المفرداتِ، فتكون قَدْ عطَفَت لفظَ ﴿صَٰلِحًاۚ﴾ على لفظ ﴿نُوحًا﴾، وعلى هذا تكون الواوُ نائِبَةً عن العاملِ، وهو الفعلُ (أَرۡسَلۡنا)، والتَّقدير: لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه، وهودًا أخا عادٍ إليهم، وصالحًا أخا ثمودَ إليهم[1].

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المعمول:

غـرضُ مـجـيءِ الإيجازِ بالإضمارِ مـن غـيرِ إعـادةِ لفظِ ثمودَ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعولِ الأصليِّ ﴿أَخَاهُمۡ﴾؛ ليتأتَّى الإيجازُ بالإضْمارِ، حيثُ أُريدَ وصفُ صالحٍ، بأنَّه من إخوةِ ثمودَ ومِن صميمِهم من غير افتقارٍ إلى إعادةِ لفظِ ثمودَ مع تجنُّبِ عودِ الضَّميرِ على متأخِّرٍ لفظًا ورُتبةً[2].

دلالةُ المجازِ المُرسلِ:

بيـانُ كـونِـهِ من ذوي النَّسبِ في قـومِـهِ، يجعلُ بـلاغَـهُ أمـكـنَ وأحسنَ

لفظ (الأخ) في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًاۚ﴾، مستعمَلٌ في مطلَقِ القريبِ، على سبيلِ المجازِ المرسَلِ بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييدِ؛ إذ إنَّ الأخَ في الأصلِ هو القريبُ المشارِكُ لقريبِهِ في أبيه أو أمِّه أو هُما معًا، فجُرِّدَ عن هذا القيْدِ، وأُطْلِقَ على مطلق القريبِ، ومنه قولُهم: يا أخا العرَبِ. ويُطْلَقُ الأخُ مجازًا أيْضًا على الصّاحب الملازِمِ، كقولهم: أخو الحَرْبِ، أي: الملازِمُ لها؛ لفَرْطِ شجاعَتِه.

فوصفُ صالحٍ عليه السلام، بأنَّه أخو ثمودَ؛ لكونِهِ كانَ من ذوي نسبِ قومِه.

سِرُّ وَصْفِ صالحٍ وهودٍ بالأخوَّة لقومِه، وعدمِ وصفِ نوحٍ بها:

بـيــانُ عــدمِ تمايزِ القبائلِ وتشعُّبِها زمنَ نوحٍ عليه السلام

وإنَّما وُصِفَ هودٌ وصالحٌ (عليهما السلام) بذلكَ، ولم يوصفْ نوحٌ عليه السلام بأنَّه أخٌ لقومِه؛ لأنَّ النّاس في زمن نوحٍ لم يكونوا قد انقسموا شعوبًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 ب/200.

وقبائلَ، والعربُ يقولون للواحدِ من القبيلةِ: أخو بني فلان، قصدًا لعزوِه ونسبتِه، تمييزًا للنّاس؛ إذ قد يَشتركون في الأعلام[1].

دلالةُ إبدالِ لفظِ (صالحًا) من لفظِ (أخاهم):

إحضارُه في ذهنِ السَّامعِ ابتداءً باسمٍ يختصُّ به حكمةٌ في البيان

﴿صَٰلِحٗاۚ﴾ من قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾، بدلٌ من ﴿أَخَاهُمۡ﴾؛ يُرادُ به إحضارُه في ذهن السّامع ابتداءً باسمٍ يختصُّ به، ولزيادَةِ تقريرِه.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

بيانُ الجوابِ على سببِ الإرسالِ ومضمونه

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجملتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ الإخبارَ بإرسالِ صالحٍ ﷺ إليهم لمّا كان مَظِنَّةً لأن يُسألَ، ويُقالَ: فماذا قالَ لهم؟ قيل جوابًا عن ذلك: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2].

نكتةُ النِّداءِ بالحرفِ (يا) في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

الإشعارُ بأنَّ انصرافَهُمْ عن عبادةِ اللهِ بمنزلَةِ البُعْدِ المكانِيِّ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أسلوبُ نداءٍ، وقد جاءَ بـ (يا) - وهي في الأصلِ موضوعةٌ لنداءِ البعيدِ - لِنُكْتَتَيْنِ: إحداهُما: الإشعارُ بأنَّ انصرافَهم عن عبادةِ اللّه تعالى بمنزلَةِ البُعْدِ المكانيِّ في مقام مخاطبَةِ الموحِّدينَ، والأخرى: الإيماءُ إلى عِظَمِ شَأْنِ موضوعِ النِّداءِ وهو العبادة، فإنَّ له جلالًا وخطرًا.

دلالةُ النِّداء بلفظ (القوم) في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

إرادةُ استعطافِهِمْ بتذكيرِهِمْ بالقرابَةِ المقتضيةِ للإحسانِ والتَّراحمِ

(قَوْمِ) من قولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، لغةٌ في (قَوْمي)، فحُذِفَت الياءُ إيجازًا وتخفيفًا، ووقعَ النِّداءُ بلفظ القَوْمِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لإرادَةِ استعطافِهِمْ بتذكيرِهِمْ بالقرابَةِ رابطةِ النَّسَبِ المقتضيَةِ للإحسانِ والتَّراحُمِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/241.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/444.

بَراعَةُ المجازِ في قولِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾:

بيانُ العبادةِ الشَّرعيَّة المعتدِّ بها، يلزَمُ فيها التَّوحِيدُ

العبادَةُ في الآيةِ يُرادُ بها التَّوحيدُ، فمعنى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحِّدوه، والتَّعبيرُ عَنِ التَّوحيد بالعبادة مِن المجازِ المُرْسَلِ بعلاقةِ المَلْزوميَّةِ؛ فإنَّ العبادةَ الشَّرعيَّةَ المعتدَّ بها يلزَمُ فيها التَّوحيدُ، فالتَّوحيد شرطٌ في صحَّتِها، ونكتةُ التَّعبيرِ بالمجازِ: التَّنبيهُ على عِظَمِ شأنِ التَّوحيد، ومنزلتِه مِنَ العبادَةِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ (من) في قولِهِ: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾:

نُكتةُ التَّوكيدِ مراعاةُ حقِّ التَّوحيدِ

(مِنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، صِلَةٌ يُرادُ بها توكيدُ النَّفْيِ[1]، فهو في قوَّةِ تَكرارِ الجملةِ مرَّتين أو ثلاثًا، والتَّقدير: (ما لكم إلَهٌ غيرُهُ، ما لَكُمْ إلهٌ غيرُهُ)، ما لكُمْ إلهٌ غيرُهُ، ونُكتَةُ التَّوكيدِ مراعاةُ حقِّ التَّوحيدِ، والإيماءُ إلى عظيمِ شأنِهِ وجلالَةِ قَدْرِهِ.

علَّةُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تعليلُ صحَّةِ ما دعاهم إليهِ وأمرَهُم بهِ من التَّوحيدِ والعبادةِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ عمّا قَبلَهُ؛ لوقوعِها تعليلًا لِما قبلَها، وذلك أنَّه لمّا دلَّ على صِدْقِهِ في دَعْوَى النُّبوَّةِ أنَّه دعا ربَّهُ، فأخرجَ لهم النّاقةَ، ودَعَوْا هم أوثانَهم فلم تُجِبْهم؛ علَّلَ صحَّةَ ما دعا إليه بقولِه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، أي: آيةٌ ظاهرةٌ على صِدْقي في دَعْوى الرِّسالَةِ، وصحَّة ما أمرتُكُمْ بِهِ[2]. والمعنى: اعبدوا اللهَ تعالى وحْدَهُ؛ لأنَّه جعلَ لكم آيةً على صِدْقي فيما بلَّغْتُ لكم[3]، فكأنَّهم قالوا: ائتِنا ببيِّنَةٍ تدلُّ على صدقِكَ وأنَّك مرسَلٌ إلينا، فجاء الجواب: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/444.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/444.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/217.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/92.

تنبيهُ الجاهلينَ الّذين يظنُّونَ أنَّ الخوارقَ مِمَّا يدخلُ في كسْبِ الصَّالحينَ

دَلالة (مَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾:

(مِنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، لابتداءِ الغايَةِ مجازًا، ويجوزُ أن تكون للتَّبعيضِ، والمعنى: قد جاءَتْكُم بيِّنَةٌ مِنْ بيِّناتِ ربِّكُم[1]، المحسنِ إليكم بنعمهِ وألطافه، فقولُه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ للإعلامِ بأنَّها لَيسَتْ مِن فِعلِ صالحٍ عليه السلام، ولا ممّا ينالُها كَسْبُه، وكذلك سائِرُ ما يؤيِّدُ اللّهُ تعالى به الرُّسُلَ مِن خَوارِقِ العاداتِ؛ ففي ذلك تنبيهٌ للجاهِلينَ الّذين يظنّونَ أنَّ الخوارِقَ، مِمّا يدخُلُ في كسْبِ الصّالحينَ الّذين هم دونَ الأنبياءِ[2].

الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ تعالى لَم يَقْطَعْ إحسانَهُ إلى خَلْقِهِ

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ اللهِ (الرَّبّ) في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾:

في التَّعبيرِ باسْمِ (الرَّبِّ) في قَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، إشعارٌ بأنَّ الإتيانَ بالبيِّناتِ من مقتضياتِ إحسانِ اللهِتعالى إلى خَلْقِهِ؛ لكَوْنِها أدلَّةً وبراهينَ على صِدْقِ رُسلِهِ، فتكونَ داعيةً لأقوامِهِمْ إلى الهدايَةِ، وهي سِرُّ سعادَتِهِمْ في الدُّنيا والآخرَةِ. وفي التَّعبيرِ باسمِ الرَّبِّ - أيضًا - إيماءٌ إلى أنَّ اللهَتعالى، لَم يَقْطَعْ إحسانَهُ إلى خَلْقِهِ[3].

تنزيلُ الجملةِ منزِلَةَ البَيانِ مِنَ الجملةِ قبلَهَا

كمالُ الاتِّصالِ بين قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ وما قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه نُزِّلَ منزِلَةَ البيانِ مِنَ الجملةِ قبلَها، وذلك أنَّ النّاقَةَ هي البيِّنَةُ المذكورَةُ قبلُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾[4] وفي ذلك تعظيمٌ لقدرِ البيِّنةِ، فكأنَّهُ ذكرها مرَّتينِ.

دلالةُ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾:

أُشيرَ إلى الآيةِ - ناقَةِ اللّهِ تعالى - بعد تكوينِها باسْمِ الإشارةِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/401.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/446.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/218.

تفخيمُ شأنِ النّاقةِ، وتعظيمُ اللهِ تعالى في بديعِ خلْقِهَا وسُرْعَةِ تكوينِهَا

﴿هَٰذِهِۦ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، تحقيقًا لها، وتفخيمًا لشأنِها، وتعظيمًا للّهِ تعالى في بديعِ خَلْقِها وسُرْعَةِ تكوينِها، ورَفْعًا لشأْنِ نَبيِّ اللّه صالِحٍ عليه السلام حيثُ فعَلَ اللّهُ تعالى ذلك لأَجْلِهِ[1].

سِرُّ الإضافة فِي ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ كونِ الإضافةِ إضافَةَ خَلْقٍ وَتَشْرِيفٍ

إضافةُ النّاقَةِ إلى الاسم الأعظم (اللّهِ) في قولِهِ جل جلاله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، إضافةُ خَلْقٍ وتَشْرِيفٍ[2]، وليسَتْ إضافةَ صِفَةٍ لموصوفٍ، فهيَ كالإضافةِ في نحْوِ: بَيْتِ اللّهِ، ورَسولِ اللّهِ. وفي إضافَتِها إلى اللّهِ سبحانه تعظيمٌ لها مِنْ جهةِ بديعِ خَلْقِها، حيثُ كان خَلْقُها من غير اجتماعِ ذكَرٍ وأنْثَى، ولَمْ تكُن في صُلْبٍ ولا رحِمٍ، ولم يَكُنْ للخَلْقِ فيها أدْنَى سَعْيٍ[3]، ولأنَّها حُجَّةٌ على القَوْمِ، ولِما أَوْدَعَ اللّهُ تعالى فيها مِنَ الآياتِ الباهِراتِ المذكورَةِ في قِصَّةِ قَوْمِ صالحٍ[4] عليه السلام.

دلالةُ التَّخْصِيصِ بِشبه الجملةِ ﴿لَكُمۡ﴾:

بيانُ خصوصيَّةِ هذه النَّاقةِ في كونِها لهم، لتعمَّ كلَّ مَنْ عاينها منهم، أو سمعَ بها

دلَّ تخصيصُ النّاقَةِ بِهِمْ بقولِهِ: ﴿لَكُمۡ﴾ مِنْ قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ حالَ كونِها آيةً لهم، لتَعُمَّ مَن شاهدَها ومَن سَمِعَ بها، وصحَّ عِنْدَهُ أمرُها[5]، كما أنَّهم خُصّوا بذلك؛ لأنَّهم هم السّائِلون لها، أو المنتفعونَ بها مِن بينِ سائِرِ النّاسِ لو أطاعوا[6].

دلالةُ التَّأْكِيدِ فِي قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم﴾:

تأكيدُ كوْنِهَا آيةً

أُكِّدَ قولُ اللّهِ سُبحانَه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، بـ (قَدْ)، وزاد على التّأكيدِ ما أفادَهُ قولُه: ﴿لَكُمۡ﴾ مِنَ التَّخصيصِ تَثْبيت كوْنِها آيةً[7]، فهو يقول لهم: "قد جاءتكم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/251، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 3/190.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/92.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(6) ابن عادل الدّمشقيّ، اللباب في علوم الكتاب: 9/192.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/218.

حُجَّةٌ أو موعظةٌ واضحةٌ من ربِّكم، تَدلُّ على صدقِ رسالتي، وهي هذه النّاقةُ بناء على اقتراحكم، لكم آيةٌ خاصَّةٌ دالَّةٌ على صدقي؛ لأنَّكم المشاهدون لها وحدكم"[1].

دِلَالَةُ اللّامِ فِي قولِه تعالى: ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾:

إفادةُ الاختصاصِ في كونِها مجعولَةً مِنْ أجلِهِمْ

أفادَتِ اللّامُ في ﴿لَكُم﴾ مِن قَوْلِهِ ﷺ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ الاختصاصَ، والمعنى: أنَّها آيةٌ مُقنِعَةٌ لكُمْ، ومجعولَةٌ مِنْ أجلِكُمْ[2].

دلالةُ الفاءِ فِي قولِهِ: ﴿فَذَرُوهَا﴾:

تفريعُ كونِ النَّاقةِ آيةً، لتَرْكِ التَّعرُّضِ لَهَا بِسُوءٍ

الفاءُ في قَوْلِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ تفريعيَّةٌ على كونِها آيةً من آياتِ اللّه تعالى؛ فإنَّ ذلك ممّا يوجِبُ تَرْكَ التَّعرُّضِ لَها بسوءٍ[3].

نُكتَةُ الإظهارِ فِي مقامِ الإضْمارِ:

الإظهارُ لئلّا يُتوَهَّمَ اختصاصُ أكلِهَا بأرضٍ دُونَ أخرَى

في قَوْلِ اللّه سُبۡحانَهُ: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمار؛ إذْ إنَّ مقتضَى الظّاهر أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فذروها تأكلْ في أرضِه)؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسْمِ الأحسن (اللّه) في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، وذلكَ لئلّا يُتَوَهَّمَ اختصاصُ أكلِها بأرضٍ دونَ أخرَى[4].

سِرُّ إِضَافَةِ الْأَرْضِ إِلَى اسْمِ (اللهِ):

إضافةُ محلِّ رَعْيِها إليهِ قَطْعٌ لِعُذْرِهِمْ فِي التَّعرُّضِ لَهَا

أُضيفَتِ الأرضُ إلى الاِسْمِ الْأَحسَنِ (اللّه) في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنَّه لمّا أُضيفَتِ النّاقةُ إليه سبحانه في قولِه: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾؛ أُضيفَ محلُّ رَعْيِها إليهِ؛ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ في التَّعرُّضِ لها، فكأنَّه قيلَ: الأَرْضُ أرْضُ اللّهِ، والنّاقةُ ناقَةُ اللّهِ، فذَروا

---

(1) وهبة الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/686.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/218.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/242.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/445.

ناقةَ اللّهِ تَأْكُلْ في أرْضِه؛ إذْ لَيستِ الْأَرْضُ لَكُم، ولا ما عَلَيْها مِنَ النَّباتِ مِنْ إنْباتِكُم، فأيُّ عُذْرٍ لَكُمْ في التَّعرُّضِ لَها بالمَنْعِ[1].

بلاغةُ الِاكتِفاءِ فِي قولِهِ: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ﴾:

ذِكْرُ الشُّربِ اكتفاءٌ عَنْهُ بذِكْرِ الأكْلِ؛ لأنَّه مُلازِمٌ لَهُ في العَادَةِ

نُصَّ على الأكلِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾، ولم يُذكَرِ الشُّرْبُ؛ اكتفاءً عَنْهُ بذِكرِ الأكْلِ؛ لأنَّه مُلازِمٌ لَهُ في العادَةِ، وقد ذُكِرَ في موضِعٍ آخرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾[2][الشُّعراء: 155].

دلالةُ التَّعْبِيرِ بالمَسِّ فِي قولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾:

تنبيهٌ بالأَدْنَى عن الأعلَى؛ إذِ النَّهيُ عن مسِّهَا بسُوءٍ، يقتضِي النَّهيَ عن عَقْرِها

في التَّعبيرِ بالمسِّ في قولِ اللّهِ (ﷻ): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾، تنبيهٌ بالأَدْنَى على الأعلَى؛ إذْ إنَّ نهيَهُم عن مسِّها بسوءٍ - إكرامًا لآيةِ اللّه تعالى - يقتضي نهيَهُم عن نحرِها وعَقْرِها، ومَنْعِها عن الكلأِ والماءِ، مِنْ بابِ أوْلَى وأحْرَى؛ لأنَّ المسَّ هو مقدِّمَةُ الإصابَةِ بالشَّرِّ الشّامِلِ أنواعَ الأذيَّةِ، فهو صادِقٌ على أقلِّ اتِّصالِ شيءٍ بالجِسْمِ[3]، (فكلُّ ما ينالُها ممّا يُراد منه السّوء، فهو منهيٌّ عنه، وذلك لأنَّ الحيوانَ لا يسوؤه إلّا ما فيه ألَمٌ لذاتِه؛ لأنَّهُ لا يَفقَهُ المعاني النَّفسانيَّة)[4].

سِرُّ تَنْكِيرِ لفظ (سُوءٍ):

غرضُ إرادةِ التَّعميمِ المبالغَةُ في النَّهْيِ والتَّشدِيدُ فيه

نُكِّر (سوء) في قَوْلِ اللّهِ (ﷻ): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾، لإرادَةِ التَّعميم؛ إذِ النَّكِرةُ في سياقِ النَّهْيِ، تُفيدُ العُمومَ؛ وذلك مبالغةٌ في النَّهْيِ تشديدٌ فيه، والمعنى: لا تَتَعَرَّضوا لَها بِشَيْءٍ ممّا يَسوؤُها أصْلًا، فلا تَطْرُدوها، ولا تَعْقِروها، ولا تُريبوها إلى غَيْرِ ذلكَ من ضُروبِ إيصالِ السّوءِ إليها[5]، فتنكيرُ (سوءٍ) في سياقِ النَّهيِ، يُفيدُ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/445، والآلوسي، روح المعاني: 4/401.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/242.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/92، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/242.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/219.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/242، والآلوسي، روح المعاني: 4/401.

أنَّ الوعيدَ مُرَتَّبٌ على أيِّ أنواعِ الإيذاءِ لها، سَواءٌ في نَفْسِها، أو أكْلِها، أو شُربِها[1].

بلاغةُ الاسْتِعَارَةِ فِي قوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾:

تصوير استئصالِهم بالعذابِ بالأخْذِ المقتضي خلوَّ المأخوذِ عن مكانه

الأخْذُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ استعارةٌ[2]، وذلك أنَّ أصلَ الأخذِ التَّناوُلُ باليَدِ، وهو يقتَضِي خُلوَّ المأخوذِ عن مكانِهِ الأوَّلِ، وانْعِدامَهُ مِنْهُ، فشُبِّهَ استئصالُهم بالعذابِ بالأخْذِ بجامعِ مُطْلَقِ الإعدامِ والإفْناءِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

براعةُ المجازِ العقليِّ في قولِه: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

الإشعَارُ بإحاطَةِ العذابِ بِهِمْ أخذًا وإهلاكًا

إسنادُ الأخْذِ إلى العذاب في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ فإنَّ العذابَ سَبَبٌ في ذلكَ، والنُّكْتَةُ في ذلك: الإشعارُ بإحاطَةِ العذابِ بِهِمْ أخذًا وإهلاكًا، حتَّى كأنَّهُ هوَ الآخذُ نفسُهُ.

اعتبارُ مناسبةِ القصَّةِ لِما سبقَها من القَصَصِ مَطلعًا ومضمونًا:

تنويعُ المطالعِ في القصصِ يقتضي تنويعَ السِّياقِ

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾، وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ٤٥﴾ [النمل: 45]، وخُصَّتْ كُلُّ آيةٍ بطالعَةٍ مغايرةٍ لنظيرَتِها، وبما بعدَ قولِه: ﴿أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾؛ وذلك: أنَّ آيةَ الأعرافِ سبقَها قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59]، وعُطِفَ عليه قولُهُ: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [الأعراف: 65]، فلمّا تقدَّم ذِكْرُ الإرسالِ في ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ ناسبَهُ طَيُّهُ إيجازًا لِلعِلْمِ به.

ثُمَّ إنَّ السّياقَ لَمّا كان في بيانِ أنَّ كُلَّ الرُّسُلِ الَّذينَ سبقوا نبيَّنا محمَّدًا ﷺ، دَعَوا إلى توحيدِ اللّهِ (سُبحانَهُ)، وعدمِ الشِّرْكِ بِهِ؛ ناسبَهُ التَّصريحُ بِهِ في قولِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾،

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/448.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/93.

وأمّا آيةُ النَّمل؛ فتقدَّمَها خاتِمَةُ قِصَّةِ سُليمان ﷺ، بحكايةِ مقالَةِ ملِكَةِ سبأٍ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾ [النّمل: 44]، فلمّا لم يتقدَّم ذِكْرُ الإرسالِ؛ كان المناسِبُ ذِكْرَهُ والتَّصريحَ به، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، ثُمَّ إنَّه لمّا ذُكِرَ الإرسالُ، وأُريدَ تفسيرُهُ؛ ناسبه أن يقول: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ولم يُصرِّحْ بقولِه ههنا: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ لأنَّ سياقَ القصَّةِ غيرُ متعلِّقٍ بالشِّركِ، وإنَّما متعلِّقٌ بِمَكْرِهِم.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

بيانُ عَظَمَةِ النَّاقةِ الإضافيَّة هنا، وعظمتِها الذاتيَّةِ في سورة الشُّعراء

قال اللّه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥﴾ [الشّعراء: 155]، فأُضيفتِ النّاقةُ في الموضع الأوَّل، ووُصِفَتْ في الموضعِ الآخَرِ بقولِه: ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾؛ وذلك أنَّ آيةَ الأعرافِ وردت في سياقِ قولِه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾، فلَمّا وُصِفَتِ البيِّنَةُ بأنَّها مِن ربِّهِمْ لقَصدِ التَّخصيصِ، وكانت البيِّنَةُ هي النّاقةَ، وأُريدَ بيانُ عظمتِها؛ ناسبَهُ أنْ تُضافَ إلى الاسمِ الأحسن (اللّه).

بخلاف آيةِ الشُّعراءِ، فقد تقدَّمَها قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾ [الشّعراء: 154]، فلمّا كان هؤلاءِ قد طلَبوا آيةً عظيمةً كما أفادَهُ تنكيرُ لفظِ (آيةٍ)؛ ناسبَهُ تنكيرُ لفظِ (ناقةٍ)، تعظيمًا لها وتفخيمًا، ووَصفها بما يدلُّ على كوْنِها من عند اللّه، فقال: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وأمّا الوصفُ بالعَظَمَةِ في سورة الشُّعراء؛ فهو راجِعٌ إلى اليوم، وذلك لذِكْرِ اليومَيْنِ المقسومَين بين النّاقةِ وبينَهم، فكأنَّه قالَ لهم: إن مَنَعْتُموها يومَها بعَقْرٍ ونحوِه، ولا تَتْركونَ اليومَ لها؛ أخذَكُم عذابُ

يوم عظيم، فاليوم الذي تُؤلِمونَها فيه، يقابِلُه يومٌ يُؤلُمُكم اللّه فيه بعذابِ الاستئصالِ[1].

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

بيانُ أنَّ وصفَ العذابِ بالإيلامِ، لا يُنافي اتِّصافَهُ بالقُرْب، بل بالقربِ يزدادُ الإيلامُ

قالَ اللّه سُبحانَه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: 64]، وقال ﷻ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾ [الشُّعراء: 155 - 156].

وليس بينَ هذه المواضعِ تَنافٍ؛ وذلك لأنَّ وصفَ العذابِ بالإيلامِ، لا يُنافي اتِّصافَهُ بقُرْب الوقوع، بل إنَّ وصفَه بقُرْبِ ذلك أشدُّ إيلامًا لعدَمِ الإمهالِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المسّ) و(الإصابة):

الإصابةُ: التقاءٌ وزيـادةُ تمكُّنٍ وتأثيرٍ، والمسُّ: أقلُّ درجاتِها

المسُّ: اتِّصالُ أحد شيئين بآخرَ، على وجهِ الإحساسِ، أمّا الإصابةُ؛ فهي التقاءٌ وزيادة؛ فالمسُّ أقلّ تمكُّنًا مِنَ الإصابةِ، وكأنّه أقلُّ درجاتِها[2]؛ لأنَّ الشَّيءَ المُصيبَ لشيءٍ، فهو مُتَمكِّنٌ منه أو فيه[3]، فالإصابةُ أبلغُ من المسِّ؛ لأنَّ تأثيرَها أقوى وأشدُّ، واصطفاها النَّظم الكريم هنا، تناسبًا مع حالِ التَّهديدِ والوعيد.

وقد جمع السّياقُ القرآنيُّ في آيةٍ واحدةٍ بين اللَّفظين، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: 120]، كما ورد المسُّ وحدَهُ معبِّرًا عمّا فيه إنالة

(1) الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل: 2/615 - 616، وابن الزُّبير الغرناطيّ، ملاك التأويل: 1/200.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/407، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/245.
(3) ابن عطيّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 1/498.

وأذًى وإيلامٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨﴾ [يس: 18]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر: 48]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275].

قال ابن عاشور: "والمَسُّ الإِصابَةُ، ولا يَخْتَصُّ أحَدُهُما بِالْخَيْرِ والآخَرُ بِالشَّرِّ، فالتَّعْبيرُ بِأحَدِهِما في جانِبِ الْحَسَنَةِ، وبِالآخَرِ في جانِبِ السَّيِّئَةِ تَفَنُّنٌ"[1].

(السُّوء) و(الشَّرّ):

السُّـوءُ أشـدُّ وقعًا من الشَّرِّ، وفي الشَّرِّ معنى الانتشارِ

الشَّرُّ: خلافُ الخيرِ، وهو عدمُ ملاءمةِ الشَّيءِ الطَّبعَ[2]، الشَّرُّ: اسمٌ جامع للرَّذائل والخطايا، وقد يُطلق على المصائبِ والبلايا، ويدلُّ أصلُه على الانتشارِ والتَّطايرِ[3]، ومنه الشَّرر: وهو ما تطاير من النّار، ورجل شرّيرٌ، أي: كثير الشَّرِّ، والجمع أشرارٌ[4].

والسّوءُ يجري مجرى الشَّرِّ، فيحمل معنى الذَّنبِ كالزِّنى والشِّرك[5]، ويطلق السّوء أيضًا على كلِّ ما يغمُّ الإنسانَ من الأمورِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، ومن الأحوال النَّفسيَّة والبدنيَّة والجارحة من فوات مالٍ وجاهٍ، وفَقْدِ حميمٍ[6].

فالسّوء يأتي بمعنى المنكراتِ والرَّذائل، وبمعنى البؤسِ والمصائبِ والشَّدائدِ، وكلُّ ذلك شرٌّ بلا ريبٍ، ولكنَّ السّوءَ أشدُّ من الشَّرِّ، وقد استعملت اللُّغةُ العربيَّةُ السّوءَ موازيًا ومرادفًا للشَّرِّ أيضًا، وطُلِبَ من المؤمنِ في إطار الاستعاذةِ من الشُّرورِ أن يستعيذَ من شرِّ ما خلقَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/68.
(2) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 109، والقاضي نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 2/151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرّ).
(4) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرّ)، والرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 354.
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 503.
(6) الرّاغب المفردات: (سوأ).

وأرشدتهُ آياتُ القرآن في مواقعَ شتَّى منه إلى الاستعاذةِ من همزاتِ الشَّياطين ومن شرورِ البشرِ كالحسدِ والغيرةِ والسِّحر وغيرها من ألوانِ الشُّرورِ الكثيرةِ.

وعند التَّأمُّل الحصيفِ لاستعمال هذين اللَّفظينِ، نجدُ أنَّ كُلَّ سوءٍ لا يخلو من شرٍّ، وأنَّ كلَّ شرٍّ لا ينفكُّ عن سوء، وأنَّ أشدَّ الشَّرِّ في الدُّنيا الشِّركُ والكفران، وأشدَّ الشَّرِّ في الآخرةِ النّارُ والخسرانُ، وكلُّ ذلك سوءٌ مُؤذٍ، وهلاكٌ مُردٍ.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إقناعُ المخاطَبِ باقتلاعِ الإقدامِ على الشَّهواتِ سبيلُه التَّذكيرُ

لمّا أمرَ صالحٌ قومَه بعبادةِ اللّهِ وحدَه، وجاءَهم بالحُجَّةِ على صدْقِ رسالتِه، ونهاهم أن يمَسّوا النّاقةَ بسوءٍ، ذكّرهم بنِعمِ اللّهِ عليهم؛ ترغيبًا في الامتثالِ، ومُشيرًا به إلى ترهيبِهم منَ الإفسادِ[1]، فوَقَعَتْ هذه الآيةُ منَ السّابقةِ موقعَ الإقناعِ باقتلاعِ ما يجولُ في نفوسِهم من عَقْرِ النّاقةِ، بما هو كائنٌ منَ النِّعمِ المُحيطةِ بهم، فكانَ التَّذكيرُ بالنِّعم بمثابةِ إقامةِ الحُجَّةِ على الامتثالِ للحُجَّةِ، وتركِ الامتثالِ للشَّهوةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُلَفَآءَ﴾: أصلُ (خلف): أن يَجيءَ شَيءٌ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه، وخَلَفَ فلانٌ فلانًا، قامَ بالأمرِ عنه، إمّا معه وإمّا بعده، والخَلْفُ: ضدُّ القُدّامِ، والخِلافةُ النِّيابةُ عنِ الغيرِ، إمّا لغيبةِ المَنوبِ عنه، وإمّا لموتِه، وإمّا لعجزِه، وإمّا لتشريفِ المستخلَفِ، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ استخلفَ اللّهُ أولياءَه في الأرضِ، والخليفةُ: الّذي يخلفُك، ويكونُ بعدَك، وكلُّ مَنْ تولَّى شيئًا بعدَ آخرَ يُقالُ له: خليفةٌ، والخلائفُ: جمعُ خليفةٍ، وخلفاءُ جمعُ خليفٍ[2]، والخليفةُ، وهو الذي يخلفُ غيرَه في شيءٍ، أي: يتولّى عملَ ما كان يعملُه الآخرُ، فالمرادُ: جعلَكم خلفاءَ في تعميرِ الأرضِ[3].

2) ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾: أصلُ معنى باءَ يدورُ على معنيين: أحَدُهما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/205.

الرُّجوعُ إِلَى الشَّيءِ مع تمكُّنٍ فيه، ومنه: الباءةُ والمباءةُ مَنزِلُ القَوم، حيثُ يَتبوّؤون من قِبَل وادٍ أو سَنَد جَبَل؛ ليكونَ مَرجِعًا لهم، وبَوّأْتُه مَنزلًا؛ بمعنى: أنزلتُه، ثمَّ استُعملَتِ الكلمةُ لمعنى الإقامةِ على الشَّيء، والمعنى الثّاني لـ(باء) يدلُّ على تَساوي الشَّيئَين وتكافؤهما، فيُستعملُ البَواءُ في مراعاةِ التَّكافؤِ، فيُقالُ: فلانٌ بواءٌ لفلانٍ إذا ساواه، وقد يُجمَعُ الرّجوعُ والتّكافؤُ في مثلِ قولهم: تَبوَّأَ فُلانٌ مَنزِلًا: إذا نظر إِلَى أسهَلِ ما يُرى وأشَدِّه استواءً وأمكَنِه، بحيث يكون مُكافِئًا له؛ ليرجعَ إليه في مَبيتِه، ومعنى ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ في الآيةِ: أنزَلكُم وأسكنَكُم[1].

3) ﴿سُهُولِهَا﴾: أصلُ مادّة (سهل) تدلُّ على لينٍ وخلافِ حزونةٍ، والسَّهلُ: خلافُ الحزن[2]، والحزنُ: ما غلُظَ منَ الأرض[3]، فالسّهلُ هو المكانُ المنخفضُ المستوي منَ الأرض، الّذي لا وَعْرَ فيه، وضدُّه الجبلُ، وسُمّي سهلًا للين المشيِ فيه، بخلاف الجبلِ فهو صعبٌ وشديدٌ، ومعناه في الآية: السُّهولُ التي تُقابل الجبالَ، فهم يتَّخذون فيها قصورًا، لسهولة الوصولِ إليها على ساكنيها.

4) ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أصلُ مادّةِ (نحت) يدلُّ على نجْرِ شيءٍ وتسويته بحديدةٍ[4]، ويدورُ المعنى المحوريُّ للنّحتِ على اقتطاعٍ من ظاهر الجرم الجافِّ الصّلبِ باتّجاه باطنه بدقّةٍ نحو البَرْي، ويكونُ للشّجرِ والخشبِ ونحوِهما منَ الأجسام الصَّلبة، يُقال: نحتَ النَّجّارُ الخشبةَ: نَشَرها، وقَشَرها بدقّةٍ، ومعنى ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: تَبرون أو تقتطِعون[5] الحجرَ بآلةٍ على تقديرٍ مخصوصٍ[6].

5) ﴿قُصُورًا﴾: القِصَرُ خلافُ الطّولِ، وهما منَ الأسماءِ المتضايفةِ الّتي تُعتبَرُ بغيرِها، والقَصرُ الحبسُ، وهو مقصورٌ؛ أي: محبوسٌ، وامرأةٌ قاصرةُ الطَّرفِ: لا تمدُّه إلى غيرِ بعلِها، كأنَّها تَحبسُ طرفَها حبسًا، وقَصَرْتُ كذا: ضممتُ بعضَه إلى بعضٍ، ومنه سمّيَ القَصرُ، وجمعُه قُصورٌ، وهو البناءُ العالي الكبيرُ الّذي يكونُ من حجرٍ وأُحيطَ به، وكلُّ ناحيةٍ منه مقصورةٌ، سُمّيَ بِذَلِكَ؛ لأنَّه تُقصَرُ فيهِ الحُرَمُ؛ أي: تُحْبس، وقد يكونُ سببُ

(1) الأزهريّ: تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ)، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 121.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سهل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحت).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نحت).
(6) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/220.

تسميتِها قصورًا؛ لأنّها حُبِسَت عن نيلِ عُمومِ النّاس، وقصرِهم عن تحصيلِها[1]، والقصرُ هنا ما شُيِّد وعلا منَ المنازلِ[2].

6) ﴿ءَالَآءَ﴾: الآلاء: النِّعَمُ، واحدُها (إلى) كمِعى، و(ألى) كرحَى، و(ألي) كهجرٍ، و(إلي) كفلسٍ[3]، وهي النِّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها[4]، ومعنى الآلاء في قولِه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمَه الظاهرةَ والباطنةَ، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20][5].

7) ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾: من عَثيَ يَعْثَى عُثوّاً، والعَيثُ والعِثيُّ يتقاربان، نحو: جَذَبَ وجبَذَ، إلّا أنّ العَيثَ أكثرُ ما يُقالُ في الفسادِ الّذي يُدرك حِسًّا، والعِثيَّ فيما يُدركُ حُكمًا، والعَيثُ أشدُّ الفسادِ وأسرعُه، ويُقالُ: عاث يعيثُ لما يكونُ فيه إسراعٌ في الفساد، والذِّئبُ يعيثُ في الغنم فَلا يَأخُذُ منه شَيئًا إلّا قَتله[6].

8) ﴿مُفۡسِدِينَ﴾: الفسادُ خروجُ الشّيءِ عنِ الاعتدال، قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُضادُّه الصّلاحُ، ويُستعمَلُ ذلك في النّفس، والبدنِ، والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامةِ، وفَسَدَ الشّيءُ: بَطُلَ واضمحلَّ، والمَفسَدَةُ: خلافُ المصلحةِ[7].

المعنى الإجماليُّ:

بقاءُ النِّعمِ مرهونٌ بشُكرِها، واندِثارُها معذوقٌ بكُفرِها

واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم، إذ جعلكم تخلُفون عادًا في الأرضِ بعدَ هلاكِها، وأنزلَكم في الأرضِ، ومكّنكُم فيها، فتبنونَ في سهولِها

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قصر)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/236، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/135.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ألى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ألى)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 194.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ألى).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عثي).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).

البيوتَ العظيمةَ، وتنحِتونَ منَ الجبالِ بيوتًا قويّةً، فاذكروا نِعَمَ اللّهِ الّتي أنعمَ بها عليكُم، واشكروه عليها، ولا تَسْعَوا في الأرضِ مُفسدينَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصْلِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾:

عبادةُ الله وحدَه هي أصلُ النَّجاةِ وركنُ البقاءِ

عطفتِ الواوُ جملةَ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ وما بعدَها على قولِه تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف: 73]؛ مِن بابِ عطفِ الطَّلبِ على الطّلبِ، فبعد أن أمرَهم بعبادةِ اللّهِ وحدَه، أمرَهم بتذكُّرِ نِعَمِه؛ ليكونَ الأمرُ بعبادةِ اللّهِ وحدَه سببًا لِلتَّذكّرِ فيما أسبغَ على المُخاطَبين منَ النِّعَمِ، وهذا هو الّذي يُسمّيه علماءُ البلاغةِ بالتَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن.

دلالةُ الأمرِ على فائدةِ الخبرِ ولازمِها:

مُقتضَى الذّكرِ أداءُ حقِّ المذكورِ وعدمُ الإخلالِ به

لَمّا كان الذّكرُ يُطلَقُ على خطورِ شيءٍ ببالِ مَنْ نسيَه، وعلى النّطقِ باسم الشّيءِ الخاطرِ ببالِ النّاس، وهو هنا في قوله سبحانه ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ بمعنى الذّكرِ العقليِّ، إذ ليس المقصودُ ذكرَ النّعمةِ باللّسان، فالمرادُ تعهّدُ آلاءِ اللّه تعالى عليهم وحفظُها وعدمُ نسيانها، وأشعرَت فائدةُ الخبرِ بلازمِها، فإنَّ ذكرَها يقتضي مقابلتَها بالشّكرِ والقيامَ بحقِّها بعبادة اللّه وحدَه المُنعِم بها، واجتنابِ القبائحِ والمنهيّاتِ الّتي لا تجتمعُ معَ النّعم، وأمرَهم بذكر النّعمِ الكبيرة؛ لأنّها تورثُ محبَّةَ المُنعِمِ وإجلالَه والاستحياءَ منه، وفي الكلامِ تعريضٌ بالحثِّ على الوفاء[1].

بلاغةُ استعمالِ ﴿إِذۡ﴾ في قولِه: ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ﴾:

تصويرُ نِعمِ الله كأنَّها حاضرةٌ أقوَى في الامتثالِ مِن مُجرَّدِ ذِكرِها

لَمّا كانَ لفظُ ﴿إِذۡ﴾ لا يأتي في مثلِ هذا السّياقِ إلّا فيما كانَ له شأنٌ عظيمٌ أفادَ التّعبيرُ تعظيمَ نِعَمِ اللّهِ عليهم في جعلِهم خلفاءَ من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/277.

بعدِ قومِ عادٍ، وفي أن بوَّأهم في الأرضِ، وزادَه مبالغةً في التّعظيمِ والتَّفخيمِ مجيءُ ﴿إِذْ﴾ مفعولًا للفعلِ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾، ففيه توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ دونَ ما وقعَ فيه منَ الحوادثِ، مع أنَّها هي المقصودةُ بالذّاتِ، فلم يتَّسِعِ المقامُ لذكرِ ذواتِ النِّعمِ؛ لعظَمِها وشمولِها وعمومِ نفعِها، فأفادَ ذكرُ الوقتِ المبالغةَ في تعظيمِ النِّعَمِ؛ لأنَّ إيجابَ ذكرِ الوقتِ إيجابٌ لذكرِ ما فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ويحتملُ أن يكونَ على الكنايةِ بطريقِ اللُّزومِ؛ فإنّ الوقتَ إذا استُحضرَ لزمَ مِن استحضارِه أن تكونَ النِّعمُ حاضرةً بتفاصيلِها، كأنَّها مشاهَدةٌ عيانًا[1].

فائِدةُ استعمالِ الفعْلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾:

نِعمُ الله ترغيبٌ ظاهرٌ وترهيبٌ باطنٌ فمن عرَفَ وُقيَ

تظهرُ بلاغةُ استعمالِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في استحضارِ ما كانَ بعد عادٍ؛ أي: استحضارُ أنَّهم جُعلوا خلفاءَ من بعد ما وقعَ لعادٍ منَ العذابِ الأليمِ، وأنَّ هذا الجعلَ مرهونٌ بعبادتِهم وشُكرهم، ففائدةُ استعمالِ الفعلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾ التَّرغيبُ الظّاهرُ، والتَّرهيبُ الضِّمنيُّ، فما جعلَهم خلفاءَ بعد عادٍ إلّا ليشكروا لا ليكفروا، فإن كفروا كان مآلُهم مآلَ عادٍ.

نُكتةُ إضمارِ الفاعلِ في الفعلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾:

القياسُ العقليُّ الصَّحيحُ يقتضي قياسَ النِّعَمِ على النِّعمِ والنِّقَمِ على النِّقَمِ لا الاستئثارَ بإحداهما

لم يأتِ الفاعلُ اسمًا ظاهرًا، فلم يقُل: (جعلكم اللّه خلفاء)؛ لأنَّ جملةَ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 73]، فيكونُ الضّميرُ عائدًا على الاسمِ الجليلِ القريبِ الذّكرِ، وللإيذانِ بأنَّ الّذي جعلَكم خلفاءَ من بعدِ عادٍ هو اللّه الّذي ما لكم من إلهٍ غيرُه، ففي عَوْدِ الضّميرِ على الاسمِ الجليلِ تذكيرٌ بوصْفِ التّوحيدِ الّذي وصفَ اللّهُ تعالى به نفسَه؛ لإيصالِهم إلى إفرادِ اللّه بالعبادةِ؛ لأنّهم كانوا يعبدونَه، ولكنّهم كانوا يُشركون به سبحانه، كأنَّه يقولُ: الذي جعلَكم خلفاءَ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/239.

هو الذي جعلَهم خلفاءَ، والذي أنزلَ بهم عقوبتَه هو الذي - إن تابعتموهم - سيُنزِلُ بكم عقوبتَه.

الامتنانُ بما كانَ لِثمودَ منَ الاستخلافِ في الأرضِ قوَّةً وتمكينًا

نُكتةُ مَجيءِ الجمْعِ بصيغةِ: ﴿خُلَفَآءَ﴾:

لمّا كانَ السّياقُ سياقَ ذكْرِ النِّعمِ وبيانِ قوّتِهم وتَمكينِهم في الأرضِ ومُلكِهم فيها ناسبَ أن يقولَ: ﴿خُلَفَآءَ﴾، فجمعَ على المعنَى؛ لأنّه ذهبَ بالخليفةِ إلى الرَّجلِ، وهو المناسبُ لمعنَى التّمكينِ في اتّخاذِهم منَ السُّهولِ القصورَ، ونحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، فكأنَّ واحدَهم خليفٌ، ثمَّ جُمِعَ على خلفاءَ، فأمّا لو جمعتَ (الخليفةَ) على أنَّها نظيرةُ (كريمة)، قيل: (خلائفُ)، كما يُقال: (كرائمُ)، إذ كانَت من صفاتِ الإناثِ، وإنَّما جُمعَتِ (الخليفةُ) على الوجهين اللَّذين جاءَ بهما القرآنُ؛ لأنَّها جُمعَت مرّةً على لفظِها، ومرّةً على معناها على وَفْقِ السّياقِ المناسبِ[1].

بينَ عادٍ وثمودَ زمانٌ طويلٌ خلا منَ الأقوامِ سِواهم

فائدةُ استعمالِ ﴿مِنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾:

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ فائدتَيْن: الأولى: ابتداءُ الغايةِ الزَّمانيَّةِ؛ بمعنى: لم يأتِ بعد عادٍ قومٌ غيرُهم، فلو قال: (بعد عادٍ) لاحتملَ النَّصُّ أن يكونَ بعدها أقوامٌ ثمّ جاءَت ثمودُ، لكنْ لمّا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ عُلِمَ أنَّ الابتداءَ كانَ بهم، ولم يقُلْ: (خلفاءَ عادٍ) مع أنَّه أخصرُ؛ إشارةً إلى أنَّ بينهما زمانًا طويلًا[2]، فأفادَ التَّعبيرُ أمريْن اثنين: الأوّلُ: أنَّ ثمودَ خلفَت عادًا بعدَ زمانٍ طويلٍ، والآخرُ: أنَّه لم يكنْ بين عادٍ وثمودَ أقوامٌ.

الأخرَى: قومُ ثمودَ ليسوا خلفاءَ لعادٍ على الحقيقةِ، وخلافتُهم لعادٍ باعتبارِ خلوِّ الزَّمانِ من أحدٍ سواهم، والخلافةُ هي خلافةُ القيامِ بالتَّكاليفِ الشَّرعيّةِ؛ لذلك هم خلفاءُ من بعد زمان عادٍ لا

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/541.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/402.

خلفاءُ لعادٍ، فلمّا لم تقُم عادٌ بواجبِها وكفرتْ وعاندتْ استُؤصِلت وعوقبت، فكانَت لثمودَ الخلافةُ في الأرضِ.

فائدةُ ذِكر (عاد) في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾:

لم يقُل: (من بعد قوم هود) كما قال هود: ﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69]؛ لأنَّ عادًا اشتُهرت عند العربِ باسمِها، بخلاف قوم نوحٍ، فهم عُرفوا بنسبتِهم إليه، وذكرُ الأشهرِ هو الأصلُ؛ لأنَّه يُستحضرُ بمجرَّدِ ذكرِه، ولتذكيرِهم بما كان عليه قومُ عادٍ منَ القوّةِ والبسْطةِ في الخلْقِ، وما نشأ على أيديهم منَ الحضارة بعدَ الطّوفان؛ ليناسبَ تعليقَ قولِه: ﴿خُلَفَآءَ﴾ بقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾، وللإشعارِ بأنَّ مَن اتّبعهم في صُنعهم يوشِكُ أن يحلَّ به عذابٌ أيضًا.

عُرِفتْ عادٌ باسمِها أكثرَ من معرفتِها بنسبتِها إلى نبيِّها

فائدةُ الوصْلِ في قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أفادتِ الواوُ عطفَ قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾ على ﴿جَعَلَكُمۡ﴾، فعطفَ الجملةَ الفعليَّةَ على الجملةِ الفعليَّةِ، والتّقديرُ: (اذكروا إذْ جعلكم، واذكروا إذْ بوّأكم)، كما ناسبَ العطفَ مجيءُ الجُملتينِ على معنى الإنعامِ والمنّةِ؛ للإشعارِ بأنَّه أعطاهُم نِعمًا كثيرةً، ومن أعظمِها شأنًا أنّه جعلَهم خلفاءَ من بعدِ عادٍ، وأنَّه بوّأهم في الأرضِ، ولمّا جاء السّياقُ بصيغةِ الجمعِ أفاد أنَّ هذه النّعمَ تكونُ لمجموعِ القومِ، وهي نعمةٌ لِلأفرادِ تبعًا.

خلافةُ السّابقين لا تتمُّ سعادتُها ما لم يَلحقْها تمامُ التَّمكين

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾:

يُشعِرُ التّعبيرُ بلفظِ ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾ أنَّهم قد خلَفوا عادًا في الأرض، وكثُروا، وعُمِّروا أعمارًا طِوالًا، وكثُرَ تنعّمُهم فيها[1]؛ لِما في اللَّفظِ من معنى التَّمكينِ والاستقرارِ، وذلك أنَّ المباءةَ هي مَنزِلُ القَومِ حيثُ يَتبوّؤون من قِبَل وادٍ أو سَنَدِ جَبَلٍ؛ ليكونَ مَرجِعًا لهم،

الأرضُ مَنزلٌ لثمودَ استقرارًا واستعمارًا واستكثارًا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

فكأنَّ الأرضَ المعهودةَ كلَّها مَنزلٌ لهم، يرجعون إليها، فهم يَجولون فيها كلِّها، ويرجِعون إليها كلِّها، فأفادَ اللَّفظُ التَّمكينَ الشّموليَّ للأرضِ، وإذا حملنا الأرضَ على الجنْسِ، فهو محمولٌ على المبالغةِ بقصْدِ الامتنانِ.

الإشعارُ بنِعمِ الله حجَّةٌ على الخلْقِ

نُكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أفادَ حرفُ الظَّرفيّة ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تعيينَ المكانِ؛ أي: في الأرض الّتي نزلتُمْ بها، واستقررتُم فيها؛ للإشعارِ بأنَّ تعْيينَها ليتّخذوا من سهولِها قصورًا، وينحتون الجبالَ بيوتًا منَّةٌ منَ اللهِ عليهم.

تعريفُ الأرض بين العَهديَّةِ والجنسيَّةِ

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تحتملُ (أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن تكونَ للعهدِ؛ أي: في أرضِكم هذهِ، وهي أرضُ الحِجْر، وتحتملُ أن تكونَ للجنسِ؛ لأنَّه لمّا بوَّأهم في أرضٍ معيَّنةٍ فقد بوَّأهم في جانبٍ من جوانبِ الأرضِ[1].

من نِعمِ الله قوَّةُ الأبدانِ الرّافعةِ للقُصورِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ لِما فيه من معنى تحصيلِ الشّيءِ لنفسِه بقوَّةٍ وتمكُّنٍ منه، وهو المناسبُ للفظِ ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾، وفي اللَّفظِ معنى تعملونَ وتُشيِّدون[2]، فيجمعُ معنى الإنعامِ بالعملِ وبالقوّةِ والتّمكينِ، وآثارُهم تنطقُ بذلك.

طولُ المُكثِ في النِّعمِ يقودُ الجاحدَ إلى تعاطي أسبابِ النِّقَمِ

نكتةُ استعمالِ المضارعِ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾:

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾؛ للإيذانِ باستمرارِ اتّخاذِهم من سهولِ الأرضِ قصورًا، ونحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، ولأنَّ الأمرَ لم يقتصِر على مرَّةٍ واحدةٍ بل كان الاتّخاذُ مُتجدِّدًا حالًا فحالًا، ففيه معنى كثرةِ الاتّخاذِ، ودلَّ عليه مَجيءُ مُتعلَّقِ الفعلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

﴿قُصُورًا﴾ بصيغة جمعِ الكثرةِ، إيذانًا بكثرة نِعمِ اللّه عليهم، والظّاهرُ أنَّهم مكثوا فترةً طويلةً في بنائِها وسُكناها، واستمرّوا على ذلك آنًا من بعد آنٍ، وفيه إشارةٌ إلى خبرٍ غيبيٍّ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن سُهُولِهَا﴾:

السُّهولُ هي مادَّةُ قُصورِ ثمودَ وأماكِنُها

تحتملُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أنْ تكونَ جنسيَّةً؛ بمعنى: تتّخذون من سُهولَةِ الأرضِ بما يعملون منها الصّخرَ واللَّبِنَ والآجُرَّ؛ أي: إنَّ القُصورَ الَّتي بَنَوها، أجزاؤُها ومادّتُها مُتَّخَذَةٌ من سهولِ الأرضِ، كما تحتملُ أن تكونَ تبعيضيّةً؛ بمعنى: من بعض لَبِنِ السّهولِ وآجُرِّها، أو تكونَ البعضيّةُ في السّهول؛ بمعنى: أنَّ بَعضَ السُّهولِ اتَّخَذوهُ قُصورًا؛ أي: بَنَوا فيهِ قُصورًا، وَأنشَؤوها فيه، وَلَم يَستَوعِبوا جَميعَ سُهولِها بِالقُصورِ، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن تكونَ ظرفيَّةً؛ بمعنى (في): أي: (تتَّخذونَ في سهولِها قصورًا)، وعُبِّرَ بـ ﴿مِن﴾ دونَ (في) على معنى ابتداءِ مكانِ اتّخاذِ القصورِ في السّهولِ، فأفادت ﴿مِن﴾ معنى الابتداءِ والظّرفيّةِ تكثيرًا للمعنى[1].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعول في الآية:

كثرةُ النِّعمِ تستوجبُ كثيرَ الشّكرِ ودوامَه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ على المفعول به ﴿قُصُورًا﴾ في قوله سبحانه ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ للاهتمام به، وللإشعار بمنّةِ اللّهِ عليهم في أن هيَّأ لهم السّهولَ ليتّخذوا منها قصورًا، كما يحتملُ أن يكونَ التّقديمُ للتّخصيصِ العُرفيِّ، فإنَّ تشييدَ القصورِ في ذلك الوقتِ كان في السّهول.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿قُصُورًا﴾:

غفلةُ الإنسانِ عن نِعمِ الله عليه رُغمَ كَثرتِها

أفادَ تنكيرُ ﴿قُصُورًا﴾ تعظيمَ القصورِ الّتي كانوا يتّخذونها؛ للإشعار بِرفعتِها وفخامتِها؛ لأنَّ القصورَ ما شيِّدَ وعَلا منَ المنازل؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/122، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، والبروسويّ، روح البيان: 3/191، والآلوسي، روح المعاني: 4/402، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

أي: كانت واسعةً عاليةً حَسَنةً يقصرُ أملُ الآملِ ونظرُ النّاظرِ عليها، ممّا فيها منَ المرافقِ والمحاسِن[1].

جملة ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ بين الحاليّةِ والتّفسيريّةِ:

حالُ ثمود من اتّخاذِ القصور ونحتِ الجبال هو بيانٌ لتمكُّنِهم في الأرضِ

تحتملُ جملةُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أن تكونَ حاليَّةً، وتكونَ الجملةُ المعطوفةُ عليها حاليَّةً كذلك؛ بمعنى: بوّأكُم في الأرضِ حالَ اتّخاذِكم من سُهولِ الأرضِ قصورًا، ومن جبالها بيوتًا، فالتّبوّءُ ظهرَ في هيئتينِ وحالتين؛ في هيئةِ القصورِ المتّخَذةِ من سهولِ الأرضِ، بمعنى الصّالحةِ للبناءِ، وفي هيئةِ نحتِ البيوتِ، بمعنى الصّالحةِ للنّحت.

كما تحتملُ جملةُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، وما عُطِفَ عليها أن تكونَ بيانًا لمعنى التّمكينِ والقوّةِ والاستقرارِ في قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لتفيدَ الجملةُ المبيّنةُ معنى التّأكيدِ والتّقريرِ والإيضاحِ والبيانِ، فقيل: إنّهم كانوا يَسكنونَ الجبالَ في الشّتاءِ لِما في البيوت المنحوتةِ فيها منَ القوّةِ الّتي لا تؤثّرُ فيها الأمطارُ والعواصفُ، ويَسكنونَ السّهولَ في سائرِ الفصولِ لأجلِ الزّراعةِ والعملِ[2].

ولا تعارُضَ بين الإعرابين، فإنَّ الحاليّةَ تدلُّ على بيانِ الحالِ، والتّفسيريّةَ تدلُّ على المعنى المبيَّن عمومًا.

نُكتةُ المضارعيّة في ﴿تَنۡحِتُونَ﴾:

تسهيلُ النَّحتِ وتكثيرُه مَدعاةُ شُكرٍ ومَرساةُ يقينٍ

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنّهم كانوا مُستمرّين في نحتِ الجبالِ بيوتًا؛ أي: إنَّ الأمرَ لم يقتصرْ على نحتِ بيتٍ واحدٍ أو بيتَيْن، فكان النّحتُ مُتجدِّدًا وقتًا فوقتًا، ممّا يُشعرُ بكثرةِ نحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، ودلَّ على هذا مجيءُ مُتعلَّق الفعلِ ﴿بُيُوتٗاۖ﴾ بصيغة جمعِ الكثرةِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/445.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، والشّوكاني، فتح القدير: 2/251، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/448.

فائدةُ التَّعبيرِ بنحتِ الجبالِ كلِّها:

في قوله تعالى ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ﴾، جُعِلَ مُتعلَّقُ النَّحتِ هو الجبالُ؛ لأنَّ الأصلَ في النَّحتِ أن يتعلَّقَ بحجارةِ الجبالِ لا بغيرِها[1]، وأفادَ التّعبيرُ بـ ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ معنى اقتطاعِ الحجرِ منَ الجبالِ وتسْويته وعمله بدقَّةٍ؛ إظهارًا للمنَّةِ عليهم بالقوَّةِ والتّمكينِ، وإشعارًا بما أوتوا منَ العلمِ بالهندسةِ، وجعلُ النَّحتِ للجبالِ لا لحجارتِها؛ لبيانِ أنَّ النّحتَ لأكملِ الجَبلِ لا لبعضِه؛ لأنَّ البيوتَ مجمعُ السُّكّانِ، واجتماعُهم يجبُ أن يكونَ ضمْنَ هندسةٍ معماريّةٍ صُعودًا إلى البيوت ونزولًا منها، ولو قال: (تنحتون حجارةَ الجبال)، أو: (تنحتون بيوتَكم منَ الجبال)؛ لفُهِمَ أنَّ المقصودَ بالنَّحتِ هو قصُّ الحجارةِ ونقلُها إلى مكانِ البناءِ.

جمعَتْ ثمودُ بينَ قوَّةِ الأبدانِ وهندسةِ الأذهانِ

معنى النَّصْبِ في لفظ ﴿بُيُوتٗاۖ﴾:

انتصبَ ﴿بُيُوتٗاۖ﴾ على الحالِ المقدَّرةِ منَ الجبالِ، والمعنى: (صائرةً بعد النّحتِ بيوتًا)؛ أي: مسكونةً، كما يُقالُ: خِطْ هذا الثَّوبَ قميصًا، وابْرِ هذهِ القصبةَ قلمًا؛ لأنَّ الجبلَ لا يكون حالُه حالَ البيوتِ وقتَ النّحت، ولكنْ يصيرُ بيوتًا بعدَ النَّحت، وفائدةُ مجيءِ ﴿بُيُوتٗاۖ﴾ حالًا هنا الإشعارُ بأنّ مقصدَهم من أوَّلِ وقتِ نحتِ الجبالِ هو أن يكونَ لهم بيوتٌ يَسكنونَ فيها؛ إشعارًا بما عندهم منَ القوَّةِ والعلْم بطرائقِ البناءِ وهندستِها.

إضمارُ العملِ قبلَ الشُّروعِ فيه دليلُ المُكنةِ فيه

جمالُ الكنايةِ عن التّنعُّمِ في الآية:

في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾: أفادَ التّعبيرُ بِتَينِ الجملتين بطريقِ الكنايةِ؛ أي: بذكرِ الملزومِ، وهو الجُملتانِ المذكورتانِ، وإرادةِ لازمِ معناهما أنَّهم كانوا مُتنعِّمين مُترفِّهين أولي قوَّةٍ وبأسٍ، وأنّ أعمارَهم كانت طويلةً[2].

مَن قدَّم رفاهيتَه على دينِه فقد باءَ بالخُسرانِ، وجاءَ بالبُهتانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

وهي كنايةٌ عن صفةِ الرَّفاهيّةِ والتَّرفِ، وفائدةُ الكنايةِ الإشارةُ إلى أنَّ ترفَ ثمودَ هو الّذي قادَهم إلى حتْفِهم، فلا ساكنين ولا مُترَفين، وأنَّ التّرفَ الّذي يُنَحّي صاحبَه عنِ العبادةِ الحقَّة، بل يجعلُه فاسدًا في الأرض، قائدٌ إلى الغضب والعذابِ.

سرُّ تقديمِ اتِّخاذِ القُصورِ على نحْتِ البيوتِ:

التَّرقّي في ذكْرِ الأسهلِ فالأصعبِ منَ العملِ

قُدِّمَ اتّخاذُ القصورِ على نحتِ البيوتِ في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾؛ لأنَّ اتّخاذَ القصورِ في السّهول أسهلُ من نحتِ البيوتِ في الجبال، كما أنَّ تحصيلَ السُّكنَى في الجبال بالقوّة والسَّبقِ، وليس كذلك اتّخاذُ القصورِ في سُهولِ الأرضِ، ففي الكلام معنى التّرقّي في الإنعامِ عليهم؛ ممّا يوجبُ زيادةً في ذكرِ آلاء اللّه وشُكرِها.

سرُّ تعريفِ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ بـ(أل):

عِظمُ الجبالِ يُناسبُه الاستقلالُ وسهولةُ السُّهول تحسُنُ معها الإضافةُ

لم يقُل: (وتنحتون من جبالها بيوتًا)، كما قال في شأن القصور وإنّما قال ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾؛ لأنَّ الجبلَ قطعةٌ عظيمةٌ ناتئةٌ من سهلِ الأرضِ، ولِعظَمِ الجبال وعِظَمِ خلْقِها لم تردْ مضافةً إلى الأرض، فذكرَ اللّهُ تعالى أنّه خلقَها وجعلَها في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ [الرّعد: 3]، وجاءتِ الجبالُ مقابلةً لذكرِ الأرضِ، كما في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾ [المزمل: 14]، فلمّا ذكرَها بالتَّعريفِ بأل أعطاها فخامةً وجلالًا لم يكنْ لو أُضيفتْ إلى الأرضِ، فناسبَ إضافةَ السُّهول إلى الأرض لسُهولتِها، كما أنَّ الجبالَ استقلَّت لعظيمِ حالِها ووُعورةِ مَسلكِها.

بديعُ الطِّباقِ بين الجبالِ والسُّهولِ:

ذكرَ السُّهولَ والجبالَ على وجهِ الطِّباقِ؛ لأنَّ الجبالَ ضدُّ السُّهولِ، فذكرَ ما أنعمَ عليهم في السُّهول، وما أنعمَ عليهم في ما

يقابلُها وهي الجبالُ؛ للإشعارِ بنِعمةِ الجمعِ بين الشّيءِ ومقابلِه، بأن جعلَ منازلَهم قسمَيْن: قسمٌ صالحٌ للبناء فيه، وقسمٌ صالحٌ لنحتِ البيوتِ[1].

فـنُّ الـطِّـبـاقِ اسـتـكـمـالٌ لـلـمـتـقـابـلات وتـتـمـيـمٌ للتَّقسيمات

سِرُّ استعمالِ لفظِ (البيوت) دونَ المنازلِ:

لمّا كان البيتُ اسمًا لمسقفٍ واحدٍ له دهليزٌ، وكان الأصلُ في البيتِ أن يكونَ موضعَ المبيتِ ليلًا ذكرَ ﴿بُيُوتًاۖ﴾ دون (منازلَ)؛ إشعارًا بنِعمةِ الإيواء في الجبالِ والأمانِ فيها، كما أفادَ التّعبيرُ عُمرانَ البيوتِ، وأنّها كانت جاهزةً للمبيتِ في وقتِ الخطابِ،؛ لأنَّ البيتَ ليسَ ببيتٍ بعدما يُهدَمُ[2]، وأيضًا في استعمالِ لفظِ ﴿بُيُوتًاۖ﴾ تناسقٌ في اللّفظ مع ﴿قُصُورًا﴾.

تناسُبُ الألفاظِ وتناسُقُ المعاني مَلحظٌ بديعٌ في النَّظْمِ القرآني

دلالةُ تنكيرِ ﴿بُيُوتًاۖ﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿بُيُوتًاۖ﴾ تعظيمَ البيوتِ الّتي نحتوها منَ الجبال؛ إشعارًا بقوَّتها وثباتِها وفخامتِها؛ لارتفاعِها وعُلوِّها، فهي في الجبالِ.

في تنكير (بيوتا) إيماءٌ إلى قوَّتِها وإشعارٌ بمتانتِها

توجيهُ المتُشابِهِ اللّفظيِّ:

جاء في هذهِ السّورةِ قولُه تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾، وفي سورةِ الحِجر والشُّعراء قال: ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الحجر: 82] و[الشّعراء: 149]، بـ ﴿مِنَ﴾ قبلَ ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾، وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، وذلك لأنَّ في الأعرافِ تَقدَّمه قولُه: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، فاكتَفَى بذلك[3]؛ أي: أنّه لمّا قال: ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ اكتفَى بإيرادِ حرفِ ﴿مِن﴾ عن إعادتِه، وهو توجيهٌ لفظيٌّ، والأوجهُ أنَّ ما جاءَ في الأعراف بحذفِ (مِن) للمبالغةِ، و﴿مِنَ﴾ في الحِجرِ والشّعراء دلَّت على البيانِ، بدليلِ هذه الآية، فذكرُ حرفِ (مِن) وحذفُه في الموضعين يدلُّ على معنًى واحدٍ، لكنْ في الأعرافِ حُذِفَ للمبالغةِ، وفي الحِجرِ والشّعراءِ للبيانِ.

حُـذِفَ حـرفُ (مِـن) للمبالغةِ فـي تـصـويـرِ نـحـتِ الـجـبـالِ واستحضارِ قوّةِ ثمودَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

(2) المناويّ، التّوقيف على مهمات التّعاريف: 1/86، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 239.

(3) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 124.

تقديمُ النّعمةِ العُظمَى على بقيَّةِ النِّعَمِ دعوةٌ للشُّكْرِ وتثبيتٌ للامتنانِ

بلاغةُ الإطنابِ في عطْفِ العامِّ على الخاصِّ بالفاءِ:

في قوله تعالى ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ أفادتِ الفاءُ العطفَ والسَّببيَّةَ، فعَطفتِ العامَّ على الخاصِّ؛ أي: عطفتِ الأمرَ بذكرِ آلاءِ اللّهِ الكثيرةِ المتنوّعةِ في قولِه: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ على الأمرِ بذكرِ النِّعمتينِ العظيمتَينِ اللَّتينِ خصّهمُ اللّهُ بهما؛ لأنَّه أمَرَهم بِذِكرِ نِعمتَين، ثمَّ أمَرَهم بِذِكرِ جَميعِ النِّعمِ الّتي لا يُحصونَها؛ فكان هذا بمنزلةِ التَّذييلِ، وأفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّةِ في بيانِ أنَّ النّعمتينِ المذكورتينِ سببٌ في ذكرِ آلاءِ اللّهِ الكثيرةِ وشُكرِه عليها، وسببٌ في تركِ الإفسادِ في الأرضِ واجتنابِه، ففي العطفِ زيادةُ تقريرٍ للأمرِ بذكرِ نعمِ اللّهِ وتعميمٌ بعدَ تخصيصٍ[1].

تذكُّرُ آلاءِ اللهِ يبعثُ على ذكرِ الشُّكرِ والطّاعةِ وتركِ الفسادِ

بلاغةُ الإيجازِ في استعمالِ الفعْلِ ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾:

يحتملُ أن يكونَ الفعلُ ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ مأخوذًا منَ الذِّكرِ بكسرِ الذّالِ، وحُذِفَ مُتعلِّقُ الفعلِ لإفادةِ العمومِ، والمعنى: اذكروا آلاءَ اللّهِ بينكم وفي قلوبكم، ففيه الأمرُ بالتّذكّرِ، وهذا منَ الإيجازِ البليغِ.

ويحتملُ أن يكونَ مأخوذًا منَ الذُّكرِ بضمِّ الذّالِ، فيكونَ بمعنى التّذكُّرِ بالعقلِ والنَّظرِ النَّفسانيِّ، وتذكُّرُ الآلاءِ يبعثُ على الشُّكرِ والطّاعةِ وتركِ الفسادِ، فلذلكَ عطف نهيَهم عنِ الفسادِ في الأرضِ على الأمرِ بذكرِ آلاءِ اللّهِ، والوجهُ الأوّلُ هو الأولى، وعليه ظاهرُ قولِ المفسّرين[2]، والأمرُ بذكرِ آلاءِ اللّهِ يُقصَدُ به فائدةُ الخبرِ، وهو مدلولُ منطوقِ الجملة ولازمِ الفائدةِ، وهو المحافظةُ عليها بشُكرِها والقيامِ بموجبِها بعبادةِ اللّهِ تعالى وحدَه، فهو المنعِمُ بها[3].

الآلاءُ: هي النِّعمُ العظيمةُ الظّاهرةُ والباطنةُ المتواليةُ على العبادِ

نُكتةُ اختيارِ لفظ ﴿ءَالَآءَ﴾ دونَ (نِعم):

جاء التَّعبيرُ بقولِه تعالى ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، دونَ أن يقولَ: (نِعَمَ اللّهِ)؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/271.

(3) البروسويّ، روح البيان: 3/191، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/379.

لأنَ الآلاءَ جمعُ الأُلى، وهي النِّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها، وتكون من عظائمِ النّعمِ؛ للإشعارِ بتوالي نعمِ اللّهِ العظيمةِ السّابغة عليهم.

كذلك يدلُّ التّعبيرُ بالآلاءِ على النّعمِ العظيمةِ ظاهرًا أو باطنًا، والّتي فيها عِظةٌ تستحقُّ شكرَ المنعِم.

فائدةُ جمعِ لفظ ﴿ءَالَآءَ﴾:

الجمعُ إشارةٌ لكثرةِ النِّعم، وذكرُها عبادةٌ مشكورةٌ

تفيدُ صيغةُ الجمعِ ﴿ءَالَآءَ﴾ التَّكثيرَ؛ لمناسبةِ سياقِ الامتنانِ، بمعنى: قد ذكرتُ لكم بعضَ ما آتاكم اللّهُ منَ النِّعم، وذكرُ الكلِّ طويلٌ، فاذكروا أنتم نعمَه تعالى[1]، فما تقدَّم من ذكرِ النِّعمتين على سبيل التَّمثيلِ، لا الاستقصاءِ، فإنَّ نعمَه تعالى لا تُعدُّ ولا تُحصَى.

فائدةُ الإضافة في ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾:

الآلاءُ من اللهِ وحدَه، فهو المستحقُّ للعبادةِ والشّكرِ وحدَه

أفادَتْ إضافةُ ﴿ءَالَآءَ﴾ إلى لفظ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ التَّخصيصَ وبيانَ مصدرِها، بمعنى: أنَّ الآلاءَ منَ اللّهِ تعالى، وليستْ من غيرِه، كما أفادتِ الإضافةُ إلى اللّه تعالى تشريفَها وتعظيمَها والتّذكيرَ بوجوبِ شُكرِ اللّهِ المنعِم بها على عبادِه.

وفي الإضافةِ إلى اللّه تعالى تنبيهٌ إلى مقامِ الألوهيّةِ المقتضي التّخويفَ من عصيانِ رسولِه.

مُناسبةُ عطْفِ جملة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ على ما قبلها:

الحَذرُ مِن استبدالِ الكُفرِ بالشُّكرِ

تقدّم أنَّ الفاءَ أفادتِ السَّببيَّةَ في قولِه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ بمعنى: أنَّ ذكرَ النّعمتين سببٌ في الامتثالِ، وعطَفَ طلبَ النَّهيِ عنِ الإفسادِ في الأرض على طلبِ الأمرِ بذكرِ آلاءِ اللّه؛ لأنَّ حقَّ آلائه تعالى أن تُشكَرَ ولا تُهملَ ولا يُغْفَل عنها، فكيف بالكفرِ والعثوِّ في الأرض بالفساد؟! وفي عطْفِ نَهيِهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، على الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللّهِ؛ تقريرٌ لمعنى السّببيّة الّذي أفادته؛ ليُرشِدَ إلى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

أنَّ تذَكُّرَ الآلاءِ يَبعَثُ على الشُّكرِ والطّاعةِ، وتَركِ الفَسادِ[1]، فيكونَ عطفُ هذه الجملةِ على السّابقةِ من بابِ التَّحذيرِ بعد إنشاءِ الأمرِ بذكْرِ النِّعم الّتي تدعو للشُّكرِ لا الكفرِ.

دَلالةُ النّهيِ في جملة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾:

الإفساد درجاتٌ، وكلُّه مَنهيٌّ عنه

أفاد النّهيُ أنّهم كانوا مُفسدين في الأرض، فلم يَنهَ عن أمرٍ يُتوقَّعُ حصولُه، بل هو طلبُ باجتنابِ ما هو واقعٌ، ودلَّ عليه مجيءُ الحالِ في قولِه: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾، وأفادَ التّعبيرُ النّهيَ عن جميع أنواعِ الفسادِ، وأنّ إفسادَهم كان درجاتٍ، فمنه الأشدُّ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ دونَ (تُفسدوا):

العُثوُّ هو الإسراعُ في الفسادِ والغُلوِّ فيه

عُبِّرَ بلفظِ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾؛ لما فيه من معنى الإسراعِ في الإفساد والغُلوّ فيه، فالعَيثُ أشدُّ الفسادِ وأسرعُه، كما أنَّ في اللّفظِ معنَى الإسرافِ والتَّبذيرِ مع الإفسادِ[2]، وهذا يدلُّ على أنَّ القومَ كان عندَهم فسادٌ شديدٌ، فجاء النَّهيُ عن ذلك، تنبيهًا على أنَّ المُطاولةَ فيه تُؤدّي إلى نزول العذابِ المبين.

نُكتةُ تقديمِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الحال ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

الأرضُ وُضِعتْ لإعمارِها لا لإفسادِها

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور على الحالِ الاهتمامَ والرّعايةَ بالأرضِ؛ لتذكيرِهم بأنَّ الأرضَ وُضِعَت لإعمارِها لا لِإفسادها، ففي التّقديم توبيخٌ لهم على عُتوِّهم في الأرضِ، وإفسادِهم فيها.

دلالةُ استعمالِ ﴿فِي﴾ مع لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعيينُ مكانِ الإفسادِ زيادةٌ في التَّوبيخِ

أفادَ ذكرُ حرفِ الجرّ - مع أنّه يجبُ ذكرُه لسلامةِ تأليفِ الكلامِ ونظْمِه - تعيينَ مكانِ إفسادِهم زيادةً في توبيخِهم وتقريعِهم.

الحالُ ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ بين التّأكيدِ والتّأسيسِ:

تحتملُ هذهِ الحالُ أن تكونَ مؤكِّدةً، بمعنى: تؤكِّدُ مدلولَ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/221.

(2) رضا، تفسير المنار: 8/447.

والمعنى: لا تفسدوا أشدَّ الإفسادِ في الأرض حال كونِكم مُفسدين، كما تحتملُ أن تكونَ مؤسِّسَةً وهو الظّاهرُ، فإنَّ العثيَّ، وإنْ غلبَ في الفسادِ، ولكنْ قد يكون منه ما ليس بفسادٍ، كمقابلة الظّالمِ المعتدي بفعْلِه، فتُفيدُ الحالُ المقيّدةُ حينئذٍ ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ تخليصَ العثيِّ لمعنى الإفسادِ، وتقريرَ معنى النّهي عنِ الإفساد والغُلوِّ فيه كذلك، والمعنى لا تعتدوا حالَ إفسادِكم، كما أنَّ الحالَ هنا مُشعِرةٌ بالتّعليل لبيانِ سببِ النّهي؛ والمعنى: ولا تعتدوا في هذه النِّعم، وتتصرَّفوا فيها تصرُّفَ عَثيانٍ بمخالفةِ ما يُرضي اللّه فيها؛ لأنّكم مُتَّصفون بالإفساد ثابتونَ عليه(1).

التّأكيدُ أفادَ بيانَ قصْدِ المُفسِد، والتَّأسيسُ أفادَ الاحتراسَ عن مقابلةِ الظّلم

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

بوَّأَكُم وأسكنكُم وأَنزَلَكُم:

الفرقُ بين الأفعال (بوّأكم) و(أسكنَكم) و(أنزلَكم) هو أنَّ (بوَّأكم) منَ البواءِ الّذي يدلُّ على الرّجوعِ إلى مكانِ إقامةِ القوم بعد تِجوالِهم، ويكونُ المكانُ فيه معنى القوّةِ والتّمكّنِ والأمانِ، وأن يكونَ مكافئًا له ليُرجَعَ إليه في المبيتِ، وأمّا (أسكنَكم) فهو منَ السُّكون، فيُقال: سَكنَ الشّيءُ يَسكُنُ سكوناً إذا ذهبَت حركتُه، وسَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا؛ أي: استوطنَه، واسمُ المكانِ مَسكَنٌ، والجمع مَساكِنُ، والسُّكْنُ: أن تُسكِنَ إنساناً مَنزِلًا بلا مقابلٍ، وسَكَنَ بالمَكانِ أقام، ففي السّكنِ معنى الإقامةِ والاستقرارِ والهدوءِ بعدَ حركةٍ أو اضطراب، وأمّا (أنزلَكم) فإنّه لمّا كانَ النُّزولُ في الأصل هو انحطاطٌ من عُلوٍّ كان أنزلَكم بمعنى: أن يحلَّكم في موضعِ حطِّ الرّحلِ والمتاعِ، ففيه معنى الحلولِ مِن عُلوٍّ إلى سُفلٍ(2).

يُلحظُ في (بوَّأ) معنى الرُّجوعِ بعد التَّجوّلِ، والسُّكونُ فيه معنى الهدوءِ بعدَ الحركة، والإنزالُ يكونُ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ ففيه معنَى الاستقرار

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/83، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/448.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ)، (سكن)، (نزل).

القصورُ والبيوتُ:

القصرُ: المسكن الشّامخ، والبيتُ: مكانُ الإيواءِ والسُّكنَى

القصرُ هو المَسكنُ المبنيُّ بالحجارة المجعولُ طِباقًا، بحيث يُضمُّ بعضُه إلى بعضٍ في ارتفاعٍ، ويكونُ واسعًا عظيمًا مُحصَّنًا بالحيطانِ، ويكونُ بناؤُه من حجرٍ، سُمّي بذلك في الأصلِ؛ لأنَّه تقصرُ فيه الحُرَمُ وتُحبسُ فيه، أو لاحتوائه على مقصوراتٍ، وأمّا البيتُ فهو مأوى الإنسانِ باللّيل؛ لأنّه يُقال: باتَ: أقامَ باللّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنّهار، ثمّ قد يُقالُ للمسكن بيتٌ من غير اعتبار اللّيل فيه، والبيتُ عندَ العربِ هو ما يُعرَفُ عندنا بالحُجرةِ، ولأنَّ الكعبةَ شَرَّفها اللّه تعالى على صورةِ الحُجرةِ سمّيَتْ بيتًا[1].

العُتوّ والإفسادُ:

الفسادُ هو عمومُ التَّغيير للأسوأِ، والعُتُوُّ هو شدّةُ الفسادِ وكثرته

الفرقُ بينهما أنَّ الفسادَ هو التّغييرُ عنِ المقدارِ الّذي تدعو إليه الحكمةُ، فهو نقيضُ الصّلاحِ الّذي هو الاستقامةُ على ما تدعو إليه الحكمةُ، فما قصُرَ عنِ المقدار أو أفرطَ كان فسادًا، فهو تغييرُ ما من شأنِه أن يكونَ صالحًا، والفسادُ يكونُ في الأفعال والأقوال، فيَقعُ على الابتداعِ وفعلِ المُنكراتِ وغيرِها، وأمّا العثوُّ فهو كثرةُ الإفساد وأشدُّه، وأصلُه من قولك: (ضبعٌ عَثواءُ) إذا كثرَ الشَّعرُ على وجهِها، وكذلك إذا كَثُرَ الشّعرُ على وجهِ الرَّجلِ، و(عاثَ يعيثُ) لُغةً، و(عثا يعثو) أفصحُ اللُّغتين، فالعيثُ الإفسادُ لا الفسادُ، ومنه عاثَ الذِّئبُ في الغنم إذا أفسد، ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، ولم يأتِ في القرآن منَ التّركيب إلّا هذه العبارةُ خمسَ مرّاتٍ، وهذا يؤكّدُ التّلازمَ بين العُتوّ والفساد[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بيت) و(قصر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/286.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 213، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 598، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عثو).

الآلاءُ والنِّعمُ:

النِّعمُ عمومُ الخيرِ الذي يُصيبُ الإنسانَ، والآلاءُ النِّعمُ العظيمةُ المتتابِعةُ

الآلاءُ هي النّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها، من قولك: وليَه يليه إذا قَرُب منه، فالآلاءُ هي النّعمُ العظيمةُ الكثيرةُ المتتاليةُ الّتي ينتفعُ منها جنسُ العقلاء، وتكونُ واضحةً ظاهرةً لا يمكنُ إنكارُها، وواحدُ الآلاء: إِلْيٌ بالكسر، وكدَلْو، ورَحَى ومِعَى، وأمّا النّعمة فهي الحالةُ الحسنةُ، وتُطلَقُ على التّرفُّهِ والمالِ وطيبِ العيشِ، والنِّعَمُ قد تكونُ صغيرةً أو كبيرةً، وظاهرةً أو خفيَّةً، والنَّعماءُ بإزاءِ الضَّرّاءِ، والإنعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغيرِ، ولا يُقال إلّا إذا كان الموصَلُ إليه من جِنسِ العقلاء، فإنّه لا يُقال أنعَمَ فلانٌ على فَرَسِه[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 194، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (إلي)، (نعم).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ [الأعراف: 75 - 76]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تـوجُّـهُ المـلإِ إلى مُـحـاورةِ أتـبـاعِ الأنبياءِ والدُّعاةِ دليلُ إفلاسِهم

لمّا أمرَ صالحٌ قومَه بعبادةِ اللّهِ وحدَه، وبذكرِ آلاءِ اللّهِ، ونهاهم عنِ الإفسادِ في الأرضِ، عدلَ الملأُ عن مجادلةِ صالحٍ عليه السلام إلى اختبارِ تصلُّبِ الّذين آمنوا به في إيمانِهم، ومحاولةِ إلقاءِ الشَّكِّ في نفوسِهم، ولمّا كانَ خطابُهم للمؤمنين مقصودًا به إفسادُ دعوةِ صالحٍ عليه السلام كان خطابُهم بمنزلةِ المحاورةِ مع صالحٍ عليه السلام، فلذلكَ فُصِلَت جملةُ حكايةِ قولِهم على طريقةِ فصْلِ جُملِ حكايةِ المحاوَراتِ، ثمَّ ذكرَ جوابَ الّذين استكبروا للّذينَ استُضعِفوا إيذانًا بتصلُّبِ الّذين استكبروا على كُفرِهم وثباتِهم فيه(1).

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: الجماعةُ الّذين يجتمعون على رأيٍ، فيملَؤون العيونَ رَواءً ومنظرًا، والنّفوسَ بهاءً وجلالًا، والملأُ الرّؤساءُ، سُمّوا بذلك؛ لأنَّهم مِلاءٌ بما يُحتاجُ إليه، ويُقال: فلانٌ مِلءُ العيونِ؛ أي: مُعظَّمٌ عندَ مَن رآه، كأنَّه ملأ عينَه ونفسَه من رؤيته، ويحتملُ أن يكونَ من أنَّهم إذا تمالَؤوا على أمرٍ تمَّ، والمِلْءُ مقدارُ ما يأخذُه الإناءُ الممتلئُ، ومالأْتُه: عاونتُه وصرتُ من ملئِه؛ أي: جمعِه، والملأُ صفةٌ غالبةٌ، وجمعُه أملاءٌ، وذهبَ بعضُ اللّغويّين إلى أنَّ الملأ همُ القومُ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

الرِّجالِ ليس فيهم امرأةٌ، والملأُ هنا هم كبارُ القومِ وقادةُ الرّأيِ فيهم الأحقُّ بأن يُعابَ موقفُهم(1).

2) ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: الكِبرُ يدلُّ على خلافِ الصِّغرِ، والكِبْرُ: مُعظمُ الأمرِ، وكبُرَ الشّيءُ إذا عظُمَ، وأكبرتُه استعظمتُه، ويُقالُ للملوكِ والرّؤساءِ ووُجهاءِ القومِ: الأكابرُ، والكِبْرُ، والتَّكبُّرُ، والاستِكبارُ تتقاربُ، فالكبرُ الحالةُ الّتي يتخصّصُ بها الإنسانُ من إعجابِه بنفسِه وتعاظُمِه على غيرِه، وذلك أن يَرى الإنسانُ نفسَه أكبرَ من غيرِه، وأعظمُ التّكبُّرِ التّكبُّرُ على اللهِ بالامتناعِ من قبولِ الحقِّ والإذعانِ له بالعبادةِ معاندةً وأنَفةً(2)، وهو المرادُ في الآيةِ.

3) ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾: الضَّعفُ خلافُ القوّةِ، وقد يكونُ في النّفسِ، وفي البدنِ، وفي الحالِ، وقال الخليلُ رحمه الله: الضُّعفُ بالضّمّ في البَدنِ، والضَّعفُ بالفتحِ في العقلِ والرّأيِ، وأجازَ بعضُ اللُّغويّين الصّيغَتين معًا في كلِّ وَجهٍ، وضَعُفَ عَنِ الشَّيءِ: عَجَزَ عَنِ احتمالِه، واستَضعَفَه: وَجَدَهُ ضَعيفًا أو جعلهُ ضعيفًا، فيُقالُ: استَضعَفتُه لِلَّذي يَتَضعَّفُه النّاسُ، ويجعلونَه ضعيفًا، ويَتَجبَّرون عليه في الدُّنيا لِلفقرِ ورَثاثَةِ الحالِ(3)، والاستضعافُ في الآيةِ هو استضعافُ المؤمنين بسببِ فقرِهم وقلَّةِ حيلتِهم، ويُراد منه ازدراءُ المستكبِرين للمُستضعَفين.

المعنى الإجْماليُّ:

مـحـاورةُ المُستكبِرين للمُستضعَفين لا تنتهي إلّا بما يَهواه المستكبِرون

تُبيِّن الآيةُ حِوارًا حصلَ بين الملأِ المُستكبِرين والمُستضعَفين؛ فقال السّادةُ والوجهاءُ من قوم صالحٍ الّذين استكبروا عنِ الإيمان باللهِ واتّباعِ صالحٍ عليه السلام لأهلِ المسكنةِ منَ المؤمنين به منهم: أتعلمونَ أنّ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملأ)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/415، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (ضعف).

صالحًا أرسله اللّه إلينا وإليكم؟ قال الّذين آمنوا من أهلِ المسكنة: إنّا بما أرسلَ اللّهُ به صالحًا مُصدِّقون مُقرّون، قال الّذين استكبروا عن أمرِ اللّه وأمرِ رسولِه صالحٍ: إنّا بالّذي صدَّقتم به من نبوّة صالحٍ، وأنَّ الّذي جاء به حقٌّ من عندِ اللّه جاحدون مُنكرون[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ قراءة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ بإثبات الواو وحذفها:

القـراءةُ بحذفِ الـواوِ استئنافٌ بيانيٌّ، وبذكرِها نسقٌ على الكلامِ السّابق

قرأ ابنُ عامرٍ وحدَه في هذا المَوضع: (وَقالَ المَلَأُ) بإثباتِ الواو، وهي محذوفةٌ عندَ جميعِ القرّاء[2]، وبيانُ المعنى على القراءتَين؛ أنَّه على القراءةِ المشهورةِ بحذف الواو يكونُ الكلامُ إمّا اكتفاءً بالرَّبطِ المعنويِّ[3]، وإمّا على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ[4]، وبيانُه أنَّه لمّا أمرَ رسولُ اللّهِ صالحٌ قومَه بعبادة اللّه وحدَه، وجاءَهم بالنّاقة آيةً على رسالته تشوّفَتْ نفوسُ المُخاطَبين لمعرفة ما أجابَه قومُه، فعدلوا عن جوابِ صالح عليه السلام إلى سؤالِ المُستضعفين منَ المؤمنين؛ لتَشكيكِهم في إيمانِهم، ولمّا كانَت محاورتُهم للمُستضعَفين بمنزلة إفسادِهم لدعوةِ صالح عليه السلام، وردًّا عليه، ناسبَ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ في مقام جوابِهم لصالحٍ عليه السلام، وعلى قراءةِ ابنِ عامرٍ بالواو، من بابِ العطفِ نسَقًا لهذه الجملةِ على ما قبلَها[5]؛ أي: قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 73] ليكونَ إخبارًا بما قاله الملأُ بعدَ إخبارِ ما قالَه صالحٌ عليه السلام لقومِه.

دلالةُ وصف الملإ بالاسْمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أفادَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الذّمَّ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ الملأَ الكافرينَ كلَّهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/543.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/270.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/365.
(4) ابو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/365.

كانوا مُستكبِرين، بما دلَّت عليه الصِّلةُ مِن أنَّ استكبارَهم كانَ معلومًا مشهورًا بين قومِه، ومِن أنَّهم استوجبوا الذَّمَّ بسببِه؛ لتفظيعِ استكبارِهم وتعاظُمِهم على عامَّة قومِهم واستذلالِهم إيّاهم، ولمّا كانَ الكِبرُ يقابَلُ به الضَّعفُ أشعرَ التّعبيرُ بالنّعتِ أنَّ الّذين آمنوا بما جاءَهم به صالحٌ عليه السلام هم ضعفاءُ قومِه، كما يحتملُ النّعتُ أن يكونَ للتّخصيص، فيكونَ من نعتِ المعرفةِ المخَصِّص، فيفيدَ أنَّ مِنَ الملأِ مَن آمنَ ومنهم مَن استكبرَ[1].

الكبرُ يزيدُ من بشاعةِ الكُفرِ وقُبحِ الإنكارِ

من ناحية أخرى، فإنَّ اختيار طريقِ الموصوليَّةِ في وصفِهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ ووصفِ الآخرين بـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ لما تومئُ إليه الصِّلةُ من وجهِ صدورِ هذا الكلام منهم، بمعنى: أنَّ استكبارَهم هو الّذي صرفَهم عن طاعةِ نبيِّهم، وأنَّ احتقارَهم المؤمنينَ هو الّذي لم يُسِغْ عندهم سبقَهم إيّاهم إلى الخيرِ والهدى[2].

علّةُ كُفرِ ثمودَ الكِبرُ

نُكتةُ التّعبيرِ بالاستكبارِ لا الكُفرِ:

عُبِّرَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾، ولم يقُل: (الّذين كفروا) لنُكتتَين: إحداهما بيانُ سببِ كفرِهم وسُؤالِهم المؤمنين المُستضعَفين سؤالَ الاستهزاءِ والسّخرية الّذي لا يصدرُ إلّا عنِ المُستكبِرين في قولِهم: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، والثّانيةُ لحسنِ التّقابلِ لقولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾.

إذا استحوذَ الكِبْرُ على الملأِ أهلكَهم ومَن تحتَهم

دلالةُ صيغةِ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

يحتملُ أن تكونَ الهمزةُ والسّينُ والتّاءُ للطَّلبِ، والمعنى: طلبوا الهيبةَ لأنفسِهم، وهو الظّاهرُ، أو يكونَ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ بمعنى: كبُروا؛ أي: كبَّرهم كثرةُ المالِ والجاهِ وأعظمَهم، فيكونَ على هذا كبُرَ واستكبرَ بمعنًى، مثل: عجِبَ واستعْجَبَ[3].

إذا اقترنَ المالُ والجاهُ بالفسادِ القلبيِّ ولَّدَ الاستكبارَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

مَن استكبرَ عن الحقِّ استكبرَ عن كلِّ شيءٍ

حُذفَ مُتعلَّقُ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ لإفادةِ العمومِ؛ للإشعارِ باستغراقِهم في الاستكبارِ، والمعنى: استكبروا عنِ الإيمانِ باللّه، وعن عبادتِه، وعنِ الإيمانِ بأنَّ صالحًا مُرسَلٌ من ربِّه، وعنِ اتّباعِه، وعنِ الإيمانِ بمعجزةِ النّاقةِ وغيرِها ممّا جاءَ به صالحٌ ﷺ، فمَن استكبرَ عنِ الإيمانِ باللّه ورسولِه استغرقَه الاستكبارُ، فأفادَ حذفُ المُتعلَّقِ العمومَ والإيجازَ، وقد قدّرَ بعضُ المفسّرين مُتعلَّقَ الفعلِ لبيانِ المعنى وإيضاحِه[1].

معنَى اللّامِ في قولِه ﴿لِلَّذِينَ﴾ وأثرُها الدّلاليُّ:

تأثيرُ القولِ في النّاسِ حالَ حضورِهم أقوَى

اللّامُ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ﴾ لتعديةِ فعلِ القولِ، وهي لامُ التَّبليغِ؛ للإشعارِ بأنَّ الّذين استُضعِفوا كانوا سامعينَ قولَ الّذين استكبروا، وكانوا حاضرين معهم؛ فإنَّ تأثيرَ القولِ في النّاسِ حالَ الحضورِ أقوَى[2].

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ للمفعولِ:

الاستضعافُ وصفُ ذمٍّ للفاعلِ لا للمفعولِ

لمّا جاءَ اللّفظُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ دلَّ على وجودِ المقابلِ الّذي استُضعِفَ، وهمُ الّذين استكبروا الّذين كانوا يستضعفونَهم ويستحقرونَهم، فالاستضعافُ ليس فعلًا صادرًا عنهم بل عن غيرِهم، فهو لا يكونُ صفةَ ذمٍّ في حقِّهم، بلِ الذّمُّ عائدٌ إلى الّذين يستحقرونَهم ويستضعفونَهم، والمعنى: للّذين استضعفَهم رؤساءُ الكفّارِ واستذلّوهم، والقصدُ منَ التّعبيرِ بصيغةِ المبنيّ للمفعولِ تحقيرُ الفاعلِ؛ للإشعارِ بأنّه لا يستحقُّ أن يُذكرَ في مقامِ فعلِ الاستضعافِ والاستحقارِ، كما دلَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/542، والواحديّ، الوسيط: 2/381، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/21.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، وابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/223.

على أنَّ المؤمنين ليسوا ضعفاءَ في حقيقةِ الأمرِ، وأنَّ استضعافَهم لم يكن وصْفًا دائمًا لهم[1].

توجيهُ إعرابِ البَدلِ في ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾:

المؤمنون هم المُستضعَفون على البدلِ الكلّيِّ، أو بعضُهم على البدلِ الجزئيّ

جاء قولُه تعالى: ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ بدلًا ممّا قبلَه لتمام الإيضاحِ والبيانِ في المرادِ منَ الّذين استُضعِفوا، ويحتملُ: ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم﴾ أن يكونَ بدلَ الكُلِّ منَ الاسم الموصولِ (الّذين)، إن كان ضميرُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ يعودُ إلى ﴿قَوۡمِهِۦ﴾؛ أي: لِمَن آمنَ من قومِه، ويدلُّ أنَّ استضعافَهم كان مقصوراً على المؤمنين، وكانَ الَّذينَ استُضعِفوا قِسمًا واحِدًا، ويحتملُ أن يكونَ بدلَ البعضِ، إن كان الضّميرُ يعودُ إلى الاسم الموصولِ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾، فلم يكنِ الاستضعافُ مقصوراً عليهم، ودلّ أنَّ المُستضعَفين كانوا مؤمنين وكافرين، والأوَّلُ هو الوجهُ، إذ لا داعيَ إلى توجيه الخطابِ أوّلاً إلى جميع المُستضعَفين مع أنَّ المجاوبةَ مع المؤمنين منهم، كما أنَّ تكريرَ الجارِّ يومِئُ إلى شدّةِ الاتِّصال وتمامِه، على أنَّ الاستضعافَ مُختصٌّ بالمؤمنين[2].

فائدةُ الطِّباقِ بين الاستكبار والاستضعاف:

استضعافُ الآخرين مسلكُ الجبابرةِ لبلوغِ غايةِ الاستكبارِ

بين ذكرِ المُستكبِرين والمُستضعَفين طباقٌ؛ فالكِبْرُ ضدُّ الضّعف، والطِّباقُ من وجوه تحسينِ الكلامِ البليغِ، وفائدتُه في هذه الآيةِ: تأكيدُ صيغة المبنيّ للمفعولِ من أنّ المرادَ بالمُستضعَفين المُستضعَفونَ مِن وِجهةِ نظرِ المُستكبِرين، لا أنّهم كذلك على الحقيقةِ، والمعنى: استضعفوهم واستذلّوهم[3]، ولمّا أطلقَ الاستكبارَ والاستضْعافَ، ولم

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/275.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/20، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/20، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

يقيّدْه، أفاد الإطلاقُ استكبارَ الملأ مِن كلّ الوجوهِ على سبيلِ الذّمِّ للملأ، واستضعافَهم المؤمنين، واستذلالَهم لهم مِن كلِّ الوجوهِ.

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَتَعۡلَمُونَ﴾:

الحربُ النَّفسيَّةُ من أدواتِ المُستكبِرين في مجابهةِ أهلِ الحقِّ

جاءَ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ على طريق الاستفهامِ المجازيِّ الإنكاريِّ، ليُفيدَ سُخريةَ الملأِ الّذين استكبروا منَ الّذين استُضعِفوا واستهزاءَهم واستخفافَهم بهم، كما يفيدُ تهكّمَهم برسالةِ صالح عليه السلام.

وأجازَ رشيدُ رضا أن يكونَ الاستفهامُ حقيقيًّا، ووَجّهُه أنّهم سألوهم عنِ العلم بأنَّه مُرسَلٌ؛ لارتيابِهم في اتِّباعِهم إيّاه عن علم بُرهانيٍّ، وتجويزِهم أن يكونَ اتّباعُهم لصالحٍ عن استحسانٍ ما، وتفضيلٍ له عليهم، واختيارٍ لرياستِه على رياستِهم[1]. والأقربُ أن يكونَ الاستفهامُ مجازيًّا؛ للإنكارِ على الّذين استُضعِفوا في إيمانِهم؛ لتشكيكِهم فيما آمنوا به، لئلّا يصدِّقوا صالحًا ويتّبعوه، ويدلُّ عليه إصرارُهم على تكذيب صالحٍ بعدَ إقرارِ المُستضعَفين بإيمانِهم به.

فائدةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ في جملة ﴿أَتَعۡلَمُونَ﴾:

الجمعُ بين التّشكيكِ في الحقِّ والسُّخريّةِ في الحوارِ منهجُ المُستكبِرين

لّما وقعَ الاستفهامُ الإنكاريُّ على لفظ العلم في قولِه: ﴿أَتَعۡلَمُونَ﴾؛ دلَّ على أنّ الملأ الّذين استكبروا قصدوا تشكيكَ الّذين استُضعِفوا في إيمانِهم مع سُخريَّتِهم واستهزائِهم بهم؛ لدلالة الإنكارِ على نفي العلم[2]، فهم جمعوا بين الاستهزاءِ النَّفسيِّ، والتَّشكيكِ في المعلوم منَ الحقِّ، وهذه فائدةٌ عزيزةٌ في بيانِ خطورةِ حوارِ المُستكبرين، فهم ليسوا أهلَ علم ليتجرّدوا للعلم وحدَه، ولا سفهاءَ ليسخروا فحسبُ، بل جمعوا بين السُّخرية والتَّشكيك، وهذا من أشدِّ أنواعِ الحوارِ خطورةً على المؤمنين.

(1) رضا، تفسير المنار: 8/449.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/384، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

نُكتةُ تأكيدِ الجملة الاسميّةِ:

الاستهزاءُ بالعُقولِ تابعٌ لاستضعافِ الشَّخصيّات

جاءَ الكلامُ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ صَٰلِحًا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بصيغة الجملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ ﴿أَنَّ﴾ في سياق الاستفهامِ الإنكاريِّ؛ بهدفِ إشعارِ الّذين استكبروا الّذين استُضعِفوا أنَّ الإيمانَ بصالحٍ عليه السلام يحتاجُ إلى تثبُّتٍ وتأكيدٍ وتقريرٍ؛ ليكونَ طريقًا إلى تشكيك الّذين آمنوا، ويوحي هذا التَّأكيدُ برائحةِ الاستهزاءِ بالعقولِ، بعدَ استضعافِ الشَّخصيّات، وهو ما يُرشِّحُ معنى الإنكارِ الاستهزائيِّ في الاستفهامِ.

نِكاتُ استعمالِ ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ دون (رسولٌ):

تكشفُ الألفاظُ عن خفايا النُّفوسِ وأخلاقِ الرِّجال

آثرَ النَّظمُ التّعبيرَ بصيغة المبنيّ للمفعول ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ دونَ (رسول)؛ لمجموعةٍ منَ النِّكات:

الأولى: تشكيكُ المُستضعَفين في رسالةِ صالحٍ عليه السلام.

الثّانية: الكشفُ عمّا في طوايا نفوسِهم من كراهة إثباتِ الرِّسالة لصالحٍ عليه السلام، إذ إنَّ لفظَ (رسول) أثبتُ دلالةً من ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ لما فيه من معنى الاسميّة، وهو أثبتُ المشتقّاتِ، و(مُرسَل) اسمُ مفعول منَ الفعل (أُرسِل)، ففيه حدوثٌ[1].

الثّالثة: الإشعارُ بأنَّ صالحًا عليه السلام أقلُّ من أن يكونَ مُرسَلًا، فما بالكم أن يكونَ رسولًا قد استقرَّ أمرُ الرِّسالةِ فيه!

الرّابعة: دلالةُ اسمِ المفعولِ على أوَّليَّةِ الإرسالِ، بخلافِ (رسول) فهو يدلُّ على رسوخه.

الخامسة: الاستهزاءُ بصالحٍ عليه السلام، وتعظيمُ أن يكونَ اللّهُ تعالى قد أرسلَه إليهم.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/387.

نُكتةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّهِۦ﴾:

اتِّهامُ نبيِّ اللهِ باختراعِ الرِّسالةِ واختلاقِ النُّبوَّة

أفادَت إضافةُ (ربّ) إلى الضَّميرِ العائدِ على صالحٍ عليه السلام التّخصيصَ، فكأنَّ المضافَ مُختصٌّ بصالِحٍ، فلَم يَقولوا: (مِن رَبِّنا) ولا (مِن رَبِّكُم)؛ لعنادِهم وعُتوِّهم في الكفر بسببِ استكبارِهم[1]، ولجعلِ صالحٍ عليه السلام مُنفرِدًا فيما ادَّعاه، فكأنَّهم قالوا: إنّ ربَّه الّذي أرسلَه قد يكونُ مِن اختراعِ فكرِه، وأباطيلِ وهمِه!

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في جملة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا﴾:

كَسرُ المُتوقَّعِ تُحقِّقُه قوَّةُ الإيمانِ وتُعزِّزُه الثِّقةُ بالمُرسلين

لمّا سألَ الّذين استكبروا الّذين استُضعِفوا: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟! تشوّفَ السّامعُ إلى معرفةِ جوابِ المُستضعَفين الّذين يغلبُ في العادة أنْ لا يخالفوا الّذين استكبروا، فجاءَ الجوابُ جملة استئنافيّةً ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ كسرًا للمُتوقَّعِ وإثباتًا لعُلوِّ الدّين في نفوسِ المُستضعَفين؛ بإعلانِ إيمانِهم، ورفعِ صوتِهم في وَجهِ الاستكبارِ.

نُكتةُ العدولِ بالحديث عن الإيمان بدل الإرسال:

الاستضعافُ لا يعني جهلَ المُستَضعَفِ، بل يعني حماقةَ المُستَضعِفِ

سألَ الملأُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ المُستضعَفينَ عن علمِهم برسالة صالحٍ عليه السلام لا عن إيمانهم به، فلمّا أجابوهم عن إيمانِهم به في قولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ كان الجوابُ على خلاف مُقتضَى الظّاهر، فعدلوا به عنِ الجوابِ الموافقِ للظّاهرِ الّذي هو نَعم، إلى الجوابِ البليغِ السَّويِّ الموافقِ لمُقتضى الحالِ لمقاصدَ متنوّعةٍ هي[2]:

أوّلًا: التّنبيهُ على أنَّ إرسالَه أظهرُ من أن يشُكَّ فيه عاقلٌ، ويَخفى على ذوي رأيٍ، فهو مكشوفٌ مسلَّمٌ لوضوحِه وبيانِه، حيث أوردوه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/482، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/95، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.

صِلةً للموصول الّتي تكونُ جملةً معلومةَ الانتسابِ عند المُخاطَبين، والمعنى: لا كلامَ في إرسالِه، وإنّما الكلامُ في وجوب الإيمانِ به، فنخبرُكم أنّا به مؤمنون.

ثانيًا: الإيذانُ بمسارعتِهم إلى تحقيق الحقِّ، وإلى إظهارِ ما لهُم منَ الإيمانِ الثّابتِ المستمرِّ الّذي تُنبِئُ عنه الجملةُ الاسميّةُ.

ثالثًا: إرشادُ الّذين استكبروا إلى أنَّ أمرَ إرسالِه منَ الظّهورِ بحيثُ لا ينبغي أن يُسألَ عنه، وإنّما الحقيقُ بالسّؤال عنه هو الإيمانُ به.

رابعًا: لمّا أثبتوا إيمانَهم بما أُرسِلَ به صالحٌ ﵇ استلزمَ علمَهم بالأمرِ؛ أي: إنّهم علموا بذلك علمًا يقينيًّا إذعانيًّا له السّلطانُ على عقولهم وقلوبهم، إذ آمنوا به إيمانًا صادقًا كاملًا، فالإيمانُ يستلزمُ العلمَ واليقينَ، والمعنى: أنّهم لمّا سألوهم عن علمِهم به أجابوهم بما يقتضي العلمَ والإيمانَ؛ أي: كأنّهم قالوا: بل علمنا أنّه مُرسَل من ربّه، وإنّا بما أُرسِل به مؤمنون، فتَضمَّنَ كَلامُهُمُ العِلمَ بأنَّهُ مُرسَلٌ مِنَ اللهِ تعالى، فطويَ المهمُّ، وذُكِرَ الأهمُّ، وهو منَ الإيجازِ البليغِ؛ لدلالة المذكور على المحذوف[(1)].

خامسًا: لمّا تلقّى المؤمنون الكافرينَ بغير ما كانوا يترقّبونه منَ الجوابِ، فيحتملُ أن يكونَ منَ الأسلوب الحكيمِ، إنْ كان من قولهم المحكيِّ، إذ سألوهم عن صحّةِ الرِّسالةِ فأجابوهم بما هو أولَى، وهو الإيمانُ بها، واستبعدَه ابنُ عاشور؛ لأنَّ هذه الجملةَ من حكايةِ القرآنِ لا منَ المحكيّ من كلامهم، إذ لا يُظَنُّ أنَّ كلامَهم بلغَ منَ البلاغةِ هذا المبلغَ[(2)].

سادسًا: في التّعبيرِ دلالةٌ على أنَّ مَن مُكِّنَ له منَ العلم بأسبابٍ جُعلَتْ له يصلُ بها إلى العلم، لم يُعذَرْ بجهلِه في ذلك بعدما أُعطيَ أسبابَ العلم[(3)].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

(2) البروسويّ، روح البيان: 3/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/482.

تأكيدُ الإيمانِ بوحْيِ الله تعالى

فائدةُ التّوكيد بـ (إنَّ) في جملة ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ﴾:

أفادَت (إنَّ) تأكيدَ إيمانِهم بما أُرسِلَ به صالحٌ عليه السلام وتقريرَه؛ لإزالة ما توهَّموه من شكِّ الّذين استكبروا في صحَّة إيمانهم(1).

استضعافُ المُستكبرين لا يعني ضَعفَ إيمانِ المُستضعَفين

العُدولِ عن الجواب بالفعليَّةِ إلى الاسميّة:

لمّا كانَ سؤالُ المُستكبرين بالجملةِ الفعليّةِ: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ كان الظّاهرُ أن يكونَ الجوابُ بالجملةِ الفعليّةِ أيضًا، ولكنَّ الّذين استُضعفوا عدلوا إلى الجواب بالجملة الاسميّة: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإيمانَ مُتمكِّنٌ منهم بمزيدِ الثّباتِ، فلم يَتركوا للّذين استكبروا مَطمَعًا في تشكيكِهم، بله صرفَهم عنِ الإيمانِ برسولِهم(2).

تركُ الجوابِ البليغِ إلى الأبلغ فصاحةٌ صادرةٌ عن إيمانٍ

براعةُ الجوابِ في ذكرِ الدَّليلِ على الإيمانِ:

أشعرَ مجيءُ الصّلةِ في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أنَّ سببَ إيمانِهم بما أُرسِلَ به؛ هو أنّهم آمنوا بأنّه مُرسَلٌ من ربّه لدلالة ﴿أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾، فلمّا آمنوا بِه آمنوا بجميعِ ما أُرسِل به، وهذا جوابٌ أبلغُ ممّا طلبه المُستكبِرون، فهم سألوا عن علمهم بأنَّ صالحًا مُرسَلٌ من ربِّه، فأجابوا عن ذلك بذكر الدَّليلِ، وهو الإيمانُ بما أُرسِل به، ولمّا كانت جملةُ الصِّلة معلومةَ الانتسابِ بين المُتخاطِبينَ دلَّ أنَّ الّذين استكبروا كانوا يعلمونَ إيمانَ المُستضعَفين قبلَ أن يسألوهم، وأنّهم إنّما سألوهم استهزاءً وسخريَّةً، لا ليسمعوا جوابَهم، الّذي كسرَ توقّعَهم.

تعظيمُ شأنِ الرِّسالةِ والرَّسولِ

نُكتةُ تقديمِ ﴿بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾ على الخبر ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾:

قُدِّم معمولُ ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾؛ فلم يقُل: (إنّا مؤمنون بما أُرسِل به)؛ لتخصيصِ إيمانِهم بما أُرسِل به صالحٌ عليه السلام، وللاهتمامِ به، تعظيمًا لشأنِ الرّسالةِ وما أُرسِلَ به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

دلالةُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ بأداةِ (ما):

الإيمانُ بعمومِ الرِّسالةِ يُلائِمُه استعمالُ أداةِ العموم

عُبِّر بأداة (ما) الموصوليّةِ الّتي هي أعمُّ منَ (الّذي)؛ للإيذانِ بإيمانِهم بعموم ما أُرسِلَ به وتصديقِهم له، كما أنَّ الصِّلةَ تضمَّنَت إدماجًا بتصديقِهم بكلِّ ما جاءَ به صالحٌ من نحوِ التَّوحيدِ وإثباتِ البعثِ.

دلالة المبنيّ للمفعول في الفعل ﴿أُرۡسِلَ﴾:

مناسبةُ الجوابِ للجوابِ إسكاتٌ لأفواهِ الخراب

لمّا كان سؤالُ الملأ الّذين استكبروا بصيغةِ اسمِ المفعول في قولِهم: ﴿مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ ناسبَ أن يكونَ جوابُهم بصيغة الفعل المبنيّ للمفعول في قوله: ﴿أُرۡسِلَ﴾، وللإشارةِ إلى الإيمانِ بالمُرسِلِ سبحانه، دون النَّصِّ على ذكرِه، فلم يقولوا: (إنّا بما أُرسِلَ به من ربِّه)؛ كما سيأتي.

نُكتةُ حذف قيْدِ ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ في قول المُستضعَفين:

طَـيُّ الـلَّـفـظِ لإخمادِ مقاصدِ الباطلِ

لمّا كان قولُ المُستكبرين ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ عنادًا وعتوًّا في كفرِهم كما تقدَّم[1]، لم يذكرْه المُستضعَفونَ، ولم يتابعوهم على قولِهم، مع أنَّ الّذي يقتضيه ظاهرُ الأمرِ النَّصُّ عليه؛ وذلك للإشعارِ بقُبحِ قصدِ المُستكبرينَ وسوءِ سريرتِهم، فدلَّ طويُ اللَّفظِ على طوي قصدِ المُستكبرين، ففيه دلالةٌ على أنَّ المؤمنينَ حاوروا المُستكبرين بعلمٍ متينٍ، وأسلوبٍ حكيم.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعل ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾:

تحدّي المؤمنين للمستكبرين من آثارِ الإيمانِ الرّاسخِ

جاءَ التَّعبيرُ عن إيمانِ المؤمنين بصيغة اسمِ الفاعل ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ المؤمنين أرادوا إثباتَ أنَّهم على الإيمانِ بقوَّةٍ وجدارةٍ، وأنَّ إيمانَهم نابعٌ من أفعالِهم القلبيّةِ والسّلوكيّةِ، لا مجرَّدَ إيمانٍ عابرٍ، وفي ذلك تحدٍّ صارخٌ للمُستكبرين في التَّشكيكِ في علمهم الصّادرِ عن إيمانهم.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

دلالةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾:

الإشعارُ بملازمةِ الكبرِ لأصحابِه المعاندين

كان مُقتضَى الظّاهر أن يعبَّرَ بالضّمير، فأُعيد الموصولُ مع صلتِه إيذاناً بأنّهم قد قالوا ما قالوه بطريقِ العتوِّ والاستكبارِ، وأنَّ استكبارَهم هو الّذي منعَهم منَ الانقيادِ إلى الحقِّ، وجعلَهم مُتمسّكين بكفرِهم ثابتين عليه[1]، ولبيانِ أنَّ استكبارَهم بقيَ مُلازمًا لهم بعد جوابِ المُستضعفين، وأنَّهم في مبدأِ الحِوارِ وأثنائه مُستكبرون.

دلالةُ التّأكيدِ:

ثباتُ الكُفرِ دليلُ رسوخِ الإيمانِ

أفادَ إيرادُ كلمةِ التّحقيقِ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ في قوله: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تحقُّقَ ثباتِهم على الكفرِ، وأنّهم قالوه عن عقيدةٍ ثابتةٍ تامَّةٍ، وصدقِ رغبةٍ؛ للتّشكيكِ في إيمانِ المُستضعَفينَ[2].

سِرُّ استعمالِ (الّذي) دون (ما):

يصدُرُ الجوابُ عنِ العلمِ والأخلاقِ، والنَّظمُ يُصدِّقُ ذلك أو يُكذِّبُه

تقدَّم جوابُ المؤمنين بأداة (ما) الدّالّةِ على العموم في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، لكنَّ النَّظمَ عدلَ عنِ التزامِ استعمالِ (ما)، وآثرَ استعمالَ الاسمِ الموصولِ الصَّريحِ، فقال: ﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وذلك لِبيانِ أنَّهم كفروا بشيءٍ معلوم لديهم، وأمّا جوابُ المؤمنين فهو يستوعبُ ما هو أعمُّ من ذلك بكثيرٍ، فأشعرَ النَّظمُ أنَّ كلًّا أجابَ بحدِّ علمِه، ومَرمَى فكرِه، ومدى تصوّرِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالموصول وصِلتِه:

استكبارُ الكافرين عن أن يكونوا مع المُستضعَفين في صفٍّ واحدٍ

في قوله تعالى ﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أشعرَ التّعبيرُ بصلة الموصولِ أنَّ سببَ كفرهم بصالحٍ ﷺ تركّبَ من أمرين بعدَ إيمانِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.

(2) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

الّذين استُضعفوا، الأوّلُ: هو استكبارهم عنِ الإيمانِ، والثّاني: هو استكبارهم عن أن يكونوا مع المُستضعَفين في صفٍّ واحدٍ، فحملتِ الأنفةُ رؤساءَ القومِ على مناقضةِ المؤمنين في مقالتِهم، واستمرّوا على كفرهم(1).

العدول عن مادّة (الإرسال) إلى لفظ (الإيمان):

ظهورُ معالمِ التّحدّي الشّخصيِّ في جوابِ المُستكبرين

كان جوابُ الكفرة ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على طريقِ المقابلةِ لقول الّذين استُضعفوا، وهذه المقابلةُ تقتضي أن يقولَ (أُرسِلَ به) دون ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، فعُدِلَ بالكلامِ عن مُقتضَى الظّاهر، فوُضِعَ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ من حيث المعنى مَوضِع ﴿أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾؛ لِما في لفظِ المقابلة ﴿أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾ من إثبات رسالته، وهم يجحدونها، فبالغوا في التّحرُّز حذرًا منَ النُّطقِ بثبوت الرّسالةِ؛ مبالغةً في عُتوِّهم وغيِّهم، وليكونَ الرَّدُّ باللَّفظِ المذكور: ﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أعَمَّ، فقَصَدوا الرَّدَّ على جميع ما آمنَ به المُستضعَفونَ، لَمّا جَعَلَهُ المُؤمِنونَ أمرًا مَعلومًا وأخَذوهُ مُسَلَّمًا.

ولبيانِ وجهِ استكبارِهم في التَّعاملِ مع المؤمنين، فهم يرونَ أنفسَهم أرفعَ من أن يُؤمِنوا بإيمانِ المُستضعَفين.

فنُّ الطِّباقِ بين لفظَيِ الإيمانِ والكفرِ:

المستكبرُ يُخالف لنَيلِ المكرماتِ وما هو بنائلِها

كما أنَّ التّعبيرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فيه إظهارٌ لمخالفتِهم للّذين استُضعفوا، بما يُشعر به لفظُ ﴿ءَامَنتُم﴾ و﴿كَٰفِرُونَ﴾ من معنى الطّباقِ(2)، أي: على جهة الضِّديَّة، فإنَّ مقتضى الاستكبار مخالفةُ الضّعفاءِ، فهم أرادوا مناوأتَهم ومخالفَتهم، ظنًّا منهم أنَّهم بذلك ينالون مزيَّةً ويُحرزون فضيلةً، أو يتخلَّصون من رذيلةٍ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/95، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/453.

اتّفاقُ صيغ المقابلةِ دليلُ المجابهةِ

علَّةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعلِ: ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغة اسم الفاعل ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ قولَهم صدرَ عنهم على وجهِ التَّحدّي في مجابَهةِ قولِ المؤمنين: ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾، فأتى كلامُهم تصدّيًا ومناكفةً ومجابهةً.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: 77]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانـتـقـالُ من دائرةِ الأقوالِ إلى الأفـعـالِ مزلقُ المُستكبرين

لمّا بالغوا في الباطل وعتَوا في قولِهم، حتّى قال الّذين استكبروا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أعقبَه ذكرُ فعلِه؛ أي: قالوا ذلك، فعقروا النّاقةَ؛ للإشعارِ بأنّهم قد صدعوا بالكفرِ قولًا، وتسبَّبَ عنه اعتداؤُهم على النّاقة فعلًا؛ نكايةً بصالحٍ عليه السلام وإغاظةً له[1]، فالمناسبةُ بين الآية وما قبلَها بيانُ الانتقالِ من دائرةِ الأقوالِ إلى دائرة الأفعالِ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَقَرُواْ﴾: عُقْرُ الحوضِ والدّارِ أصلُها، ومنه قيلَ: العَقارُ، وهو المَنزِلُ، والأرضُ، والضّياعُ. وعَقَرتُ النّخل: قطعتُه من أصله، ثمَّ أصبحَ يُطلَقُ على القطعِ منَ الأصلِ، فقيل: امرأةٌ عاقرٌ؛ أي: لا تلدُ، كأنّها تعقرُ ماءَ الفحل. والعُقارُ بالضّمِّ: الخمرُ؛ لكونها تعقرُ العقلَ مجازًا. والعقاقيرُ: أخلاطُ الأدويةِ؛ لأنَّها تعقرُ المرضَ من أصله. وعَقَرتُ البعيرَ: نحرتُه، والعَقرُ لا يكونُ إلّا في القوائم، يُقال عَقَره، إذا قطعَ قائِمَةً من قوائمه، يُفعلُ ذلكَ به كَيلا يَشرُدَ عِندَ النَّحْر. والعَقرُ عِندَ العَرَبِ كَشفُ عرقوبِ البَعير، ثمَّ جُعِل النَّحرُ عقراً؛ لأنّ العَقرَ سببٌ لنحره، وناحِرُ البَعيرِ يَعقِرُه، ثمَّ ينحرُه[2].

2) ﴿وَعَتَوۡاْ﴾: العُتُوُّ: هو بلوغُ غايةِ الشّدَّةِ في الأمرِ، وعتى الشَّيخُ يَعتو عِتيًّا بلغَ الغايةَ في السّنِّ والكِبرِ؛ أي: أَسَنَّ وَكَبِرَ فهو عاتٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/224.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عقر).

والعتوُّ: بلوغُ غايةِ الشِّدَّةِ في النّبوّ عنِ الطّاعة، ومجاوزةُ الحدِّ في التّجبُّر والتّكبُّر. والعاتي: الشَّديدُ الدُّخولِ في الفساد، المُتَمَرِّدُ الَّذي لا يقبلُ موعِظَةً، و﴿وَعَتَوۡاْ﴾ في الآية بمعنى: تكبَّروا وَتجبَّروا بشدَّةٍ بحيث لا يَقبلون موعظةً[1].

3) ﴿أَمۡرِ﴾: الأمرُ: الشّأنُ أو الحالُ، يُقالُ أمرٌ مُستَقيمٌ، وجمعُه أُمورٌ، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، والأمرُ بمعنى: الطّلب، جمعُه أوامرُ[2]، والمرادُ في الآية هو طلبُ الفعل على وجه اللُّزوم، فهو مفردُ أوامر لا أمور، وأمرُ اللّه هو أمرُهم أن لا يقربوا النّاقةَ بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الأذى.

4) ﴿تَعِدُنَآ﴾: وَعَدَ يكونُ في الخير والشّرّ، ويُعَدَّى بنَفسِهِ وبالباءِ، فَيُقالُ: وَعَدَهُ الخيرَ، وبالخيرِ، وشَرًّا، وبالشَّرِّ، وقَد أسقَطوا لَفظَ الخيرِ والشَّرِّ، وقالوا في الخيرِ وَعَدَهُ وَعدًا وَعِدَةً، وفي الشَّرِّ وَعَدَهُ وَعيدًا وأوعدَه، والخُلْفُ في الوَعدِ كَذِبٌ، وفي الوَعيدِ كَرَمٌ، الوَعدُ حَقُّ العِبادِ على اللّه تعالى، وَمَن أَوْلَى بالوَفاءِ مِنَ اللّه تعالى، والوَعيدُ حَقُّ اللّه تعالى، فإِنْ عَفا فَقَد أولَى الكَرَمَ، وإِنْ واخَذَ فبالذَّنبِ[3]، وطلبُهم الوعدَ أي العذاب، فجاء على سبيل الخصومةِ والتَّحدّي والمنازعة.

المعنى الإجْماليُّ:

يبلغُ الجاهلُ بفعلِه مبلغَ حَتْفِه

فعقرَت ثمودُ النّاقةَ الّتي جعلَها اللّهُ لهم آيةً، وتكبَّروا وتجبَّروا عنِ امتثالِ أمرِ ربِّهم، وقالوا على سبيل الاستهزاءِ والعنادِ والتَّحدّي واستبعادِ العذابِ: يا صالحُ ائتنا بما تتوعّدُنا من عذابِ اللّهِ ونِقمتِه، إنْ كنتَ منَ المرسلين من عندِ اللّهِ تعالى[4].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عتو - عتا)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 332.

(2) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (أمر).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (وعد).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 10/301، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 160.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الفاءِ ودلالتُها في الفعل ﴿فَعَقَرُواْ﴾:

الكُفرُ يَدفعُ إلى ارتـكـابِ أعـظـمِ الكبائرِ

الفاءُ للتّعقيبِ؛ أي: أعقبَ قولَ الّذين استكبروا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ عقرُهم النّاقة، والتّقديرُ: قالوا ذلك فعقروا، والتّعقيبُ في كلِّ شيءٍ بحسبه؛ أي: لمّا صدعوا بالتّكذيب عقروا ناقةَ اللّهِ الّتي كانَت لهم آيةً، فأشعرَ التّعقيبُ أنّهم بادروا إلى الفعلِ المهولِ الجسيم عقبَ إظهارِ الكُفرِ بالقولِ[1]، وهو يومئُ إلى طبيعةِ شخصيّاتِهم العنيدةِ المتجبِّرةِ الّتي لا تحتملُ المخالفةَ، فأتَوا على أعظم ما عندَهم، وهو سببُ أمنِهم وأمانِهم، فأهلكوا أنفسَهم بإهلاكه.

جملة ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ بين المجازِ والكناية:

ذكـرُ تفاصيل قتلِ النّاقةِ منَ العَقْرِ إلى النَّحْرِ تبشيعٌ للجُرمِ وتقبيحٌ لفاعِله

لمّا كانَ العقرُ سببًا للنّحر ومقدِّمةً من مقدِّماته عند العرب، أُطلقَ على النَّحرِ من بابِ إطلاقِ السَّببِ على المسبَّبِ، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا، ويحتملُ أن يكونَ كنايةً؛ لأنّهم كانوا يعقرون البعيرَ المرادَ نحرُه بقطعِ عُضوٍ منه حتّى لا يستطيعَ الهروبَ عند النَّحرِ، فيكونَ العقرُ كنايةً عن نحرِه[2]، ومعنَيا المجازِ المُرسَلِ والكنايةِ متآيلان في النَّتيجةِ، ونُكتةُ استعمالِ العقرِ دون النَّحرِ تصويرُ شناعةِ فعلِهم بتفاصيلِه، ابتداءً منَ العَقرِ المصرَّحِ بِه، إلى النَّحرِ المفهومِ من لفظِ العقرِ والسّياقِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ (العقْر):

مفارقةُ العقْرِ للنّحْرِ في المعنى

عُبِّرَ بلفظ ﴿فَعَقَرُواْ﴾ دونَ (نحروا)؛ لأنَّ النَّحرَ يُستعمَلُ غالبًا في الانتفاعِ بالمنحور لحمًا وجلدًا وغيرَهما، فلعلَّ التَّعبيرَ به دونَ النّحرِ إشارةٌ إلى أنَّهم لم يقصدوا بنحرِها إلّا إهلاكَها عُتوًّا على اللّه وعِنادًا، وفعلًا للسّوء مخالفةً لنَهي صالحٍ عليه السلام[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/225.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/448.

الرِّضا بالكُفرِ قولًا لفظيًّا أو قلبيًّا بمنزلةِ القيامِ به

دلالة المجازِ العقليّ في إسنادِ العقْرِ إلى الجماعة:

أُسنِدَ العقرُ إلى القوم جميعِهم في قولِه: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾، والّذي قامَ بعقرِها شخصٌ أو اثنان، وأُسنِدَ العقرُ إلى واحدٍ في مَواضعَ أخرى في القرآن الكريم، كما في قولِه تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾ [القمر: 29]، وذلك فيمَن تولّى جرحَها ومنعَها عن السَّير ونحرَها[1]، فلا يُتصوَّرُ اجتماعُ القبيلةِ في مكانٍ واحدٍ والقيام بذلك؛ وغرضُ المجاز العقليِّ بيانُ أنَّ العقرَ كان بمشورتِهم ومعونتِهم ورضاهُم جميعًا، وإنْ لم يباشره إلّا بعضُهم، ودليلُ رِضاهُم أنَّ العذابَ أحاطَ بالجميعِ ممَّن كفرَ، بدليل قولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: 8].

وقد أُسندَ العقرُ هنا إلى جميعِ القومِ؛ للإشعارِ بأنَّ عقرَها عن تمالُئٍ واتِّفاقٍ منهم جميعًا، وعن رضاهم كلِّهم، وأُسنِدَ العقرُ إلى الواحدِ في مَواضِعَ أخرى في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾ [القمر: 29]، وذلك فيمَن تولّى جرحَها ومنعَها عنِ السَّير ونحرَها[2]، وقد يُقالُ للقبيلةِ الضّخمةِ: أنتم فعلتم كذا، وما فعلَه إلّا واحدٌ منهم، فلمّا كانَ العقرُ على تمالئٍ منهم وإصفاقٍ ورضًى من كبرائِهم أسندَه إليهم جميعًا؛ تهويلًا لِلأمرِ، وتفظيعًا له، بحيث أصابَت غائلتُه الكلَّ[3].

التّعرّضُ لحرماتِ الله أمرٌ مَشينٌ لا يُقدِمُ عليه إلّا لَعينٌ

دلالةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾:

أفادَت (أل) هنا العهدَ الذِّكريَّ؛ ليعودَ لفظُ ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾ إلى النّاقة الّتي ذُكِرَت في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، بكلِّ ما تعلَّقَ بها من أوصافِ التّشريفِ والتَّعظيم وكونِها آيةً، ومنَ الأمر بتركِها، والنّهيِ

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.

عن مسِّها بسوءٍ في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]؛ والمعنى: عقروا عينَ النّاقة المذكورةِ بأوصافِها؛ تهويلًا لقُبحِ فعلِهم، وتوبيخًا لهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بفعل (العُتُوّ):

العُتوُّ نهايةُ التّمرّدِ مع العلمِ بالمخالفةِ

لمّا كان العتوُّ هو النّهايةَ في التّمرّدِ ومخالفةِ الأمرِ مع العلمِ بمخالفتِهم، والقصدِ إليها، وليس عن غفلةٍ وجهلٍ، عُبِّرَ به؛ للإيذانِ بأنّهم قد بلغوا النّهايةَ في نبوِّهم عنِ الطّاعة واستكبارِهم وتمرُّدهم، وبأنّهم جاوزوا المقدارَ المعروفَ من أهلِ الكفرِ والضّلالِ[1].

بلاغةُ التّضمينِ في تعديةِ الفعلِ ﴿وَعَتَوۡاْ﴾ بحرفِ ﴿عَنۡ﴾:

تضمينُ ﴿وَعَتَوۡاْ﴾ معنى الإعراضِ والاستكبارِ

لمّا كان الحرفُ ﴿عَنۡ﴾ يفيدُ في أصلِه معنى المجاوزة دلَّ على تضمين الفعلِ ﴿وَعَتَوۡاْ﴾ معنى: أعرضوا واستكبروا، على ما جاء في أوّل القصّةِ؛ للإشعارِ بأنَّ إعراضَهم واستكبارَهم ظلَّ مُلازمًا لهم بعد عقرِ النّاقة؛ والمعنى: تمرَّدوا مُستكبرين عنِ امتثال أمر ربِّهم[2].

معنى حرفِ ﴿عَنۡ﴾ بين المجاوزةِ والسّببيّةِ:

بلوغُ المستكبرِ غايةَ الحُمقِ يُوصِلُه إلى غايةِ المَحقِ

يحتمل حرفُ ﴿عَنۡ﴾ أن يكونَ لمعنى المجاوزة، والمعنى: تولّوا عن أمرِ ربِّهم، واستكبروا عنِ امتثاله عاتين؛ أي: عَتَوا مُتجاوزين أمرَ ربِّهم في عُتوِّهم، كما تحتملُ أن تكونَ سببيَّةً، والمعنى: وصدرَ عتوُّهم بسبب أمرِ ربِّهم، كأنَّ أمرَ ربِّهم بتركها كان هو السّببُ في عُتوّهم؛ للإشعارِ ببلوغِهم النّهايةَ في استكبارهم وكُفرِهم[3].

بلاغةُ استعمالِ المشتركِ اللّفظيِّ في لفظ (الأمر):

يُرادُ بالأمرِ: الدّينُ والتّكليفُ، وقد عتَتْ ثمودُ عن كِلَيهما

يحتملُ لفظُ الأمر في قولِه تعالى: ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أن يكونَ بمعنى الشّأنِ؛ أي: الّذي جمعُه أمورٌ، وتقديرُ الكلام: وعتَوا عن دين

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/449.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123.

ربِّهم؛ ليشملَ كلَّ ما أبلغهم به صالحُ ﵇ من أمور الإيمانِ، كما يحتملُ أن يكونَ بمعنى: ما أمرهم الله به؛ أي: الّذي جمعُه أوامرُ، وتقديرُ الكلام: وعتوْا عنِ امتثال أمرِ ربِّهم، وذلك الأمرُ هو الّذي أوصله الله إليهم على لسان صالحٍ ﵇ في قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [الأعراف: 73]، فيشملُ الأمرَ والنّهيَ؛ لأنَّ النَّهيَ عنِ الشَّيءِ مقصودٌ منه الأمرُ بفعلِ ضدِّه[1]، والمعنيانِ مُرادانِ، حيث إنَّهم عَتَوْا عن هذا الأمرِ؛ لأنَّهم عَتَوْا عن دينِ الله.

نُكتةُ التّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيّةِ ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

التّعجيبُ من عُتوِّ المستكبرين على ربّهم وهم منغمسون في إنعامه

جاءَ التَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دون لفظِ الجلالةِ (الله)؛ للإشعارِ بأنّهم عتَوا عن أمرِ مُدبِّر أحوالِهم والمُنعِم عليهم بنِعمٍ عظيمةٍ، ومنها ما خُصّوا به من سائرِ الأمم من اتّخاذهم القصورَ وبناءِ البيوتِ في الجبال، فلم يذكروا آلاءَ الله، فكانَ إعراضُهم عن أمر ربِّهم، واستكبارُهم من أقبحِ ما يكونُ، ففيه معنى التّعجيبِ من عُتوّهم.

بلاغةُ العطْفِ بين فعْلَيِ العقْرِ والعُتوّ:

تقديمُ العقرِ الخاصّ على العُتوّ العامِّ من قَبيل إبرازِ أقبحِ العُتوِّ

عُطِفَ فعلُ العُتوِّ على فعلِ العقرِ في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ﴾؛ للإشعارِ بجمعِهم بين قبيحَيْن، ولمّا كان العقرُ مَظهرًا خاصًّا لعتوّهم قُدِّمَ عليه؛ ليكونَ قولُه تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أبرزَ ما في العتوِّ، وهو من عطفِ العامِّ على الخاصّ، فالعتوّ لفظٌ عامٌّ يدخل فيه العقرُ، فابتدأ به باعتبارِه الفعلَ الأبرز من عُتوِّهم، ثم عطف عليه العُتوَّ العامَّ.

توجيهُ الفرق بين عطفِ العُتوِّ على العَقرِ، وعطفِ النَّدامةِ عليه:

ذُكرَ في هذه السّورةِ أنّ قومَ صالحٍ عتَوا عن أمرِ ربِّهم، وجاءَ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، والبروسويّ، روح البيان: 3/193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.

في سورة الشُّعراءِ قولُه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ [الشعراء: 157]، فذكر النَّدامةَ، وهي خلافُ العُتوِّ، فيُسألُ عن سببِ ذلك؟

عُتوُّ الكافرين صاحَبَ عقرَهم للنّاقةِ، وندمُهم حين رأَوْا بوادرَ العذابِ

والجوابُ: أنَّ الآيتينِ تكاملتا في بيانِ الحَدَثِ، فقولُه تعالى: ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ جاءَ معطوفًا بالواوِ، وهي تُفيد الجمعَ بين الفعلين مع احتمال المعيَّةِ برجحانٍ[1] كما يفيدُه السّياق؛ أي: كان عتوُّهم مصاحبًا لعقرِهم النّاقةَ، فعُطِفَ الفعلُ على الفعلِ؛ لبيانِ أنَّهم فعلوا العتوَّ كما فعلوا العقرَ، زيادةً في فظاعةِ ما فعلوه، بخلافِ آية الشُّعراءِ، فإنَّها جاءَت معطوفةً بالفاءِ؛ وذلك لبيانِ ترتُّبِ الحدثِ على الحدثِ، وأنَّه لم يتأخّرْ عنهم نزولُ العذابِ، فأصبحوا نادمين في صبيحةِ العقرِ؛ فكان الإخبارُ عنهم أنّهم عتَوا عن أمرِ ربِّهم قبل أن ينزلَ بهم العذابُ، ولمّا نزلَ بهم العذابُ، ورأوا بوادرَه، أخبرَ عنهم أنّهم أصبحوا نادمينَ[2]، وكلُّ سياقٍ ذُكِرَ فيه ما يناسبُ وحداتِه الدّلاليّةَ.

نُكتةُ نداء صالح بالأداة (يا) المخصّصة للبعيد:

عـادةُ الكافرينَ المستكبرين تهوينُ شأنِ المؤمنين

نادَتْ ثمودُ رسولَ اللّهِ صالحًا باسمِه، بأداة نداءِ البعيد (يا) ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ الموحيةِ بالصُّراخِ عليه، الدّالِّ على الاستهزاءِ والسُّخريّةِ؛ تهوينًا لشأنِه، وتعريضًا بما يظنّون من عجزِه، كما هي عادةُ المستكبرين، وليكونَ تمهيدًا لمجيءِ الأمرِ على معنَى التّعجيزِ[3].

دلالة التّعبيرِ بفعل الإتيان ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

ظنَّ المستكبرونَ أنّهم مُعاجزو المرسلينَ

عُبِّرَ بفعل الأمرِ ﴿ٱئۡتِنَا﴾ بطريق المجازِ على معنى تعجيزِ صالحٍ عليه السلام وإفحامِه على زعم الّذين استكبروا، ليكونَ قولُهم زيادةً في العتوِّ.

(1) ابن مالك، شرح التّسهيل: 3/347.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/453.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/450.

سِرُّ التّعبيرِ بأداةِ (ما) الموصوليَّةِ:

عنجهيّةُ ثمودَ أوقعتْهُم في التّحدّي العامِّ

جيءَ بالموصولِ بصيغةِ (ما) في قوله تعالى ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ الّتي هي أعمُّ منَ الّذي؛ للدّلالة على أنّهم لا يخشَون شيئًا ممّا يريدُه منَ الوعيدِ المجملِ، والمعنى: فأتِنا بأيِّ شيءٍ تعدُنا به[1]، وهذا في غايةِ الاستهتارِ والتَّكذيبِ وركوبِ متنِ الحماقةِ.

لفظ الوعد بينَ الاستعارةِ التّهكّميّةِ والحقيقةِ:

التّهكُّمُ سبيلُ المستكبرين في تكذيبِ المؤمنين

في جملة ﴿تَعِدُنَآ﴾ يحتملُ أن يكونَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التّهكّميَّةِ، وهو الظّاهرُ؛ إذْ جعلَ الّذين استكبروا ما أوعدَهم به صالحٌ عليه السلام منَ العذابِ وعدًا على سبيلِ التّهكّمِ؛ أي: نزّلوا وعيدَهم له حيث لم يؤمنوا به منزلةَ الوعد والبشارةِ، كمَن يتلذّذ بما يلقاه منَ الوعدِ الحسنِ استخفافًا بصالحٍ عليه السلام، واستبعادًا في وقوعِ العذابِ، ومبالغةً في التّكذيبِ، وإشارةً إلى عدمِ قدرتِه على فعلِ ما أوعدهمْ به، ويحتملُ أن يُقالَ: إنَّ الوعدَ يجري في العذابِ على الحقيقةِ؛ فحسُنَ استعمالُه هنا؛ لأنَّ لفظَ (وعدَ) عامٌّ يشملُ الخيرَ والشَّرَّ[2].

حذفُ قيدِ (منَ العذابِ) في جملة ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

مَنْ خافَ العذابَ حَذِرَ واحترزَ

حُذِفَ القيدُ من قولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، والتّقديرُ: ائْتِنا بِما تَعِدُنا منَ العذاب، فحذفَ مُتعلَّقَ ﴿تَعِدُنَآ﴾؛ لأنّه كان معلومًا ممّا تقدّمَ منَ السّياق، والغرضُ منِ استعجالِهم العذابَ من صالحٍ عليه السلام هو تكذيبُهم له فيما أوعدَهم به؛ لأنَّ مِن حقِّ مَن خافَ النّازلةَ حَذِرَ واحترزَ، فضلًا عن أن يستعجلَ نزولَها[3].

سرُّ استعمالِ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

في قوله تعالى ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، عُبِّرَ بحرفِ الشّرطِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/450.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.

الاستمرارُ في التّكذيبِ والطّمعُ في إغواءِ المستضعَفين

(إنْ) الدّالِّ على الشّكِّ في حصولِ الشّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنّهم فرضوا كونَ صالحٍ ﷺ منَ المرسلين كما يُفرضُ المحالُ، ولإغواءِ الّذين استُضعفوا بتصويرِ أنَّ المقامَ لا يصلحُ إلّا لفرضِ كونِه منَ المرسلين، ومرادُهم نفيُ رسالتِه عليه السلام[1].

فائدةُ جملة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

التّكذيبُ بالأصلِ هو تكذيبٌ بفروعِه

لمّا كان المرادُ بالمرسلين مَنْ صدقَ عليهم هذا اللّقبُ، فإنَّ كونَ صالحٍ من جملتِهم يستدعي صدقَ ما يقول منَ الوعدِ والوعيدِ، علّقوا استعجالَهم بما أوعدهم به على صدقِه في كونِه من جملةِ المرسلينَ من عندِ اللّه؛ للإشعارِ بتكذيبِهم له في الإخبارِ بذلك الوعيدِ وبغيرِه[2].

يسلكُ المستهزئُ بكلامِه مَسلكَ النّاسي لجواهرِ المعاني

من ناحيةٍ أخرى، تضمَّنَ الشّرطُ معنى التّأكيدِ بطريقِ التّكريرِ، وبيانُه على طريقةِ جمهورِ النّحاةِ أنّه حذفَ الشّرطَ من ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، وأبقى جوابَه، وحذفَ الجوابَ من ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وإنّما يقعُ الحذفُ بما دلَّ عليه السّياق، وتقديرُ الكلامِ: (إنْ كنتَ منَ المرسلينَ فائتِنا بما تعدُنا)، فجاءَ الكلامُ بطريقِ الإيجازِ المضمَّنِ معنى الإطنابِ؛ لإفادةِ الخبرِ الإنكاريِّ، وهو من بليغِ الكلامِ، لجمعِه بين إيجازِ اللّفظِ وإطنابِ المعنى، ونكتةُ هذا التّعبيرِ المؤكَّدِ الإشعارُ بأنّهم كانوا حاكمين بخلافِ ما قاله نبيُّ اللّه صالحٌ عليه السلام، وأنّهم كانوا مُنكِرينَ رسالتَه، ويعتقدون كذبَه فيما أُرسِلَ به، فقدَّموا معنى الجوابِ، وأخَّروا الشّرطَ؛ ليكونَ بمنزلةِ الأمرِ المتداركِ الشّبيهِ بالمنسيِّ، وهذا على حدِّ قولِ المُستهزئ بفقيرٍ: (ابن قصرًا.... إن كنت منَ الثّريّين)، فما بين الجملةِ الأولى: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾

---

(1) التّفتازانيّ، المُطوّل، ص: 321.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/124، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/96، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.

والثّانية: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تحتاجُ إلى تأمُّلٍ للمشهدِ حين قولِهم ما قالوا.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العقْرُ والنّحرُ والذَّبحُ:

العقرُ يُستعمَلُ في سياقِ الذّمِّ، والنَّحر أشملُ، والذَّبح يكون لقطْعِ حلقومِ قصيرِ الرّقبةِ

أصلُ العَقرِ ضَربُ قَوائِمِ البَعيرِ أو الشّاةِ بالسَّيفِ، وهو قائِمٌ، ويفعل ذلك به كَيلا يَشرُدَ عِندَ النَّحر، ثمَّ جُعِل النَّحرُ عقرًا؛ لأنّ العَقْرَ سببٌ لنحره، وناحِرُ البَعير يَعقِرُه ثمَّ ينحرُه، وصار العقرُ يُستعمَلُ للقتلِ والإهلاك، كما يأتي لفظُ العقرِ لقتلِ البعيرِ أو الشّاةِ من غيرِ مأكلَةٍ ويأتي لفظُ النّحرِ لمأكلَةٍ، ولم يُستعمَلْ لفظُ العقرِ في القرآنِ بمعنى القتل إلّا في مقامِ الذَّمِّ والتّوبيخِ، وأمّا النّحرُ فهو نحرُ الصَّدرِ أو أعلى الصّدر، ونَحره: أصاب نَحرَه، وهو مُختصٌّ بالإبلِ لطولِ رقبتِها، وقيلَ: يشملُ غيرَ الإبلِ أيضًا للبعير أو النّاقة، ويُستعمَلُ في الممدوح مثل: يومِ النّحر، وهو عاشِرُ ذي الحِجَّةِ يومُ الأضحى؛ لأنّ البُدْنَ تُنحرُ فيه، وورد في القرآن الأمرُ به؛ ليكونَ عبادةً للّه تعالى، قال تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ [الكوثر: 2]، وأمّا الذّبحُ فهو في الأصل شقُّ حلْقِ الحيوانات، وَهو مَوضِعُ الذّبحِ مِنَ الحلْقِ، والذَّبحُ في العُرف إنّما يَكونُ بالسِّكّينِ لا بالسّيف، كما أنَّ الذَّبحَ خاصٌّ بقصيرِ الرَّقبةِ كالغنمِ والبقرِ، قال تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات: 107]، وهو الكَبشُ الَّذي فُديَ به إسماعيلُ بنُ خَليلِ اللّه، وأمّا النَّحرُ فمُختصٌّ في الإبل، فالنَّحرُ أعمُّ وأشملُ منَ الذّبح، ولهذا عبَّر القرآنُ بالنَّحرِ عنِ الذَّبحِ[1].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذبح) و(عقر) و(نحر).

العُتوّ والاستكبار:

العُتوُّ هو بلوغُ غايةِ الشِّدَّةِ في النّبوِّ عنِ الطّاعة وفي التّمرّد، معَ مجاوزة الحدِّ في التّجبُّر والتّكبُّر، والعاتي هو الّذي لا يقبلُ موعِظَةً لشدّةِ تكبُّره وتمرُّده، وأمّا التّكبّر فهو إظهارُ الكِبَرِ؛ أي: إظهار رفعِ النّفسِ فوقَ الاستحقاق، فالمتكبِّرُ قد يتكبّرُ عن أمرٍ قد أمرَ به أو من غيرِ أمرٍ أصلًا، بأن يعظِّمَ شأنَ نفسِه بينَ النّاسِ، فالعاتي أخصُّ منَ المتكبِّر؛ لأنَّ كلَّ عاتٍ مُتكبِّرٌ، وليس كلُّ مُتكبِّرٍ عاتيًا[1].

التّكبُّر إظهارُ الكِبر في التَّرفع عنِ الآخرين، وأشدُّه العتوُّ لما فيه من التَّمردِ والطُّغيانِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عتو - عتا)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 247.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: 78 - 79]

مناسبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبْلَهُما:

لا تُعانِدْ مَن إذا قال فَعَل

لمّا عقرتْ ثمودُ النّاقةَ، وعتتْ عن أمرِ ربِّها، تسبَّبَ عن ذلك نزولُ العذاب بهم: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾[1]، فالمناسبةُ بين هاتين الآيتين وما قبلها بيانُ نتيجةِ التّكذيبِ والإصرارِ على الاستكبار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾: الرَّجفُ: الاضطرابُ الشَّديدُ للشَّيءِ من أصله، بحيث يكادُ ينقلعُ منه كالشَّجرِ يكادُ ينقلعُ، يُقال: رَجَفَتِ الأرضُ إذا تزلزلت؛ أي: تحرّكتْ حَرَكَةً شَديدَةً. ورَجَفَ البحر إذا اضطربَ، والرّجفةُ الزّلزلةُ الشّديدةُ، وهي الطّامَّةُ الّتي يتزعزعُ لها الإنسانُ ويضطربُ، وذهب بعضُ اللُّغويّينَ إلى أنَّ الرَّجفةَ هي الزَّلزَلَةُ الّتي يكونُ مَعها الخَسْف، والمرجفونَ هم الَّذين يولِّدون الأخبارَ الكاذِبة، الَّتي يكونُ مَعها اضطرابٌ في النّاس، والرَّجفَةُ في القُرآن: العَذابُ الّذي يَأْخُذُ القومَ بالزّلزلةِ الشَّديدةِ[2].

2) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: يدورُ معنى (جثم) على تجمّعِ الشّيءِ وسكونه، فالجثمانُ شخصُ الإنسان، والجاثمُ البارِكُ على رِجلَيه وركبتيه كما يبركُ البعيرُ، بحيث يلتصقُ بالأرضِ ويلزمُها فيكونُ ثابتًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجف)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 237.

جامدًا لا يتحرَّك، يُقال: جَثَم فلان بالأرضِ يَجثِمُ جُثوماً إذا لَصِق بها ولَزِمَها لا يبرح؛ أي: تلبَّدَ بالأرضِ، كما يَجثِمُ الطَّيرُ، فسُمّيَ كلُّ ملازمٍ للشّيءِ لا يبرحه جاثمًا، والأصلُ في الجثوم أنَّه يُقالُ للنّاس والطير، وجاثمين؛ أي: أجسادًا مُلقاةً في الأرض، فبَركوا فيها صرعَى منَ الهلاك(1).

3) ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾: يدورُ معنى البلوغِ والبلاغِ على وصولِ الشَّيءِ إلى غايةٍ له: مكانٍ أو زمانٍ أو مَدًى مقصودٍ أو أمرٍ منَ الأمورِ المُقدَّرةِ، فإذا انتهى الأمرُ إلى أقصى المقصدِ فقد بلغَ، ومنه بَلَغَ أشُدَّهُ، والإبلاغُ: الإيصالُ، ومنه بَلَغتُ المكانَ: وصلتُ إليه، ويُقال: بَلَّغتُ الرّسالةَ وأبلَغتُها إذا أوصلتَها إلى مُنتهى المقصدِ أو إلى الشَّيءِ المطلوبِ(2)، والمرادُ في الآيةِ هو إقامةُ الحجَّة في التَّحذير والإنذار من وقوع عذابِ اللّه تعالى.

4) ﴿وَنَصَحۡتُ﴾: نَصَح الشَّيءُ: خَلَصَ، والنّاصحُ: الخالِصُ مِنَ العَسَلِ وغيرِه. وكُلُّ شيءٍ خَلَصَ، فَقَد نَصَحَ؛ والنّصيحة منه؛ لأنّ صاحبَها يخلصُ في نصحِه، ويصدقُ بالقولِ أو بالفعلِ من أجلِ صلاحِ صاحبِه، ولهذا كانَ النُّصحُ نَقيضَ الغِشّ، ويحتملُ أن تكونَ النّصيحةُ من قولهم: نَصَحتُ الجِلدَ: خِطْتُه، والنّاصِحُ: الخيّاطُ، والنِّصاحُ: الخَيطُ، فتكون منَ الإحكامِ في القولِ أو الفعلِ، والنَّصيحَةُ كلمةٌ يُعَبَّرُ بها عَن جُملَةٍ هي إرادةُ الخَيرِ لِلمَنصوحِ له، فَلَيسَ يُمكِنُ أن يُعَبَّرَ عَن هذا المعنى بكلمةٍ واحِدَةٍ تَجمَعُ مَعناها غَيرُها، فهي مِن ألفاظِ عمومِ المعنى(3)، ومعنى النَّصيحةِ في الآية، هو ما قدَّمه صالحٌ عليه السلام من شديد العنايةِ في تحذيرِهم من مخالفةِ أمرِ اللّه تعالى، دون تقصيرٍ أو إهمالٍ.

المعنى الإجْماليُّ:

فأخذتِ الَّذينَ كفروا من ثمودَ الزّلزلةُ الشّديدةُ، فأصبحوا في بلدِهم سقوطًا صرعَى لاصقين بالأرضِ على رُكَبِهم ووجوهِهم لا يتحركون، قد هلكوا جميعًا من شدّةِ العذاب، فأدبرَ صالحٌ خارجًا عن قومِه، حين حلَّ بهم الهلاكُ، وقال لهم: يا قومِ لقد أدّيتُ إليكم ما

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جثم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلغ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نصح).

أمرني ربّي بأدائِه إليكم من أمرِه ونهيِه، وأخلصتُ لكم، وصدقتُ في أدائي رسالةَ اللّهِ إليكم، ولكن لا تحبّونَ النّاصحينَ لكم في اللّهِ[1].

طغيانُ شهوةِ المُستكبرين أقوَى من نُصحِ المُرسَلين

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى العطفِ بالفاء في جملة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾:

وقوعُ العذابِ عقِبَ تكذيبِهم بزمنٍ قليلٍ لا قيمةَ له في عُمرِ المكذِّبِ

تفيدُ الفاءُ التَّعقيبَ والسّببيَّةَ، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبه، فدلَّ قولُه تعالى في سورة هود: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 65]، على أنّ العذابَ جاءَهم بعد ثلاثةِ أيام، فيكونُ المرادُ منَ التّعقيب الزّمنَ القريبَ، الّذي لا يعدُّ طويلًا ولا مهلةَ فيهِ بالمقارنة مع طولِ أعمارهم، فهو تعقيبٌ عُرفيٌّ، فالفاءُ عاطفةٌ لقولهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، على تَقديرِ قُربِ زَمانِ الهَلاكِ مِن زَمانِ طَلَبِ الإتيانِ بالوَعدِ، ولِقُربِ ذلك كان العَطفُ بالفاءِ، ويُمكِنُ أن يُقَدَّرَ ما يَصِحُّ العَطفُ بالفاء عليه؛ أي: فواعدهم العَذابَ بَعدَ ثلاثٍ فانقَضَت، فأَخَذَتهُمُ الرَّجفَةُ، وطويَت هذه الجملُ للإيجاز، وبقرينة ما ذُكِرَ في سورة هود[2].

اقـترانُ الكفرِ بانتهاكِ حُرماتِ الله سببٌ لوقوعِ العذابِ

كما أفادتِ الفاءُ معنى السّببيَّةَ؛ أي: كان كفرُهم بما آمنَ به المؤمنونَ المستضعَفون، وعقرُهم النّاقةَ، وعتوُّهم عن أمرِ ربِّهم، واستعجالُهم العذاب، كلُّ هذا كانَ سببًا للهلاكِ؛ للإشعارِ بأنَّ وقوعَ العذابِ لم يكن بسببِ كفرِهم فقط، بل بِعقرِهمُ النّاقةَ واستعجالِهمُ العذابَ، كذلكَ استحقّوا وقوعَهُ فهلكوا.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيّة التَّبعيّةِ في فعل (الأخذ):

تـصـويـرُ المُستكبرين حين الأخذِ، وهم في غايةِ الصَّغارِ

في التَّعبيرِ بقولِه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ استعارةٌ بديعةٌ، حيثُ شبَّه إحاطةَ العذابِ وإهلاكَهم بقوّةٍ بحيث لم يتفلَّت منهم أحدٌ بالأخذِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/544، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 160.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/582، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.

باليدِ بحكم إحاطةِ القبضةِ وقوّتها بالأخذِ، واشتقَّ منَ الأخذِ الفعلَ الماضي (أخذ) على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة التَّبعيّة، وبلاغةُ ذلك تصويرُهم حينَ وقوعِ العذابِ بمَن أُخِذَ، وهو في القبضةِ على غاية الصَّغارِ والحقارةِ، وهو الجزاءُ المناسبُ لاستكبارِهم وعتوّهم عن أمرِ ربِّهم، كما دلَّ اللّفظُ على أنَّ الرّجفةَ أحاطَت بهم إحاطةَ الآخذِ للشّيء[1].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في مادّة (الأخذ):

سُرعةُ بطشِ اللهِ بالكافرين وإحاطةِ العذابِ بهم

الرَّجفةُ اسمٌ للحالةِ الحاصلةِ من اضطرابِ الأرضِ وارتجاجِها منَ الرّياحِ العاصفةِ والصَّواعق، وقد سمّاها في سورةِ هود بالصّيحةِ، فيكون الّذي أصابَ ثمودَ هو صاعقةٌ أو صواعقُ متواليةٌ رجفتْ أرضَهم بسببِها وأهلكتهم صَعِقين، ويحتملُ أنْ قارنتها زلازلُ أرضيَّةٌ، وعُبِّر بـ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، على طريقة المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ الّذي أخذهم بالعذاب هو الله تعالى، والعلاقة هي السّببيّةُ، فدلَّ المجازُ على سرعةِ إهلاكِها إيّاهم معَ القهرِ وشدّةِ البطشِ، كما يدلُّ التّعبيرُ على إحاطتِها بهم، فلم يُفلتْ منَ العذابِ أحدٌ منَ الكافرين[2].

الاستعارة المكنيَّة التَّخييليّة في تشخيص الرّجفة:

تشبيهُ الرَّجفةِ بشخصٍ يأخذُ ثمودَ صعقًا وزلزلةً

في إسناد فعل الأخذ إلى ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾ استعارةٌ حسنةٌ، حيثُ شبَّه الرَّجفةَ بامرأةٍ مُتجبِّرةٍ أخذتْهُم لتقهرَهم، وذكَرَ لازمًا من لوازمِها، وهو الأخذُ؛ فإنَّه لا يكونُ على الحقيقة إلّا للعقلاء، على سبيل الاستعارةِ المكنيّة الأصليَّة، وفي ذلك تخييلٌ لامرأةٍ تأخذُ ثمودَ أخذَ التَّعذيبِ والقهرِ، وفيه منَ الإهانةِ ما لا يخفى، على سبيل الاستعارةِ التَّخييليّة. قال الشيخ ابنُ عاشور ﵀ تعالى: "وأصلُ الأخذِ تناوُلُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227، والمطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 2/350.

شَيءٍ باليَدِ، ويُستَعمَلُ مَجازًا في مِلكِ الشَّيءِ، بعلاقةِ اللُّزومِ.. وأخذُ الرَّجفَةِ: إهلاكُها إيّاهُم، وإحاطَتُها بِهِم إحاطَةَ الآخِذِ"[1].

معنى الفاء ودلالتُها في الفعل ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾:

هلاكُ القومِ تحقَّقَ بمجرَّدِ وقوعِ الرَّجفةِ دون إمهالٍ أو تأخيرٍ

أفادتِ الفاءُ التَّعقيبَ والسّببيَّةَ؛ أي: أعقبَ أخذَهم بالرّجفة هلاكُهم، وأنَّ هلاكَهم كان مُسبَّبًا عنِ الأخذِ بالرّجفةِ، والمعنى: أنَّهم لم يلبثوا، وقد وقعتِ الرّجفةُ بهم أن سقطوا وجثَموا هامدينَ خامدينَ بسببِها دون تأخيرٍ أو إمهالٍ.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾:

الصّبحُ موعدٌ لمعرفةِ الحقيقةِ

دلَّ استعمالُ لفظ ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ على أنَّ نهايةَ الإهلاكِ بدَتْ في الصَّباحِ، وهو إمّا أن يكونَ فعلًا ناقصًا بمعنى: صاروا في دارِهم جاثمين في وقتِ الصَّباحِ، وهو الأظهرُ، وإمّا أن يكونَ تامًّا، و﴿جَٰثِمِينَ﴾ حالٌ، والمعنى: دخلوا في وقتِ الصَّباحِ حال كونهم جاثمين، وأفادَ لفظُ ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ ظهورَ هلاكِهم أمامَ النّاس للعظةِ والاعتبارِ، ولمّا كان الصَّباحُ مُؤذِنًا ببدايةِ يوم جديدٍ أشعرَ التّعبيرُ بنهايتِهم، وببدايةِ مجيءِ قومٍ آخرين، يمثّلون عصرًا جديدًا[2].

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في ذكر الرّجفةِ والصّيحةِ والطّاغيةِ:

الصَّيحةُ هي أصلُ الرَّجفةِ، والطّاغيةُ صفتُها

طعنَ بعضُ الطّاعنين في هذه الآياتِ بأنَّ ألفاظَ القرآنِ قد اختلفَت في حكايةِ هذه الواقعة، وهي الرَّجفةُ والصَّيحةُ والطّاغيةُ، وزعموا أنَّ ذلك يوجِبُ التّناقضَ في آياتِ القرآنِ، فذكر في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، وفي مَوضِعٍ آخرَ قال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وفي مَوضِع آخر قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/370، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/451، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

﴿٥﴾ [الحاقة: 5]، فلسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذلكم التَّغاير في أوصافِ العذاب النّازلِ في ثمود؟

والجوابُ: أنْ لا منافاةَ بين تلك الألفاظِ ولا تناقضَ، فقد عُبِّرَ في كلِّ موضعٍ بما يناسبُ المقامَ، ويكونُ الّذي أصابَ ثمودَ هو صاعقةٌ أو صواعقُ متواليةٌ، رجفَت أرضَهم وأعقبَها زلازلُ، فالغالبُ أنَّ الزَّلزلةَ لا تنفكُّ عنِ الصّيحةِ الهائلةِ العظيمةِ، فأهلكتهم صَعِقين، فجاز أن يُسنَدَ الإهلاكُ إلى كلٍّ منهما، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: 5] فالباء للسّببيّة، والتّقدير: بالفعلةِ الطّاغيةِ، والطّاغية: الطُّغيانُ مصدرٌ كالعاقبة، والتّاء للمبالغة، ويُقال للمَلِكِ الجبّار: طاغية، فمعنى ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: 5]؛ أي: بسببِ طغيانهم كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ [الشّمس: 11]؛ أي: بسبب تجاوُزهم الحدَّ باستكبارهم وكفرهم وعَقْرِهم النّاقَةَ، ويُمكِنُ أن يُرادَ بالطّاغيَةِ: الرَّجفَةُ أو الصَّيحَةُ لِتَجاوُزِ كُلٍّ منهما الحَدَّ في هولِها وعظمِها وسرعةِ أخذها وبطشِها، أو على إرادةِ الجمعِ بينهما، ولمناسبة الفاصلةِ كذلك أثرٌ في التّعبير بقوله: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: 5][1].

وخُلاصةُ ذلك: أنَّ الصَّيحةَ الشَّديدةَ نتجَ عنها الزَّلازلُ المُرجِفةُ، ولمّا كانت بالغةً شدَّةً غيرَ مسبوقةٍ وُصِفَت بالطّاغية، فالصَّيحةُ هي الأصل، والرَّجفةُ هي نتيجتُها، والطّاغيةُ هي صفتُها، واختيرَ في كلِّ سياقٍ اللَّفظُ الأنسبُ به.

نُكتةُ إفرادِ الدّارِ في جملة ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾:

تـصـويـرُ شـدَّةِ الـعـذابِ وأنَّـه أخـذَهـم أخـذًا واحـدًا دون تفريقٍ

أفردَ الدّارَ؛ لأنَّه أرادَ بالدّار ما لكلِّ واحدٍ من منزله الخاصِّ[2]، ويكون المعنى على التَّوزيع والتّفريقِ؛ أي: أصبحَ كلُّ واحدٍ في دارِه جاثمًا، وإنّما جاء بصيغة الإفرادِ؛ لإفادة إحاطةِ العذابِ بهم،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/97.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/275.

ولتصويرِ الحالةِ، فإنّها بصيغة الإفراد أكثرُ تأثيرًا في المخاطَبين، ويحتملُ أن يكونَ أرادَ بقوله: ﴿دَارِهِمۡ﴾ بلدَهم؛ لأنَّ البلدَ دارٌ لأهلِه؛ ليشملَ ديارَهم جميعًا، أو أنّه وحّدَ لإرادةِ الجنسِ(1)، ونكتةُ ذلك: بيانُ أنَّ العذابَ لمّا نزل بهم أخذهم أخذًا واحدًا، ولم يُفرِّق بين العاتي في الاستكبار وغيرِه، فعوملوا معاملةَ الرَّجلِ الواحدِ، في الدّارِ الواحدةِ، في الموطنِ الواحد، تحذيرًا لمَن يتهاونُ في مجاراة الظّالمين.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ في إفراد الدّارِ وجمعِها:

إفرادُ الدّارِ مع الرَّجفةِ لإهلاكِهم من أسفلَ، وجمعُها مع الصَّيحةِ لإهلاكهم من أعلَى

ذكرَ اللّهُ تعالى في سورة الأعراف الدّارَ مفردًا، وذكرَها في مَواضعَ أخرى من قصّة صالحٍ بصيغة الجمعِ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وبيانُه أنَّه حيث ذُكِرَت الرَّجفةُ وُحِّدَتِ الدّارُ، وحيث ذُكرت الصَّيحةُ جُمعَت؛ لأنَّ الصَّيحةَ كانَت منَ السَّماء فبلوغُها أكثرُ وأبلغُ منَ الزَّلزلةِ، فقُرن كلٌّ منهما بما هو أليقُ به(2)، وأيضًا لعلَّ توحيدَ الدّار مع الرَّجفة في قصّة صالحٍ وشعيبٍ عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾؛ أي: مساكنهم، وجمعَها في القصّتين مع الصّيحة في سورة هود عليه السلام؛ للإشارة إلى عِظَم الزَّلزلةِ والصَّيحةِ في الموضعين، فإنَّ الزَّلزلةَ إذا كانَت في شيءٍ واحدٍ كانت أمكنَ وأقوى، فتكون في المقصود منَ النَّكال أعظمَ، والصَّيحةُ من شأنِها الانتشارُ، فإذا عمَّتِ الأماكنَ المتنائيةَ والدِّيّارَ المتباعدةَ أهلكَت أهلَها، ومزَّقَت جماعتَها، وفرَّقت شملها، وحاصلهُ أنَّه حيثُ عُبِّرَ بالرَّجفة وحَّد الدّار إشارةً إلى شدَّة العذاب بعظم الاضطراب، وحيث عُبِّرَ بالصَّيحة جمعَ إيماءً إلى عموم الموتِ بشدَّة الصَّوت، ولا مخالفة؛ لأنَّ عذابَهم كان بكلٍّ منهما(3).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/545، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/384، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/97، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/244.

(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 123، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/244.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/450.

الرَّجفةُ اقترنت بإفرادِ الدّار معاملةً للجمعِ معاملةَ الواحدِ، أمّا الصَّيحة فاقترنت بجمعِ الدّيارِ لشُمولِها

جاءَ في القرآن الكريم في سياق ذكرِ الصّيحة اقترانُ كلمةِ ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ بها، وفي سياق ذكرِ الرّجفةِ اقترانُ كلمةِ ﴿دَارِهِمۡ﴾ بها، وبيانه أنَّ الصَّيحةَ أشملُ منَ الرَّجفةِ، ويبلغُ مداها أكثرَ منَ الرَّجفة؛ لأنّ الصَّيحَةَ كانَت منَ السَّماء، فبلوغُها أكثرُ وأبلغُ منَ الزّلزلة؛ أي: إنَّ مدى صوتِها أوسعُ من مدى الزّلزلةِ، فالصّيحةُ تُصيب عدداً أكبر وتبلغ مدىً أكثر منَ الرّجفة، لذا جاء استعمالُ كلمة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ مع الصَّيحة كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ [هود: 94]، وأيضًا لمّا دخلتِ الصّيحةُ كلَّ دارٍ من ديارِهم عبّر بالجمعِ معها، أمّا الرَّجفة فيكون تأثيرُها في مكانها فقط؛ لِأنَّ الرّجفةَ تختَصُّ بِجُزءٍ منَ الأرض، لذا جاء استعمالُ كلمة ﴿دَارِهِمۡ﴾ مع الرّجفة، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾ [العنكبوت: 37]، فلمّا كانتِ الرّجفةُ في مكانٍ واحدٍ عُبِّرَ بالمفردِ؛ ليكونَ المرادُ بلدَهم المزلزَل، ولم تردْ في القرآن كلمة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ [هود: 67] إلّا مع العذاب بالصّيحة، ولم تردْ كلمة ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ إلّا مع العذاب بالرَّجفةِ، فاتّصل كلُّ لفظٍ بما هو لائِقٌ به في سياقِه(1).

نُكتةُ تقديم ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ على الحال ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

لا مفرَّ من عذابِ الله إذا نزلَ

لمّا كانَ منَ المُتوقَّعِ أن يبيتَ قومُ صالحٍ عليه السلام خارجَ دارِهم عند تحتُّمِ نزولِ العذابِ، قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ على الخبر ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ لإفادة تخصيصِ كونهم جاثمين في دارِهم وليس

(1) الكرمانّي، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 146، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 180.

خارجَها، كما أفادَ الاهتمامَ بمَوضِعِ هلاكِهم؛ للإشعارِ بأنَّهم لم يستطيعوا الفرارَ ولا الهروبَ من دارِهم، أو أنَّهم استهتروا بسرعةِ نزولِ العذابِ بهم، فباتوا في دارِهم لا في مكانٍ آخر، ويُشعِرُ التَّقديمُ بأنَّهم جميعًا باتوا في دارِهم دونَ استثناءٍ.

بلاغةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

الجُثومُ حالةٌ تُصوِّرُ موتَ الإنسانِ في حالةِ الهلَعِ الشَّديدِ

الجاثمُ هو المكبُّ على صدرِه في الأرضِ مع قبضِ ساقيه كما يجثو الأرنب، والمعنى: وقوعُ النّاسِ على ركبِهم، وخرورُهم على وجوهِهم، ولمّا كان ذلك أشدَّ سكونًا وانقطاعًا عنِ اضطرابِ الأعضاءِ استُعمِلَ في الآيةِ كنايةً عن همودِ الجثَّةِ بالموت، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ تشبيهَ حالةِ وقوعِهم على وجوهِهم حين صُعِقوا بحالةِ الجاثم؛ تفظيعًا لهيئةِ ميتتِهم، والمعنى: أنَّهم أصبحوا جثثًا هامدةً ميّتةً على أبشعِ منظرٍ لميِّتٍ(1).

الجزاءُ من جنسِ العملِ

ولمّا كان الجزاءُ من جنسِ العملِ، وكان أخصَّ وصفٍ لقوم صالحِ استكبارُهم بالباطلِ ناسبَ أن يكون جزاؤُهم هو أن يكونوا جاثمين باركين في الأرض مُلتصِقين بها لا يتحرّكون؛ للإشعار بذُلِّهم وصَغارِهم.

دلالةُ الفاءِ في الفعل ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾:

تحسُّرُ صالحٍ عليه السلام على ما فاتَ قومَه من الإيمانِ دليلُ رحمتِه وشفقته

دلَّتِ الفاءُ أنَّ صالحًا عليه السلام كان مُشاهِدًا لما وقع عليهم، وأنّه تولَّى عنهم بعدما أبصرَهم جاثمين، فكأنَّه تولَّى، وهو مُغتمٌّ مُتحسِّرٌ على ما فاتَه من إيمانِهم، والمعنى: قال لهم بعد موتهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: 79] على طريق الحكايةِ الماضيةِ، كما وقعَ منَ النّبيّ صلى الله عليه وسلم منَ التّكلّم لأهلِ قليبِ بدرٍ بعد موتِهم، ونحوُ هذا ممّا يُقالُ في أحوالِ الحزنِ المختلفةِ خطابًا للموتى بحسبِ أحوالِهم، وأجازَ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 18/451، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

بعضُ المفسّرين أنَّه تولَّى عنهم، وقال لهم تلكَ المقالةِ، وهو مُنكِرٌ إصرارَهم حين رأى العلاماتِ قبل نزولِ العذابِ، وكأنَّه كان مُشاهِداً لذلك، فتحسَّر على ما فاتهم منَ الإيمانِ والسَّلامة منَ العذابِ[1].

نُكتةُ التّعبير بمادّة التّوَلّي:

فراقُ صالحٍ لقومِه بعدَ عقرِهم النّاقة عن غضبٍ ويأسٍ من إيمانِهم

أفاد الفعلُ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ المتعدّي بحرفِ (عَنْ) إعراضَ الحزنِ لما أصابَ ثمودَ، وأفادَ إعراضَ الغضبِ، وذلك على القولِ بأنَّ قولَه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: 79] قالَه قبلَ نزول العذاب، وعندَ رؤيةِ علاماتِه، كما يُشعرُ اللَّفظُ باليأس من خيرِهم واليقينِ في إهلاكِهم[2].

دلالةُ عطف جملِة ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ على ما قبلها بالواو:

تألّمُ الأنبياء وتحسرُّهم على هلاكِ أقوامِهم

لمّا أفادتِ الواو عطفَ جملة: ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ على قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ دلَّ على أنَّ التّعقيبَ للتّولّي والنّداء، وأنَّ نداءَه قومه كان في وقت تولّيه عنهم؛ أي: تولَّى قائلًا، وناسبَ وصلُ جملةِ النِّداء بتولّيه؛ لأنَّه لمّا كان التّولّي على معنى اليأس من إيمانِهم ناسبه أن يصلَه بما يفيدُ تحسُّرَه عليهم؛ لكونِهم لم يؤمنوا.

عنوان القوميّة ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

نداءُ الهالكين لتحذيرِ السّامعين منَ الوقوعِ في المعصيةِ

الظّاهرُ أنَّ النّداء جاءَ عقبَ هلاكِ ثمودَ كما تقدَّمَ، ولمّا كان النّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المنادَى، والحالُ أنَّ المنادى قد هلكَ، والكلامُ معَ الميّتِ غيرُ نافعٍ ولا مفيدٍ، دلَّ على أنَّه قد سُلِكَ بالنّداء سَبيلُ المجاز بقصدِ التَّفجُّعِ عليهم والتَّحسُّرِ لكونِهم لَم يُؤمنوا فَهلَكوا، وليَسمَعَ ذلك مَن كانَ معه منَ المُسلمينَ؛ فَيَزدادوا إيمانًا، وانتِفاءً عَن مَعصيَةِ اللّه، واقتِضاءً لِما جاءَ به نَبيُّهُ عَنِ اللّه، وليكون

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/124، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/424، والنّيسابوريّ، غرائب التّفسير: 3/275، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8: 434، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/452.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، والرّاغب، المفردات: (ولي)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

عِبرةً لِمَن يأتي من بعدهم فينزجرَ عن مثل تلك الطّريقةِ الّتي كانوا عليها[1]، وإن كانَ النّداءُ قبلَ هلاكهم فيكون النّداءُ مُستعمَلًا في التّوبيخِ لهم، والتَّسجيلِ عليهم، ويكون النّداءُ على الحقيقة[2].

نُكتةُ إضافةِ (قوم) إلى الياءِ مع حذفها:

رحمةُ المؤمنين راسخةٌ في قلوبِهم شامخةٌ في أخلاقِهم

عُبِّرَ بنداء القوم المضاف إلى ياء المتكلِّم المحذوفة ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المؤمنين يعزُّ عليهم ما يؤذي قومَهم[3]، وأنَّهم لا ينخلعون عن أسبابِ القرابةِ والرَّحم، ولا تزالُ الرَّحمةُ قائمةً في قلوبِهم على أقوامِهم، ولو بعد هلاكِهم.

علّةُ تأكيدِ التّبليغ ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾:

الحريصُ على إيمانِ قومِه يُراجِعُ نفسَه، ويُؤكِّدُ لها قيامَه بواجبِه

كان مُقتضَى الظّاهر أن يقولَ: (وقال: يا قوم أبلغتكم رسالة ربّي)؛ لوقوعِ الإبلاغِ بصيغةِ الماضي، فهو قد تمَّ ووقع، فلمّا تتابعَ التّأكيدُ بـ(لام القسم وقدْ) دلَّ على أنَّه نزَّلَ قومَه الّذين أبلغهم رسالةَ ربِّه، وأقامَ عليهمُ الحجّةَ منزلةَ المنكِرين لإبلاغِه؛ لأنّهم لم ينتفعوا به، وكذّبوه في رسالته.

أو أنَّ التّأكيدَ موجَّهٌ لا لقومِه بل لنفسِه، وذلك أنَّه يتحسَّرُ على عدمِ إيمانِهم، فكأنّه يُؤكِّد لنفسِه أنَّه قد قامَ بالدَّعوةِ على الوجه المطلوبِ، وهذا الوجهُ أبلغُ في أثرِه الأخلاقيِّ، وفي تصوير حِرصِ الرُّسلِ على القيامِ بواجبِهم دون تقصيرٍ.

فائدةُ تعدية فعل ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ إلى ضميرِ المُخاطَبين:

أداءُ الرِّسالةِ على أتمِّ وجهٍ، فلا تقصيرَ ولا فُتورَ

عُبِّرَ بالفعل ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ المتعدّي إلى ضميرِ المخاطَبين؛ لِدلالته على وصول المُبلَّغ به إلى أقصى مقصدِه وغايةِ مطلوبِه، ليُؤذنَ بقيام صالح عليه السلام بمهامِّ الرّسالة على أتمِّ وجهٍ، وهو ما يُعزِّزُ تأكيدَ كلامه بقولِه: ﴿لَقَدۡ﴾.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/22، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/98، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/434، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/400.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

سببُ إفرادِ لفظِ الرِّسالةِ في ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾:

وحَّد الرِّسالةَ بخلافِ ما مرَّ في قصّتي نوح وهود؛ لأَنَّ المرادَ هناك أشياءُ كانا يأمرانِ بها قومَهما بعدَ الإيمانِ باللّٰه، وأمّا الّذي في قصّة صالحٍ فلم يقعْ فيها بعدَ أمرِهم بالعبادةِ غيرُ تعريفِهم بأمرِ النّاقةِ، وأمرِهم برعْيِها، وتذكيرِهم بقوم هود، كما أنّه وقعَ في آخرِ القصَّة، فأرادَ بها مجموعَ ما أدَّى منَ الرِّسالةِ، أو أراد بذلك أداءَ حديثِ النّاقةِ فقط؛ أي: لكونِ آيتِه واحدةً، تعظيمًا لها وتفخيمًا[1].

لمّا كَـانَـتْ آيـةُ النّـاقـةِ واحـدةً حَـسُـنَ إفــرادُ الرِّسالةِ

فائدةُ تعديةِ فعل النُّصح باللام ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾:

عُدّيَ الفعلُ ﴿وَنَصَحۡتُ﴾ باللّام فقال: ﴿لَكُمۡ﴾؛ لدلالة اللّامِ على الاختصاص، بمعنى: أنَّ نصحَه خاصٌّ بهم، ففيه معنى الرِّعايةِ والاهتمامِ بهم، كما أفادتِ اللّامُ تقويةَ معنى النُّصحِ وتقريرَه[2].

بيانُ عنايةِ صالحٍ بنُصحِ قومِه

دلالةُ الاستدراكِ في جملة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿وَلَٰكِن﴾ للاستدراك ممّا سبق، وأفادَ تأكيدَ نفي حبّهم للنّاصحين[3]، دلَّ على أنَّ الكلامَ بتقدير: لقد أبلغتكم رسالةَ ربّي، ففعلتُ معكم ما هو مُقتضٍ لأَنْ تحبّوني لأجله؛ للإيذانِ بدفع توهُّم تقصيرٍ في الإبلاغِ والنَّصيحةِ؛ لانعدامِ ظهورِ فائدةِ الإبلاغِ والنَّصيحةِ، فاستدركَ على معنى أنّكم تكرهون النّاصحين، فلا تطيعونهم في نصحهم؛ لأنَّ المحبَّ لِمَن يحبُّ مطيعُ[4].

عـــداوةُ الأمـمِ لـرُسـلِـهـم ورفـضُـهـا نُصحَهم مُـؤذِنٌ بـقُـربِ وقـوعِ العذابِ

دلالةُ المضارعيّة في الفعل ﴿لَّا تُحِبُّونَ﴾:

لمّا تقدّم أنَّ صالحًا تولَّى عن قومِه بعدَ هلاكِهم أفاد معنى قَولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ معنى المضيِ، وتقديرُ الكلامِ: ولٰكِن

تـصـويـرُ حـالِ ثـمـودَ عـنـد نُصحهم

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/203، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/275، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/464.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

كُنتُم لا تُحِبّونَ النّاصِحينَ، فعبَّر بالفعل المضارعِ ﴿تُحِبُّونَ﴾؛ ليكونَ حكايةً للحالةِ الماضية، وتصويرًا لها[1]؛ أي: لم يزل هذا دأبُكم فيكونُ ذلك آخرَ علاجٍ لإقلاعهم إن كانَت فيهم بقيّةٌ للإقلاع عمّا هم فيه، وإن كان بعدَ انقضاءِ سماعِهم، فالمضارعُ لحكاية الحالِ الماضية[2] كما سبق.

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

الكافرون لا يحبّون النّاصحين لِفسادِ عقولِهم وغلبةِ شهواتِهم

كان من حقِّ الظّاهر أن يُقال في مقابلِ ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾، ولكن ما قبلتم نُصحي، أو ولكن رفضتم نُصحي، فعدل إلى ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ ليكونَ كنايةً عن رفضهمُ النَّصيحةَ، وعدمِ امتثالِهم ما أبلغهم به صالحٌ عليه السلام من رسالة ربّهم؛ لانتفاءِ رغبتِهم فيما أمرهم به؛ لشدّته عليهم، فيدلُّ لزومًا على فسادِ عقولِهم وغلبةِ شهواتِهم، كما أنَّ في العدولِ إشعارًا بمبالغتِهم في الإصرارِ على الكفرِ[3].

نوعُ (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

كراهيةُ جميعِ النّاصحين دليل البؤس المبين

أفادَت أل في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الاستغراق، بمعنى: أنَّ القومَ لا يحبّون كلَّ مَن نصحَ لهم من رسولٍ أو غيره.

نُكتةُ العُدولِ إلى الجمعِ في لفظ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

المستكبِرون لا يقبلون نُصحَ أيِّ ناصحٍ

عُدِلَ إلى صيغةِ الجمعِ في قوله: ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الدّالِّ على عمومِ اللّفظِ مُبالَغَةً في ذَمِّهم؛ للإيذانِ بأنّهم لا يقبلون نُصحَ ناصحٍ[4]، ولمّا كان صالحٌ عليه السلام أوّلَ النّاصحين لهم وأبلغَهم، دخلَ في النّاصحين دخولًا أوّليًّا، كما دلَّ على مبالغتِهم في بغضِه عليه السلام،

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/98.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/98، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/244، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

(4) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457.

وبغضِ نصيحتِه، فهم يكرهون النّاصحين، بقطعِ النَّظرِ عن نسبِهم وقرابتِهم.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ في ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

الرَّسولُ تامُّ النُّصحِ لقومِه

أفادَ التّعبيرُ باسم الفاعل أنَّ صالحًا كان تامَّ النُّصحِ لقومِه مُداوِمًا عليه، لما يدلُّ عليه اسمُ الفاعل من قيامِ الوصف بالذّاتِ ولزومِه.

فائدةُ التَّعبيرِ بنفي الحبِّ لا إثباتِ الكراهية:

الدّعوةُ إلى الله قائمةٌ على حبِّ الخيرِ للنّاس

عُبِّرَ بنفي محبَّتهم للنّاصحين في قوله تعالى: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ولم يقُل: (ولكن تكرهون النّاصحين)، وفائدته أنّه لمّا كانَ الكرهُ هو المَشَقَّةُ الّتي تنالُ الإنسانَ من خارج مِمّا يُحمَلُ عليه بإكراه، ففيه معنى الإباء والمَشَقَّة، وكانَ بالإمكانِ أن يقولَ الإنسانُ في الشّيءِ الواحدِ أريدُه وأكرَهُهُ، أي: يريده من حيث الطّبعُ ويكرهُهُ من حيث العقلُ والشّرعُ أو بالعكس[1]، جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ للإشعار بأنَّ ما نصحه لهم نبيُّهم عليه السلام ليس فيه مشقَّةٌ، وأنَّه ممّا ترغبُ فيه الطّباعُ والعقولُ، كما أنَّ في التّعبير بـ ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ إشعارًا بأنّهم لم يرغبوا فيه ولم يريدوه، فالعلَّةُ فيهم وليس في ما نصحَهم به، وأيضًا في التّعبير لطفٌ في الدّعوة إلى اللّه، باختيارِ أجملِ الألفاظ وأرقِّها، فالنّصيحةُ قائمةٌ على الحبِّ، والنّاصحُ مُحبٌّ لَمن ينصحُه، ففيه إيذانٌ بأنَّ الدّعوةَ إلى عبادة اللّهِ وحدَه والامتثالِ لشرعِه قائمةٌ على حبِّ الدّاعي لَمن يدعوه.

الفروقُ المُعجَميَّة:

الزَّلزلة عمومُ اضطرابِ الأرض، والرَّجفةُ زلزلةٌ عظيمةٌ، والصَّيحةُ الصَّوتُ الشَّديدُ المُهلك

الرّجفةُ والزّلزلةُ والصّيحة:

الزَّلزلة هي اضطرابُ الأرض اضطرابًا عامًّا، والرَّجفةُ: هي الزَّلزلةُ العظيمةُ، ولهذا يُقال: زُلزلَتِ الأرضُ زلزلةً خفيفةً، ولا

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كره)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 769.

يُقالُ: رُجِفَتْ إلّا إذا زُلزلَت زلزلةً شديدةً، وسُمّيَت زلزلةُ السّاعةِ رجفةً لذلك، وأمّا الصّيحةُ فهي الصّوتُ الشّديدُ الّذي يبلغُ مداه بعيدًا، وعبّرَ القرآنُ الكريمُ عن عذاب قوم ثمود مرَّةً بالرّجفةِ ومرَّةً بالصَّيحة، ولا منافاةَ بينهما؛ لأنَّ الرَّجفةَ ناشئةٌ عنِ الصَّيحةِ؛ أي: صيح بهم بصاعقةٍ أو بصواعقَ متتاليةٍ، فرُجِفت أرضُهم، وزُلزلَت زلزالًا شديدًا، فجاز أن يُسنَدَ الإهلاكُ إلى كلٍّ منهما[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجف - صيح)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 249.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الأعراف: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قومُ لوطٍ أقربُ الأقوامِ إلى ثمودَ مكانًا وزمانًا

لمّا أتمَّ سبحانه ما وفّى بمقصدِ هذه السّورة في هذا السّياقِ من قصَّتِهم، أتبعَه مَن بعدَه ممَّن تعرفُه العربُ كما فعل فيما قبلُ[1]، وناسبَ ذكرُ قصَّةِ لوطٍ ﷺ بعد قصَّةِ صالحٍ ﷺ قُربَ المكانِ، فثمودُ أقربُ من عادٍ إلى قومِ لوطٍ، وقربُ الزَّمان كذلك، وقد بُنِيت سورةُ الأعرافِ في سردِ القَصص على التَّوالي الزَّمانيّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: يدلُّ الفُحشُ على قُبحٍ في شيءٍ وشناعةٍ، ويكون مكروهًا، فيوصفُ به كلُّ ما تجاوزَ قدرَه بحيث بلغَ النّهايةَ في القبح مِنَ الأفعالِ والأقوالِ، والفاحشةُ الشَّيءُ الغليظُ القبيحُ الّذي يكونُ غايةً في القبحِ. وأفحَشَ الرَّجُلُ أتَى بالفُحشِ؛ وهو القَولُ السَّيِّئُ، وأكثرُ ما تردُ الفاحشةُ في الاستعمالِ القرآنيّ بمعنى الزِّنا، ومعنى الفاحشة في الآية إتيانُ الذّكورِ في الأدبارِ[2].

2) ﴿سَبَقَكُم﴾: السّبقُ هو التّقدّمُ في السّير، ويدلُّ السّبقُ على التّقدّمِ في الجري، وفي كلِّ شيءٍ، ويدورُ المعنى المحوريّ للسّبقِ على تقدُّمِ الشّيءِ من بين ما حوله في قوّةٍ وجدٍّ، بحيث يكونُ مُنفردًا في تقدُّمِه، ويصلُ إلى المطلوبِ قبلَ وصولِ غيرِه، ويُقال: سابَقتُه فسَبَقتُه، ومنه: له سابِقةٌ في هذا الأمرِ إذا سَبَقَ النّاسَ إليهِ، وأسبَقَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير: (فحش)، وابن جرير، جامع البيان: 12/547، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/424.

القومُ إلى الأمر وتَسابَقوا: بادَروا، ففي السّبقِ معنى المبادرة إلى التّقدّم[1]، والمقصودُ في الآيةِ هو السَّبقُ بمعنى الابتداعِ السُّلوكيِّ جملةً، فلم يأتِ أحدٌ منَ العالمين بمثل هذا قبْلَهم؛ فأصبحوا أئمّةَ فحشٍ لمن بعدَهم.

3) ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمعُ العالَم، وهو إمّا أن يكونَ اسمًا لذوي العِلم منَ الملائكةِ والثّقلين (الجنّ والإنس)، أو لِما عُلِمَ به الخالقُ، فيشمل كلَّ ما خلقَ اللّه، والمرادُ بالعالمين هنا جميعُ الأقوام الّذين كانوا قبلهم.

المعنى الإجماليُّ:

السَّبقُ إلى المنكَرِ الغريبِ طريقٌ إلى الهلاكِ قريب

واذكر أيّها الرّسول لوطًا حينَ قال لقومِه مُنكِرًا عليهم: أتفعلونَ الفعلةَ الفاحشةَ ما سبقكم بفعلها أحدٌ منَ النّاس، إنَّ إتيانَ الذُّكورِ دونَ الإناثِ منَ الفواحشِ الّتي ابتدعَها قومُ لوطٍ، ولم يسبقْهم بها أحدٌ منَ الخلقِ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ العطفِ بالواو، وبيانُ مناسبتِه في ﴿وَلُوطًا﴾:

العطفُ إمّا من عَطفِ المفردات، وإمّا من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ

يُحمَلُ العطفُ إمّا على تقدير: (أرسلنا) فيكونُ المعنى: (وأرسلنا لوطًا)؛ ليكونَ على نسقِ ما تقدّم، فيكونَ قد عَطَفَ ﴿وَلُوطًا﴾ على ﴿نُوحًا﴾ [الأعراف: 59] في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [الأعراف: 59]، ليكونَ من عطفِ بعضِ مفرداتِ الجملةِ على بعضٍ؛ لمناسبةِ معنى الإرسال بين المعاطيف؛ أي: لقد أرسلنا نوحًا ولوطًا، وإذا كان بتقدير: (اذكر) فيكونُ من عطفِ جملةِ القصَّة على القصَّة، وذلك أنَّ ذكرَ الأنبياء لتثبيت قلبِ الرّسولِ ﷺ بتسليتِه ممّا يقاسي عن قومه[3]؛ أي: واذكر قصَّةَ لوطٍ مع قومِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/547، ونخبة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 160.
(3) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457.

نُكتةُ حذفِ العاملِ في قولِه تعالى ﴿وَلُوطًا﴾:

تنوُّعُ المعاني تابعٌ للتَّقديرِ، والتَّقديرُ قائمٌ على اتِّساعِ النَّصِّ ومُرونةِ دلالتِه

العاملُ المحذوفُ إمّا أن يكونَ: (أرسلنا)، ولمّا كان ﴿إِذۡ﴾ ظرفًا مُتعلِّقًا بـ(أرسلنا) المُقدَّرِ، كان المعنى: أرسلناه وقتَ قال لقومه، فجُعِلَ وقتُ القول ظرفًا للإرسال مع أنَّ الإرسالَ قبلَه؛ للإشعارِ بمبادرةِ لوطٍ عليه السلام بدعوة قومِه إلى ما أرسلَه اللّهُ به، واقترانُ وقتِ الإرسال بوقتِ قولِه اقترانٌ عُرفيٌّ بمعنى شدَّةِ القربِ بأقصى ما يُستطاعُ من مبادرة التّبليغ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بالظّرفِ الزّمانَ الّذي أُرسِلَ فيه لوطٌ، وليس وقتَ القولِ نفسِه، فيكون المعنى: وأرسلنا لوطًا في زمنٍ قال لقومه.

وإمّا أن يكونَ منصوبًا بتقدير: (اذكر)، فيكونَ الظّرفُ ﴿إِذۡ﴾ بدلَ اشتمالٍ من لوطٍ، والمعنى: اذكر يا محمّد ﷺ لوطًا، اذكرْ وقتَ قولِه لقومه، وتعظيمُ الوقتِ لتعظيم ما وقع فيه[1]، والقصدُ من تقدير (اذكر) الإيذانُ بأنَّ فعلَهم قبيحٌ شنيعٌ سواء كانَ بإرسالِ رسولٍ أم بغيرِ إرسالِ رسولٍ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿إِذۡ﴾ في جملة ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾:

في قصصِ الغابرين عِبرةٌ وعِظةٌ وتنبيهٌ للحاضرين

التّعبيرُ بـ ﴿إِذۡ﴾ يدلُّ على عِظَمِ شأنِ الأمر، فإنَّ تعظيمَ شأنِ الوقتِ تعظيمٌ لمظروفِه؛ أي: ما يقعُ فيه، ففيه إشعارٌ بتعظيم قولِ لوطٍ لحاجةِ القوم له، فإنَّ الوقتَ عنصرٌ عظيمٌ من عناصرِ نجاةِ الأممِ والأقوام، فإنْ فاتَ لم يُعوَّض، وفي تكرارِه في القرآنِ تنبيهٌ للمخاطَبين بأنَّ الإنذارَ اليومَ سيكون في الزَّمنِ القادم عِبرةً لغيركم بأداةِ ﴿إِذۡ﴾ وأنتم مظاريفُها! فهي إنباءٌ عمّا مضى؛ للتَّنبيه والاعتبارِ فيما يكون وسيكون.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/22، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/370، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/229.

الدَّعوةُ لا يُشترطُ فيها الانتسابُ العشائريُّ، بل الانتماءُ الإنسانيُّ

فائدةُ عدمِ ذكرِ أخوّةِ لوط لقومه:

لم تذكرِ الآيةُ أُخوّةَ لوطٍ عليه السلام لقومِه كما في شأنِ بقيّة الرُّسُلِ، ففي هودٍ عليه السلام قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ [الأعراف: 65]، وفي صالح عليه السلام قال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ [الأعراف: 73]، وفي شعيبٍ عليه السلام قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ [الأعراف: 85]، بينما قال جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾؛ ذلك لأنَّه لم يكن هناك موجبٌ لذكرِ الأخوّةِ، فلم يكونوا مؤمنين لتكونَ أخوّةُ الإيمان تجمعُهم، كما أنّه لم يكن من قبائلهم، فلم يكن بينه وبين القوم الّذين نزل فيهم قرابةُ نسبٍ تُشبَّهُ بعلاقات الأخوَّة[1]، وبانتفاءِ هذين السَّببين، يمتنعُ ذكرُ الأخوَّةِ، وفي ذلك فائدةٌ عظيمةٌ، أنَّ انتفاءَ الأخوَّةِ، لا يعني انتفاءَ الانتماءِ إلى المعيشةِ والجوارِ؛ ولذلك قال: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾، وهو سببُ الدَّعوةِ، وبه يستبينُ أنَّ الدَّعوةَ لا يُشترطُ فيها الانتماءُ العشائريُّ، أو القبليُّ، أو العقديُّ، بل عمومُ الانتماءِ ولو بالجوارِ والمعايشةِ، وهذا أصلٌ عظيمٌ من أصول الدَّعوةِ إلى دينِ اللّه تعالى.

عدمُ تقصيرِ رُسُلِ الله في تبليغ دعوةِ الله إلى أقوامِهم

معنى اللّامِ في قوله تعالى ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾:

أفادتِ اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ التَّبليغَ؛ أي: تبليغ لوطٍ قولَهُ لقومِه، وهي لامُ تعديةِ فعلِ القولِ إلى قومِه.

المصلحُ ينخرطُ في مجتمعِه، ولا ينزوي بدعوته عن قومِه

فائدةُ إضافةِ (قوم) إلى الضَّميرِ العائدِ على لوطٍ عليه السلام:

ذكرُ لفظِ ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ يدلُّ على أنّه ليس دخيلًا بينهم، بل كانَ يعيشُ معهم مُنذرًا لهم، ولكنَّهم انحرفوا عنِ الإنسانيَّة[2]، ففيه أنَّ الصّالحَ قد يعيشُ في مجتمعِ الشَّواذِّ، ويُحافظُ على صلاحِه بإصلاحِهم، ونهيهم عنِ المنكرِ الشّاذِّ، وأنَّ السَّبيلَ إلى الإصلاحِ هو المبادرةُ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكَرِ، لا تركُهم وشأنَهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/229.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2892.

ولا معاداتُهم دون دعوةٍ ورفقٍ بهم، فإنَّ المصلحَ ينخرِطُ في مجتمعِ الفسادِ مُصلِحًا، ولا ينزوي عنهم مُجحِفًا.

سِرُّ البَدءِ بالنّهي عنِ الفاحشةِ دونَ الأمر بعبادة الله وتوحيده:

الـشُّـذوذُ لا يصحبُه اعتقادٌ قويمٌ ولا سلوكٌ مستقيمٌ، فاستئصالُه ركنُ العملِ وقاعدةُ الأملِ

لَمّا كانَت فاحشةُ قومِ لوطٍ أشنعَ الشّنعِ بعدَ الشِّركِ باللّهِ، واختُصَّ بمشاركتِه للشِّركِ في أنَّه لم يحلَّ في ملَّةٍ منَ المللِ في وقتٍ منَ الأوقاتِ ولا مع وصفٍ منَ الأوصافِ، ناسبَ أن يقتصرَ في هذا المقام على الإنكارِ على فعلِهم الفاحشةَ، فكأنَّ نهيَهم عنها أمرٌ بعبادة اللّه وتوحيدِه، فإنَّ تركَهم لها رجوعٌ إلى الفطرةِ السَّليمةِ وإلى عبادةِ اللّهِ وحدَه، أو يكونُ الكلامُ على طيِّ الأمرِ بعبادةِ اللّهِ؛ إيجازًا في الكلام، فاقتصر على ذكرِ الإنكار على فعل الفاحشةِ؛ لأنّه أمرٌ فظيعٌ عظيمُ الشَّناعةِ شديدُ العارِ والفُحشِ؛ لنفرةِ كلِّ طبعٍ سليمٍ عنه، فأنكرَ عليهم أقبحَ الفعلِ وأشنعَه زيادةً على شركِهم باللّه.

وفيه أنَّ جميعَ المعاصي تُسبَقُ بالدَّعوة إلى التَّوحيدِ والأمرِ بعبادةِ اللّه، ولكنّ هذا الفعلَ الشّاذَّ يُبدأُ بالنَّهي عنه؛ لأنَّه شرٌّ أخلاقيٌّ، وفسادٌ فطريٌّ، لا يستقيمُ معه شيءٌ، وهو قرينُ الشُّذوذِ الفكريِّ، والاجتماعيِّ، والأسريِّ، والاقتصاديِّ، والأخلاقيِّ، والدّينيِّ، فلا يستقيمُ معه سلوكٌ ولا اعتقادٌ، فاستئصالُه أصلٌ لا يُحادُ عنه، وركنٌ لا يُترك.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيّ في جملة: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

الـجـمـعُ بـيـنَ التّوبيخِ والنّهيِ عنِ الفاحشة

وردَ الاستفهامُ بمعنى الإنكارِ، بغرضِ إيقافِهم على حالتِهم، وتوبيخِهم على صَنيعِهِمْ، والتَّشنيع على فعلتِهم المتمادية في القبح، ولمّا كان الاستفهامُ الإنكاريُّ مُضمَّنًا معنى النّهيِ عنِ الفعل دلَّ على أنّ لوطًا عليه السلام وبّخَهم على فعل الفاحشةِ ونهاهم عنها[1].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/386، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/424، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/310، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/22.

نُكتةُ اختيارِ مُفردةِ الإتيانِ، والإسنادِ إلى واو الجماعة:

تصويرُ مجتمعِ الشّواذِّ في إقدامِهم على صنيعِ القُبحِ وعملِ الرَّذيلةِ

اختارَ النَّظمُ مُفردةَ الإتيانِ في قولِه تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾ لِما فيه من معنى الإقبالِ على الشَّيءِ، وأُسندَ إلى ضمير الجمعِ؛ للإشعار بأنَّ الفعلَ هو الغالبُ في القوم، ففيه أنَّ القومَ مقبلون بكليّتهم على هذا الفعلِ الشَّنيع، فهو تصويرٌ لبشاعةِ حالةِ الإقدامِ تلك.

صحَّةُ حملِ الكلامِ على الكنايةِ والاستعارة

من ناحية أخرى، التَّعبيرُ بالإتيانِ في قولِه: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾ إمّا أن يُحملَ على أنَّه كنايةٌ عن إتيانِ الذُّكور، وهي كنايةٌ مشهورةٌ في الاستعمال وفي العرف، ومثله قوله فيما يأتي: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾(1).

وإمّا أن يُحملَ على الاستعارة بتشبيهِ القيام بفعلِ الشُّذوذِ بالإتيانِ، فهو استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ، وجاءَ بهذا التَّعبيرِ المجازيِّ؛ للطفه وجماله، والمعنى: أتعملون الفاحشةَ.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

إذا ارتكزَ قُبحٌ في العقولِ لم تزحزِحْه الفحول

تحتملُ (أل) أن تكونَ للعهدِ العلميِّ؛ للإيذانِ بأنَّ هذا الفعل مَعهودٌ قُبحُهُ، ومَركوزٌ في العُقولِ فُحشُهُ، وتحتملُ أن تكونَ للجِنسِ على سبيل المبالغةِ كأنَّهُ لِشِدَّةِ قُبحِهِ جُعِلَ جَميعَ الفَواحِشِ، وهو الظّاهِرُ لِبُعدِ العَربِ عَن ذلك البُعدَ التّامَّ(2)، وتحتملُ أن تكونَ (أل) لكمالِ الوصفِ؛ أي: لجمعِهِ أوصافَ الفحشِ، بمعنى: أتاتون الفاحشةَ الّتي جمعَت كلَّ أوصافِ الفُحشِ.

نكتةُ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ في لفظِ ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

لفظُ الفاحشةِ أوقعُ في النُّفوسِ أثرًا، وأوجزُ خبرًا

في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ استعارةٌ، وذلك بتشبيه الرِّجالِ المأتيّين من أدبارِهم بالفاحشةِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة الأصليّة، ونكتةُ ذلك: أنَّ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/454، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/98.

الاستعارةَ أبلغُ منَ الحقيقةِ، فإنَّ التَّعبيرَ عن إتيانِ الرِّجالِ بإتيانِ الفاحشةِ أوقعُ في النُّفوسِ أثرًا، وأدلُّ على المرادِ خبرًا، وفي الاستعارة منَ التّبشيعِ والتّشنيعِ على القائمين بهذا الفعل ما لا يخفى، فإنَّ تشبيهَهم بالفاحشة من دواعي النُّفرةِ منها، فإن هم أصرّوا فهم الفاحشةُ بعينِها حقيقةً لا مجازًا.

الاستعارة التَّهكميَّة في جملة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ﴾:

الـشُّـذوذُ الأخلاقيُّ يتبعُه شـذوذٌ ذوقيٌّ وفكريٌّ في عدِّ القبيحِ جميلًا والجميلِ قبيحًا

لّما كان السَّبقُ يُستعمَلُ غالبًا لإحراز الفضلِ والتّبريزِ، وكانَ فيه معنى الجدِّ والاجتهادِ والحرصِ على التّقدّم والقوّةِ في الفعل، كما أنَّ فيه معنى التّفرّدِ، ويُستعمَلُ مجازًا بالاستعارة لمعنى التّقدّم في الزّمن[1]، دلَّ على أنَّ قولَه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ تهكّميَّةٌ، وذلك بتشبيه سبقهم إلى الفاحشةِ بالسَّبقِ إلى الخيراتِ، ومن هنا أتى معنى التّهكُّم، كمَن يُشبِّهُ البخيلَ بحاتم؛ فيقول: (أتى حاتم)، والآتي مِن اتَّصفَ بالبُخلِ، فتشبيهُ النَّقيضِ القبيحِ بنقيضِه الحسنِ تهكُّمٌ؛ وذلك للإشعار بأنّهم كانوا يعدّون فعلَ الفاحشةِ القبيحةِ فضلًا ومزيّةً، وأنّهم كانوا يحرصون عليها بجدٍّ واجتهادٍ، وكانوا يبادرون إلى فعلِها مُنفردين بها من سائر العالمين، إذ لا يقصدُ بمثل هذا التّركيبِ أنّهم ابتدأوا مع غيرهم في وقتٍ واحدٍ، ففيه مبالغةٌ في التّوبيخ والتّعجيب من حالِهم وتقبيحِه[2].

توجيهُ الفصلِ لجملة: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾:

تـلـتـقـي التَّوجيهاتُ في معنًى كليٍّ يُعيِّن الـذَّمَّ، ويُحدِّدُ الذَّنبَ

تحتملُ جملةُ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أربعةَ احتمالاتٍ في سبب فصلِها[3]:

---

(1) الرّاغب، المفردات: (سبق)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/309، والبيضاوي: أنوار التّنزيل: 3/22، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/371، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.

الأوّل: أن تكونَ استئنافًا نحويًّا؛ لتقريرِ الإنكارِ وتثبيتِه، كأنَّه وبَّخهم أوّلًا بإتيان الفاحشة، ثُمَّ باختراعِها، فإنَّه أسوأُ.

الثّاني: أن تكونَ صفةً مقيِّدةً للفاحشة، على اعتبار أنَّ الفاحشةَ اسمُ جنسٍ، فليس المقصودُ منها نوعًا معيَّنًا؛ ليكونَ على سبيل تنوّعِ الذّمِّ، فيكونَ قد ذمّهم على فعل الفاحشةِ وعلى تفرُّدِهم بها.

الثّالث: أن تكونَ حالًا من ضمير (تأتون)، والمعنى: أتاتون الفاحشةَ حالَ كونكم ما سبقكم بها من أحدٍ منَ العالمين، فيكونَ الإنكارُ على فعلِهم الفاحشةَ في تلك الحال، ولا يقصدُ بالحال هنا أن تكونَ مقيِّدةً للإنكارِ بل يُقصدُ بها بيانُ الواقِع لتأكيدِ الذّمِّ وتقريره.

الرّابع: أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤال مُقدَّر، كأنَّهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحدٌ، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

وجميعُ هذه التَّوجيهاتِ تلتقي في معنًى كليٍّ واحدٍ، وهو ذمُّ إتيانِ الفاحشةِ مرَّتين، مرَّةً بإتيانها، والأخرى بأنَّهم سبقوا جميعَ العالمين بها، فكانوا مهمازَ سوءٍ، ولعنةَ ملعونٍ، لا يُقاربُهم إلّا شيطانٌ، ولا يُقارِنهم إلّا إبليس.

إيثارُ المجازِ بالحذفِ:

المعلومُ القبيحُ يُضمَرُ ذكرُه تشنيعًا على مرتكبِه

في الكلامِ مجازٌ بالحذفِ، حيث قال جلّ شأنه: ﴿بِهَا﴾ مع أنَّ التّقديرَ ما سبقكم بإتيانِ الفاحشةِ من أحدٍ منَ العالمين، لقرينةِ السّياق، وللاقتصار في الذِّكرِ على مَوضعِ الحاجةِ تلطُّفًا في العبارةِ، وإيجازًا في المبنى، وهذا هو مُقتضَى الظّاهرِ والحالِ.

فائدةُ تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِهَا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهَا﴾ على الفاعل ﴿مِنۡ أَحَدٖ﴾ في قوله جلّ شأنه ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ﴾ لتخصيصِ سبْقِهم بها، وللاهتمامِ

بِعِظَمِ قُبحِها وشناعتِها، ولمّا كان الجارُّ والمجرورُ على معنى الحاليَّة، فالمعنى ما سبقَكم مُلتبِسًا بالفاحشةِ أحدٌ منَ العالمين.

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنۡ أَحَدٖ﴾:

لَمّا كان لفظُ ﴿أَحَدٖ﴾ من أكثر النّكراتِ شيوعًا، دلَّ نفيُه على غاية المبالغةِ في النّصِّ على استغراقِ العموم، والمعنى: ما سبقكم بها أيُّ واحدٍ منَ العالمين، وأفاد دخولُ ﴿مِنۡ﴾ عليه المبالغةَ في تأكيدِ النَّفي.

أسوأُ منَ القُبحِ أن يكون صاحبُه أوّلَ من يبتدِعُه ويفعلُه

اسـتـغـراقُ الـعُـمـومِ دون تخلُّفِ أحدٍ

معنى التَّعريفِ وسرُّ الجمعِ في لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

المقصودُ بالعالمين جميعُ الإنس والجنِّ والحيوان. ومعنى التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الاستغراقُ، بمعنى استغراقِ جميع العالمين، وعُبِّرَ به دونَ التّعبيرِ بلفظٍ آخر؛ لتعظيم قبحِ فعلِهم؛ ليدخلَ تحت كلمةِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلُّ العالمين منَ الإنس والجنّ والحيوان والطّير والهوامِّ، وهذا استغراقٌ شموليٌّ بديعٌ، ينفِّرُ من صنيع قوم لوطٍ، وهذا أبلغُ من أن يقولَ: (منَ النّاس)، وهذا مُقتضَى الظّاهر، وحملُها على معنى (النّاس)، كما ذهبَ إليه بعضُ المفسّرين[1]، مجازٌ بإطلاقِ الكلِّ وإرادةِ البعضِ، ولا ضرورةَ له، إذِ السّياقُ يقوّي أن يكونَ اللَّفظُ على حقيقته.

وأفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ المبالغةَ؛ للدّلالةِ على نفي أن يكونَ أيُّ أحدٍ من جميعِ العالمين سبقَهم إلى فعل تلك الفاحشة[2].

المـبـالـغـةُ في التّنفيرِ من هذا الفعلِ الشّنيعِ المُستنكَرِ عند جميعِ الخلْقِ

موقعُ جملةِ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ من النّظم:

جاءَ في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقال في سورة النّمل: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٥٤﴾ [النمل: 54]، ومناسبةُ مجيءِ قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في سورة الأعراف أنّه لمّا

اجتمع في هذه الفاحشةِ فحشُ الفعلِ وابتداعُه

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/458.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/99.

تقدّمَ في الأعراف من ذكر مرتكَباتِ الأممِ المُكذّبين لرُسلِهم؛ أي: قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ، وخُصَّ بالذِّكر أقبحُها، قيل لقوم لوطٍ ﷺ: إنَّ هؤلاء الأقوامَ لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه، ناسبَ ذكرُ الأممِ المُكذِّبين قبلَهم تقريعَ هؤلاء بكونهم أوّلَ مَن فعلَ تلك الشَّناعة، وأنّهم لم يسبقْهم أحدٌ منَ العالمين، فكان توبيخُهم على الفعلِ وعلى السّبقِ معًا.

ولمّا لم يتقدّمْ في سورةِ النّمل تفصيلُ أحوالِ الأممِ المُكذِّبين، وأخذِهم، ولم يذكرْ ذلك كما في سورة الأعرافِ، عدلَ عن توبيخهم بما وُبِّخوا، حيث ذكرَ مَن كان قبلَهم، إلى ضربٍ آخرَ منَ التّوبيخِ من بيانِ شنيعِ المرتكَبِ في فعلهم، وأنّه غيرُ خافٍ على كلِّ مَن له عقلٌ أو بصرٌ يبصرُ به، كما أنَّ الّذي في سورة النّمل فيه حثٌّ على النّظر والإبصار إلى آيات اللّه مِن أوّلِ السّورة في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ [النمل: 1]، وقولِه في قصّة موسى ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ [النمل: 13]؛ أي: بيّنةً واضحةً، وقولِه في قصّة صالح: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ [النمل: 51]، ولهذا أعقبَ قولَه: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤﴾ [النمل: 54] توبيخَهم بقوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النمل: 55]؛ للإيذانِ بقُبح هذا التَّعامي عن إبصارِ الأمورِ الواضحة.

ورؤوسُ الآي في سورة الأعرافِ كلّها أسماء ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿مُفۡسِدِينَ﴾، والّذي في سورة النّمل وافق ما قبلها منَ الآياتِ، وكلُّها أفعالٌ ﴿تُبۡصِرُونَ ٥٤﴾ [النمل: 54] ﴿يَتَّقُونَ ٥٣﴾ [النمل: 53] ﴿تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [النمل: 93][1].

---

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 206 - 207، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 124 - 125.

﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

البيانُ بعد الإجمالِ، والإيضاحُ بعد الإبهامِ

لمّا أبهمَ الفاحشةَ في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ ليحصلَ التّشوُّفُ إلى معرفتِها، بيّنها في هذه الآية، ليكونَ أدلَّ على تناهي الزَّجرِ عنها وتشديدًا للتّوبيخِ فقال: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾[1]، فمناسبةُ الآيةِ لما قبلَها مناسبةُ البيانِ والإيضاحِ، زيادةً في التَّقبيحِ والتَّشنيع، فهي مُلتحِمةٌ بها التحامَ المبيِّنِ للمبيَّن.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿شَهۡوَةٗ﴾: أصلُ الشَّهوَة: نزوعُ النّفسِ إلى شيءٍ تريده، رغبةً في ذلك الشَّيءِ ومحبَّةً فيه، يُقال: شَهِي الشَّيءَ كالنّوم والنّساءِ والطّعام يَشهاه شَهوةً، ورجلٌ شَهوانٌ وشَهوانيٌّ إذا كانَ شديدَ الشَّهوةِ[2]، والمقصودُ بها في الآيةِ: اشتِهاءُ ممارسةِ الرَّذيلةِ مع الرِّجالِ.

2) ﴿دُونِ﴾: ظرفُ مكانٍ، نقيضُ فوق؛ أي بمعنى: تحت حسًّا أو معنًى، فيأتي بمعنى أقلَّ مرتبةٍ في الخيرِ أو في الشّرّ، ويأتي بمعنى المداناةِ والمقاربةِ، يُقال هذا دون ذاك؛ أي: هو أقربُ منه، وقد استُعمِلَ مجازًا في معنى الرّداءةِ والخِسّة، يُقال: ثوبٌ دونٌ: رَديءٌ، ورجلٌ من دونٍ؛ أي: خسيسٌ وحقيرٌ وساقطٌ[3].

3) ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾: السّرفُ تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فعلٍ يفعلُه الإنسانُ ليصلَ إلى الإهدارِ والإفساد، ومنه الإسرافُ في النَّفَقَةِ بمعنى التّبذيرِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/455، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شها).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دون).

وأسرفَ في الكَلامِ وفي القَتلِ أفرطَ فيه، فهو مُسرِفٌ، وتوصَفُ الأمورُ كالسّلوك والمعالجاتِ بالسّرف[1]، ولم يأتِ السّرفُ باشتقاقاته في القرآن إلّا في مَوردِ الذّمِّ، لما فيه من تجاوزِ القصدِ، وهو المرادُ في الآية، إذ إنَّ قومَ لوطٍ قد أسرفوا في فُحشِهم، وطغَوا في تجاوزِهم.

۞ المعنى الإجْماليُّ:

الشَّهوةُ المحرَّمة ومخالفةُ الفطرة اعتداءٌ مركَّبٌ

تُخبرُ الآيةُ بما قاله لوطٌ عليه السلام لقومه، مُنكِرًا عليهم صنيعَهم: إنَّكم لتأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم، شهوةً منكم لذلك، تاركين الّذي أحلَّه اللّهُ منَ النِّساءِ عن طريقِ الزَّواجِ، بل أنتم قومٌ عادتُكم تَجاوُزُ الحدودِ في الإسراف[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيّةِ:

تكاملُ القراءاتِ فيما بينها طريقُ البلاغة ومسلكُ البراعة

قرأ نافعٌ وأبو جعفرَ وحفصٌ عن عاصمٍ: ﴿إِنَّكُمۡ﴾ على الخبرِ، والباقون: (أئِنَّكُمْ) على الاستفهام[3].

توجيهُ القراءةِ الأولى: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ الآيةُ بيانٌ وتفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، وبيانه: أنّه لمّا كان قولُه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ إجمالًا، وكانَ المقامُ مقامَ إيضاحٍ وبيانٍ لعظم الأمرِ وخطورتِه جاءَت هذه الجملةُ؛ بيانًا له وتفسيرًا لما أنكرَ عليهم، بالتَّصريح بالفعلةِ القبيحةِ، وهو أبلغُ في الإنكارِ والتّوبيخِ، وتحتملُ أن تكونَ الجملةُ حالًا؛ بمعنى: أتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحدٍ منَ العالمين حالَ كونكم تأتونَ الرّجالَ مُشتهين لها، فالإنكارُ على الفعل وعلى الحالِ الّتي لازمتهم؛ لمجيئها جملةً اسميّةً، فيفيد التّوبيخَ على الفعلِ وعلى الاشتهاءِ مُجتمعَينِ أو مُنفردَين.

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرف).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/548، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 160.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/271.

توجيهُ القراءةِ الثّانية: الاستفهامُ محمولٌ على معنى الإنكار، فتكونُ الآيةُ بيانًا وتفسيرًا للاستفهام الإنكاريِّ المجمَلِ في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، وتقريرًا للنّهي، وبيانًا له لِما يقتضيه الاستفهامُ الإنكاريُّ من معنى النّهي، فكأنَّه قال: (لا تأتوا الفاحشةَ لا تأتوا الرّجالَ من دونِ النِّساء)[1].

بلاغةُ تأكيدُ الكلامِ في جملة ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ﴾:

تأكيدُ الخطابِ للعارفِ يأتي لزيادةِ توبيخِه وتقريعِه

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ أكّد الكلام بـ(إنَّ واللّامِ واسميّةِ الجملة)، فنزّلهم منزلةَ مَن ينكرُ أنّهم يأتونَ المنكَرَ؛ لِما يشعرُ به فعلُهم من ملابس الإنكارِ؛ لِكونهم مُسترسلين على الفاحشةِ مُستمرّين عليها غيرَ سامعين لنهي النّاهي ولا مُنتفعين به، ففيه توبيخٌ بعدَ توبيخ[2].

وأفادَ مجيءُ المسندِ ﴿لَتَأۡتُونَ﴾ جملةً فعليَّةً مُقوّيًا للحكم الإسناديِّ، بمعنى تأكيدِ إثباتِ فعلهم القبيح وتقريره لِما يقتضيه، فقد ذُكِرَ المسندُ إليه مرَّتين، مرَّةً في قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ﴾، وأخرى ضميرًا في الفعلِ ﴿لَتَأۡتُونَ﴾، فتَكرارُ المسندِ إليه يُفيدُ تقويةً للحكم.

دلالةُ الإخبارِ بالجملةِ الفعليّةِ في ﴿لَتَأۡتُونَ﴾:

مصارحةُ الظّالمين سبيلُ فضْحِهم وطريقُ كشفِهم

أفادَ مجيءُ المُسندِ جملةً فعليَّةً تقويةَ الإسنادِ، بمعنى تَقوّي الحكمِ، بتأكيدِ إثباتِ فعلِهم القبيح وتقريرِه، لِما يقتضيه تكريرُ المسندِ إليه، وهو الضّمير في ﴿لَتَأۡتُونَ﴾ من تكرّرِ الإسنادِ، فإنّه وقعَ الإسنادُ مرّتين، أحدهما إلى ضمير (كُم)، والثّاني لضميره وهو فاعل ﴿لَتَأۡتُونَ﴾[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/425، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/22، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4228.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/341.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغة المضارعِ في الفعل ﴿لَتَأۡتُونَ﴾:

تـصـويـرُ فـعـلِ الإتـيـانِ لتقبيحِ فاعلِه

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ استمرارَهم على الفاحشةِ، وتجدّدَ فعلِهم القبيح؛ للإشعارِ بإصرارِهم على المنكَرِ؛ زيادةً في توبيخِهم وتقبيحِ فعلِهم، كما أنَّ في مجيءِ الفعلِ المضارعِ تصويرًا للحالة، وتقبيحًا للصّورة عندَ المخاطَبين عمومًا.

فنُّ التَّعريضِ في الآية:

سبيلُ الـشّـاذِّ الـكـشـفُ والافتضاحُ ولو بعدَ حينٍ

عرَّضتِ الآيةُ الكريمةُ ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ بالرِّجالِ الّذين يأتون الرِّجالَ من دون النِّساءِ، بأنَّهم يُؤتَونَ كذلك من قِبَلِ رجالٍ آخرين، بل يشتهونَه في بواطنِ أنفسِهم، وسويداءِ قلوبِهم، وهذا من بديع التَّقبيحِ الخفيِّ، فإنَّ مَن يقومُ بالشُّذوذِ، أو يدعو إليه، أو يَرضى بوجودِه، أو يُناصِرُه، فهو راضٍ به لنفسِه، والرِّضا على درجاتٍ، وإنْ لم يُظهِرْ ذلك في العلنِ؛ فهو في أحشائه كامنٌ، وفي أسفلِ أمعائه كائنٌ.

بديعُ المقابلةِ بين جملتي ﴿لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ و﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾:

عندما تُطمسُ الفطرةُ السّليمةُ تحدثُ العجائبُ مِـنَ الأفـعـالِ الشّنيعةِ

في المقابلة بين إتيانِ الرّجالِ وتركِ إتيانِ النِّساء مبالغةٌ في التَّوبيخ والتَّقريعِ عجيبةٌ، إذ كيف يأتي الرَّجلُ الرَّجلَ المُشابِه له في الصِّفات، والّذي هو أصلُ القوّة والباه والفحولة، ويتركُ النِّساءَ اللّواتي هنَّ موضعُ الشَّهوةِ الجاذِبةِ والأنوثة؟! وهو مُقتضَى الفطرةِ والعادةِ السَّليمةِ؟! والّذي يظهرُ أنَّ القومَ أرادوا إحداثَ فارقٍ في السُّلوكِ، فإنَّ مَن فرَغَ عقلُه، ودَنَت شهوتُه، وترفَّه في الدُّنيا، حتّى بطرَ، أتى بالعجائبِ، وهذه الفعلةُ القبيحةُ من عجائبِ هؤلاءِ المخانيثِ.

توجيه نُكتةِ تقييدِ فعلِ الإتيانِ بلفظ: ﴿شَهۡوَةٗ﴾:

الإعـرابُ فـرعُ المعنى، والقيدُ غُصنُ المبنى

لفظُ ﴿شَهۡوَةٗ﴾ نكرةٌ منصوبٌ، وله ثلاثةُ أوجهٍ في الإعرابِ متفرِّعةٌ عنِ المعنى:

تقبيحُ توخّي قلبِ الحكمةِ والفطرةِ بإتيانِ الرّجالِ

أوّلًا: أن يكونَ مفعولًا لأجله لقولِه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾، والمقصودُ من هذا المفعول تفظيعُ الفاحشةِ وفاعليها، بأنَّهم يشتهون ما هو حقيقٌ بأن يُكرهَ ويُستفظَعَ، والمعنى: تقبيحُ توخّي قلبِ الحكمةِ والفطرةِ، فإذا جعلَ الغرضَ الأصليَّ هو الشَّهْوَةَ كان أقبحَ من طلب مُجرَّدِ الشّهوة لكن إذا جُعِلَ وسيلةً إلى طلبِ الولدِ، وتكثيرِ النَّسلِ، وذريعةً إلى التّعفُّفِ، كان محموداً.

إتيانُ الرّجالِ أدنى من بهيميّةٍ محضة

ثانيًا: أن يكونَ حالًا؛ أي: هو مصدرٌ في مَوقِع الحال؛ للإيذانِ بأنَّ إتيانَهم الرّجالَ كان في حالِ شهوتِهم للفعلِ، والمقصودُ وصفُ حالِهم بالبهيميّةِ، فيكونُ الحالُ لمِجرَّد الذّمّ.

العاقلُ يجعلُ الشَّهوةَ وسيلةً للغايةِ في المحافظة على النّوعِ الإنسانيّ

ثالثًا: أنْ يكونَ مصدرًا مُؤكّدًا؛ لتقريرِ الفعلِ القبيحِ عليهم، وناصبه ﴿لَتَأۡتُونَ﴾؛ لأنَّه بمعنى (لَتشتهون)، وفيه تنبيهٌ على أنَّ العاقلَ ينبغي أن يكونَ الدّاعي له إلى المباشرة طلبَ الولدِ وبقاءَ النّوعِ، وتمتيعَ النَّفسِ بالحلالِ، لا قضاءَ الوطرِ المُجرَّدِ عن أيِّ غايةٍ[1].

فائدةُ مجيءِ الحالِ: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾:

ليسَ إتيانُ الرّجالِ معَ إتيانِ النّساءِ بأقلَّ فظاعةً من إتيانِ الرّجالِ وحدَهم

جاء الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ في مَوضعِ الحالِ لقولِه ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ على أحدِ الإعرابَين، أي: أتأتونهم مُنفردين عنِ النّساء[2]؛ لبيانِ الواقعِ، وليس قيدًا للإنكارِ، كما تقدّمَ على توجيه الحالِ في قولِه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ ليكونَ زيادةً في التَّفظيع، وقطعًا للعذرِ في فعل هذه الفاحشة، فليس إتيانُ الرِّجالِ مع إتيانِ النِّساء بأقلَّ منَ الآخر فظاعةً، ولكنَّ المرادَ أنَّ إتيانَ الرّجالِ كلَّه واقعٌ في حالةٍ من حقِّها إتيانُ النّساء، كما قال

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/22، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/460، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/372.

(2) والإعراب الثّاني أن يكونَ صفةً لشهوة، أي: شهوة كائنة من دون النّساءِ. السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/372.

في سورةٍ أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ﴾ [الشعراء: 165 - 166].

نُكتةُ التّعبيرِ بالظّرفِ (دون):

مَــن تــجــاوزَ الــفــطــرةَ فقد سَفُلَ وانحطَّ إلى رُتبةِ الحيوان أو أقلَّ

أفادَ التّعبير بالظّرف ﴿دُونِ﴾ اختصاصَ إتيانِهم بالرّجال مع قربِ حصولِهم عليه، ولمّا كان الأصلُ في لفظ ﴿دُونِ﴾ أن يدلَّ على كَونِ الشَّيءِ مُنخفضًا في أسفل شيءٍ، كان في التّعبير به إشعارٌ بسفالةِ فعلِهم وخسَّتِه ودناءتِه، وبرفعةِ إتيانِ النِّساء فيما أحلَّ اللّهُ من زواجهنَّ.

سرُّ التَّعبير بالنِّساءِ دونَ الإناثِ:

الــنِّــســاءُ المكتملات نُضجًا هُــنَّ المهيَّئاتُ لــلــتَّــواصُــلِ الاجتماعيِّ

لمّا كانتِ الإناثُ تقابلُ الذّكورَ، ويقالان في الأصل اعتبارًا بالفرجين، فيُطلَقُ اللّفظان على الصّغيرِ والكبيرِ، وكانتِ النّساءُ تقابلُ الرّجال، ويُطلَقُ اللّفظان على البالِغينِ منَ النّوعين، فلا يُطلَقُ لفظُ النّساءِ على الصّغيرات قبلَ بلوغهنَّ[1]، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك عُبِّرَ بـ ﴿ٱلنِّسَآءِۚ﴾ دون الإناث؛ للإيذان بأنّهم تركوا الزّواجَ منَ النّساء، وفعلوا ما يخالفُ الفطرةَ والإنسانيّةَ، وفيه إشعارٌ أنَّ العلاقةَ الّتي فطر اللّهُ النّاسَ عليها، وشرعَها على مرِّ العصورِ والأزمانِ، لا تكون إلّا بين رجلٍ وامرأةٍ على سبيلِ الزّواج.

دلالةُ حرفِ الإضرابِ في قوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾:

إخبارُ الـشَّـواذِّ بحقيقةِ أمرِهم قوَّةٌ في الخطابِ وضـــرورةٌ في الإقناعِ

الأداةُ ﴿بَلۡ﴾ جاءَتْ في الآيةِ للإضرابِ الانتقاليِّ، ففي التّعبيرِ بها تنويعٌ في الكلامِ بالانتقالِ من غرضِ الإنكارِ المقتضي التّوبيخَ إلى غرضِ الإخبارِ عن حالِهم، الّتي أدَّت بهم إلى ارتكابِ القبائح، وتدعو إلى اتّباع الشّهوات؛ للإيذانِ بأنَّهم مُعتادونَ على الإسرافِ في كلِّ شيءٍ، فلا يبعدُ منهم الإقدامُ على هذا الإسرافِ، وفيه

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنث - نسو).

ذمٌّ لجميعِ معايبِهم؛ ليكونَ ذمًّا على ذمٍّ، ويحتملُ أن تكونَ (بل) للإضرابِ عن أيِّ جوابٍ يمكن أن يعتذروا به على فعلِهم القبيحِ؛ ليفيدَ أمرين: أحدُهما تقريرُ الحكم عليهم بأنّهم قومٌ قد تجاوزوا الحدَّ وارتكبوا الحظرَ، والثّاني إلزامُهم الحجّةَ، والمعنى: لا عذرَ لكم ولا حجَّةَ في أيِّ جوابٍ، بل أنتم قومٌ مُسرفون[1].

فائدةُ ذكرِ الصّفةِ والموصوفِ في ﴿قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾:

قـــومُ لـــوطٍ مُـسـرفـون على مستوى المجتمعِ والأفرادِ

أفادَ الخطابُ بالجملةِ الاسميّةِ: ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ ثبوتَ إسرافِهم، ولمّا جاء ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾ صفةً للمسندِ ﴿قَوۡمٞ﴾ كان أشدَّ مبالغةً في الذّمِّ من أن يقولَ: (بل أنتم مُسرفون) لدلالةِ الصّفةِ على الذّمِّ، ولما يُفيده وصفُ الخبرِ من تقييدِ القوم بصفة الإسرافِ وملازمتِها لهم، بمعنى تعميمِ القومِ بهذا الوصفِ، فكأنَّه وصفَهم بصفة الإسرافِ مرّتين: مرَّةً بوصفِ القومِ على المجموعِ بالإسرافِ، وأخرى بما يلزمُه مِن اتّصافِ كلِّ فردٍ منَ القومِ بالإسرافِ.

نُكتةُ ذكرِ المسنَدِ إليه ﴿أَنتُمۡ﴾:

الإســـــرافُ في الـفـاحـشـةِ سـبـقٌ لـقـومِ لـوطٍ وإلـحـاقٌ لأتباعهم

لمّا كان المقامُ مقامَ خطابٍ ذكر المسندَ إليه ضميرَ جمعِ المخاطَبين ﴿أَنتُمۡ﴾؛ لإثباتِ إدخالِ المخاطَبين في الوصفِ بالإسرافِ؛ ليكونَ أقوى تأثيرًا في نفوسِهم، وأدعى إلى اجتنابِ الفاحشة، وللإشعارِ باختصاصِهم بذلك الإسراف، فلم يأتِ أحدٌ قبلهم، أو في زمانِهم بمثل هذا الإسراف، وهي إشارةٌ قرآنيَّة إلى أنَّ لهم أسلافًا سيلحقونَهم، وإلّا لما ذُكر هذا الخبرُ في القرآنِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعل ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾:

الإســــرافُ في الشّهواتِ عادةٌ إذا استحكمَتْ أهلكَتْ

جاءَ هنا بصفة القومِ اسمِ فاعلٍ؛ لبيانِ أنَّ عادتَهم الإسرافُ وتجاوزُ الحدود في كلِّ شيء، ليشعرَ أنَّ فعلَهم كانَ عن داعيَةٍ ثابتةٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/311، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/22، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.

لا عن علَّةٍ عارضةٍ، وهذا وجهُ إضرابِ الانتقالِ من إسناد إتيانِ الفاحشةِ إليهم بفعل المضارعِ المفيدِ للتّكريرِ والاستمرارِ إلى إسناد صفةِ الإسرافِ إليهم، فَمِنْ ثَمَّ أسرفوا في بابِ قضاءِ الشّهوةِ، حتّى تجاوزوا المعتادَ إلى غير المعتاد، كما أنَّ في التّعبير بصيغة اسمِ الفاعلِ موافقةَ رؤوسِ الآيِ، فكلُّها أسماءٌ.

سرُّ اختيارِ مُفردةِ الإسرافِ في وصفِ قومِ لوطٍ:

وضعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه سَرَفٌ

وسمّي قومُ لوط ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾ من حيث إنّهم تعدَّوا في وضع البذرِ في الحرثِ المخصوص له المعنيّ بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 223]، وتعدَّوا في اشتهائِهم ما ينفرُ منه الطّبعُ السّليمُ[1].

نُكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ اسمِ الفاعل ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾:

مَن تجاوزَ حدَّه في الأفعالِ نالَ قطَّه منَ النّكال

حُذِفَ مُتعلَّقُ اسمِ الفاعلِ ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾؛ ليفيدَ العمومَ، بمعنى: أنتم قومٌ مُسرفون في البهيميّة، وفي تركِ ما أحلَّ اللّٰهُ لكم منَ النّساء، وفي التّفحّش، وفي اشتهاء الرّجالِ، وفي الشّذوذ، وفي عدم استنكارِ الفاحشةِ، وفي سبقكم غيرَكم بها، وفي تجاوز المعتادِ إلى غيرِ المعتادِ، ويبقى معنى العموم مُتناوِلًا كلَّ حالةٍ توصَفُ بوصفِ الإسراف في هذه الفاحشةِ المقيتةِ؛ لأنَّ الإسرافَ لا يقفُ بصاحبِه عند حدٍّ.

أو أن يُعاملَ فعلُ الإسرافِ معاملةَ اللّازم، بحيثُ يُصبحُ الإسرافُ سلوكًا قائمًا فيهم، مُتمكِّنًا من جوارِحهم، كأنَّ الإسرافَ يُترجمونَه بأحوالِهم وصفاتِهم.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/125، والرّاغب، المفردات: (شها)، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/373، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/454.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [الأعراف: 82]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِـن شَـأنِ المُنغَمِسينَ في الشَّهـواتِ، إخـراجُ مَـن لا يُشارِكُهم فيها

لمّا كان كأنَّه قيل: هذا التَّقريعُ يوجبُ غايةَ الاستحياء، بل إنَّه يُذهِبُ كلَّ مَن سمعَه منهم إلى مكانٍ لا يعرفُ فيه ستراً لحاله، فما كان حالُهم عنده؟ فقيل: أجابوه بوقاحةٍ عظيمةٍ وفجورٍ زائدٍ على الحدِّ، فما كان جَوابَهُمْ إلّا أذى لوطٍ عليه السلام وآلِه بما استحقُّوا منهم بهِ شديدَ الإنذارِ الّذي هو مقصودُ السّورةِ، وأيضًا لّما أنكرَ عليهم الفاحشةَ وعظَّمَ أمرَها، وأُفحِموا عنِ المجادلةِ في شَأنِ فاحِشَتِهم، ولم يستطيعوا جوابًا بادروا بشيءٍ لا تعلُّقَ له بكلامِه، فتآمروا على إخراجِ لوطٍ عليه السلام وأهلِه مِنَ القَريةِ فقال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُنَاسٞ﴾: النّوس: تذبذبُ الشّيء، ناس ينوس نوسًا، وأصل النّاس: أناس، إلّا أنّ الألفَ حُذِفَت مِنَ الأناس، فصارت: ناسًا، وسمّي ذو نواس؛ لذؤابتين كانتا عليه تتحرّكان[2]، وفي القرآن الكريم: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء: 71]، وقال لبيد:

وكلُّ أناسٍ سوفَ تدخُلُ بينهُم *** دوَيْهِيَةٌ تَصفَرُّ منها الأناملُ[3]

2) ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: يدورُ المعنى المحوريّ للطُّهرِ على نقاءِ الشَّيء

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/234.
(2) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (نسو).
(3) ديوان لبيد، ص: 256، والقلب والإبدال (الكنز اللّغويّ)، ص: 11، وشرح المفضّليّات، ص: 766، والأضداد، ص: 292، وأبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/301.

ممّا يُتَأذّى به، أو انقطاعِ قذى الشّيءِ. والطُّهر: نَقِيضُ النَّجاسَةِ، ويُطلَقُ الطّهرُ على الطُّهرِ منَ القبائحِ المادِّيَّةِ والمعنويَّةِ، وَرَجُلٌ طاهرُ الثِّيابِ؛ أي: مُنَزَّهٌ عنِ العيوبِ والفسادِ، وتطهّرَ أبلغُ مِن طَهرَ؛ لأنّه يجمعُ الطّهارةَ كلَّها، والتَّطَهُّرُ: التّنزُّهُ عنِ الأدناسِ، والكَفُّ عَنِ الإثمِ وَما لا يُحمدُ، وكلُّ ما في القرآن منَ اللّفظِ ومشتقّاته، هو منَ الطَّهارة بمعنى النَّقاءِ منَ القبائحِ المادِّيَّةِ أو المعنويَّةِ[1]، ومعنى: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ في هذا السّياق: يتنزّهون عَن إتيان الذُّكران[2].

المعنى الإجماليُّ:

لَمَّا أُفحِمَ الفاسقونَ عن المجادلةِ، ابْتَدَرُوا بالتّآمُرِ على إخراجِ المؤمنين

وما كانَ جوابَ قومِ لُوطٍ للوطٍ، حينَ أنكرَ عَلَيْهِمْ فعلَهُمُ القبيحَ، وركوبَهم ما حرَّمَ اللّهُ عليهم منَ العملِ الخبيثِ، إلّا أن قالَ بعضُهم لبعض: أخرجوا لوطًا وأهلَ دينِه من بلادِكم، إنَّ لوطًا ومَن تبعَه أناسٌ يتنزَّهونَ عمّا نفعله نحنُ، من إتيانِ الرِّجالِ في الأدبارِ[3]، "فكان إخراجُ لوطٍ ومَن معه منَ القرية، تنفيذًا لإرادة اللّه، لأنّه تعالى دمّر قومَ لوطٍ، وأهلكَهم بعد خروج لوطٍ والمؤمنين"[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الوصلِ بالواوِ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

قبيحُ الجوابِ وغريبُه، من قبيحِ الفعلِ ومريبه

لمّا كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ معطوفًا على قولِه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ دلّ على أنّ التّقديرَ: (وإذ ما كان جوابَ قومِه)[5]، فـ(إذ) بتقدير أن تكونَ في حيّز الجملة؛ إشعارًا بعظيم فحشِ قولِهم وقبحِه، وتعجيبًا من جوابِهم، كأنّ في الكلام حذفًا بلاغيًّا مبسوطًا

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طهر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 306/10.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/549.

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 12/549.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/234.

يكشفُ عن تعجّبهم من وصف شهواتهم تلك الخبيثة بالفاحشة، بل هي إسرافٌ في الفاحشة، فلم يجدوا أيَّ جوابٍ سوى هذا الّذي سمّاه القرآن جوابًا، تهكّمًا بهم، وهو غايةُ العجزِ عنِ الحوار، فالعاجزُ عنِ الحوار يستخدمُ الفعلَ دليلًا على العجز.

دلالةُ إسناد الإخراج إلى ضميرِ الجمع في: ﴿أَخۡرِجُوهُم﴾:

الكرهُ والبغضُ إذا استبدّا بالنّفس، غيَّبا مَن كان سببًا فيهما

دلّ الظّاهرُ وسياقُ المقال على أنّهم إنّما سعَوا في إخراج مَن نهاهم عنِ العملِ الّذي يشتهونَه ويريدونه، وهو لوطٌ عليه السلام وأهلُه، فالعائدُ محذوفٌ عُلِمَ منَ السِّياقِ[1]، والتّعبيرُ بالضّمير هنا مُليحٌ ببغضهم الشّديد لذكر اسمِ مَن نهاهم وأهلِهِ، وكأنّه يكشفُ عن أمانيهم في أن يغربَ ناهوهم عن وجوههم، وأن يكونوا غيبًا، لأنّ النّهيَ كان مقرونًا بالتّشنيع والتّبشيع: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 80 - 81]، وهو أخفُّ ممّا اقترن به النّهي في سورة النّمل: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النّمل: 54 - 55]، لذا جاء هناك بالاسم الظّاهر: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [الآية: 56]؛ ليناسب كلٌّ سياقه الوارد فيه.

سرُّ تَسْمِيَةِ غيرِ الجواب جوابًا:

العجزُ عنِ الجواب كشفٌ عن مباينة الإنصاف

لَمّا أنكَرَ لوطٌ عليه السلام على قومِه الفاحِشَةَ، وعَظَّمَ أمرَها، ونَسَبَهُم إلى الإِسرافِ، لم يأتوا بما يكون جَوابًا عن كلامِ لوطٍ عليه السلام، ولكنَّهم قابلوا نصحَه بما لا تَعَلُّقَ له بكلامِه، وهو الأمرُ بإخراجه هو ومن معه منَ المؤمنين من قريتهم ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، ولجّوا في الاستهزاء بهم؛ ضجَرًا بهم، وبما يسمعونَهم مِن وعظِهم ونصحِهم،

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/314، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/280، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/235.

والمعنى: ما كانَ لَهُم جَوابٌ إلّا هذا القَوْلَ المُبايِنَ لِلإنصافِ، المُخالِفَ لِما طَلَبَهُ مِنهُم وأنكَرَهُ عليهم[1]، وفي التّعبير بما سُمِّي جوابًا تهكّمٌ بهم، وكشفٌ عن عجزهم، إذِ الجوابُ هو الكلامُ الّذي يُقابَلُ به كلامٌ آخرُ تقريرًا، أو ردًّا، أو جزاءً[2].

سرُّ التّعبيرِ بأسلوب القصرِ بـ (ما) و(إلَّا):

مخالفةُ جوابِ قومِ لوطٍ لكلِّ فطرةٍ سليمةٍ

أسلوبُ الحصرِ بطريقِ النّفي والاستثناء، ممّا يُسلَكُ مع مُخاطَبٍ مُرتكبٍ للخطأ في اعتقادِه مع إصرارٍ عليه[3]، وفي انحصار جوابهم فيما لايعدّ جوابًا بأسلوب القصر، بيانٌ عن عجزهم، فليسَ المقصودُ بالحصرِ هنا أنّه لم يكنْ لهم جوابٌ سوى هذا الجواب، بل المقصودُ بالحصرِ أنّه لم يكن لهم أيُّ جوابٍ على إنكارِ لوطٍ عليهم، فحصرَ جوابَ قومِه في مقابل سؤالِ الإنكارِ للتّعجيب مِن أمرهم والتّوبيخِ على قولِهم، إذ جعلوا أمرَهم بإخراج لوطٍ وقومِه جوابًا للإنكارِ عليهم، وليس هذا هو القولُ الّذي ينبغي أن يكونَ جوابًا في الحجاجِ[4]، وكان مقتضى الجواب أن يقرّوا بأنّ إتيانَ الرّجال بعضهم بعضًا، فاحشة أو غير فاحشة، أو يمتثلون، لكنّ إثباتَ هذا الجواب دلّ على شدّة ضيقهم من مجرّد السّؤالِ عنِ الفعل، وعن كونه فاحشة.

مناسبةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

اعتيادُ قومِ لوطٍ على الفسوقِ واشتهارُهم به، خزيٌ وهوانٌ

قُدِّمَ خبرُ كانَ على اسمِها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة، وبيانُها أنّه لمّا كان الأصلُ في المبتدأ أن يكونَ أعرفَ في الاسميّة، دلَّ على أنَّ قولَهم الّذي قالوه، هو المعروفُ عنهم من أفعالِهم الّتي اشتهروا بها؛ لاعتيادِهم

(1) الكشّاف: 2/126، والبيضاوي: 3/22، وفتح القدير: 2/253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/324.
(3) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294 - 295.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/455.

على الفسوقِ والفجورِ ومنافرتِهم للطِّباعِ السَّليمةِ، فجاءَ ﴿جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ خبرًا؛ ليفيدَ فائدةً مُتجدِّدةً، بمعنى: أنَّ قولَهم جوابٌ وردٌّ على قولِ لوطٍ عليه السلام، كما أنّ في تأخير المبتدأ إلماعًا إلى عدم الاعتداد به، وأنّ العنايةَ انصبَّت على أيِّ جوابٍ ولو صورة جواب.

نكتةُ إسناد الجواب إلى القوم كلّهم:

معاملةُ الموافقِ علـى المنـكَـرِ معاملةَ فاعلِه

عُبِّر بالقومِ على سبيل المجاز المُرسَل بعلاقة الكلّيّة في قوله: ﴿قَوۡمُهُۥٓ﴾، وهو هنا ذكرَ القومَ كلَّهم، مع أنَّ الجوابَ كانَ منَ الملأِ المستكبرين فقط؛ للإيذانِ بنفاذِ كلامِهم في الأمرِ والنّهي[1]، ففي التّعبير بالكلّ عن الجزء إشعارٌ بأنَّ التّابعَ يُعامَلُ معاملةَ المتبوع، وفيه أيضًا نعيٌ على التّقليد.

دلالةُ الإضافة في قولِه: ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾:

مقتضى الصّلةِ والقرابةِ النّفعُ والانتفاعُ

تُلْمِعُ الإضافة إلى تحسيرهم وتنديمهم، إذ لم ينتفعوا بصلة القربى؛ لأنّ أخوفَ القومِ على القوم مَن كان منهم، لا من غيرهم، وأنّه أصدقُ نصحًا.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾:

التّمسّكُ بالمعصيةِ يفضي إلى الظّلم البيّن

في هذه الإضافة إلماعٌ إلى المفاصلة، وإلى تخصيص الوطن بالمسّرفين في الفاحشة، وبلوغِ الضّيقِ بالنّاهين أعلى مبلغٍ، وفيها تحريضٌ بالغٌ وتسبيبٌ للإخراج أنّ ناهيهم عنِ الفاحشة ليسوا من بني وطنهم، كما أشعرتِ الإضافةُ المفيدةُ للتّخصيصِ بافتخارِ قومِ لوطٍ بقريتِهم بما فيها منَ القبائحِ زيادةً في تقبيحِ حالِهم.

سرُّ ختمِ الآية، بجملة: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾:

الإخراجُ منَ الوطنِ أبلغُ جرمٍ، ولا بدّ له مِن علّة

وقعتِ الجملةُ ممّا قبلها موقعَ التّعليل، بمعنى بيانِ سببِ الأمرِ بإخراجِهم؛ أي: وتعليلُ ذلك هو أنَّهم أناسٌ يتطهَّرونَ، ويتنزَّهونَ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/435.

عن مشاركتِهم في رجسِهم[1]، وفي هذه الجملة تحريضٌ للقوم على التّعاون في إخراج لوط وأهله.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾:

التّنزّهُ عنِ المشاركةِ في المعاصي، يدلُّ على عدم الموافقة على فعلِها

في الكلام معنى الكنايةِ، مع إرادةِ المعنى اللّازم والملزوم، وبيانُه أنّ لوطًا وأهلَه لمّا كانوا يتنزّهونَ عن مشاركتِهم في الفعلِ القبيح، لزمَ مِن تنزُّهِهم أنّهم لا يوافِقونهم على ما هم عليه، ومَن لا يوافِقُهم، وجَبَ أن يخرجوه، فلا سبيلَ إلى معاشرتِهم ولا مساكنتِهم معَ هذهِ المباينة[2]، وفي التّعبير أيضًا كنايةٌ عن سُخْرِيَةِ المنغمسينَ في رذيلة اللّواط من لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَن آمن به، والافتخارِ بما هم عليه منَ القذارة، كما هو ديدنُ الشُّطّار والدُّعّار، الّذين لا وازع لهم ولا خلق ولادين.

تنزيلُ غير الشّاكّ منزلةَ الشّاكّ:

إزالةُ أيّةِ شُبهةٍ تَرِدُ على التّعليل طَريقُ التّأكيد

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾، المخاطبون بهذا الخطاب هم أهل الفاحشة من قوم لوطٍ، وهم لا يُقرّون بأنّ فعلَهم قبيحٌ، وأنّ لائمَهم عليه رأيه صحيح، فكان الظّاهرُ أن تَعْرَى العبارةُ منَ التّوكيد المُعَبَّر عنه بإنّ واسميّة الجملة، وهذا ممّا يكشفُ عن أنّهم توهّموا أنَّ مَن يكون معَهم، ينبغي أن يفعلَ مثلَ فعلِهم، فظنّوا لقبحِهم، وسوءِ سريرتِهم، أن لا يقعَ مِن أيِّ أحدٍ مخالفةٌ لما هم عليه، فجاءَ الخبرُ مؤكَّدًا، فكأنَّ تنزّه النّاسِ عن فعلَتِهم يبعدُ مثلُه في الظّنِّ، وأنّه قد جرت عادةُ القومِ بخلافِ التّطهُّرِ، والتّنزّه عنِ الفاحشةِ القبيحةِ الّتي اعتادوها.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿أُنَاسٞ﴾:

قلّةُ طائفةِ المؤمنين لا يعني ضعفَ إيمانِهم

في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ عُبِّرَ بلفظِ اسمِ الجمعِ ﴿أُنَاسٞ﴾ الّذي لا واحدَ له من لفظِه؛ للإشعار بأنّهم ضعفاء، لقلّةِ عددِهم

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 316 - 323، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/102، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/456.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/102، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/455.

وعدّتِهم[1]، وغالبًا ما تكون الأغلبيّةُ الضّآلّةُ، تنظرُ إلى الأقليّة المصلحة نظرةَ ازدراءٍ وانتقاصٍ، ويسلقونهم بألسنةٍ حدادٍ، أشحّةً على الخير، ويرون طهرَهم مانعًا من شيوع الفاحشة الّتي يريدون أن تنتشر، حتّى تلبّي لهم ذلك السُّعار المحموم، الّذي يريدونه فاشيًا وعامًّا، فيشبعون نهمَهم لذلك الشّذوذ البشع، الّذي هو آفةُ هؤلاء القوم، وأُسُّ بلائهم ومصيبتهم العظمى، الّتي أصابتهم في الصّميم، والمصيبة إذا عمَّت هانَت.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾:

تـركُ القبـائح تـطـهُّرٌ وكـمـالٌ لـلإنـسـانِ، والـعـيـبُ بغير عـيـب بـهـتـانٌ وهوانٌ

في التّعبير بلفظ ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ فوائد لغويّة وبلاغيّة متنوّعة، منها[2]؛ أوّلًا: أنَّ ذلك الفعلَ القبيحَ تصرُّفٌ في موضع النَّجاسة، فمَن تركَه فقد تطهَّرَ. ثانيًا: أنّ البعدَ عنِ الإثم يسمَّى طهارةً، والمعنى: يتباعدون عنِ المعاصي والآثام. ثالثًا: وَصفُهُم بالتَّطَهُّرِ يُمكِنُ أن يَكونَ على حَقِيقَتِهِ، وأنَّهُم أرادُوا أنَّ هَؤُلاءِ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الوُقوعِ في هذه الفاحِشَةِ، فلا يُساكِنُونا في قريَتِنا، فإنَّ التَّطهُّرَ صفةُ كمالٍ، ولأنَّ القومَ تمرَّدوا على الفسوقِ عَدّوا الكمالَ منافرًا لطباعِهم، فلا يطيقونَ معاشرةَ أهلِ الكمالِ، ويَحتَمِلُ أنَّهُم قالُوا ذلك على طَرِيقِ التّهكُّمِ والسُّخرِيَةِ والاستِهزاءِ، بتطهُّرِهم منَ الفواحش، وافتخارًا بما كانوا فيه منَ القذارة، كما يقولُ بعضُ الفسقَةِ لبعضِ الصُّلحاءِ إذا وعظَهم: أبعدوا عنّا هذا المتقشِّفَ، وأريحونا مِن هذا المتزهِّد. رابعًا: إنَّ وصفهم بقوله: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾، لمّا جاء على سبيلِ الذَّمِّ كانوا قد عابوهم بغير عيبٍ، وذمُّوهم بغير ذَمّ. خامسًا: في الوصفِ بالفعل ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعريضٌ بما يُوهِمُ الذَّمَّ، وهو مَدحٌ، ففيه إشعارٌ بأنَّه إذا كانَ عندهم عيبٌ فهو تطهّرُهم، فإذا كان التّطهّرُ أقلَّ وصفٍ يتّصفون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/456.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/550، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/126، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/311، وفتح القدير: 2/253.

به، فأوصافُهم كلُّها محمودةٌ ممدوحةٌ[1]. سادسًا: لمّا كانَت صيغةُ (يتطهَّر) أبلغَ من (طهر)، دلَّ التّعبيرُ بصيغة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ على عموم التّطهّرِ؛ بمعنى: يتطهّرون من إتيان الأدبار، ويتطهّرون بإتيان النّساءِ في موضعِ الطّهر[2]، ويحتملُ أنّهم قصدوا بصيغة التّفعُّل معنى التّكلُّفِ؛ أي: نسبتهم إلى محبّة هذا الفعلِ القبيح، وأنَّ تركَهم له إنَّما هو تصنُّعٌ وتكليفٌ لنفوسهم، بردِّها عمّا هي مائلةٌ إليه، وأنَّ إقبالَهم على الطّهر وإظهارَه، إنّما هو رياءٌ، وذلك بما أشار إليه إظهار تاء التّفعيل[3]. سابعًا: ثمّ إنّ التّعبيرَ بالمضارع يدلّ على التّجدّد والحدوث.

المتشابه اللّفظيّ:

مجيءُ كلّ لفظٍ على ما يناسبُ سـياقـه، في متشابه الآية

وجّه قوله في الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ منسوقًا بالواو، وفي النّمل والعنكبوت: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ بالفاء، مع أنّ القصّةَ واحدةٌ، فلا فرق بين الجوابين؟

والجواب: أنّه حيث يرادُ مع (ما) سببيّةً، أو ما يُشبهُ معنى المجازِ، وكان الكلامُ المجاوبُ بصريح الفعل، إذ هو أوضحُ إحرازًا لهذا المعنى، فحيث يجيءُ هذا، فالوجه والأولى أن يترتّبَ الجوابُ بالفاء، وسواءٌ تسبّبَ عنِ الأوّل، أو أُقيمَ مقامَ ما تسبّب عنِ الأوّل، مثالُ الجاري على طريقةِ السّببيّة قولُه تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى: 6]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ [الأعراف: 64]، وهذا كثير، ومثال الثّاني: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠﴾ [الإسراء: 60]، وختام الآيتين في سورة النّمل، بقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤﴾ [النّمل: 54]، و﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النّمل: 55]، مُسوّغٌ لتقدير معنى السّببيّة، وأنسبُ لذلك منَ الواو، والختم في الأعراف، ليس في تقدير السّببيّة كالأوّل، فورد كلٌّ على مايقوّيه السّياق، ويشهدُ له المعنى[4]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/102.
(2) الماورديّ، تفسير النّكت والعيون: 2/237.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/456 - 457.
(4) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/554 - 553.

وقال هنا في سورة الأعراف: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، وقال في سورة النّمل: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النّمل: 56]، فقال: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾، وقال في سورة العنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: 29]، فما هو سرُّ اختلاف العبارة في القصّة نفسِها؟

والجوابُ: أنَّه لمّا زيدَ في تعنيفِهم في النَّمل، وتعريفِهم بإتيانِهم الفاحشةَ على علم بها، أو معَ مشاهدةِ بعضِهم بعضًا وعدم استخفائِهم بها، وذلك أقبحُ في المرتكَبِ فقال: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤﴾ [النّمل: 54]، ونسبَهم إلى الجهلِ في كلِّ شيءٍ، فقال: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النّمل: 55]، فلمّا زيدَ في تعليلِ الإخراج نصَّ على الآلِ؛ فقال: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النّمل: 56]؛ لأنَّ قولَه: ﴿ءَالَ لُوطٖ﴾أنصُّ في إخراجِ جميعِ مَن للوطٍ عليه السلام من ذويه وأهلِه، مِن قولِه: ﴿أَخۡرِجُوهُم﴾؛ إذْ جاءَت زيادةُ التَّنصيصِ الأعمِّ، بإزاءِ الأزيدِ في التَّقريعِ، وأمّا في سورةِ العنكبوت فقد كان جاء جوابُهم بقولِه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: 29]، وهو أشدُّ حنقًا وأنصُّ تكذيبًا، ممّا في سورتي الأعراف والنّمل؛ لأنَّه لمّا عدَّدَ من قبائحِ مرتكباتِهم في العنكبوتِ ماعدَّدَ، وزادَهم في التّقريعِ بقولِه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: 28]، كانَ تعدادُ مرتكباتِهم أشدَّ توبيخًا وتقريعًا عليهم، فلمّا استحكمَ حنقُهم، وطُبِعَ على قلوبِهم، أتوه بأبلغَ من هذا تكذيبًا واستهزاءً، فقالوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ إظهارًا لعنادِهم وتكذيبِهم، فاستعجلوا العذابَ، وأمّا في سورةِ الأعرافِ والنّملِ فقد جاءَ قولُهم: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، و﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾؛ ليفهمَ مِن فحواه ما يستلزمُ إخراجَهم من مُجازاتِهم على ذلك، فجعلَ نطقَهم بالسَّببِ نطقًا بالمسبَّبِ، فلمّا أوجزَ في سورةِ الأعرافِ والنّملِ أوجزَ في بيانِ العقوبةِ، وذكرَ ما يُفهم مِنَ الفحوى، ولمّا فصّل قبائحَهم في سورةِ العنكبوتِ، وظهرَت قبائحُ أسرارِهم الموافقةُ لظواهرِهم، طلبوا العذابَ صراحةً، فجاءَ كلُّ لفظٍ على ما يجبُ من سياقِه[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/208، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/457.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣﴾ [الأعراف: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنجاءُ المؤمنين الصّالحين أهمُّ من إهلاكِ الكافرين المارقين

لمّا تسبَّبَ عن عنادِهم إهلاكُ القوم، وإنجاءُ الرّسول، وكانَ الإعلامُ بإنجائِه - معَ كونِه يفهمُ من إهلاكِهم - أهمَّ، قال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾[1]، وأيضًا لمّا همَّ قومُ لوطٍ بإخراجِه ونفيِه ومَن معَه من بينِ أظهرِهم، كان كأنَّه قيلَ: فما كان حالُ لوطٍ ومَن معَه؟ فذكرَ اللّٰهُ تعالى أنّه أنجاه وأهلَه سالمين، إلّا امرأتَه كانت منَ الغابرينَ، وبيّن نوعَ العذابِ ليتحقَّقَ الإهلاكُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾: أصلُ النَّجاء: الانفصالُ منَ الشَّيء، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ، والنَّجاءُ: الخَلاصُ منَ الشَّيءِ بانفصالِه عنه من خطرٍ، فهو خلوصٌ بصعوبةٍ، وكلُّ ما في القرآن منَ التَّركيب، هو بمعنى الخلوصِ من خطرٍ محدقٍ أو عذابٍ أو غرقٍ أو كربٍ أو غيرِه، ممّا هو في معناه، ما عدا صيغتي (ناجَى)، (تَناجى)[3]، والنَّجوَةُ والنَّجاةُ: المكان المرتفع الّذي تظنّ أنَّه نَجاؤُكَ لا يعلوه السّيل. قال الشّاعر:

أَلَم تَرَيا النُّعمانَ كانَ بِنَجوَةٍ *** مِنَ الشَّرِّ لَو أَنَّ امرَأً كانَ ناجِيا[4]

و(نَجا) مِن كَذا يَنجو (نَجاءً) بالمَدِّ، و(نَجاةً) بالقَصرِ. والصِّدقُ (مَنجاةٌ). و(أنجَى) غَيرَهُ و(نَجّاهُ)، وقُرِئَ بهما قَولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/457 - 458.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/142.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).
(4) البيت من شعر زهير بن أبي سلمى. الجوهريّ، الصّحاح: (نجا).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (نجا).

2) ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: الغبارُ: ما يبقى منَ التُّرابِ المُثارِ، والغابرُ منَ اللَّيل: ما بقيَ منه، والغابرُ الباقي بعدَ مضيّ ما هو معه، وجاء في الكلامِ الغُبْرة - بالضّمّ: وهي اللّون الّذي يشبهُ الغُبار، ومعنى (الغابرين) الباقينَ في عَذابِ اللّهِ، أو الهالِكينَ؛ لأنَّ الباقي في عذاب اللّه يهلكُ[1]. فالغابرُ هو الباقي، ومِنه قَول اللّه جلّ وعزّ: ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ يَعني: مِمَّن تخلّفَ فلم يمضِ مَعَ لوطٍ ﷺ، قال عبيد اللّه بن عمر يَوم صفّين، وكانَ مَعَ مُعاويَة:

أنا عُبَيدُ اللّهِ يُنميني عُمَر *** خَيرُ قُرَيشٍ مَن مَضَى ومَن غَبَرْ[2]

۞ المعنى الإِجْماليُّ:

تعجيلُ المسرَّة للسّامعين بإظهار إنجاء المؤمنين

فأنجينا لوطًا وأهلَه المؤمنين به، حيثُ أمرناه بمغادرة ذلك البلد، إلّا امرأتَه، كانت منَ الهالكين الباقين في العذابِ مع قومِها[3]، "وكانت كافرةً مواليةً لأهل سَدومَ، فالْتَفَتَتْ، فأصابَها حجرٌ، فماتَت"[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾:

شفاء صدور المؤمنين، بمعاجلة عقوبة الكافرين

التّعبيرُ بالفاء هنا جلالٌ كاشفٌ عنِ التّعجيل بعقوبتهم؛ لشناعة فعلهم، وفيه أيضًا شفاءُ صدورٍ للمؤمنين بالانتقام منَ الكافرين المعاندين، فإنّهم لمّا أمروا بإخراجِ لوطٍ ﷺ كان إرسالُ العذابِ عليهم وإنجاءُ لوطٍ ومَن معه منَ المؤمنين، عقبَ قولِهم هذا ومسبَّبًا عنه.

بلاغةُ التّقديمِ في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ هنا مقدَّمٌ من تأخيرٍ، والتَّقديرُ: فأمطرنا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غبر)، وابن جرير، جامع البيان: 12/553، والسّجستانيّ، ص: 350.

(2) أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، غريب الحديث: (غبر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/551 - 553، ونخبة من أساتذة التّفسير، ص: 161.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/584.

أراد الكافرون الهلاكَ والذّلّةَ للمؤمنين، فجازاهم اللهُ بالخلاصِ والرّفعة

عليهم مطرًا، وأنجيناه وأهلَه، فقُدِّمَ الخبرُ بإنجاءِ لوطٍ ﵇ على الخبرِ بإمطارِهم مطرَ العذاب؛ لقصدِ إظهارِ الاهتمام بأمرِ إنجاءِ لوطٍ ﵇، ولتعجيلِ المسرَّةِ للسّامعين منَ المؤمنين، فتطمئنّ قلوبُهم لحسنِ عواقبِ أسلافِهم من مؤمني الأمم الماضية، فيعلموا أنَّ تلك سنَّةُ اللّهِ في عبادِه[1]، ويؤيّدُ هذا المعنى أنّه لمّا كان إخراجُ لوطٍ وأهلِه بمثابة الطّرد، وفيه ما ظاهره الذّلّةُ، جاءَ التّعبيرُ بالإنجاءِ؛ للإشعار بخلاصِه من قومِه، ومن خطرِ العذابِ الّذي نزل بهم، كما يشيرُ اللّفظُ بدلالةِ النّجاءِ على الأرضِ المرتفعةِ، إلى أنَّ الإنجاءَ فيه معنى الرّفعةِ والعزّةِ، فأرادَ قومُ لوطٍ الذّلّةَ لهُ ولأهله المؤمنين، فجازاهم اللّهُ بالخلاصِ والرّفعةِ على القوم المجرمين.

مناسبةُ العطفِ على الضّمير في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾:

نجاةُ الأهل تكريمٌ لقائدهم الرّمز لُوطٍ ﵇

عطف ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ على الضّمير العائد على لوطٍ ﵇، فلم يقُلْ: (فأنجيناهم)؛ لإفادةِ تخصيصِ لوطٍ ﵇ بمزيدِ عنايةٍ ولطفٍ، وكأنّهما إنجاءان، إنجاءٌ للوط، وإنجاءٌ لأهله، عنايةً به، وتكريمًا لَهُ ﵇، وإكرامُ أهله إكرامٌ له، ويظهرُ هذا المعنى الجليل لو قيل: فأنجيناه والمؤمنين.

سرُّ الاستثناء: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

شناعةُ الرّضى عنِ الفعلِ القبيح

لمّا قال: ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ دخلت امرأتُه في الأهل، فجاء الاستثناءُ لإخراجِها من حكم الإنجاءِ؛ لتأكيدِ هلاكِها وتقريره بما لايقبلُ التّأويلَ لدلالةِ الاستثناءِ على التّخصيصِ؛ للإشعارِ بشناعةِ الرِّضى عنِ الفعلِ القبيحِ وموالاة أهله.

بلاغةُ الاستئنافِ في: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

الجملةُ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ عن استثنائها من حكم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/236.

الإنجاء، كأنّه قيل: فماذا كان حالها؟ فقيل: كانت منَ الغابرين، فجاء الكلامُ بطريقِ الاستئناف؛ لإغناء السّائل أن يسألَ عن مثلِ هذا الأمر العظيم، ولتشويقِ المخاطبِ إلى معرفة مصير زوجةِ لوطٍ عليه السلام الّتي والَت قومَها[1].

لا شفاعةَ في النّجاة لأيّ علاقةٍ سوى الإيمان

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿كَانَتْ﴾:

يحتملُ لفظُ ﴿كَانَتْ﴾ أن يكونَ بمعنى (صارت)، والمعنى: تغيَّر حالُها منَ الإيمانِ إلى الكفرِ، فإنَّ لوطًا لا يتزوّجُ كافرةً، والمعنى: انتقلَت وصارَت منَ الغابرين، بعدَ أن لم تكن منهم، أو أن يكونَ بمعنى: (كانَت في عِلمِ اللّه)، أو أن يكونَ الفعلُ باقيًا على ظاهرِه وأصلِه، من تقييدِ غُبُورِها بالزَّمانِ الماضِي[2].

انتقالُ زوجة لوطٍ إلى الكفرِ بعدَ أن كانَت مؤمنةً

دلالةُ (مِنَ) في ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

قد يُقال لو قيل: (إلّا امرأته كانت غابرةً) لكان أوجزَ وأوفى للمعنى، والجوابُ أنّه ليسَ كذلك، وبينهما فرقٌ، فإنَّ ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أشدُّ من (كانت غابرةً)، وبيانُه أنّه لمّا كانت (أل) في قوله: ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ جنسيَّةً، دلَّت على أنّ مَن لم يُنجِّه اللّهُ تعالى من ذلك العذاب، هو واحدٌ منَ القوم المعروفين بالغابرين، ومعدودٌ منهم، فيكونُ قد أثبتَ كونَها غابرةً بطريقةٍ تشبهُ الاستدلالَ؛ لثبوتِ البقاءِ مع الهالكين لها بطريقِ اللّازم، فما دامت مع الهالكين، فهي هالكةٌ.

قوّةُ القرابةِ مع الكفرِ، تؤذنُ بشدّة العذاب

بلاغةُ التّغليب في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

لم يقُل: (منَ الغابرات)، مع أنّه وصفٌ لامرأة لوطٍ عليه السلام؛ لأنَّه أُريد أنَّها ممَّن بقيَ مع الرِّجالِ؛ لأنّها كانت كافرةً مواليةً لأهلِ سَدُوم، فلمّا ضُمَّ ذكرُها إلى ذكرِ الرِّجالِ جاءَ الكلامُ على تغليبِ

الرّضا بالفاحشة يشبهُ ارتكابَها

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/207، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/246، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/437.

(2) أبو حيّان: البحر المحيط: 5/102.

الذُّكورِ على الإناثِ، كما أفادَ التّغليبُ بيانَ استحقاقِها لِما يستحقُّه المباشِرون للفاحشةِ، فإنَّ مَن رضيَ بشيءٍ نُسِبَ إليه(1).

المتشابه اللّفظيّ:

متشابهُ نظمِ الآيةِ بين الأعرافِ والنّملِ

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٥٧﴾ [النّمل: 57]، الجواب عن ذلك: "أنّ هذه القصّةَ في سورة النّمل نازلةٌ قبل القصّة الّتي في سورة الأعراف، وإذا بنينا على هذا، فإنّ قولَه: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٥٧﴾ [النّمل: 57]؛ أي: كتبنا عليها أن تكونَ مِنَ الباقين في القرية، الهالكين مع أهلها، فلمّا ذكر في الآية المنزلة أوّلًا أحالَ في الثّانية على الأولى في البيان، فقال: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: في تقدير اللّه الّذي قدّره لها، وأخبر فيما قَبلُ عن حكمِه عليها"(2)، "ووجه اختصاص ﴿كَانَتْ﴾ بآية الأعراف ليناسبَ إيجازًا قوله: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، وقوله في النّمل: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ ليناسبَ ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النّمل: 56]"(3).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(امرأته) و(زوجه):

الاستقراءُ القرآنيُّ يدُلُّ على أنَّ لفظ (زوج) يشيرُ إلى التّوافق بين الزّوجين، وليس كذلك لفظ (امرأة)

جرى النّظمُ الكريمُ على استخدام لفظ (زوج)، حينما تكون امرأةُ الرّجل متوافقةً مع الرّجل توافقًا تامًّا عقديًّا ونفسيًّا ولها منه ذرّيّة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الرّوم: 21]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النّحل: 72]، وقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90]، ويستخدمُ لفظ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/551، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/126، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/102، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/246.

(2) الإسكافي، درّة التّنزيل: 2/603.

(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/551.

(المرأة) حينما يكون بينهما اختلافٌ من وجهٍ منَ الوجوه السّابقة، فامرأةُ عمرانَ ذكرَت بهذا الوصف بَعْدَ وفاة زوجها، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: 35]، والمذكورات في الآيات ذُكِرْنَ بوصف المرأة لا الزّوجة؛ للاختلاف في الاعتقاد، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التّحريم: 10 - 11]، لذا استخدم القرآنُ الكريمُ في هذا السّياق الزّوجةَ بوصف المرأة، ولو وقع غير ذلك لما كان مناسبًا.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٨٤﴾

[الأعراف: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إمطارُ مطرِ العذابِ هلاكٌ يكشفُ عاقبةَ مجرمي قوم لوطٍ المُهلَكين

لـمّا أفهمَ قولُه تعالى في الآية السّابقة إهلاكَهم، بيَّنَه في هذه الآية دالًّا على نوعه بقوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[1]، حيث "أمطرنا عليهم حجارةً مخرّبةً، ومادتِ الأرضُ بالزّلازل من تحتهم، فانظر - يا أيّها النّبيّ - إلى عاقبة المجرمين، وكيف كانَت"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: العَقِبُ: مؤخّر الرّجل، وكلُّ شيء يعقب شيئًا فهو عقيبه، والعاقبةُ أصلُها كلُّ ما يأتي في عَقبِ الشّيء؛ أي: آخره؛ أي: هي ما يؤول إليه أمرُه، ثمّ هي تكون حسب حالِ الشّيءِ من خيرٍ أو شرٍّ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثّواب إذا أُطلِقَت كقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القَصص: 83]، وبالإضافة قد تُستعمَلُ في العقوبة، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10]، والعُقُوبَةُ والمعاقبةُ والعِقابُ يختصُّ بالعذاب، وعاقبةُ المجرمين بمعنى آخرِ أمرِهم منَ الهلاكِ[3].

2) ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: يدورُ الجَرْمُ على معنى القطعِ والصَّرم، ومنه جَرَمْتُ الثّمرةَ عنِ الشّجر قطعتُها، وجَرَمَ بمعنى كسب؛ لأنّ الّذي يحوزه كأنّه اقتطعه. وأجرَمَ: صار ذا جُرم، والجرم والجريمة: الذّنب، بمعنى: اقتطعَ الذّنبَ، واكتسبَه على معنى الرّغبةِ في تحصيلِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/457 - 458.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 218.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

كما يشعرُ به معنى الاقتطاع، واستُعير الجرمُ لكلّ اكتسابٍ مكروهٍ، فالمُجْرِم: مَن حمل جُرمًا كالآثم والوازر. وكلُّ مُجرِم في القُرآن فالمُرادُ بِهِ الكافِرُ الّذي اقتطعَ إثمًا، واكتسبَه زيادةً على كفرِه(1).

المعنى الإِجْماليُّ:

التّذكير بهلاك قوم لوطٍ، وما تؤول إليه عاقبةُ المجرمين عمومًا

وأمطرنا على قومِ لوطٍ الّذين كذَّبوا لوطًا، ولم يؤمنوا به، مطرًا من حجارةٍ من سجّيلٍ أهلكناهم به، فانظرْ نظرَ اعتبارٍ إلى عاقبةِ هؤلاء الّذينَ كذّبوا اللّه ورسولَه، واجترؤوا على معاصيه، فما كانت عاقبتُهم إلّا البَوارَ والهلاكَ(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الإمطار في قوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾:

تتابعُ الاستعاراتِ لتقويةِ المعنى والمبالغة فيه

لمّا كانَ المَطرُ هو الماء المنسكب مِنَ السَّحابِ، وكان إمطارُ الحجارةِ مِنَ السَّماءِ مِنَ المجازِ(3)، دلَّ على أنّ الجملةَ فيها استعارتان: إحداهما في الفعل ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ الّذي يُستعمَلُ في موضعِ العذاب؛ أي: أرسلنا مِنَ السّماء ما هو كالمطر؛ ليكون استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، والثّانية في لفظ ﴿مَّطَرٗاۖ﴾(4)؛ لتشبيه الحجارةِ النّازلةِ مِنَ السَّماء بالماءِ النّازل منها بجامعِ انكبابِه مِنَ الأعلى، واستيعابِه لِمَن ينزلُ عليهم، وتمكّنِه منهم، وانتفاءِ توقُّعِ موضعِ نزولِه، وكونِه مِنَ اللّه تعالى، ليس للبشرِ فيه أيُّ أثرٍ؛ ليكونَ الكلامُ على طريقِ الاستعارة أشدَّ رعبًا وترهيبًا، لما فيه مِنَ التّصوير، فقد استعار النّظمُ الكريمُ (أمطرنا) لـ(أرسلنا)، واستعار (مطرًا) لـ (حجارة)، وقد تعاونتِ الاستعارتان في الكشفِ عنِ الكثرة والتّتابع، مع القهرِ والاستعلاء.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جرم)، والكفويّ، الكلّيّات: (الميم).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/551 - 553، ونخبة من أساتذة التّفسير، ص: 161.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (مطر).
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/438.

دلالةُ حرف الاستعلاء في جملة: ﴿عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾:

العلوُّ والقهرُ والاستعلاءُ معانٍ تُوحي بالإمعان في التّعذيب

التّعبيرُ بحرف الجرّ (على) يدلُّ على القهر والاستعلاء، إمعانًا في تعذيبهم، وتشديدًا في إهلاكهم، وجاء في آيات أخرى تفسيرًا لهذا المطر: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود: 82 - 83]، وفي الآيتين استُعمِلَ الحرف (على)؛ وذلك لبشاعة الفعل، ويكفي أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال في عقوبته: «مَن وجدتموه يعملُ عملَ قومِ لوطٍ فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ به»[1].

دلالةُ التّنكيرِ في لفظِ: ﴿مَّطَرٗاۖ﴾:

نزولُ الحجارةِ من السّماء عذابٌ لم يعرِفْه البشرُ من قبلُ

جاء لفظ ﴿مَّطَرٗاۖ﴾ منكَّرًا؛ لتعظيم نوعِ المطرِ النّازلِ عليهم، ولِلتَّعجيب منه، فهو نوعٌ غريبٌ لا يتعارفُه أحدٌ، وهو الحجارة، والمعنى: أمطرنا عليهم مطرًا عجيبًا من شأنِه أن يُهلِكَ القُرى[2].

الخطابُ على خلافِ مقتضى الظّاهر في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

ظهورُ عاقبة المجرمين لكلِّ مَن له نظرٌ للتّحذيرِ من أفعالِهم

جاءتِ الفاءُ هنا دالّةً على طيّ الزّمنِ بين مجيءِ العقوبة وأثرها، إلماعًا إلى شدّةِ العقوبةِ الّتي جسّدتها الاستعارةُ في الجملة الماضية، وأصلُ الخطابِ بـ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ أن يكونَ لمعيَّن، فالخطابُ ظاهرُه للنّبيّ ﷺ، ولكنَّه قُصِدَ به كلُّ سامعِ قصَّتِهم؛ للنّظر كيفَ كانَ مآلُ مَن أجرَمَ، والنّكتةُ من مجيءِ الخطابِ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ تفظيعُ حالِ عاقبةِ المجرمين، وأنّه قد بلغَ من ظهورِ عاقبتِهم إلى حيثُ يمتنعُ خفاؤُها البَتَّةَ، فلا تختصُّ رؤيةُ راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ مَن يتأتّى منه النَّظرُ والتّأمُّلُ، فلهُ مدخلٌ في هذا الخطابِ، تعجيبًا من حالِهم، وتحذيرًا من أفعالِهم، وازدجارًا أن تَسلُكَ هذهِ الأُمَّةُ هذا

---

(1) رواه أبو داود، السنن، برقم: (4462)، والتّرمذيّ، السنن، برقم: (1456)، وابن ماجه، السنن، برقم: (2561)، والحاكم في المستدرك، برقم: (8047)، وصحّحه، ووافقه الذهبي.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/438، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/237.

المسلَكَ[1]، وقد خرجَ الأمرُ عن معناه الحقيقيّ إلى معنى مجازيّ، وهو التّعجيب من حالهم.

نوعُ الاستفهامِ في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

اختيارُ لفظ (كيف) يُفيدُ عموم الأحوالِ ويُشيرُ إلى تهويل العذابِ والتّعجيبِ منه

لمّا علّقَ الأمرَ بالنّظر على اسم الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾، دلَّ على أنَّ المرادَ الأمرُ بالاعتبار بمجموعِ الحالةِ الّتي صاروا عليها، فاقتضى الأمرُ بالنّظر إلى حالةِ العاقبة النّظرَ إلى مجموعِ صورةِ الحالِ الّتي حصلَت لقوم لوطٍ من أوّل القصّة، والّتي كانت سببًا في هذه العاقبة؛ لانتظام الأحوالِ كلِّها بالاستفهام بـ(كيفَ)؛ لِما يدلُّ عليه (كيف) منَ السّؤالِ عن عمومِ الأحوالِ؛ فاقتضى المقامُ تركَ التّفصيلِ إلى الإجمال مع الاحتراز عنِ التّطويلِ في ذكرِ أحوالِهم؛ لأنّه غيرُ وافٍ بحصرِها كما أنّه يورثُ الملَ، ولمّا كان جوابُ كيف بالصِّفات[2]، دلَّ على أنَّ المرادَ فانظر إلى جميعِ أوصافِهم الّتي صاروا عليها بعدَ إنزالِ الحجرِ عليهم؛ تعظيمًا لشدّةِ العذابِ وتهويلًا له، وتعجيبًا من حالِ المجرمين؛ ليكونَ تذكيرًا للمُخاطَبين بالقرآن، فاجتمع في ﴿كَيۡفَ﴾ معنى العمومِ وتعظيمِ شدّة العذاب وتهويلِه، والتّعجيب من حالِهم.

توجيهُ المتشابه بين الأعراف والنّمل:

السّبقُ بالفاحشةِ جريمةٌ وإثمٌ كبيرٌ، وعقابُه عظيمٌ خطيرٌ

جاء في سورة الأعراف تعقيبُ قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، بقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وجاء في سورة النَّمل تعقيبُ قولِه: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، بقوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ووجهُ المناسبةِ في كلِّ موضع، هو أنّه لمّا تقدّم في الأعراف قولُه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، "أفادَ أنّهم جمعوا إلى قبيح الفحش الاجترامَ من حيث لم يفعل تلك الفعلةَ

(1) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/103، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/246.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 313، والبهاء السّبكي، عروس الأفراح: 1/449.

الشّنعاءَ مَن تقدّمهم، فأفاد السّبقُ بالفاحشة الوصفَ بالاجترام، فناسبَ تعقيبه بقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، ولمّا تقدّم في النّمل قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾، حصل منه تعنيفٌ وإنذارٌ وشناعةُ معاينةِ بعضِهم بعضًا في ارتكابها، فناسب إنذارهم بهذا، ما أعقب به من قوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ولو أعقبَت آيةُ الأعراف بهذا أو آيةُ النّمل بما أعقبَت به آيةُ الأعراف لم يكن متناسبًا، فجاء كلٌّ على ما يجب[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/552.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

ورود قصّةِ شعيب بعدَ قصّةِ لوطٍ توخّيًا للعِبرة والاتّعاظ

لَمّا انقضَت قصّةُ لوطٍ عليه السلام، أعقبها سبحانه بذكر قصّة شعيبٍ، الّتي هي أقربُ القصَصِ الشَّهيرةِ إليها في الزَّمَن؛ وذلك لتجسيد معالمِ الصّراعِ بين الأنبياء وأقوامهم، وأخذِ العِبرة من هلاك الأقوام، بعد تكذيبهم للهدى، ومعارضتهم للنّبيّ المُرسَل إليهم، وهو ما كان هلاكًا في الدّنيا، وعذابًا في الآخرة.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٞ﴾: في الآية بمعنى علامة وحجّة منَ الله على صدقِ دعوته، أو بمعنى معجزة لم ينصَّ عليها في القرآن[1]، والبَيِّنَةُ: دَلالَةٌ واضِحَةٌ عَقليَّةٌ كانَت أو مَحسوسَةٌ، وسُمّيَت شَهادَةُ الشّاهِدَين بَيِّنَةً؛ لقَولِه عليه السلام: «البَيِّنَةُ على المُدَّعي واليمينُ على مَن أنكَر»[2]؛ والجَمعُ (بَيِّناتٌ)[3].

2) ﴿فَأَوۡفُواْ﴾: يدورُ معنى وَفى على إكمالٍ وإتمام، ومنه الوفاءُ: إتمامُ العهدِ وإكمالُ الشّرطِ، والوافي: الّذي بلغَ التّمامَ. يُقال: درهم وافٍ، وكيل وافٍ. وتَوفِيَةُ الشّيءِ: بذله تامًّا كاملًا، ووَفى بعهده يَفِي وَفاءً، وأوفى: إذا تمّم العهدَ، ولم ينقض حفظه[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/555، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/426.
(2) رواه الترمذي، السنن، برقم: (1341)، والدارقطني، السنن، برقم: (4381)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: 34/310.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وفى).

3) ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾: الكَيلُ ما كيلَ به الطّعام ونحوه، فَيُقالُ كِلتُ لَهُ الطَّعامَ، وتَوْفِيَةُ الكيل تحرّي العدل في كلِّ ما وقع فيه أخذ ودفع[1]، ويُقال: "كال البرّ يَكيلُ كَيْلًا.

والبرُّ مكيل، ويجوز في القياس: مَكيول، ولغة بني أسد: مَكول، وهي لغةٌ رديئةٌ، ولغة أردأ: مُكال. والمِكيالُ: ما يُكالُ به. واكتَلتُ من فلان، واكتَلتُ عليه. وكِلتُه طعامًا"[2].

4) ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾: وزنُ الشّيء قَدْرُهُ، والميزان: هو الآلةُ التّي يُوزَنُ بها الأشياء، وهو معروفٌ بين النّاس[3]، ومعنى: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، أتمُّوا للنّاس حقوقَهم بالكيل الّذي تكيلون به، وبالوزن الّذي تزنون به[4].

5) ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾: تدورُ مادّة بخس على معنى النّقص، والبخسُ نقصُ الشّيءِ على سبيل الظّلم، يُقال: بخسه حقّه إذا نَقصه، وبَخسُ الكيل والميزان: نقصُه. وثَمَنٌ بَخسٌ: دون ما يجب، فالبخس فيه معنى الظّلم لنقصِ حقِّ صاحبِه[5]، ومعنى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾؛ ولا تنقصوا النّاسَ حقوقَهم فتظلموهم[6].

المعنى الإجْماليُّ:

بيانُ إرسال شعيب إلى مدين، ودعوتهم للتّوحيد والقسط في الميزان

وأرسلنا إلى قبيلةِ مَدْيَنَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال لهم: اعبُدوا اللّه وحدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، قد أتَتكُم حُجَّةٌ واضحةٌ مِن رَبِّكم، بحقيقةِ ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه، فأتمّوا للنّاس حقوقَهم بالكيل الّذي تكيلون به، وبالوزن الّذي تزنون

(1) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (كيل).
(2) الخليل، العين: (كيل).
(3) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (وزن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/555.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بخس).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/555، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 123.

به، ولا تنقُصوا النّاسَ حُقوقَهم، ولا تُفسِدوا في الأرضِ بعد أن أصلحَ اللّهُ الأرضَ ببعثِ الرّسلِ، والأمرِ بالعدلِ، هذا الّذي أُمِرتُم به مِن إخلاصِ العِبادةِ للّه، وإيفاءِ حُقوقِ النّاسِ، وتَركِ الفَسادِ في الأرضِ؛ خَيرٌ لكم إن كنتم مُؤمنينَ باللّه ومُصدِّقين بما أقول[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الوصلِ بالواو في: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ﴾:

التّوحيدُ وفعلُ الخيراتِ وتركُ المنكَراتِ أساسُ دعواتِ الأنبياء جميعًا

الواو عطفتِ القصّةَ على القصّة، والتّقدير: وأرسلنا إلى مَدينَ أخاهم شعيبًا، والمناسبةُ بين هذه القصّة والّتي قبلها دعوةُ شعيبٍ قومَه إلى توحيد اللّه، وإلى فعلِ الخيراتِ، وتركِ المنكراتِ، وفي عطف القصّة على القصّة دعوةٌ للنّظر الجامع لمواضع الاعتبار، فكلما كانت مواضعُ الاعتبار أكثرَ كان النّفعُ بها في الانزجار أغزر.

بلاغةُ حذفِ الفعلِ: (أرسلنا):

تشابهُ دعواتِ الرّسلِ عليهم السلام، في المضمون والغايات

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾، حُذِفَ الفعلُ (أرسلنا) بقرينة ما تقدّم؛ للإشعار بتشابهِ دعواتِ الرُّسلِ، فإنَّ المرسِلَ واحدٌ، والحكمةَ منَ الإرسالِ واحدةٌ، ودعوةَ المرسلين واحدةٌ، قال تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 13].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور على المفعول:

إرسالُ الرّسلِ عنايةٌ منَ الله تعالى بالنّاس، وتحقيقٌ لمصلحتهم

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾، قدّمَ قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ على ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ لفوائدَ لغويّة وبلاغيّة، منها؛ أوّلًا: الاهتمامُ بالقوم الّذين أُرسِلَ إليهم شعيبٌ عليه السلام؛ إيذانًا بمنَّة اللّه تعالى عليهم. ثانيًا: تخصيصُ إرسالِ شعيبٍ إليهم دونَ غيرهم. ثالثًا: الإيجازُ في تأليف الكلام، فَوَفَّى الضّميرُ الإيجازَ، لمّا أُريدَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/554، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/214.

وصفُ شعيبٍ، بأنَّه من إخوة مدين ومن صميمهم، من غير احتياجٍ إلى إعادة لفظِ مدين، ولو لم يتقدّم الجارّ والمجرور لضعُفَ تأليف الكلام، وتكرَّر لفظ مدين، بأن يُقال: (وأرسلنا شعيبًا أخا مدين إلى مدين)، وهو منَ الرّكاكةِ بمكانٍ. رابعًا: أن لا يلزمَ الإضمارُ قبلَ الذِّكر، أو عودِ الضّميرِ على متأخّرٍ لفظًا ورتبةً[1].

نكتةُ التّعبير بلفظ الأُخوّة:

قرابةُ النّسب أدعى لصدق النّصح، وابتغاء النّفع والنّجاة للمنصوح

يُشعِرُ لفظ ﴿أَخَاهُمۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ بمصاحبة شعيبٍ لقومِه، وملازمتِه لهم، وقربِه منهم، وهو من جلدتهم، وما يهمّه يهمّهم، والمفترض أن يكونوا أفهمَ لكلامه، وأعرفَ بحاله في صدقه وأمانتِه، وأقربَ إلى اتّباعه.

سرُّ التّعبير بالتّابع في قوله: ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾:

تمامُ الإيضاحِ والبيانِ بالجمعِ بين البدلِ والمبدَلِ منه

لمّا كانَ ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ لقوله: ﴿أَخَاهُمۡ﴾، وكان الاسمُ العلمُ أشهرَ منَ الوصفِ بـ ﴿أَخَاهُمۡ﴾، دلَّ على أنَّه ذكر ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾ للاعتناء بشأنِه؛ إذ ظهرَ بمجموعِ البدلِ والمبدلِ منه، أو بمجموعِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه تمامُ البيانِ، والإيضاحُ في المرادِ منَ المرسَلِ، ومزيدُ اعتناءٍ بشأنِه.

مناسبةُ تقديم ﴿أَخَاهُمۡ﴾ على ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾:

أهمّيّةُ التّودّدِ والاستعطافِ في الدّعوةِ إلى الله، وفي النّصحِ والإرشادِ

لم يقُل: (وإلى مدين شعيبًا أخاهم)، وإنّما قُدِّمَ الوصفُ بالأخوّة على الاسم العلَم؛ للإشعارِ بأهمّيّة التّودُّدِ والاستعطافِ في الدّعوةِ إلى اللهِ، وفي النّصحِ والإرشادِ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في جملة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

جاء الاستئنافُ مبنيًّا على سؤالٍ نشأ عن حكاية إرسالِه إليهم، بعدَ ذكرِ قصّة لوطٍ وما حصلَ معهم، فصار السّامعُ مُترقِّبًا معرفة

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/427.

ما حصلَ مع شعيبٍ وقومِه، فكان ذلك مثارَ سؤالٍ في نفس السّامع، أن يقولَ: فإلامَ دعا شعيبٌ قومه، بعدَ أن أرسلَ إليهم، وبمَ أجابوه، فجاء قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾؛ لتشويقِ المخاطبين واستدرارِ إصغاءِ مسامعِهم، ولإغنائِهم عنِ السّؤال، ولتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللّفظ[1].

الإطـنـابُ في المعنى، والإيجازُ في اللّفظ، من حسن بيان التّركيب

دلالةُ النّداءِ في قولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾:

لمّا كان النّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المنادى أفادَ النّداءُ تصويرَ حالةِ الاستعطاف؛ لتقريبِ شعيبٍ قومَه منه، وللإشعارِ بأنَّ شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومَه، وهم قريبون منه، سامعون لكلامِه، مُصغُون لدعوتِه.

النّداءُ بالقوميّة فيه استعطافُ النّاس والاقترابُ منهم وتحبيبُ الدّعوة إلى قلوبهم

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

وردَ الاستئنافُ البيانيُّ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾، على معنى البيانِ والتّعليلِ، وبيانُه أنَّه جاء استئنافًا جاريًا مجرى البيان؛ لعبادةِ اللّه المأمور بها، وفيه معنى التّعليلِ للعبادةِ المذكورة؛ أي: فهو تعالى يستحقُّ العبادة؛ لأنَّه ليس لكم من إلهٍ غيرُه، وفيه معنى التّعليلِ للأمر بها كذلك، كأنّه قيل: أمرتُكم بعبادة اللّه وحدَه؛ إذ ليس لكم إلهٌ سواه[2].

استحقاقُ اللّه - وحدَه - العبادةَ، لأنَّه لا إلهَ للخلق غيره

بعضُ بلاغات جملة: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ تقريرُ معنى توحيدِ اللّه تعالى المناسبِ لمقامِ بيان الأمرِ بعبادة اللّه في أوفى نظم، وبيانُه ما يأتي:

بيانُ الأمرِ بعبادة اللّه في أوفى نظمٍ وأبلغِه

أوّلًا: تضمّن التّركيبُ النّفيَ والإثباتَ المقتضي لنفي الألوهيّة عن غيرِه تعالى وإثباتها له سبحانه عن طريق (ما) و(غَيْرُ).

ثانيًا: تقديم المسند (لَكُمْ) على المسند إليه (مِنْ إله)؛ لإفادة

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 252، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/246.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/237، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/418.

الحصرِ والتّأكيدِ، ولمّا كان المقامُ مقامَ خطابٍ، حَسُنَ التّعبيرُ بشبه الفعليّة (لَكُم) ليكونَ أكثرَ تأثيرًا، مع أنَّ المعنى ما لكم، ولا لغيركم من إلهٍ غيرُه.

ثالثًا: مجيءُ النّكرة في سياق النّفي يفيدُ العمومَ؛ أي: ما لكم أيُّ إلهٍ غير اللّه تعالى.

رابعًا: اقترن حرف الجرِّ (مِنْ) بالمسند إليه النّكرة (إلهٍ)؛ لإفادة النَّصِّ على العموم وتأكيدِه وتقريرِه.

دلالةُ (مِن) في ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾:

ظهورُ المعجزة يوجبُ المبادرةَ إلى تصديقِها، والعملَ بموجبِها

زادَ من تفخيم البيّنةِ وتعظيمِها التّصريحُ بنسبتها إلى ﴿رَّبِّكُمۡۖ﴾، فجمع بين الفخامةِ الذّاتيّة للبيّنة، والفخامةِ الإضافيّةِ بنسبتِها إلى اللّه تعالى مع دلالةِ التّشريفِ؛ لحثِّهم على المبادرة إلى تصديقِها والعمل بموجبِها، وللإشعار بأنَّ مجيءَ البيّنة نعمةٌ من ربّكم ومدبّر أموركم، فالمعنى: جاءتكم بينةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ كائنةٌ من ربّكم، ومالِك أمورِكم، ففيها خيرٌ لكم[1]، وفي التّعبير بالرّبوبيّة الإلاحةُ إلى أنّ المعجزةَ نعمةٌ كبرى منَ الرّبّ؛ لأنّها تعينُ العبادَ على الإيمان، ولم يقُل: (بيّنة ربِّكم) على الإضافة؛ لدلالة (مِن) على معنى الابتداء، للإيذانِ بأنّ إرسالَها إليكم مبتدأً من ربّكم، ففي الكلامِ إشعارٌ بنعمةِ خصوصيَّةِ البيّنةِ لهم، للمبادرةِ إلى تعظيمِها والإيمانِ بها وبلوازمِها.

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيِّنَةٌ﴾ ودلالةُ تنكيره:

عدمُ تبيين نوعِ البيّنةِ؛ لأنّها منَ الوضوحِ بحيث تسلَمُ منَ الجدالِ

يُحتملَ أن يكون المرادُ منها الحجَّةَ الّتي أقامها شعيبٌ على بطلان ما هم عليه منَ الشِّركِ وسوءِ الفعل، وعجزوا عن مجادلتِه فيها، فقامَت عليهم الحجّة، سواء أكانت معجزةً ظاهرةً خارقةً للعادة،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/247.

كما هو الظّاهر، وإنْ لم يذكرْها القرآنُ، أو كانت بما حاججهم به منَ الكلامِ، كما يحتمل أن يكونَ المرادُ منَ البيِّنة العذابَ الّذي سيحلُّ بهم، ليفيدَ الفعلُ الماضي ﴿جَآءَتۡكُم﴾ المستقبلَ القريبَ، بمعنى: سيأتيكم قريبًا عذابٌ يحلُّ بكم، فعُبِّرَ بالماضي تنبيهًا على تحقيقِ وقوعه[1]، فذكر البيّنةَ، ولم يبيّن نوعَها؛ ليقعَ العلمُ بأنَّه كانت له حجَّةٌ وبرهانٌ على دعوتِه، وأنّها منَ الوضوح بحيث تسلمُ منَ الجدالِ، وقد أفاد التّنكيرُ تعظيمَ البيّنة وتفخيمَها؛ للإشعارِ بأنّها حجَّةٌ واضحةٌ، لامجالَ لإنكارِها، ولا الجدالِ فيها، ولمّا لم تدعُ ضرورةٌ إلى أن نعرفَها لم تذكر لنا[2].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾:

المعجزةُ قطعٌ للأعذارِ، فتوجبُ الامتثالَ لأمرِ الرَّسولِ

الفاءُ سببيّةٌ، وللتّفريعِ على مضمون معنى بَيِّنَة، ففيها إيذانٌ بأنَّ البيّنةَ معجزةٌ شاهدةٌ على صحّةِ نبوّته، أي: لمّا جاءَتكم البيّنةُ، وقامَ الدّليلُ على صدقي ووجوب طاعتي، فلم يبقَ لكم فيه عذرٌ، وجبَ عليكم الإيمانُ بي، والأخذُ بما آمركم به، والانتهاءُ عمّا أنهاكم عنه، ويحتملُ أن تكونَ الفاءُ عاطفةً على الجملتين؛ أي: قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، إذِ العبادةُ لله تعالى سببٌ للإيفاء المذكور، فقوّى السّببَ مجيءُ البيّنة؛ للتّحريضِ على الامتثالِ بهما[3].

إسنادُ الأفعالِ إلى ضمير الجمع:

التّواطؤُ على بخسِ الغريبِ معصيةٌ أخرى منهيٌّ عنه

تُشعِرُ صيغُ الجمع ﴿فَأَوۡفُواْ﴾، ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾، بأنّهم كانوا يتواطئون على هضم الغريبِ وبخسِه، ليكونَ التّواطؤُ نفسُه مَعْصيَةً أخرى، وإن كان اللّفظُ يشملُ الأمرَ والنّهيَ، للأفراد وللمجموع[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/551، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/313، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/241.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/459.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/439، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/468، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/242.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/469.

دلالةُ التّعبير بلفظ (أَوْفُوا):

العدلُ في الإيفاء يقتضي انتفاءَ النّقصِ والبخسِ

لمّا كان ﴿فَأَوۡفُواْ﴾ هنا على معنى بذلِ الكيلِ والميزانِ تامًّا كاملًا، دلَّ على أنّ المرادَ منه العدلُ في الإيفاء، الّذي يقتضي انتفاءَ النّقصِ، "وقولُه: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أمرٌ لهم بالاستقامة في الإعطاء، وهو - بالمعنى - في الأخذ والإعطاء، وكانت هذه المعصيةُ، قد فشَت فيهم في ذلك الزّمنِ، وفَحُشَت مع كفرهم الّذي نالَتهُمُ الرّجفةُ بسببِه"[1].

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾ في قوله: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾:

تمامُ المكيلِ بتمامِ الكيلِ، والتّقدير: أوفوا كيلَ المكيال

لمّا كان ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾ مصدرًا بمعنى الحدثِ، والمعنى المصدريّ لا يمكن إيفاؤه؛ لأنَّ النّقصَ والإتمامَ من خواصّ الأعيان، كان الأمرُ بإيفاء المصدر على معنى المبالغة في الإتمام والعدلِ، فإنَّ الإيفاءَ، وهو القيامُ بمقتضى الأمر، أنسبُ بالفعلِ؛ لأنَّ تمامَ المكيلِ بتمامِ الكيلِ، وتكون (أل) عوضًا عنِ المضاف إليه، والتّقدير: أوفوا كيلَ المكيال، فيكون شعيبٌ عليه السلام، قد أمرهم بإيفاء المكيلِ مرّةً، كما في سورة هود، وبإيفاء الكيلِ مرّة أخرى كما في سورة الأعراف هنا، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنّه مَن حذف المضاف للإيجازِ لوضوح المعنى، والتّقدير: وأوفوا آلةَ الكيل، أو يكون المرادُ منَ الكيل المكيال، على طريق المجاز المُرسَل، والعلاقة هي الآليّة، ويؤيّده اقترانُ ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ به، فإنَّ المتبادرَ منه الآلة، أو سمَّى ما يُكالُ به بالكيل، كما قيل: العيش، لما يُعاشُ به[2].

دلالة اختيار مادّة البخس:

البخسُ يشملُ جميعَ أنواعِ سلبِ الحقوق، وهو ظلمٌ

في قوله تعالى ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، عُبِّرَ بالبخسِ دونَ النّقصِ في النَّهي عنِ الإضرارِ بالنّاسِ في أشيائِهم؛ لأنَّ البخسَ

(1) ابن عطيّة الأندلسّي، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 2/426.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/247، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/440.

في لسانِ العَرَبِ، هو النَّقصُ بالتَّعييبِ والتَّزهيدِ، أو المُخادَعَةِ عَنِ القيمَةِ، أو الاحتِيالِ في التَّزيُّدِ في الكَيلِ أو النُّقصانِ مِنهُ، ففيه معنى الظّلم أيضًا، وشملَ جميعَ الأنواعِ سلب الحقوق[1].

معنى النّهي في جملة: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾:

النّهيُ يتعلّقُ بالأفعالِ لكفِّ ضررِها على النّاس

لمّا كانَ البخسُ حدثًا يتّصفُ به فاعلٌ، وليس صفةً للشّيء المبخوس في ذاتِه، وكان بمعنى النَّقص الّذي هو فعلُ الفاعلِ بالمفعولِ، لا النَّقصِ الّذي هو صفةُ الشَّيءِ النّاقصِ، جاء النّهيُ عن بخسِ النّاس، وليس بخسَ الأشياء، فكان النّهيُ عنِ الفعلِ الّذي يتعلَّقُ أثرُه بالنّاس، ولو كانَ البخسُ في وصفِ الأشياء في ذاتِها، فلا يصحُّ النّهي عنه.

دلالةُ التّعدِيَة بـ: ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

النّهيُ عن ظلمِ النّاسِ والتّحايلِ عليهم بطريقِ البخسِ

لم يقُل: (وَلا تَبخَسوا أشياءَ النّاس)، وعُدِلَ في تأليف الكلام إلى قوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾؛ لأنَّ المقصودَ هو النّهيُ عن ظلم النّاس، والتّحايلِ عليهم بطريقِ البخسِ، فجاء الكلامُ على معنى النّهي عن إحداثِ فعلٍ هو البخسُ في المفعولِ الّذي هو النّاس فيما هو مُتعلِّق بهم من أمورِ حياتِهم، فيكون ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ مفعولًا ثانيًا، بمعنى إحداثِ فعلٍ في المفعول ﴿ٱلنَّاسَ﴾، أو يُقال لمّا كانَ البخسُ وصفًا يتّصفُ به صاحب البخس على معنى إحداثِ وصفٍ - قولًا أو فعلًا - في المفعول، وكانَ فيه معنى الإجمالِ الّذي يقتضي الإيضاحَ، كان المنصوبُ في قوله: ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ بدلَ اشتمالٍ منَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ ليكونَ البدل، والمبدل منه في مقامِ إيضاحِ المعنى وبيانِه[2].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾:

عُبِّرَ بـ (أشياء) في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾

---

(1) أبو بكر بن العربيّ، أحكام القرآن: 2/318.

(2) أبو البقاء العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1582، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/440، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/243.

البخسُ يتناولُ الكمَّ والكيفَ في المعاملات

ليكونَ عامًّا في كُلِّ شَيءٍ لهم، تَنْبيهًا على أنَّهم كانوا يبخسونَ الجليلَ، والحقيرَ، والقليلَ، والكثيرَ في معاملاتِهم؛ للإشعارِ بعظيمِ ذنبِهم، وقبيحِ فعلِهم[1]، "لأنّ ذلك كان فاشيًا فيهم أكثر من سائر المعاصي، ومن ثمّ اهتمّ به كما اهتمّ لوطٌ بنهي قومه عنِ الفاحشة السُّوءَى الّتي كانت فاشيةً فيهم، فقد كانوا منَ المطفّفين الّذين إذا اكتالوا على النّاس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون منَ المكيلات والموزونات، يستوفون حقَّهم، أو يزيدون عليه، وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم، يُخسرون الكيلَ والميزانَ؛ أي: ينقصونه فيبخسونهم أشياءَهم وينقصونهم حقوقَهم"[2].

دلالةُ إضافة (أَشْيَاءَ) إلى الضّمير (هم):

إفـادةُ الإضافة معنى الملكِ

في إضافةِ الأشياءِ إلى النّاسِ دَليلٌ على مِلكِهِم لها[3]، فأفادتِ الإضافةُ تعدّيهم على حقوقِ النّاس وظلمِهم، "وهو يكون بالتّعييب للسّلعة أو التّزهيد فيها، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكلُّ ذلك من أكل أموالِ النّاسِ بالباطل، وظاهر قوله: ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾، أنّهم كانوا يبخسون النّاسَ في كلّ الأشياء، وقيل: كانوا مكّاسين يمكسون كلَّ ما دخل إلى أسواقهم، ومنه قول زهير:

أفي كُلِّ أسواقِ العِراقِ إتاوَةٌ *** وفي كُلِّ ما باعَ امرَؤٌ مَكسُ دِرهَمِ[4]

مناسبةُ التّرتيبِ في الأوامر والنّواهي:

البدءُ بالنّهي عنِ المفسدةِ الأكثرِ شيوعًا وانتشارًا

لمّا كانَت عادةُ الأنبياءِ عليهم السلام، إذا رأوا قومَهم مُقبلينَ على نوعٍ من أنواعِ المفاسدِ إقبالًا أكثرَ من إقبالِهم على سائرِ أنواعِ المفاسدِ، بدؤُوا بمنعِهم عن ذلك النَّوعِ، فبدأ هنا بالأخصِّ ثمَّ الأعمِّ فالأعمِّ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/209.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/105.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/255.

للتّدريجِ في الأمرِ والنّهيِ، وبيانُه: أنَّ البخسَ أعمُّ من نقصِ المكيلِ والموزونِ؛ لتعلُّقه بالأشياءِ الّتي تشملُ المكيلَ والموزونَ وغيرَهما منَ المبيعاتِ كالمواشي، والمعدوداتِ، والمساومةِ، والغشِّ، والحيلِ الّتي تنتقصُ بها الحقوقُ المادّيَّةُ، والمعنويَّةُ كالعلوم والفضائلِ، والإفسادُ أعمُّ منهما جميعًا؛ لشمولِه الأموالَ والأعراضَ والنُّفوسَ، وكلَّ ما يُوجِبُ مفسدةً دنيويَّةً أو دينيَّةً، وأيضًا لمّا كان الأمرُ بإيفاء الكيلِ والميزانِ هو الأساس؛ لأنَّ به قيامَ العدلِ بدأ به فقال: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، وفي إيفاء الكيل والميزان حفظُ حقوقِ المشترين؛ لأنَّ الكائلَ أو الوازنَ هو البائع، ولمّا كان الأمرُ بالإيفاءِ يتضمَّنُ النَّهيَ عنِ البخس، وفيه حفظ حقوقِ البائعِ، صرَّح به على وجهٍ يعمُّ غيره فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، ولمّا كان أخذُ أموال النّاس بغير رضاهم يُوجِبُ المُنازَعَةَ والخصومةَ، وهما يُوجبان الفَسادَ، لا جَرَمَ قال بعده: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾، فأفاد النّهيُ معنى غير الّذي أفاده الأمر[1].

بلاغةُ حذفِ المفعولِ في قولِه: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾:

الحذفُ لإفادة عمومِ المعنى في الآية

حُذِفَ المفعولُ لإفادةِ العمومِ، فيشملُ النّهيُ أنواعَ الفساد دقيقَه وجليلَه[2]، " ولمّا نهى عنِ الفساد بالبخس عمَّ كلَّ فسادٍ، فقال: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾؛ أي: توقِعوا الفسادَ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بوضع شيءٍ من حقّ الحقّ أو الخلق، في غير موضعه"[3].

نكتةُ التّعبير بالقيد: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾:

الحثُّ على إدامةِ الإصلاحِ والنّهي عنِ الإفسادِ بعدَ الإصلاحِ

عُبِّرَ بقوله: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾؛ للإيذانِ بالنّعمةِ الّتي صاروا إليها، والخيرِ الّذي هم فيه، ولِلتّذكيرِ بوجوبِ شكرِ هذه النّعمة؛ إذ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/313، وابن عادل، اللّباب في علومِ الكتاب: 9/211، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/285، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/460، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/469.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/426.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/460.

جاؤوا بعد إصلاحِ الأرضِ، وفي الكلامِ تأكيدٌ للنّهي بما في ذلك منَ التّخويف والحثِّ على إدامةِ الإصلاحِ[1]، وفي التّعبير بهذا القيد بعد النّهي عنِ الفساد تبشيعٌ لجرمهم، وتفظيعٌ لمقترفهم، ففرقٌ بينَ أن تقولَ: لا تفسد، وبين أن تَقولَ: لا تُفْسِدْ بعدما أصلحتَ.

بلاغةُ المجازِ في إضافةِ المصدرِ إلى الأرض:

في قوله: ﴿إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾، تحتملُ الإضافةُ أن تكونَ على معنى (في)؛ أي: بعدَ إصلاحٍ فيها، أو تحتملُ أن تكونَ على المجازِ بحذفِ المضاف، والتّقديرُ: بعدَ إصلاحِ أهلِها فيها، بمعنى: بعدَ إصلاحِ الرّسلِ، أو الصّالحينَ أَهْلِها فيها، كما يحتملُ أن لا يكونَ حذفٌ أصلًا، وتكونَ الإضافةُ على سبيلِ المجاز العقليّ، بمعنى التّجوّز في النِّسبة الإيقاعيّة؛ لأنَّ إصلاحَ مَن في الأرضِ إصلاحٌ لها؛ للإشعارِ بأنَّ إصلاحَ الأرضِ لايكون أوّلًا بتعميرِها وشقِّ طرقِها، بل بإصلاحِ أهلِها، فأفادتِ الإضافةُ الإيجازَ في اللّفظ، والتّوسُّعَ في المعنى، وإحرازَ البلاغة بالمجاز؛ تكثيرًا للمنّة وتعظيمًا لها[2].

إصلاحُ مَن في الأرضِ إصلاحٌ لها

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدر الصّريح في كلمة: ﴿إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالمصدرِ الصّريحِ دونَ المؤوّلِ، الإيذانَ بالقطعِ بحصولِ الإصلاحِ وظهورِه، كما عُبِّرَ بالمصدرِ الصّريحِ؛ لأنّه ليس المقصودُ هنا بيانَ فاعلِ الإصلاحِ بل ما وقعَ عليه الإصلاحُ؛ أي: مفعولُه، ولهذا أُضيفَ المصدرُ إلى مفعوله، وأفادَ مجيءُ المصدرِ الصّريح الإشعارَ بمطلقِ الإصلاحِ؛ ليشملَ النّاسَ وما يتعلَّقُ بحياتِهم[3].

الإصلاحُ يكونُ بإصلاحِ النّاس، وما يتعلّقُ بحياتِهم

بديعُ الطّباقِ بين: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾ و﴿إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾:

وردَ الطّباقُ في الآية في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾ ﴿إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾؛ لإفادة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/460.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127 - 128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، والآلوسي، روح المعاني: 4/414.

(3) السّامرائّي، معاني النّحو: 3/149.

المقايسةُ بين الإصلاح والإفساد، دافعٌ إلى فعلِ الأصلحِ

المقايسةِ بين الصّلاحِ والفسادِ، وفعلِ الإصلاحِ وفعلِ الإفسادِ، ليكون الطّباقُ دافعًا لهم إلى الامتثال للنّهي، وبضدّها تتميّزُ الأشياء.

نكتةُ التّعبير باسم الإشارة (ذلكم):

العملُ بالمأمورات واجتنابُ المنهيّاتِ أمرٌ عظيمٌ عالي الرّتبةِ عند الله

في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾، أفادَ التَّعبيرُ باسم الإشارةِ (ذلكم) المُخصّص في العربيّة للبعيد علوَّ مكانةِ العمل، بإيفاءِ الكَيلِ والمِيزانِ، وتَركِ البخس والإفساد، وأنَّ تحصيلَه ليس بالأمرِ اليسيرِ لبعدهِم عنه، بما وقعوا فيه منَ الكفرِ، والظّلم، والإفسادِ، والمعنى: ذلكم الأمر العظيم العالي الرّتبةِ خَيۡرٌ لَكُمۡ[1].

دلالةُ لفظ ﴿خَيۡرٌ﴾ بين الوصفِ والتّفضيلِ والتّنكير:

الاشتهارُ بالأمانة والعدل في المعاملةِ، أفضلُ طريقٍ في المتاجرة

يحتملُ لفظُ ﴿خَيۡرٌ﴾ أن يكونَ وصفًا بمعنى: العمل بما أمرتكم به ونهيتكم عنه، هو خيرٌ ونافعٌ لكم؛ لأنّه لا خيرَ في عدم إيفاءِ الكيلِ والوزنِ، وفي بخس النّاسِ، وفي الفساد في الأرض أصْلاً، فما أنتم عليه منَ الأفعال ليس بخيرٍ ولا نافعٍ، فيكون شرًّا وضرًّا، كما يُحتمَلُ أن يكونَ اسمَ تفضيل؛ أي: العملُ بما أمرتكم به، ونهيتكم عنه خيرٌ منَ التَّطفيفِ، والبَخسِ، والإفسادِ؛ لأنَّ خَيرِيَّةَ هَذِهِ لَكُم عاجِلَةٌ مُنقَضِيَةٌ، إذ يَقطَعُ النّاسُ مُعامَلَتَكم ويَحذَرُونَكم، فإذا أوفَيتُم وتَرَكتُمُ البَخسَ والإفسادَ، وعرفكم النّاسُ بالأمانة، رغِبوا في معاملتكم ووثقوا فيكم، فَيَقْصِدونَكُمْ بالتِّجاراتِ والمكاسِبِ، وتدوم التّجارةُ، والأرباحُ بالعدلِ في المعاملاتِ، والتّحلّي بالأماناتِ، فَيَكونُ ذلك أخيرَ مِمّا كُنتُم تَفعَلونَ[2]، وبالنّسبة لدلالة التّنكير في قوله: ﴿خَيۡرٌ﴾، فقد أفاد التَّنكيرُ تعظيمَ الخيرِ الّذي أمرهم به، ونهاهم عنه، وتفخيمَه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/461.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/105.

مناسبةُ حذفِ مُتعلَّق الخبر ﴿خَيۡرٌ﴾:

الحذفُ لإفادة عموم معنى الخيرِ، وانتفاعِ الفرد بالتزام المجتمع

أفاد حذفُ المتعلَّق العمومَ، ليكونَ المعنى خيرًا لكم في دينكم ودنياكم، وفي حياتكم هذه وفي آخرتكم، لأنّ فائدةَ الإنسان في عموم الخير، لا في تقييده، قال الشّعراويّ: "لا تنظرْ إلى نفسك أيّها الإنسان، وأنت بمعزلٍ عنِ المجتمع الواسعِ، فأنت لا تملكُ من مصالحك إلّا أمْرًا واحِدًا، وهذا الأمرُ الّذي تملكه أنت مِن مصالحك، يكون أقلَّ الأشياء عندك، ولكنّ الأمورَ الأخرى الّتي تحتاجُ إليها هي بيد غيرك، فإن أنت وفّيتَ الكيلَ والميزانَ فذلك خيرٌ لك؛ فالّذي يقيسُ لك القماش لا يغشّك، والّذي يزنُ لك ما ليس عندك لا يغشّك، والّذي يكيلُ لك الّذي ليس عندك لا يغشّك، إذن فأنت واحدٌ منهيٌّ عن أن تفعلَ ذلك، وجميعُ النّاس منهيّون أن يفعلوا ذلك معك، وبذلك تكون أنت الكاسب"[1].

مناسبةُ مجيءِ الجارّ والمجرور ﴿لَّكُمۡ﴾:

الإيمانُ سببٌ لاستحقاق الخيرِ بكلِّ أنواعِه

تفيدُ (اللّامُ) هنا الاستحقاقَ والاختصاصَ، وبيانُه: أنَّه لمّا كان أهلُ مدين حريصين على تحصيلِ المنافعِ، صرَّحَ باستحقاقِهم الخيرَ، واختصاصِهم به إن كانوا مؤمنين.

دلالةُ الشّرطِ في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

لا خيرَ في أيِّ عملٍ نافعٍ إنْ لم يكنِ الإيمانُ معه

لمّا كان الشّرطُ يقتضي جزاءً دلَّ على أنَّه محذوف، ويدلُّ عليه قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، فهوفي مقام تأكيدِ الخيريّة، لِما يتضمّنهُ الكلامُ من معنى التّكرير، والتّقديرُ: (إنْ كنتم مؤمنين فذلكم خيرٌ لكم)، فالمراد بالتّقييد نفي الخير الكامل عن تلك الأعمال الصّالحة إن لم يكن فاعلوها مؤمنين[2].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/1237.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/461، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

مناسبةُ التّذييل بالجملة الشّرطيّة:

لا يَـنفَـعُ عَـمَـلٌ دُونَ إيـمـانٍ، والـحـيـاةُ دونـه ضياعٌ

جاءَ الشّرطُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾آخرَ الكلام؛ لتأكيدِ اشتراطِ إيمانِهم لتحقيقِ الخيريَّةِ، فإنَّ مثلَ هذا الشَّرط، إنَّما يُجاءُ به في آخر الكلام للتَّأكيد، وهو من فنون البلاغة وبراعتها، للحثِّ على تحصيلِ الإيمانِ والخيريّةِ وللمبادرة إليهما، والمعنى: لا يَكونُ ذَلِكَ لَكُم خَيرًا ونافِعًا عِندَ اللهِ إلّا بِشَرطِ إيمانكم باللهِ، وتصديقي فيما أقول لكم، وإلّا فلا يَنفَعُ عَمَلٌ دونَ إيمانٍ(1)، ولا منافاة من إرادة معنى مؤمنين باللهِ، أو معنى مُصدِّقينَ لي في قولي؛ لتلازمِهما اعتقادًا وعملًا، وهو من قبيل توسُّع المعنى، وإن ذهب بعض المفسّرين إلى الأوّل، وبعضهم الآخر إلى الثّاني.

توجيه المتشابه بين: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ و﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ﴾:

النّهيُ عن تعمُّدِ الـتّـطـفـيـفِ، ووجـوبُ الإيفاءِ في الكيلِ والميزانِ

جاء في سورة الأعراف قوله: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، وفي سورة هود بعدَ الأمر بتوحيدِ اللهِ جاء قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ﴾ [هود: 84]، والفرقُ بين التّعبيرين أنّ الأمرَ بالإيفاء فيه ترغيبٌ إلى تحصيلِ العدلِ، وإلى الإقبال عليه، وأمّا النّهيُ عنِ النّقصِ ففيه تخويفٌ؛ للتّرهيبِ من فعلِه، فيكون شعيبٌ عليه السلام، قد دعاهم مرّةً إلى العدل، ومرّةً إلى النّهي عنِ النّقصِ، فجمع بين الأمر بالشّيء، والنّهي عن ضدّه؛ ليدلَّ هذا الجمعُ على غاية التّأكيد والمبالغة فيه، وأيضًا لمّا كان النّهيُ عن نقصِ المكيال والميزان في سورة هودٍ، قد يُتوهّمُ منه التّقريب، ذكر في سورة الأعرافِ ما يدفع هذا الوهمَ؛ للتّنبيهِ على أنَّه لا يكفي الكفُّ عن تعمُّدِ التَّطفيفِ، بل يلزمُ السَّعيُ في الإيفاءِ في الكيلِ والميزانِ(2).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/106، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/648، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/407.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/352.

﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الصّدُّ عن سبيلِ اللهِ أعظمُ أنواعِ الإفسادِ، والعاقبةُ لا تكون لأهلِ الفساد

لمّا كان للتَّعميم بعدَ التَّخصيصِ، والتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ له، موقعٌ في النُّفوس ما لا يخفى، وكان النَّهيُ عنِ الإفسادِ بالصَّدِّ عن سبيل اللّهِ هو المقصود بالذّاتِ؛ لأنَّه ينهى عن كلِّ فسادٍ، خصَّه بالذِّكر إشارةً إلى أنَّه زبدةُ المراد بعد التَّعميم، فقال: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾[1]، ووجه آخر لمّا بدأ شعيبٌ عليه السلام بدعوتهم إلى عبادةِ اللّه وتوحيدِه؛ لأنَّه ركنُ الدِّينِ الأعظمُ، وثنَّى بالأوامرِ والنَّواهي المتعلِّقةِ بحالِهم الغالبةِ عليهم، جاء الأصلُ الثّالثُ من دعوته، فذكرَ النَّهيَ عنِ التّعرُّضِ للنّاسِ بقطعِهم الطُّرقَ، وصدِّهم النّاسَ عن دخولِ المدينةِ الّتي كان بها شعيبٌ؛ لئلّا يغشَوا مجلسَه عليه السلام، ويسمعوا دعوتَه، ويؤمنوا به، فالدَّعوةُ قد وُجِّهَت أوَّلًا إلى أقربِ النّاسِ إليه في بلدِه ثمَّ إلى الأقربِ فالأقرب منهم، وممَّن يزورُ أرضَهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾: القعود يُقابِلُ القيامَ، ويُعبَّرُ بالقعود في المكانِ عن ملازمتِه، ومطاولةٍ في الوقتِ فيه، ومنه قواعدُ البيت أساسُه، كما يُعبَّرُ عنِ التّرصّد للشَّيء بالقعودِ له.

2) ﴿تُوعِدُونَ﴾: الوعدُ يكون في خيرٍ أو شرٍّ، يُقال: وَعَدتُه بنفعٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/461.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/474، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

وضرٍّ، والوَعِيدُ في الشّرّ خاصّة، تَوَعَّدتُه تَهَدَّدتُه، و﴿تُوعِدُونَ﴾ الآية منَ الإيعاد؛ بمعنى: تهدّدون وتُخوِّفونَ(1).

3) ﴿تَصُدُّونَ﴾: يدورُ معنى الصّدِّ على اعتراض بقَوِيٍّ أو كثيف، يَرُدُّ المقبل أو يمنعه كالجبل، وصَدَّه عنِ الأمر: مَنَعه وصَرَفه، وتصدَّى لفلان: تعرّض له، ففيه معنى الاعتراضِ والصَّرفِ والرَّدِّ.

4) ﴿سَبِيلِ﴾: يأتي السّبيلُ في الاستعمال بمعنى الطّريق المادّيّ، وبمعنى الطريق المجازيّ، ويُستعمَلُ في الخيرِ وفي الشّرِّ، بحسبِ ما يُضاف إليه، مثل: (سبيل اللّه)، و(سبيل الطّاغوت)، وإذا أُطلِقَ يختصُّ بما هو الحقُّ، والسّبيل تذكّر وتؤنّث، والأغلب والأفصح التّأنيث(2).

5) ﴿تَبۡغُونَهَا﴾: بَغَى الشّيءَ يبغيه: طلبه على سبيل التّزايدِ في الطّلب والمبالغة فيه، ومنه بغي المطر، وهو شدّتُه ومعظمُه. وبغى عليهم: عَدَل عنِ الحقِّ واستطال وظلمَ، ففيه معنى التّزيّد في التّعدي، وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار الّذي هو حدُّ الشّيءِ يُقال له بَغْى. والبغي هنا على معنى تجاوز الحقّ إلى الباطل(3).

6) ﴿عِوَجٗاۚ﴾: أصلُ الكلمة يدلُّ على عطفٍ عن حال الانتصاب، والعَوَجُ هو ميلٌ في شيءٍ ممتدٍّ كالميلِ في الحائِط، والعَوَجُ يُقال في المحسوساتِ، كاعوجاجِ الحائطِ والعودِ والعصا. والعِوَجُ يُقال في المعاني كاعوجاجٍ في الدّين والمعاشِ، والأعوَجُ يُكنَّى به عن سيّئَ الخلق.

وسائرُ ما جاء من تركيبِ ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ في القرآن للخطاب أو الغيبة؛ بمعنى: يطلبون لسبيل اللّه اعوجاجًا، بإيهامِ النّاس ذلك(4).

المعنى الإجماليُّ:

ولا تجلسوا بكلِّ طريق تهدّدون المؤمنين بالقتل، وتخوّفونهم، وتردُّون عن طريق

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وعد)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عوج).

اللّه، مَن صدَّق باللّهِ ووحّده، وتطلبون الزّيغَ عنِ القصدِ والحقِّ، واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم حينَ كُنتُم مُستَضعَفِينَ لِقِلّتِكُم فَصِرتُم أعِزَّةً لِكَثرَةِ عَدَدِكم، وانظروا ما نزلَ بِالأمم السّابقةِ مِنَ العَذابِ والنَّكالِ حينَ عَتَوا عن أمرِ ربِّهم، وعصَوا رسلَه، وكيف وجدوا عقبى عصيانِهم إيّاه[1].

التّحذيرُ مِنَ الصّدِّ عن سبيلِ اللّه، والعِبرةُ بعاقبة أهلِ الاعوجاجِ والفساد

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

جملة ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾ بين الكناية والاستعارة التّمثيليّة:

النّهيُ عن ملازمة الإفسادِ والمواظبةِ عليه

نهاهم عنِ الاقتداء بالشّيطانِ، بلفظ ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾؛ ليكونَ كنايةً عن ملازمتهم للإفساد، ومواظبتهم عليه مواظبةً لا يَفْتُرون عنها، ووجهُ الكنايةِ هو أنَّ الملازمَ للمكانِ يقعدُ طلبًا للرّاحةِ، كما أنَّ مَن أراد أن يبالغَ في تكميلِ أمرٍ منَ الأمورِ، قعدَ حتَّى يصيرَ فارغَ البالِ، فيمكنُه إتْمامَ المقصود، أو يكونُ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التَّمثيليَّة، إذ عُبِّر بالقعود مجازًا عن ترصّدهم لمَن آمن باللّه، ومواظبتِهم عليه، إذ مثّلَ تهديدُهم وصدُّهم عن سبيل اللّه، وطلبُهم أن تكون زائغةً، بمَن يريدُ أن يقطعَ الطَّريقَ على السّابلةِ فيكمُن لهم من حيثُ لا يدرون، ويترصّدُ بهم من حيث لا يشعرون، كما يقعُدُ القُطّاعُ للقطع على السّابلةِ في الطّريق، والمعنى: صدُّ المؤمنين عن سبيلِ اللّه، وقطعُه عليهم، بما يفعلونه منَ التّهديدِ وغيرِه، كي يسلكوا سبلًا أخرى غير سبيل الحقِّ[2].

دلالةُ الباء في شبه الجملة: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾:

تنوّعُ معنى الباء توسّعٌ في المعنى

الباءُ للإلصاقِ، والمعنى: قعودُهم ملصقٌ بكلِّ صراطٍ من مناهج الدّين، وأنَّ القاعدَ ملابسٌ المكانَ لا ينفكُّ عنه، ويُحتملُ أن تكونَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/556، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/214.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/212، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/188، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ - 246.

البـاءُ للمصاحبةِ بمعنى ملازمتِهم لكلِّ صراطٍ؛ ويحتملُ كذلك أن تكونَ ظرفيّةً بمعنى (في)؛ لأنّ القاعدَ يحلُّ بمكان قعوده، وأن تكونَ بمعنى (على)؛ لاستيلاء القاعدِ على المكان، وحروفُ الجرّ تتعاقبُ في مثل هذا الموضع؛ لتقارب معانيها، مع مناسبةِ معنى كلِّ حرفٍ لسياقِه، ففي التّعبير توسُّعٌ في المعنى(1).

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ العموم ﴿بِكُلِّ﴾:

تنوّعُ المرادِ من كلمة (صراط)، يوسّعُ المعنى ويلائمُ الواقع

في قوله تعالى ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، لمّا كان لفظُ ﴿بِكُلِّ﴾ للعموم، والسّياقُ خاصٌّ بقوم شعيبٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ العمومُ العُرفيّ؛ أي: كلِّ صِراطٍ مُبلِّغٍ إلى القريةِ، أو إلى منزلِ شُعَيبٍ عليه السلام(2)، فيكون لفظُ الصّراط على حقيقته، وقطعُ كلمة (صراط) عنِ الإضافة، يُرشِّحُ التّعبيرَ المجازيَّ، والأوّلُ مرادٌ، والثّاني أيضًا مرادٌ، وفي كلِّ معنى بلاغيٍّ لايعارض الآخر، فالصّراطُ حقيقةٌ من وجه، ومَجازٌ من وجه، وهما متعانقان لا متعارضان.

مجازُ التّعبير في لفظ ﴿صِرَٰطٍ﴾:

المرادُ مِنَ الصّراط معناه المَجازيُّ

لمّا كان القعودُ ليس على معناه الحقيقيّ، كان لفظُ ﴿صِرَٰطٍ﴾على المجاز كذلك، والمعنى: بكلِّ شريعةٍ من شرائعِ الدّين، والمعنى: "ولا تقعدوا بكلّ طريقٍ من طرق الحقّ والهداية والعمل الصّالح؛ تُهدِّدون سالكه، وبذلك تمنعون طالبي الخير مِنَ الوصول، وهم أهل الإيمان الّذين يؤمنون بالله، وتريدون أنتم الطّريق المعوجّ"(3).

نكتةُ تعليقِ القعود بالصّراطِ، وتعليقِ الصّدِّ بسبيل الله:

مناسبةُ كلِّ فعلٍ ما تقيَّدَ به

لمّا كان الصِّراطُ هو الطَّريقَ المستقيمَ الموصِلَ إلى الحقِّ، جعلَ القعودَ له؛ لِما في القعودِ من معنى الملازمةِ والتّرصُّدِ، ولِتشبيههم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/107، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/376، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

(2) ابن عاشور، التّحريروالتّنوير: 8/246.

(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 218.

بحالِ الشَّيطانِ في قعودِه الصّراطَ المستقيمَ، ولمّا كانَ سبيلُ اللّهِ هو الطَّريقَ السَّهلَ، المختصَّ بسببِ الإضافةِ الّتي أفادَت معنى التّشريفِ والتّعظيمِ كما تقدّم، جعلَ الصّدَّ له، فناسبَ كلُّ فعلٍ ما تقيّد به.

نكتةُ التّعبيرِ عن طرق الدّين المتعدّدة بالصِّراط:

الـصّـراطُ المستقيمُ واحدٌ وشـرائـعُـه متعدّدة

عُبِّرَ عن طرقِ الدِّين بالصِّراطِ المقتضي تعدّدَ الصّراطِ وتشعّبَه، مع أنَّ اللّه تعالى قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ [الأنعام: 153]؛ للإشعارِ بأنّ كلَّ نوعٍ منها داخلٌ ضمن وحدةِ الصّراط، فأنواعُ الصّراطِ الحقِّ وشرائعُه تتعدّد(1)، ولمّا كان صراطُ الحقِّ واحدًا، وطرقُ الدِّين والتَّعبُّدِ متشعِّبَةً إلى معارفَ وحدودٍ وأحكام، أتى بلفظ ﴿بِكُلِّ﴾، على معنى بكلِّ طرقِ عبادةِ اللّهِ، أو بكلِّ طرقِ الدّينِ الّتي هي شرائع في الصّراط المستقيم(2).

من دلالات إظهار الجلالة:

تـكـثـيرُ المـعـاني بمجيءِ الاسمِ الجليلِ الظّاهرِ، وتعظيمُ السّبيل

في قوله سبحانه: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاء التّصريحُ باسم الجلالة (اللّه)، ولم يقُلْ: (وتصُدُّون عنه)، فوضع الاسمَ الجليلَ ظاهرًا، موضع المضمرِ؛ بيانًا للصّراطِ، في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾، ودلالةً على عظم ما يصدُّون عنهُ، وزيادةً في تقبيحِ ما كانوا عليه، وتذكيرًا بعظم الذّنب الّذي يرتكبونه(3)، وفي الإضافة الاختصاصُ، فهم يصدُّون عن سبيلِ اللّهِ، وليس عن سبيلِ الشّيطانِ، كما أفادتِ الإضافةُ تشريفَ هذا السَّبيلِ وتعظيمَه، وفيها إشعارٌ بالتّحذير منَ الصّدّ؛ لإضافةِ السَّبيلِ إلى الاسم الجليل الّذي يتضمّنُ معنى الألوهيّة، وقد أفادَ الحرفُ معنى المجاوزة، بمعنى: تصدُّون مَن آمنَ باللّه أو بالصّراط الحقِّ؛ لكي يتجاوزَ المؤمنُ سبيلَ اللّه ويبتعدَ عنه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/441.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/247.

مناسبةُ المضارعيّة في: ﴿تُوعِدُونَ﴾ و﴿تَصُدُّونَ﴾ و﴿تَبۡغُونَهَا﴾:

ذُكرت الأفعالُ في الآية الكريمة بصيغة المضارع لتكرّرِ هذه الأحوالِ منهم، وأنَّهم مستمرّون عليها، وفيه تقبيحٌ لأفعالهم إذِ اعتادوها، وجعلوها عادةً مستمرّةً، وفيه منَ الشّناعة عليهم ما فيه.

مَن تعوّد فعلَ الضّلال ماتَ إحساسُه ببشاعة المشين منَ الأفعال

مناسبةُ تقييد النّهي بالأحوال:

أفادَ النّهيُ عنِ القعودِ بتقييدِه بالأحوالِ الّتي جاءَت بصيغةِ الجملِ الفعليَّةِ، في قوله: ﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾؛ الإشعارَ بما كانَت حالُهم عليه من ارتكابِ الأفعالِ القبيحةِ، والمعنى: (ولا تقعدوا موعدين مهدّدين وصادّين عن سبيل اللّه، ولا أنْ تبغوها عِوَجًا)، فنهاهم عنِ القعود بصراطِ اللّه، حالَ الاشتغالِ بأحدِ هذه الأفعالِ، ومن براعةِ معاني القرآن، أنَّ أحدًا لا يمكنه منعُ غيرِه من قبول مذهبٍ أو مقالةٍ، إلّا بأحد هذه الطّرق الثّلاثة[1].

الطرقُ الثّلاثةُ سبلٌ للإقناع بالمفاسد والانحراف عنِ السّبيل القويم

بلاغةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿تُوعِدُونَ﴾:

حُذِفَ الموعَدُ به؛ للإشعارِ بعموم ما كانوا يوعِدونَ به، ولتذهَبَ النَّفسُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ مِنَ الشَّرِّ الّذي كانوا يضمرونه[2].

الحذفُ لإفادةِ العمومِ، ولإيضاح المقصود منَ السّياق

بلاغةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على المفعول به:

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿مَنۡ﴾؛ لتعظيم شأنِ الصّدّ عن سبيلِ اللّه، والاهتمام به؛ للإشعارِ بعظم الذّنبِ واستحقاقِ العقوبةِ بسببِه، وكأنّ الصَّدَّ عن سبيل اللّه هو محلُّ الإثم، ومناطُ القبح، بِغَضِّ النّظرِ عنِ المصدود.

تعظيمُ ذنبِ الصَّدِّ عن سبيل اللّه، واستحقاقُ العقوبةِ بسببه

نكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

في قوله تعالى في قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، اصطفى النّظمُ الكريمُ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/285.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/105، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/376.

صدُّ الكافرين إمّا لأفرادِ المؤمنين وإمّا لجماعاتِهم

الاسمَ الموصولَ العامَّ المستخدمَ غالبًا في العقلاء، ليشملَ المفردَ والمثنى والجمعَ والمؤنّثَ والمذكّرَ منَ العقلاء، وفيه إيجازٌ بليغٌ، كما أنّ في ذكره بناءَ الخبرِ على مضمونِ الصّلة، فإيعادُ مَن كانوا يوعدونه، وصدُّهم له عن سبيل اللّه، بسبب إيمانِهم باللّه ورسوله شعيبٍ عليه السلام أو بسببِ إيمانِهم بالصّراط الّذي يوصِلُ إلى اللّه تعالى، ولمّا كانت صلةُ الموصول معلومةَ الانتساب عندَ المخاطَبين دلَّ على أنّهم كانوا على علمٍ بالإيمانِ عارفين به وبحقوقِه.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمضيّ في جملة الصّلة ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

التّعبيرُ بالماضي تبشيعٌ للصّدّ عمّنِ استقرَّ في الإيمانِ وثبتَ عليه

يحتملُ أن تكونَ الدّلالةُ الزّمنيّةُ للفعل الماضي ﴿ءَامَنَ﴾ على ظاهرِها؛ أي: مَن آمنَ فعلًا وتحقَّقَ إيمانُه، فيكون الكلامُ على مقتضى الظّاهر، والمعنى: تصدّون المؤمنين عن طاعةِ اللّه وعبادتِه، ويحتملُ أن يكونَ مُستعمَلًا على خلافِ مقتضى الظّاهر، بقصدِ المستقبلِ، فيكون المرادُ مَن قصدَ الإيمانَ؛ للإيذانِ بتَحقيقِ عَزمِ القاصِدِ على الإيمانِ، فلولا أنَّهم يَصُدّونَه لكان قد آمَنَ، والمعنى: تصدّون مَن أرادَ الإيمانَ بإغوائِه ومخادعتِه[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿وَتَبۡغُونَهَا﴾ في سياق الآية:

دلالـةُ لـفـظ (وتبغونها) على التّعدّي في الابتغاء والإفراطِ فيه

عُبِّرَ بلفظ ﴿وَتَبۡغُونَهَا﴾؛ لإفادة المبالغةِ في طلبِ زيغِ السّبيلِ، وتعدّيهم في هذا البغي، وإفراطِهم فيه، وأنّهم ظالمون فيه لحرصِهم على طلبِ تجاوز الحقِّ إلى الباطلِ.

دلالةُ العطف على المغايرة وترابط المعاني:

المغايرةُ في العطفِ تفيدُ تنوّعَ المعنى، وتعدّدَ وجوهِ الجريمةِ

جاءتِ الجملُ الفعليَّةُ المتعاطفةُ في قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾، في موقعِ الحال منَ الضّمير في ﴿تَقۡعُدُواْ﴾، ولمّا كان العطفُ على معنى المغايرةِ دلَّ على أنّهم كانوا

(1) الماتريديّ، النّكت والعيون: 2/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

يخوّفونَ المؤمنينَ، أو مَن يريدُ الإيمانَ، ويقطعونَ عليهم طريقَ الحقِّ حِسًّا أو معنىً، بأن لا يُمَكِّنوهُ منَ الذّهابِ إلى الرّسولِ ليسمَعَ كلامَهُ، ويطلبونَ الزَّيغَ والضَّلالَ لسبيلِ اللّه[1].

براعةُ التّعبيرِ بين الحقيقةِ والمجازِ، في جملة: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

طريقُ الحقِّ لا اعوجاجَ فيه؛ لأنّه طريقُ اللهِ المستقيمُ

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أن يكونَ على الظّاهرِ، بمعنى: تطلبونَ الزَّيغَ والضَّلالَ لَمَنْ يطلبُ الإيمانَ، بإلقاءِ الشُّبهِ على المؤمنين، أو وَصْفِ السَّبيلِ للنّاس بأنَّها معوَجَّةٌ، ويحتملُ أن يكونَ على سبيلِ المجاز تهكُّمًا بهم؛ أي: إنَّهم يطلبون لسبيلِ اللّه ما هو محالٌ؛ لأنّ طريقَ الحقِّ لا يَعوَجُّ[2].

مناسبةُ الحديث عن تكثير العدد:

السّعيُ إلى تقليلِ المؤمنين معصيةٌ عظيمةٌ

في قوله سبحانه ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾، ذكّر نبيُّ اللّه شعيبٌ عليه السلام قومه بتكثير اللّه تعالى لعددهم حيث صاروا عددًا كثيرًا في زمنٍ لا يُعهَدُ في مثلِه مصيرُ أمَّةٍ إلى عددِهم، فقابلوا نعمةَ تكثيرهم بكفرانِها لا بشكرِها؛ بالسّعي إلى تقليل المؤمنين، بمنعِهم أو بمنع مَن يريدُ الإيمانَ منَ الدّخول في دين اللّه، عن طريقِ تهديدهم وصدّهم عن سبيلِ اللّه كفرانًا منهم، ففيه تعجيبٌ من حالِهم، وزيادةٌ في تقبيحِ فعلِهم، وإشعارٌ بكفرانِهم لنعمةِ اللّه عليهم بأنْ كثّرهم، وليقابلوا هذه النّعمة باعتبار نقمته تعالى، مِنَ الّذين غضب عليهم، إذِ استأصلهم بعد أن كانوا كثيرًا، فذلك من تمايزِ الأشياء بأضدادها، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[3].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/443.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/248.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا﴾:

التّذكيرُ بالحال الماضي، أكبرُ مُعينٍ على الاعتبار والشّكر

يحتملُ ﴿إِذۡ﴾ أن يكونَ مفعولًا لـ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾، والتَّقدير: واذكروا على جهةِ الشُّكرِ وقتَ كونِكم قليلًا فَكَثَّرَكُم اللّه؛ ليفيدَ المبالغةَ في المعنى، للأمرِ بذكرِ وقتِ النّعمة المقتضي تعظيمَها، لأنّها حالَّةٌ فيه، ويحتملُ أن يكونَ ظرفًا، والتَّقديرُ: واذكروا النّعمةَ وقتَ كونِكم قليلًا فكثّركم اللّهُ، ولمّا كانَ الظّرفُ ﴿إِذۡ﴾ في مثل هذا السّياقِ يدلُّ على تعظيم شأنِ ما يُذكَرُ بعدَه، ويُشعِرُ بالتّعليلِ، دلَّ على الاهتمام بشأنِ هذه النّعمة العظيمة الّتي كانوا يحتاجونها، وأنَّ وجودَها سببٌ لِذكرِها ووجوبِ شكرِها، فيكون المرادُ اشكروا اللّه بالإيمان باللّه والامتثال لأمر رسولِه، بفعل الطّاعاتِ والبعد عنِ المعاصي؛ لأنّكم كنتم قليلًا فكثّركم[1].

نكتةُ التّعبير بقوله: ﴿فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾:

تـنـوّعُ معنى التّكثير في مقابل تـنـوّع معنى التّقليل

لمّا كان قولُه: ﴿قَلِيلٗا﴾ يحتملُ أن يكونَ في الكمِّ أو الكيفِ؛ أي: في العددِ أو في العدّة أو في الضّعفِ، ولا تقاطعَ بينها، دلَّ على أنَّ لفظَ ﴿فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ يفيدُ تكثيرَ عددِكم بعدَ القلَّة، وتكثيرَكم بالغنى بعدَ الفقر، وتكثيرَكم بالقوّة بعدَ الضَّعف، ووجه ذلك أنّهم إذا كانوا فقراءَ أو ضعفاءَ، فهم بمنزلةِ القليلِ، في أنَّه لا يحصلُ من وجودِهم قوَّةٌ وشوكةٌ، فأمّا تكثيرُ عددِهم بعد القلَّةِ فهو بما وُلِدَ لهم حتَّى كثُرَ عددُهم، ويفيدُ طولَ أعمارِهم، تكثيرًا للنِّعَم وتأكيدًا لها[2].

مجازُ التّعبيرِ في قوله: ﴿وَٱنظُرُواْ﴾:

الأمرُ على معنى التّهديد والتَّخويف، ففيه تهديدٌ لهم، وتذكيرٌ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/108، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/387، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/476.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/355، والماتريديّ، النّكت والعيون: 2/239، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109.

بعاقِبَةِ مَن أفسدَ قَبلَهم، وتمثيلٌ لهم بمَن حلَّ به العذابُ، مِن قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، وكانوا قَريبي عهدٍ بما أصاب المُؤتَفِكةَ، والمعنى: فاعتبروا بهم؛ أي: لما يفيدُه الأمرُ بالنّظر[1].

النّظرُ يحقّقُ الاعتبارَ، ويفضي إلى الإيمانِ والادّكار

بلاغةُ التّعبير في قوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

الأمرُ بالاعتبار للكافرين وللمؤمنين

الأمرُ بالنّظر والاعتبارِ، وإن كانَ المقصودُ منه الكافرون من قوم شعيبٍ ابتداءً، ولكن فيه تذكيرٌ للمؤمنين منهم بنعمة الله، فإنَّها تشملُهم وبالاعتبار بمَن مضوا فإنَّه ينفعُهم[2].

التّعبيرُ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ لانتظام عمومِ الأحوالِ فيه:

التّعبيرُ بلفظٍ يعمُّ جميعَ الأحوالِ أوفقُ بالمقامِ

عبّرَ بـ ﴿كَيۡفَ﴾؛ لتركِ التَّفصيلِ دلالةً على المعنى بلفظٍ واحدٍ على سبيلِ العمومِ، احترازًا عنِ التّطويل، لأنَّه يورِثُ المللَ، ولأنَّه غيرُ وافٍ بالحصرِ ولاختلافِ الأحوالِ باختلافِ المقامِ، فكان التّعبيرُ بلفظٍ يعمُّ جميعَ الأحوالِ أوفقَ بالمقامِ، فجاءَ الاستفهامُ المجازيُّ على سبيلِ التّهويلِ، والتّخويفِ، والتّعجيبِ ممّا أصابهم.

سِرُّ الدّعوة إلى النّظر في عاقبة المفسدين:

تعميمُ خطابِ اللهِ تعالى للنّاسِ جميعًا

في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، تعريضٌ بالوعيدِ للمشركين وقتَ نزولِ القرآن، ومَن يأتي بعدَهم بسوءِ العاقبة، إنِ استمرّوا على شركِهم وإفسادِهم؛ ليحذروا من أن يصيبَهم مثلُ ما أصابَ الكافرين قبلَهم، وفيه تعريضٌ بالوعد للمسلمين كذلك، وبالتَّسلية لهم على ما يلاقونه من مفسدي أهلِ الشِّركِ؛ لانطباق حالِ الفريقين على حال الفريقين من قوم شعيبٍ عليه السلام[3].

دلالةُ التّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

لمّا كان الفسادُ منَ المعاني العامّةِ المذمومةِ، ولم يُؤْتَ لـِ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/443.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.

الإفسادُ يكون في النّفوسِ، والمجتمعِ، والصّدِّ عن دينِ الله

بمتعلَّقٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عمومُ الإفسادِ، فيشمل الّذين أفسدوا أنفسَهم بعقيدة الشّرك، وبأعمال الضّلال، وأفسدوا المجتمعَ ببخسِ النّاس أشياءهم ومخالفةِ الشّرائع، وأفسدوا النّاسَ بإمدادهم بالضّلال، وصدّهم عنِ الهدى، ولمّا قطعَ لفظَ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عنِ المتعلَّق اعتُبِرَ صفةً مشبّهةً، وقُطِعَ عن مشابهةِ الفعلِ؛ ليفيدَ معنى ثباتِ وصفِ الفسادِ والإفسادِ لهم؛ أي: عرفوا بفسادِهم في أنفسِهم، وإفسادِهم غيرَهم[1]، وفي التّعبير باسم الفاعلِ إشعارٌ بارتكابِ المنهيّ، في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾، كما أنّ في التّعبير به إلاحةٌ إلى سوء العاقبة، وسببها.

بلاغةُ عطف الفعل (انظُرُوا) على (اذكُرُوا):

الحملُ على الطّاعة بطريق التّرغيب أوّلًا ثمّ التّرهيب ثانيًا

بدأ بالتّرغيب في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾، ثمّ عطفَ عليه التّرهيب بقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، فقُصِدَ بالأمرِ بـ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾: أنّهم إذا تذكَّروا نعمَ اللّهِ عليهم انقادوا وأطاعوا، وبقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ﴾: أنَّهم إذا عرفوا أنَّ عاقبة المفسدينَ المتمرِّدينَ ليست إلّا الخزيَ والنَّكالَ، احترزوا عنِ الفسادِ والعصيانِ، وأطاعوا فكانَ المقصودُ من هذين الكلامين حملَهم على الطّاعةِ بطريقِ التّرغيبِ أوَّلًا، والتَّرهيبِ ثانيًا[2].

المتشابهُ اللّفظيُّ:

التّفريقُ بين قعودِ الشّيطانِ على الصّراطِ، وقعودِ الكافرين

جاء في سورةِ الأعرافِ حكايةً عنِ الشّيطانِ قولُه تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]، وقال هنا في دعوة شعيب لقومه: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾، وبيانه: أنّه لمّا كان الشّيطانُ هو الشّرَّ، ويريدُ إغواءَ بني آدم كلّهم بأنواعِ الإغواء كلِّها، تعدّى الفعلُ (قعدَ) إلى الصِّراط؛ ليفيدَ عمومَ الإغواءِ، ولمّا كان شعيبٌ عليه السلام، يريدُ نهيَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

قومِه عن مخالفاتٍ معيّنةٍ اعتادوا عليها، تعدّى الفعلُ بالباء الّتي تفيدُ الملاصقةَ والظّرفيّةَ؛ لتدلَّ الباءُ على بعضِ المخالفات.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(سبيل) و(طريق):

السَّبيلُ فيه معنى القصد مع الرَّغبة، والطَّريقُ هو المسلكُ المطروقُ عادةً

المعنى المحوريّ للسّبيل امتدادٌ إلى أسفل مع اتّصال، كالثّياب الممتدّة إلى الأرض، والمطرُ يبدو خيوطًا ممتدّةً منَ السّحاب إلى الأرض"[1]، "والطّريق: ما بين السِّكّتَين منَ النّخل، ومنَ الطّريق أُخِذتِ الطّريقةُ: السّيرةُ والمَذهبُ"[2]، ولم يقلْ هنا طريقَ اللّهِ، ولا صراطَ اللّهِ، لِما في لفظِ السَّبيلِ من معنى القصدِ لمَن يسلكُه، والشّروعِ فيه معَ الرَّغبة[3]، ولمّا كان السَّبيلُ بمعنى: الطّريق الّذي فيه سهولة[4]، دلَّ النّهيُ على قبحِ ما يفعلونه، مِن صدِّ مَن آمنَ حينَ يقصِدُ سلوكَ سبيلِ اللّهِ، ويشرعُ فيه على سبيلِ المحبَّة، وفي التّعبير توبيخٌ لهم إذ لم يسلكوا سبيلَ اللّهِ السّهلَ بل صدّوا عنه.

(تبغونها) و(تريدونها):

البغيُ ظلمٌ وعدولٌ عنِ الحقّ، والإرادةُ عزمٌ وقصدٌ ورجاءٌ

"المعنى المحوريّ للبغي: تزايدُ الشّيءِ نموًّا وقوّةً، أو توصّلًا لاكتمال حاله، وبغى عليهم عدل عنِ الحقّ واستطال"[5]، فالبغيُ طلبٌ على وجه الظّلم والتّجاوز، والعدولُ عنِ الحقّ، لذا هو المناسبُ لهذا السّياق بقرينة ما قبل الفعل وما بعده من قوله: ﴿عِوَجًاۚ﴾، والإرادةُ عزمٌ وقصدٌ وتمنٍّ.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طرق).
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 298.
(4) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو، بغى).

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾

[الأعراف: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إفسادُ الكافرينَ لا يستمرُّ، والله يَجْري حكمُه في مآل البشر

لمّا حذّرَ الكافرين وخامةَ الفسادِ الّذي نهاهم عنه، رجعَ إلى خطابِ جميعِ القوم؛ لتثبيتِ المؤمنين، وليكونَ تسليةً لهم، وليبيِّنَ أنَّ إفسادَ الكافرين لا يستمرُّ، فيكون زجرًا لهم[1]، وأيضًا لمّا رغّبَهم ورهّبهم في الآية السّابقة، أكّد هذا التّرغيبَ والتّرهيبَ بالأمر بالصَّبر، حتّى يحكمَ اللّهُ قريبًا بين الجميع؛ ليكونَ وعدًا للمؤمنين ووعيدًا للكافرين[2].

المعنى الإجماليُّ:

حُكْمُ اللهِ هو الفاصلُ بينَ الحقِّ والباطلِ

مفادُ الآية، أنّ اللّه يقول: وإن كان جماعةٌ منكم صدّقوا بالّذي أرسلني اللّهُ به من إفرادِه بالعبادة، وتركِ الفسادِ في الأرض، وجماعةٌ أخرى لم يصدِّقوا بذلك فانتَظِروا حُكمَ اللّهِ وقَضاءَه الفاصِلَ بيننا في هذه الدّنيا أو في الآخرة، واللّهُ خيرُ الحاكمين، فلا معقِّبَ لحكمِه ولا حيفَ فيه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ مجيءِ أداة الشّرط ﴿وَإِن﴾ على خلافِ مقتضى الظّاهر:

أمرُ الإيمانِ وانتفاؤه راجعٌ إلى اللهِ تعالى

أورد الكلامَ على سبيل الفرض والاحتمال، وهو أسلوبٌ حجاجيٌّ بيّنٌ في الغلبة، وردِّ النّفوس إلى التّعقّلِ، وقد جاءَ على خلاف الظّاهرِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/286.
(3) ابن جرير، جامع البيان، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

لأنّ حقيقةَ الأمرِ أنّ طائفةً آمنَت وأخرى كفرَت، والأولى تنتظرُ الوعدَ، والأخرى تنتظرُ الوعيدَ، والنّكتةُ فيه اقتضاءُ المقامِ التّجاهل لتعليق الأمرِ على حكم اللّه تعالى، والمعنى: إشعارُ المخاطبينَ أنَّ أمرَ الإيمان وانتفاءَه راجعٌ إلى اللّه تعالى، وأنّه هو الّذي يحكم بيننا، ويؤيّده مجيءُ ﴿حَتَّىٰ﴾ الدّالّة على حصولِ حكم اللّه بينهم في المستقبلِ القريب. وقد جاء كذلك أيضًا؛ للإيذانِ بأنّه ﷺ قد تحقّقَ من إيمانِ مَن آمنَ من قومِه، وكفرِ مَن كفرَ، وللإشعارِ بأنَّ المعنى: تبيَّن أنَّ طائفةً منكم آمنوا، وطائفةً لم يؤمنوا، فاصبروا، ويؤوّلُ المعنى: إنْ اختلفتم في تصديقي، فسيَظهرُ الحكمُ بأنّي صادقٌ، فكأنَّه أرجعَ كلَّ طائفةٍ إلى حكم اللّه؛ ليستبينَ صدقه ﷺ فيما أُرسلَ به[1]، ولمّا كانَ الإيمانُ مُقدَّمًا على الكفرِ، قُدِّمَ ذكرُ طائفةِ المؤمنين على طائفة مَنْ لم يؤمن؛ للإيذانِ بفضلِهم، وللحثِّ على إيمانِ مَنْ لم يؤمن.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ دون ما يُقاربُها منَ الألفاظ:

الدّلالةُ على كثرة الطّائفتين، مع تنوّع المقاصد

لمّا كان لفظُ طائفةٍ يُطلَقُ على جماعةِ الخيرِ وجماعةِ الشَّرِّ، وكان اللَّفظُ يُطلَقُ على جماعةٍ فيهم كثرةٌ، بحيث يتحلّقون بمَن يريدون أفاد أنَّ مَن آمن معه كان فيهم كثرة، كما أنَّ طائفةَ مَن لم يؤمن كانت كثيرةً بالنّسبة إلى الأولى[2].

مناسبةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

تأكيدُ المعنى بطريقِ تقويةِ الإسنادِ

جاء الخبرُ جملة فعليّة في قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ﴾، لَمۡ يقُل: (وإنْ آمنتْ طائفةٌ منكُم ولم تُؤمنْ طائفةٌ)؛ لأنَّ في مجيءِ الإسنادِ بطريق المبتدأ، وخبرُه جملةٌ فعليّةٌ، تأكيدًا للمعنى وتقريرًا له؛ لمناسبةِ تقويةِ الحكم وتربيةِ الفائدة، بمجيءِ المسندِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/250.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.

فعلًا، فالإسنادُ على نيَّةِ التّكريرِ لاستدعاء اسم كانَ (المبتدأ في الأصلِ)، أن يُسنَدَ إليه شيءٌ، فاكتسى الحكمُ على كلِّ طائفةٍ بما أُسنِدَ إليها، منَ الإيمانِ أو عدمِه قوَّةً وثباتًا في المعنى(1).

نكتةُ ذِكْرِ القيد (مِنكُم):

إيمانُ طائفةٍ منَ القومِ حجَّةٌ على البقيّة

في قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ﴾، جاء الجار والمجرور ﴿مِّنكُمۡ﴾ صفةً لـ ﴿طَآئِفَةٞ﴾، ولمّا كانت صفةُ النَّكرةِ على معنى التّخصيص، دلَّ على أنَّ المرادَ طائفةٌ منكم يعيشون معكم، وهم من نسبِكم، وليس من غيرِكم، قد آمنوا بالّذي أُرۡسِلۡتُ به؛ ليفيدَ التّعجيبَ من كفرِهم، والمقصودُ ليس العيبَ فيما أُرۡسِلۡتُ به؛ لإيمانِ طائفةٍ منكم به، بلِ العيبُ فيكم.

نكتةُ التّعبيرِ بالموصول وصلته:

شريعةُ الأنبياء واضحةٌ معلومةٌ لجميعِ النّاس

عُبِّرَ بالاسم الموصول وصلتِه في قوله: ﴿بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾؛ لبيان أنّهم اتّصفوا بالإيمانِ لإيمانهم بالّذي أُرسِلَ به، ولمّا كانت صلةُ الموصول معلومةَ الانتساب عند المتخاطبين، دلَّ على أنَّ الطّائفتينِ كانوا عالمينَ بما أُرسِلَ به شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، من أمور التّوحيد، وما دعا إليه من شرائع الدّين، ففي التّعبير بالاسم الموصول إيجازٌ، ودلالةٌ على تمام البلاغ لمعرفة المبلّغين به، فالتّعبيرُ بالاسم الموصول أعمُّ وأبلغُ من أن يقولَ: (وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بي)(2)، لما يتضمّنه الكلامُ منَ الإيمان بالمرسِل والرّسالة المُرْسَلِ بها، ولما يفيده الاسمُ الموصولُ وجملةُ الصّلةِ منَ المبالغةِ؛ لإحضارِه في ذهنِ السّامعِ، بوساطة جملة الصّلة المعلومة الانتساب إلى مشارٍ إليه معيّنٍ، لزيادة تقريرِ أمرِ الرّسالة وشرائعِها(3).

(1) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 217 - 221.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل المبنيّ للمفعول ﴿أُرۡسِلۡتُ﴾:

التّعبيرُ بصيغة المبنيّ للمفعول؛ لظهورِ الفاعل ومعرفتِه

عُبِّرَ بصيغة المبنيّ للمفعول، في قوله تعالى: ﴿أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ الفاعلَ معروفٌ بما تقدَّم منَ السِّياقِ، وأنَّه صار بحيث لا يتطرَّقُ إليه شكٌّ، لِما نصبَ منَ الدّلالاتِ[1].

سرُّ التّعبير بطباق السّلب:

تمايزُ كلّ طائفة، يغري باستنطاق الحقّ وبيانه

ورد طباقُ السّلب في ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾؛ لتنبيه المخاطَبين إلى أنَّ افتراقَ الطّائفتين، إنّما كان في الإيمانِ بالّذي أُرسِلَ به شعيبٌ عليه السلام، وليس في أمرٍ آخرَ، والطّباقُ أسلوبٌ بديعٌ في التّفريق بين المختلفات، وتمييز الأشياء بعضها عن بعض، فهما نوعان متمايزان.

بلاغةُ الإيجاز بحذف المتعلّق:

مَن لم يؤمنْ بجزءٍ من أصول الإيمان كان كَمَن انتُفِي عنه الإيمانُ

لمّا ذكرَ في القسم الأوّل قوله: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ دلَّ على أنَّه عينُ المحذوف في مقابله، والتّقدير: ﴿وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ بما أُرسِلت به، فحذَفَ المتعلّق للإيجاز، وللإشعارِ بأنَّ مَن لم يؤمن بما أُرسِلَ به حقيقٌ أن ينتفيَ عنه الإيمانُ مُطلَقًا، وكأنّه شاكل بين انتفاء إيمانهم بالرّسالة في الواقع، فبني النّظمُ على عدم وجوده أيضًا.

فِعلُ ﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

السّياقُ يؤثّرُ في الدّلالة ويعزّزُ المعنى

لمّا كان الأمرُ بالصّبرِ هنا لمَن آمن، ومَن لم يؤمن، دلَّ على تضمّنِ الفعلِ الحقيقةَ والمجازَ بلفظٍ واحدٍ، فأمّا الحقيقةُ فهي الأمرُ بالصّبر على الإيمان والثّبات عليه، للطّائفة المؤمنة حتّى يحكمَ اللهُ، فيكون في الأمر معنى الوعدِ للمؤمنين، وأمّا المجازُ فهو في دلالة الأمر على قوّة الوعيدِ والتّهديدِ، للطّائفة الّتي لم تؤمن، بانتقام الله منهم، فليس هذا أمرًا بالمقام على الكفر للطّائفة الّتي لم تؤمنْ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463.

بالّذي أُرسِلَ به شعيبٌ[1]، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ المعنى: ليصبرِ المؤمنون على أذى الكفّار، وليصبرِ الكفّارُ على ما يسوؤهم من إيمانِ مَن آمن منهم، وذهب آخرون إلى أنَّ الخطابَ مختصٌّ بالكافرين؛ أي: فاصبروا أيّها الكافرون، وتربّصوا، فيكون وعيدًا بانتقام اللّه منهم[2].

بلاغةُ التّعريض:

التّعريضُ بالوعيدِ للكافرين، وبالوعدِ للمؤمنين

في قوله: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ تعريضٌ بالكافرين وقت نزول القرآن، وفي كلِّ زمانٍ ووعيدٌ لهم، وفيها وعدٌ للطّائفة المؤمنة الّتي مع سيّدنا محمّد ﷺ، وحثٌّ لهم على الصّبر على ما يلحقُهم من أذى الكافرين إلى أن يحكمَ اللّهُ قريبًا بمقتضى العدل والحكمة، وهو خيرُ الحاكمين.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾:

تحديدُ الغاية تحقيقٌ للوعيد والتّهديد

تفيدُ (حتَّى) انقضاءَ الوقتِ شيئًا فشيئًا، إلى حدِّ انتهاء الغاية، والمعنى على الانتظارِ، والإمهالِ في الزّمن القريب، وتحديدُ الغاية يكشفُ عن تمكّنِ المُهدِّد الموعد ممّا هدّدَ به وتَوعّدَ.

بلاغةُ التّغليب في قولِه: ﴿بَيۡنَنَا﴾:

المرادُ من لفظ ﴿بَيۡنَنَا﴾ جميعُ المخاطبين، من مؤمنٍ وكافرٍ

عُبِّرَ بالضّمير (نا) على وجه تغليب ضمير المتكلّمين على المخاطبين، في قوله: ﴿بَيۡنَنَا﴾، من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَا﴾، إذِ المرادُ بيننا جميعًا من مؤمنٍ وكافرٍ[3]، ولولا التّغليبُ لاحتاج النّظمُ لزيادة (بينكم)، لكنّ التّغليبَ جاء على الإنصاف لاشتراك النّوعين في الانتظار، هذا ينتظرُ تحقيقَ الوَعد، والآخر ينتظرُ تحقيقَ الوَعيد.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/214، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/248.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/427، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/214.

سرُّ عدمِ ذكرِ توقيتِ وقوعِ حكم الله:

ذكرَ المُنتَظَرَ، ولم يذكر زمنَ وقوعِه ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾، مع أنَّ الخطابَ على معنى الوعدِ للمؤمنين، والوعيدِ للكافرين، ليبقى المؤمنون متشوّفين لإظهارِ أمرِ الإيمان، ويبقى الكافرون خائفين مرهوبين من نزولِ العذابِ بهم؛ لعلمِهم بصدقِ الرّسول، والمعنى: حتّى يحكُمَ اللّهُ بيننا بنصرِ المحقّين على المبطلين، والمرادُ من وقوعِ حكمِ اللّه إعلاءُ درجاتِ المؤمنين وإظهارُ هوانِ الكافرين، وهذه الحالة قد تظهر في الدّنيا، فإنْ لم تظهرْ في الدّنيا، فلا بدَّ من ظهورها في الآخرة[1].

في إخفاء زمن الموعود والمهدّد بـه، زيادةُ تشويق، وزيادةُ تخويف

دلالةُ لفظ ﴿خَيۡرُ﴾ بين الوصف والتّفضيل:

يحتمل لفظُ ﴿خَيۡرُ﴾ في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أن يكونَ وصفًا، وهو الظّاهر، بمعنى: الخيرُ في حكم اللّهِ، ولا خيرَ في حكم غيرِه، فمَن وافقَ حكمُه حكمَ اللّهِ دخلَ في الخيريّة، ويحتملُ أن يكونَ اسمَ تفضيلٍ، على معنى: حكم اللّه تعالى أفضلُ ممّا يقعُ في الظّاهر من خيرٍ في حكم غير اللّه، وهو في الحقيقةِ راجعٌ إلى الأوّل.

الخيرُ في حكمِ اللهِ، ولا خيرَ في حكمِ غيرِه

سرُّ وقوعِ الضّميرِ العائدِ على الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

ذكرَ المسندَ إليه بالضّمير العائد على الاسم الجليل؛ تأكيدًا أنّه لا يفصلُ في الحكم في الآخرة سواه، ولتفرّده سبحانه بهذا الوصف، ذكر بالضّمير؛ لبيان أنّه واحدٌ في هذه الصّفة، وأنَّ الاسمَ الجليلَ الجامعَ لصفاتِ الجلالِ والكمالِ، هو الّذي اقتضى أن يكونَ ﷻ خيرَ الحاكمين؛ لأنَّه يفصلُ النِّزاعَ على أتمِّ وجهٍ وأحكمِه[2].

خيرُ الحاكمين واحدٌ لا ثانيَ له، وهو الله سبحانه

دلالة الاسميّة، في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

لم يقُل: (حتّى يحكم اللّه خيرُ الحاكمين)، فيُتوهّم أنَّ الكلامَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463.

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسـميَّـةِ هنا أوفـى في تـأديـةِ المعنى وإصابةِ محزِّ البلاغة

يكونُ أخصرَ وأوجزَ بالوصفِ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ هنا أوفى في تأديةِ المعنى وإصابةِ محزِّ البلاغة، لِما يقتضيه المقامُ، وبيانُه في مسألتين:

أوّلًا: أنّه لمّا عُبِّرَ بصيغة المضارع ﴿يَحۡكُمَ﴾ المفيد تجدّدَ ظهورِ حكمِه في كلِّ حادثةٍ متجدّدةٍ، دلَّ مجيءُ الجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على ثبوتِ مضمونِها، أنّه تعالى خيرُ الحاكمين في كلِّ حادثةٍ يحكمُ بها.

ثانيًا: إذا حُمِلتِ الواو على الاستئناف تكون الجملةُ المستأنفةُ على معنى تأكيدِ ما قبلها، لصحّة مجيء المستأنفة على معنى التّأكيد.

بلاغةُ التّذييل بقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

تقريرُ المعاني وتأكيدُها كاشفٌ عن أهمّيّتها

من فوائد بلاغةِ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة الحاليّة كذلك، استقلالُها بفائدةٍ جديدةٍ غير منقطعةٍ في المعنى عنِ الّتي قبلها، وجاءتِ الجملةُ بطريقِ التّذييل لفوائدَ لغويّةٍ، منها: أوّلًا: أنّها تفيدُ معنى عامًّا كلّيًّا؛ أي: في كونِه تعالى خيرَ الحاكمين في كلِّ واقعةٍ يظهرُ حكمُه فيها، إذ لا مُعقِّبَ لحكمه، ولا حَيفَ فيه[1]. ثانيًا: أنّها تفيدُ تقريرَ ما تقدّمها منَ المعاني في الآية[2]. ثالثًا: أنّها تفيدُ الثّناءَ على اللّهِ تعالى، بأنَّ حُكمَه عَدلٌ محضٌ، لا يَحتمِلُ الظُّلمَ عمدًا ولا خَطأً[3]. رابعًا: أنّه لمّا كان اللّهُ تعالى خيرَ الحاكمين، دلَّ على أنَّه يخصُّ المؤمنَ التّقيَّ بالدّرجات العالية، والكافرَ الشّقيَّ بأنواع العقوبات[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 274، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/251.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

المحتويات
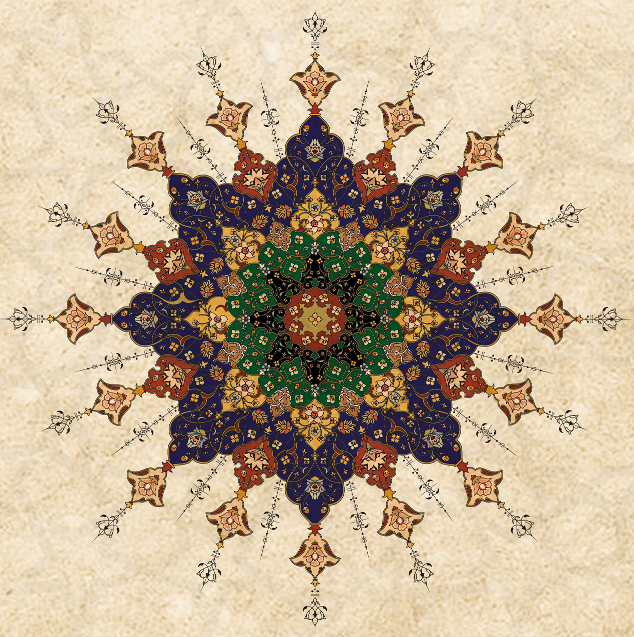
الجزء الثامن	7
سورة الأعراف	9
- [الأعراف: 14 - 15]	10
- [الأعراف: 16 - 17]	18
- [الأعراف: 18]	31
- [الأعراف: 19]	37
- [الأعراف: 20]	48
- [الأعراف: 21]	57
- [الأعراف: 22]	61
- [الأعراف: 23]	74
- [الأعراف: 24]	84
- [الأعراف: 25]	95
- [الأعراف: 26]	102
- [الأعراف: 27]	119
- [الأعراف: 28]	135
- [الأعراف: 29]	147
- [الأعراف: 30]	160
- [الأعراف: 31]	169
- [الأعراف: 32]	181
- [الأعراف: 33]	198
- [الأعراف: 34]	211
- [الأعراف: 35 - 36]	222
- [الأعراف: 37]	238
- [الأعراف: 38]	254
- [الأعراف: 39]	270
- [الأعراف: 40]	278
- [الأعراف: 41]	290
- [الأعراف: 42]	297
- [الأعراف: 43]	306
- [الأعراف: 44]	321
- [الأعراف: 45]	341
- [الأعراف: 46]	353
- [الأعراف: 47]	365
- [الأعراف: 48]	374
- [الأعراف: 49]	385
- [الأعراف: 50]	396
- [الأعراف: 51]	407
- [الأعراف: 52]	422
- [الأعراف: 53]	432
- [الأعراف: 54]	452
- [الأعراف: 55]	468
- [الأعراف: 56]	478
- [الأعراف: 57]	487
- [الأعراف: 58]	508
- [الأعراف: 59]	528
- [الأعراف: 60]	539
- [الأعراف: 61]	547
- [الأعراف: 62]	554
- [الأعراف: 63]	565
- [الأعراف: 64]	577
- [الأعراف: 65]	590
- [الأعراف: 66]	595
- [الأعراف: 67]	601
- [الأعراف: 68]	605
- [الأعراف: 69]	612
- [الأعراف: 70]	627
- [الأعراف: 71]	638
- [الأعراف: 72]	650
- [الأعراف: 73]	657
- [الأعراف: 74]	671
- [الأعراف: 75 - 76]	690
- [الأعراف: 77]	705
- [الأعراف: 78 - 79]	716
- [الأعراف: 80]	731
- [الأعراف: 81]	741
- [الأعراف: 82]	749
- [الأعراف: 83]	758
- [الأعراف: 84]	764
- [الأعراف: 85]	769
- [الأعراف: 86]	784
- [الأعراف: 87]	796